PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 013405681

2273
.879
.2
1889
v.7

2273.879.2.1889 v.7
al-Rāzī
Mafātīh al-ghayb

DATE	ISSUED TO
OCT 6 - 1973	R MACH P
08 15 5	R P MOTTAHEDEH P

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
OCT 6	JUN 18 '74		DUE JUN 15 1998
	DUE MAY 16 1995		
	DUE JUN 15 1989		

فهرست الجزء السابع من تفسير الفخر الرازى

صحيفه

٠٠٢ *(سورة سبأ وفيها المسائل الآتية)*

٠٠٣ المسئلة الثالثة فى بيان معنى الحكمة

٠٠٩ المسئلة الرابعة فى بيان كيفية تسخير الجبال وتسبيحها مع داود

٠١١ المسئلة الخامسة فى بيان المراد من قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور

٠١٥ الكلام فى بيان المذاهب المفضية الى الشرك

٠٢٩ *(سورة فاطر)*

٠٥٧ *(سورة يس وفيها المسائل الآتية)*

٠٥٧ الكلام على حكمة افتتاح بعض السور ببعض حروف التهجى

٠٧٢ الكلام فى بيان لطائف قوله تعالى ومالى لاعبد الذى فطرنى الآية

٠٨٦ الكلام على نبذة من علم الهيئة

٠٨٨ المسئلة الثالثة فى بيان الخلاف فى ان السماء هل هى مبسوطة او مستديرة

٠٩٠ المسئلة الرابعة فى بيان نبذة من علم الهيئة

٠٩٧ المسئلة الثالثة فى بيان مباحث لغوية ومعنوية فى لفظة ماوان

١٠٧ المسئلة الرابعة فى بيان المراد من مخالفة الشيطان وعدمها

١٠٩ المسئلة الاولى فى بيان سبب حصول العداوة بين الشيطان والانسان

١١٢ الكلام فى بيان لطائف لفظية ومعنوية فى قوله تعالى اليوم نختم على افواههم

١١٧ الكلام فى بيان لطيفة غريبة فى قوله تعالى فاذا هو خصيم مبين

١١٩ الكلام فى بيان استدلال المعتزلة على ان المعدوم شئ والجواب عنه

١٢٢ *(سورة الصافات وفيها المسائل الآتية)*

١٢٢ المسئلة الثانية فى بيان المراد من الاشياء الثلاثة المقسم بها فى هذه السورة

١٢٧ المسئلة الثانية فى بيان نبذة من علم الهيئة

١٤٤ المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج اهل السنة على ان الهدى والضلال من الله تعالى

١٥٥ المسئلة الثانية فى بيان حكاية اقوال الناس فى الذبيح

١٥٨ المسئلة السابعة فى بيان حكمة مشاورة ابراهيم مع ولده فى الذبح وفى كيفية الذبح

١٦٤ المسئلة الثالثة فى بيان قصة يونس عليه السلام

١٦٩ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج اهل السنة على انه لاتأثير لاغواء الشيطان

١٧٢ *(سورة ص وفيها المسائل الآتية)*

١٩٦ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على صحة الحشر والنشر

٢٠١ الكلام فى بيان المراد من فتنة سليمان عليه السلام

صحيفه

٢١٩ المسئله الرابعة فى بيان الرد على من يثبت لله تعالى الجوارح
٢٢٢ الكلام فى بيان ان النار اشرف ام الطين
٢٢٦ *(سورة الزمر وفيها المسائل الآتية)*
٢٥٢ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج القائلين بحدوث القرآن والجواب عنه
٢٨٩ *(سورة المؤمن وفيها المسائل الآتية)*
٣٠١ المسئلة الاولى فى بيان استدلال اكثر العلماء على اثبات عذاب القبر
٣٠٩ المسئلة الثانية فى بيان اصل عظيم من اصول الفقه
٣٢٤ المسئلة الرابعة فى بيان حكاية تاريخية
٣٢٦ الكلام فى بيان حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة
٣٢٩ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج اهل السنة على اثبات عذاب القبر
٣٣٧ الكلام فى بيان دلائل وجود الله تعالى وقدرته
٣٤٥ *(سورة حم السجدة وفيها المسائل الآتية)*
٣٤٦ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج القائلين بخلق القرآن والجواب عنه
٣٤٧ المسئلة الخامسة فى بيان اقسام فضائل اللغات
٣٦٢ المسئلة الثانية فى استدلال المنجمين على ان بعض الايام يكون نحسا وبعضها سعدا
٣٦٧ المسئلة الثانية فى بيان استدلال اهل السنة على انه تعالى يريد الكفر من الكافر
٣٧ المسئلة الثانية فى بيان مراتب الدعوة الى الله تعالى
٣ *(سورة شورى وفيها المسائل الاتية)*
٨٨ الكلام فى بيان اقسام الموجودات
٣٩١ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج نفاة القياس على قولهم والجواب عنه
٣٩٢ ـئلة الاولى فى بيان احتجاج علماء التوحيد على ان الله ليس جسما مركبا ملاعضاء
٤١٦ المسـ الثانية فى بيان اصل كبير من اصول الفقه
٤٢٣ المسـ رابعة فى بيان اختلافهم فى حقيقة كلام الله تعالى
٤٢٧ *(سورة الزخرف)*
٤٣٩ المسئلة ـة فى بيان الاستدلال على ابطال القول بالتقليد
٤٦٢ *(سورة الدخان)*
٤٦٣ المسئلة الخا ـة فى بيان اختلافهم فى الليلة المباركة
٤٧٨ *(سورة الجاثية)*
٤٩٣ *(سورة الاحقاف)

2273
.879
.2
.1889 v.6

صحيفه

٥٢١ *(سورة القتال)*
٥٥٤ *(سورة الفتح)*
٥٨١ *(سورة الحجرات)*
٦١١ *(سو رة ق)*
٦٥٢ *(سورة الذاريات)*
٦٥٢ المسئلة الاولى فى بيان حكمة القسم بالاشياء المقسم بها فى أوائل السور
٦٨٥ الكلام فى بيان فوائد قوله تعالى وماخلقت الجن والانس الاليعبدون
٦٩١ *(سوة الطور)*
٦٩٥ المسئلة الرابعة فى بيان بحث عظيم فى معنى الزمان والمكان
٧٢٤ *(سورة النجم)*
٧٦١ المسئلة الرابعة فى بيان الفرق بين الفواحش والكبائر
٧٧٩ *(سورة القمر)*
٧٩٣ المسئلة الثانية فى بيان الفرق بين الاسماء المشتقة وبين اسماء الاجناس
٨٠١ الكلام فى بيان لطيفة نحوية تتعلق باسم الفاعل
٨١٥ المسئلة الاولى فى بيان ان القدرية منهم

(تمت)

الجزء السابع من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد فخر الدين الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلين
آمين

م

(وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود)

دار الطباعة العامرة

الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة سبأ مكية وقيل فيها آية مدنية وهى ويرى الذين اوتوا العلم الذى أنزل اليك
الآية وهى أربع وقيل خمس وخمسون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير) السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها فى النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان فى الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الاخير والحكمة فيها ان نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا اولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة اخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة اخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الاول الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه هو الذى خلقكم من طين اشارة الى الايجاد الاول وقال فى السورة الثانية وهى الكهف الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما اشارة الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولو لا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولوقعت المنازعات فى المشتهيات وادى الى التقاتل والتفانى ثم قال فى هذه السورة الحمد لله اشارة الى نعمة الايجاد الثانى ويدل عليه قوله تعالى وله الحمد فى الآخرة وقال فى الملائكة الحمد لله اشارة

(سورة سبأ)

مكية وقيل الا ويرى الذين اوتوا العلم الآية وهى اربع وخمسون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض) اى له تعالى خلقا وملكا وتصرفا بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة جميع ما وجد فيهما داخلا فى حقيقتهما او خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر فى آية الكرسى ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما افاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع افراده به تعالى على ما بين فى فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ما سواه من الموجودات التى من جملتها الانسان تحت ملكوته تعالى ليس لها فى حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شانه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع افراده به تعالى وقوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) بيان لاختصاص الحمد الاخروى به تعالى اثر بيان اختصاص الدنيوى به على ان الجار متعلق اما بنفس الحمد او بما تعلق به الخبر من الاستقرار واطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما كفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه فى الدنيا عن ذكر كون الحمد ايضا فيها بل ليعم النعم الاخروية كما فى قوله تعالى الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة وقوله تعالى الذى احلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة الى نيلها من النعم الدنيوية كما فى (الى)
قوله تعالى الحمد لله الذى هدانا لهذا اى لما جزاؤه هذا من الايمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتى الدنيا والآخرة بطريق

التفصيل ان الاول على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذى احكم امور الدين (٣) والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة (الخبير) ببواطن الاشياء ومكوناتها

الى نعمة الابقاء و يدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لايكونون رسلا الا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين على المسلمين كما قال تعالى و تتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين اشارة الى النعمة العاجلة و قوله مالك يوم الدين اشارة الى النعمة الآجلة قرئت فى الافتتاح وفى الاختتام ثم فى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) الحمد شكر و الشكر على النعمة والله تعالى جعل مافى السموات ومافى الارض لنفسه بقوله له مافى السموات وما فى الارض ولم يبين أنه انا حتى يجب الشكر نقول جوابا عنه الحمد يفارق الشكر فى معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وان لم ينعم على الحامد أصلا فان الاحسان يحسن منه أن يقول فى حق عالم لم يجتمع به اصلا انه عالم عامل بارع كامل فيقال له انه يحمد فلانا و لا يقال انه يشكره الا اذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود فى الازل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور لايزال على ما أبدى من الكرم واسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفى ذكر العظمة وفى كونه مالك مافى السموات ومافى الارض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله له مافى السموات ومافى الارض يوجب شكرا أتم مما يوجبه قوله تعالى خلق لكم مافى الارض وذلك لان مافى السموات والارض اذا كان لله ونحن المنتفعون به لاهو يوجب ذلك شكرا لايوجبه كون ذلك لنا (المسئلة الثانية) قد ذكرتم ان الحمد ههنا اشارة الى النعمة التى فى الآخرة فلم ذكر الله السموات والارض فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهى مافى السموات ومافى الارض ثم قال وله الحمد فى الآخرة ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال وهو الحكيم الخبير اشارة الى ان خلق هذه الاشياء بالحكمة والخبر والحكمة صفة ثابتة لله لايمكن زوالها فيمكن منه ايجاد أمثال هذه مرة اخرى فى الآخرة (المسئلة الثالثة) الحكمة هى العلم الذى يتصل به الفعل فان من يعلم امرا ولم يأت بما يناسب علمه لايقال له حكيم ومن يأتى بأمر عجيب على سبيل الاتفاق من غير علم لايقال له حكيم فالفاعل الذى فعله على وفق العلم هو الحكيم والخبير هو الذى يعلم عواقب الامور وبواطنها فقوله حكيم اى فى الابتداء يخلق كما ينبغى وخبير اى بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق ومالا يصدر الى ماذا يكون مصير كل احد فهو حكيم فى الابتداء خبير فى الانتهاء ❁ ثم بين الله تعالى كما اخبره بقوله (يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها ومايـنزل من السماء ومايعرج فيها وهو الرحيم الغفور) مايلج فى الارض من الحبة والاموات ويخرج منها من السنابل والاحياء ومايـنزل من السماء من انواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ومايعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب ومنها الارواح ومنها الاعمال الصالحة لقوله والعمل الصالح يرفعه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم مايلج فى الارض على ماينزل من السماء لان الحبة تبذر اولا ثم تسقى ثانيا (المسئلة الثانية)

وقوله تعالى (يعلم مايلج فى الارض) الخ تفصيل لبعض مايحيط به علمه من الامور التى نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية اى يعلم مايدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن والاموات ونحوها (ومايخرج منها) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها (ومايـنزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرئ وما ننزل بالتشديد ونون العظمة (ومايعرج فيها) كالملائكة واعمال العباد والابخرة والادخنة (وهو الرحيم) للحامدين على ماذكر من نعمه (الغفور) للمفرطين فى ذلك بلطفه وكرمه (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) ارادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لاانفسهم اومعاصريهم فقط كما ارادوا بنفى اتيانها نفى وجودها بالكلية لاعدم حضورها مع تحققها فى نفس الامر وانما عبروا عنه بذلك لانهم كانوا يوعدون باتيانها ولان وجود الامور الزمانية المستقبلة لاسيما اجزاء الزمان لايكون الا بالاتيان والحضور وقيل هو استبطاء لاتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد (قل بلى) رد لكلامهم واثبات لما نفوه على معنى ليس الامر الا تيانها وقوله تعالى (وربى لتأتينكم) تأكيد له على اتم الوجوه وانكها وقرئ ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم اوالوقت وقوله تعالى (عالم الغيب) الخ امداد للتأكيد وتسديد له اثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فان تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الاطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما ان ذلك فى حكم الاستشهاد على الامر ولاريب فى ان المستشهد به كلما كان اجل واعلى كانت الشهادة آكد واقوى والمستشهد عليه احق بالثبوت واولى لاسيما اذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلق بخاص

قال ومايعرج فيهاولم يقل يعرج اليها اشارة الى قبول الاعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لان كلمة الى للغاية فلوقال ومايعرج اليها لفهم الوقوف عندالسموات فقال ومايعرج فيها ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال فى الكلم الطيب اليه يصعد الكلم الطيب لان الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول اليه واما السماء فهى دنيا وفوقها المنتهى (المسئلة الثالثة) قال وهو الرحيم الغفور رحيم بالانزال حيث ينزل الرزق من السماء غفور عندماتعرج اليه الارواح والاعمال فرحم أولا بالانزال وغفر ثانيا عند العروج ثم بين ان هذه النعمة التى يستحق الله بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ❁ (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) ثم رد عليهم وقال (قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم) اخبر باتيانها واكده باليمين قال الزمخشرى رحمه الله لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع انهم يقولون لارب وان كانوا يقولون به لكن المسئلة الاصولية لاتثبت باليمين واجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبيان كونه دليلا هو ان المسىء قد يبقى فى الدنيا مدة مديدة فى اللذات العاجلة و يموت عليها والمحسن قد يدوم فى دار الدنيا فى الآلام الشديدة مدة و يموت فيها فلولا دار تكون الاجزية فيها لكان الامر على خلاف الحكمة والذى اقوله اناهو ان الدليل المذكور فى قوله عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة اظهر وذلك لانه اذا كان عالما بجميع الاشياء يعلم اجزاء الاحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد اخبرعنها الصادق فتكون واقعة وعلى هذا فقوله تعالى فى السموات ولا فى الارض فيه لطيفة وهى ان الانسان له جسم وروح والاجسام اجزاؤها فى الارض والارواح فى السماء فقوله لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات اشارة الى علمه بالارواح وقوله ولا فى الارض اشارة الى علمه بالاجسام واذا علم الارواح والاشباح وقدر على جمعها لايبقى استبعاد فى المعاد وقوله ولا اصغر من ذلك اشارة الى ان ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لايعزب وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة الى ذكر الاكبر فان من علم الاصغر من الذرة لابد من ان يعلم الاكبر فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان اثبات الامور فى الكتاب فلو اقتصر على الاصغر لتوهم متوهم انه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان اما الاكبر فلا ينسى فلاحاجة الى اثباته فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فان الاكبر ايضا فيه مكتوب ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر ان جمع ذلك واثباته للجزاء فقال ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم ذكر فيهم امرين الايمان والعمل الصالح وذكر لهم امرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقوله عليه السلام فيما أخبرنا تاج الدين عيسى بن احمد بن الحاكم البندهى قال

(اخبرنى)

بالمقسم عليه كما نحن فيه فان وصفه بعلم الغيب الذى اشهر افراده وادخلها فى الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لايحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الامر بهذه المرتبة من اليمين ان لايبقى للمعاندين عذر ما (٤) اصلا فانهم كانوا يعرفون امانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وانما لم يصدقوه مكابرة وقرئ علام الغيب وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح (لايعزب عنه) اى لايبعد وقرئ بكسر الزاى (مثقال ذرة) مقدار اصغر نملة (فى السموات ولا فى (الارض) اى كائنة فيهما (ولا اصغر من ذلك) اى من مثقال ذرة (ولا اكبر) اى منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (الا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب وقرئ ولا اصغر ولا اكبر بفتح الراء على نفى الجنس ولا يجوز ان يعطف المرفوع على مثقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح فى حيز الجر لامتناع الصرف لان الاستثناء يمنعه الا ان يجعل الضمير فى عنه للغيب أو يجعل المثبت فى اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لاينفصل عن الغيب الا مسطورا فى اللوح (ليجزى الذين امنوا وعملوا الصالحات) علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما يقتضى اتيانها (اولئك) اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف اى اولئك الموصوفون بالصفات الجليلة (لهم) بسبب ذلك (مغفرة) لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر (ورزق كريم) لاتعب فيه ولامن عليه (والذين سعوا فى آياتنا) بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها (معاجزين) اى مسابقين كى يفوتونا وقرئ معجزين اى مثبطين عن الايمان من اراده (اولئك لهم عذاب) الكلام فيه كالذى مر آنفا ومن فى قوله تعالى (من رجز) للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى (اليم) بالرفع صفة عذاب اى اولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد

اخبرني والدي عن جدي عن محيي السنة عن عبد الواحد المليجي عن احمد بن عبدالله النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن اسمعيل البخاري يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من ايمان والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لابد من ان ينعم عليه انعاما ويطعمه طعاما ووصف الرزق بالكريم فقد ذكرنا انه بمعنى ذي كرم او مكرم او لانه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فانه مالم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله اولئك لهم مغفرة ورزق كريم يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون لهم ذلك جزاء فيوصله اليهم لقوله ليجزي الذين آمنوا (وثانيهما) ان يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لان قوله اولئك لهم جملة تامة اسمية وقوله تعالى ليجزي الذين آمنوا جملة فعلية مستقلة وهذا ابلغ في البشارة من قول القائل ليجزي الذين آمنوا رزقا (المسئلة الثانية) اللام في ليجزي للتعليل معناه الآخرة للجزاء فان قال قائل فما وجه المناسبة فنقول الله تعالى أراد ان لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف دارا باقية ليكون ثوابه واصلا اليه دائما ابدا وجعل قبلها دارا فيها الآلام والاسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون فيه في الآخرة اذا نسبه الى ماقبلها واذا نظر اليه في نفسه (المسئلة الثالثة) ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة لان المغفرة واحدة هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها * ثم قال تعالى (والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم) لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين وقوله والذين سعوا في آياتنا اي بالابطال ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا في مقابلة ماتقدم لان قوله تعالى آمنوا معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من اين علم كون سعيهم في الابطال مع ان المذكور مطلق السعي فنقول فهم من قوله تعالى معاجزين وذلك لانه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعي في التقرير والتبليغ لا يكون الساعي معجزا لان القرآن وآيات الله معجزة في نفسها لا حاجة الى احد واما المكذب فهو آت باخفاء آيات بينات فيحتاج الى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به وقيل بان المراد من قوله معاجزين اي ظانين انهم يفوتون الله وعلى هذا يكون كون الساعي ساعيا بالباطل في غاية الظهور لهم عذاب في مقابلة لهم رزق وفي الآية لطائف (الاولى) قال ههنا لهم عذاب ولم يقل يجزيهم الله وقد تقدم القول منا ان قوله تعالى ليجزي الذين آمنوا يحتمل ان يكون الله يجزيهم بشيء آخر وقوله اولئك لهم مغفرة اخبار عن مستحقهم المعد لهم وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظرا الى قوله ليجزي وههنا لم يقل ليجازيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال ورزق كريم وههنا لم يقل الا لهم عذاب من رجز أليم والجواب تقدم في مثله (الثالثة) قال هناك لهم مغفرة ورزق كريم ولم يقله بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق

الايلام وقرئ اليم بالجر صفة لرجز (ويرى الذين اوتوا العلم) اي يعلم اولوا العلم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم من علماء الامة او من آمن من علماء اهل الكتاب كعبدالله بن سلام (ه) وكعب واضرابهما رضي الله عنهم (الذي انزل اليك من ربك) اي القرآن (هو الحق) بالنصب على انه مفعول ثان ليرى والمفعول الاول هو الموصول الثاني وهو ضمير الفصل وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثاني ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد باولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات وقيل منصوب عطفا على يجزي اي وليعلم اولو العلم عند مجيء الساعة معاينة انه الحق حسبما علموه الآن برهانا ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز ان يراد باولي العلم من لم يؤمن من الاحبار اي ليعلموا يومئذ انه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما (ويهدي) عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لانه في تأويله كما في قوله تعالى صافات ويقبضن اي وقابضات كأنه قيل ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك الحق وهاديا (الى صراط العزيز الحميد) الذي هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذي انزل على اضمار مبتدأ اي وهو يهدي كما في قول من قال * نجوت وارهنهم مالكا (وقال الذين كفروا) هم كفار قريش قالوا مخاطبا بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون به النبي عليه الصلاة والسلام وانما قصدوا بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى (ينبئكم) اي يحدثكم بعجب عجاب وقرئ ينبئكم من الانباء (اذا مزقتم كل ممزق) اي اذا متم ومزقت اجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم ترابا ورفاتا (انكم لفي خلق جديد) اي مستقرون فيه عدل اليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون او تخلقون خلقا جديدا الاشباع في الاستبعاد والتعجيب وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه مادل عليه المذكور لا نفسه لما ان ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها وجديد فعيل بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو قليل

من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة اليها والرجز قيل اسوأ العذاب وعلى هذا من لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة وفى الاليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على ان الاليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على انه وصف للرجز والرفع اقرب نظرا الى المعنى والجر نظرا الى اللفظ فان قيل فلم تنحصر الاقسام فى المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعى المعجز لجواز ان يكون احد مؤمنا ليس له عمل صالح اوكافر متوقف فنقول اذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم ان المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم وان لم يكن فى الكرامة مثل رزق الذى عمل صالحا وللكافر الغير المعاند عذاب وان لم يكن من أسوأ الانواع التى للمكذبين المعاندين ❊ ثم قال تعالى (ويرى الذين اوتوا العلم الذى انزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد) لما بين حال من يسعى فى التكذيب فى الآخرة بين حاله فى الدنيا وهو ان سعيه باطل فان من اوتى علما لايغتر بتكذيبه ويعلم ان ما انزل الى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وقوله هو الحق يفيد الحصر اى ليس الحق الا ذلك واما قول المكذب فباطل بخلاف ما اذا تنازع خصمان والنزاع لفظى فيكون قول كل واحد حقا فى المعنى وقوله تعالى ويهدى الى صراط العزيز الحميد يحتمل ان يكون بيانا لكونه هو الحق فانه هاد الى هذا الصراط ويحتمل ان يكون بيانا لفائدة اخرى وهى انه مع كونه حقا هاديا والحق واجب القبول فكيف اذا كان فيه فائدة فى الاستقبال وهى الوصول الى الله وقوله العزيز الحميد يفيد رغبة ورهبة فانه اذا كان عزيزا يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى فى التكذيب واذا كان حميدا يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحا فان قيل كيف قدم الصفة التى للهيبة على الصفة التى للرحمة مع انك أبدا تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة نقول كونه عزيزا تام الهيبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لان رضا الجبار العزيز اعز واكرم من رضا من لايكون كذلك فالعزة كما تخوف ترجى ايضا وكما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز ❊ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) وجه الترتيب هو ان الله تعالى لما بين انهم انكروا الساعة ورد عليهم بقوله قل بلى وربى لتأتينكم وبين مايكون بعد اتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيآت بين حال المؤمن والكافر بعد قوله قل بلى وربى لتأتينكم فقال المؤمن هو الذى يقول الذى انزل اليك الحق وهو يهدى وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى ابطال ذلك قالوا على سبيل التعجب هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد وهذا كقول القائل فى الاستبعاد جاء رجل يقول ان الشمس تطلع من المغرب الى غير ذلك

وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب اذاقطعه ثم شاع (افترى على الله كذبا) فيما قاله (ام به جنة) اى يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على ان بين الصدق (٦) والكذب واسطة هو مالايكون من الاخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء اخص من الكذب (بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالاضراب عن شقيه وابطالهما واثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلائهم بما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل ليس الامر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والادراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى اليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة الى بيان مايسوءهم ويفت فى اعضادهم والاشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضال للمبالغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على ان علة ما ارتكبوه واجترؤا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة ومافيها من فنون العقاب ولولاه لما فعلوا ذلك خوفا من غائلته وقوله تعالى (افلم يروا الى مابين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض) استئناف مسوق لتهويل ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ماقالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام وانه من العظائم الموجبة لنزول اشد العقاب وحلول افظع العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (ان نشأ) الخ بيان لما ينبئ عنه ذكر احاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على انه لم يبق من اسباب وقوعه الا تعلق المشيئة به اى افعلوا (من) مافعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا الى ما احاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لامفر لهم عنه ولامحيص ان نشأ جريا

من المحالات * ثم قال تعالى (أفترى على الله كذبا ام به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) هذا يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعني هو من كلام من قال هل ندلكم ويحتمل ان يكون من كلام السامع المجيب لمن قال هل ندلكم كأن السامع لما سمع قول القائل هل ندلكم على رجل قال له اهو يفترى على الله كذبا ان كان يعتقد خلافه ام به جنة جنون ان كان لا يعتقد خلافه (وفي هذه لطيفة) وهي ان الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر بل قال مفتر او مجنون احترازا من ان يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر مع انه جاز ان يظن ان الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريا وكاذبا في بعض المواضع الا ترى ان من يقول جاء زيد فاذا تبين انه لم يجئ وقيل له كذبت يقول ما كذبت وانما سمعت من فلان انه جاء فظننت انه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن فهم احترزوا عن تبين كذبهم فكل عاقل ينبغي ان يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ولا يكون العاقل ادنى درجة من الكافر ثم انه تعالى اجابهم مرة اخرى وقال بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في مقابلة قولهم افترى على الله كذبا وقوله والضلال البعيد في مقابلة قولهم به جنة وكلاهما مناسب اما العذاب فلان نسبة الكذب الى صادق مؤذية لانه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه الى الكذب واما الجنون فلان نسبة الجنون الى العاقل دونه في الايذاء لانه لا يشهد عليه بانه يعذب ولكن ينسبه الى عدم الهداية فبين انهم هم الضالون ثم وصف ضلالهم بالبعد لان من يسمى المهتدى ضالا يكون هو الضال فمن يسمى الهادى ضالا يكون اضل والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد * ثم قال تعالى (افلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء) لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيا على السيآت والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديدا اما الدليل فقوله السماء والارض فانهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارا وكما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويدلان على الحشر لانهما يدلان على كمال قدرته ومنها الاعادة وقد ذكرناه مرارا وقال تعالى اوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم واما التهديد فبقوله ان نشأ نخسف بهم الارض يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف * ثم قال تعالى (ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) اى لكل من يرجع الى الله ويترك التعصب * ثم ان الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ذكر منهم من اناب واصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب وبين ما آتاه الله على انابته فقال * (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال اوبي معه والطير والنا له الحديد) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى منا اشارة الى بيان فضيلة داود عليه السلام وتقريره هو ان قوله ولقد آتينا داود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام

على موجب جناياتهم (نخسف بهم الارض) كما خسفناها بقارون (او نسقط عليهم كسفا) اى قطعا (من السماء) كما اسقطناها على اصحاب الأيكة لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل (٧) هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه ازاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزؤا وتهديد عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا الى ما احاط بجوانبهم من السماء والارض ولم يتفكروا أهم اشد خلقا أم هي وان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرئ يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفا بسكون السين (ان في ذلك) اى فيما ذكر من السماء والارض من حيث احاطتهما بالناظر من جميع الجوانب او فيما تلي من الوحي الناطق بما ذكر (لآية) واضحة (لكل عبد منيب) شأنه الانابة الى ربه فانه اذا تأمل فيهما او في الوحي المذكور ينزجر عن تعاطي القبائح وينيب اليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والانابة وقد اكد ذلك بقوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) اى آتيناه لحسن انابته وصحة توبته فضلا على سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام اى نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فانه معجزة خاصة به عليه الصلاة والسلام او على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية كما في قوله تعالى وآتيناه من لدنا علما وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فاذا ورد لها تمكن عندها فضل تمكن (يا جبال أوبي معه) من التأويب اى رجعي معه التسبيح او النوحة على الذنب وذلك اما بأن يخلق الله تعالى فيها صوتا مثل صوته كما خلق الكلام في الشجرة او بان يتمثل له ذلك وقرئ اوبي من الاوب اى ارجعي معه في التسبيح كما رجع فيه وكان كلما سبح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال ما يسمع من المسبح معجزة له عليه الصلاة

كما يقول القائل آتى الملك زيدا خلعة فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد انه كان من خاص ما يكون له فكذلك ايتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ومثل هذا قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فان رحمة الله واسعة تصل الى كل احد فى الدنيا لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال يبشرهم ربهم برحمة منه (المسئلة الثانية) فى قوله ياجبال اوبى معه قال الزمخشرى ياجبال بدل من قوله فضلا معناه آتيناه فضلا قولنا ياجبال او من آتينا ومعناه قلنا ياجبال (المسئلة الثالثة) قرئ أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من الاوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع وقيل بأن معناه سيرى معه وفى قوله يسبحن قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة (المسئلة الرابعة) قرئ والطير بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه (المسئلة الخامسة) لم يكن الموافق له فى التأويب منحصرا فى الجبال والطير ولكن ذكر الجبال لان الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة فاذا وافقه هذه الاشياء فغيرها اولى ثم ان من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى اشد قسوة من الحجارة (المسئلة السادسة) قوله وألنا له الحديد عطف والمعطوف عليه يحتمل ان يكون قلنا المقدر فى قوله ياجبال تقديره قلنا ياجبال أوبى وألنا ويحتمل ان يكون عطفا على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له (المسئلة السابعة) ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به فاى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله قيل انه طلب من الله ان يغنيه عن اكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهى الدروع وانما اختار الله له ذلك لانه وقاية للروح التى هى من امره وسعى فى حفظ الآدمى المكرم عند الله من القتل فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما ❁ ثم قال تعالى (ان اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير) قيل ان ان ههنا للتفسير فهى مفسرة بمعنى اى اعمل سابغات وهو تفسير ألنا وتحقيقه لان يعمل يعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن ان يقال الهمناه ان اعمل وان مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه ألنا له الحديد والهمناه عمل سابغات وهى الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر فى السرد قال المفسرون اى لاتغلظ المسامير فتسع الثقب ولا توسع الثقب فتتقلقل المسامير فيها ويحتمل ان يقال السرد هو عمل الزرد وقوله وقدر فى السرد اى الزرد اشارة الى انه غير مأمور به امر ايجاب انما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الايام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشغل جميع اوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ويدل عليه قوله تعالى واعملوا صالحا اى لستم مخلوقين الا للعمل الصالح فاعملوا ذلك واكثروا منه والكسب قدروا فيه ثم اكد طلب الفعل الصالح بقوله انى بما تعملون بصير وقد ذكرنا مرارا ان من يعمل لملك شغلا ويعلم انه

والسلام وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه باصدائها والطير باصواتها وهو بدل من آتينا باضمار قلنا او من فضلا باضمار قولنا (والطير) بالنصب عطفا على فضلا بمعنى (٨) وسخرنا له الطير لان ايتاءها اياه عليه الصلاة والسلام تسخيرها له فلا حاجة الى اضماره كما نقل عن الكسائى ولا الى تقدير مضاف اى تسبيح الطير كما نقل عنه فى رواية وقيل عطفا على محل الجبال وفيه من التكلف لفظا ومعنى مالا يخفى وقرئ بالرفع عطفا على لفظها تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الاعرابية وقد جوز انتصابه على انه مفعول معه والاول هو الوجه وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لامره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بانه مامن حيوان وجماد وصامت وناطق الا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على ارادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شانه تعالى وكمال كبرياء سلطانه مالا يخفى على اولى الالباب (وألنا له الحديد) اى جعلناه لينا فى نفسه كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير احماء بنار ولا ضرب بمطرقة او جعلناه بالنسبة الى قوته التى آتيناها اياه لينا كالشمع بالنسبة الى سائر القوى البشرية (ان اعمل) امرناه ان اعمل على أن أن مصدرية حذف عنها الباء وفى حملها على المفسرة تكلف لايخفى (سابغات) واسعات وقرئ صابغات وهى الدروع الواسعة الضافية وهو عليه الصلاة والسلام اول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة والسلام حين ملك على بنى اسرائيل يخرج متنكرا فيسأل الناس ماتقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود فسأله عنها فقال لولا انه يطعم عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه ان يكسب له مايستغنى به عن بيت المال فعلمه تعالى صنعة الدروع وقيل كان يبيع الدرع باربعة آلاف (بمرأى) فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء (وقدر فى السرد) السرد نسج الدروع اى اقتصد فى نسجها بحيث تتناسب حلقها

بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان كما قال تعالى والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب وذكر ما استفاده هو بالانابة * فقال

(ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ ولسليمان الريح بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة او سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر وهو ان يقال معناه ولسليمان الريح كما يقال لزيد الدار وذلك لان الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد (المسئلة الثانية) الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا للجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز او لا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ماذكرنا لداود ولسليمان الريح واما على النصب فعلى قولنا وألنا له الحديد كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح (المسئلة الثالثة) المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح فانها المنافع عامة فى اوقات الحاجات ويدل عليه انه لم يقرأ الا على التوحيد فما قرأ احد الرياح (المسئلة الرابعة) قال بعض الناس المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود انها كانت تسبح كما يسبح كل شئ وان من شئ الا يسبح بحمده وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ومن تسخير الريح انه راض الخيل وهى كالريح وقوله غدوها شهر ثلاثون فرسخا لان من يخرج للتفرج فى أكثر الامر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك وقوله فى حق داود وألنا له الحديد وقوله فى حق سليمان وأسلنا له عين القطر انهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين اى اناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة (المسئلة الخامسة) اقول قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال وقوله ولسليمان الريح عاصفة لو قال قائل ما الحكمة فى ان الله تعالى قال فى الانبياء وسخرنا مع داود الجبال وفى هذه السورة قال يا جبال أوبى معه وقال فى الريح هناك وههنا ولسليمان نقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها الى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب والريح فيما انها سخرت فجعلها كالمملوك له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لى وهو ان على قولنا أوبى معه سيرى فالجبل فى السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعا والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها فلم يقل الريح مع سليمان بل سليمان كان مع الريح وأسلنا له عين القطر اى النحاس ومن الجن اى سخرنا له من الجن وهذا ينبئ عن ان جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر * واعلم ان الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء فى حق داود وثلاثة فى حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان وذلك لان الثقيل مع ما هو أخف منه اذا تحرك كما يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه لكن الجبال كانت اثقل من الآدمى والآدمى اثقل

وقيل قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا وردبان دروعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما ينبئ عنه الالانة الحديد وقيل معنى قدر فى السرد لا تصرف جميع اوقاتك (٩) اليه بل مقدار ما يحصل به القوت واما الباقى فاصرفه الى العبادة وهو الانسب بقوله تعالى (واعملوا صالحا) عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ولاهله (انى بما تعملون بصير) تعليل للامر اولوجوب الامتثال به (ولسليمان الريح) اى وسخرنا الريح وقرئ برفع الريح اى ولسليمان الريح مسخرة وقرئ الرياح (غدوها شهر ورواحها شهر) اى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة اما مستأنفة او حال من الريح وقرئ غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو اى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل وقيل كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى ان بعضهم رأى مكتوبا فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض اصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام ان شاء الله تعالى (واسلنا له عين القطر) اى النحاس المذاب اساله من معدنه كما ألان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل فى الشهر ثلاثة ايام وقوله (ومن الجن من يعمل بين يديه) اما جملة من مبتدأ وخبر اومن يعمل عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة (باذن ربه) بأمره تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى (ومن يزغ منهم عن امرنا) اى ومن يعدل منهم عما امرناه به من طاعة سليمان وقرئ يزغ على البناء للمفعول من ازاغه (نذقه من عذاب السعير) اى عذاب النار فى الآخرة روى عن السدى رحمه الله كان معه ملك (٢) (را) (سا) بيده سوط من نار كل من استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى (يعملون له ما يشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء أى من قصور حصينة

من الريح فقدر الله ان سار الثقيل مع الخفيف اى الجبال مع داود على ماقلنا اوبى اى سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف ايضا والطير من جنس تسخير الجن لانهما لايجتمعان مع الانسان الطير لنفوره من الانس والانس لنفوره من الجن فان الانسان يتق مواضع الجن والجن يطلب ابدا اصطياد الانسان والانسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله ان صار الطير لاينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه وسليمان لاينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه واما القطر والحديد فتجانسهما غير خفى (وههنا لطيفة) وهى ان الآدمى ينبغى ان يتق الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضى الى المفسدة ولهذا قال تعالى أعوذبك من همزات الشياطين وأعوذبك رب ان يحضرون فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى من يعمل بين يديه باذن ربه اشارة الى ان ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة اخرى) وهى ان الله تعالى قال ههنا باذن ربه بلفظ الرب وقال ومن يزغ منهم عن امرنا ولم يقل عن امر ربه وذلك لان الرب لفظ ينبئ عن الرحمة فعندما كانت الاشارة الى حفظ سليمان عليه السلام قال ربه وعند ما كانت الاشارة الى تعذيبهم قال عن امرنا بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى نذقه من عذاب السعير فيه وجهان (احدهما) ان الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالاشارة اليه (وثانيهما) ان السعير هى مايكون فى الآخرة فأوعدهم بما فى الآخرة من العذاب ۞ ثم قال تعالى (يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) المحاريب اشارة الى الابنية الرفيعة ولهذا قال تعالى اذ تسوروا المحراب والتماثيل مايكون فيها من النقوش ثم لما ذكر البناء الذى هو المسكن بين مايكون فى المسكن من ماعون الاكل فقال وجفان كالجواب جمع جابية وهى الحوض الكبير الذى يجبى الماء اى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس وقدور راسيات ثابتات لاتنقل لكبرها وانما يغرف منها فى تلك الجفان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم المحاريب على التماثيل لان النقوش تكون فى الابنية وقدم الجفان فى الذكر على القدور مع ان القدور آلة الطبخ والجفان آلة الاكل والطبخ قبل الاكل فنقول لما بين الابنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور واشار الى الجفان لانها تكون فيه وأما القدور فلا تكون فيه ولا تحضر هناك ولهذا قال راسيات أى غير منقولات ثم لما بين حال الجفان العظيمة كان يقع فى النفس ان الطعام الذى يكون فيها فى اى شئ يطبخ فأشار الى القدور المناسبة للجفان (المسئلة الثانية) ذكر فى حق داود اشتغاله بآلة الحرب وفى حق سليمان بحالة السلم وهى المساكن والمآكل وذلك لان سليمان كان ولد داود وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة واستوى داود على الملك فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ولأن سليمان لم يقدر احد عليه فى ظنه فتركوا الحرب معه وان حاربه احد

ومساكن شريفة سميت بذلك لانها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام على ما اعتادوه فانها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها (١٠) الناس ويعبدوا مثل عبادتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى انهم عملوا اسدين فى اسفل كرسيه ونسرين فوقه فاذا اراد ان يصعد بسط الاسدان ذراعيهما واذا قعد اظله النسران بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهى الصحفة (كالجواب) كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهى من الصفات الغالبة كالدابة وقرئ باثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة الف رجل (وقدور راسيات) ثابتات على الاثافى لاتنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكرا) حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على انه مفعول له او مصدر لاعملوا لان العمل للمنعم شكر له اولفعله المحذوف اى اشكروا شكرا اوحال اى شاكرين اومفعول به اى اعملوا شكرا (وقليل من عبادى الشكور) اى المتوفر على اداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اكثر اوقاته ومع ذلك لايوفى حقه لان التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لاالى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى انه عليه الصلاة السلام جزأ ساعات الليل والنهار على اهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلى (فلما قضينا عليه الموت) اى على سليمان عليه السلام (مادلهم) اى الجن او آله (على موته الادابة الارض) اى الارضة اضيفت الى فعلها وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال ارضت الارضة الخشبة ارضا فأرضت أرضا مثل أكلت القوارح اسنانه اكلا فأكلت أكلا (تأكل منسأته) أى عصاه من نسأت البعير اذا طردته لانها يطرد بها مايطرد وقرئ منساته بالف ساكنة بدلا من الهمزة وبهمزة ساكنة وباخراجها بين بين عند الوقف ومنساته على مفعالة كميضاة فى ميضأة ومن سأته اى من طرف عصاه من سأة

(كان)

القوس وفيه لغتان كما في قحة بالكسر والقحم وقرئ اكلت منساته (فلما خر تبينت الجن) من تبينت الشئ اذا علمته بعد التباسه عليك اى علمت الجن علما يقينا بعد التباس الامر عليهم (ان لو كانوا (١١) يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) اى انهم لو كانوا يعلمون

كان زمان الحرب يسيرا لادرا كه اياه بالريح فكان فى زمانه العظمة بالاطعام والانعام (المسئلة الثالثة) لماقال عقيب قوله تعالى ان اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقيب مايعمله الجن اعملوا آل داود شكرا اشارة الى ماذكرنا ان هذه الاشياء خالية لاينبغى ان يجعل الانسان نفسه مستغرقة فيها وانما الواجب الذى ينبغى أن يكثر منه هو العمل الصالح الذى يكون شكرا وفيه اشارة الى عدم الالتفات الى هذه الاشياء وقلة الاشتغال بها كما فى قوله وقدر فى السرد أى اجعله بقدر الحاجة (المسئلة الرابعة) انتصاب شكرا يحتمل ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعا وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) ان يكون مصدرا كقول القائل شكرت الله شكرا ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعودا وذلك لان العمل شكر فقوله اعملوا يقوم مقام قوله اشكروا (وثالثها) ان يكون مفعولا به كقولك اضرب زيدا كما قال تعالى واعملوا صالحا لان الشكر صالح (المسئلة الخامسة) قوله وقليل من عبادى الشكور اشارة الى ان الله خفف الامر على عباده وذلك لانه لما قال اعملوا آل داود شكرا فهم منه ان الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغى لايمكن لان الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج الى شكر آخر وهو بتوفيق آخر فدائما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر فقال تعالى ان كنتم لاتقدرون على الشكر التام فليس عليكم فى ذلك حرج فان عبادى قليل منهم الشكور ويقوى قولها أنه تعالى ادخل الكل فى قوله عبادى مع الاضافة الى نفسه وعبادى بلفظ الاضافة الى نفس المتكلم لم ترد فى القرآن الا فى حق الناجين كقوله تعالى ياعبادى الذين أسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله وقوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فان قيل على ماذكرتم شكر الله بتمامه لايمكن وقوله قليل يدل على ان فى عباده من هو شاكر لانعمه نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله واما الشكر الذى يناسب نعم الله فلاقدرة عليه ولايكلف الله نفسا الا وسعها اونقول الشاكر التام ليس الا من رضى الله عنه وقال له ياعبدى ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك انك شاكر لانعمى بأسرها وهذا القبول نعمة عظيمة لا كافك شكرها ❊ ثم قال تعالى (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منساته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين انه لم ينج من الموت وانه قضى عليه الموت تنبيها للخلق على ان الموت لابد منه ولو نجا منه احد لكان سليمان اولى بالنجاة منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان سليمان عليه السلام يقف فى عبادة الله ليلة كاملة ويوما تاما وفى بعض الاوقات يزيد عليه وكان له عصا يتكئ عليها واقفا بين يدى ربه ثم فى بعض الاوقات كان واقفا على عادته فى عبادته اذ توفى فظن جنوده انه فى العبادة وبقى كذلك اياما وتمادى شهورا ثم أراد الله اظهار الامر لهم فقدر ان أكلت دابة الارض عصاه فوقع

الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا فى تسخيره الى ان خر اومن تبين الشئ اذا ظهر وتجلى اى ظهرت الجن وان مع مافى حيزها بدل اشتمال من الجن اى ظهر ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرئ تبينت الجن على البناء للمفعول على ان المتبين فى الحقيقة هو ان مع مافى حيزها لانه بدل وقرئ تبينت الانس والضمير فى كانوا للجن فى قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه تبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ٭ روى ان داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى فتوفى قبل تمامه فوصى به الى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى اذا حان اجله وعلم به سأل ربه ان يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها فبقى كذلك وهم فيما أمروا به من الاعمال حتى اكلت الارضة عصاه فخر ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر اليه شيطان فى صلاته الا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فاذا سليمان عليه السلام قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا عصاه قد أكلتها الارضة فارادوا ان يعرفوا وقت موته فوضعوا الارضة على العصا فاكلت منها فى يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى ملكه اربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه (لقد كان لسبأ) بيان لاخبار بعض الكافرين بنعم الله اثر بيان احوال الشاكرين لها اى لاولاد سبا بن يشجب بن يعرب بن

وعلم حاله وقوله تعالى فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين كانت الجن تعلم مالا يعلمه الانسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك بل الانسان لم يؤت من العلم الا قليلا فهو اكثر الاشياء الحاضرة لا يعلمه والجن لم تعلم الا الاشياء الظاهرة وان كانت خفية بالنسبة الى الانسان وتبين لهم الامر بأنهم لا يعلمون الغيب اذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا فى الاعمال الشاقة ظانين ان سليمان حى وقوله مالبثوا فى العذاب المهين دليل على ان المؤمنين من الجن لم يكونوا فى التسخير لان المؤمن لا يكون فى زمان النبى فى العذاب المهين ❊ ثم قال تعالى (لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ وفى سبأ قراءتان بالفتح على انه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على انه اسم قبيلة وهو الاظهر لان الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج الى اضمار الاهل وقوله آية أى من فضل ربهم ثم بينها بذكر بدله بقوله جنتان عن يمين وشمال قال الزمخشرى آية آية فى جنتين مع ان بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتين او عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة قوله كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من اكل ثمارها خوف ولا مرض وقوله واشكروا بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين حالهم فى مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بان بين ان لا غائلة عليه ولا تبعة فى المآل فى الدنيا فقال بلدة طيبة اى طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم وقال ورب غفور اى لا عقاب عليه ولا عذاب فى الآخرة فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة خالية عن المفاسد المآلية ❊ ثم انه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال (فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى اكل خمط واثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور) فبين كمال ظلمهم بالاعراض بعد ابانة الآية كما قال تعالى ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال انا من المجرمين منتقمون وكيفيته انه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم وفى العرم وجوه (أحدها) انه الجرذ الذى سبب خراب السكر وذلك من حيث ان بلقيس كانت قد عمدت الى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الامطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها ابوابا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الابواب يفتح بعضها بعد بعض فنقب الجرذ السكر وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (ثانيها) ان العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهى الحجارة (ثالثها) اسم للوادى الذى خرج منه الماء وقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط بين به

قحطان وقرئ بمنع الصرف على انه اسم القبيلة وقرئ بقلب الهمزة الفا ولعله اخراج لها بين بين (فى مسكنهم) وقرئ بكسر الكاف كالمسجد وقرئ بلفظ الجمع اى مواضع سكناهم وهى باليمن يقال لها (١٢) مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة احوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل مايشاء من الامور البديعة المجازى للمحسن والمسىء معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام (جنتان) بدل من آية اوخبر لمبتدأ محذوف اى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح والمراد بهما جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بلدهم وجماعة من شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربهما وتضامهما كأنهما جنة واحدة اوبستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها اولما نطق به لسان الحال او بيان لكونهم احقاء بان يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به اى بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم مافيهما من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرئ الكل بالنصب على المدح قيل كان اطيب البلاد هواء واخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الاشجار فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شىء (فاعرضوا) عن الشكر بعد ابانة الآيات الداعية لهم اليه قيل ارسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم (فارسلنا عليهم سيل العرم) اى سيل الامر العرم اى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم اذا شرس خلقه وصعب (دوام) اوالمطر الشديد وقيل العرم جمع عرمة وهى الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذى يحبس الماء وقيل هو اسم للبناء الذى يجعل سدا

دوام الخراب وذلك لان البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والاجمة تلتف الاشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الاشجار والخمط كل شجرة لها شوك اوكل شجرة ثمرتها مرة اوكل شجر ثمرتها لاتؤكل والاثل نوع من الطرفاء ولايكون عليه ثمرة الافى بعض الاوقات يكون عليه شئ كالعفص اواصغر منه فى طعمه وفى طبعه والسدر معروف وقال فيه قليل لانه كان احسن اشجارهم فقلله الله ثم بين الله ان ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى اى لانجازى بذلك الجزاء الا الكفور قال بعضهم المجازاة تقال فى النقمة والجزاء فى النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على ان الجزاء يستعمل فى النقمة ولعل من قال ذلك اخذه من ان المجازاة مفاعلة وهى فى اكثر الامر تكون بين اثنين يؤخذ من كل واحد جزاء فى حق الآخر وفى النعمة لاتكون مجازاة لان الله تعالى مبتدئ بالنعم ❋ ثم قال تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى واياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) اى بينهم وبين الشام فانها هى البقعة المباركة وقرى ظاهرة اى يظاهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الاخرى فان قال قائل هذا من النعم والله تعالى قد شرع فى بيان تبديل نعمهم بقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين فكيف عاد مرة اخرى الى بيان النعمة بعد النقمة فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والاثل ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبوادى والبرارى بقوله ربنا باعد بين أسفارنا وقد فعل ذلك ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر وقوله وقدرنا فيها السير الاماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لاتتجاوز فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار وكانوا يغدون الى قرية ويروحون الى اخرى ماامكن فى العرف تجاوزها فهو المراد بالتقدير والمفاوز لايتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادا حتى يقطعها وقوله سيروا فيها ليالى واياما اى كان بينهم ليالى واياما معلومة وقوله آمنين اشارة الى كثرة العمارة فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لايكون فى مثل هذه الاماكن وقيل بأن معنى قوله ليالى واياما تسيرون فيه ان شئتم ليالى وان شئتم اياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لئلا يعلم العدو بسيرهم وبعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعدواة وقوله تعالى قالوا ربنا باعد بين اسفارنا قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين احدهما أن يسلوا بطرا كما طلبت اليهود الثوم والبصل ويحتمل ان يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لايقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى اشارة الى انه لايقدر عليه ويمكن أن يقال قالوا ربنا بعد بلسان الحال اى لما كفروا فقد

وقيل هو البناء الرصين الذى بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والامطار وتركت فيه خروقا على مايحتاجون اليه فى سقيهم وقيل العرم الجرذ الذى نقب (١٣) عليهم ذلك السد وهو الفار الاعمى الذى يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل العرم اسم الوادى وقرئ العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى والنبى عليهما الصلاة والسلام (وبدلناهم بجنتيهم) اى اذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما (جنتين ذواتى اكل خمط) اى ثمر بشع فان الخمط كل نبت اخذ طعما من مرارة حتى لايمكن اكله وقيل هو الحامض والمر من كل شئ وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لاينتفع بها وقيل هو الاراك وكل شجر ذى شوك والتقدير اكل اكل خمط فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه وقرئ اكل خمط بالاضافة وبتخفيف اكل (واثل وشئ من سدر قليل) معطوفان على اكل لا على خمط فان الاثل هو الطرفا وقيل شجر يشبهه اعظم منه ولاثمر له وقرئ وأثلا وشيئا عطفا على جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما ان جناه وهو النبق مما يطيب اكله ولذلك يغرس فى البساتين والصحيح ان السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لاتؤكل اصلا ولاينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثانى حتما وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر الشجر باعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم (ذلك) اشارة الى مصدر قوله تعالى (جزيناهم) اوالى ما ذكر من التبديل وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد رتبته فى الفظاعة ومحله على الاول النصب على انه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثانى النصب على انه مفعول ثان له اى ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لاجزاء آخر اوذلك التبديل جزيناهم لاغيره (بما كفروا) بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها اوبسبب كفرهم بالرسل (وهل نجازى الا الكفور) اى وما نجازى هذا الجزاء الا المبالغ فى

الكفران او الكفر وقرئ يجازى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول ايضا وهذا بيان ما اوتوا من (١٤) النعم الحاضرة فى مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) حكاية لما اوتوا من النعم البادية فى مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم وانما لم يذكر الكل معا لما فى التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبأ لا على ما بعده من الجمل الناطقة بافعالهم او باجزيتها اى وجعلنا مع ما آتيناهم فى مساكنهم من فنون النعم بينهم اى بين بلادهم وبين القرى الشامية التى باركنا فيها للعالمين (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لاعين اهلها او راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) اى جعلناها فى نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين يليق بحال ابناء السبيل قيل كان الغادى من قرية يقيل فى اخرى والرائح منها يبيت فى اخرى الى ان يبلغ الشام كل ذلك كان تكميلا لما اوتوا من انواع النعماء وتوفيرها فى الحضر والسفر (سيروا فيها) على ارادة القول اى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى (ليالى واياما) اى متى شئتم من الليالى والايام (آمنين) من كل ما تكرهونه لا يختلف الامن فيها باختلاف الاوقات او سيروا فيها آمنين وان تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى واياما كثيرة او سيروا فيها ليالى اعماركم واياميها لا تلقون فيها الا الامن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه واسبابه على الوجه المذكور منزلة امرهم بذلك (فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا) وقرئ يا ربنا (حتى)
بطروا النعمة وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا

طلبوا ان يبعد اسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم وقوله وظلموا انفسهم يكون بيانا لذلك وقوله فجعلناهم احاديث اى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا ايدى سبأ وقوله ومزقناهم كل ممزق بيان لجعلهم احاديث وقوله تعالى ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين ❊ ثم قال تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) اى ظنه انه يغويهم كما قال فبعزتك لاغوينهم وقوله فاتبعوه بيان لذلك اى اغواهم فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وهم الذين قال الله تعالى فى حقهم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ويمكن ان يقال صدق عليهم ظنه فى انه خير منه كما قال تعالى عنه انا خير منه ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه لان المتبوع خير من التابع والا لا يتبعه العاقل والذى يدل على ان ابليس خير من الكافر هو ان ابليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عنادا كفر والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر اقرب الى التوحيد وهم كفروا بأمر هو الاشراك ويؤيده هذا الذى اخترناه الاستثناء وبيانه هو انه وان لم يظن انه يغوى الكل بدليل انه تعالى قال عنه الا عبادك منهم المخلصين فما ظن انه يغوى المؤمنين فاظنه صدقه ولا حاجة الى الاستثناء واما قوله أنا خير منه اعتقد الخيرية بالنسبة الى جميع الناس بدليل تعليله بقوله خلقتنى من نار وخلقته من طين وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الاول وهو انه وان لم يظن اغواء الكل وعلم ان البعض ناج لكن ظن فى كل واحد انه ليس هو ذلك الناجى الى ان تبين له فظن انه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض ❊ ثم قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ان علم الله من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الامر فعلم الله فى الازل ان العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم يعلمه معدوما بذلك مثاله ان المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو ويظهر فيها صورته والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها انما التغير فى الخارجات فكذلك ههنا قوله الا لنعلم اى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان قبله فيه انه سيكفر زيد ويؤمن عمرو وقوله وما كان له عليهم من سلطان اشارة الى انه ليس بملجئ وانما هو آية وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو فى علمه السابق وقوله وربك على كل شئ حفيظ يحقق ذلك اى الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز ❊ ثم قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له

لوكان جنى جناننا ابعد لكان اجدر أن نشتهيه وسألوا ان يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل
ويتزودوا الازواد ويتطاولوا فيها على الفقراء فجعل الله (١٥) تعالى لهم الاجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا
لايسمع فيها داع ولا مجيب وقرئ بعد وربنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء واسناد الفعل الى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين اسفارنا وقرئ ربنا باعد بين اسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الاول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها اودنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه (وظلموا أنفسهم) حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة اوغمطوها (فجعلناهم أحاديث) أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من احوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم (ومزقناهم كل ممزق) اى فرقناهم كل تفريق على ان الممزق مصدر اوكل مطرح ومكان تفريق على انه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الامر والدلالة على شدة التأثير والايلام مالا يخفى اى مزقناهم تمزيقا لاغاية وراءه بحيث يضرب به الامثال فى كل فرقة فليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وانمار بيثرب وجذام بتهامة والازد بعمان واصل قصتهم على ماوراه الكلبى عن ابى صالح ان عمرو بن عامر من اولاد سبا وبينهما اثنا عشر أبا وهو الذى يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتفريق سيل العرم الجنتين وعن ابى زيد الانصارى ان عمرا رأى جرذا يحفر السد فعلم انه لابقاء له
بعد وقيل انه كان كاهنا وقد علمه بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم الوف من بلد الى بلد حتى انتهى الى مكة المعظمة وأهلها جرهم
وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بنى اسمعيل عليه السلام وغيرهم فأرسل اليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر يسألهم المقام معهم الى

حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد الى خطابهم وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين انهم لايملكون شيئا بقوله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض * واعلم ان المذاهب المفضية الى الشرك اربعة (احدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الارض والارضيات فى حكمهم ونحن من جملة الارضيات فنعبد الكواكب والملائكة التى فى السماء فهم آلهتنا والله الههم فقال الله تعالى فى ابطال قولهم انهم لايملكون فى السموات شيئا كما اعترفتم ثم قال ولا فى الارض على خلاف مازعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والارضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التى فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا فى الارض والاولون جعلوا الارض لغيره والسماء له فقال فى ابطال قولهم ومالهم فيهما من شرك اى الارض كالسماء لله لالغيره ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك الى الكواكب وفعل المأذون ينسب الى الآذن ويسلب عن المأذون فيه مثاله اذا قال ملك لمملوكه اضرب فلانا فضربه يقال فى العرف الملك ضربه ويصح عرفا قول القائل ماضرب فلان فلانا وانما الملك امر بضربه فضرب فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى فى ابطال قولهم وماله منهم من ظهير مافوض الى شئ شيئا بل هو على كل شئ حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال انا نعبد الاصنام التى هى صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى فى ابطال قولهم ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لايأذن فى الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على انفسكم الشفاعة وقوله حتى اذا فزع عن قلوبهم اى ازيل الفزع عنهم يقال قرد البعير اذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب * وفى قوله تعالى حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وجوه (احدها) الفزع الذى عند الوحى فان الله عند مايوحى يفزع من فى السموات ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله فيقول قال الحق اى الوحى (وثانيها) الفزع الذى من الساعة وذلك لان الله تعالى لما اوحى الى محمد عليه السلام فزع من فى السموات من القيامة لان ارسال محمد عليه السلام من اشراط الساعة فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل الحق اى الوحى (وثالثها) هو ان الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل احد بأن ماقال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى اذا علمت هذا فنقول على

القولين الاولين قوله تعالى حتى غاية متعلقة بقوله تعالى قل لانه بينه بالوحى لان قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب مايقوله ثم يقول بعد هذا الكلام مايجب قوله فلما قال قل فزع من فى السموات ثم ازيل عنه الفزع و على الثالث متعلقة بقوله تعالى زعمتم اى زعمتم الكفر الى غاية التفزيع ثم تركتم مازعمتم وقلتم قال الحق وعلى القولين الاولين فاعل قوله تعالى قالوا ماذا هو الملائكة السائلون من جبريل و على الثالث الكفار السائلون من الملائكة و الفاعل فى قوله الحق على القولين الاولين هم الملائكة وعلى الثالث هم المشركون * واعلم ان الحق هو الموجود ثم ان الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقا مطلقا لا يرتفع بالباطل الذى هو العدم و الكلام الذى يكون صدقا يسمى حقا لان الكلام له متعلق فى الخارج بواسطة انه متعلق بما فى الذهن والذى فى الذهن متعلق بما فى الخارج فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما فى ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما فى الخارج لكن للصدق متعلق يكون فى الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لايكون فى الخارج وحينئذ اما ان لايكون له متعلق فى الذهن فيكون كالمعدوم من الاول وهو الالفاظ التى تكون صادرة عن معاند كاذب واما ان يكون له متعلق فى الذهن على خلاف مافى الخارج فيكون اعتقادا باطلا جهلا اوظنا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل وكلام الله لابطلان له فى اول الامر كما يكون كلام الكاذب المعاند ولا يأتيه الباطل كما يكون كلام الظان وقوله تعالى وهو العلى الكبير قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ذلك بأن الله هو الحق وان مايدعون من دونه الباطل وان الله هو العلى الكبير ان الحق اشارة الى أنه كامل لانقص فيه فيقبل نسبة العدم وفوق الكاملين لان كل كامل فوقه كامل فقوله وهو العلى الكبير اشارة الى انه فوق الكاملين فى ذاته وصفاته وهذا يبطل القول بكونه جسما وفى حيز لان كل من كان فى حيز فان العقل يحكم بأنه مشار اليه وهو مقطع الاشارة لان الاشارة لولم تقع اليه لما كان المشار اليه هو واذا وقعت الاشارة اليه فقد تناهت الاشارة عنده وفى كل موقع تقف الاشارة بقدر العقل على ان يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الاشارة والمشار اليه اكثر من هذا البعد لكان هذا المشار اليه اعلى فيصير عليا بالاضافة لامطلقا وهو على مطلقا ولو كان جسما لكان له مقدار وكل مقدار يمكن ان يفرض اكبر منه فيكون كبيرا بالنسبة الى غيره لامطلقا وهو كبير مطلقا ❁ ثم قال تعالى (قل من يرزقكم من السموات والارض) قد ذكرنا مرارا ان العامة يعبدون الله لالكونه الها وانما يطلبون به شيئا وذلك امادفع ضرر اوجر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله قل ادعوا الذين زعمتم على انه لايدفع الضر احد الاهو كما قال تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وقال بعد اتمام بيان ذلك قل من يرزقكم من السموات والارض اشارة الى ان جر النفع ليس الا به ومنه فاذا

ان يرجع اليه رواده الذين أرسلهم الى اصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه فابوا فاقتتلوا ثلاثة ايام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم الا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وماحولها فى قومه وعساكره حولا فاصابتهم الحمى فاضطروا الى الخروج وقد رجع اليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الازد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشام فنزل الاوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الانصار ومضت غسان فنزلوا بالشأم وانخزعت خزاعة بمكة فاقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحى فولى امر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد اسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فاذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى عليه الصلاة والسلام عن سبأ فقال عليه الصلاة والسلام هو رجل كان له عشرة اولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والازد والاشعريون وحمير وانمار منهم بجيلة وخثعم واربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت اموالهم وخربت بلادهم تفرقوا ايدى سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الاوس والخزرج بيثرب فكانوا اول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فحالفوا الاوس والخزرج واقاموا عندهم ونزلت طوائف اخر منهم بالشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبأ تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على ان جميع العرب قسمان قحطانية وعدنانية والقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر واما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم ينسبونها الى قحطان وبعضهم الى عدنان والله تعالى اعلم (ان فى ذلك) اى فيما ذكر (ان كنتم من قصتهم (لآيات) عظيمة (لكل صبار شكور) اى شأنه الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم

وتخصيص هؤلاء بذلك لانهم المنتفعون بها (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) اى حق عليهم ظنه اووجده صادقا وقرئ بالتخفيف اى صدق فى ظنه اوصدق بظن ظنه ويجوز تعدية الفعل اليه بنفسه لانه نوع من القول وقرئ بنصب ابليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له اغواءهم ويرفعهما والتخفيف على الابدال وذلك اماظنه بسبأ حين رأى انهما كهم فى الشهوات أو ببنى آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى الى وسوسته قال ان ذريته اضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند اخبار الله تعالى الملائكة انه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال ولاضلنهم ولاغوينهم (فاتبعوه) اى أهل سبأ والناس (الافريقا من المؤمنين) الا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه على ان من بيانية وتقليلهم بالاضافة الى الكفار اوالا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون (وما كان له عليهم من سلطان) اى تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وقوله تعالى (الالنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) استثناء مفرغ من اعم العلل ومن موصولة اى وما كان تسلطه عليهم الاليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو فى شك منها تعلقا حاليا يترتب عليه الجزاء أو الاليتميز المؤمن من الشاك اوالاليؤمن من قدر ايمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة (وربك على كل شئ حفيظ) اى محافظ عليه فان فعيلا ومفاعلا صيغتان متآخيتان (قل) اى للمشركين اظهارا لبطلان ماهم عليه وتبكيتالهم (ادعوا الذين زعمتم) اى زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الاول تخفيفا لطول الموصول بصلته والثانى لقيام صفته اعنى قوله تعالى (من دون الله) مقامه ولا سبيل الى جعله مفعولا ثانيا لانه لايلتئم مع الضمير كلاما (٣) (را) (سا) وكذا لايملكون لانهم لايزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع اودفع ضر لعلهم يستجيبون لكم ان صح دعواكم ثم أجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب وأنه لايقبل المكابرة فقال (لايملكون

ان كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرا اولم يدفع وسواء نفعكم بخير اولم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع ۞ ثم قال تعالى (قل الله) يعنى ان لم يقولوا هم فقل انت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى عند الضر ذكر انهم يقولون الله ويعترفون بالحق حيث قال قالوا الحق وعند النفع لم يقل انهم يقولون ذلك وذلك لان لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون فى الضر كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه واما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال قل الله اى هم حالة الراحة غافلون عن الله ۞ ثم قال تعالى (وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا ارشاد من الله لرسوله الى المناظرات الجارية فى العلوم وغيرها وذلك لان احد المتناظرين اذا قال للآخر هذا الذى تقوله خطأ وانت فيه مخطئ يغضبه وعند الغضب لايبقى سداد الفكر وعند اختلاله لامطمع فى الفهم فيفوت الغرض واما اذا قال له بأن احدنا لايشك فى انه مخطئ والتمادى فى الباطل قبيح والرجوع الى الحق احسن الاخلاق فنجتهد ونبصر اينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم فى النظر ويترك التعصب وذلك لايوجب نقصا فى المنزلة لانه اوهم بأنه فى قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه وانا او اياكم مع انه لايشك فى انه هو الهادى وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون (المسئلة الثانية) فى قوله لعلى هدى او فى ضلال مبين ذكر فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لان المهتدى كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلى والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة فى (المسئلة الثالثة) وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لان الهدى هو الصراط المستقيم الموصل الى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه ابين من بعض فميز البعض عن البعض بالوصف (المسئلة الرابعة) قدم الهدى على الضلال لانه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله انا وهو مقدم فى الذكر ۞ ثم قال تعالى (قل لاتسألون عما اجرمنا ولانسأل عما تعملون) اضاف الاجرام الى النفس وقال فى حقهم ولانسأل عما تعملون ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الاغضاب المانع من الفهم وقوله لاتسألون ولانسأل زيادة حث على النظر وذلك لان كل احد اذا كان مؤاخذا بجرمه فاذا احترز نجا ولو كان البرئ يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر ۞ ثم قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) اكد ما يوجب النظر والتفكر فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب فكيف اذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله يفتح قيل معناه يحكم ويمكن ان يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لان الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة ثم ان الامر اذا كان فيه انغلاق وعدم وصول اليه فاذا بينه احد يكون قد فتحه وقوله وهو الفتاح العليم اشارة الى ان حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه ۞ ثم قال تعالى (قل أرونى الذين الحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز

الحكيم) قد ذكرنا ان المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الاشراف الاعزة يعبدونه لانه يستحق العبادة لذاته فلما بين انه لايعبد غير الله لدفع الضرر اذ لادافع للضرر غيره بقوله قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله وبين انه لايعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله قل من يرزقكم من السموات والارض بين ههنا انه لايعبد احد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم اى هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهى القدرة الكاملة والحكمة وهى العلم التام الذى عمله موافق له ❊ ثم قال تعالى (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لايعلمون) لما بين مسئلة التوحيد شرع فى الرسالة فقال تعالى وما ارسلناك الا كافة وفيه وجهان (احدهما) كافة اى ارسالة كافة اى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثانى) كافة اى ارسلناك كافة تكف الناس انت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه بشيرا اى تحثهم بالوعد ونذيرا تزجرهم بالوعيد ولكن اكثر الناس لايعلمون ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم ❊ ثم قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال (قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) قد ذكرنا فى سورة الاعراف ان قوله لاتستأخرون يوجب الانذار لان معناه عدم المهلة عن الاجل ولكن الاستقدام ماوجهه وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا انهم لما طلبوا الاستعجال بين انه لا استعجال فيه كما لا امهال وهذا يفيد عظم الامر وخطر الخطب وذلك لان الامر الحقير اذا طالبه طالب من غيره لايؤخره ولايوقفه على وقت بخلاف الامر الخطير وفى قوله تعالى لكم ميعاد يوم قراآت (احداها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيتها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوما قال الزمخشرى ووجهه انه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد اعنى يوما وذلك يفيد التعظيم والتهويل ويحتمل ان يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوما كما يقول القائل انا جايئك يوما وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوما وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل انه مقتول يوما (والثالثة) الاضافة لكم ميعاد يوم كما فى قول القائل سحق ثوب للتبيين واسناد الفعل اليهم بقوله لاتستأخرون عنه بدلا عن قوله لايؤخر عنكم زيادة تأكيد لوقوع اليوم ❊ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) لما بين الامور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن وذلك لان القرآن مشتمل على الكل وقوله ولا بالذى بين يديه المشهور انه التوراة والانجيل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ويحتمل ان يقال ان المعنى هو انا لانؤمن بالقرآن انه من الله ولا بالذى بين يديه اى ولا بما فيه من الاخبارات والمسائل والآيات والدلائل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم

مثقال ذرة) من خير وشر ونفع وضر (فى السموات ولا فى الارض) اى فى أمر ما من الامور وذكرهما للتعميم عرفا اولان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها ارضية كالاصنام اولان الاسباب القريبة (١٨) للخير والشر سماوية وارضية والجملة استئناف لبيان حالهم (ومالهم) اى لآلهتهم (فيهما من شرك) اى شركة لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا (وماله) اى لله تعالى (منهم) من آلهتهم (من ظهير) يعينه فى تدبير أمرهما (ولا تنفع الشفاعة عنده) اى لاتوجد رأسا كما فى قوله ❊ ولا ترى الضب بها ينجحر ❊ لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وانما علق النفى بنفعها لابوقوعها تصريحا بنفى ماهو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى (الا لمن اذن له) استثناء مفرغ من اعم الاحوال اى لاتقع الشفاعة فى حال من الاحوال الا كائنة لمن اذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية اما من جهة اصنامهم فلظهور انتفاء الاذن لها ضرورة استحالة الاذن فى الشفاعة لجماد لايعقل ولاينطق واما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلان اذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى لايتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا ومن البين ان الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب او لاتنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من الاحوال الا كائنة لمن اذن له اى لاجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة واما من عداهم من غير المستحقين لها فلا تنفعهم اصلا وان فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء اذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الاصنام بدلالته اذ حيث حرموها من جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين اليها فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها اولى وقرئ اذن له مبنيا للمفعول (حتى اذا فزع عن قلوبهم) اى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المومنين واما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن

العموم لان اهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن انه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفاصيل
الحشر فان قيل أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر فنقول اذا لم يصدق واحدا مما فى
الكتاب من الامور المختصة به يقال فيه انه لم يؤمن بشئ منه وان آمن ببعض ما فيه لكونه فى
غيره فيكون ايمانه لا بما فيه مثاله ان من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة
لا يكذبه فيه ولكن لا يقال انه صدقه لانه انما صدق نفسه فانه كان عالما به من قبل وعلى
هذا فقوله بين يديه اى الذى هو مشتمل عليه من حيث انه وارد فيه * وقوله تعالى (ولو ترى
اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا
للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين) لما وقع اليأس من ايمانهم فى هذه الدار بقولهم
لن نؤمن فانه لتأبيد النفى وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بانه يراهم على اذل حال موقوفين
للسؤال يرجع بعضهم الى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة اخطؤا فى أمر يقول
بعضهم لبعض كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك وجواب لو محذوف تقديره
ولو ترى اذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبا ثم بدأ بالاتباع لان المضل اولى بالتوبيخ فقال
يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين اشارة الى ان كفرهم كان
لمانع لا لعدم المقتضى لانهم لا يمكنهم ان يقولوا ما جاءنا رسول ولا ان يقولوا قصر الرسول
وهذا اشارة الى اتيان الرسول بما عليه لان الرسول لو اهمل شيئا لما كانوا يؤمنون ولولا
المستكبرون لآمنوا * ثم قال تعالى (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) ردا لما قالوا
ان كفرنا كان لمانع (انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) يعنى
المانع ينبغى ان يكون راجحا على المقتضى حتى يعمل عمله والذى جاء به هو الهدى والذى
صدر من المستكبرين لم يكن شيئا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم
بالمانع ثم بين ان كفرهم كان اجراما من حيث ان المعذور لا يكون معذورا الا لعدم
المقتضى او لقيام المانع ولم يوجد شئ منهما * ثم قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين
استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا) لما ذكر
المستكبرون انا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعا وصارفا اعترف المستضعفون به
وقالوا بل مكر الليل والنهار منعنا ثم قالوا لهم انكم وان كنتم ما اتيتم بالصارف القطعى
والمانع القوى ولكن انضم امركم ايانا بالكفر الى طول الامد وامتداد المدد فكفرنا فكان
قولكم جزء السبب ويحتمل وجها آخر وهو ان يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف
المضاف اليه وقوله اذ تأمروننا ان نكفر بالله أى ننكره ونجعل له اندادا هذا بيان ان
المشرك بالله مع انه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لان من يساويه
المخلوق المنحوت لا يكون الها وقوله فى الاول يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين
استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله فى الآيتين المتأخرتين قال الذين استكبروا وقال الذين
استضعفوا بصيغة الماضى مع ان السؤال والتراجع فى القول لم يقع اشارة الى ان ذلك

التفزيع عن قلوبهم بألف منزل والتفزيع ازالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع واسند الفعل الى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبئ عنه ما قبلها
من الاشعار بوقوع الاذن لمن اذن له فانه مسبوق بالاستئذان (١٩) المستدعى للترقب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن
لهم فقيل يتربصون فى موقف
الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون
على وجل وفزع مليا حتى اذا
ازيل الفزع عن قلوبهم بعد
اللتيا والتى وظهرت لهم تباشير
الاجابة (قالوا) اى المشفوع لهم
اذهم المحتاجون الى الاذن
والمهتمون بأمره (ماذا قال ربكم)
اى فى شأن الاذن (قالوا) اى
الشفعاء لانهم المباشرون
للاستئذان بالذات المتوسطون
بينهم وبينه عزوجل بالشفاعة
(الحق) اى قال ربنا القول
الحق وهو الاذن فى الشفاعة
للمستحقين لها وقرئ الحق
مرفوعا اى ما قاله الحق (وهو
العلى الكبير) من تمام كلام
الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة
جناب العزة عزوجل وقصور
شأن كل من سواه اى هو المتفرد
بالعلو والكبرياء ليس لاحد من
اشراف الخلائق ان يتكلم الا باذنه
وقرئ فزع مخففا بمعنى فزع وقرئ
فزع على البناء للفاعل وهو الله
وحده وقرئ فرغ بالراء المهملة
والغين المعجمة اى نفى الوجل
عنها وافنى من فرغ الزاد اذا لم
يبق منه شئ وهو من الاسناد
المجازى لان الفراغ وهو الخلو
حال ظرفه عند نفاده فأسند
اليه على عكس قولهم جرى النهر
وعن الحسن تخفيف الراء واصله
فرغ الوجل عنها اى انتهى عنها
وفنى ثم حذف الفاعل واسند
الى الجار والمجرور وبه يعرف
حال التفريغ وقرئ ارتفع
عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها
(قل من يرزقكم من السموات
والارض) امر عليه الصلاة
والسلام بتبكيت المشركين
بحملهم على الاقرار بأن آلهتهم
لا يملكون مثقال ذرة فيهما
وان الرازق هو الله تعالى فانهم
لا ينكرونه كما ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض امن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت
ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله وحيث كانوا يتلعثمون احيانا فى الجواب مخافة الالزام قيل له عليه الصلاة

والسلام (قل الله) اذلاجواب سواه عندهم ايضا (وانا او ايا كم لعلى هدى او فى ضلال مبين) اى وان احد الفريقين من الذين يوحدون المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون (٢٠) به فى عبادة الجماد النازل فى ادنى المراتب الامكانية لعلى احد الامرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعدما سبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال ابلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الانصاف المسكت للخصم الالد وقرئ وانا او ايا كم اما على هدى او فى ضلال مبين واختلاف الجارين للايذان بأن الهادى كمن استعلى منارا ينظر الاشياء ويتطلع عليها والضال كأنه منغمس فى ظلام لايرى شيئا او محبوس فى مطمورة لايستطيع الخروج منها (قل لاتسألون عما اجرمنا ولا نسأل عما تعملون) وهذا ابلغ فى الانصاف وابعد من الجدل والاعتساف حيث اسند فيه الاجرام وان اريد به الزلة وترك الاولى الى انفسهم ومطلق العمل الى المخاطبين مع ان اعمالهم اكبر الكبائر (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة عند الحشر والحساب (ثم يفتح بيننا بالحق) اى يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) الحاكم الفيصل فى القضايا المنغلقة (العليم) بما ينبغى ان يقضى به (قل ارونى الذين الحقتم) اى الحقتموهم (به شركاء) اريد بأمرهم باراءة الاصنام مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام اظهار خطئهم العظيم واطلاعهم على بطلان رأيهم اى ارونيها لانظر بأى صفة الحقتموها بالله الذى ليس كمثله شئ فى استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزام الحجة عليهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد ابطال المقايسة (بل هو الله العزيز الحكيم) اى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فاين شركاؤكم التى هى اخس الاشياء واذلها من هذه الرتبة العالية والضمير اما (ايضا) لله عز وعلا او للشأن كما فى قل هو الله احد (وما ارسلناك الا كافة للناس) اى الا ارسالة عامة لهم فانها اذا عمتهم فقد كفتهم ان يخرج منها

لابد وان يقع فان الامر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ألا ترى الى قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون * ثم قال تعالى (واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون) معناه انهم يتراجعون القول فى الاول ثم اذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة وقيل معنى الاسرار الاظهار اى اظهروا الندامة ويحتمل ان يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله بقولهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ثم اجيبوا واخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول وقوله وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا اشارة الى كيفية العذاب والى ان مجرد الرؤية ليس كافيا بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الاغلال فى اعناقهم وقوله هل يجزون الا ما كانوا يعملون اشارة الى ان ذلك حقهم عدلا * ثم قال تعالى (وما ارسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين) تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبيانا لان ايذاء الكفار الانبياء الاخيار ليس بدعا بل ذلك عادة جرت من قبل وانما نسب القول الى المترفين مع ان غيرهم ايضا قالوا انا بما ارسلتم به كافرون لان الاغنياء المترفين هم الاصل فى ذلك القول ألا ترى ان الله قال عن الذين استضعفوا انهم قالوا للمستكبرين لولا انتم لكنا مؤمنين ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الاموال والاولاد فقالوا نحن اكثر اموالا واولادا اى بسبب لزومنا لديننا وقوله وما نحن بمعذبين اى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم واما آجلا فلا نعذب اما انكارا منهم للعذاب رأسا او اعتقادا لحسن حالهم فى الآخرة ايضا قياسا * ثم ان الله تعالى بين خطأهم بقوله (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى ان الرزق فى الدنيا لاتدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى (ولكن اكثر الناس لايعلمون) ان قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح * ثم بين فساد استدلالهم بقوله (وما اموالكم ولا اولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) يعنى قولكم نحن اكثر اموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحا فان المال لايقرب الى الله ولا اعتبار بالتعزز به وانما المفيد العمل الصالح بعد الايمان والذى يدل عليه هو ان المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح اقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه الى الله وصل ومن طلب من الله شيئا حصل وقوله فاولئك لهم جزاء الضعف اى الحسنة فان الضعف لايكون الا فى الحسنة وفى السيئة لايكون الا المثل ثم زاد وقال وهم فى الغرفات آمنون اشارة الى دوام النعيم وتأبيده فان من تنقطع عنه النعمة لايكون آمنا * ثم بين حال المسئ بقوله (والذين يسعون فى آياتنا معاجزين) وقد ذكرنا تفسيره * وقوله (اولئك فى العذاب محضرون) اشارة الى الدوام

ايضا كما قال تعالى كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وكما قال تعالى وماهم عنها بغائبين ❊ ثم قال تعالى مرة اخرى (قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما انفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين) اشارة الى ان نعيم الآخرة لاينافى نعمة الدنيا بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد قطعا لقول من يقول اذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد اولى فقال هذا النقد غير مختص بكم فان كثيرا من الاشقياء مدقعون وكثير من الاتقياء ممتعون وفيه مسائل (الاولى) ذكر هذا المعنى مرتين مرة لبيان ان كثرة اموالهم واولادهم غير دالة على حسن احوالهم واعتقادهم ومرة لبيان انه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لايدل على الشرف ثم ان سلمنا انه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك فان الله يملكهم دياركم واموالكم والذى يدل عليه هو ان الله تعالى لم يذكر اولا لمن يشاء من عباده بل قال لمن يشاء وثانيا قال لمن يشاء من عباده والعباد المضافة يراد بها المؤمن ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر فان الكافر دابره مقطوع وماله الى الزوال ومآله الى الوبال واما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ومخلف الله خير فأن مافى يد الانسان فى معرض البوار والتلف وهما لايتطرقان الى ماعند الله من الخلف ثم اكد ذلك بقوله والله خير الرازقين وخيرية الرازق فى امور (احدها) ان لايؤخر عن وقت الحاجة (والثانى) ان لاينقص عن قدر الحاجة (والثالث) ان لاينكده بالحساب (والرابع) ان لايكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك اما الاول فلانه عالم وقادر والثانى فلانه غنى واسع والثالث فلانه كريم وقد ذكر ذلك بقوله يرزق من يشاء بغير حساب وماذكرناه هو المراد اى يرزقه حلالا لايحاسبه عليه والرابع فلانه على كبير والثواب يطلبه الادنى من الاعلى ألاترى ان هبة الاعلى من الادنى لاتقتضى ثوابا (المسئلة الثانية) قوله تعالى وما انفقتم من شئ فهو يخلفه يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام مامن يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان يقول احدهما اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا وذلك لان الله تعالى ملك على وهو غنى ملى فاذا قال انفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه كما اذا قال قائل الق متاعك فى البحر وعلى ضمانه فمن انفق فقد اتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ثم ان من العجب ان التاجر اذا علم ان مالا من امواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئة وان كان من الفقراء ويقول بأن ذلك اولى من الاهمال الى الهلاك فان لم يبع حتى يهلك ينسب الى الخطأ ثم ان حصل به كفيل ملى ولايبيع ينسب الى قلة العقل فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولايبيعه ينسب الى الجنون ثم ان كل احد يفعل هذا ولايعلم ان ذلك قريب من الجنون فان اموالنا كلها فى معرض الزوال المحقق والانفاق على الاهل والولد اقراض وقد حصل الضامن الملى وهو الله العلى وقال تعالى وما انفقتم من شئ فهو يخلفه ثم رهن

احد منهم اوالا جامعا لهم فى الابلاغ فهى حال من الكاف والتاء للمبالغة ولاسبيل الى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور (بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون) (٢١) ذلك فيحملهم جهلهم على ماهم عليه من الغى والضلال (ويقولون) من فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه او الموعود بقوله تعالى يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا (ان كنتم صادقين) مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به (قل لكم ميعاد يوم) اى وعد يوم اوزمان وعد والاضافة للتبيين وقرئ ميعاد يوم منونين على البدل ويوما باضمار أعنى للتعظيم (لاتستأخرون عنه) عند مفاجأته (ساعة ولاتستقدمون) صفة لميعاد وفى هذا الجواب من المبالغة فى التهديد مالايخفى حيث جعل الاستئخار فى الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مربيانه مرارا ويجوز ان يكون نفى الاستئخار والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه وتقريره (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) اى من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل ان كفار مكة سألوا اهل الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروهم انهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا ذلك وقيل الذى بين يديه القيامة (ولو ترى اذ الظالمون) المنكرون للبعث (موقوفون عند ربهم) اى فى موقف المحاسبة (يرجع بعضهم الى بعض القول) اى يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) بدل من يرجع الخ اى يقول الاتباع (للذين استكبروا) فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال (لولا أنتم) اى لولا اضلالكم وصدكم لنا عن الايمان (لكنا مؤمنين) باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا (انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الايمان مثبتين أنهم هم الصادون

بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الاجرام (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) اضرابا عن اضرابهم وابطالا له (بل مكر الليل والنهار) أى بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف اليه واقيم (٢٢) مقامه الظرف اتساعا اوجعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الاسناد المجازى وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين اى بل صدنا مكركم فى الليل والنهار على ان التنوين عوض عن المضاف اليه اومكر عظيم على انه للتفخيم وقرئ بل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب اى تمكرون الاغواء مكرا دائبا لاتفترون عنه فالرفع على الفاعلية اى بل صدنا مكركم الاغواء فى الليل والنهار على ماسبق من الاتساع فى الظرف باقامته مقام المضاف اليه والنصب على المصدرية اى بل تمكرون مكر الليل والنهار اى مكرا دائما وقوله تعالى (اذتأمروننا) ظرف للمكر اى بل مكركم الدائم وقت امركم لنا (ان نكفر بالله ونجعل له اندادا) على ان المراد بمكرهم اما نفس امرهم بماذكر كما فى قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذجعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا فان الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى واى نعمة واما امور أخر مقارنة لامرهم داعية الى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك (واسروا الندامة لما رأوا العذاب) اى اضمر الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والاضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير او اظهروها فانه من الاضداد وهو المناسب لحالهم (وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا) اى فى اعناقهم والاظهار فى موضع الاضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب اغلالهم (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) اى لايجزون الاجزاء ماكانوا يعملون اوالا بما كانوا يعملونه على نزع الجار (وما ارسلنا فى قرية) من القرى (من نذير الاقال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما عنى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الاموال والاولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها والتكبر بذلك (وقالوا)

عند كل واحد امارضا او بستانا او طاحونة او حماما او منفعة فان الانسان لابد من ان يكون له صنعة اوجهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفى يد الانسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ومع هذا لاينفق ويترك ماله ليتلف لامأجورا ولامشكورا (المسئلة الثالثة) قوله خير الرازقين ينبئ عن كثرة فى الرازقين ولارازق الاالله فالجواب عنه فنقول عنه جوابان (احدهما) ان يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك فى قوله تعالى وهو احسن الخالقين (وثانيهما) هوان الصفات منها ماحصل لله وللعبد حقيقة ومنها مايقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ومنها مايقال لله بطريق الحقيقة ولايقال للعبد لابطريق الحقيقة ولابطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لاحقيقة ولاصورة مثال الاول العلم فان الله يعلم انه واحد والعبد يعلم انه واحد بطريق الحقيقة وكذلك العلم بكون النار حارة غاية مافى الباب ان علمه قديم وعلمنا حادث مثال الثانى الرازق والخالق فان العبد اذا اعطى غيره شيئا فان الله هو المعطى ولكن لاجل صورة العطاء منه سمى معطيا كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وانسان مثال الثالث الازلى والله وغيرهما وقد يقال فى اشياء فى الاطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازا كالاستواء والنزول والمعية ويدالله وجنب الله ❊ ثم قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون) لما بين ان حال النبى صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة اموالهم واولادهم بين مايكون عاقبة حالهم فقال ويوم نحشرهم جميعا يعنى المكذبين بك وبمن تقدمك ثم نقول لمن يدعون انهم يعبدونهم وهم الملائكة فان غاية ماترتقى اليه منزلتهم انهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب فيسأل الملائكة انهم كانوا يعبدونكم اهانة لهم فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن ان يكون غيرك معبودا وانت معبودنا ومعبود كل خلق وقولهم انت ولينا من دونهم اشارة الى معنى لطيف وهو ان مذاهب الناس مختلفة بعضهم لايسكن المواضع المعمورة التى يكون فيها سواد عظيم لانه لايترأس هناك فيرضى بالضياع والبلاد الصغيرة وبعضهم لايريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها الى الاكياس ثم ان الفريقين جميعا اذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الارذال الذين لاالتفات اليهم اصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لايؤبه به ولو ان رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيئا من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان وهو يقول هؤلاء اتباعى واشياعى ولا ادخل المدينة مخافة ان احتاج الى خدمة السلطان العظيم والتردد اليه ينسب الى جنون فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ورضى باستتباع الهمج الذين هم اضل من البهائم ثم اقل من الهوام يكون مجنونا فقالوا انت ولينا من دونهم يعنى كونك ولينا بالمعبودية اولى واحب الينا من كونهم اولياءنا بالعبادة لنا

على المؤمنين والاستهانة بهم من اجله وقولهم اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا بانه لم يرسل قط الى اهل قرية من نذير الاقال مترفوهم
مثل ماقال مترفو اهل مكة فى حقه عليه الصلاة والسلام وكادوا (٢٣) به نحو ما كادوا به عليه الصلاة والسلام وقاسوا امور الآخرة

وقالوا بل كانوا يعبدون الجن اى كانوا ينقادون لامر الجن فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ونحن كنا كالقبلة لهم لان العبادة هى الطاعة وقوله تعالى اكثرهم بهم مؤمنون لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين فاوجه قوله اكثرهم بهم مؤمنون فانه ينبئ ان بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان الملائكة احترزوا عن دعوى الاحاطة بهم فقالوا اكثرهم لان الذين رأوهم واطلعوا على احوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو ان العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطن فقالوا بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على اعمالهم وقالوا اكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على مافى القلوب فان القلب لا اطلاع عليه الا الله كما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ثم بين ان ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم* فقال (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب بقوله بعضكم مع من نقول يحتمل ان يكون مع الملائكة لسبق قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم ان معبودهم لا ينفع ولا يضر ويصح هذا قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى ولانه قال بعده ونقول للذين ظلموا ذوقوا فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله بعضكم لبعض اى الملائكة للكفار والحاضر الواحد يجوز ان يجعل من يشاركه فى امر مخاطبا بسببه كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام انتم قلتم على معنى انت قلت وهم قالوا ويحتمل ان يكون معهم الجن اى لا يملك بعضكم لبعض ايها الملائكة والجن واذا لم تملكوها لانفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل ان يكون المخاطب هم الكفار لان ذكر اليوم يدل على حضورهم وعلى هذا فقوله ونقول للذين ظلموا انما ذكره تأكيدا لبيان حالهم فى الظلم وسبب نكالهم من الاثم ولو قال فذوقوا عذاب النار لكان كافيا لكنه لا يحصل ماذكرنا من الفائدة فانهم كما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والاثم والفساد يتحسرون ويندمون (المسئلة الثانية) قوله نفعا مفيد للحسرة واما الضر فما الفائدة فيه مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انهم ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لاجله عبادتهم (المسئلة الثالثة) قال ههنا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون وقال فى السجدة عذاب النار الذى كنتم به تكذبون جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل والفائدة فيها ان هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم

الموهومة والمفروضة عندهم على امور الدنيا وزعموا انهم لو لم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا ان المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك الرأى الركيك بنوا احكامهم (وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين) اما بناء على انتفاء العذاب الاخروى رأسا او على اعتقاد انه تعالى اكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها (قل) ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقا للحق الذى عليه يدور امر التكوين (ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء) ان يبسطه له (ويقدر) على من يشاء ان يقدره عليه من غير ان يكون لاحد من الفريقين داع الى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الامر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه اخرى يفعل كلا من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك امر الثواب والعذاب الذين مناطهما الطاعة وعدمها وقرئ ويقدر بالتشديد (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيزعمون ان مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون ان الاول كثيرا ما يكون بطريق الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات (وما اموالكم ولا اولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق اى وما جماعة اموالكم واولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فان الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث او بالخصلة التى تقربكم وقرئ بالذى اى بالشئ الذى (الا من آمن وعمل صالحا) استثناء من

مفعول تقربكم اى وما الاموال والاولاد تقرب احدا الا المؤمن الصالح الذى انفق امواله فى سبيل الله تعالى وعلم اولاده الخير
ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من اموالكم واولادكم (٢٤) على حذف المضاف اى الاموال من الخ (فأولئك) اشارة الى

ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون اى العذاب المؤبد الذى انكرتموه بقولكم لن تمسنا النار الا اياما معدودة اى قلتم ان العذاب ان وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم وههنا اول مارأوا النار لانه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون * ثم قال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين) اظهارا لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين ان اعلى من يعبدونه وهم الملائكة لايتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا سبحانك انت ولينا اى لا اهلية لنا الا لعبادتك من دونهم اى لا اهلية لنا لان نكون معبودين لهم ولا لنفع او ضر كما قال تعالى فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولاضرا ثم مع هذا كله اذا قال لهم النبى عليه السلام كلاما من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه فان الله فى كل شئ آيات دالة على وحدانيته انكروها وقالوا ماهذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعنى يعارضون البرهان بالتقليد وقالوا ماهذا الا افك مفترى وهو يحتمل وجوها (احدها) ان يكون المراد ان القول بالوحدانية افك مفترى ويدل عليه هو ان الموحد كان يقول فى حق المشرك انه يأفك كما قال تعالى فى حقهم أئفكا آلهة دون الله تريدون وكما قالوا هم للرسول أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وثانيها) ان يكون المراد ماهذا الا افك اى القرآن افك وعلى الاول يكون قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين اشارة الى القرآن وعلى الثانى يكون اشارة الى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى وقال الذين كفروا بدلا عن ان يقول وقالوا للحق هو ان انكار التوحيد كان مختصا بالمشركين واما انكار القرآن والمعجزات كان متفقا عليه بين المشركين واهل الكتاب فقال تعالى وقال الذين كفروا للحق على وجه العموم * ثم قال تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعنى يقولون عند ماتتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم افك مفترى من غير برهان ولا كتاب انزل عليهم ولا رسول ارسل اليهم فالآيات البينات لاتعارض الا بالبراهين العقلية ولم يأتوا بها او بالنقليات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك والنقل المعتبر آيات من كتاب الله او خبر رسول ثم بين انهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود وقوله تعالى وما بلغوا معشار ما آتيناهم قال المفسرون معناه وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ثم ان الله اخذهم وما نفعتهم قوتهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء وعندى يحتمل ذلك وجها آخر وهو ان يقال المراد وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم اى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان وذلك لان كتاب محمد عليه السلام اكمل

من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل اى فأولئك المنعوتون بالايمان والعمل الصالح (لهم جزاء الضعف) اى ثابت لهم ذلك على ان الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لأولئك وفيه تأكيد لتكرر الاسناد اويثبت لهم ذلك على ان الجار والمجرور خبر لأولئك ومابعده مرتفع على الفاعلية واضافة الجزاء الى الضعف من اضافة المصدر الى المفعول اصله فأولئك لهم ان يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه ان تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا فما فوقها وقرئ جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على ان يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على ان الضعف بدل من جزاء (بما عملوا) من الصالحات (وهم فى الغرفات) اى غرفات الجنة (آمنون) من جميع المكاره وقرئ بفتح الراء وسكونها وقرئ فى الغرفة على ارادة الجنس (والذين يسعون فى آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) سابقين لانبيائنا اوزاعمين انهم يفوتوننا (اولئك فى العذاب محضرون) لايجديهم ماعولوا عليه نفعا (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) اى يوسعه عليه تارة (ويقدر له) اى يضيقه عليه تارة اخرى فلا تخشوا الفقر وانفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى (وما انفقتم من شئ فهو يخلفه) عوضا اماعاجلا واما آجلا (وهو خير الرازقين) فان غيره واسطة فى ايصال رزقه لاحقيقة لرازقيته

(ويوم يحشرهم جميعا) اى المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله يوم ظرف لمضمر متأخر سيأتى تقديره او مفعول (من)
لمضمر مقدم نحو اذكر (ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم على نهج قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى

وامى الخ واقناطالهم عما علقوا به اطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة لانهم اشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولان عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم (٢٥) عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الاولوية

من سائر الكتب واوضح ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح وبرهانه أوفى وبيانه أشفى ثم ان المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل انكر عليهم وكيف لاينكر عليهم وقد كذبوا بافصح الرسل وأوضح السبل ويؤيد ماذكرنا من المعنى قوله تعالى وما آتيناهم من كتب يدرسونها يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتابا وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير فلما كان المؤتى فى الآية الاولى هو الكتاب فحمل الايتاء فى الآية الثانية على ايتاء الكتاب أولى ❁ ثم قال تعالى (قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) ذكر الاصول الثلاثة فى هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله أن تقوموا لله اشارة الى التوحيد وقوله ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم اشارة الى الرسالة وقوله بين يدى عذاب شديد اشارة الى اليوم الآخر وفى الآية مسائل (الاولى) قوله انما أعظكم بواحدة يقتضى أن لايكون الا بالتوحيد والايمان لايتم الا بالاعتراف بالرسالة والحشر فكيف يصح الحصر المذكور بقوله انما أعظكم بواحدة فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع فى الآخرة قدره فالنبى صلى الله عليه وسلم أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات وجواب آخر وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم ما قال انى لا آمركم فى جميع عمرى الا بشئ واحد وانما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم فى أول الامر بغيره لانه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى ثم تتفكروا فان التفكر أيضا صار مأمورا به وموعوظا (المسئلة الثانية) قوله بواحدة قال المفسرون أنها على انها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لان التوحيد حسنة واحسان وقد ذكرنا فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ان العدل نفى الالهية عن غير الله والاحسان اثبات الالهية له وقيل فى تفسير قوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان أن المراد هل جزاء الايمان الا الجنان وكذلك يدل عليه قوله تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله (المسئلة الثالثة) قوله مثنى وفرادى اشارة الى جميع الاحوال فان الانسان اما ان يكون مع غيره أو يكون وحده فاذا كان مع غيره دخل فى قوله مثنى واذا كان وحده دخل فى قوله فرادى فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد الى معين يعينكم على ذكر الله (المسئلة الرابعة) قوله ثم تتفكروا يعنى اعترفوا بما هو الاصل والتوحيد ولا حاجة فيه الى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ثم تفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر فانه يحتاج الى تفكر وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا فانه قال أن تقوموا لله ثم تتفكروا ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبى عليه السلام فقال ما بصاحبكم من جنة (المسئلة الخامسة) قوله ما بصاحبكم من جنة يفيد كونه رسولا وان كان لايلزم فى كل من لايكون به جنة أن يكون رسولا وذلك لان

وقرئ الفعلان بالنون (قالوا) استئنا ف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا يقول الملائكة حينئذ فقيل يقولون متنزهين عن ذلك (سبحانك انت ولينا من دونهم) والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على التحقيق اى انت الذى نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم اضربوا عن ذلك ونفوا انهم عبدوهم حقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) اى الشياطين حيث اطاعوهم فى عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم انهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون اجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتها (اكثرهم بهم مؤمنون) الضمير الاول للانس او للمشركين والاكثر بمعنى الكل والثانى للجن (فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب اليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رؤس الاشهاد اظهارا لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصا على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فانه محقق أجابوا بذلك ام لا بل لترتيب الاخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر الى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع انه لا بحث عنه اصلا اما التعميم (٤) (را) (سا) العجز اوللحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها اولان المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الاطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع

النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورا للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب اما الجن أو الملك واذا لم يكن الصادر من النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة وعلى التقديرين فهو رسول الله وهذا من أحسن الطرق وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع فاذا قال ماهو بمجنون لم يسعهم انكار ذلك لعلمهم بعلو شانه وحاله فى قوة لسانه وباله فاذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسئلة ولهذا قال بعده ان هو الا نذير يعنى اماهو به جنة أو هو رسول لكن تبين انه ليس به جنة فهو نذير (المسئلة السادسة) قوله بين يدى عذاب شديد اشارة الى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدى العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده ❊ ثم قال تعالى (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان اجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد) لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبيا ذكر وجها آخر يلزم منه انه نبى اذا لم يكن مجنونا لان من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل اذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنونا فالنبى عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا فان كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجرا فى الدنيا فهو يفعله للآخرة والكاذب فى الآخرة معذب لا مثاب فلو كان كاذبا لكان مجنونا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب فهو نبى صادق وقوله وهو على كل شئ شهيد تقرير آخر للرسالة وذلك لان الرسالة لا تثبت الا بالدعوى والبينة بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى افادة العلم بدليل أن من قال لقوم انى مرسل من هذا الملك اليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ثم قال للملك أيها الملك ان كنت أنا رسولك اليهم فقل لهم انى رسولك فاذا قال انه رسولى اليكم لا يبقى فيه شك كذلك اذا قال يا أيها الملك ان كنت أنا رسولك اليهم فالبسنى قباءك فلو ألبسه قباءه فى عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله كذلك حال الرسل اذا قال الانبياء لقومهم نحن رسل الله ثم قالوا يا الهنا ان كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو انشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه ❊ ثم قال تعالى (قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب) وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحقين وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق وذلك من حيث ان الله تعالى لما بين رسالة النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ان هو الا نذير لكم وأكده بقوله قل ما سألتكم من أجر فهو لكم وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بانزال الذكر عليه كما قال تعالى عنهم أأنزل عليه الذكر من بيننا ذكر ما يصلح جوابا لهم فقال قل ان ربى يقذف بالحق أى فى القلوب اشارة الى أن الامر بيده يفعل ما يريد ويعطى ما يشاء لمن يشاء ثم قال تعالى علام الغيوب اشارة الى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو ان من يفعل شيئا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشئ لا يوجد فى غيره لا يكون عالما وانما فعل ذلك اتفاقا كما

يومئذ وقوله عز وجل (ونقول للذين ظلموا) عطف على نقول للملائكة لا على لا يملك كما قيل فانه مما يقال يوم القيامة خطابا للملائكة مترتبا على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٦) لما سيقال للعبدة يومئذ اثر حكاية ما سيقال للملائكة اى يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) يكون من الاهوال والاحوال مالا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) بيان لبعض آخر من كفرانهم اى اذا تتلى عليهم بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (قالوا ماهذا) يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) فيستتبعكم بما يستدعيه من غير ان يكون هناك دين الهى واضافة الآباء الى المخاطبين لا الى انفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد (وقالوا ماهذا) يعنون القرآن الكريم (الا افك) اى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له فى الواقع (مفترى) باسناده الى الله تعالى (وقال الذين كفروا للحق) اى لامر النبوة او الاسلام او القرآن على ان العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالاول معناه وبالثانى نظمه المعجز (لما جاءهم) من غير تدبر ولا تأمل فيه (ان هذا الا سحر مبين) ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المسارعة الى البت بهذا القول الباطل انكار عظيم له وتعجيب بليغ منه (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) فيها دليل على صحة الاشراك كما فى قوله تعالى ام انزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وقوله تعالى ام آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون وقرئ يدرسونها ويدرسونها بتشديد الدال (اذا) يفتعلون من الدرس (وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير) يدعوهم اليه وينذرهم بالعقاب ان لم يشركوا وقد بان من قبل ان لا وجه له بوجه من

اذا اصاب السهم موضعا دون غيره مع تسوية المواضع فى المحاذاة فقال يقذف بالحق كيف يشاء وهو عالم بمايفعله وعالم بعواقب مايفعله فهو يفعل مايريد لاكمايفعله الهاجم الغافل عن العواقب اذ هو علام الغيوب (الوجه الثانى) ان المراد منه هو انه يقذف بالحق على الباطل كما قال فى سورة الانبياء بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه وعلى هذا تعلق الآية بماقبلها ايضا ظاهر وذلك من حيث ان براهين التوحيد لما ظهرت وشبههم دحضت قال قل ان ربى يقذف بالحق اى على باطلكم وقوله علام الغيوب على هذا الوجه له معنى لطيف وهو ان البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم الا على التوحيد والرسالة واما الحشر فعلى وقوعه لابرهان غير اخبار الله تعالى عنه وعن احواله واهواله ولولا بيان الله بالقول لما بان لاحد بخلاف التوحيد والرسالة فلما قال يقذف بالحق اى على الباطل اشارة الى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال علام الغيوب اى مايخبره عن الغيب وهو قيام الساعة واحوالها فهو لاخلف فيه فان الله علام الغيوب والآية تحتمل تفسيرا آخر وهو ان يقال ربى يقذف بالحق اى مايقذفه يقذفه بالحق لابالباطل والباء على الوجهين الاولين متعلق بالمفعول به اى الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء فى قوله وقضى بينهم بالحق وفى قوله فاحكم بين الناس بالحق والمعنى على هذا الوجه هو ان الله تعالى قذف ماقذف فى قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم مافى قلوبهم ومافى قلوبكم * ثم قال تعالى (قل جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد) لما ذكر الله انه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر ان ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (احدها) انه القرآن (الثانى) انه بيان التوحيد والحشر وكل ماظهر على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ويحتمل ان يكون المراد من جاء الحق ظهر الحق لان كل ماجاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق وقد بينا ان الحق هو الموجود ولما كان ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر كان حقا لاينتفى ولما كان مايأتون به من الاشراك والتكذيب لايمكن وجوده كان باطلا لايثبت وهذا المعنى يفهم من قوله ومايبدئ الباطل اى الباطل لايفيد شيئا فى الاولى ولا فى الآخرة فلا امكان لوجوده اصلا والحق المأتى به لاعدم له اصلا وقيل المراد لايبدئ الشيطان ولايعيد وفيه معنى لطيف وهو ان قوله تعالى قل ان ربى يقذف بالحق لما كان فيه معنى قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه كان يقع لمتوهم ان الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه فقال ههنا ليس للباطل تحقق اولا وآخرا وانما المراد من قوله فيدمغه اى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك واليه الاشارة بقوله تعالى فى موضع آخر وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا يعنى ليس امرا متجددا زهوق الباطل فقوله ومايبدئ الباطل اى لايثبت فى الاول شيئا خلاف الحق ولايعيد اى لايعيد فى الآخرة شيئا خلاف الحق * ثم قال تعالى

(قل ان ضللت فانما أضل على نفسى وان اهتديت فبمايوحى الى ربى انه سميع قريب)

الوجوه فمن اين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) من الامم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا (ومابلغوا معشار (٢٧) ما آتيناهم) اى مابلغ هؤلاء عشر ما آتينا اولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال اومابلغ اولئك عشر ما آتيناهؤلاء من البينات والهدى (فكذبوا رسلى) عطف على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا الخ (فكيف كان نكير) اى انكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك (قل انما اعظكم بواحدة) اى ما ارشدكم وانصح لكم الا بخصلة واحدة هى مادل عليه قوله تعالى (ان تقوموا لله) على انه بدل منها او بيان لها او خبر مبتدأ محذوف اى هى ان تقوموا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم اوتنتصبوا للامر خالصا لوجه الله تعالى معرضا عن المراء والتقليد (مثنى وفرادى) اى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فان الازدحام يشوش الافهام ويخلط الافكار بالاوهام وفى تقديم مثنى ايذان بأنه اوثق واقرب الى الاطمئنان (ثم تتفكروا) فى امره عليه الصلاة والسلام وماجاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى (مابصاحبكم من جنة) استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الامر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لايتصدى لادعائه الا مجنون لايبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه اومؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه واذ قد علم انه عليه الصلاة والسلام ارجح العالمين عقلا واصدقهم قولا وانزههم نفسا وافضلهم علما واحسنهم عملا واجمعهم للكمالات البشرية وجب ان تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم الى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز ان يتعلق بماقبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا مابصاحبكم من جنة وقد جوز ان تكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا اى شئ به من آثار الجنون (ان هو الانذير لكم بين يدى عذاب شديد) هو عذاب الآخرة فانه عليه

هذا فيه تقرير الرسالة ايضا وذلك لان الله تعالى قال على سبيل العموم من اهتدى فلنفسه وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وان اهتديت فبما يوحى الى ربى يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم واما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وانما هو بالوحى المبين وقوله انه سميع اى يسمع اذا ناديته و استعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ليس كمن يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى ❁ ثم قال تعالى (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب) لما قال سميع قال هو قريب فان لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لا فوت وانما يستعجل من يخاف الفوت وقوله ولو ترى جوابه محذوف اى ترى عجبا واخذوا من مكان قريب لا يهربون وانما الاخذ قبل تمكنهم من الهرب ❁ ثم قال تعالى (وقالوا آمنا به) اى بعد ظهور الامر حيث لا ينفع ايمان قالوا آمنا (وانى لهم التناوش) اى كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون الا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة فان قيل فكيف قال فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريبة ولهذا سماها الله الساعة وقال لعل الساعة قريب نقول الماضى كالامس الدابر بعد ما يكون اذ لا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لاتيانه والتناوش هو التناول عن قرب وقيل عن بعد ولما جعل الله الفعل مأخوذا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ما مضى من الدنيا * ثم بين الله تعالى ان ايمانهم لا نفع فيه بسبب انهم كفروا به من قبل والاشارة فى قوله آمنا به ❁ وقوله (وقد كفروا به من قبل) الى شئ واحد اما محمد عليه الصلاة والسلام واما القرآن واما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو اقرب واولى ❁ وقوله (ويقذفون بالغيب) ضد يؤمنون بالغيب لان الغيب ينزل من الله على لسان الرسول فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن واما الكافر فهو يقذف بالغيب اى يقول ما لا يعلمه وقوله (من مكان بعيد) يحتمل ان يكون المراد منه ان أخذهم بعيد أخذوا الشريك من انهم لا يقدرون على اعمال كثيرة الا اذا كانوا اشخاصا كثيرة فكذلك المخلوقات الكثيرة واخذوا بعد الاعادة من حالهم وعجزهم عن الاحياء فان المريض يداوى فاذا مات لا يمكنهم اعادة الروح اليه وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ويحتمل ان يقال انهم كانوا يقولون بأن الساعة اذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا كقول قائلهم ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن احساس فان ما لا يجب عقلا لا يعلم الا بالاحساس او بقول الصادق فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد فان قيل قد ذكرت ان الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان ذلك قريب عند من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدا عنده (الثانى) ان

الصلاة والسلام مبعوث فى نسم الساعة (قل ما سألتكم من اجر) اى اى شئ سألتكم من اجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأسا كقول من قال لمن لم يعطه شيئا ان اعطيتنى (٢٨) شيئا فخذه وقيل ما موصولة اريد بها ما سألهم بقوله تعالى ما أسألكم عليه من اجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا وقوله تعالى لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى واتخاذ السبيل اليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه عليه الصلاة والسلام قرباهم (ان اجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد) مطلع يعلم صدق وخلوص نيتى وقرئ ان اجرى بسكون الياء (قل ان ربى يقذف بالحق) اى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده او يرمى به الباطل فيدمغه او يرمى به فى اقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام واعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل ان واسمها او بدل من المستكن فى يقذف او خبر ثان لان او خبر مبتدأ محذوف وقرئ بالنصب صفة لربى او مقدرا بأعنى وقرئ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) اى الاسلام والتوحيد (وما يبدئ الباطل وما يعيد) اى زهق الشرك بحيث لم يبق اثره اصلا مأخوذ من هلاك الحى فانه اذا هلك لم يبق له ابداء ولا اعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد

اقفر من اهله عبيد • فليس يبدى ولا يعيد •

وقيل الباطل ابليس او الصنم والمعنى لا ينشئ خلقا ولا يعيد او لا يبدئ خيرا لاهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية منصوبة بما بعدها (قل ان ضللت) عن الطريق الحق (فانما اضل على نفسى) فان وبال ضلالى عليها لانه بسببها اذ هى الجاهلة بالذات والامارة بالسوء وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى (وان اهتديت فبما يوحى الى ربى) لان الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرئ ربى بفتح الياء (انه سميع قريب) يعلم قول كل من المهتدى والضال وفعله وان بالغ فى اخفائهما (ولو ترى اذ (الحكاية) فزعوا) عند الموت او البعث او يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان ثمانين الفا يغزون الكعبة ليخربوها فاذا دخلوا البيداء خسف

الحكاية يوم القيامة فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ويحتمل وجها آخر وهو انهم فى الآخرة يقولون ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا ۞ ثم قال تعالى (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من العود الى الدنيا او بين لذات الدنيا فان قيل كيف يصح قولك مايشتهون من العود مع انه تعالى قال (كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب) وما حيل بينهم وبين العود قلنا لم قلتم انه ماحيل بينهم بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا ان يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل وقوله مريب يحتمل وجهين (احدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب وسنذكره فى موضع آخر ان شاء الله تعالى والله اعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وازواجه اجمعين

* (سورة فاطر اربعون وخمس آيات مكية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا) قد ذكرنا فيما تقدم ان الحمد لله يكون على النعمة فى اكثر الامر ونعم الله قسمان عاجلة وآجلة والعاجلة وجود وبقاء والآجلة كذلك ايجاد مرة وابقاء اخرى وقوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى النعمة العاجلة التى هى الايجاد واستدللنا عليه بقوله تعالى وهو الذى خلقكم من طين ثم قضى اجلا وقوله فى الكهف الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب اشارة الى النعمة العاجلة التى هى الابقاء فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم فكان يفضى ذلك الى التقاتل والتفانى فانزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل وفى قوله فى سورة سبأ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وله الحمد فى الآخرة اشارة الى نعمة الايجاد الثانى بالحشر واستدللنا عليه بقوله يعلم ما يلج فى الارض من الاجسام وما يخرج منها وما ينزل من السماء من الارواح وما يعرج فيها منها وقوله عن الكافرين وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى وههنا الحمد اشارة الى نعمة البقاء فى الآخرة ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا اى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وعلى هذا فقوله تعالى فاطر السموات يحتمل وجهين (الاول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثانى) فاطر السموات والارض اى شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فان فى ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى لان قوله كما فعل باشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان فى شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت كما قال تعالى عنهم وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بارساله الملائكة اليهم مبشرين وبين انه يفتح لهم

بهم وجواب لو محذوف اى لرأيت امرا هائلا (فلا فوت) فلا يفوتون الله عز وجل بهرب او تحصن (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الارض او من الموقف الى النار او من صحراء بدر الى قليبها (٢٩) او من تحت اقدامهم اذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لا فوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا واخذوا ويؤيده انه قرئ واخذ بالعطف على محله اى فلا فوت هنا وهناك اخذ (وقالوا آمنا به) اى بمحمد عليه الصلاة والسلام وقد مر ذكره فى قوله تعالى ما بصاحبكم (وانى لهم التناوش) التناوش التناول السهل اى ومن اين لهم ان يتناولوا الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) فانه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالايمان بعد مافات عنهم وبعد بحال من يريد ان يتناول الشئ من غلوة تناوله من ذراع فى الاستحالة وقرئ بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من نأشت الشئ اذا طلبته وعن ابى عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم نأشت اذا ابطأت وتأخرت ومنه من قال

تمنى نئيشا ان يكون اطاعنى
وقد حدثت بعد الامور امور

(وقد كفروا به) اى بمحمد صلى الله عليه وسلم او بالعذاب الشديد الذى انذرهم اياه (من قبل) اى من قبل ذلك فى اوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن او فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه (من مكان بعيد) من جهة بعيدة من حاله عليه الصلاة والسلام حيث ينسبونه صلى الله عليه وسلم الى الشعر والسحر والكذب وان ابعد شئ مما جاء به الشعر والسحر وابعد شئ من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه وقرئ ويقذفون على ان الشيطان يلقى اليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية او على قالوا فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل ماضيعوه

من الايمان فى الدنيا (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من نفع الايمان والنجاة من النار وقرئ باشمام الضم للحاء (كما فعل باشياعهم من قبل) اى باشباههم من كفرة الامم الدارجة (انهم كانوا فى شك مريب) اى (٣٠) موقع فى الريبة اوذى ريبة والاول منقول من يصح ان يكون مريبا من الاعيان الى المعنى والثانى من صاحب الشك الى الشك كما يقال شعر شاعر والله اعلم * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبى الا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا

سورة الملائكة مكية وهى خمس واربعون آية

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الحمد لله فاطر السموات والارض) مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم باخراجهما منه واضافته محضة لانه بمعنى الماضى فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل فى المشتق (جاعل الملائكة) الكلام فى اضافته وكونه نعتا اوبدلا كما قبله وقوله تعالى (رسلا) منصوب به على الوجه الثانى من الاضافة بالاتفاق واما على الوجه الاول فكذلك عند الكسائى واما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عندهم الا معرفا باللام وقال ابو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى لان باضافته الى الاول تعذرت اضافته الى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بانه بالاضافة اشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرئ جاعل بالرفع على المدح وقرئ الذى فطر السموات والارض وجعل الملائكة اى جاعلهم وسايط بينه تعالى وبين انبيائه والصالحين من عباده يبلغون اليهم رسالاته بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة او بينه تعالى وبين خلقه ايضا حيث يوصلون اليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون (ولا) الجعل تصييريا اما على تقدير كونه ابداعيا فرسلا نصب على الحالية وقرئ رسلا بسكون السين (اولى اجنحة) صفة لرسلا واولوا اسم جمع

ابواب الرحمة * وقوله تعالى (اولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع) أقل ما يكون لذى الجناح ان يكون له جناحان وما بعدهما زيادة وقال قوم فيه ان الجناح اشارة الى الجهة وبيانه هو ان الله تعالى ليس فوقه شئ وكل شئ فهو تحت قدرته ونعمته والملائكة لهم وجه الى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما اخذوه باذن الله كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقوله علمه شديد القوى وقال تعالى فى حقهم فالمدبرات أمرا فهما جناحان وفيهم من يفعل مايفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ومنهم من له اربع جهات واكثر والظاهر ماذكرناه اولا وهو الذى عليه اطباق المفسرين * وقوله تعالى (يزيد فى الخلق مايشاء) من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ومنهم من قال الصوت الحسن ومنهم من قال كل وصف محمود والاولى ان يعمم ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل مايشاء فيزيد مايشاء وينقص مايشاء وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) يقرر قوله يزيد فى الخلق مايشاء * ثم قال تعالى (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الامر وقال مايفتح الله للناس يعنى ان رحم فلا مانع له وان لم يرحم فلا باعث له عليها وفى الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (احدها) التقديم حيث قدم بيان فتح ابواب الرحمة فى الذكر وهو وان كان ضعيفا لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو انه انث الكناية فى الاول فقال مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وجاز من حيث العربية ان يقال له ويكون عائدا الى ما ولكن قال تعالى لها ليعلم ان المفتوح ابواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهى واصلة الى من رحمه وقال عند الامساك وما يمسك فلا مرسل له بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بانه لا مرسل للرحمة بل ذكره بلفظ يحتمل ان يكون الذى لا يرسل هو غير الرحمة فان قوله تعالى وما يمسك عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى مايفتح الله للناس من رحمة فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله من بعده اى من بعد الله فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له الا الله فنزل له مرسلا وعند الامساك قال لا ممسك لها ولم يقل غير الله لان الرحمة اذا جاءت لا ترتفع فان من رحمه الله فى الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من اهل الايمان * ثم قال تعالى (وهو العزيز) اى كامل القدرة (الحكيم) اى كامل العلم * ثم قال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) لما بين ان الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التى تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الاجمال فقال اذكروا نعمة الله وهى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال تعالى (هل من خالق غير الله) اشارة الى نعمة الايجاد فى الابتداء وقال تعالى (يرزقكم من السماء والارض) اشارة الى نعمة الابقاء بالرزق الى الانتهاء ثم بين انه (لا اله الا هو) نظرا الى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شئ قدير نافذ الارادة فى كل شئ

لذوكان ان اولا ماسم جمع لذا ونظيرهما فى الاسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة اى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت مالهم من المراتب (٣١) ينزلون بها ويعرجون اويسرعون بها والمعنى ان من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا أجنحة كل منهم ثلاثة وخلقا أخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى ان صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منهما مرخيان على وجوههم حياء من الله عزوجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى انه سأله عليهما السلام أن يترايا له فى صورته فقال انك لن تطيق ذلك قال انى أحب ان تفعل فخرج عليه الصلاة والسلام فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل عليهما السلام فى صورته فغشى عليه عليه الصلاة والسلام ثم أفاق وجبريل مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ماكنت أرى أن شيئا من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت اسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله عزوجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير (يزيد فى الخلق مايشاء) استئناف مقرر لما قبله من تفاوت احوال الملائكة فى عدد الاجنحة ومؤذن بان ذلك من احكام مشيئته تعالى لا لامر راجع الى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه تعالى يزيد فى اى خلق كان كل مايشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الامور التى لايحيط بها الوصف وماروى عن النبى عليه الصلاة والسلام من تخصيص بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لابطريق الحصر فيها وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فان شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء مما يوجب قدرته

ولامثل لهذا ولامعبود لذاته غير هذا ونظرا الى نعمته حيث لاخالق غيره ولا رازق الا هو * ثم قال تعالى (فأنى تؤفكون) اى كيف تصرفون عن هذا الظاهر فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت * ثم لما بين الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة * فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) ثم بين من حيث الاجمال ان المكذب فى العذاب والمكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله ترجع الامور) ثم بين الاصل الثالث وهو الحشر فقال تعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) اى الشيطان وقد ذكرنا مافيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأى فيغتر بأدنى شئ وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن اذا جاءه غار وزين له ذلك الشئ وهون عليه مفاسده وبين له منافع يغتر لما فيها من اللذة مع ماينضم اليه من دعاء ذلك الغار اليه وقد يكون قوى الجاش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى لا تغرنكم الحياة الدنيا اشارة الى الدرجة الاولى وقال ولا يغرنكم بالله الغرور اشارة الى الثانية ليكون واقعا فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلا يغر ولا يغتر * ثم قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) لما قال تعالى ولا يغرنكم بالله الغرور ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار وقال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ولا تسمعوا قوله وقوله فاتخذوه عدوا أى اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح * ثم قال تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) اشارة الى معنى لطيف وهو ان من يكون له عدو فله فى أمره طريقان (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) ان يذهب عداوته بارضائه فلما قال الله تعالى ان الشيطان لكم عدو أمرهم بالعداوة وأشار الى أن الطريق ليس الا هذا وأما الطريق الآخر وهو الارضاء فلا فائدة فيه لانكم اذا ارضيتموه واتبعتموه فهو لايؤديكم الا الى السعير واعلم أن من علم أن له عدوا لامهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر فكذلك الشيطان لا يقدر الانسان ان يهرب منه فانه معه ولا يزال يتبعه الا ان يقف له ويهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة * ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله فقال (الذين كفروا لهم عذاب شديد) فالمعادى للشيطان وان كان فى الحال فى عذاب ظاهر فهو ليس بشديد والانسان اذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى ان الانسان اذا عرض فى طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا الى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك الى النار عاجلة * وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر كبير) قد ذكر تفسيره مرارا وبين فيه ان الايمان فى مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن فى النار والعمل الصالح فى مقابلته الاجر الكبير * ثم قال تعالى (أفمن زين

له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلاتذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بمايصنعون) يعنى ليس من عمل سيئا كالذى عمل صالحا كما قال بعد هذا بآيات ومايستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور وله تعلق بماقبله وذلك من حيث انه لما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن ومامن احد يعترف بأنه يعمل سيئا الاقليل فكان الكافر يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استوتهم الجن فاتبعوها والذى له الاجر العظيم نحن الذين دمنا على ماكان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم انتم بذلك فان المحسن غير ومن زين له العمل السيء فرآه حسنا غير بل الذين زين لهم السيء دون من اساء وعلم انه مسيء فان الجاهل الذى يعلم جهله والمسيء الذى يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذى لايعلم يصر على الذنوب والمسيء العالم له صفة ذم بالاساءة وصفة مدح بالعلم والمسيء الذى يرى الاساءة احسانا له صفتا ذم الاساءة والجهل ثم بين ان الكل بمشيئة الله وقال فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وذلك لان الناس اشخاصهم متساوية فى الحقيقة والاساءة والاحسان والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذاعرفها البعض دون البعض لايكون ذلك باستقلال منهم فلابد من الاستناد الى ارادة الله ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حزن من اصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال فلاتذهب نفسك عليهم حسرات كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ثم بين أن حزنه ان كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبمايصنعون لو أراد ايمانهم واحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الاضلال وان كان لما به منهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على مايصنعون * ثم عاد الى البيان فقال تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى اليسار وفى حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب وقد لاينشىء فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى والله الذى أرسل بلفظ الماضى وقال فتثير سحابا بصيغة المستقبل وذلك لانه لما أسند فعل الارسال الى الله ومايفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لازمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الارسال فى الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهو يؤلف فى زمان فقال تثير اى على هيئتها (المسئلة الثانية) قال أرسل اسنادا للفعل الى الغائب وقال سقناه باسناد الفعل الى المتكلم وكذلك فى قوله فأحيينا وذلك لانه فى الاول عرف نفسه بفعل من الافعال وهو الارسال ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الارض ففى الاول كان تعريفا بالفعل العجيب وفى الثانى كان تذكيرا بالنعمة

تعالى على ان يزيد كل مايشاؤه ايجابا بينا (مايفتح الله للناس من رحمة) عبر عن ارسالها بالفتح ايذانا بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون واعزها منالا وتنكيرها للاشاعة والابهام أى أى (٣٢) شىء يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لايحاط به (فلا ممسك لها) أى لا أحد يقدر على امساكها (وما يمسك) أى أى شىء يمسك (فلا مرسل له) أى لا أحد يقدر على ارساله واختلاف الضميرين لما أن مرجع الاول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائنا ماكان وفيه اشعار بان رحمته سبقت غضبه (من بعده) اى من بعد امساكه (وهو العزيز) الغالب على كل مايشاء من الامور التى من جملتها الفتح والامساك (الحكيم) الذى يفعل كل مايفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لماقبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التى عليها يدور امر التكوين وبعد مابين سبحانه انه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير ان يكون لاحد فى ذلك دخل مابوجه من الوجوه امر الناس قاطبة اواهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) اى انعامه عليكم ان جعلت النعمة مصدرا او كائنة عليكم ان جعلت اسما اى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الايجاد ونعمة الابقاء نفى ان يكون فى الوجود شىء غيره تعالى يصدر عنه احدى النعمتين بطريق الاستفهام الانكارى المنادى باستحالة ان يجاب عنه بنعم فقال (هل من خالق غير الله) اى هل خالق مغاير له تعالى موجود على ان خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه (فان) وقرئ بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى (يرزقكم من السماء والارض) اى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لامحل له من الاعراب

فان كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله سقناه وأحيينا بصيغة الماضى يؤيد ماذكرناه من الفرق بين قوله أرسل وبين قوله تثير (المسئلة الثالثة) ماوجه التشبيه بقوله كذلك النشور نقول فيه وجوه (احدها) ان الارض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الاعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما ان الريح تجمع القطع السحابية كذلك تجمع بين اجزاء الاعضاء وابعاض الاشياء (وثالثها) كما انا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت نسوق الروح والحياة الى البدن الميت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى اختيار هذه الآية من بين الآيات مع ان الله تعالى له فى كل شئ آية تدل على أنه واحد فنقول لما ذكر الله انه فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها بقوله جاعل الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وارسالها بقوله والله الذى ارسل الرياح * ثم قال تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) لما بين برهان الايمان اشار الى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التى كانوا يتوهمونها من حيث انهم ما كانوا فى طاعة احد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم فكانوا ينحتون الاصنام وكانوا يقولون ان هذه آلهتنا ثم انهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهى عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له فقال ان كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة فى الحقيقة فهى كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى هذه الآية فلله العزة جميعا وقال فى آية اخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فقوله جميعا يدل على ان لا عزة لغيره فنقول قوله فلله العزة أى فى الحقيقة وبالذات وقوله ولرسوله أى بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول وذلك لان عزة المؤمنين بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم الا ترى قوله تعالى ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله (المسئلة الثانية) قوله اليه يصعد الكلم الطيب تقرير لبيان العزة وذلك لان الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده لان البعد من الملك ذلة فقال تعالى ان كنتم لا تصلون اليه فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد اليه فهو عزيز ومن رد كلامه فى وجهه فهو ذليل واما هذه الاصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز اذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحا رفعه اليه ومن عمل سيأ رده عليه فالعزيز من يرفع الذى عمله لوجهه والذليل من يدفع الذى عمله فى وجهه واما هذه الاصنام فلا تعلم شيأ فلا عزيز عندها ولا ذليل فلا عزة بها بل عليها ذلة وذلك لان ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه والهه حجارة او خشبا ماذا يكون هو (المسئلة الثالثة) فى قوله اليه يصعد الكلم الطيب وجوه (أحدها) كلمة لا اله الا الله هى الطيبة (ثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر طيب (ثالثها) هذه

داخل فى حيز النفى والانكار ولا مساغ لما قيل من انه صفة اخرى لخالق مرفوعة المحل او مجرورته لان معناه نفى وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معا من غير تعرض (٣٣) لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من انه الخبر للمبتدأ ولا لما قيل من انه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية اى هل يرزقكم من خالق الخ لما ان معناهما نفى رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأسا مع انه المراد حتما الا يرى الى قوله تعالى (لا اله الا هو) فانه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصدا وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام صورة فحيث كان هذا ناطقا بنفى الوجود تعين ان يكون ذلك ايضا كذلك قطعا والفاء فى قوله تعالى (فانى تؤفكون) لترتيب انكار عدولهم عن التوحيد الى الاشراك على ما قبلها كأنه قيل واذا تبين تفرده تعالى بالالوهية والخالقية والرازقية فمن اى وجه تصرفون عن التوحيد الى الشرك وقوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين خطابى الناس مسارعة الى تسليته عليه الصلاة والسلام بعموم البلية اولا والاشارة الى الوعد والوعيد ثانيا أى وان استمروا على ان يكذبوك فيما بلغت اليهم من الحق المبين بعدما ألقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل فى المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ما ذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه الى المصابرة اى رسل اولو شأن خطير وذوو عدد كثير (والى الله ترجع الامور) لا الى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما انتم عليه من الاحوال التى من جملتها صبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار (٥) (را) (سا) على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة فى الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والاول ادخل فى التهويل (يا أيها الناس) رجوع

الى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير (ان وعد الله) المشار اليه يرجع الامور اليه تعالى من البعث والجزاء (حق)
ثابت لامحالة من غير خلف (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بأن يذهلكم التمتع بمتاعها (٣٤) ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك
مايهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهى صورة اليها كما فى قوله تعالى لايجرمنكم شقاق (ولايغرنكم بالله) وعفوه وكرمه تعالى (الغرور) اى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الاصرار على المعاصى قائلا اعملوا ماشئتم ان الله غفور يغفر الذنوب جميعا فان ذلك وان امكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرئ الغرور بالضم على انه مصدر او جمع غار كقعود جمع قاعد (ان الشيطان لكم عدو) عداوة قديمة لاتكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به (فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم له فى عقائدكم وافعالكم وكونكم على حذر منه فى مجامع احوالكم وقوله تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على ان غرضه فى دعوة شيعته الى اتباع الهوى والركون الى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين فى الدنيا عند سعى بعضهم فى حاجة بعض بل هو توريطهم والقاؤهم فى العذاب المخلد من حيث لايحتسبون (الذين كفروا لهم) بسبب كفرهم واجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته (عذاب شديد) لايقادر قدره مديد لايبلغ مداه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم) بسبب ماذكر من الايمان
والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان (مغفرة) عظيمة (واجر كبير) لاغاية لهما (افمن زين له سوء عمله فرآه (وذكرنا)
حسنا) اما تقرير لما سبق من التباين البين بين عاقبتى الفريقين ببيان تباين حاليهما المؤديين الى تينك العاقبتين والفاء لانكار ترتيب

الكلمات الاربع وخامسة وهى تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم فهو اليه يصعد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى والعمل الصالح يرفعه فى الهاء وجهان (أحدهما) هى عائدة الى الكلم الطيب اى العمل الصالح هو الذى يرفعه الكلم الطيب وردفى الخبر لايقبل الله قولا بلا عمل (وثانيهما) هى عائدة الى العمل الصالح وعلى هذا فى الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح وهذا يؤيده قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى (المسئلة الخامسة) ماوجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثانى حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره فنقول الكلام شريف فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه انسان وغيره والشريف اذا وصل الى باب الملك لايمنع ومن دونه لايجد الطريق الا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر اذا تكلم بكلمة الشهادة ان كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة وان كان ظاهرا أمن فى نفسه ودمه وأهله وحرمه فى الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات (ووجه آخر) القلب هو الاصل وقد تقدم مايدل عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ومافى القلب لايظهر الا باللسان ومافى اللسان لايتبين صدقه الا بالفعل فالقول اقرب الى القلب من الفعل ألا ترى ان الانسان لايتكلم بكلمة الا عن قلب واما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولان النائم لايخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو فى أكثر الامر لايتكلم فى نومه الا نادرا لما ذكرنا ان الكلام بالقلب ولا كذلك العمل فالقول اشرف (المسئلة السادسة) قال الزمخشرى المكر لايتعدى فبم انتصاب السيآت وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيآت فهو وصف مصدر محذوف ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال الذين يعملون السيآت وفى قوله الذين يعملون السيآت يحتمل ماذكرناه ان يكون السيآت وصفا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيآت وعلى هذا فيكون هذا فى مقابلة قوله والعمل الصالح يرفعه اشارة الى بقائه وارتقائه ومكر أولئك أى العمل السيء هو يبور اشارة الى فنائه ❁ ثم قال تعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجا وماتحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره الا فى كتاب ان ذلك على الله يسير) قد ذكرنا مرارا ان الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها فى عدد محصور منحصرة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات ومايرسل منها من الملائكة والارض ومايرسل فيها من الرياح شرع فى دلائل الانفس وقد ذكرنا تفسيره مرارا

مابعدها على ماقبلها اى بعد كون حاليهما كماذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان و العمل الصالح حتى لاتكون عاقبتاهما (٣٥) كما ذكر فحذف ماحذف لدلالة ماسبق عليه وقوله تعالى (فان الله يضل) الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان ان الكل بمشيئته تعالى اى فانه تعالى يضل (من يشاء) ان يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره اليه فيرده اسفل سافلين (و يهدى من يشاء) ان يهديه بصرف اختياره الى الهدى فيرفعه الى اعلى عليين واما تمهيد لما يعقبه من نهيه عليه الصلاة والسلام عن التحسر والحزن عليهم لعدم اسلامهم ببيان انهم ليسوا بأهل لذلك بل لان يضرب عنهم صفحا ولا يبالى بهم قطعا اى ابعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لمادل عليه قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) دلالة بينة واما تمهيد لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والمبالغة فى دعوتهم اليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم اى ابعد ماذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسنا فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى اسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف ماحذف لدلالة مامر من قوله تعالى فان الله يضل من يشاء الخ على انه ممن شاء الله تعالى ان يضله فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقرئ فلاتذهب نفسك وقوله تعالى حسرات اما مفعول له اى فلا تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على احوالهم اوعلى كثرة قبائح اعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا اوهو بيان للمتحسر عليه ولايجوز ان يتعلق بحسرات لان المصدر لاتتقدم عليه صلته واما حال كأن كلها صارت حسرات وقوله تعالى (ان الله عليم بما يصنعون) اى من القبائح تعليل لما قبله على الوجوه الثلاثة مع مافيه من الوعيد * عن ابن عباس رضى

وذكرنا ماقيل من ان قوله من تراب اشارة الى خلق آدم ثم من نطفة اشارة الى خلق اولاده وبينا ان الكلام غير محتاج الى هذا التأويل بل خلقكم خطاب مع الناس وهم اولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء بالآخرة ينتهى الى الماء والتراب فهو من تراب صار نطفة وقوله وماتحمل من انثى ولاتضع اشارة الى كمال العلم فان مافى الارحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لايعلم حاله احد كيف والام الحاملة لاتعلم منه شيأ فلما ذكر بقوله خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله وما تحمل من انثى ولاتضع الابعلمه كمال علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الافى كتاب فبين انه هو القادر العالم المريد والاصنام لاقدرة لها ولاعلم ولاارادة فكيف يستحق شئ منها العبادة وقوله ان ذلك على الله يسير اى الخلق من التراب ويحتمل ان يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ويحتمل ان يكون المراد ان العلم بماتحمله الانثى يسير والكل على الله يسير والاول اشبه فان اليسير استعماله فى الفعل اليق * ثم قال تعالى (ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تاكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) قال اكثر المفسرين ان المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والايمان او الكافر والمؤمن فالايمان لايشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لايشتبه البحران العذاب الفرات والملح الاجاج ثم على هذا فقوله ومن كل تأكلون لحما طريا لبيان أن حال الكافر والمؤمن او الكفر والايمان دون حال البحرين لان الاجاج يشارك الفرات فى خير ونفع اذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ولانفع فى الكفر والكافر وهذا على نسق قوله تعالى اولئك كالانعام بل هم أضل وقوله كالحجارة أو اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار والاظهر ان المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث ان البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء فان احدهما عذب فرات والآخر ملح اجاج ولو كان ذلك بايجاب لما اختلف المتساويان ثم انهما بعد اختلافهما يوجد منهما امور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية تؤخذ منهما ومن يوجد فى المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباها لايكون الا قادرا مختارا وقوله ومايستوى البحران اشارة الى ان عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ ارادته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال أهل اللغة لايقال فى ماء البحر اذا كان فيه ملوحة مالح وانما يقال له ملح وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحا ويؤاخذ قائله به وهو اصح مماذهب اليه القوم وذلك لان الماء العذب اذا القى فيه ملح حتى ملح لايقال له الامالح وماء ملح يقال للماء الذى صار من اصل خلقته كذلك لان المالح شئ فيه ملح ظاهر فى الذوق والماء الملح ليس ماء وملحا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر

الله عنهما انها نزلت فى ابى جهل ومشركى مكة (والله الذى ارسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرئ الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى
(فتثير سحابا) لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولان المراد بيان

فى الذوق بخلاف ماهو من اصل خلقته كذلك فلما قال الفقيه الملح اجزاء ارضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحا راعى فيه الاصل فانه جعله ماء جاوره ملح واهل اللغة حيث قالوا فى البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من اصل الخلقة والاجاج المر وقوله ومن كل تأكلون لحما طريا من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان وترى الفلك فيه مواخر اى ماخرات تمخر البحر بالجريان اى تشق وقوله ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يدل على ماذكرناه من ان المراد من الآية الاستدلال بالبحرين ومافيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته * ثم قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى) استدلال آخر باختلاف الازمنة وقد ذكرناه مرارا وذكرنا ان قوله تعالى بعده وسخر الشمس والقمر جواب لسؤال يذكره المشركون وهو انهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسى الواقعة فوق الارض وتحتها فان فى الصيف تمر الشمس على سمت الرؤس فى بعض البلاد المائلة فى الآفاق وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الارض اقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الارض فيقصر الليل وفى الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى سبب الاختلاف وان كان ماذكرتم لكن سير الشمس والقمر بارادة الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك * ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) اى ذلك الذى فعل هذه الاشياء من فطر السموات والارض وارسال الارواح وارسال الرياح وخلق الانسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود الا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ثم بين ماينافى صفة الالهية وهو قوله والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الاوصاف (احدهما) ان الخلق بالقدرة والارادة (والثانى) الملك واستدل بهما على انه الله معبود كما قال تعالى قل اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه الها أى معبودا وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) ان كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم الا الله وانما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الارض والارضيات الى الكواكب التى الاصنام على صورتها وطوالعها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئا ولا ملكوا شيئا (وثانيهما) انه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لانه لو خلق شيئا لملكه فاذا لم يملك قطميرا ماخلق قليلا ولا كثيرا * ثم قال تعالى (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) ابطالا لما كانوا يقولون ان فى عبادة الاصنام عزة من حيث القرب منها والنظر اليها وعرض الحوائج عليها والله لا يرى ولا يصل اليه أحد فقال هؤلاء

احداثها لتلك الخاصية ولذلك اسندا اليها او للدلالة على استمرار الاثارة (فسقناه الى بلد ميت) وقرئ بالتخفيف (فأحيينا به الارض) اى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فان بينهما تلازما فى الذهن كما فى الخارج او بالسحاب فانه سبب السبب (بعد موتها) اى يبسها وايراد الفعلين على صيغة الماضى للدلالة على التحقق واسنادهما الى نون العظمة المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين احياء الارض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى (كذلك النشور) فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف فى حيز الرفع على الخبرية اى مثل ذلك الاحياء الذى تشاهدونه احياء الاموات فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما اصلا سوى الالف فى الاول دون الثانى وقيل فى كيفية الاحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه اجساد الخلق (من كان يريد العزة) هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الاصنام كقوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم كما فى قوله تعالى الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الارادة واستمرارها (فلله العزة جميعا) اى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة اى فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله ايذانا بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما اليه مجاز عن

قبوله تعالى اياهما اوصعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عبادة ويأخذ الصدقات اى (٣٧) اليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا الى الملائكة الموكلين باعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات والمستكن فى يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل او للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه ولا ينال الدرجات العالية الا به وقرئ يصعد من الاصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه او المتكلم به او الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه الصلاة والسلام انه سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر اذا قالها العبد عرج بها الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنه مامن عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فما يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل اليه يصعد الكلم الطيب الخ (والذين يمكرون السيآت) بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيئ وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيآت على انها صفة للمصدر المحذوف اى يمكرون المكرات السيآت وهى مكرات قريش بالنبى عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وتداورهم الرأى فى احدى الثلاث التى هى الاثبات والقتل والاخراج (لهم) بسبب مكراتهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون (ومكر أولئك) وضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم بماهم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامى أمرهم فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان اى ومكر أولئك المفسدين الذى ارادوا ان يمكروا به عليه

لا يسمعون دعاءكم والله يصعد اليه الكلم الطيب فيسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة وقال هب انهم يسمعون كما يظنون فانهم كانوا يقولون بأن الاصنام تسمع وتعلم ولكن ماكان يمكنهم ان يقولوا انهم يجيبون لان ذلك انكار للمحس به وعدم سماعهم انكار للمعقول والنزاع وان كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى المحس به ثم انه تعالى قال ويوم القيامة يكفرون بشرككم لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل اشار الى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم اى بإشراككم بالله شيئا كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اى الاشراك وقوله ولا ينبئك مثل خبير يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون ذلك خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم ووجهه هو ان الله تعالى لما اخبر ان الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك امر لا يعلم بالعقل المجرد لولا اخبار الله تعالى عنه انهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون الخبر عنه امرا عجيبا هو كما قال لان المخبر عنه خبير (وثانيهما) هو ان يكون ذلك خطابا غير مختص باحد اى هذا الذى ذكر هو كما قال ولا ينبئك ايها السامع كائنا من كنت مثل خبير * ثم قال تعالى (يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) لما كثر الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم والاصرار من الكفار قالوا ان الله لعله يحتاج الى عبادتنا حتى يأمرنا بها امرا بالغا ويهددنا على تركها مبالغا فقال تعالى أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه اليكم وانما هو لاشفاقه عليكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) التعريف فى الخبر قليل والاكثر ان يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لان المخبر لا يخبر فى الاكثر الا بامر لا يكون عند المخبر به علم او فى ظن المتكلم ان السامع لا علم له به ثم ان المبتدأ لابد من ان يكون معلوما عند السامع حتى يقول له ايها السامع الامر الذى تعرفه أنت فيه المعنى الفلانى كقول القائل زيد قائم او قام اى زيد الذى تعرفه ثبت له قيام لا علم عندك به فان كان الخبر معلوما عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيها لا تفهيما يحسن تعريف الخبر غاية الحسن كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا حيث عرف كون الله ربا وكون محمد نبيا وههنا لما كان كون الناس فقراء امرا ظاهرا لا يخفى على احد قال أنتم الفقراء (المسئلة الثانية) قوله الى الله اعلام بأنه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره ثم قال والله هو الغنى اى هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وانتم مع احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم (المسئلة الثالثة) فى قوله الحميد لما زاد فى الخبر الاول وهو قوله انتم الفقراء زيادة وهو قوله الى الله اشارة الى وجوب حصر العبادة فى عبادته زاد فى وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميدا اشارة الى كونكم فقراء وفى مقابلته الله غنى وفقركم اليه فى مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدا واجب الشكر فلستم انتم فقراء والله مثلكم فى الفقر بل هو غنى على الاطلاق ولستم انتم لما افتقرتم اليه

الصلاة والسلام (هو يبور) اى هو يهلك ويفسد خاصة لامن مكروابه ولقد أبارهم الله تعالى بعد ابارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم واثبتهم فى قليب فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التى اكتفوا (٣٨) فى حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن (والله خلقكم

تركتكم غير مقضى الحاجات بل قضى فى الدنيا حوائجكم وان آمنتم يقض فى الآخرة حوائجكم فهو حميد ❁ ثم قال تعالى (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) بيان الغناء وفيه بلاغة كاملة وبيانها انه تعالى قال ان يشأ يذهبكم اى ليس اذهابكم موقوفا الاعلى مشيئته بخلاف الشئ المحتاج اليه فان المحتاج لايقول فيه ان يشأ فلان هدم داره واعدم عقاره وانما يقول لولا حاجة السكنى الى الدار لبعتها ولولا الافتقار الى العقار لتركتها ثم انه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله ويأت بخلق جديد يعنى ان كان يتوهم متوهم ان هذا الملك له كمال وعظمة فلو اذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقا جديدا احسن من هذا واجل واتم واكمل ❁ ثم قال تعالى (وماذلك على الله بعزيز) اى الاذهاب والاتيان وههنا مسئلة وهى ان لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة فى القائم بنفسه حيث قال فى حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال فى هذه السورة ان الله عزيز غفور واستعمله فى القائم بغيره حيث قال وماذلك على الله بعزيز وقال عزيز عليه ماعنتم فهل هما بمعنى واحد ام بمعنيين فنقول العزيز هو الغالب فى اللغة يقال من عزبز اى من غلب سلب فالله عزيز اى غالب والفعل اذا كان لايطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة الى ذلك الفعل فقوله وما ذلك على الله بعزيز اى لايغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله عزيز عليه ماعنتم اى يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب ❁ قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى وان تدع مثقلة الى حملها لايحمل منه شئ ولو كان ذاقربى) متعلق بماقبله وذلك من حيث انه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر مايدعوهم الى النظر فيه فقال ولا تزر وازرة وزر اخرى اى لاتحمل نفس ذنب نفس فالنبى صلى الله عليه وسلم لو كان كاذبا فى دعائه لكان مذنبا وهو معتقد بأن ذنبه لاتحملونه انتم فهو يتوقى ويحترز والله تعالى غير فقير الى عبادتكم فتفكروا واعلموا انكم ان ضللتم فلا يحمل احد عنكم وزركم وليس كما يقول اكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله وازرة اى نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر اخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزر اخرى لفائدة (اما الاول) فلانه لو قال ولا تزر نفس وزر اخرى لما علم ان كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة فى امرها (ووجه آخر) وهو ان قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى قد يجتمع معها ان لاتزر وزرا اصلا كالمعصوم لايزر وزر غيره ومع ذلك لايزر وزرا أسا فقوله ولا تزر وازرة يبين انها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (واما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف ثم قال تعالى وان تدع مثقلة اشارة الى ان احدا لايحمل عن أحد شيئا مبتدئا ولا بعد السؤال فان المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله فاذا انتهى الافتقار الى حد الكمال يحوجه الى السؤال (المسئلة الثانية) فى قوله مثقلة زيادة بيان لما تقدم من حيث انه قال اولا ولا تزر وازرة وزر أخرى فيظن ان احدا لايحمل عن احد لكون ذلك الواحد قادرا على حمله كما

من تراب) دليل آخر على صحة البعث والنشور اى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا اجماليا كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا (ثم جعلكم ازواجا) اى اصنافا اوذكرانا واناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض (وما تحمل من انثى ولا تضع الابعلمه) الا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) اى من احد وانما سمى معمرا باعتبار مصيره اى ومايعد فى عمر احد (ولا ينقص من عمره) اى من عمر احد على طريقة قولهم لايثيب الله عبدا ولا يعاقبه الابحق لكن لاعلى معنى لاينقص عمره بعد كونه زائدا بل على معنى لايجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص فى عمر واحد باعتبار اسباب مختلفة أثبتت فى اللوح مثل ان يكتب فيه ان حج فلان فعمره ستون والافاربعون واليه اشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان فى الاعمار وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص فانه يكتب فى الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتى على آخره وقرئ ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم (الافى كتاب) عن ابن عباس رضى الله عنهما انه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل انسان (ان ذلك) اى ماذكر من الخلق ومابعده مع كونه محارا للعقول والافهام (على الله يسير) لاستغنائه عن الاسباب فكذلك البعث (ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره لعذوبته والاجاج الذى يحرق بملوحته وقرئ سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف

ان القوى اذا اخذ بيده رمانة او سفرجلة لا تحمل عنه واما اذا كان الحمل ثقيلا قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال مثقلة يعنى ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شئ (المسئلة الثالثة) زاد فى ذلك بقوله ولو كان ذا قربى اى المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفى الاول كان يمكن ان يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذى يرى عدوه تحت ثقل او الاجنبى الذى يرى اجنبيا تحت حمل لا يحمل عنه فقال ولو كان ذا قربى اى يحصل جميع المعانى الداعية الى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الاخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة داعية فان السؤال مظنة الرحمة ولو كان المسؤل قريبا فاذن لا يكون التخلف الا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل ❁ ثم قال تعالى (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلوة) اشارة الى ان لا ارشاد فوق ما اتيت به ولم يفدهم فلا تنذر انذارا مفيدا الا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله الذين آمنوا اشارة الى عمل القلب وعملوا الصالحات اشارة الى عمل الظواهر فقوله الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة فى ذلك المعنى ثم لما بين ان لا تزر وازرة وزر اخرى بين ان الحسنة تنفع المحسنين فقال (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) اى فتزكيته لنفسه ❁ ثم قال تعالى (والى الله المصير) اى المتزكى ان لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير الى الله يظهر عنده فى يوم اللقاء فى دار البقاء والوازر ان لم تظهر تبعة وزره فى الدنيا فهى تظهر فى الآخرة اذ المصير الى الله ❁ ثم قال تعالى (وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات) لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والاعمى فالمؤمن بصير حيث ابصر الطريق الواضح والكافر أعمى وفى تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى تكثير الامثلة ههنا حيث ذكر الاعمى والبصير والظلمة والنور والظل والحرور والاحياء والاموات فنقول الاول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ثم ان البصير وان كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئا ان لم يكن فى ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا وقال الايمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور فالمؤمن بايمانه فى ظل وراحة والكافر بكفره فى حر وتعب ثم قال تعالى وما يستوى الاحياء ولا الاموات مثلا آخر فى حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق الاعمى والبصير فأن الاعمى يشارك البصير فى ادراك ما والكافر غير مدرك ادراكا نافعا فهو كالميت ويدل على ماذكرنا انه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا وما يستوى الاعمى والبصير وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ثم أعاد الفعل وقال وما يستوى الاحياء ولا الاموات كأنه جعل هذا مقابلا لذلك (المسئلة الثانية) كرر كلمة النفى بين الظلمات والنور والظل والحرور والاحياء والاموات

وقوله تعالى (ومن كل) اى من كل واحد منهما (تأكلون لحما طريا وتستخرجون) اى من المالح خاصة (حلية تلبسونها) اما استطراد فى صفة البحرين ومافيهما من النعم والمنافع (٣٩) واما تكملة للتمثيل والمعنى كما انهما وان اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط احدهما ما افسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوى الكافر المؤمن وان شاركه فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء احدهما على فطرته الاصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر او تفضيل للاجاج على الكافر من حيث انه يشارك العذب فى منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة او اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) اى فى كل منهما وافراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لان الخطاب لكل احد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (مواخر) شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الافعال المذكورة اى فعل ذلك لتبتغوا من فضله (ولعلكم تشكرون) اى ولتشكروا على ذلك وحرف الترجى للايذان بكونه مرضيا عند الله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) بزيادة احدهما ونقص الآخر باضافة بعض اجزاء كل منهما الى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلافهما صيغة لما ان ايلاج احد الملوين فى الآخر متجدد حينا فحينا واما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وانما المتعدد والمتجدد آثاره وقد اشير اليه بقوله تعالى (كل يجرى) اى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب

تعدد ايام السنة جريانا مستمرا (لاجل مسمى) قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما فى (٤٠) فلكيهما والاجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان (ذلكم) اشارة الى فاعل الافاعيل المذكورة ومافيه من معنى البعد للايذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده اخبار مترادفة اى ذلكم العظيم الشان الذى ابدع هذه الصنائع البديعة (الله ربكم له الملك) وفيه من الدلالة على ان ابداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الاخبار له مالا يخفى ويجوز ان يكون الاخير كلاما مبتدأ فى مقابلة قوله تعالى (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) للدلالة على تفرده تعالى بالالوهية والربوبية وقرئ يدعون بالياء التحتانية والقطمير لفافة النواة وهو مثل فى القلة والحقارة (ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جاد ليس من شأنه السماع (ولو سمعوا) على الفرض والتقدير (ما استجابوا لكم) لعجزهم عن الافعال بالمرة لا لما قيل من انهم متبرؤن منكم ومما تدعون لهم فان ذلك مما لايتصور منهم فى الدنيا (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) اى يجحدون باشراككم لهم وعبادتكم اياهم بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) اى لايخبرك بالامر مخبر مثل خبير اخبرك به وهو الحق سبحانه فانه الخبير بكنه الامور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ما اخبر به من حال آلهتهم ونفى مايدعون لهم من الالهية (يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله) فى انفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم او خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وان افتقار سائر الخلائق بالنسبة الى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى وخلق الانسان ضعيفا (والله هو الغنى الحميد) اى المستغنى على الاطلاق (جنس)

ولم يكرر بين الاعمى والبصير وذلك لان التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة فالظلمة تنافى النور وتضاده والعمى والبصر كذلك اما الاعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرا وهو بعينه يصير أعمى فالاعمى والبصير لامنافاة بينهما الامن حيث الوصف والظل والحرور المنافاة بينهما ذاتية لان المراد من الظل عدم الحر والبرد فما كانت المنافاة هناك اتم أكد بالتكرار واما الاحياء والاموات وان كانوا كالاعمى والبصير من حيث ان الجسم الواحد يكون حيا محلا للحياة فيصير ميتا محلا للموت ولكن المنافاة بين الحى والميت أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير كما بينا ان الاعمى والبصير يشتركان فى ادراك اشياء ولا كذلك الحى والميت كيف والميت يخالف الحى فى الحقيقة لافى الوصف على ماتبين فى الحكمة الالهية (المسئلة الثالثة) قدم الاشرف فى مثلين وهو الظل والحى واخره فى مثلين وهو البصر والنور وفى مثل هذا يقول المفسرون انه لتواخى اواخر الآى وهو ضعيف لان تواخى الاواخر راجع الى السجع ومعجزة القرآن فى المعنى لافى مجرد اللفظ فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاله على تغيير المعنى واما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلايقدم ولايؤخر اللفظ بلامعنى فنقول الكفار قبل النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبى صلى الله عليه وسلم وبين الحق واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال ومايستوى من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده الى الايمان فلما كان الكفر قبل الايمان فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم مايتعلق بالرحمة على مايتعلق بالغضب لقوله فى الالهيات سبقت رحمتى غضبى ثم ان الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الاعمى وشابه الاموات فى عدم ادراك الحق من جميع الوجوه فقال ومايستوى الاحياء أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والاموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد ايمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين وقدم الاعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها (المسئلة الرابعة) فان قلت قابل الاعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الاحياء بالاموات بلفظ الجمع وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع فى احدهما والواحد فى الاخر فهل تعرف فيه حكمة قلت نعم بفضل الله وهدايته اما فى الاعمى والبصير والظل والحرور فلانه قابل الجنس بالجنس ولم يذكر الافراد لان فى العميان وأولى الابصار قد يوجد فرد من احد الجنسين يساوى فردا من الجنس الآخر كالبصير الغريب فى موضع والاعمى الذى هو تربية ذلك المكان وقد يقدر الاعمى على الوصول الى مقصد ولايقدر البصير عليه اويكون الاعمى عنده من الذكاء مايساوى به البليد البصير فالتفاوت بينهما فى الجنسين مقطوع به فان

جنس البصير خير من جنس الاعمى واما الاحياء والاموات فالتفاوت بينهما اكثر اذ ما من ميت يساوى فى الادراك حيا من الاحياء فذكر ان الاحياء لايساوون الاموات سواء قابلت الجنس بالجنس او قابلت الفرد بالفرد واما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الاشراك على ماينا ان بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الاصنام التى هى على صورة الملائكة والى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الافراد وبين هذا الواحد بين فقال الظلمات كلها اذا اعتبرتها لاتجد فيها مايساوى النور وقد ذكرنا فى تفسير قوله وجعل الظلمات والنور السبب فى توحيد النور وجمع الظلمات ومن جملة ذلك ان النور لايكون الابوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير مثاله الشمس اذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذى يمسك الشعاع فان البيت الذى فيه كوة يدخل منها الشعاع اذا كان فى مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتا آخر ويبسط الشعاع على ارضه يرى البيت الثانى مضيئا والاول مظلما وان لم يكن هناك حائل كالبيت الذى لاكوة له فانه لايضئ فاذا حصلت الامور الثلاثة يستنير البيت والافلا وتحقق الظلمة بفقد اى امر كان من الامور الثلاثة ✻ ثم قال تعالى (ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من فى القبور) وفيه احتمال معنيين (الاول) ان يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة الى سماعهم كلام النبى والوحى النازل عليه دون حال الموتى فان الله يسمع الموتى والنبى لايسمع من مات وقبر فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لايسمعون من النبى (والثانى) ان يكون المراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم فانه لمابين له انه لاينفعهم ولايسمعهم قال له هؤلاء لايسمعهم الاالله فانه يسمع من يشاء ولوكان صخرة صماء واما انت فلاتسمع من فى القبور فما عليك من حسابهم من شئ ✻ ثم قال تعالى (ان انت الانذير) بيانا للتسلية ✻ ثم قال تعالى (انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) لماقال ان انت الانذير بين انه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انماهو نذير باذن الله وارساله ✻ ثم قال تعالى (وان من امة الاخلافيها نذير) تقريرا لامرين (احدهما) لتسلية قلبه حيث يعلم ان غيره كان مثله محتملا لتأذى القوم (وثانيهما) الزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وانما هو مثل غيره يدعى ماادعاه الرسل ويقرره ✻ قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) يعنى ان انت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك ايضا أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا الابالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدا صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير) والكل آتيناها محمدا فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كالزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام اجمعين وهذا يكون تقريرا مع اهل الكتاب واعلم انه تعالى ذكر امورا ثلاثة اولها البينات وذلك لان كل رسول فلابدله من معجزة وهى ادنى الدرجات ثم

المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة اوبعالم آخر غيرما تعرفونه (وماذلك) اى ماذكر من الاذهاب بهم والاتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر ولامتعسر (ولاتزر وازرة) اى لاتحمل نفس آثمة (وزر اخرى) اثم نفس اخرى بل انما تحمل كل منهما وزرها واما مافى قوله تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم من حمل المضلين اثقالا غير اثقالهم فهو حمل اثقال اضلالهم مع اثقال ضلالهم وكلاهما اوزارهم ليس فيها من اوزار غيرهم شئ (وان تدع مثقلة) اى نفس اثقلها الاوزار (الى حملها) لحمل بعض اوزارها (لايحمل منه شئ) لم تجب بحمل شئ منه (ولوكان) اى المدعو المفهوم من الدعوة (ذاقربى) ذا قرابة من الداعى وقرئ ذوقربى وهذا نفى للحمل اختيارا والاول نفى له اجبارا (انما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر اى انما تنذر بهذه الانذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) اى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه اوعن الناس فى خلواتهم اويخشون عذابه وهو غائب عنهم (واقاموا الصلوة) اى راعوها كما ينبغى وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا اى انما ينفع انذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من اهل التمرد والعناد (ومن تزكى) اى تطهر من اوضار الاوزار والمعاصى بالتأثر من هذه الانذارات (فانما يتزكى لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما ان من تدنس بها لايتدنس الاعليها وقرئ ومن ازكى فانما يزكى وهو

فقد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وان لم يكن فيه نسخ واحكام مشروعة شرعا ناسخا ومن ينزل عليه مثله اعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه احكام على وفق الحكمة الالهية ومن يكون كذلك فهو من أولى العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وان كانوا اعلى مرتبة فبالزبر وان كانوا اعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول اشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب * ثم قال تعالى (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) اى من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل اخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام وقوله فكيف كان نكير سؤال للتقرير فانهم علموا شدة انكار الله عليهم واتيانه بالامر المنكر من الاستئصال * ثم قال تعالى (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها) وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار وقال ألم تر وذكر الدليل المتقدم على طريقة الاخبار وقال والله الذى ارسل الرياح وفيه وجهان (الاول) ان انزال الماء اقرب الى النفع والمنفعة فيه اظهر فانه لا يخفى على احد في الرؤية ان الماء منه حياة الارض فعظم دلالته بالاستفهام لان الاستفهام الذى للتقرير لا يقال الا في الشئ الظاهر جدا كان من ابصر الهلال وهو خفي جدا فقال له غيره اين هو فانه يقول له في الموضع الفلاني فان لم يره يقول له الحق معك انه خفي وانت معذور واذا كان بارزا يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو انه ذكره بعد ما قرر المسئلة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات فقال له انت صرت بصيرا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ألا ترى هذه الآية (المسئلة الثانية) المخاطب من هو يحتمل وجهين (احدهما) النبي صلى الله عليه وسلم وفيه حكمة وهى ان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت الى غيرهم كان السيد اذ نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الارشاد يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر معه ما ذكره مع الاول ويكون فيه اشعار بأن الاول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) ان لا يخرج الى كلام اجنبي عن الاول بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلاما آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة (المسئلة الثالثة) هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الاولى) قال أنزل وقال أخرجنا وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول قال الله تعالى ألم تر أن الله أنزل فان كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له فالاخراج لا يمكنك ان تقول فيه انه بالطبع فهو بارادة الله فلما كان ذلك اظهر اسنده الى المتكلم (ووجه آخر) هو ان الله تعالى لما قال ان الله أنزل علم الله بدليل وقرب المتفكر فيه الى الله تعالى فصار من الحاضرين فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الاخراج اتم نعمة من الانزال لان الانزال لفائدة

(الاخراج)

اعتراض مقرر لخشيتهم واقامتهم الصلاة لانها من معظم مبادى التزكى (والى الله المصير) لا الى احد غيره استقلالا او اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم احسن الجزاء (وما يستوى الاعمى والبصير) اى الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) اى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع افراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) اى ولا الثواب ولا العقاب وادخال لا على المتقابلين لتذكير نفي الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم ما يهب نهارا والحرور ما يهب ليلا (ومايستوى الاحياء ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل واوثر صيغة الجمع في الطرفين تحقيقا للتباين بين افراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة (ان الله يسمع من يشاء) ان يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته (وما انت بمسمع من في القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالاموات واشباع في اقناطه عليه الصلاة والسلام من ايمانهم (ان أنت الا نذير) ما عليك الا الانذار واما الاسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك اليه في المطبوع على قلوبهم (انا ارسلناك بالحق) اى محقين او محقا انت او ارسالا مصحوبا بالحق ويجوز ان يتعلق بقوله (بشيرا ونذيرا) اى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق (وان من امة) اى ما من امة من الامم الدارجة في الازمنة الماضية (الا خلا) اى مضى (فيها نذير) من نبي او عالم ينذرهم والاكتفاء بذكره للعلم

الاخراج فأسند الاتم الى نفسه بصيغة المتكلم ومادونه بصيغة الغائب (اللطيفة الثانية)

❋ قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) كان قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع الاترى ان بعض النباتات لاتنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره فقال تعالى اختلاف البقاع ليس الا بارادة الله والافلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض والجدد جمع جدة وهى الخطة او الطريقة فان قيل الواو فى ومن الجبال ماتقديرها نقول هى تحتمل وجهين (احدهما) ان تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الالوان وفى الاشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف الوان الثمار (ثانيهما) ان تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال قال الزمخشرى اراد ذوجدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الارض كما قال فى موضع آخر وفى الارض قطع متجاورات مع ان هذا الدليل مثل ذلك وذلك لان الله تعالى لما ذكر فى الاول أخرجنا به ثمرات كان نفس اخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بيانا وقال مختلفا كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقدرة والارادة لان كون الجبل فى بعض نواحى الارض دون بعضها والاختلاف الذى فى هيئة الجبل فان بعضها يكون اخفض وبعضها ارفع دليل القدرة والاختيار ثم زاده بيانا وقال جدد بيض اى مع دلالتها بنفسها هى دالة باختلاف ألوانها كما ان اخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف الوانها دلائل (المسئلة الرابعة) مختلف الوانها الظاهر ان الاختلاف راجع الى كل لون اى بيض مختلف الوانها وحمر مختلف الوانها لان الابيض قد يكون على لون الجص وقد يكون على لون التراب الابيض دون بياض الجص وكذلك الاحمر ولو كان المراد ان البيض والحمر مختلف الالوان لكان مجرد تأكد والاول أولى وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف الوانها بعد البيض والحمر والسود بل ذكره بعد البيض والحمر واخر السود الغرابيب لان الاسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف (المسئلة الخامسة) قيل بأن الغربيب مؤكد للاسود يقال اسود غربيب والمؤكد لايجئ الامتأخرا فكيف جاء غرابيب سود نقول قال الزمخشرى غرابيب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سود غرابيب ثم اعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لانه تعالى ذكره مضمرا ومظهرا ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ثم قال تعالى ومن الناس والدواب والانعام استدلالا آخر على قدرته وارادته وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين حيوان وغير حيوان وغير الحيوان امانبات وامامعدن والنبات أشرف واشار اليه بقوله فاخرجنا به ثمرات ثم ذكر المعدن بقوله ومن الجبال ثم ذكر الحيوان وبدأ بالاشرف منها وهو الانسان فقال ومن الناس ثم ذكر الدواب لان منافعها

بان النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفا ولان الانذار هو الانسب بالمقام (وان يكذبوك) اى تموا على تكذيبك فلاتبال بهم وبتكذيبهم (فقد كذب الذين من قبلهم) من الامم العاتية (جاءتهم رسلهم بالبينات) اى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم (وبالزبر) كصحف ابراهيم (وبالكتاب المنير) كالتوراة والانجيل والزبور على ارادة التفصيل دون الجمع ويجوز ان يراد بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعلة الاخذ (فكيف كان نكير) اى انكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد وتهويل لها (ألم تر) استئناف مسوق لتقرير ماقبله من اختلاف احوال الناس ببيان ان الاختلاف والتفاوت امر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم (ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بذلك الماء والالتفات لاظهار كمال الاعتناء بالفعل لمافيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفا الوانها) اى اجناسها اواصنافها على ان كلامنها ذواصناف مختلفة او هيأتها وأشكالها اوالوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الاوفق لمافى قوله تعالى (ومن الجبال جدد) اى ذو جدد اى خطوط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وقرئ جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح (بيض وحمر مختلف الوانها) بالشدة والضعف

في حياتها والانعام منفعتها في الاكل منها أولان الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره وقوله مختلف ألوانه القول فيه كما انها في انفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل واماقوله مختلف الوانه فذكر لكون الانسان من جملة المذكورين وكون التذكير أعلى وأولى ❊ ثم قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) الخشية بقدر معرفة المخشي والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه وهذا دليل على ان العالم اعلى درجة من العابد لان الله تعالى قال ان أكرمكم عند الله اتقاكم فبين ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العلم فالكرامة بقدر العلم لابقدر العمل نعم العالم اذاترك العمل قدح ذلك في علمه فان من يراه يقول لوعلم لعمل ثم قال تعالى ان الله عزيز غفور ذكر مايوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزا اذا انتقام يوجب الخوف التام وكونه غفورا لمادون ذلك يوجب الرجاء البالغ وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله معناها انما يعظم ويبجل ❊ ثم قال تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بمافيه وقوله يتلون كتاب الله اشارة الى الذكر وقوله تعالى (واقاموا الصلاة) اشارة الى العمل البدني وقوله (وانفقوا ممارزقناهم) اشارة الى العمل المالي وفي الآيتين حكمة بالغة فقوله انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله ان الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة وانفقوا ممارزقناهم اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه لأنا بينا ان من يعظم ملكا اذارأى عبدا من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وان تهاون فيه يخل بالتعظيم والى هذا اشار بقوله عبدي مرضت فاعدتني فيقول العبد كيف تمرض وانت رب العالمين فيقول الله مرض عبدي فلان ومازرته ولوزرته لوجدتني عنده يعني التعظيم متعلق بالشفقة بحيث لاشفقة على خلق الله لاتعظيم لجانب الله وقوله تعالى (سرا وعلانية) حث على الانفاق كيفما يتهيأ فان تهيأ سرا فذاك ونعم والافعلانية ولايمنعه ظنه ان يكون رياء فان ترك الخير مخافة ان يقال فيه انه مراء عين الرياء ويمكن ان يكون المراد بقوله سرا اى صدقة وعلانية اى زكاة فان الاعلان بالزكاة كالاعلان بالفرض وهو مستحب وقوله تعالى (يرجون تجارة لن تبور) اشارة الى الاخلاص اي ينفقون لاليقال انه كريم ولالشيء من الاشياء غير وجه الله فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) اى ماتوقعونه ولوكان امرا بالغ الغاية (ويزيدهم من فضله) اى يعطيهم مالم يخطر ببالهم عند العمل ويحتمل ان يكون يزيدهم النظر اليه كما جاء في تفسير الزيادة (انه غفور) عند اعطاء الاجور (شكور) عند اعطاء الزيادة ❊ ثم قال تعالى (والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق) لما بين الاصل الاول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله والله الذي ارسل الرياح وقوله والله خلقكم وقوله ألم تر ان الله انزل ذكر

(وغرابيب سود) عطف على بيض او على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ماهو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره مابعده فان الغربيب تأكيد للاسود كالفاقع للاصفر والقانئ للاحمر ومن حق التأكيد ان يتبع المؤكد ونظيره في الصفة قول النابغة ❊ والمؤمن العائذات الطير يمسحها ❊ وفي مثله مزيد تأكيد لمافيه من التكرار باعتبار الاضمار والاظهار (ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه) اى ومنهم بعض مختلف الوانه اوبعضهم مختلف الوانه على مامر في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وايراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لماقبلهما من الجملة الفعلية في الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس في الاحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والانعام فيماذكر من الالوان امر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار واما اخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرا حادثا عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لماكان فيه نوع خفاء علق به الرؤية ثم بطريق الاستفهام التقريري المنبئ عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف احوال الجبال والناس وغيرهما فانها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعلق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى (كذلك) مصدر تشبيهي لقوله تعالى مختلف اى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرئ ألوانا وقرئ والدواب بالتخفيف مبالغة في الهرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء) تكملة

الاصل الثانى وهو الرسالة فقال والذى اوحينا اليك من الكتاب هو الحق وايضا كأنه قد ذكران الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال والذى اوحينا اليك من الكتاب هو الحق تقرير المابين من الاجر والثواب فى تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفى تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) قوله من الكتاب يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال ارسل الى كتاب من الامير او الوالى وعلى هذا فالكتاب يمكن ان يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى اوحينا من اللوح المحفوظ اليك حق ويمكن ان يكون المراد هو القرآن يعنى الارشاد والتبيين الذى اوحينا اليك من القرآن ويحتمل ان يكون للبيان كما يقال ارسل الى فلان من الثياب والقماش جملة (المسئلة الثانية) قوله هو الحق آكد من قول القائل الذى اوحينا اليك حق من وجهين (احدهما) ان تعريف الخبر يدل على ان الامر فى غاية الظهور لان الخبر فى الاكثر يكون نكرة لان الاخبار فى الغالب يكون اعلاما بثبوت امر لامعرفة للسامع به لامر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى ان يكون عارفا بزيد ولايعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر ايضا معلوما فيكون الاخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا (المسئلة الثالثة) قوله (مصدقا لما بين يديه) حال مؤكدة لكونه حقا لان الحق اذا كان لاخلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليا عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحيا لان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا واتى ببيان مافى كتب الله لايكون ذلك الامن الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهوانهم كانوا يقولون بأن التوراة وردفيها كذا والانجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والانجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ماورد فيه ان كان فى التوراة فهو حق وباق على ماتزل وان لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو ان يقال ان هذا الوحى مصدق لما تقدم لان الوحى لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى انزال التوراة والانجيل فاذا وجد الوحى ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم علم جوازه وصدق به ماتقدم وعلى هذا ففيه لطيفة وهى انه تعالى جعل القرآن مصدقا لما مضى مع ان مامضى ايضا مصدق له لان الوحى اذا نزل على واحد جاز ان ينزل على غيره وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل ماتقدم مصدقا للقرآن لان القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى واما ماتقدم فلابد معه من معجزة تصدقه (المسئلة الرابعة) قوله (ان الله بعباده لخبير بصير) فيه وجهان (احدهما) انه تقرير لكونه هو الحق لانه وحى من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر فلايكون باطلا فى وحيه لافى الباطن ولافى الظاهر (وثانيهما) ان يكون جوابا لما كانوا يقولونه انه لم لم ينزل على رجل عظيم فيقال ان الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم

لقوله تعالى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب بتعيين من يخشاه عزوجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم اما فى الاوصاف المعنوية فبطريق التمثيل واما فى الاوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان اى انما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عزوجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وافعاله الجميلة لما ان مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشؤنه فمن كان اعلم به تعالى كان اخشى منه عزوجل كما قال عليه الصلاة والسلام انا اخشاكم لله واتقاكم له ولذلك عقب بذكر افعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع انذارهم بالكلية وتقديم المفعول لان المقصود حصر الفاعلية ولواخر انعكس الامر وقرئ برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على ان الخشية مستعارة للتعظيم فان المعظم يكون مهيبا (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على انه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه (ان الذين يتلون كتاب الله) اى يداومون على قراءته اومتابعة مافيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذاك فان صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتى من توفية الاجور وزيادة الفضل وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفا

فاختار محمدا عليه السلام ولم يختر غيره فهو اصلح من الكل ❁ ثم قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) اتفق اكثر المفسرين على ان المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين اخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى جنات عدن يدخلونها أخبر بدخولهم الجنة وكلمة ثم أورثنا ايضا تدل عليه لان الايراث اذا كان بعد الايحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ويحتمل ان يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير والمعنى على هذا انا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الانبياء ويدل عليه ان لفظ المصطفى على الانبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولان قوله من عبادنا دل على ان العباد اكابر مكرمون بالاضافة اليه ثم ان المصطفين منهم اشرف منهم ولا يليق بمن يكون اشرف من الشرفاء ان يكون ظالما مع ان لفظ الظالم اطلقه الله فى كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلما وعلى الوجه الاول التفسير ظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد واخذوه منه وافترقوا فمنهم ظالم وهو المسيء ومقتصد وهو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا وسابق بالخيرات وهو الذى اخلص العمل لله وجرده عن السيآت فان قال قائل كيف قال فى حق من ذكر فى حقه انه من عباده وانه مصطفى انه ظالم مع ان الظالم يطلق على الكافر فى كثير من المواضع فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه فى غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ويصحح هذا قول عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ظالمنا مغفور له وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى ربنا ظلمنا انفسنا واما الكافر فيضع قلبه الذى به اعتبار الجسد فى غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق واما قلب المؤمن فمطمئن بالايمان لا يضعه فى غير التفكر فى آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله وفى المراتب الثلاثة اقوال كثيرة (احدها) الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذى تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذى ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد (رابعها) الظالم صاحب الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه والمقتصد التالى العالم والسابق التالى العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم اصحاب المشأمة والمقتصد اصحاب الميمنة والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار

(والمقتصد)

ظاهرا مما لا سبيل اليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الاسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب ثم التعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والاشباع فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والاقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعا لان الباقى مشروعا ليس الا حكمها لكن لا من حيث انه حكمها بل من حيث انه حكم القرآن واما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الاجر بالمرة فتدبر (واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) كيفما اتفق من غير قصد اليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة (يرجون تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر ان وقوله تعالى (لن تبور) اى لن تكسد ولن تهلك بالخسران اصلا صفة لتجارة جيء بها للدلالة على انها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لانها اشتراء باق بفان والاخبار برجائهم من اكرم الاكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم اجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقيل بمضمر دل عليه ما عد من أفعالهم المرضية اى فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل بيرجو على أن اللام للعاقبة (انه غفور شكور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أى غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم أى مجازيهم عليها وقيل هو خبر ان الذين ويرجون حال من واو أنفقوا (والذى أوحينا اليك من

والمقتصد الذى يحاسب فيدخل الجنة والسابق الذى يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية والمقتصد هو النادم والتائب والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذى اخذ القرآن ولم يعمل به والمقتصد الذى عمل به والسابق الذى اخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل والمقتصد كامل والظالم ناقص والمختار هو ان الظالم من خالف فترك اوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشئ فى غير موضعه والمقتصد هو المجتهد فى ترك المخالفة وان لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه اثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذى لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى باذن الله اى اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع فى قلبه فيسبق اليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع فى قلبه فتردده النفس والظالم تغلبه النفس ونقول بعبارة اخرى من غلبته النفس الامارة وامرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب اخرى فهو المقتصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوها (احدها) التوفيق المدلول عليه بقوله باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الايراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير اما الوجه الآخر وهو ان يقال ثم اورثنا الكتاب اى جنس الكتاب كما قال تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير يرد عليه اسئلة (احدها) ثم للتراخى وايتاء الكتاب بعد الايحاء الى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فالمراد بكلمة ثم نقول معناه ان الله خبير بصير خبرهم وابصرهم ثم اورثهم الكتاب كأنه قال تعالى انا علمنا البواطن وابصرنا الظواهر واصطفينا عبادا ثم اورثناهم الكتاب (ثانيها) كيف يكون من الانبياء ظالم لنفسه نقول منهم غير راجع الى الانبياء المصطفين بل المعنى ان الذى اوحينا اليك هو الحق وانت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتبا ومنهم اى من قومك ظالم كفر بك وبما انزل اليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما امرته به وسابق آمن وعمل صالحا (ثالثها) قوله جنات عدن يدخلونها الداخلون هم المذكورون وعلى ماذكرتم لايكون الظالم داخلا نقول الداخلون هم السابقون واما المقتصد فأمره موقوف او هو يدخل النار او لاثم يدخل الجنة والبيان لاول الامر لا لما بعده ويدل عليه قوله يحلون فيها من أساور من ذهب وقوله اذهب عنا الحزن ❁ ثم قال (جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وفى الداخلين وجوه (أحدها) الاقسام الثلاثة وهى على قولنا ان الظالم والمقتصد والسابق اقسام المؤمنين (والثانى) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو اقوى لقرب ذكرهم ولانه ذكر اكرامهم بقوله يحلون فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه ابحاث (الاول) تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى اذا كان المفعول حقيقيا كقولنا الله خلق السموات وقول القائل

الكتاب) وهو القرآن ومن للتبيين او الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) اى احقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لان حقيته تستلزم موافقته اياه فى العقائد واصول الاحكام (ان الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن امورهم وظواهرها فلو كان فى احوالك ماينافى النبوة لم يوح اليك مثل هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على ان العمدة هى الامور الروحانية (ثم اورثنا الكتاب) اى قضينا بتوريثه منك او نورثه والتعبير عنه بالماضى لتقرره وتحققه وقيل اورثناه من الامم السالفة اى اخرناه عنهم واعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الامة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير سيرتهم او الامة باسرهم فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم امة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى افضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير فى العمل به وهو المرجأ لامر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به فى اغلب الاوقات ولا يخلو من خلط السيئ (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) قيل هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم المداومون على اقامة مواجبه علما وعملا وتعليما وفى قوله تعالى باذن الله اى بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها

يدبنى الجدار فان الله موجود قبل كل شئ ثم له فعل هو الخلق ثم حصل به المفعول وهو السموات وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه واذا لم يكن المفعول حقيقيا كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمرا فان الدار فى الحقيقة ليس مفعولا للداخل وانما فعل من افعاله تحقق بالنسبة الى الدار وكذلك عمرو فعل من افعال زيد تعلق به فسمى مفعولا لا يحصل هذا الترتيب ولكن الاصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمرا ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة اليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم الا لفائدة فالفائدة فى تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول واعادة ذكرها بالهاء فى يدخلونها وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن تقول السامع اذا علم ان له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له انت تدخل فالى ان يسمع الدار او السوق يبقى متعلق القلب بأنه فى اى المداخل يكون فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولاسيما الجنة والنار فان بين المدخلين بونا بعيدا (الثانى) قوله يحلون فيها اشارة الى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال يدخلونها وفيها تقع تحليتهم (الثالث) من اساور بجمع الجمع فانه جمع اسورة وهى جمع سوار وقوله ولباسهم فيها حرير ليس كذلك لان الاكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد او غيره والاكثار من الزينة لا يدل الا على الغنى (الرابع) ذكر الاساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى وحلوا أساور من فضة وذلك لان التحلى بمعنيين (أحدهما) اظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) اظهار الاستغناء عن الاشياء واظهار القدرة على الاشياء وذلك لان التحلى اما باللآلئ والجواهر واما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلئ يدل على ان المتحلى لا يعجز عن الوصول الى الاشياء الكثيرة عند الحاجة حيث لم يعجز عن الوصول الى الاشياء القليلة الوجود لا لحاجة والتحلى بالذهب والفضة يدل على انه غير محتاج حاجة اصلية والا لصرف الذهب والفضة الى دفع الحاجة اذا عرفت هذا فنقول الاساور محلها الايدى واكثر الاعمال باليد فانها للبطش فاذا حليت بالاساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ اشارة الى النوعين اللذين منهما الحلى * ثم تعالى (وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) فى الحزن اقوال كثيرة والاولى ان يقال المراد اذهاب كل حزن والالف واللام للجنس واستغراقه واذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغى وبقائه دائما فان شيئا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودا بسببه وان حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته وقوله ان ربنا لغفور شكور ذكر الله عنهم امورا كلها تفيد الكرامة من الله (الاول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ الا واستجاب لهم اللهم الا ان يكون المنادى

وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيئ والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيآته مكفرة وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام اما الذين سبقوا فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واما المقتصد فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا واما الذين ظلموا انفسهم فاولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته وقد روى ان عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (ذلك) اشارة الى السبق بالخيرات ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف (هو الفضل الكبير) من الله عز وجل لا ينال الا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) ابدال من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب او مبتدأ خبره (يدخلونها) وعلى الاول هو مستأنف وجمع الضمير لان المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وان لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذير لهما من التقصير وتحريضا على السعى فى ادراك شأو السابقين وقرئ جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة وقرئ يحلون من حليت المرأة فهى حالية (من أساور) هى جمع اسورة جمع سوار (من ذهب) من الاولى

قد ضيع الوقت الواجب أو طلب مالا يجوز كالرد الى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم غفور (الرابع) قولهم شكور والغفور اشارة الى ماغفر لهم فى الآخرة بما وجدلهم من الحمد فى الدنيا والشكور اشارة الى مايعطيهم ويزيدلهم بسبب ماوجد لهم فى الآخرة من الحمد ❊ ثم قال تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) أى دار الاقامة لما ذكرالله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وادخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها واعلمهم بدوامها حيث قالوا الذى أحلنا دار المقامة اى الاقامة والمفعول ربما يجئ للمصدر من كل باب يقال ماله معقول اى عقل وقال تعالى مدخل صدق وقال تعالى ومزقناهم كل ممزق وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لان المصدر هو المفعول فى الحقيقة فانه هو الذى فعل فجاز اقامة المفعول مقامه وفى قوله دار المقامة اشارة الى ان الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها الى منزلة القبور ومنها الى منزلة العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق وقدتكون النار لبعضهم منزلة اخرى والجنة دار المقامة وكذلك النار لاهلها وقولهم من فضله اى بحكم وعده لابايجاب من عنده وقوله تعالى (لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب) اللغوب الاعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل اذابين انه لايمسهم فيها نصب علم انه لايمسهم فيها لغوب ولا ينفى المتكلم الحكيم السبب ثم ينفى مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لاأكلت ولا شبعت اولاقمت ولامشيت والعكس كثير فانه يقال لاشبعت ولااكلت لما ان نفى الشبع لايلزمه انتفاء الأكل وسياق ماتقرر ان يقال لايمسنا فيها اعياء ولامشقة فنقول ماقال الله فى غاية الجلالة وكلام الله اجل وبيانه اجل ووجهه هو انه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا اماكنها على قسمين (احدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبرارى والصحارى والطرقات والاراضى (والآخر) موضع يظهر فيه الاعياء كالبيوت والمنازل التى فى الاسفار من الخانات فان من يكون فى مباشرة شغل لايظهر عليه الاعياء الابعدمايستريح فقال تعالى لايمسنا فيها نصب اى ليست الجنة كالمواضع التى فى الدنيا مظان المتاعب بل هى افضل من المواضع التى هى مواضع مرجع العى فقال ولا يمسنا فيها لغوب اى ولانخرج منها الى مواضع نتعب ونرجع اليها فيمسنا فيها الاعياء وقرئ لغوب بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لانتعب ولا يمسنا مايصلح لذلك وهذا لان القوى السوى اذاقال ماتعبت اليوم لايفهم من كلامه انه ماعمل شيئا لجواز انه عمل عملا لم يكن بالنسبة اليه متعبا لقوته فاذاقال مامسنى مايصلح ان يكون متعبا يفهم انه لم يعمل شيئا لان نفس العمل قديصلح ان يكون متعبا لضعيف اومتعبا بسبب كثرته واللغوب هو مايلغب منه وقيل النصب التعب الممرض وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لايمسنا مرض ولادون ذلك وهو الذى يعيى منه مباشره ❊ ثم قال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم) عطف على قوله ان الذين يتلون كتاب الله ومابينهما كلام يتعلق

تبعيضية والثانية بيانية اى يحلون بعض اساور من ذهب كأنه افضل من سائر افرادها (ولؤلؤا) بالنصب عطفا على محل من اساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب اى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ (ولباسهم فيها حرير) وتغيير الاسلوب قدمر سره فى سورة الحج (وقالوا) اى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن) وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما حزن الاعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة ابليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعم والظاهر انه الجنس المنتظم لجميع احزان الدين والدنيا وقرئ الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على اهل لااله الاالله وحشة فى قبورهم ولافى محشرهم ولافى مسيرهم وكأنى باهل لااله الاالله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمدلله الذى اذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور) اى للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذى احلنا دار المقامة) اى دار الاقامة التى لاانتقال عنها ابدا (من فضله) من انعامه وتفضله من غير ان يوجبه شئ من قبلنا (لايمسنا فيها نصب) تعب (ولايمسنا فيها لغوب) كلال والفرق بينهما ان

بالذين يتلون كتاب الله على مابينا وقوله جنات عدن يدخلونها قدذكرنا انه على بعض الاقوال راجع الى الذين يتلون كتاب الله ۞ ثم قال تعالى (لايقضى عليهم فيموتوا) أى لايستريحون بالموت بل العذاب دائم (ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور) أى النار وفيه لطائف (الاولى) ان العذاب فى الدنيا ان دام كثيرا يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا متمكنا لايحس به المعذب فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اما أن يفنى واما أن يألفه البدن بل هو فى كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على احسن وجه وذلك لان الترتيب أن لاينقطع العذاب ولايفتر فقال لاينقطع الا بأقوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولايجابون كما قال تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك اى بالموت (الثالثة) فى المعذبين اكتفى بأنه لاينقص عذابهم ولم يقل نزيدهم عذابا وفى المثابين ذكر الزيادة بقوله ويزيدهم من فضله ثم لما بين ان عذابهم لايخفف قال تعالى (وهم يصطرخون فيها) اى لايخفف وان اصطرخوا واضطربوا لايخفف الله من عنده انعاما الى أن يطلبوه بل يطلبون ولايجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب وقوله تعالى (ربنا أخرجنا) أى صراخهم بهذا اى يقولون ربنا اخرجنا لان صراخهم كلام وفيه اشارة الى ان ايلامهم تعذيب لاتأديب وذلك لان المؤدب اذا قال للمؤدب لاارجع الى مافعلت وبئسما فعلت يتركه واما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لانه لما بين انه لايخفف عنهم بالكلية ولايعفو عنهم بين انه لايقبل منهم وعدا وهذا لان المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه يطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول اخرجنى افعل كذا وكذا واعلم ان الله تعالى قد بين ان من يكون فى الدنيا ضالا فهو فى الآخرة ضال كما قال تعالى ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الآخرة اعمى ثم انهم لم يعلموا ان العود الى الدنيا بعيد محال بحكم الاخبار وعلى هذا قالوا (نعمل صالحا) جازمين من غير استعانة بالله ولامثوبة فيه ولم يقولوا ان الامر بيد الله فقال الله لهم اذا كان اعتمادكم على انفسكم فقد عمرناكم مقدارا يمكن التذكر فيه والاتيان بالايمان والاقبال على الاعمال وقولهم (غير الذى كنا نعمل) اشارة الى ظهور فساد عملهم لهم وكان الله تعالى كما لم يهدهم فى الدنيا لم يهدهم فى الآخرة فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لابعملهم ونحن احوج الى تخفيف العذاب منهم الى تضعيف الثواب فافعل بنا ما انت اهله نظرا الى فضلك ولاتفعل بنا مانحن اهله نظرا الى عدلك وانظر الى مغفرتك الهاطلة ولاتنظر الى معذرتنا الباطلة وكما هدى الله المؤمن فى الدنيا هداه فى العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء الى الاجابة واثنى عليه بأطيب ثناء عند الانابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكور اقرارا بوصول مالم يخطر ببالهم اليهم وقالوا احلنا دار المقامة من فضله اى لاعمل لنا بالنسبة الى نعم الله وهم قالوا اخرجنا نعمل صالحا

النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب مايحدث منه من الفتور والتصريح بنفى الثانى مع استلزام نفى الاول له وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما (والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم) لايحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) ويستريحوا ونصبه باضمار ان وقرئ فيموتون عطفا على يقضى كقوله تعالى ولايؤذون لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد اسعارها (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى كل كفور) مبالغ فى الكفر أو الكفران لاجزاء اخف وادنى منه وقرئ يجزى على البناء للمفعول واسناده الى الكل وقرئ يجازى (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته (ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) باضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والاشعار بأن استخراجهم لتلافيه وانهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين خلافه وقوله تعالى

(اغماضا)

اغماضا فى حق تعظيمه واعراضا عن الاعتراف بعجزهم عن الاتيان بما يناسب عظمته ثم انه تعالى بين انه آتاهم مايتعلق بقبول المحل من العمر الطويل ومايتعلق بالفاعل فى المحل فان النبى صلى الله عليه وسلم كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات فقال تعالى (أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فان المانع اما ان يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله واما ان يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم * ثم قال تعالى (فذوقوا فما للظالمين من نصير) وقوله فذوقوا اشارة الى الدوام وهو أمر اهانة فالظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم قال بعض الحكماء قوله فما للظالمين من نصير وقوله وما للظالمين من أنصار يحتمل ان يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركبا وهو الذى يعتقد الباطل حقا فى الدنيا وماله من نصير أى من علم ينفعه فى الآخرة والذى يدل عليه هو ان الله تعالى سمى البرهان سلطانا كما قال تعالى فأتوا بسلطان والسلطان أقوى ناصر اذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم لان الله لا ينصره وليس غيره نصيرا فما لهم من نصير أصلا ويمكن ان يقال ان الله تعالى قال فى آل عمران وما للظالمين من أنصار وقال فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقال ههنا فما للظالمين من نصير اى هذا وقت كونهم واقعين فى النار فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق الا توقعهم من الله فقال ما لكم من نصير أصلا وهناك كان الامر محكيا فى الدنيا أو فى أوائل الحشر فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم * ثم قال تعالى (ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور) تقريرا لدوامهم فى العذاب وذلك من حيث ان الله تعالى لما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها ولا يزاد عليها فلو قال قائل الكافر ما كفر بالله الا اياما معدودة فكان ينبغى ان لا يعذب الا مثل تلك الايام فقال تعالى ان الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور وكان يعلم من الكافر ان فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام الى الابد لما اطاع الله ولا عبده • وفى قوله تعالى بذات الصدور مسئلة قد ذكرناها مرة ونعيدها اخرى وهى ان لقائل ان يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ويقرر السؤال قولهم ارض ذات اشجار وذات جنى اذا كان فيها ذلك فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ويصح ان يقال زيد ذو دار ومال وان كان هو فيها * ثم قال تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) تقريرا لقطع حجتهم فانهم لما قالوا ربنا اخرجنا نعمل صالحا وقال تعالى أولم نعمركم مايتذكر اشارة الى ان التمكين والامهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله وجاءكم النذير اى آتيناكم عقولا وارسلنا اليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى هو الذى جعلكم خلائف فى الارض اى نبهكم بمن مضى

(أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة اى ألم نمهلكم اولم نؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر اى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو اربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله عنه وهو العمر الذى اعذر الله فيه الى ابن آدم قال عليه الصلاة والسلام اعذر الله الى امرئ اخر اجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على الجملة الاستفهامية لانها فى معنى عمرناكم كما فى قوله تعالى الم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لانه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم او ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الاقارب والاقتصار على ذكر النذير لانه الذى يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ماقبلها من التعمير ومجئ النذير وفى قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) للتعليل (ان الله عالم غيب السموات والارض) بالاضافة وقرئ بالتنوين ونصب غيب على المفعولية اى لا يخفى عليه خافية فيهما فلا تخفى عليه احوالهم

وحال من انقضى فانكم لولم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل اهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف لكن امهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف فى الارض اى خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين (فمن كفر) بعد هذا كله (فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الامقتا) لان الكافر السابق كان ممقوتا كالعبد الذى لا يخدم سيده واللاحق الذى انذره الرسول ولم يتنبه امقت كالعبد الذى ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالى لهم الذى رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه امقت الكل ❊ ثم قال تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم الاخسارا) أى الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد الا المقت ولا ينفعهم فى انفسهم حيث لا يفيدهم الا الخسار فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر ❊ ثم قال تعالى (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الاغرورا) تقريرا للتوحيد وابطالا للاشراك وقوله أرأيتم المراد منه اخبرونى لان الاستفهام يستدعى جوابا يقول القائل ارأيت ماذا فعل زيد فيقول السامع باع أو اشترى ولولا تضمنه معنى أخبرنى والالما كان الجواب الا قوله لا او نعم وقوله شركاءكم انما اضاف اليهم الشركاء من حيث ان الاصنام فى الحقيقة لم تكن شركاء الله وانما هم جعلوها شركاء فقال شركاءكم اى الشركاء بجعلكم ويحتمل ان يقال شركاءكم اى شركاءكم فى النار لقوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وهو قريب ويحتمل ان يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الاول وقوله ارونى بدل عن ارأيتم لان كليهما يفيد معنى اخبرونى ويحتمل ان يقال قوله أرأيتم استفهام حقيق وأرونى امر تعجيز للتبيين فلما قال أرأيتم يعنى أعلمتم هذه التى تدعونها كما هى وعلى ماهى عليه من العجز او تتوهمون فيها قدرة فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها وان كان وقع لكم ان لها قدرة فأرونى قدرتها فى اى شئ هى أهى فى الارض كما قال بعضهم ان الله اله السماء وهؤلاء آلهة الارض وهم الذين قالوا أمور الارض من الكواكب والاصنام صورها ام هى فى السموات كما قال بعضهم ان السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء فى خلق السموات وهذه الاصنام صورها ام قدرتها فى الشفاعة لكم كما قال بعضهم ان الملائكة ماخلقوا شيئا ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا فهل معهم كتاب من الله فيه اذنه لهم بالشفاعة وقوله ام آتيناهم كتابا فى العائد اليه الضمير وجهان (احدهما) انه عائد الى الشركاء اى هل آتينا الشركاء كتابا (وثانيهما) انه عائد الى المشركين اى هل آتينا المشركين كتابا وعلى الاول فمعناه ماذكرنا اى هل مع ماجعل شريكا كتاب من الله فيه ان له شفاعة عند الله فان احدا لا يشفع عنده الا باذنه وعلى الثانى معناه ان عبادة هؤلاء اما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من

(انه عليم بذات الصدور) قيل انه تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهى اخفى مايكون كان اعلم بغيرها (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) يقال للمستخلف خليفة وخليف والاول يجمع خلائف والثانى خلفاء والمعنى انه تعالى جعلكم خلفاءه فى ارضه والقى اليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على مافيها واباح لكم منافعها او جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الامم واورثكم مابأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها (فعليه كفره) اى وبال كفره لا يتعداه الى غيره وقوله تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) بيان لوبال الكفر وغائلته وهو مقت الله تعالى اياهم اى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى مابعده شر وخسار والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على ان اقتضاء الكفر لكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة (قل) تبكيتا لهم (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) اى آلهتكم والاضافة اليهم لانهم جعلوهم شركاء الله تعالى من غير ان يكون له اصل ما اصلا

لم يخلق من الارض جزأ من الاجزاء ولافى السماء شيئا من الاشياء واما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابا فيه امرنا بالسجود لهؤلاء ولو امرنا لجاز كما امرنا بالسجود لآدم والى جهة الكعبة فهذه العبادة لاعقلية ولانقلية فوعد بعضهم بعضا ليس الاغرورا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الاصنام ثم لمابين انه لاخلق للاصنام ولاقدرة لها ولاعلى جزء من الاجزاء بين ان الله قدير بقوله (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا) ويحتمل ان يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية انه كان حليما غفورا كان حليما ماترك تعذيبهم الاحلما منه والاكانوا يستحقون اسقاط السماء وانطباق الارض عليهم وانما اخر ازالة السموات الى قيام الساعة حلما ويحتمل الآية وجها ثالثا وهو ان يكون ذلك من باب التسليم واثبات المطلوب على تقدير التسليم ايضا كأنه تعالى قال شركاؤكم ماخلقوا من الارض شيئا ولافى السماء جزأ ولا قدروا على الشفاعة فلاعبادة لهم وهب انهم فعلوا شيئا من الاشياء فهل يقدرون على امساك السموات والارض ولايمكنهم القول بأنهم يقدرون لانهم ما كانوا يقولون به كما قال تعالى عنهم ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويؤيد هذا قوله ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده فاذا تبين أن لامعبود الاالله من حيث ان غيره لم يخلق من الاشياء وان قال الكافر بان غيره خلق فاخلق مثل ماخلق فلاشريك له انه كان حليما غفورا حيث لم يعجل فى اهلاكهم بعد اصرارهم على اشراكهم وغفورا يغفر لمن تاب ويرحمه وان استحق العقاب * ثم قال تعالى (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير مازادهم الانفورا استكبارا فى الارض ومكر السيء ولايحيق المكر السيء الا باهله) لما بين انكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث انهم كانوا يقسمون على انهم لايكذبون الرسل اذا تبين لهم كونهم رسلا وقالوا انما نكذب بمحمد صلى الله عليه وسلم لكونه كاذبا ولو تبين لنا كونه رسولا لآمنا كما قال تعالى عنهم واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهذا مبالغة منهم فى التكذيب كما ان من ينكر دين انسان قد يقول والله لو علمت ان له شيئا لقضيته وزدت له اظهارا لكونه مطالبا بالباطل فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا اهدى الامم فلما جاءهم نذير اى محمد صلى الله عليه وسلم جاءهم اى صح مجيئه لهم بالبينة مازادهم الانفورا فانهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولانهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة وقال بعض المفسرين ان اهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على انهم كذبوا برسلهم لما جاؤهم وقالوا لو جاءنا رسول لاطعناه واتبعناه وهذا فيه اشكال من حيث ان المشركين

وقيل جعلوهم شركاء لانفسهم فيما يملكونه ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه (اروني ماذا خلقوا من الارض) بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قيل اخبروني عن شركائكم اروني اى جزء خلقوا من الارض (أم لهم شرك فى السموات) اى أم لهم شركة مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الالوهية ذاتية (أم آتيناهم كتابا) ينطق بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) اى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بان لهم شركة جعلية ويجوز ان يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى أم انزلنا عليهم سلطانا الخ وقرئ على بينات وفيه ايماء الى ان الشرك امر خطير لابد فى اثباته من تعاضد الدلائل (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الاغرورا) لمانفى انواع الحجج فى ذلك اضرب عنه بذكر ماحملهم عليه وهو تغرير الاسلاف للاخلاف واضلال الرؤساء للاتباع بأنهم شفعاء عندالله يشفعون لهم بالتقريب اليه (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله اى يمسكها كراهة زوالهما او يمنعهما ان تزولا لان الامساك منع (ولئن زالتا ان امسكهما) اى ماامسكهما (من احد من بعده) من بعد امساكه تعالى او من بعد الزوال

كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقا فكيف كانوا يعترفون بالرسل فمن اين عرفوا ان اليهود كذبوا وماجاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من اين كان يعلم المشركون انهم صدقوا اشيئا وكذبوا فى شئ بل المراد ماذكرنا انهم كانوا يقولون نحن لوجاءنا رسول لانكره وانما ننكر كون محمد رسولا من حيث انه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله فلما جاءهم اى فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة وفى قوله اهدى وجهان (احدهما) ان يكون المراد اهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله من احدى الامم للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الانفورا اى صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون اهدى (وثانيهما) ان يكون المراد ان نكون اهدى من احدى الامم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو وفى الامم وجهان (احدهما) ان يكون المراد العموم اى اهدى من اى احدى الامم وفيه تعريض (وثانيهما) ان يكون المراد تعريف العهد اى امة محمد وموسى وعيسى ومن كان فى زمانهم ثم قال تعالى استكبارا فى الارض ونصبه يحتمل ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون حالا اى مستكبرين فى الارض (وثانيها) ان يكون مفعولا له اى للاستكبار (وثالثها) ان يكون بدلا عن النفور وقوله ومكر السيئ اضافة الجنس الى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه ان يقال معناه ومكروا مكرا سيئا ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام واضيف الى السيئ لكون السوء فيه أبين الامور ويحتمل ان يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا فى قوله تعالى والذين يمكرون السيئات اى يعملون السيئات ومكرهم السيئ وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد الى ايذاء ومنع الناس من الدخول فى الايمان واظهار الانكار ثم قال ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله اى لايحيط الا بفاعله وفى قوله ولا يحيق وقوله الا بأهله فوائد اما فى قوله يحيق فهى انها تنبئ عن الاحاطة التى هى فوق اللحوق وفيه من التحذير ماليس فى قوله ولا يلحق او ولا يصل واما فى قوله بأهله ففيه ماليس فى قول القائل ولا يحيق المكر السيئ الا بالماكر كى لا يأمن المسيئ فان من اساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه واما اذا لم يكن سيئا فلا يكون اهلا فيأمن المكر السيئ واما فى النفى والاثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير اهله فان قال قائل كثيرا مانرى ان الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك فنقول الجواب عنه من وجوه (احدها) ان المكر المذكور فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو ان نقول المكر السيئ عام وهو الاصح فان النبى عليه السلام نهى عن المكر واخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لاتمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله يقول ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به يكون اهلا فلا يرد نقضا (وثالثها) ان الامور

(بعواقبها)

والجملة سادة مسد الجوابين ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء (انه كان حليما غفورا) غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جناياتهم حيث امسكهما وكانتا جديرتين بان تهدا هدا حسبما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وقرئ ولو زالتا (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم) بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى اتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن اتانا رسول لنكونن اهدى من احدى الامم اليهود والنصارى وغيرهم او من الامة التى يقال لها احدى الامم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة (فلما جاءهم نذير) واى نذير اشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام (مازادهم) اى النذير او مجيئه (الانفورا) تباعدا عن الحق (استكبارا فى الارض) بدل من نفورا او مفعول له (ومكر السيئ) اصله وان مكروا السيئ اى المكر السيئ ثم ومكرا السيئ ثم ومكر السيئ وقرئ بسكون الهمزة فى الوصل ولعله اختلاس ظن سكوتا او وقفة خفيفة وقرئ مكرا سيا (ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله

بعواقبها ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ففى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ويبين هذا المعنى قوله تعالى فهل ينظرون الا سنة الاولين يعنى اذا كان لمكرهم فى الحال رواج فالعاقبة للتقوى والامور بخواتيمها فيهلكون كما هلك الاولون * وقوله تعالى (فهل ينظرون الا سنة الاولين) اى ليس لهم بعد هذا الا انتظار الاهلاك وهو سنة الاولين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاهلاك ليس سنة الاولين انما هو سنة الله بالاولين فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف الى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما اذا ضرب زيد عمرا عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها اليهم لانها سنة سنت بهم واضافها الى نفسه بعدها بقوله تعالى (فلن تجد لسنت الله تبديلا) لانها سنة من سنن الله اذا علمت هذا فنقول اضافها فى الاول اليهم حيث قال سنة الاولين لان سنة الله الاهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم انهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الاولين تميزت وفى الثانى أضافها الى الله لانها لما علمت فالاضافة الى الله تعظمها وتبين انها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) ان المراد من سنة الاولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار وسنة الله استئصالهم بأصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الاتيان بسنة الاولين والله يأتى بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها (المسئلة الثانية) التبديل تحويل فما الحكمة فى التكرار نقول بقوله فلن تجد لسنت الله تبديلا حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره وبقوله تعالى (ولن تجد لسنت الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع انه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه الى غيره فيتم تهديد المسئ (المسئلة الثالثة) المخاطب بقوله فلن تجد يحتمل وجهين وقد تقدم مرارا (أحدهما) ان يكون عاما كأنه قال فلن تجد ايها السامع لسنة الله تبديلا (والثانى) ان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله انه لا يهلك مابقى فى القوم من كتب الله ايمانه فاذا آمن من فى علم الله انه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح انك ان تذرهم اى تمهل الامر وجاء وقت سنتك * ثم قال تعالى (اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا اشد منهم قوة) لما ذكر ان للاولين سنة وهى الاهلاك نبههم بتذكير حال الاولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم واملهم كان فوق املهم وعملهم كان دون عملهم اما الاول فلطول اعمارهم وشدة اقتدارهم واما عملهم فلانهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدا وأنتم يا اهل مكة كذبتم محمدا ومن تقدمه وقوله تعالى وكانوا اشد منهم قوة قد ذكرناه فى سورة الروم بقى فيه ابحاث (الاول) قال هناك كانوا اشد من غير واو وقال ههنا بالواو فما الفرق نقول قول القائل اما رأيت زيدا كيف اكرمنى واعظم منك يفيد ان القائل يخبره بأن زيدا

فهل ينظرون) اى ماينتظرون (الا سنة الاولين) اى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم (فلن تجد لسنت الله تبديلا) بان يضع موضع العذاب غير العذاب (ولن تجد لسنت الله تحويلا) بان ينقله من المكذبين الى غيرهم والفاء لتعليل مايفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما (اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهاد على ماقبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه فى مسايرهم الى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الامم الماضية العاتية والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام اى اقعدوا فى مساكنهم ولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (وكانوا اشد منهم قوة) واطول اعمارا فما نفعهم طول المدى وما اغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالة

اعظم واذ قال امارأته كيف اكرمنى هو اعظم منك يفيد انه تقرر ان كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه اكرمه ورآه اكبر منه ولاشك ان هذه العبارة الاخيرة تفيد كون الامر الثانى فى الظهور مثل الاول بحيث لايحتاج الى اعلام من المتكلم ولا اخبار اذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لاغير ولعل ذلك كان ظاهرا عندهم فقال بالواو اى نظركم كما يقع على عاقبة امرهم يقع على قوتهم واما هناك فالمذكور اشياء كثيرة فأنه قال كانوا اشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها وفى موضع آخر قال افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم واشد قوة وآثارا فى الارض ولعل علمهم لم يحصل بأثارتهم الارض او بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوما عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم انهم اقوى منهم ولانزاع فيه ❁ وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما قديرا) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون بيانا لهم اى ان الاولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم اولى بأن لايعجزوه (والثانى) ان يكون قطعا لاطماع الجهال فان قائلا لو قال هب ان الاولين كانوا اشد قوة واطول اعمارا لكننا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور ارضية لها خواص او كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما بأفعالهم واقوالهم قديرا على اهلاكهم واستئصالهم ❁ ثم قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله للعذاب اجل والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم فأن الانسان ظلوم جهول وانما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن ايمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله ايمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم اهلاك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون نقول الجواب من وجوه (احدها) ان خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لان المفرد اولا ثم المركب والمركب اما ان يكون معدنيا واما ان يكون ناميا والنامى اما ان يكون حيوانا واما ان يكون نباتا والحيوان اما انسان واما غير انسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات فى عالم العناصر للانسان (الثانى) هو ان ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الاشياء بالانسان كما ان بقاء الانسان بالاشياء وذلك لان الانسان يدبر الاشياء ويصلحها فتبقى الاشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الانسان فأذا كان الهلاك عاما لا يبقى من الانسان من يعمر فلا تبقى الابنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الاهلية لان بقاءها بحفظ الانسان اياها عن التلف والهلاك بالسقى والعلف

وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شئ) اى ليسبقه ويفوته (فى السموات ولا فى الارض) اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الامم السالفة وقوله تعالى (انه كان عليما قديرا) اى مبالغا فى العلم والقدرة ولذلك علم بجميع اعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك (ولو يؤاخذ الله الناس) جميعا (بما كسبوا) من السيئات كما فعل بأولئك (ما ترك على ظهرها) اى على ظهر الارض (من دابة) من نسمة تدب عليها من بنى آدم وقيل ومن غيرهم ايضا من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وانس رضى الله عنهما ويعضد الاول قوله تعالى (ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى) وهو يوم القيامة (فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر ❁ عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية ابواب الجنة ان ادخل من اى باب شئت والله تعالى اعلم

(الثالث)

(الثالث) هو ان انزال المطر هو انعام من الله فى حق العباد فاذا لم يستحقوا الانعام قطعت الامطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى ماترك على ظهرها من دابة يؤيد الوجه الثالث لان بسبب انقطاع الامطار تموت حيوانات البر اما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار (المسئلة الثانية) قوله تعالى على ظهرها كناية عن الارض وهى غير مذكورة فكيف علم نقول بما تقدم وبما تأخر اما ماتقدم فقوله وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض فهو اقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء اليها * واما ماتأخر فقوله من دابة لان الدواب على ظهر الارض فان قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع ان الوجه مقابل الظهر كالمضاد نقول من حيث ان الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الارض ومن حيث ان ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها على ان الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الارض ظهر لانه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن (المسئلة الثالثة) فى قوله تعالى ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى وجوه (احدها) الى يوم القيامة وهو مسمى مذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ماتقدم (ثالثها) لكل امة اجل ولكل اجل كتاب واجل قوم محمد صلى الله عليه وسلم ايام القتل والاسر كيوم بدر وغيره (المسئلة الرابعة) قوله تعالى فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيرا تسلية للمؤمنين وذلك لانه تعالى لما قال ماترك على ظهرها من دابة وقال لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصيرا ما ان ينجيهم او يكون توفيهم تقريبا من الله لا تعذيبا * لا يقال قد ذكرت ان الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم وانما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الاهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا * نقول قد ذكرنا ان الاماتة والافناء ان كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب واهلاك وان كان لايصال الثواب فليس باهلاك ولا بمؤاخذة والله لا يؤاخذ الناس الا عند عموم الكفر وقوله بصيرا لفظ اتم فى التسلية من العليم وغيره لان البصير بالشئ الناظر اليه اولى بالانجاء من العالم بحاله دون ان يراه والله اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

(سورة يس ثمانون وثلاث آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يس والقرآن الحكيم) قد ذكرنا كلاما كليا فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت وذكرنا ان فى كل سورة بدأ الله فيها بحرف التهجى كان فى أوائلها الذكر او الكتاب او القرآن ولنذكر ههنا ابحاثا (البحث الاول) هو ان فى ذكر هذه الحروف فى اوائل السور امورا تدل على انها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لا يصل اليها بعينها

سورة يس مكية وعنه عليه الصلاة والسلام تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآيها ثلاث وثمانون

﴿ بسم الرحمن الرحيم ﴾

(يس) اما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب او اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الاكثر فحله الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف او النصب على انه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب اى هذه يس او اقرأ يس ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لان ما بعده مقسم به وقد ابوا الجمع بين قسمين على شئ واحد قبل انقضاء الاول ولا مجال للعطف لاختلافهما اعرابا وقيل هو مجرور باضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من ان ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون او كانت موازنة لمفرد نحو طس ويس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يتأتى فيها الاعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب اسماء

فنقول ماهو الكلى من الحكمة فيها اما بيان ان فيها مايدل على الحكمة فهو ان الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى اربعة عشر حرفا وهى نصف ثمانية وعشرين حرفا وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم انه تعالى قسم الحروف ثلاثة اقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال وتسعة أحرف اخر فى آخر الحروف من الفاء الى الياء وعشرة من الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين هما الالف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ولم يترك من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاواسط ذكر منها حرفا وترك حرفا فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين وليس هذا امرا يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة واما ان عينها غير معلومة فظاهر وهب ان واحدا يدعى فيه شيئا فاذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم وطسم والر وبعضها بأربعة كسورتى المر والمص وبعضها بخمسة أحرف كسورتى حم عسق وكهيعص وهب ان قائلا يقول ان هذا اشارة الى ان الكلام اما حرف واما فعل واما اسم والحرف كثيرا ماجاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض واو للتخيير وام للاستفهام المتوسط وان للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلا فى الاسم وألا يألو وعلى يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاء على اربعة والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فاجاء فى القرآن اشارة الى ان تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فاذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر الا الله ومن اعلمه الله به اذا علمت هذا فنقول اعلم ان العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم اما القلبية مع انها ابعد عن الشك والجهل ففيها مالم يعلم دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد سيما كالصراط الذى أرق من الشعرة واحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لاثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ماعلم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول وكذلك فى العبادات الجارحية ماعلم معناه ومالم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى ان العبد اذا أتى بما امر به من غير ان يعلم

السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث واين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر بجيرو قيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان معناه يا انسان فى لغة طيء قالوا المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل اصله يا انيسين فاقتصر على شطره كما قيل من الله فى ايمن الله (والقرآن) بالجر على انه مقسم به ابتداء وقد جوز ان يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم (الحكيم) اى المتضمن للحكمة او الناطق بها بطريق الاستعارة او المتصف بها على الاسناد المجازى وقد جوز ان يكون الاصل الحكيم قائله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة لقمان (انك لمن المرسلين) جواب للقسم والجملة لرد انكار الكفرة بقولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جلة ماشير اليه بقوله تعالى فى جوابهم قل كفى بالله شهيدا بينى

مافيه من الفائدة لايكون الا آتيا بمحض العبادة بخلاف مالو علم الفائدة فربما يأتى به للفائدة وان لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزا هولك ينقلها وان لم يؤمن اذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية وجب منها مالايفهم معناه حتى اذا تكلم به العبد علم منه انه لايقصد غير الانقياد لامر المعبود الآمر الناهى فاذا قال حم يس ألم طس علم انه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه اويفهمه فهو يتلفظ به اقامة لما امر به (البحث الثانى) قيل فى خصوص يس انه كلام هو نداء معناه ياانسان وتقريره هو ان تصغير انسان انيسين فكأنه حذف الصدر منه واخذ العجز وقال يسن أى انيسين وهذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله تعالى بعده انك لمن المرسلين (البحث الثالث) قرئ يس امابالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس واما بالضم على نداء المفرد أو على انه مبنى كحيث وقرئ يس امابالنصب على معنى اتل يس واما بالفتح كأين وكيف وقرئ يس بالكسر كجير لاسكان الياء وكسرة ماقبلها ولا يجوز ان يقال بالجر لان اضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى والقرآن الحكيم أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على انه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم ❊ وقوله تعالى (انك لمن المرسلين) مقسم عليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكفار انكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لابالقسم فالحكمة فى الاقسام نقول فيه وجوه (الاول) هو ان العرب كانوا يتوقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون ان اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وانزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وامنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد انه ليس بكاذب (الثانى) هو ان المناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب احدهما الآخر بتمشية دليله واسكته يقول المطلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وانت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم ان الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه صورة دليل وعجزت انا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المناظرين فعندهذا لايجوز أن يأتى هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ماقاله فى الاول فلا يجد أمرا الا اليمين فيقول والله انى لست مكابرا وان الامر على ماذكرت ولو علمت خلافه لرجعت اليه فههنا يتعين اليمين فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم لما أقام البراهين وقالت الكفرة ماهذا الارجل يريد ان يصدكم وقالوا للحق لما جاءهم ان هذا الاسحر مبين تعين التمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو ان هذا ليس مجرد الحلف وانما هو دليل خرج فى صورة اليمين لان القرآن معجزة ودليل

وبينكم وفى تخصيص القرآن بالاقسام به اولا وبوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتنبيه على انه كما يشهد برسالته عليه الصلاة والسلام من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية ايضا لما ان الاقسام بالشئ استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهدا به ودليلا عليه قطعا وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر آخر لان او حال من المستكن فى الجار والمجرور على انه عبارة عن الشريعة الشريفة بكمالها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان ان شريعته عليه الصلاة والسلام اقوم الشرائع واعدلها كما يعرب عنه التنكير التفخيمى والوصف اثر بيان انه عليه الصلاة والسلام من جملة المرسلين بالشرائع (تنزيل العزيز الرحيم) نصب على المدح وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وبالجر على انه بدل من القرآن وايا ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بيانا لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله عز وجل كأنه نفس

كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فان قيل فلم لم يذكر فى صورة الدليل وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين قلنا الدليل ان ذكر لا فى صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لاسيما من العظيم الا على امر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعى على الاصغاء اليه فلصورة اليمين تشرب اليه الاجساد ولكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع فى السمع وينفع فى القلب (المسئلة الثانية) كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا فلهم ان يقولوا ان هذا ليس بقسم نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان كون القرآن معجزة بين ان انكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثانى) ان العاقل لا يثق بيمين غيره الا اذا حلف بما يعتقد عظمته فالكافر ان حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم ان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذى يوجب ثقتهم به ❊ وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر بعد خبر اى انك على صراط مستقيم والمستقيم اقرب الطرق الموصلة الى المقصد والدين كذلك فانه توجه الى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه الى المقصد اقرب اليه من المولى عنه والمنحرف منه ولا يذهب فهم احد الى ان قوله انك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال ان محمدا من الناس مجتبى لان جميع المرسلين على صراط مستقيم وانما المقصود بيان كون النبى صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذى يكون عليه المرسلون وقوله على صراط مستقيم فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا الى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث ان الله بين ان المرسلين ماداموا فى الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون الى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز ❊ وقوله تعالى (تنزيل العزيز الرحيم) قرئ بالجر على انه بدل من القرآن كأنه قال والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وقرئ بالنصب وفيه وجهان (احدهما) انه مصدر فعله منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن او الكتاب الحكيم (والثانى) انه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم اعنى تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وهذا ما اختاره الزمخشرى وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجها آخر على هذه القراءة وهو ان يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله العزيز الرحيم اشارة الى ان الملك اذا ارسل رسولا فالمرسل اليهم اما ان يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم الا اذا كان عزيزا او يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك او نقول المرسل يكون معه فى رسالته منع عن اشياء واطلاق لاشياء فالمنع يؤكد العزة والاطلاق يدل على الرحمة ❊ وقوله تعالى

(لتنذر)

التنزيل واظهارا لفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الايمان به ترهيبا وترغيبا واشعار بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما ارسلناك الا رحمة للعالمين وقيل النصب على انه مصدر مؤكد لفعله المضمر اى نزل تنزيل العزيز الرحيم على انه استئناف مسوق لبيان ماذكر من فخامة شان القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية (لتنذر) متعلق بتنزيل على الوجوه الاول وبعامله المضمر على الوجه الاخير اى لتنذر به كما فى صدر الاعراف وقيل هو متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين اى انك مرسل لتنذر (قوما ماأنذر آباؤهم) اى لم ينذر آباؤهم الاقربون لتطاول مدة الفترة على ان ما نافية فتكون صفة مبينة لغاية احتياجهم الى الانذار او الذى انذره او شيئا انذره آباؤهم الابعدون على انها موصولة او موصوفة فيكون مفعولا ثانيا لتنذر او انذار آبائهم الاقدمين

(لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم فهم غافلون) قد تقدم تفسيره فى قوله لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك وقيل المراد الاثبات وهو على وجهين (احدهما) لتنذر قوما انذار آبائهم فتكون مامصدرية (الثانى) ان تكون موصولة معناه لتنذر قوما الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون فعلى قولنا مانافية تفسيره ظاهر فان من لم ينذر آباؤه وبعد الانذار عنه فهو يكون غافلا وعلى قولنا هى للاثبات كذلك لان معناه لتنذرهم انذار آبائهم فانهم غافلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضى ان لايكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضى ان يكونوا منذرين وبينهما تضاد نقول على قولنا مانافية معناه ماأنذر آباؤهم وانذار آبائهم الاولين لاينافى ان يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين (المسئلة الثانية) قوله لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم يقتضى ان لايكون النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بانذار اليهود لان آباءهم أنذروا نقول ليس كذلك اما على قولنا ماللاثبات لاللنفى فظاهر واما على قولنا هى نافية فكذلك وقد بينا ذلك فى قوله تعالى بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك وقلنا ان المراد ان آباءهم قد انذروا بعد ضلالهم وبعد ارسال من تقدم فان الله اذا أرسل رسولا فما دام فى القوم من يبين دين ذلك النبى ويأمر به لايرسل الرسول فى اكثر الامر فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقررا لدين من كان قبله او واضعا لشرع آخر فعنى قوله تعالى لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم اى ماأنذروا بعد ماضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لانهم لم تنذر آباؤهم الادنون بعد ماضلوا فهذا دليل على كون النبى صلى الله عليه وسلم مبعوثا بالحق الى الخلق كافة (المسئلة الثالثة) قوله فهم غافلون دليل على ان البعثة لاتكون الا عند الغفلة اما ان حصل لهم العلم بما أنزل الله بان يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولايكون ذلك تعذيبا من قبل ان يبعث الله رسولا وكذلك من خالف الامور التى لاتفتقر الى بيان الرسل يستحق الاهلاك من غير بعثه وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلى بل معناه ان الله تعالى لو خلق فى قوم علما بوجوب الاشياء وتركوه لايكونون غافلين فلايتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل * ثم قال تعالى (لقد حق القول على اكثرهم فهم لايؤمنون) لما بين ان الارسال او الانزال للانذار اشار الى ان النبى صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء وانما عليه الانذار وقد لايؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى لقد حق القول وجوه (الاول) وهو المشهور ان المراد من القول هو قوله تعالى حق القول منى لأملأن جهنم منك وممن تبعك (الثانى) هو ان معناه لقد سبق فى علمه ان هذا يؤمن وان هذا لايؤمن فقال فى حق البعض انه لايؤمن وقال فى حق غيره انه يؤمن فحق القول اى وجد وثبت بحيث لايبدل بغيره (الثالث) هو ان يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من

على انها مصدرية فيكون نعتا لمصدر مؤكد اى لتنذر انذارا كائنا مثل انذارهم (فهم غافلون) على الوجه الاول متعلق بنفى الانذار مترتب عليه والضمير للفريقين اى لم تنذر آباؤهم فهم جميعا لاجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر او بما يفيده انك لمن المرسلين وارد لتعليل انذاره عليه السلام اوارساله بغفلتهم المحوجة اليهما على ان الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه اى عما انذر آباؤهم الاقدمون لامتداد المدة واللام فى قوله تعالى (لقد حق القول على اكثرهم) جواب القسم اى والله لقد ثبت وتحقق عليهم البتة لكن لابطريق الجبر من غير ان يكون من قبلهم مايقتضيه بل بسبب اصرارهم الاختيارى على الكفر والانكار وعدم تأثرهم من التذكير والانذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع خطوات الشيطان بحيث لايلويهم صارف ولايثنيهم عاطف كيف لاوالمراد بما حق من القول قوله تعالى لابليس عند قوله لاغوينهم اجمعين لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وهو المعنى بقوله

التوحيد وغيره وبان برهانه فأكثرهم لايؤمنون بعد ذلك لان من يتوقف لاستماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الايمان اذا بان له البرهان فاذا تحقق وأكد بالايمان ولم يؤمن اكثرهم فاكثرهم تبين انهم لايؤمنون لمضي وقت رجاء الايمان ولانهم لما لم يؤمنوا عند ماحق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيئا أوضح من البرهان فهو العيان وعند العيان لايفيد الايمان وقوله على اكثرهم على هذا الوجه معناه ان من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على اكثر من لم يوجد منه الايمان وعلى الاول والثاني ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو ان يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على اكثرهم فهم لايؤمنون وهو قريب من الاول * ثم قال تعالى (انا جعلنا في اعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون) لما بين انهم لايؤمنون بين ان ذلك من الله فقال انا جعلنا وفيه وجوه (احدها) ان المراد انا جعلناهم ممسكين لاينفقون في سبيل الله كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك (والثاني) ان الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف ابوجهل انه يرضخ رأس محمد فرآه ساجدا فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت يده ويده بعنقه (والثالث) وهو الاقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو ان ذلك كناية عن منع الله اياهم عن الاهتداء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هل للوجهين الاولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام نقول الوجه الاول له مناسبة وهي ان قوله تعالى فهم لايؤمنون يدخل فيه انهم لايصلون كما قال تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لايصلون ولا يزكون وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي انه لما قال لقد حق القول على اكثرهم وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا مايقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو يضطر الى الايمان ولم يؤمن علم انه لايؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث (المسئلة الثانية) قوله فهي راجعة الى ماذا نقول فيها وجهان (احدهما) انها راجعة الى الايدي وان كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لان المغلول تكون أيديه مجموعة في الغل الى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشري انها راجعة الى الاغلال معناه انا جعلنا في أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظا بحيث تبلغ الى الاذقان فلم تمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه (المسئلة الثالثة) كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الايمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذي بلغ الغل ذقنه وبقي مقمحا رافع الرأس لايبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده ان بين يديه سدا ومن خلفه سدا فهو لايقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل ان المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي الى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من ابصار الطريق الحسي ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال الاغلال في الاعناق عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد

(يقال)

تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فانه كما ترى قد اوقع فيه الحكم بادخال جهنم على من تبع ابليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعا وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم بأكثرهم انما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية ابليس ابدا واذ قد تبين ان مناط ثبوت القول وتحققه عليهم اصرارهم على الكفر الى الموت ظهر ان قوله تعالى (فهم لايؤمنون) متفرع في الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى (انا جعلنا في اعناقهم اغلالا) تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت اعناقهم (فهي الى الاذقان) اى فالاغلال منتهية الى اذقانهم فلا تدعهم يلتفتون الى الحق ولا يعطفون اعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له (فهم مقمحون) رافعون رؤسهم غاضون ابصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق او ينظرون الى جهته (وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم

يقال فيه انه وضع رأسه على الحط وخضع عنقه والذى فى رقبته الغل الثخين الى الذقن لايطأطئ رأسه ولايحركه تحريك المصدق ويصدق هذا قوله مقمحون فان المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبى يقال بعير قامح اذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والايمان كالماء الزلال الذى به الحياة وكأنه تعالى قال اناجعلنا فى اعناقهم اغلالا فهم مقمحون لايخضعون الرقاب لامر الله وعلى هذا فقوله تعالى (وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) يكون متمما لمعنى جعل الله اياهم مغلولين لان قوله وجعلنا من بين ايديهم سدا اشارة الى انهم لاينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لايبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولاينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والايمان المورث للايقان اما باتباع الرسول اولا فلوح له الحقائق ثانيا واما بظهور الامور اولا واتباع الرسول ثانيا ولايتبعون الرسول اولا لانهم مغلولون فلايظهر لهم الحق من الرسول ثانيا ولايظهر لهم الحق اولا لانهم واقعون فى السد فلايتبعون الرسول ثانيا (وفيه وجه آخر) وهو ان يقال المانع اما ان يكون فى النفس واما ان يكون خارجا عنها ولهم المانعان جميعا من الايمان اما فى النفس فالغل واما من الخارج فالسد ولايقع نظرهم على انفسهم فيرون الآيات التى فى انفسهم كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم وذلك لان المقمح لايرى نفسه ولايقع بصره على يديه ولايقع نظرهم على الآفاق لان من بين السدين لايبصرون الآفاق فلاتبين لهم الآيات التى فى الآفاق وعلى هذا فقوله اناجعلنا فى اعناقهم وجعلنا من بين ايديهم اشارة الى عدم هدايتهم لآيات الله فى الانفس والآفاق وفى تفسير قوله تعالى وجعلنا من بين ايديهم سدا مسائل (المسئلة الاولى) السد من بين الايدى ذكره ظاهر الفائدة فانهم فى الدنيا سالكون وينبغى ان يسلكوا الطريقة المستقيمة ومن بين ايديهم سدا فلايقدرون على السلوك واما السد من خلفهم فالفائدة فيه فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان الانسان له هداية فطرية والكافر قديتركها وهداية نظرية والكافر ما ادركها فكأنه تعالى يقول جعلنا من بين ايديهم سدا فلايسلكون طريقة الاهتداء التى هى نظرية وجعلنا من خلفهم سدا فلايرجعون الى الهداية الجبلية التى هى الفطرية (الثانى) هو ان الانسان مبدؤه من الله ومصيره اليه فعمى الكافر لايبصر مابين يديه من المصير الى الله ولاماخلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو ان السالك اذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع واذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لايكون موضع اقامة لانه مهلك فقوله وجعلنا من بين ايديهم ومن خلفهم اشارة الى اهلاكهم (المسئلة الثانية) قوله تعالى فأغشيناهم بحرف الفاء يقتضى ان يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون الاغشاء مرتبا على جعل السد فكيف ذلك فنقول ذلك من وجهين (احدهما) ان يكون

لايبصرون) اماتتمة للتمثيل وتكميل له اى تكميل اى وجعلنا مع ماذكر من امامهم سدا عظيما ومن ورائهم سدا كذلك فغطينا بهما ابصارهم فهم بسبب ذلك لايقدرون على ابصار شئ ما اصلا واما تمثيل مستقل فان ماذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطينا ابصارهم بحيث لايبصرون شيئا قطعا كاف فى الكشف عن كال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين فى مطمورة الغى والجهالات محرومين عن النظر فى الادلة والآيات وقرئ سدا بالضم وهى لغة فيه وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله فبالضم وقرئ فاعشيناهم من العشا وقيل الآيتان فى بنى مخزوم وذلك ان أبا جهل حلف لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرضخن رأسه فأتاه وهو عليه الصلاة والسلام يصلى ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت يده الى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع الى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومى آخر انا اقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى بصره (وسواء عليهم

ذلك بان الامور مترتبة يكون بعضها سببا للبعض فكأنه تعالى قال انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فلا يبصرون انفسهم لاقماحهم وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذ يمكن ان يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله وجعلنا على ابصارهم غشاوة فلا يبصرون شيأ اصلا (وثانيهما) هو ان ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على ابصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيأ اما غير السد فللحجاب واما عين السد فلكون شرط المرئي ان لا يكون قريبا من العين جدا (المسئلة الثالثة) ذكر السدين من بين الايدي ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه فنقول اما على قولنا انه اشارة الى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر واما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة لانهم ان قصدوا السلوك الى جانب اليمين او جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ ومولين عن شئ فصار ما اليه توجههم ما بين ايديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك فكيف ما توجه الكافر يجعل الله بين يديه سدا (ووجه آخر) احسن مما ذكرنا وهو انا لما بينا ان جعل السد صار سببا للاغشاء كان السد ملتزقا به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة الى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى فأغشيناهم فهم لا يبصرون يحتمل ما ذكرنا انهم لا يبصرون شيأ ويحتمل ان يكون المراد هو ان الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد فيظن انه على الطريقة المستقيمة وغيره ضال ثم انه تعالى بين ان الانذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والاغشاء والاعماء بقوله تعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) اى الانذار وعدمه سيان بالنسبة الى الايمان منهم اذ لا وجود له منهم على التقديرين فان قيل اذا كان الانذار وعدمه سواء فلماذا الانذار نقول قد أجبنا في غير هذا الموضع انه تعالى قال سواء عليهم وما قال سواء عليك فالانذار بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ليس كعدم الانذار لان احدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا واما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج عما عليه وينال ثواب الانذار وان لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار ❊ ثم قال تعالى (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم) والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قال من قبل لتنذر وذلك يقتضي الانذار العام على ما بيناه وقال انما تنذر وهو يقتضي التخصيص فكيف الجمع بينهما نقول من وجوه (الاول) هو ان قوله لتنذر أي كيف ما كان سواء كان مفيدا او لم يكن وقوله انما تنذر أى الانذار المفيد لا يكون الا بالنسبة الى من يتبع الذكر ويخشى (الثاني) هو ان الله تعالى لما قال ان الارسال والانزال للانذار وذكر ان الانذار وعدمه سيان بالنسبة

(الى)

أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بيان لشأنهم بطريق التصريح اثر بيانه بطريق التمثيل اى مستو عندهم انذارك اياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه في سورة البقرة وقوله تعالى (لا يؤمنون) استئناف مؤكد لما فيه من اجمال ما فيه الاستواء او حال مؤكدة له او بدل منه ولما بين كون الانذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل (انما تنذر) اى انذارا مستتبعا للاثر (من اتبع الذكر) اى القرآن بالتأمل فيه او الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان (وخشي الرحمن بالغيب) اى خاف عقابه وهو غائب عنه على انه حال من الفاعل او المفعول او خافه في سريرته ولم يغتر برحمته فانه منتقم قهار كما انه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى نبئ عبادي اني انا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم (فبشره بمغفرة) عظيمة (وأجر كريم) لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة او الامر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية

الى اهل العناد قال لنبيه ليس انذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وانما تنذر بذلك الانذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد انك بانذارك تهدى ولا تدرى من تهدى فأنذر الاسود والاحمر ومقصودك من يتبع انذارك و ينتفع بذكراك (الثالث) هو ان نقول قوله لتنذر أى أولا فاذا أنذرت وبالغت و بلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى فأعرض بعد ذلك فانما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث انك تنذر الكل بالاصول وانما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن (المسئلة الثانية) قوله من اتبع الذكر يحتمل وجوها (الاول) وهو المشهور من اتبع القرآن (الثانى) من اتبع ما فى القرآن من الآيات و يدل عليه قوله تعالى والقرآن ذى الذكر فاجعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه انما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات فقوله اتبع الذكر اى آمن وقوله وخشى الرحمن اى عمل صالحا وهذا الوجه يتأيد بقوله فبشره بمغفرة واجر كريم لانا ذكرنا مرارا أن الغفران جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور والاجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالالف واللام وقد تقدم ذكر القرآن فى قوله تعالى والقرآن الحكيم وقوله وخشى الرحمن فيه لطيفة وهى ان الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع انه رحمن ورحيم فالعاقل لا ينبغى ان يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته اكثر فالخوف منه اتم مخافة ان يقطع عنه النعم المتواترة وتكملة اللطيفة هى ان من اسماء الله اسمين مختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن حتى قال بعض الائمة هما علمان اذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية فقال فى موضع يرجو الله وقال ههنا وخشى الرحمن يعنى مع كونه ذاهبية لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذارحمة لا تأمنوه وقوله بالغيب يعنى بالدليل وان لم ينته الى درجة المرئى المشاهد فان عند الانتهاء الى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة والمشهور ان المراد بالغيب ما غاب عنا وهو احوال القيامة وقيل ان الوحدانية تدخل فيه وقوله فبشره فيه اشارة الى الامر الثانى من امرى الرسالة فان النبى صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه ارسل لينذر وذكر ان الانذار النافع عند اتباع الذكر فقال بشر كما انذرت ونفعت وقوله بمغفرة على التنكير اى بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه اثر من آثار النفس ويظهر عليه انوار الروح الزكية واجر كريم اى ذى كرم وقد ذكرنا ما فى الكريم فى قوله ورزق كريم وفى قوله ورزقا كريما ❊ ثم قال تعالى (انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ احصيناه فى امام مبين) فى الترتيب وجوه (احدها) ان الله تعالى لما بين الرسالة وهو اصل من الاصول

(انا نحن نحيي الموتى) بيان لشان عظيم ينطوى على الانذار والتبشير انطواء اجماليا اى نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن احياؤهم اخراجهم من الشرك الى الايمان فهو حينئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به (ونكتب ما قدموا) اى ما اسلفوا من الاعمال الصالحة وغيرها (وآثارهم) التى أبقوها من الحسنات كعلم علموه او كتاب الفوه اوحبيس وقفوه او بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيآت كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادى الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى احدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هى آثار المشائين الى المساجد ولعل المراد انها من جملة الآثار وقرئ ويكتب على البناء للمفعول ورفع آثارهم (وكل شئ) من الاشياء كائنا ما كان (احصيناه فى امام مبين) اصل عظيم الشان مظهر لجميع الاشياء مما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرئ كل شئ بالرفع (واضرب لهم

الثلاثة اى بصير بها المكلف مؤمنا مسلما ذكر اصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو ان الله تعالى لما ذكر الانذار و البشارة بقوله فبشره بمغفرة ولم يظهر ذلك بكماله فى الدنيا فقال ان لم ير فى الدنيا فالله يحيى الموتى و يجزى المنذرين ويجزى المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) انا نحن يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ أو خبرا كقول القائل * أنا ابو النجم وشعرى شعرى * ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة وذلك لان من لايعرف يقال له من انت فيقول انا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهورا اذا قيل له من انت يقول أنا اى لا معرف لى أظهر من نفسى فقال انا نحن معروفون باوصاف الكمال واذا عرفنا بانفسنا فلا تنكر قدرتنا على احياء الموتى (وثانيهما) ان يكون الخبر نحيى كأنه قال انا نحيى الموتى ونحن يكون تأكيدا والاول اولى (المسئلة الثانية) انا نحن فيه اشارة الى التوحيد لان الاشتراك يوجب التميز بغير النفس فان زيدا اذا شاركه غيره فى الاسم فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام لان للسامع ان يقول أيما زيد فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر ابوه عمرو لايكفى قوله ابن عمرو فلما قال الله انا نحن أى ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى نقول انا كذا فنمتاز وحينئذ تصير الاصول الثلاثة مذكورة الرسالة والتوحيد والحشر (المسئلة الثالثة) قوله ونكتب ماقدموا فيه وجوه (أحدها) المراد ماقدموا وأخروا فاكتفى بذكر احدهما كما فى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر والمراد والبرد ايضا (وثانيها) المعنى ماأسلفوا من الاعمال صالحة كانت اوفاسدة وهو كما قال تعالى بماقدمت ايديهم اى بماقدمت فى الوجود على غيره واوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وآثارهم اى أعمالهم على هذا الوجه (المسئلة الرابعة) وآثارهم فيه وجوه (الاول) آثارهم اقدامهم فان جماعة من اصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم (والثانى) هى السنن الحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والحبائس الدارة والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التى وضعها ظالم والكتب المضلة وآلات الملاهى وادوات المناهى المعمولة الباقية وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها من غير ان ينقص من اجر العامل شئ ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها فماقدموا هو أفعالهم وآثارهم افعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ماذكرنا ان الآثار الاعمال وماقدموا النيات فان النية قبل العمل (المسئلة الخامسة) الكتابة قبل الاحياء فكيف اخر فى الذكر حيث قال نحيى ونكتب ولم يقل نكتب ماقدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لايعظم والكتابة فى نفسها ان لم تكن احياء واعادة لايبقى لها اثر اصلا فالاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره

(فلهذا)

مثلا اصحاب القرية) ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة اخرى مثلها كما فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط واخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد الى تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى وضربنا لكم الامثال على احد الوجهين اى بينا لكم احوالا بديعة هى فى الغرابة كالامثال فالمعنى على الاول اجعل اصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والاصرار على تكذيب الرسل اى طبق حالهم بحالهم على ان مثلا مفعول ثان لاضرب واصحاب القرية مفعوله الاول أخر عنه ليتصل به ماهو شرحه وبيانه وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل وقوله تعالى اصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف او بيان له والقرية انطاكية (اذ جاءها المرسلون) بدل اشتمال من اصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام الى اهلها ونسبة ارسالهم اليه تعالى فى قوله (اذ ارسلنا اليهم اثنين) بناء على انه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية

فلهذا قدم الاحياء ولانه تعالى لما قال انا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الامر العظيم وذكر مايعظم ذلك العظيم وقوله وكل شيء أحصيناه في امام مبين يحتمل وجوها (احدها) ان يكون ذلك بيانا لكون ماقدموا وآثارهم امرا مكتوبا عليهم لايبدل فان القلم جف بماهو كائن فلما قال نكتب ماقدموا بين ان قبل ذلك كتابة اخرى فان الله كتب عليهم انهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوه كتب عليهم انهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكدا لمعنى قوله ونكتب لان من يكتب شيئا في اوراق ويرميها قد لايجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك في امام مبين وهذا كقوله تعالى علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولاينسى (وثالثها) ان يكون ذلك تعميما بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ماقدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شيء محصى في امام مبين وهذا يفيد ان شيئا من الاقوال والافعال لايعزب عن علم الله ولايفوته وهذا كقوله تعالى وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعني ليس مافي الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب وقوله احصيناه ابلغ من كتبناه لان من كتب شيئا مفرقا يحتاج الى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب اماما لان الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق واحياء واماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ وامام جاء جمعا في قوله تعالى يوم ندعو كل اناس بامامهم اي بائمتهم وحينئذ فامام اذا كان فردا فهو ككتاب وحجاب واذا كان جمعا فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للامور لكونه مظهرا للملائكة مايفعلون وللناس مايفعل بهم وهو الفارق يفرق بين احوال الخلق فيجعل فريقا في الجنة وفريقا في السعير

❊ثم قال تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون) وفيه وجهان والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الاول) هو ان يكون المعنى واضرب لاجلهم مثلا (والثاني) ان يكون المعنى واضرب لاجل نفسك اصحاب القرية لهم مثلا اي مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله انك لمن المرسلين وقال لتنذر قال قل لهم ما كنت بدعا من الرسل بل قبلي بقليل جاء اصحاب القرية مرسلون وانذروهم بما انذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الاقامة وعلى الثاني نقول لما قال الله تعالى ان الانذار لاينفع من اضله الله وكتب عليه انه لايؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام فلاتأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا اي مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والايذاء وانت جئتهم واحدا وقومك اكثر من قوم الثلاثة فانهم جاؤا قرية وانت بعثت الى العالم وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) مامعنى قول القائل ضرب مثلا وقوله تعالى واضرب مع ان الضرب في اللغة اما امساس جسم جسما بعنف واما السير اذا قرن به حرف في كقوله تعالى اذا ضربتم في الارض نقول قوله ضرب مثلا معناه مثل مثلا وذلك لان الضرب

وهما يوحنا وبولس وقيل غيرهما (فكذبوهما) اي فأتياهم فدعواهم الى الحق فكذبوهما في الرسالة (فعززنا) اي قوينا يقال عزز المطر الارض اذا لبدها وقرئ بالتخفيف من عزه اذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ماقبله عليه ولان المقصد ذكر المعزز به (بثالث) هو شمعون (فقالوا) اي جميعا (انا اليكم مرسلون) مؤكدين كلامهم لسبق الانكار لما ان تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم وذلك انهم كانوا عبدة اصنام فارسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فاخبراه قال امعكما آية فقالا نشفي المريض ونبرئ الاكمه والابرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفي على ايديهما خلق وبلغ حديثهما الى الملك وقال لهما النا اله سوى آلهتنا قالا نعم من اوجدك وآلهتك فقال حتى انظر في امركما فتبعهما الناس وقيل وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك

اسم لنوع يقال هذه الاشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا و ذاك من ضرب واحد
(المسئلة الثانية) اصحاب القرية معناه واضرب لهم مثلا مثل اصحاب القرية فترك المثل
واقيم الاصحاب مقامه فى الاعراب كقوله واسأل القرية هذا قول الزمخشرى فى الكشاف
ويحتمل ان يقال لاحاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل اصحاب القرية لهم مثلا او مثل
اصحاب القرية بهم (المسئلة الثالثة) اذجاءها المرسلون اذ منصوب به لانها بدل من اصحاب
القرية كأنه قال تعالى واضرب لهم وقت مجئ المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك
وهذا أيضا قول الزمخشرى وعلى قولنا ان هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله
تعالى عليه وسلم تسلية فيحتمل ان يقال اذ ظرف منصوب بقوله اضرب اى اجعل الضرب
كأنه حين مجيئهم و واقع فيه و القرية انطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم اقرب مرسل
ارسل الى قوم الى زمان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله اذ
ارسلنا يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون اذ ارسلنا بدلا من اذ جاءها كأنه قال اضرب لهم
مثلا اذ ارسلنا الى اصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الاصح الاوضح ان يكون اذ ظرفا
والفعل الواقع فيه جاءها اى جاءها المرسلون حين ارسلناهم اليهم اى لم يكن مجيئهم من
تلقاء انفسهم وانما جاؤهم حيث امروا وهذا فيه لطيفة وهى ان فى الحكاية ان الرسل كانوا
مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام ارسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى
عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن اولئك
كانوا رسل الرسول وانا رسول الله فان تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله اذ ارسلنا
وهذا يؤيد مسئلة فقهية وهى ان وكيل الوكيل باذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل
حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول وهذا على قولنا واضرب لهم
مثلا ضرب المثل لاجل محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر ۞ وقوله تعالى (اذ ارسلنا اليهم اثنين
فكذبوهما) فى بعثه الاثنين حكمة بالغة وهى انهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن
الله فكان عليهما انهاء الامر الى عيسى والاتيان بما امر الله والله عالم بكل شئ لا يحتاج
الى شاهد يشهد عنده واما عيسى فهو بشر فامره الله ارسل بارسال اثنين ليكون قولهما على
قومهما عند عيسى حجة تامة ۞ وقوله تعالى (فعززنا بثالث) اى قوينا وقرئ فعززنا بثالث
مخففا من عز اذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والاول اظهر واشهر وترك
المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو ان المقصود من بعثهما نصرة الحق
لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) النبى
صلى الله عليه وسلم بعث رسله الى الاطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث
اثنين نقول النبى بعث لتقرير الفروع وهو دون الاصول فاكتفى بواحد فأن خبر الواحد
فى الفروع مقبول واماهما فبعثا بالاصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين والا لما كفى
ارسال اثنين ايضا ولا ثلاثة (المسئلة الثانية) قال الله تعالى لموسى عليه السلام سنشد

حتى استأنسوا به ورفعوا خبره
الى الملك فأنس به فقال له يوما
بلغنى انك حبست رجلين فهل
سمعت مايقولانه قال لاحال
الغضب بينى وبين ذلك فدعاهما
فقال شمعون من ارسلكما قالا
الله الذى خلق كل شئ وليس
له شريك فقال صفاه واوجزا
قالا يفعل مايشاء ويحكم مايريد
قال وما آيتكما قالا ماتتمنى الملك
فدعا بغلام مطموس العينين
فدعوا الله تعالى حتى انشق له
بصر فأخذ ابندقتين فوضعهما
فى حد قتيه فصارتا مقلتين ينظر
بهما فقال له شمعون أرأيت لو
سألت الهك حتى يصنع مثل
هذا فيكون لك وله الشرف
قال ليس لى عنك سر ان الهنا
لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع
وكان شمعون يدخل معهم
على الصنم فيصلى ويتضرع وهم
يحسبون انه منهم ثم قال ان قدر
الهكما على احياء ميت آمنا به
فدعوا بغلام مات من سبعة ايام
فقام وقال انى ادخلت فى سبعة
اودية من النار وانى احذركم
ماانتم فيه فآمنوا وقال فتحت
ابواب السماء فرأيت شابا حسن
الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة
قال الملك من هم قال شمعون
وهذان فتعجب الملك فلما رأى
شمعون ان قوله قد

(عضدك)

عضدك فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع ان المقصود هناك ايضا نصرة الحق نقول موسى عليه السلام كان افضل من هرون وهرون بعث معه بطلبه حيث قال فأرسله معى فكان هرون مبعوثا ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره واما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وارسال من يؤنس معه وهو هرون واما ههنا المقصود تقوية الحق فظهر الفرق ❊ ثم بين الله ماجرى منهم وعليهم مثل ماجرى من محمد صلى الله عليه وسلم وعليه (فقالوا انا اليكم مرسلون) كما قال انك لمن المرسلين وبين ماقال القوم بقوله (قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما انزل الرحمن من شئ) جعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام من المشركين قالوا في حق محمد أانزل عليه الذكر وانما ظنوه دليلا بناء على انهم لم يعتقدوا في الله الاختيار وانما قالوا فيه انه موجب بالذات وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله الله اعلم حيث يجعل رسالته وبقوله الله يجتبي اليه من يشاء الى غير ذلك وقوله وما انزل الرحمن من شئ يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة ووجهه هو انهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما انزل الله اليكم احدا فكيف صرتم رسلا لله (وثانيهما) ان يكون هذا شبهة اخرى مستقلة ووجهه هو انهم لما قالوا انتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر الى المرسلين ثم قالوا شبهة اخرى من جهة المرسل وهو انه تعالى ليس بمنزل شيئا في هذا العالم فان تصرفه في العالم العلوى وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم فالله تعالى لم ينزل شيئا من الاشياء في الدنيا فكيف انزل اليكم وقوله الرحمن اشارة الى الرد عليهم لان الله لما كان رحمن الدنيا والارسال رحمة فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن فقال انهم قالوا ماانزل الرحمن شيئا وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئا هو الرحمة الكاملة ❊ ثم قال تعالى (ان أنتم الا تكذبون) اى ما أنتم الا كاذبين (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) اشارة الى انهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل اعادوا ذلك لهم وكرر القول عليهم واكدوه باليمين وقالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون واكدوه باللام لان يعلم الله يجرى مجرى القسم لان من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله الى الجهل وهو سبب العقاب كما ان الحنث سببه وفي قوله ربنا يعلم اشارة الى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر وذلك لان الله اذا كان يعلم انهم لمرسلون يكون كقوله تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالاته يعنى هو عالم بالامور وقادر فاختارنا بعلمه لرسالته ❊ ثم قال (وما علينا الا البلاغ المبين) تسلية لانفسهم اى نحن خرجنا عن عهدة ماعلينا وحثالهم على النظر فانهم لما قالوا ماعلينا الا البلاغ كان ذلك يوجب تفكرهم في امرهم حيث لم يطلبوا منهم اجرا ولا قصدوا رياسة وانما كان شغلهم التبليغ والذكر وذلك مما يحمل العاقل على النظر والمبين يحتمل امورا (احدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل اى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما

اثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم في العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة في الحجاج ولم يذكر فيه من يؤمن احد سوى حبيب ولو ان الملك وقوما من حواشيه آمنوا لكان الظاهر ان يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا في ذلك اوقتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم الا ان يكون ايمان الملك بطريق الخفية على خوف من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الاعذار (قالوا) اى اهل انطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة (ما انتم الا بشر مثلنا) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفي المقتضى لاعمال ما بالا (وما انزل الرحمن من شئ) مما تدعونه من الوحى والرسالة (ان انتم الا تكذبون) في دعوى

ارسلنا للكل اى لا يكفى ان تبلغ الرسالة الى شخص او شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنا لك الهلاك * ثم كان جوابهم بعد هذا انهم (قالوا انا تطيرنا بكم) وذلك انه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب فلما قال المرسلون انا اليكم لمرسلون قالوا ان انتم الا تكذبون ولما اكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا ربنا يعلم اكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الاول كنتم كاذبين وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب حالفين مقسمين عليه واليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع فتشاءمنا بكم ثانيا وفى الاول تركتم فى الثانى لانتركتكم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم) وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (احدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله وليمسنكم ترق كأنهم قالوا ولا نكتفى بالشتم بل يؤدى ذلك الى الضرب والايلام الحسى (وثانيهما) ان يكون المراد الرجم بالحجارة وحينئذ فقوله وليمسنكم بيان للرجم يعنى ولا يكون الرجم رجما قليلا نرجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو عذاب اليم ويكون المراد لنرجمنكم وليمسنكم بسبب الرجم عذاب منا اليم وقد ذكرنا فى الاليم انه بمعنى المؤلم والفعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل ان يقال هو من باب قوله عيشة راضية اى ذات رضا فالعذاب الاليم هو ذو الم وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير * ثم اجابهم المرسلون بقولهم (قالوا طائركم معكم) اى شؤمكم معكم وهو الكفر * ثم قالوا (أئن ذكرتم) جوابا عن قولهم لنرجمنكم يعنى اتفعلون بنا ذلك وان ذكرتم اى بين لكم الامر بالمعجزة والبرهان (بل انتم قوم مسرفون) حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون ايلام من يجب فى حقه الاكرام او مسرفون حيث تكفرون ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان فان الكافر مسيء فاذا تم عليه الدليل واوضح له السبيل وبصر يكون مسرفا والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الاشياء اما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك فى الايلام والاكرام واما فى الكفر فلان الواجب اتباع الدليل فان لم يوجد به فلا اقل من ان لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الايمان فان قيل بل للاضراب فما الامر المضرب عنه نقول يحتمل ان يقال قوله أئن ذكرتم وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل الى الكذب بقولهم ان انتم الا تكذبون فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وان جئنا بالبرهان لا بل انتم قوم مسرفون ويحتمل ان يقال أنحن مشؤمون وان جئنا ببيان صحة ما نحن عليه لا بل انتم قوم مسرفون ويحتمل ان يقال أنحن مستحقون للرجم والايلام وان بينا صحة ما أتينا به لا بل انتم قوم مسرفون واما الحكاية فمشهورة وهى ان عيسى عليه السلام بعث رجلين الى انطاكية فدعيا الى التوحيد واظهرا المعجزة من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى فحبسهما الملك فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة وقرب نفسه الى الملك بحسن التدبير ثم قال له انى اسمع ان فى

رسالته (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم من شدة الانكار (وما علينا) اى من جهة ربنا (الا البلاغ المبين) اى الا تبليغ رسالته تبليغا ظاهرا بينا بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا او ما علينا شيء نطالب به من جهتكم الا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فاى شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك (قالوا) لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل (انا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث كانوا يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وان كان مستجلبا لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها وان كان مستتبعا لسعادة الدارين او بناء على ان الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من اصابة ضر متعلق

الحبس رجلين يدعيان امرا بديعا افلا يحضران حتى نسمع كلامهما قال الملك بلى فاحضرا وذكرا مقالتهما الحقة فقال لهما شمعون فهل لكما بينة قالا نعم فأبرآ الاكمه والابرص واحيا الموتى فقال شمعون ايها الملك ان شئت ان تغلبهم فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئا من ذلك قال الملك انت لايخفى عليك انها لاتبصر ولاتسمع ولاتقدر ولاتعلم فقال شمعون فاذن ظهر الحق من جانبهم فآمن الملك وقوم وكفر آخرون وكانت الغلبة للمكذبين * ثم قال تعالى (وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين) وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان (احدهما) انه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى وعلى هذا فقوله من اقصى المدينة فيه بلاغة باهرة وذلك لانه لما جاء من اقصى المدينة رجل وهو قد آمن دل على ان انذارهم واظهارهم بلغ الى أقصى المدينة (وثانيهما) ان ضرب المثل لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ عن ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الاوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب اصحاب محمد كما ان ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله وجاء من اقصى المدينة رجل فى تنكير الرجل مع انه كان معروفا معلوما عند الله فائدتان (الاولى) ان يكون تعظيما لشانه اى رجل كامل فى الرجولية (الثانية) ان يكون مفيدا لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لامعرفة لهم به فلا يقال انهم تواطئوا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته (المسئلة الثانية) قوله يسعى تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم وقد ذكرنا فائدة قوله من أقصى المدينة وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى الى من فى اقصى المدينه والمدينة هى انطاكية وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة قوله تعالى قال ياقوم اتبعوا المرسلين فيه معان لطيفة (الاول) فى قوله ياقوم فانه ينبئ عن اشفاق عليهم وشفقة فان اضافتهم الى نفسه بقوله ياقوم يفيد انه لايريد بهم الاخيرا وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعون فان قيل قال هذا الرجل اتبعوا المرسلين وقال ذلك اتبعونى فاالفرق نقول هذا الرجل جاءهم وفى اول مجيئه نصحهم وماراوا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين اظهروا لكم الدليل واوضحوا لكم السبيل واما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارا فقال اتبعونى فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا انه لولم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وانتم تعلمون انى اخترته ولم يكن للرجل الذى جاء من اقصى المدينة ان يقول انتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين اظهار النصيحة واظهار ايمانه فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار انه آمن (الثالث) قدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا فى

بانفسهم واهليهم واموالهم ان لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى انه حبس عنهم القطر فقالوه (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم (لنرجمنكم) بالحجارة (وليمسنكم منا عذاب اليم) لايقادر قدره (قالوا طائركم) اى سبب شؤمكم (معكم) لامن قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح اعمالكم وقرئ طيركم (أئن ذكرتم) اى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه اى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرئ بألف بين الهمزتين وبفتح ان بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وان ذكرتم بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو ابلغ (بل انتم قوم مسرفون) اضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سببا للشؤم او مصححا للتوعد اى ليس الامر كذلك بل أنتم قوم عادتكم الاسراف فى العصيان فلذلك اتاكم الشؤم او فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم

النصح وأما الايمان فكان قدآمن من قبل و قوله رجل يسعى يدل على كونه مريدالنصح وماذكر فى حكايته انه كان يقتل ويقول اللهم اهدقومى ❊ قال تعالى (اتبعوا من لايسألكم اجرا وهم مهتدون) وهذا فى غاية الحسن وذلك من حيث انه لما قال اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك ان الخلق فى الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة والطريق اذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه والامتناع من الاتباع لايحسن الاعند أحد امرين اما مغالاة الدليل فى طلب الاجرة واما عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق لكن هؤلاء لايطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين اليسوا بمهتدين فاتبعوهم ❊ ثم قال تعالى (ومالى لاأعبد الذى فطرنى) لما قال وهم مهتدون بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد الى عبادة الحى القيوم ومن عبادة مالاينفع الى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف الاولى) قوله مالى اى مالى مانع من جانبى اشارة الى ان الامر من جهة المعبود ظاهر لاخفاء فيه فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولامانع من جانبى فلاجرم عبدته وفى العدول عن مخاطبة القوم الى حال نفسه حكمة اخرى ولطيفة ثانية وهى انه لوقال مالكم لاتعبدون الذى فطركم لم يكن فى البيان مثل قوله ومالى لانه لما قال ومالى وأحد لايخفى عليه حال نفسه علم كل احدانه لايطلب العلة وبيانها من أحد لانه اعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع وأما لوقال مالكم جاز ان يفهم منه انه يطلب بيان العلة لكون غيره اعلم بحال نفسه فان قيل قال الله مالكم لاترجون لله وقارا نقول القائل هناك غير مدعو وانما هو داع وههنا الرجل مدعو الى الايمان فقال ومالى لااعبد وقد طلب منى ذلك (الثانية) قوله الذى فطرنى اشارة الى وجود المقتضى فان قوله ومالى اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لايوجد الفعل مالم يوجد المقتضى فقوله الذى فطرنى ينبئ عن الاقتضاء فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايجاد والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع ان المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولامانع فيوجد لان المقتضى لظهوره كان مستغنيا عن البيان رأسا فلااقل من تقديم ماهو اولى بالبيان لوجود الحاجة اليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لانه لما قال ومالى لااعبد باسناد العبادة الى نفسه اختار ماهو اقرب الى ايجاب العبادة على نفسه وبيان ذلك هو ان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لايكون الاكامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد اظهر ايجابا واعلم ان المشهور فى قوله فطرنى خلقنى اختراعا وابتداعا والغريب فيه ان يقال فطرنى اى جعلنى على الفطرة كما قال الله تعالى فطرة الله التى فطر الناس عليها وعلى هذا فقوله ومالى لااعبد اى لم يوجد فى مانع فأنا باق

(على)

وتشاء متم بمن يجب اكرامه والتبرك به (وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى) هو حبيب النجار وكان ينحت اصنامهم وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الاكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره عليه الصلاة والسلام احد قبل مبعثه وقيل كان فى غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم الصلاة والسلام اظهر دينه (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال (ياقوم اتبعوا المرسلين) تعرض لعنوان رسالتهم حثالهم على اتباعهم كما ان خطابهم بيا قوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتبعوا من لايسألكم اجرا وهم مهتدون) تكرير للتأكيد وللتوسل به الى وصفهم بما يرغبهم فى اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوى والاهتداء الى خيرى الدنيا والدين (ومالى لااعبد الذى فطرنى) تلطف فى الارشاد بايراده فى معرض المناصحة لنفسه وامحاض النصح حيث اراهم انه اختار لهم مايختار لنفسه والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره

على فطرة ربى و الفطرة كافية فى الشهادة و العبادة فان قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر فى قوله فاطر السموات فنقول قد قيل بأن فاطر السموات من الفطر الذى هو الشق فالمحذور لازم او نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته و فطر السموات على فطرتها و الاول من التفسير اظهر ❊ وقوله تعالى (واليه ترجعون) اشارة الى الخوف و الرجاء كما قال ادعوه خوفا وطمعا و ذلك لان من يكون اليه المرجع يخاف منه و يرجى وفيه ايضا معنى لطيف و هو ان العابد على اقسام ثلاثة ذكرناها مرارا (فالاول) عابد يعبد الله لكونه الها مالكا سواء انعم بعد ذلك اولم ينعم كالعبد الذى يجب عليه خدمة سيده سواء احسن اليه اواساء (والثانى) عابد يعبد الله للنعمة الواصلة اليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الاول من يخدم الجواد ومثال الثانى من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال ومالى لا اعبد الذى فطرنى اى هو مالكى أعبده لانظرا الى ما سيعطينى ولا نظرا الى ان لا يعذبنى وجعلهم دون ذلك فقال واليه ترجعون اى خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه ولهذا لم يقل و اليه ارجع كما قال فطرنى لانه صار عابدا من القسم الاول فرجوعه الى الله لا يكون الا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره ❊ ثم قال تعالى (أأتخذ من دونه آلهة) ليتم التوحيد فان التوحيد بين التعطيل والاشراك فقال ومالى لا أعبد اشارة الى وجود الاله وقال أأتخذ من دونه اشارة الى نفى غيره فيتحقق معنى لا اله الا الله * وفى الآية ايضا لطائف (الاولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الامر وذلك ان من أخبر عن شئ فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع ان يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب فاذا قال أأتخذ يكون كلامه انه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الاخبار كأنه يقول استشرتك فدلنى والمستشار يتفكر فكأنه يقول تفكر فى الامر تفهم من غير اخبار منى (الثانية) قوله من دونه وهى لطيفة عجيبة وبيانها هو انه لما بين انه يعبد الله بقوله الذى فطرنى بين ان من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شئ مشارك للمعبود الذى اتخذ غير الله لان الكل محتاج مفتقر حادث فلو قال لا اتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف ان اتخذت الها غير الذى فطرك و يلزمك عقلا ان تتخذ آلهة لا حصر لها وان كان الهك ربك وخالقك فلا يجوز ان تتخذ آلهة (الثالثة) قوله أأتخذ اشارة الى ان غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها ولهذا قال تعالى ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وقال الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا لانه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز وانما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولدا فقال ولم يتخذ ولدا ولا يقال قال الله تعالى فاتخذه وكيلا فى حق الله تعالى حيث قال رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا نقول ذلك امر متجدد وذلك لان الانسان فى اول الامر يكون قليل الصبر ضعيف القوة فلا يجوز ان يترك اسباب الدنيا ويقول انى اتوكل فلا يحسن من الواحد منا ان لا يشتغل بأمر اصلا ويترك اطفاله فى ورطة الحاجة ولا يوصل

كما بنى عنه قوله (واليه ترجعون) مبالغة فى التهديد ثم عاد الى المساق الاول فقال (أأتخذ من دونه آلهة) انكار ونفى لاتخاذ الآلهة على الاطلاق وقوله

الى اهله نفقتهم ويجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمر وفاذاقوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلا عن غيره واقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا واسبابها وفوض امره الى الله حينئذ يكون من الابرار الاخيار فقال الله لرسوله انت علمت ان الامور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت ان المشرق والمغرب ومافيهما ومايقع بينهما بأمر الله ولا اله يطلب لقضاء الحوائج الا هو فاتخذه وكيلا وفوض جميع امورك اليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تجر فى الحلال ومعنى قوله فاتخذه وكيلا اى فى جميع امورك وقوله تعالى لاتغن عنى يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند ارادة الرحمن بى ضرا (وثانيهما) ان يكون كلاما مستأنفا كأنه قال لااتخذ من دونه آلهة ❁ ثم قال تعالى

(ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ان يردن الرحمن بضر ولم يقل ان يرد الرحمن بى ضرا وكذلك قال تعالى ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ولم يقل ان اراد الله بى ضرا نقول الفعل اذا كان متعديا الى مفعول واحد تعدى الى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ثم ان المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ماهو اولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فاذا قال القائل مثلا كيف حال فلان يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فاذا قال كيف كرامة الملك يقول اختصها بزيد فيجعل المسؤل مفعولا بغير حرف لانه هو المقصود اذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء وليس الضر بمقصود بيانه كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على ايمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الارادة وذكر الضر وقع تبعا وكذا القول فى قوله تعالى ان ارادنى الله بضر المقصود بيان انه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصودا بالذكر ويؤيده ماتقدم حيث قال تعالى أليس الله بكاف عبده يعنى هو تحت ارادته ويتأيد ماذكرناه بالنظر فى قوله تعالى قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوأ حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف وذلك لان المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له وكيف لاوهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصودا بالذكر لزجرهم فان قيل فقد ذكر الله الرحمة ايضا حيث قال او اراد بكم رحمة نقول المقصود ذلك ويدل عليه قوله تعالى من بعده ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولانصيرا وانما ذكر الرحمة تتمة للامر بالتقسيم الحاصر وكذلك اذا تأملت فى قوله تعالى يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان اراد بكم ضرا أو اراد بكم نفعا فان الكلام ايضا مع الكفار وذكر النفع وقع تبعا لحصر الامر بالتقديم ويدل عليه قوله تعالى بل كان الله بما تعملون

(خبيرا)

(ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا) اى لاتنفعنى شيئا من النفع (ولاينقذون) من ذلك الضر بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق لتعليل النفى المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب اليه بعضهم ربما يوهم ان هناك آلهة ليست كذلك وقرئ ان يردن بفتح الياء على معنى ان يوردنى ضرا اى يجعلنى موردا للضر

خبيرا فانه للتخويف وهذا كقوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين والمقصود انى على هدى وانتم فى ضلال ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا المقصود الضر واقع بكم ولاجل دفع المانع قال الضر والنفع (المسئلة الثانية) قال ههنا ان يردن الرحمن وقال فى الزمر ان ارادنى الله فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك نقول اما الماضى والمستقبل فان ان فى الشرط تصير الماضى مستقبلا وذلك لان المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله ومالى لاعبد والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم وكذلك فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر لكون المتقدم عليه مذكورا بصيغة المستقبل وهو قوله من يصرف عنه وقوله انى أخاف ان عصيت والحكمة فيه هو ان الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف وهذا ماسبق منكم وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الامران واما قوله هناك ان ارادنى الله فنقول قد ذكرنا ان الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة وهناك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله أليس الله بعزيز ذى انتقام وذكر مايدل على العظمة بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا مايدل على الرحمة بقوله الذى فطرنى فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال ان يردن الرحمن بضر ثم قال تعالى لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون على ترتيب مايقع من العقلاء وذلك لان من يريد دفع الضر عن شخص اضربه شخص يدفع بالوجه الاحسن فيشفع اولا فان قبله والا يدفع فقال لاتغن عنى شفاعتهم ولا يقدرون على انقاذى بوجه من الوجوه وفى هذه الآيات حصل بيان ان الله تعالى معبود من كل وجه ان كان نظرا الى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء احسن بعد ذلك اولم يحسن وان كان نظرا الى احسانه فهو رحمن وان كان نظرا الى الخوف فهو يدفع ضره وحصل بيان ان غيره لايصلح ان يعبد بوجه من الوجوه فان ادنى مراتبه ان يعد ليوم كريهة وغير الله لايدفع شيئا الا اذا أراد الله وان يرد فلا حاجة الى دافع * ثم قال تعالى (انى اذا لفى ضلال مبين) يعنى ان فعلت ذلك فأنا ضال ضلالا بينا والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله اليم اى مؤلم ويمكن ان يقال ضلال مبين اى مظهر الامر للناظر والاول هو الصحيح * ثم قال تعالى (انى آمنت بربكم فاسمعون) فى المخاطب بقوله بربكم وجوه (احدها) هم المرسلون قال المفسرون اقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال انى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون

(انى اذا) اى اذا اتخذت من دونه آلهة (لفى ضلال مبين) فان اشراك ماليس من شأنه النفع ولادفع الضر بالخالق المقتدر الذى لاقادر غيره ولاخير الا خيره ضلال بين لايخفى على احد ممن له تمييز فى الجملة (انى آمنت بربكم) خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما ذكر هموا برجه فأسرع نحو الرسل قبل ان يقتلوه فقال ذلك وانما أكده لاظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط واضاف الرب الى ضميرهم روما لزيادة التقرير واظهارا للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم اوالذى تدعوننا الى الايمان به (فاسمعون) اى اسمعوا ايمانى واشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافههم بذلك اظهارا للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل واضافة الرب الى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ماهم عليه من اتخاذ الاصنام اربابا وقيل للناس جميعا

فاسمعون على العموم كما قلنا فى قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما اكثر أملك وما انزر عملك يريد به كل سامع يسمعه وفى قوله فاسمعون فوائد (احدها) انه كلام مترو متفكر حيث قال فاسمعون فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) ان ينبه القوم ويقول انى اخبرتكم بما فعلت حتى لاتقولوا لم اخفيت عنا امرك ولو اظهرت لآمنا معك (وثالثها) ان يكون المراد السماع الذى بمعنى القبول يقول القائل نصحته فسمع قولى اى قبله فان قلت لم قال من قبل ومالى لااعبد الذى فطرنى وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربى نقول على قولنا الخطاب مع الرسل امر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل انه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه اليه ولو قال بربى لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لى رب وأنا مؤمن بربى واما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد وذلك لانه لما قال اعبد الذى فطرنى ثم قال آمنت بربكم فهم انه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم بخلاف مالو قال آمنت بربى فيقول الكافر وانا ايضا آمنت بربى ومثل هذا قوله تعالى الله ربنا وربكم ۞ ثم قال تعالى (قيل ادخل الجنة) فيه وجهان (احدهما) انه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الاول ۞ فقوله تعالى (قال ياليت قومى يعلمون) يكون بعد موته والله اخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل انه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه فقال ياليت قومى يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى قيل وجهان كما ان فى وقت ذلك وجهان (احدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة وهذا كما فى قوله تعالى انما امره اذا أراد شيئا ان يقول له كن ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل اى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى وقيل ياارض ابلعى فى وجه جعل الارض بالعة ماءها ۞ وفى قوله تعالى (بما غفر لى ربى) وجوه (احدها) ان ما استفهامية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف والا لكان الاحسن ان تكون ما محذوفة الالف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بالذى غفر لى ربى (وثالثها) مصدرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى والوجهان الآخران هما المختاران ۞ ثم قال تعالى (وجعلنى من المكرمين) قد ذكرنا ان الايمان والعمل الصالح يوجبان امرين هما الغفران والاكرام كما فى قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم والرجل كان من المؤمنين الصلحاء والمكرم على ضد المهان والاهانة بالحاجة والاكرام بالاستغناء فيغنى الله الصالح عن كل احد ويدفع جميع حاجاته بنفسه ثم انه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى (وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) اشارة الى هلاكهم بعده سريعا على اسهل وجه فانه لم يحتج الى ارسال جند يهلكهم وفيه مسائل (المسئلة

(قيل ادخل الجنة) قيل له ذلك لما قتلوه اكراما له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حى يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وانه من أهلها وانما لم يقل له لان الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة فى المسارعة الى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخى بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذلك قوله تعالى (قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فانه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وانما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى الايمان والطاعة جريا على سنن الاولياء فى كظم الغيظ والترحم على الاعداء اوليعلموا انهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وانه كان على الحق وان عداوتهم لم تكسبه الا السعادة وقرئ من المكرمين وما موصولة اومصدرية والباء صلة يعلمون اواستفهامية وردت على الاصل والباء متعلقة بغفر اى بأى شئ غفر لى ربى يريد به تفخيم شأن

الاولى) قال ههنا وما أنزلنا باسناد الفعل الى النفس وقال فى بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة باسناد القول الى غير مذكور وذلك لان العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم وأما فى ادخل الجنة فقال قيل ليكون هو كالمهنا بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالدا فيها وكثيرا ما ورد فى القرآن قوله تعالى وقيل ادخلوا اشارة الى أن الدخول يكون دخولا باكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤس الاشهاد يهنيه كل أحد (المسئلة الثانية) لم أضاف القوم اليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قومالهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل اليهم قومالها نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الاكرام بسبب الايمان وأهين الآخر غاية الاهانة بسبب الكفر وهذا من قوم أولئك فى النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصا بأقارب ذلك لان غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب (المسئلة الثالثة) خصص عدم الانزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جندا قبله أيضا فما فائدة التخصيص نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند (المسئلة الرابعة) قال من السماء وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل اليهم جندا من الارض فما فائدة التقييد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جندا بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جندا لهم عظمة وانما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم (المسئلة الخامسة) ❊ (وما كنا منزلين) أية فائدة فيه مع ان قوله وما أنزلنا يستلزم انه لا يكون من المنزلين نقول قوله وما كنا أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لان الامر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين الى انزال أو نقول وما أنزلنا وما كنا منزلين فى مثل تلك الواقعة جندا فى غير تلك الواقعة فان قيل فكيف أنزل الله جنودا فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال وأنزل جنودا لم تروها نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم والا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد صلى الله عليه وسلم ❊ ثم بين الله تعالى ما كان بقوله (ان كانت) الواقعة (الا صيحة) وقال الزمخشرى أصله ان كان شئ الا صيحة فكان الاصل ان يذكر لكنه تعالى انث لما بعده من المفسر وهو الصيحة ❊ وقوله تعالى (واحدة) تأكيد لكون الامر هينا عند الله ❊ وقوله تعالى (فاذاهم خامدون) فيه اشارة الى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لان الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك أما الغضب فانهم قتلوا مؤمنا كان ينصحهم وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ولانهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن

المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على اذيتهم (وما انزلنا على قومه من بعده) من بعد قتله اورفعه (من جند من السماء) لاهلاكهم والانتقام منهم كما فعلنا ليوم بدر والخندق بل كفينا امرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولاهلاكهم وايماء الى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم (وما كنا منزلين) وما صح فى حكمتنا ان ننزل لاهلاك قومه جندا من السماء لما انا قدرنا لكل شئ سببا حيث اهلكنا بعض من اهلكنا من الامم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا انزال الجند من خصائصك فى الانتصار من قومك وقيل ما موصولة معطوفة على جند اى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وامطار شديدة وغيرها (ان كانت) اى ما كانت الاخذة او العقوبة (الا صيحة واحدة) صاح بها جبريل عليه السلام وقرئ الا صيحة بالرفع على ان كان تامة وقرئ الا زقية واحدة من زقا الطائر اذا صاح (فاذاهم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا الى ان الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد
وما المرء الا كالشهاب وضوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

خلق منها فقال فاذاهم خامدون (وفيه وجه آخر) وهوان العناصر الاربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالاحجار تصير مياها والمياه تصير احجارا وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان وأما الهواء فيصير نارا والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان فقال خامدين بسببها فخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة ❊ ثم قال تعالى (ياحسرة على العباد) أى هذا وقت الحسرة فاحضرى ياحسرة والتنكير للتكثير وهم الذين أخذتهم الصيحة فياحسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين (المسئلة الثانية) من المتحسر نقول فيه وجوه (الاول) لامتحسر أصلا فى الحقيقة اذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب (وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأسا اذا كان الغرض غير متعلق به يقال ان فلانا يعطى ويمنع ولا يكون هناك شئ معطى اذ المقصود أن له المنع والاعطاء ورفض المفعول كثير ومانحن فيه رفض الفاعل وهو قليل والوجه فيه ماذكرنا ان ذكر المتحسر غير مقصود وانما المقصود ان الحسرة متحققة فى ذلك الوقت (الثانى) ان قائل ياحسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للامر وتهويلا له وحينئذ يكون كالالفاظ التى وردت فى حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمنى أو نقول ليس معنى قولنا ياحسرة ويا ندامة ان القائل متحسر أو نادم بل المعنى انه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج الى تجوز فى بيان كونه تعالى قال ياحسرة بل يخبر به على حقيقته الا فى النداء فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى الى ماحكى عن حبيب انه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومى وبعد ماقتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه (المسئلة الثالثة) قرئ ياحسرة بالتنوين وياحسرة العباد بالاضافة من غير كلمة على وقرئ ياحسره على بالهاء اجراء للوصل مجرى الوقف (المسئلة الرابعة) من المراد بالعباد نقول فيه وجوه (احدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس ياحسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الاول فاطلاق العباد على المؤمنين كما فى قوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقوله ياعبادى الذين أسرفوا وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار وفرق بين العبد مطلقا وبين المضاف الى الله تعالى فان الاضافة الى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف مالا يكون فى قولك البيت وعلى هذا فقوله تعالى وعباد الرحمن من قبيل قوله ان عبادى وكذلك عباد الله ❊ ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) وهذا سبب الندامة وذلك لان من جاءه ملك فى

(ياحسرة على العباد) تعالى فهذه من الاحوال التى حقها ان تحضرى فيها وهى مادل عليه قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) فان المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين احقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون اوقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوزان يكون تحسرا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ماجنوه على انفسهم ويؤيده قراءة ياحسرتا لان المعنى ياحسرتى ونصبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل باضمار فعلها والمنادى محذوف وقرئ ياحسرة العباد بالاضافة الى الفاعل اوالمفعول وياحسره على العباد باجراء الوصل مجرى الوقف (ألم يروا) اى ألم يعلموا وهو معلق عن العمل فى قوله تعالى (كم اهلكنا قبلهم من القرون) لان كم لايعمل فيها ماقبلها وان كانت خبرية لان اصلها الاستفهام خلا ان معناه نافذ فى الجملة كما نفذ فى قولك ألم تر ان زيدا لمنطلق وان لم يعمل فى لفظه (انهم اليهم لايرجعون) بدل من كم اهلكنا على المعنى اى ألم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين اليهم وقرئ بالكسر على الاستئناف وقرئ ألم يروا من اهلكنا والبدل حينئذ بدل اشتمال

بادية وعرفه نفسه وطلب منه امرا هينا فكذبه ولم يجبه الى مادعاه ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه انه ذلك يكون عنده من الندامة مالامزيد عليه فكذلك الرسل هم ملوك واعظم منهم باعزاز الله اياهم وجعلهم نوابه كما قال ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وجاؤا وعرفوا انفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة فى الحس ثم يوم القيامة اوعند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عندالله لهم وكان مايدعون اليه امراهينا نفعه عائد اليهم من عبادة الله وماكانوا يسألون عليه اجرا فعند ذلك تكون الندامة الشديدة وكيف لاوهم لم يقتنعوا بالاعراض حتى آذوا واستهزؤا واستخفوا واستهانوا وقوله مايأتيهم الضمير يجوز ان يكون عائدا الى قوم حبيب اى مايأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة الاكانوا به يستهزؤن على قولنا الحسرة عليهم ويجوز ان يكون عائدا الى الكفار المصرين ❊ ثم ان الله تعالى لمابين حال الاولين قال للحاضرين (ألم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون) اى الباقون لايرون ماجرى على من تقدمهم ويحتمل ان يقال ان الذين قيل فى حقهم ياحسرة هم الذين قال فى حقهم ألم يروا ومعناه ان كل مهلك تقدمه قوم كذبوا واهلكوا الى قوم نوح وقبله ❊ وقوله (انهم اليهم لايرجعون) بدل فى المعنى عن قوله كم اهلكنا وذلك لان معنى كم اهلكنا ألم يروا كثرة اهلاكنا وفيه معنى ألم يروا المهلكين الكثيرين انهم اليهم لايرجعون وحينئذ يكون كبدل الاشتمال لان قوله انهم اليهم لايرجعون حال من احوال المهلكين اى اهلكوا بحيث لارجوع لهم اليهم فيصير كقولك الاترى زيدا أدبه وعلى هذا فقوله انهم اليهم لايرجعون فيه وجهان (احدهما) اهلكوا اهلاكا لارجوع لهم الى من فى الدنيا (وثانيهما) هوانهم لايرجعون اليهم اى الباقون لايرجعون الى المهلكين بنسب ولاولادة يعنى اهلكناهم وقطعنا نسلهم ولاشك فى ان الاهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم واعم والوجه الاول اشهر نقلا والثانى اظهر عقلا ❊ ثم قال تعالى (وان كل لما جميع لدينا محضرون) لمابين الاهلاك بين انه ليس من اهلكه الله تركه بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ولوان من اهلك ترك لكان الموت راحة ونعم ماقال القائل

ولوانا اذا متنا تركنا ❊ لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذامتنا بعثنا ❊ ونسئل بعده عن كل شى

وقوله وان كل لما فى ان وجهان (احدهما) انها مخففة من الثقيلة واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية ومازائدة مؤكدة فى المعنى والقراءة حينئذ بالتخفيف فى لما (وثانيهما) انها نافية ولما بمعنى الاقال سيبويه يقال نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الافعلت والقراءة حينئذ بالتشديد فى لما يؤيد هذا ماروى ان أبيا قرأ وماكل الاجميع وفى قول سيبويه لمابمعنى الاوارد معنى مناسب وهو ان لما كأنها حرفا نفى جمعا وهما لم وما فتأكد النفى ولهذا يقال فى جواب من قال قدفعل لمايفعل وفى جواب من قال فعل لم يفعل والاكأنها حرفا نفى

(وان كل لما جميع لدينا محضرون) بيان لرجوع الكل الى المحشر بعد بيان عدم الرجوع الى الدنيا وان نافية وتنوين كل عوض عن المضاف اليه ولمابمعنى الا وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له اولما بعده والمعنى ماكلهم الا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرئ لما بالتخفيف على ان ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة ومامزيدة للتأكيد والمعنى ان كلهم مجموعون الخ (وآية لهم الارض الميتة) بالتخفيف وقرئ بالتشديد وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم اما متعلقة بها لانها بمعنى العلامة او بمضمر هو صفة لها والارض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى (احييناها) استئناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والارض الميتة مبتدأ موصوف واحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الارض مبتدأ و احييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الارض واحييناها صفتها لان المراد بها الجنس لاالمعينة والاول هو الاولى لان مصب الفائدة هو كون الارض آية لهم لاكون الآية هى الارض (واخرجنا منها حبا) جنس الحب (فمنه يأكلون) تقديم الصلة للدلالة على ان الحب معظم مايؤكل

ان ولا فاستعمل احدهما مكان الآخر قال الزمخشري فان قال قائل كل وجميع بمعنى واحد فكيف جعل جميعا خبرا لكل حيث دخلت اللام عليه اذ التقدير وان كل لجميع نقول معنى جميع مجموع ومعنى كل كل فرد بحيث لايخرج عن الحكم احد فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم اليه ويمكن ان يقال محضرون يغني عما ذكره وذلك لانه لو قال وان جميع لجميع محضرون لكان كلاما صحيحا ولم يوجد ماذكره من الجواب بل الصحيح ان محضرون كالصفة للجميع فكأنه قال جميع جميع محضرون كما يقال الرجل رجل عالم والنبي نبي مرسل والواو في وان كل لعطف الحكاية على الحكاية كأنه يقول بينت لك ماذكرت وابين ان كلا لدينا محضرون وكذلك الواو في قوله تعالى ❊ (وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وماعملته ايديهم افلا يشكرون) كأنه يقول واقول ايضا آية لهم الارض الميتة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماوجه تعلق هذا بماقبله نقول مناسب لماقبله من وجهين (احدهما) انه لما قال وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر مايدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم واصرارهم وعنادهم فقال وآية لهم الارض الميتة احييناها كذلك نحيي الموتى (وثانيهما) انه لماذكر حال المرسلين واهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر مايدل عليه وبدأ بالارض لكونها مكانهم لامفارقة لهم منها عند الحركة والسكون (المسئلة الثانية) الارض آية مطلقا فلم خصصها بهم حيث قال وآية لهم نقول الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه واما من عرف الشيء بطريق الرؤية لايذكر له دليل فان النبي وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الارض والسماء فليست الارض معرفة لهم وهذا كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وقال اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد يعني انت كفاك ربك معرفا به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء واما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والانفس وكذلك ههنا آية لهم (المسئلة الثالثة) ان قلنا ان الآية مذكورة للاستدلال على جواز احياء الموتى فيكفي قوله احييناها ولاحاجة الى قوله واخرجنا منها حبا وغير ذلك وان قلنا انها للاستدلال على وجود الاله ووحدته فلا فائدة في قوله الارض الميتة احييناها لان نفس الارض دليل ظاهر وبرهان باهر ثم هب انها غير كافية فقوله الميتة احييناها كاف في التوحيد فمافائدة قوله واخرجنا منها حبا نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ماذكره الله تعالى فائدة اما قوله واخرجنا منها حبا فله فائدة بالنسبة الى بيان احياء الموتى وذلك لانه لما احيا الارض واخرج منها حبا كان ذلك احياء تاما لان الارض المخضرة التي لاتنبت الزرع ولاتخرج الحب دون ماتنبته في الحياة فكأنه قال تعالى الذي احيا الارض احياء كاملا منبتا للزرع يحيي الموتى احياء كاملا بحيث تدرك الامور واما بالنسبة الى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الارض

ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب) اي من انواع النخل والعنب ولذلك جمعا دون الحب فان الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الانواع وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والاعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع (وفجرنا فيها) وقرئ بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى (من العيون) اي بعضا من العيون فحذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه او العيون ومن مزيدة على رأي الاخفش (ليأكلوا من ثمره) متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لانه من مبادي الاثمار اي وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادي اثمارها ليأكلوا من ثمر ماذكر من الجنات والنخيل باجراء الضمير مجرى اسم الاشارة وقيل الضمير لله تعالى بطريق الالتفات الى الغيبة والاضافة لان الثمر بخلقه تعالى وقرئ بضمتين وهي لغة فيه او جمع ثمار وبضمة وسكون (وماعملته ايديهم) عطف على ثمره وهو مايتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى ان الثمر بخلق الله تعالى لابفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الاول قراءة عملت بلاهاء فان حذف العائد من الصلة احسن من الحذف من غيرها (أفلا يشكرون) انكار

(فانها)

فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم و الامر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أولم تكن فهى مكان لهم لابدلهم منهافهى نعمة ثم احياؤها بحيث تحضر نعمة ثانية فانها تصير احسن وانزه ثم اخراج الحب منهانعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم وكان يمكن ان يجعل الله رزقهم فى السماء او فى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ثم جعل الجنات فيهانعمة رابعة لان الارض تنبت الحب فى كل سنة واما الاشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجودا ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم انها اين تغرس واين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة الى بيان احياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لان قوله واخرجنا منها حبا كالاشارة الى الامر الضرورى الذى لابد منه وقوله وجعلنا فيها جنات كالامر المحتاج اليه الذى ان لم يكن لايعنى الانسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله وفجرنا فيها من العيون اشارة الى الزينة التى ان لم تكن لاتعنى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة لكنه لايكون على احسن ماينبغى وكان حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له مايسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين فيقول الله عزوجل كما فعلنا فى موات الارض كذلك نفعل فى الاموات فى الارض فنحييهم ونعطيهم مالابدلهم منه فى بقائهم وتكوينهم من الاعضاء المحتاج اليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والاذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ماهو زينة كالعقل الكامل والادراك الشامل فيكون كانه قال نحيى الموتى احياء تاما كما احيينا الارض احياء تاما (المسئلة الرابعة) قال عند ذكر الحب فمنه يأكلون وفى الاشجار والثمار قال ليأكلوا من ثمره وذلك لان الحب قوت لابدمنه فقال فمنه يأكلون اى هم آكلوه واما الثمار ليست كذلك فكأنه تعالى قال ان كنا مااخرجناها كانوا يبقون من غير اكل فاخرجناها ليأكلوها (المسئلة الخامسة) خصص النخيل والاعناب بالذكر من سائر الفواكه لان الذالمطعوم الحلاوة وهى فيهما اتم ولان التمر والعنب قوت وفاكهة ولا كذلك غيرهما ولانهما اعم نفعا فانها تحمل من البلاد الى الاماكن البعيدة فان قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون فى الانعام والقضب والزيتون والتين فى مواضع نقول فى الانعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار الاترى الى قوله تعالى انزل من السماء ماء فاخرجنا به والى قوله فلينظر الانسان الى طعامه فاستوفى الانواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الارض فاختار منها الالذ الانفع وقد ذكرنا فى سورة الانعام مايستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى فاكهة ونخل ورمان (المسئلة السادسة) فى المواضع التى ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهى النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والاعناب ولم يذكر الكرم وذلك لان العنب شجرته بالنسبة الى ثمرته حقيرة قليلة

واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أيرون هذه النعم اويتنعمون بها فلا يشكرونها (سبحان الذى خلق الازواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ماذكر فى حيز الصلة من بدائع آثار قدرته واسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من اخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا اى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الارض والماء اذا ابعد فيهما

الفائدة والنخل بالنسبة الى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى فان كثيرا من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولهاشبه بالحيوان فاختار منها ماهو الاعجب منها وقوله تعالى وفجرنا فيها من العيون آية عظيمة لان الارض اجزاؤها بحكم العادة لاتصعد ونحن نرى منابع الانهار والعيون فى المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا ان الجبال كالقباب المبنية والابخرة ترتفع اليها كما ترتفع الى سقوف الحمامات وتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجرى فى القنوات وان كانت قوية تشق الارض وتخرج انهارا جارية وتجتمع فتحصل الانهار العظيمة وتمدها مياه الامطار والثلوج فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وماذكروه تعسف فالحق هو ان الله تعالى خلق الماء فى المواضع المرتفعة وساقها فى الانهار والسواقى او صعد الماء من المواضع المتسفلة الى الاماكن المرتفعة بأمر الله وجرى فى الاودية الى البقاع التى انعم الله على اهلها ثم قال تعالى ليأكلوا من ثمره وماعملته ايديهم افلايشكرون والترتيب ظاهر وبظهر ايضا فى التفسير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لم اخر التنبيه على الانتفاع بقوله ليأكلوا عن ذكر الثمار حتى قال وفجرنا فيها من العيون وقال فى الحب فنه يأكلون عقيب ذكر الحب ولم يقل عقيب ذكر النخيل والاعناب ليأكلوا نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الامطار ولهذا يرى اكثر البلاد لايكون بها شئ من الاشجار والزرع والحراثة لايبطل هناك اعتمادا على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل مايحتاج اليه الانسان اعم وجودا واما الثمار فلاتتم الابالانهار ولاتصير الاشجار حاملة للثمار الابعد وجود الانهار فلهذا اخر (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله من ثمره عائدا الى اى شئ نقول المشهور انه عائد الى الله اى ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهى ان الثمار بعد وجود الاشجار وجريان الانهار لم توجد الا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع مايظن الظان انه سبب وجوده ليس الا بالله تعالى وارادته فهى ثمره ويحتمل ان يعود الى النخيل وترك الاعناب لحصول العلم بانها فى حكم النخيل ويحتمل ان يقال هو راجع الى المذكور أى من ثمر ماذكرنا وهذان الوجهان نقلهما الزمخشرى ويحتمل وجها آخر اغرب واقرب وهو ان يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب وحينئذ يكون الضمير عائدا الى التفجير المدلول عليه بقوله وفجرنا فيها من العيون تفجيرا ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده اكثر من الثمار بل يدخل فيه ماقال الله تعالى انا صببنا الماء صبا الى ان قال فاخرجنا به حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وابا والتفجير اقرب فى الذكر من النخيل ولو كان عائدا الى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا وفجرنا (المسئلة الثالثة) مافى قوله وماعملته من اى المآت هى نقول فيها وجوه (احدها) نافية كأنه قال وماعملت التفجير ايديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذى كأنه قال

(والذى)

وامعن ومنه فرس سبوح اى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولايكاد يذكر ناصبه اى اسبح سبحانه اى انزهه عما لا يليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران اريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة اسناد التنزه الى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته

والذى عملته ايديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه ايضا ويأكلون من ثمر الله الذى أخرجها من غير سعى من الناس فعطف الذى عملته الايدى على ما خلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هى مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل ايديهم يعنى يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل ايديهم وخلق الله وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير (المسئلة الرابعة) على قولنا ما موصولة يحتمل ان تكون بمعنى وما عملته اى بالتجارة كأنه ذكر نوعى ما يأكل الانسان بهما وهما الزراعة والتجارة ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الايدى كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالاشياء التى لا تؤكل الا مطبوخة أو كالزيتون الذى لا يؤكل الا بعد اصلاح ثم لما عدد النعم اشار الى الشكر بقوله أفلا يشكرون وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم ❋ ثم قال تعالى (سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون) قد ذكرنا ان لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذى خلق الازواج كلها ومعنى سبح نزه ووجه تعلق الآية بما قبلها هو انه تعالى لما قال افلا يشكرون وشكر الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال سبحان الذى خلق الازواج وغيره لم يخلق شيئا فقال او نقول لما بين انهم انكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغى ان يكون عليه العاقل فقال سبحان الذى خلق الازواج كلها أو نقول لما بين الآيات قال سبحان الذى خلق ما ذكره عن ان يكون له شريك او يكون عاجزا عن احياء الموتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله كلها يدل على ان افعال العباد مخلوقة لله لان الزوج هو الصنف وافعال العباد اصناف ولها اشباه هى واقعة تحت اجناس الاعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها انه خلق الازواج كلها لا يقال مما تنبت الارض يخرج الكلام عن العموم لان من قال أعطيت زيدا كل ما كان لى يكون للعموم ان اقتصر عليه فاذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومه لانا نقول ذلك اذا كانت من لبيان التخصيص اما اذا كانت لتأكيد العموم فلا بدليل ان من قال اعطيته كل شئ من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه انه يعدد الاصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى فى حم الذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون من غير تقييد (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى امورا ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله مما تنبت الارض يدخل فيها ما فى الارض من الامور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله ومن انفسهم يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله ومما لا يعلمون يدخل ما فى اقطار السموات وتخوم الارضين وهذا دليل على انه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل ان الانعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وانما ذكر الاشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا فى المثال (المسئلة الثالثة) قوله ومما لا يعلمون فيه معنى لطيف وهو انه تعالى انما ذكر كون الكل

عن كل ما لا يليق به تنزها خاصا به فالجملة على هذا اخبار من الله تعالى بتنزهه وبراءته عن كل ما لا يليق به مما فعلوه وما تركوه وعلى الاول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين ان يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالازواج الاصناف والانواع (مما تنبت الارض) بيان لها والمراد به كل ما ينبت فيها من الاشياء المذكورة وغيرها (ومن انفسهم) اى خلق الازواج من انفسهم اى الذكر والانثى (ومما لا يعلمون) اى والازواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شئ من مصالحهم الدينية والدنيوية

مخلوق فالبنزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخالق لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل الا بالاعتراف بان لا اله الا الله فقال تعالى اعلموا ان المانع من التشريك فيما تعلمون ومالا تعلمون لان الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيأ مما تعلمون فانكم تعلمون انه مخلوق ومما لا تعلمون فان عند الله كله مخلوق لكون كله ممكنا ❊ ثم قال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون) لما استدل الله باحوال الارض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي فان دلالة المكان والزمان متناسبة لان المكان لا تستغنى عنه الجواهر والزمان لا تستغنى عنه الاعراض لان كل عرض فهو فى زمان ومثله مذكور فى قوله تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ثم قال بعده ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت حيث استدل بالزمان والمكان هناك ايضا لكن المقصود اولا هناك اثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى لا تسجدوا للشمس ثم الحشر بدليل قوله تعالى ان الذى احياها لمحيي الموتى وههنا المقصود اولا اثبات الحشر لان السورة فيها ذكر الحشر اكثر يدل عليه النظر فى السورة وهناك ذكر التوحيد اكثر بدليل قوله تعالى فيه قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين الى غيره وآخر السورتين يبين الامر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المكان يدفع عن اهل السنة شبه الفلاسفة والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة (اما بيان الاول) فذلك لان الفلسفى يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل وقبل وبعد لا يتحقق الا بزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشئ عند عدمه وهو محال فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الامكنة متناهية لان الابعاد متناهية بالاتفاق فاذن فوق السطح الاعلى من العالم يكون عدم وهو موصوف بالفوقية وفوق وتحت لا يتحقق الا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشئ عند عدمه فان أجابوا بأن فوق السطح الاعلى لا خلا ولا ملا نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود (واما بيان الثانى) فلان المشبهى يقول لا يمكن وجود موجود الا فى مكان فالله فى مكان فنقول فيلزمكم ان تقولوا الله فى زمان لان الوهم كما لا يمكنه ان يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجودا ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على ان الله تعالى قديم (المسئلة الثانية) لو قال قائل اذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال وآية لهم الليل نقول لما استدل بالمكان الذى هو المظلم وهو الارض وقال وآية لهم الارض استدل بالزمان الذى فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدو الاصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ فى الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال فى الارض وآية لهم الارض الميتة فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين اشبههما بالموت (المسئلة الثالثة) مامعنى سلخ النهار من الليل نقول معناه تميزه منه يقال

(أسلخ)

وانما اطلعهم على ذلك بطريق الاجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه (وآية لهم الليل) جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر كما مر وقوله تعالى (نسلخ منه النهار) جملة مبينة لكيفية كونه آية اى نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو ازالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال والاغلب فى الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الاهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة (فاذاهم مظلمون) أى داخلون فى الظلام مفاجأة وفيه رمز الى ان الاصل هو الظلام

انسلخ النهار من الليل اذا اتى آخر النهار ودخل اول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه واما اذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار او الشمس فمعناه دخلت فى آخره فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة الى قوله نسلخ منه النهار نقول الشئ تتبين بضده منافعه ومحاسنه ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع الاوذكر آية النهار معها وقوله فاذا هم مظلمون اى داخلون فى الظلام واذا للمفاجأة اى ليس بيدهم بعد ذلك امر ولابدلهم من الدخول فيه ❊ وقوله تعالى (والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم) يحتمل ان يكون الواو للعطف على الليل تقديره وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه فهى كلها آية وقوله والشمس تجرى اشارة الى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقرلها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار وفائدة ذكر السبب هو ان الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال ان يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله انما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى والشمس تجرى لمستقرلها بأمر الله فغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل ان يقال بان قوله والشمس تجرى لمستقرلها اشارة الى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ذكر ان الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه وقوله لمستقر اللام يحتمل ان تكون للوقت كقوله تعالى اقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ووجه استعمال اللام للوقت هو ان اللام المكسورة فى الاسماء لتحقيق معنى الاضافة لكن اضافة الفعل الى سببه احسن الاضافات لان الاضافة لتعريف المضاف بالمضاف اليه كما فى قوله دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشتر للاكل واذا علم ان اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشئ يشبه سبب الشئ لان الوقت يأتى بالامر الكائن فيه والامور متعلقة باوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا واقم الصلاة لدلوك الشمس لان الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرار ها اى كلما استقرت زمانا امرت بالجرى فجرت ويحتمل ان تكون بمعنى الى اى الى مستقرلها وتقريره هو ان اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء فقال سرت من يوم الجمعة الى يوم الخميس فجاز استعمال مايستعمل فيه فى احد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ والشمس تجرى الى مستقرلها وعلى هذا ففى ذلك المستقر وجوه (الاول) يوم القيامة وعنده تستقر ولايبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل اى تجرى الى الليل (الرابع) ان ذلك المستقر ليس بالنسبة الى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الاول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء اى تجرى الى ان تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرق الى ستة اشهر ثم تعود الى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها الى

والنور عارض (والشمس تجرى لمستقرلها) لحد معين ينتهى اليه دورها فشبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيره اولكبد السماء فان حركتها فيه توجد ابطأ بحيث يظن ان لها هناك وقفة قال «والشمس حيرى لها بالجو تدويم» اولا استقرار لها على نهج مخصوص اولمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فان لها فى دورها ثلثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لاتعود اليهما الى العام القابل او لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرئ الى مستقر لها وقرئ لامستقر لها اى لاسكون لها فانها متحركة دائما وقرئ

بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لاتميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ويحتمل ان يقال لمستقرلها اى تجرى مجرى مستقرها فان اصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس فالشمس تجرى مجرى مستقرها وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها اى لامر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الاوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط واجاب الله عنه بقوله ذلك تقدير العزيز العليم اى ليس لارادتها وانما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره اياها فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وماذكرت المختار فما الوجه المختار عندك نقول المختار هو ان المراد من المستقر المكان اى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشتمل المشارق والمغارب والمجرى الذى لايختلف والزمان وهو السنة والليل فهو اتم فائدة وقوله ذلك يحتمل ان يكون اشارة الى جرى الشمس اى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل ان يكون اشارة الى المستقر اى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب والعليم كامل العلم اى الذى قدر على اجرائها على الوجه الانفع وعلم الانفع فاجراها على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) هو ان الشمس فى ستة اشهر كل يوم تمر على مسامتة شئ لم تمر من امسها على تلك المسامتة ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الارض التى هى مسامتة لمرها وبقى المجموع مستوليا على الاماكن الاخر فقدر الله لها بعد التجمع الرطوبات فى باطن الارض والاشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخرج النبات والثمار من الارض والشجر وتنضج وتجفف ثم تبعد لئلا يحترق وجه الارض واغصان الاشجار (الثانى) هو ان الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة غروبا لئلا تكل القوى والابصار بالسهر والتعب ولايخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة (الثالث) جعل سيرها ابطأ من سير القمر واسرع من سير زحل لانها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمانا كثيرا فى مسامتة شئ واحد فتحرقه ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ماينضج الثمار فى بقعة واحدة ۞ ثم قال تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لان القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى اناقدرنا مسيره منازل وعلى ماذكره يحتمل ان يقال المراد منه والقمر قدرناه ذامنازل لان ذا الشئ قريب من الشئ ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لان ذا الشئ كالقائم به الشئ فأتوا بلفظ الوصف وقوله حتى عاد كالعرجون القديم اى رجع فى الدقة الى حالته التى كان عليها من قبل والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون والقديم المتقادم الزمان قيل ان ماغبر عليه سنة فهو قديم والصحيح ان هذه بعينها لاتشترط فى جواز اطلاق القديم عليه وانما تعتبر العادة حتى لايقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين انها بناء قديم او هى قديمة ويقال لبعض الاشياء انه قديم وان لم يكن له سنة ولهذا جاز ان يقال بيت قديم وبناء قديم

لامستقر لها على ان لا بمعنى ليس (ذلك) اشارة الى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته اى ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائقة التى تحار فهمها العقول والافهام (تقدير العزيز) الغالب بقدرته على كل مقدور (العليم) المحيط علمه بكل معلوم (والقمر قدرناه) بالنصب باضمار فعل يفسر الظاهر وقرئ بالرفع على الابتداء اى قدرناله (منازل) وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهى ثمانية وعشرون الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذارع

ولم يجز ان يقال فى العالم انه قديم لان القديم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه واطلاق القديم على العالم لايعتاد الاعند من يعتقد انه لاأول له ولاسابق عليه ❊ ثم قال تعالى (لاالشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) اشارة الى ان كل شئ من الاشياء المذكورة خلقها على وفق الحكمة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر والالكان فى شهر واحد صيف وشتاء فلاتدرك الثمار وقوله ولا الليل سابق النهار قيل فى تفسيره ان سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار وقيل معناه ولا الليل سابق النهار اى الليل لايدخل وقت النهار والثانى بعيد لان ذلك يقع ايضاحا للواضح والاول صحيح ان اريد به ما بينته وهو ان معنى قوله تعالى ولا الليل سابق النهار ان القمر اذا كان على أفق المشرق ايام الاستقبال تكون الشمس فى مقابلته على أفق المغرب ثم ان عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر كأن لها حركة واحدة مع ان الشمس تتأخر عن القمر فى ليلة مقدارا ظاهرا فى الحس فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولاتدركه الشمس وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولاتدرك القمر لبقى القمر والشمس مدة مديدة فى مكان واحد لان حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة وهى الدورة اليومية وبهذه الدورة لايسبق كوكب كوكبا اصلا لان كل كوكب من الكواكب اذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب الى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة الينا تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لايسبق القمر الشمس فتبين ان سلطان الليل لايسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله لاالشمس ينبغى لها ان تدرك القمر اشارة الى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة وقوله ولا الليل سابق النهار اشارة الى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق الى المشرق مرة اخرى فى يوم وليلة وعلى هذا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اطلاق الليل وارادة سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم ان الاشارة الى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض فان الشمس اذا كانت لاتدرك القمر والقمر اسرع ظاهرا واذا قال ولا القمر سابق يظن ان القمر لايسبق فليس بأسرع فقال الليل والنهار ليعلم ان الاشارة الى الحركة التى بها تتم الدورة فى مدة يوم وليلة ويكون لجميع الكواكب اوعليها طلوع وغروب فى الليل والنهار (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى قوله تعالى لاالشمس ينبغى لها ان تدرك بصيغة الفعل وقوله ولا الليل سابق النهار بصيغة اسم الفاعل ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر نقول الحركة الاولية التى للشمس ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها وذكر بصيغة الفعل لان صيغة الفعل لاتطلق على من لايصدر منه الفعل فلا يقال هو

النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الاخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة فى واحد منها لايتخطاها ولايتقاصر عنها فاذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون) كالشمراخ المعوج فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج وقرئ كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون (القديم) العتيق وقيل هو ما مر عليه حول فصاعدا (لاالشمس ينبغى لها) اى يصح ويتسهل (أن تدرك القمر) فى سرعة السير

بخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكا لكوكب من الكواكب فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لانه لايستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وان لم يكن خياطا فان قيل قوله تعالى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا يدل على خلاف ماذكرتم لان النهار اذا كان يطلب الليل فالليل سابقه وقلتم ان قوله ولا الليل سابق النهار معناه ماذكرتم فيكون الليل سابقا ولا يكون سابقا نقول قد ذكرنا ان المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر وهو لايسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه فان قيل فلم ذكر ههنا سابق النهار وقد ذكر هناك يطلبه ولم يقل طالبه نقول ذلك لما بينا من ان المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ولا من شأنها انها سابقة والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لاقرار له فهو يطلب حثيثا لصدور التقضى منه وقوله تعالى وكل في فلك يسبحون يحقق ما ذكرنا اى الكل طلوع وغروب في يوم وليلة لايسبق بعضها بعضا بالنسبة الى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التنوين في قوله وكل عوض عن الاضافة معناه كل واحد واسقاط التنوين للاضافة حتى لايجتمع التعريف والتنكير في شئ واحد فلما سقط المضاف اليه لفظا رد التنوين عليه لفظا وفي المعنى معرف بالاضافة فان قيل فهل يختلف الامر عند الاضافة لفظا وتركها فنقول نعم وذلك لان قول القائل كل واحد من الناس كذا لايذهب الفهم الى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه فاذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموما اكثر من العموم عند الاضافه وهذا كما في قبل وبعد اذا قلت افعل قبل كذا فاذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل افاد فهم الفعل قبل كل شئ فان قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الامر للاقتصار عليهم وعند قولك كل منهم تثبت الامر اولا للعموم ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم وعند قولك كل تثبت الامر على العموم وتتركه عليه (المسئلة الثانية) اذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال يسبحون نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) مابينا ان قوله كل للعموم فكأنه اخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) ان لفظ كل يجوز ان يوحد نظرا الى كونه لفظا موحدا غير مثنى ولا مجموع ويجوز ان يجمع لكون معناه جمعا واما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن ان يقول القائل زيد وعمرو كل جاء وكل جاؤا ولا يقول كل جاآ بالتثنية (وثالثها) لما قال ولا الليل سابق النهار والمراد ما في الليل من الكواكب قال يسبحون (المسئلة الثالثة) الفلك ماذا نقول الجسم المستدير او السطح المستدير او الدائرة لان اهل اللغة اتفقوا على ان فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة

فان ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان او في الآثار والمنافع او في المكان بأن تنزل في منزله او في سلطانه فتطمس نوره وايلاء حرف النفي الشمس للدلالة على انها مسخرة لايتيسر لها الا ماقدر لها (ولا الليل سابق النهار) اى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر الى سلطان الشمس فيكون عكسا للاول وايراد السبق مكان الادراك لانه الملائم لسرعة سيره (وكل) اى وكلهم على ان التنوين عوض عن المضاف اليه الذى هو الضمير العائد الى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فان اختلاف الاحوال يوجب تعدد اما في الذات او في الكواكب فان ذكرهما مشعر بها (في فلك يسبحون) يسيرون بانبساط وسهولة

هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة فأن قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على ان السماء مبسوطة لها اطراف على جبال وهى كالسقف المستوى ويدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع نقول ليس فى النصوص مايدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ودل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير اليه اما الاول فظاهر لان السقف المقبب لايخرج عن كونه سقفا وكذلك كونها على جبال وأما الدليل الحسى فوجوه (أحدها) ان من أمعن فى السير فى جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهورا أبديا حتى ان من يرصد يراه دائما ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبديا ولو كان السماء مسطحا مستويا لبان الكل للكل بخلاف ما اذا كان مستديرا فان بعضه حينئذ يستتر بأطراف الارض فلا يرى (الثانى) هو ان الشمس اذا كانت مقارنة للحمل مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب فى منطقة البروج من الحمل الى الميزان ثم فى كل قليل يستتر الكوكب الذى كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذى كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وان بحث فيه يصير قطعيا (الثالث) هو ان الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا ان بعض السماء مستتر بالارض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند اعادتها الى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معا ليكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل احد (الرابع) القمر اذا انكسف فى ساعة من الليل فى جانب الشرق ثم سئل اهل المغرب عن وقت الكسوف اخبروا عن الخسوف فى ساعة اخرى قبل تلك الساعة التى رأى اهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف فى وقت واحد فى جميع نواحى العالم والليل مختلف فدل على ان الليل فى جانب المشرق قبل الليل فى جانب المغرب فالشمس غربت من عند اهل المشرق وهى بعد فى السماء ظاهرة لاهل المغرب فعلم ان استتارها بالارض ولو كانت مستوية لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عند مايكون فوق رؤسنا على المسامتة أقرب الينا وعند مايكون على الافق ابعد منا لان العمود اصغر من القطر والوتر وكذلك فى الشمس والكواكب كان يجب ان يرى أكبر لان القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز ان يكون وهو على الافق على سطح السماء وعند مايكون على مسامتة رؤسنا فى بحر السماء غائرا فيها لان الخرق جائز على السماء نقول لانتازع فى جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته فى دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولانا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند اهل المشرق وهو فى منتصف نهارهم اكبر مقدارا لكونه قريبا من رؤسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الادنى وعندنا فى بحر السماء وبالجملة الدلائل كثيرة والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التى الغرض منها بيان

ذلك العلم وليس الغرض فى التفسير بيان ذلك غيران القدر الذى اوردناه يكفى فى بيان كونه فلكا مستديرا (المسئلة الرابعة) هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا فما قولك فيه نقول اما السبعة السيارة فلكل فلك واما الكواكب الاخر فقيل لكل فلك واحد ولنذكر كلاما مختصرا فى هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول قيل ان للقمر فلكا لان حركته أسرع من حركة الستة الباقية وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر فان بعضها يمر فى دائرة وبعضها فى دائرة اخرى حتى فى بعض الاوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفى بعض الاوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ثم ان اهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم ان نقول لكل فلك هو كرة او صفحة او دائرة يفعلها الكوكب بحركته والله تعالى قادر على ان يخلق الكوكب فى كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق فى ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة وعلى مذهب ارباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه وكذلك قادر على ان يخلق حلقة يحيط بها اربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى اذا قورناه واخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب والحركة على هذا الوجه وان كانت مقدورة لكن لم يذهب اليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على ان يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة فى الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد الى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون والظاهر ان حركة الكواكب على هذا الوجه وأرباب الهيئة انكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة على هذا الوجه لان الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة اولا ينشق ولا يلتئم بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام هذا ما اعتمدوا عليه ونحن نقول كلاهما جائز أما الخلاء فلا يحتاج اليه ههنا لان قوله تعالى يسبحون يفهم منه انه بشق والتئام واما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم فى المحدد للجهات وهى هناك ضعيفة ثم انهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف فى الوقت الذى يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لانا نقول للشمس فلكان (احدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة فى الفلك الخارج المركز تدور بدورانه فى السنة دورة فاذا جعلت فى الجانب الاعلى تكون بعيدة عن الارض فيقال انها فى الاوج واذا حصلت فى الجانب الاسفل تكون قريبة من الارض فتكون فى الحضيض واما القمر فله فلك شامل لجميع

(اجزائه)

أجزائه وافلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الاول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك التحتانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز كمسمار فى كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقانى الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتانى الذى فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التى فى الحامل تسمى فلك التدوير وكذلك قالوا فى الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير ان الفوقانى الذى سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فاثبتوا أربعة وعشرين فلكا الفلك الاعلى وفلك البروج ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير وللمشترى ثلاثة كالزحل وللمريخ كذلك ثلاثة وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز وللزهرة ثلاثة أفلاك كالعلويات ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التى ذكرناها فى العلويات وفلك آخر يسمونه المدير وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لان المدير غير محيط بافلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ومنهم من زاد فى الخمسة فى كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة افلاك وقالوا ان بسبب هذه الاجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والاقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بأرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام (المسئلة الخامسة) قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل انه تعالى قال يسبحون وذلك لا يطلق الا على العاقل نقول ان أردتم القدر الذى يصح به التسبيح فنقول به لانه مامن شئ من هذه الاشياء الا وهو يسبح بحمد الله وان أردتم شيئا آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما فى قوله تعالى فى حق الاصنام مالكم لا تنطقون وقوله الا تنطقون * ثم قال تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (احدهما) انه تعالى لما من باحياء الارض وهى مكان الحيوانات بين انه لم يقتصر بل جعل للانسان طريقا يتخذ من البحر خيرا ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله وحملناكم فى البر والبحر ويؤيد هذا قوله تعالى وخلقنا لهم من مثله ما يركبون اذا فسرناه بأن المراد الابل فانها كسفن البرارى (وثانيهما) هو انه تعالى لما بين سباحة الكواكب فى الافلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ولها وجه ثالث وهى ان الامور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والاول للحاجة والثانى للزينة فخلق الارض واحياؤها من القبيل الاول فانها المكان الذى لولاه لما وجد الانسان ولولا احياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله وآية لهم الليل ايضا من القبيل الاول لانه الزمان الذى لولاه لما حدث الانسان والشمس والقمر وحركتهما لولم تكن لما عاش ثم انه تعالى لما ذكر من القبيل

(وآية لهم انا حملنا ذريتهم) اولاد هم الذين يبعثونهم الى تجاراتهم اوصبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فان الذرية تطلق عليهن لاسيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما ان استقرارهم فى السفن اشق واستمساكهم فيها ابدع (فى الفلك المشحون) اى المملوء وقيل هو فلك نوح عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الاقدمين وفى اصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص اعقابهم بالذكر دونهم لانه ابلغ فى الامتنان وادخل فى التعجيب الذى عليه يدور كونه آية

الاول آيتين ذكر من القبيل الثانى وهو الزينة آيتين (احدهما) الفلك التى تجرى فى البحر فيستخرج من البحر مايتزين به كما قال تعالى ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر (وثانيهما) الدواب التى هى فى البر كالفلك فى البحر فى قوله وخلقنا لهم من مثله مايركبون فان الدواب زينة كما قال تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون فيكون استدلالا عليهم بالضرورى والنافع لايقال بأن النافع ذكره فى قوله جنات من نخيل واعناب فانها للزينة لانانقول ذلك حصل تبعا للضرورى لان الله تعالى لما خلق الارض منبتة لدفع الضرورة وانزل الماء عليها كذلك لزم ان يخرج من الجنة النخيل والاعناب بقدرة الله واما الفلك فقصود لاتبع ثم اذا علمت المناسبة فى الآيات ابحاث لغوية ومعنوية (اما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء اى حملنا آباءكم فى الفلك والالف واللام للتعريف اى فلك نوح وهو مذكور فى قوله واصنع الفلك ومعلوم عند العرب فقال الفلك هذا قول بعضهم واما الاكثرون فعلى ان الذرية لاتطلق الاعلى الولد وعلى هذا فلابد من بيان المعنى فنقول الفلك امان يكون المراد الفلك المعين الذى كان لنوح واما ان يكون المراد الجنس كما قال تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون وقال تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك الى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الاول) ان المراد انا حملنا اولادكم الى يوم القيامة فى ذلك الفلك ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولاعقب وعلى هذا فقوله حملنا ذريتهم بدل قوله حملناهم اشارة الى كمال النعمة اى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى اعقابكم الى يوم القيامة هذا ماقاله الزمخشرى ويحتمل عندى ان يقال على هذا انه تعالى انما خص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كفارا لافائدة فى وجودهم فقال حملنا ذريتهم اى لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما فى اصلابهم من المؤمنين كما ان من حمل صندوقا لاقيمة له وفيه جواهر اذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب فى حمله وهو لايشترى بشئ يقول لا أحمل الصندوق وانما أحمل مافيه (الثانى) هو ان المراد بالذرية الجنس معناه حملنا اجناسهم وذلك لان ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرارى اى النساء وذلك لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا اى امثالنا فقوله انا حملنا ذريتهم اى امثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو ان الضمير فى قوله وآية لهم عائد الى العباد حيث قال ياحسرة على العباد وقال بعد ذلك وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل وقال وآية لهم انا حملنا ذريتهم اذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد انا حملنا ذريات العباد ولايلزم ان يكون المراد بالضمير فى الموضعين اشخاصا معينين كما قال تعالى ولاتقتلوا انفسكم ويريد بعضكم

(بعضا)

بعضا وكذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد اشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضا فكذلك قوله تعالى وآية لهم اى آية لكل بعض منهم انا حملنا ذرية كل بعض منهم او ذرية بعض منهم واما ان قلنا ان المراد جنس الفلك فهو اظهر لان سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فاما جنس الفلك فانه ظاهر لكل احد وقوله تعالى فى سفينة نوح وجعلناها آية للعالمين اى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور فنقول قوله تعالى حملنا ذريتهم اى ذريات العباد ولم يقل حملناهم لان سكون الارض عام لكل احد يسكنها فقال وآية لهم الارض الميتة الى ان قال فمنه يأكلون لان الأكل عام واما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لابد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج اليها فيحمل فيها (المسئلة الثانية) جعل الفلك تارة جمعا حيث قال وترى الفلك فيه مواخر جمع مأخرة واخرى فردا حيث قال فى الفلك المشحون نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة وهو ان الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد تظن انهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته اصلية اذا قلنا ان الفعل مشتق من المصدر وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث ان الجمع يشتق من الواحد وينبغى ان يلحق المشتق تغيير فى حركة او حرف او فى مجموعهما فساجد لما اردنا ان يشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فاذا السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الالفاظ المشتركة التى وضعت بحركة واحدة لمعنيين اذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحدا مثل قفل وبرد وعند كونها جمعا مثل خشب ومرد وغيرها فان قلت فاذا جعلته جمعا ماذا يكون واحدها نقول جاز ان يكون واحدها فلكة او غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل وكذا القول فى امام مبين وفى قوله ندعوا كل اناث بامامهم اى بأئمتهم عند قوله تعالى امام مبين امام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى كل اناث بأمامهم امام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف (واما المعنوية) فنذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا حملنا ذريتهم من عليهم بحمل ذريتهم وقال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية من هناك عليهم بحمل انفسهم نقول لان من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه مثاله من احسن الى ولد انسان وفرحه فرح بفرحه ابوه واذا دفع واحد الألم عن ولد انسان يكون قد فرح اباه ولا يكون فى الحقيقة قد أزال الالم عن ابيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ولو قال دفعت عن اولادكم الضرر لما حصل

(وخلقنا لهم من مثله) مما يماثل الفلك (ما يركبون) من الابل فانها سفائن البر او مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم باقدار الله تعالى والهامه بل لمزيد اختصاص اصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لانها باختيارهم كما ان التعبير عن ملابسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار (وان نشأ نغرقهم) الخ من تمام الآية فانهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين وقرئ نغرقهم بالتشديد وفى تعليق الاغراق بمحض المشيئة اشعار بانه قد تكامل ما يوجب اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق الا تعلق مشيئته تعالى به اى ان نشأ نغرقهم فى اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك فحديث خلق الابل حينئذ كلام جئ به فى خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الابل والفلك فكأنها نوع منه او مع ما يركبون من السفن والزوارق (فلا صريخ لهم) اى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنه قبل

بيان دفع الضرر عنهم وههنا أراد بيان المنافع فقال حملنا ذريتهم لان النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا ان ههنا قال فى الفلك المشحون فان ابتلاء الفلك من الاموال يحصل بذكره بيان المنفعة واما دفع المضرة فلالان الفلك كلما كان اثقل كان الخلاص به ابطأ وهنالك السلامة فاختار هنالك مايدل على الخلاص من الضرر وهو الجرى وههنا مايدل على كمال المنفعة وهو الشحن فان قيل قال تعالى وحملناهم فى البر والبحر ولم يقل وحملنا ذريتهم مع ان المقصود فى الموضعين بيان النعمة لادفع النقمة نقول لما قال فى البر والبحر عم الخلق لان مامن احد الاوحمل فى البر او البحر واما الحمل فى البحر فلم يعم فقال ان كنا ماحملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم امره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقاء (المسئلة الثانية) قوله المشحون يفيد فائدة اخرى غيرماذكرنا وهى ان الآدمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك واقع بقدرته لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لايرسب فى الماء لان الخفيف يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون اثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله فان قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء فى الكتب العقلية فاذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء الابارادة الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم وذلك لان حملهم فى الفلك هو العجب امانفس الفلك فليس بعجب لانه كبيت مبنى من خشب وامانفس الارض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لاحد الاالله ۞ ثم قال تعالى (وخلقنالهم من مثله مايركبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من حيث اللغة والمعنى اما اللغة فقوله لهم يحتمل ان يكون عائدا الى الذرية اى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ويحتمل ان يكون عائدا الى العباد الذين عاد اليهم قوله وآية لهم وهو الحق لان الظاهر عود الضمائر الى شئ واحد (المسئلة الثانية) من يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون صلة تقديره وخلقنالهم مثله وهذا على رأى الاخفش وسيبويه يقول من لايكون صلة الاعند النفى تقول ماجاءنى من احد كما فى قوله تعالى ومامسنا من لغوب (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى يغفر لكم من ذنوبكم كأنه لما قال خلقنالهم والمخلوق كان اشياء قال من مثل الفلك للبيان (المسئلة الثالثة) الضمير فى مثله على قول الاكثرين عائد الى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى وآخر من شكله ازواج وعلى هذا فالاظهر ان يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا هو انه تعالى قال وان نشأ نغرقهم ولوكان المراد الابل على ماقاله بعض المفسرين لكان قوله وخلقنالهم من مثله مايركبون فاصلا بين متصلين ويحتمل ان يقال الضمير عائد الى معلوم غير مذكور تقديره ان يقال وخلقنالهم من مثل ماذكرنا من المخلوقات فى قوله خلق الازواج كلها مما تنبت الارض وهذا كما قالوا فى قوله تعالى ليأكلوا من ثمره ان الهاء عائد الى ماذكرنا اى من ثمر ماذكرنا وعلى هذا فقوله خلقنالهم فيه لطيفة • وهى ان مامن

(احد)

وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم اتاهم الصريخ (ولاهم ينقذون) اى ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى (الارحمة منا ومتاعا) استثناء مفرغ من اعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة اى لايغاثون ولاينقذون لشئ من الاشياء الا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية الى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز ان يراد بالرحمة مايقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ اى لنوع من الرحمة وتمتيع (الى حين) اى الى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل

ولم اسلم لكى ابقى ولكن
سلمت من الحمام الى الحمام

(واذا قيل لهم اتقوا) بيان لاعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان اعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها اى اذا قيل لهم بطريق الانذار بمانزل من الآيات اوبغيره اتقوا (مابين ايديكم وما خلفكم) من الآفات والنوازل فانها محيطة بكم اومايصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون ومن حيث لاتحتسبون اومن الوقائع النازلة على الامم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة اومن نوازل السماء ونوائب الارض اومن عذاب الدنيا وعذاب

احد الاوله ركوب مركوب من الدواب وليس كل احد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وان كنا ماحملناهم واما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان (احدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (وثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر فان قيل اذا كان المراد سفينة نوح فاوجه مناسبة الكلام نقول ذكرهم بحال قوم نوح وان المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم ان آمنوا يفوزوا وان كذبوا يهلكوا ❁ ثم قال تعالى (وان نشأ نغرقهم) اشارة الى فائدتين (احداهما) ان فى حال النعمة ينبغى ان لايأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو ان ذلك جواب سؤال مقدر وهو ان الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لايرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله اغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل ان يقول ألست توافق ان من السفن ماينقلب وينكسر ومنها ماينقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله اغراقهم اغرقهم من غير شئ من هذه الاسباب كما هو مذهب اهل السنة او بشئ من تلك الاسباب كما تسلم انت ❁ وقوله تعالى (فلا صريخ لهم) اى لامغيث لهم يمنع عنهم الغرق (ولاهم ينقذون) اذا ادركهم الغرق وذلك لان الخلاص من العذاب اما ان يكون بدفع العذاب من اصله او برفعه بعد وقوعه فقال لاصريخ لهم يدفع ولاهم ينقذون بعد الوقوع فيه وهذا مثل قوله تعالى لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاهم ينقذون فقوله لاصريخ لهم ولاهم ينقذون فيه فائدة اخرى غير الحصر وهى انه تعالى قال لاصريخ لهم ولم يقل ولامنقذ لهم وذلك لان من لايكون من شأنه ان ينصر لايشرع فى النصرة مخافة ان يغلب ويذهب ماء وجهه وانما ينصر ويغيث من يكون من شأنه ان يغيث فقال لاصريخ لهم واما من لايكون من شأنه ان ينقذ اذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الانقاذ وان لم يثق بنفسه فى الانقاذ ولا يغلب على ظنه وانما يبذل المجهود فقال ولاهم ينقذون ولم يقل ولامنقذ لهم ثم استثنى فقال (الا رحمة منا ومتاعا الى حين) وهو يفيد امرين (احدهما) انقسام الانقاذ الى قسمين الرحمة والمتاع اى فيمن علم الله منه انه يؤمن فينقذه الله رحمة وفيمن علم انه لايؤمن فليتمتع زمانا ويزداد اثما (وثانيهما) انه بيان لكون الانقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه الى حين ثم يميته فالزوال لازم ان يقع ❁ ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتقوا مابين ايديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما عدد الآيات بقوله وآية لهم الارض وآية لهم الليل وآية لهم انا حملنا ذريتهم وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين قال فلا اقل من ان يحترزوا عن العذاب فان من اخبر بوقوع عذاب يتقيه وان لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطا فقال تعالى اذا ذكر لهم الدليل القاطع لايعترفون به واذا قيل لهم اتقوا لايتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة لامثل العلماء الذين يتبعون البرهان ولامثل العامة الذين يبنون الامر على الاحوط ويدل على ماذكرنا

للآخرة اوما تقدم من الذنوب وما تأخر (لعلكم ترحمون) اما حال من واو اتقوا او غاية له اى راجين ان ترحموا اوكى ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم ان مناط النجاة ليس الا رحمة الله تعالى وجواب اذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى (وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) انفهاما بينا اما اذا كان الانذار بالآية الكريمة فبعبارة النص واما اذا كان بغيرها فبدلالته لانهم حين اعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الاولوية كأنه قيل واذا قيل لهم اتقوا العذاب اعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية واضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شانها المستتبع لتهويل ماجترؤا عليه فى حقها والمراد بها اما الآيات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى ماينزل اليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للاقبال عليها والايمان بها الا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب

قوله تعالى لعلكم ترجون بحرف التمنى اى فى ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لايترك طريقة الاحتراز والاحتياط وجواب قوله اذاقيل لهم اتقوا محذوف معناه واذا قيل لهم ذلك لايتقون او يعرضون وانما حذف لدلالة مابعده عليه وهو قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم وفى قوله تعالى مابين ايديكم وماخلفكم وجوه (احدها) مابين ايديكم الآخرة فانهم مستقبلون لها وماخلفكم الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) مابين ايديكم من انواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى وان نشأ نغرقهم فلاصريخ لهم ولاهم ينقذون وماخلفكم من الموت الطالب لكم ان نجوتم من هذه الاشياء فلانجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى ومتاعا الى حين (وثالثها) مابين ايديكم من امر محمد صلى الله عليه وسلم فانه حاضر عندكم وماخلفكم من امر الحشر فانكم اذا اتقيتم تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى لعلكم ترجون مع ان الرحمة واجبة فيه وجوه ذكرناها مرارا ونزيد ههنا وجها آخر وهو انه تعالى لما قال اتقوا بمعنى انكم ان لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطا قال لعلكم ترجون يعنى ارباب اليقين يرجون جزما وارباب الاحتياط يرجى ان يرجوا والحق ماذكرنا من وجهين (احدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لايجب عليه شئ (وثانيهما) هو ان الاتقاء نظرا اليه امر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به احد لامر من خارج فذلك لايمنع الرجاء فان الملك اذا كان فى قلبه ان يعطى من يخدمه اكثر من اجرته اضعافا مضاعفة لكن الخدمة لاتقتضى ذلك يصح منه ان يقول افعل كذا ولايبعد ان يصل اليك اجرتك اكثر مما تستحق * ثم قال تعالى (وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الاكانوا عنها معرضين) وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول الاكانوا به يستهزؤن وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الاكانوا عنها معرضين يعنى اذا جاءتهم الرسل كذبوهم فاذا أتوا بالآيات اعرضوا عنها ومالتفتوا اليها وقوله ألم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون الى قوله لعلكم ترجون كلام بين كلامين متصلين ويحتمل ان يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو انه تعالى لما قال واذاقيل لهم اتقوا وكان فيه تقدير اعرضوا قال ليس اعراضهم مقتصرا على ذلك بل هم عن كل آية معرضون او يقال اذاقيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل انزال الملك وغيره فقال وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الاكانوا عنها معرضين وعلى هذا كانوا فى المعنى يكون زائدا معناه لايعرضون عنها اى لاتنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل * وقوله تعالى (واذاقيل لهم انفقوا مما رزقكم الله) اشارة الى انهم يخلون بجميع ماعلى المكلف وذلك لان المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم انفقوا فلم ينفقوا (وفيه لطائف الاولى) خوطبوا بأدنى الدرجات فى التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشئ

والاستهزاء واما مايعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التى من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد باتيانها مايعم نزول الوحى وظهور تلك الامور لهم والمعنى مايظهر لهم آية من الآيات التى من جملتها ماذكر من شؤنه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية الاكانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى الى الايمان به تعالى وايثاره على ان يقال الاعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة فى حيز النصب على انها حال من مفعول تأتى او من فاعله المخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال اى ماتأتيهم من آية من آيات ربهم فى حال من احوالهم الاحال اعراضهم عنها اوماتأتيهم آية منها فى حال من احوالها الاحال اعراضهم عنها (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله) اى اعطاكم بطريق التفضل والانعام من انواع الاموال عبر عنها بذلك تحقيقا للحق وترغيبا فى الانفاق

(منه)

منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالادنى فأتوا بالاعلى انما قلنا ذلك لانهم فى التقوى امروا بأن يتقوى مابين ايديهم من العذاب او الآخرة وماخلفهم من الموت او العذاب وهو ادنى مايكون من الاتقاء واما الخاص فيتقى تغير قلب الملك عليه وان لم يعاقبه ومتقى العذاب لايكون الا لبعيد فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه اولا يعاقبهم واما فى الشفقة فقيل لهم انفقوا مما اى بعض ما هو لله فى ايديكم فلم ينفقوا والمخلصون آثروا على انفسهم وبذلوا كل ما فى ايديهم بل انفسهم صرفوها الى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما ان فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة الا اليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة الا اليهم فان من لا يرزقه المتمول لا يموت الا باجله ولابد من وصول رزقه اليه لكن السعيد من قدر الله ايصال الرزق على يده الى غيره (الثالثة) قوله مما رزقكم اشارة الى امرين (احدهما) ان البخل به فى غاية القبح فان ابخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) انه لا ينبغى ان يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله رزقكم فاذا انفقتم فهو يخلفه لكم ثانيا كما رزقكم اولا • وفيه مسائل ايضا (المسئلة الاولى) عند قوله تعالى واذا قيل لهم انفقوا حذف الجواب وههنا اجاب واتى بأكثر من الجواب وذلك لانه تعالى لو قال واذا قيل لهم انفقوا قالوا أنطعم من لو يشاء الله اطعمه لكان كافيا فما الفائدة فى قوله تعالى قال الذين كفروا للذين آمنوا نقول الكفار كانوا يقولون بأن الاطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به وانما ارادوا بذلك القول ردا على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بان افعالنا ثناء ولولا اطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وانتم تقولون ان الهكم يرزق من يشاء فلم تقولون لنا انفقوا فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الاطعام قال تعالى عنهم قال الذين كفروا للذين آمنوا اشارة الى الرد وأما فى قولهم اتقوا مابين ايديكم فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر اعراضهم لحصول العلم به (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا انفق على من لو يشاء الله رزقه وذلك لانهم امروا بالانفاق فى قوله واذا قيل لهم انفقوا فكان جوابهم بان يقولوا أنفق فلم قالوا أنطعم نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لانهم اذا أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيه الاطعام وغيره لم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منه وهو الاطعام وقالوا لانطعم وهذا كما يقول القائل لغيره اعط زيدا دينارا يقول لااعطيه درهما مع ان المطابق هو ان يقول لااعطيه دينارا ولكن المبالغة فى هذا الوجه اتم فكذلك ههنا (المسئلة الثالثة) كان كلامهم حقا فان الله لو شاء اطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم نقول لان مرادهم كان الانكار لقدرة الله اولعدم جواز الامر بالانفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله مما رزقكم فانه يدل على قدرته ويصحح امره بالاعطاء لان من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو

على منهاج قوله تعالى واحسن كما احسن الله اليك وتنبيها على عظم جنايتهم فى ترك الامتثال بالامر وكذلك من التبعضية اى اذا قيل لهم بطريق النصيحة انفقوا بعض ما اعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فان ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره (قال الذين كفروا) بالصانع عزوجل وهم زنادقة كانوا بمكة (للذين آمنوا) تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الامور بمشيئة الله تعالى (أنطعم) حسبما تعظوننا به (من لو يشاء الله أطعمه) اى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة اذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من اموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والانعام يوهمون انه تعالى لما لم يشأ أطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو الا لفرط جهالتهم فان الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الاغنياء على اطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك (ان انتم الا فى ضلال مبين) حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جوابا لهم من جهته تعالى او حكاية لجواب المؤمنين لهم (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) اى فيما

مخيران اراد اعطى مما فى خزائنه وان اراد امر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوزان
يقول من بيده ماله فى خزائنك اكثر مما فى يدى اعطه منه وقوله ان انتم الا فى ضلال مبين
اشارة الى اعتقادهم انهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وان امرهم بالانفاق مع قولهم
بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية (اما
اللغوية) فنقول ان وردت للنفى بمعنى ما وكان الاصل فى ان ان تكون للشرط والاصل فى
ما ان تكون للنفى لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما فى الشرط
واستعمل ان فى النفى اما الوجه المشترك فهو ان كل واحد منهما حرف مركب من حرفين
متقاربين فان الهمزة تقرب من الالف والميم من النون ولابد من ان يكون المعنى الذى
يدخل عليه ما وان لايكون ثابتا اما فى ما فظاهر واما فى ان فلانك اذا قلت ان جاءنى زيد
اكرمه ينبغى ان لايكون له فى الحال مجئ فاستعمل ان مكان ما وقيل ان زيد قائم اى ما زيد
بقائم واستعمل ما فى الشرط تقول ماتصنع اصنع والذى يدل على ماذكرنا ان ما النافية
تستعمل حيث لاتستعمل ان وذلك لانك تقول ما ان جلس زيد فتجعل ان صلة ولا تقول ان
جلس زيد بمعنى النفى وبمعنى الشرط تقول اما ترين فتجعل ان اصلا وما صلة فدلنا هذا على
ان ان فى الشرط اصل وما دخيل وما فى النفى بالعكس (البحث الثانى) قد ذكرنا ان قوله ان
انتم الا يفيد ما لايفيد قوله انتم فى ضلال لانه يوجب الحصر وانهم ليسوا فى غير الضلال
(البحث الثالث) وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه انه لظهوره يبين نفسه انه ضلال
اى فى ضلال لايخفى على احد انه ضلال (البحث الرابع) قد ذكرنا ان قوله فى ضلال يفيد
كونهم مغمورين فيه غائصين وقوله فى مواضع على بينة وعلى هدى اشارة الى كونهم
راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه (واما المعنوية) فهى انهم انما وصفوا الذين
آمنوا بكونهم فى ضلال مبين لكونهم ظانين ان المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه
يكون فى غاية الضلال انما قلنا ذلك لانهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله اطعمه اشارة الى ان
الله ان شاء ان يطعمهم كان يطعمهم فلا نقدر على اطعامهم لانه يكون تحصيلا للحاصل
وان لم يشأ اطعامهم لايقدر احد على اطعامهم لامتناع وقوع مالم يشاء الله فلا قدرة لنا
على الاطعام فكيف تأمروننا بالاطعام (ووجه آخر) وهو انهم قالوا اراد الله تجويعهم
فلو اطعمناهم يكون ذلك سعيا فى ابطال فعل الله وانه لايجوز وانتم تقولون اطعموهم فهو
ضلال ولم يكن فى الضلال الا هم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك
لان العبد اذا امره السيد بأمر لاينبغى ان يكشف سبب الامر والاطلاع على المقصود
الذى امر به لاجله مثاله الملك اذا اراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لايطلع عليه
أحد وقال لعبده احضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لاجله الركوب
لنسب الى انه يريد ان يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالادب فى الطاعة هو اتباع
الامر لا تتبع المراد فالله تعالى اذا قال انفقوا مما رزقكم لايجوز ان يقولوا لم لم يطعمهم

(الله)

تعدوننا به من قيام الساعة
مخاطبين لرسول الله صلى الله
عليه وسلم والمؤمنين لما انهم
ايضا كانوا يتلون عليهم آيات
الوعيد بقيامها ومعنى القرب
فى هذا اما بطريق الاستهزاء
واما باعتبار قرب العهد بالوعد
(ماينظرون) جواب من
جهته تعالى اى ماينتظرون
(الاصيحة واحدة) هى النفخة
الاولى (تأخذهم) مفاجأة
(وهم يخصمون) اى يتخاصمون
فى متاجرهم ومعاملاتهم لايخطر
ببالهم شئ من مخايلها كقوله
تعالى فأخذتهم الصاعقة بغتة
وهم لايشعرون فلا يغتروا بعدم
ظهور علائمها ولا يزعموا أنها
لاتأتيهم واصل يخصمون
يختصمون فسكنت التاء
وأدغمت فى الصاد ثم كسرت
الخاء لالتقاء الساكنين وقرئ
بكسر الياء للاتباع وبفتح الخاء
على القاء حركة التاء عليه
وقرئ على الاختلاس
وبالاسكان على تجويز الجمع
بين الساكنين اذا كان الثانى
مدغما وان لم يكن الاول حرف
مد وقرئ يخصمون من خصمه
اذا جادله (فلا يستطيعون
توصية) فى شئ من امورهم
ان كانوا فيما بين اهليهم (ولا الى
اهلهم يرجعون) ان كانوا فى خارج
ابوابهم بل تبغتهم الصيحة
فيموتون حيثما كانوا (ونفخ فى
الصور) هى النفخة الثانية بينها

الله مما فى خزائنه * ثم قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهو اشارة الى مااعتقدوه وهو ان التقوى المأمور بها فى قوله واذا قيل لهم اتقوا والانفاق المذكور فى قوله تعالى واذا قيل لهم انفقوا لافائدة فيه لان الوعد لاحقيقة له وقوله متى هذا الوعد اى متى يقع الموعود به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وهى ان ان للشرط وهى تستدعى جزاء ومتى استفهام لايصلح جزاء فاالجواب نقول هى فى الصورة استفهام وفى المعنى انكار كأنهم قالوا ان كنتم صادقين فى وقوع الحشر فقولوا متى يكون (المسئلة الثانية) الخطاب مع من فى قولهم ان كنتم نقول الظاهر انه مع الانبياء لانهم لما انكروا الرسالة قالوا ان كنتم ياأيها المدعون للرسالة صادقين فاخبرونا متى يكون (المسئلة الثالثة) ليس فى هذا الموضع وعد فالاشارة بقوله هذا الوعد الى اى وعد نقول هو مافى قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين ايديكم وما خلفكم من قيام الساعة او نقول هو معلوم وان لم يكن مذكورا لكون الانبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب * ثم قال تعالى (ماينظرون الا صيحة واحدة) اى لاينتظرون الا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير فان قيل هم ماكانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها فنقول الانتظار فعلى لانهم كانوا يفعلون مايستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فانهم لايقولون او نقول لما لم يكن قوله متى استفهاما حقيقيا قال ينتظرون انتظارا غير حقيقى لان القائل متى يفهم منه الانتظار نظرا الى قوله * وقد ذكروا ههنا فى الصيحة امورا تدل على هولها وعظمها (احدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب اى جرئ (وثانيها) واحدة اى لايحتاج معها الى ثانية (وثالثها) تأخذهم اى تعمهم بالاخذ وتصل الى من فى مشارق الارض ومغاربها ولاشك ان مثلها لايكون الا عظيما * وقوله (تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون) مما يعظم به الامر لان الصيحة المعتادة اذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم اذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة فاذا كان حال الصيحة ماذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف اتم والايجاف اعظم ويحتمل ان يقال يخصمون فى البعث ويقولون لايكون ذلك اصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد انه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فانه لايرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقا وعلم ان سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتا والغافل الذاهل مغشيا عليه ثم بين شدة الاخذ وهى بحيث لاتمهلهم الى ان يوصوا * وفيه امور مبينة للشدة (احدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لايوصى دون قوله لايستطيع التوصية لان من لايوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد اسرع مما يوجد الفعل فقال لايستطيعون كلمة فكيف فعلا يحتاج الى زمان

وبين الاولى اربعون سنة اى ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (فاذا هم من الاجداث) اى القبور جمع جدث وقرئ بالفاء (الى ربهم) مالك امرهم على الاطلاق (ينسلون) يسرعون بطريق الاجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرئ بضم السين (قالوا) اى فى ابتداء بعثهم من القبور (ياويلنا) احضر فهذا اوانك وقرئ ياويلتنا (من بعثنا من مرقدنا) وقرئ من اهبنا من هب من نومه اذا انتبه وقرئ من هبنا بمعنى اهبنا وقيل اصله هب بنا فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز واشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون انهم كانوا نياما وعن مجاهد ان للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فاذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وابى بن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى ان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من اهوال القيامة ماشاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل اذا عاينوا جهنم وما فيها من انواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرئ من بعثنا ومن هبنا بمن الجارة والمصدر والمرقد اما مصدر اى من رقادنا او اسم مكان اريد به

طويل من اداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على انه لاقدرة له على اهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة الى التوصية امس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم اى لايقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ولان التوصية قد تحصل بالاشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله ولا الى اهلهم يرجعون بيان لشدة الحاجة الى التوصية لان من يرجو الوصول الى اهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة اليها واما من يقطع بأنه لا وصول له الى اهله فلا بد له من التوصية فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة * وفى قوله ولا الى اهلهم يرجعون وجهان (احدهما) ماذكرنا انهم يقطعون بانهم لايمهلون الى ان يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة الى التوصية (وثانيهما) انهم الى اهلهم لا يرجعون يعنى يموتون ولا رجوع لهم الى الدنيا ومن يسافر سفرا ويعلم انه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة اخرى يأتى بالوصية * ثم بين ما بعد الصيحة الاولى فقال (ونفخ فى الصور فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون) اى نفخ فيه اخرى كما قال تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذاهم قيام ينظرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فى موضع آخر ثم نفخ فيه اخرى فاذاهم قيام ينظرون وقال ههنا فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وقوله فى الموضعين اذاهم يقتضى ان يكونا معا فنقول (الجواب) عنه من وجهين (احدهما) ان القيام لاينافى المشى السريع لان الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) ان لسرعة الامور كأن الكل فى زمان واحد كقول القائل * مكر مفر مقبل مدبر معا * (المسئلة الثانية) كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الاحياء والاماتة نقول لامؤثر غير الله والنفخ علامة ثم ان الصوت الهائل يزلزل الاجسام فعند الحياة كانت اجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق وحالة الموت كانت الاجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل ان النفختين يؤثران تزلزلا وانتقالا للاجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع (المسئلة الثالثة) ما التحقيق فى اذا التى للمفاجأة نقول هى اذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشئ قد يكون ظرفا للشئ معلوما كونه ظرفا فعند الكلام يعلم كونه ظرفا وعند المشاهدة لايتجدد علم كقول القائل اذا طلعت الشمس اضاء الجو وغير ذلك فاذا رأى اضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد واما اذا قلت خرجت فاذا اسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الاسد بالباب لكنه لم يكن معلوما فاذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفا له مفاجأة عند الاحساس فقيل اذا للمفاجأة (المسئلة الرابعة) اين يكون فى ذلك الوقت اجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال نقول يجمع الله اجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (المسئلة الخامسة) الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف اليهم لفظا دالا على الهيبة هل يكون اليق ام لا (قلنا) هذا

الجنس فينتظم مراقد الكل (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) جملة من مبتدأ وخبر وما موصولة محذوفة العائد اومصدرية وهو جواب من قبل الملائكة او المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على ان الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وارسل اليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الامر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ماسمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به انفسهم اوبعضهم بعضا وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر مبتدأ محذوف اومبتدأ خبره محذوف اى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق (ان كانت) اى ما كانت النفخة التى حكيت آنفا (الاصيحة واحدة) حصلت من نفخ اسرافيل عليه السلام فى الصور (فاذاهم جميع) اى مجموع (لدينا محضرون) من غير لبث ما طرفة عين وفيه من تهوين امر البعث والحشر والايذان باستغنائهما عن الاسباب ما لا يخفى (فاليوم لاتظلم نفس) من النفوس برة كانت او فاجرة (شيئا) من الظلم (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) اى الاجزاء

اللفظ أحسن مايكون لان من أساء واضطر الى التوجه الى من أحسن اليه يكون ذلك أشد ألما واكثر ندما من غيره (المسئلة السادسة) المسيء اذا توجه الى المحسن يقدم رجلا ويؤخر اخرى والنسلان هو سرعة المشي فكيف يوجد منهم ذلك نقول ينسلون من غير اختيارهم وقد ذكرنا في تفسير قوله فاذاهم ينظرون انه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ ارادته حيث ينفخ في الصور فيكون في وقته جمع وتركيب واحياء وقيام وعدو في زمان واحد فقوله فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون يعني في زمان واحد ينتهون الى هذه الدرجة وهي النسلان الذي لايكون الابعد مراتب * ثم قال تعالى (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) يعني لما بعثوا قالوا ذلك لان قوله ونفخ في الصور يدل على انهم بعثوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل لو قال الله تعالى فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق نقول معاذ الله وذلك لان قوله فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون على ماذكرنا اشارة الى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع اجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها بحيث يقع نسلانهم في وقت النفخ مع ان ذلك لابدله من الجمع والتأليف فلو قال يقولون لكان ذلك مثل الحال لينسلون اي ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا وانما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد (المسئلة الثانية) لو قال قائل قد عرفنا معنى النداء في مثل ياحسرة وياحسرتنا وياويلنا ولكن ماالفرق بين قولهم وقول الله حيث قال ياحسرة على العباد من غير اضافة وقالوا ياحسرتنا وياحسرتنا وياويلنا نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لاحد علم الابحاله او بحال من قرب منه فكأن كل واحد مشغولا بنفسه فكان كل واحد يقول ياحسرتنا وياويلنا فقوله قالوا ياويلنا اي كل واحد قال ياويلي واما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم (المسئلة الثالثة) ماوجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم ياويلنا نقول لما بعثوا تذكروا ماكانوا يسمعون من الرسل فقالوا ياويلنا من بعثنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا وهذا كما اذا كان انسان موعودا بان يأتيه عدو لايطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول هذا ذلك أم لا ويدل على ماذكرنا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور موضع الرقاد اشارة الى انهم شكوا في انهم كانوا نياما فنبهوا او كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين فقالوا من بعثنا اشارة الى ظنهم انه بعثهم الموعود به وقالوا من مرقدنا اشارة الى توهمهم احتمال الانتباه (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجهان (احدهما) انه اشارة الى المرقد كأنهم قالوا من بعثنا من مرقدنا هذا فيكون صفة للمرقد يقال كلامي هذا صدق (وثانيهما) هذا اشارة الى البعث اي هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون (المسئلة الخامسة) اذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى ماوعد الرحمن وصدق المرسلون نقول يكون ماوعد الرحمن مبتدأ خبره محذوف

ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصي على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد او الا بما كنتم تعملونه اي بمقابلته او بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده انه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله اضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعدلهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى (ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) من جملة ماسيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فان الاخبار بحسن حال اعدائهم اثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفي هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة عماهم عليه ومدعاة الى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤنه لكونه اهم عنده من الكل اما لايجابه كمال المسرة والبهجة او كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الاول ومافيه من التنكير والابهام للايذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ماهم فيه من فنون الملاذ التي تلهيهم عما عداهم بالكلية واما ان المراد به افتضاض الابكار او السماع وضرب الاوتار او التزاور

تقديره ماوعدالرحمن حق والمرسلون صدقوا اويقال ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق والاول أظهر لقلة الاضمار اويقال ماوعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هوماوعدالرحمن من البعث ليس تنبيهامن النوم وصدق المرسلون فيما أخبروكم به (المسئلة السادسة) ان قلناهذا اشارة الى المرقد أوالى البعث فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون نقول لما كان غرضهم من قولهم من بعثنا حصول العلم بأنه بعث اوتنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعدالرحمن به ليس تنبيها كما أن الخائف اذاقال لغيره ماذا تقول أيقتلنى فلان فله أن يقول لاتخف ويسكت لعلمه أن غرضه ازالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب ❊ ثم قال تعالى (ان كانت الاصيحة واحدة فاذاهم جميع لدينا محضرون) اى ما كانت النفخة الاصيحة واحدة يدل على النفخة قوله تعالى ونفخ فى الصور ويحتمل ان يقال ان كانت الواقعة وقرئت الصيحة مرفوعة على ان كان هى التامة بمعنى ماوقعت الاصيحة وقال الزمخشرى لوكان كذلك لكان الاحسن ان يقال ان كان لان المعنى حينئذ ماوقع شئ الاصيحة لكن التأنيث جائز احالة على الظاهر ويمكن ان يقول الذى قرأ بالرفع ان قوله اذاوقعت الواقعة تأنيث تهويل ومبالغة يدل عليه قوله ليس لوقعتها كاذبة فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال ان كانت الاصيحة مؤنثة تأنيث تهويل ولهذا جاءت اسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة الى غيرها والزمخشرى يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة وتأنيث اسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة وقوله محضرون دل على ان كونهم ينسلون اجبارى لااختيارى ❊ ثم بين مايكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى (فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولاتجزون الا ما كنتم تعملون) فقوله لاتظلم نفس ليأمن المؤمن ولاتجزون الاما كنتم تعملون ليأس المجرم الكافر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماالفائدة فى الخطاب عند الاشارة الى يأس المجرم بقوله ولاتجزون وترك الخطاب فى الاشارة الى أمان المؤمن من العذاب بقوله لاتظلم ولم يقل ولاتظلمون أيها المؤمنون نقول لان قوله لاتظلم نفس شيئا يفيد العموم وهو كذلك فانها لاتظلم أبدا ولاتجزون مختص بالكافر فان الله يجزى المؤمن وان لم يفعل فان الله فضلا مختصا بالمؤمن وعدلا عاما وفيه بشارة (المسئلة الثانية) ما المقتضى لذكر فاء التعقيب نقول لما قال محضرون مجموعون والجمع للفصل والحساب فكأنه تعالى قال اذا جمعوا لم يجمعوا الا للفصل بالعدل فلاظلم عند الجمع للعدل فصار عدم الظلم مترتبا على الاحضار للعدل ولهذا يقول القائل للوالى او للقاضى جلست للعدل فلاتظلم اى ذلك يقتضى هذا ويستعقبه (المسئلة الثالثة) لايجزون عين ما كانوا يعملون بل يجزون بما كانوا وعلى ما كانوا وقوله ولاتجزون الاما كنتم تعملون يدل على ان الجزاء بعين العمل لايقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء يقال جزيته خيرا وجزيته بخير لان ذلك ليس من هذا لانك اذاقلت جزيته بخير لايكون الخير مفعولك بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب

(مافعل)

اوضيافة الله تعالى اوشغلهم عما فيه اهل النار على الاطلاق اوشغلهم عن اهاليهم فى النار لايهمهم امرهم ولايبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم كماروى كل واحد منها عن واحد من اكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان انه من جملة اشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الامور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان اياه وهو مع جاره خبر لان وفاكهون خبر آخر لها اى انهم مستقرون فى شغل واى شغل فى شغل عظيم الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للايذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرئ فى شغل بسكون الغين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرئ فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى (هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكئون) استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة

مافعل فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان يكون ذلك اشارة على وجه المبالغة الى عدم الزيادة وذلك لان الشئ لايزيد على عينه فنقول قوله تعالى يجزون بما كانوا يعملون فى المساواة كأنه عين ماعملوا يقال فلان يجاوبنى حرفابحرف اى لايترك شيئا وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو ان ماغير راجع الى الخصوص وانما هى للجنس تقديره ولاتجزون الاجنس العمل اى ان كان حسنة فحسنة وان كان سيئة فسيئة فتجزون ماتعملون من السيئة والحسنة وهذا كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ❁ ثم بين حال المحسن وقال (ان اصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وازواجهم فى ظلال على الارائك متكؤن لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون) وقوله فى شغل يحتمل وجوها (احدها) فى شغل عن هول اليوم بأخذما آتاهم الله من الثواب فاعندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله فاكهون يكون متمما لبيان سلامتهم فالله لوقال فى شغل جاز ان يقال هم فى شغل اعظم من التفكر فى اليوم واهواله فان من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه امر من اموره ويخبر بخسران وقع فى ماله يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون اى شغلوا عنه باللذة والسرور لابالويل والثبور (وثانيها) ان يكون ذلك بيانا لحالهم ولا يريد انهم شغلوا عن شئ بل يكون معناه هم فى عمل ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فانهم تصوروا فى الدنيا امورا وقالوا نحن اذا دخلنا الجنة لانطلب الا كذا وكذا فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به وفيه وجوه غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الابكار وهذا ماذكرناه فى الوجه الثالث ان الانسان قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة التذبها ثم ان الله ربما يؤتيه مايشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الاوتار وهو من قبيل ماذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لان ضيافة الله تكون بالذ مايمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله فاكهون خبر ان وفى شغل بيان مافكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل وفى بيته جالس فلايكون الجار والمجرور خبرا ولو نصبت جالسا لكان الجار والمجرور خبرا وكذلك لوقال فى شغل فاكهين لكان معناه اصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرئ بالنصب والفاكهة الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لانها لاتكون فى السعة الاللذة فلا تؤكل لدفع الم الجوع وفيه معنى لطيف وهو انه اشار بقوله فى شغل عن عدمهم الالم فلا ألم عندهم ثم بين بقوله فاكهون عن وجد انهم اللذة وعادم الالم قد لايكون واجد اللذة فبين انهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله هم وازواجهم وذلك لان من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه امره فقال هم وازواجهم ايضا فلايبقى لهم تعلق قلب واما من فى النار من اقاربهم واخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ولايكون منهم عندهم الم ولايشتهون حضورهم والازواج يحتمل وجهين (احدهما) اشكالهم فى الاحسان وامثالهم فى الايمان كما قال تعالى من شكله ازواج (وثانيهما)

ازواجهم لهم فيماهم فيه من الشغل والفكاهة على انهم مبتدأ وازواجهم عطف عليه ومتكؤن خبر والجاران صلتان له قدمتاعليه لمراعاة الفواصل اوهو والجار ان بما تعلقابه من الاستقرار اخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الاول والثانى مستأنف على انه متعلق بمتكؤن وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل على انه خبر مقدم ومتكؤن مبتدأ مؤخر وقرئ متكين بلاهمز نصبا على الحال من المستكن فى الظرفين اواحد هما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبر ان ومتكؤن خبر آخر لهاوعلى الارائك متعلق به وكذا فى ظلال اوهذا بمضمر وهو حال من المعطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب اوجمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والارائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لاتكون اريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى (لهم فيها فاكهة) الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعدبيان مالهم فيها من مجالس الانس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة اى لهم فيها فاكهة

الازواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما فى قوله تعالى الاعلى ازواجهم او ماملكت ايمانهم وقوله تعالى ويذرون ازواجا فان المراد ليس هو الاشكال قوله فى ظلال جمع ظل وظلل جمع ظلة والمرادبه الوقاية عن مكان الالم فان الجالس تحت كن لايخشى المطر ولاحر الشمس فيكون به مستعدا لدفع الالم فكذلك لهم من ظل الله مايقيهم الاسواء كما قال تعالى لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب وقال لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا اشارة الى عدم الآلام (وفيه لطيفة) ايضا وهى ان حال المكلف اما ان يكون اختلالها بسبب مافيه من الشغل وان كان فى مكان عال كالقاعد فى حر الشمس فى البستان المنتزه اويكون بسبب المكان وان كان الشغل مطلوبا كملاعبة الكواعب فى المكان المكشوف واما ان يكون بسبب المأكل كالمتفرج فى البستان اذا اعوزه الطعام واما بسبب فقد الحبيب والى هذا يشير اهل القلب فى شرائط السماع بقولهم الزمان والمكان والاخوان فقال تعالى فى شغل فاكهون اشارة الى أنهم ليسوا فى تعب وقال هم وازواجهم اشارة الى عدم الوحدة الموحشة وقال فى ظلال على الارائك متكؤن اشارة الى المكان وقال لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون اشارة الى دفع جميع حوائجهم وقوله متكؤن اشارة الى ادل وضع على القوة والفراغة فان القائم قديقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم واما المتكئ فلايتكئ الا عند الفراغ والقدرة لان المريض لايقدر على الاتكاء وانما يكون مضطجعا او مستلقيا والارائك جمع اريكة وهى السرير الذى عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئيا هو ومافوقه وقوله لهم فيها فاكهة اشارة الى ان لاجوع هناك وليس الاكل لدفع الم الجوع وانما مأكولهم فاكهة ولوكان لحما طريا لايقال قوله تعالى ولحم طير ممايشتهون يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لانا نقول قوله ممايشتهون يؤكد معنى عدم الالم لان أكل الشئ قديكون للتداوى من غير شهوة فقال ممايشتهون لان لحم الطير فى الدنيا يؤكل فى حالتين (احداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لايأكل لحم طير يشتهيه وانما يأكل مايوافقه ويأمره به الطبيب واما انه يدل على التغاير فنقول مسلم ذلك لان الخاص يخالف العام على ان ذلك لايقدح فى غرضنا لانانقول انما اختار من انواع المأكول الفاكهة فى هذا الموضع لانها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال وقد ذكرناه مرارا وقوله لهم فيها فاكهة ولم يقل يأكلون اشارة الى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله ولهم مايدعون فيه وجوه (احدها) لهم فيها مايدعون لانفسهم اى دعاؤهم مستجاب وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل وعلى هذا فليس معناه انهم يدعون لانفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم مايدعون لانفسهم اى ذلك لهم فلاحاجة لهم الى الدعاء والطلب كما ان الملك اذا طلب منه مملوكه شيئا يقول لك ذلك فيفهم منه تارة ان طلبك مجاب

كثيرة من كل نوع من انواع الفواكه ومافى قوله تعالى (ولهم مايدعون) موصولة اوموصوفة عبربها عن مدعو عظيم الشان معين اومبهم ايذانا بأنه الحقيق بالدعاء دون ماعداه ثم صرح به رومالزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كماستعرفه اوهى باقية على عمومها قصدبها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتادة بالذكر وأياما كان فهو مبتدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف مايدعون على فاكهة لئلا يتوهم كون ماعبارة عن توابع الفاكهة وتمامها والمعنى ولهم مايدعون به لانفسهم من مدعو عظيم الشأن اوكل مايدعون به كائنا ما كان من اسباب البهجة وموجبات السرور وايا ما كان ففيه دلالة على انهم فى اقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما اشير اليه مثل اشتوى واجتمل اذاشوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع على ماشئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء اى مايدعوا به اهل الجنة يأتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشى

وان هذا أمر هين بان تعطى ماطلبت ويفهم تارة منه الرد وبيان ان ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى ولهم مايدعون ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو ان يكون مايدعون بمعنى مايصح ان يطلب ويدعى يعنى كل مايصح ان يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب أو نقول المراد الطلب والاجابة وذلك لان الطلب من الله ايضا فيه لذة فلو قطع الله الاسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فابقى اشياء يعطيهم اياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء فان كون المملوك بحيث يتمكن من ان يخاطب الملك فى حوائجه منصب عظيم والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصدا منه لئلا يخاطب (الثانى) مايدعون مايتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ومعناه ماذكرناه ان كل مايصح ان يدعو احد صاحبه اليه أو يطلبه احد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) مايتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ انهم كانوا يدعون فى الدنيا ان لهم الله وهو مولاهم وان الكافرين لا مولى لهم فقال لهم فى الجنة مايدعون به فى الدنيا فتكون الحكاية محكية فى الدنيا كأنه يقول فى يومنا هذا لكم ايها المؤمنون غدا ماتدعون اليوم لايقال بان قوله ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وازواجهم فى ظلال يدل على ان القول يوم القيامة لانا نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان قوله هم مبتدأ وازواجهم عطف عليهم فيحتمل ان يكون هذا الكلام فى يومنا هذا يخبرنا ان المؤمن وازواجه فى ظلال غدا وله مايدعيه (والجواب الثانى) وهو اولى هو ان نقول معناه لهم مايدعون اى ماكانوا يدعون* لايقال بأنه اضمار حيث لاضرورة وانه غير جائز لانا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا فى معناه المشهور لان الدعاء هو الاتيان بالدعوى وانما قلنا ان هذا اولى لان قوله سلام قولا من رب رحيم هو فى دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله مايدعون ولان قوله مايدعون مذكورين جمل كلها فى الآخرة فما يدعون ايضا ينبغى ان يكون فى الآخرة وفى الآخرة لايبقى دعوى وبينة لظهور الامور والفصل بين اهل الثبور والحبور * وقوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) وهو اكمل الاشياء وهو آخرها الذى لاشئ فوقه ولنبينه فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الرافع لقوله سلام نقول يحتمل ذلك وجوها (احدها) هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال لهم مايدعون بينه بدله فقال لهم سلام فيكون فى المعنى كالمبتدأ الذى خبره جار ومجرور كما يقال فى الدار رجل ولزيد مال وان كان فى النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذى معرفة وسلام نكرة ويحتمل على هذا ان يقال ما فى قوله تعالى مايدعون لاموصوفة ولا موصولة بل هى نكرة تقديره لهم شئ يدعون ثم بين بذكر البدل فقال سلام والاول هو الصحيح (وثانيهما) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره مايدعون سالم لهم اى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص او السليم يقال عبد سلام اى سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف

وقوله تعالى (سلام) على التقدير الاول بدل من مايدعون او خبر لمبتدأ محذوف وقوله تعالى (قولا) مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل ولهم سلام او ما يدعون سلام يقال لهم قولا كائنا (من) جهة (رب رحيم) اى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك او بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين واما على التقدير الثانى فقد قيل انه خبر لمايدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على ان الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك اى مايدعون سالم لهم خالص لاشوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة اى عدة من رب رحيم والاوجه ان ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر اى لهم سلام اى تسليم قولا من رب رحيم او سلامة من الآفات

هو المبتدأ ومنو فرخبره (وثالثها) قوله تعالى سلام منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك اخبارا من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال ان اصحاب الجنة اليوم فى شغل ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم وهذا كما فى قوله تعالى سلام على نوح وسلام على المرسلين فيكون الله تعالى احسن الى عباده المؤمنين كما أحسن الى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد مايدل عليه منقول او نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعا من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ثم قال سلام عليكم (المسئلة الثانية) قولا منصوب بماذا نقول يحتمل وجوها (احدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو ان يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا مايدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا ووعدهم بأن لهم مايدعون سالم وعدا وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولا وقوله من رب رحيم يكون لبيان ان السلام منه اى سلام عليهم من رب رحيم اقوله قولا ويحتمل ان يقال على هذا انه تمييز لان السلام قد يكون قولا وقد يكون فعلا فان من يدخل على الملك فيطأطئ رأسه يقول سلمت على الملك وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لاحسا وهذا ممنوع عنه قطعا لاظنا (المسئلة الثالثة) قال فى السلام من رب رحيم وقال فى غيره من انواع الاكرام نزلا من غفور رحيم فهل بينهما فرق نقول نعم اما هناك فلان النزل مايرزق النزيل اولا وذلك وان كان يدل عليه مابعده فان النزيل اذا اكرم اولا يدل على انه مكرم واذا اخل باكرامه فى الاول يدل على انه مهان دائما غير ان ذلك غير مقطوع به لجواز ان يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله اولا ولايمنع منه الطعام والشراب ويناقشه فى غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولايقول بان الاطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لابمغفرة فقال رب غفور لان رب الشئ مالكه الذى اذا نظر الى علو مرتبته لايرجى منه الالتفات اليه بالتعظيم فاذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه ❊ ثم قال تعالى (وامتازوا اليوم ايها المجرمون) وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب ايضا (الاول) امتازوا فى انفسكم وتفرقوا كما قال تعالى تكاد تميز من الغيظ اى بعضه من بعض غير ان تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ ان المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم امتازوا اليوم اذ لادواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثانى) امتازوا عن المؤمنين وذلك لانهم يكونون مشاهدين لما يصل الى المؤمن من الثواب والاكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم ابدا (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالاخوان الذى اشار اليه بقوله تعالى هم وازواجهم فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة ايضا ولاعذاب فوق الفرقة بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال

فيكون قولا مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لماسيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرئ سلاما بالنصب على الحالية اى لهم مرادهم سالما خالصا وقرئ سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين (وامتازوا اليوم) عطف اما على الجملة السابقة المسوقة لبيان احوال اهل الجنة لاعلى ان المقصود عطف فعل الامر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على انه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال اولئك ووصف ثوابهم كما مر فى قوله تعالى وبشر الذين آمنوا الآية وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما واما على مضمر ينساق اليه حكاية حال اهل الجنة كأنه قيل اثر بيان كونهم فى شغل عظيم الشان وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا

(فان)

فان من قطعت يده او احرق جسمه فانما تألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض لكن التفرق الجسمى دون التفرق العقلى (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فالكم اليوم حميم ولاشفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير والمجرم هو الذى يأتى بالجريمة ويحتمل ان يقال ان المراد منه ان الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا امر تكوين كما انه يقول كن فيكون كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم اوفى وجوههم سواد ❊ ثم قال تعالى (ألم أعهد اليكم يابنى آدم ان لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل ان يقول ان الانسان كان ظلوما جهولا والجهل من الاعذار فقال الله ذلك عند عدم الانذار وقد سبق ايضاح السبل بايضاح الرسل وعهدنا اليكم وتلونا عليكم ماينبغى ان تفعلوه ومالا ينبغى * وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى اللغات التى فى اعهد وهى كثيرة (الاولى) كسر همزة اعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر الا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين حيما ألم أحهد وذلك فى كل عين بعدها هاء (الرابعة) ادغام الهاء فى الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد وقد سمع قوم يقولون دحا محا اى دعها معها (المسئلة الثانية) فى معنى اعهد وجوه اقربها واقواها ألم اوص اليكم (المسئلة الثالثة) فى هذا العهد وجوه (الاول) انه هو العهد الذى كان مع أبينا آدم بقوله وعهدنا الى آدم (الثانى) انه هو الذى كان مع ذرية آدم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى فان ذلك يقتضى ان لانعبد غير الله (الثالث) وهو الاقوى ان ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ولذلك اتفق العقلاء على ان الشيطان يأمر بالشر وان اختلفوا فى حقيقته وكيفيته (المسئلة الرابعة) قوله لاتعبدوا الشيطان معناه لاتطيعوه بدليل ان المنهى عنه ليس هو السجود له فحسب بل الانقياد لامره والطاعة له فالطاعة عبادة لايقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الامراء حيث أمرنا بطاعتهم فى قوله تعالى اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم لانا نقول طاعتهم اذا كانت بأمر الله لاتكون الا عبادة لله وطاعة له وكيف لاونفس السجود والركوع للغير اذا كان بأمر الله لايكون الا عبادة لله ألا ترى ان الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك الا عبادة لله وانما عبادة الامراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه فان قيل بماذا نعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن مع انا لانسمع من الشيطان خبرا ولانرى منه أثرا نقول عبادة الشيطان فى مخالفة امر الله او الاتيان بما امر الله لا لانه امر به ففى بعض الاوقات يكون الشيطان يأمرك وهو فى غيرك وفى بعض الاوقات يأمرك وهو فيك فاذا جاءك شخص يأمرك بشىء فانظر ان كان ذلك موافقا لامر الله اوليس موافقا فان لم يكن موافقا فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به فان اطعته فقد

عنهم (ايها المجرمون) الى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لايرى ولايرى واما ما قيل من ان المضمر فليمتازوا فبمعزل من السداد لما ان المحكى عنهم ليس مصيرهم الى ماذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الامر المذكور عليه بل انما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لايجدى نفعا لان مناط الاضمار انسياق الافهام اليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد ما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما مر بيانه واسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدى لاضمار شىء يتعلق به اخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة (ألم اعهد اليكم يابنى آدم ان لاتعبدوا الشيطان) من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والالزام والتبكيت بين الامر بالامتياز وبين الامر بدخول

عبدت الشيطان وان دعتك نفسك الى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع اوليس كذلك فان لم يكن مأذونا فيه فنفسك هى الشيطان اومعها الشيطان يدعوك فان اتبعته فقد عبدته ثم ان الشيطان يأمر اولا بمخالفة الله ظاهرا فمن اطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه بل يقول له اعبدالله كى لاتهان وليرتفع عندالناس شأنك وينتفع بك اخوانك واعوانك فان اجاب اليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت وذلك لان الاعمال منها مايقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه واركانه ومنها مايقع والجنان واللسان مخالف للجوارح اوللاركان فمن الناس من يرتكب جريمة كارها بقلبه لمايقترف من ذنبه مستغفرا لربه يعترف بسوء مايقترف فهو عبادة الشيطان بالاعضاء الظاهرة ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب كما انك تجد كثيرا من الناس يفرح بكونه مترددا الى ابواب الظلمة للسعاية ويعد من المحاسن كونه ساريا مع الملوك ويفتخر به بلسانه وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقادلهم اويفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون فرحين بما ورد عليهم من الامر اذا عرفت هذا فالطاعة التى بالاعضاء الظاهرة والبواطن طاهرة مكفرة بالاسقام والآلام كما ورد فى الاخبار ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وقوله صلى الله عليه وسلم السيف محاء للذنوب اى لمثل هذه الذنوب ويدل عليه ماقال صلى الله عليه وسلم فى الحدود انها كفارات ومايكون بالقلوب فلاخلاص عنه الا بالتوبة والندم واقبال القلب على الرب ومايكون باللسان فهو من قبيل مايكون بالقلب فى الظاهر والمثال يوضح الحال فنقول اذا كان عند السلطان امير وله غلمان هم من خواص الامير واتباع بعداءهم من عوام الناس فاذا صدر من الامير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما لايعفو الملك عن ذلك الا اذا كان فى غاية الصفح اويكون للامير عنده يد سابقة اوتوبة لاحقة فان صدر من خواص الامير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره عدت المخالفة موجودة منه وان كان كارها واظهر الانكار حسنت معاتبته دون معاقبته لان اقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية فان كان الصادر من الحواشى الاباعد وبلغ الامير ولم يزجره عوتب الامير وان زجرهم استحق الامير بذلك الزجر الاكرام وحسن من الملك ان يسدى الى المزجور الاحسان والانعام ان علم حصول انزجاره اذا علمت هذا فالقلب امير واللسان خاصته والاعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب فان اقبل على محبة غيرالله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ومايصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولايقبل قوله ان لم ينكر فعله ومايصدر من الاعضاء والقلب قد اظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذى حكى النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه انه قال لولم تذنبوا لخلقت اقواما يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم (وههنا لطيفة) وهى ان الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحانا فيظن انه قد

جهنم بقوله تعالى اصلوها اليوم الخ والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ماكلفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الاوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين اخرجوا من ظهور بنى آدم واشهدوا على انفسهم وقيل هو مانصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به اليهم يزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرئ اعهد بكسر الهمزة و اعهد بكسر الهاء واحهد بالحاء مكان العين واحد بالادغام وهى لغة بنى تميم

حصل مقصوده من الاغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهرا ويكون ذلك رافعا لدرجة العبد فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الاعجاب بنفسه وعبادته ويصير اقرب من المقربين لان من لم يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى لهم درجات عند ربهم والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه أنا عند المنكسرة قلوبهم وفرق بين من يكون عند الله وبين من يكون عنده الله ولعل مايحكى من الذنوب الصادرة عن الانبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيله على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قدامه بشئ فلم يفعله والشخص يظن انه غلب الشيطان ورده خائبا فيتبجح فى نفسه وهو لايعلم ان الشيطان رجع عنه محصل المقصود مقبولا غير مردود ومن هذا يتبين ان امر اصولى وهوان الناس اختلفوا فى ان المذنب هل يخرج من الايمان أم لا وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على امرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لايخرج بل قد يزيد فى الايمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الايمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الانبياء من الذنوب والاشبه ان الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه والقلبى لايجوز عليهم ثم انه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر مايحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله انه لكم عدو مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من اين حصلت العداوة بين الشيطان والانسان فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم لما رأى ابليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والاول منه لؤم والثانى من الله كرم اما الاول فلان الملك اذا اكرم شخصا ولم ينقص من الآخر شيئا اذ لاضيق فى الخزانة فعداوة من يعادى ذلك المكرم لاتكون الا لؤما واما الثانى فلان الملك اذا علم ان اكرامه ليس الامنه وذلك الضعيف ماكان يقدر ان يصل الى بعض تلك المنزلة لولا اكرام الملك يعلم ان من يبغضه ينكر فعل الملك او ينسب الى خزانته ضيقا وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه اتماما للاكرام واكمالا للافضال ثم ان كثيرا من الناس على مذهب ابليس اذا رأوا واحدا عند ملك محترما يبغضوه وسعوا فيه اقامة لسنة ابليس فالملك ان لم يكن متخلقا باخلاق الله لايبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك اكرام ذلك الشخص واحترامه (المسئلة الثانية) من اين ابانة عداوة ابليس نقول لما اكرم الله آدم عاداه ابليس وظن انه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالما بالضمائر فأبعده واظهر امره فأظهر هو من نفسه ماكان يخفيه لزوال ماكان يحمله على الاخفاء فقال لأقعدن لهم صراطك المستقيم وقال لأحتنكن ذريته (المسئلة الثالثة) اذا كان الشيطان للانسان عدوا مبينا فما بال الانسان يميل الى مراضيه من الشرب والزنا ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة نقول سبب ذلك استعانة الشيطان باعوان من عند الانسان وترك استعانة

(انه لكم عدو مبين) اى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى (وأن اعبدونى) عطف على ان لاتعبدوا على ان ان فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والامر او مصدرية حذف عنها الجار اى الم أعهد اليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الامر لما ان حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) فانه اشارة الى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد والاسلام وهو المشار اليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لأقعدن لهم صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى (ولقد اضل منكم جبلا كثيرا) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان ان جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما

الانسان بالله فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سببا لفساد حاله ويدعوه بها الى مسالك المهالك وكذلك يستعين بغضبه الذى خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببا لوباله وفساد احواله وميل الانسان الى المعاصى كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج من الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد فى مرضه * ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشئ وهو يزيد فى معدته فسادا وصحيح المزاج لا يشتهى الاما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبىء لا يستغنى الانسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير اصلاح الهواء بالروائح الطيبة والاشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات فكذلك الانسان فى الدنيا لا يستغنى عن امورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد فاذا صح مزاج عقله لا يميل الا الى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة ويحصل له مع الامور الالهية الفة وهنالك يعترف الشيطان بانه ليس له عليه سلطان ✻ ثم قال تعالى (وان اعبدونى هذا صراط مستقيم) لما منع من عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الارواح كما ان الطبيب طبيب الاشباح وكما ان الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهى الحمية التى هى رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ثم يقول له تناول الدواء الفلانى تقوية لقوته المقاومة للمرض كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) عند المنع من عبادة الشيطان قال انه لكم عدو مبين لان العداوة ابلغ الموانع من الاتباع وعند الامر بعبادة الرحمن لم يقل انه لكم حبيب لان المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة فيقول انه يحبنى فلا حاجة الى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه بل ذكر ما هو ابلغ الاشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقا مستقيما وذلك لان الانسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه الى دار اقامة فيها اخوانه والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شئ احب من طريق قريب آمن فلما قال الله تعالى هذا صراط مستقيم كان ذلك سببا حاثا على السلوك وفى ضمن قوله تعالى هذا صراط اشارة الى ان الانسان مجتاز لانه لو كان فى دار اقامة فقوله هذا صراط مستقيم لا يكون له معنى لان المقيم يقول وماذا افعل بالطريق وانا من المقيمين (المسئلة الثانية) ماذا يدل على كونه طريقا مستقيما نقول الانسان مسافر اما مسافرة راجع الى وطنه واما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه وعلى الوجهين فالله هو المقصد واما الوطن فلانه لا وطن الا فى مأمن ولا امن الا بملك لا يزول ملكه لان عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان واما التجارة فلأن التاجر لا يقصد الا الى موضع يسمع او يعلم ان

شاهدوا من العقوبات النازلة على الامم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب لمتأخريهم الذين من جلتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرئ بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرئ جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى جمع فطرة وخلقة وقرئ جيلا بالياء وهو الصنف من الناس اى وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا او صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فأصابهم لاجل ذلك ما اصابهم من العقوبات الهائلة التى ملاء الآفاق اخبارها وبقى مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون انها لضلالهم او فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى

(لمتاعه)

لمتاعه هناك رواجا والله تعالى يقول ان العمل الصالح عنده مثاب عليه مقابل باضعاف مايستحق والله هو المقصد وعبادته توجه اليه ولاشك ان القاصد لجهة اذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم (المسئلة الثالثة) العبادة تنبئ عن معنى التذلل فلما قال لاتعبدوا الشيطان لزم ان يتكبر الانسان على ماسوى الله ولما قال وان اعبدونى ينبغى ان لايتكبر على الله لكن التكبر على ماسوى الله ليس معناه انه يرى نفسه خيرا من غيره فان نفسه من جملة ماسوى الله فينبغى ان لايلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله بل معنى التكبر على ماسوى الله ان لاينقاد لشئ الا باذن الله وفى هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لاينقاد الى نفسه وحظ نفسه فى التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولاينقاد لامر الملوك اذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الامير ۞ ثم ان الله تعالى ذكر ماينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد اضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره (المسئلة الثانية) فى معنى الجبل الجيم والباء واللام لاتخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الاجسام الكثيرة وجبل الطين فيه اجتماع اجزاء الماء والتراب وشاة جباء اذا كانت مجتمعة اللبن الكثير لايقال البلجة نقض على ماذكرتم فانها تنبئ عن التفرق فان الابلج خلاف المقرون لانا نقول هى للاجتماع الاماكن الخالية التى تسع المتمكنات فان البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمى بلدا للاجتماع لا للتفرق فالجبل الجمع العظيم حتى قيل ان دون العشرة آلاف لايكون جبلا وان لم يكن صحيحا (المسئلة الثالثة) كيف الاضلال نقول على وجهين أحدهما ان الاضلال تولية عن المقصد وصدعنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لامر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد وهو يفضى الى التولية لان مقصوده لو حصل لترك الله واقبل على ذلك الغير فتحصل التولية ۞ ثم بين مآل اهل الضلال بقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون) وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع فى مشقة ولو أقام فى وطنه لعل ذلك العدو كان لايظفر به أو يرجه كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولاعصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق فأن المجنون من اهل النجاة وان لم يكن من اهل الدرجات وقد قيل بأن البلاهة ادنى الى الخلاص من فطانة بتراء وذلك ظاهر فى المحسوس فأن من لم يعرف الطريق اذا أقام بمكانه لايبعد عن الطريق كثيرا ومن سار الى خلاف المقصد يبعد عنه كثيرا ۞ ثم بين انهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وفى هذا الكلام مايوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه (أحدها) قوله تعالى اصلوها فانه أمر تنكيل واهانة كقوله

ترتدعوا عما كنتم عليه كى لايحيق بكم العقاب وقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون) استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والالزام والتبكيت عند اشرافهم على شفير جهنم اى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وقوله تعالى قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وقوله تعالى قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين وغير ذلك مما لايحصى وقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) امر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم اى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر فى الدنيا وقوله تعالى (اليوم نختم على افواههم) اى نختما يمنعها عن الكلام التفات الى الغيبة للايذان بأن ذكر احوالهم القبيحة

ذق انك أنت العزيز الكريم (والثانى) قوله اليوم يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وايامها قد انقضت و بقى اليوم العذاب (الثالث) قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ولهذا كثيرا مايقول العبد المجرم افعلو بى مايأمر به السيد ولاتحضرونى بين يديه والى هذا المعنى اشار القائل

أليس بكاف لذى نعمة * حياء المسئ من المحسن

* ثم قال تعالى (اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون) فى الترتيب وجوه (الاول) انهم حين يسمعون قوله تعالى بما كنتم تكفرون يريدون ينكرون كفرهم كما قال تعالى عنهم ماشركنا وقالوا آمنابه فيختم الله على افواههم فلايقدرون على الانكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم الم اعهد اليكم لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان وفى الختم على الافواه وجوه (اقواها) ان الله تعالى يسكت السنتهم فلاينطقون بها و ينطق جوارحهم فتشهد عليهم وانه فى قدرة الله يسير اما الاسكات فلاخفاء فيه واما الانطاق فلان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر انهم لايتكلمون بشئ لانقطاع أعذارهم وانهتاك استارهم فيقفون ناكسى الرؤس وقوف القنوط اليؤس لايجد عذرا فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر وتكلم الايدى ظهور الامور بحيث لايسع معه الانكار حتى تنطق به الايدى والابصار كما يقول القائل الحيطان تبكى على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والاول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية (اما اللفظية فالاولى) منها هى ان الله تعالى اسند فعل الختم الى نفسه وقال نختم واسند الكلام والشهادة الى الايدى والارجل لانه لو قال تعالى نختم على افواههم وتنطق ايديهم يكون فيه احتمال ان ذلك منهم كان جبرا وقهرا والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال تعالى تكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم اى باختيارها بعد مايقدرها الله تعالى على الكلام ليكون ادل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هى ان الله تعالى قال تكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم جعل الشهادة للارجل والكلام للايدى لان الافعال تسند الى الايدى قال تعالى وماعملته ايديهم اى ماعملوه وقال ولاتلقوا بأيديكم اى ولاتلقوا بأنفسكم فاذا الايدى كالعاملة والشاهد على العامل ينبغى ان يكون غيره فجعل الارجل والجلود من جملة الشهود لبعد اضافة الافعال اليها (واما المعنوية فالاولى) منها ان يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم اعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وان كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم لابقال الايدى والارجل ايضا صدرت

استدعى ان يعرض عنهم ويحكى احوالهم الفظيعة لغيرهم مع مافيه من الايماء الى ان ذلك من مقتضيات الختم لان الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرئ يختم (وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون) يروى انهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم واهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على افواههم وتكلم ايديهم وارجلهم وفى الحديث يقول العبد يوم القيامة انى لاأجيز على شاهدا الامن نفسى فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت اناضل وقيل تكليم الاركان وشهادتها دلالتها على افعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرئ وتتكلم ايديهم وقرئ ولتكلمنا ايديهم وتشهد بلام كى والنصب على معنى ولذلك نختم على افواههم وقرئ ولتكلمنا ايديهم ولتشهد بلام الامر والجزم

الذنوب منها فهى فسقة فينبغى أن لاتقبل شهادتها لانانقول فى ردشهادتها قبول شهادتها لانها ان كذبت فى مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها فى ذلك اليوم والمذنب فى ذلك اليوم مع ظهور الامور لابد من ان يكون مذنبا فى الدنيا وان صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا وهذا كمن قال لفاسق ان كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر فقال الفاسق كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء وان كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم فوجد الشرط ايضا بخلاف مالو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه (المسئلة الثانية) الختم لازم الكفار فى الدنيا على قلوبهم وفى الآخرة على افواههم ففى الوقت الذى كان الختم على قلوبهم كان قولهم بافواههم كما قال تعالى ذلك قولهم بافواههم فلما ختم على افواههم ايضا لزم ان يكون قولهم باعضائهم لان الانسان لايملك غير القلب واللسان والاعضاء فاذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والاركان ❁ ثم قال تعالى (ولو نشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) قد ذكرنا مرارا ان الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى والله تعالى فى كل موضع ذكر ما يتمسك به الجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس وههنا كذلك لما قال الله تعالى وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون وقال اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب اليهم واحال الخير والشر عليهم ذكر عقيبه مايدل على ان كفرهم وكسبهم بمشيئة الله وذلك لان الكفر يعمى البصيرة ويضعف القوة العقلية وعمى البصيرة بارادة الله ومشيئته اذا شاء اعمى البصائر كما انه لوشاء لطمس على أعينهم المبصرة وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته كما ان سلب القوة الجسمية بمشيئته حتى لوشاء لمسخ المكلف على مكانته واقامه بحيث لايتحرك يمنة ولا يسرة ولا يقدر على المضى والرجوع فاعماء البصائر عنده كاعماء الابصار وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية فقال ولو شاء لطمسنا على اعينهم اشارة الى انه شاء وأراد اعماء بصائرهم فضلوا وانه لوشاء طمس اعينهم لما اهتدوا الى طريقتهم الظاهرة وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا وانه لوشاء سلب قوة اجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر وفى الآيتين ابحاث لفظية (البحث الاول) فى قوله فاستبقوا الصراط قال الزمخشرى فيه وجوه (الاول) انه يكون فيه حذف حرف الى واتصال الفعل من غير حرف واصله فاستبقوا الى الصراط (الثانى) ان يكون المراد من الاستباق الابتدار فاعمله اعمال الابتدار (الثالث) ان يجعل الصراط مستبقا لامستبقا اليه يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة فى الاهتداء الى الطريق كأنه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين اياه وانماهم

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء اى لو نشاء (١١٣) ان نطمس على أعينهم لفعلناه وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة ان عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما سبق فى قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير (فاستبقوا الصراط) اى فارادوا ان يستبقوا الى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على ان انتصابه بنزع الجار او هو بتضمن الاستباق معنى الابتدار او بالظرفية (فأنى يبصرون) الطريق وجهة السلوك (ولو نشاء لمسخناهم) بتغير صورهم وابطال قواهم (على مكانتهم) اى مكانهم الا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرئ على مكاناتهم اى لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لايقدرون ان يبرحوه باقبال ولا ادبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى (فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) اى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وازمناهم وقرئ مضيا بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ماذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان انهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم أحقاء بان يفعل بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم فى الآخرة عقوبة الختم وان المانع من ذلك ليس الا عدم تعلق المشيئة الالهية به كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جريا على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جريا على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين الى امهالهم (ومن نعمره) اى نطل عمره (ننكسه فى الخلق) اى نقلبه فيه

عليه اذا طمس الله على اعينهم لايبصرونه فكيف ان لم يكونوا على الصراط (البحث الثانى) قدم الطمس والاعماء على المسخ والاعجاز ليكون الكلام مدرجا كأنه قال ان اعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لايهتدون اليه فان قال قائل الاعمى قد يهتدى الى الطريق بامارات عقلية اوحسية غير حس البصر كالاصوات والمشى بحس اللمس فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لايهتدون الى الصراط بوجه من الوجوه (البحث الثالث) قدم المضى على الرجوع لان الرجوع اهون من المضى لان المضى لاينبئ عن سلوك الطريق من قبل واما الرجوع فينبئ عنه ولاشك ان سلوك طريق قدرؤى مرة اهون من سلوك طريق لم ير فقال لايستطيعون مضيا ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو اهون من المضى * ثم قال تعالى (ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ألم اعهد اليكم قطع للاعذار بسبق الانذار ثم قرر ذلك وأتمه شرع فى قطع عذر آخر وهو ان الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا الا يسيرا ولو عمرتنا لماوجدت منا تقصيرا فقال الله تعالى أفلا تعقلون انكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ماتتمكنون من البحث والادراك كما قال تعالى أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ثم انكم علمتم ان الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الامكان فلو عمرناكم اكثر من ذلك لكان بعده زمان الازمان ومن لم يأت بالواجب زمان الامكان ماكان يأتى به زمان الازمان * ثم قال تعالى (وماعلمناه الشعر وماينبغى له ان هو الاذكر وقرآن مبين) فى الترتيب وجهان قد ذكرنا ان الله فى كل موضع ذكر اصلين من الاصول الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والحشر ذكر الاصل الثالث منها وههنا ذكر الاصلين الوحدانية والحشر اما الوحدانية ففى قوله تعالى ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان وفى قوله وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم واما الحشر ففى قوله تعالى اصلوها اليوم وفى قوله اليوم نختم على أفواههم الى غير ذلك فلما ذكرهما وبينهما ذكر الاصل الثالث وهو الرسالة فقال وماعلمناه الشعر وماينبغى له ان هو الاذكر وقرآن مبين وقوله وماعلمناه الشعر اشارة الى انه معلم من عندالله فعلمه ماأراد ولم يعلمه مالم يرد وفى تفسير الآية مباحث (البحث الاول) خص الشعر بنفى التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر ولم يقل وماعلمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه الى الكهانة ولم يقل وماعلمناه الكهانة فنقول اماالكهانة فكانوا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم اليها عندماكان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول واما السحر فكانوا ينسبونه اليه عند ماكان يفعل مالا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك واماالشعر فكانوا ينسبونه اليه عند ماكان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ماكان يتحدى الابالقرآن كما قال تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم فى شك من رسالتى فأنطقوا

ونخلقه على عكس ماخلقناه اولا فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود الى حالة شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم (١١٤) والادراك وقرئ ننكسه من الثلاثى المجرد وننكسه من الانكاس (أفلا يعقلون) اى ايرون ذلك فلا يعقلون ان من قدر على ذلك يقدر على ماذكر من الطمس والمسخ وان عدم ايقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما وقرئ تعقلون بالتاء لجرى الخطاب قبله (وماعلمناه الشعر) رد وابطال لما كانوا يقولونه فى حقه عليه الصلاة والسلام من انه شاعر ومايقوله شعر اى ماعلمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى ان القرآن ليس بشعر فان الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات واوهام واهية فاين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والاحكام الباهرة الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة ومن اين اشتبه عليهم الشؤن واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولاينبغى له) وما يصح له الشعر ولايتأتى له لوطلبه اى جعلناه بحيث لواراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه اميا لايهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض واما قوله عليه الصلاة والسلام أنا النبى لا كذب انا ابن عبد المطلب وقوله عليه الصلاة والسلام هل أنت الااصبع دميت * وفى سبيل الله مالقيت فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد اليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير فى له للقرآن اى وما ينبغى للقرآن ان يكون شعرا (ان هو) اى ماالقرآن (الاذكر) اى عظة من الله عزوجل وارشاد للثقلين كما قال تعالى ان هو الاذكر للعالمين (وقرآن مبين) اى كتاب سماوى بين كونه كذلك وفارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحاريب ويتلى فى المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز

(الجذوع)

الدارين فكم بينه وبين ماقالوا (لينذر) اى القرآن اوالرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده القراءة بالتاء وقرئ لينذر من نذربه اى علمه ولينذر مبنيا للمفعول (١١٥) من الانذار (من كان حيا) اى عاقلا متأملا فان الغافل بمنزلة الميت او مؤمنا فى علم الله تعالى فان الحياة الابدية بالايمان وتخصيص الانذار به لانه المنتفع به (ويحق القول) اى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصرين على الكفر وفى ايرادهم بمقابلة من كان حيا اشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة واحكامها التى هى المعرفة اموات فى الحقيقة (ألم يروا) الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف اى ألم يتفكروا اوألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما للمعاينة (انا خلقنا لهم) اى لاجلهم وانتفاعهم (مما عملت ايدينا) اى مما تولينا احداثه بالذات وذكر الايدى واسناد العمل اليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالاحداث والاعتناء به (انعاما) مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع ان حقه التقدم عليهما لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لاسيما عند كون المقدم منبئا عن كون المؤخر امرا نافعا خطيرا كما فى النظم الكريم فان الجار الاول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الامور الخطيرة يزيدان النفس شوقا اليه ورغبة فيه ولان فى تأخيره جمعا بينه وبين احكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى (فهم لها مالكون) الآيات الثلاث اى فملكناها اياهم وايثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله اى فهم مالكون لها بتمليكنا اياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لايزاحمهم فى ذلك غيرهم اوقادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها باقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا اياها لهم كما فى قول من قال

الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم او اخبروا بالغيوب فلما كان تحديه صلى الله تعالى عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم (البحث الثانى) مامعنى قوله ومايبنغى له قلنا قال قوم ماكان يتأتى له وآخرون مايتسهل له حتى انه ان تمثل ببيت شعر سمع منه مزاحفا يروى انه كان يقول صلى الله تعالى عليه وسلم ويأتيك من لم تزود بالاخبار (وفيه وجه احسن من ذلك) وهو ان يحمل ماينبغى له على مفهومه الظاهر وهو ان الشعر ما كان يليق به ولايصلح له وذلك لان الشعر يدعو الى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعنى والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ لانه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر او قافيته فيحتاج الى التحيل لمعنى يأتى به لأجل ذلك اللفظ وعلى هذا نقول الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد الى وزنه قصدا أوليا واما من يقصد المعنى فيصدر موزونا مقفى فلايكون شاعرا ألاترى الى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليس بشعر والشاعر اذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد مافى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعرا لانه قصد الاتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الالفاظ وعلى هذا يحصل الجواب عن قوله من يقول ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله *انا النبى لا كذب * انا ابن عبد المطلب* اوبيتين لانا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده الى الوزن والقافية وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لايكون شعرا لعدم قصده اللفظ قصدا اوليا ويؤيد ماذكرنا انك اذا تتبعت كلام الناس فى الاسواق تجد فيه مايكون موزونا واقعا فى بحر من بحور الشعر ولايسمى المتكلم به شاعرا ولا الكلام شعرا لفقد القصد الى اللفظ اولا ثم قوله تعالى ان هو الا ذكر وقرآن مبين يحقق ذلك المعنى اى هو ذكر وموعظة للقصد الى المعنى والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما ان الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لايصير شاعرا والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيما حيث سمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شعره حكمة ونفى الله كون النبى شاعرا وذلك لان اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لانظر الى القالب فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيما ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه والشاعر الموعظ كلامه حكيما ❊ ثم قال تعالى (لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) قرئ بالتاء والياء بالتاء خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (احدهما) ان يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله وما علمناه وقوله وماينبغى له (وثانيهما) ان يكون المراد ان القرآن ينذر والاول اقرب الى المعنى (والثانى) اقرب الى اللفظ اما الاول

فلأن المنذر صفة للرسل اكثر وروداً من المنذر صفة للكتب (واما الثانى) فلأن القرآن اقرب المذكورين الى قوله لينذر وقوله من كان حيا اى من كان حى القلب و يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد من كان حيا فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) ان يكون المراد لينذر به من كان حيا فى نفس الامر اى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب ويحق القول على الكافرين اما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وقوله تعالى حقت كلمة العذاب وذلك لان الله تعالى قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فاذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب واما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الاصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب ثم انه تعالى اعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها ٭ فقال تعالى (أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما) اى من جملة ما عملت ايدينا اى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وارادتنا ٭ وقوله تعالى (فهم لها مالكون) اشارة الى اتمام الانعام فى خلق الانعام فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الانسان ماكان ينتفع بها ٭ وقوله تعالى (وذللناها لهم) زيادة انعام فان المملوك اذا كان آبيا متمردا لا ينتفع فلو كان الانسان يملك الانعام وهى نادة صادة لما تم الانعام الذى فى الركوب وان كان يحصل الاكل كما فى الحيوانات الوحشية بل ما كان يكمل نعمة الاكل ايضا الا بالتعب الذى فى الاصطياد ولعل ذلك لايتهيأ للبعض وفى البعض ٭ وقوله تعالى (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) بيان لمنفعة التذليل اذ لولا التذليل لما وجدت احدى المنفعتين وكانت الاخرى قليلة الوجود ثم بين تعالى غير الركوب والاكل من الفوائد ٭ بقوله تعالى (ولهم فيها منافع ومشارب) وذلك لان من الحيوانات مالا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ان قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والادوات من القرب وان قلنا ان المراد المشروب وهو الالبان والاسمان فهى مختصة بالاناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والاناث ٭ ثم قال تعالى (افلا يشكرون) هذه النعم التى توجب العبادة شكرا ولو شكرتم لزادكم من فضله ولو كفرتم لسلبها منكم فما قولكم افلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها ٭ ثم قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) اشارة الى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها فانهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكرا لانعمه فتركوها واقبلوا على عبادة من لايضر ولاينفع وتوقعوا منه النصرة مع انهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم وفى الحقيقة لاهى ناصرة ولا منصورة ٭ وقوله تعالى (لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) اشارة الى الحشر بعد تقرير التوحيد وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون وقوله احشروا الذين ظلموا

أصبحت لاأجمل السلاح ولا ٭ املك رأس البعير ان نفراه والاول هو الاظهر ليكون قوله تعالى (وذللناها لهم) تأسيسا لنعمة على حيالها لاتتمة لماقبلها اى صيرناها منقادة لهم بحيث لاتستعصى عليهم فى شئ مما يريدون (١١٦) بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى (فمنها ركوبهم) الخ فان الفاء فيه لتفريع احكام التذليل عليه وتفصيلها اى فبعض منها ركوبهم اى مركوبهم اى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب وقرئ ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرئ ركوبهم اى ذو ركوبهم (ومنها يأكلون) اى وبعض منها يأكلون لحمه (ولهم فيها) اى فى الانعام بكلا قسميها (منافع) اخر غير الركوب والاكل كالجلود والاصواف والاوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من اللبن جمع مشرب وهذا مجمل مافصل فى سورة النحل (افلا يشكرون) اى ايشاهدون هذه النعم او ايتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (واتخذوا من دون الله) اى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة (آلهة) من الاصنام واشركوها به تعالى فى العبادة (لعلهم ينصرون) رجاء ان ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الامور او يشفعوا لهم فى الآخرة وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم اى لاتقدر آلهتهم على نصرهم (وهم) اى المشركون (لهم) اى لآلهتهم (جند محضرون) يشيعونهم عند مساقهم الى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم الكريم فان الفاء فى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) لترتيب النهى على ماقبله فلابد ان يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به اطماعهم الفارغة وانعكاس الامر عليهم بترتب الشر على مارتبوه لرجاء الخير فان ذلك ممايهون الخطب ويورث السلوة واما كونهم معدين لخدمتهم

(وازواجهم)

وحفظهم فيعزل من ذلك والنهى وان كان بحسب الظاهر متوجها الى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق (١١٧) الكناية على ابلغ وجه وآكده فان النهى عن اسباب الشئ ومباديه
المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لاارينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم ماينبئ عنه ماذكر من اتخاذهم الاصنام آلهة فان ذلك مما لايخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وانهم شركاء لله سبحانه فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرئ يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من احزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى (انا نعلم مايسرون ومايعلنون) تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الاشعار فان العلم بماذكر مستلزم للمجازاة قطعا اى انا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التى لايعزب عن علمنا شئ منها وفيه فضل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن اما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه اقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة واما لان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو اومباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة (أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان انكارهم البعث
بعدما شاهدوا فى انفسهم اوضح دلائله واعدل شواهده كما ان ماسبق مسوق لبيان بطلان اشراكهم بالله تعالى بعد ماعاينوا
فيما بايديهم مايوجب التوحيد والاسلام واما ماقيل من انه تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهوين مايقولونه بالنسبة الى

وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقوله اولئك فى العذاب محضرون وهو يحتمل معنيين (احدهما) ان يكون العابدون جندا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثانى) ان يكون الاصنام جندا للعابدين وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو انه تعالى لما قال لايستطيعون نصرهم اكدها بأنهم لايستطيعون نصرهم حال مايكونوا جندا لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الاستطاعة فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبا ولم يجمع انصاره * وقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) اشارة الى الرسالة لان الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره اياه * وقوله تعالى (انا نعلم مايسرون ومايعلنون) يحتمل وجوها (احدها) ان يكون ذلك تهديدا للمنافقين والكافرين فقوله مايسرون من النفاق ومايعلنون من الشرك (الثانى) مايسرون من العلم بك ومايعلنون من الكفر بك (الثالث) مايسرون من العقائد الفاسدة ومايعلنون من الافعال القبيحة ثم انه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما ذكر دليلا من الانفس * فقال (أولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة) قيل ان المراد بالانسان ابى بن خلف فان الآية وردت فيه حيث اخذ عظما باليا واتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال انك تقول ان الهك يحيى هذه العظام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ويدخلك جهنم وقد ثبت فى اصول الفقه ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ألا ترى ان قوله تعالى قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها نزلت فى واحدة واراد الكل فى الحكم فكذلك كل انسان ينكر الله او الحشر فهذه الآية رد عليه اذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف (اللطيفة الاولى) قوله أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة أولم يروا خلق الانعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى أولم ير الانسان كلام اعم من قوله أولم يروا لانه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك ان دليل الانفس اشمل واكمل واتم والزم فان الانسان قد يغفل عن الانعام وخلقها عند غيبتها ولكن هو مع نفسه متى مايكون وانما يكون فقال ان غاب عن الحيوان وخلقه فهو لايغيب عن نفسه فاباله أولم يروا انا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة فان سائر النعم بعد وجوده وقوله من نطفة اشارة الى وجه الدلالة وذلك لان خلقه لو كان من اشياء مختلفة الصور كان يمكن ان يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو وكذلك الحال فى كل عضو ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الاجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة والى هذا اشار بقوله تعالى يسقى بماء واحد * وقوله (فاذا هو خصيم مبين) (فيه لطيفة) غريبة وهى انه تعالى قال اختلاف صور اعضائه مع تشابه اجزاء ماخلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ماهو اظهر وهو نطقه وفهمه وذلك لان النطفة جسم فهب ان جاهلا يقول انه استحال

انكارهم الحشر فكلا والهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف كما مر فى الجملة الانكارية السابقة اى الم يتفكر الانسان ولم يعلم علما يقينيا (١١٨) اناخلقناه من نطفة الخ اوهى عين الجملة السابقة اعيدت تأكيدا للنكير السابق وتمهيدا لا نكار ماهواحق منه بالانكار والتعجيب لما ان المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق اسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق انفسهم ولاريب فى ان علم الانسان باحوال نفسه اهم واحاطته بها اسهل واكمل فالانكار والتعجيب من الاخلال بذلك ادخل كأنه قيل الم يعلموا خلقه تعالى لاسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لانفسهم ايضا مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الاهمية على معنى ان المنكر الاول بعيد قبيح والثانى ابعد واقبح ويجوز ان تكون الواو لعطف الجملة الانكارية الثانية على الاولى على انها متقدمة فى الاعتبار وان تقدم الهمزة عليها لاقتضائها الصدارة فى الكلام كما هو رأى الجمهور وايراد الانسان مورد الضمير لان مدار الانكار متعلق باحواله من حيث هو انسان كما فى قوله تعالى اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا وقوله تعالى (فاذا هو خصيم مبين) اى شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتعجيب كأنه قيل اولم يرأنا خلقناه من اخس الاشياء وامهنها ففاجأ خصومتنا فى امر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وايراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره فى الخصومة واستمراره عليها روى ان جماعة من كفار قريش منهم ابى بن خلف الجمحى وابو جهل والعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا فى ذلك فقال لهم ابى بن خلف الاترون الى ما يقول محمد ان الله يبعث الاموات ثم قال واللات والعزى لاصيرن اليه ولاخصمنه واخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يا محمد اترى الله يحيي هذا بعد مارم قال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك جهنم فنزلت وقيل معنى قوله تعالى فاذا هو خصيم مبين فاذا

(ان)

ويكون جسما آخر لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من اين تقتضيهما النطفة فابداع النطق والفهم اعجب واغرب من ابداع الخلق والجسم وهو الى ادراك القدرة والاختيار منه اقرب فقوله خصيم اى ناطق وانما ذكر الخصيم مكان الناطق لانه اعلى احوال الناطق فان الناطق مع نفسه لايبين كلامه مثل مايبينه وهو يتكلم مع غيره والمتكلم مع غيره اذا لم يكن خصما لايبين ولايجتهد مثل مايجتهد اذا كان كلامه مع خصمه وقوله مبين اشارة الى قوة عقله واختار الابانة لان العاقل عند الافهام اعلى درجة منه عند عدمه لان المبين بان عنده الشئ ثم ابانه فقوله تعالى من نطفة اشارة الى ادنى ما كان عليه وقوله خصيم مبين اشارة الى اعلى ماحصل عليه وهذا مثل قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الى ان قال تعالى ثم انشأناه خلقا آخر فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما اشارة الى التغيرات فى الجسم وقوله ثم انشأناه خلقا آخر اشارة الى ماشار اليه بقوله فاذا هو خصيم مبين اى ناطق عاقل ۞ ثم قوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه) اشارة الى بيان الحشر وفى هذه الآيات الى آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الامكان ان شاء الله تعالى فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الاكثرون ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال وقالوا أئذا ضللنا فى الارض أئنا لفى خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون الى غير ذلك فكذلك ههنا ۞ قال (قال من يحيي العظام وهى رميم) على طريق الاستبعاد فبدأ اولا بابطال استبعادهم بقوله ونسى خلقه اى نسى انا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم من النواصى الى الاقدام اعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى اودعناهم ماليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل الذى بهما استحقوا الاكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة اصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه ثم ان استبعادهم كان من جهة مافى المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا من يحيي العظام وهى رميم اختاروا العظم للذكر لانه ابعد عن الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلاء والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة مافى المعيد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا اى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كانت فى آخرها تعود الى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين (احدهما) انه بعد العدم لم يبق شيئا فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود واجاب عن هذه الشبهة ۞ بقوله تعالى (قل يحييها الذى انشأها اول مرة) يعنى كما خلق الانسان ولم يكن شيئا مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيئا مذكورا (وثانيهما)

هو بعدما كان ماء مهينا رجل مميز منطبق قادر على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقناه غير
داخل تحت الانكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد (١١٩) صحة البعث فقوله تعالى (وضرب لنا مثلا) معطوف حينئذ

ان من تفرق أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع وأبعد من هذا هو ان انسانا اذا أكل انسانا وصار اجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فاجزاء المأكول اما ان تعاد الى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول اجزاء تخلق منها اعضاؤه واما ان تعاد الى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء ❊ فقال تعالى فى ابطال هذه الشبهة (وهو بكل خلق عليم) ووجهه هو ان فى الآكل اجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفى المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلى من اجزاء المأكول فضليا من اجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هى ما كان له قبل الاكل والله بكل خلق عليم يعلم الاصلى من الفضلى فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيها روحه وكذلك يجمع الاجزاء المتفرقة فى البقاع المبددة فى الاصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة ثم انه تعالى عاد الى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وابطال انكارهم وعنادهم ❊ فقال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) ووجهه هو ان الانسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه وهى كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فان النار فى الشجر الاخضر الذى يقطر منه الماء أعجب واغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وان استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والارض أكبر من خلق انفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والارض فبان لطف قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ❊ وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم) قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الاكبر لان استبعادهم كان بالصريح واقعا على الاحياء حيث قالوا من يحيى العظام ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار فى الشجر تناسب الحياة ❊ وقوله تعالى (بلى وهو الخلاق) اشارة الى انه فى القدرة كامل ❊ وقوله تعالى (العليم) اشارة الى ان علمه شامل ثم اكد بيانه ❊ بقوله تعالى (انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون) وهذا اظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لا يقدر احد على مثل هذا قياسا للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع الا فى الازمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون فيكون تضربون المثل الادنى وله المثل الاعلى من ان يدرك وفى الآية مباحث (البحث الاول) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على ان المعدوم شئ لانه يقول لما اراده كن فيكون فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شئ حيث قال انما امره اذا اراد شيئا والجواب ان هذا بيان لعدم تخلف الشئ عن تعلق ارادته به فقوله اذا مفهوم الحين والوقت والآية دالة على ان المراد شئ حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على انه شئ قبل ماذا اراد وحينئذ لا يرد ماذكروه لان الشئ حين تعلق الارادة به شئ

على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتقبيح واما على التقدير الاول فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا اى اورد فى شأننا قصة عجيبة فى نفس الامر هى فى الغرابة والبعد على العقول كالمثل وهى انكار احيائنا العظام او قصة عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وانكرها اشد الانكار وهى احياؤنا اياها وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى (ونسى خلقه) اى خلقنا اياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ماضربه اما عطف على ضرب داخل فى حيز الانكار والتعجيب او حال من فاعله باضمار قد او بدونه وقوله تعالى (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل كأنه قيل اى مثل ضرب اوماذا قال فقيل قال (من يحيى العظام) منكرا له اشد النكير مؤكدا له بقوله تعالى (وهى رميم) اى بالية اشد البلا بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الاول هو انكار احيائه تعالى للعظام فانه امر عجيب فى نفس الامر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعده مثلا ضرورة جزم العقول ببطلان الانكار ووقوع المنكر لكونه كالانشاء بل اهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو احياؤه تعالى لها فانه امر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وانكره اشد الانكار مع انه فى نفس الامر اقرب شئ من الوقوع لما سبق من كونه مثل
الانشاء او اهون منه واما على الثالث فلا فرق بين ان يكون المثل هو الانكار او المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبر المؤنث لانه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة واما

اصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد باحياء العظام ردها الى ما كانت عليه من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس (قل) تبكيتا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وارشاده (١٢٠) الى طريقة الاستشهاد بها (يحييها الذى انشأها اول مرة) فان قدرته كما هى لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها (وهو بكل خلق عليم) مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والايجاد انشاء واعادة محيط بجميع الاجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الاشخاص اصولها وفروعها واوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل والجملة اما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب اومعطوفة على الصلة والعدول الى الجملة الاسمية للتنبيه على ان علمه تعالى بما ذكر امر مستمر ليس كانشائه للمنشآت وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) بدل من الموصول الاول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة اى خلق لاجلكم ومنفعتكم منه نارا على ان الجعل ابداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ووصف الشجر بالاخضر نظرا الى اللفظ وقد قرئ الخضراء نظرا الى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضرا وان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو انثى فتنقدح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى (فاذا أنتم منه توقدون) فمن قدر على احداث النار من الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان اقدر على اعادة الغضاضة الى ما كان غضا فطرأ عليه اليبوسة والبلا وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والارض) استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى امر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم

(معنى)

موجود لا يريده فى زمان ويكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة فاذا الشئ هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك ايجادا لموجود نقول هذا الاشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه وانما غرضنا ابطال تمسكهم باللفظ وقد ظهر ان المفهوم من هذا الكلام انه يريد ما هو شئ اذا أراد وليس فى الآية أنه اذا أراد ما كان شيئا قبل تعلق الارادة (البحث الثانى) قالت الكرامية لله ارادة محدثة بدليل قوله تعالى اذا أراد ووجه دلالته من أمرين (أحدهما) من حيث انه جعل للارادة زمانا فان اذا ظرف زمان وكل ما هو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو انه تعالى جعل ارادته متصلة بقوله كن وقوله كن متصل بكون الشئ ووقوعه لانه تعالى قال فيكون بفاء التعقيب لكن الكون حادث وما قبل الحادث متصل به حادث والفلاسفة وافقوهم فى هذا الاشكال من وجه آخر فقالوا ارادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون لكن ارادته قديمة فالكون قديم فكونات الله قديمة وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو ان المفهوم من قوله اذا أراد من حيث اللغة اذا تعلقت ارادته بالشئ لان قوله اراد فعل ماض واذا دخلت كلمة اذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز ان يدخله الحدوث وانما نقول لله تعالى صفة قديمة هى الارادة وتلك الصفة اذا تعلقت بشئ نقول أراد ويريد وقبل التعلق لا نقول اراد وانما نقول له ارادة وهو بها مريد ولنضرب مثالا للافهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الاوهام السخيفة فنقول قولنا فلان خياط يراد به ان له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا ان نقول انه خاط ثوب زيد او يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا انه خياط بمعنى ان له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ولله المثل الاعلى فافهم ان الارادة امر ثابت ان تعلقت بوجود شئ نقول اراد وجوده اى يريد وجوده واذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام اهل السنة تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين (البحث الثالث) قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لان قوله كن كلام وكن من حرفين والحرف من الصوت ويلزم من هذا ان كلامه من الحروف والاصوات واما انه حادث فلما تقدم من الوجهين (احدهما) انه زمانى (والثانى) انه متصل بالكون والكون حادث والجواب يعلم مما ذكرنا وذلك لان الكلام صفة اذا تعلقت بشئ تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون فيه تعلق واضافة لان قوله تعالى يقول له باللام للاضافة صريح فى التعلق ونحن نقول ان قوله للشئ الحادث حادث لانه مع التعلق وانما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث اذا نظرت الى مجموعهما لا تجدهما فى الازل وانما تجدهما جميعا فيما لا يزال فله

معنى الحدوث ولكن الاطلاق موهم فتفكر جدا ولاتقل المجموع حادث من غير بيان مرادك فان ذلك قديفهم منه ان الجميع حادث بل حقق الاشارة وجود العبارة وقل احد طرفى المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه فى الازل واما قوله كن من الحروف نقول الكلام يطلق على معنيين (احدهما) ماعند المتكلم (والثانى) ماعند السامع ثم ان احدهما يطلق عليه انه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد امابيان ماذكرناه فلان الانسان اذا قال لغيره عندى كلام اريد ان اقوله لك غدا ثم ان السامع اتاه غدا وسأله عن الكلام الذى كان عنده امس فيقول له انى اريد ان تحضر عندى اليوم فهذا الكلام اطلق عليه المتكلم انه كان عندك امس ولم يكن عند السامع ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه ان هذا الذى سمعت هو الذى كان عندى ويعلم كل عاقل ان الصوت لم يكن عند المتكلم امس ولا الحرف لان الكلام الذى عنده جاز ان يذكره بالعربى فيكون له حروف وجاز ان يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر والكلام الذى عنده ووعده واحد والحروف مختلفة كثيرة فاذا معنى قوله هذا ماكان عندى هو ان هذا يؤدى اليك ماكان عندى وهذا ايضا مجاز لان الذى عنده ماانتقل اليه وانما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع او البصر فى القراءة والكتابة او الاشارة اذا علمت هذا فالكلام الذى عند الله وصفة له ليس بحرف على مابان والذى يحصل عند السامع حرف وصوت واحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الاطلاق فاذا قال تعالى يقول له حصل قائل وسامع فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذى يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب ۞ ثم قال تعالى (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون) لما تقررت الوحدانية والاعادة وانكروها وقالوا بأن غير الله آلهة قال تعالى وتنزه عن الشريك الذى بيده ملكوت كل شئ وكل شئ ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا وقالوا بأن الاعادة لاتكون فقال واليه ترجعون ردا عليهم فى الامرين وقد ذكرنا مايتعلق بالنحو فى قوله سبحان اى سبحوا تسبيح الذى او سبح من فى السموات والارض تسبيح الذى فسبحان علم للتسبيح والتسبيح هو التنزيه والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وهو فعلول او فعلوت فيه كلام ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقا به • ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس وقال الغزالى فيه ان ذلك لان الايمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر فى هذه السورة بأبلغ وجه فجعله قلب القرآن لذلك واستحسنه فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن ان يقال بأن هذه السورة ليس فيها الاتقرير الاصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله انك لمن المرسلين ودليلها ماقدمه عليها بقوله والقرآن الحكيم وما اخره عنها بقوله لتنذر قوما وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله فسبحان الذى بيده

بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى اليس الذى انشأها اول مرة وليس الذى جعل لهم من الشجر الاخضر نارا وليس الذى خلق السموات والارض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما (بقادر على ان يخلق مثلهم) فى الصغر والقماءة بالنسبة اليهما فان بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الاناسى اقدر كما قال تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وقرئ يقدر وقوله تعالى (بلى) جواب من جهته تعالى وتصريح بما افاده الاستفهام الانكارى من تقرير مابعد النفى وايذان بتعين الجواب نطقوا به او تلعثموا فيه مخافة الالزام وقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) عطف على مايفيده الايجاب اى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم كيفا وكما (انما أمره) اى شأنه (اذا اراد شيئا) من الاشياء (ان يقول له كن) اى ان يعلق به قدرته (فيكون) فيحدث من غير توقف على شئ آخر اصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما اراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع فى سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شئ ما وقرئ فيكون بالنصب عطفا على يقول

ملكوت كل شئ اشارة الى التوحيد وقوله واليه ترجعون اشارة الى الحشر وليس فى هذه السورة الا هذه الاصول الثلاثة ودلائله وثوابه ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذى بالجنان واما وظيفة اللسان التى هى القول فكما فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا وفى قوله تعالى ومن احسن قولا وقوله تعالى بالقول الثابت والزمهم كلمة التقوى واليه يصعد الكلم الطيب الى غير هذه مما فى غير هذه السورة ووظيفة الاركان وهو العمل كما فى قوله تعالى واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقتلوا النفس وقوله واعملوا صالحا وايضا مما فى غير هذه السورة فلما لم يكن فيها الا اعمال القلب لا غير سماها قلبا ولهذا ورد فى الاخبار ان النبى صلى الله عليه وسلم ندب الى تلقين يس لمن دنا منه الموت وقراءتها عند رأسه لان فى ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والاعضاء الظاهرة ساقطة البنية لكن القلب يكون قد اقبل على الله ورجع عن كل ما سواه فيقرأ عند رأسه ما يزيد به قوة قلبه ويشتد تصديقه بالاصول الثلاثة وهى شفاءله واسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلمها الا الله ورسوله وما ذكرناه ظن لا نقطع به ونرجوا الله ان يرحمنا وهو ارحم الراحمين تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

(سورة الصافات مائة واثنان وثمانون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والصفات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو وحمزة والصافات صفا بادغام التاء فيما يليه وكذلك فى قوله فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا والباقون بالاظهار وقال الواحدى رحمه الله ادغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين ألا ترى انهما من طرف اللسان واصول الثنايا يجتمعان فى الهمس والمدغم فيه يزيد على المدغم بالاطباق والصفير وادغام الانقص فى الازيد حسن ولا يجوز ان يدغم الازيد صوتا فى الانقص وايضا ادغام التاء فى الزاى فى قوله فالزاجرات زجرا حسن لان التاء مهموسة والزاى مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان فى الصاد وايضا حسن ادغام التاء فى الذال فى قوله فالتاليات ذكرا لاتفاقهما فى انهما من طرف اللسان واصول الثنايا واما من قرأ بالاظهار وترك الادغام فذلك لاختلاف المخارج والله اعلم (المسئلة الثانية) فى هذه الاشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل ان تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ويحتمل ان تكون اشياء ثلاثة متباينة اما على التقدير الاول ففيه وجوه (الاول) انها صفات الملائكة وتقديره ان الملائكة يقفون صفوفا اما فى السموات لاداء العبادات كما اخبر الله عنهم انهم قالوا وانا لنحن الصافون وقيل انهم يصفون اجنحتهم فى الهواء

(فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ) تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا فى شأنه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان والفاء للاشارة الى ان ما فصل من شؤنه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه اكمل ايجاب كما ان وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للاشعار بانها مقتضية لذلك اتم اقتضاء والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وقرئ ملكة كل شئ ومملكة كل شئ وملك كل شئ (واليه ترجعون) لا الى غيره وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى عن ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا اعلم ما روى فى فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فاذا انه لهذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ قلبا وان قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له واعطى من الاجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وايما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة املاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وايما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة

ويقفون منتظرين وصول امر الله اليهم ويحتمل ايضا أن يقال معنى كونهم صفوفا أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة فى الشرف والفضيلة او فى الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف واما قوله فالزاجرات زجرا فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجرا اذا أحثثته ليمضى وزجرت فلانا عن سوء فانزجر اى نهيته فانتهى فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان كالنهى اذا عرفت هذا فنقول فى وصف الملائكة بالزجر وجوه (الاول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذين وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى انهم يأتون بها من موضع الى موضع (الثانى) المراد منه ان الملائكة لهم تأثيرات فى قلوب بنى آدم على سبيل الالهامات فهم يزجرونهم عن المعاصى زجرا (الثالث) لعل الملائكة ايضا يزجرون الشياطين عن التعرض لبنى آدم بالشر والايذاء واقول قد ثبت فى العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة اقسام مؤثر لا يقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو اشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهو عالم الاجسام وهو اخس الموجودات وموجود يؤثر فى شئ ويتأثر عن شئ آخر وهو عالم الارواح وذلك لانها تقبل الاثر عن عالم كبرياء الله ثم انها تؤثر فى عالم الاجسام واعلم ان الجهة التى باعتبارها تقبل الاثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التى باعتبارها تستولى على عالم الاجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى الاشرف من الجهة التى باعتبارها تقوى على التأثير فى عالم الاجسام اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى وقوفها صفا صفا فى مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهى الجهة التى باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية اصناف الانوار الالهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى تأثير الجواهر الملكية فى تنوير الارواح القدسية البشرية واخراجها من القوة الى الفعل وذلك لما ثبت ان هذه الارواح النطقية البشرية بالنسبة الى ارواح الملائكة كالقطرة بالنسبة الى البحر وكالشعلة بالنسبة الى الشمس وان هذه الارواح البشرية انما تنتقل من القوة الى الفعل فى المعارف الالهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وقوله تعالى فالملقيات ذكرا اذا عرفت هذا فنقول فى هذه الآية دقيقة اخرى وهى ان الكمال المطلق للشئ انما يحصل اذا كان تاما وفوق التام والمراد بكونه تاما ان تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام ان تفيض منه اصناف الكمالات والسعادات على غيره ومن المعلوم ان كونه كاملا فى ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى استكمال جواهر الملائكة فى ذواتها وقت وقوفها فى مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى كيفية تأثيراتها فى ازالة ما لا ينبغى عن جواهر الارواح البشرية وقوله تعالى فالتاليات ذكرا

من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ان فى القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها الا وهى سورة يس

* سورة والصافات مكية وآيها مائة واحدى او اثنتان وثمانون آية *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والصافات صفا) اقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على ان المراد ايقاع نفس الفعل من غير قصد الى المفعول او الصافات أنفسها اى الناظمات لها فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى وانا لنحن الصافون وقيل الصافات أقدامها فى الصلاة وقيل اجنحتها فى الهواء (فالزاجرات زجرا) اى الفاعلات للزجر او الزاجرات لما نيط به زجره من الاجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن الوسوسة والاغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفا وزجرا مصدران مؤكدان لما قبلهما اى صفا بديعا وزجرا بليغا واما ذكرا

اشارة الى كيفية تأثيراتها فى افاضة الجلايا القدسية والانوار الالهية على الارواح الناطقة البشرية فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الالفاظ الثلاثة قال ابو مسلم الاصفهانى لايجوز حمل هذه الالفاظ على الملائكة لانها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرؤن عن هذه الصفة والجواب من وجهين (الاول) ان الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) انهم مبرؤن عن التأنيث المعنوى اما التأنيث فى اللفظ فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع ان علامة التأنيث حاصلة فى هذا الوجه (الثانى) ان تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الارض وبيانه من وجهين (الاول) ان قوله تعالى والصافات صفا المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله فالزاجرات زجرا اشارة الى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن القاء الوساوس فى قلوبهم فى اثناء الصلاة وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل فالزاجرات زجرا اشارة الى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت روى انه صلى الله عليه وسلم طاف على بيوت اصحابه فى الليالى فسمع ابابكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل ابابكر لم تقرأ هكذا فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال اوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاث فى هذه الآية ان المراد من قوله والصافات صفا الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون الى دين الله تعالى والمراد من قوله والزاجرات زجرا اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات والمراد من قوله تعالى فالتاليات ذكرا اشتغالهم بالدعوة الى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة ان نحملها على احوال الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فقوله والصافات صفا المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا واما الزاجرات زجرا فالزجرة والصيحة سواء والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل واما التاليات ذكرا فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة ان نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله والصافات صفا المراد آيات القرآن فانها انواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكاليف والاحكام وبعضها فى تعليم الاخلاق الفاضلة وهذه الآيات مرتبة ترتيبا لايتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه اشخاصا واقفين فى صفوف معينة وقوله فالزاجرات زجرا المراد منه الآيات الزاجرة عن الافعال المنكرة وقوله فالتاليات ذكرا المراد منه الآيات الدالة على وجوب الاقدام على اعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون

فى قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) فمفعول التاليات اى التاليات ذكرا عظيم الشأن من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل هو ايضا مصدر مؤكد لما قبله فان التلاوة من باب الذكر ثم ان هذه الصفات ان اجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل اما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة او على العكس وان اجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات فى مراتب الفضل بمعنى ان طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات افضل والتاليات ابهر فضلا او على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها فى صفوف الجماعات واقدامها فى الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه واحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات انفسهم فى مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص اوطوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو فى المعارك طردا التاليات آيات الله تعالى وذكره وتسبيحه فى تضاعيف ذلك والكلام فى العطف ودلالته على ترتب الصفات فى الفضل اوترتب موصوفاتها فيه

مايقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم وقال يس والقرآن الحكيم قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير ان تجعل هذه الالفاظ الثلاث صفات لشئ واحد (واما الاحتمال الثانى) وهو ان يكون المراد بهذه الثلاث اشياء متغايرة فقيل المراد بقوله والصافات صفا الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل مازجر عن معاصى الله والتاليات كل مايتلى من كتاب الله واقول فيه وجه آخر وهو ان مخلوقات الله اما جسمانية واما روحانية اما الجسمانية فانها مرتبه على طبقات ودرجات لاتتغير البتة فالارض وسط العالم وهى محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء والهواء محفوف بالنار ثم هذه الاربعة محفوفة بكرات الافلاك الى آخر العالم الجسمانى فهذه الاجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى واما الجواهر الروحانية الملكية فهى على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة فى صفتين احدهما التأثير فى عالم الاجسام بالتحريك والتصريف واليه الاشارة بقوله فالزاجرات زجرا فانابينا ان المراد من هذا الزجر السوق والتحريك والثانى الادراك والمعرفة والاستغراق فى معرفة الله تعالى والثناء عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فالتاليات ذكرا ولما كان الجسم ادنى منزلة من الارواح المستقلة فالتصرف فى الجسمانيات أدون منزلة من الارواح المستغرقة فى معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال ومن عنده لايستكبرون عن عبادته لاجرم بدأ فى المرتبة الاولى بذكر الاجسام فقال والصافات صفا ثم ذكر فى المرتبة الثانية الارواح المدبرة لاجسام هذا العالم ثم ذكر فى هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهى الارواح المقدسة المتوجهة بكليتها الى معرفة جلال الله والاستغراق فى الثناء عليه فهذه احتمالات خطرت بالبال والعالم باسرار كلام الله تعالى ليس الا الله (المسئلة الثالثة) للناس فى هذا الموضع قولان (الاول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الاشياء لاعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (الثانى) ان الحلف بالشئ فى مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لايليق الا بالله (الثالث) أن هذا الذى ذكرناه تأكد بما انه تعالى صرح به فى بعض السور وهو قوله تعالى والسماء ومابناها والارض وماطحاها ونفس وماسواها (والقول الثانى) قول من يقول ان القسم واقع باعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) أن القسم وقع بهذه الاشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثانى) أنه تعالى قال والسماء ومابناها فعلق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار فى موضع واحد وانه لايجوز (الثالث) انه لايبعد ان تكون الحكمة فى قسم الله تعالى بهذه الاشياء التنبيه على شرف ذواتها

كالذى سلف واما الدلالة على الترتب فى الوجود كما فى قوله ياليف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب فغير ظاهرة فى شئ من الطوائف المذكورة فانه لو سلم تقدم الصف على الزجر فى الملائكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل مايزجر عن المعاصى والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرئ بادغام التاء فى الصاد والزاى والذال (ان الهكم لواحد) جواب للقسم والجملة تحقيق للحق الذى هو التوحيد بما هو المألوف فى كلامهم من التأكيد القسمى وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق بهاعنى قوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) فان وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من اوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته واعدل شواهد وحدته كما مر فى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ورب خبر ثان لان او خبر لمبتدأ محذوف اى مالك السموات والارض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها الى كمالاتها والمراد بالمشارق مشارق الشمس واعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فانها ثلثمائة

وكمال حقائقها لاسيما اذا حملنا هذه الالفاظ على الملائكة فانه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجاتهـا وكمال مراتبها والله اعلم فان قيـل ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الاول) ان المقصود من هذا القسم اما اثبات هذا المطلوب عند المؤمن او عند الكافر والاول باطل لان المؤمن مقر به من غير هذا الحلف والثانى باطل لان الكافر لايقر به سواء حصل الحلف اولم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات (الثانى) انه تعالى حلف فى اول هذه السورة على ان الاله واحد وحلف فى اول سورة والذاريات على ان القيامة حق فقـال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وامثالهم بالحلف واليمين لايليق بالعقلاء والجواب من وجوه (الاول) انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدا لما تقدم لاسيما والقرآن انمـا أنزل بلغة العرب واثبـات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (الوجه الثانى) فى الجواب انه تعالى لما اقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعـالى ان الهكم لواحد ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الاله واحدا وهو قوله تعالى رب السموات والارض ومابينهما ورب المشارق وذلك لانه تعالى بين فى قوله لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام احوال السموات والارض يدل على ان الاله واحد فههنا لما قال ان الهكم لواحد اردفه بقوله رب السموات والارض ومابينهما ورب المشارق كأنه قيل قد بينا ان النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) فى الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام فى قولهم بانها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة الى حيث يكفى فى ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم (المسئلة الرابعة) اما دلالة أحوال السموات والارض على وجود الاله القـادر العالم الحكيم وعلى كونه واحدا منزها عن الشريك فقد سبق تقريرها فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا واما قوله تعالى ورب المشارق فيحتمل ان يكون المراد مشـارق الشمس قال السدى المشارق ثلثمائة وستون مشرقا وكذلك المغـارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم فى مغرب ويحتمل ان يكون المراد مشارق الكواكب لان لكل كوكب مشرقا ومغربا فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق قلنا لوجهين (الاول) انه اكتفى بذكر المشارق كقوله تقيكم الحر والثانى أن الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا من الغروب فذكر الشرق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم عليه السلام بالمشرق فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق (المسئلة الخامسة) احتج الاصحاب بقوله تعالى رب السموات والارض ومابينهما على كونه تعالى خالقا

وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منهـا وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم فى مغرب منها واما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما (انا زينا السماء الدنيا) اى القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على ان المراد بها الاسم اى ما يزان به لا المصدر فان الكواكب بانفسها واوضاع بعضها من بعض زينة واى زينة وقرئ بالاضافة على انها بيانية لما ان الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز ان يراد بزينة الكواكب ما زينت هى به وهو ضوءها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما بزينة الكواكب بضـوء الكواكب هـذا واما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير اضافتها الى الفاعل بأن زانت الكواكب اياها واصله بزينة الكواكب وعلى تقدير اضافتها الى المفعول بأن زان الله الكواكب وحسنها والمراد هو التزيين فى رأى العين فان جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة فى سطح سماء الدنيا بصور بديعة واشكال رائعة ولايقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة المتوسطة

لاعمال العباد قالوا الان اعمال العباد موجودة فيما بين السموات والارض وهذه الآية دالة على ان كل ماحصل بين السموات والارض فالله ربه ومالكه فهذا يدل على ان فعل العبد حصل بخلق الله وان قالوا الاعراض لايصح وصفها بانها حصلت بين السموات والارض لان هذا الوصف انما يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والاعراض ليست كذلك قلنا انها لما كانت حاصلة فى الاجسام الحاصلة بين السموات والارض فهى ايضا حاصلة بين السماء والارض ❀ ثم قال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لايسمعون الى الملأ الاعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الامن خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الاجدع قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال بالناصية ناصية فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة لانها هى كما تقول مررت بأبى عبد الله زيد وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب وقال الزجاج يجوز ان تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله زينة لان بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الاضافة (المسئلة الثانية) بين تعالى انه زين السماء الدنيا وبين انه انما زينها لمنفعتين (احداهما) تحصل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد فوجب ان نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (اما الاول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب فلقائل ان يقول انه ثبت فى علم الهيئة ان هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة وان السيارات الستة مركوزة فى الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب والجواب ان الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وعلى انا قد بينا فى علم الهيئة ان الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان ان هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة تبارك الذى بيده الملك فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح (واما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان (البحث الاول) ان الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به كالليقة اسم لماتلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله بزينة الكواكب يحتملهما فان اردت المصدر فعلى اضافته الى الفاعل اى بأن زينتها الكواكب اوعلى اضافته الى المفعول اى بأن زان الله الكواكب وحسنها لانها انما زينت السماء بحسنها فى انفسها وان اردت الاسم فللاضافة وجهان ان تقع الكواكب بيانا للزينة لان الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها وان يراد ماز ينت به الكواكب (البحث الثانى) فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء

ان ثبت ذلك (وحفظا) منصوب اما بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل انا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا (من كل شيطان مارد) اى خارج عن الطاعة برمى الشهب واما باضمار فعله واما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل شيطان مارد زيناها بالكواكب كقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقوله تعالى (لايسمعون الى الملأ الاعلى) كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم فى اثناء ذلك من العذاب ولاسبيل الى جعله صفة لكل شيطان ولا جوابا عن سؤال مقدر لعدم استقامة المعنى ولاعلة للحفظ على ان يكون الاصل لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك ان تكرمنى فبقى ان لايسمعوا ثم يحذف ان ويهدر عملها كما فى قول من قال ❀ الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى ❀ لما ان كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فاما اجتماعهما فمن انكر المنكرات التى يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن امثالها واصل يسمعون يتسمعون والملأ الاعلى الملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه اشراف الملائكة عليهم

وجوه (الاول) ان النور والضوء احسن الصفات واكملها فان تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم يبقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس بزينة الكواكب اى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز ان يراد اشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز ان يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) ان الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الازرق فلاشك انها احسن الاشياء واكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (واما المطلوب الثالث) وهو قوله وحفظا من كل شيطان مارد ففيه بحثان (البحث الاول) فيما يتعلق باللغة فقوله وحفظا اى وحفظناها قال المبرد اذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لانه قد دل على فعله مثل قولك افعل وكرامة لانه لما قال افعل علم ان الاسماء لاتعطف على الافعال فكان المعنى افعل ذلك واكرمك كرامة قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد يريد الذى تمرد على الله قيل انه الذى لايتمكن منه واصله من الملاسة ومنه قوله صرح ممرد ومنه الامرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله مردوا على النفاق (البحث الثانى) فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون الى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ماسيكون من الغيوب وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم انهم يعلمون الغيب فنعهم الله تعالى من الصعود الى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها (ويبقى ههنا سؤالات السؤال الاول) هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا والاول باطل لان هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب ان يظهر نقصان كثير فى اعداد كواكب السماء ومعلوم ان هذا المعنى لم يوجد البتة فان اعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة وايضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض واما القسم الثانى وهو ان يقال ان هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا ايضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة تبارك الذى بيده الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد الى المصابيح فوجب ان تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت والجواب ان هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية واما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصابيح لاهل الارض الا ان

الصلاة والسلام اى لايتطلبون السماع والاصغاء اليهم وقرئ يسمعون بالتخفيف (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جميع جوانب السماء اذا قصدوا الصعود اليها (دحورا) علة للقذف اى للدحور وهو الطرد او حال بمعنى مدحورين او مصدر مؤكد له لانهما من واد واحد وقرئ دحورا بفتح الدال اى قذفا دحورا مبالغا فى الطرد وقد يجوز ان يكون مصدرا كالقبول والولوع (ولهم عذاب واصب) اى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى واعتدنا لهم عذاب السعير (الا من خطف الخطفة) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرئ بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها واصلهما اختطف (فاتبعه شهاب) اى تبعه ولحقه وقرئ فاتبعه والشهاب مايرى منقضا من السماء (ثاقب) مضئ فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين اذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم او يحرقهم او يخبلهم قالوا وانما يعود من يسلم منهم حياطمعا فى السلامة ونيل المراد كراكب السفينة

تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها مالايكون كذلك وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين وبهذا التقدير فقد زال الاشكال والله اعلم (السؤال الثانى) كيف يجوز ان تذهب الشياطين الى حيث يعلمون بالتجويزان الشهب تحرقهم ولايصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن ان يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة والجواب ان حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والالم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير الى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم فيه الشهب وربما صاروا الى غيره ولايصادفون الملائكة فلاتصيبهم الشهب فلما هلكوا فى بعض الاوقات وسلموا فى بعض الاوقات جازان يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم انه لاتصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن يسلك البحران يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة هذاماذكره ابو على الجبائى من الجواب عن هذا السؤال فى تفسيره ولقائل ان يقول انهم اذا صعدوا فاما ان يصلوا الى مواضع الملائكة اوالى غير تلك المواضع فان وصلوا الى مواضع الملائكة احترقوا وان وصلوا الى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم اصلافعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل واذاحصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء ان الفوز بالمقصود محال وجب ان يمتنعوا عن هذا العمل وان لايقدموا عليه اصلا بخلاف حال المسافرين فى البحر فان الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود داماههنا فالشيطان الذى يسلم من الاحتراق انمايسلم اذالم يصل الى مواضع الملائكة واذالم يصل الى تلك المواضع لم يفز بالمقصود فوجب ان لايعود الى هذا العمل البتة والاقرب فى الجواب ان نقول هذه الواقعة انما تتفق فى الندرة فلعلها لاتشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله اعلم (السؤال الثالث) قالوا دلت التواريخ المتواترة على ان حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجئ النبى صلى الله عليه وسلم فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجئ النبى صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه واذاثبت ان ذلك كان موجودا قبل مجئ النبى صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجئ النبى صلى الله عليه وسلم أجاب القاضى بأن الاقرب ان هذه الحالة كانت موجودة قبل النبى صلى الله عليه وسلم لكنها كثرت فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم فصارت بسبب الكثرة معجزة (السؤال الرابع) الشيطان مخلوق من النار قال تعالى حكاية عن ابليس خلقتنى من نار وقال والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار والجواب يحتمل ان الشياطين وان كانوا من النيران الاانها نيران ضعيفة فاذا وصلت نيران الشهب اليهم وتلك النيران اقوى حالا منهم لاجرم صار الاقوى مبطلا للاضعف الاترى ان السراج الضعيف اذارجع فى النار القوية فانه ينطفئ فكذلك ههنا (السؤال الخامس) ان مقر

الملائكة هو السطح الاعلى من الفلك والشياطين لايمكنهم الوصول الا الى الاقرب من السطح الاسفل من الفلك فيبقى جرم الفلك مانعا من وصول الشياطين الى القرب من الملائكة ولعل الفلك عظيم المقدار فمع حصول هذا المانع العظيم كيف يعقل ان يسمع الشياطين كلام الملائكة فان قلتم ان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكه فنقول فعلى هذا التقدير اذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة وجب ان لاينفى سمع الشيطان وان كان لايريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم فالجواب مذهبنا ان افعال الله تعالى غير معللة فيفعل الله مايشاء ويحكم مايريد ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من افعاله فهذا مايتعلق بمباحث هذا الباب واذا اضيف ما كتبناه ههنا الى ما كتبناه فى سورة الملك وفى سائر الآيات المشتملة على هذه المسئلة بلغ تمام الكفاية فى هذا الباب والله اعلم * واما قوله لايسمعون الى الملأ الأعلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لايسمعون بتشديد السين والميم واصله يتسمعون فادغمت التاء فى السين لاشتراكهما فى الهمس والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع اولم يسمع والباقون بتخفيف السين واختار ابو عبيد التشديد فى يسمعون قال لان العرب تقول تسمعت الى فلان ويقولون سمعت فلانا ولايكادون يقولون سمعت الى فلان وقيل فى تقوية هذه القراءة اذا نفى التسمع فقد نفى سمعه وحجة القراءة الثانية قوله تعالى انهم عن السمع لمعزولون وروى مجاهد عن ابن عباس ان الشياطين يسمعون الى الملأ الاعلى ثم يمنعون فلايسمعون وللاولين ان يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لايمنع من كونهم معزولين ايضا عن التسمع بدلالة هذه الآية بل هو اقوى فى ردع الشياطين ومنعهم من استماع اخبار السماء فان الذى منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعا من السمع اولى (المسئلة الثانية) الفرق بين قولك سمعت حديث فلان وبين قولك سمعت الى حديثه بأن قولك سمعت حديثه يفيد الادراك وسمعت الى حديثه يفيد الاصغاء مع الادراك (المسئلة الثالثة) فى قوله لايسمعون الى الملأ الاعلى قولان (الاول) وهو المشهور ان تقدير الكلام لئلا يسمعوا فلما حذف الناصب عاد الفعل الى الرفع كما قال يبين الله لكم ان تضلوا وكما قال رواسى ان تميد بكم قال صاحب الكشاف حذف ان واللام كل واحد منهما جائز بانفراده اما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف انه كلام مبتدأ منقطع عما قبله وهو حكاية حال المسترقة للسمع وانهم لايقدرون ان يسمعوا الى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك المقصود (المسئلة الرابعة) الملأ الأعلى الملائكة لانهم يسكنون السموات واما الانس والجن فهم الملأ الاسفل لانهم سكان الارض واعلم انه تعالى وصف اولئك الشياطين بصفات ثلاث (الاولى) انهم لايسمعون (الثانية) انهم يقذفون

من كل جانب دحورا وفيه ابحاث (الاول) قد ذكرنا معنى الدحور فى سورة الاعراف عند قوله اخرج منها مذؤما مدحورا قال المبرد الدحور اشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحرا ودحوا اى دفعته وطردته (البحث الثانى) فى انتصاب قوله دحورا وجوه (الاول) انه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورا ودل على الفعل قوله تعالى ويقذفون (الثانى) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحورا مطرودين فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور (البحث الثالث) قرأ ابو عبد الرحمن السلمى دحورا بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون بدحرون بما يدحر ثم قال ولست اشتهى الفتح لانه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة الا انه جائز فى الجملة كما قال الشاعر * تعال اللحم للاضياف نيئا * اى تعال باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى ولهم عذاب واصب والمعنى انهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام وقد ذكرنا تفسير الواصب فى سورة النحل عند قوله تعالى وله الدين واصبا قالوا كلهم انه الدائم قال الواحدى ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير * ثم قال تعالى الا من خطف الخطفة ذكرنا معنى الخطف فى سورة الحج قال الزجاج وهو اخذ الشئ بسرعة واصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف من فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون اى لا يسمع الشياطين الا الشيطان الذى خطف الخطفة اى اختلس الكلمة على وجه المسارقة فأتبعه يعنى لحقه واصابه يقال تبعه واتبعه اذا مضى فى اثره واتبعه اذا لحقه واصله من قوله تعالى فأتبعه الشيطان وقدم تفسيره وقوله تعالى شهاب ثاقب قال الحسن ثاقب اى مضئ واقول سمى ثاقبا لانه يثقب بنوره الهواء قال ابن عباس فى تفسير قوله والنجم الثاقب قال انه رجل سمى بذلك لانه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله اعلم ❊ قوله تعالى (فاستفتهم اهم اشد خلقا ام من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان النظم اعلم انا قد ذكرنا ان المقصد الاقصى من هذا الكتاب الكريم اثبات الاصول الاربعة وهى الالهيات والمعاد والنبوة واثبات القضاء والقدر فنقول انه تعالى افتتح هذه السورة باثبات مايدل على وجود الصانع ويدل على علمه وقدرته وحكمته ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والارض ومابينهما وخلق المشارق والمغارب فلما احكم الكلام فى هذا الباب فرع عليها اثبات القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم ان الكلام فى هذه المسئلة يتعلق بطرفين اولهما اثبات الجواز العقلى وثانيهما اثبات الوقوع اما الكلام فى المطلوب الاول فاعلم ان الاستدلال على الشئ يقع على وجهين (احدهما) ان يقال انه قدر على ماهو اصعب واشد واشق منه فوجب ايضا ان يقدر عليه (والثانى) ان يقال انه قدر عليه فى احدى الحالتين والفاعل والقابل باقيان كما كانا فوجب ان تبقى القدرة عليه فى

(فاستفتهم) فاستخبر مشركى مكة (هم اشد خلقا) اى اقوى خلقة وامتن بنية واصعب خلقا واشق ايجادا (ام من خلقنا) من الملائكة والسماء والارض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه اطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من عددنا وقوله تعالى (انا خلقناهم من طين لازب) فانه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الامم كعاد وثمود ولان المراد اثبات المعاد ورد استحالتهم والامر فيه بالاضافة اليهم والى من قبلهم سواء وقرئ لازم ولاتب

الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين فى بيان ان القول بالبعث والقيامة امر جائز ممكن (اما الطريق الاول) فهو المراد من قوله فاستفتهم اهم اشد خلقا والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم اشد خلقا امن خلقنا من خلق السموات والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ولاشك انهم يعترفون بان خلق هذا القسم اشد فى العرف من خلق القسم الاول فما ثبت بالدلائل المذكورة فى اثبات التوحيد كونه تعالى قادرا على هذا القسم الذى هو اشد واصعب فبأن يكون قادرا على اعادة الحياة فى هذه الاجساد كان اولى ونظير هذه الدلالة قوله تعالى فى آخر يس أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس (واما الطريق الثانى) فهو المراد من قوله انا خلقناهم من طين لازب والمعنى ان هذه الاجسام قابلة للحياة اذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية فى المرة الاولى والاله قادر على خلق هذه الحياة فى هذه الاجسام ولولا كونه تعالى قادرا على هذا المعنى لما حصلت الحياة فى المرة الاولى ولاشك ان قابلية تلك الاجسام باقية وان قادرية الله تعالى باقية لان هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين ان القول بالبعث والقيامة امر ممكن ولما بين تعالى امكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله قل نعم وانتم داخرون وذلك لانه ثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولاجل ظهور المعجزات عليه والصادق اذا اخبر عن امر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو فى غاية الحسن والله اعلم (المسئلة الثانية) فى تفسير الفاظ هذه الآية اما قوله فاستفتهم يعنى انه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقا للسموات والارض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم اهم اشد خلقا ام هذه الاشياء التى بينا كونه تعالى خالقا لها ولم يحك عنهم انهم اقروا ان خلق هذه الاشياء اصعب لاجل ان ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة ان يحكى عنهم صحة ان الامر كذلك ثم قال تعالى انا خلقناهم من طين لازب يعنى انا لما قدرنا على خلق الحياة فى ذواتهم اولا وجب ان نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانيا لما بينا ان حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير وفيه دقيقة اخرى وهى ان القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لامن النطفة ولو من الابوين فكأنه قيل لهم انكم لما اقررتم بحدوث العالم واعترفتم بان السموات والارض وما بينهما انما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلابد وان تعترفوا بان الانسان الاول انما حدث لامن الابوين فاذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الابوين وايضا قد اشتهر عند الجمهور ان آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة فى الطين اللازب فكيف يعجز عن اعادة الحياة الى هذه الذوات واما كيفية خلق الانسان من الطين اللازب فهى مذكورة فى السورة المتقدمة واعلم ان

هذا الوجه انما يحسن اذا قلنا المراد من قوله تعالى انا خلقناهم من طين لازب هو انا خلقنا آباهم آدم من طين لازب وفيه وجوه اخر وهو ان يكون المراد انا خلقنا كل انسان من طين لازب وتقريره ان الحيوان انما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان انما يتولد من الدم والدم انما يتولد من الغذاء والغذاء اما حيوانى واما نباتى اما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده كالكلام فى تولد الانسان فثبت ان الاصل فى الاغذية هو النبات والنبات انما يتولد من امتزاج الارض بالماء وهو الطين اللازب واذا كان الامر كذلك فقد ظهر ان كل الخلق متولدون من الطين اللازب واذا ثبت هذا فنقول ان هذه الاجزاء التى منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة فى كل الاوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة واما اللازب فقيل اللاصق وقيل اللزج وقيل الحتدوا كثر اهل اللغة على ان الباء فى لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم ۞ ثم قال تعالى (بل عجبت ويسخرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تقرير الكلام ان يقال ان هؤلاء المنكرين أقروا بانه تعالى قادر على تكوين اشياء اصعب من اعادة الحياة الى هذه الاجساد وقد تقرر فى صرائح العقول ان القادر على الاشق الاشد يكون قادرا على الاسهل الايسر ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقى هؤلاء الاقوام مصرين على انكار البعث والقيامة وهذا فى موضع التعجب الشديد فان مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الاصرار فيه فانت يا محمد تتعجب من اصرارهم على الانكار وهم فى طرف الانكار وصلوا الى حيث يسخرون منك فى قولك باثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة فهذا هو المراد من قوله بل عجبت ويسخرون (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى عجبت بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدى والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وابراهيم ويحيى ابن وثاب والاعمش وقرأة اهل الكوفة واختيار ابى عبيدة اما الذين قرؤا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الاول) ان القراءة بالضم تدل على اسناد العجب الى الله تعالى وذلك محال لان التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشئ ومعلوم ان الجهل على الله محال (والثانى) ان الله تعالى اضاف التعجب الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى آية اخرى فى هذه المسئلة فقال وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا (والثالث) انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون والظاهر انهم انما سخروا لاجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب ان يكون ذلك التعجب صادرا منه واما الذين قرؤا بضم التاء فقد اجابوا عن الحجة الاولى من وجوه (الاول) ان القراءة بالضم لا نسلم انها تدل على اسناد التعجب الى الله تعالى وبيانه انه يكون التقدير قل يا محمد بل عجبت ويسخرون ونظيره قوله تعالى أسمع بهم وابصر معناه ان هؤلاء ما تقولون فيه انتم هذا النحو من الكلام وكذلك قوله تعالى فما اصبرهم على النار الثانى سلمنا أن ذلك يقتضى اضافة التعجب الى الله تعالى فلم قلتم ان ذلك محال ويروى ان شريحا كان

(بل عجبت) اى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وانكارهم للبعث (ويسخرون) من تعجبك وتقريرك للبعث وقرئ بضم التاء على معنى انه بلغ كمال قدرتى وكثرة مخلوقاتى الى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من ان ينكروا البعث ممن هذه افاعيله ويسخروا ممن يجوزه والعجب من الله تعالى اما على الفرض والتخييل او على معنى الاستعظام اللازم له فانه روعة تعترى الانسان عند استعظام الشئ وقيل انه مقدر بالقول اى قل يا محمد بل عجبت

يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق الا بمن لا يعلم قال الاعمش فذكرت ذلك لابراهيم فقال ان شريحا يعجب بعلمه وكان عبدالله اعلم وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه ان نقول دل القرآن والخبر على جواز اضافة العجب الى الله تعالى اما القرآن فقوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم والمعنى وان تعجب يا محمد من قولهم فهو ايضا عجب عندى واجيب عنه انه لا يمتنع ان يكون المراد وان تعجب فعجب قولهم عندكم واما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم عجب ربكم من الكم وقنوطكم وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة واذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال ويمكرون ويمكر الله وقال سخر الله منهم وقال تعالى وهو خادعهم والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الاحوال من العباد وقد ذكرنا ان القانون فى هذا الباب ان هذه الالفاظ محمولة على نهايات الاعراض لا على بدايات الاعراض وكذلك ههنا من تعجب من شئ فانه يستعظمه فالتعجب فى حق الله تعالى محمول على انه تعالى يستعظم تلك الحالة ان كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه وان كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه فهذا تمام الكلام فى هذه المناظرة والاقرب ان يقال القراءة بالضم ان ثبتت بالتواتر وجب المصير اليها ويكون التأويل ماذكرناه وان لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء اولى والله اعلم ❊ ثم قال تعالى (واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون قل نعم وانتم داخرون) اعلم انه تعالى لما قرر الدليل القاطع فى اثبات امكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء اولها ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعجب من اصرارهم على الانكار وهم يسخرون منه فى اصراره على الاثبات وهذا يدل على انه صلى الله تعالى عليه وسلم مع اولئك الاقوام كانوا فى غاية التباعد وفى طرفى النقيض وثانيها قوله واذا ذكروا لا يذكرون وثالثها قوله واذا رأوا آية يستسخرون ويجب ان يكون المراد من هذا الثانى والثالث غير الاول لان العطف يوجب التغاير ولان التكرير خلاف الاصل والذى عندى فى هذا الباب ان يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار ترابا وتفرقت أجزاؤه فى العالم كيف يعقل عوده بعينه وبلغوا فى هذا الاستبعاد الى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب الى هذا المذهب واذا كان كذلك فلا طريق الى ازالة هذا الاستبعاد عنهم الا من وجهين (احدهما) ان يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل ان يقال لهم هل تعلمون ان خلق السموات والارض اشد واصعب من اعادة انسان بعد موته وهل تعلمون ان القادر على الاصعب الاشق يجب ان يكون قادرا على الاسهل الايسر فهذا الدليل وان كان جليا قويا الا ان اولئك المنكرين اذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها واذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان (والطريق

(واذا ذكروا) اى ودأبهم المستمر انهم اذا وعظوا بشئ من المواعظ (لا يذكرون) لا يتعظون واذا ذكر لهم ما يدل على صحة البعث لا ينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم (واذا رأوا آية) اى معجزة تدل على صدق القائل به (يستسخرون) يبالغون فى السخرية ويقولون انه سحر او يستدعى بعضهم من بعض ان يسخر منها (وقالوا ان هذا) اى ما يرونه من الآيات الباهرة (الا سحر مبين) ظاهر سحريته (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما) اى كان بعض اجزائنا ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لانه منقلب من الاجزاء البادية والعامل فى اذا ما دل عليه مبعوثون فى قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) اى نبعث لا نفسه لان دونه خطوبا لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقديم الظرف لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه الى حالة منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ذلك وكذا تحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى افلا تعقلون على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ بطرح الهمزة

الثانى) ان ثبت الرسول صلى الله عليه وسلم جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كونى رسولا صادقا من عند الله فانا اخبركم بأن البعث والقيامة حق ثم ان اولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق ايضا لانهم اذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحرا وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله واذا رأوا آية يستسخرون فظهر بالبيان الذى ذكرناه ان هذه الالفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة واعلم انا اكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق فقالوا انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون ثم قال واذا رأوا آية يستسخرون فوجب ان يكون المراد من قوله يستسخرون غير ما تقدم ذكره من قوله ويسخرون فقال هذا القائل المراد من قوله ويسخرون اقدامهم على السخرية والمراد من قوله يستسخرون طلب كل واحد منهم من صاحبه ان يقدم على السخرية وهذا التكلف انما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التى ذكرناها والله اعلم (والرابع) من الامور التى حكاها الله تعالى عنهم انهم قالوا ان هذا الاسحر مبين يعنى انهم اذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها والسبب فى تلك السخرية اعتقادهم انها من باب السحر وقوله مبين معناه ان كونه سحرا امر بين لا شبهة لاحد فيه ثم بين تعالى ان السبب الذى يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات الى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم ان الذى مات وتفرقت أجزاؤه فى جملة العالم فما فيه من الارضية اختلط بتراب الارض ومافيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا فاهما فهذا الكلام هو الذى يحملهم على تلك الاحوال الثلاثة المتقدمة ثم انه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وانتم داخرون وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر فى الآية المتقدمة بالبرهان اليقينى القطعى انه امر ممكن واذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار المخبر الصادق فلما قامت المعجزات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله قل نعم دليلا قاطعا على الوقوع ومن تأمل فى هذه الآيات علم انها وردت على احسن وجوه الترتيب وذلك لانه بين الامكان بالدليل العقلى وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعى ومن المعلوم ان الزيادة على هذا البيان كالامر الممتنع * اما قوله أوآباؤنا فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه الف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا وفى سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام فى هذا فى سورة الاعراف عند قوله اوأمن اهل القرى * اما قوله تعالى قل نعم فنقول قرأ الكسائى وحده نعم بكسر العين * اما قوله تعالى وانتم داخرون اى صاغرون قال ابو عبيد الدخور اشد الصغار وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله سجدا لله وهم داخرون ❁ قوله تعالى (فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة

الاولى وبطرح الثانية فقط (أو آباؤنا الاولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه اى وآباؤنا الاولون ايضا مبعوثون وقيل عطف على محل ان واسمها وقيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة الانكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى ما اشركنا ولا آباؤنا وايا ما كان فرادهم زيادة الاستبعاد بناء على انهم اقدم فبعثهم ابعد على زعمهم وقرئ او آباؤنا (قل) تبكيتا لهم (نعم) والخطاب فى قوله تعالى (وانتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل مادل عليه نعم اى كلكم مبعوثون والحال انكم صاغرون اذلاء وقرئ نعم بكسر العين وهى لغة فيه (فانما هى زجرة واحدة) هى اما ضمير مبهم يفسره خبره او ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر او تعليل لنهى مقدر أى اذا كان كذلك فانما هى الخ اولا تستصعبوه فانما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه اذا صاح عليها وهى النفخة

مايدل على امكان البعث والقيامة ثم اردفه بما يدل على وقوع القيامة ذكر فى هذه الآيات بعض تفاصيل احوال القيامة وانه تعالى ذكر فى هذه الآية أنواعا من تلك الاحوال (فالحالة الاولى) قوله تعالى فانماهى زجرة واحدة فاذاهم ينظرون وفيه ابحاث (البحث الاول) قوله فانما جواب شرط مقدر والتقدير اذا كان كذلك فاهى الازجرة واحدة (البحث الثانى) الضمير فى قوله فانماهى ضمير على شريطة التفسير والتقدير فانما البعث زجرة واحدة (البحث الثالث) الزجرة فى اللغة الصيحة التى يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وان لم يكن فيها معنى الزجر كما فى هذه الآية واقول لايبعد ان يقال ان تلك الصيحة انما سميت زجرة لانها تزجر الموتى عن الرقود فى القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور فى موقف القيامة فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ماذكره الله تعالى فى قوله ثم نفخ فيه اخرى فاذاهم قيام ينظرون فبالنفخة الاولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون * وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى هذه الصيحة فان القوم فى تلك الساعة اموات لان النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت ان هذه الصيحة انما حصلت حال كون الخلق امواتا فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهى عبث والعبث لايجوز فى فعل الله (والجواب) اما اصحابنا فيقولون يفعل الله مايشاء واما المعتزلة فقال القاضى فيه وجهان (الاول) ان تعتبر بها الملائكة (الثانى) ان تكون الفائدة التخويف والارهاب (السؤال الثانى) هل لتلك الصيحة تأثير فى اعادة الحياة الجواب لا بدليل ان الصيحة الاولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على ان الصيحة لا أثر لها فى الموت ولا فى الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال الذى خلق الموت والحياة (السؤال الثالث) تلك الصيحة صوت الملائكة او الله تعالى يخلقها ابتداء (الجواب) الكل جائز الا انه روى ان الله تعالى يأمر اسرافيل حتى ينادى ايتها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الالفاظ المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى فاذاهم ينظرون فيحتمل ان يكون المراد ينظرون مايحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم الى بعض وان يكون المراد ينظرون الى البعث الذى كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما اخبر الله عنهم انهم بعد القيام من القبور قالوا ياويلنا هذا يوم الدين قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود انهم لما شاهدوا القيامة قالوا هذا يوم الدين اى يوم الجزاء هذا والمقصود ان الله تعالى ذكر فى آيات كثيرة من القرآن انا نرى فى الدنيا محسنا ومسيئا وعاصيا وصديقا وزنديقا ورأينا انه لم يصل اليهم فى الدنيا مايليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة ليجزى الذين اساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى وبالجملة فهذا يدل على ان الجزاء انما يحصل بعد الموت والكفار وان سمعوا هذا الدليل

الثانية (فاذاهم) قائمون من مراقدهم احياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا اوينتظرون ما يفعل بهم (وقالوا) اى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر (ياويلنا) اى هلاكنا احضر فهذا اوان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف اى اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا وانما علموا ذلك لانهم كانوا يسمعون فى الدنيا انهم يبعثون ويحاسبون ويجزون باعمالهم فلما شاهدوا البعث ايقنوا بما بعده ايضا وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) كلام الملائكة جوابا لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو ايضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء او الفرق بين فرق الهدى والضلال

القوى لكنهم انكروا وتمردوا ثم انه تعالى اذا احياهم يوم القيامة فاذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون هذا يوم الدين اى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفر نابها ونظيره ان من خوف بشئ ولم يلتفت اليه ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا وفيه احتمال آخر وهو انه تعالى قال فى سورة الفاتحة مالك يوم الدين فبين انه لا مالك فى ذلك اليوم الا الله فقولهم هذا يوم الدين اشارة الى ان هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لاحد الا لله وانما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد اما قوله تعالى هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى ان هذا اهل هو من بقية كلام الكفار او يقال تم كلامهم عند قوله تعالى هذا يوم الدين واما قوله هذا يوم الفصل فهو كلام غيرهم فبعضهم قال بالاول وزعم ان قوله هذا يوم الفصل الآية من كلام بعضهم لبعض والاكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين (الاول) ان قوله كنتم به تكذبون من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لابد ان يكون غير الكفار (الثانى) ان قوله احشروا الذين ظلموا وازواجهم منسوق على قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون فلما كان قوله احشروا الذين ظلموا كلام غير الكفار فكذلك قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون يجب ان يكون كلام غير الكفار وعلى هذا التقدير فقوله هذا يوم الدين من كلام الكفار وقوله هذا يوم الفصل من كلام الملائكة جوابا لهم والوجه فى كونه جوابا لهم ان اولئك الكفار انما اعتمدوا فى انفسهم كونهم محقين فى انكار دعوة الانبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الاديان الفاسدة فقالوا هذا يوم الدين اى هذا هو اليوم الذى يصل فيه الينا جزاء طاعاتنا وخيراتنا فالملائكة يقولون لهم انه لا اعتبار بظواهر الامور فى هذا اليوم فان هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيق عن الجزاء الظاهرى وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جوابا لما ذكره الكفار ❊ ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) وفى الآية ابحاث (البحث الاول) اعلم انه لا نزاع فى ان هذا من كلام الملائكة فان قيل ما معنى احشروا مع انهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامة وقالوا هذا يوم الدين وقالت الملائكة لهم بل هذا يوم الفصل اجاب القاضى عنه فقال المراد احشروهم الى دار الجزاء وهى النار ولذلك قال بعده فاهدوهم الى صراط الجحيم أى خذوهم الى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم انهم مسؤلون ومعلوم ان حشرهم الى الجحيم انما يكون بعد المسئلة وأجاب انه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع ان يقال احشروهم وقفوهم مع أنا بعقولنا نعلم ان الوقوف كان قبل الحشر الى النار هذا ما قاله القاضى وعندى فيه وجه آخر وهو ان يقال انهم اذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب

وقيل من الموقف الى الجحيم (وازواجهم) اى اشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكوكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم ازواجا ثلاثة وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم اللاتى على دينهم (وما كانوا يعبدون من دون الله)من الاصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية الكريمة وانت خبير بان الموصول عبارة عن المشركين خاصة جئ به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص (فاهدوهم الى صراط الجحيم) اى عرفوهم طريقها ووجهوهم اليها وفيه تهكم بهم (وقفوهم)احبسوهم فى الموقف كأن الملائكة سارعوا الى ما امروا به من حشرهم الى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى (انهم مسئولون) ايذانا من اول الامر بأن ذلك ليس لعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم واعمالهم كما قيل فان ذلك قد وقع قبل الامر بهم الى الجحيم بل عما ينطق به قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم اى لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير هذا السؤال الى ذلك الوقت لانه وقت تنجز العذاب وشدة الحاجة الى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ اشد وقعا وتأثيرا وقرئ لا تتناصرون ولا تناصرون بالادغام (بل هم

معاينة اهوال القيامة ثم ان الله تعالى يقول للملائكة احشروا الذين ظلموا واهدوهم الى صراط الجحيم اى سوقوهم الى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسئلة هناك ثم من هناك يساقون الى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه (البحث الثانى) الآمر فى قوله تعالى احشروا الذين ظلموا هو الله فهو تعالى امر الملائكة ان يحشروا الكفار الى موقف السؤال والمراد من الحشر ان الملائكة يسوقونهم الى ذلك الموقف (البحث الثالث) ان الله امر الملائكة بحشر ثلاثة اشياء الظالمين وازواجهم والاشياء التى كانوا يعبدونها وفيه فوئد (الفائدة الاولى) انه تعالى قال احشروا الذين ظلموا ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على ان الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على ان كل وعيد ورد فى الظالم فهو مصروف الى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى والكافرون هم الظالمون (الفائدة الثانية) اختلفوا فى المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة اقوال (الاول) المراد بأزواجهم اشباههم اى احزابهم ونظراؤهم من الكفرة فاليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى والذى يدل على جواز ان يكون المراد من الازواج الاشباه وجوه (الاول) قوله تعالى وكنتم ازواجا ثلاثة اى اشكالا واشباها (الثانى) انك تقول عندى من هذا ازواج اى امثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين فى اكثر احكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمى بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا لقسم الثانى فى العدد الصحيح قال الواحدى فعلى هذا القول يجب ان يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لانك لو جعلت الذين ظلموا عاما فى كل من اشرك لم يكن للازواج معنى (القول الثانى) فى تفسير الازواج ان المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون (والقول الثالث) ان المراد نساؤهم اللواتى على دينهم اما قوله وما كانوا يعبدون من دون الله ففيه قولان (الاول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الاوثان والطواغيت ونظيره قوله فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة قيل المراد بالناس عباد الاوثان والمراد بالحجارة الاصنام التى هى احجار منحوتة فان قيل ان تلك الاحجار جادات فالفائدة فى حشرها الى جهنم اجاب القاضى بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيى لتحصل المبالغة فى توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب ان الله تعالى يحيى تلك الاصنام الا انه لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها والاقرب ان يقال ان الله تعالى لا يحيى تلك الاصنام بل يتركها على الجمادية ثم يلقيها فى جهنم لان ذلك مما يزيد فى تخجيل الكفار (القول الثانى) ان المراد من قوله وما كانوا يعبدون من دون الله الشياطين الذين دعوهم الى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الذين صاروا كالعابدين لاولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى الم أعهد اليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان والقول الاول اولى لان الشياطين

مستسلم غير منتصر (واقبل) حينئذ (بعضهم على بعض) هم الاتباع والرؤساء او الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا اى الاتباع للرؤساء او الكل للقرناء (انكم كنتم تأتوننا) فى الدنيا (عن اليمين) عن اقوى الوجوه وامتنها او عن الدين او عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم فهلكنا مستعار من يمين الانسان الذى هو اشرف الجانبين واقواهما وانفعهما ولذلك سمى يمينا ويتيمن بالسانح او عن القوة والقسر فتقسروننا على الغى وهو الاوفق للجواب او عن الحلف حيث كانوا يحلفون انهم على الحق (قالوا) استئناف كما سبق اى قال الرؤساء او القرناء (بل لم تكونوا مؤمنين) اى لم نمنعكم من الايمان بل لم تؤمنوا باختياركم واعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه (وما كان لنا عليكم من سلطان) من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين للطغيان مصرين عليه (فحق علينا) اى لزمنا وثبت علينا (قول ربنا) وهو قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين (انا لذائقون) اى العذاب الذى ورد به الوعيد (فأغويناكم) فدعوناكم الى الغى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم واستحببتم الغى على الرشد (انا كنا غاوين) فلا عتب علينا فى تعرضنا لاغوائكم بتلك

عقلاء، وكلمة مالا تليق بالعقلاء، والله اعلم ثم قال فاهدوهم الى صراط الجحيم قال ابن عباس دلوهم يقال هديت الرجل اذا دللته وانما استعملت الهداية ههنا لانه جعل بدل الهداية الى الجنة كما قال فبشرهم بعذاب اليم فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لاولئك وعن ابن عباس فاهدوهم سوقوهم وقال الاصم قدموهم قال الواحدى وهذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهادية والهوادى والهاديات الوحش قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ثم قال وقفوهم يقال وقفت الدابة اقفها وقفا فوقفت هى وقوفا والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (احدهما) على التقديم والتأخير والمعنى قفوهم واهدوهم والاصوب انه لاحاجة اليه بل كأنه قيل فاهدوهم الى صراط الجحيم فاذا انتهوا الى الصراط قيل وقفوهم فان السؤال يقع هناك وقوله انهم مسؤلون قيل عن اعمالهم فى الدنيا واقوالهم وقيل المراد سألتهم الخزنة الم يأتكم رسل منكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ويجوز ان يكون هذا السؤال ماذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى مالكم لاتناصرون اى انهم يسئلون توبيخا لهم فيقال مالكم لاتناصرون قال ابن عباس رضى الله عنهما لاينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك ان اباجهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة مالكم غير متناصرين وقيل يقال للكفار مالشركائكم لايمنعونكم من العذاب * ثم قال تعالى (بل هم اليوم مستسلمون) يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع ومعناه فى الاصل طلب السلامة بترك المنازعة والمقصود انهم صاروا منقادين لاحيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود * ثم قال تعالى (فأقبل بعضهم على بعض) قيل هم والشياطين وقيل الرؤساء والاتباع (يتساءلون) اى يسأل بعضهم بعضا وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ويقول اولئك لم قبلتم منا وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين بل هو تساؤل التوبيخ واللوم والله اعلم * قوله تعالى (قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون فأغويناكم انا كنا غاوين فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم لااله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين انكم لذائقوا العذاب الاليم وماتجزون الا ماكنتم تعملون الا عباد الله المخلصين) واعلم ان الله تعالى لماحكى عنهم انه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين وهذا قول الاتباع لمن دعاهم الى الضلالة وفى تفسير اليمين وجوه (الاول) ان لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات وبيان كيفية هذه الاستعارة ان الجانب الايمن افضل من الجانب الايسر لوجوه (احدها) اتفاق الكل على ان اشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لايباشرون الاعمال الشريفة الا باليمين مثل مصافحة الاخيار والاكل

المرتبة من الدعوة لتكونوا امثالنا فى الغواية (١٣٩) (فانهم) اى الاتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) حسبما كانوا مشتركين فى الغواية (انا كذلك) اى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية (نفعل بالمجرمين) المتناهين فى الاجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى (انهم كانوا اذا قيل لهم) بطريق الدعوة والتلقين (لااله الا الله يستكبرون) عن القبول (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين) رد عليهم وتكذيب لهم ببيان ان ماجاء به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان واجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة (انكم) بما فعلتم من الاشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار (لذائقوا العذاب الاليم) والالتفات لاظهار كمال الغضب عليهم وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون كقوله

ولا ذاكر الله الا قليلا

وقرئ لذائقون العذاب على الاصل (وماتجزون الا ماكنتم تعملون) اى الا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات او الا بما كنتم تعملونه منها (الا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من ضمير ذائقوا ومابينهما اعتراض جئ به مسارعة الى تحقيق الحق ببيان ان ذوقهم العذاب ليس الا من جهتهم لامن جهة غيرهم اصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى ان الكفرة لايجزون الا بقدر اعمالهم دون عباد الله المخلصين فانهم يجزون اضعافا مضاعفة ممالا وجه له اصلا لاسيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلفين فانه

والشرب وماعلى العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) انهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الايمن ويسمونه بالبارح (الرابع) ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن فى كل شىء (الخامس) ان الشريعة حكمت بان الجانب الايمن لكاتب الحسنات والايسر لكاتب السيآت (السادس) ان الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسىء أن يؤتى كتابه بيساره فثبت ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر واذا كان كذلك لاجرم استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات فقوله انكم كنتم تأتوننا عن اليمين يعنى انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا ان مقصودكم من الدعوة الى تلك الاديان نصرة الحق وتقوية الصدق (الوجه الثانى) فى التأويل انه يقال فلان يمين فلان اذا كان عنده بالمنزلة الحسنة فقال هؤلاء الكفار لائمتهم الذين اضلوهم وزينوا لهم الكفر انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا انا عندكم بمنزلة اليمين أى بالمنزلة الحسنة فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) ان أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن مايدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بايمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم فمعنى قوله كنتم تأتوننا عن اليمين أى من ناحية المواثيق والايمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر لان اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش والمعنى انكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتجبرونا عليه ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء انهم أجابوا الاتباع من وجوه (الاول) انهم قالوا لهم بل لم تكونوا مؤمنين يعنى انكم ما كنتم موصوفين بالايمان حتى يقال انا ازلناكم عنه (الثانى) قولهم وما كان لنا عليكم من سلطان يعنى لاقدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) بل كنتم قوما طاغين اى ضالين غالين فى معصية الله (الرابع) قولهم فحق علينا قول ربنا انا لذائقون والمعنى ان الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا فى العذاب فلو لم يحصل وقوعنا فى العذاب لما كان خبر الله حقا بل كان باطلا ولما كان خبر الله امرا واجبا لاجرم كان الوقوع فى العذاب الاليم لازما قال مقاتل قوله تعالى فحق علينا قول ربنا اشارة الى قول الله لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وقوله تعالى انا لذائقون يعنى لما وجب ان يحق علينا قول ربنا وجب ان نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم فأغويناكم انا كنا غاوين والمعنى انا انما اقدمنا على اغوائكم لانا كنا موصوفين فى انفسنا بالغواية وفيه دقيقة اخرى كأنهم قالوا ان اعتقدتم ان غوايتكم بسبب اغوائنا فغوايتنا ان كانت بسبب اغواء آخر لزم التسلسل وذلك محال فعلمنا ان حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا بل من قبل غيرنا وذلك الغير هو الذى ذكره فيما قبل وهو قوله فحق علينا قول ربنا ولما حكى الله تعالى كلام الاتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للاتباع قال بعده فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون يعنى فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون فى الوقوع فى العذاب

ليس فى حيز الاحتمال فالمعنى انكم لذائقو العذاب الاليم لكن عباد الله المخلصين الموحدين (١٤٠) ليسوا كذلك وقوله تعالى (اولئك) اشارة اليهم للايذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الاخلاص فى عبادة الله تعالى عمن عداهم امتياز بالغا منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم) اما خبرله وقوله تعالى (رزق) مرتفع على الفاعلية بمافيه من الاستقرار او مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لاولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما افاده الاستثناء اجمالا بيانا تفصيليا وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على انه متأول بالمبتدأ وقوله تعالى (معلوم) اى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقوله تعالى (فواكه) اما بدل من رزق او خبر مبتدأ مضمر اى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لان ارزاق اهل الجنة كلها فواكه اى مايؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لانهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج الى البدل وقيل لان الفواكه من اتباع سائر الاطعمة فذكرها مغن عن ذكرها (وهم مكرمون) عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك اعظم المثوبات واليقها باولى الهمم وقيل مكرمون فى نيله حيث يصل اليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن ارزاق الدنيا وقرئ مكرمون بالتشديد (فى جنات النعيم)

كما كانوا فى الدنيا مشتركين فى الغواية ثم قال ايضا انا كذلك نفعل بالمجرمين وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل انه تعالى قال بعدهذه الكلمة انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون والضمير فى قوله انهم عائد الى المذكور السابق وهو قوله بالمجرمين وهذا يدل على ان لفظ المجرم المطلق مختص فى القرآن بالكافر ثم بين تعالى انهم انما وقعوا فى ذلك العذاب لانهم كانوا مكذبين بالتوحيد و بالنبوة اما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون يعنى ينكرون و يتعصبون لاثبات الشرك ويستنكفون عن الاقرار بالتوحيد واما التكذيب بالنبوة فهو قولهم أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ويعنون محمدا ثم انه تعالى كذبهم فى ذلك الكلام فقال بل جاء بالحق وصدق المرسلين وتقرير هذا الكلام انه جاء بالدين الحق لانه ثبت بالعقل انه تعالى منزه عن الضد والند و الشريك فلما جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بتقرير هذه المعانى كان مجيئه بالدين الحق قرأ ابن كثير اينا لتاركوا آلهتنا بهمزة و ياء بعدها خفيفة ساكنة بلامد وقرأ نافع فى رواية قالون وابو عمرو على هذا التفسير و يمد ان و الباقون بهمزتين بلامد وقوله تعالى وصدق المرسلين يعنى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد ونفى الشريك وهذا تنبيه على ان القول بالتوحيد دين لكل الانبياء ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد و بالنبوة نقل الكلام من الغيبة الى الحضور فقال انكم لذائقوا العذاب الاليم كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى عن النفع والضر ان يعذب عباده فأجاب عنه بقوله وما تجزون الا ما كنتم تعملون والمعنى ان الحكم يقتضى الامر بالحسن والطاعة والنهى عن القبيح والمعصية والامر والنهى لا يكمل المقصود منهما الا بالترغيب فى الثواب والترهيب بالعقاب واذا وقع الاخبار عنه وجب تحقيقه صونا للكلام عن الكذب فلهذا السبب وقعوا فى العذاب ثم قال الا عباد الله المخلصين يعنى ولكن عباد الله من الاستثناء المنقطع

❊ قوله تعالى (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لافيها غول ولاهم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون) اعلم انه تعالى لما وصف احول المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على انكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين فى كيفية الثواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكرنا فى فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح ان الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو انهم اخلصوا الطاعة لله تعالى (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوما ولم يبين ان اى الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الاقوال فقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وان لم يكن ثمه لا بكرة ولا عشية قال تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصا بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل معناه

اى فى جنات ليس فيها الا النعيم وهو ظرف اوحال من المستكن فى مكرمون اوخبر ثان لاولئك وقوله تعالى (على سرر) يحتمل الحالية والخبرية فقوله تعالى (متقابلين) حال من المستكن فيه اوفى مكرمون وقوله تعالى (يطاف عليهم) اما استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية تكامل مجالس انسهم اوحال من الضمير فى متقابلين اوفى احد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون (بكأس) باناء فيه خمر اوبخمر فان الكأس تطلق على نفس الخمر كما فى قول من قال وكأس شربت على لذة

واخرى تداويت منها بها

(من معين) متعلق بمضمر هو صفة لكأس اى كائنة من شراب معين اومن نهر معين وهو الجارى على وجه الارض الظاهر للعيون او الخارج من العيون من عان الماء اذا نبع وصف به الخمر وهو للماء لانها تجرى فى الجنة فى انهار كما يجرى الماء قال تعالى وانهار من خمر (بيضاء لذة للشاربين) صفتان ايضا لكأس ووصفها بلذة اما للمبالغة كأنها نفس اللذة اولانها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال

ولذ كطعم الصرخدى تركته

بأرض العدا من خيفة الحدثان

يريد به النوم (لافيها غول) اى غائلة كما فى خمور الدنيا من غاله اذا افسده واهلكه ومنه الغول (ولاهم عنها ينزفون) يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف اذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فمات اذا خرج دمه كله افرد هذا بالنفى مع اندراجه فيما قبله من نفى الغول عنها لما انه من معظم مفاسد الخمر كأنه جنس برأسه والمعنى لافيها

انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع وقيل معناه انه القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم وقد بين الله تعالى انه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ثم لما ذكر تعالى ان لهم رزقا بين ان ذلك الرزق ما هو فقال فواكه وفيه قولان (الاول) ان الفاكهة عبارة عما يؤكل لاجل التلذذ لا لاجل الحاجة وارزاق اهل الجنة كلها فواكه لانهم مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فانهم أجسام محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثانى) ان المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى يعنى لما كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان الادام اولى بالحضور والقول الاول اقرب الى التحقيق واعلم انه تعالى لما ذكر الاكل بين ان ذلك الاكل حاصل مع الاكرام والتعظيم فقال وهم مكرمون لان الاكل الخالى عن التعظيم يليق بالبهائم ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال فى جنات النعيم على سرر متقابلين ومعناه انه لا كلفة عليهم فى التلاقى للانس والتخاطب وفى بعض الاخبار انهم اذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ولا يجوز ان يكونوا متقابلين الامع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك الامع الفسحة والسعة ولا يجوز ان يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد الا بأن يقوى الله ابصارهم واسماعهم واصواتهم ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال يطاف عليهم بكأس من معين يقال للزجاجة التى فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأسا قال * وكأس شربت على لذة * وعن الاخفش كل كأس فى القرآن فهى الخمر وقوله من معين اى من شراب معين او من نهر معين المعين ماخوذ من عين الماء اى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل وقيل سمى معينا لانه يجرى ظاهر العين ويجوز ان يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن فى المسير اذا اشتد فيه وقوله بيضاء صفة للخمر قال الاخفش خمر الجنة اشد بياضا من اللبن وقوله لذة فيه وجوه (احدها) انها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا أرادوا المبالغة فى وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج اى ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحدا فى النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى بيضاء لذة للشاربين وقال تعالى من خمر لذة للشاربين ولذلك سمى النوم لذا لاستلذاذه وعلى هذا اللذة بمعنى لذيذة والاقرب من هذه الوجوه الاول ثم قال تعالى لا فيها غول وفيه ابحاث (البحث الاول) قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء وقال ابو عبيدة الغول ان يغتال عقولهم وانشد قول مطيع بن اياس

وما زالت الكأس تغتالهم * وتذهب بالاول الاول

وقال الليث الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما فى خمر الدنيا قال الواحدى

(رحمه)

نوع من انواع الفساد من نغص او صداع او خمار او عربدة او لغو او تأثيم ولاهم يسكرون وقرئ ينزفون بكسر الزاى من انزف الشارب اذا نفد عقله او شرابه وقرئ ينزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى فيهما (وعندهم قاصرات الطرف) قصرن ابصارهن على ازواجهن لا يمددن طرفا الى غيرهم (عين) نجل العيون جمع عيناء والنجل سعة العين (كأنهن بيض مكنون) شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فان ذلك احسن الوان الابدان (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف اى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشرب قال

وما بقيت من اللذات الا * أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتما (قال قائل منهم) فى تضاعيف محاوراتهم (انى كان لى) فى الدنيا (قرين) مصاحب (يقول) لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الايمان والتصديق بالبعث (أئنك لمن المصدقين) اى بالبعث وقرئ بتشديد الصاد من التصدق والاول هو الاوفق لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) اى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء اولمسوسون يقال دانه اى ساسه ومنه الحديث العاقل من دان نفسه وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض اخوانه فقال أين مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله

رحمه الله وحقيقته الاهلاك يقال غاله غولا اى اهلكه والغول والغائل المهلك ثم سمى الصداع غولا لانه يؤدى الى الهلاك ثم قال تعالى ولاهم عنها ينزفون وقرئ بكسر الزاى قال الفراء من كسر الزاى فله معنيان يقال انزف الرجل اذا نفدت خمرته وانزف اذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاى فمعناه لايذهب عقولهم اى لايسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف والمعنى ليس فيها قط نوع من انواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من صداع او خمار او عربدة ولاهم يسكرون ايضا وخصه بالذكر لانه اعظم المفاسد فى شرب الخمر ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة اوجه (الاول) قوله وعندهم قاصرات الطرف ومعنى القصر فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى حور مقصورات فى الخيام والمعنى انهن يحبسن نظرهن ولاينظرن الى غير ازواجهن (الصفة الثانية) قوله تعالى عين قال الزجاج كبار الاعين حسانها واحدها عيناء (الصفة الثالثة) قوله تعالى كأنهن بيض مكنون المكنون فى اللغة المستور يقال كننت الشئ واكننته ومعنى هذا التشبيه ان ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فاذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والقترة فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور ولما تمم الله صفات اهل الجنة قال فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فان قيل على اى شئ عطف قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قلنا على قوله يطاف عليهم والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ۞ قوله تعالى (قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون قال هل انتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى ومانحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى كما ذكر فى اهل الجنة انهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الامور اللذيذة وتذكر الخلاص عند اجتماع اسباب الهلاك من الامور اللذيذة ذكر تعالى فى هذه الآية ان اهل الجنة اذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات انهم يتذكرون انهم كان قد حصل لهم فى الدنيا مايوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ثم انهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الابدية والمقصود من ذكر هذه الاشياء ان اهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم اما قوله قال قائل منهم انى كان لى قرين اى قال قائل من اهل الجنة انى كان لى قرين فى الدنيا يقول أئنك لمن المصدقين اى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون اى

تعالى فى الآخرة خيرا منه فقال أئنك لمن المصدقين بيوم الدين اومن المتصدقين لطلب الثواب والله لااعطيك شيئا فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما حينئذ لتأكيد انكار الجزاء المبنى على انكار البعث (قال) اى ذلك القائل بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه فى الدنيا (هل انتم مطلعون) اى الى اهل النار لاريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل القائل هو الله تعالى او بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون ان تطلعوا على اهل النار لاريكم ذلك القرين فتعلموا اين منزلتكم من منزلتهم قيل ان فى الجنة كوى ينظر منها اهلها الى اهل النار (فاطلع) اى عليهم (فرآه) اى قرينه (فى سواء الجحيم) اى فى وسطها وقرئ فأطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرئ مطلعون فأطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع واطلع بمعنى واحد والمعنى هل انتم مطلعون الى القرين فأطلع انا ايضا او عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ما عرضه فاطلع هو بعد ذلك وان جعل الاطلاع متعديا فالمعنى انه لما شرط فى اطلاعه اطلاعهم كما هو ديدن الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرئ مطلعون بكسر النون اراد مطلعون اياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله

هم الفاعلون الخير والآمرونه

اوشبه اسم الفاعل بالمضارع لما بينهما من التآخى (قال) اى القائل مخاطبا لقرينه (تالله ان كدت لتردين) اى لتهلكنى بالاغواء وقرئ لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وان هى المخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها

لمحاسبون ومجازون والمعنى ان ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ثم ان ذلك الرجل الذى هو من اهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم الى كمال السرور بالاطلاع الى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته هل انتم مطلعون فاطلع والاقرب انه تكلف امرا اطلع معه لانه لوكان مطلعا بلا تكلف لم يكن الى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم انه ذهب الى بعض اطراف الجنة فاطلع عندها الى النار فرآه فى سواء الجحيم اى فى وسط الجحيم قال له موبخا تالله ان كدت لتردين اى لتهلكنى بدعائك اياى الى انكار البعث والقيامة ولولا نعمة ربى بالارشاد الى الحق والعصمة عن الباطل لكنت من المحضرين فى النار مثلك ولما تم ذلك الكلام مع الرجل الذى كان فى الدنيا قرينا له وهو الآن من اهل النار عاد الى مخاطبة جلسائه الذين هم من اهل الجنة فقال أفما نحن بميتين وفيه قولان (الاول) ان اهل الجنة لا يعلمون فى اول دخولهم فى الجنة انهم لا يموتون فاذا جئ بالموت على صورة كبش املح وذبح فعند ذلك يعلمون انهم لا يموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثانى) ان الذى يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا الى أفيبقى هذا الى وان كان على يقين من دوامه ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون ان هذا لهو الفوز العظيم واما قوله لمثل هذا فليعمل العاملون فقيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى اى لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ماذكره الله تعالى فى سورة الكهف فى قوله واضرب لهم مثلا رجلين الى آخر الآيات وروى ان رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال احدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارا بالف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما احسنها فخرج وقال اللهم ان صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وانى أسألك دارا من دور الجنة فتصدق بألف دينار ثم ان صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لاجل ان يزوجه الله من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ثم ان الله اعطاه فى الجنة ما طلب فعند هذا قال انه كان لى قرين فاطلع فرآه فى سواء الجحيم (المسئلة الثالثة) قوله أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون اختلفت القراء فى هذه الاستفهامات الثلاث قرأ نافع الاولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الالف من غير استفهام ووافقه الكسائى الا انه يستفهم الثالثة بهمزتين وقرأ ابن عامر الاولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الالف من غير استفهام وقرأ الباقون بالاستفهام فى جميعها ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة وابو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين واما قوله ان كدت لتردين قرأ نافع برواية ورش لتردينى باثبات الياء فى الوصل والباقون بحذفها (المسئلة الرابعة) احتج اصحابنا على ان الهدى

(والضلال)

محذوف واللام فارقة اى تالله ان الشان كدت لتردين (ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) اى من الذين احضروا العذاب كما احضرته انت واضرابك وقوله تعالى (أفما نحن بميتين) رجوع الى محاورة جلسائه بعد اتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا بما اتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام اى انحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين اى بمن شانه الموت وقرئ بمائتين (الا موتتنا الاولى) التى كانت فى الدنيا وهى متناولة لما فى القبر بعد الاحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقيل ان اهل الجنة اول ما دخلوا الجنة لا يعلمون انهم لا يموتون فاذا جئ بالموت على صورة كبش املح فذبح ونودى يا اهل الجنة خلود فلا موت ويا اهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها (وما نحن بمعذبين) كالكفار فان النجاة من العذاب ايضا نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها (ان هذا) اى الامر العظيم الذى نحن فيه (لهو الفوز العظيم) وقيل هو من قول الله عز وجل تقريرا لقولهم وتصديقا له وقرئ لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى (لمثل هذا فليعمل العاملون) اى لنيل هذا المرام الجليل يجب ان يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا ايضا يحتمل ان يكون من كلام رب العزة

والضلال من الله تعالى بقوله تعالى ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين وقالوا مذهب الخصم ان كل مافعله الله تعالى من وجوه الانعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر واذا كان ذلك الانعام مشتركا فيه امتنع ان يكون سببا لحصول الهداية للمؤمن وان يكون سببا لخلاصه من الكفر والردى فوجب ان تكون تلك النعمة المخصوصة امرا زائدا على تلك الانعامات التى حصل الاشتراك فيها وماذلك الاقوة الداعى الى الايمان وتكميل الصارف عن الكفر (المسئلة الخامسة) احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من اهل الجنة أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى فهذا يدل على ان الانسان لايموت الا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) ان قوله الا موتتنا الاولى المراد منه كل ماوقع فى الدنيا والله اعلم * قوله تعالى (اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم انهم الفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ولقد ضل قبلهم اكثر الاولين ولقد ارسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الا عباد الله المخلصين) اعلم انه تعالى لما قال بعد ذكر اهل الجنة ووصفها لمثل هذا فليعمل العاملون اتبعه بقوله اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجرا لهم عن الكفر وكما وصف من قبل مأكل اهل الجنة ومشاربهم وصف أيضا فى هذه الآية مأكل اهل النار ومشاربهم * اما قوله أذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم فالمعنى ان الرزق المعلوم المذكور لاهل الجنة خير نزلا أى خير حاصلا ام شجرة الزقوم واصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشئ ويقال أرسل الامير الى فلان نزلا وهو الشئ الذى يصلح حال من ينزل بسببه اذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لانسبة لاحدهما الى الآخر فى الخيرية الا انه جاء هذا الكلام اما على سبيل السخرية بهم او لاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرين اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم فقيل لهم ذلك توبيخا لهم على سوء اختيارهم واما الزقوم فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرا الا الكلبى فانه روى انه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى اكثر الله فى بيوتكم الزقوم فان اهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم فقال ابوجهل لجاريته زقينا فأتته بزبد وتمر وقال تزقوا ثم قال الواحدى ومعلوم ان الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الافراط من اكل الشئ حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم وظاهر لفظ القرآن يدل على انها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ثم انه تعالى يكره اهل النار على

أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشئ فانتصابه على التمييز اى أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ويقال النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى ان الرزق المعلوم نزل اهل الجنة واهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق دفرة مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة (انا جعلناها فتنة للظالمين) محنة وعذابا لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فانهم لما سمعوا انها فى النار قالوا كيف يكن ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا ان من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحراق (انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم) منبتها فى قعر جهنم واغصانها ترتفع الى دركاتها وقرئ نابتة فى اصل الجحيم (طلعها) اى حملها الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل والطلوع من الشجر قالوا أول التمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر (كأنه رؤس الشياطين) فى تناهى القبح والهول وهو تشبيه بالمخيل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين لحيات الهائلة القبيحة المنظر لها اعراف وقيل ان شجرا يقال له الاستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة يسمى ثمره رؤس الشياطين (فانهم لآكلون منها) اى من الشجرة او من طلعها فالتأنيث مكتسب من المضاف اليه (فمالؤن منها البطون) لغلبة الجوع او للقسر على أكلها وان كرهوها ليكون ذلك بابا من العذاب (ثم ان لهم عليها) على الشجرة التى ملؤا منها (١٩) (را) (سا) بطونهم بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم

كما ينبئ عنه كلمة ثم ويجوز ان تكون لما فى شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة (لشوبا من حميم) لشرابا من غساق اوصديد مشوبا

تناول بعض اجزائها * اما قوله تعالى انا جعلناها فتنة للظالمين ففيه اقوال (الاول) انها انما صارت فتنة للظالمين من حيث ان الكفار لما سمعوا هذه الآية قالوا كيف يعقل ان تنبت الشجرة فى جهنم مع ان النار تحرق الشجرة والجواب عنه ان خالق النار قادر على ان يمنع النار من احراق الشجر ولانه اذا جاز ان يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن احراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة اذا عرفت هذا السؤال والجواب فعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو انهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سببا لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (الوجه الثانى) فى التفسير ان يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لانهم اذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) ان يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار فان هذا شئ بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف فاذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه الى الله واذا ورد على الزنديق توسل به الى الطعن فى القرآن والنبوة * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات (الصفة الاولى) قوله انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم واغصانها ترتفع الى دركاتها (الصفة الثانية) قوله طلعها كأنه رؤس الشياطين قال صاحب الكشاف الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية او معنوية وقال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة ولذلك قيل طلع النخل لاول ما يخرج من ثمره واما تشبيه هذا الطلع برؤس الشياطين ففيه سؤال لانه قيل انا ما رأينا رؤس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شئ بها واجابوا عنه من وجوه (الاول) وهو الصحيح ان الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة فكما حسن التشبيه بالملك عند ارادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله ان هذا الا ملك كريم فكذلك وجب ان يحسن التشبيه برؤس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة والحاصل ان هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل كأنه قيل ان اقبح الاشياء فى الوهم والخيال هو رؤس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة والذى يؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيئا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيئا حسن الصورة والسيرة قالوا انه ملك وقال امرؤ القيس

اتقتلنى والمشرفى مضاجعى * ومسنونة زرق كأنياب اغوال

(والقول الثانى) ان الشياطين حيات لها رؤس واعراف وهى من اقبح الحيات وبها يضرب المثل فى القبح والعرب اذا رأت منظرا قبيحا قالت كأنه شيطان الحماطة والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) ان رؤس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس والوجه الاول هو الجواب الحق واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين ان الكفار لآكلون منها فمالؤن منها البطون واعلم ان اقدامهم على ذلك الاكل يحتمل وجهين (الاول)

بماء حميم يقطع امعاءهم وقرئ بالضم وهو اسم لما يشاب به والاول مصدر سمى به (ثم ان مرجعهم) اى مصيرهم وقد قرئ كذلك (لالى الجحيم) لالى دركاتها او الى نفسها فان الزقوم والحميم نزل يقدم اليهم قبل دخولها وقيل الجحيم خارج عنها لقوله تعالى هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم الى شجرة الزقوم فيأكلون منها الى ان يتملؤا ثم يسقون من الحميم ثم يردون الى الجحيم ويؤيده انه قرئ ثم ان منقلبهم (انهم الفوا آباءهم ضالين) تعليل لاستحقاقهم ماذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء فى الدين من غير ان يكون لهم ولا لآبائهم شئ يتمسك به اصلا اى وجدوهم ضالين فى نفس الامر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير ان يتدبروا انهم على الحق اولا مع ظهور كونهم على الباطل بادنى تأمل والاهراع الاسراع الشديد كأنهم يزعجون ويحثون حثا على الاسراع على آثارهم وقيل هو اسراع فيه شبه رعدة (ولقد ضل قبلهم) اى قبل قومك قريش (أكثر الاولين) من الامم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد ارسلنا فيهم منذرين) اى انبياء اولى عدد كثير وذوى شأن خطير بينوا لهم بطلان ما هم عليه وانذروهم عاقبته الوخيمة وتكرير القسم لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا الى الانذار ولم يرفعوا له رأسا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم اولكل احد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث

(الاول) انهم اكلوا منها لشدة الجوع فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها قلنا ان الواقع فى الضرر العظيم ربما استروح منه الى ما يقاربه فى الضرر فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا فى ازالة ذلك الجوع الى تناول هذا الشئ وان كان بالصفة التى ذكرتموها (الوجه الثانى) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم * واعلم انهم اذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون الى الشراب فعند هذا وصف الله شرابهم فقال ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قال الزجاج الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة والمعنى انه اذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما واعلم ان الله وصف شرابهم فى القرآن بأشياء منها كونه غساقا ومنها قوله وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم ومنها ماذكره فى هذه الآية (فان قيل) ما الفائدة فى كلمة ثم فى قوله ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قلنا فيه وجهان (الاول) انهم يملؤن بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ثم انهم لا يسقون الا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب (والثانى) انه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ثم وصف الشراب بما هو ابشع منه فكان المقصود من كلمة ثم بيان ان حال المشروب فى البشاعة اعظم من حال المأكول ثم قال تعالى ثم ان مرجعهم لالى الجحيم قال مقاتل اى بعد اكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على انهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم فهم يوردون الحميم لاجل الشرب كما تورد الابل الى الماء ثم يوردون الى الجحيم فهذا قول مقاتل واحتج على صحته بقوله تعالى هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن وذلك يدل على صحة ماذكرناه ثم انه تعالى لما وصف عذابهم فى أكلهم وشربهم قال انهم الفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع واهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم اتباعا فى سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم والمقصود من الآية انه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى * ثم انه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له فى كفرهم وتكذيبهم فقال ولقد ضل قبلهم اكثر الاولين ولقد ارسلنا فيهم منذرين فبين تعالى ان ارساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ويجب ان يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء الى الله وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ * ثم قال تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وهذا وان كان فى الظاهر خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا ان المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار جميع ماجرى من انواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم فان لم يعلموا ذلك فلا اقل من ظن وخوف يصلح ان يكون زاجرا لهم عن كفرهم * وقوله تعالى

كان المعنى انهم اهلكوا اهلاكا فظيعا استثنى منهم المخلصون (١٤٧) بقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) اى الذين اخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الانذار وقرئ المخلصين بكسر اللام اى الذين اخلصوا دينهم لله تعالى (ولقد نادانا نوح) نوع تفصيل للمجمل فيما قبل ببيان احوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين حسبما اشير اليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم الياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين اخلصهم الله تعالى ووفقهم للايمان كما اشار اليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما فى قوله تعالى (فلنعم المجيبون) اى وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من ايمان قومه بعد ما دعاهم اليه احقابا ودهورا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا ونفورا فأجبناه احسن الاجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ماذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء (ونجيناه واهله من الكرب العظيم) اى من الغرق وقيل من اذية قومه (وجعلنا ذريته هم الباقين) فحسب حيث اهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقد روى انه مات كل من كان معه فى السفينة غير ابنائه وازواجهم او هم الذين بقوا متناسلين الى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام وكان له ثلاثة اولاد سام وحام ويافث فسام ابو العرب وفارس والروم وحام ابو السودان من المشرق الى المغرب ويافث ابو الترك ويأجوج ومأجوج (وتركنا عليه فى الآخرين) من الامم (سلام على نوح) اى هذا الكلام بعينه وهو وارد على الحكاية كقولك قرأت

سورة الزلناهاوالمعنى يسلمون عليه تسليماويدعون له على الدوام امة بعدامة وقيل ثمه قول مقدر اى فقلنا وقيل ضمن تركنامعنى

الاعباداللهالمخلصين فيه قولان (أحدهما) انه استثناء من قوله ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين (والثانى) انه استثناء من قوله كيف كان عاقبة المنذرين فانها كانت اقبح العواقب وافظعها الاعاقبة عباد الله المخلصين فانها كانت مقرونة بالخير والراحة * قوله تعالى (ولقدنادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه واهله من الكرب العظيم وجعلناذريته هم الباقين وتركناعليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين ثم اغرقنا الآخرين) اعلم انه تعالى لماقال من قبل ولقدضل قبلهم اكثر الاولين وقال فانظر كيف كان عاقبة المنذرين اتبعه بشرح وقائع الانبياء عليهم السلام (فالقصة الاولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله ولقدنادانانوح فلنعم المجيبون فيه مباحث (الاول) ان اللام فى قوله فلنعم المجيبون جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف اى فلنعم المجيبون نحن (البحث الثانى) انه تعالى ذكر ان نوحا نادى ولم يذكر ان ذلك النداء فى اى الوقائع كان لاجرم حصل فيه قولان (الاول) وهو المشهور عند الجمهور انه نادى الرب تعالى فى ان ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) ان نوحا عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه الى الدين الحق بالغوا فى ايذائه وقصدوا قتله ثم انه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وايذائه واحتج هذا القائل على ضعف القول الاول بأنه عليه السلام انما دعا عليهم لاجل ان ينجيه الله تعالى واهله واجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه وذلك يمنع من ان يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة * ثم انه تعالى لما حكى عن نوح انه ناداه قال بعده فلنعم المجيبون وهذه اللفظة تدل على ان تلك الاجابة كانت من النعم العظيمة وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح والقادر العظيم لايليق به الاالاحسان العظيم (والثانى) انه أعاد صيغة الجمع فى قوله فلنعم المجيبون وذلك ايضا يدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف تلك الاجابة بأنها نعمت الاجابة (والثالث) ان الفاء فى قوله فلنعم المجيبون يدل على ان حصول هذه الاجابة مرتب على ذلك النداء والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به وهذا يدل على ان النداء بالاخلاص سبب لحصول الاجابة ثم انه تعالى لما بين انه سبحانه نعم المجيب على سبيل الاجمال بين ان الانعام حصل فى تلك الاجابة من وجوه (الاول) قوله تعالى ونجيناه واهله من الكرب العظيم وهو على القول الاول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله وجعلنا ذريته هم الباقين يفيد الحصر وذلك يدل على ان كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث فسام ابو العرب وفارس والروم وحام ابو السودان ويافث ابو الترك (النعمة الثالثة) قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين يعنى يذكرون هذه الكلمة فان

قلنا وقوله تعالى (فى العالمين) متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها ابدا فى العالمين من الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لمافعل به عليه الصلاة والسلام من التكرمة السنية من اجابة دعائه احسن اجابة وابقاء ذريته وتبقية ذكره الجميل وتسليم العالمين عليه الى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالاحسان لراسخين فيه وان ذلك من قبيل مجازاة الاحسان بالاحسان وذلك اشارة الى ماذكر من الكرامات السنية التى وقعت جزاء له عليه الصلاة والسلام ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها اى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الكاملين فى الاحسان لاجزاء ادنى منه وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لكونه من المحسنين بخلوص عبوديته وكمال ايمانه وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما مالايخفى (ثم اغرقنا الآخرين) اى المغايرين لنوح واهله وهم كفار قومه اجمعين (وان من شيعته) اى ممن شايعه فى اصول الدين (لابراهيم) وان اختلفت فروع شرائعهما ويجوز ان يكون بين شريعتيهما اتفاق كلى او اكثرى وعن ابن عباس رضى الله عنهما من اهل دينه وعلى سنته اوممن شايعه على التصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين وما كان بينهما الانبيان هود وصالح عليهم السلام وكان بين نوح وابراهيم الفان وستمائة واربعون سنة (اذجاء ربه) منصوب باذكر اومتعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة (بقلب (قيل)

قيل فما معنى قوله فى العالمين قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا اى لايخلو احد منهم منها كانه قيل اثبت الله التسليم على نوح وادامه فى الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ثم انه تعالى لما شرح تفاصيل انعامه عليه قال انا كذلك نجزى المحسنين والمعنى انا انما خصصنا نوحا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن فى السنة جميع العالمين لاجل انه كان محسنا ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدالله مؤمنا والمقصود منه بيان ان اعظم الدرجات واشرف المقامات الايمان بالله والانقياد لطاعته (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام ❊ قوله تعالى (وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فقال الا تأكلون مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فاقبلوا اليه يزفون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله من شيعته الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) وهو الاظهر انه عائد الى نوح عليه السلام اى من شيعة نوح اى من اهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لابراهيم قالوا وما كان بين نوح وابراهيم الانبياء هود وصالح وروى صاحب الكشاف انه كان بين نوح وابراهيم الفان وستمائة واربعون سنة (الثانى) قال الكلبى المراد من شيعة محمد لابراهيم بمعنى انه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وان كان سابقا له والاول اظهر لانه تقدم ذكر نوح عليه السلام ولم يتقدم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فعود الضمير الى نوح اولى (المسئلة الثانية) العامل فى اذ ما دل عليه قوله وان من شيعته من معنى المشايعة يعنى وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لابراهيم اما قوله اذ جاء ربه بقلب سليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله بقلب سليم قولان (الاول) قال مقاتل والكلبى يعنى خالص من الشرك والمعنى انه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثانى) قال الاصوليون المراد انه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصى فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد عن ابن عباس انه كان يحب للناس ما يحب لنفسه وسلم جميع الناس من غشه وظلمه واسلمه الله تعالى فلم يعدل به احدا واحتج الذاهبون الى القول الاول بانه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة انكاره على قومه الشرك بالله وهو قوله اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون واحتج الذاهبون الى القول الثانى بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ويتأكد هذا بقوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين مع انه تعالى قال الله اعلم حيث يجعل رسالاته وقال وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فان قيل ما معنى المجئ بقلبه ربه قلنا معناه انه اخلص لله قلبه فكأنه اتحف حضرة الله بذلك القلب ورأيت فى التوراة ان الله قال لموسى اجب الهك بكل قلبك واعلم انه تعالى لما ذكر ان ابراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر ان من جملة آثار تلك السلامة ان دعا

سليم) اى من آفات القلوب او من العلائق الشاغلة من التبتل الى الله عزوجل ومعنى المجئ بربه اخلاصه له كأنه جاء به متحفا اياه بطريق التمثيل (اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون) بدل من الاولى او ظرف لجاء اولسليم اى اى شئ تعبدونه (أئفكا آلهة دون الله تريدون) اى أتريدون آلهة من دون الله افكا اى للافك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لان الاهم مكافحتهم بأنهم على افك وباطل فى شركهم ويجوز ان يكون افكا مفعولا به بمعنى أتريدون افكا ثم يفسر الافك بقوله آلهة من دون الله دلالة على انها افك فى نفسها للمبالغة او يراد بها عبادتها بحذف المضاف ويجوز ان يكون حالا بمعنى آفكين (فما ظنكم برب العالمين) اى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة واشركتم به اخس مخلوقاته اوفما ظنكم به اى شئ هو من الاشياء حتى جعلتم الاصنام له اندادا اوفما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم من الاشراك به (فنظر نظرة فى النجوم) قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فاذا هى قد حضرت (فقال انى سقيم) وكان صادقا فى ذلك فجعله عذرا فى تخلفه عن عيدهم وقيل اراد انى سقيم القلب لكفركم وقيل نظر فى علمها اوفى كتبها اوفى احكامها ولامنع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام ايهامهم حين ارادوا ان يخرجوا به عليه الصلاة والسلام الى معيدهم ليتركوه فان القوم كانوا نجامين فأوهمهم انه قد استدل بأمارة

اباه وقومه الى التوحيد فقال اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها ثم قال أئفكا آلهة دون الله تريدون قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه افكا وانما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لانه كان الاهم عنده ان يقرر عندهم بانهم على افك وباطل فى شركهم ويجوز ان يكون افكا مفعولا به يعنى اتريدون افكا ثم فسر الافك بقوله آلهة دون الله على انها افك فى انفسها ويجوز ان يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين * ثم قال فما ظنكم برب العالمين وفيه وجهان (احدهما) اتظنون برب العالمين انه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) اتظنون برب العالمين انه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على انه ليس كمثله شئ ثم قال فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم عن ابن عباس انهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم وذلك انه اراد ان يكايدهم فى اصنامهم ليلزمهم الحجة فى انها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون اليه فأراد ان يتخلف عنهم ليبقى خاليا فى بيت الاصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الاول) ان النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف اقدم عليه ابراهيم (والثانى) انه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال انى سقيم كان ذلك كذبا واعلم ان العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوها كثيرة (الاول) انه نظر نظرة فى النجوم فى اوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال انى سقيم فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت وانما تخلف لاجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى) فى الجواب ان قوم ابراهيم عليه السلام كانوا اصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الامور فلذلك نظر ابراهيم فى النجوم اى فى علوم النجوم وفى معانيه لا لانه نظر بعينه اليها وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وانما اراد ان يوهمهم انه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى اذا قال انى سقيم سكنوا الى قوله واما قوله انى سقيم فمعناه سأسقم كقوله انك ميت اى ستموت (الوجه الثالث) ان قوله فنظر نظرة فى النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الى آخر الآيات وكان ذلك النظر لاجل ان يتعرف احوال هذه الكواكب هل هى قديمة او محدثة وقوله انى سقيم يعنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم ولاجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال انى سقيم اى هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) ان قوله انى سقيم اى مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك (الوجه السادس) فى الجواب انا لا نسلم ان النظر فى

فى علم النجوم على انه سقيم اى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان اغلب الاسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه الى معبدهم وتركوه فى بيت الاصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) اى هاربين مخافة العدوى (فراغ الى آلهتهم) اى ذهب اليها فى خفية واصله الميل بحيلة (فقال) للاصنام استهزاء (ألا تأكلون) اى من الطعام الذى كانوا يضعونه عندها لتبرك عليه (مالكم لا تنطقون) اى بجوابى (فراغ عليهم) مال مستعليا عليهم وقوله تعالى (ضربا باليمين) مصدر مؤكد لراغ عليهم فانه بمعنى ضربهم او لفعل مضمر هو حال من فاعله اى فراغ عليهم يضربهم ضربا او هو الحال منه على انه مصدر بمعنى الفاعل اى فراغ عليهم ضاربا باليمين اى ضربا شديدا قويا وذلك لان اليمين اقوى الجارحتين واشدهما وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمتانة كما فى قوله

اذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

اى بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين لانه يقوى الكلام ويؤكده وقيل بسبب الحلف وهو قوله تعالى وتالله لأكيدن اصنامكم (فأقبلوا اليه) اى المأمورون باحضاره عليه الصلاة والسلام بعد ما رجعوا من عيدهم الى بيت الاصنام فوجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل فظنوا انه عليه الصلاة والسلام فعله فقيل فأتوا به (يزفون) حال من واو اقبلوا اى يسرعون من زفيف النعام وقرئ يزفون من ازف اذا دخل فى الزفيف او من ازفه اى حمله على الزفيف اى يزف بعضهم بعضا ويزفون

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام لان من اعتقد ان الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لاجلها يظهر منه اثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل واما الكذب فغير لازم لانه ذكر قوله انى سقيم على سبيل التعريض بمعنى ان الانسان لا ينفك فى اكثر احواله عن حصول حالة مكروهة اما فى بدنه واما فى قلبه وكل ذلك سقم (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغى ان يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى وبين نسبته الى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة ان نسبته الى الراوى اولى ثم نقول لم لا يجوز ان يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب (الوجه الثامن) ان المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم اى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات اقوالهم فان الاشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة اى متفرقة ومنه نجوم الكتابة والمعنى انه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذرا احسن من قوله انى سقيم والمراد انه لا بد من ان اصير سقيما كما تقول لمن رأيته على اوقات السفر انك مسافر واعلم ان ابراهيم عليه السلام لما قال انى سقيم تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى ان لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده فراغ الى آلهتهم يقال راغ اليه اذا مال اليه فى السر على سبيل الخفية ومنه روغان الثعلب وقوله ألا تأكلون يعنى الطعام الذى كان بين ايديهم وانما قال ذلك استهزاء بها وكذا قوله ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا فأقبل عليهم مستخفيا كأنه قال فضربهم ضربا لان راغ عليهم فى معنى ضربهم او فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا * وفى قوله باليمين قولان (الاول) معناه بالقوة والشدة لان اليمين اقوى الجارحتين (والثانى) انه اتى بذلك الفعل بسبب الحلف وهو قوله تعالى عنه وتالله لأكيدن اصنامكم ثم قال فأقبلوا اليه يزفون قرأ حمزة يزفون بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ومن قرأ بالضم فهو من ازف يزف قال الزجاج يزفون يسرعون واصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها وقرأ حمزة يزفون اى يحملون غيرهم على الزفيف قال الاصمعى يقال ازففت الابل اذا حملتها على ان تزف قال وهو سرعة الخطو ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الاسراع فى المشى فان قيل مقتضى هذه الآية ان ابراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا اليه واخذوه وقال فى سورة اخرى فى عين هذه القصة قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا يقتضى انهم فى اول الامر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض قلنا لا يبعد ان يقال ان جماعة عرفوه فعدوا اليه مسرعين والاكثرون ما عرفوه فتعرفوا ان ذلك

على البناء للمفعول اى يحملون على الزفيف ويزفون من وزف يزف اذا اسرع ويزفون من زفاه اذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم اليه عليه الصلاة والسلام (قال) اى بعد ما اتوا به عليه الصلاة والسلام وجرى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم من المحاورات ما نطق به قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم الى قوله تعالى لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (اتعبدون ما تنحتون) ما تنحتونه من الاصنام وقوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) حال من فاعل تعبدون مؤكدة للانكار والتوبيخ اى والحال انه تعالى خلقكم وخلق ما تعملونه فان جواهر اصنامهم ومادتها بخلقه تعالى وشكلها وان كان بفعلهم لكنه باقداره تعالى اياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعى والعدد والاسباب وما تعملون اما عبارة عن الاصنام فوضعه موضع ضمير ما تنحتون للايذان بأن مخلوقيتها لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر اعمالهم ايضا من التصوير والتحلية والتزيين ونحوها واما على عمومه فينتظم الاصنام انتظاما اوليا مع ما فيه من تحقيق الحق ببيان ان جميع ما يعملونه كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ما مصدرية اى عملكم على انه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فان فعلهم اذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم اولى بذلك (قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم) اى فى النار الشديدة الاتقاد من الجحمة

الكاسر من هو والله اعلم ۞ قوله تعالى (قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان القوم لما عابوا ابراهيم على كسر الاصنام فهو ايضا ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير الى عبادتها فقال اتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون ووجه الاستدلال ظاهر وهو ان الخشب والحجر قبل النحت والاصلاح ما كان معبودا للانسان البتة فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه الا آثار تصرفه فلو صار معبودا عند ذلك لكان معناه ان الشئ الذى ما كان معبودا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودا عند ذلك وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل (المسئلة الثانية) احتج جمهور الاصحاب بقوله والله خلقكم وما تعملون على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فقالوا النحويون اتفقوا على ان لفظ ما مع ما بعده فى تقدير المصدر فقوله وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الاول) انه تعالى قال اتعبدون ماتنحتون اضاف العبادة والنحت اليهم اضافة الفعل الى الفاعل ولو كان ذلك واقعا بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثانى) انه تعالى انما ذكر هذه الآية توبيخا لهم على عبادة الاصنام لانه تعالى بين انه خالقهم وخالق لتلك الاصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لاجرم انه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال اتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون ولو لم يكونوا فاعلين لافعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا ان هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم انها حجة لكم قوله لفظة ما مع ما بعدها فى تقدير المصدر قلنا هذا ممنوع وبيانه ان سيبويه والاخفش اختلفا فى انه هل يجوز ان يقال اعجبنى ماقمت اى قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الاخفش وزعم ان هذا لا يجوز الا فى الفعل المتعدى وذلك يدل على ان ما مع ما بعدها فى تقدير المفعول عند الاخفش سلمنا ان ذلك قد يكون بمعنى المصدر لكنه ايضا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله اتعبدون ماتنحتون والمراد بقوله ماتنحتون المنحوت لا النحت لانهم ما عبدوا النحت وانما عبدوا المنحوت فوجب ان يكون المراد بقوله ماتعملون المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (الثانى) انه تعالى قال فاذا هى تلقف ما يأفكون وليس المراد انها تلقف نفس الافك بل اراد العصى والحبال التى هى متعلقات ذلك الافك فكذا ههنا (الثالث) ان العرب تسمى محل العمل عملا يقال فى الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة ان لفظة ما مع ما بعدها كما تجئ بمعنى المصدر فقد تجئ ايضا بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول اولى لان المقصود فى هذه الآية تزييف مذهبهم فى

وهى شدة التأجج واللام عوض من المضاف اليه اى جحيم ذلك البنيان (١٥٢) وقد ذكر كيفية بنائهم له فى سورة الانبياء (فارادوا به كيدا) فانه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة والقمهم الحجر قصدوا ما قصدوا لئلا يظهر للعامة عجزهم (فجعلناهم الاسفلين) الاذلين بابطال كيدهم وجعله برهانا نيرا على علو شأنه عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه بردا وسلاما (وقال انى ذاهب الى ربى) اى مهاجر الى حيث امرنى ربى كما قال انى مهاجر الى ربى وهو الشام او الى حيث انجرد فيه لعبادته تعالى (سيهدين) اى الى ما فيه صلاح دينى او الى مقصدى وبت القول بذلك لسبق الوعد او لفرط توكله او للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل ولذلك اتى بصيغة التوقع (رب هب لى من الصالحين) اى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة يعنى الولد لان لفظ الهبة على الاطلاق خاص به وان كان قد ورد مقيدا بالاخوة فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا اخاه هرون نبيا ولقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فانه صريح فى ان المبشر به عين ما استوهبه عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة انه غلام وانه يبلغ أوان الحلم وانه يكون حليما واى حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه ابوه الذبح فقال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقيل ما نعت الله الانبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه فانه تعالى نعتهما به وحالهما الحكية بعد اعدل بينة بذلك والفاء فى قوله تعالى

(عبادة)

عبادة الاصنام لابيان انهم لايوجدون افعال أنفسهم لان الذى جرى ذكره فى اول الآية الى هذا الموضع هو مسألة عبادة الاصنام لاخلق الاعمال واعلم ان هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثرة فالاولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله اعلم واعلم ان ابراهيم عليه السلام لما اورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا الى طريق الايذاء فقالوا ابنوا له بنيانا واعلم ان كيفية ذلك البناء لايدل عليها لفظ القرآن قال ابن عباس بنوا حائطا من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى فألقوه فى الجحيم وهى النار العظيمة قال الزجاج كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم والالف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه اى فى جحيم ذلك البنيان ثم قال تعالى فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين والمعنى ان فى وقت المحاجة حصلت الغلبة له وعندما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار فصار هو الغالب عليهم واعلم انه لما انقضت هذه الواقعة قال ابراهيم انى ذاهب الى ربى سيهدين ونظير هذه الآية قوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت هذه الآية على ان الموضع الذى تكثر فيه الاعداء تجب مهاجرته وذلك لان ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه مع ان الله سبحانه خصه بأعظم انواع النصرة لما احس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار فلان يجب ذلك على الغير كان اولى (المسئلة الثانية) فى قوله انى ذاهب الى ربى قولان (الاول) المراد منه مفارقة تلك الديار والمعنى انى ذاهب الى مواضع دين ربى (والقول الثانى) قال الكلبى ذاهب بعبادتى الى ربى فعلى القول الاول المراد بالذهاب الى الرب هو الهجرة من الديار وبه اقتدى موسى حيث قال كلا ان معى ربى سيهدين وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب وهو ان لايأتى بشئ من الاعمال الا لله تعالى كما قال وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض قيل ان القول الاول اولى لان المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته الى ارض الشام وايضا يبعد حمله على الهداية فى الدين لانه كان على الدين فى ذلك الوقت الا ان يحمل ذلك على الثبات عليه أو يحمل ذلك على الاهتداء الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى امر الدين (المسئلة الثالثة) قوله سيهدين يدل على ان الهداية لاتحصل الا من الله تعالى كما يقول اصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الادلة وازاحة الاعذار لان كل ذلك قد حصل فى الزمان الماضى وقوله سيهدين يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل فوجب حمل الهداية فى هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة فى قلبه فان قيل ان ابراهيم عليه السلام جزم فى هذه الآية بأنه تعالى سيهديه وان موسى عليه السلام لم يجزم به بل قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل فما الفرق قلنا العبد اذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود واذا تجلى له مقامات كونه غنيا عن العالمين فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم بل لايظهر الا الرجاء والطمع (المسئلة الرابعة) قوله تعالى انى ذاهب الى ربى يدل على فساد تمسك

(فلما بلغ معه السعى) فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وايذانا بعدم الحاجة الى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة كما مر فى قوله تعالى فلما رأينه اكبرنه وفى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده اى فوهبناه له فنشأ فلما بلغ رتبة ان يسعى معه فى اشغاله وحوائجه ومعه متعلق بمحذوف ينبئ عنه السعى لابنفسه لان صلة المصدر لاتتقدمه ولابيلغ لان بلوغهما لم يكن معا كأنه لما ذكر السعى قيل مع من فقيل معه وتخصيصه لان الاب اكمل فى الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه قبل أو انه اولانه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة (قال) اى ابراهيم عليه السلام (يابنى انى ارى فى المنام انى اذبحك) اى ارى هذه الصورة بعينها اوماهذه عبارته وتأويله وقيل انه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما اصبح روى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم ام من الشيطان فن ثمه سمى يوم التروية فلما امسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله تعالى فن ثمه سمى يوم عرفة ثم

المشبهة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب لان كلمة الى موجودة فى قوله انى ذاهب الى ربى مع انه لم يلزم ان يكون الاله موجودا فى ذلك المكان فكذلك ههنا واعلم انه صلوات الله عليه لما هاجر الى الارض المقدسة اراد الولد فقال هب لى من الصالحين اى هب لى بعض الصالحين يريد الولد لان لفظ الهبة غلب فى الولد وان كان قد جاء فى الاخ فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا وقال تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى وقال على بن ابى طالب لابن عباس رضى الله عنهم حين هيأه بولده على ابى الاملاك شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب واعلم ان هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة اشياء على ان الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حليما واى حلم يكون اعظم من ولد حين عرض عليه ابوه الذبح قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وايضا فان ابراهيم عليه السلام كان موصوفا بالحلم قال تعالى ان ابراهيم لاواه حليم ان ابراهيم لحليم أواه منيب فبين ان ولده موصوف بالحلم وانه قائم مقامه فى صفات الشرف والفضيلة واعلم ان الصلاح افضل الصفات بدليل ان الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين وطلبه للولد فقال هب لى من الصالحين وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته فى الدين والدنيا فقال وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وذلك يدل على ان الصلاح أشرف مقامات العباد ۞ قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه ان ياابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) اعلم انه سبحانه وتعالى لما قال فبشرناه بغلام حليم أتبعه بما يدل على حصول مابشر به وبلوغه فقال فلما بلغ معه السعى ومعناه فلما ادرك وبلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى وقوله معه فى موضع الحال والتقدير كائنا معه والفائدة فى اعتبار هذا المعنى ان الاب ارفق الناس بالولد وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله لانه لم تستحكم قوته قال بعضهم كان فى ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة والمقصود من هذا الكلام ان الله تعالى لما وعده فى الآية الاولى بكون ذلك الغلام حليما بين فى هذه الآية ما يدل على كمال حلمه وذلك لانه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ماقواه على احتمال تلك البلية العظيمة والاتيان بذلك الجواب الحسن اما قوله انى أرى فى المنام انى اذبحك ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذه اللفظة وجهان (الاول) قال السدى كان ابراهيم حين بشر باسحق قبل ان يولد له قال هو اذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذرا فف بنذرك فلما اصبح قال يابنى انى أرى فى

رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر وقيل ان الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال اذن هو ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له اوف بنذرك • والاظهر الاشهر ان المخاطب اسمعيل عليه السلام اذ هو الذى وهب اثر المهاجرة ولان البشارة باسحق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام ولقوله عليه الصلاة والسلام انا ابن الذبيحين فأحدهما جده اسمعيل عليه السلام والآخر ابوه عبد الله فان عبد المطلب نذر ان يذبح ولدا ان سهل الله تعالى له حفر بئر زمزم او بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الابل ولذلك سنت الدية مائة ولان ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا فى ايام ابن الزبير ولم يكن اسحق ثمه ولان بشارة اسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب فلا يناسبه الامر بذبحه مراهقا وماروى انه عليه الصلاة والسلام سئل اى النسب اشرف فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فالصحيح انه عليه الصلاة

المنام انى اذبحك وروى من طريق آخر انه رأى ليلة التروية فى منامه كأن قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم ام من الشيطان فمن ثم سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر فهذا هو قول اهل التفسير وهو يدل على انه رأى فى المنام مايوجب ان يذبح ابنه فى اليقظة وعلى هذا فتقدير اللفظ انى ارى فى المنام مايوجب ان اذبحك (والقول الثانى) انه رأى فى المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء عليهم السلام من باب الوحى وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس الا انه يذبح فان قيل اما ان يقال انه ثبت بالدليل عند الانبياء عليهم السلام ان كل مارآه فى المنام فهو حق وحجة اولم يثبت ذلك بالدليل عندهم فان كان الاول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة بل كان من الواجب عليه ان يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وان لا يراجع الولد فيه وان لا يقول له فانظر ماذا ترى وان لا يوقف العمل على ان يقول له الولد افعل ماتؤمر وايضا فقد قلتم انه بقى فى اليوم الاول متفكرا ولو ثبت عنده بالدليل ان كل مارآه فى النوم فهو حق لم يكن الى هذا التروى والتفكر حاجة وان كان الثانى وهو انه لم يثبت بالدليل عندهم ان مايرونه فى المنام حق فكيف يجوز له ان يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة (والجواب) لايبعد ان يقال انه كان عند الرؤيا مترددا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحى الصريح والله اعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان هذا الذبيح من هو فقيل انه اسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الاحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل رضى الله عنهم وقيل انه اسمعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى واحتج القائلون بأنه اسمعيل بوجوه (الاول) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا ابن الذبيحين وقال له أعرابى يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له امرها ليذبحن احد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه اخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الابل ففداه بمائة من الابل والذبيح الثانى اسمعيل (الحجة الثانية) عن الاصمعى انه قال سألت اباعمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا اصمعى اين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع ابيه والمنحر بمكة (الحجة الثالثة) ان الله تعالى وصف اسمعيل بالصبر دون اسحق فى قوله واسمعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين وهو صبره على الذبح ووصفه ايضا بصدق الوعد فى قوله انه كان صادق الوعد لانه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به (الحجة الرابعة) قوله تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فنقول لو كان الذبيح اسحق لكان الامر بذبحه اما ان يقع قبل ظهور يعقوب منه او بعد ذلك (فالاول) باطل لانه تعالى لما بشرها باسحق وبشرها

والسلام قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوى وماروى من ان يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقرئ انى بفتح الياء فيهما (فانظر ماذا ترى) من الرأى وانما شاوره فيه وهو امر محتوم ليعلم ماعنده فيما نزل من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه ان جزع ويأمن عليه ان سلم وليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله وقرئ ماذا ترى بضم التاء وكسر الراء وبفتحها مبنيا للمفعول (قال يا أبت افعل ماتؤمر) اى تؤمر به فحذف الجار اولا على القاعدة المطردة ثم حذف العائد الى الموصول بعد انقلابه منصوبا بايصاله الى الفعل او حذفا دفعة او افعل أمرك على اضافة المصدر الى المفعول وتسمية المأمور به أمرا وقرئ ماتؤمر به وصيغة المضارع للدلالة على ان الامر متعلق به متوجه اليه مستمر الى حين الامتثال به (ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) على الذبح او على قضاء الله تعالى (فلما اسلما) اى استسلما لامر الله تعالى وانقادا وخضعا له يقال سلم لامر الله واسلم

معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الامر بذبحه والا لحصل الخلف
فى قوله ومن وراء اسحق يعقوب (والثانى) باطل لان قوله فلما بلغ معه السعى قال يابنى
انى ارى فى المنام انى اذبحك يدل على ان ذلك الابن لما قدر على السعى ووصل الى حد
القدرة على الفعل امر الله تعالى ابراهيم بذبحه وذلك فى وقوع هذه القصة فى زمان
آخر فثبت انه لا يجوز ان يكون الذبيح هو اسحق (الحجة الخامسة) حكى الله تعالى عنه انه
قال انى ذاهب الى ربى سيهدين ثم طلب من الله تعالى ولدا يستأنس به فى غربته فقال رب
هب لى من الصالحين وهذا السؤال انما يحسن قبل ان يحصل له الولد لانه لو حصل له
ولد واحد لما طلب الولد الواحد لان طلب الحاصل محال وقوله هب لى من الصالحين
لا يفيد الا طلب الولد الواحد وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكان
قوله من الصالحين لا يفيد الا طلب الولد الواحد فثبت ان هذا السؤال لا يحسن الا عند عدم
كل الاولاد فثبت ان هذا السؤال وقع حال طلب الولد الاول واجمع الناس على ان اسمعيل
متقدم فى الوجود على اسحق فثبت ان المطلوب بهذا الدعاء هو اسمعيل ثم ان الله تعالى ذكر
عقيبه قصة الذبيح فوجب ان يكون الذبيح هو اسمعيل (الحجة السادسة) الاخبار الكثيرة
فى تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح اسحق لكان الذبح
بالشام واحتج من قال ان ذلك الذبيح هو اسحق بوجهين (الوجه الاول) ان اول الآية
وآخرها يدل على ذلك اما اولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية انه
قال انى ذاهب الى ربى سيهدين اجمعوا على ان المراد منه مهاجرته الى الشام ثم قال
فبشرناه بغلام حليم فوجب ان يكون هذا الغلام ليس الا اسحق ثم قال بعده فلما بلغ معه
السعى وذلك يقتضى ان يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام
الذى حصل فى الشام فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على ان الذبيح هو اسحق واما آخر
الآية فهو ايضا يدل على ذلك لانه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده وبشرناه باسحق نبيا
من الصالحين ومعناه انه بشره بكونه نبيا من الصالحين وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك
القصة يدل على انه تعالى انما بشره بهذه النبوة لاجل انه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح
فثبت بما ذكرنا ان اول الآية وآخرها يدل على ان الذبيح هو اسحق عليه السلام (الحجة
الثانية) على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب الى يوسف عليه السلام من يعقوب اسرائيل
نبى الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام فى هذا الباب وكان
الزجاج يقول الله اعلم ايهما الذبيح والله اعلم واعلم انه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم فى
موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو اسمعيل قالوا كان الذبح بمنى والذين قالوا انه
اسحق قالوا هو بالشام وقيل بيت المقدس والله اعلم (المسئلة الثالثة) اختلف الناس فى
ان ابراهيم عليه السلام كان مأمورا بهذا بما رأى وهذا الاختلاف مفرع على مسئلة
من مسائل اصول الفقه وهى انه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال
اكثر أصحابنا انه يجوز وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية انه لا يجوز

واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن
جميعا وأصلها من قولك سلم هذا
لفلان اذا خلص له ومعناه سلم من
ان ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله
وأسلم له منقولان منه ومعناهما
اخلص نفسه لله وجعلها سالمة
له وكذلك معنى استسلم استخلص
نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله
عنه فى اسلما أسلم ابراهيم ابنه
واسمعيل نفسه (وتله للجبين)
صرعه على شقه فوقع جبينه على
الارض وهو احد جانبى الجبهة
وقيل كبه على وجهه باشارته كيلا
يرى منه ما يورث رقة تحول بينه
وبين أمر الله تعالى وكان ذلك
عند الصخرة من منى وقيل فى
الموضع المشرف على مسجد منى
وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم
فيه (وناديناه ان يا ابراهيم قد
صدقت الرؤيا) بالعزم على الاتيان
بالمأمور به وترتيب مقدماته
وروى انه امر السكين بقوته على
حلقه مرارا فلم يقطع ثم وضع
السكين على قفاه فانقلب السكين
فعند ذلك وقع النداء وجواب لما
محذوف ايذانا بعدم وفاء التعبير
بتفاصيله كأنه قيل كان ما كان
مما لا يحيط به نطاق البيان

(فعلى)

فعلى القول الاول انه سبحانه وتعالى امره بالذبح ثم انه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته وعلى القول الثانى انه تعالى ما امره بالذبح وانما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسئلة شريفة من مسائل باب النسخ واحتج اصحابنا على انه يجوز نسخ الامر قبل مجئ مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم انه تعالى نسخه عنه قبل اقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب انما قلنا انه تعالى امره بذبح الولد لوجهين (الاول) انه عليه السلام قال لولده انى ارى فى المنام انى اذبحك فقال الولد افعل ماتؤمر وهذا يدل على انه عليه السلام كان مأمورا بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ثم انه اتى بمقدمات الذبح وادخلها فى الوجود فحينئذ يكون قدامر بشئ وقداتى به وفى هذا الموضع لا يحتاج الى الفداء لكنه احتاج الى الفداء بدليل قوله تعالى وفديناه بذبح عظيم فدل هذا على انه اتى بالمأمور به وقد ثبت انه اتى بكل مقدمات الذبح وهذا يدل على انه تعالى كان قد امره بنفس الذبح واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل اتيانه وذلك يدل على المقصود وقالت المعتزلة لا نسلم ان الله امره بذبح الولد بل نقول انه تعالى امره بمقدمات الذبح ويدل عليه وجوه (الاول) انه ما اتى بالذبح وانما اتى بمقدمات الذبح ثم ان الله تعالى اخبر عنه بأنه اتى بما امر به بدليل قوله تعالى ونادیناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وذلك يدل على انه تعالى انما امره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن اضجاعه ووضع السكين على حلقه والعزم الصحيح على الاتيان بذلك الفعل ان ورد الامر (الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل ابراهيم عليه السلام قطع الحلقوم الا انه كلما قطع جزأ اعاد الله التأليف اليه فلهذا السبب لم يحصل الموت (الوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم انه تعالى لو امر شخصا معينا بايقاع فعل معين فى وقت معين فهذا يدل على ان ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن فاذا نهاه عنه فذلك النهى يدل على ان ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الامر لزم احد امرين لانه تعالى ان كان عالما بحال ذلك الفعل لزم ان يقال انه امر بالقبيح او نهى عن الحسن وان لم يكن عالما به لزم جهل الله تعالى وانه محال فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب عن الاول) انا قد دللنا على انه تعالى انما امره بالذبح اما قوله تعالى قد صدقت الرؤيا فهذا يدل على انه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على انه اتى بكل ما رآه فى ذلك المنام واما قوله ثانيا كلما قطع ابراهيم عليه السلام جزأ اعاد الله تعالى التأليف اليه فنقول هذا باطل لان ابراهيم عليه السلام لو اتى بكل ما امر به لما احتاج الى الفداء وحيث احتاج اليه علمنا انه لم يأت بما امر به واما قوله ثالثا انه يلزم اما الامر بالقبيح واما الجهل فنقول هذا بناء على ان الله تعالى لا يأمر الا بما يكون حسنا فى ذاته ولا ينهى الا عما يكون قبيحا فى ذاته وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل وايضا فهب انا نسلم ذلك الا انا نقول لم لا يجوز ان يقال ان الامر بالشئ

من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما انعم به عليهما من رفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق احد لمثله واظهار فضلهما بذلك على العالمين مع احرازا الثواب العظيم الى غير ذلك (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكربة باحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فانه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله تعالى افعل ماتؤمر ولم يحصل (ان هذا لهو البلاء المبين) الابتلاء البين الذى يتميز فيه المخلص عن غيره او المحنة البينة الصعوبة اذ لا شئ اصعب منها (وفديناه بذبح) بما يذبح بدله فيتم به الفعل (عظيم) اى عظيم الجثة سمين او عظيم القدر لانه يفدى به الله نبيا ابن نبى واى نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشا من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به اسمعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل اهبط عليه من ثبير وروى انه هرب من ابراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى اخذه فبقى سنة فى الرمى وروى انه رمى الشيطان

تارة يحسن لكون المأمور به حسنا وتارة لاجل ان ذلك الامر يفيد صحة مصلحة من المصالح وان لم يكن المأمور به حسنا الاترى ان السيد اذا اراد ان يروض عبده فانه يقول له اذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانى ويكون ذلك الفعل من الافعال الشاقة ويكون مقصود السيد من ذلك الامر ليس ان يأتى ذلك العبد بذلك الفعل بل ان يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة ثم ان السيد اذا علم منه انه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل عنه ذلك التكليف فكذا ههنا فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم (المسئلة الرابعة) احتج اصحابنا بهذه الآية على ان الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه والدليل عليه انه امر بالذبح وما اراد وقوعه اما انه امر بالذبح فلما تقدم فى المسئلة الاولى واما انه ما اراد وقوعه فلان عندنا ان كل ما اراد الله وقوعه فانه يقع وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا انه تعالى ما اراد وقوعه واما عند المعتزلة فلان الله تعالى نهى عن ذلك الذبح والنهى عن الشئ يدل على ان الناهى لا يريد وقوعه فثبت انه تعالى امر بالذبح وثبت انه تعالى ما اراده وذلك يدل على ان الامر قد يوجد بدون الارادة وتمام الكلام فى ان الله تعالى امر بالذبح ما تقدم فى المسئلة المتقدمة والله اعلم (المسئلة الخامسة) فى بيان الحكمة فى ورود هذا التكليف فى النوم لا فى اليقظة وبيانه من وجوه (الاول) ان هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد اولا فى النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ثم يتأكد حال النوم باحوال اليقظة فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيأ فشيأ (الثانى) ان الله تعالى جعل رؤيا الانبياء عليهم السلام حقا قال تعالى فى حق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام وقال عن يوسف عليه السلام انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين وقال فى حق ابراهيم عليه السلام انى أرى فى المنام انى اذبحك والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين لان الحال اما حال يقظة واما حال منام فاذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك هو النهاية فى بيان كونهم محقين صادقين فى كل الاحوال والله اعلم ثم نقول مقامات الانبياء عليهم السلام على ثلاثة اقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما فى قوله تعالى فى حق رسولنا صلى الله عليه وسلم لتدخلن المسجد الحرام ثم وقع ذلك الشئ بعينه ومنها ما يقع على الضد كما فى حق ابراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما فى رؤيا يوسف عليه السلام فلهذا السبب اطبق اهل التعبير على ان المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة (المسئلة السادسة) قرأ حمزة والكسائى ترى بضم التاء وكسر الراء اى ماترى من نفسك من الصبر والتسليم وقيل ماتشير والباقون بفتح التاء ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل (المسئلة السابعة) الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب ان يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد

حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروى انه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله اكبر الله اكبر فقال الذبيح لا اله الا الله والله اكبر فقال ابراهيم الله اكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادى فى الحقيقة هو ابراهيم وانما قيل وفديناه لانه تعالى هو المعطى له والآمر به على التجوز فى الفداء او الاسناد (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم) قد سلف بيانه فى خاتمة قصة نوح عليه السلام (كذلك نجزى المحسنين) ذلك اشارة الى ابقاء ذكره الجميل فيما بين الامم لا الى ما اشير اليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بانا للاكتفاء بما مر آنفا (انه من عبادنا المؤمنين) الراسخين فى الايمان على وجه الايقان والاطمئنان (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) اى مقضيا بنبوته مقدرا كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة الى وجود المبشر به وقت البشارة فان وجود ذى الحال ليس بشرط وانما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة الى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود اسحق اى بأن يوجد اسحق

(بلغ)

بلغ فى الحلم الى هذا الحد العظيم وفى الصبر على اشد المكاره الى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا ثم انه تعالى حكى عن ولد ابراهيم عليه السلام انه قال افعل ماتؤمر ومعناه افعل ماتؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله امرتك الخير فافعل ماامرت به ثم قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وانما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن وانه لاحول عن معصية الله الا بعصمة الله ولاقوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى فلما اسلما يقال سلم لامر الله واسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا اذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك سلم هذا لفلان اذا خلص له ومعناه سلم من ان ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله واسلم له منقولان عنه بالهمزة وحقيقة معناها اخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة فى اسلما اسلم هذا ابنه وهذا نفسه ثم قال تعالى وتله للجبين اى صرعه على شقه فوقع احد جبينيه على الارض وللوجه جبينان والجبهة بينهما قال ابن الاعرابى التليل والمتلول المصروع والمتل الذى يتل به اى يصرع فالمعنى انه صرعه على جبينه وقال مقاتل كبه على جبهته وهذا خطأ لان الجبين غير الجبهة * ثم قال تعالى وناديناه ان ياابراهيم قد صدقت الرؤيا وفيه قولان (الاول) ان هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثانى) ان عند البصريين لايجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير فلما فعل ذلك وناداه الله ان ياابراهيم قد صدقت الرؤيا سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب قالوا وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن والفائدة فيه انه اذا كان محذوفا كان اعظم وافخم قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودى من الجبل ياابراهيم قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد لاجرم قال قد صدقت الرؤيا يعنى حصل المقصود من تلك الرؤيا وقوله انا كذلك نجزى المحسنين ابتداء اخبار من الله تعالى وليس يتصل بما تقدم من الكلام والمعنى ان ابراهيم وولده كانا محسنين فى هذه الطاعة فكما جزيناهذين المحسنين فكذلك نجزى كل المحسنين * ثم قال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين اى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم او المحنة البينة الصعوبة التى لامحنة أصعب منها وفديناه بذبح عظيم الذبح مصدر ذبحت والذبح ايضا ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالاول) حكى فى قصة الذبيح ان ابراهيم عليه السلام لما اراد ذبحه قال يابنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى الشعب نحتطب فلما توسطا شعب ثبير اخبره بما أمر به فقال ياأبت اشدد رباطى فى كى لااضطرب واكفف عنى ثيابك لاينتضح عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن واستحد شفرتك وأسرع امرارها على حلقى ليكون أهون فان الموت شديد واقرأ على امى سلامى وان رأيت ان ترد قميصى على امى فافعل فانه عسى ان يكون اسهل

نبيا من الصالحين ومع ذلك لايصير نظير قوله تعالى فادخلوها خالدين فان الداخلين كانوا مقدرين خلودهم وقت الدخول واسحق عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حين مايوجد ومن فسر الغلام باسحق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشانه وايماء الى انه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق (وباركنا عليه) على ابراهيم فى اولاده (وعلى اسحق) بأن اخرجنا من صلبه انبياء بنى اسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام او أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرئ وبركنا (ومن ذريتهما محسن) فى عمله اولنفسه بالايمان والطاعة (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصى (مبين) ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على ان النسب لاتأثير له فى الهداية والضلال وان الظلم فى اعقابهما لايعود اليهما بنقيصة ولاعيب (ولقد مننا على موسى وهرون) اى انعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) وهم بنو اسرائيل (من الكرب العظيم) هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان الغشم والعذاب كما فى قوله تعالى

لها فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون انت يابنى على امر الله ثم اقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبنى على وجهى فانك اذا نظرت وجهى رحمتنى وادركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى ياابراهيم قد صدقت الرؤيا (البحث الثانى) اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل انه الكبش الذى تقرب به هابيل ابن آدم الى الله تعالى فقبله وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به اسمعيل وقال آخرون ارسل الله كبشا من الجنة قد رعى اربعين خريفا وقال السدى نودى ابراهيم فالتفت فاذا هو بكبش املح انحط من الجبل فقام عند ابراهيم فأخذه فذبحه وخلى عن ابنه ثم اعتنق ابنه وقال يابنى اليوم وهبت لى واما قوله عظيم فقيل سمى عظيما لعظمه وسمنه وقال سعيد بن جبير حق له ان يكون عظيما قد رعى فى الجنة اربعين خريفا وقيل سمى عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ثم قال تعالى انه من عبادنا المؤمنين الضمير فى قوله انه عائد الى ابراهيم ثم قال تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله نبيا حال مقدرة اى بشرناه بوجود اسحق مقدرة نبوته ولمن يقول ان الذبيح هو اسمعيل ان يحتج بهذه الآية وذلك لان قوله نبيا حال ولا يجوز ان يكون المعنى فبشرناه باسحق حال كون اسحق نبيا لان البشارة به متقدمة على صيرورته نبيا فوجب ان يكون المعنى وبشرناه باسحق حال ماقدرناه نبيا وحال ماحكمنا عليه فصبر واذا كان الامر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود اسحق حاصلة بعد قصة الذبيح فوجب ان يكون الذبيح غير اسحق اقصى مافى الباب ان يقال لا يبعد ان يقال هذه الآية وان كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبيح الا انها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود الا انا نقول الاصل رعاية الترتيب وعدم التغيير فى النظم والله اعلم بالصواب ثم قال تعالى وباركنا عليه وعلى اسحق وفى تفسير هذه البركة وجهان (الاول) انه تعالى اخرج جميع أنبياء بنى اسرائيل من صلب اسحق (والثانى) انه أبقى الثناء الحسن على ابراهيم واسحق الى قيام القيامة لان البركة عبارة عن الدوام والثبات ثم قال تعالى ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين وفى ذلك تنبيه على انه لا يلزم من كثرة فضائل الاب فضيلة الابن لئلا تصير هذه الشبهة سببا لمفاخرة اليهود ودخل تحت قوله محسن الانبياء والمؤمنون وتحت قوله ظالم الكافر والفاسق والله اعلم ※ قوله تعالى

(ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين انهما من عبادنا المؤمنين) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم ان وجوه الانعام وان كانت كثيرة الا انها محصورة فى نوعين ايصال المنافع اليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا فقوله ولقد مننا على موسى وهرون اشارة الى ايصال

(المنافع)

واذ أنجيناكم من آل فرعون وقيل هو الغرق وهو بعيد لانه لم يكن عليهم كربا ومشقة (ونصرناهم) اى اياهما وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) عليهم غلبة لاغاية وراءها بعد ان كان قومهما فى اسرهم وقسرهم مقهورين تحت ايديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وان كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدئ بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه ومن غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه باظهار ان كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها (وآتيناهما) بعد ذلك (الكتاب المستبين) اى البليغ فى البيان والتفصيل وهو التوراة (وهديناهما) بذلك (الصراط المستقيم) الموصل الى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الاحكام (وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون) اى أبقينا فيما بين الامم الآخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل (انا كذلك) الجزاء الكامل (نجزى المحسنين) الذين هما من جملتهم لاجزاء قاصرا عنه (انهما من عبادنا المؤمنين) سبق بيانه

(وان الياس لمن المرسلين) هو الياس بن ياسين من سبط هرون اخى موسى عليه السلام بعث بعده وقيل ادريس لانه قرئ مكانه ادريس وادراس وقرئ ايليس وقرئ الياس (١٦١) بحذف الهمزة (اذ قال لقومه الا تتقون) اى عذاب الله تعالى (اتدعون بعلا)

المنافع اليهما وقوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم اشارة الى دفع المضار عنهما (اما القسم الاول) وهو ايصال المنافع فلاشك ان المنافع على قسمين منافع الدنيا ومنافع الدين اما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال فى ذات كل واحد منهما واما منافع الدين فالعلم والطاعة وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل فى سائر السور لاجرم اكتفى ههنا بهذا الرمز (واما القسم الثانى) وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم وفيه قولان قيل انه الغرق اغرق الله فرعون وقومه ونجى الله بنى اسرائيل وقيل المراد انه تعالى نجاهم من ايذاء فرعون حيث كان يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم واعلم انه تعالى لما ذكر انه منّ على موسى وهرون فصل اقسام تلك المنة والهاء فى قوله ونصرناهم اى نصرنا موسى وهرون وقومهما وكانوا هم الغالبين فى كل الاحوال بظهور الحجة وفى آخر الامر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى وآتيناهما الكتاب المستبين والمراد منه التوراة وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج اليها فى مصالح الدين والدنيا كما قال انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور (وثالثها) قوله تعالى وهديناهما الصراط المستقيم اى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا وامددناهما بالتوفيق والعصمة وتثبيت الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح (ورابعها) قوله تعالى وتركنا عليهما فى الآخرين وفيه قولان (الاول) ان المراد وتركنا عليهما فى الآخرين وهم امة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم سلام على موسى وهرون (والثانى) ان المراد وتركنا عليهما فى الآخرين وهم امة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك سلام على موسى وهرون هو كلام الله تعالى ولما ذكر تعالى هذه الاقسام الاربعة من ابواب التعظيم والتفضيل قال انا كذلك نجزى المحسنين وقد سبق تفسيره ثم قال تعالى انهما من عبادنا المؤمنين والمقصود التنبيه على ان الفضيلة الحاصلة بسبب الايمان اشرف وأعلى واكمل من كل الفضائل ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين والله اعلم ❁ قوله تعالى (وان الياس لمن المرسلين اذ قال لقومه ألا تتقون اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الاولين فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) اعلم ان هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وان الياس بغير همزة على وصل الالف والباقون بالهمزة وقطع الالف قال أبو بكر بن مهران من ذكر عند الوصل الالف فقد اخطأ وكان اهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه قال الواحدى وله وجهان (احدهما) انه حذف الهمزة من الياس حذفا كما حذفها ابن كثير من قوله انها لاحدى الكبر وكقول الشاعر

اتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لاهل بك من الشام وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله اربعة اوجه فتنوا به وعظموه حتى اخدموه اربعمائة سادن وجعلوهم انبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن اى اتعبدون بعض البعول (وتذرون احسن الخالقين) اى وتتركون عبادته وقد اشير الى المقتضى للانكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) بالنصب على البدلية من احسن الخالقين وقرئ بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد انكار تركهم عبادته تعالى والاشعار ببطلان آراء آبائهم ايضا (فكذبوه فانهم) بسبب تكذيبهم ذلك (لمحضرون) اى العذاب والاطلاق للاكتفاء بالقرائن على ان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا (الا عباد الله المخلصين) استثناء من ضمير محضرون (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين) هو لغة فى الياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع له اريد به هو واتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه ان العلم اذا جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرئ باضافة آل الى ياسين لانهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين ابا الياس (انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) مر تفسيره (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه) اى اذكر وقت تنجيتنا اياه (واهله اجمعين الا عجوزا فى الغابرين)

اى الباقين فى العذاب او الماضين الهالكين (ثم دمرنا الآخرين) (٢١)(را)(سا) فان فى ذلك شواهد على جلية امره وكونه من جملة المرسلين (وانكم) يا اهل مكة (لتمرون عليهم) على منازلهم فى متاجركم الى الشام وتشاهدون آثار هلاكهم فان سدوم فى طريق الشام

(مصبحين) داخلين فى الصباح (وبالليل) اى ومساء اونهارا وليلا ولعلها وقعت بقرب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء (افلا تعقلون) أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا (١٦٢) ان يصيبكم مثل ما اصابهم (وان يونس لمن المرسلين) وقرئ

وبقيها فى هواء الجو طالبة • والآخر انه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله واليسع (المسئلة الثانية) فى الياس قولان يروى عن ابن مسعود انه قرأ وان ادريس وقال ان الياس هو ادريس وهذا قول عكرمة واما اكثر المفسرين فهم متفقون على انه نبى من انبياء بنى اسرائيل وهو الياس بن ياسين من ولد هرون اخى موسى عليهم السلام ثم قال تعالى اذ قال لقومه الا تتقون والتقدير اذكر يا محمد لقومك اذ قال لقومه الا تتقون اى الا تخافون الله وقال الكلبى الا تخافون عبادة غير الله واعلم انه لما خوفهم اولا على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين وفيه ابحاث الاول فى بعل قولان (احدهما) انه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا وله أربعة اوجه وفتنوا به وعظموه حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم انبياء وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم اهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك واعلم ان قولهم بعل اسم لصنم من اصنامهم لا بأس به واما قولهم ان الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة فهذا مشكل لانا ان جوزنا هذا كان ذلك قادحا فى كثير من المعجزات لانه نقل فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ولو جوزنا ان يدخل الشيطان فى جوف جسم ويتكلم فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائما فى الذئب والجمل والجذع وذلك يقدح فى كون هذه الاشياء معجزات (القول الثانى) ان البعل هو الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار اى من ربها وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى قال تعالى وبعولتهن احق بردهن وقال تعالى وهذا بعلى شيخا فعلى هذا التقدير المعنى اتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله (البحث الثانى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقا لافعال نفسه فقالوا لو لم يكن غير الله خالقا لما جاز وصف الله بأنه احسن الخالقين والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى فتبارك الله احسن الخالقين (البحث الثالث) كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل اتدعون بعلا وتدعون احسن الخالقين اوهم انه احسن لانه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين وجوابه ان فصاحة القرآن ليست لاجل رعاية هذه التكاليف بل لاجل قوة المعانى وجزالة الالفاظ واعلم انه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء فقال الله ربكم ورب آبائكم الاولين وفيه مباحث (الاول) انا ذكرنا فى هذا الكتاب ان حدوث الاشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الاضداد والانداد فلا فائدة فى الاعادة (البحث الثانى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم الله ربكم ورب آبائكم كلها بالنصب على البدل من قوله احسن الخالقين والباقون بالرفع على الاستئناف والاول اختيار ابى حاتم وابى عبيد ونقل صاحب الكشاف ان حمزة اذا وصل نصب واذا

بكسر النون (اذ ابق) اى هرب واصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) اى المملوء (فساهم) فقارع اهله (فكان من المدحضين) فصار من المغلوبين بالقرعة واصله المزلق عن مقام الظفر روى انه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل ان يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال انا الآبق ورمى بنفسه فى الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللقمة (وهو مليم) داخل فى الملامة اوآت بما يلام عليه او مليم نفسه وقرئ مليم بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب (فلولا انه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره او فى بطن الحوت وهو قوله لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين وقيل من المصلين فانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة فى الرخاء (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) حيا وقيل ميتا وفيه حث على اكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن اقبل عليه فى السراء اخذ بيده عند الضراء (فنبذناه بالعراء) بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر اونبت روى ان الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا الى البر فلفظه سالما لم يتغير منه شئ فاسلموا وروى ان الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف فى مقدار لبثه فقيل اربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث الا قليلا ثم اخرج من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى عطاء (وقت) انه حين ابتلعه اوحى الله تعالى الى الحوت انى جعلت بطنك له سجنا ولم اجعله لك طعاما (وهو سقيم) مما ناله قيل صار بدنه كبدن

وقف رفع ولما حكى الله عنه انه قرر مع قومه التوحيد قال فكذبوه فانهم لمحضرون اى لمحضرون النار غدا وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله لكنت من المحضرين ثم قال تعالى الا عباد الله المخلصين وذلك لان قوله ما كذبوه بكليتهم بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى الا عباد الله المخلصين يعنى الذين اتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على اضافة لفظ آل الى لفظ ياسين والباقون بكسر الالف وجزم اللام موصولة بياسين اما القراءة الاولى ففيها وجوه (الاول) وهو الاقرب انا ذكرنا انه الياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم (الثالث) ان ياسين اسم القرآن كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين والوجه هو الاول لانه اليق بسياق الكلام واما القراءة الثانية ففيها وجوه (الاول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكائين فكذا ههنا الياس والياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع واراد به الياس واتباعه من المؤمنين كقولهم المهلبون والسعدون قال

* انا ابن سعد اكرم السعدينا * ثم قال تعالى انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وقد سبق تفسيره والله اعلم * قوله تعالى (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه واهله اجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افلا تعقلون) هذا هو القصة الخامسة وانه تعالى انما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا وقد تقدم شرح هذه القصة وقد نبههم بقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل وذلك لان القوم كانوا يسافرون الى الشام والمسافر فى اكثر الامر انما يمشى فى الليل وفى اول النهار فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين ثم قال تعالى افلا تعقلون يعنى اليس فيكم عقول تعتبرون بها والله اعلم

* قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين وارسلناه الى مائة الف او يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين) اعلم ان هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة وانما صارت هذه القصة خاتمة للقصص لاجل انه لما لم يصبر على اذى قومه وابق الى الفلك وقع فى تلك الشدائد فيصير هذا سببا لتصبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على اذى قومه اما قوله وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ يونس بضم النون وكسرها (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على ان هذه الواقعة انما وقعت ليونس عليه السلام بعد ان صار رسولا لان قوله وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك معناه انه كان من المرسلين حين ما ابق الى الفلك ويمكن ان يقال انه جاء فى كثير من الروايات انه ارسله ملك زمانه الى اولئك القوم ليدعوهم

الطفل حين يولد (وانبتنا عليه) اى فوقه مظلة عليه (شجرة من يقطين) وهو كل ماينبسط على الارض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان (١٦٣) اذا اقام به والاكثرون على انه الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فانه لا يقع عليه ويدل عليه انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تحب القرع قال اجل هى شجرة اخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وافطر على ثماره وقيل كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها (وارسلناه الى مائة الف) هم قومه الذين هرب منهم وهم اهل نينوى والمراد به ارساله السابق اخبر اولا بأنه من المرسلين على الاطلاق ثم اخبر بأنه قد ارسل الى امة جمة وكأن توسيط تذكير وقت هربه الى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو ماجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من انذاره اياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله وتعللهم وتعليقهم لايمانهم بظهور اماراته كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم ان ايمانهم الذى سيحكى بعد لم يكن عقيب الارسال كما هو المتبادر من ترتيب الايمان عليه بالفاء بل بعد التتيا والتى وقيل هو ارسال آخر اليهم وقيل الى غيرهم وليس بظاهر (او يزيدون) اى فى مرأى الناظر فانه اذا نظر اليهم قال انهم مائة الف او يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرئ بالواو (فآمنوا) اى بعد ماشاهدوا علائم حلول العذاب ايمانا خالصا (فمتعناهم) اى بالحياة الدنيا (الى حين) قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص لتفرقة بينهما وبين ارباب الشرائع واولى العزم من الرسل او اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة (فاستفتهم) امر الله عز وجل فى صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش وابطال مذهبهم فى انكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وماسيلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى

منهم عباده المخلصين وفصل مالهم من النعيم المقيم ثم ذكر انه قد ضل من قبلهم اكثر الاولين وانه تعالى ارسل اليهم منذرين على وجه الاجمال ثم اورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبينا فى كل قصة (١٦٤) منها انهم من عباده تعالى واصفا لهم تارة بالاخلاص وأخرى بالايمان ثم امره عليه الصلاة والسلام ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه امر منكر خارج عن العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض اجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الامر على ماسبق من كون اولئك الرسل الذين هم اعلام الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فان ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم اناثا ثم ابطل اصل كفرهم المنطوى على هذين الكفرين وهو نسبة الولد اليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولم ينظمه فى سلك التبكيت لمشاركتهم النصارى فى ذلك اى فاستخبرهم (الربك البنات) اللاتى هن اوضع الجنسين (ولهم البنون) الذين هم ارفعهما فان ذلك مما لايقول به من له ادنى شئ من العقل وقوله تعالى (ام خلقنا الملائكة اناثا) اضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق الى التبكيت بهذا كما اشير اليه اى بل اخلقنا الملائكة الذين هم من اشرف الخلائق وابعدهم من صفات الاجسام ورذائل الطبائع اناثا والانوثة من اخس صفات الحيوان وقوله تعالى (وهم شاهدون) استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى اشهدوا خلقهم وقوله تعالى ماشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم فان امثال هذه الامور لاتعلم الا بالمشاهدة اذ لاسبيل الى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لاريب فيه فلا بد ان يكون القائل بأنوثتهم شاهدا عند خلقهم والجملة اما حال من فاعل خلقناهم اى بل اخلقناهم اناثا والحال انهم حاضرون حينئذ او عطف على خلقنا اى بل اهم شاهدون

الى الله ثم ابق والتقمه الحوت فعند ذلك ارسله الله تعالى والحاصل ان قوله لمن المرسلين لايدل على انه كان فى ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ويمكن ان يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف فى معرض تعظيمه ولن يفيد هذه الفائدة الا اذا كان المراد من قوله لمن المرسلين انه من المرسلين عند الله تعالى (المسئلة الثالثة) ابق من اباق العبد وهو هربه من سيده ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم انه أبق من الله تعالى وهذا بعيد لان ذلك لايقال الا فيمن يتعمد مخالفة ربه وذلك لايجوز على الانبياء واختلفوا فيما لاجله صار مخطئا فقيل لانه امر بالخروج الى بنى اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبا لربه وهذا بعيد سواء امره الله تعالى بذلك بوحى او بلسان نبى آخر وقيل ان ذنبه انه ترك دعاء قومه ولم يصبر عليهم وهذا ايضا بعيد لان الله تعالى لما امره بهذا العمل فلا يجوز ان يتركه والاقرب فيه وجهان (الاول) ان ذنبه كان لان الله تعالى وعده انزال الاهلاك بقومه الذين كذبوه فظن انه نازل لا محالة فلاجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم فكان الواجب عليه ان يستمر على الدعاء لجواز أن لايهلكهم الله بالعذاب وان انزله وهذا هو الاقرب لانه اقدام على امر ظهرت اماراته فلا يكون تعمدا للمعصية وان كان الاولى فى مثل هذا الباب ان لايعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد انه اخطأ فى ذلك الظن لاجل انه ظهر الايمان منهم فمعنى قوله اذ أبق الى الفلك ماذكرناه (الوجه الثانى) ان يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة فذلك هو قوله اذ ابق الى الفلك وتمام الكلام فى مشكلات هذه الآية ذكرناه فى قوله تعالى وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه وقوله الى الفلك المشحون مفسر فى سورة يونس والسفينة اذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال انها مشحونة ثم قال تعالى فساهم المساهمة هى المقارعة يقال اسهم القوم اذا اقترعوا قال المبرد وانما اخذ من السهام التى تجال للقرعة فكان من المدحضين اى المغلوبين يقال ادحض الله حجته فدحضت اى ازالها فزالت واصل الكلمة من الدحض الذى هو الزلق يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت وذكر ابن عباس فى قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة اسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف وكان الله تعالى اوحى الى بنى اسرائيل اذا اسركم عدوكم او اصابتكم مصيبة فادعونى استجب لكم فلما نسوا ذلك واسروا اوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من انبيائهم ان اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بنى اسرائيل نبيا فاختار يونس عليه السلام لقوته وامانته قال يونس آلله امرك بهذا قال لا ولكن امرت ان ابعث قويا امينا وانت كذلك فقال يونس وفى بنى اسرائيل من هو اقوى منى فلم لاتبعثه فالح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى اتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما دخلت لجة البحر اشرفت على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل فى السفينة مانراه من غير ريح ولا سبب ظاهر وقال التجار قد جربنا

(مثل)

مثل هذا فاذارأينا نقترع فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس فقال التجار نحن اولى بالمعصية من نبى الله ثم عادوا ثانيا وثالثا يقرعون فخرج سهم يونس فقال ياهؤلاء أنا العاصى وتلفف فى كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى الى الحوت لاتكسر منه عظما ولا تقطع له وصلا ثم ان السمكة أخرجته الى نيل مصر ثم الى بحر فارس ثم الى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لاشعر ولا لحم فأنبت الله عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ثم ان الارضة أكلتها فخرت من اصلها فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يارب كنت استظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وامص من ثمرها وقد سقطت فقيل له يايونس تحزن على شجرة أنبتت فى ساعة واقتلعت فى ساعة ولاتحزن على مائة ألف او يزيدون تركتهم انطلق اليهم فانطلق اليهم والله اعلم بحقيقة الواقعة ثم قال تعالى فالتقمه الحوت وهو مليم يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد وقوله تعالى وهو مليم يقال ألام اذا أتى بما يلام عليه فالمليم المستحق للوم الآتى بما يلام عليه ثم قال تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وفى تفسير كونه من المسبحين قولان (الاول) ان المراد منه ماحكى الله تعالى عنه فى آية اخرى انه كان يقول فى تلك الظلمات لااله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (الثانى) انه لولا انه كان قبل ان التقمه الحوت من المسبحين يعنى المصلين وكان فى اكثر الاوقات مواظبا على ذكر الله وطاعته للبث فى بطن ذلك الحوت وكان بطنه قبرا له الى يوم البعث قال بعضهم اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة فان يونس عليه السلام كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وان فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا فلما ادركه الغرق قال آمنت انه لااله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل قال الله تعالى آلآن وقد عصيت قبل واختلفوا فى انه كم لبث فى بطن الحوت ولفظ القرآن لايدل عليه قال الحسن لم يلبث الا قليلا واخرج من بطنه بعد الوقت الذى التقمه وعن مقاتل بن حيان ثلاثة ايام وعن عطاء سبعة ايام وعن الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا ولا ادرى بأى دليل عينوا هذه المقادير وعن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة فقال ذاك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه فى الساحل فذاك هو قوله فنبذناه بالعراء وفيه مباحث (الاول) العراء المكان الخالى قال ابو عبيدة انما قيل له العراء لانه لاشجر فيه ولاشئ يغطيه (الثانى) انه تعالى قال فنبذناه بالعراء فأضاف ذلك النبذ الى نفسه والنبذ انما حصل بفعل الحوت وهذا يدل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى ثم قال تعالى وهو سقيم قيل المراد انه بلى لحمه

وقوله تعالى (الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله) استئناف من جهته غير داخل تحت الامر بالاستفتاء مسوق لابطال اصل مذهبهم الفاسد ببيان ان مبناه ليس الا الافك الصريح والافتراء القبيح من غير ان يكون لهم دليل او شبهة قطعا (وانهم لكاذبون) فى قولهم ذلك كذبا بينا لاريب فيه وقرئ ولد الله على انه خبر مبتدأ محذوف اى الملائكة ولده تعالى عن ذلك علوا كبيرا فان الولد فعل بمعنى مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (اصطفى البنات على البنين) اثبات لافكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لامر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين والاصطفاء اخذ صفوة الشئ لنفسه وقرئ بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول اى لكاذبون فى قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد (مالكم كيف تحكمون) بهذا الحكم الذى يقضى ببطلانه بديهة العقل (افلا تذكرون) بحذف احدى التاءين من تتذكرون وقرئ تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر اى الا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فانه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى (ام لكم سلطان مبين) اضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بماذكر الى تبكيتهم بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود اصلا اى بل الكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة ان الحكم بذلك لابد له من سند حسى اوعقلى وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلى (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة دعواكم (ان كنتم صادقين) فيها وفى هذه الآيات من الانباء عن السخط العظيم والانكار الفظيع لاقاويلهم والاستبعاد الشديد لاباطيلهم وتسفيه احلامهم وتركيك عقولهم

وصار ضعيفا كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذى ليس عليه ريش وقال مجاهد سقيم اى سليب ثم قال تعالى وانبتنا عليه شجرة من يقطين ظاهر اللفظ يدل على ان الحوت لما نبذه فى العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وانما يمتد على وجه الارض فهو يقطين نحو الدباء والحنظل والبطيخ قال الزجاج احسب اشتقاقها من قطن بالمكان اذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الارض فلذلك قيل له اليقطين روى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة اتسعت وسترت فهى يقطين قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (احدهما) ان هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لاجله (والآخر) ان اليقطين كان معروشا ليحصل له ظل لانه لو كان منبسطا على الارض لم يمكن ان يستظل به ثم قال تعالى وارسلناه الى مائة ألف او يزيدون وفيه مباحث (الاول) يحتمل ان يكون المراد وأرسلناه قبل ان يلتقمه الحوت وعلى هذا الارسال وان ذكر بعد الالتقام فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ويحتمل ان يكون المراد به الارسال بعد الالتقام عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت وعلى هذا التقدير يجوز ان يكون ارسل الى قوم آخرين سوى القوم الاول ويجوز ان يكون ارسل الى الاولين ثانيا بشريعة فآمنوا بها (البحث الثانى) ظاهر قوله او يزيدون يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى عذرا او نذرا وقوله تعالى لعله يتذكر او يخشى وقوله تعالى لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا وقوله تعالى وما امر الساعة الا كلمح البصر أو هو اقرب وقوله تعالى فكان قاب قوسين او ادنى واجابوا عنه من وجوه كثيرة والاصح منها وجه واحد وهو ان يكون المعنى او يزيدون فى تقديركم بمعنى انهم اذا رآهم الرائى قال هؤلاء مائة الف او يزيدون على المائة وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا ثم قال تعالى فآمنوا فمتعناهم الى حين والمعنى ان اولئك الاقوام لما آمنوا ازال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله الى حين اى الى الوقت الذى جعله الله اجلا لكل واحد منهم ۞ قوله تعالى

(فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون افلا تذكرون ام لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر اقاصيص الانبياء عليهم السلام عاد الى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ومن جملة اقوالهم الباطلة انهم اثبتوا الاولاد لله سبحانه وتعالى ثم زعموا انها من جنس الاناث لا من جنس الذكور فقال فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون وهذا معطوف على قوله فى اول السورة فاستفتهم اهم

(اشد)

وافهامهم مع استهزائهم وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) التفات الى الغيبة للايذان بانقطاعهم من الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم ان يعرض عنهم وتحكى جناياتهم لآخرين والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك وانما عبر عنهم بذلك الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم مع عظم شأنهم فيما بين الخلق ان يبلغوا منزلة المناسبة التى اضافوها اليهم فجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات الله وانما اعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) اى وبالله لقد علمت الجنة التى عظموها بان جعلوا بينها وبينه تعالى نسبا وهم الملائكة ان الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان ان الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون انهم اعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بانهم معذبون لاجله حكما مؤكدا وقيل ان قوما من الزنادقة يقولون ان الله تعالى وابليس اخوان فالله هو الخير الكريم وابليس هو الشرير اللئيم وهو المراد بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قال الامام الرازى وهذا القول عندى اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن وقال مجاهد قالت قريش الملائكة بنات الله فقال ابو بكر الصديق رضى الله عنه فمن امهاتهم تبكيتا لهم فقالوا سروات الجن وقيل معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث اشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه الاقاويل يجوز ان

اشد خلقا امن خلقنا وذلك لانه تعالى امر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه انكار البعث اولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض الى ان امره بان يستفتيهم في انهم لم اثبتوا لله سبحانه البنات ولانفسهم البنين ونقل الواحدي عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا واجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله واعلم ان هذا الكلام يشتمل على امرين (احدهما) اثبات البنات لله وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنت والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن اثباته للخالق (والثاني) اثبات ان الملائكة اناث وهذا ايضا باطل لان طريق العلم اما الحس واما الخبر واما النظر اما الحس ففقود ههنا لانهم ماشهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون واما الخبر ففقود ايضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون افاكون لم يدل على صدقهم لادلالة ولا امارة وهو المراد من قوله الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون * واما النظر ففقود وبيانه من وجهين (الاول) ان دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب لان الله تعالى اكمل الموجودات والاكمل لايليق به اصطفاء الاخس وهو المراد من قوله اصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون يعني اسناد الافضل الى الافضل اقرب عند العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا في هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثاني) ان نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فعنده يظهر انه لم يوجد مايدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله ام لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين فثبت بما ذكرنا ان القول الذي ذهبوا اليه لم يدل على صحته لا الحس ولا الخبر ولا النظر فكان المصير اليه باطلا قطعا واعلم انه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على ان التقليد باطل وان الدين لايصح الا بالدليل (المسئلة الثانية) قوله اصطفى البنات على البنين قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من اصطفى ثم بحذف الف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع كقوله تعالى ام اتخذ مما يخلق بنات وقوله تعالى ام له البنات ولكم البنون وقوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى وكان هذه المواضع كلها استفهام فكذلك في هذه الآية وقرأ نافع في بعض الروايات لكاذبون اصطفى موصولة بغير استفهام واذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات في زعمهم كقوله ذق انك انت العزيز الكريم في زعمه واعتقاده ثم قال تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا واختلفوا في المراد بالجنة على وجوه (الاول) قال مقاتل اثبتوا نسبا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا انهم بنات الله وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار اولانهم خزان الجنة واقول هذا القول عندي مشكل لانه تعالى ابطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله وجعلوا بينه

يكون الضمير في انهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين ان الله تعالى يحضرهم النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى اوشركاء في استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الاول فان قوله (سبحان الله عما يصفون) حكاية لتنزيه الملائكة اياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم في ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) شهادة منهم ببراءة المخلصين من ان يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئهم منه بحكم اندراجهم في زمرة المخلصين على ابلغ وجه وآكده على انه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة ان المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين) تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين بما ذكر ببيان عجزهم عن اغوائهم واضلالهم والالتفات الى الخطاب لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وماتعبدون عبارة عن الشياطين الذين اغووهم وفيه ايذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وانتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته اي افسدها عليه والمعنى فانكم ومعبوديكم ايها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بافساد عباده واضلالهم (الامن هو صال الجحيم) منهم اي داخلها لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر بسوء اختياره ويصير من اهل النار لامحالة واما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من افسادهم واضلالهم فهم لاجرم برآء من ان يفتنوا بكم ويسلكوا مسلككم في وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرئ صال بضم اللام على انه جمع محمول على معنى من قد

سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى (ومامنا الاله مقام معلوم) تبيين لجلية امرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد

وبين الجنة نسبا والعطف يقتضى كون المعطوف مغايرا للمعطوف عليه فوجب ان يكون المراد من هذه الآية غير ماتقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم ابوبكر الصديق فمن امهاتهم قالوا سروات الجن وهذا ايضا عندى بعيد لان المصاهرة لاتسمى نسبا (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن ان قوما من الزنادقة يقولون الله وابليس اخوان فالله الخير الكريم وابليس هو الاخ الشرير الخسيس فقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا المراد منه هذا المذهب وعندى ان هذا القول اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن ثم قال تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون اى قد علمت الجنة ان الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم سيحضرون فى العذاب فعلى القول الاول الضمير عائد الى قائل هذا القول وعلى القول الثانى عائد الى الجنة انفسهم ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين وفى هذا الاستثناء وجوه قيل استثناء من المحضرين يعنى انهم ناجون وقيل هو استثناء من قوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ومعناه ولكن المخلصين برآء من ان يصفوه بذلك والمخلص بكسر اللام من اخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من اخلصه الله بلطفه والله اعلم ۞ قوله تعالى (فانكم وماتعبدون ما انتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم ومامنا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار اتبعه بما نبه به على ان هؤلاء الكفار لايقدرون على حمل أحد على الضلال الا اذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار وذكر صاحب الكشاف فى قوله فانكم وماتعبدون ما أنتم عليه بفاتنين قولين (الاول) الضمير فى عليه لله عزوجل معناه فانكم ومعبوديكم ماأنتم وهم جميعا بفاتنين على الله الا اصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من اهل النار فان قيل كيف يفتنونهم على الله قلنا يفتنونهم عليه باغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه (والوجه الثانى) ان تكون الواو فى قوله وماتعبدون بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته فكذلك جاز أن يسكت على قوله فانكم وماتعبدون لان قوله وماتعبدون سادمسد الخبر لان معناه فانكم مع ماتعبدون والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم واصحابهم لاتتركون عبادتها ثم قال تعالى ماانتم عليه أى على ماتعبدون بفاتنين باعثين او حاملين على طريق الفتنة والاضلال الا من هو صال الجحيم مثلكم وقرأ الحسن صال الجحيم بضم اللام ووجهه ان يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين فان قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله من هو قلنا من موحد اللفظ مجموع المعنى

ماذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه واظهار لقصور شأنهم وقماءتهم اى ومامنا احد الا له مقام معلوم فى العبادة والانتهاء الى امر الله تعالى مقصور عليه لايتجاوزه ولايستطيع ان يزل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله كما روى فمنهم راكع لايقيم صلبه وساجد لايرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما مافى السموات موضع شبر الا وعليه ملك يصلى او يسبح وروى انه عليه الصلاة والسلام قال اطت السماء وحق لها ان تئط والذى نفسى بيده مافيها موضع اربع اصابع الا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال السدى الا له مقام معلوم فى القربة والمشاهدة (وانا لنحن الصافون) فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة (وانا لنحن المسبحون) المقدسون لله سبحانه عن كل مالايليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لابراز ان صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير الآيات الكريمة واعرابها وجوه اخر فتأمل والله الموفق (وان كانوا ليقولون) ان هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة اى ان الشأن كانت قريش تقول (لو ان عندنا ذكرا من الاولين) اى كتابا من كتب الاولين من التوراة والانجيل (لكنا عباد الله المخلصين) اى لاخلصنا العبادة لله تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا كقولهم لئن جاءنا نذير لنكونن اهدى من احدى الامم والفاء فى قوله تعالى (فكفروا به) فصيحة كما فى قوله تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فجاءهم ذكر واى ذكر سيد الاذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والاسفار فكفروا به (فسوف يعلمون) اى عاقبة كفرهم وغائلته (فحمل)

فحمل هو على لفظه والصالون على معناه (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه لا تأثير لاغواء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره لان قوله تعالى فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لاحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال وقوله تعالى الامن هو صال الجحيم يعنى الامن كان كذلك فى حكم الله وتقديره وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى اثبات هذا المطلوب قال الجبائى المراد ان الذين عبدوا الملائكة يزعمون انهم بنات الله لا يكفرون احدا الامن ثبت فى معلوم الله انه سيكفر فدل هذا على ان من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه والا كان يمنع الشيطان فصح بهذا ان كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شئ من الافعال والجواب حاصل هذا الكلام انه لا تأثير لاغواء شياطين الانس والجن وهذا لانزاع فيه الا ان وجه الاستدلال انه تعالى بين انه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ثم استثنى عنه ما فى قوله تعالى الامن هو صال الجحيم فوجب ان يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوما عليه بأنه صال الجحيم وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة واعلم ان اصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو انه حج آدم موسى قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد لانه يوجب ان لا يلام احد على شئ من الذنوب لانه ان كان آدم لا يجوز لموسى ان يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل ان يخلقه فكذلك كل مذنب فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ولماذا قال فلن اكون ظهيرا للمجرمين ولماذا لام فرعون وجنوده على امر كتبه الله عليهم ومن عجيب امرهم انهم يكفرون القدرية وهذا الحديث يوجب ان آدم كان قدريا فلزمهم ان يكفروه وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ان يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه وقد كتب عليه ذلك قبل ان يخلقه هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب انك لا تقبل ذلك الخبر فهل ترد هذه الآية ام لا فانا بينا ان صريح هذه الآية يدل على انه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى والذى يدل عليه وجوه (الاول) ان الكافر ان ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان ان كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال وان انتهى الى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) ان كل احد يريد ان يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق فحصول ضده يدل على ان ذلك ليس منه (الثالث) ان الافعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله فيكون الكل من الله تعالى (الرابع) انه تعالى لما اقتضت حكمته شيئا وعلم وقوعه فلو لم يقع ذلك الشئ لزم انقلاب ذلك الحكم كذبا وانقلاب ذلك العلم جهلا

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه اى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى (انهم لهم (١٦٩) المنصورون وان جندنا) وهم اتباع المرسلين (لهم الغالبون) على اعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فان قاعدة امرهم واساسه الظفر والنصرة وان وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة وقرئ على عبادنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع انها كلمات لانتظامها فى معنى واحد وقرئ كلماتنا (فتول عنهم) فاعرض عنهم واصبر (حتى حين) الى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وابصرهم) على اسوأ حال وافظع نكال حل بهم من القتل والاسر والمراد بالامر بابصارهم الايذان بغاية قربه كأنه بين يديه (فسوف يبصرون) ما يقع حينئذ من الامور وسوف للوعيد دون التبعيد (افبعذابنا يستعجلون) روى انه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل (فاذا نزل بساحتهم) اى فاذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قد هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرئ نزل بساحتهم على اسناده الى الجار والمجرور وقرئ نزل مبنيا للمفعول من التنزيل اى نزل العذاب (فساء صباح المنذرين) فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وان وقعت ليلا روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اتى خيبر وكانوا خارجين الى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا الى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام الله اكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (وتول عنهم حتى حين وابصر فسوف

يصرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع مافى اطلاق الفعلين عن المفعول من الايذان بان مايبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار ومايبصرونه (١٧٠) من انواع المضار لايحيط به الوصف والبيان

وقيل اريد بالاول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) تنزيه لله سبحانه عن كل مايصفه المشركون به مما لايليق بجناب كبريائه وجبروته مما ذكر فى السورة الكريمة ومالم يذكر من الامور التى من جملتها ترك انجاز الموعود على موجب كلمته السابقة لاسيما فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبيــة المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اولا والى العزة ثانيا كأنه قيــل سبحــان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الاطلاق عما يصفه المشركون به من الاشــياء التى منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليــه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى (وسلام على المرسلين)تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وايذان بأنهم ســالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى (والحمد لله رب العالمين) اشــارة الى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته الســلبية وايذان باستتباعها للافعال الجميلة التى من جملتهــا افاضته عليهم من فنون الكرامات الســنية والكمالات الدينية والدنيوية واسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعمــاء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى واشعار بان ماوعده عليه الصلاة والســلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسايط بينهم وبينه عز وعلا فى فيضان الكمالات الدينية (فالمؤمن) والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع مافيه من الاشعار

وهو محال واما الآيات التى تمسك بها القاضى فهى معارضة بالآيات الدالة على ان الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التى ذكرناها سليمة والله اعلم ثم قال تعالى وما منا الا له مقام معلوم فالجمهور على انهم الملائكة وصفوا انفسهم بالمبالغة فى العبودية فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول انهم اولاد الله وذلك لان مبالغتهم فى العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية واعلم ان هذه الآية تدل على ثلاثة انواع من صفات الملائكة (فاولها) قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وهذا يدل على ان لكل واحد منهم مرتبة لايتجاوزها ودرجة لايتعدى عنها وتلك الدرجات اشارة الى درجاتهم فى التصرف فى اجسام هذا العالم والى درجاتهم فى معرفة الله تعالى اما درجاتهم فى التصرفات والافعال فهى قوله وانا لنحن الصافون والمراد كونهم صافين فى اداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية واما درجاتهم فى المعارف فهى قوله تعالى وانا لنحن المسبحون والتسبيح تنزيه الله عما لايليق به واعلم ان قوله وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون يفيد الحصر ومعناه انهم هم الصافون فى مواقف العبودية لاغيرهم وانهم هم المسبحون لاغيرهم وذلك يدل على ان طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة الى طاعات الملائكة والى معارفهم كالعدم حتى يصح هذا الحصر وبالجملة فهذه الالفاظ الثلاثة تدل على اسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر ان يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو افضل منه ام لا واما قوله وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فالمعنى ان مشركى قريش وغيرهم كانوا يقولون لو ان عندنا ذكرا اى كتابا من كتب الاولين الذين نزل عليهم التوراة والانجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ثم جاءهم الذكر الذى هو سيد الاذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب وهو القرآن فكفروا به ونظير هذه الآية قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا ثم قال تعالى فسوف يعلمون اى فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب ۞ قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وابصرهم فسوف يبصرون افبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين وابصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى فسوف يعلمون عاقبة كفرهم اردفه بما يقوى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فبين ان وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلى وايضا ان الخير مقضى بالذات والشر مقضى بالعرض وما بالذات اقوى مما بالعرض واما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات

فالمؤمن وان صار مغلوبا فى بعض الاوقات بسبب ضعف احوال الدنيا فهو الغالب ولا يلزم على هذه الآية ان يقال فقد قتل بعض الانبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ثم قال تعالى لرسوله وقد اخبره بما تقدم فتول عنهم حتى حين والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم الى حين يتمتعون ثم تحل بهم الحسرة والندامة واختلف المفسرون فقيل المراد الى يوم بدر وقيل الى فتح مكة وقيل الى يوم القيامة ثم قال وأبصرهم فسوف يبصرون والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والاسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك مع ماقدر لك من النصرة والتأييد فى الدنيا والثواب العظيم فى الآخرة والمراد من الامر بابصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على انها كائنة واقعة لامحالة وان كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وقوله فسوف يبصرون للتهديد والوعيد ثم قال افبعذابنا يستعجلون والمعنى ان الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب وماراوا شيئا فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء فبين تعالى ان ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من افعال الله تعالى وقتا معينا لايتقدم ولا يتأخر فكان طلب حدوثه قبل مجئ ذلك الوقت جهلا ثم قال تعالى فى صفة العذاب الذى يستعجلونه فاذا نزل بساحتهم اى هذا العذاب فساء صباح المنذرين وانما وقع هذا التعبير عن هذه المعانى لانهم كانوا يقدمون على العادة فى وقت الصباح فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ثم اعاد قوله تعالى فتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم احوال الدنيا وفى هذه الكلمة احوال القيامة وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل وقيل ان المراد من التكرير المبالغة فى التهديد والتهويل ثم انه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لان اهم المهمات للعاقل معرفة احوال ثلاث (فأولها) معرفة اله العالم بقدر الطاقة البشرية واقصى مايمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة انواع (احدها) تنزيهه وتقديسه عن كل مالايليق بصفات الالهية وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل مايليق بصفات الالهية وهو قوله رب العزة فان الربوبية اشارة الى التربية وهى دالة على كمال الحكمة والرحمة والعزة اشارة الى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزها فى الالهية عن الشريك والنظير وقوله رب العزة يدل على انه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام فى قوله العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكا له لم يبق لغيره شئ فثبت ان قوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون كلمة محتوية على اقصى الدرجات واكمل النهايات فى معرفة اله العالم (والمهم الثانى) من مهمات العاقل ان يعرف انه كيف ينبغى ان يعامل نفسه ويعامل الخلق فى هذه الحياة الدنيوية واعلم ان اكثر الخلق ناقصون ولابد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم وماذاك الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل فنبه على هذا الحرف بقوله وسلام على المرسلين لان هذا اللفظ يدل على انهم فى

بان توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد * عن على رضى الله عنه من احب ان يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه اذا قام من مجلسه سبحان ربك (١٧١) رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ والصافات اعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة انه كان مؤمنا بالمرسلين

(سورة ص مكية وآيها ست)
(اوثمان وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص) بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز ان يكون الفتح باضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وان يكون ذلك نصبا باضمار اذكر أواقرأ لاتصالكما مر فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لانها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على انه اسم الكتاب او التنزيل وقيل هو فى قراءة الكسر امر من المصاداة وهى المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذى ينعكس من الاجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل باوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على منهاج التحدى او الرمز الى كلام مثل صدق الله او صدق محمد كما نقل عن اكابر السلف او اسما للسورة خبر المبتدأ محذوف او نصبا على اضمار اذكر او اقرأ او امرا من المصاداة قالوا وفى قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) للقسم وان جعل مقسما به فهى للعطف عليه فان اريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وان اريد عين السورة فهى اعتبارية كما فى قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة واياما كان ففى التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما فى قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك او الذكرى والموعظة اوذكر مايحتاج اليه فى امر

الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولاجرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل ان يعرف انه كيف يكون حاله بعد الموت واعلم ان معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة فالاعتماد فيها على حرف واحد وهو انه اله العالم غني رحيم والغني الرحيم لايعذب فنبه على هذا الحرف بقوله والحمد لله رب العالمين وذلك لان استحقاق الحمد لايحصل الابالانعام العظيم فبين بهذا كونه منعما وظاهر كونه غنيا عن العالمين ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم فكان هذا الحرف منبها على سلامة الحال بعد الموت فظهر بما ذكرنا ان هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر اشرف من دراري الكواكب ونسأل الله سبحانه تعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة * تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وازواجه وذرياته أجمعين

(سورة ص ثمانون وثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم اهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكلام المستقصى في امثال هذه الفواتح مذكور في اول سورة البقرة ولابأس باعادة بعض الوجوه فالاول انه مفتاح اسماء الله تعالى التي اولها صاد كقولنا صادق الوعد صانع المصنوعات صمد (الثاني) معناه صدق محمد في كل مااخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين كما قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (الرابع) معناه ان القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن فدل ذلك على ان القرآن معجز (الخامس) ان يكون صاد بكسر الدال من المصاداة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو مايعارض صوتك في الاماكن الخالية من الاجسام الصلبة ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه (السادس) انه اسم السورة والتقدير هذه صاد * فان قيل ههنا اشكالان (احدهما) ان قوله والقرآن ذي الذكر قسم واين المقسم عليه (والثاني) ان كلمة بل تقتضي رفع حكم ثبت قبلها واثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق فأين هذا المعنى ههنا والجواب عن الاول من وجوه (الاول) ان يكون معنى صاد بمعنى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيكون صاد هو المقسم عليه وقوله والقرآن ذي الذكر هو القسم (الثاني) ان يكون المقسم عليه محذوفا والتقدير سورة ص والقرآن ذي الذكر انه لكلام معجز لانا بينا ان قوله صاد تنبيه على التحدي (والثالث) ان يكون صاد اسما للسورة ويكون التقدير هذه صاد والقرآن ذي الذكر ولما كان المشهور ان محمدا

الدين من الشرائع والاحكام وغيرها من اقاصيص الانبياء عليهم الصلاة والسلام واخبار الامم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الاول والرابع والخامس محذوف هو ماينبئ (١٧٢) عنه التحدي والامر والاقسام به من كون المتحدى به معجزا

وكون المأمور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالاعظام اى اقسم بالقرآن او بصاد وبه انه لمعجز أولواجب العمل به او لحقيق بالاعظام واما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز اليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فان التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره اى انه لصادق والقرآن ذي الذكر او هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الاجوبة منبئا عن انتفاء الريب من مضمونه بالكلية انباء بينا كان قوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق)اضرابا عن ذلك كأنه قيل لاريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب مافيه بل هم في استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لايذعنون له وقيل الجواب مادل عليه الجملة الاضرابية اى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرئ في غرة اى في غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادي الايمان ودواعيه (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان مااصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول اهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرنا كثيرا اهلكنا من القرون الخالية (فنادوا) عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى (ولات حين مناص) حال من ضمير نادوا اى نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال ان ليس الحين حين مناص اى فوت ونجاة من ناصه اى فاته لامن ناص بمعنى تأخر ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفي الاحيان ولم يبرز الاحد معموليها والاكثر حذف اسمها وقيل هي النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الاحيان وحين مناص منصوب

(عليه)

عليه السلام يدعى فى هذه السورة كونها معجزة كان قوله هذه ص جاريا مجرى قوله هذه هى السورة المعجزة ونظيره قولك هذا حاتم والله اى هذا هو المشهور بالسخاء (والجواب) عن السؤال الثانى ان الحكم المذكور قبل كلمة بل كون محمد صادقا فى تبليغ الرسالة اوكون القرآن اوهذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة بل ههنا هو المنازعة والمشاقة فى كونه كذلك لحصل المطلوب والله اعلم (المسئلة الثانية) قرأ الحسن صاد بكسر الدال لاجل التقاء الساكنين وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون و بحذف حرف القسم وايصال فعله كقولهم الله لافعلن واكثر القراء على الجزم لان الاسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الاواخر (المسئلة الثالثة) فى قوله ذى الذكر وجهان (الاول) المراد ذى الشرف قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقال تعالى لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر فى الناس كما يقولون له صيت (الثانى) ذى البيان اى فيه قصص الاولين والآخرين وفيه بيان العلوم الاصلية والفرعية ومجازه من قوله ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الاول) قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وهذا ذكر مبارك والقرآن ذى الذكر ان هو الا ذكر وقرآن مبين (بيان الثانى) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (والجواب) انا نصرف دليلكم الى الحروف والاصوات وهى محدثة اما قوله بل الذين كفروا فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الاجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد الى الحق والعزة ههنا التعظم وما يعتقده الانسان فى نفسه من الاحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم والشقاق هو اظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف او على جهة الفضيلة عليه وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن ان يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق فيريد ان يكون فى شق نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ومثله المعاداة وهو ان يكون احدهما فى عدوة والآخر فى عدوة وهى جانب الوادى وكذلك المحادة ان يكون هذا فى حد غير حد الآخر ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلانا اى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله اعلم ثم انه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال كم اهلكنا قبلهم من قرن فنادوا والمعنى انهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر باى شئ نادوا وفيه وجوه (الاول) وهو الاظهر انهم نادوا بالاستغاثة لان نداء من نزل به العذاب ليس الا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالايمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا اى رفعوا اصواتهم يقال فلان اندى صوتا من فلان اى ارفع صوتا ثم قال ولات حين مناص يعنى ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا وقال حتى اذا اخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله آلآن وقد عصيت قبل وقوله فلم يك ينفعهم

على انه اسمها اى ولا حين مناص لهم اوبفعل مضمر اى ولا ارى حين مناص وقرئ بالرفع فهو على الاول اسمها والخبر محذوف اى وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ (١٧٣) محذوف الخبر اى ولا حين مناص كائن لهم وقرئ بالكسر كما فى قوله

طلبوا صلحنا ولات اوان
فاجبنا ان لات حين بقاء

اما لان لات تجر الاحيان كما ان لولا تجر الضمائر فى نحو قوله

لولاك هذا العام لم احجج

اولان أوان شبه بإذ فى قوله

نهيتك عن طلابك ام عمرو
بعافية وانت اذ صحيح

فى انه زمان قطع منه المضاف اليه وعوض التنوين لان اصله اوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف اليه من مناص اذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الاتحاد ثم بنى الحين لاضافته الى غير متمكن وقرئ لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالاسماء والبصريون بالتاء كالافعال وماقيل من ان التاء مزيدة على حين لاتصالها به فى الامام مما لا وجه له فان خط المصحف خارج عن القياس (وعجبوا ان جاءهم منذر منهم) حكاية لاباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم اى عجبوا من ان جاءهم رسول من جنسهم بل ادون منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى انهم عدوا ذلك امرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وانكروه اشد الانكار لا انهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وايذانا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه الا المتوغلون فى الكفر والفسوق (هذا ساحر) فيما يظهره من الخوارق (كذاب) فيما يسنده الى الله تعالى من الارسال والانزال (أجعل الآلهة الها واحدا) بأن نفى الالوهية عنهم وقصرها على واحد (ان هذا لشئ عجاب) بليغ فى العجب وذلك لانه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين اجمعوا على الوهيتهم وواظبوا على عبادتهم كابرا عن كابر فان مدار كل ما يأتون وما يذرون من امور دينهم هو

ايمانهم لما رأوا بأسنا بقى ههنا ابحاث (البحث الاول) فى تحقيق الكلام فى لفظ لات زعم الخليل وسيبويه ان لات هى لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد و بسبب هذه الزيادة حدثت لها احكام جديدة منها انها لاتدخل الا على الاحيان ومنها ان لايبرز الا احد جزئيها اما الاسم واما الخبر ويمتنع بروزهما جميعا وقال الاخفش انها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الاحيان وحين مناص منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم و يرتفع بالابتداء اى ولات حين مناص كائن لهم (البحث الثانى) الجمهور يقفون على التاء من قوله ولات والكسائى يقف عليها بالهاء كما يقف على الاسماء المؤنثة قال صاحب الكشاف واما قول ابى عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين فى مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت فى المصحف اشياء خارجة عن قياس الخط (البحث الثالث) المناص المنجا والغوث يقال ناصه ينوصه اذا أغاثه واستناص طلب المناص والله أعلم * قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشئ يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم فى عزة وشقاق اردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وفى قوله منهم وجهان (الاول) انهم قالوا ان محمدا مساو لنا فى الخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة فكيف يعقل ان يختص من بيننا بهذا المنصب العالى والدرجات الرفيعة (والثانى) ان الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم وذلك لانه جاءهم رجل يدعوهم الى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب فى الآخرة والتنفير عن الدنيا ثم ان هذا الرجل من اقاربهم يعلمون انه كان بعيدا من الكذب والتهمة وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم ان هؤلاء الاقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ونظيره قوله ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون فقال وعجبوا ان جاءهم منذر منهم ومعناه ان محمدا كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساويا لهم فى الاسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه وعجبوا ان يختص هو من بينهم برسالة الله وان يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب الا الحسد ثم قال تعالى وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وانما لم يقل وقالوا بل قال وقال الكافرون اظهارا للتعجب ودلالة على ان هذا القول لايصدر الا عن الكفر التام فان الساحر هو الذى يمنع من طاعة الله ويدعو الى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذى يخبر عن الشئ لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الاشياء التى تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابا ثم انه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه فى اثبات كونه كاذبا وهى ثلاثة اشياء

التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيبا بل محالا واما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالاشياء الكثيرة فلا وجه له لما انهم لايدعون ان لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا (١٧٤) فى حدوث شئ من الاشياء حتى يلزم من نفى الوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرئ عجاب بالتشديد وهو ابلغ ككرام وكرام روى انه لما اسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا اباطالب فقالوا انت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضى بيننا وبين ابن اخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن اخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا تسألوننى قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان اعطيتكم ما سألتم امعطى انتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا اذلك (وانطلق الملأ منهم) اى وانطلق الاشراف من قريش عن مجلس ابى طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عليه الصلاة والسلام فى الدين وعزيمته على على ان يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط ابى طالب من المصالحة على الوجه المذكور (ان امشوا) اى قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا (واصبروا على آلهتكم) اى واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه فى حقها من القدح وان هى المفسرة لان الانطلاق عن مجلس التقاول لايخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع فى القول وامشوا من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل اى اجتمعوا واكثروا وقرئ امشوا بغير ان على اضمار القول وقرئ يمشون ان اصبروا (ان هذا لشئ يراد) تعليل للامر بالصبر اولوجوب الامتثال به اى هذا الذى شاهدناه من محمد صلى الله عليه وسلم من امر التوحيد ونفى آلهتنا وابطال امرها لشئ يراد اى

(احدها) ما يتعلق بالالهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد اما الشبهة المتعلقة بالالهيات فهي قولهم اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب روى انه لما اسلم عمر فرح به المسلمون فرحا شديدا وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ومشوا الى ابي طالب وقالوا انت شيخنا وكبيرنا وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن اخيك فاستحضر ابو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن اخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا يسألونني قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم ارأيتم ان اعطيتكم ما سألتم اتعطوني انتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم قالوا نعم قال تقولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب اى بليغ في التعجب واقول منشا التعجب من وجهين (الاول) هو ان القوم ما كانوا من اصحاب النظر والاستدلال بل كانت اوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد ان الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد فقالوا لا بد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (والوجه الثاني) ان اسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك فقالوا من العجب العجيب ان يكون اولئك الاقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين وهذا الانسان الواحد يكون محقا صادقا واقول لعمري لو سلمنا اجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة لكانت الشبهة الاولى لازمة ولما توافقنا على فسادها علمنا ان اجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعا واذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل اصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الافعال اما المشبهة في الذات فهو انهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب ان يكون جسما ومختصا بحيز وجب في الغائب ان يكون كذلك واما المشبهة في الافعال فهم المعتزلة الذين يقولون ان الامر الفلاني قبيح منا فوجب ان يكون قبيحا من الله فثبت بما ذكرنا انه ان صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الافعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين وحيث توافقنا على فسادها علمنا ان عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد واما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقا لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا ان التقليد باطل بقي ههنا ابحاث (البحث الاول) ان العجاب هو العجيب الا انه ابلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى ومكروا مكرا كبارا (الثاني) قال صاحب الكشاف قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد ابلغ من التخفيف كقوله تعالى مكرا كبارا ثم قال تعالى وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم قد ذكرنا ان الملأ عبارة عن القوم الذين اذا حضروا في المجلس فانه تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم

من جهته عليه الصلاة والسلام امضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان او امر يرجى فيه المسامحة بشفاعة او امتنان فاقطعوا اطماعكم عن استنزاله (١٧٥) من رأيه بوساطة ابي طالب وشفاعته وحسبكم ان لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه في حقها من القدح وسوء القالة وقيل ان هذا الامر لشيء يريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما اراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه الا الصبر وقيل ان هذا الامر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل ان دينكم لشيء يراد اى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل ان هذا الذى يدعيه من التوحيد او يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى ويريده كل احد فتأمل في هذه الاقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل (ماسمعنا بهذا) الذى يقوله (في الملة الآخرة) اى الملة النصرانية التى هى آخر الملل فانهم مثلثة او في الملة التى ادركنا عليها آباءنا ويجوز ان يكون الجار والمجرور حالا من هذا اى ما سمعنا بهذا من اهل الكتاب ولا الكهان كائنا في الملة المترقبة ولقد كذبوا في ذلك اقبح كذب فان حديث البعثة والتوحيد كان اشهر الامور قبل الظهور (ان هذا) اى ما هذا (الا اختلاق) اى كذب اختلقه (أأنزل عليه الذكر) اى القرآن (من بيننا) ونحن رؤساء الناس واشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ومرادهم انكار كونه ذكرا منزلا من عند الله عز وجل كقولهم لو كان خيرا ما سبقونا اليه وامثال هذه المقالات الباطلة دليل ان مناط تكذيبهم ليس الا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى (بل هم في شك من ذكرى) اى من القرآن او الوحي لميلهم الى التقليد واعراضهم عن النظر في الادلة المؤدية الى العلم بحقيته وليس في عقيدتهم ما يبتون به فهم مذبذبون

بين الاوهام ينسبونه تارة الى السحر واخرى الى الاختلاق (بل لما يذوقوا عذاب) اى بل لم يذوقوا بعد عذابى فاذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال وفى لما دلالة على ان ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى انهم (١٧٦) لايصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابى الموعود فى

وعظمتهم وقوله منهم اى من قريش انطلقوا عن مجلس ابى طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ان امشوا واصبروا على آلهتكم وفيه مباحث (البحث الاول) القراءة المشهورة ان امشوا وقرأ ابن أبى عبلة امشوا بحذف ان قال صاحب الكشاف ان بمعنى اى لان المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من ان يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجرى فى المجلس المتقدم فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول وعن ابن عباس وانطلق الملأ منهم يمشون (البحث الثانى) معنى ان امشوا انه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا فلا حيلة لكم فى دفع امر محمد ان هذا الشئ يراد وفيه ثلاثة اوجه (احدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر فثبت ان تزايد ظهوره ليس الا لان الله يريده وما اراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) ان الامر كشئ من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) ان دينكم لشئ يراد اى يطلب ليؤخذ منكم قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها انه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين وانما غرضه ان يستولى علينا فيحكم فى اموالنا واولادنا بما يريد ثم قال ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة والملة الآخرة هى ملة النصارى فقالوا ان هذا التوحيد الذى اتى به محمد صلى الله عليه وسلم ماسمعناه فى دين النصارى او يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التى ادركوا آباءهم عليها ثم قالوا ماهذا الا اختلاق اى افتعال وكذب وحاصل الكلام من هذا الوجه انهم قالوا نحن ماسمعنا عن اسلافنا القول بالتوحيد فوجب ان يكون باطلا ولو كان القول بالتقليد حقا لكان كلام هؤلاء المشركين حقا وحيث كان باطلا علمنا ان القول بالتقليد باطل ❁ قوله تعالى (أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ام عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ام لهم ملك السموات والارض ومابينهما فليرتقوا فى الاسباب جند ماهنالك مهزوم من الاحزاب) اعلم ان هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهى الشبهة المتعلقة بالنبوات وهى قولهم ان محمدا لما كان مساويا لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة فكيف يعقل ان يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة وهو المراد من قولهم أأنزل عليه الذكر من بيننا فانه استفهام على سبيل الانكار وحكى الله تعالى عن قوم صالح انهم قالوا مثل هذا القول فقالوا أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب اشر وحكى الله تعالى عن قوم محمد صلى الله عليه وسلم ايضا انهم قالوا ولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة ان قالوا النبوة اشرف المراتب فوجب ان لاتحصل الا لاشرف الناس ومحمد ليس اشرف الناس فوجب ان لاتحصل له النبوة والمقدمتان الاوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم انهم ظنوا ان الشرف لايحصل الا بالمال والاعوان وذلك باطل فان مراتب السعادة ثلاثة اعلاها هى النفسانية واوسطها هى البدنية وادونها هى الخارجية

القرآن ولذلك شكوا فيه (ام عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) بل أعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاؤن حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عن شاؤا ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى ان النبوة عطية من الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لامانع له فانه العزيز اى الغالب الذى لايغالب الوهاب الذى له ان يهب كل مايشاء لكل من يشاء وفى اضافة اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ الى الكمال الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه واللطف به مالا يخفى وقوله تعالى (ام لهم ملك السموات والارض ومابينهما) ترشيح لما سبق اى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الامور الربانية ويتحكموا فى التدابير الالهيه التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى (فليرتقوا فى الاسباب) جواب شرط محذوف اى ان كان لهم ماذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها العرش حتى يستووا عليه ويدبروا امر العالم وينزلوا الوحى الى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهكم بهم مالاغاية وراءه والسبب فى الاصل هو الوصلة وقيل المراد بالاسباب السموات لانها اسباب الحوادث السفلية وقيل ابوابها (جند ماهنالك مهزوم من الاحزاب) اى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون وما مزيدة

للتقليل والتحقير نحو قولك أكلت شيئا ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك اشارة الى حيث وضعوا فيه انفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم (وهى)

وهي المال والجاه فالقوم عكسوا القضية وظنوا ان اخس المراتب اشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره اكثر ظنوا ان غيره اشرف منه فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في افكارهم ثم انه تعالى اجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله تعالى بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب وفيه وجهان (احدهما) ان قوله بل هم في شك من ذكرى اى من الدلائل التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لان كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة واما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في ابطال النبوة ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته فحيث لم يعرفوا ذلك كان لاجل انهم تركوا النظر والاستدلال فاما قوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب فموقعه من هذا الكلام انه تعالى يقول هؤلاء انما تركوا النظر والاستدلال لاني لم اذقهم عذابي ولو ذاقوه لم يقع منهم الا الاقبال على اداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) ان يكون المراد من قوله بل هم في شك من ذكرى هو ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ثم انهم اصروا على الكفر ولم ينزل عليهم العذاب فصار ذلك سببا لشكهم في صدقه وقالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فقال بل هم في شك من ذكرى معناه ما ذكرناه وقوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب معناه ان ذلك الشك انما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثاني) من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب من تلك الشبهة قوله تعالى ام عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب وتقرير هذا الجواب ان منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب ان يكون عزيزا اى كامل القدرة ووهابا اى عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى واذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود لم يتوقف كونه واهبا لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنيا او فقيرا ولم يختلف ذلك ايضا بسبب ان اعداءه يحبونه او يكرهونه (والوجه الثالث) في الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى ام لهم ملك السموات والارض وما بينهما فليرتقوا في الاسباب واعلم انه يجب ان يكون المراد من هذا الكلام مغايرا للمراد من قوله ام عندهم خزائن رحمة ربك والفرق ان خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال وان من شيء الا عندنا خزائنه ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والارض فلما ذكر الخزائن اولا على عمومها اردفها بذكر ملك السموات والارض وما بينهما يعني ان هذه الاشياء احد انواع خزائن الله فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان اولى فهذا ما أمكنني ذكره في الفرق بين الكلامين اما قوله تعالى فليرتقوا في الاسباب فالمعنى انهم ان ادعوا ان لهم ملك السموات والارض فعند هذا يقال لهم ارتقوا في الاسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها الى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا امر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي

وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد) الخ استئناف مقرر لمضمون ماقبله ببيان احوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند ما من جنودهم مما فعلوا (١٧٧) من التكذيب وفعل بهم من العقاب وذو الاوتاد معناه ذو الملك الثابت اصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده فاستعير لثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الامر قال الاسود بن يعفر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة
في ظل ملك ثابت الاوتاد

او ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لان بعضهم يشد بعضا كالوتد يشد البناء وقيل نصب اربع سوار وكان يمد يدى المعذب ورجليه اليها ويضرب عليها اوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين اربعة اوتاد في الارض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له اوتاد وحبال يلعب بها بين يديه (وثمود وقوم لوط واصحاب الايكة) اصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى (أولئك الاحزاب) اما بدل من الطوائف المذكورة كما ان ذلك الكتاب بدل من الم على احد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه على انهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى (ان كل الا كذب الرسل) استئناف جيء به تقريرا لتكذيبهم وبيانا لكيفيته وتمهيدا لما يعقبه اى ما كل احد من آحاد أولئك الاحزاب او ما كل حزب منهم الا كذب الرسل لان تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعا لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب الا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وايا ما كان فالاستثناء مفرغ من اعم العام في خبر المبتدأ اى ما كل احد منهم محكوما عليه بحكم الا محكوما عليه بانه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبرا عنه بخبر الا مخبر عنه بانه كذب الرسل وفي اسناد التكذيب الى الطوائف المذكورة على وجه الابهام اولا والايذان بأن كلا منهم حزب على (٢٣) (را) (سا) حياله تحزب على رسوله ثانيا وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثا فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق اشد العذاب وافظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى (فحق عقاب) اى ثبت

ووقع على كل منهم عقابي الذي كانت توجيه جناياتهم من اصناف العقوبات المفصلة في مواقعها واما مبتدأ وقوله تعالى ان كل الا كذب الرسل خبره بحذف العائد اى ان كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لما قبله مؤكد (١٧٨) لمضمونه مع مافيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على انهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما ذكر وقيل هو مبتدأ وخبر والمعنى ان الاحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وانهم الذين وجد منهم التكذيب فتدبروا واما ماقيل من انه خبر والمبتدأ قوله تعالى وعاد الخ او قوله وقوم لوط الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله (وما ينظر هؤلاء) شروع في بيان عقاب كفار مكة اثر بيان عقاب اضرابهم من الاحزاب الذين اخبر فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فان ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه الى بيانه قطعا وفي الاشارة اليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لامرهم واما جعله اشارة الى الاحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر او حضورهم في علم الله عز وجل فليس في حيز الاحتمال اصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة او استهزاء انما يتصور في حق من لم يترتب على اعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الاحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما اريد بيانه من عقوباتهم امر منتظر وانما الذين في مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لاشد العقوبات مثل ما ارتكب الاحزاب او اشد منه ولم يلاقوا بعد شيئا من غوائلها اى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم امثال اولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب (الا صيحة واحدة) هي النفخة الثانية لا بمعنى ان عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهول فانها داهية يعم هولها جميع الامم برها وفاجرها بل بمعنى انه ليس بينهم وبين حلول ما اعد لهم من العقاب القطيع الالهى حيث اخرت عقوبتهم الى الآخرة لما ان تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي عليه (المعذب) الصلاة والسلام بين اظهرهم خارج عن السنة الالهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم

على من يختارون واعلم ان حكماء الاسلام استدلوا بقوله فليرتقوا في الاسباب على ان الاجرام الفلكية وما اودع الله فيها من القوى والخواص اسباب لحوادث العالم السفلى لان الله تعالى سمى الفلكيات اسبابا وذلك يدل على ماقلناه والله اعلم اما قوله تعالى جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب ففيه مقامان من البحث (احدهما) في تفسير هذه الالفاظ (والثاني) في كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الاول) فقوله جند مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لامر ما وعندى طعام ما ومن الاحزاب صفة لجند ومهزوم خبر المبتدأ واما قوله هنالك فيجوز ان يكون صفة لجند اى جند ثابت هنالك ويجوز ان يكون متعلقا بمهزوم معناه ان الجند من الاحزاب مهزوم هنالك اى في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثاني) فهو انه تعالى لما قال ان كانوا يملكون السموات والارض فليرتقوا في الاسباب ذكر عقيبه انهم جند من الاحزاب منهزمون ضعيفون فكيف يكونون مالكي السموات والارض وما بينهما قال قتادة هنالك اشارة الى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة انه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر وقيل يوم الخندق والاصوب عندى حمله على يوم فتح مكة وذلك لان المعنى انهم جند سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب ان يكون المراد انهم سيصيرون منهزمين في مكة وما ذاك الا يوم الفتح والله اعلم * قوله تعالى

(كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط واصحاب الايكة أولئك الاحزاب ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق) اعلم انه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم انهم انما توانوا وتكاسلوا في النظر والاستدلال لاجل انهم لم ينزل بهم العذاب بين تعالى في هذه الآية ان أقوام سائر الانبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب والمقصود منه تخويف اولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في اخباره عن نزول العقاب عليهم فذكر الله ستة اصناف منهم اولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثاني) عاد قوم هود لما كذبوه اهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى اهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) اصحاب الايكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة قالوا وانما وصف الله فرعون بكونه ذا الاوتاد لوجوه (الاول) ان اصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب باوتاده ثم استعير لاثبات العز والملك قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد

قال القاضي حمل الكلام على هذا الوجه اولى لانه لما وصف بتكذيب الرسل فيجب فيما وصف به ان يكون تفخيما لامر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة امره أبلغ (والثاني) انه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي

واماماقيل من انها النفخة الاولى فمما لاوجه له اصلا لما انه لايشاهد هولها ولايصعق بها الامن كان حيا عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخرا اليها بل يحل (١٧٩) بهم من حين موتهم (مالهامن فواق) اى من توقف مقدار فواق وهو مابين الحلبتين وقرئ بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم الى الآخرة اى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عجل لنا قطعنا من العذاب الذى توعدنابه ولا تؤخره الى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشئ من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لانها قطعة من القرطاس وقد فسر بها اى عجل لنا صحيفة اعمالنا لننظر فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدالله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزؤبه عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للامعان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال (اصبر على مايقولون) من امثال هذه المقالات الباطلة (واذكر) لهم (عبدنا داود) اى قصته تهويلا لامر المعصية فى أعينهم وتنبيها لهم على كمال قبح مااجترؤا عليه من المعاصى فانه عليه الصلاة والسلام مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه واناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الاذلين من كل ذليل لاكبر الكبائر المصرين على المعاصى اوتذكر قصته عليه الصلاة والسلام وصن نفسك ان تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل اذيتهم كى لايلقاك مالقيه من المعاتبة (ذاالايد) اى ذا القوة يقال فلان ايد وذوايد وآد بمعنى واياد كل شئ مايتقوى به (انه اواب) رجاع الى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الايد ودليل على ان المراد به القوة فى الدين فانه عليه الصلاة والسلام كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل (انا سخرنا الجبال معه) استئناف مسوق

المعذب ورجليه الى تلك الخشب الاربع ويضرب على كل واحد من هذه الاعضاء وتدا ويتركه معلقا فى الهواء الى ان يموت (والثالث) انه كان يمد المعذب بين اربعة أوتاد فى الارض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتادا وارسانا وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) ان عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيرى الاهبة عظيمى النعم وكانوا يكثرون من الاوتاد لاجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الاوتاد والجموع الكثيرة وسميت الجموع اوتادا لانهم يقررون أمره ويشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء واما الايكة فهى الغيضة الملتفة ثم قال تعالى اولئك الاحزاب وفيه أقوال (الاول) ان هؤلاء الذين ذكرناهم من الامم هم الذين تحزبوا على انبيائهم فأهلكناهم فكذلك نفعل بقومك لانه تعالى بين بقوله جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم جند من الاحزاب اى من جنس الاحزاب المتقدمين فلما ذكر انه عامل الاحزاب المتقدمين بالاهلاك كان ذلك تخويفا شديدا لقوم محمد صلى الله عليه وسلم (الثانى) ان معنى قوله اولئك الاحزاب مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة كما يقال فلان هو الرجل والمعنى ان حال أولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين واعلم ان هؤلاء الاقوام ان صدقوا بهذه الاخبار فهو تحذير وان لم يصدقوا بها فهو تحذير ايضا لان آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ولان ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر ايضا ثم قال ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب اى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم فى الترغيب والترهيب لاجرم نزل العقاب عليهم وان كان ذلك بعد حين والمقصود منه زجر السامعين ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق وفى تفسير هذه الصيحة قولان (الاول) ان يكون المراد عذابا يفجأهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

ويشبه ان يكون اصل ذلك من الغارة اذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ونظيره قوله تعالى فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية (والقول الثانى) ان هذه الصيحة هى صيحة النفخة الاولى فى الصور كما قال تعالى فى سورة يس ماينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابى فى الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذى ينتظر الشئ فهو ماد الطرف اليه يطمع كل ساعة فى حضوره ثم انه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال مالها من فواق قرأ حمزة والكسائى فواق بضم الفاء والباقون بفتحها قال الكسائى والفراء وابو عبيدة والاخفش هما لغتان من فواق الناقة وهو مابين حلبتى الناقة واصله من الرجوع يقال افاق من مرضه اى رجع الى الصحة فالزمان

لتعليل قوله فى الذين واوابيته الى مرضاته تعالى ومع متعلقة بالتسخير وايثارها على اللام لما اشير اليه فى سورة الانبياء من ان تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف (١٨٠) الكلى فيهـا اليه عليه الصلاة والسلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو اقرب بالنسبة الى ما فى سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام (يسبحن) اى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له او بخلق الله تعالى فيها الكلام او بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال او استئناف مبين لكيفية التسخير (بالعشى والاشراق) اى ووقت الاشراق وهو حين تشرق الشمس اى تضئ ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى واما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن ام هانئ رضى الله عنها انه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه صلاة الاشراق وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت صلاة الضحى الا بهذه الآية (والطير) عطف على الجبال (محشورة) حال من الطير والعامل سخرنا اى وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت اليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرئ والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية (كل له اواب) استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه اجمالا من تسبيح الطير اى كل واحد من الجبال والطير لاجل تسبيحه رجاع الى التسبيح ووضع الاواب موضع المسبح اما لانها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لانه يرجع الى فعله رجوعا بعد رجوع واما لان الاواب هو التواب الكثير الرجوع الى الله تعالى ومن دأبه اكثار الذكر وادامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله عز وجل اى كل من داود والجبال والطير لله اواب اى مسبح مرجع للتسبيح (وشددنا ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود وقرئ بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه اربعون (ذلك)

الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن الى الضرع يسمى فواقا بالفتح وبالضم كقولك قصاص الشعر وقصاصه قال الواحدى والفواق والفواق اسمان من الافاقة والافاقة معناها الرجوع والسكون كافاقة المريض الا أن الفواق بالفتح يجوز ان يقام مقام المصدر والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن الى الضرع وروى الواحدى فى البسيط عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى هذه الآية يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الفزع قال فيمدها ويطولها وهى التى يقول مالها من فواق ثم قال الواحدى وهذا يحتمل معنيين (احدهما) مالها سكون (والثانى) مالها رجوع والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع الى السكون ويقال لكل من بقى على حالة واحدة انه لا يفيق منه ولا يستفيق والله اعلم * قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه اواب) اعلم انا ذكرنا فى تفسير قوله وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ان القوم انما تعجبوا لشبهات ثلاث (أوليها) تتعلق بالالهيات وهو قوله اجعل الآلهة الها واحدا (والثانية) تتعلق بالنبوات وهو قوله أانزل عليه الذكر من بيننا (والثالثة) تتعلق بالمعاد وهو قوله تعالى وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وذلك لان القوم كانوا فى نهاية الانكار للقول بالحشر والنشر فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته والقط القطعة من الشئ لانه قطع منه من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد المؤمنين بالجنة قالوا على سبيل الاستهزاء عجل لنا نصيبنا من الجنة أو عجل لنا صحيفة اعمالنا حتى ننظر فيها واعلم ان الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالوا انه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء عجل لنا قطنا امره الله بالصبر على سفاهتهم فقال اصبر على ما يقولون فان قيل أى تعلق بين قوله اصبر على ما يقولون وبين قوله واذكر عبدنا داود قلنا بيـان هذا التعلق من وجوه (الاول) كأنه قيل ان كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وانكارهم الحشر والنشر فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر فان بقدر ما يزداد احد الضدين شرفا يزداد الضد الآخر نقصانا (والثانى) كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم لا يضيق صدرك بسبب انكارهم لقولك ودينك فانهم اذا خالفوك فالاكابر من الانبياء وافقوك (والثالث) ان الناس فى قصة داود قولين منهم من قال انها تدل على ذنبه ومنهم من قال انها لا تدل عليه (فمن قال بالاول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ان حزنك ليس الا لان الكفار يكذبونك واما حزن داود فكان بسبب وقوعه فى ذلك الذنب ولا شك ان حزنه اشد فتأمل فى قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما انت فيه من الحزن (ومن قال بالثانى) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر وانما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ومع

ذلك فلم يتعرض لايذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ماسيجيء تقرير هذه الطريقة فلاجرم أمر الله تعالى محمدا عليه السلام بان يقتدى به في حسن الخلق (والخامس) ان قريشا انما كذبوا محمدا عليه السلام واستخفوا به لقولهم في اكثر الامر انه يتيم فقير ثم انه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ثم بين انه مع ذلك ماسلم من الاحزان والغموم ليعلم ان الخلاص عن الحزن لاسبيل اليه في الدنيا (والسادس) ان قوله تعالى اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الانبياء فكأنه قال فاصبر على مايقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلم ان كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فحينئذ يعلم ان الدنيا لاتنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله لايحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ماتقدم وسيجيء ذكره ان شاء الله تعالى عند الانتهاء الى تفسير قوله كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته واعلم انه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الانبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الاجمال (فالقصة الاولى) قصة داود واعلم ان مجامع ماذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالاول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثاني) شرح تلك الواقعة التي وقعت له من امر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى اياه بعد وقوع تلك الواقعة (اما النوع الاول) وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة (الاول) قوله لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود فأمر محمدا صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بان يقتدى في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم واكرام تام لداود حيث امر الله أفضل الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقتدى به في مكارم الاخلاق (والثاني) انه قال في حقه عبدنا داود فوصفه بكونه عبدا له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك غاية التشريف ألا ترى انه سبحانه وتعالى لما اراد ان يشرف محمدا عليه السلام ليلة المعراج قال سبحان الذي اسرى بعبده فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته ايضا فان وصف الله تعالى الانبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة (والثالث) قوله ذا الايد أي ذا القوة على اداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي وذلك لانه تعالى لما مدحه بالقوة وجب ان يكون تلك القوة موجبة للمدح والقوة التي توجب المدح العظيم ليست الا القوة على فعل ماامر به وترك مانهى عنه والايد المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله يايحيى خذ الكتاب بقوة وقوله تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة أي باجتهاد في اداء الامانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك اظهار الوهن والضعف والايد

الف مستلم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن اقامة البينة فاوحى الله تعالى اليه في المنام ان اقتل المدعى عليه فتأخر فاعيد الوحي في اليقظة فاعلم الرجل فقال ان الله تعالى لم يأخذني (١٨١) بهذا الذنب ولكن بأني قتلت ابا هذا غيلة فقال الناس ان اذنب احد ذنبا اظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته في القلوب (وآتيناه الحكمة) النبوة وكمال العلم واتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة (وفصل الخطاب) اى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل او الكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعي فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاظهار والاضمار والحذف والتكرار ونحوها وانما سمي به امابعد لانه يفصل المقصود عما سبق تمهيدا له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذي ليس فيه ايجاز مخل ولا اطناب ممل كما جاء في نعت كلام النبوة فصل لانزر ولاهذر (وهل اتاك نبأ الخصم) استفهام معناه التعجيب والتشويق الى استماع مافي حيزه لايذانه بانه من الانباء البديعة التي حقها ان تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم في الاصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد ومافوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان (اذ تسوروا المحراب) اذ تصعدوا سوره ونزلوا اليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه اذا علا سنامه وتذراه اذا علا ذروته واذ متعلقة بمحذوف اى نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا او بالنبأ على ان المراد به الواقع في عهد داود عليه السلام وان اسناد الاتيان اليه على حذف مضاف اى قصة نبأ الخصم او بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا بأتى لان اتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذ وقوله تعالى (اذ دخلوا على داود) بدل مما قبله او ظرف لتسوروا (ففزع منهم) روى انه تعالى بعث اليه ملكين في صورة انسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا ان يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر الا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لانهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة

والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما ان داود عليه السلام جزأ زمانه اربعة اجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ (١٨٢) والتذكير (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية

والقوة سواء ومنه قوله تعالى هو الذى أيدك بنصره وقوله تعالى وأيدناه بروح القدس وقال والسماء بنيناها بأيد وعن قتادة أعطى قوة فى العبادة وفقها فى الدين وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله انه أواب اى ان داود كان رجاعا فى اموره كلها الى طاعتى والاواب فعال من آب اذا رجع كما قال تعالى ان الينا ايابهم وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ونظير هذه الآية قوله تعالى ياجبال أوبى معه والطير وفيه مباحث (البحث الاول) فيه وجوه (الاول) ان الله سبحانه خلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقا وحينئذ صار الجبل مسبحا لله تعالى ونظيره قوله تعالى فلما تجلى ربه للجبل فان معناه انه تعالى خلق فى الجبل عقلا وفهما ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثانى) فى التأويل ما رواه القفال فى تفسيره انه يجوز ان يقال ان داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن وما يصغى الطير اليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وذكر محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط احدا من خلقه مثل صوت داود حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ باعناقها (الثالث) ان الله سبحانه سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحا لانه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف يسبحن فى معنى مسبحات فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوى فى كتاب دلائل الاعجاز اذا ثبت هذا فنقول قوله يسبحن يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شئ وحالا بعد حال وكان السامع محاضر تلك الجبال يسمعها تسبح (البحث الثالث) قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت واشرقت اذا اضاءت وقيل هما بمعنى والاول اكثر تقول العرب شرقت الشمس ولما يشرق (البحث الرابع) احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية عن ام هانئ قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال ياام هانئ هذه صلاة الاشراق وعن طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل فى نفسى شئ من صلاة الضحى حتى وجدتها فى قوله يسبحن بالعشى والاشراق (الصفة السادسة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى والطير محشورة كل له اواب وفيه مباحث (البحث الاول) قوله والطير معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة قال ابن عباس رضى الله عنهما كان داود اذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت اليه الطير فسبحت معه واجتماعها اليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع

فزعه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفزعه فقيل قالوا ازالة لفزعه (لاتخف خصمان) اى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بغى بعضنا على بعض) هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط) اى لاتجر فى الحكومة وقرئ ولا تشطط اى لاتبعد عن الحق وقرئ ولاتشطط ولاتشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق (واهدنا الى سواء الصراط) الى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وارشاده الى منهاج العدل (ان هذا اخى) استئناف لبيان ما فيه الخصومة اى اخى فى الدين اوفى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح مافعل به صاحبه (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) هى الانثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض ابلغ فى المقصود وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وقرئ ولى نعجة بسكون الياء (فقال اكفلنيها) اى ملكنيها وحقيقته اجعلنى اكفلها كما اكفل ماتحت يدى وقيل اجعلها كفلى اى نصيبى (وعزنى فى الخطاب) اى غلبنى فى مخاطبته اياى محاجة بان جاء بحجاج لم اقدر على رده اوفى مغالبته اياى فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطابا اى غالبنى فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرئ وعازنى اى غالبنى وعزنى بتخفيف الزاى طلبا للخفة وهو تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت ومست

(قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه)جواب قسم محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى انكار فعل (انه) صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها مع ان له قطيعا منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه

عليه اوبناء على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمنه معنى الاضافة والضم (وان كثيرا من الخلطاء) اى الشركاء الذين خلطوا اموالهم (١٨٣) (ليبغى) ليتعدى وقرئ بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة

انه لاعقل لها فلنا لايبعد ان يقال ان الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف قوله محشورة فى مقابلة يسبحن الا انه ليس فى الحشر مثل ما كان فى التسبيح من ارادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شئ فلا جرم جئ به اسما لافعلا وذلك انه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير ان الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله اعلم (البحث الثالث) قرئ والطير محشورة بالرفع (الصفة السابعة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى كل له اواب ومعناه كل واحد من الجبال والطير اواب اى رجاع اى كلما رجع داود الى التسبيح جاوبته فهذه الاشياء ايضا كانت ترجع الى تسبيحاتها والفرق بين هذه الصفة وبين ماقبلها ان فيما سبق علمنا ان الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى قوله كل له اواب لله تعالى اى كل من داود والجبال والطير لله اواب اى مسبح مرجع للتسبيح (الصفة الثامنة) قوله تعالى وشددنا ملكه اى قويناه وقال تعالى سنشد عضدك بأخيك وقيل شددنا على المبالغة واما الاسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة وهى اما الاسباب الدنيوية اولدينية اما الاول فذكروا فيه وجهين (الاول) روى الواحدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون الف رجل فاذا اصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله وزاد آخرون فذكروا اربعين الفا قالوا وكان اشد ملوك الارض سلطانا وعن عكرمة عن ابن عباس ان رجلا ادعى عند داود على رجل انه اخذ منه بقرة فانكر المدعى عليه فقال داود للمدعى اقم البينة فلم يقمها فرأى داود فى منامه ان الله يأمره ان يقتل المدعى عليه فتثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعد ذلك بان يقتله فاحضره واعلمه ان الله امره بقتله فقال المدعى عليه صدق الله انى كنت قتلت ابا هذا الرجل غيلة فقتله داود فهذه الواقعة شددت ملكه واما الاسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل (الصفة التاسعة) قوله وآتيناه الحكمة واعلم انه تعالى قال ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا واعلم ان الفضائل على ثلاثة اقسام النفسانية والبدنية والخارجية والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل اما العلم فهو ان تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية واما العمل فهو ان يكون الانسان آتيا بالعمل الاصلح الاصوب بمصالح الدنيا والآخرة فهذا هو الحكمة وانما سمى هذا بالحكمة لان اشتقاق الحكمة من احكام الامور وتقويتها وتبعيدها عن اسباب الرخاوة والضعف والاعتقادات الصائبة الصحيحة لاتقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الاحكام واما الاعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فانها واجبة الرعاية ولاتقبل النقض والنسخ فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الاعمال بالحكمة (الصفة العاشرة)

وحذفها وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة (بعضهم على بعض) غير مراع لحق الصحبة والشركة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) منهم فانهم يتحامون عن البغى والعدوان (وقليل ماهم) اى وهم قليل وما مزيدة للابهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض (وظن داود انما فتناه) الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة اى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما قضى بينهما نظر احدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام انه تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والاثبات فيها كما فى مثل قولك انما ضربت زيدا وانما ضربته تأديبا بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى مايغايره من الافعال لكن لا باعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية الفعل فانه غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الافعال المخصوصة ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو اثره فى الحقيقة فان معنى نصر مثلا فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة مايتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والاثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام انما فعلنا به الفتنة لاغير قيل ابتليناه بامرأة اوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وايثار طريق التمثيل لانه ابلغ فى التوبيخ

فان التأمل فيه اذا أداه الى الشعور بماهو الغرض كان اوقع فى نفسه واعظم تأثيرا فى قلبه وادعى الى التنبه للخطأ مع مافيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والاشعار (١٨٤) بأنه امر يستحى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لالجائه عليه الصلاة والسلام الى التصريح بنسبة نفسه الى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على ان اوريا بصدد الخصام (فاستغفر ربه) اثر ماعلم ان ماصدر عنه ذنب (وخر راكعا) اى ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه اوخر للسجود راكعا اى مصليا كانه احرم بركعتى الاستغفار (وأناب) اى رجع الى الله تعالى بالتوبة • واصل القصة ان داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له اوريا فمال قلبه اليها فسأله ان يطلقها فاستحيى ان يرده ففعل فتزوجها وهى ام سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزا فى شريعته معتادا فيما بين امته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا ان ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا اعجبته وقد كان الانصار فى صدر الاسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا انه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على انه لم يكن ينبغى له ان يتعاطى مايتعاطاه آحاد امته ويسأل رجلا ليس له الا امرأة واحدة ان ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه ان يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على مامتحن به وقيل لم يكن اوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثره عليه السلام اهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام ان خطب على خطبة اخيه المسلم هذا واما مايذكر من انه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه واغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك اذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فامتد اليها فطارت فوقعت فى كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها (الصغيرة) فغطى بدنها وهى امرأة لوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب الى ايوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء ان ابعث اوريا وقدمه على

قوله وفصل الخطاب واعلم ان اجسام هذا العالم على ثلاثة اقسام (احدها) ماتكون خالية عن الادراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى يحصل لها ادراك وشعور ولكنها لاتقدر على تعريف غيرها الاحوال التى عرفوها فى الاكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الانسان (وثالثها) الذى يحصل له ادراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الاحوال المعلومة له وذلك هو الانسان وقدرته على تعريف الغير الاحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ثم ان الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير فمنهم من يتعذر عليه ايراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه الى اقصى الغايات وكل من كانت هذه القدرة فى حقه اكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه اكمل وكل من كانت تلك القدرة فى حقه اقل كانت تلك الآثار اضعف ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله وآتيناه الحكمة اردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود اول من قال فى كلامه اما بعد واقول حقا ان الذين يتبعون امثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرمانا عظيما والله اعلم وقول من قال المراد معرفة الامور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد ايضا لان فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل مايخطر بالبال ويحضر فى الخيال بحيث لايختلط شئ بشئ وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام وهذا معنى عام يتناول جميع الاقسام والله اعلم وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام • قوله تعالى (وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) اعلم ان الله تعالى لما مدحه واثنى عليه من الوجوه العشرة اردفه بذكر قصة ليبين بها ان الاحوال الواقعة فى هذه القصة لايبين شئ منها كونه عليه السلام مستحقا للثناء والمدح والتعظيم اما قوله تعالى وهل اتاك نبأ الخصم فهو نظير قوله تعالى هل أتاك حديث موسى وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعيا الى الاصغاء لها والاعتبار بها واقول للناس فى هذه القصة ثلاثة اقوال (احدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على

الصغيرة (وثالثها) بحيث لاتدل على الكبيرة ولا على الصغيرة فأما القول الاول فحاصل كلامهم فيها ان داود عشق امرأة أوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله اليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة والذى أدين به واذهب اليه ان ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الاول) ان هذه الحكاية لو نسبت الى أفسق الناس واشدهم فجورا لاستنكف منها وارجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب الى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه اليها واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم اليه (الثانى) ان حاصل القصة يرجع الى أمرين الى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق والى الطمع فى زوجته (اما الاول) فامر منكر قال صلى الله عليه وسلم من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله (واما الثانى) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وان أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه (والثالث) ان الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ووصفه ايضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ولا بأس باعادة هذه الصفات لاجل المبالغة فى البيان فنقول (اما الصفة الاولى) فهى انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ولو قلنا ان داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى اراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين ان يأمر محمدا افضل الرسل بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله (اما الصفة الثانية) فهى انه وصفه بكونه عبداله وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاما فى القيام باداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ولو قلنا ان داود عليه السلام اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة (الصفة الثالثة) هو قوله ذا الايد اى ذا القوة ولا شك ان المراد منه القوة فى الدين لان القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ولا معنى للقوة فى الدين الا القوة الكاملة على أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات واى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم (الصفة الرابعة) كونه أوابا كثير الرجوع الى الله تعالى وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور (الصفة الخامسة) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه افترى انه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة الى القتل والفجور (الصفة السادسة) قوله والطير محشورة وقيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير وكيف يعقل ان يكون الطير آمنا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه (الصفة السابعة) قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال ان يكون

لتابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له ان يرجع حتى يفتح الله على يديه او يستشهد فقتح الله تعالى على يده وسلم فأمر برده مرة اخرى وثالثة حتى قتل واتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فافك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئس ما مكروه تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع وويل لمن ابتدعه واشاعه وتبا لمن اخترعه واذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل ان قوما قصدوا ان يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده اقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن ان ذلك

المراد انه تعالى شد ملكه باسباب الدنيا بل المراد انه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين واسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لايملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك (الصفة الثامنة) قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ماينبغى علما وعملا فكيف يجوز ان يقول الله تعالى انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على مايستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة اخلص اصحابه فى الروح والمنكوح فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الاكاذيب * واما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الاول) قوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وذكر هذا الكلام انما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله اما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله وان له عندنا لزلفى لائقا به (الثانى) قوله تعالى ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (احدها) ان الملك الكبير اذا حكى عن بعض عبيده انه قصد دماء الناس واموالهم وازواجهم فبعد فراغه من شرح تلك القصة على ملأ من الناس يقبح منه ان يقول عقيبه ايها العبد انى فوضت اليك خلافتى ونيابتى وذلك لان ذكر تلك القبائح والافعال المنكرة يناسب الزجر والحجر فاما جعله نائبا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لايليق (وثانيها) انه ثبت فى اصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ثم قال بعده انا جعلناك خليفة فى الارض أشعر هذا بان الموجب لتفويض هذه الخلافة هو اتيانه بتلك الافعال المنكرة ومعلوم ان هذا فاسد اما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصى والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب ان يذكر عقيبه انا جعلناك خليفة فى الارض فثبت ان هذا الذى نختاره اولى (والثالث) وهو انه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها ايضا دالة على ذلك فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب لجرى مجرى ان يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله خليفة فى ارضه وصوب احكامه وكما ان هذا الكلام مما لايليق بالعاقل فكذا ههنا ومن المعلوم ان ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم ابواب العيوب (والرابع) وهو ان القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية ان داود عليه السلام تمنى ان يحصل له فى الدين كما حصل للانبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ماحصل للخليل من الالقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله اليه انهم انما وجدوا تلك الدرجات لانهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء فأوحى الله اليه انك ستبلى فى يوم كذا فبالغ فى الاحتراز ثم وقعت الواقعة فنقول اول حكايتهم يدل على ان الله تعالى يبتليه بالبلاء

(الذى)

قوله الصفة الثامنة الخ الموافق لما ذكره فى اول القصة ان يجعل قوله وآتيناه الحكمة هى التاسعة وقوله وفصل الخطاب هى العاشرة ويكون اسقط السابع وهو قوله كل له اواب وقوله بعد ذلك واما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة لايخفى مافيه فتأمل

ابتلاء له من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به واناب (فغفرنا له ذلك) اى ما استغفر منه وروى انه عليه الصلاة والسلام بقى ساجدا اربعين يوما وليلة لايرفع رأسه الا لصلاة مكتوبة او لما لابد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب الى رأسه ولم يشرب ماء الاثلثاه دمع وجهد نفسه راغبا الى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا الى نفسه فاجتمع اليه اهل الزيغ من بنى اسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه (وان له عندنا لزلفى) لقربة وكرامة بعد المغفرة (وحسن مآب) حسن مرجع فى الجنة (ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض) اما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل واما مقول قول مقدر هو معطوف على

الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب اخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والافراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة ويثبت ان الحكاية التي ذكروها يناقض اولها آخرها (الخامس) ان داود عليه السلام قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا استثنى الذين آمنوا عن البغي فلو قلنا انه كان موصوفا بالبغي لزم أن يقال انه حكم بعدم الايمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد ان يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك فقلت له لاشك ان داود عليه السلام كان من اكابر الانبياء والرسل ولقد قال الله تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا ان نبالغ في الطعن فيه وايضا فبتقدير انه ما كان نبيا فلا شك انه كان مسلما ولقد قال صلى الله عليه وسلم لاتذكروا موتاكم الا بخير ثم على تقدير انا لانلتفت الى شيء من هذه الدلائل الأأنا نقول ان من المعلوم بالضرورة ان بتقدير ان تكون القصة التي ذكرتموها حقة صحيحة فان روايتها وذكرها لايوجب شيئا من الثواب لان اشاعة الفاحشة ان لم توجب العقاب فلا اقل من ان لاتوجب الثواب واما بتقدير ان تكون هذه القصة باطلة فاسدة فان ذاكرها يستحق اعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت ان الحق ماذهبنا اليه وان شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا (السابع) ان ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي اشاعة الفاحشة فوجب ان يكون محرما لقوله تعالى ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا (الثامن) لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وايضا لو فعل ذلك لكان ظالما فكان يدخل تحت قوله ألا لعنة الله على الظالمين (التاسع) عن سعيد بن المسيب ان علي بن ابي طالب عليه السلام قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الانبياء ومما يقوي هذا انهم لما قالوا ان المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك واما الرابع فانه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل بعيني فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لاجل انهم قذفوا واذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع انه من اكابر الانبياء عليهم السلام (العاشر) روى ان بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال لاينبغي ان يزاد عليها وان كانت الواقعة على ماذكرت ثم انه تعالى لم يذكرها لاجل ان يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام فلا يجوز للعاقل ان يسعى في هتك ذلك الستر بعد الف سنة او اقل او اكثر فقال عمر سماعي هذا الكلام احب الى مما طلعت عليه الشمس فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها ان القصة التي ذكروها فاسدة باطلة فان قال قائل

غفرنا او حال من فاعله اي وقلنا له او قائلين له يا داود الخ اي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين اهلها اوجعلناك خليفة ممن كان قبلك من الانبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على ان حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الله تعالى فان الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما (ولاتتبع الهوى) اي هوى النفس في الحكومات وغيرها من امور الدين والدنيا (فيضلك عن سبيل الله) بالنصب على انه جواب النهي وقيل هو مجزوم بالعطف على النهي مفتوح لالتقاء الساكنين اي فيكون الهوى او اتباعه سببا لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق تكوينا وتشريعا وقوله تعالى (ان الذين يضلون عن سبيل الله) تعليل لما قبله ببيان غائلته واظهار

ان كثيرا من اكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها فالجواب الحقيق انه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من اخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القاطعة اولى وايضا فالاصل براءة الذمة وايضا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم اولى وايضا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا وايضا فنحن نعلم بالضرورة ان بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة واما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها اعظم العقاب وايضا فقال عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب ان لا تجوز الشهادة بها وايضا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الاكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد وايضا اذا تعارضت اقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع الى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة (اما الاحتمال الثانى) وهو ان تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه (الاول) ان هذه المرأة خطبها اوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره اهلها فكان ذنبه ان خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا انه وقع بصره عليها فمال قلبه اليها وليس له فى هذا ذنب البتة اما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب واما حصول الميل عقيب النظر فليس ايضا ذنبا لان هذا الميل ليس فى وسعه فلا يكون مكلفا به بل لما اتفق ان قتل زوجها لم يتأذ تأذيا عظيما بسبب قتله لاجل انه طمع ان يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو انه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (الثالث) انه كان اهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا ان يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة روينا ان الانصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا ان يرده ففعل وهى ام سليمان فقيل له هذا وان كان جائزا فى ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك فان حسنات الابرار سيئات المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى (واما الاحتمال الثالث) وهو ان هذه القصة على وجه لا يلزم الحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام بل يوجب الحاق اعظم انواع المدح والثناء به وهو ان نقول روى ان جماعة من الاعداء طمعوا فى ان يقتلوا نبى الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده اقواما يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبا فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة وليس فى لفظ القرآن ما يمكن ان يحتج به فى الحاق الذنب

سبيل الله فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بكمال شناعة الضلال عنه (لهم عذاب شديد) جملة من خبر ومبتدأ وقعت خبرا لان او الظرف خبر لان وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار (بما نسوا) بسبب نسيانهم وقوله تعالى (يوم الحساب) اما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه اعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فانه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من افراده او ظرف لقوله تعالى لهم اى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته ان يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره

(بداود)

بداود الالفاظ أربعة (احدها) قوله وظن داود انما فتناه (وثانيها) قوله تعالى فاستغفر ربه (وثالثها) قوله واناب (ورابعها) قوله فغفرنا له ذلك ثم نقول وهذه الالفاظ لا يدل شئ منها على ماذكروه وتقريره من وجوه (الاول) انهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب الى ان يشتغل بالانتقام منهم الا انه مال الى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله قال وكانت هذه الواقعة هى الفتنة لانها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ثم انه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (الثانى) انه وان غلب على ظنه انهم دخلوا عليه ليقتلوه الا انه ندم على ذلك الظن وقال لما لم تقم دلالة ولا امارة على ان الامر كذلك فبئسما عملت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردئ فكان هذا هو المراد من قوله وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب منه فغفر الله له ذلك (الثالث) ان دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام الا انه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال فى حق محمد صلى الله عليه وسلم واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فداود عليه السلام استغفر لهم واناب اى رجع الى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل وقوله فغفرنا له ذلك اى غفرنا له ذلك الذنب لاجل احترام داود وتعظيمه كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك ان معناه ان الله تعالى يغفر لك ولاجلك ماتقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب انه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه لكن لانسلم ان تلك الزلة وقعت بسبب المرأة فلم لا يجوز ان يقال ان تلك الزلة انما حصلت لانه قضى لاحد الخصمين قبل ان يسمع كلام الخصم الثانى فانه لما قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الحكم مخالفا للصواب فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة الا ان هذا من باب ترك الافضل والاولى فثبت بهذه البيانات انا اذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه فانه لا يلزم اسناد شئ من الذنوب الى داود عليه السلام بل ذلك يوجب اسناد اعظم الطاعات اليه ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الاول) ان الاصل فى حال المسلم البعد عن المناهى لاسيما وهو رجل من اكابر الانبياء والرسل (والثانى) انه احوط (والثالث) انه تعالى قال فى اول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود فان قوم محمد عليه السلام لما اظهروا السفاهة حيث قالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا به حيث قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال تعالى فى اول الآية اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود فهذا الذكر انما يحسن اذا كان داود عليه السلام قد صبر على ايذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب وهذا المعنى انما يحصل اذا حملنا الآية على ماذكرناه اما اذا حملناها على ماذكروه صار الكلام متناقضا فاسدا (والرابع) ان تلك الرواية انما تمشى

بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فان تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا) كلام مستأنف مقرر لما قبله من امر البعث والحساب والجزاء اى وما خلقناهما ومابينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى تحار فى فهمه العقول خلقا باطلا اى خاليا عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويا على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ماخلقنا نفوسا اودعناها العقل والتميز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وانفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بهاثم لم نقتصر على

اذاقلنا الخصمان كانا ملكين ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة ومابغى احدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذبا فهذه الرواية لاتتم الابشيئين (احدهما) اسناد الكذب الى الملائكة (والثانى) ان يتوسل باسناد الكذب الى الملائكة الى اسناد الفحش القبائح الى رجل كبير من اكابر الانبياء فأما اذا حملنا الآية على ماذكرنا استغنينا عن اسناد الكذب الى الملائكة وعن اسناد القبيح الى الانبياء فكان قولنا اولى فهذا ماعندنا فى هذا الباب والله اعلم باسرار كلامه ونرجع الآن الى تفسير الآيات اماقوله وهل أتاك نبأ الخصم قال الواحدى الخصم مصدر خصمته اخصمه خصما ثم يسمى به الاثنان والجمع ولايثنى ولايجمع يقال هما خصم وهم خصم كما يقال هما عدل وهم عدل والمعنى ذوا خصم وذوو خصم وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام وقوله تعالى اذتسوروا المحراب يقال تسورت السور تسورا اذا علوته ومعنى تسوروا المحراب اى اتوه من سوره وهو اعلاه يقال تسور فلان الدار اذا أتاها من قبل سورها واما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب كما يسمى الشئ باشرف اجزائه وههنا مسئلة من علم اصول الفقه وهى ان اقل الجمع اثنان عند بعض الناس وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية لانه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى اربعة مواضع (احدها) قوله تعالى اذ تسوروا المحراب (وثانيها) قوله اذ دخلوا (وثالثها) قوله منهم (ورابعها) قوله قالوا لاتخف فهذه الالفاظ الاربعة كلها صيغ الجمع وهم كانوا اثنين بدليل انهم قالوا خصمان قالوا فهذه الآية تدل على ان اقل الجمع اثنان (والجواب) لايمتنع ان يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين لانا بينا ان الخصم اذا جعل اسما فانه لايثنى ولايجمع ثم قال تعالى اذ دخلوا على داود والفائدة فيه انهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه فلما قال اذ دخلوا عليه دل على انهم بعد التسور دخلوا عليه قال الفراء وقد يجاء باذ مرتين ويكون معناهما كالواحد كقولك ضربتك اذ دخلت على اذ اجترأت معناه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحدا ثم قال تعالى ففزع منهم والسبب ان داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لامن الطريق المعتاد علم انهم انما دخلوا عليه للشر فلاجرم فزع منهم ثم قال تعالى قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) خصمان خبر مبتدأ محذوف اى نحن خصمان (المسئلة الثانية) ههنا قولان (الاول) انهما كانا ملكين نزلا من السماء وارادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى اقدم عليه (والثانى) انهما كانا انسانين دخلا عليه للشر والقتل فظنا انهما يجدانه خاليا فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر واما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لوكانا ملكين لكانا كاذبين فى قولهما خصمان فانه ليس بين الملائكة خصومة ولكانا كاذبين

ذلك المقدار من الالطاف بل ارسلنا اليهار سلا وانزلنا عليها كتبا بينا فيها كل دقيق وجليل وازحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة واعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب اعمالها (ذلك) اشارة مانفى من خلق ماذكر باطلا (ظن الذين كفروا) اى مظنونهم فان جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ماذكر وخلوه من الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (فويل للذين كفروا) مبتدأ وخبر والفاء لافادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما ان وضع الموصول موضع ضميرهم للاشعار بما فى حيز الصلة بعلية كفرهم له ولاتنافى بينهما لان ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى (من النار) تعليلية كما فى قوله تعالى

فى قولهما بغى بعضنا على بعض ولكانا كاذبين فى قولهما ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة فثبت انهما لوكانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى لايسبقونه بالقول ولقوله ويفعلون مايؤمرون اجاب الذاهبون الى القول الاول عن هذا الكلام بأن قالوا ان الملكين انما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب واجيب عن هذا الجواب بأن ماذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ ومعلوم انه على خلاف الاصل اما اذا حملنا الكلام على ان الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل فحينئذ لزم اسناد الكذب الى شخصين فاسقين فكان هذا اولى من القول الاول والله اعلم واما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الاول) اتفاق اكثر المفسرين عليه (الثانى) انه ارفع منزلة من ان يتسور عليه آحاد الرعية فى حال تعبده فيجب ان يكون ذلك من الملائكة (الثالث) ان قوله تعالى قالوا لاتخف كالدلالة على كونهما ملكين لان من هو من رعيته لايكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) ان قولهما ولا تشطط كالدلالة على كونهما ملكين لان احدا من رعيته لايتجاسر ان يقول له لاتظلم ولاتتجاوز عن الحق واعلم ان ضعف هذه الدلائل ظاهر ولا حاجة الى الجواب والله اعلم (المسئلة الثالثة) بغى بعضنا على بعض اى تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح اذا افرط وجعه وانتهى الى الغاية ويقال بغت المرأة اذا زنت لان الزنا كبيرة منكرة قال تعالى ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء ثم قال فاحكم بيننا بالحق معنى الحكم احكام الامر فى امضاء تكليف الله عليهما فى الواقعة ومنه حكمة الدابة لانها تمنع من الجماح ومنه بناء محكم اذا كان قويا وقوله بالحق أى بالحكم الحق وهو الذى حكم الله به ولاتشطط يقال شط الرجل اذا بعد ومنه قوله شطت الدار اذا بعدت قال تعالى لقد قلنا اذا شططا اى قولا بعيدا عن الحق فقوله ولاتشطط أى لاتبعد فى هذا الحكم عن الحق ثم قال واهدنا الى سواء الصراط وسواء الصراط هو وسطه قال تعالى فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ووسط الشئ أفضله واعدله قال تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا واقول انهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم ولاتشطط وهى نهى عن الباطل (وثالثها) قولهم واهدنا الى سواء الصراط يعنى يجب ان يكون سعيك فى ايجاد هذا الحق وفى الاحتراز عن هذا الباطل ان تردنا من الطريق الباطل الى الطريق الحق وهذا مبالغة تامة فى تقرير المطلوب واعلم انهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الاجمال اردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف اخى بدل من هذا أو خبر لقوله ان والمراد اخوة الدين او اخوة الصداقة والالفة او اخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى وان كثيرا من الخلطاء وكل واحدة من هذه الاخوات توجب الامتناع من الظلم

فويل لهم مما كتبت ايديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الاشعار بعلية مايؤدى اليها من ظلمهم وكفرهم اى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظلمهم وكفرهم (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض) أم منقطعة ومافيها من بل للاضراب الانتقالى عن تقرير امر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خاليا عن الحكم والمصالح الى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من انكار التسوية بين الفريقين ونفيها على ابلغ وجه وآكده اى بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى اقطار الارض كما يقتضيه عدم البعث ومايترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة اوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الاولين الى اعلى عليين ورد الآخرين الى اسفل سافلين وقوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) اضراب

والاعتداء (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ولقوة ولقوة وهى الانثى من العقبان (المسئلة الثالثة) قال الليث النعجة الانثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية والجمع النعجات والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة (المسئلة الرابعة) قرأ عبدالله تسع وتسعون نعجة انثى وهذا يكون لاجل التأكيد كقوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد ثم قال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال صاحب الكشاف اكفلنيها حقيقته اجعلنى اكفلها كما اكفل ما تحت يدى وعزنى غلبنى يقال عزه يعزه والمعنى جاءنى بحجاج لم اقدر ان اورد عليه ما ارده به وقرئ وعازنى من المعازة وهى المغالبة واعلم ان الذين قالوا ان هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا ان المقصود من ذكر النعاج التمثيل لان دواد كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لاوريا الا امرأة واحدة فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل ثم قال تعالى قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه اى بسؤال اضافة نعجتك الى نعاجه وروى انه قال له ان رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا واشار الى الانف والجبهة فقال ياداود انت احق ان نضرب منك هذا وهذا وانت فعلت كيت وكيت ثم نظر داود فلم ير احدا فعرف الحال فان قيل كيف جاز لداود ان يحكم على احد الخصمين بمجرد قول خصمه قلنا ذكروا فيه وجوها (الاول) قال محمد بن اسحق لما فرغ الخصم الاول من كلامه نظر داود الى الخصم الذى لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته والحاصل ان هذا الحكم كان مشروطا بشرط كونه صادقا فى دعواه (والثانى) قال ابن الانبارى لما ادعى احد الخصمين اعترف الثانى فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذكر الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول امرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت قال تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فضرب فانفلق والثالث ان يكون التقدير ان الخصم الذى هذا شأنه يكون قد ظلمك ثم قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض قال الليث خليط الرجل مخالطه وقال الزجاج الخلطاء الشركاء فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغى بعضهم على بعض مع ان غير الخلطاء قد يفعلون ذلك والجواب لاشك ان المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة وذلك لانهما اذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على احوال الآخر فكل ما يملكه من الاشياء النفيسة اذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضى ذلك الى زيادة المخاصمة والمنازعة فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغى والعدوان ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لان مخالطة هؤلاء لا تكون الا لاجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية فلاجرم مخالطتهم لا توجب المنازعة واما الذين تكون مخالطتهم لاجل حب الدنيا لابد وان تصير مخالطتهم سببا لمزيد البغى والعدوان واعلم ان هذا الاستثناء يدل على ان الذين آمنوا

(وعملوا)

والانتقال عن اثبات ما ذكر بلزوم المحال الذى هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الاطلاق الى اثباته بلزوم ما هو اظهر منه استحالة وهو التسوية بين اتقياء المؤمنين واشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ويجوز ان يراد بهذين الفريقين عين الاولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما ادخل فى انكار التسوية من الوصفين الاولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين انا نعطى فى الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت (كتاب) خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن او السورة وقوله تعالى (انزلناه اليك) صفته وقوله تعالى (مبارك) خبر ثان للمبتدأ او صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح وقرئ مباركا على انه حال من مفعول انزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى (ليدبروا آياته) متعلق بانزلناه اى انزلناه ليتفكروا فى

وعملوا الصالحات لايبغى بعضهم على بعض فلوكان داود عليه السلام قدبغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود ان لايكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومعلوم ان ذلك باطل فثبت ان قول من يقول المرادمن واقعة النعجة قصة داود قول باطل ثم قال تعالى وقليل ماهم واعلم ان الحكم بقلة اهل الخير كثير فى القرآن قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وقال داود عليه السلام فى هذا الموضع وقليل ماهم وحكى تعالى عن ابليس انه قال ولا تجدا كثرهم شاكرين وسبب القلة ان الدواعى الى الدنيا كثيرة وهى الحواس الباطنة والظاهرة وهى عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن وكلها تدعو الى الخلق والدنيا واللذة الحسية واماالداعى الى الحق والدين فليس الاالعقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق اكثر من القوة العقلية فيهم فلهذا السبب وقعت القلة فى جانب اهل الخير والكثرة فى جانب اهل الشر قال صاحب الكشاف ومافى قوله وقليل ماهم للابهام وفيه تعجب من قلتهم قالوا اذا أردت ان تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ماعلى قصره وانظر هل بقى له معنى قط ثم قال تعالى وظن داود انما فتناه قالوا معناه وعلم داود انما فتناه اى امتحناه قالوا والسبب الذى اوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا ان داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر احدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء قبل وجهه فعلم داود ان الله ابتلاه بذلك فثبت ان داود علم ذلك وانما جاز حمل لفظ الظن على العلم لان العلم الاستدلالى يشبه الظن مشابهة عظيمة والمشابهة علة لجواز المجاز واقول هذا الكلام انما يلزم اذا قلنا الخصمان كانا ملكين امااذا لم نقل ذلك لايلزمنا حمل الظن على العلم بل لقائل ان يقول انه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والانابة اما قوله فاستغفر ربه اى سأل الغفران من ربه ثم ههنا وجهان ان قلنا بأنه قدصدرت زلة منه حملنا هذا الاستغفار عليها وان لم نقل به قلنافيه وجوه (الاول) ان القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله وانه كان سلطانا شديدالقهر عظيم القوة ثم انه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع فى قلبه عفاعنهم ولم يقل لهم شيئا قرب الامر من ان يدخل فى قلبه شئ من العجب فاستغفر ربه عن تلك الحالة واناب الى الله واعترف بأن اقدامه على ذلك الخير ما كان الا بتوفيق الله فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثانى) لعله هم بايذاء القوم ثم قال انه لم يدل دليل قاطع على ان هؤلاء قصدوا الشر فعفاعنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا الى الله وطلبوا منه ان يستغفر الله لهم لاجل ان يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع الى الله فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة والقرآن مملوء من امثال هذه الوجوه واذا كان اللفظ محتملا لماذكرناه ولم يقم دليل قطعى ولاظنى على التزام المنكرات التى يذكرونها فما الذى يحملنا على التزامها

آياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن اسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعانى الفائقة والتأويلات اللائقة وقرئ ليتدبروا على الاصل ولتدبروا على الخطاب اى انت وعلماء امتك بحذف احدى التاءين (وليتذكر اولوا الالباب) اى وليتعظ به ذوو العقول السليمة اوليستحضروا ماهو كالمركوز فى عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فان الكتب الالهية مبينة لما لايعرف الابالشرع ومرشدة الى مالاسبيل للعقل اليه (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) وقرئ نعم العبد اى سليمان كما ينبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا لوهبنا ولان قوله تعالى (انه اواب) اى رجاع الى الله تعالى بالتوبة او الى التسبيح مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما ان الضمير المجرور فى قوله تعالى (اذ عرض

القول بها وهو الذى يؤكد ان الذى ذكرناه اقرب واقوى ان يقال ختم الله هذه القصة بقوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ومثل هذه الخاتمة انما تحسن فى حق من صدر منه عمل كثير فى الخدمة والطاعة وتحمل أنواعا من الشدائد فى الموافقة والانقياد اما اذا كان المذكور السابق هو الاقدام على الجرم والذنب فان مثل هذه الخاتمة لاتليق به قال مالك بن دينار اذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع فى الجنة ويقال ياداود مجدنى بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا والله أعلم بقى ههنا مباحث (فالاول) قرئ فتناه وفتناه على ان الالف ضمير الملكين (الثانى) المشهور ان الاستغفار انما كان بسبب قصة النعجة والنعاج وقيل ايضا انما كان بسبب انه حكم لاحد الخصمين قبل ان سمع كلام الثانى وذلك غير جائز (الثالث) قوله خر راكعا وأناب يدل على حصول الركوع واما السجود فقد ثبت بالاخبار وكذلك البكاء الشديد فى مدة أربعين يوما ثبت بالاخبار (الرابع) ان مذهب الشافعى رضى الله عنه ان هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لانه توبة نبى فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضى الله عنه بهذه الآية فى سجود التلاوة على ان الركوع يقوم مقام السجود ❁ قوله تعالى (ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وما خلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب) اعلم انه تعالى لما تمم الكلام فى شرح القصة اردفها ببيان انه تعالى فوض الى داود خلافة الارض وهذا من اقوى الدلائل على فساد القول المشهور فى تلك القصة لان من البعيد جدا ان يوصف الرجل بكونه ساعيا فى سفك دماء المسلمين راغبا فى انتزاع ازواجهم منهم ثم يذكر عقيبه ان الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم نقول فى تفسير كونه خليفة وجهان (الاول) جعلناك تخلف من تقدمك من الانبياء فى الدعاء الى الله تعالى وفى سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك انما يعقل فى حق من يصح عليه الغيبة وذلك على الله محال (الثانى) انا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خلفاء الله فى ارضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم ثم قال تعالى فاحكم بين الناس بالحق واعلم ان الانسان خلق مدنيا بالطبع لان الانسان الواحد لاينتظم مصالحه الاعند وجود مدينة تامة حتى ان هذا يحرث وذلك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج وهذا يخيط وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم وينتظم من اعمال الجميع مصالح الجميع فثبت ان الانسان مدنى بالطبع

(وعند)

عليه) راجع اليه عليه الصلاة والسلام قطعا واذ منصوب باذكر اى اذكر ماصدر عنه اذ عرض عليه (بالعشى) هو من الظهر الى آخر النهار (الصافنات) فانه يشهد بانه اواب وقيل ظرف لاواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن الظرفين لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والصافن من الخيل الذى يقوم على طرف سنبك يد او رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لايكاد يتفق الا فى العراب الخلص وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما واما الذى يقف على سنبكه فهو المتخيم (الجياد) جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى جريه وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية اى اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها واذا اجرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو جمع جيد

وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولابد من انسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات وذلك هو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل فثبت انه لا ينتظم مصالح الخلق الا بسلطان قاهر سائس ثم ان ذلك السلطان القاهر السائس ان كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم الى تحصيل مقاصد نفسه وذلك يفضى الى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج فى الخلق وذلك يفضى بالآخرة الى هلاك ذلك الملك اما اذا كانت احكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على احسن الوجوه فهذا هو المراد من قوله فاحكم بين الناس بالحق يعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله الآية وتفسيره ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فينتج ان متابعة الهوى توجب سوء العذاب (أما المقام الاول) وهو ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره ان الهوى يدعو الى الاستغراق فى اللذات الجسمانيات والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التى هى الباقيات الصالحات لانهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر (اما المقام الثانى) وهو ان الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فالامر فيه ظاهر لان الانسان اذا عظم الفه بهذه الجسمانيات ونسى بالكلية احواله الروحانيات فاذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ودخل ديارا ليس له بأهل تلك الديار الف وليس لعينه قوة مطالعة انوار تلك الديار فكأنه فارق المحبوب ووصل الى المكروه فكان لا محالة فى اعظم العناء والبلاء فثبت ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله وثبت ان الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب وهذا بيان فى غاية الكمال ثم قال تعالى بما نسوا يوم الحساب يعنى ان السبب الاول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب لانه لو كان متذكرا ليوم الحساب لما اعرض عن اعداد الزاد ليوم المعاد ولما صار مستغرقا فى هذه اللذات الفاسدة * روى عن بعض خلفاء بنى مروان انه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا ان الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء افضل ام الانبياء ثم تلا هذه الآية ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب * ثم قال تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ونظيره قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائى بهذه الآية على انه تعالى لا يجوز ان يكون خالقا لاعمال العباد قال لانها مشتملة على الكفر والفسق وكلها اباطيل فلما بين تعالى انه ما خلق السموات والارض وما بينهما

روى انه عليه الصلاة والسلام غزا اهل دمشق ونصيبين وأصاب الف فرس وقيل اصابها ابوه من العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها اجنحة فقعد يوما بعد ما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر اوعن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا لله تعالى وبقى مائة فما فى ايدى الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها ابدله الله خيرا منها وهى الريح تجرى بأمره (فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى) قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من الامر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار اواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد للدلالة على ان اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر واصل احببت ان

باطلا دل هذا على انه تعالى لم يخلق اعمال العباد ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وعند المجبرة انه خلق الكافر لاجل ان يكفر والكفر باطل وقد خلق الباطل ثم اكد تعالى ذلك بأن قال ذلك ظن الذين كفروا اى كل من قال بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بان مذهب المجبرة عين الكفر واحتج اصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لاعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لكل ما بين السموات والارض واعمال العباد حاصلة بين السماء والارض فوجب ان يكون الله تعالى خالقا لها (المسئلة الثانية) هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة وذلك لانه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم فاما ان يقال انه خلقهم للاضرار او للانفاع او لا للانفاع ولا للاضرار والاول باطل لان ذلك لا يليق بالرحيم الكريم والثالث ايضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا ان يقال انه خلقهم للانفاع فنقول وذلك الانفاع اما ان يكون فى حياة الدنيا او فى حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم ان هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة وقد لخصناها فى اول سورة يونس بالاستقصاء فلا سبيل الى التكرير فثبت بما ذكرنا انه تعالى ما خلق السماء والارض وما بينهما باطلا واذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازما وان كل من انكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والارض وهذا هو المراد من قوله ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ولما بين الله تعالى على سبيل الاجمال ان انكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل فقال ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار وتقريره انا نرى فى الدنيا من اطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وانواع البلاء ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم واذا كان ذلك قادحا فى الحكمة ثبت ان انكار الحشر والنشر يوجب انكار حكمة الله * ثم قال تعالى كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما انزل هذا القرآن لاجل الخير والرحمة والهداية وهذا يفيد امرين (احدهما) ان افعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) انه تعالى اراد الايمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول انه اراد الكفر من الكافر (المسئلة الثانية) فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول لسائل ان يسأل فيقول انه تعالى حكى فى اول السورة عن المستهزئين من الكفار انهم بالغوا فى انكار البعث

(والقيامة)

يعدى بعلى لانه بمعنى آثرت لكن لما انيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه والخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل انه سماها خيرا لتعلق الخير بها قال عليه الصلاة والسلام الخير معقود بنواصى الخيل الى يوم القيامة وقرئ اى (حتى توارت بالحجاب) متعلق بقوله احببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض اى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت اى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها واضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير للصافنات اى حتى توارت بحجاب الليل اى بظلامه (ردوها على) من تمام مقالة سليمان عليه السلام

والقيامة وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب بل قال اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ومعلوم انه لاتعلق لذكر داود عليه السلام بان القول بالقيامة حق ثم انه تعالى اطنب فى شرح قصة داود ثم اتبعه بقوله وما خلقنا السماء والارض ومعلوم انه لاتعلق لمسئلة اثبات حكمة الله بقصة داود ثم لما ذكر اثبات حكمة الله وفرع عليه اثبات ان القول بالحشر والنشر حق ذكر بعده ان القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة واذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لاتعلق لبعض منها بالبعض فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا هذا تمام السؤال (والجواب) ان نقول ان العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ورآه قد خاض فى ذلك التعصب والاصرار وجب عليه ان يقطع الكلام معه فى تلك المسئلة لانه كلما كان خوضه فى تقريره اكثر كانت نفرته عن القبول اشد فالطريق حينئذ ان يقطع الكلام معه فى تلك المسئلة وان يخوض فى كلام آخر اجنبى عن المسئلة الاولى بالكلية ويطنب فى ذلك الكلام الاجنبى بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسئلة الاولى فاذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الاجنبى ونسى المسئلة الاولى فحينئذ يدرج فى اثناء الكلام فى هذا الفصل الاجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الاول فان ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة فاذا سلمها فحينئذ يتمسك بها فى اثبات المطلوب الاول وحينئذ يصير ذلك الخصم المصر المتعصب منقطعا مفحما اذا عرفت هذا فنقول ان الكفار بلغوا فى انكار الحشر والنشر والقيامة الى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال يا محمد اقطع الكلام معهم فى هذه المسئلة واشرع فى كلام آخر اجنبى بالكلية عن هذه المسئلة وهى قصة داود عليه السلام فان من المعلوم انه لاتعلق لهذه القصة بمسئلة الحشر والنشر ثم انه تعالى اطنب فى شرح تلك القصة ثم قال فى آخر القصة ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق وكل من سمع هذا قال نعم مافعل حيث امره بالحكم بالحق ثم كأنه تعالى قال وأنا لا آمرك بالحق فقط بل انا مع انى رب العالمين لاافعل الا الحق ولا اقضى بالباطل فههنا الخصم يقول نعم مافعل حيث لم يقض الا بالحق فعند هذا يقال لما سلمت ان حكم الله يجب ان يكون بالحق لا بالباطل لزمك ان تسلم صحة القول بالحشر والنشر لانه لو لم يحصل ذلك لزم ان يكون الكافر راجحا على المسلم فى ايصال الخيرات اليه وذلك ضد الحكمة وعين الباطل فبهذا الطريق اللطيف اورد الله تعالى الالزام القاطع على منكرى الحشر والنشر ايرادا لايمكنهم الخلاص عنه فصار ذلك الخصم الذى بلغ فى انكار المعاد الى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة فى الالزام فى القرآن لاجرم وصف القرآن بالكمال والفضل فقال كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب فان من لم

ومرمى غرضه من تقديم ماقدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم انه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلا قال فماذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فطفق مسحا) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الامتثال بالامر أى فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) اى بسوقها واعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته اى ضرب عنقه وقيل جعل يمسح بيده اعناقها وسوقها حبالها واعجابا بها وليس بذاك وقرئ بالسؤق على همز الواو لتضمنها كما فى أدؤر وقرئ بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لامن الالباس (ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب) اظهر ماقيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ماروى مرفوعا انه قال لاطوفن

يتدبرو لم يتأمل ولم يساعده التوفيق الالهى لم يقف على هذه الاسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم حيث يراه فى ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب وهو فى الحقيقة مشتمل على اكمل جهات الترتيب فهذا ماحضرنا فى تفسير هذه الآيات والله التوفيق * قوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد

فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق) واعلم ان هذا هو القصة الثانية وقوله نعم العبد فيه مباحث (الاول) نقول المخصوص بالمدح فى نعم العبد محذوف فقيل هو سليمان وقيل داود والاول اولى لانه اقرب المذكورين ولانه قال بعده انه اواب ولا يجوز ان يكون المراد هو داود لان وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال واذكر عبدنا داود ذا الايد انه اواب فلو قلنا لفظ الاواب ههنا ايضا صفة داود لزم التكرار ولو قلنا انه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيها لابيه فى صفات الكمال فى الفضيلة فكان هذا اولى (البحث الثانى) انه قال اولا نعم العبد ثم قال بعده انه اواب وهذه الكلمة للتعليل فهذا يدل على انه انما كان نعم العبد لانه كان اوابا فيلزم ان كل من كان كثير الرجوع الى الله تعالى فى اكثر الاوقات وفى اكثر المهمات كان موصوفا بأنه نعم العبد وهذا هو الحق الذى لاشبهة فيه لان كمال الانسان فى ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لايتم شئ من الخيرات الا باعانة الله تعالى ومن كان كذلك كان كثير الرجوع الى الله تعالى فكان اوابا فثبت ان كل من كان اوابا وجب ان يكون نعم العبد اما قوله اذ عرض عليه ففيه وجوه (الاول) التقدير نعم العبد هو اذا كان من اعماله انه فعل كذا (الثانى) انه ابتداء كلام والتقدير اذكر يا محمد اذ عرض عليه كذا وكذا والعشى هو من حين العصر الى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر اليها ويقف على كيفية احوالها والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (اولهما) الصافنات قال صاحب الصحاح الصافن الذى يصفن قدميه وفى الحديث كنا اذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا اى قمنا صافنين اقدامنا واقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل فى هذه الآية الجياد قال المبرد والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى كما ان الجواد من الناس هو السريع البذل فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتى وقوفها وحركتها اما حال وقوفها فوصفها بالصفون واما حال حركتها فوصفها بالجودة يعنى انها اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها على احسن الاشكال فاذا جرت كانت سراعا فى جريها فاذا طلبت لحقت واذا طلبت لم تلحق ثم قال تعالى قال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى وفى تفسير هذه اللفظة وجوه (الاول) ان يضمن احببت معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل انبت حب الخير عن ذكر ربى (والثانى) ان احببت بمعنى الزمت والمعنى انى الزمت حب الخيل

الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا اجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه فى السحاب فاشعر به الا ان القى على كرسيه ميتا فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل انه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها واصاب بنتاله تسمى جرادة من احسن الناس فاصطفاها لنفسه واسلمت واحبها وكان لايرقأ دمعها جزعا على ابيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو اليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن فى ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج

عن ذكر ربي اى عن كتاب ربي وهو التوراة لان ارتباط الخيل كما انه فى القرآن ممدوح فكذلك فى التوراة ممدوح (و الثالث) ان الانسان قد يحب شيئا لكنه يحب ان لايحبه كالمريض الذى يشتهى مايزيد فى مرضه والاب الذى يحب ولده الردئ واما من احب شيئا واحب ان يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله احببت حب الخير بمعنى احببت حبي لهذه الخيل ثم قال عن ذكر ربي بمعنى ان هذه المحبة الشديدة انما حصلت عن ذكر الله وامره لاعن الشهوة والهوى وهذا الوجه اظهر الوجوه ثم قال تعالى حتى توارت اقول الضمير فى قوله حتى توارت وفى قوله ردوها يحتمل ان يكون كل واحد منهما عائدا الى الشمس لانه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشى ويحتمل ان يكون كل واحد منهما عائدا الى الصافنات ويحتمل ان يكون الاول متعلقا بالشمس والثانى بالصافنات ويحتمل ان يكون بالعكس من ذلك فهذه احتمالات اربعة لامزيد عليها (فالاول) ان يعود الضميران معا الى الصافنات كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات على والاحتمال الثانى ان يكون الضميران معا عائدين الى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس وروى انه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر فسأل الله ان يرد الشمس فقوله ردوها على اشارة الى طلب رد الشمس وهذا الاحتمال عندي بعيد والذى يدل عليه وجوه (الاول) ان الصافنات مذكورة تصريحا والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور اولى من عوده الى المقدر (الثانى) انه قال انى احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب وظاهر هذا اللفظ يدل على ان سليمان عليه السلام كان يقول انى احببت حب الخير عن ذكر ربي وكان يعيد هذه الكلمات الى ان توارت بالحجاب فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه انه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة الى ان غابت عن عينه وذلك مناسب ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه انه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر الى وقت المغرب وهذا فى غاية البعد (الثالث) انا لو حكمنا بعود الضمير فى قوله حتى توارت الى الشمس وحملنا اللفظ على انه ترك صلاة العصر كان هذا منافيا لقوله احببت حب الخير عن ذكر ربي فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسى الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) انه بتقدير انه عليه السلام بقى مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر فكان ذلك ذنبا عظيما وجرما قويا فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة فى اظهار التوبة فاما ان يقول على سبيل التهور والعظمة لاله العالم ورب العالمين ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقيب ذلك الجرم العظيم فهذا لايصدر عن ابعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده الى الرسول المطهر المكرم (الخامس) ان القادر على تحريك الافلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب ان يقول ردها على ولا يقول ردوها على فان قالوا انما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله ردوها

وحده الى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى باكيا متضرعا وكانت له ام ولد يقال لها امينة اذا دخل للطهارة او لاصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر واخذ الخاتم فختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه فى كل شئ الا فى نسائه وغير سليمان عن هيئته فأتى امينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان الخطيئة قد ادركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال انا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد الى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك اربعين صباحا عدد ماعبد الوثن فى بيته فأنكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم فى البحر

لفظ مشعر بأعظم انواع الاهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) ان الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهدا لكل اهل الدنيا ولو كان الامر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله واظهاره وحيث لم يقل احد ذلك علمنا فساده (السابع) انه تعالى قال اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ثم قال حتى توارت بالحجاب وعود الضمير الى اقرب المذكورين اولى واقرب المذكورين هو الصافنات الجياد واما العشي فابعدهما فكان عود ذلك الضمير الى الصافنات اولى فثبت بما ذكرنا ان حمل قوله حتى توارت بالحجاب على توارى الشمس وان حمل قوله ردوها على ان المراد منه طلب ان يرد الله الشمس بعد غروبها كلام فى غاية البعد عن النظم ثم قال تعالى فطفق مسحا بالسوق والاعناق اى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها واعناقها قال الاكثرون معناه انه مسح السيف بسوقها واعناقها اى قطعها قالوا انه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر الى تلك الخيل استردها وعقر سوقها واعناقها تقربا الى الله تعالى وعندي ان هذا ايضا بعيد ويدل عليه وجوه (الاول) انه لو كان معنى مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى قوله وامسحوا برؤسكم وارجلكم قطعها وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق اما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثاني) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام انواعا من الافعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا الى حيث نسى الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة (وثالثها) انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة (ورابعها) انه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف الامع الخادم الخسيس (وخامسها) انه اتبع المعاصي بعقر الخيل فى سوقها واعناقها وروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه نهى عن ذبح الحيوان الا لأكله فهذه انواع من الكبائر نسبوها الى سليمان عليه السلام مع ان لفظ القرآن لم يدل على شئ منها (وسادسها) ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقيب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بلغوا فى السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم واذكر عبدنا داود فذكر قصة داود ثم ذكر عقيبها قصة سليمان وكان التقدير انه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يكون لائقا لو قلنا ان سليمان عليه السلام اتى فى هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله واعرض عن الشهوات واللذات فاما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع انه اقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع فثبت ان كتاب الله تعالى ينادى على هذه الاقوال الفاسدة بالرد والافساد

فابتلعته سمكة فوقعت فى يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجدا وعاد اليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم اوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمى به وهو جسم لاروح فيه لانه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة والسلام عن حال اهله لان اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (قال) بدل من اناب وتفسيرله (رب اغفر لى) اى ما صدر منى من الزلة (وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى) لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لى مناسبة لحالى فانه عليه الصلاة والسلام لما نشأ فى بيت الملك والنبوة وورثهما معا استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما اولا ينبغى لاحد ان يسلبه منى بعد هذه

(والابطال)

والابطال بل التفسير المطابق للحق لالفاظ القرآن والصواب ان نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه فى دينهم كما انه كذلك فى دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وامر باحضار الخيل وامر باجرائها وذكر انى لا احبها لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما احبها لامر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ثم انه عليه السلام امر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب اى غابت عن بصره ثم امر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها واعناقها والغرض من ذلك المسح امور (الاول) تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من اعظم الاعوان فى دفع العدو (الثانى) انه اراد ان يظهر انه فى ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر اكثر الامور بنفسه (الثالث) انه كان اعلم بأحوال الخيل وامراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها واعناقها حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا ولايلزمنا نسبة شئ من تلك المنكرات والمحذورات واقول انا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع ان العقل والنقل يردها وليس لهم فى اثباتها شبهة فضلا عن حجة فان قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه فما قولك فيه فنقول لنا ههنا مقامان (المقام الاول) ان ندعى ان لفظ الآية لايدل على شئ من تلك الوجوه التى يذكرونها وقد ظهر والحمد لله ان الامر كما ذكرناه وظهوره لايرتاب العاقل فيه (المقام الثانى) ان يقال هب ان لفظ الآية لايدل عليه الا انه كلام ذكره الناس فما قولك فيه وجوابنا ان الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لاتصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن اقوام لايبالى بهم ولايلتفت الى اقوالهم والله اعلم ❊ قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لاحد من بعدى انك انت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) اعلم ان هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا فى المراد من قوله ولقد فتنا سليمان ولاهل الحشو والرواية فيه قول ولاهل العلم والتحقيق قول آخر اما قول اهل الحشو فذكروا فيه حكايات (الاولى) قالوا ان سليمان بلغه خبر مدينة فى البحر فخرج اليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها واخذ بنتا له اسمها جرادة من احسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه واسلمت فأحبها وكانت تبكى ابدا على ابيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة ابيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب الى تلك الصورة بكرة وعشيا مع جوار يها يسجدن لها فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له ام ولد

السلبة اولايصح لاحد من بعدى لعظمته كقولك لفلان ماليس لاحد من الفضل والمال على ارادة وصف الملك بالعظمة لالأن لايعطى احد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف ان يعطى مثله احد فلايحافظ على حدود الله تعالى وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريا على سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين وكون ذلك ادخل فى الاجابة وقرئ لى بفتح الياء (انك انت الوهاب) تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معا لابالاخيرة فقط فان المغفرة ايضا من احكام وصف الوهابية قطعا (فسخرنا له الريح) أى فذللناها لطاعته اجابة لدعوته فعاد امره عليه الصلاة والسلام الى ماكان عليه قبل الفتنة وقرئ الرياح (تجرى بأمره) بيان لتسخيرها له (رخاء) اى لينة من الرخاوة طيبة لاتزعزع وقيل طيعة لاتمتنع عليه كالمأمور المنقاد

يقال لها امينة اذا دخل للطهارة او لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوما فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وقال يا امينة خاتمي فتختم به وجاس على كرسي سليمان فأتى عليه الطير والجن والانس وتغيرت هيئة سليمان فأتى امينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان الخطيئة قدا دركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال انا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم اخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة اربعين يوما عدد ماعبد الوثن في بيته فانكر آصف وعظماء بني اسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن مايدع امرأة منا في دمها ولايغتسل من جنابة وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء الافيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدا لله ورجع اليه ملكه واخذ ذلك الشيطان وادخله في صخرة والقاها في البحر (والرواية الثانية للحشوية) ان تلك المرأة لما اقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها فقال له آصف انك لمفتون بذنبك فتب الى الله (والرواية الثالثة لهم) قالوا ان سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس فقال ارني خاتمك اخبرك فلما اعطاه اياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ثم ذكر الحكاية الى آخرها اذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله ولقد فتنا سليمان ان الله تعالى ابتلاه وقوله والقينا على كرسيه جسدا هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه (والرواية الرابعة) انه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة ايام فسلب ملكه والقى على سريره شيطان عقوبة له واعلم ان اهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الاول) ان الشيطان لو قدر على ان يتشبه بالصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع فلعل هؤلاء الذين رأوهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا اولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لاجل الاغواء والاضلال ومعلوم ان ذلك يبطل الدين بالكلية (الثاني) ان الشيطان لو قدر على ان يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب ان يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ وجب ان يقتلهم وان يمزق تصانيفهم وان يخرب ديارهم ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق اكابر الانبياء اولى (الثالث) كيف يليق بحكمة الله واحسانه ان يسلط الشيطان على ازواج سليمان ولاشك انه قبيح (الرابع) لو قلنا ان سليمان اذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه وان لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه فأما الوجوه التي ذكرها اهل التحقيق في هذا الباب فأشياء (الاول) ان فتنة سليمان انه ولد له ابن فقالت الشياطين ان عاش صار مسلطا علينا مثل ابيه فسبيلنا ان نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته اذ القي ذلك الولد

(حيث أصاب) اى حيث قصد واراد حكى الاصمعي عن العرب اصاب الصواب فاخطأ الجواب (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء وغواص) بدل من الشياطين (وآخرين مقرنين في الاصفاد) عطف على كل بناء داخل في حكم البدل كأنه عليه الصلاة والسلام فصل الشياطين الى عملة استعملهم في الاعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك والى مردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل لكفهم عن الشر والفساد ولعل اجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على الاعمال الصعبة وقد جوز ان يكون الاقران في الاصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لانه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده اعطاه على عكس وعد واوعد وقوله تعالى (هذا) الخ اما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام.

ميتا على كرسيه فتنبه على خطئه فى انه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه واناب (الثانى) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل ان شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجئ به على كرسيه فوضع فى حجره فوالذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا كلهم فى سبيل الله فرسانا اجمعون فذلك قوله ولقد فتنا سليمان (الثالث) قوله ولقد فتنا سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه والقينا على كرسيه منه جسدا وذلك لشدة المرض والعرب تقول فى الضعيف انه لحم على وضم وجسم بلا روح ثم أناب اى رجع الى حال الصحة فاللفظ تحتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة الى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) اقول لا يبعد ايضا ان يقال انه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف او توقع بلاء من بعض الجهات عليه وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ثم انه أزال الله عنه ذلك الخوف واعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب اما قوله تعالى قال رب اغفر لى فاعلم ان الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية فانه لو لا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ويمكن ان يجاب عنه بان الانسان لا ينفك البتة عن ترك الافضل والاولى وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولانهم أبدا فى مقام هضم النفس واظهار الذلة والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم وانى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ولا يبعد ان يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله اعلم ثم قال تعالى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى دلت هذه الآية على انه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا لان سليمان طلب المغفرة اولا ثم بعده طلب المملكة وايضا الآية تدل على ان طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح ابواب الخيرات فى الدنيا لان سليمان طلب المغفرة اولا ثم توسل به الى طلب المملكة ونوح عليه السلام هكذا فعل ايضا لانه تعالى حكى عنه انه قال فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك فان قيل قوله عليه السلام ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى مشعر بالحسد والجواب عنه ان القائلين بان الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغى لاحد من بعدى وهو ان يعطيه الله ملكا لا تقدر الشياطين ان يقوموا مقامه البتة فاما المنكرون لذلك فقد اجابوا عنه من وجوه (الاول) ان الملك هو القدرة فكان المراد اقدرنى على اشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى والدليل على صحة هذا الكلام انه تعالى قال عقيبه فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب فكون الريح جاريا بامره قدرة عجيبة وملك عجيب ولا شك انه معجزة دالة على نبوته فكان قوله هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى هو هذا المعنى لان شرط المعجزة ان لا يقدر غيره على

مبينة لعظم شأن ما اوتى من الملك وانه مفوض اليه تفويضا كليا واما مقول لقول مقدر هو معطوف على سخرنا اوحال من فاعله كما فى خاتمة قصة داود عليه السلام اى وقلنا له او قائلين له هذا الامر الذى اعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك (عطاؤنا) الخاص بك (فامنن او امسك) فاعط من شئت وامنع من شئت (بغير حساب) حال من المستكن فى الامر اى غير محاسب على منه وامساكه لتفويض التصرف فيه اليك على الاطلاق او من العطاء اى هذا عطاؤنا ملتبسا بغير حساب لغاية كثرته اوصلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الاشارة الى تسخير الشياطين والمراد بالمن والامساك الاطلاق والتقييد (وان له عندنا لزلفى) فى الآخرة مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا (وحسن مآب) هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد

معارضتها فقوله لاينبغي لاحد من بعدى يعنى لايقدر أحد على معارضته (والوجه الثانى) فى الجواب انه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة عرف ان خيرات الدنيا صائرة الى الغير بارث اوسبب آخر فسأل ربه ملكا لايمكن ان ينتقل منه الى غيره وذلك الذى سأله بقوله ملكا لاينبغي لأحد من بعدى اى ملكا لايمكن ان ينتقل عنى الى غيرى (والوجه الثالث) فى الجواب ان الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها اشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها فكأنه قال ياالهى اعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى اكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول ان الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب لان هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة والنقد يصعب بيعه بالنسيئة فقال سليمان اعطنى يارب مملكة تكون اعظم الممالك الممكنة للبشر حتى انى أبقى مع تلك القدرة الكاملة فى غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق ان حصول الدنيا لايمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) ان من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب اليها فيظن ان فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة فقال سليمان يارب العزة اعطنى اعظم الممالك حتى يقف الناس على كال حالها فحينئذ يظهر للعقل انه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولايلتفت اليها واشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ثم قال فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث اصاب رخاء اى رخوة لينة وهى من الرخاوة والريح اذا كانت لينة لاتزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة فان قيل أليس انه تعالى قال فى آية اخرى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره قلنا الجواب وجهين (الاول) لامنافاة بين الآيتين فان المراد ان تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة الا انها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثانى) من الجواب ان تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة اخرى ولامنافاة بين الامرين وقوله تعالى حيث اصاب اى قصد وأراد وحكى الاصمعى عن العرب انهم يقولون اصاب الصواب فاخطأ الجواب وعن رؤبة ان رجلين من اهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج اليهما فقال اين تصيبان فقالا ان هذا مطلوبنا وبالجملة فالمقصود انه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجرى بأمره على وفق ارادته ثم قال والشياطين كل بناء وغواص قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله كل بناء وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الابنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وقوله مقرنين يقال قرنهم فى الحبال والتشديد للكثرة والاصفاد الاغلال واحدها صفد والصفد العطية ايضا قال النابغة ٭ ولم اعرض ابيت اللعن بالصفد ٭ فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شدا وثيقا فقد صفدته وكل من أعطيته عطاء جزيلا فقد أصفدته وههنا بحث وهو ان هذه الآيات دالة على

(ان)

الفتنة عشرين سنة وذكر الفقيه ابو حنيفة احمد بن داود الدينورى فى تاريخه ان سليمان عليه السلام ورث ملك ابيه فى عصر كيخسرو ابن سياوش وسار من الشام الى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب الى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام الى مرو ثم الى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف الى ان وافى بلاد فارس فنزلها اياما ثم عاد الى الشام ثم امر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار الى تهامة ثم الى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ماذكره الله تعالى وغزا بلاد المغرب الاندلس وطنجة وغيرهما والله تعالى اعلم

ان الشياطين لها قوة عظيمة و بسبب تلك القوة قدروا على بناء الابنية القوية التى لايقدر عليها البشر وقدروا على الغوص فى البحار واحتاج سليمان عليه السلام الى قيدهم ولقائل ان يقول ان هذه الشياطين اما ان تكون أجسادهم كثيفة او لطيفة فان كان الاول وجب ان يراهم من كان صحيح الحاسة اذلو جاز ان لانراهم مع كثافة اجسادهم فليجز ان تكون بحضرتنا جبال عالية واصوات هائلة ولانراها ولا نسمعها وذلك دخول فى السفسطة وان كان الثانى وهو ان اجسادهم ليست كثيفة بل لطيفة رقيقة فمثل هذا يمتنع ان يكون موصوفا بالقوة الشديدة وايضا لزم ان تتفرق اجسادهم وان تتمزق بسبب الرياح القوية وان يموتوا فى الحال وذلك يمنع من وصفهم ببناء الابنية القوية وايضا الجن والشياطين ان كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة فلم لايقتلون العلماء والزهاد فى زماننا ولم لايخربون ديار الناس مع ان المسلمين مبالغون فى اظهار لعنهم وعداوتهم وحيث لم يحس شئ من ذلك علمنا ان القول باثبات الجن والشياطين ضعيف واعلم ان اصحابنا يجوزون ان تكون اجسامهم كثيفة مع انا لانراها وايضا لايبعد ان يقال اجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ولكنها صلبة بمعنى انها لاتقبل التفرق والتمزق واما الجبائى فقد سلم انها كانت كثيفة الاجسام وزعم ان الناس كانوا يشاهدونهم فى زمن سليمان ثم انه لما توفى سليمان عليه السلام امات الله اولئك الجن والشياطين وخلق نوعا آخر من الجن والشياطين تكون اجسامهم فى غاية الرقة ولايكون لهم شئ من القوة والموجود فى زماننا من الجن والشياطين ليس الا من هذا الجنس ثم قال تعالى هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما اعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب اى ليس عليك حرج فيما اعطيت وفيما امسكت (الثانى) ان هذا فى امر الشياطين خاصة والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فخل عنه واحبس من شئت منهم فى العمل بغير حساب ولما ذكر الله تعالى ما انعم به على سليمان فى الدنيا اردفه بانعامه عليه فى الآخرة فقال وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقد سبق تفسيره ❊ قوله تعالى (واذكر عبدنا ايوب اذنادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الالباب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولاتحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم ان داود وسليمان كانا ممن افاض الله عليه اصناف الآلاء والنعماء وايوب كان ممن خصه الله تعالى بانواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كأن الله تعالى قال يا محمد اصبر على سفاهة قومك فانه ما كان فى الدنيا اكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما السلام وما كان اكثر بلاء ومحنة من ايوب فتأمل فى احوال هؤلاء لتعرف ان احوال الدنيا لاتنتظم لاحد

(واذكر عبدنا ايوب) عطف على اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وايوب هو ابن عيص بن اسحق عليه السلام (اذنادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا وايوب عطف بيان له (انى) بأنى (مسنى الشيطان) بفتح ياء مسنى وقرئ باسكانها واسقاطها (بنصب) اى تعب وقرئ بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل (وعذاب) اى المووصب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر فى قوله انى مسنى الضر وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به بعبارته والا لقيل انه مسه الخ والاسناد الى الشيطان اما لانه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل انه أعجب بكثرة ماله او استغاثه مظلوم فلم يغثه اوكانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه او لامتحان صبره فيكون اعترافا بالذنب او مراعاة للادب اولانه وسوس الى اتباعه حتى رفضوه واخرجوه من ديارهم او لان المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس به اليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع فالتجأ الى الله تعالى فى ان يكفيه ذلك بكشف البلاء او بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل وليس هذا تمام

وان العاقل لابدله من الصبر على المكاره وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ايوب عطف بيان واذبدل اشتمال منه انى مسنى اى بأنى مسنى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ولولم يحك لقال بأنه مسه لانه غائب وقرئ بنصب بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها فالنصب والنصب كالرشد والرشد والعدم والعدم والسقم والسقم والنصب على اصل المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب والمشقة والعذاب والألم واعلم انه كان قدحصل عنده نوعان من المكروه الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات والألم الشديد فى الجسم ولما حصل هذان النوعان لاجرم ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب (المسئلة الثانية) للناس فى هذا الموضع قولان (الاول) ان الآلام والاسقام الحاصلة فى جسمه انما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) انها انما حصلت بفعل الله والعذاب المضاف فى هذه الآية الى الشيطان هو عذاب الوسوسة والقاء الخواطر الفاسدة (واما القول الاول) فتقريره ماروى ان ابليس سأل ربه فقال هل فى عبيدك من لوسلطتنى عليه يمتنع منى فقال الله نعم عبدى ايوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى ابليس عيانا ولا يلتفت اليه فقال يارب انه قدامتنع على فسلطنى على ماله وكان يجيئه ويقول له هلك من مالك كذا وكذا فيقول الله اعطى والله اخذ ثم يحمد الله فقال يارب ان ايوب لايبالى بماله فسلطنى على ولده فجاء وزلزل الدار فهلك اولاده بالكلية فجاءه واخبره به فلم يلتفت اليه فقال يارب لايبالى بماله وولده فسلطنى على جسده فأذن فيه فنفخ فى جلد ايوب وحدثت اسقام عظيمة وآلام شديدة فيه فمكث فى ذلك البلاء سنين حتى صار بحيث استقذره اهل بلده فخرج الى الصحراء وماكان يقرب منه احد فجاء الشيطان الى امرأته وقال لوان زوجك استعان بى لخلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب فأجاب الله دعاءه واوحى اليه ان اركض برجلك فأظهر الله من تحت رجله عينا باردة طيبة فاغتسل منها فأذهب الله عنه كل داء فى ظاهره وباطنه ورد عليه اهله وماله (والقول الثانى) ان الشيطان لاقدرة له البتة على ايقاع الناس فى الامراض والآلام والدليل عليه وجوه (الاول) انالوجوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا انما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعل كل ماحصل عندنا من الخيرات والسعادات فقدحصل بفعل الشيطان وحينئذ لايكون لنا سبيل الى ان نعرف ان معطى الحياة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى (الثانى) ان الشيطان لوقدر على ذلك فلم لايسعى فى قتل الانبياء والاولياء ولم لايخرب دورهم ولم لايقتل اولادهم (الثالث) انه تعالى حكى عن الشيطان انه قال ماكان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فصرح بأنه لاقدرة له فى حق البشر الاعلى القاء الوساوس والخواطر الفاسدة وذلك

دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله وانت ارحم الراحمين فاكتفى ههنا عن ذكره بمافى سورة الانبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بماذكر ههنا وقوله تعالى (اركض برجلك) الخ اما حكاية لماقيل له اومقول لقول مقدر معطوف على نادى اى فقلنا له اركض برجلك اى اضرب بها الارض وكذا قوله تعالى (هذا مغتسل بارد وشراب) فانه ايضا اما حكاية لماقيل له بعد امتثاله بالامر ونبوع الماء اومقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل فضربها فنبعت عين فقلناله هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة للشرب ويأباه ظاهر النظم الكريم وقوله تعالى (ووهبنا له اهله) معطوف على مقدر مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفا كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك مابه من ضر كما فى سورة الانبياء

يدل على قول من يقول ان الشيطان هو الذى القاه فى تلك الامراض والآفات فان قال قائل لم لا يجوز ان يقال ان الفاعل لهذه الاحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان قلنا فاذا كان لابد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والاسقام هو الله تعالى فأى فائدة فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك بل الحق ان المراد من قوله انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب انه بسبب القاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه فى انواع العذاب والعناء ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى ان تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوها (الاول) ان علته كانت شديدة الالم ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له شئ من الاموال البتة وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه الى ان منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم والشيطان كان يذكره النعم التى كانت والآفات التى حصلت وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع الى الله وقال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب لانه كلما كانت تلك الخواطر اكثر كان الم قلبه منها اشد (الثانى) انها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له ان يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط فى قلبه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان (الثالث) قيل ان الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعنى زوجك ازلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك فغلب على ظنه ان الشيطان طمع فى دينه فشق ذلك عليه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه بقى أيوب فى البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد الارجلين ثم قال احدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنبا ما اتى به احد من العالمين ولولاه ما وقع فى مثل هذا البلاء فذكروا ذلك لايوب عليه السلام فقال لا ادرى ما تقولان غير ان الله يعلم انى كنت امر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فارجع الى بيتى فأنفر عنهما كراهية ان يذكر الله تعالى الا فى الحق (الخامس) قيل ان امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجئ به الى ايوب فاتفق انهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع احدى ذؤابتيها على ان تعطيها قدر القوت ففعلت ثم فى اليوم الثانى ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان ايوب عليه السلام اذا أراد ان يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية فى قلبه واشتد غمه فعند ذلك قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (السادس) قال فى بعض الايام يارب لقد علمت ما اجتمع على امر ان الا آثرت طاعتك ولما اعطيتنى المال كنت للارامل قيما ولابن السبيل معينا ولليتامى أبا فنودى من غمامة يا ايوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ ايوب التراب ووضعه على رأسه وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الاول فقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب وقد ذكروا أقوالا اخرى والله

وهبنا له اهله اما باحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن او بجمعهم بعد تفرقهم كما قيل (ومثلهم معهم) عطف على اهله فكان له من الاولاد ضعف ما كان له قبل (رحمة منا) اى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا (وذكرى لأولى الالباب) ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجؤا الى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة (وخذ بيدك ضغثا) معطوف على اركض او على وهبنا بتقدير قلنا اى وقلنا خذ بيدك الخ والاول اقرب لفظا وهذا انسب معنى فان الحاجة الى هذا الامر لا تمس الا بعد الصحة فان امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهب لحاجة فأبطأت فحلف ان برئ ليضربنها مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبضة من الشجر وقال (فاضرب به) اى بذلك

اعلم بحقيقة الحال وسمعت بعض اليهود يقول ان لموسى بن عمران عليه السلام كتابا مفردا فى واقعة ايوب وحاصل ذلك الكتاب ان ايوب كان رجلا كثيرا لطاعة الله تعالى مواظبا على العبادة مبالغا فى التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله ثم انه وقع فى البلاء الشديد والعناء العظيم فهل كان ذلك لحكمة ام لا فان كان ذلك لحكمة فن المعلوم انه ما أتى بجرم فى الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب فى مقابلة ذلك الجرم وان كان ذلك لكثرة الثواب فالاله الحكيم الرحيم قادر على ايصال كل خير ومنفعة اليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والاسقام الكريهة وحينئذ لا يبقى فى تلك الامراض والآفات فائدة وهذه كلمات ظاهرة جلية وهى دالة على ان افعال ذى الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد والحق الصريح انه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (المسئلة الثالثة) لفظ الآية يدل على ان ذلك النصب والعذاب انما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الاول عبارة عما حصل فى بدنه من الامراض وعلى القول الثانى عبارة عن الاحزان الحاصلة فى قلبه بسبب القاء الوساوس وعلى التقديرين فيلزم اثبات الفعل للشيطان واجاب اصحابنا رحمهم الله بانا لا ننكر اثبات الفعل للشيطان لكننا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم اما قوله تعالى اركض برجلك فالمعنى انه لما شكا من الشيطان فكأنه سأل ربه ان يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله اليه بأن قال له اركض برجلك والركض هو الدفع القوى بالرجل ومنه ركضت الفرس والتقدير قلنا له اركض برجلك قيل انه ضرب برجله تلك الارض فنبعت عين فقيل هذا مغتسل بارد وشراب اى هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على انه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه والمفسرون قالوا انبعت له عينان فاغتسل من احداهما وشرب من الاخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه باذن الله وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها ثم قال تعالى ووهبنا له اهله فقد قيل فيه هم عين اهله وزيادة مثلهم وقيل غيرهم مثلهم والاول اولى لانه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه ازلنا عنهم السقم فعادوا اصحاء وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد ان غابوا عنه واجتمعوا بعد ان تفرقوا وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة اما قوله ومثلهم معهم فالاقرب انه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان واضعاف ذلك وقال الحسن رحمه الله المراد بهبة الاهل انه تعالى احياهم بعد ان هلكوا ثم قال رحمة منا اى انما فعلنا كل هذه الافعال على سبيل الفضل والرحمة لا على سبيل اللزوم ثم قال وذكرى لاولى الالباب يعنى سلطنا البلاء عليه اولا فصبر ثم ازلنا عنه البلاء واوصلناه الى الآلاء والنعماء تنبيها لاولى الالباب على ان من صبر ظفر والمقصود منه التنبيه على ماوقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود

(وقالت)

الضغث (ولا تحنث) فى يمينك فان البر يتحقق به ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها اياه ورضاه عنها وهى باقية ويجب ان يصيب المضروب كل واحد من المائة اما بأطرافها قائمة او بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب (انا وجدناه صابرا) فيما اصابه فى النفس والاهل والمال وليس فى شكواه الى الله تعالى اخلال بذلك فانه لا يسمى جزعا كتمنى العافية وطلب الشفاء على انه قال ذلك خيفة الفتنة فى الدين حيث كان الشيطان يوسوس الى قومه بأنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وارادة القوة على الطاعة فقد بلغ اموره الى ان لم يبق منه الا القلب واللسان ويروى انه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته الهى قد علمت انه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ولم يهنى ماملكت يمينى ولم آكل الا ومعى يتيم ولم ابت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع او عريان فكشف الله تعالى عنه (نعم العبد) اى ايوب (انه اواب) تعليل لمدحه اى رجاع الى الله تعالى

وقالت المعتزلة قوله تعالى رحمة مناوذكرى لأولى الالباب يعنى انما فعلناه لهذه الاغراض والمقاصد وذلك يدل على ان افعال الله واحكامه معللة بالاغراض والمصالح والكلام فى هذا الباب قد مر غير مرة اما قوله تعالى وخذ بيدك ضغثا فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش او ريحان او غير ذلك واعلم ان هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه وفى الخبر انه حلف على اهله ثم اختلفوا فى السبب الذى لاجله حلف عليها ويبعد ماقيل انها رغبته فى طاعة الشيطان ويبعد ايضا ماروى انها قطعت الذوائب عن رأسها لان المضطر الى الطعام يباح له ذلك بل الاقرب انها خالفته فى بعض المهمات وذلك انها ذهبت فى بعض المهمات فابطأت فحلف فى مرضه ليضربنها مائة اذا برئ ولما كانت حسنة الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شئ عليه وعليها وهذه الرخصة باقية وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه أتى بمجذم خبث بأمة فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة ثم قال تعالى انا وجدناه صابرا فان قيل كيف وجده صابرا وقد شكى اليه والجواب من وجوه (الاول) انه شكى من الشيطان اليه وماشكى منه الى احد (الثانى) ان الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئا فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) ان الشيطان عدو والشكاية من العدو الى الحبيب لاتقدح فى الصبر ثم قال نعم العبد انه أواب وهذا يدل على ان تشريف نعم العبد انما حصل لكونه اوابا وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان عليه السلام تارة وفى حق ايوب عليه السلام اخرى عظم الغم فى قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا ان قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان تشريف عظيم فان احتجنا الى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه وان احتجنا الى تحمل بلاء مثل ايوب لم نقدر عليه فكيف السبيل الى تحصيله فانزل الله تعالى قوله نعم المولى ونعم النصير والمراد انك ان لم تكن نعم العبد فانا نعم المولى وان كان منك الفضول فنى الفضل وان كان منك التقصير فنى الرحمة والتيسير ✲ قوله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب اولى الايدى والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير عبدنا على الواحد وهى قراءة ابن عباس ويقول ان قوله عبدنا تشريف عظيم فوجب ان يكون هذا التشريف مخصوصا بأعظم الناس المذكورين فى هذه الآية وهو ابراهيم وقرأ الباقون عبادنا قالوا لان غير ابراهيم من الانبياء قد اجرى عليه هذا الوصف فجاء فى عيسى ان هو الا عبد أنعمنا عليه وفى ايوب نعم العبد وفى نوح انه كان عبدا شكورا فمن قرأ عبدنا جعل ابراهيم وحده عطف بيان له ثم عطف ذريته على عبدنا وهى اسحق ويعقوب ومن قرأ عبادنا جعل ابراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا (المسئلة الثانية) تقدير الآية كأنه تعالى قال فاصبر على مايقولون واذكر عبدنا

بدل وقيل نصب باضمار اعنى والباقيان عطف على عبدنا واما على ان عبدنا اسم جنس وضع موضع الجمع (اولى الايدى والابصار) اولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين او اولى الاعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالايدى عن الاعمال لان اكثرها تباشر بها وبالابصار عن المعارف لانها اقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين انهم كالزمنى والعماة وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرئ أولى الايد بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرئ أولى الايادى على جمع الجمع (انا اخلصناهم بخالصة) تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية وعلو الرتبة فى العلم والعمل اى جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن كما ينبئ عنه التنكير التفخيمى وقوله تعالى (ذكرى الدار) بيان للخالصة بعد ابهامها للتفخيم اى تذكرهم للدار الآخرة دائما فان خلوصهم فى الطاعة بسبب تذكرهم لها وذلك لان مطمح انظارهم ومطرح افكارهم فى كل مايأتون وما يذرون جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولايتسنى ذلك الافى الآخرة وقيل اخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم فى اختيارها ويعضد الاول قراءة من قرأ بخالصتهم واطلاق الدار للاشعار بأنها الدار فى الحقيقة وانما الدنيا معبر وقرئ باضافة خالصة الى ذكرى اى بما خلص من ذكرى الدار على معنى انهم لايشوبون ذكراها بهم آخر اصلا او تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم فى الدنيا كما هو شأن الانبياء عليهم

داود الى ان قال واذ كرعبدنا ابراهيم اى واذ كر يا محمد صبر ابراهيم حين ألقى فى النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره ثم قال اولى الايدى والابصار واعلم ان اليد آلة لاكثر الاعمال والبصر آلة لاقوى الادراكات فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الادراك بالبصر اذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الانسانية لها قوتان عاملة وعالمة اما القوة العاملة فاشرف مايصدر عنها طاعة الله واما القوة العالمة فأشرف مايصدر عنها معرفة الله وماسوى هذين القسمين من الاعمال والمعارف فكالعبث والباطل فقوله اولى الايدى والابصار اشارة الى هاتين الحالتين ثم قال تعالى انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بخالصة قرئ بالتنوين والاضافة فن نون كان التقدير أخلصناهم اى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لاشوب فيها وهى ذكرى الدار ومن قرأ بالاضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار يعنى ان ذكر الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله فالمعنى انا أخلصناهم بسبب ماخلص من هذا الذكر (المسئلة الثانية) فى ذكرى الدار وجوه (الاول) المراد انهم استغرقوا فى ذكرى الدار الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر الى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد انه تعالى ابقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ثم قال تعالى وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار اى المختارين من ابناء جنسهم والاخيار جمع خير او خير على التخفيف كاموات فى جمع ميت او ميت واحتج العلماء بهذه الآية فى اثبات عصمة الانبياء قالوا لانه تعالى حكم عليهم بكونهم اخيارا على الاطلاق وهذا يعم حصول الخيرية فى جميع الافعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الاجمال ثم قال واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار وهم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد فى دين الله وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الاسماء وفى صفات هؤلاء الانبياء فى سورة الانبياء وفى سورة الانعام فلا فائدة فى الاعادة وههنا آخر الكلام فى قصص الانبياء فى هذه السورة ❊ قوله تعالى (هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف اتراب هذا ماتوعدون ليوم الحساب ان هذا لرزقنا ماله من نفاد) اعلم ان فى قوله ذكر وجهين (الاول) انه تعالى انما شرح ذكر احوال هؤلاء الانبياء عليهم السلام لاجل ان يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تم بيان هذا الطريق وأراد ان يذكر عقيبه طريقا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال وأراد ان يميز احد البابين عن الآخر لاجرم قال هذا ذكر ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال وان للمتقين كما ان المصنف اذا تمم كلاما قال هذا باب ثم شرع فى باب آخر واذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه انه لما اتم ذكر اهل الجنة وأراد ان يردفه بذكر اهل النار قال

المصطفين الاخيار) اى المختارين من امثالهم المصطفين عليهم فى الخير والاخيار جمع خير كشر واشرار وقيل جمع خير او خير مخفف منه كاموات فى جمع ميت وميت (واذكر اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر ابيه واخيه للاشعار بعراقته فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير (واليسع) هو ابن اخطوب بن العجوز استخلفه الياس على بنى اسرائيل ثم استنبئ واللام فيه حرف تعريف دخل على يسع كما فى قول من قال

❊رأيت الوليد بن اليزيد مباركا❊

وقرئ والليسع كأن اصله ليسع فيعل من اللسع دخل عليه حرف التعريف وقيل هو على القراءتين علم اعجمى دخل عليه اللام وقيل هو يوشع (وذا الكفل) هو ابن عم يسع او بشر بن ايوب واختلف فى نبوته ولقبه فقيل فر اليه مائة نبى من بنى اسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة (وكل) اى وكلهم (من الاخيار) المشهورين بالخيرية (هذا) اشارة الى ماتقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم (ذكر) اى شرف لهم وذكر جميل يذكرون به ابدا او نوع من الذكر الذى هو القرآن باب منه مشتمل على انباء الانبياء عليهم السلام وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذا ذكر من مضى من الانبياء وقوله تعالى (وان للمتقين لحسن مآب) شروع فى بيان اجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل وهو باب آخر من ابواب التنزيل والمراد بالمتقين اما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا اوليا واما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك مدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القاصية من الكمال (جنات عدن) عطف بيان لحسن مآب عند من يجوز تخالفهما تعريفا وتنكيرا فان عدنا

(هذا)

هذا وان للطاغين (الوجه الثانى) فى التأويل ان المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الانبياء عليهم السلام يذكرون به ابدا والاول هو الصحيح اما قوله وان للمتقين لحسن مآب فاعلم انه تعالى لما حكى من كفار قريش سفاهتهم على النبى صلى الله عليه وسلم بان وصفوه بأنه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا فعند هذا امر محمدا بالصبر على تلك السفاهة وبين ان ذلك الصبر لازم من وجهين (الاول) انه تعالى لما بين ان الانبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد فيجب عليك ان تقتدى بهم فى هذا المعنى (الثانى) انه تعالى بين فى هذه الآية ان من اطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى وهذا نظم حسن وترتيب لطيف اما قوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب المآب المرجع واحتج القائلون بقدم الارواح بهذه الآية وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال ان لفظ الرجوع انما يصدق لو كانت هذه الارواح موجودة قبل الاجساد وكانت فى حضرة جلال الله ثم تعلقت بالابدان فعند انفصالها عن الابدان يسمى ذلك رجوعا وجوابه ان هذا ان دل فانما يدل على ان الارواح كانت موجودة قبل الابدان ولا يدل على قدم الارواح ثم قال تعالى جنات عدن وهو بدل من قوله لحسن مآب ثم قال مفتحة لهم الابواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تأويل هذا اللفظ وجوها (الاول) قال الفراء معناه مفتحة لهم ابوابها والعرب تجعل الالف واللام خلفا من الاضافة تقول العرب مررت برجل حسن الوجه فالالف واللام فى الوجه بدل من الاضافة (الثانى) قال الزجاج المعنى مفتحة لهم الابواب منها (الثالث) قال صاحب الكشاف الابواب بدل من الضمير وتقديره مفتحة هى الابواب كقولك ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل الاشتمال (المسئلة الثانية) قرئ جنات عدن مفتحة بالرفع على تقدير ان يكون قوله جنات عدن مبتدأ ومفتحة خبره وكلاهما خبر مبتدأ محذوف اى هو جنات عدن مفتحة لهم (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى وصف من احوال اهل الجنة فى هذه الآية أشياء (الاول) احوال مساكنهم فقوله جنات عدن يدل على امرين (احدهما) كونها جنات وبساتين (والثانى) كونها دائمة آمنة من الانقضاء وفى قوله مفتحة لهم الابواب وجوه (الاول) ان يكون المعنى ان الملائكة الموكلين بالجنان اذا رأوا اصحاب الجنة فتحوا له ابوابها وحيوه بالسلام فيدخل كذلك محفوفا بالملائكة على اعز حال واجمل هيئة قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (الثانى) ان تلك الابواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة ومسافرة العيون فيها ومشاهدة الاحوال اللذيذة الطيبة ثم قال تعالى متكئين فيها يدعون فيها وفيه مباحث (الاول) انه تعالى ذكر فى هذه الآية كونهم متكئين فى الجنة وذكر فى سائر الآيات

معرفة لقوله تعالى جنات عدن التى وعد الرحمن عباده او بدل منه او نصب على المدح وقوله تعالى (مفتحة لهم الابواب) حال من جنات عدن والعامل فيها ما فى للمتقين من معنى الفعل والابواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها اما ضمير مقدر كما هو رأى البصريين اى الابواب منها او الالف واللام القائمة مقامه كما هو رأى الكوفيين اذ الاصل ابوابها وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر او على انهما خبران لمحذوف اى هى جنات عدن هى مفتحة (متكئين فيها) حال من ضمير لهم والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى (يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو ايضا حال مما ذكر او من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء الفاكهة للايذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذى فانه لتحصيل بدل المتحلل ولا تحلل ثمة (وعندهم قاصرات الطرف) اى على ازواجهن لا ينظرن الى غيرهم (أتراب) لدات لهم فان التحاب بين الاقران ارسخ او بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فانه يمسهم فى وقت واحد (هذا ما توعدون ليوم الحساب) اى لاجله فان الحساب علة للوصول الى الجزاء وقرئ بالياء ليوافق ما قبله والالتفات اليق بمقام الامتنان والتكريم (ان هذا) اى ما ذكر من الوان النعم والكرامات (لرزقنا) اعطيناكموه (ماله من نفاد) انقطاع ابدا (هذا) اى الامر هذا او هذا كما ذكر او هذا ذكر وقوله تعالى (وان للطاغين لشر مآب) شروع فى بيان اضداد الفريق السابق (جهنم) اعرابه كما سلف (يصلونها) اى يدخلونها حال من جهنم (فبئس المهاد) وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص

كيفية ذلك الاتكاء فقال فى آية على الارائك متكؤن وقال فى آية اخرى متكئين على رفرف خضر (البحث الثانى) قوله متكئين فيها حال قدمت على العامل فيها وهو قوله يدعون فيها والمعنى يدعون فى الجنات متكئين فيها ثم قال بفاكهة كثيرة وشراب والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير والسبب فى ذكر هذا المعنى ان ديار العرب حارة قليلة الفواكه والاشربة فرغبهم الله تعالى فيه ولما بين تعالى امر المسكن وامر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح فقال وعندهم قاصرات الطرف وقد سبق تفسيره فى سورة والصافات وبالجملة فالمعنى كونهن قاصرات الطرف عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم وقوله اتراب أى على سن واحد ويحتمل كون الجوارى اترابا ويحتمل كونهن اترابا للازواج قال القفال والسبب فى اعتبار هذه الصفة انهن لما تشابهن فى الصفة والسن والحلية كان الميل اليهن على السوية وذلك يقتضى عدم الغيرة ثم قال تعالى هذا ماتوعدون ليوم الحساب يعنى ان الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ثم انه تعالى اخبر عن دوام هذا الثواب فقال ان هذا لرزقنا ماله من نفاد ❊ قوله تعالى (هذا وان للطاغين لشرمآب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج هذا فوج مقتحم معكم لامرحبا بهم انهم صالوا النار قالوا بل انتم لامرحبا بكم انتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار أتخذناهم سخريا ام زاغت عنهم الابصار ان ذلك لحق تخاصم اهل النار) اعلم انه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين ليكون الوعيد مذكورا عقيب الوعد والترهيب عقيب الترغيب واعلم انه تعالى ذكر من احوال اهل النار انواعا (فالاول) مرجعهم ومآبهم فقال هذا وان للطاغين لشرمآب وهذا فى مقابلة قوله وان للمتقين لحسن مآب فبين تعالى ان حال الطاغين مضادة لحال المتقين واختلفوا فى المراد بالطاغين فاكثر المفسرين حملوه على الكفار وقال الجبائى انه محمول على اصحاب الكبائر سواء كانوا كفارا اولم يكونوا كذلك واحتج الاولون بوجوه (الاول) ان قوله لشرمآب يقتضى ان يكون مآبهم شرا من مآب غيرهم وذلك لايليق الا بالكفار (الثانى) انه تعالى حكى عنهم انهم قالوا أتخذناهم سخريا وذلك لايليق الا بالكفار لان الفاسق لايتخذ المؤمن سخريا (الثالث) انه اسم ذم والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل فى الطغيان هو الكافر واحتج الجبائى على صحة قوله بقوله تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وهذا يدل على ان الوصف بالطغيان قد يحصل فى حق صاحب الكبيرة ولان كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى اذا عرفت هذا فنقول قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى ان الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شرمآب أى شر مرجع ومصير ثم قال جهنم يصلونها والمعنى انه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شرمآب فسره بقوله جهنم يصلونها ثم قال فبئس المهاد

بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى لهم من جهنم مهاد (هذا فليذوقوه) اى ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله تعالى واياى فارهبون اوالعذاب هذا فليذوقوه او هذا مبتدأ خبره (حميم وغساق) وما بينهما اعتراض وهو على الاولين خبر مبتدأ محذوف اى هو حميم والغساق ما يغسق من صديد اهل النار من غسقت العين اذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة فى المشرق لنتنت اهل المغرب ولو قطرت قطرة فى المغرب لنتنت اهل المشرق وقيل الغساق عذاب لايعلمه الا الله تعالى وقرئ بتخفيف السين (وآخر من شكله) اى ومذوق آخر اوعذاب آخر من مثل هذا المذوق اوالعذاب فى الشدة والفظاعة وقرئ واخر اى ومذوقات اخر اوانواع عذاب اخر وتوحيد ضمير شكله بتأويل ماذكر اوالشراب الشامل للحميم والغساق اوهو راجع الى الغساق (ازواج) اى اجناس وهو خبر لآخر لانه يجوز ان يكون ضروبا اوصفة له اوللثلاثة او مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم (هذا فوج مقتحم معكم) حكاية مايقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين اذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة والاقتحام الدخول فى الشئ بشدة قال الراغب الاقتحام توسط شدة مخيفة وقوله تعالى (لامرحبا بهم) من اتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج اوصفة للفوج اوحال منه اى مقولا اومقولا فى حقهم لامرحبا بهم اى لااتوا مرحبا اولا رحبت بهم الدار مرحبا (انهم صالوا النار) تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم اووصفهم بماذكر وقيل لامرحبا بهم الى هنا كلام الرؤساء فى حق اتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجرا من مقارنتهم (وهو)

وهو كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه الله ماتحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم ثم قال تعالى هذا فليذوقوه حميم وغساق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه وجهان (الاول) انه على التقديم والتأخير والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) ان يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول حميم وغساق (المسئلة الثانية) الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الاول) انه الذى يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين اذا سال دمعها وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وذكر الازهرى ان الغاسق البارد ولهذا قيل لليل غاسق لانه ابرد من النهار (الثالث) ان الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة فى المشرق لأنتنت اهل المغرب ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لأنتنت اهل المشرق (الرابع) قال كعب الغساق عين فى جهنم يسيل اليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية (المسئلة الثالثة) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف قال ابو على الفارسى الاختيار التخفيف لانه اذا شدد لم يخل من ان يكون اسما أو صفة فان كان اسما فالاسماء لم تجئ على هذا الوزن الا قليلا وان كان صفة فقد اقيم مقام الموصوف والاصل ان لا يجوز ذلك ثم قال تعالى وآخر من شكله ازواج وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو اخر بضم الالف على جمع اخرى اى اصناف اخر من العذاب وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد اى عذاب آخر اما على القراءة الاولى فقوله واخراى ومذوقات اخر من شكل هذا المذوق اى من مثله فى الشدة والفظاعة ازواج اى اجناس واما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب او مذوق آخر وازواج صفة لآخر لانه يجوز ان يكون ضروبا او صفة للثلاثة وهى حميم وغساق وآخر من شكله قال صاحب الكشاف وقرئ من شكله بالكسر وهى لغة واما الغنج فبالكسر لا غير واعلم انه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى احوالهم مع الذين كانوا احباء لهم فى الدنيا اولا ثم مع الذين كانوا اعداء لهم فى الدنيا ثانيا (اما الاول) فهو قوله هذا فوج مقتحم معكم واعلم ان هذا حكاية كلام رؤساء اهل النار بقوله بعضهم لبعض بدليل ان ماحكى بعد هذا من اقوال الاتباع وهو قوله قالوا بل انتم لا مرحبا بكم انتم قدمتموه لنا وقيل ان قوله هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى اتباعهم وقوله لا مرحبا بهم انهم صالوا النار كلام الرؤساء وقوله هذا فوج مقتحم معكم اى هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم فى الجهل والضلال ومعنى اقتحم معكم النار اى دخل النار فى صحبتكم والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة الشدة وقوله تعالى لا مرحبا بهم دعاء منهم على اتباعهم يقول الرجل لمن يدعو له مرحبا اى اتيت رحبا فى البلاد لا ضيقا او رحبت بلادك رحبا ثم يدخل عليه كلمة لا فى دعاء السوء وقوله بهم بيان للمدعو عليهم انهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم

وتنفرا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض فى حق الاتباع (قالوا) اى الاتباع عند سماعهم ماقيل فى حقهم ووجه خطابهم للرؤساء فى قولهم (بل أنتم لا مرحبا بكم) الخ على الوجهين الاخيرين ظاهر واما على الوجه الاول فلعلهم انما خاطبوهم مع ان الظاهر ان يقولوا بطريق الاعتذار الى الخزنة بل هم لا مرحبا بهم الخ قصدا منهم الى اظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم الى الخزنة طمعا فى قضائهم بتخفيف عذابهم او تضعيف عذاب خصمائهم اى بل أنتم احق بما قيل لنا او قلتم وقوله تعالى (أنتم قدمتموه لنا) تعليل لأحقيتهم بذلك اى أنتم قدمتم العذاب او الصلى لنا او اوقعتمونا فيه بتقديم مايؤدى اليه من العقائد الزائغة والاعمال السيئة وتزيينها فى أعيننا واغرائنا عليها لا انا باشرناها من تلقاء أنفسنا (فبئس القرار) اى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم (قالوا) اى الاتباع ايضا وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتا وخطابا اى قالوا معرضين عن خصومتهم متضرعين الى الله تعالى (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) كقولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار اى عذابا مضاعفا اى ذا ضعف وذلك بأن يزيد عليه مثله ويكون ضعفين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب وقيل المراد بالضعف الحيات والافاعى (وقالوا) اى الطاغون (مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم (أتخذناهم سخريا) بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من الاعراب قالوه انكارا على أنفسهم وتأنيبا لها فى الاستسخار منهم (أم زاغت

الدعاء عليهم ونظير هذه الآية قوله تعالى كلما دخلت أمة لعنت اختها قالوا اى الاتباع بل أنتم لا مرحبا بكم يريدون ان الدعاء الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء انتم احق به وعللوا ذلك بقولهم انتم قدمتموه لنا والضمير للعذاب أو لصليهم فان قيل مامعنى تقديمهم العذاب لهم قلنا الذى اوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت ايديكم الا ان الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه باغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل انتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم والضمير فى قوله قدمتموه كناية عن الطغيان الذى دل عليه قوله وان للطاغين لشر مآب وقوله فبئس القرار اى بئس المستقر والمسكن جهنم ثم قالت الاتباع ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا اى مضاعفا ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا وكذلك قوله تعالى ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب فان قيل كل مقدار يفرض من العذاب فان كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفا وان كان زائدا عليه كان ظلما وانه لا يجوز قلنا المراد منه قوله عليه السلام ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة والمعنى انه يكون احد القسمين عذاب الضلال والثانى عذاب الاضلال والله اعلم وههنا آخر شرح احوال الكفار مع الذين كانوا احبابا لهم فى الدنيا واما شرح احوالهم مع الذين كانوا اعداء لهم فى الدنيا فهو قوله وقالوا ما لنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار يعنى ان الكفار اذا نظروا الى جوانب جهنم فحينئذ يقولون مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار يعنون فقراء المسلمين الذين لايؤبه بهم وسموهم من الاشرار اما بمعنى الاراذل الذين لاخير فيهم ولا جدوى اولانهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم اشرارا ثم قالوا اتخذناهم سخريا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائى من الاشرار اتخذناهم بوصل الف اتخذناهم والباقون بفتحها على الاستفهام قال ابو عبيد وبالوصل يقرأ لان الاستفهام متقدم فى قوله مالنا لانرى رجالا ولان المشركين لايشكون فى اتخاذهم المؤمنين فى الدنيا سخريا لانه تعالى قد اخبر عنهم بذلك فى قوله فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكرى فكيف يحسن ان يستفهموا عن شئ علموه اجاب الفراء عنه بان قال هذا من الاستفهام الذى معناه التعجب والتوبيخ ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشئ المعلوم اما وجه قول من الحق الهمزة للاستفهام انه لابد من المصير اليه ليعادل قوله اتخذناهم بأم فى قوله ام زاغت عنهم فان قيل فالجملة المعادلة لقوله ام زاغت على القراءة الاولى قلنا انها محذوفة والمعنى المقصودون هم ام زاغت عنهم الابصار (المسئلة الثانية) قرأ نافع سخريا بضم السين والباقون بكسرها وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزؤ وبالضم هو التذليل والتسخير (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين اما القراءة على سبيل الاخبار فالتقدير مالنا لانراهم

عنهم الابصار) متصل باتخذناهم على ان أم متصلة والمعنى اى الامرين فعلنا بهم الاستسخار منهم ام الازدراء بهم وتحقيرهم وان ابصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى انكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخا لها او على انها منقطعة والمعنى اتخذناهم سخريا بل أزاغت عنهم ابصارنا كقولك ازيد عندك أم عندك عمرو وعلى معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الاضراب والانتقال منه الى التوبيخ على الازدراء والتحقير وقرئ اتخذناهم بغير همزة على انه صفة اخرى لرجالا فقوله تعالى أم زاغت متصل بقوله مالنا لانرى والمعنى مالنا لانراهم فى النار أليسوا فيها فلذلك لانراهم أم زاغت عنهم ابصارنا وهم فيها وقد يجوز ان تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرئ سخريا بضم السين (ان ذلك) اى الذى حكى من احوالهم (لحق) لابد من وقوعه البتة وهو قوله تعالى (تخاصم اهل النار) خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفى الابهام اولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق او عطف بيان له وقرئ بالنصب على انه بدل من ذلك وما قيل من انه صفة له فقد قيل عليه ان اسم الاشارة لايوصف الا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل (قل) امر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول للمشركين (انما انا منذر) من جهته تعالى أنذركم عذابه (وما من اله) فى الوجود (الا الله الواحد) الذى لايقبل الشركة والكثرة اصلا (القهار) لكل شئ سواه (رب السموات والارض وما بينهما) من المخلوقات فكيف يتوهم ان يكون له شريك منها (العزيز) الذى لايغلب فى أمر من اموره (الغفار) المبالغ فى المغفرة يغفر مايشاء لمن يشاء وفى هذه النعوت من تقرير

حاضرين لاجل انهم لحقارتهم تركوا اولاجل انهم زاغت عنهم الابصار ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم اتخذناهم سخريا واما القراءة على سبيل الاستفهام فالتقدير لاجل انا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ام لاجل انه زاغت عنهم الابصار واعلم انه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال ان ذلك الذى حكينا عنهم لحق لابدوان يتكلموا به ثم بين ان الذى حكيناه عنهم ماهو فقال تخاصم اهل النار وانما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصما لان قول الرؤساء لامرحبا بهم وقول الاتباع بل انتم لامرحبا بكم من باب الخصومة ❊ قوله تعالى (قل انما انا منذر ومامن اله الا الله الواحد القهار رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين) اعلم انه تعالى لما حكى فى اول السورة ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما دعا الناس الى انه لا اله الا اله واحد والى انه رسول مبين من عند الله والى ان القول بالقيامة حق فأولئك الكفار اظهروا السفاهة وقالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله ثم انه تعالى ذكر قصص الانبياء لوجهين (الاول) ليصير ذلك حاملا لمحمد صلى الله عليه وسلم على التأسى بالانبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعا للكفار عن الاصرار على الكفر والسفاهة وداعيا الى قبول الايمان ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق اردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم اهل الثواب وشرح عقاب اهل العقاب فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد الى تقرير المطالب المذكورة فى اول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث فقال قل يامحمد انما انا منذر ولابد من الاقرار بأنه مامن اله الا الله الواحد القهار فان الترتيب الصحيح ان تذكر شبهات الخصوم اولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب فكذا ههنا اجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم ثم ذكر عقيبه مايدل على صحة هذه المطالب لان ازالة مالاينبغى مقدمة على اثبات ماينبغى وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من اول السورة الى آخرها قد جاء على احسن وجوه الترتيب والنظم اما قوله قل انما انا منذر يعنى ابلغ احوال عقاب من انكر التوحيد والنبوة والمعاد واحوال ثواب من اقربها وكما بدأ فى اول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم انهم قالوا اجعل الآلهة الها واحدا فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال ومامن اله الا الله الواحد القهار وفى هذه الكلمة اشارة الى الدليل الدال على كونه منزها عن الشريك والنظير وبيانه ان الذى يجعل شريكا له فى الالهية اما ان يكون موجودا قادرا على الاطلاق على التصرف فى العالم اولا يكون كذلك بل يكون جمادا عاجزا (والاول) باطل لانه لو كان شريكه قادرا على الاطلاق لم يكن هو قادرا قاهرا لان بتقدير ان يريد هو شيئا ويريد شريكه ضد ذلك الشئ لم يكن حصول احد الامرين اولى من الآخر فيفضى الى اندفاع كل واحد

التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين مالايخفى وتثنية مايشعر بالوعيد من وصفى القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الانذار حقه (قل) تكرير الامر للايذان بأن المقول امر جليل له شان خطير لابد من الاعتناء به امرا وائتمارا (هو) اى ما انبأتكم به من انى منذر من جهته تعالى وانه تعالى واحد لاشريك له وانه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والاظهر انه القرآن وماذكر داخل فيه دخولا اوليا كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة (نبأ عظيم) وارد من جهته تعالى وقوله تعالى (انتم عنه معرضون) استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم ببيان انهم لا يقدرون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجبا للاقبال الكلى عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة اخرى لنبأ وقوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى) الخ استئناف مسوق لتحقيق انه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من انبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من اسبابها المعتادة فان ذلك حجة بينة دالة على ان ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وان سائر انبائه ايضا كذلك والملأ الأعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس عليه اللعنة وقوله تعالى (اذ يختصمون) متعلق بمحذوف يقتضيه المقام اذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم لا بذواتهم والتقدير ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم وتقدير الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فان علمه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ماجرى بينهم من الاقوال فقط بل عام لها وللافعال ايضا من سجود الملائكة واستكبار ابليس وكفره حسبما ينطق به الوحى فلا

منهما بالآخر وحينئذ لايكون قادرا قاهرا بل كان عاجزا ضعيفا والعاجز لايصلح للالهية فقوله الا الله الواحد القهار اشارة الى ان كونه قهارا يدل على كونه واحدا (واما الثاني) وهو ان يقال ان الذى جعل شريكا له لايقدر على شئ البتة مثل هذه الاوثان فهذا ايضا فاسد لان صريح العقل يحكم بأن عبادة الاله القادر القاهر اولى من عبادة الجماد الذى لايسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيئا فقوله ومامن اله الا الله الواحد القهار يدل على هذه الدلائل واعلم ان كونه سبحانه قهارا مشعر بالترهيب والتخويف فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال رب السموات والارض ومابينهما العزيز الغفار فكونه ربا مشعر بالتربية والاحسان والكرم والجود وكونه غفارا مشعر بالترغيب وهذا الموجود هو الذى تجب عبادته لانه هو الذى يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه ونذكر طريقة اخرى فى تفسير هذه الآيات فنقول انه تعالى ذكر من صفاته فى هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار اما كونه واحدا فهو الذى وقع الخلاف فيه بين اهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحدا بكونه قهارا وقد بينا وجه هذه الدلالة الا ان كونه قهارا وان دل على اثبات الوحدانية الا انه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (اولها) كونه ربا للسموات والارض ومابينهما وهذا انما تتم معرفته بالنظر فى آثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والارض والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة وذلك بحر لاساحل له فاذا تأملت فى اثار حكمته ورحمته فى خلق هذه الاشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزا والفائدة فى ذكره ان لقائل ان يقول هب انه رب ومربى وكريم الا انه غير قادر على كل المقدورات فاجاب عنه بانه عزيز اى قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولايغلبه شئ (وثالثها) كونه غفارا والفائدة فى ذكره ان لقائل ان يقول هب انه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك فى حق المطيعين المخلصين فى العبادة فاجاب عنه بأن من بقى على الكفر سبعين سنة ثم تاب فانى ازيل اسمه عن ديوان المذنبين واستر عليه بفضلى ورحمتى جميع ذنوبه واوصله الى درجات الابرار واعلم انه تعالى لما بين ذلك قال قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوها فيمكن ان يكون المراد ان القول بان الاله واحد نبأ عظيم ويمكن ان يقال المراد ان القول بالنبوة نبأ عظيم ويمكن ان يقال المراد ان القول باثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم وذلك لان هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة فى اول السورة ولاجلها انجر الكلام الى كل ماسبق ذكره ويمكن ايضا ان يكون المراد كون القرآن معجزا لان هذا ايضا قد تقدم ذكره فى قوله كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وهؤلاء الاقوام اعرضوا عنه على ماقال قل هو نبأ عظيم انتم عنه معرضون واعلم ان قوله انتم عنه معرضون ترغيب فى النظر والاستدلال ومنع من التقليد لان هذه المطالب مطالب شريفة عالية فان بتقدير ان يكون الانسان فيها على الحق يفوز بأعظم ابواب السعادة

(وبتقدير)

بد من اعتبار العموم فى نفيه ايضا لامحالة وقوله تعالى (ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين) اعتراض وسط بين اجمال اختصامهم وتفصيله تقريرا لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعيينا لسببه الا ان بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبأ عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته عليه الصلاة والسلام بشئ من مباديه المعهودة تعين انه ليس الا بطريق الوحى حتما فجعل ذلك امرا مسلم الثبوت غنيا عن الاخبار به قصدا وجعل مصب الفائدة والمقصود اخبار ماهو داع الى الوحى ومصحح له تحقيقا لقوله تعالى انما انا منذر فى ضمن تحقيق علمه عليه الصلاة والسلام بقصة الملاء الأعلى فالقائم مقام الفاعل ليوحى اما ضمير عائد الى الحال المقدر اومايعمه وغيره فالمعنى ما يوحى الى حال الملاء الأعلى اومايوحى الى مايوحى من الامور الغيبية التى من جملتها حالهم الا لانما انا نذير مبين من جهته تعالى فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحى اليه ومن موجباته حتما واما ان القائم مقام الفاعل هو الجار والمجرور اوهو انما انا نذير مبين بلا تقدير الجار وان المعنى مايوحى الى الا للانذار اومايوحى الى الا ان انذر وابلغ ولا افرط فى ذلك كما قيل فمع مافيه من الاضطرار الى التكلف فى توجيه قصر الوحى على كونه للانذار فى الاول وقصره على الانذر فى الثانى فلايساعده سباق النظم الكريم وسباقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون اجنبيا مما توسط بينهما من اجمال الاختصام وتفصيله فتأمل والله المرشد وقرئ انما بالكسر على الحكاية

وبتقدير ان يكون الانسان فيها على الباطل وقع فى اعظم ابواب الشقاوة فكانت هذه المباحث انباء عظيمة ومطالب عالية بهية وصريح العقل يوجب على الانسان ان يأتى فيها بالاحتياط التام وان لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة اما قوله تعالى ما كان لى من علم بالملاء الاعلى اذ يختصمون فاعلم انه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الاربعة وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه (الاول) ان كل واحد منها نبأ عظيم والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) ان الملأ الأعلى اختصموا واحسن ماقيل فيه انه تعالى لما قال انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم مالا تعلمون والمعنى انهم قالوا اى فائدة فى خلق البشر مع انهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله من يفسد فيها وبامضاء الغضب وهو المراد من قوله ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك فقال الله سبحانه وتعالى انى اعلم مالا تعلمون وتقرير هذا الجواب والله اعلم ان يقال ان المخلوقات بحسب القسمة العقلية على اقسام اربعة (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (وثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهى البهائم (وثالثها) الاشياء الخالية عن القسمين وهى الجمادات وبقى فى التقسيم قسم رابع وهو الذى حصل فيه الامران وهو الانسان والمقصود من تخليق الانسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة فقوله انى اعلم مالا تعلمون يعنى ان هذا النوع من المخلوقات وان حصلت فيه الشهوة الداعية الى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء لكن حصل فيه العقل الذى يدعوه الى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة واذا ثبت انه تعالى انما اجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الانسان ان يسعى فى تحصيل هذه الصفات وان يجتهد فى اكتسابها وان يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والاصرار والتكبر واذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعيا له الى الجد والاجتهاد فى اكتساب المعارف الحقة والاخلاق الفاضلة زاجرا له عن اضدادها ومقابلاتها فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام فى هذا المقام فان قيل الملائكة لا يجوز ان يقال انهم اختصموا بسبب قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فان المخاصمة مع الله كفر قلنا لا شك انه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ المخاصمة عليه ولما امر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز امره ان يقول ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين يعنى انا ما عرفت هذه المخاصمة الا بالوحى وانما اوحى الله الى هذه القصة لانذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الاخلاص فى الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد ۞ قوله تعالى (اذ قال ربك

وقوله تعالى (اذ قال ربك للملائكة) شروع فى تفصيل ما اجمل من الاختصام الذى هو ماجرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى اياهم بواسطة الملك صح اسناد الاختصام الى الملائكة واذ بدل من اذ الاولى وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس الاختصام بل يكفى اشتمال مافى حيزها عليه فان القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه والايذان بأن وحى هذا النبأ اليه تربية وتأييد له عليه الصلاة والسلام والكاف وارد باعتبار حال الآمر لكونه أدل على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم الخ دون حال المأمور والا قيل ربى لانه داخل فى حيز الامر (انى خالق) اى فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على انه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه (بشرا) قيل اى جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ولعل ماجرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسماه حينئذ فضلا عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله

للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى استكبرت ام كنت من العالين قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى يوم الدين قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق اقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) اعلم ان المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر وذلك لان ابليس انما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر والكفار انما نازعوا محمدا عليه السلام بسبب الحسد والكبر فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل انه تعالى رغب المكلفين فى النظر والاستدلال ومنعهم عن الاصرار والتقليد وذكر فى تقريره امورا أربعة (اولها) انه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (الثانى) ان قصة سؤال الملائكة عن الحكمة فى تخليق البشر يدل على ان الحكمة الاصلية فى تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر (الثالث) ان ابليس انما خاصم آدم عليه السلام لاجل الحسد والكبر فيجب على العاقل ان يحترز عنهما فهذا هو وجه النظم فى هذه الآيات واعلم ان هذه القصة قد تقدم شرحها فى سور كثيرة فلا فائدة فى الاعادة الا ما لا بد منه وفيها مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله انى خالق بشرا من طين سؤالات (الاول) ان هذا النظم انما يصح لو امكن خلق البشر لا من الطين كما اذا قيل انا متخذ سوارا من ذهب فهذا انما يستقيم لو امكن اتخاذه من الفضة (الثانى) ذكر ههنا انه خلق البشر من طين وفى سائر الآيات ذكر انه خلقه من سائر الاشياء كقوله تعالى فى آدم انه خلقه من تراب وكقوله من صلصال من حمأ مسنون وكقوله خلق الانسان من عجل (الثالث) ان هذه الآية تدل على انه تعالى لما اخبر الملائكة بأنه خلق بشرا من طين لم يقولوا شيئا وفى الآية الاخرى وهى التى قال انى جاعل فى الارض خليفة بين انهم اوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض والجواب عن الاول ان التقدير كأنه سبحانه وصف لهم اولا ان البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية فلما قال انى خالق بشرا من طين فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات انما خلقه من الطين والجواب عن الثانى ان المادة البعيدة هو التراب واقرب منه الطين واقرب منه الحمأ المسنون واقرب منه الصلصال فثبت انه لا منافاة بين الكل والجواب عن الثالث انه فى الآية المذكورة فى سورة البقرة بين لهم انه يخلق فى الارض خليفة وبالآية المذكورة ههنا بين ان ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين (المسئلة الثانية) قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم الا بأمرين التسوية اولا ثم نفخ الروح ثانيا وهذا حق لان الانسان مركب من جسد ونفس أما الجسد فانه انما يتولد من المنى

(والمنى)

وانما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية (من طين) لم يتعرض لاوصافه من التغير والاسوداد والمسنونية اكتفاء بما ذكر فى مواقع أخر (فاذا سويته) اى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية او سويت اجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحى) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها اى فاذا كملت استعداده وافضت عليه ما يحيى به من الروح التى هى من امرى (فقعوا له) امر من وقع وفيه دليل على ان المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل اى اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتكريما (فسجد الملائكة) اى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة (كلهم) بحيث لم يبق منهم احد الا سجد (اجمعون) اى بطريق المعية بحيث لم يتأخر فى ذلك احد منهم عن احد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد ايضا وقيل اكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا واما ان سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الامر التعليق كما تقتضيه هذه الآية الكريمة

والمني انما يتولد من دم الطمث وهو انما يتولد من الاخلاط الاربعة وهي انما تتولد من الاركان الاربعة ولابد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركباتها ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لاجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة واما النفس فاليها الاشارة بقوله ونفخت فيه من روحي ولما اضاف الروح الى نفسه دل على انه جوهر شريف علوي قدسي وذهبت الحلولية الى ان كلمة من تدل على التبعيض وهذا يوهم ان الروح جزء من اجزاء الله تعالى وهذا في غاية الفساد لان كل ماله جزء وكل فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث واما كيفية نفخ الروح فاعلم ان الاقرب ان جوهر النفس عبارة عن اجسام شفافة نورانية علوية العنصر قدسية الجوهر وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء وسريان النار في الفحم فهذا القدر معلوم اما كيفية ذلك النفخ فمما لايعلمه الا الله تعالى (المسئلة الثالثة) الفاء في قوله فقعوا له ساجدين تدل على انه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه امر الله عليهم بالسجود واما ان المأمور بذلك السجود ملائكة الارض أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل والروح الاعظم المذكور في قوله يوم يقوم الروح والملائكة صفا ففيه مباحث عميقة وقال بعض الصوفية الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية فانها في بدن الانسان خوادم النفس الناطقة وابليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل والكلام فيه طويل واما بقية المسائل وهي كيفية سجود الملائكة لآدم وان ذلك هل يدل على كونه افضل من الملائكة املا وان ابليس هل كان من الملائكة أم لا وانه هل كان كافرا اصليا ام لا فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها (المسئلة الرابعة) احتج من اثبت الاعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدي في اثبات يدي الله تعالى بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه فوجب المصير اليه والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية فوجب القطع به واعلم ان الدلائل الدالة على نفي كونه تعالى جسما مركبا من الاجزاء والاعضاء قد سبقت الا انا نذكر ههنا نكتا جارية مجرى الالزامات الظاهرة (فالاول) ان من قال انه مركب من الاعضاء والاجزاء فاما ان يثبت الاعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها واما ان يزيد عليها فان كان الاول لزمه اثبات صورة لايمكن ان يزاد عليها في القبح لانه يلزمه اثبات وجه بحيث لايوجد منه الا مجرد رقعة الوجه لقوله كل شيء هالك الا وجهه ويلزمه ان يثبت في تلك الرقعة عيونا كثيرة لقوله تجري بأعيننا وان يثبت جنبا واحدا لقوله تعالى ياحسرتا على مافرطت في جنب الله وان يثبت على ذلك الجنب ايدي كثيرة لقوله تعالى مما عملت ايدينا وبتقدير ان يكون له يدان فانه يجب ان يكون كلاهما على جانب واحد لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم الحجر الاسود يمين الله في الارض وان يثبت له ساقا واحدا لقوله تعالى يوم يكشف عن ساق

والتي في سورة الحجر فان ظاهرهما يستدعي ترتبه عليه من غير ان يتوسط بينهما شيء غير ما تفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح او على الامر التنجيزي كما يقتضيه مافي سورة البقرة ومافي سورة بني اسرائيل ومافي سورة الكهف ومافي سورة طه من الآيات الكريمة فقد مر تحقيقه بتوفيق الله عزوجل في سورة البقرة وسورة الاعراف (الا ابليس) استثناء متصل لما انه كان جنيا مفردا مغمورا بالوف من الملائكة موصوفا بصفاتهم فغلبوا عليه ثم استثنى استثناء واحد منهم اولان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم او منقطع وقوله تعالى (استكبر) على الاول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فان تركه يحتمل ان يكون للتأمل والتروي وبه يتحقق انه للاباء والاستكبار وعلى الثاني يجوز اتصاله بما قبله اي لكن ابليس استكبر (وكان من الكافرين) اي وصار منهم بمخالفته للامر واستكباره عن الطاعة او كان منهم في علم الله عزوجل (قال ياابليس مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدي) اي خلقته بالذات من غير توسط اب وأم والتثنية لابراز كمال الاعتناء

فيكون الحاصل من هذه الصورة مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة وجنب واحد ويكون عليه ايد كثيرة وساق واحد ومعلوم ان هذه الصورة اقبح الصور ولو كان هذا عبدا لم يرغب احد فى شرائه فكيف يقول العاقل ان رب العالمين موصوف بهذه الصورة (واما القسم الثانى) وهو ان لا يقتصر على الاعضاء المذكورة فى القرآن بل يزيد وينقص على وفق التأويلات فحينئذ يبطل مذهبه فى الحمل على مجرد الظواهر ولا بدله من قبول دلائل العقل (الحجة الثانية) فى ابطال قولهم انهم اذا اثبتوا الاعضاء لله تعالى فان اثبتوا له عضو الرجل فهو رجل وان اثبتوا له عضو النساء فهو انثى وان نفوهما فهو خصى او عنين وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (الحجة الثالثة) انه فى ذاته سبحانه وتعالى اما ان يكون جسما صلبا لا ينغمز البتة فيكون حجرا صلبا واما ان يكون قابلا للانغماز فيكون لينا قابلا للتفرق والتمزق وتعالى الله عن ذلك (الحجة الرابعة) انه ان كان بحيث لا يمكنه ان يتحرك عن مكانه كان كالزمن المقعد العاجز وان كان بحيث يمكنه ان يتحرك عن مكانه كان محلا للتغيرات فدخل تحت قوله لا أحب الآفلين (الحجة الخامسة) ان كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت وان كان يفعل هذه الاشياء كان انسانا كثير النهمة محتاجا الى الاكل والشرب والوقاع وذلك باطل (الحجة السادسة) انهم يقولون انه ينزل كل ليلة من العرش الى السماء الدنيا فنقول لهم حين نزوله هل يبقى مدبرا للعرش ويبقى مدبرا للسماء الدنيا حين كان على العرش وحينئذ لا يبقى فى النزول فائدة وان لم يبق مدبرا للعرش فعند نزوله يصير معزولا عن الهية العرش والسموات (الحجة السابعة) انهم يقولون انه تعالى اعظم من العرش وان العرش لا نسبة لعظمته الى عظمة الكرسى وعلى هذا الترتيب حتى ينتهى الى السماء الدنيا فاذا كان كذلك كان السماء الدنيا بالنسبة الى عظمة الله كالذرة بالنسبة الى البحر فاذا نزل فاما ان يقال ان الاله يصير صغيرا بحيث تسعه السماء الدنيا واما ان يقال ان السماء الدنيا تصير أعظم من العرش وكل ذلك باطل (الحجة الثامنة) ثبت ان العالم كرة فان كان فوق بالنسبة الى قوم كان تحت بالنسبة الى قوم آخرين وذلك باطل وان كان فوق بالنسبة الى الكل فحينئذ يكون جسما محيطا بهذا العالم من كل الجوانب فيكون اله العالم على هذا القول فلكا من الافلاك (الحجة التاسعة) لما كانت الارض كرة وكانت السموات كرات فكل ساعة تفرض من الساعات فانها تكون ثلث الليل فى حق اقوام معينين من سكان كرة العوارض فلو نزل من العرش فى ثلث الليل وجب ان يبقى ابدا نازلا عن العرش وان لا يرجع الى العرش البتة (الحجة العاشرة) انا انما زيفنا الهية الشمس والقمر لثلاثة انواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفا من الاجزاء والابعاض (وثانيها) كونه محدودا متناهيا (وثالثها) كونه موصوفا بالحركة والسكون والطلوع والغروب فاذا كان اله المشبهة مؤلفا من الاعضاء والاجزاء كان مركبا فاذا كان على العرش كان محدودا متناهيا وان كان ينزل من العرش

بخلقه عليه الصلاة والسلام المستدعى لاجلاله واعظامه قصدا الى تأكيد الانكار وتشديد التوبيخ (أستكبرت) بهمزة الانكار وطرح همزة الوصل اى أتكبرت من غير استحقاق (أم كنت من العالين) المستحقين للتفوق وقيل أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرئ بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها وقوله تعالى (قال انا خير منه) ادعاء منه لشئ مستلزم لمنعه من السجود على زعمه واشعار بأنه لا يليق ان يسجد الفاضل للمفضول كما يعرب عنه قوله لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون وقوله تعالى (خلقتنى من نار وخلقته من طين) تعليل لما ادعاه من فضله عليه عليه الصلاة والسلام ولقد اخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما انبأ عنه قوله تعالى لما خلقت بيدى وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ونفخت فيه من روحى وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك امر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم انه اعلم منهم بما يدور عليه امر الخلافة فى الارض وان له خواص ليست لغيره (قال فاخرج منها) الفاء

ويرجع اليه كان موصوفا بالحركة والسكون فهذه الصفات الثلاث ان كانت منافية للالهية وجب تنزيه الاله عنها بأسرها وذلك يبطل قول المشبهة وان لم تكن منافية للالهية فحينئذ لايقدر احد على الطعن فى الهية الشمس والقمر (الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى قل هو الله احد ولفظ الاحد مبالغة فى الوحدة وذلك ينافى كونه مركبا من الاجزاء والابعاض (الحجة الثانيه عشرة) قوله تعالى والله الغنى وانتم الفقراء ولو كان مركبا من الاجزاء والابعاض لكان محتاجا اليها وذلك يمنع من كونه غنيا على الاطلاق فثبت بهذه الوجوه ان القول باثبات الاعضاء والاجزاء لله محال ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الاعضاء فنقول ذكر العلماء فى لفظ اليد وجوها (الاول) ان اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالى بهذا الامر من يد أى من قوة وطاقة قال تعالى او يعفو الذى بيده عقدة النكاح (الثانى) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادى فلان فى حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة او نعم الدين والدنيا (الثالث) ان لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى نشرا بين يدى رحمته ولقائل ان يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز ويدل عليه وجوه (الاول) ان ظاهر الآية يقتضى اثبات اليدين فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم اثبات قدرتين لله وهو باطل (والثانى) ان الآية تقتضى ان كون آدم مخلوقا باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجودا للملائكة فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقا بالقدرة لكن جميع الاشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما ان آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى فكذلك ابليس مخلوق بيد الله تعالى وعلى تقدير ان تكون اليد عبارة عن القدرة لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجودا لابليس اولى من ان يكون ابليس مسجودا لآدم وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) انه جاء فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال كلتا يديه يمنى ومعلوم ان هذا الوصف لايليق بالقدرة (واما التأويل الثانى) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضا باطل لوجوه (الاول) ان نعم الله تعالى كثيرة كما قال وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها وظاهر الآية يدل على ان اليد لاتزيد على الاثنين (الثانى) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لايكون آدم مخلوقا لله تعالى بل يكون مخلوقا لبعض المخلوقات وذلك بأن يكون سببا لمزيد النقصان اولى من ان يكون سببا لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله تبارك الذى بيده الملك معناه تبارك الذى بنعمته الملك ولكان قوله بيدك الخير معناه بنعمتك الخير ولكان قوله يداه مبسوطتان معناه نعمتاه مبسوطتان ومعلوم ان كل ذلك فاسد (واما التأويل الثالث) وهو قوله ان لفظ اليد قد يذكر زيادة لاجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل فى حق من يكون هذا العضو حاصلا له وفى حق من لايكون هذا العضو حاصلا فى حقه (اما الاول) فكقولهم فى حق من جنى بلسانه هذا

لترتيب الامر على ماظهر من اللعين من المخالفة للامر الجليل وتعليلها بالاباطيل اى فاخرج من الجنة او من زمرة الملائكة وهو المراد بالامر بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فان وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد وقد بين كيفية وسوسته فى سورة البقرة وقيل اخرج من الخلقة التى كنت فيها وانسلخ منها فانه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود بعدما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا واظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى (فانك رجيم) تعليل للامر بالخروج اى مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة او شيطان يرجم بالشهب (وان عليك لعنتى) اى ابعادى عن الرحمة وتقييدها بالاضافة مع اطلاقها فى قوله تعالى وان عليك اللعنة لما ان لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين ايضا من جهته تعالى وانهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وابعاده من الرحمة (الى يوم الدين) اى يوم الجزاء والعقوبة وفيه ايذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته بل هى انموذج لما سيلقاه مستمرا الى ذلك اليوم لكن لا على انها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت بل على انه سيلقى يومئذ من الوان العذاب وافانين العقاب ماينسى عنده اللعنة وتصير كالزائل الا يرى الى قوله تعالى فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على

ما كسبت يداك والسبب فى هذا ان محل القدرة هو اليد فاطلق اسم اليد على القدرة وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة وقد تقدم ابطال هذا الوجه (واما الثانى) فكقوله بين يدى عذاب شديد وقوله بين يدى الساعة الا انا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لايقاس عليه ولايكون مطردا فلا جرم لايجوز ان يقال ان هذا المعنى انما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ونحن نسلم ان قوله لاتقدموا بين يدى الله ورسوله قد يجوز ان يراد به التأكيد والصلة اما المذكور فى هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى خلقت بيدى وان كان القياس فى المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية فهذا منتهى البحث فى هذا الباب والذى تلخص عندى فى هذا الباب ان السلطان العظيم لايقدر على عمل شئ بيده الا اذا كانت غاية عنايته مصروفة الى ذلك العمل فاذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازا عنه عند قيام الدلائل القاهرة فهذا ما لخصناه فى هذا البـاب والله اعلم اما قوله تعالى أستكبرت ام كنت من العالين فالمعنى أستكبرت الآن ام كنت ابدا من المتكبرين العالين فأجاب ابليس بقوله انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فالمعنى انى لو كنت مساويا له فى الشرف لكان يقبح امرى بسجودى له فكيف وانا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بأن اصله من النار والنار اشرف من الطين فصح ان اصله خير من اصل آدم ومن كان اصله خيرا من اصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) ان ابليس مخلوق من النار يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه خلقتنى من نار وخلقته من طين وقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم (المقدمة الثانية) ان النار افضل من الطين ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاجرام الفلكية اشرف من الاجرام العنصرية والنار اقرب العناصر من الفلك والارض ابعدها عنه فوجب كون النار افضل من الارض (الثانى) ان النار خليفة الشمس والقمر فى اضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر اشرف من الارض فخليفتهما فى الاضاءة افضل من الارض (الثالث) ان الكيفية الفاعلة الاصلية اما الحرارة او البرودة والحرارة افضل من البرودة لان الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الارض كثيفة والنـار لطيفة واللطافة اشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والارض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والارض ثقيلة تشبه الجسد والروح افضل من الجسد فالنار افضل من الارض ولذلك فان الاطباء اطبقوا على ان العنصرين الثقيلين اعون على تركيب الاجساد وان العنصرين الخفيفين اعون على توليد الارواح (السابع) النار صاعدة والارض هابطة والصاعد افضل من الهابط (الثامن) ان اول بروج الفلك هو الحمل لانه هو الذى يبدأ من نقطة الاستواء الشمالى ثم ان الحمل على طبيعة النار واشرف اعضاء الحيوان القلب والروح وهما على طبيعة النار واخس اعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس ارضى (التاسع) ان الاجسـام الارضية كلما كانت

(اشد)

الظالمين وقوله تعالى ويلعن بعضهم بعضا (قال رب فانظرنى) اى امهلنى واخرنى والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام اى اذا جعلتنى رجيما فأمهلنى ولاتمتنى (الى يوم يبعثون) اى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم واراد بذلك ان يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت بالكلية اذ لاموت بعد يوم البعث (قال فانك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل واضح على انه اخبار بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء لانظار خاص به قد وقع اجابة لدعائه وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فان ذلك معلوم من اضافة اليوم الى الدين اى انك من جملة الذين اخرت آجالهم ازلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين (الى يوم الوقت المعلوم) الذى قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الاولى لا الى وقت البعث الذى هو المسؤل فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل الربط الاخبار المذكور به كما فى قول من قال * فان ترحم فانت لذاك اهل * فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ماله تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية

اشدنورانية ومشابهة بالنار كانت اشرف وكلما كانت اكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالارض كانت اخس مثاله الاجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والاحجار الصافية النورانية ومثاله ايضا من الثياب الابريسم وماىتخذ منه واما ان كل ماكان اكثر ارضية وغبرة فهو اخس فالامر ظاهر (العاشر) ان القوة الباصرة قوة فى غاية الشرف والجلالة ولايتم عملها الا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادى عشر) ان اشرف اجسام العالم الجسمانى هو الشمس ولاشك انه شبيه بالنار فى صورته وطبيعته واثره (الثانى عشر) ان النضج والهضم والحياة لاتتم الا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لماتم المزاج وتولد المركبات (الثالث عشر) ان اقوى العناصر الاربعة فى قوة الفعل هو النار وأكملها فى قوة الانفعال هو الارض والفعل افضل من الانفعال فالنار افضل من الارض اما القائلون بتفضيل الارض على النار فذكروا ايضا وجوها (الاول) ان الارض امين مصلح فاذا اودعتها حبة ردتها اليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ماسلمته اليها (الثانى) ان الحس البصرى اثنى على النار فليستمع مايقوله الحس اللمسى (الثالث) ان الارض مستولية على النار فانها تطفئ النار واما النار فانها لاتؤثر فى الارض الخالصة (واما المقدمة الثالثة) فهى ان من كان اصله خيرا من اصله فهو خير منه فاعلم ان هذه المقدمة كاذبة جدا وذلك لان اصل الرماد النار واصل البساتين النزهة والاشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة ان الاشجار المثمرة خير من الرماد وايضا فهب ان اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة الا ان هذا يمكن ان يصير معارضا بجهة اخرى توجب الرجحان مثل انسان نسيب عار عن كل الفضائل فان نسبه يوجب رجحانه الا ان الذى لايكون نسيبا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو افضل من ذلك النسيب بدرجات لاحد لها فالمقدمة الكاذبة فى القياس الذى ذكره ابليس هو هذه المقدمة فان قال قائل هب ان ابليس اخطأ فى هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة وبيان هذا السؤال من وجوه (الاول) ان قوله اسجدوا امر والامر لايقتضى الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لاتوجب العصيان فضلا عن الكفر وايضا فالذين يقولون ان الامر للوجوب فهم لاينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهرا ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثانى) هب انه للوجوب الا ان ابليس ماكان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لايدخل فيه ابليس (الثالث) هب انه يتناوله الا ان تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الامر بالقياس (الرابع) هب انه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورا به الا ان هذا القدر يوجب العصيان ولايوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب ان صيغة الامر لاتدل على الوجوب ولكن يجوز ان ينضم اليها من القرائن مايدل على الوجوب وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى أستكبرت ام كنت من العالين فلما أتى ابليس بقياسه الفاسد دل ذلك على انه انما ذكر ذلك القياس

للرحمة بوقوعها هذا وقد ترك التوقيت فى سورة الاعراف كما ترك النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة الحجر وان خطر ببالك ان كل وجه من وجوه النظم الكريم لابد ان يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وان ماحكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الادفعة فقام الاستنظار والانظار ان اقتضى احد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة ودرجة الاعجاز واما ماعداه من الوجوه فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا عن العروج الى معارج الاعجاز فقد سلف تحقيقه فى سورة الاعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه (قال فبعزتك) الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار ولاينافيه قوله تعالى فبما اغويتنى وقوله رب بما اغويتنى فان اغواءه تعالى اياه اثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من احكام قهره وسلطنته فمآل الاقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما واخرى بالآخر اى فأقسم بعزتك (لاغوينهم اجمعين) اى ذرية آدم بتزيين المعاصى لهم (الا عبادك منهم المخلصين) وهم الذين اخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الغواية وقرئ المخلصين على صيغة الفاعل اى الذين اخلصوا قلوبهم واعمالهم لله

ليتوسل به الى القدح فى امر الله و تكليفه و ذلك يوجب الكفر * اذا عرفت هذا فنقول ان ابليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى اخرج منها فانك رجيم واعلم انه ثبت فى اصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ماحكى عنه انه خصص النص بالقياس فهذا يدل على ان تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم وقوله منها اى من الجنة او من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان (الاول) انه مجاز عن الطرد لان الظاهر ان من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فان قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله رجيم على الطرد لكان قوله بعد ذلك وان عليك لعنتى تكرارا والجواب من وجهين (الاول) انا نحمل الرجم على الطرد من الجنة او من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثانى) انا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله وان عليك لعنتى الى يوم الدين على ان ذلك الطرد يمتد الى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريرا (والقول الثانى) فى تفسير الرجيم ان تحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله اعلم فان قيل كلمة الى لانتهاء الغاية فقوله الى يوم الدين يقتضى انقطاع تلك اللعنة عند مجئ يوم الدين أجاب صاحب الكشاف بأن اللعنة باقية عليه فى الدنيا فاذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية * واعلم ان ابليس لما صار ملعونا قال فانظرنى الى يوم يبعثون قيل انما طلب الانظار الى يوم يبعثون لاجل ان يتخلص من الموت لانه اذا انظر الى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجئ يوم البعث لا يموت ايضا فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ومعناه انك من المنظرين الى يوم يعلمه الله ولا يعلمه احد سواه فقال ابليس فبعزتك وهو قسم بعزة الله وسلطانه لأغوينهم أجمعين فههنا أضاف الاغواء الى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى رب بما أغويتنى فأضاف الاغواء الى الله على ماهو مذهب الجبر وهذا يدل على انه متحير فى هذه المسئلة واما قوله الا عبادك منهم المخلصين ففيه فوائد (الفائدة الاولى) قيل غرض ابليس من ذكر هذا الاستثناء ان لا يقع فى كلامه الكذب لانه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى انه يغوى الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن اغواء عباد الله الصالحين فكأن ابليس قال انما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب فى هذا الكلام وعند هذا يقال ان الكذب شئ يستنكف منه ابليس فكيف يليق بالمسلم الاقدام عليه فان قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وما ارسلنا من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته قلنا ان ابليس لم يقل انى لم اقصد اغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وان كان يقصد الاغواء الا انه لا يغويهم (الفائدة الثانية) هذه الآية تدل على ان ابليس لا يغوى عباد الله المخلصين وقال تعالى فى صفة يوسف انه من عبادنا المخلصين فحصل من مجموع هاتين

(الآيتين)

تعالى (قال) اى الله عزوجل (فالحق والحق أقول) برفع الاول على انه مبتدأ محذوف الخبر او خبر محذوف المبتدأ ونصب الثانى على انه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر اى لااقول الا الحق والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها اى فالحق قسمى (لاملأن جهنم) على ان الحق اما اسمه تعالى او نقيض الباطل عظمه الله تعالى باقسامه به اوفأنا الحق اوفقولى الحق وقوله تعالى لاملأن جهنم الخ حينئذ جواب لقسم محذوف اى والله لاملأن الخ وقوله تعالى والحق اقول على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الاولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة اعنى فقولى الحق وقرئا منصوبين على ان الاول مقسم به كقولك الله لافعلن وجوابه لاملأن وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على ان الاول مقسم به قد اضمر حرف قسمه كقولك الله لافعلن والحق اقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرئ بجر الاول على اضمار حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية (منك) اى من جنسك من الشياطين (وممن تبعك) فى الغواية والضلال (منهم) من ذرية آدم (اجمعين) تأكيد للكاف وماعطف عليه اى لاملأنها من المتبوعين والاتباع اجمعين كقوله تعالى لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ولكن حق القول منى لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وحيث كان مناط الحكم ههنا اتباع الشيطان اتضح ان مدار عدم المشيئة فى قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها اتباع الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر

الآية ان ابليس ما اغوى يوسف عليه السلام وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون الى يوسف عليه السلام من القبائح واعلم ان ابليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى فالحق والحق اقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة فالحق بالرفع والحق بالنصب والباقون بالنصب فيهما اما الرفع فتقديره فالحق قسمي واما النصب فعلى القسم اى فبالحق كقولك والله لأفعلن واما قوله والحق أقول انتصب قوله والحق بقوله اقول (المسئلة الثانية) قوله منك اى من جنسك وهم الشياطين وممن تبعك منهم من ذرية آدم فان قيل قوله اجمعين تأكيد لماذا قلنا يحتمل ان يؤكد به الضمير في منهم او الكاف في منك مع من تبعك ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لااترك منهم احدا (المسئلة الثالثة) احتج اصحابنا بهذه الآية في مسئلة ان الكل بقضاء الله من وجوه (الاول) انه تعالى قال في حق ابليس اخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين فهذا اخبار من الله تعالى بأنه لايؤمن فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذبا وهو محال فكان صدور الايمان منه محالا مع انه امر به (الثاني) انه قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين فالله تعالى علم منه انه يغويهم وسمع منه هذه الدعوى وكان قادرا على منعه عن ذلك والقادر على المنع اذا لم يمنع كان راضيا به فان قالوا لعل ذلك المنع مفسد قلنا هذا قول فاسد لأن ذلك المنع يخلص ابليس عن الاضلال ويخلص بني آدم عن الضلال وهذا عين المصلحة (الثالث) انه تعالى اخبر انه يملأ جهنم من الكفرة فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل في حق الله تعالى (الرابع) انه لو اراد ان لايكفر الكافر لوجب ان يبقى الانبياء والصالحين وان يميت ابليس والشياطين وحيث قلب الامر علمنا انه فاسد (الخامس) ان تكليف اولئك الكفار بالايمان يقتضي تكليفهم بالايمان بهذه الآيات التي هي دالة على انهم لايؤمنون البتة وحينئذ يلزم ان يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لايؤمنون البتة وذلك تكليف بما لايطاق والله اعلم * قوله تعالى (قل ما اسألكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين) اعلم ان الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة وذلك لانه تعالى ذكر طرقا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين ثم قال عند الختم هذا الذي ادعو الناس اليه يجب ان ينظر في حال الداعي وفي حال الدعوة ليظهر انه حق او باطل اما الداعي وهو انا فانا لا اسألكم على هذه الدعوة اجرا ومالا ومن الظاهر ان الكذاب لاينقطع طمعه عن طلب المال البتة وكان من الظاهر انه صلى الله عليه وسلم كان بعيدا عن الدنيا عديم الرغبة فيها واما كيفية الدعوة فقال وما انا من المتكلفين والمفسرون ذكروا فيه وجوها والذي يغلب على الظن ان المراد ان هذا الذي ادعوكم اليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته الى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته فأني ادعوكم الى الاقرار بوجود الله اولا ثم ادعوكم ثانيا

(قل ماأسألكم عليه) على القرآن اوعلى تبليغ مايوحى الى (من اجر) دنيوى (وماأنامن المتكلفين) اى المتصنعين بما ليسوا من اهله حتى أنتحل النبوة واتقول القرآن (ان هو) اى ماهو (الاذكر) من الله عزوجل (للعالمين) اى للثقلين كافة (ولتعلمن نبأه) اى ماانبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما اوصحة خبره وانه الحق والصدق (بعد حين) بعد الموت اويوم القيامة اوعند ظهور الاسلام وفشوه وقيل من بقي علم ذلك اذا ظهر امره وعلا ومن مات علمه بعد الموت وفيه من التهديد مالايخفى * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصم ان يصر على ذنب صغير اوكبير وقال ابو امامة عصمه الله تعالى من كل ذنب صغير اوكبير والله اعلم

(سورة الزمر مكية الاقوله)
(قل لعبادي الآية وآيها)
(خمس وسبعون اوثنتان)
(وسبعون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تنزيل الكتاب) خبر لمبتدأ محذوف هو اسم اشارة اشير به الى السورة تنزيلا لها منزلة الحاضر المشار اليه لكونها على شرف الذكر والحضور كمامر مرارا وقد قيل هو ضمير عائد الى الذكر في قوله تعالى ان هو الاذكر للعالمين وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) صلة للتنزيل او خبر ثان او حال من التنزيل عاملها معنى الاشارة اومن الكتاب الذي هو مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر لتنزيل الكتاب والوجه الاول اوفى بمقتضى المقام الذي هو بيان ان السورة اوالقرآن تنزيل الكتاب من الله تعالى لابيان ان تنزيل الكتاب منه تعالى لامن غيره كمايفيده الوجه الاخير وقرئ تنزيل الكتاب بالنصب على اضمار فعل نحو اقرأ او الزم

الى تنزيهه وتقديسه عن كل مالا يليق به يقوى ذلك قوله ليس كمثله شئ وامثاله ثم ادعوكم ثالثا الى الاقرار بكونه موصوفا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ثم ادعوكم رابعا الى الاقرار بكونه منزها عن الشركاء والاضداد ثم ادعوكم خامسا الى الامتناع عن عبادة هذه الاوثان التى هى جمادات خسيسة ولا منفعة فى عبادتها ولا مضرة فى الاعراض عنها ثم ادعوكم سادسا الى تعظيم الارواح الطاهرة المقدسة وهم الملائكة والانبياء ثم ادعوكم سابعا الى الاقرار بالبعث والقيامة ليجزى الذين اساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى ثم ادعوكم ثامنا الى الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فهذه الاصول الثمانية هى الاصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ودين محمد صلى الله عليه وسلم وبدائة العقول واوائل الافكار شاهدة بصحة هذه الاصول الثمانية فثبت انى لست من المتكلفين فى الشريعة التى ادعوا الخلق اليها بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فانه يشهد بصحتها وجلالتها وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله ان هو الاذكر للعالمين ولما بين هذه المقدمات قال ولتعلمن نبأه بعد حين والمعنى انكم ان اصررتم على الجهل والتقليد وابيتم قبول هذه البيانات التى ذكرناها فستعلمون بعد حين انكم كنتم مصيبين فى هذا الاعراض او مخطئين وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه فى التخويف والترهيب والله اعلم ✽ قال المصنف رحمة الله عليه تم تفسير هذه السورة يوم الخميس فى آخر الثلاثاء الثانى من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله على آلائه ونعمائه ✽ والصلاة على المطهرين من عباده فى ارضه وسمائه والمدح والثناء كما يليق بصفاته واسمائه ✽ والتعظيم التام لانبيائه واوليائه ✽ وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

﴿ سورة الزمر سبعون وخمس آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار لو اراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الفراء والزجاج فى رفع تنزيل وجهين (احدهما) ان يكون قوله تنزيل مبتدأ وقوله من الله العزيز الحكيم خبر (والثانى) ان يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب فيضمر المبتدأ كقوله سورة انزلناها اى هذه سورة قال بعضهم الوجه الاول اولى لوجوه (الاول) ان الاضمار خلاف الاصل فلا يصار اليه الا لضرورة ولا ضرورة ههنا (الثانى) انا اذا قلنا تنزيل الكتاب من الله جملة تامة من المبتدأ والخبر

والتعرض لوصف العزة والحكمة للايذان بظهور اثريهما فى الكتاب بجريان احكامه ونفاذ اوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على اساس الحكم الباهرة وقوله تعالى (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق) شروع فى بيان شأن المنزل اليه وما يجب عليه اثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن واظهاره على تقدير كونه هو المراد بالاول ايضا لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء اما متعلقة بالانزال اى بسبب الحق واثباته واظهاره او بداعية الحق واقتضائه للانزال واما بمحذوف هو حال من نون العظمة او من الكتاب اى انزلناه اليك محقين فى ذلك او انزلناه ملتبسا بالحق والصواب اى كل ما فيه حق لا ريب فيه موجب للعمل به حتما والفاء فى قوله تعالى (فاعبد الله مخلصا له الدين) لترتيب الامر بالعبادة على انزال الكتاب اليه عليه الصلاة والسلام بالحق اى فاعبده تعالى ممحضا له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ما انزل اليك وقرئ برفع الدين على انه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للامر باخلاص العبادة وقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) استئناف مقرر لما قبله من الامر باخلاص الدين له تعالى ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الاخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى اى ألا هو الذى يجب ان يخص باخلاص الطاعة له لانه المتفرد بصفات الالوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه اولياء) تحقيق لحقية ما ذكر من اخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك اخلاصه والموصول (افاد)

افاد فائدة شريفة وهى ان تنزيل الكتاب يكون من الله لامن غيره وهذا الحصر معنى معتبر أما اذا اضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) انا اذا اضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله وحينئذ يلزمنا مجاز آخر لان هذا اشارة الى السورة والسورة ليست نفس التنزيل بل السورة منزلة فحينئذ يحتاج الى ان نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة (المسئلة الثانيه) القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا انه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا وهذا الوصف لايليق الا بالمحدث المخلوق والجواب انا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف (المسئلة الثالثة) الآيات الكثيره تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات اخر تدل على كونه منزلا (اما الاول) فقوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين وقال تنزيل من حكيم حميد وقال حم تنزيل من الرحمن الرحيم (واما الثانى) فقوله انا نحن نزلنا الذكر وقال وبالحق انزلناه وبالحق نزل وانت تعلم ان كونه منزلا اقرب الى الحقيقة من كونه تنزيلا فكونه منزلا مجاز ايضا لانه ان كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لايقبل الانفصال والنزول وان كان المراد منه الحروف والاصوات فهى أعراض لاتقبل الانتقال والنزول بل المراد من النزول نزول الملك الذى بلغها الى الرسول صلى الله عليه وسلم (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذى لايغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرا على مالانهاية له والحكيم هو الذى يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة وهذا انمايتم اذا ثبت انه تعالى عالم بجميع المعلومات وانه غنى عن جميع الحاجات اذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى عزيزا حكيما يدل على هذه الصفات الثلاث العلم بجميع المعلومات والقدرة على كل الممكنات والاستغناء عن كل الحاجات فمن كان كذلك امتنع ان يفعل القبيح وان يحكم بالقبيح واذا كان كذلك فكل مايفعله يكون حكمة وصوابا اذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على اصلين (احدهما) ان يعلم ان القرآن كلام الله والدليل عليه انه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقا وثبت بالتواتر انه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين ان القرآن كلام الله (والاصل الثانى) ان الله أراد بهذه الالفاظ المعانى التى هى موضوعة لها اما بحسب اللغة او بحسب القرينة العرفية او الشرعية لانه لو لم يرد بها ذلك لكان ذلك تلبيسا وذلك لايليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا ان الانتفاع بالقرآن لايحصل الا بعد تسليم هذين الاصلين وثبت انه لاسبيل الى اثبات هذين الاصلين الا باثبات كونه تعالى حكيما وثبت انه لاسبيل الى اثبات كونه حكيما الا بالبناء على كونه تعالى عزيزا فلهذا السبب قال تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم اما قوله تعالى انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ففيه سؤالان (السؤال الاول) لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجما نجما على سبيل التدريج ولفظ الانزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما والجواب ان صح الفرق بين التنزيل

عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ماسيأتى من الجملة المصدرة بان والاولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والاصنام وقوله تعالى (مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى) حال بتقدير القول من واو اتخذوا مبينة لكيفية اشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من اعم العلل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى اى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين مانعبدهم لشئ من الاشياء الاليقربونا الى الله تعالى تقريبا (ان الله يحكم بينهم) اى وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى لانفرق بين احد من رسله على احد الوجهين اى بين احد منهم وبين غيره وعليه قول النابغة

فما كان بين الخير لو جاء سالما
ابو حجر الاليال قلائل

اى بين الخير وبينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعا (فيما هم فيه يختلفون) من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والاشراك وادعى كل فريق منهم صحة ماانتحله وحكمه تعالى فى ذلك ادخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم واما تجويز ان يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد اليه واضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون اولياء قائلين مانعبدهم الاليقربونا الى الله ان الله يحكم بينهم اى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الاغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا

وبين الانزال من الوجه الذى ذكرتم فطريق الجمع ان يقال المعنى انا حكمنا حكما كليا جزما بأن يوصل اليك هذا الكتاب وهذا هو الانزال ثم اوصلناه نجما نجما اليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل (السؤال الثانى) ما المراد من قوله انا انزلنا اليك الكتاب بالحق والجواب فيه وجهان (الاول) المراد انزلنا الكتاب اليك ملتبسا بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما اودعناه فيه من اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وانواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير اليه (الثانى) ان يكون المراد انا انزلنا اليك الكتاب بناء على دليل حق دل على ان الكتاب نازل من عند الله وذلك الدليل هو ان الفصحاء عجزوا عن معارضته ولو لم يكن معجزا لما عجزوا عن معارضته ثم قال فاعبد الله مخلصا له الدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما بين فى قوله انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ان هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب اردف هنا ببعض مافيه من الحق والصدق وهو ان يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص فهو المراد من قوله تعالى فاعبد الله مخلصا واما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله ألا لله الدين الخالص لان قوله ألا لله يفيد الحصر ومعنى الحصر ان يثبت الحكم فى المذكور وينتفى عن غير المذكور واعلم ان العبادة مع الاخلاص لا تعرف حقيقة الا اذا عرفنا ان العبادة ماهى وان الاخلاص ماهو وان الوجوه المنافية للاخلاص ماهى فهذه امور ثلاثة لابد من البحث عنها (اما العبادة) فهى فعل او قول او ترك فعل او ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد ان الآمر به عظيم يجب قبوله (واما الاخلاص) فهو ان يكون الداعى له الى الاتيان بذلك الفعل او الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال فان حصل منه داع آخر فاما ان يكون جانب الداعى الى الطاعة راجحا على الجانب الآخر او معادلا له او مرجوحا واجمعوا على ان المعادل والمرجوح ساقط واما اذا كان الداعى الى طاعة الله راجحا على الجانب الآخر فقد اختلفوا فى انه هل يفيد ام لا وقد ذكرنا هذه المسئلة مرارا ولفظ القرآن يدل على وجوب الاتيان به على سبيل الخلوص لان قوله فاعبد الله مخلصا صريح فى انه يجب الاتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهى الوجوه الداعية للشريك وهى اقسام (احدها) ان يكون للرياء والسمعة فيه مدخل (وثانيها) ان يكون مقصوده من الاتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار (وثالثها) أن يأتى بها ويعتقد أن لها تأثيرا فى ايجاب الثواب او دفع العقاب (ورابعها) وهو ان يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة وهذا القول انما يعتبر على قول المعتزلة (المسئلة الثانية) من الناس من قال فاعبد الله مخلصا له الدين المراد منه شهادة ان لا اله الا الله واحتجوا بما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا اله الا الله حصنى ومن دخل

(حصنى)

محوجا الى الحكم والفصل وانما ذلك ما بين فريقى الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى الى يوم القيامة

وقرئ قالوا ما نعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل اذ ليس فى الاخبار بذلك مزيد مزية وقرئ ما نعبدكم الا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرئ نعبدهم اتباعا للباء (ان الله لا يهدى) اى لا يوفق للاهتداء الى الحق الذى هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب (من هو كاذب كفار) اى راسخ فى الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فانهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغيير هما الفطرة الاصلية بالتمرن فى الضلالة والتمادى فى الغى والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى (لو أراد الله ان يتخذ ولدا) الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وابطال القول بان الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الاطلاق ليندرج فيه استحالة ماقيل اندراجا اوليا اى لو أراد الله ان يتخذ ولدا (لاصطفى) اى لاتخذ (مما يخلق) اى من جملة ما يخلقه او من جنس ما يخلقه (ما يشاء) ان يتخذه اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ما عداه اليه ومن البين ان اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وان المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولدا فما فرضناه اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد واليه اشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذى تقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض ارادة وقوعه انتفاءه اى لو أراد الله تعالى ان يتخذ ولدا لفعل شيئا ليس هو من اتخاذ الولد فى شئ اصلا بل انما

هو اصطفاء عبد ولاريب في ان ما يستلزم فرض وقوعه (٢٢٩) انتفاءه فهو ممتنع قطعا فكأنه قيل لو أراد الله ان يتخذ ولدا لامتنع ولم

حصني أمن من عذابي وهذا قول من يقول لا تضر المعصية مع الايمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر واما الاكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الاوامر والنواهي وهذا هو الاولى لان قوله فاعبد الله عام وروى ان امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها اوصت ان يصلي الحسن البصري عليها فلما صلى عليها ودفنت قال للفرزدق يا ابا فراس ما الذي اعددت لهذا الامر قال شهادة ان لا اله الا الله فقال الحسن رضي الله عنه هذا العمود فأين الطنب فبين بهذا اللفظ الوجيز ان عمود الخيمة لا ينتفع به الا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة قال القاضي فأما ما روى انه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وابي الدرداء وان زنى وان سرق على رغم انف ابي الدرداء فان صح فانه يجب ان يحمل عليه بشرط التوبة والا لم يجز قبول هذا الخبر لانه مخالف للقرآن ولانه يوجب ان لا يكون الانسان مزجورا عن الزنا والسرقة وان لا يكون متعديا بفعلهما لانه مع شدة شهوته للقبيح يعلم انه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكان ذلك اغراء بالقبيح والكل ينافي حكمة الله تعالى ولا يلزم ان يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب ايضا الاغراء بالقبيح لانا نقول ان من اعتقد ان ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد ان فعل القبيح مضرة الا انه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول ان فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين هذا تمام كلام القاضي فيقال له اما قولك ان القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم اى حال ظلمهم كما يقال رأيت الامير على اكله وشربه اى حال كونه آكلا وشاربا وقال يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا واما قوله ان ذلك يوجب الاغراء بالقبيح فيقال له ان كان الامر كذلك وجب ان يقبح غفرانه عقلا وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة وانت لا تقول به لان مذهب البصريين ان عذاب المذنب جائز عقلا وايضا فيلزم عليه ان لا يحصل الغفران بالتوبة لانه اذا علم انه اذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر واما الفرق الذي ذكره القاضي فبعيد لانه اذا عزم على ان يتوب عنه في الحال علم انه لا يضره ذلك الذنب البتة ثم نقول مذهبنا انا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لانه تعالى قال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقطع بحصول المغفرة في الجملة الا انه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل احد بل في حق من شاء واذا كان الامر كذلك كان الخوف حاصلا فلا يكون الاغراء حاصلا والله اعلم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ الدين بالرفع ثم قال وحق من رفعه ان يقرأ مخلصا بفتح اللام لقوله تعالى واخلصوا دينهم لله حتى يطابق قوله ألا لله الدين الخالص والخالص والمخلص واحد الا انه وصف الدين بصفة صاحبه على الاسناد المجازي كقولهم شعر شاعر واعلم انه تعالى لما بين ان رأس العبادات ورئيسها الاخلاص

يصح لكن لا على ان لامتناع منوط بتحقيق الارادة بل على انه متحقق عند عدمها بطريق الاولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى (سبحانه) تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه اى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على ان السبحان مصدر من سبح اذا بعد اواسبحه تسبيحا لائقا به على انه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد او سبحوه تسبيحا حقيقا بشأنه وقوله تعالى (هو الله الواحد القهار) استئناف مبين لتنزهه تعالى بحسب الصفات اثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فان صفة الالوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الاطلاق مما يقضي بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهارية لما ان اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور ان يتخذ من الاشياء الفانية ما يقوم مقامه وقوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق) تفصيل لبعض افعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة اى خلقهما وما بينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) بيان لكيفية تصرفه تعالى

فيهما بعد بيان خلقهما فان حدوث الليل والنهار في الارض منوط بتحريك السموات اى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه

في التوحيد اردفه بذم طريقة المشركين فقال و الذين اتخذوا من دونه اولياء مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى وتقدير الكلام و الذين اتخذوا من دونه اولياء يقولون مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى وعلى هذا التقدير فخبر والذين محذوف وهو قوله يقولون واعلم ان الضمير في قوله مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى عائد على الاشياء التي عبدت من دون الله وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء اما العقلاء فهو ان قوما عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها انها احياء عاقلة ناطقة واما الاشياء التي عبدت مع انها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الاصنام اذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء اما بغير العقلاء فلايليق وبيانه من وجهين (الاول) ان الضمير في قوله مانعبدهم ضمير للعقلاء فلايليق بالاصنام (الثاني) انه لايبعد ان يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزير والملائكة ان يشفعوا لهم عند الله اما يبعد من العاقل ان يعتقد في الاصنام والجمادات انها تقربه الى الله وعلى هذا التقدير فرادهم ان عبادتهم لها تقربهم الى الله ويمكن ان يقال ان العاقل لايعبد الصنم من حيث انه خشب او حجر وانما يعبدونه لاعتقادهم انها تماثيل الكواكب او تماثيل الارواح السماوية او تماثيل الانبياء والصالحين الذين مضوا ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات الى تلك الاشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورا لها وحاصل الكلام لعباد الاصنام ان قالوا ان الاله الاعظم اجل من ان يعبده البشر لكن اللائق بالبشر ان يشتغلوا بعبادة الاكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الارواح السماوية ثم انها تشتغل بعبادة الاله الاكبر فهذا هو المراد من قولهم مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى واعلم ان الله تعالى لما حكى مذاهبهم اجاب عنها من وجوه (الاول) انه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون واعلم ان الرجل المبطل اذا ذكر مذهبا باطلا وكان مصرا عليه فالطريق في علاجه ان يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الاصرار عن قلبه فاذا زال الاصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه فيكون هذا الطريق افضى الى المقصود والاطباء يقولون لابد من تقديم المنضج على سقي المسهل فان يتناول المنضج تصيرا لمواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال فاذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام فكذلك ههنا اسماع التهديد والتخويف اولا يجري مجرى سقي المنضج اولا واسماع الدليل ثانيا يجري مجرى سقي المسهل ثانيا فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد ثم قال تعالى ان الله لايهدي من هو كاذب كفار والمراد ان من اصر على الكذب والكفر بقي محروما عن الهداية والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الاصنام بانها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الاشياء بالالهية كذب محض واما الكفر فيحتمل ان يكون المراد منه الكفر الراجع الى

يلفه عليه لف اللباس على اللابس او يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة او يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع اكوار العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد (وسخر الشمس والقمر) جعلهما منقادين لامره تعالى وقوله تعالى (كل يجري لاجل مسمى) بيان لكيفية تسخيرهما اي كل منهما يجري لمنتهى دورته او منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة (ألا هو العزيز) الغالب القادر على كل شئ من الاشياء التي من جملتها عقاب العصاة (الغفار) المبالغ في المغفرة ولذلك لايعاجل بالعقوبة وسلب مافي هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير الجملة بحرف التنبيه لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها (خلقكم من نفس واحدة) بيان لبعض آخر من افعاله الدالة على ماذكر وترك عطفه على خلق السموات للايذان باستقلاله في الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلي والبداءة بخلق الانسان لعراقته في الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة واسرار الحكمة واصالته في المعرفة فان الانسان بحال نفسه اعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله (ثم جعل منها زوجها) عطف على محذوف هو صفة لنفس اي من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها او على معنى واحدة اي من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها او على خلقكم لتفاوت مابينهما في الدلالة فانهما وان كانتا آيتين دالتين على ماذكر لكن الاولى لاستمرارها صارت معتادة واما الثانية فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الاولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت ادخل في كونها آية واجلب للتعجب من السامع فعطفت على الاولى بثم دلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما

الاعتقاد والامر ههنا كذلك فان وصفهم لها بالالهية كذب واعتقادهم فيها بالالهية جهل وكفر ويحتمل ان يكون المراد كفران النعمة والسبب فيه ان العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لاتليق الا بمن يصدر عنه غاية الانعام وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الاوثان لامدخل لها فى ذلك الانعام فالاشتغال بعبادة هذه الاوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق ثم قال تعالى لو أراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار والمراد من هذا الكلام اقامة الدلائل القاهرة على كونه منزها عن الولد وبيانه من وجوه (الاول) انه لو اتخذ ولدا لمارضى الا بأكمل الاولاد وهو الابن فكيف نسبتم اليه البنت (الثانى) انه سبحانه واحد حقيق والواحد الحقيق يمتنع ان يكون له ولد اما انه واحد حقيق فلانه لو كان مركبا لاحتاج الى كل واحد من اجزائه وجزؤه غيره فكان يحتاج الى غيره والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لايكون واجب الوجود لذاته واما ان الواحد لايكون له ولد فلوجوه (الاول) ان الولد عبارة عن جزء من اجزاء الشئ ينفصل عنه ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد وهذا انما يعقل فى الشئ الذى ينفصل منه جزء والفرد المطلق لايقال ذلك فيه (الثانى) شرط الولد ان يكون مماثلا فى تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشئ حقيقة نوعية محمولة على شخصين وذلك محال لان تعيين كل واحد منهما ان كان من لوازم تلك الماهية لزم ان لايحصل من تلك الماهية الا الشخص الواحد وان لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوما بسبب منفصل فلا يكون الها واجب الوجود لذاته فثبت ان كونه الها واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدا فى حقيقته وكونه واحدا فى حقيقته يمنع من ثبوت الولد له فثبت ان كونه واحدا يمنع من ثبوت الولد (الثالث) ان الولد لايحصل الا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وان يكونا من جنس واحد فلو كان له ولد لما كان واحدا بل كانت زوجته من جنسه واما ان كونه قهارا يمنع من ثبوت الولد له فلأن المحتاج الى الولد هو الذى يموت فيحتاج الى ولد يقوم مقامه فالمحتاج الى الولد هو الذى يكون مقهورا بالموت اما الذى يكون قاهرا ولايقهره غيره كان الولد فى حقه محالا فثبت ان قوله هو الله الواحد القهار الفاظ مشتملة على دلائل قاطعة فى نفى الولد عن الله تعالى ❁ قوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولايرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولاتزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور) اعلم ان الآية المتقدمة دلت على انه تعالى بين كونه منزها

يرجع الى الزيادة كونها آية فهو من التراخى فى الحال والمنزلة وقيل اخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة خلق آدم عليه السلام بلا أب وام وخلق حواء من قصيراه ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما وقوله تعالى (وانزل لكم) بيان لبعض آخر من افعاله الدالة على ماذكر أى قضى او قسم لكم فان قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب فى اللوح المحفوظ او احدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالامطار وأشعة الكواكب (من الانعام ثمانية ازواج) ذكرا وانثى هى الابل والبقر والضأن والمعز وقيل خلقها فى الجنة ثم انزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بماقدم والتشويق الى ماأخر فان كون الانزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الامور المهمة المشوقة الى ماأنزل لامحالة وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) استئناف مسوق لبيان كيفية خلقهم واطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى (خلقا من بعد خلق) مصدر مؤكد اى يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق اى خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة (فى ظلمات ثلاث) متعلق بيخلقكم وهى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة او ظلمة الصلب والبطن والرحم (ذلكم) اشارة اليه تعالى باعتبار افعاله المذكورة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته تعالى فى العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أى ذلكم العظيم الشان الذى عددت أفعاله (الله) وقوله تعالى (ربكم)

عن الولد بكونه الها واحدا وقهارا غالبا اى كامل القدرة فلما بنى تلث المسئلة على هذه الاصول ذكر عقيبها مايدل على كال القدرة وعلى كال الاستغناء وايضا فانه تعالى طعن فى الهية الاصنام فذكر عقيبها الصفات التى باعتبارها تحصل الالهية واعلم انا بينا فى مواضع من هذا الكتاب ان الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات الهيته اما ان تكون فلكية او عنصرية اما الفلكية فاقسام (احدها) خلق السموات والارض وهذا المعنى يدل على وجود الاله القادر من وجوه كثيرة شرحناها فى تفسير قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض (والثانى) اختلاف احوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وذلك لان النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة وذاك هذا اخرى وذلك يدل على ان كل واحد منهما مغلوب مقهور ولابد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى والمراد من هذا التكوير انه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ماينقص عن الآخر والمراد من تكوير الليل والنهار ماورد فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من الادبار بعد الاقبال واعلم انه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله يكور الليل على النهار وبقوله يغشى الليل النهار وبقوله يولج الليل فى النهار وبقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر (والثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل واكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله كل يجرى لاجل مسمى الاجل المسمى يوم القيامة لايزالان يجريان الى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ونظيره قوله تعالى وجمع الشمس والقمر والمراد من هذا التسخير ان هذه الافلاك تدور كدور المنجنون على حد واحد الى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتاب ولما ذكر الله هذه الانواع الثلاث من الدلائل الفلكية قال ألا هو العزيز الغفار والمعنى ان خلق هذه الاجرام العظيمة وان دل على كونه عزيزا اى كامل القدرة الا انه غفار عظيم الرحمة والفضل والاحسان فانه لما كان الاخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفارا يوجب كثرة الرحمة وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ثم انه تعالى اتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الاسفل فبدأ بذكر الانسان فقال خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ودلالة تكون الانسان على الاله المختار قد سبق بيانها مرارا كثيرة فان قيل كيف جاز ان يقول خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها والزوج مخلوق قبل خلقهم اجابوا عنه من وجوه (الاول) ان كلمة ثم كما تجئ لبيان كون احدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجئ لبيان تأخر احد الكلامين عن الآخر كقول لقائل بلغنى ماصنعت اليوم ثم ماصنعت امس اعجب ويقول ايضا قد اعطيتك اليوم شيئا ثم الذى اعطيتك أمس أكثر (الثانى) ان يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها

(زوجها)

خبر آخر اى مربيكم فيما ذكر من الاطوار وفيما بعدها والمالك المستحق لتخصيص العبادة به (له الملك) على الاطلاق فى الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى (لااله الا هو) والفاء فى قوله تعالى (فانى تصرفون) لترتيب مابعدها على ماذكر من شؤنه تعالى اى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية الى عبادة غيره من غير داع اليها مع كثرة الصوارف عنها (ان تكفروا) به تعالى بعد مشاهدة ماذكر من فنون نعمائه ومعرفة شؤنه العظيمة الموجبة للايمان والشكر (فان الله غنى عنكم) اى فاعلموا انه تعالى غنى عن ايمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما (ولايرضى لعباده الكفر) اى عدم رضاه بكفر عباده لاجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لالتضرره تعالى به (وان تشكروا يرضه لكم) اى يرض الشكر لاجلكم ومنفعتكم لانه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لالانتفاعه تعالى به وانما قيل لعباده لالكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرئ باسكان الهاء (ولاتزر وازرة وزر اخرى) بيان لعدم سراية كفر الكافر الى غيره اصلا اى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى (ثم الى ربكم مرجعكم) بالبعث بعد الموت (فينبئكم) عند ذلك (بما كنتم تعملون) أى كنتم تعملونه فى الدنيا من اعمال الكفر والايمان أى يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا (انه عليم بذات الصدور) اى بمضمرات القلوب فكيف بالاعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبئة

زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء واعلم انه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الانسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال بوجود الحيوان عليه فقال وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج وهى الابل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع فى قوله والانعام خلقها لكم فيها دف، وفى تفسير قوله تعالى وانزل لكم وجوه (الاول) ان قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لاجل انه كتب فى اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثانى) ان شيئا من الحيوان لا يعيش الا بالنبات والنبات لا يقوم الا بالماء والتراب والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه انزلها (الثالث) انه تعالى خلقها فى الجنة ثم انزلها الى الارض وقوله ثمانية أزواج اى ذكر وانثى من الابل والبقر والضأن والمعز والزوج اسم لكل واحد معه آخر فاذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ثم قال تعالى يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق وفيه ابحاث (الاول) قرأ حمزة بكسر الالف والميم والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم والباقون امهاتكم بضم الالف وفتح الميم (الثانى) انه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام اردفه بتخليق الانعام وانما خصها بالذكر لانها اشرف الحيوانات بعد الانسان ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الانسان وبين الانعام وهى كونها مخلوقة فى بطون امهاتهم وقوله خلقا من بعد خلق المراد منه ما ذكره الله تعالى فى قوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين وقوله فى ظلمات ثلاث قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه فى قوله هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء واعلم انه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال ذلكم الله ربكم اى ذلكم الشئ الذى عرفتم عجائب افعاله هو الله ربكم وفى هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزها عن الاجزاء والاعضاء وعلى كونه منزها عن الجسمية والمكانية وذلك انه تعالى عندما اراد ان يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر الا كونه فاعلا لهذه الاشياء ولو كان جسما مركبا من الاعضاء لكان تعريفه بتلك الاجزاء والاعضاء تعريفا للشئ بأجزاء حقيقته واما تعريفه بأحواله وافعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته والتعريف الاول اكمل من الثانى ولو كان ذلك القسم ممكنا لكان الاكتفاء بهذا القسم الثانى تقصيرا ونقصانا وذلك غير جائز فعلمنا ان الاكتفاء بهذا القسم انما حسن لان القسم الاول محال ممتنع الوجود وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليا عن الجسمية والاعضاء والاجزاء ثم قال تعالى له الملك وهذا يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ولما ثبت انه لا ملك الا له وجب القول بانه لا اله الا هو لانه لو ثبت اله آخر فذلك الاله اما ان يكون له الملك او لا يكون

(واذا مس الانسان ضر) من مرض وغيره (دعا ربه منيبا اليه) راجعا اليه عما كان يدعوه فى حالة الرخاء لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض افراده كقوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار (ثم اذا خوله نعمة منه) اى اعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى من التخول وهو التعهد اى جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به او من الخول وهو الافتخار اى جعله يخول اى يختال ويفتخر (نسى ما كان يدعو اليه) اى نسى الضر الذى كان يدعو الله تعالى فيما سبق الى كشفه (من قبل) اى من قبل التخويل اونسى ربه الذى كان يدعوه ويتضرع اليه اما بناء على ان ما بمعنى من كما فى قوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله تعالى ولا انتم عابدون ما اعبد واما ايذانا بأن نسيانه بلغ الى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلا عن ان يعرفه من هو كما مر فى قوله تعالى عما أرضعت (وجعل لله اندادا) شركاء فى العبادة (ليضل) الناس بذلك (عن سبيله) الذى هو التوحيد وقرئ ليضل بفتح الياء اى يزداد ضلالا او يثبت عليه والا فاصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا

له الملك فان كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادرا ويجرى بينهما التمانع كما ثبت فى قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وذلك محال وان لم يكن للثانى شئ من القدرة والملك فيكون ناقصا ولا يصلح للالهية فثبت انه لما دل الدليل على انه لا ملك الا الله وجب ان يقال لا اله للعالمين ولا معبود للخلق اجمعين الا الله الاحد الحق الصمد ثم اعلم انه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه (الاول) قوله فأنى تصرفون يحتج به اصحابنا ويحتج به المعتزلة اما اصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية انها صريحة فى انهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم وما ذاك الغير الا الله وايضا فدليل العقل يقوى ذلك لان كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب فلما لم يحصل ذلك وانما حصل الجهل والضلال علمنا انه من غيره لا منه واما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم ان قوله فأنى تصرفون تعجب من هذا الانصراف ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى ثم قال تعالى ان تكفروا فان الله غنى عنكم والمعنى ان الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر الى نفسه منفعة اوليدفع عن نفسه مضرة وذلك لانه تعالى غنى على الاطلاق ويمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة وانما قلنا انه غنى لوجوه (الاول) انه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته ومن كان كذلك كان غنيا على الاطلاق (الثانى) انه لو كان محتاجا لكانت تلك الحاجة اما قديمة واما حادثة (والاول) باطل والا لزم ان يخلق فى الازل ما كان محتاجا اليه وذلك محال لان الخلق والازلى متناقض (الثانى) باطل لان الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعى الى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب انه بقى الشك فى انه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه ام لا اما من المعلوم بالضرورة ان الاله القادر على خلق السموات والارض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسى والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة يمتنع ان ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو وان يستضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك فثبت بما ذكرنا ان جميع العالمين لو كفروا واصروا على الجهل فان الله غنى عنهم ثم قال تعالى بعده ولا يرضى لعباده الكفر يعنى انه وان كان لا ينفعه ايمان ولا يضره كفران الا أنه لا يرضى بالكفر واحتج الجبائى بهذه الآية من وجهين (الاول) ان المجبرة يقولون ان الله تعالى خلق كفر العباد وانه من جهة ما خلقه حق وصواب قال ولو كان الامر كذلك لكان قد رضى الكفر من الوجه الذى خلقه وذلك ضد الآية (الثانى) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا ان نرضى به لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وحيث اجمعت الامة على ان الرضا بالكفر كفر ثبت انه ليس بقضاء الله وليس ايضا برضاء الله تعالى واجاب الاصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الاول) ان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين قال الله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال عينا يشرب بها عباد الله وقال ان عبادى ليس لك عليهم

(سلطان)

خلا ان هذا اقرب الى الحقيقة لان الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الاضلال والضلال وان لم يعرف لجهله انهما اضلال وضلال واما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة اصلا (قل) تهديد لذلك الضال المضل وبيان لحاله ومآله (تمتع بكفرك قليلا) اى تمتعا قليلا اوزمانا قليلا (انك من اصحاب النار) اى من ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الاقناط من النجاة ما لا يخفى كأنه قيل اذ قد أبيت قبول ما امرت به من الايمان والطاعة فمن حقك ان تؤمر بتركه لتذوق عقوبته (امن هو قانت آناء الليل) الخ من تمام الكلام المأمور به وام اما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به أأنت احسن حالا وما لا ام من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على اداء وظائف العبادات فى ساعات الليل حالتى السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه (ساجدا وقائما) اى جامعا بين الوصفين المحمودين وتقديم السجود على القيام لكونه ادخل فى معنى العبادة وقرئ كلاهما بالرفع على انه خبر بعد خبر (يحذر الآخرة) حال اخرى على الترادف او التداخل او استئناف وقع جوابا عما نشأ

سلطان فعلى هذا التقدير قوله ولا يرضى لعباده الكفر اى ولا يرضى للمؤمنين الكفر وذلك لايضرنا (الثانى) انانقول الكفر بارادة الله تعالى ولانقول انه برضا الله لان الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله قال الله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اى يمدحهم ويثنى عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض وليس عبارة عن الارادة والدليل عليه قول ابن دريد

رضيت قسرا وعلى القسر رضا • من كان ذا سخط على صرف القضا

اثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ماقلناه (والرابع) هب ان الرضا هو الارادة الا ان قوله ولا يرضى لعباده الكفر عام فتخصيصه بالآيات الدالة على انه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى وماتشاؤن الا ان يشاء الله والله اعلم ثم قال تعالى وان تشكروا يرضه لكم والمراد انه لما بين انه لايرضى الكفر بين انه يرضى الشكر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف القراء فى هاء يرضه على ثلاثة اوجه (احدها) قرأ نافع وابو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير مشبعة (وثانيها) قرأ ابو عمرو وحمزة فى بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع فى بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائى مضمومة الهاء مشبعة قال الواحدى رحمه الله من القراء من اشبع الهاء حتى الحق بها واوا لان ماقبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله فكما ان هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو لان الاصل يرضاه والالف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ومع بقاء الالف لايجوز اثبات الواو فكذا ههنا (المسئلة الثانية) الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (اما القول) فهو الاقرار بحصول النعمة (واما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم ثم قال تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى قال الجبائى هذا يدل على انه تعالى لايعذب احدا على فعل غيره فلو فعل الله كفرهم لما جاز ان يعذبهم عليه وايضا لايجوز ان يعذب الاولاد بذنوب الآباء بخلاف مايقول القوم واحتج ايضا من انكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية ثم قال تعالى ثم الى ربكم مرجعكم واعلم انا ذكرنا كثيرا ان اهم المطالب للانسان ان يعرف خالقه بقدر الامكان وان يعرف مايضره وماينفعه فى هذه الحياة الدنيوية وان يعرف احواله بعد الموت ففى هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الاعلى والعالم الاسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته ثم اتبعه بان امره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين احواله بعد الموت بقوله ثم الى ربكم مرجعكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشبهة تمسكوا بلفظ الى على ان اله العالم فى جهة وقد اجبنا عنه مرارا (المسئلة الثانية) زعم القوم ان هذه الارواح كانت موجودة قبل الاجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود فى هذه الآية وفى سائر الآيات (المسئلة الثالثة) دلت هذه الآية على اثبات البعث والقيامة ثم قال فينبئكم بما كنتم تعملون وهذا تهديد للعاصى وبشارة

من حكاية حاله من القنوت والسجود والقيام كأنه قيل مابالله يفعل ذلك فقيل يحذر عذاب الآخرة (ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضمير الراجى لانه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط واما منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التهديد الى التبكيت بتكليف الجواب الملجئ الى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أمن هو قانت الخ افضل ام من هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف (قل) بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل (هل يستوى الذين يعلمون) حقائق الاحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور (والذين لايعلمون) اى ماذكر او شيئا فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على ان كون الاولين فى اعلى معارج الخير وكون الآخرين فى اقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لايكاد يخفى على احد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه اى كما لايستوى العالمون والجاهلون لايستوون القانتون والعاصون وقوله تعالى (انما يتذكر أولو الالباب) كلام مستقل غير داخل

للمطيع وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور كالعلة لما سبق يعنى انه انما يمكنه ان ينبئكم باعمالكم لانه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما فى قلوبكم من الدواعى والصوارف وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اقوالكم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم ❊ قوله تعالى (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من اصحاب النار أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب) واعلم ان الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين ان الله تعالى هو الذى يجب أن يعبد بين فى هذه الآية ان طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام متناقضة وذلك لانهم اذا مسهم نوع من انواع الضر لم يرجعوا فى طلب دفعه الا الى الله واذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا الى عبادة الاصنام ومعلوم انهم انما رجعوا الى الله تعالى عند حصول الضر لانه هو القادر على ايصال الخير ودفع الضر واذا عرفوا ان الامر كذلك فى بعض الاحوال كان الواجب عليهم ان يعترفوا به فى كل الاحوال فثبت ان طريقتهم فى هذا الباب متناقضة اما قوله تعالى واذا مس الانسان فقيل المراد بالانسان اقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره وقيل المراد به الكافر الذى تقدم ذكره لان الكلام يخرج على معهود تقدم واما قوله ضر فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان فى جسمه او فى ماله أو أهله او ولده لان اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ودعا ربه اى استجار بربه وناداه ولم يؤمل فى كشف الضر سواه فلذلك قال منيبا اليه اى راجعا اليه وحده فى ازالة ذلك الضر لان الانابة هى الرجوع ثم اذا خوله نعمة منه اى اعطاه قال صاحب الكشاف وفى حقيقته وجهان (احدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به ومنه ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يتخول اصحابه بالموعظة (والثانى) جعله يخول من خال يخول اذا اختال وافتخر وفى المعنى قالت العرب ❊ ان الغنى طويل الذيل مياس ❊ ثم قال تعالى نسى ما كان يدعو اليه من قبل اى نسى ربه الذى كان يتضرع اليه ويبتهل اليه وما بمعنى من كقوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله تعالى ولا انتم عابدون ما اعبد وقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقيل نسى الضر الذى كان يدعو الله الى كشفه والمراد من قوله نسى اى ترك دعاءه كأنه لم يفزع الى ربه ولو اراد به النسيان الحقيقى لما ذمه عليه ويحتمل ان يكون المراد انه نسى ان لا يفزع وان لا اله سواه فعاد الى اتخاذ الشركاء مع الله ثم قال تعالى وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وابو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره (المسئلة الثانية) المراد انه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين فعند الضر يعتقدون انه لا مفزع الى ماسواه وعند النعمة يعودون الى اتخاذ آلهة معه

(ومعلوم)

فى الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الامر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال
عوجوا فحيوا النعمى دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى واحجار
اى انما يتعظ بهذه البيانات الواضحة اصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمعزل من ذلك وقرئ انما يذكر بالادغام (قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة اثر تخصيص التذكر بأولى الالباب ايذانا بأنهم هم كما سيصرح به اى قل لهم قولى هذا بعينه وفيه تشريف لهم باضافتهم الى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فان نقل عين امر الله ادخل فى ايجاب الامتثال به وقوله تعالى (للذين احسنوا) تعليل للامر او لوجوب الامتثال به وايراد الاحسان فى حيز الصلة دون التقوى للايذان بأنه من باب الاحسان وانهما متلازمان وكذا الصبر كما فى قوله تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفى قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين وقوله تعالى (فى هذه الدنيا) متعلق بأحسنوا اى عملوا الاعمال الحسنة فى هذه الدنيا على

ومعلوم انه تعالى اذا كان انما يفزع اليه فى حال الضر لاجل انه هو القادر على الخير والشر وهذا المعنى باق فى حال الراحة والفراغ كان فى تقرير حالهم فى هذين الوقتين ما يوجب المناقضة وقلة العقل (المسئلة الثالثة) معنى قوله ليضل عن سبيله انه لا يقتصر فى ذلك على ان يضل نفسه بل يدعو غيره اما بفعله او قوله الى ان يشاركه فى ذلك فيزداد اثما على اثمه واللام فى قوله ليضل لام العاقبة كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المناقض هددهم فقال قل تمتع بكفرك قليلا وليس المراد منه الامر بل الزجر وأن يعرفه قلة تمتعه فى الدنيا ثم يكون مصيره الى النار ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح احوال المحققين الذين لا رجوع لهم الا الى الله ولا اعتماد لهم الا على فضل الله فقال أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وحمزة أمن مخففة الميم والباقون بالتشديد اما التخفيف ففيه وجهان (الاول) ان الالف الف الاستفهام داخلة على من والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك وقيل كالذى جعل لله أندادا فاكتفى بما سبق ذكره (والثانى) ان يكون الف نداء كأنه قيل يامن هو قانت انت من اهل الجنة واما التشديد فقال الفراء الاصل أم من فادغمت الميم فى الميم وعلى هذا القول هى أم التى فى قولك أزيد افضل أم عمرو (المسئلة الثانية) القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم افضل الصلاة صلاة القنوت وهو القيام فيها ومنه القنوت فى الصبح لانه يدعو قائما عن ابن عمر رضى الله عنه انه قال لا اعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام وتلا أمن هو قانت وعن ابن عباس القنوت طاعة الله لقوله كل له قانتون اى مطيعون وعن قتادة آناء الليل ساعات الليل اوله ووسطه وآخره وفى هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وانه ارجح من قيام النهار ويؤكده وجوه (الاول) ان عبادة الليل استر عن العيون فتكون ابعد عن الرياء (الثانى) ان الظلمة تمنع من الابصار ونوم الخلق يمنع من السماع فاذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالاحوال الخارجية عاد الى المطلوب الاصلى وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) ان الليل وقت النوم فتركه يكون اشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى ان ناشئة الليل هى اشد وطأ واقوم قيلا وقوله ساجدا حال وقرئ ساجد وقائم على انه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين واعلم ان هذه الآية دالة على اسرار عجيبة فأولها انه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم اما العمل فكونه قانتا ساجدا قائما واما العلم فقوله هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهذا يدل على ان كمال الانسان محصور فى هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية (الفائدة الثانية) انه تعالى نبه على ان الانتفاع بالعمل انما يحصل اذا كان الانسان مواظبا عليه فان القنوت عبارة عن كون الرجل قائما بما يجب عليه من الطاعات وذلك يدل على ان العمل انما يفيد اذا واظب عليه الانسان وقوله ساجدا وقائما

وجه الاخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الاحسان بقوله عليه السلام ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (حسنة) اى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على انه بيان لمكانها او حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية (وارض الله واسعة) فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والاحسان فى وطنه فليهاجر الى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الانبياء والصالحين فانه لا عذر له فى التفريط أصلا وقوله تعالى (انما يوفى الصابرون) الخ ترغيب فى التقوى المأمور بها وايثار الصابرين على المتقين للايذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الاحسان لما اشير اليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها اى انما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الاهل ومفارقة الاوطان (أجرهم) بمقابلة ما كابدوا من الصبر (بغير حساب) اى بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف

اشارة الى أصناف الاعمال وقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه اشارة الى ان الانسان عند المواظبة ينكشف له فى الاول مقام القهر وهو قوله يحذر الآخرة ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله ويرجو رحمة ربه ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون (الفائدة الثالثة) انه قال فى مقام الخوف يحذر الآخرة فما أضاف الحذر الى نفسه وفى مقام الرجاء أضافه الى نفسه وهذا يدل على ان جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى (المسئلة الثالثة) قيل المراد من قوله أمن هو قانت آناء الليل عثمان لانه كان يحيى الليل فى ركعة واحدة ويقرأ القرآن فى ركعة واحدة والصحيح ان المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لان الآية غير مقتصرة عليه (المسئلة الرابعة) لاشبهة فى أن فى الكلام حذفا والتقدير أمن هو قانت كغيره وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وتقدير الآية قل هل يستوى الذين يعلمون وهم الذين صفتهم انهم يقنتون آناء الليل سجدا وقياما والذين لايعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون فاذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وانما وصف الله الكفار بأنهم لايعلمون لانهم وان آتاهم الله آلة العلم الا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولى الالباب من حيث انهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم واما قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم وقد بالغنا فى تقرير هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها قال صاحب الكشاف اراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون وبالذين لايعلمون الذين لايأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء وهو تنبيه على ان من لم يعمل فهو غير عالم ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لايقنتون ويتفننون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة ثم قال تعالى انما يتذكر اولوا الالباب يعنى هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لايعرفه ايضا الا اولوا الالباب قيل لبعض العلماء انكم تقولون العلم افضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند ابواب الملوك ولانرى الملوك مجتمعين عند ابواب العلماء فأجاب العالم بأن هذا ايضا يدل على فضيلة العلم لان العلماء علموا مافى المال من المنافع فطلبوه والجهال لم يعرفوا مافى العلم من المنافع فلاجرم تركوه ❊ قوله تعالى (قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة وارض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لان اكون اول المسلمين قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله اعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة الا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون)

وفى الحديث انه تنصب الموازين يوم القيامة لاهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها اجورهم ولا تنصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتمنى اهل العافية فى الدنيا ان اجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به اهل البلاء من الفضل (قل انى امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين) اى من كل ماينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ماامر به نفسه من الاخلاص فى عبادة الله الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الاتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون (وأمرت لان اكون اول المسلمين) اى وأمرت بذلك لاجل ان اكون مقدمهم فى الدنيا والآخرة لان احراز قصب السبق فى الدين بالاخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الاول بتقييده بالعلة والاشعار بان العبادة المذكورة كما تقتضى الامر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق فى الدين ويجوز ان تجعل اللام مزيدة كما فى اردت لأن اقوم بدليل قوله تعالى وأمرت ان اكون اول من اسلم فالمعنى وامرت ان اكون اول من اسلم من اهل زمانى او من قومى او اكون اول من دعا غيره الى مادعا اليه نفسه (قل انى أخاف ان عصيت ربى) بترك الاخلاص والميل الى ماانتم عليه من الشرك

اعلم انه تعالى لما بين نفى المساواة بين من يعلم وبين من لايعلم اتبعه بأن امر رسوله بان يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام (النوع الاول) قوله قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم والمراد ان الله تعالى امر المؤمنين بأن يضموا الى الايمان التقوى وهذا من ادل الدلائل على ان الايمان يبقى مع المعصية قال القاضى امرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا ايمانهم لان عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالاقدام عليها يحبط فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك اولى لانه لما امر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على انه يبقى مؤمنا مع عدم التقوى وذلك يدل على ان الفسق لايزيل الايمان واعلم انه تعالى لما امر المؤمنين بالاتقاء بين لهم مافى هذا الاتقاء من الفوائد فقال تعالى للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة فقوله فى هذه الدنيا يحتمل ان يكون صلة لقوله احسنوا او لحسنة فعلى التقدير الاول معناه للذين احسنوا فى هذه الدنيا كلهم حسنة فى الآخرة وهى دخول الجنة والتنكير فى قوله حسنة للتعظيم يعنى حسنة لايصل العقل الى كنه كما لها واما على التقدير الثانى فمعناه الذين احسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية واقول الاولى ان تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية ومن الناس من قال القول الاول اولى ويدل عليه وجوه (الاول) ان التنكير فى قوله حسنة يدل على النهاية والجلالة والرفعة وذلك لايليق باحوال الدنيا فانها خسيسة ومنقطعة وانما يليق بأحوال الآخرة فانها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثانى) ان ثواب المحسن بالتوحيد والاعمال الصالحة انما يحصل فى الآخرة قال تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وايضا فنعمة الدنيا من الصحة والامن والكفاية حاصلة للكفار وايضا فحصولها للكافر اكثر واتم من حصولها للمؤمن كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (الثالث) ان قوله للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة يفيد الحصر بمعنى انه يفيد ان حسنة هذه الدنيا لاتحصل الا للذين احسنوا وهذا باطل اما لو حملناه هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر فكان حمله على حسنة الآخرة اولى ثم قال الله تعالى وارض الله واسعة وفيه قولان (الاول) المراد انه لاعذر البتة للمقصرين فى الاحسان حتى انهم ان اعتلوا بأوطانهم وبلادهم وانهم لايتمكنون فيها من التوفر على الاحسان وصرف الهمم اليه قل لهم فان ارض الله واسعة وبلاده كثيرة فتحولوا من هذه البلاد الى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات واقتدوا بالانبياء والصالحين فى مهاجرتهم الى غير بلادهم ليزدادوا احسانا الى احسانهم وطاعة الى طاعتهم والمقصود منه الترغيب فى الهجرة من مكة الى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ونظيره قوله تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة

(عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والاهوال (قل الله أعبد) لاغيره لا استقلالا ولا اشتراكا (مخلصا له دينى) من كل شوب أمر عليه الصلاة والسلام اولا ببيان كونه مأمورا بعبادة الله تعالى واخلاص الدين له ثم بالاخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالاخبار بامتثاله بالامر على ابلغ وجه وآكده اظهارا لتصلبه فى الدين وحسما لاطماعهم الفارغة وتمهيدا لتهديدهم بقوله تعالى (فاعبدوا ماشئتم) ان تعبدوه (من دونه) تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه امروا به كى يحل بهم العقاب (قل ان الخاسرين) اى الكاملين فى الخسران الذى هو عبارة عن اضاعة مايهمه واتلاف مالابد منه (الذين خسروا انفسهم واهليهم) باختيارهم الكفر لهما اى اضاعوهما واتلفوهما (يوم القيامة) حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى واوقعوهما فى هلكة لاهلكة وراءها وقيل خسروا انفسهم لانهم ان كانوا من اهل النار فقد خسروهم كما خسروا انفسهم وان كانوا من اهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا اياب بعده وفيه ان المحذور ذهاب مالو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور فى الشق الاخير وقيل خسروهم

فتهاجروا فيها (والقول الثانى) قال ابومسلم لايمتنع ان يكون المراد من الارض ارض الجنة وذلك لانه تعالى امر المؤمنين بالتقوى وهى خشية الله ثم بين ان من اتقى فله فى الآخرة الحسنة وهى الخلود فى الجنة ثم بين ان ارض الله اى جنته واسعة لقوله تعالى نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين (والقول الاول) عندى اولى لان قوله انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب لايليق الا بالاول وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) اما تحقيق الكلام فى ماهية الصبر فقد ذكرناه فى سورة البقرة والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة اوطانهم وعشائرهم وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله تعالى (المسئلة الثانية) تسمية المنافع التى وعدالله بها على الصبر بالاجر توهم ان العمل على الثواب لان الاجر هو المستحق الا انه قامت الدلائل القاهرة على ان العمل ليس عليه الثواب فوجب حمل لفظ الاجر على كونه اجرا بحسب الوعد لا بحسب الاستحقاق (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف ذلك الاجر بأنه بغير حساب وفيه وجوه (الاول) قال الجبائى المعنى انهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب ولو لم يعطوا الا المستحق لكان ذلك حسابا قال القاضى هذا ليس بصحيح لان الله تعالى وصف الاجر بأنه بغير حساب ولو لم يعطوا الا الاجر المستحق والاجر غير التفضل (الثانى) ان الثواب له صفات ثلاثة (احدها) انها تكون دائمة الاجر لهم وقوله بغير حساب معناه بغير نهاية لان كل شئ دخل تحت الحساب فهو متناه فما لا نهاية له كان خارجا عن الحساب (وثانيها) انها تكون منافع كاملة فى انفسها وعقل المطيع ما كان يصل الى كنه ذلك الثواب قال صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وكل ما يشاهدونه من انواع الثواب وجدوه ازيد مما تصوروه وتوقعوه وما لا يتوقعه الانسان فقد يقال انه ليس فى حسابه فقوله بغير حساب محمول على هذا المعنى (الوجه الثالث) فى التأويل ان ثواب اهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون اجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الاجر صبا قال الله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب حتى يتمنى اهل العافية فى الدنيا ان اجسادهم تقرض بالمقاريض لما به اهل البلاء من الفضل (النوع الثانى) من البيانات التى امر الله رسوله ان يذكرها قوله تعالى قل انى امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين قال مقاتل ان كفار قريش قالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به الا تنظر الى ملة ابيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فأنزل الله قل يا محمد انى امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين واقول ان التكليف نوعان (احدهما) الامر بالاحتراز عما لا ينبغى (والثانى) الامر بتحصيل

(ماينبغى)

لانهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم اهل فى الجنة وخسروا اهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا واياما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين فى الخسران بما ذكر بل بيان أنهم هم اما بجعل الموصول عبارة عنهم او بجعلهم مندرجين فيه اندراجا اوليا وما فى قوله تعالى (ألا ذلك هو الخسران المبين) من استئناف الجملة وتصديرها بحرف التنبيه والاشارة بذلك الى بعد منزلة المشار اليه فى الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وانه لا خسران وراءه مالا يخفى وقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار) الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الابهام على ان لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق بمحذوف قيل هو حال من ظلل والاظهر انه حال من الضمير فى الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل اى لهم كائنا من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار (ومن تحتهم) ايضا (ظلل) اى اطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم ايضا عند ترديهم فى دركاتها (ذلك) العذاب الفظيع هو الذى (يخوف الله به عباده) ويحذرهم اياه بآيات الوعيد ليجتنبوا ما يوقعهم فيه (يا عباد فاتقون) ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والمرحمة

مايبنغي والمرتبة الاولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة اذاثبت هذا فنقول انه تعالى قدم الامر بازالة مالا ينبغي فقال اتقوا ربكم لان التقوى هي الاحتراز عما لاينبغي ثم ذكر عقيبه الامر بتحصيل ماينبغي فقال انى امرت ان اعبدالله مخلصاله الدين وهذا يشتمل على قيدين (احدهما) الامر بعبادة الله (والثاني) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي وانما خص الله تعالى الرسول بهذا الامر لينبه على ان غيره بذلك احق فهو كالترغيب للغير وقوله تعالى وأمرت لان أكون اول المسلمين لاشبهة في ان المراد انى اول من تمسك بالعبادات التي ارسلت بها وفي هذه الآية فائدتان (الفائدة الاولى) كأنه يقول انى لست من الملوك الجبارة الذين يأمرون الناس باشياء وهم لايفعلون ذلك بل كل ما امرتكم به فأنا اول الناس شروعا فيه واكثرهم مداومة عليه (الفائدة الثانية) انه قال انى أمرت ان اعبدالله والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب اشرف من عمل الجوارح فقدم ذكر الجزء الاشرف وهو قوله مخلصاله الدين ثم ذكر عقيبه الادون وهو عمل الجوارح وهو الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم فسر الاسلام في خبر جبريل عليه السلام بالاعمال الظاهرة وهو المراد بقوله في هذه الآية وامرت لان اكون اول المسلمين وليس لقائل ان يقول ما الفائدة في تكرير لفظ امرت لانا نقول ذكر لفظ امرت اولا في عمل القلب وثانيا في عمل الجوارح ولايكون هذا تكريرا (الفائدة الثالثة) في قوله وامرت لان اكون اول المسلمين التنبيه على كونه رسولا من عندالله واجب الطاعة لان اول المسلمين في شرائع الله لايمكن ان يكون الا رسول الله لان اول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ولما بين الله تعالى امره بالاخلاص بالقلب وبالاعمال المخصوصة وكان الامر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين ان ذلك الامر للوجوب فقال قل انى اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان الله امر محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجرى هذا الكلام على نفسه والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي لانه مع جلالة قدره وشرف نبوته اذا وجب ان يكون خائفا حذرا عن المعاصي فغيره بذلك اولى (الفائدة الثانية) دلت الآية على ان المرتب على المعصية حصول العقاب بل الخوف من العقاب وهذا يطابق قولنا ان الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لانفس حصول العقاب (الفائدة الثالثة) دلت هذه الآية على ان ظاهر الامر للوجوب وذلك لانه قال في اول الآية انى امرت ان اعبدالله ثم قال بعده قل انى اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم فيكون معنى هذا العصيان ترك الامر الذي تقدم ذكره وذلك يقتضى ان يكون تارك الامر عاصيا والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب ولامعنى للوجوب الاذلك (النوع الثالث) من الاشياء التي امر الله رسوله ان

وقرئ ياعبادى (والذين اجتنبوا الطاغوت) اى البالغ اقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بنى للمبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة في النعت والمراد به هو الشيطان (ان يعبدوها) بدل الاشتمال منه فان عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان اذ هو الآمر بها والمزين لها (وانابوا الى الله) وأقبلوا اليه معرضين عما سواه اقبالا كليا (لهم البشرى) بالثواب على السنة

بذكرها قوله قل الله اعبد مخلصا له ديني فإن قيل مامعنى التكرير في قوله قل اني أمرت ان أعبدالله مخلصاله الدين وقوله قل الله أعبد مخلصاله ديني قلنا هذا ليس بتكرير لان الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله بالاتيان بالعبادة والثاني اخبار بأنه امر بأن لايعبد احداغير الله وذلك لان قوله أمرت ان أعبدالله لايفيد الحصر وقوله تعالى قل الله اعبد يفيد الحصر يعني الله أعبد ولا اعبد احدا سواه والدليل عليه انه لما قال بعده قل الله اعبد قال بعده فاعبدوا ماشئتم من دونه ولاشبهة في ان قوله فاعبدوا ماشئتم من دونه ليس امرا بل المراد منه الزجر كأنه يقول لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد الى الغاية القصوى فبعد ذلك انتم اعرف بأنفسكم ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم لوقوعها في هلاك لايعقل هلاك اعظم منه وخسروا اهليهم ايضا لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا انفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لارجوع بعده البتة وقال ابن عباس ان لكل رجل منزلا وأهلا وخدما في الجنة فأن اطاع اعطى ذلك وان كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه واهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين والخاسر المغبون ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال ألا ذلك هو الخسران المبين كان التكرير لاجل التأكيد (الثاني) انه تعالى ذكر في اول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل انه بلغ في العظمة الى حيث لاتصل عقولكم اليها فتنبهوا لها (الثالث) ان كلمة هو في قوله هو الخسران المبين تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فانه يصير في مقابلته كلاخسران (الرابع) وصفه بكونه مبينا يدل على التهويل واقول قدبينا ان لفظ الآية يدل على كونه خسرانا مبينا فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسرانا مبينا واقول نفتقر الى بيان امرين الى بيان كونه خسرانا ثم الى بيان كونه مبينا (اما الاول) فتقريره انه تعالى اعطى هذه الحياة واعطى العقل واعطى المكنة وكل ذلك رأس المال اما هذه الحياة فالمقصود منها ان يكتسب فيها الحياة الطيبة في الآخرة واما العقل فانه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال والنظر والفكر لامعنى له الا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب الى تحصيل علوم كسبية فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح وايضا حصول القدرة على الاعمال يشبه رأس المال واستعمال تلك القوة في تحصيل اعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال وحصول اعمال الخير والبر يشبه الربح اذا ثبت هذا فنقول ان من اعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ثم انه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروما عن الربح بالكلية واذا مات فقد ضاع رأس المال

الرسل الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) هم الموصوفون بالاجتناب والانابة باعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفالهم بالاضافة ودلالة على ان مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا في الدين يميزون الحق من الباطل ويؤثرون الافضل فالافضل (اولئك) اشارة ليهم

بالكلية فكان ذلك خسرانا فهذا بيان كونه خسرانا (واما الثانى) وهو بيان كون ذلك الخسران مبينا فهوان من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار فهذا كالم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له ايضا مزيد ضرر اما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات واستعملوا قواهم وقدرهم فى افعال الشر والباطل والفساد فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة (اولها) انهم اتعبوا ابدانهم وعقولهم طلبا فى تلك العقائد الباطلة والاعمال الفاسدة (وثانيها) انهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) ان تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسبابا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر انه لا يعقل خسران اقوى من خسرانهم ولا حرمان اعظم من حرمانهم ونعوذ بالله منه ولما شرح الله تعالى احوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم بين انهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران بل ضموا اليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمراد احاطة النار بهم من جميع الجوانب ونظيره فى الاحوال النفسانية احاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الاخلاق الذميمة بالانسان فان قيل الظلل ما على الانسان فكيف سمى ما تحته بالظلل والجواب من وجوه (الاول) انه من باب اطلاق اسم احد الضدين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (الثانى) ان الذى يكون تحته يكون ظلة لانسان آخر تحته لان النار دركات كما ان الجنه درجات (الثالث) ان الظلة التحتانية اذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والاحراق والايذاء أطلق اسم أحدهما على الآخر لاجل المماثلة والمشابهة قال الحسن هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم ونظير هذه الآية قوله تعالى يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ثم قال تعالى ذلك يخوف الله به عباده اى ذلك الذى تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله ذلك مبتدأ وقوله يخوف الله به عباده خبر وفى قوله يخوف الله به عباده قولان (الاول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذى يخوف الله به عباده اى المؤمنين لانا بينا ان لفظ العباد فى القرآن مختص بأهل الايمان وانما كان تخويفا للمؤمنين لاجل انهم اذا سمعوا ان حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا فى التوحيد والطاعة (الوجه الثانى) ان هذا الكلام فى تقدير جواب عن سؤال لانه يقال انه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الايذاء فكيف يليق به ان يعذب هؤلاء المساكين الى هذا الحد العظيم وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والنهى عن الكفر والضلال فاذا كان التكليف لا يتم الا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به الا بادخال ذلك الشئ فى الوجود وجب ادخال

باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده من الموصول اى اولئك المنعوتون بالمحاسن الجميلة (الذين هداهم الله) للدين الحق (واولئك هم اولوا الالباب) اى هم اصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية

ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذى هو التكليف والوجه الاول عندى اقرب والدليل عليه انه قال بعده ياعبادى فاتقون وقوله ياعباد الاظهر منه ان المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيأيها المؤمنون بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى ※ قوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا الى الله لهم البشرى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولوا الالباب أفمن حق عليه كلمة العذاب افأنت تنقذ من فى النار لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار وعد الله لايخلف الله الميعاد) اعلم ان الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الاصنام والاوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ليكون الوعد مقرونا بالوعيد ابدا فيحصل كمال الترغيب والترهيب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الا ان فيها قلبا بتقديم اللام على العين وفى هذا اللفظ انواع من المبالغة (احدها) التسمية بالمصدر كان عين ذلك الشئ الطغيان (وثانيها) ان البناء بناء المبالغة فان الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ماذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا انما يصار اليه عند المبالغة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الاوثان فقيل انه الشيطان فان قيل انهم ماعبدوا الشيطان وانما عبدوا الصنم قلنا الداعى الى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الاقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لانه لافعل لها والطغاة هم الذين يعبدونها الا انه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها وصفت بهذه الصفة اطلاقا لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر وقيل كل مايعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت * ويقال فى التواريخ ان الاصل فى عبادة الاصنام ان القوم كانوا مشبهة اعتقدوا فى الاله انه نور عظيم وفى الملائكة انها انوار مختلفة فى الصغر والكبر فوضعوا تماثيل وصورا على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد انهم يعبدون الله والملائكة وأقول حاصل الكلام فى قوله والذين اجتنبوا الطاغوت اى أعرضوا عن عبودية كل ماسوى الله قوله تعالى وأنابوا الى الله اى رجعوا بالكلية الى الله ورأيت فى السفر الخامس من التوراة ان الله تعالى قال لموسى ياموسى أجب الهك بكل قلبك واقول مادام يبقى فى القلب التفات الى غير الله فهو ماأجاب الهه بكل قلبه وانما تحصل الاجابة بكل القلب اذا أعرض القلب عن كل ماسوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع انه بالحس يشاهد الاسباب المفضية الى المسببات فى هذا العالم قلنا ليس المراد من اعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول فى السفسطة وهو باطل بل المراد ان

لاغيرهم وفيه دلالة على ان الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) بيان لاحوال اضداد المذكورين على طريقة الاجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فان المراد بها قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وقوله تعالى لمن تبعك

(يعرف)

يعرف ان واجب الوجود لذاته واحد وان كل ماسواه فانه ممكن الوجود لذاته وكل ماكان ممكنا لذاته فانه لايوجد الابتكوين الواجب وايجاده ثم انه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للاشياء على قسمين منها مايكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ومنها مايكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الاسفل فاذا عرفت الاشياء على هذا الوجه عرفت ان الكل لله ومن الله وبالله وانه لامدبر الاهو ولامؤثر غيره وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الاول والموجد الاول فانه ان كان قدوضع الاسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى الى هذا المطلوب فهذا الشئ يحصل وان كان قدوضع بحيث لايفضى الى حصول هذا الشئ لم يحصل وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولايبقى فى قلبه التفات الى شئ الا الى الموجود الاول وقد اتفق انى كنت انصح بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لايجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره فقلت هذه كلمة حقة سمعتها ولكنك ماعرفت معناها وذلك لانه لاشبهة ان الكل من الله تعالى الا انه سبحانه دبر الاشياء على قسمين منها ماجعل حدوثه وحصوله معلقا باسباب معلومة ومنها مايحدثه من غير واسطة هذه الاسباب (اما القسم الاول) فهو حوادث هذا العالم الاسفل (واما القسم الثانى) فهو حوادث هذا العالم الاعلى واذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الاسفل لامن الاسباب التى عينها الله تعالى لها كان هذا الشخص منازعا لله فى حكمته مخالفا فى تدبيره فان الله تعالى حكم بحدوث هذه الاشياء بناء على تلك الاسباب المعينة المعلومة وانت تريد تحصيلها لامن تلك الاسباب فهذا هو الكلام فى تحقيق الاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى والذين اجتنبوا الطاغوت اشارة الى الاعراض عن غير الله وقوله تعالى وانابوا الى الله اشارة الى الاقبال بالكلية على عبادة الله ثم انه تعالى وعد هؤلاء باشياء (احدها) قوله تعالى لهم البشرى واعلم ان هذه الكلمة تتعلق بجهات (احدها) ان هذه البشارة متى تحصل فنقول انها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الخروج من القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند مايصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند مايدخل المؤمنون الجنة ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) ان هذه البشارة فيماذا تحصل فنقول ان هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات اما زوال المكروهات فقوله تعالى ان لاتخافوا ولاتحزنوا والخوف انما يكون من المستقبل والحزن انما يكون بسبب الاحوال الماضية فقوله ان لا تخافوا يعنى لاتخافوا فيما تستقبلونه من احوال القيامة ولاتحزنوا بسبب مافاتكم من خيرات الدنيا ولما ازال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال وابشروا بالجنة وقال ايضا فى آية اخرى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم

منهم لأملأن جهنم منكم اجمعين واصل الكلام امن حق عليه كلمة العذاب فانت تنقذه على انها شرطية دخل عليها الهمزة للانكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الانكار والنفى بمضمونيهما معا اى أأنت مالك امر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الانكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار

بين ايديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار وقال ايضا وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذالاعين وانتم فيها خالدون (والثالث) ان المبشر من هو فنقول يحتمل ان يكون هم الملائكة اماعند الموت فقوله الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم واما بعد دخول الجنة فقوله الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ويحتمل ان يكون هو الله سبحانه كما قال تحيتهم يوم يلقونه سلام واعلم ان قوله لهم البشرى فيه انواع من التأكيدات (احدها) انه يفيد الحصر فقوله لهم البشرى اى لهم لا لغيرهم وهذا يفيد انه لابشارة لاحد الا اذا اجتنب عبادة غير الله تعالى واقبل بالكلية على الله تعالى (وثانيها) ان الالف واللام فى لفظ البشرى مفيد للماهية فيفيد ان هذه الماهية تمامها لهؤلاء ولم يبق منها نصيب لغيرهم (وثالثها) ان فرق بين الاخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الاول بحصول الخيرات اذا عرفت هذا فنقول كل ماسمعوه فى الدنيا من انواع الثواب والخير اذا سمعوه عند الموت اوفى القبر فذلك لايكون الا اخبارا فثبت ان هذه البشارة لاتتحقق الا اذا حصل الاخبار بحصول انواع اخر من السعادات فوق ماعرفوها وسمعوها فى الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها قال تعالى فلاتعلم نفس مااخفى لهم من قرة اعين (ورابعها) ان المخبر بقوله لهم البشرى هو الله تعالى وهو اعظم العظماء واكمل الموجودات والشرط المعتبر فى حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الاجتناب عماسوى الله تعالى والاقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم اذا ذكر شرطا عظيما ثم قال لمن اتى بذلك الشرط العظيم ابشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على ان الذى وقعت البشارة به قد بلغ فى الكمال والرفعة الى حيث لايصل الى شرحها العقول والافكار فثبت ان قوله لهم البشرى يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله اعلم * واعلم انه تعالى لما قال لهم البشرى وكان هذا كالمجمل اردفه بكلام يجرى مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه واراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه الذين اجتنبوا وانابوا لاغيرهم وهذا يدل على ان رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الاعراض عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على ان الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيها على هذا الحرف ومنهم من قال انه تعالى لما بين ان الذين اجتنبوا وانابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لايصل اليها الا الاولون وقصر السعادة عليهم يقتضى الحرمان للاكثرين وذلك لايليق بالرحمة التامة لاجرم جعل الحكم اعم فقال كل من اختار الاحسن فى كل باب كان فى زمرة السعداء واعلم ان

لمزيد تشديد الانكار والاستبعاد والتنبيه على ان المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار وان اجتهاده عليه الصلاة والسلام فى دعائهم الى الايمان سعى فى انقاذهم من النار ويجوز ان يكون الجزاء محذوفا وقوله تعالى افأنت الخ جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ماحذف منها وتشديد الانكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد

هذه الآية تدل على فوائد (الفائدة الاولى) وجوب النظر والاستدلال وذلك لانه تعالى بين ان الهداية والفلاح مرتبطان بما اذا سمع الانسان اشياء كثيرة فانه يختار منها ماهو الاحسن الاصوب ومن المعلوم ان تمييز الاحسن الاصوب عما سواه لا يحصل بالسماع لان السماع صار قدرا مشتركا بين الكل لان قوله الذين يستمعون القول يدل على ان السماع قدر مشترك فيه فثبت ان تمييز الاحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وانما يتأتى بحجة العقل وهذا يدل على ان الموجب لاستحقاق المدح والثناء تابعة الى حجة العقل وبناء الامر على النظر والاستدلال (الفائدة الثانية) ان الطريق الى تصحيح المذاهب والاديان قسمان (احدهما) اقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التحصيل وذلك امر لا يمكن تحصيله الا بالخوض فى كل واحد من المسائل على التفصيل (والثانى) انا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب واضدادها على عقولنا فكل ما حكم اول العقل بأنه افضل واكمل كان اولى بالقبول مثاله ان صريح العقل شاهد بأن الاقرار بأن اله العالم حى عالم قادر حليم حكيم رحيم اولى من انكار ذلك فكان ذلك المذهب اولى والاقرار بأن الله تعالى لا يجرى فى ملكه وسلطانه الا ما كان على وفق مشيئته اولى من القول بأن اكثر ما يجرى فى سلطان الله على خلاف ارادته وايضا الاقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والاعضاء اولى من القول بكونه متبعضا مؤلفا وايضا القول باستغنائه عن الزمان والمكان اولى من القول باحتياجه اليهما وايضا القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب اولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة وكل هذه الابواب تدخل تحت قوله الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه فهذا ما يتعلق باختيار الاحسن فى ابواب الاعتقادات وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين منها ما يكون من أبواب العبادات ومنها ما يكون من ابواب المعاملات فاما العبادات فمثل قولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله اكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ويقرأ فيها سورة الفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة فى المواقف الخمسة ويقرأ فيها التشهد ويخرج منها بقوله السلام عليكم فلا شك انها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شئ من هذه الاحوال توجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة وان يترك ماسواها وكذلك القول فى جميع ابواب العبادات وأما المعاملات فكذلك مثل انه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ولكنه ندب الى العفو فقال وان تعفوا أقرب للتقوى وعن ابن عباس ان المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوى فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ماسواه واعلم انه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه بان قال اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب وفى ذلك دقيقة عجيبة وهى ان حصول الهداية فى العقل والروح أمر حادث ولابد له من فاعل وقابل أما

فى دعائه الى الايمان بصورة الانقاذ من النار كأنه قيل اولا افمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه منه ثم شدد النكير فقيل افأنت تنقذ من فى النار وفيه تلويح بأنه تعالى هو الذى يقدر على الانقاذ لا غيره وحيث كان المراد بمن فى النار الذين قيل فى حقهم لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل استدرك منهم بقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف) وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى ياعباد فاتقون ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة

الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله اولئك الذين هداهم الله واما القابل فاليه الاشارة بقوله واولئك هم اولو الالباب فان الانسان مالم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية فى قلبه وانما قلنا ان الفاعل لهذه الهداية هو الله وذلك لان جوهر النفس مع مافيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل واذا كان الشئ قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل اليهما على السوية ومتى كان الامر كذلك امتنع كون ذلك القابل سببا لرجحان احد الطرفين الاترى ان الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية امتنع ان تصير ذات الجسم سببا لرجحان احد الطرفين على الآخر فان قالوا لانقول ان ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان بل نقول انه يريد تحصيل احد الطرفين فتصير تلك الارادة سببا لذلك الرجحان فنقول هذا باطل لان ذات النفس كما انها قابلة لهذه الارادة فكذلك ذات العقل قابلة لارادة مضادة لتلك الارادة فيمتنع كون جوهر النفس سببا لتلك الارادة فثبت ان حصول الهداية لابدلها من فاعل ومن قابل (اما الفاعل) فيمتنع ان يكون هو النفس بل الفاعل هو الله تعالى (واما القابل) فهو جوهر النفس فلهذا السبب قال اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب ثم قال افمن حق عليه كلمة العذاب افأنت تنقذ من فى النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى لفظ الآية سؤال وهو انه يقال انه قال افمن حق عليه كلمة العذاب ولايصح فى الكلام العربى ان يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معا فلا يقال ازيد اتقتله بل ههنا شئ آخر وهو انه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معا وهو قوله افمن حق افأنت تنقذ ولاجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الاول) قال الكسائى الآية جملتان والتقدير افمن حق عليه كلمة العذاب افأنت تحميه افأنت تنقذ من فى النار (الثانى) قال صاحب الكشاف اصل الكلام افمن حق عليه كلمة العذاب افأنت تنقذه وهى جملة شرطية دخل عليها همزة الانكار والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التى فى اولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب افأنت تنقذه والهمزة الثانية هى الاولى كررت لتوكيد معنى الانكار واستبعاده ووضع من فى النار موضع الضمير والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لايبعد ان يقال ان حرف الاستفهام انما وردههنا لافادة معنى الانكار ولما كان استنكاره هذا المعنى كاملا تاما لاجرم ذكر هذا الحرف فى الشرط واعاده فى الجزاء تنبيها على المبالغة التامة فى ذلك الانكار (المسئلة الثانية) احتج الاصحاب بهذه الآية فى مسئلة الهدى والضلال وذلك لانه تعالى قال افمن حق عليه كلمة العذاب فاذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الايمان والطاعة والالزم انقلاب خبر الله الصدق كذبا وانقلاب علمه جهلا وهو محال (والوجه الثانى) فى الاستدلال بالآية انه تعالى حكم بأن

وهم المخاطبون ايضا فيما سبق بقوله تعالى ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم الآية وبين ان لها درجات عالية فى جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم اى لهم علالى بعضها فوق بعض (مبنية) بناء المنازل المبنية المؤسسة على الارض فى الرصانة والاحكام (تجرى من تحتها) من تحت تلك الغرف (الانهار) من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فانه وعد واى وعد (لايخلف الله الميعاد) لاستحالته عليه سبحانه

حقية كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الايمان والطاعة عنه ولو كان ذلك ممكنا ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى (المسئلة الثالثة) احتج القاضى بهذه الآية على ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يشفع لاهل الكبائر قال لانه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى انقاذهم من النار وان الله تعالى حكم عليهم بالانكار والاستبعاد فيقال له لانسلم ان اهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع ان الله تعالى قال ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومع قوله ان الله يغفر الذنوب جميعا والله اعلم (النوع الثانى) من الاشياء التى وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وانابوا قوله تعالى لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية وهذا كالمقابل لما ذكر فى وصف الكفار لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل فان قيل مامعنى قوله مبنية قلنا لان المنزل اذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى اضعف بناء من التحتانى فقوله مبنية معناه انه وان كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الاسفل والحاصل ان المنزل الفوقانى والتحتانى حصل فى كل واحد منهما فضيلة ومنقصة اما الفوقانى ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة واما التحتانى فبالضد منه اما منازل الجنة فانها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهى عالية مرتفعة وتكون فى غاية القوة والشدة وقال حكماء الاسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض مثاله من الاحوال النفسانية العلوم الكسبية فان بعضها يكون مبنيا على البعض والنتائج الآخرة التى هى عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون فى غاية القوة بل تكون فى القوة والشدة كالعلوم الاصلية البديهية ثم قال تجرى من تحتها الانهار وذلك معلوم ثم ختم الكلام فقال وعد الله لا يخلف الله الميعاد فقوله وعد الله مصدر مؤكد لان قوله لهم غرف فى معنى وعدهم الله ذلك وفى الآية دقيقة شريفة وهى انه تعالى فى كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله انه لا يخلف وعده ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية وذلك يدل على ان جانب الوعد ارجح من جانب الوعيد بخلاف مايقوله المعتزلة فان قالوا أليس انه قال فى جانب الوعيد مايبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد قلنا قوله مايبدل القول لدى ليس تصريحا بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين اعنى الوعد والوعيد فثبت ان الترجيح الذى ذكرناه حق والله اعلم * قوله تعالى (ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لأولى الالباب) اعلم انه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الالباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها وذلك انه تعالى بين انه انزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان فى الارض فهو من السماء ثم انه تعالى ينزله الى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الارض اى فيدخله وينظمه

(الم تر ان الله انزل من السماء ماء) استئناف وارد اما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من احوال الزرع ترغيبا عن زخارفها وزينتها وتحذيرا من الاغترار بزهرتها كما فى نظائر قوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا الآية او للاستشهاد على تحقق الموعود من الانهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من انزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى واحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء فى الارض فهو من السماء ينزل منها الى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع (فسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع فى الارض) اى عيونا ومجارى كالعروق فى الاجساد وقيل مياها نابعة فيها فان الينبوع يطلق على المنبع والنابع فنصبها على الحال وعلى الاول بنزع الجار اى فى ينابيع (ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه) اصنافه من بر وشعير وغيرهما او كيفياته من الالوان والطعوم وغيرهما وكلمة ثم للتراخى فى الرتبة او الزمان وصيغة المضارع لاستحضار الصورة (ثم يهيج) اى يتم جفافه ويشرف على ان يثور من منابته (فتراه مصفرا) من بعد خضرته ونضرته وقرئ مصفارا (ثم يجعله حطاما) فتاتا متكسرة كأن لم يغن بالامس ولكون هذه

ينابيع فى الارض عيونا ومسالك ومجارى كالعروق فى الاجسام ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك او مختلفا اصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج وذلك لانه اذا تم جفافه جازله ان ينفصل عن منابته وان لم تتفرق اجزاؤه فتلك الاجزاء كأنها هاجت لان تتفرق ثم يصير حطاما يابسا ان فى ذلك لذكرى يعنى ان من شاهد هذه الاحوال فى النبات علم ان احوال الحيوان والانسان كذلك وانه وان طال عمره فلابد له من الانتهاء الى ان يصير مصفر اللون متحطم الاعضاء والاجزاء ثم تكون عاقبته الموت فاذا كانت مشاهدة هذه الاحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الاحوال فى نفسه وفى حياته فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها والحاصل انه تعالى فى الآيات المتقدمة ذكر مايقوى الرغبة فى الآخرة وذكر فى هذه الآية مايقوى النفرة عن الدنيا فشرح صفات القيامة يقوى الرغبة فى طاعة الله وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا وانما قدم الترغيب فى الآخرة على التنفير عن الدنيا لان الترغيب فى الآخرة مقصود بالذات والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض فهذا تمام الكلام فى تفسير الآية بقى ههنا مايتعلق بالبحث عن الالفاظ قال الواحدى والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء وقوله ينابيع نصب بحذف الخافض لان التقدير فسلكه فى ينابيع ثم يهيج اى يخضر والحطام مايجف ويفتت ويكسر من النبت * قوله تعالى (افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك فى ضلال مبين الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الاقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الاعراض عن الدنيا بين بعد ذلك ان الانتفاع بهذه البيانات لايكمل الا اذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم انا بالغنا فى سورة الانعام فى تفسير قوله فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام فى تفسير شرح الصدور وفى تفسير الهداية ولا بأس باعادة كلام قليل ههنا فنقول انه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة الى الالهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة الى الجسمانيات وهذا التفاوت امر

الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالاخراج (ان فى ذلك) اشارة الى ماذكر تفصيلا ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الغرابة والدلالة على ماقصد بيانه (لذكرى) لتذكيرا عظيما (لأولى الالباب) لاصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك ان حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلايغترون ببهجتها ولايفتتنون بفتنتها او يجزمون بأن من قدر على انزال الماء من السماء واجرائه فى ينابيع الارض قادر على اجراء الانهار من تحت الغرف هذا واما ماقيل ان فى ذلك لتذكيرا وتنبيها على انه لابد من صانع حكيم وانه كائن عن تقدير وتدبير لاعن تعطيل واهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وانما يليق ذلك بما لو ذكر ما ذكر من الآثار الجليلة والافعال الجليلة من غير اسناد لها الى مؤثر فحيث ذكرت مسندة الى الله عز وجل تعين ان يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤنه تعالى اوشؤن آثاره حسبما بين لاوجوده تعالى وقوله تعالى (افمن شرح الله صدره للاسلام) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى

حاصل فى جواهر النفوس البشرية والاستقراء يدل على ان الامر كذلك اذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدور هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود فى فطرة النفس واذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة الى الفعل بأدنى سبب مثل الكبريت الذى يشتعل بأدنى نار اما اذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والاحوال الروحانية بل كانت مستغرقة فى طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الاحوال المناسبة للالهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية وكلما كان ايراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها اكثر كانت قسوتها وظلمتها اقل اذا عرفت هذه القاعدة فنقول اما شرح الصدور فهو ما ذكرناه واما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة وما لم يحصل شرح الصدور اولا لم يحصل النور ثانيا واذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل وربما صار سماع الدلائل سببا لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه اصول يقينية يجب ان تكون معلومة عند الانسان حتى يمكنه الوقوف على معانى هذه الآيات اما استدلال اصحابنا فى مسئلة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك والله اعلم (المسئلة الثانية) من محذوف الخبر كما فى قوله امن هو قانت والتقدير افمن شرح الله صدره للاسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته والجواب متروك لان الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله (المسئلة الثالثة) قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله فيه سؤال وهو ان ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب فكيف جعله فى هذه الآية سببا لحصول قسوة القلب والجواب ان نقول ان النفس اذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل الى الطبائع البهيمية والاخلاق الذميمة فان سماعها الذكر الله يزيدها قسوة وكدورة وتقرير هذا الكلام بالامثلة فان الفاعل الواحد تختلف افعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى انسانا واحدا يذكر كلاما واحدا فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وما ذاك الا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ومن اختلاف احوال تلك النفوس ولما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وانسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى ثم انشأناه خلقا آخر قال كل واحد منهم فتبارك الله احسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا انزلت فازداد عمر ايمانا على ايمان وازداد ذلك الانسان كفرا على كفر اذا عرفت هذا لم يبعد ايضا ان يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانيه ويوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية اذا عرفت هذا فنقول ان رأس الادوية التى تفيد الصحة الروحانية ورئيسها

الالباب وشرح الصدر للاسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فانه محل للقلب الذى هو منبع للروح التى تتعلق بها النفس القابلة للاسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فانه روى انه عليه الصلاة والسلام قال اذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة ذلك قال عليه الصلاة والسلام الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام فى الهمزة والفاء كالذى مر فى قوله تعالى افمن حق عليه كلمة العذاب وخبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير اكل الناس سواء فمن شرح الله صدره اى خلقه متسع الصدر مستعدا للاسلام فبقى على الفطرة الاصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها (فهو) بموجب ذلك مستقر (على نور) عظيم (من ربه) وهو اللطف الالهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها الى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) اى من اجل ذكره الذى حقه ان تنشرح له الصدور

هو ذكر الله تعالى فاذا اتفق لبعض النفوس ان صار ذكر الله تعالى سببا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضا لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت فى نهاية الشر والرداءة فلهذا المعنى قال تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك فى ضلال مبين وهذا كلام كامل محقق ولما بين تعالى ذلك اردفه بما يدل على ان القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان والمقصود منه بيان ان القرآن لما كان موصوفا بهذه الصفات ثم انه فى حق ذلك الانسان صار سببا للمزيد القسوة دل ذلك على ان جوهر تلك النفس قد بلغ فى الرداءة والخساسة الى اقصى الغايات فنقول انه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال (الصفة الاولى) قوله تعالى الله نزل احسن الحديث وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) انه تعالى وصفه بكونه حديثا فى هذه الآيات وفى آيات اخرى منها قوله تعالى فليأتوا بحديث مثله ومنها قوله تعالى أفبهذا الحديث انتم مدهنون والحديث لابد وان يكون حادثا قالوا بل الحديث اقوى فى الدلالة على الحدوث من الحادث لانه يصح ان يقال هذا حديث وليس بعتيق وهذا عتيق وليس بحديث ولا يصح ان يقال هذا عتيق وليس بحادث فثبت ان الحديث هو الذى يكون قريب العهد بالحدوث وسمى الحديث حديثا لانه مؤلف من الحروف والكلمات وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة فهذا تمام تقرير هذا الوجه (اما الوجه الثانى) فى بيان استدلال القوم ان قالوا انه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون فى محل تصرف الغير وما يكون كذلك فهو محدث وحادث (واما الوجه الثالث) فى بيان استدلال القوم ان قالوا ان قوله احسن الحديث يقتضى ان يكون هو من جنس سائر الاحاديث كما ان قوله زيد افضل الاخوة يقتضى ان يكون زيد مشاركا لاولئك الاقوام فى صفة الاخوة ويكون من جنسهم فثبت ان القرآن من جنس سائر الأحاديث ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب ايضا ان يكون القرآن حادثا (اما الوجه الرابع) فى الاستدلال ان قالوا انه تعالى وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الكتبة وهى الاجتماع وهذا يدل على انه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف وذلك يدل على كونه محدثا (والجواب) ان نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والاصوات والالفاظ والعبارات وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله اعلم (المسئلة الثانية) كون القرآن احسن الحديث اما ان يكون احسن الحديث بحسب لفظه او بحسب معناه (القسم الاول) ان يكون احسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين (الاول) ان يكون ذلك الحسن لاجل الفصاحة والجزالة (الثانى) ان يكون بحسب النظم فى الاسلوب وذلك لان القرآن ليس من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل مع ان كل ذى طبع سليم يستطيبه ويستلذه (القسم الثانى) ان يكون كونه أحسن الحديث لاجل المعنى وفيه وجوه (الاول) انه

(كتاب)

وتطمئن به القلوب اى اذا ذكر الله تعالى عندهم او آياته اشمأزوا من اجله وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجسا وقرئ عن ذكر الله اى عن قبوله (اولئك) البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب (فى ضلال) بعد عن الحق (مبين) ظاهر كونه ضلالا لكل احد قيل نزلت الآية فى حمزة وعلى رضى الله عنهما وابى لهب وولده وقيل فى عمار بن ياسر رضى الله عنه وابى جهل وذويه (الله نزل احسن الحديث) هو القرآن الكريم روى ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له عليه الصلاة والسلام حدثنا حديثا وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم قالوا لو حدثتنا فنزلت والمعنى ان فيه مندوحة عن سائر الاحاديث وفى ايقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيد استناده اليه تعالى وانه من عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيه على انه وحى معجز مالا يخفى (كتابا) بدل من من أحسن الحديث او حال منه سواء اكتسب من المضاف اليه تعريفا اولا فان مساغ مجئ الحال من النكرة المضافة اتفاق ووقوعه حالا مع كونه اسما لا صفة اما لاتصافه بقوله تعالى (متشابها) اولكونه فى قوة مكتوبا

كتاب منزه عن التناقض كما قال تعالى ولوكان من عند غيرالله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومثل هذا الكتاب اذاخلاعن التناقض كان ذلك من المعجزات (الوجه الثانى) اشتماله على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل (الوجه الثالث) ان العلوم الموجودة فيه كثيرة جدا وضبط هذه العلوم ان نقول العلوم النافعة هى ماذكره الله فى كتابه فى قوله والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فهذا احسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة (اما القسم الاول) وهو الايمان بالله فاعلم انه يشتمل على خمسة اقسام معرفة الذات والصفات والافعال والاحكام والاسماء أما معرفة الذات فهى ان يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه وأمامعرفة الصفات فهى نوعان (احدهما) مايجب تنزيهه عنه وهو كونه جوهرا ومركبا من الاعضاء والاجزاء وكونه مختصا بحيز وجهة ويجب ان يعلم ان الالفاظ الدالة على التنزيه اربعة ليس ولم وماولا وهذه الاربعة المذكورة مذكورة فى كتاب الله تعالى لبيان التنزيه اما كلمة ليس فقوله ليس كمثله شئ وأما كلمة لم فقوله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأما كلمة مافقوله وما كان ربك نسيا ماكان الله ان يتخذ من ولد واما كلمة لا فقوله تعالى لاتأخذه سنة ولانوم وهو يطعم ولايطعم وهو يجير ولايجار عليه وقوله فى سبعة وثلاثين موضعا من القرآن لااله الاالله (واماالنوع الثانى) وهى الصفات التى يجب كونه موصوفا بها من القرآن (فأولها) العلم بالله والعلم بكونه محدثا خالقا قال تعالى الحمدلله الذى خلق السموات والارض (وثانيها) العلم بكونه قادرا قال تعالى فى اول سورة القيامة بلى قادرين على ان نسوى بنانه وقال فى آخرهذه السورة أليس ذلك بقادر على ان يحيى الموتى (وثالثها) العلم بكونه تعالى عالما قال تعالى هوالله الذى لااله الاهو عالم الغيب والشهادة (ورابعها) العلم بكونه عالما بكل المعلومات قال تعالى وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الاهو وقوله تعالى الله يعلم ماتحمل كل انثى (وخامسها) العلم بكونه حيا قال تعالى هو الحى لااله الاهو فادعوه مخلصين له الدين (وسادسها) العلم بكونه مريدا قال الله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام (وسابعها) كونه سميعا بصيرا قال تعالى وهو السميع البصير وقال تعالى اننى معكما اسمع وأرى (وثامنها) كونه متكلما قال تعالى ولو ان مافى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر مانفدت كلمات الله (وتاسعها) كونه آمرا قال تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وعاشرها) كونه رحمانا رحيما ملكا قال تعالى الرحمن الرحيم ملك يوم الدين فهذا مايتعلق بمعرفة الصفات التى يجب اتصافه بها (واماالقسم الثالث) وهو الافعال فاعلم ان الافعال امااورواح واما اجسام أما الارواح فلاسبيل للوقوف عليها الاالقليل كما قال تعالى ومايعلم جنود ربك الاهو واما الاجسام فهى اما العالم الاعلى واما العالم الاسفل اماالعالم الاعلى فالبحث فيه من وجوه (احدها) البحث عن احوال السموات (وثانيها) البحث عن احوال الشمس والقمر كما

ومعنى كونه متشابها تشابه معانيه فى الصحة والاحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش وتناسب الفاظه فى الفصاحة وتجاوب نظمه فى الاعجاز (مثانى) صفة اخرى لكتابا او حال اخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لماثنى من قصصه وانبائه واحكامه واوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل لانه يثنى فى التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين اى كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتابا باعتبار تفاصيله كما يقال القرآن سور وآيات ويجوز ان ينتصب على التميز من متشابها كما يقال رأيت رجلا حسنا شمائل اى شمائله والمعنى متشابهة مثانية (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) قيل صفة لكتابا او حال منه لتخصصه بالصفة والاظهر انه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان اوصافه فى نفسه ولتقرير كونه احسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد اذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من القشع وهو الاديم اليابس قد ضم اليه الراء ليكون رباعيا ودالا

قال تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (وثالثها) البحث عن احوال الاضواء قال الله تعالى الله نور السموات والارض وقال تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا (ورابعها) البحث عن أحوال الظلال قال الله تعالى الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا (وخامسها) اختلاف الليل والنهار قال الله تعالى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل (وسادسها) منافع الكواكب قال تعالى وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر (وسابعها) صفات الجنة قال تعالى وجنة عرضها كعرض السماء والارض (وثامنها) صفات النار قال تعالى لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم (وتاسعها) صفة العرش قال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله (وعاشرها) صفة الكرسى قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض (وحادى عشرها) صفة اللوح والقلم اما اللوح فقوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ واما القلم فقوله تعالى ن والقلم وما يسطرون ٭ واما شرح احوال العالم الاسفل (فأولها) الارض وقد وصفها بصفات كثيرة (احدها) كونه مهدا قال تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا (وثانيها) كونه مهادا قال تعالى الم نجعل الارض مهادا (وثالثها) كونه كفاتا قال تعالى كفاتا احياء وامواتا (ورابعها) الذلول قال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا (وخامسها) كونه بساطا قال تعالى والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا والكلام فيه طويل (وثانيها) البحر قال تعالى وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا (وثالثها) الهواء والرياح قال تعالى وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقال تعالى وارسلنا الرياح لواقح (ورابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق قال تعالى ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وقال تعالى فترى الودق يخرج من خلاله ومن هذا الباب ذكر الصواعق والامطار وتراكم السحاب (وخامسها) احوال الاشجار والثمار وانواعها واصنافها (وسادسها) احوال الحيوانات قال تعالى وبث فيهما من كل دابة وقال والانعام خلقها لكم (وسابعها) عجائب تكوين الانسان فى اول الخلقة قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (وثامنها) العجائب فى سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه (وتاسعها) تواريخ الانبياء والملوك واحوال الناس من اول خلق العالم الى آخر قيام القيامة (وعاشرها) ذكر احوال الناس عند الموت وبعد الموت وكيفية البعث والقيامة وشرح احوال السعداء والاشقياء فقد اشرنا الى عشرة انواع من العلوم فى عالم السموات والى عشرة اخرى فى عالم العناصر والقرآن مشتمل على شرح هذه الانواع من العلوم العالية الرفيعة (واما القسم الرابع) وهو شرح احكام الله تعالى وتكاليفه فنقول هذه التكاليف اما ان تحصل فى اعمال القلوب او فى اعمال الجوارح (اما القسم الاول) فهو المسمى بعلم الاخلاق وبيان تمييز

على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره اذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد اما بيان افراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير او بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى انهم اذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم واذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) اى ساكنة مطمئنة الى ذكر رحمته تعالى وانما لم يصرح بها ايذانا بأنها اول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى (ذلك) اى الكتاب الذى شرح احواله (هدى الله يهدى به من يشاء) ان يهديه بصرف مقدوره الى الاهتداء بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عند الله تعالى (ومن يضلل الله) اى يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته الى مباديها واعراضه عما يرشده الى الحق بالكلية وعدم تأثره بوعيده ووعده اصلا او ومن يخذل (فما له من هاد) يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء اثر هداه تعالى يهدى بذلك

الاخلاق الفاضلة و الاخلاق الفاسدة و القرآن يشتمل على كل مالابد منه فى هذا الباب قال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل و الاحسان و ايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين (واما الثانى) فهو التكاليف الحاصلة فى اعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه و القرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على اكمل الوجوه (واما القسم الخامس) وهو معرفة اسماء الله تعالى فهو مذكور فى قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها فهذا كله يتعلق بمعرفة الله (وأما القسم الثانى) من الاصول المعتبرة فى الايمان الاقرار بالملائكة كما قال تعالى والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الاجمال واخرى على طريق التفصيل اما بالاجمال فقوله وملائكته وأما بالتفصيل فمنها مايدل على كونهم رسل الله قال تعالى جاعل الملائكة رسلا ومنها انها مدبرات لهذا العالم قال تعالى فالمقسمات أمرا فالمدبرات امرا وقال تعالى والصافات صفا ومنها حملة العرش قال تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ومنها الحافون حول العرش قال تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش ومنها خزنة النار قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد ومنها الكرام الكاتبون قال تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ومنها المعقبات قال تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه وقد يتصل بأحوال الملائكة احوال الجن و الشياطين (واما القسم الثالث) من الاصول المعتبرة فى الايمان معرفة الكتب و القرآن يشتمل على شرح احوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات ومنها احوال صحف ابراهيم عليه السلام قال تعالى واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ومنها احوال التوراة والانجيل والزبور (واما القسم الرابع) من الاصول المعتبرة فى الايمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح احوال البعض وابهم احوال الباقين قال تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (القسم الخامس) مايتعلق بأحوال المكلفين وهى على نوعين (الاول) ان يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله تعالى وقالوا سمعنا واطعنا (والثانى) ان يعترفوا بصدور التقصير عنهم فى تلك الاعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله تعالى غفرانك ربنا ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير فى مواقف العبودية بحسب المكاشفات فى مطالعة عزة الربوبية اكثر كانت المكاشفات فى تقصير العبودية اكثر وكان قوله غفرانك ربنا اكثر (القسم السادس) معرفة المعاد و البعث و القيامة وهو المراد من قوله واليك المصير وهذا هو الاشارة الى معرفة المطالب المهمة فى طلب الدين والقرآن بحر لا نهاية له فى تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولاترى فى مشارق الارض ومغاربها كتابا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها ومن تأمل فى هذا التفسير علم انا لم نذكر من بحار فضائل القرآن الا قطرة ولما كان الامر على هذه الجملة لاجرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى الله نزل احسن الحديث

الا لمن يشاء من عباده ومن يضلل اى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه واصراره على فجوره فاله من هاد من مؤثر فيه بشى قط (افمن يتقى بوجهه) الخ استئناف جار مجرى التعليل لماقبله من تباين حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيره والتقدير اكل الناس سواء فمن شانه انه يقى نفسه بوجهه الذى هو اشرف اعضائه (سوء العذاب) اى العذاب السيء الشديد (يوم القيامة) لكون يده التى بها كان يتقى المكاره والمخاوف مغلولة الى عنقه كمن هو آمن لايعتريه مكروه ولايحتاج الى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى ابى جهل (وقيل للظالمين) عطف على يتقى اى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من ضمير يتقى باضمار قد ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والاشعار بعلة الامر فى قوله تعالى (ذوقوا ما كنتم تكسبون) اى وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصى (كذب الذين من قبلهم) استئناف مسوق لبيان

والله اعلم (الصفة الثانية) من صفات القرآن قوله تعالى كتابا متشابها أما الكتاب فقد فسرناه فى قوله تعالى ذلك الكتاب لاريب فيه واما كونه متشابها فاعلم ان هذه الآية تدل على ان القرآن كله متشابه وقوله هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات يدل على كون البعض متشابها دون البعض وأما كونه كله متشابها كما فى هذه الآية فقال ابن عباس معناه انه يشبه بعضه بعضا وأقول هذا التشابه يحصل فى امور (احدها) ان الكاتب البليغ اذا كتب كتابا طويلا فانه يكون بعض كلماته فصيحا ويكون البعض غير فصيح والقرآن يخالف ذلك فانه فصيح كامل الفصاحة بجميع اجزائه (وثانيها) ان الفصيح اذا كتب كتابا فى واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتابا آخر فى غير تلك الواقعة كان الغالب ان كلامه فى الكتاب الثانى غير كلامه فى الكتاب الاول والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة فى الفصاحة (وثالثها) ان كل مافيه من الآيات والبيانات فانه يقوى بعضها بعضا ويؤكد بعضها بعضا (ورابعها) ان هذه الانواع الكثيرة من العلوم التى عددناها متشابهة متشاركة فى ان المقصود منها بأسرها الدعوى الى الدين وتقرير عظمة الله ولذلك فانك لاترى قصة من القصص الا ويكون محصلها المقصود الذى ذكرناه فهذا هو المراد من كونه متشابها والله الهادى (الصفة الثالثة) من صفات القرآن كونه مثانى وقد بالغنا فى تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وبالجملة فأكثر الاشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل الامر والنهى والعام والخاص والمجمل والمفصل واحوال السموات والارض والجنة والنار والظلمة والضوء واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسى والوعد والوعيد والرجاء والخوف والمقصود منه بيان ان كل ماسوى الحق زوج ويدل على ان كل شئ مبتلى بضده ونقيضه وان الفرد الاحد الحق هو الله سبحانه (الصفة الرابعة) من صفات القرآن قوله تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى تقشعر جلودهم تأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الانسان عند الوجل والخوف قال المفسرون والمعنى انهم عند سماع آيات الرحمة والاحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم الى ذكر الله واقول ان المحققين من العارفين قالوا السائرون فى مبدأ جلال الله ان نظروا الى عالم الجلال طاشوا وان لاح لهم اثر من عالم الجمال عاشوا ويجب علينا ان نذكر فى هذا الباب مزيد شرح وتقرير فنقول الانسان اذا تأمل فى الدلائل الدالة على انه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة فههنا يقشعر جلده لان اثبات موجود لاداخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود واما اذا تأمل فى الدلائل الدالة على انه يجب ان يكون فردا احدا وثبت ان كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه الى ذكر الله وايضا اذا اراد ان يحيط عقله بمعنى الازل فيتقدم فى ذهنه

(بمقدار)

ما اصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى اثر بيان مايصيب الكل من العذاب الاخروى اى كذب الذين من قبلهم من الامم السالفة (فأتاهم العذاب) المقدر لكل امة منهم (من حيث لايشعرون) من الجهة التى لايحتسبون ولا يخطر ببالهم اتيان الشر منها (فأذاقهم الله الخزى) اى الذل والصغار (فى الحياة الدنيا) كالمسخ والخسف والقتل والسبى والاجلاء ونحو ذلك من فنون النكال (ولعذاب الآخرة) المعد لهم (اكبر) لشدته وسرمديته (لو كانوا يعلمون) اى لو كان من شأنهم ان يعلموا شيئا لعلموا ذلك واعتبروا به (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يحتاج اليه الناظر فى اموردينه (لعلهم يتذكرون) كى يتذكروا به ويتعظوا (قرآنا عربيا) حال مؤكدة من هذا على ان مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاءنى زيد رجلا صالحا او مدح له (غير ذى عوج) لااختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو ابلغ من المستقيم واخص بالمعانى وقيل المراد بالعوج الشك (لعلهم يتقون) علة أخرى مترتبة على الاولى

بمقدار الف سنة ثم يتقدم ايضا بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة الف الف سنة ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل فى الذهن فاذا بالغ وتوغل وظن انه استحضر معنى الازل قال العقل هذا ليس بشئ لان كل ما استحضرته فى فهو متناه والازل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد واما اذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والموجود اما واجب واما ممكن فان كان واجبا فهو دائما منزه عن الاول والآخر وان كان ممكنا فهو محتاج الى الواجب فيكون ازليا ابديا فاذا اعتبر العقل فهم معنى الازلية فههنا يلين جلده وقلبه الى ذكر الله فثبت ان المقامين المذكورين فى الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة بل ذاك اول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر فى حصول تلك الحالتين المذكورتين (المسئلة الثانية) روى الواحدى فى البسيط عن قتادة انه قال القرآن دل على ان اولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات تارة تقشعر جلودهم واخرى تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وليس فيه ان عقولهم تزول وان اعضاءهم تضطرب فدل هذا على ان تلك الاحوال لو حصلت لكانت من الشيطان واقول ههنا بحث آخر وهو ان الشيخ اباحامد الغزالى اورد مسئلة فى كتاب احياء علوم الدين وهى انا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الابيات المشتملة على شرح الوصل والهجر وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شئ من هذه الاحوال ثم انه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة وأنا اقول انى خلقت محروما عن هذا المعنى فانى كلما تأملت فى اسرار القرآن اقشعر جلدى ووقف على شعرى وحصلت فى قلبى دهشة وروعة وكلما سمعت تلك الاشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة فى نفسى منها اثرا واظن ان المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا وبيانه من وجوه (الاول) ان تلك الاشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق واثباته فى حق الله تعالى كفر واما الانتقال من تلك الاحوال الى معان لائقة بجلال الله فلا يصل اليها الا العلماء الراسخون فى العلم واما المعانى التى يشتمل عليها القرآن فهى احوال لائقة بجلال الله فمن وقف عليها عظم الوله فى قلبه فان من كان عنده الايمان وجب ان يعظم اضطرابه عند سماع قوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو الى آخر الآية (والثانى) وهو انى سمعت بعض المشايخ قال كما ان الكلام له اثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له اثر لان قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام فى الروح والقائل فى القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) ان مدار القرآن على الدعوة الى الحق قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض واما الشعر فداره على الباطل قال تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة واما ما يتعلق

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) ايراد لمثل من الامثال القرآنية بعد بيان ان الحكمة فى ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر فى سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الاول اخر عن الثانى للتشويق اليه وليتصل به ما هو من تتمته التى هى العمدة فى التمثيل وفيه ليس بصلة الشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان انه فى الاصل كذلك مما لا حاجة اليه والجملة فى حيز النصب على انه وصف لرجلا والوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك حسبما يقود اليه مذهبه من ادعاء كل من من معبوديه عبوديته عبدا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المتباينة فى تحيره وتوزع قلبه (ورجلا) اى وجعل للموحد مثلا رجلا (سلما) اى خالصا (لرجل) فرد ليس لغيره عليه سبيل اصلا وقرئ سلما بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا اى خلص نعت بها مبالغة او حذف منها ذو وقرئ سالما وسالم اى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لانه افطن لما يجرى عليه من الضر

بالوجدان من النفس فان كل احد انما يخبر عما يجده من نفسه والذى وجدته من النفس والعقل ماذكرته والله اعلم (المسئلة الثالثة) فى بيان مابقى من المشكلات فى هذه الآية ونذكرها فى معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) كيف تركيب لفظ القشعريرة الجواب قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف التقشع وهو الاديم اليابس مضموما اليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وذلك مثل فى شدة الخوف (السؤال الثانى) كيف قال تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وما الوجه فى تعديه بحرف الى والجواب التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها الى حضرة الله وهو لا يحس بالادراك (السؤال الثالث) لم قال الى ذكر الله ولم يقل الى ذكر رحمة الله والجواب ان من أحب الله لاجل رحمته فهو ما احب الله وانما أحب شيئا غيره واما من احب الله لا لشئ سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر رحمة الله بل قال الى ذكر الله وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام وفى قوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب وايضا قال لامة موسى يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وقال ايضا لامة محمد صلى الله عليه وسلم فاذكرونى أذكركم (السؤال الرابع) لم قال فى جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط وفى جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معا والجواب لان المكاشفة فى مقام الرجاء اكمل منها فى مقام الخوف لان الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والارواح والله اعلم * ثم انه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فاله من هاد فقوله ذلك اشارة الى الكتاب وهو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده وهو الذى شرح صدره اولا لقبول هذه الهداية ومن يضلل الله اى من جعل قلبه قاسيا مظلما بليد الفهم منافيا لقبول هذه الهداية فاله من هاد واستدلال اصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات اصحابنا عين ماتقدم فى قوله فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام اما قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة فاعلم انه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وبحكم فى الآخرة اما حكمهم فى الدنيا فهو الضلال التام كما قال ومن يضلل الله فاله من هاد واما حكمهم فى الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وتقريره ان اشرف الاعضاء هو الوجه لانه محل الحسن والصباحة وهو ايضا صومعة الحواس وانما تميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه واثر السعادة والشقاوة لا يظهر الا فى الوجه قال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة اولئك هم الكفرة الفجرة ويقال لمقدم القوم ياوجه العرب ويقال للطريق الدال على كنه حال الشئ وجه كذا هو كذا فثبت بما ذكرنا ان اشرف الاعضاء هو الوجه فاذا وقع الانسان فى

والنفع (هل يستويان مثلا) انكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على ابلغ وجه وآكده وايذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر احد ان يتفوه باستوائهما اويتلعثم فى الحكم بتباينهما ضرورة ان احدهما فى اعلى عليين والآخر فى اسفل سافلين وهو السر فى ابهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التمييز اى هل يستوى حالاهما وصفتاهما والاقتصار فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين كقوله تعالى اكثر اموالا واولادا للاشعار باختلاف النوع اولان المراد هل يستويان فى الوصفين على ان الضمير للمثلين لان التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى (الحمد لله) تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على ان مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وانها نعمة جليلة موجبة عليهم ان يداوموا على حمده وعبادته اوعلى ان بيانه تعالى بضرب المثل ان لهم المثل الاعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عزوجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى (بل اكثرهم لا يعلمون) اضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور الى بيان ان اكثر الناس وهم

(نوع)

نوع من انواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له واذا عرفت هذا فنقول اذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ماسوى الوجه فداء للوجه لاجرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ونظيره قول النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

اى لاعيب فيهم الا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم اذن بوجه من الوجوه فكذا ههنا لايقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه الا بالوجه وهذا ليس باتقاء فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ويقال ايضا ان الذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه الى عنقه ولا يتهيأ له ان يتقى النار الا بوجهه اذا عرفت هذا فنقول جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف فى نظائره وسوء العذاب شدته ثم قال تعالى وقيل للظالمين ذوقوا ماكنتم تكسبون ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم فى الآخرة بين ايضا كيفية وقوعهم فى العذاب فى الدنيا فقال كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون وهذا تنبيه على حال هؤلاء لان الفاء فى قوله فأتاهم العذاب تدل على انهم انما اتاهم العذاب بسبب التكذيب فاذا كان التكذيب حاصلا ههنا لزم حصول العذاب استدلالا بالعلة على المعلول وقوله من حيث لايشعرون اى من الجهة التى لايحسبون ولا يخطر ببالهم ان الشر يأتيهم منها بيناهم آمنون اذ أتاهم العذاب من الجهة التى توقعوا الأمن منها ولما بين تعالى انه اتاهم العذاب فى الدنيا بين ايضا انه اتاهم الخزى وهو الذل والصغار والهوان والفائدة فى ذكر هذا القيد ان العذاب التام ان يحصل فيه الالم مقرونا بالهوان والذل ثم قال ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون يعنى ان اولئك وان نزل عليهم العذاب والخزى كما تقدم ذكره فالعذاب المدخر لهم فى يوم القيامة اكبر واعظم من ذلك الذى وقع المقصود من كل ذلك التخويف والترهيب فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة فى هذه المطالب بين تعالى انه بلغت هذه البيانات الى حد الكمال والتمام فقال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون والمقصود ظاهر وقالت المعتزلة دلت الآية على ان افعال الله واحكامه معللة ودلت ايضا على انه يريد الايمان والمعرفة من الكل لان قوله ولقد ضربنا للناس مشعر بالتعليل وقوله فى آخر الآية لعلهم يتذكرون مشعر بالتعليل ايضا ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الامثال ارادة حصول التذكر والعلم ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة فى القرآن لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء فقال قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الاول) ان قوله ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون يدل على انه تعالى انما ذكر هذه الامثال ليحصل لهم التذكر والشئ الذى يؤتى به لغرض آخر يكون محدثا فان القديم

المشركون لايعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون فى ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة وقرئ مائت ومائتون وقيل كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته اى انكم جميعا بصدد الموت (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم) اى مالك اموركم (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الاحكام والمواعظ التى من جملتها مافى تضاعيف هذه الآيات واجتهدت فى الدعوة الى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا فى المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام العام الجارى فى الدنيا بين الانام

هو الذى يكون موجودا فى الازل وهذا يمتنع ان يقال انه انما اتى به لغرض كذا وكذا (الثانى) انه وصفه بكونه عربيا وانما كان عربيا لان هذه الالفاظ انما صارت دالة على هذه المعانى بوضع العرب وباصطلاحهم وما كان حصوله بسبب اوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقا محدثا (الثالث) انه وصفه بكونه قرآنا والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلا ومفعولا والجواب انا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والاصوات وهى حادثة ومحدثة (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله عربيا منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس فى هذه القرآن فى حال عربيته وبيانه ويجوز ان ينتصب على المدح (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (اولها) كونه قرآنا والمراد كونه متلوا فى المحاريب الى قيام القيامة كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وثانيها) كونه عربيا والمراد انه اعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (وثالثها) كونه غير ذى عوج والمراد براءته عن التناقض كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وأما قوله لعلهم يتقون فالمعتزلة يتمسكون به فى تعليل احكام الله تعالى (وفيه بحث آخر) وهو انه تعالى قال فى الآية الاولى لعلهم يتذكرون وقال فى هذه الآية لعلهم يتقون والسبب فيه ان التذكر متقدم على الاتقاء لانه اذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه حصل الاتقاء والاحتراز والله اعلم ۞ قوله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون فمن اظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه اليس فى جهنم مثوى للكافرين) اعلم انه تعالى لما بالغ فى شرح وعيد الكفار اردفه بذكر مثل مايدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال ضرب الله مثلا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوسا وشكسا اذا عسر وهو رجل شكس اى عسر وتشاكس اذا تعاسر قال الليث التشاكس التنازع والاختلاف ويقال الليل والنهار متشاكسان اى انهما متضادان اذا جاء احدهما ذهب الآخر وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابو عمرو سالما بالالف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلما بفتح السين واللام بغير الالف ويقال ايضا بفتح السين وكسرها مع سكون العين اما من قرأ سالما فهو اسم الفاعل تقديره سلم فهو سالم واما سائر القراآت فهى مصادر سلم والمعنى ذا سلامة وقوله لرجل اى ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة وقرئ بالرفع على الابتداء اى وهناك رجل سالم لرجل (المسئلة الثالثة) تقدير الكلام اضرب لقومك مثلا وقل لهم مايقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد منهم يدعى انه عبده فهم

(يتجاذبونه)

والاول هو الاظهر الانسب بقوله تعالى (فمن اظلم ممن كذب على الله) فانه الى آخره مسوق لبيان حال كل من طرفى الاختصام الجارى فى شأن الكفر والايمان لا غير اى اظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بأن أضاف اليه الشريك والولد (وكذب بالصدق) اى بالامر الذى هو عين الحق ونفس الصدق وهو ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم (اذ جاءه) اى فى اول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل (اليس فى جهنم مثوى للكافرين) اى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا الى التكذيب بالصدق من اول الامر والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها اوللجنس الكفرة وهم داخلون فى الحكم دخولا اوليا

يتجاذبونه فى حوائجهم وهو متحير فى أمره فكلما ارضى احدهم غضب الباقون واذا احتاج فى مهم اليهم فكل واحد منهم يرده الى الآخر فهو يبقى متحيرا لايعرف ايهم اولى بأن يطلب رضاه وايهم يعينه فى حاجاته فهو بهذا السبب فى عذاب دائم وتعب مقيم ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الاخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأى هذين العبدين احسن حالا واحمد شأنا والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى فان اولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقال ولعلا بعضهم على بعض فيبقى ذلك المشرك متحيرا ضالا لا يدرى اى هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية ايهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه فهمه شعاع وقلبه اوزاع اما من لم يثبت الا الها واحدا فهو قائم بما كلفه عارف بما ارضاه وما اسخطه فكان حال هذا أقرب الى الصلاح من حال الاول وهذا مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد فان قيل هذا المثال لاينطبق على عبادة الاصنام لانها جمادات فليس بينها منازعة ولا مشاكسة قلنا ان عبدة الاصنام مختلفون منهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم فى الحقيقة انما يعبدون الكواكب السبعة ثم ان القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ألا ترى انهم يقولون زحل هو النحس الاعظم والمشترى هو السعد الاعظم ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الارواح الفلكية والقائلون بهذا القول زعموا ان كل نوع من انواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الارواح السماوية وحينئذ يحصل بين تلك الارواح منازعة ومشاكسة وحينئذ يكون المثل مطابقا ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الاشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير اولئك الاشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم ان المحق هو ذلك الرجل الذى هو على دينه وان من سواه مبطل وعلى هذا التقدير ايضا ينطبق المثال فثبت ان هذا المثال مطابق للمقصود اما قوله تعالى هل يستويان مثلا فالتقدير هل يستويان صفة فقوله مثلا نصب على التمييز والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالتاهما وانما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين ثم قال الحمد لله والمعنى انه لما بطل القول باثبات الشركاء والانداد وثبت انه لا اله الا هو الواحد الاحد الحق ثبت ان الحمد له لا لغيره ثم قال بعده بل اكثرهم لايعلمون اى لايعلمون ان الحمد له لا لغيره وان المستحق للعبادة هو الله لا غيره وقيل المراد انه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات وان كان اكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ولما تمم الله هذه البيانات قال انك ميت وانهم ميتون والمراد ان هؤلاء الاقوام وان لم يلتفتوا الى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم فى الدنيا فلا تبال يا محمد بهذا فانك ستموت وهم ايضا سيموتون ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى والعادل

(والذى جاء بالصدق وصدق به) الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كما ان المراد فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول للرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج او الفريق (أولئك) الموصوفون بما ذكر من المجئ بالصدق والتصديق به (هم المتقون) المنعوتون بالتقوى التى هى اجل الرغائب وقرئ وصدق به بالتخفيف اى صدق به الناس فأداه اليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به اى بسببه لان ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه عليه الصلاة والسلام وقرئ صدق به على البناء للمفعول (لهم ما يشاؤن عند ربهم) بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الاعمال اى لهم كل ما يشاؤنه من جلب المنافع ودفع المضار فى الآخرة لا فى الجنة فقط لما ان بعض ما يشاؤنه من تكفير السيآت والأمن من الفزع الاكبر وسائر اهوال القيامة انما يقع قبل دخول الجنة (ذلك) الذى ذكر من حصول كل ما يشاؤنه (جزاء المحسنين) اى الذين

الحق يحكم بينكم فيوصل الى كل واحد ماهو حقه وحينئذ يتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق فهذا هو المقصود من الآية وقوله تعالى انك ميت وانهم ميتون اى انك واياهم وان كنتم احياء فانك واياهم فى اعداد الموتى لان كل ماهو آت آت ثم بين تعالى نوعا آخر من قبائح افعالهم وهو انهم يكذبون ويضمون اليه انهم يكذبون القائل المحق اما انهم يكذبون فهو انهم اثبتوا لله ولدا وشركاء واما انهم مصرون على تكذيب الصادقين فلأنهم يكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقا فى ادعاء النبوة ثم اردفه بالوعيد فقال أليس فى جهنم مثوى للكافرين ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى تكفير المخالف من اهل القبلة وذلك لان المخالف فى مسائل كلها القطعية يكون كاذبا فى قوله ويكون مكذبا للمذهب الذى هو الحق فوجب دخوله تحت هذا الوعيد ❊ قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون لهم مايشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا ويجزيهم اجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهد الله فماله من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ليكون الوعد مقرونا بالوعيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله والذى جاء بالصدق وصدق به تقديره والذى جاء بالصدق والذى صدق به وفيه قولان (الاول) ان المراد شخص واحد فالذى جاء بالصدق محمد والذى صدق به هو ابو بكر وهذا القول مروى عن على بن ابى طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثانى) ان المراد منه كل من جاء بالصدق فالذى جاء بالصدق الانبياء والذى صدق به الاتباع واحتج القائلون بهذا القول بأن الذى جاء بالصدق جماعة والا لم يجز ان يقال أولئك هم المتقون (المسئلة الثانية) ان الرسالة لاتتم الا بأركان اربعة المرسل والمرسل والرسالة والمرسل اليه والمقصود من الارسال اقدام المرسل اليه على القبول والتصديق فأول شخص اتى بالتصديق هو الذى يتم به الارسال وسمعت بعض القاصين من الذى يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال دعوا ابابكر فانه من تتمة النبوة واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذى صدق به شخص معين او قلنا المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فان أبابكر داخل فيه اما على التقدير الاول فدخول ابى بكر فيه ظاهر وذلك لان هذا يتناول اسبق الناس الى التصديق واجمعوا على ان الاسبق الافضل اما ابو بكر واما على وحمل هذا اللفظ على ابى بكر اولى لان عليا عليه السلام كان وقت البعثة صغيرا فكان كالولد الصغير الذى يكون فى البيت ومعلوم ان اقدامه على التصديق لايفيد مزيد قوة وشوكة اما ابو بكر فانه كان رجلا كبيرا فى السن كبيرا فى المنصب فاقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة فى الاسلام فكان حمل هذا اللفظ على ابى بكر اولى (واما على التقدير الثانى) فهو ان يكون المراد كل من كان موصوفا بهذه

احسنوا اعمالهم وقد مر تفسير الاحسان غير مرة وقوله تعالى (ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا) الخ متعلق بقوله تعالى لهم مايشاؤن لكن لاباعتبار منطوقه ضرورة ان التكفير المذكور لايتصور كونه غاية لثبوت مايشاؤن لهم فى الآخرة كيف لاوهو بعض ماسيثبت لهم فيها بل باعتبار فحواه فانه حيث لم يكن اخبارا عما ثبت لهم فيمامضى بل بماسيثبت لهم فيما سيأتى كان فى معنى الوعد به كما فى قوله تعالى وعد الله فانه مصدر مؤكد لماقبله من قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف فانه فى معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كأنه قيل وعدهم الله جميع مايشاؤنه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد اسوأ الذى عملوا دفعا لمضارهم (ويجزيهم اجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) اعطاء لمنافعهم واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام واضافة الاسوأ والاحسن الى مابعدهما ليست من قبيل اضافة المفضل الى المفضل عليه بل من اضافة الشئ الى بعضه للقصد الى التحقيق والتوضيح من غير اعتبار تفضيله عليه وانما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف اليه المعين بخصوصه كما فى قولهم الناقص والاشج اعدلا بنى مروان

الصفة وعلى هذا التقدير يكون ابوبكر داخلا فيه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ وصدق بالتخفيف اى صدق به الناس ولم يكذبهم يعنى أداه اليهم كما نزل عليه من غير تحريف وقيل وصار صادقا به اى بسببه لان القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح فيصير المدعى للرسالة صادقا بسبب تلك المعجزة وقرئ وصدق واعلم انه تعالى اثبت للذى جاء بالصدق وصدق به أحكاما كثيرة (فالحكم الاول) قوله أولئك هم المتقون وتقريره ان التوحيد والشرك ضدان وكلما كان احد الضدين اشرف واكمل كان الضد الثانى أخس وأرذل ولما كان التوحيد اشرف الاسماء كان الشرك أخس الاشياء والآتى بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثانى فالآتى بالتوحيد الذى هو افضل الاشياء يكون تاركا للشرك الذى هو اخس الاشياء وارذلها فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين (الحكم الثانى) للمصدقين قوله تعالى لهم مايشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين وهذا الوعد يدخل فيه كل مارغب المكلف فيه فان قيل لاشك ان الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته واهل الجنة لاشك انهم عقلاء فاذا شاهدوا الدرجات العالية التى هى للانبياء واكابر الاولياء عرفوا انها خيرات عالية ودرجات كاملة والعلم بالشئ من حيث انه كمال وخير يوجب الميل اليه والرغبة فيه واذا كان كذلك فهم يشاؤن حصول تلك الدرجات لانفسهم فوجب حصولها بحكم هذه الآية ايضا فان لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا فى الغصة ووحشة القلب واجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب اهل الآخرة وذلك يقتضى ان احوالهم فى الآخرة بخلاف احوالهم فى الدنيا ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى ان المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة قالوا ان الذين يعتقدون انهم يرون الله تعالى لاشك انهم داخلون تحت قوله تعالى وصدق به لانهم صدقوا الانبياء عليهم السلام ثم ان ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب ان يحصل له ذلك لقوله تعالى لهم مايشاؤن عند ربهم فان قالوا الانسلم ان اهل الجنة يشاؤن ذلك قلنا هذا باطل لان الرؤية اعظم وجوه التجلى وزوال الحجاب ولاشك انها حالة مطلوبة لكل احد نظر الى هذا الاعتبار بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فانه يترك طلبه لا لاجل عدم المقتضى للطلب بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعا فى نفسه فثبت ان هذه الشبهة قائمة والنص يقتضى حصول كل ما ارادوه وشاؤه فوجب حصولها واعلم ان قوله عند ربهم لايفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والاخلاص كما فى قوله تعالى عند مليك مقتدر واعلم ان المعتزلة تمسكوا بقوله وذلك جزاء المحسنين على ان هذا الاجر مستحق لهم على احسانهم فى العبادة (الحكم الثالث) قوله تعالى ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا ويجزيهم اجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون فقوله لهم مايشاؤن عند ربهم يدل على حصول الثواب على اكمل الوجوه وقوله ليكفر الله عنهم يدل على سقوط العقاب عنهم على اكمل الوجوه فقيل المراد انهم اذا

خلا ان الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هى فى الاول زيادة بالنظر الى مايليق بحالهم من استعظام سيآتهم وان قلت واستصغار حسناتهم وان جلت والثانى بالنظر الى لطف اكرم الاكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة وحمل الزيادة على الحقيقة وان امكن فى الاول بناء على ان تخصيص الاسوأ بالذكر لبيان تكفير مادونه بطريق الاولوية ضرورة استلزام تكفير الاسوأ لتكفير السيئ لكن لما لم يمكن ذلك فى الاحسن كان الاحسن نظمهما فى سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى دون الاول للايذان باستمرارهم على الاعمال الصالحة بخلاف السيئة (اليس الله بكاف عبده) انكار ونفى لعدم كفايته تعالى على ابلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لايقدر احد على ان يتفوه بعدمها او يتلعثم فى الجواب بوجودها والمراد بالعبد اما رسول الله صلى الله عليه وسلم او الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما اوليا ويؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكافى عباده على الاضافة ويكافى عباده على صيغة المغالبة اما من الكفاية لافادة

صدقوا الانبياء عليهم السلام فيما اتوا فان الله يكفر عنهم اسوأ اعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الايمان ويوصل اليهم احسن انواع الثواب وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من اعمالهم ولايجزيهم بالمساوى واعلم ان مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لايضر شئ من المعاصى مع الايمان كما لاينفع شئ من الطاعات مع الكفر واحتج بهذه الآية فقال انها تدل على ان من صدق الانبياء والرسول فانه تعالى يكفر عنهم اسوأ الذى عملوا ولايجوز حمل هذا الاسوأ على الكفر السابق لان الظاهر من الآية يدل على أن التكفير انما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك واذا كان كذلك وجب ان يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الايمان فتكون هذه الآية تنصيصا على انه تعالى يكفر عنهم بعد ايمانهم اسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر (الحكم الرابع) انه جرت العادة ان المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى أليس الله بكاف عبده وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والامر كذلك لانه ثبت انه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم بحاجات العباد وقادر على دفعها وابدالها بالخيرات والراحات وهو ليس بخيلا ولامحتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن اعطاء ذلك المراد واذا ثبت هذا كان الظاهر انه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل اليه كل المرادات فلهذا قال أليس الله بكاف عبده ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال ويخوفونك بالذين من دونه يعنى لما ثبت ان الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا قرأ اكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار ابى عبيدة لانه قال له ويخوفونك روى ان قريشا قالت للنبى صلى الله عليه وسلم انا نخاف ان تخبلك آلهتنا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ جماعة عباده بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الانبياء فان نوحا كفاه الغرق وابراهيم النار ويونس بالانجاء مما وقع له فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك وقيل امم الانبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى وهمت كل امة برسولهم وكفاهم الله شر من عاداهم واعلم انه تعالى لما اطنب فى شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال ومن يضلل الله فاله من هاد ومن يهد الله فاله من مضل يعنى هذا الفصل لاينفع والبينات الا اذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله أليس الله بعزيز ذى انتقام تهديد للكفار واعلم ان اصحابنا يتمسكون فى مسئلة خلق الاعمال وارادة الكائنات بقوله ومن يضلل الله فاله من هاد ومن يهد الله فاله من مضل والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم فى هاتين المسئلتين بقوله أليس الله بعزيز ذى انتقام ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به ❁ قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله

قل أرأيتم ماتدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى

المبالغة فيها واما من المكافاة بمعنى المجازاة وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قالت له قريش انا نخاف ان تخبلك آلهتنا ويصيبك مضرتها لعيبك اياها وفى رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا اوليصيبنك منهم خبل اوجنون كما قال قوم هود ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء وذلك قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) اى الاوثان التى اتخذوها آلهة من دونه تعالى والجملة استئناف وقيل حال (ومن يضلل الله) حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام وخوفه بما لاينفع ولا يضر اصلا (فاله من هاد) يهديه الى خير ما (ومن يهد الله فاله من مضل) يصرفه عن مقصده او يصيبه بسوء يخل بسلوكه اذ لاراد لفعله ولا معارض لارادته كما ينطق به قوله تعالى (أليس الله بعزيز) غالب لايغالب منيع لايمانع ولاينازع (ذى انتقام) ينتقم من اعدائه لاوليائه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لوضوح الدليل وسنوح السبيل (قل) تبكيتا لهم (افرأيتم ما تدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) اى بعد ما تحققتم ان خالق العالم العلوى والسفلى هو الله عز وجل فاخبرونى ان آلهتكم ان ارادنى الله بضر هل يكشفن عنى ذلك الضر (او ارادنى

برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم) اعلم انه تعالى لما اطنب فى وعيد المشركين وفى وعد الموحدين عاد الى اقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الاصنام وبنى هذا التزييف على اصلين (الاصل الاول) هو ان هؤلاء المشركين مقرون بوجود الاله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله واعلم ان من الناس من قال ان العلم بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لانزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فان من تأمل فى عجائب احوال السموات والارض وفى عجائب احوال النبات والحيوان خاصة وفى عجائب بدن الانسان ومافيه من انواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم انه لابد من الاعتراف بالاله القادر الحكيم الرحيم (والاصل الثانى) ان هذه الاصنام لاقدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله قل افرأيتم ماتدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره او أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته فثبت انه لابد من الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم وثبت ان هذه الاصنام لاقدرة لها على الخير والشر واذا كان الامر كذلك كانت عبادة الله كافية وكان الاعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون فاذا ثبت هذا الاصل لم يلتفت العاقل الى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الاصل وبالاضافة للتخفيف فان قيل كيف قوله كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله ويخوفونك بالذين من دونه قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فان الانوثة مظنة الضعف ولانهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التى لادافع لها قال بعده على وجه التهديد قل ياقوم اعملوا على مكانتكم اى أنتم تعتقدون فى انفسكم انكم فى نهاية القوة والشدة فاجتهدوا فى انواع مكركم وكيدكم فانى عامل ايضا فى تقرير دينى فسوف تعلمون ان العذاب والخزى يصيبنى او يصيبكم والمقصود منه التخويف ۞ قوله تعالى (انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وماانت عليهم بوكيل الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظم عليه اصرارهم على الكفر كما قال فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا وقال لعلك باخع نفسك الايكونوا مؤمنين وقال تعالى فلاتذهب

برحمة) اى أو أرادنى بنفع (هل هن ممسكات رحمته) فيمنعها عنى وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته وتعليق ارادة الضر والرحمة بنفسه عليه الصلاة والسلام للرد فى نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الاوثان ولما فيه من الايذان بامحاض النصيحة (قل حسبي الله) اى فى جميع امورى من اصابة الخير ودفع الشر *روى انه عليه الصلاة والسلام لما سألهم سكتوا فنزل ذلك (عليه يتوكل المتوكلون) لا على غيره اصلا لعلمهم بان كل ماسواه تحت ملكوته تعالى (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) على حالتكم التى انتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها فان المكانة تستعار من العين للمعنى كما تستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرئ على مكاناتكم (انى عامل) اى على مكانتى فحذف للاختصار والمبالغة فى الوعيد والاشعار بان حاله لاتزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل وتأييده ولذلك توعدهم بكونه منصورا عليهم فى الدارين بقوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه)فان خزى اعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى واخزاهم يوم بدر (ويحل عليه عذاب مقيم) اى دائم هو عذاب النار (انا أنزلنا عليك الكتاب للناس) لاجلهم فانه مناط مصالحهم فى المعاش والمعاد (بالحق) حال من فاعل أنزلنا او من مفعوله (فمن اهتدى) بان عمل بمافيه (فلنفسه)

نفسك عليهم حسرات فلما اطنب الله تعالى فى هذه الآية فى فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الامثال وتارة بذكر الوعيد اردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فقال انا انزلنا عليك هذا الكتاب الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا انزاله مقرونا بالحق وهو المعجز الذى يدل على انه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود اليه ومن ضل فضير ضلاله يعود اليه وما أنت عليهم بوكيل والمعنى انك لست مأمورا بان تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم وذلك لتسلية الرسول فى اصرارهم على الكفر ثم بين تعالى ان الهداية والضلال لا يحصلان الا من الله تعالى وذلك لان الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم وكما ان الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان الا بتخليق الله عز وجل وايجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان الا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ومن عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سببا لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فهذا وجه النظم فى الآية وقيل نظم الآية انه تعالى ذكر حجة اخرى فى اثبات انه الاله العالم ليدل على انه بالعبادة احق من هذه الاصنام (المسئلة الثانية) المقصود من الآية انه تعالى يتوفى الانفس عند الموت وعند النوم الا انه يمسك الانفس التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى وهى النائمة الى أجل مسمى اى الى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها يعنى انه تعالى يتوفى الانفس التى نامت وما ماتت عند منامها وقوله تعالى فيمسك التى قضى عليها الموت يعنى ان النفس التى يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها الى البدن وقوله ويرسل الاخرى الى اجل مسمى يعنى ان النفس التى يتوفاها عند النوم يردها الى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة الى أجل مسمى وذلك الاجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهى مطابقة للحقيقة ولكن لا بد فيه من مزيد بيان فنقول النفس الانسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى اذا تعلق بالبدن حصل ضوءه فى جميع الاعضاء وهو الحياة فنقول انه فى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت واما فى وقت النوم فانه ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوءه عن باطن البدن فثبت ان الموت والنوم من جنس واحد الا ان الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه واذا ثبت هذا ظهر ان القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة اوجه (أحدها) ان يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك هو اليقظة (وثانيها) ان يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) ان يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت ان الموت والنوم يشتركان فى كون كل واحد منهما توفيا للنفس ثم يمتاز احدهما عن الآخر

(بخواص)

اى انما نفع به نفسه (ومن ضل) بان لم يعمل بموجبه (فانما يضل عليها) لما ان وبال ضلاله مقصور عليها (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك الا البلاغ وقد بلغت اى بلاغ (الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) اى يقبضها من الابدان بان يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها اما ظاهرا وباطنا كما عند الموت او ظاهرا فقط كما عند النوم (فيمسك التى قضى عليها الموت) ولا يردها الى البدن وقرئ قضى على البناء للمفعول ورفع الموت (ويرسل الاخرى) اى النائمة الى بدنها عند التيقظ (الى اجل مسمى) هو الوقت المضروب لموته وهو غاية لجنس الارسال الواقع بعد الامساك لا للفرد منه فان ذلك مما لا امتداد فيه ولا كمية وماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هى التى بها العقل والتميز والروح هى التى بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من التوفى على الوجهين والامساك فى احدهما والارسال فى الآخر (لآيات) عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته (لقوم يتفكرون) فى كيفية تعلقها بالابدان وتوفيها عنها تارة بالكلية كما عند الموت وامسا كها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وارسالها حينا بعد حين الى انقضاء آجالها

بخواص معينة فى صفات معينة ومثل هذا التدبير العجيب لايمكن صدوره الاعن القادر العليم الحكيم وهو المراد من قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ويحتمل ان يكون المراد بهذا ان الدليل يدل على ان الواجب على العاقل ان يعبد الها موصوفا بهذه القدرة وبهذه الحكمة وان لايعبد الاوثان التى هى جمادات لاشعور لها ولاادراك واعلم ان الكفار اوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا نحن لانعبد هذه الاصنام لاعتقادانها آلهة تضر وتنفع وانما نعبدها لاجل انها تماثيل لاشخاص كانوا عندالله من المقربين فنحن نعبدها لاجل ان يصير اولئك الاكابر شفعاء لنا عندالله فأجاب الله تعالى بأن قال ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولوكانوا لايملكون شيأ ولايعقلون وتقرير الجواب ان هؤلاء الكفار اماان يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الاصنام اومن اولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الاصنام تماثيل لها (والاول) باطل لان هذه الجمادات وهى الاصنام لاتملك شيأ ولاتعقل شيأ فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثانى) باطل لان فى يوم القيامة لايملك احد شيأ ولايقدر احد على الشفاعة الاباذن الله فيكون الشفيع فى الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة فكان الاشتغال بعبادته اولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى قل لله الشفاعة جميعا ثم بين انه لاملك لاحد غير الله بقوله له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون ومنهم من تمسك فى نفى الشفاعة مطلقا بقوله تعالى قل لله الشفاعة جميعا وهذا ضعيف لانا نسلم انه سبحانه مالم يأذن فى الشفاعة لم يقدر احد على الشفاعة فان قيل قوله الله يتوفى الانفس حين موتها فيه سؤال لان هذا يدل على ان المتوفى هو الله فقط وتأكد هذا بقوله الذى خلق الموت والحياة وبقوله ربى الذى يحيى ويميت وبقوله كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم ان الله تعالى قال فى آية اخرى قل يتوفاكم ملك الموت وقال فى آية ثالثة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وجوابه ان المتوفى فى الحقيقة هو الله الا انه تعالى فوض فى عالم الاسباب كل نوع من انواع الاعمال الى ملك من الملائكة ففوض قبض الارواح الى ملك الموت وهو رئيس وتحته اتباع وخدم فاضيف التوفى فى هذه الآية الى الله تعالى بالاضافة الحقيقية وفى الآية الثانية الى ملك الموت لانه هو الرئيس فى هذا العمل والى سائر الملائكة لانهم هم الاتباع لملك الموت والله اعلم ❊ قوله تعالى (واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذاهم يستبشرون قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ولو ان للذين ظلموا مافى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيآت ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم ان هذا نوع آخر من الاعمال القبيحة للمشركين وهو انك اذا ذكرت الله وحده تقول لا اله الا الله وحده لاشريك له ظهرت آثار النفرة من وجوههم

(ام اتخذوا) اى بل اتخذ قريش (من دون الله) من دون اذنه تعالى (شفعاء) تشفع لهم عنده تعالى (قل أولوكانوا لايملكون شيئا ولايعقلون) الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه اى قل اتتخذونهم شفعاء ولوكانوا لايملكون شيئا من الاشياء ولايعقلونه فضلا عن ان يملكوا الشفاعة عند الله تعالى اوهى لانكار الوقوع وتنبيه على ان المراد بيان ان مافعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء فى شئ لانه فرع كون الاوثان شفعاء وذلك اظهر المحالات فالمقدر حينئذ غير ما قدر اولا وعلى اى تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها اى أيشفعون لو كانوا يملكون شيئا ولوكانوا لايملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقدمر تحقيقه مرارا (قل) بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقا للحق (لله الشفاعة جميعا) اى هو مالكها لايستطيع احد شفاعة ما الا ان يكون المشفوع له مرتضى والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى (له ملك السموات والارض) تقرير له وتأكيد اى له ملكهما ومافيهما من المخلوقات لايملك احد ان يتكلم فى امر من اموره بدون اذنه ورضاه (ثم اليه ترجعون) يوم القيامة لاالى احد سواه لااستقلالا ولااشتراكا فيفعل يومئذ مايريد (واذا ذكر الله وحده) دون آلهتهم (اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) اى انقبضت ونفرت كما فى قوله تعالى واذا ذكرت ربك فى القرآن

وحده ولوا على ادبارهم نفورا (واذا ذكر الذين من دونه) فرادى اومع ذكر الله تعالى (اذاهم يستبشرون) لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ فى بيان حالتيهم القبيحتين حيث بين الغاية فيهما فان الاستبشار هو ان يمتلئ القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز ان يمتلئ غيظا وغما ينقبض منه اديم الوجه والعامل فى اذا الاولى اشمأزت وفى الثانية ماهو العامل فى اذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤا وقت الاستبشار (قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة) اى التجئ اليه تعالى بالدعاء لما تحيرت فى امر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد فانه القادر على الاشياء بجملتها والعالم بالاحوال برمتها (انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) اى حكما يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوى او الاخروى وقوله تعالى (ولو ان للذين ظلموا ما فى الارض جميعا) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذى استدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وغاية شدته وفظاعته اى لو ان لهم جميع ما فى الدنيا من الاموال والذخائر (ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) اى لجعلوا كل ذلك فدية لانفسهم من العذاب الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد واقناط كلى لهم من الخلاص (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) اى ظهر لهم

وقلوبهم واذا ذكرت الاصنام والاوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة فى قلوبهم وصدورهم وذلك يدل على الجهل والحماقة لان ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات واما ذكر الاصنام التى هى الجمادات الخسيسة فهو رأس الجهالات والحماقات فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الاصنام من اقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد قال صاحب الكشاف وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز اذ كل واحد منهما غاية فى بابه لان الاستبشار ان يمتلئ قلبه سرورا حتى يظهر اثر ذلك السرور فى بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز ان يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح الى داخل القلب فيبقى فى اديم الوجه اثر الغبرة والظلمة الارضية ولما حكى عنهم هذا الامر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده اردفه بامرين (احدهما) انه ذكر الدعاء العظيم فوصفه اولا بالقدرة التامة وهى قوله قل اللهم فاطر السموات والارض وثانيا بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة وانما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لان العلم بكونه تعالى قادرا متقدم على العلم بكونه عالما ولما ذكر هذا الدعاء قال انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون يعنى ان نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك امر معلوم الفساد ببديهة العقل ومع ذلك القوم قد اصروا عليه فلا يقدر احد على ازالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل الا انت عن ابى سلمة قال سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك وانك لتهدى من تشاء الى صراط مستقيم واعلم انه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم اشياء (اولها) ان هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما فى الارض من الاموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لانفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون اى ظهرت لهم انواع من العقاب لم تكن فى حسابهم وكما انه صلى الله عليه وسلم قال فى صفة الثواب فى الجنة فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فكذلك فى العقاب حصل مثله وهو قوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (وثالثها) قوله تعالى وبدا لهم سيآت ما كسبوا ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيآت التى اكتسبوها اى ظهرت لهم انواع من العقاب آثار تلك السيآت التى اكتسبوها ثم قال وحاق بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزؤن به فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم ❊ قوله تعالى (فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما اوتيته على علم بل هى فتنة ولكن اكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فاصابهم سيآت ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيآت ما كسبوا وما هم بمعجزين اولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم

(يؤمنون)

يؤمنون) اعلم ان هذا حكاية طريقة اخرى من طرائقهم الفاسدة وذلك لانهم عند الوقوع فى الضر الذى هو الفقر والمرض يفزعون الى الله تعالى و يرون ان دفع ذلك لا يكون الا منه ثم انه تعالى اذا خولهم النعمة وهى اما السعة فى المال او العافية فى النفس زعم انه انما حصل ذلك بكسبه و بسبب جهده وجده فان كان مالا قال انما حصل بكسبى وان كان صحة قال انما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانى وهذا تناقض عظيم لانه كان فى حال العجز والحاجة اضاف الكل الى الله وفى حال السلامة والصحة قطعه عن الله واسنده الى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة فقال بل هى فتنة يعنى النعمة التى خولها هذا الكافر فتنة لان عند حصولها يجب الشكر وعند فواتها يجب الصبر ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من اوتى النعمة كما يقال فتنت الذهب بالنار اذا عرضته على النار لتعرف خلاصته ثم قال تعالى ولكن اكثرهم لا يعلمون والمعنى ما قدمنا ان هذا التخويل انما كان لاجل الاختبار * و بقى فى الآية ابحاث نذكرها فى معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ههنا وعطف مثلها فى اول السورة بالواو والجواب انه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية انهم يشمئزون من سماع التوحيد و يستبشرون بسماع ذكر الشركاء ثم ذكر بفاء التعقيب انهم اذا وقعوا فى الضر والبلاء والتجؤا الى الله تعالى وحده كان الفعل الاول مناقضا للفعل الثانى فذكر فاء التعقيب ليدل على انهم واقعون فى المناقضة الصريحة فى الحال وانه ليس بين الاول والثانى فاصل مع ان كل واحد منهما مناقض للثانى فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب ههنا فاما الآية الاولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال فلا جرم ذكره الله بحرف الواو لا بحرف الفاء (السؤال الثانى) ما معنى التخويل الجواب التخويل هو التفضل يعنى نحن نتفضل عليه وهو يظن انه انما وجده بالاستحقاق (السؤال الثالث) ما المراد من قوله قال انما اوتيته على علم الجواب يحتمل ان يكون المراد انما اوتيته على علم الله بكونى مستحقا لذلك ويحتمل ان يكون المراد انما اوتيته على علمى بكونى مستحقا له ويحتمل ان يكون المراد انما اوتيته على علم لاجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل ان يكون مريضا فيعالج نفسه فيقول انما وجدت الصحة لعلمى بكيفية العلاج وانما وجدت المال لعلمى بكيفية الكسب (السؤال الرابع) النعمة مؤنثة والضمير فى قوله اوتيته عائد على النعمة فضمير التذكير كيف عاد الى المؤنث بل قال بعده بل هى فتنة فجعل الضمير مؤنثا فما السبب فيه والجواب ان التقدير حتى اذا خولناه شيئا من النعمة فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر فلا جرم جاز الامران ثم قال تعالى قد قالها الذين من قبلهم فما اغنى عنهم الضمير فى قالها راجع الى قوله انما اوتيته على علم عندى لانها كلمة او جملة من القول والذين من قبلهم هم قارون وقومه حيث قال انما اوتيته على علم عندى وقومه راضون به

من فنون العقوبات ما لم يكن فى حسابهم وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ونظيره فى الوعد قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة اعين (وبدا لهم سيآت ما كسبوا) سيآت أعمالهم او كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اى أحاط بهم جزاؤه (فاذا مس الانسان ضر دعانا) اخبار عن الجنس بما يفعله غالب افراده والفاء لترتيب ما بعدها من المناقضة والتعكيس على ما مر من حالتيهم القبيحتين وما بينهما اعتراض مؤكد للانكار عليهم اى انهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فاذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره (ثم اذا خولناه نعمة منا) اعطيناه اياها تفضلا فان التخويل مختص به لا يطلق على ما اعطى جزاء (قال انما اوتيته على علم) اى على علم منى بوجوه كسبه او بأنى سأعطاه لما لى من الاستحقاق او على علم من الله تعالى بى وباستحقاق والهاء لما ان جعلت موصولة والا فللنعمة والتذكير لما ان المراد شئ من النعمة (بل هى فتنة اى محنة وابتلاء له أيشكر ام يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للمبالغة فيه والايذان بان ذلك ليس من باب الايتاء المنبئ عن الكرامة وانما هو امر مباين له بالكلية وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النعمة او باعتبار الخبر وقرئ بالتذكير (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الامر كذلك وفيه دلالة على ان المراد بالانسان هو الجنس (قد قالها الذين من قبلهم) الهاء لقوله

فكأنهم قالوها و يجوز ايضا ان يكون فى الامم الخالية قائلون مثلها ثم قال تعالى فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون اى ما اغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل و القول الفاسد الذى اكتسبوه من عذاب الله شيئا بل اصابهم سيئات ما كسبوا و لما بين فى اولئك المتقدمين انهم اصابهم سيئات ما كسبوا اى عذاب عقائدهم الباطلة واقوالهم الفاسدة قال وماهم بمعجزين اى لايعجزوننى فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى أولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر يعنى أولم يعلموا ان الله تعالى هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة و يقبض تارة اخرى وقوله يقدر أى و يقتر و يضيق و الدليل عليه انا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه و لابد له من سبب و ذلك السبب ليس هو عقل الرجل و جهله لانا نرى العاقل القادر فى اشد الضيق و نرى الجاهل المريض الضعيف فى اعظم السعة و ليس ذلك ايضا لاجل الطبائع والانجم والافلاك لان فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر قد ولد فيه ايضا عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الانسان و يولد ايضا فى تلك الساعة عالم من النبات فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة و الشقاوة علمنا انه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع و لما بطلت هذه الاقسام علمنا ان المؤثر فيه هو الله سبحانه وصح بهذا البرهان العقلى القاطع صحة قوله تعالى أولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر قال الشاعر

فلا السعد يقضى به المشترى * ولا النحس يقضى علينا زحل
ولكنه حكم رب السما * وقاضى القضاة تعالى وجل

❁ قوله تعالى (قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لاتشعرون ان تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين او تقول لو ان الله هدانى لكنت من المتقين او تقول حين ترى العذاب لو ان لى كرة فاكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)

اعلم انه تعالى لما اطنب فى الوعيد اردفه بشرح كمال رحمته وفضله واحسانه فى حق العبد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يعفو عن الكبائر فقالوا انابينا فى هذا الكتاب ان عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال عينا يشرب بها عباد الله و لان لفظ العباد مذكور فى معرض التعظيم فوجب ان لايقع الا على المؤمنين اذا ثبت هذا ظهر ان قوله ياعبادى مختص بالمؤمنين و لان المؤمن هو الذى يعترف بكونه عبدالله اما المشركون فانهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح فثبت ان قوله ياعبادى لايليق الا بالمؤمنين اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى قال الذين اسرفوا على انفسهم وهذا

انما اوتيته على علم لانها كلة اوجلة وقرئ بالتذكير والموصول عبارة عن قارون وقومه حيث قال انما اوتيته على علم عندى وهم راضون به (فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيآت ما كسبوا) جزاء سيآت اعمالهم او أجزية ما كسبوا وتسميتها سيآت لانها فى مقابلة سيآتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها (والذين ظلموا من هؤلاء) المشركين ومن للبيان اوللتبعيض اى افرطوا فى الظلم والعتو (سيصيبهم سيآت ما كسبوا) من الكفر والمعاصى كما اصاب اولئك والسين للتأكيد وقد اصابهم اى اصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم بدر (وماهم بمعجزين) اى فائتين (أولم يعلموا) اى أقالوا ذلك ولم يعلموا او أغفلوا ولم يعلموا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء) ان يبسطه له (ويقدر) لمن يشاء ان يقدره له من غير ان يكون لأحد مدخل ما فى ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسطه لهم سبعا (ان فى ذلك) الذى ذكر (لآيات) دالة على ان الحوادث كافة من الله عزوجل (لقوم يؤمنون) اذهم المستدلون بها على مدلولاتها (قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم) اى افرطوا فى الجناية عليها بالاسراف فى المعاصى واضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ماهو عرف القرآن الكريم (لاتقنطوا من رحمة الله) اى لاتيأسوا من مغفرته اولا وتفضله ثانيا (ان الله يغفر الذنوب جميعا) عفوا لمن يشا

عام فى حق جميع المسرفين ثم قال تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وهذا يقتضى كونه غافرا لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين وذلك هو المقصود فان قيل هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها والا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعا وأنتم لا تقولون به فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به والذى تقولون به لا تدل عليه هذه الآية فسقط الاستدلال وايضا انه تعالى قال عقيب هذه الآية وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون الى قوله بغتة وانتم لا تشعرون ولو كان المراد من اول الآية انه تعالى غفر جميع الذنوب قطعا لما أمر عقيبه بالتوبة ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون وايضا قال ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ولو كانت الذنوب كلها مغفورة فأى حاجة به الى ان يقول يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وايضا فلو كان المراد ما يدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك اغراء بالمعاصى واطلاقا فى الاقدام عليها وذلك لا يليق بحكمة الله واذا ثبت هذا وجب ان يحمل على ان يقال المراد منه التنبيه على انه لا يجوز ان يظن العاصى انه لا مخلص له من العذاب البتة فان من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله اذ لا احد من العصاة المذنبين الا ومتى تاب زال عقابه وصار من اهل المغفرة والرحمة فمعنى قوله ان الله يغفر الذنوب جميعا اى بالتوبة والانابة والجواب قوله الآية تقتضى كون كل الذنوب مغفورة قطعا وانتم لا تقولون به قلنا بل نحن نقول به ونذهب اليه وذلك لان صيغة يغفر صيغة المضارع وهى للاستقبال وعندنا ان الله تعالى يخرج من النار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعا اما قبل الدخول فى نار جهنم واما بعد الدخول فيها فثبت ان ما يدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا اما قوله لو صارت الذنوب باسرها مغفورة لما امر بالتوبة فالجواب ان عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم فانا لا نقطع بازالة العقاب بالكلية بل نقول لعله يعفو مطلقا ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الاسئلة والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم ان هذه الآية تدل على رجاء الرحمة من وجوه (الاول) انه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة واللائق بالرحيم الكريم افاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج (الثانى) انه تعالى اضافهم الى نفسه بياء الاضافة فقال يا عبادى الذين أسرفوا وشرف الاضافة اليه يفيد الامن من العذاب (الثالث) انه تعالى قال أسرفوا على أنفسهم ومعناه ان ضرر تلك الذنوب ما عاد اليه بل هو عائد اليهم فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها اليهم ولا حاجة الى الحاق ضرر آخر بهم (الرابع) انه قال لا تقنطوا من رحمة الله نهاهم عن القنوط فيكون هذا امرا بالرجاء والكريم اذا أمر بالرجا فلا يليق به الا الكرم (الخامس) انه تعالى قال أولا يا عبادى وكان الاليق ان يقول لا تقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال لا تقنطوا من رحمة الله لان قولنا الله أعظم اسماء الله واجلها فالرحمة المضافة اليه

ولو بعد حين بتعذيب فى الجملة وبغيره حسبما يشاء وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ظاهر فى الاطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله تعالى (انه هو الغفور الرحيم) على المبالغة وافادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعى عموم المغفرة مما فى عبادى من الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الاسراف بأنفسهم والنهى عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن المغفرة واطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لدلالته على انه المستغنى والمنعم على الاطلاق والتأكيد بالجميع وما روى من اسباب النزول الدالة على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضى اختصاص الحكم بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد فى كلام واحد مثل اكرم الفضلاء اكرم الكاملين غير مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الامر بالتوبة والاخلاص فى قوله تعالى (وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) اذ ليس المدعى ان الآية تدل على حصول المغفرة لكل احد من غير توبة وسبق تعذيب لتغنى عن الامر بهما وتنافى الوعيد بالعذاب (واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم) اى القرآن او المأمور به دون المنهى عنه او العزائم دون الرخص او الناسخ دون المنسوخ ولعله ما هو انجى واسلم كالانابة والمواظبة على الطاعة (من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون) بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له (أن تقول نفس) اى كراهة أن تقول والتنكير للتكثير كما فى قوله تعالى علمت نفس

يجب ان تكون اعظم انواع الرحمة والفضل (السادس) انه لما قال لاتقنطوا من رحمة الله كان الواجب ان يقول انه يغفر الذنوب جميعا ولكنه لم يقل ذلك بل اعاد اسم الله وقرن به لفظة ان المفيدة لاعظم وجوه التأكيد وكل ذلك يدل على المبالغة فى الوعد بالرحمة (السابع) انه لو قال يغفر الذنوب لكان المقصود حاصلا لكنه اردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعا وهذا ايضا من المؤكدات (الثامن) انه وصف نفسه بكونه غفورا ولفظ الغفور يفيد المبالغة (والتاسع) انه وصف نفسه بكونه رحيما والرحمة تفيد فائدة زائدة على المغفرة فكان قوله انه هو الغفور اشارة الى ازالة موجبات العقاب وقوله الرحيم اشارة الى تحصيل موجبات الرحمة والثواب (العاشر) ان قوله انه هو الغفور الرحيم يفيد الحصر ومعناه انه لاغفور ولا رحيم الا هو وذلك يفيد الكمال فى وصفه سبحانه بالغفران والرحمة فهذه الوجوه العشرة مجموعة فى هذه الآية وهى باسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب النزول وجوها قيل انها نزلت فى اهل مكة فانهم قالوا يزعم محمد ان من عبد الاوثان وقتل النفس لم يغفر له وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة لما اراد ان يسلم وخاف ان لاتقبل توبته فلما نزلت الآية اسلم فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة ام للمسلمين عامة فقال بل للمسلمين عامة وقيل نزلت فى اناس اصابوا ذنوبا عظاما فى الجاهلية فلما جاء الاسلام اشفقوا ان لايقبل الله توبتهم وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين اسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وكان المسلمون يقولون فيهم لايقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر وبعث بها اليهم فاسلموا وهاجروا واعلم ان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فنزول هذه الآيات فى هذه الوقائع لايمنع من عمومها (المسئلة الرابعة) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ياعبادى بفتح الياء والباقون وعاصم فى بعض الروايات بغير فتح وكلهم يقفون عليه باثبات الياء لانها ثابتة فى المصحف الا فى بعض رواية أبى بكر عن عاصم انه يقف بغير ياء وقرأ ابو عمرو والكسائى تقنطوا بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان قال صاحب الكشاف وفى قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ثم قال تعالى وأنيبوا الى ربكم قال صاحب الكشاف اى وتوبوا اليه واسلموا له اى واخلصوا له العمل وانما ذكر الانابة على اثر المغفرة لئلا يطمع طامع فى حصولها بغير توبة وللدلالة على انها شرط فيها لازم لاتحصل بدونه واقول هذا الكلام ضعيف جدا لان عندنا التوبة عن المعاصى واجبة فلم يلزم من ورود الامر بها طعن فى الوعد بالمغفرة فان قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلا قطعا لما احتيج الى التوبة لان التوبة انما تراد لاسقاط العقاب فاذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة الى التوبة فنقول هذا ضعيف لان مذهبنا انه تعالى وان كان يغفر الذنوب قطعا ويعفو عنها قطعا الا ان هذا العفو والغفران يقع على وجهين

ماأحضرت فانه مسلك ربما يسلك عند ارادة التكثير والتعميم وقد (٢٧٢) مر تحقيقه فى مطلع سورة الحجر (ياحسرتا) بالالف بدلا من ياء الاضافة وقرى ياحسرتاه بهاء السكت وقفا وقرى ياحسرتاى بالجمع بين العوضين وقرى ياحسرتى على الاصل اى احضرى فهذا أوان حضورك (على مافرطت) اى على تفريطى وتقصيرى (فى جنب الله) اى جانبه وفى حقه وطاعته وعليه قول من قال

أماتتقين الله فى جنب وامق ... له كبد حرى وعين ترقرق

وهو كناية فيها مبالغة وقيل فى ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة وقيل فى قربه من قوله تعالى والصاحب بالجنب وقرئ فى ذكر الله (وان كنت لمن الساخرين) اى المستهزئين بدين الله تعالى واهله ومحل الجملة النصب على الحال اى فرطت وانا ساخر (او تقول لو ان الله هدانى) بالارشاد الى الحق (لكنت من المتقين) الشرك والمعاصى (او تقول حين ترى العذاب لو ان لى كرة) رجعة الى الدنيا (فأكون من المحسنين) فى العقيدة والعمل واو للدلالة على انها لاتخلو عن هذه الاقوال تحسرا وتحيرا وتعللا بما لاطائل تحته وقوله تعالى (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) رد من الله تعالى عليه لما تضمنه قوله لو ان الله هدانى من معنى النفى وفصله عنه لما ان تقديمه يفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودى لانه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لايمنع تأثير قدرة الله تعالى فى فعل العبد ولا مافيه من اسناد الفعل اليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى

تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة فى النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه ففائدة التوبة ازالة هذا العقاب فثبت ان الذى قاله صاحب الكشاف ضعيف ولا فائدة فيه ثم قال واتبعوا أحسن ماانزل اليكم من ربكم واعلم انه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء (فالاول) امر بالانابة وهو قوله تعالى وانيبوا الى ربكم (والثانى) أمر بمتابعة الاحسن وفى المراد بهذا الاحسن وجوه (الاول) انه القرآن ومعناه واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى الله نزل احسن الحديث كتابا (الثانى) قال الحسن معناه والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله فان الذى انزل على ثلاثة اوجه ذكر القبيح ليجتنب عنه والادون لئلا يرغب فيه والاحسن ليتقوى به ويتبع (الثالث) المراد بالاحسن الناسخ دون المنسوخ لان الناسخ احسن من المنسوخ لقوله تعالى ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها ولان الله تعالى لما نسخ حكما واثبت حكما آخر كان اعتمادنا على الناسخ احسن لنا من اعتمادنا على المنسوخ ثم قال من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لاتشعرون والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى انه يفجأ العذاب وانتم غافلون عنه واعلم انه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى ان بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة انواع من الكلمات (فالاول) قوله تعالى ان تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ان تقول مفعول له اى كراهة ان تقول ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله واما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان (الاول) يجوز ان تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لاجل اختصاصها بمزيد اضرار بما لاينبغى رغبتها فى المعاصى (والثانى) يجوز ان يراد به الكثرة وذلك لانه ثبت فى علم اصول الفقه ان الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف فقوله ياحسرتا يدل على غاية الاسف ونهاية الحزن وانه مذكور عقيب قوله تعالى على مافرطت فى جنب الله والتفريط فى طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضى حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط وذلك يفيد العموم بهذا الطريق (المسئلة الثانية) القائلون باثبات الاعضاء لله تعالى استدلوا على اثبات الجنب بهذه الآية واعلم ان دلائلنا على نفى الاعضاء قد كثرت فلافائدة فى الاعادة ونقول بتقدير ان يكون المراد من هذا الجنب عضوا مخصوصا لله تعالى فانه يمتنع وقوع التفريط فيه فثبت انه لابد من المصير الى التأويل وللمفسرين فيه عبارات قال ابن عباس يريد ضيعت من ثواب الله وقال مقاتل ضيعت من ذكر الله وقال مجاهد فى امر الله وقال الحسن فى طاعة الله وقال سعيد ابن جبير فى حق الله واعلم ان الاكثار من هذه العبارات لايفيد شرح الصدور وشفاء الغليل فنقول الجنب سمى جنبا لانه جانب من جوانب ذلك الشئ والشئ الذى يكون من لوازم الشئ وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه

وقرئ بالتأنيث (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) بأن وصفوه بما لايليق بشأنه كاتخاذ الولد (وجوههم مسودة) بما ينالهم من الشدة اوبما يتخيل عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفى فيها بالضمير عن الواو على أن الرؤية بصرية اومفعول ثان لها على انها عرفانية (أليس فى جهنم مثوى) اى مقام (للمتكبرين) عن الايمان والطاعة وهو تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك (وينجى الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصى اى من جهنم وقرئ ينجى من الانجاء (بمفازتهم) مصدر ميمى امامن فاز بالمطلوب اى ظفر به والباء متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب اى ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذى هو الجنة وقوله تعالى (لايمسهم السوء ولاهم يحزنون) اماحال اخرى من

المشابهة بين الجنب الذى هو العضو وبين مايكون لازما للشئ وتابعا له لاجرم حسن اطلاق لفظ الجنب على الحق والامر والطاعة قال الشاعر

أما تتقين الله فى جنب وامق * له كبد حرا عليك تقطع

(المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ ياحسرتى على الاصل وياحسرتاى على الجمع بين العوض والمعوض عنه واما قوله تعالى وان كنت لمن الساخرين اى انه ما كان مكتفيا بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين قال قتادة لم يكفه ان ضيع طاعة الله حتى سخر من اهلها ومحل وان كنت نصب على الحال كأنه قال فرطت فى جنب الله وأنا ساخر اى فرطت فى حال سخريتى (النوع الثانى) من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن اهل العذاب انهم يذكرون بعد نزول العذاب عليهم قوله أو تقول لو ان الله هدانى لكنت من المتقين (النوع الثالث) قوله او تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين وحاصل الكلام ان هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء (أولها) الحسرة على التفريط فى الطاعة (وثانيها) التعلل بفقد الهداية (وثالثها) تمنى الرجعة ثم اجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل لان الهداية كانت حاضرة والاعذار زائلة وهو المراد بقوله بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج بلى جواب النفى وليس فى الكلام لفظ النفى الا أنه حصل فيه معنى النفى لان معنى قوله لو ان الله هدانى انه ماهدانى فلا جرم حسن ذكر لفظة بلى بعده (المسئلة الثانية) قال الواحدى رحمه الله القراءة المشهورة واقعة على التذكير فى قوله بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين لان النفس تقع على الذكر والانثى فخوطب المذكور وروى الربيع بن انس عن ام سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على التأنيث قال ابو عبيد لو صح هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم لكان حجة لايجوز لاحد تركها ولكنه ليس بمسند لان الربيع لم يدرك ام سلمة واما وجه التأنيث فهو انه ذكر النفس ولفظ النفس ورد فى القرآن فى اكثر الامر على التأنيث بقوله سولت لى نفسى وان النفس لأمارة بالسوء ويا أيتها النفس المطمئنة (المسئلة الثالثة) قال القاضى هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه (الاول) انه لايقال فلان اسرف على نفسه على وجه الذم الا لما يكون من قبله وذلك يدل على ان افعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله تعالى (وثانيها) ان طلب الغفران والرجاء فى ذلك او اليأس لايحسن الا اذا كان الفعل فعل العبد (وثالثها) اضافة الانابة والاسلام اليه من قبل ان يأتيه العذاب وذلك لايكون الا مع تمكنه من محاولتهما قبل نزول العذاب ومذهبهم ان الكافر لم يتمكن قط من ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتبعوا احسن ماانزل اليكم من ربكم وذلك لايتم الا بما هو المختار للاتباع (وخامسها) ذمه لهم على انهم لايشعرون بما يوجب العذاب وذلك لايصح الا مع التمكن

الموصول أو من ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم اوفوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن وامامن فازمنه اى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لايمسهم الى آخره تفسير وبيان لمفازتهم اى ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم اى بنفى السوء والحزن عنهم او للسببية اما على حذف المضاف أى ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقواهم كما يشعر به ايراده فى حيز الصلة واما على اطلاق المفازة على سببها الذى هو التقوى وليس المراد نفى دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مرارا (الله خالق كل شئ) من خير وشر وايمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لاسبابها (وهو على كل شئ وكيل) يتولى التصرف فيه كيفما يشاء (له مقاليد السموات والارض) لايملك امرها ولايتمكن من التصرف فيها غيره وهو عبارة عن قدرته

من الفعل (وسادسها) قولهم ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه الا وكان يصح منه ان يفعله (وسابعها) قوله تعالى على مافرطت فى جنب الله ومن لايقدر على الايمان كما يقول القوم ولا يكون الايمان من فعله لايكون مفرطا (وثامنها) ذمه لهم بأنهم من الساخرين وذلك لايتم الا ان تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم ان لايفعلوه (وتاسعها) قوله لوان الله هدانى اى مكننى لكنت من المتقين وعلى قولهم اذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه (وعاشرها) قوله لوان لى كرة فأكون من المحسنين وعلى قولهم لو رده الله أبدا كرة بعد كرة وليس فيه الاقدرة الكفر لم يصح ان يكون محسنا (والحادى عشر) قوله تعالى موبخا لهم بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين فبين تعالى ان الحجة عليهم لله لا ان الحجة لهم على الله ولو ان الامر كما قالوا لكان لهم ان يقولوا قد جاءنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها (والثانى عشر) انه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على جهة الذم ولو لم تكن هذه الاشياء افعالا لهم لما صح هذا الكلام (والجواب) عنه ان هذه الوجوه معارضة بما ان القرآن مملوء من ان الله تعالى هو الذى يضل ويمنع ويصدر منه اللين والقسوة والاستدراج ولما كان هذا التفسير مملوأ منه لم يكن الى الاعادة حاجة ❊ قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولاهم يحزنون) اعلم ان هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد اما الوعيد فقوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وفيه بحثان (احدهما) ان هذا التكذيب كيف هو (والثانى) ان هذا السواد كيف هو اما الاول وهو البحث عن حقيقة هذا التكذيب فنقول المشهور ان الكذب هو الاخبار عن الشئ على خلاف ماهو عليه ومنهم من قال هذا القدر لايكون كذبا بل الشرط فى كونه كذبا ان يقصد الاتيان بخبر يخالف المخبر عنه اذا عرفت هذا الاصل فنذكر أقوال الناس فى هذه الآية قال الكعبى ويرد الجبر بان هذه الآية قد وردت فى المجبرة ثم قال والدليل على ان الامر كذلك ان هذه الآية وردت عقيب قوله لو ان الله هدانى يعنى انه ماهدانى بل اضلنى فلما حكى الله هذا عن الكفار ثم ذكر عقيبه ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وجب ان يكون هذا عائدا الى ذلك الكلام المتقدم ثم روى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مابال اقوام يصلون ويقرؤن القرآن يزعمون ان الله كتب الذنوب على العباد وهم كذبة على الله والله مسود وجوههم واعلم ان اصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لانه تعالى قال فى آخر الآية أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وهذا يدل على ان اولئك الذين صارت وجوههم مسودة اقوام متكبرون والتكبر لايليق بمن يقول انا لااقدر على الخلق والاعادة والايجاد وانما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى اما الذين

تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لان الخزائن لايدخلها ولايتصرف فيها الا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقليد او مقلاد من قلدته اذا الزمته وقيل جمع اقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن عثمان رضى الله عنه انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال عليه الصلاة والسلام تفسيرها لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير والمعنى على هذا ان لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خير السموات والارض من تكلم بها اصابه (والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون) متصل بماقبله والمعنى ان الله تعالى خالق لجميع الاشياء ومتصرف فيها كيفما يشاء بالاحياء والاماتة

يقولون ان الله يريد شيئا وانا اريد بضده فيحصل مرادي ولا يحصل مراد الله فالتكبر بهذا القائل أليق فثبت ان هذا التأويل الذى ذكروه فاسد ومن الناس من قال ان هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ومنهم من قال انه مختص بمشركى العرب قال القاضى يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق نفيا واثباتا فأضاف اليه ما يجب تنزيهه عنه اونزهه عما يجب ان يضاف اليه فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية لانهم كلهم كذبوا على الله فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة او اليهود والنصارى لايجوز واعلم أنا لو اجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضى لزمه تكفير الامة لانك لاترى فرقة من فرق الامة الا وقد حصل بينهم اختلاف شديد فى صفات الله تعالى ألاترى أنه حصل الاختلاف بين ابى هاشم وأهل السنة فى مسائل كثيرة من صفات الله تعالى ويلزم على قانون قول القاضى تكفير احدهما فثبت انه يجب أن يحمل الكذب المذكور فى الآية على ماذا قصد الاخبار عن الشئ مع انه يعلم أنه كاذب فيما يقول ومثال هذا كفار قريش فانهم كانوا يصفون تلك الاصنام بالالهية مع انهم كانوا يعلمون بالضرورة كونها جادات وكانوا يقولون ان الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام مع انهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا وكان قائله عالما بأنه كذب واذا كان كذلك فالحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل كان مناسبا اما من لم يقصد الا الحق والصدق لكنه اخطأ بعد الحاق هذا الوعيد به (البحث الثانى) الكلام فى كيفية السواد الحاصل فى وجوههم والاقرب انه سواد مخالف لسائر انواع السواد وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله واقول ان الجهل ظلمة والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم اوجب سواد وجوههم وتحت هذا الكلام اسرار عميقة من مباحث احوال القيامة فلما ذكر الله هذا الوعيد اردفه بالوعد فقال وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم الآية قال القاضى المراد به من اتقى كل الكبائر اذ لايوصف بالاتقاء المطلق الامن كان هذا حاله فيقال له امرك عجيب جدا فانك قلت لما تقدم قوله تعالى لو ان الله هدانى لكنت من المتقين وجب أن يحمل قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة على الذين قالوا لو أن الله هدانى فعلى هذا القانون لما تقدم قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ثم قال تعالى بعده وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب فهذا يقتضى ان كل من لم يتصف بذلك الكذب أن يدخل تحت الوعد المذكور بقوله وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم وان يكون قولك الذين اتقوا المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسدا فثبت ان التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة بل الحق أن نقول المتقى هو الآتى بالاتقاء والآتى بالاتقاء فى صورة واحدة آت بمسمى الاتقاء وبهذا الحرف قلنا الامر المطلق لايفيد التكرار ثم ذلك الاتقاء

(غير)

بيده مقاليد العالم العلوى والسفلى والذين كفروا بآياته التكوينية المنصوبة فى الآفاق والانفس والتنزيلية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانا لاخسار وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجى الله وما بينهما اعتراض فتدبر (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) أى أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله اعبد وتأمرونى اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بالهك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما يدل عليه تأمرونى أعبد لانه بمعنى تعبدوننى وتقولون لى اعبد على ان اصله تأمروننى ان اعبد فحذف أن ورفع ما بعدها كما فى قوله ألا أيهذا الزاجرى احضر الوغى • وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدى • ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرئ تأمروننى باظهار النونين على

غير مذكور بعينه فى هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشئ الذى سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى فثبت ان ظاهر الآية يقتضى ان من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم ثم قال تعالى بمفازتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وابوبكر عن عاصم بمفازاتهم على الجمع والباقون بمفازتهم على التوحيد وحكى الواحدى عن الفراء انه قال كلاهما صواب اذ يقال فى الكلام قد تبين امر القوم وامور القوم قال ابو على الفارسى الافراد للمصدر ووجه الجمع ان المصادر قد تجمع اذا اختلفت اجناسها كقوله تعالى وتظنون بالله الظنونا ولاشك ان لكل متق نوعا آخر من المفازة (المسئلة الثانية) المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة فكان المعنى ان النجاة فى القيامة حصلت بسبب فوزهم فى الدنيا بالطاعات والخيرات فعبر عن الفوز باوقاتها ومواضعها ثم قال لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون والمراد انه كالتفسير لتلك النجاة كأنه قيل كيف ينجيهم فقيل لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون وهذه كلمة جامعة لانه اذا علم انه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى فحينئذ يظهر انه سلم عن كل الآفات ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب فى القيامة وتأكد هذا بقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر * قوله تعالى (الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل له مقاليد السموات والارض والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون قل أفغير الله تأمرونى اعبد ايها الجاهلون ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) واعلم انه لما اطال الكلام فى شرح الوعد والوعيد عاد الى دلائل الالهية والتوحيد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا فى سورة الانعام ان اصحابنا تمسكوا بقوله تعالى الله خالق كل شئ على ان اعمال العباد مخلوقة لله تعالى واطنبنا هناك فى الاسئلة والاجوبة فلا فائدة ههنا فى الاعادة الا ان الكعبى ذكر ههنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها فقال ان الله تعالى مدح نفسه بقوله الله خالق كل شئ وليس من المدح ان يخلق الكفر والقبائح فلا يصح ان يحتج المخالف به وايضا فلم يكن فى صدر هذه الامة خلاف فى اعمال العباد بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة فى خلق الامراض والسباع والهوام فأراد الله تعالى ان يبين انه اجمع من خلقه وايضا لفظة كل قد لا توجب العموم لقوله تعالى وأوتيت من كل شئ تدمر كل شئ وايضا لو كانت اعمال العباد من خلق الله لما اضافها اليهم بقوله كفارا حسدا من عند انفسهم ولما صح قوله ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ولما صح قوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا فهذا جملة ما ذكره الكعبى فى تفسيره وقال الجبائى الله خالق كل شئ سوى افعال خلقه التى صح فيها الامر والنهى واستحقوا بها الثواب والعقاب ولو كانت

الاصل وبحذف الثانيه (ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك) اى من الرسل عليهم السلام (لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل واقناط الكفرة والايذان بغاية شناعة الاشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن ان يباشره فكيف بمن عداه وافراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الاولى موطئة للقسم والاخريان للجواب واطلاق الاحباط يحتمل ان يكون من خصائصهم عند الاشراك منهم لان الاشراك منهم اشد واقبح وان يكون مقيدا بالموت كما صرح به فى قوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب (بل الله فاعبد) رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك (وكن من

افعالهم خلقالله تعالى ماجاز ذلك فيه كما لايجوز مثله فى ألوانهم وصورهم وقال ابومسلم الخلق هو التقدير لاالايجاد فاذا أخبر الله عن عباده انهم يفعلون الفعل الفلانى فقد قدر ذلك الفعل فيصح ان يقال انه تعالى خلقه وان لم يكن موجداله واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قدذكرناه بالاستقصاء فى سورة الانعام فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضع من هذا الكتاب والله اعلم اماقوله تعالى وهو على كل شئ وكيل فالمعنى ان الاشياء كلهاموكولة اليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولامشارك وهذا أيضا يدل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لان فعل العبد لووقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول الى الله تعالى فلم يكن الله تعالى وكيلا عليه وذلك ينافى عموم الآية ثم قال تعالى له مقاليد السموات والارض والمعنى انه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لان حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها ومنه قولهم فلان القيت مقاليد الملك اليه وهى المفاتيح قال صاحب الكشاف ولا واحد لها من لفظها وقيل مقليد ومقاليد وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح وقيل اقليد وأقاليد قال صاحب الكشاف والكلمة اصلها فارسية الا ان القوم لما عربوها صارت عربية واعلم ان الكلام فى تفسير قوله له مقاليد السموات والارض قريب من الكلام فى قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب وقدسبق الاستقصاء هناك قيل سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله مقاليد السموات والارض فقال ياعثمان ماسألنى عنها احدقبلك تفسيرها لااله الاالله والله اكبر سبحان الله وبحمده استغفر الله ولاحول ولاقوة الابالله هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير هكذا نقله صاحب الكشاف ثم قال تعالى والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) صريح الآية يقتضى انه لاخاسر الا الكافر وهذا يدل على ان كل من لم يكن كافرا فانه لابد وان يحصل له حظ من رحمة الله (المسئلة الثانية) اورد صاحب الكشاف سؤالا وهو انه بم اتصل قوله والذين كفروا واجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى وينجى الله الذين اتقوا اى ينجى الله المتقين بمفازتهم والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون واعترض مابينهما انه خالق للاشياء كلها وان له مقاليد السموات والارض واقول هذا عندى ضعيف من وجهين (الاول) ان وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد (الثانى) ان قوله وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم جملة فعلية وقوله والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لايجوز بل الاقرب عندى ان يقال انه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الالهية والجلالية وهو كونه خالقا للاشياء كلها وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض بأسرها قال بعده والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة اولئك هم الخاسرون ثم قال تعالى قل أفغير الله تأمرونى اعبد ايها الجاهلون وفيه مسائل

الشاكرين) انعامه عليك وفيه اشارة الى مايوجب الاختصاص ويقتضيه (وماقدروا الله حق قدره) ماقدروا عظمته تعالى فى أنفسهم حق عظمته حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لايليق بشؤنه الجليلة وقرئ بالتشديد (والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الافعال العظام التى تتحير فيها الاوهام بالنسبة الى قدرته تعالى ودلالة على ان تخريب العالم أهون شئ عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهى المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرئ بالنصب على الظرف تشبيها للموقت بالمبهم وتأكيد الارض بالجميع لان المراد بها الارضون

(المسئلة)

(المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر تأمرونني بنونين ساكنة الياء وكذلك هي في مصاحف الشام قال الواحدي وهو الاصل وقرأ ابن كثير تأمروني بنون مشددة على اسكان الاولى وادغامها في الثانية وقرأ نافع تأمروني بنون واحدة خفيفة على حذف احدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (المسئلة الثانية) أفغير الله منصوب بأعبد وتأمروني اعتراض ومعناه أفغير الله اعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون استلم بعض آلهتنا ونؤمن بالهك واقول نظير هذه الآية قوله تعالى قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وقد ذكرنا في تلك الآية وجه الحكمة في تقديم الفعل (المسئلة الثالثة) انما وصفهم بالجهل لانه تقدم وصف الاله بكونه خالقا للاشياء وبكونه مالكا لمقاليد السموات والارض وظاهر كون هذه الاصنام جمادات انها لا تضر ولا تنفع ومن اعرض عن عبادة الاله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة واشتغل بعبادة هذه الاجسام الخسيسة فقد بلغ في الجهل مبلغا لا مزيد عليه فلهذا السبب قال ايها الجاهلون ولا شك ان وصفهم بهذا الامر لائق بهذا الموضع ثم قال تعالى ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين واعلم ان الكلام التام مع الدلائل القوية والجواب عن الشبهات في مسئلة الاحباط قد ذكرناه في سورة البقرة فلا نعيده قال صاحب الكشاف قرئ ليحبطن عملك على البناء للمفعول وقرئ بالياء والنون أي ليحبطن الله او الشرك وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) كيف اوحي اليه والى من قبله حال شركه على التعيين والجواب تقدير الآية اوحي اليك لئن اشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك مثله أو أوحي اليك والى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة اي كل واحد منا (السؤال الثاني) ما الفرق بين اللامين الجواب الاولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب (السؤال الثالث) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى ان رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم والجواب ان قوله لئن أشركت ليحبطن عملك قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها ألا ترى ان قولك لو كانت الخمسة زوجا لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع ان كل واحد من جزأيها غير صادق قال الله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا (السؤال الرابع) ما معنى قوله ولتكونن من الخاسرين والجواب كما ان طاعات الانبياء والرسل افضل من طاعات غيرهم فكذلك القبائح التي تصدر عنهم فانها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات فكان المعنى ضعف الشر الحاصل منه وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جانب غضب الله اقوى واعظم واعلم انه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال بل الله فاعبد وكن من الشاكرين والمقصود منه رد ما امروه به من الاستلام ببعض آلهتهم كأنه قال انكم تأمرونني بأن لا اعبد الا غير الله

السبع او جميع ابعاضها البادية والغائرة وقرئ مطويات على انها حال والسموات معطوفة على الارض منظومة في حكمها (سبحانه وتعالى عما يشركون) ما ابعد وما اعلى من هذه قدرته وعظمته عن اشراكهم او عما يشركونه من الشركاء (ونفخ في الصور) هي النفخة الاولى (فصعق من في السموات ومن في الارض) اي خروا امواتا او مغشيا عليهم (الا من شاء الله) قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل فانهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش (ثم نفخ فيه اخرى) نفخة اخرى هي النفخة الثانية واخرى يحتمل النصب والرفع (فاذا هم قيام) قائمون من قبورهم او متوقفون وقرئ بالنصب على ان الخبر (ينظرون) وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون ابصارهم في الجوانب كالمبهوتين او ينتظرون ما يفعل بهم (واشرقت الارض بنور ربها) بما اقام فيها

لان قوله قل أفغير الله تأمرونى اعبد يفيد انهم عينوا عليه عبادة غير الله فقال الله انهم بئسما قالوا ولكن انت على الضد مما قالوا فلاتعبد الا الله وذلك لان قوله بل الله فاعبد يفيد الحصر ثم قال وكن من الشاكرين على ماهداك الى انه لايجوز الاعبادة الاله القادر على الاطلاق العليم الحكيم وعلى ماأرشدك الى انه يجب الاعراض عن عبادة كل ماسوى الله ✽ قوله تعالى (وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الامن شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذاهم قيام ينظرون واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون ووفيت كل نفس ماعملت وهواعلم بمايفعلون) واعلم انه تعالى لماحكى عن المشركين انهم امروا الرسول بعبادة الاصنام ثم انه تعالى اقام الدلائل على فساد قولهم وامر الرسول بأن يعبدالله ولايعبد شيئاآخر سواه بين انهم لوعرفوا الله حق معرفته لماجعلوا هذه الاشياء الخسيسة مشاركةله فى المعبودية فقال وماقدروا الله حق قدره وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج بعض الناس بهذه الآية على ان الخلق لايعرفون حقيقة الله قالوا لان قوله وماقدروا الله حق قدره يفيد هذا المعنى الا انا ذكرنا ان هذا صفة حال الكفار فلايلزم من وصف الكفار بأنهم ماقدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك فسقط هذا الكلام (المسئلة الثانية) قوله وماقدروا الله حق قدره اى ماعظموه حق تعظيمه وهذه الآية مذكورة فى سور ثلاث فى سورة الانعام وفى سورة الحج وفى هذه السورة واعلم انه تعالى لمابين بانهم ماعظموه تعظيما لائقابه اردفه بمايدل على كمال عظمته ونهاية جلالته فقال والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه قال القفال وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة كقول القائل وماقدرتنى حق قدرى وانا الذى فعلت كذا وكذا اى لماعرفت ان حالى وصفتى هذا الذى ذكرت فوجب ان لاتحطنى عن قدرى ومنزلتى ونظيره قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم اى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه فكذا ههنا والمعنى وماقدروا الله حق قدره اذزعموا ان له شركاء وانه لايقدر على احياء الموتى مع ان الارض والسموات فى قبضته وقدرته قال صاحب الكشاف الغرض من هذا الكلام اذا اخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولابااليمين الى جهة حقيقة اوجهة مجاز وكذلك ماروى ان يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياأباالقاسم ان الله يمسك السموات يوم القيامة على اصبع والارضين على اصبع والجبال على اصبع والشجر على اصبع والثرى على اصبع وسائر الخلق على اصبع ثم يهزهن فيقول انا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال قال صاحب الكشاف وانما ضحك افصح العرب لانه لم يفهم منه الامايفهمه

من العدل استعيرله النور لانه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفى الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك اضيف الاسم الجليل الى ضمير الارض اوبنور خلقه فيها بلاتوسط اجسام مضيئة ولذلك اضيف الى الاسم الجليل (ووضع الكتاب) الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه او صحائف الاعمال فى ايدى العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف (وجئ بالنبيين والشهداء) للامم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل المستشهدون (وقضى بينهم) وبين العباد (بالحق وهم لايظلمون) بنقص ثواب اوزيادة عقاب على ماجرى بدالوعد (ووفيت كل نفس ماعملت) اى جزاءه (وهو اعلم بما يفعلون) فلا يفوته شئ من افعالهم

علماء البيان من غير تصور امساك ولا اصبع ولا هز ولا شئ من ذلك ولكن فهمه وقع اول كل شئ وآخره على الزبدة والخلاصة التى هى الدلالة على القدرة الباهرة وان الافعال العظام التى تتحير فيها الاوهام ولا تكتنهها الاذهان هينة عليه قال ولا نرى بابا فى علم البيان ادق والطف من هذا الباب فيقال له هل تسلم ان الاصل فى الكلام حمله على الحقيقة وانه انما يعدل عن الحقيقة الى المجاز عند قيام الدلالة على ان حمله على حقيقته ممتنع فحينئذ يجب حمله على المجاز فان انكر هذا الاصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن ان يكون حجة فان لكل احد ان يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا احمل الآية على ذلك المقصود ولا التفت الى الظواهر مثاله من تمسك بالآيات الواردة فى ثواب اهل الجنة وعقاب اهل النار قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين وانا احمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا اثبت الاكل والشرب ولا سائر الاحوال الجسمانية ومن تمسك بالآيات الواردة فى اثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه ايجاب تنوير القلب بذكر الله فأنا اكتفى بهذا القدر ولا اوجب هذه الاعمال المخصوصة واذا عرفت الكلام فى هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الاصولية والفروعية وحينئذ يخرج القرآن عن ان يكون حجة فى المسائل الاصولية والفروعية وذلك باطل قطعا واما ان سلم ان الاصل فى علم القرآن ان يعتقد ان الاصل فى الكلام حمله على حقيقته فان قام دليل منفصل على انه يتعذر حمله على حقيقته فحينئذ يتعين صرفه الى مجازه فان حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه الى مجاز معين الا اذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة فى الجارحة المخصوصة ولا يمكنك ان تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى الا اذا أقمت الدلالة على ان حمل هذه الالفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات ثم تبين بالدليل ان المعنى الفلانى يصح جعله مجازا عن تلك الحقيقة ثم تبين بالدليل ان هذا المجاز اولى من غيره واذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذى عليه تعويل اهل التحقيق فأنت ما أتيت فى هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب بل هو عين ما ذكره اهل التحقيق فثبت ان الفرح الذى اظهره من انه اهتدى الى الطريق الذى لم يعرفه غيره طريق فاسد دال على قلة وقوفه على المعانى ولنرجع الى الطريق الحقيقى فنقول لاشك ان لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الاعضاء والجوارح الا ان الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الاعضاء والجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الاعضاء على وجوه المجاز فنقول انه يقال فلان فى قبضة فلان اذا كان تحت تدبيره وتسخيره قال تعالى الا على ازواجهم اوماملكت ايمانهم والمراد منه كونه مملوكا له ويقال هذه الدار فى يد فلان وفلان صاحب اليد والمراد من الكل القدرة والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته ولا يريدون الا خلوص ملكه واذا ثبت تعذر حمل هذه

وقوله تعالى وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها اى سيقوا اليها بالعنف والاهانة افواجا متفرقة بعضها فى اثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت اذ الجماعة لاتخلو عنه (حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها) ليدخلوها وحتى هى التى تحكى بعدها الجملة وقرئ بالتشديد (وقال

الالفاظ على حقائقهـا وجب حلها على مجازاتها صونا لهذه النصوص عن التعطيل فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا البـاب ولنا كتاب مفرد فى اثبات تنزيه الله تعـالى عن الجسمية والمكان سميناه (بتأسيس التقديس) من اراد الاطناب فى هذا الباب فليرجع اليه (المسئلة الثالثة) فى تفسـير الفاظ الآية قوله والارض المراد منه الارضون السبع و يدل عليه وجوه (الاول) قوله جميعا فان هذا التأكيد لا يحسن ادخاله الا على الجمع و نظيره قوله كل الطعام و قوله تعالى او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النسـاء و قوله تعالى و النخل باسـقات و قوله تعالى ان الانسـان لفى خسر الا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فان الالفـاظ الملحقة باللفظ المفرد تدل على ان المراد منه الجمع فكذا ههنا (الثانى) انه قال بعده والسموات مطويات فوجب ان يكون المراد بالارض الارضون (الثالث) ان الموضع موضع تعظيم و تفخيم فهذا مقتضى المبالغة واما القبضة فهى المرة الواحدة من القبض قال تعالى فقبضت قبضة من اثر الرسول و القبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال ايضا اعطنى قبضة من كذا يريد معنى القبضة تسمية بالمصدر و المعنى و الارضون جميعا قبضته اى ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة من قبضاته يعنى ان الارضين مع مالها من العظمة و البسطة لا يبلغن الا قبضة واحدة من قبضاته اما اذا اريد معنى القبضة فظاهر لان المعنى ان الارضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة فان قيل ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب قلنا جعل القبضة ظرفا و قوله مطويات من الطى الذى هو ضد النشر كما قال تعالى يوم نطوى السماء كطى السجل و عادة طاوى السجل ان يطويه بيمينه ثم قال صاحب الكشـاف وقيل قبضته ملكه و يمينه قدرته وقيل مطويات بيمينه اى مفنيات بقسمه لانه اقسم ان يقبضها و لما ذكر هذه الوجوه عاد الى القول الاول بأنها وجوه ركيكة و ان حمل هذا الكلام على محض التمثيل اولى وبالغ فى تقرير هذا الكلام فأطنب واقول ان حال هذا الرجل فى اقدامه على تحسين طريقته وتقبيح طريقة القدماء عجيب جدا فأنه ان كان مذهبه انه يجوز ترك ظاهر اللفظ والمصير الى المجاز من غير دليل فهذا طعن فى القرآن واخراج له عن ان يكون حجة فى شئ وان كان مذهبه ان الاصل فى الكلام الحقيقة وانه لا يجوز العدول عنه الا لدليل منفصل فهذا هو الطريقة التى اطبق عليها جمهور المتقدمين فأين الكلام الذى يزعم انه علمه واين العلم الذى لم يعرفه غيره مع انه وقع فى التأويلات العسرة والكلمات الركيكة فان قالوا المراد انه لما دل الدليل على انه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الاعضاء وجب علينا ان نكتفى بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد بل نفوض علمه الى الله تعالى فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون انا نعلم انه ليس مراد الله من هذه الالفاظ هذه الاعضاء فاما تعيين المراد فانا نفوض ذلك العلم الى الله تعالى وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات فثبت ان هذه التأويلات التى

لهم خزنتها) تقريعا وتوبيخا (الم يأتكم رسل منكم) من جنسكم وقرئ نذر منكم (يتلون عليكم آيات ربكم وينـذرونكم لقاء يومكم هذا) اى وقتكم هذا وهـو وقت دخولهم النـار وفيه دليل على انه لا تكليف قبـل الشرع من حيث انهم عللوا توبيخهم باتيان الرسـل وتبليغ الكتب (قالوا بلى) قد أتونا وأنذرونا (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) حيث قال الله تعالى

أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شئ من الفائدة اصلا والله اعلم واعلم انه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذى تقدم قال سبحانه وتعالى عما يشركون يعنى ان هذا القادر القاهر العظيم الذى حارت العقول والالباب فى وصف عظمته تنزه وتقدس عن ان تجعل الاصنام شركاء له فى المعبودية فان قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه (الاول) ان العرش اعظم من السموات السبع والارضين السبع ثم انه قال فى صفة العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية واذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملا للسموات والارض (السؤال الثانى) ان قوله والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه شرح حالة لاتحصل الا فى يوم القيامة والقوم ماشاهدوا ذلك فان كان هذا الخطاب مع المصدقين للانبياء فهم يكونون معترفين بأنه لايجوز القول بجعل الاصنام شركاء لله تعالى فلا فائدة فى ايراد هذه الحجة عليهم وان كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوة وهم ينكرون قوله والارض جميعا قبضته يوم القيامة فكيف يمكن الاستدلال به على ابطال القول بالشرك (السؤال الثالث) حاصل القول فى القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الاجسام العظيمة وكما ان حفظها وامساكها يوم القيامة ليس الا بقدرة الله فكذلك الآن فما الفائدة فى تخصيص هذه الاحوال بيوم القيامة (والجواب عن الاول) ان مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرا على حفظ هذه الاجسام العظيمة ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادرا على امساك اولئك الملائكة الذين يحملون العرش (والجواب عن السؤال الثانى) ان المقصود ان الحق سبحانه هو المتولى لابقاء السموات والارضين على وجوه العمارة فى هذا الوقت وهو المتولى لتخريبها وافنائها فى يوم القيامة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الايجاد والاعدام وتنبيه ايضا على كونه غنيا على الاطلاق فانه يدل على انه اذا حاول تخريب الارض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد افناءها وذلك يدل على كمال الاستغناء (والجواب عن السؤال الثالث) انه انما خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على انه كما ظهر كمال قدرته فى الايجاد عند عمارة الدنيا فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا والله اعلم واعلم انه تعالى لما قرر كمال عظمته بما سبق ذكره اردفه بذكر طريقة اخرى تدل ايضا على كمال قدرته وعظمته وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لان نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم فقال ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون واختلفوا فى الصعقة منهم من قال انها غير الموت بدليل قوله تعالى فى موسى عليه السلام وخر موسى صعقا مع انه لم يمت فهذا هو النفخ الذى يورث الفزع الشديد وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد وهو المذكور فى سورة النمل فى قوله ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وعلى هذا القول

لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقد كنا ممن تبعه وكذبنا الرسل وقلنا مانزل الله من شئ ان انتم الا تكذبون (قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها) اى مقدرا خلودكم فيها وابهام القائل لتهويل المقول (فبئس مثوى المتكبرين) اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفا اى فبئس مثواهم جهنم ولايقدح مافيه من الاشعار بأن كون مثواهم اجكهم عن لتبر الحق فى ان

فنفخ الصور ليس الامرتين (والقول الثانى) ان الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا انهم يموتون من الفزع وشدة الصوت وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات (اولها) نفخة الفزع وهى المذكورة فى سورة النمل (والثانية) نفخة الصعق (والثالثة) نفخة القيام وهما مذكورتان فى هذه السورة واما قوله الا من شاء الله ففيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما عند نفخة الصعق يموت من فى السموات ومن فى الارض الا جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل واسرافيل و يبقى جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل (القول الثانى) انهم هم الشهداء لقوله تعالى بل احياء عند ربهم يرزقون وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال هم الشهداء متقلدون اسيافهم حول العرش (القول الثالث) قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لانه صعق مرة فلا يصعق ثانيا (القول الرابع) انهم الحور العين وسكان العرش والكرسى (القول الخامس) قال قتادة الله اعلم بأنهم من هم وليس فى القرآن والاخبار ما يدل على انهم من هم ثم قال تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون وفيه ابحاث (الاول) لفظ القرآن دل على ان هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى لان لفظ ثم يفيد التراخى قال الحسن رحمه الله القرآن دل على ان هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان بينهما اربعين ولا ادرى اربعون يوما اوشهرا او اربعون سنة او اربعون الف سنة (البحث الثانى) قوله اخرى تقدير الكلام ونفخ فى الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة اخرى وانما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة (الثالث) قوله فاذا هم قيام يعنى قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الاخيرة فى الحال من غير تراخ لان الفاء فى قوله فاذا هم تدل على التعقيب (الرابع) قوله ينظرون وفيه وجهان (الاول) ينظرون يقلبون ابصارهم فى الجهات نظر المبهوت اذا فاجأه خطب عظيم (والثانى) ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز ان يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود فى مكان لاجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم ولما بين الله تعالى حال هاتين النفختين قال واشرقت الارض بنور ربها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه الارض المذكورة ليست هى هذه الارض التى يقعد عليها الآن بدليل قوله يوم تبدل الارض غير الارض وبدليل قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة بل هى ارض اخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة (المسئلة الثانية) قالت المجسمة ان الله تعالى نور محض فاذا حضر الله فى تلك الارض لاجل القضاء بين عباده اشرقت تلك الارض بنور الله واكدوا هذا بقوله تعالى الله نور السموات والارض واعلم ان الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) انا بينا فى تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض انه لا يجوز ان يكون الله سبحانه وتعالى نورا بمعنى كونه من جنس هذه الانوار المشاهدة وبينا انه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ

دخولهم النار لسبق كلمة العذاب عليهم فانها انما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقدمر تحقيقه فى سورة الم السجدة (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة) مساق اعزاز وتشريف للاسراع بهم الى دار الكرامة وقيل سيق مراكبهم اذ لا يذهب بهم الا راكبين (زمرا) متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم فى الفضل وعلو الطبقة (حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها) وقرئ بالتشديد

النور ههنا على العدل فيحتاج ههنا الى بيان ان لفظ النور قد يستعمل فى هذا المعنى ثم الى بيان ان المراد من لفظ النور ههنا ليس الا هذا المعنى اما بيان الاستعمال فهو ان الناس يقولون للملك العادل اشرقت الآفاق بعدلك واضاءت الدنيا بقسطك كما يقولون اظلمت البلاد بجورك وقال صلى الله عليه وسلم الظلم ظلمات يوم القيامة واما بيان ان المراد من النور ههنا العدل فقط انه قال وجئ بالنبيين والشهداء ومعلوم ان المجئ بالشهداء ليس الا لاظهار العدل وايضا قال فى آخر الآية وهم لا يظلمون فدل هذا على ان المراد من ذلك النور ازالة ذلك الظلم فكأنه تعالى فتح هذه الآية باثبات العدل وختمها بنفى الظلم (والوجه الثانى) فى الجواب عن الشبهة المذكورة ان قوله تعالى واشرقت الارض بنور ربها يدل على انه يحصل هناك نور مضاف الى الله تعالى ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى لانه يكفى فى صدق الاضافة ادنى سبب فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بان اضافه الى نفسه كان ذلك النور نور الله كقوله بيت الله وناقة الله وهذا الجواب اقوى من الاول لان فى هذا الجواب لا يحتاج الى ترك الحقيقة والذهاب الى المجاز (والوجه الثالث) انه قد يقال فلان رب هذه الارض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ولا يبعد ان يكون رب تلك الارض ملكا من الملوك وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورا (المسئلة الثانية) انه تعالى ذكر فى هذه الآية من احوال ذلك اليوم اشياء (اولها) قوله واشرقت الارض بنور ربها وقد سبق الكلام فيه (وثانيها) قوله ووضع الكتاب وفى المراد بالكتاب وجوه (الاول) انه اللوح المحفوظ الذى تحصل فيه شرح احوال عالم الدنيا الى وقت قيام القيامة (الثانى) المراد كتب الاعمال كما قال تعالى فى سورة سبحان وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقال ايضا فى آية أخرى مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها (وثالثها) قوله وجئ بالنبيين والمراد ان يكونوا شهداء على الناس قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم (ورابعها) قوله والشهداء والمراد ماقاله فى وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس اوأراد بالشهداء المؤمنين وقال مقاتل يعنى الحفظة ويدل عليه قوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وقيل اراد بالشهداء المستشهدين فى سبيل الله ولما بين الله تعالى انه يحضر فى محفل القيامة جميع مايحتاج اليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات بين تعالى انه يوصل الى كل احد حقه وعبر تعالى عن هذا المعنى باربع عبارات (اولها) قوله تعالى وقضى بينهم بالحق (وثانيها) قوله وهم لا يظلمون (وثالثها) قوله ووفيت كل نفس ما عملت اى وفيت كل نفس جزاء ما عملت (ورابعها) قوله وهو اعلم بما يفعلون يعنى انه تعالى اذا لم يكن عالما بكيفيات احوالهم فلعله لا يقضى بالحق لاجل عدم العلم اما اذا كان عالما بمقادير افعالهم وبكيفياتها امتنع

وجواب اذا محذوف للايذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات مالا يحدق به نطاق العبارات كأنه قيل حتى اذا جاؤها وقد فتحت ابوابها (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) من جميع المكاره والآلام (طبتم) طهرتم من دنس المعاصى اوطبتم نفسا بما أنعم لكم من النعيم (فادخلوها خالدين) كان ما كان مما يقصر عنه البيان (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) بالبعث والثواب

دخول الخطأ فى ذلك الحكم فثبت انه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة والمقصود المبالغة فى تقرير ان كل مكلف فانه يصل الى حقه ❁ قوله تعالى (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) اعلم انه تعالى لما شرح احوال اهل القيامة على سبيل الاجمال فقال ووفيت كل نفس ما عملت بين بعده كيفية احوال اهل العقاب ثم كيفية احوال اهل الثواب وختم السورة اما شرح احوال اهل العقاب فهو المذكور فى هذه الآية وهو قوله وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا قال ابن زيد ان سوق الذين كفروا الى جهنم يكون بالعنف والدفع والدليل عليه قوله تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا اى يدفعون دفعا نظيره قوله تعالى فذلك الذى يدع اليتيم اى يدفعه ويدل عليه ايضا قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا واما الزمر فهى الافواج المتفرقة بعض فى اثر بعض فبين الله تعالى انهم يساقون الى جهنم فاذا جاؤها فتحت ابوابها وهذا يدل على ان ابواب جهنم انما تفتح عند وصول اولئك اليها فاذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم ألم يأتكم رسل منكم اى من جنسكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا فان قيل فلم اضيف اليوم اليهم قلنا اراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة واستعمال لفظ اليوم والايام فى اوقات الشدة مستفيض فعند هذا تقول الكفار بلى قد أتونا وتلوا علينا ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وفى هذه الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) تقدير الكلام انه حقت علينا كلمة العذاب ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب وهذا صريح فى ان السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا وكلمات المعتزلة فى دفع هذا الكلام معلومة واجوبتنا عنها ايضا معلومة (المسئلة الثانية) دلت الآية على انه لا وجوب قبل مجئ الشرع لان الملائكة بينوا انه ما بقى لهم علة ولا عذر بعد مجئ الانبياء عليهم السلام ولو لم يكن مجئ الانبياء شرطا فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة ثم ان الملائكة اذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين قالت المعتزلة لو كان دخولهم فى النار لاجل انه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة فبئس مثوى المتكبرين فائدة بل هذا الكلام انما يبقى مفيدا اذا قلنا انهم انما دخلوا النار لانهم تكبروا على الانبياء ولم يقبلوا قولهم ولم يلتفتوا الى دلائلهم وذلك يدل على صحة قولنا والله اعلم بالصواب ❁ قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين وترى

(الملائكة)

(وأورثنا الارض) يريدون المكان الذى استقروا فيه على الاستعارة وايراثها تمليكها مخلفة عليهم من اعمالهم او تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) اى يتبوأ كل واحد منا فى اى مكان اراده من جنته الواسعة على ان فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردوها (فنعم أجر العاملين) الجنة (وترى الملائكة حافين) محدقين (من حول العرش) اى حوله ومن مزيدة او لابتداء الحفوف

الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما شرح احوال أهل العقاب فى الآية المتقدمة شرح احوال أهل الثواب فى هذه الآية فقال وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنه زمرا فان قيل السوق فى أهل النار للعذاب معقول لانهم لما أمروا بالذهاب الى موضع العذاب والشقاوة لابد وان يساقوا اليه واما أهل الثواب فاذا أمروا بالذهاب الى موضع الكرامة والراحة والسعادة فأى حاجة فيه الى السوق والجواب من وجوه (الاول) ان المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فاذا قيل لواحد منهم اذهب الى الجنة فيقول لا أدخلها حتى يدخلها احبائى واصدقائى فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون الى ان يساقوا الى الجنة (والثانى) ان الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار فتصير شدة استغراقهم فى مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة فى الجنة فلاجرم يحتاجون الى أن يساقوا الى الجنة (والثالث) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اكثر أهل الجنة البله وعليون للابرار فلهذا السبب يساقون الى الجنة (والرابع) ان أهل الجنة وأهل النار يساقون الا ان المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسير اذا سيق الى الحبس والقيد والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لانه لايذهب بهم الا راكبين والمراد بذلك السوق اسراعهم الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك فشتان مابين السوقين ثم قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها الآية واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود (القيد الاول) هو مجيئهم الى الجنة (القيد الثانى) قوله تعالى وفتحت أبوابها فان قيل قال فى أهل النار فتحت أبوابها بغير الواو وقال ههنا بالواو فما الفرق قلنا الفرق ان أبواب جهنم لاتفتح الا عند دخول أهلها فيها فاما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدما على وصولهم اليها بدليل قوله جنات عدن مفتحة لهم الابواب فلذلك جئ بالواو كأنه قيل حتى اذا جاؤها وقد فتحت ابوابها (القيد الثالث) قوله وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين فبين تعالى ان خزنة الجنة يذكرون لاهل الثواب هذه الكلمات الثلاث (فأولها) قوله سلام عليكم وهذا يدل على انهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات (وثانيها) قولهم طبتم والمعنى طبتم من دنس المعاصى وطهرتم من خبث الخطايا (وثالثها) قولهم فادخلوها خالدين والفاء فى قوله فادخلوها يدل على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة قالت المعتزلة هذا يدل على ان احدا لايدخلها الا اذا كان طاهرا عن كل المعاصى قلنا هذا ضعيف لانه تعالى يبدل سيآتهم حسنات وحينئذ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى فان قيل هذا الذى تقدم ذكره هو الشرط فاين الجواب قلنا فيه وجهان (الاول) ان الجواب محذوف والمقصود من الحذف

(يسبحون بحمد ربهم) اى ينزهونه تعالى عما لايليق به ملتبسين بحمده والجملة حال ثانية أو مقيدة للاولى والمعنى ذاكرين له تعالى بوصفى جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بأن اقصى درجات العليين واعلى لذائذهم هو الاستغراق فى شؤنه عز وجل (وقضى بينهم بالحق) اى بين الخلق بادخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو بين الملائكة باقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل الحمد لله

ان يدل على انه بلغ فى الكمال الى حيث لايمكن ذكره (الثانى) ان الجواب هو قوله تعالى وقال لهم خزنتها سلام عليكم والواو محذوف والصحيح هو الاول ثم اخبر الله تعالى بأن الملائكة اذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات قال المتقون عند ذلك الحمد لله الذى صدقنا وعده فى قوله أن لاتخافوا ولاتحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون وأورثنا الارض والمراد بالارض ارض الجنة وانما عبر عنه بالارث لوجوه (الاول) ان الجنة كانت فى اول الامر لآدم عليه السلام لانه تعالى قال فكلا منها رغدا حيث شئتما فلما عادت الجنة الى اولاد آدم كان ذلك سببا لتسميتها بالارث (الثانى) ان هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد افادتهم الجنة لاجرم قالوا واورثنا الارض والمعنى ان الله تعالى اورثنا الجنة بأن وفقنا للاتيان بأعمال اورثت الجنة (الثالث) ان الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون فى الجنة كيف شاؤا وأرادوا لمشابهة علة حسن المجاز فان قيل مامعنى قوله حيث نشاء وهل يتبوأ احدهم مكان غيره قلنا يكون لكل احد جنة لايحتاج معها الى جنة غيره قال حكماء الاسلام الجنات نوعان الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لاتحتمل المشاركة فيها اما الروحانيات فحصولها لواحد لايمنع من حصولها للآخرين ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال فنعم اجر العاملين قال مقاتل ليس هذا من كلام اهل الجنة بل من كلام الله تعالى لانه لما حكى ماجرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب اهل الجنة قال بعده فنعم أجر العاملين ولما قال تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما ان دار ثواب المتقين المؤمنين هى الجنة فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش واطرافه فلهذا قال وترى الملائكة حافين من حول العرش اى محدقين بالعرش قال الليث يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفا اذا طافوا به اذا عرفت هذا فنقول بين تعالى ان دار ثوابهم هو جوانب العرش واطرافه ثم قال يسبحون بحمد ربهم وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح وحينئذ رجع حاصل الكلام الى ان اعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد فى درجات التنزيه ومنازل التقديس ثم قال وقضى بينهم بالحق والمعنى انهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة فلكل واحد منهم فى درجات المعرفة والطاعة حد محدود لايتجاوزه ولا يتعداه وهو المراد من قوله وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين اى الملائكة لما قضى بينهم بالحق قالوا الحمد لله رب العالمين على قضائه بيننا بالحق وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهى انه سبحانه لما قضى بينهم بالحق فهم ماحمدوه لاجل ذلك القضاء بل حمدوه بصفته الواجبة وهى كونه رب العالمين فان من حمد المنعم لاجل أن انعامه وصل اليه فهو فى الحقيقة ماحمد المنعم وانما حمد الانعام وأما من حمد المنعم لا لانه وصل اليه النعمة فههنا قد وصل الى لجة بحر التوحيد هذا اذا قلنا ان قوله

(وترى)

رب العالمين) اى على ماقضى بيننا بالحق وانزل كلا منا منزلته التى هى حقه والقائلون هم المؤمنون ممن قضى بينهم او الملائكة وطى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله تعالى رجاءه يوم القيامة واعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضى الله عنها انه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بنى اسرائيل والزمر

وترى الملائكة حافين من حول العرش شرح احوال الملائكة فى الثواب اماذا قلنا انه من بقية شرح ثواب المؤمنين فتقريره ان يقال ان المتقين لما قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فقد ظهر منهم انهم فى الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء فبين تعالى انه كما ان حرفة المتقين فى الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ثم ان جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة وحينئذ يظهر منه ان المؤمنين المتقين وان الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق فى تحميد الله وتسبيحه فكان ذلك سببا لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد ثم قال وقضى بينهم بالحق اى بين البشر ثم قال وقيل الحمد لله رب العالمين والمعنى انهم يقدمون التسبيح والمراد منه تنزيه الله عن كل مالا يليق بالالهية واما قوله تعالى وقيل الحمد لله رب العالمين فالمراد وصفه بصفات الالهية فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل مالا يليق به وهو صفات الجلال وقوله وقيل الحمد لله رب العالمين عبارة عن الاقرار بكونه موصوفا بصفات الالهية وهى صفات الاكرام ومجموعهما هو المذكور فى قوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام وهو الذى كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وفى قوله وقيل الحمد لله رب العالمين دقيقة اخرى وهى انه لم يبين ان ذلك القائل من هو والمقصود من هذا الابهام التنبيه على ان خاتمة كلام العقلاء فى الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس الا ان يقولوا الحمد لله رب العالمين وتأكد هذا بقوله تعالى فى صفة اهل الجنة وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين * قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة فى ليلة الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة ثلاث وستمائة يقول مصنف هذا الكتاب الملائكة المقربون عجزوا عن احصاء ثنائك فمن أنا والانبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور فمن انا وليس معى الان اقول انت وانا انا فمنك الرحمة والفضل والجود والاحسان ومنى العجز والذلة والخيبة والخسران يارحمان ياديان ياحنان يامنان افض على سجال الرحمة والغفران برحمتك ياارحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله واصحابه وازواجه امهات المؤمنين وسلم تسليما كثيرا

* (سورة المؤمن ثمانون وخمس آيات مكية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا انهم اصحاب النار) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى

(سورة المؤمن مكية وآيها خمس (أو ثمان وثمانون آية)

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(حم) بتفخيم الالف وتسكين الميم وقرئ بامالة الالف وباخراجها بين بين وبفتح الميم لالتقاء الساكنين اونصبها باضمار اقرأ ونحوه ومنع الصرف للتعريف والتأنيث اوللتعريف وكونها على زنة قابيل وهابيل وبقية الكلام فيه وفى قوله تعالى (تنزيل الكتاب) كالذى سلف فى الم السجدة وقوله تعالى (من الله العزيز العليم) كما فى مطلع سورة الزمر فى الوجوه كلها ووجه التعرض لنعتى العزة والعلم ماذكر هناك (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) اما صفات اخر لتحقيق مافيها من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود والاضافة فيها حقيقية على انه لم يرد بها زمان مخصوص وأريد بشديد العقاب مشدده اوالشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وامن الالتباس اوابدال وجعله وحده بدلا كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الاولين لافادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة اوتغاير الوصفين اذربما يتوهم الاتحاد اوتغاير موقع الفعلين لان

رواية أبي بكر وحمزة والكسائي حم بكسر الحاء والباقون بفتح الحاء ونافع فى بعض الروايات وابن عامر بين الفتح والكسر وهو ان لايفتحها فتحا شديدا قال صاحب الكشاف قرئ بفتح الميم وتسكينها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وايثار اخف الحركات نحو اين وكيف او النصب باضمار اقرأ ومنع الصرف اما للتأنيث والتعريف من حيث انها اسم للسورة او للتعريف وانها على زنة اعجمى نحو قابيل وهابيل واما السكون فلأنا بينا ان الاسماء المجردة تذكر موقوفة الأواخر (المسئلة الثانية) الكلام المستقصى فى هذه الفواتح مذكور فى اول سورة البقرة والاقرب ههنا ان يقال حم اسم للسورة فقوله حم مبتدأ وقوله تنزيل الكتاب من الله خبره والتقدير ان هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب فقوله تنزيل مصدر لكن المراد منه المنزل واما قوله من الله فاعلم انه لما ذكر ان حم تنزيل الكتاب وجب بيان ان المنزل من هو فقال من الله ثم بين ان الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتوانى فيه فبين ان المنزل هو الله العزيز العليم واعلم ان الناس اختلفوا فى ان العلم بالله ماهو فقال جمع عظيم انه العلم بكونه قادرا وبعده العلم بكونه عالما اذا عرفت هذا فنقول العزيز له تفسيران (احدهما) الغالب فيكون معناه القادر الذى لايساويه احد فى القدرة (والثانى) الذى لامثل له ولا يجوز ان يكون المراد بالعزيز ههنا القادر لان قوله تعالى الله يدل على كونه قادرا فوجب حمل العزيز على المعنى الثانى وهو الذى لايوجد له مثل وما كان كذلك وجب ان لايكون جسما والذى لايكون جسما يكون منزها عن الشهوة والنفرة والذى يكون كذلك يكون منزها عن الحاجة واما العليم فهو مبالغة فى العلم والمبالغة التامة انما تتحقق عند كونه تعالى عالما بكل المعلومات فقوله من الله العزيز العليم يرجع معناه الى ان هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق الغنى المطلق العالم المطلق ومن كان كذلك كان عالما بوجوه المصالح والمفاسد وكان عالما بكونه غنيا عن جر المصالح ودفع المفاسد ومن كان كذلك كان رحيما جوادا وكانت افعاله حكمة وصوابا منزهة عن القبيح والباطل فكأنه سبحانه انما ذكر عقيب قوله تنزيل هذه الاسماء الثلاثة لكونها دالة على ان افعاله سبحانه حكمة وصواب ومتى كان الامر كذلك لزم ان يكون هذا التنزيل حقا وصوابا وقيل الفائدة فى ذكر العزيز العليم امران (أحدهما) انه بقدرته وعلمه انزل القرآن على هذا الحد الذى يتضمن المصالح والاعجاز ولولا كونه عزيزا عليما لما صح ذلك (والثانى) انه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره الى حين انقطاع التكليف وذلك لايتم الا بكونه عزيزا لايغلب وبكونه عليما لايخفى عليه شئ ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب فقال غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لااله الاهو اليه المصير فهذه ستة انواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله غافر الذنب قال الجبائى معناه انه غافر الذنب اذا استحق غفرانه اما بتوبة

(او طاعة)

الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فان التائب من الذنب كمن لاذنب له والتوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفى توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها (لااله الاهو) فيجب الاقبال الكلى على طاعته فى اوامره ونواهيه (اليه المصير) فحسب لاالى غيره لااستقلالا ولااشتراكا فيجازى كلا من المطيع والعاصى (مايجادل فى آيات الله) اى بالطعن فيها واستعمال المقدمات الباطلة لادحاض الحق كقوله تعالى وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق (الاالذين كفروا) بها واما الذين آمنوا فلايخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلا عن الطعن فيها واما الجدال فيها لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقائقها الكلية وتوضيح مناهج الحق فى مضايق الافهام ومزالق الاقدام وابطال شبه اهل الزيغ والضلال فمن اعظم الطاعات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ان جدالا فى القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال وجدال والفاء فى قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) لترتيب

او طاعة اعظم منه ومراده ان فاعل المعصية اما ان يقال انه كان قد اتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها اعظم من عقاب هذه المعصية او ما كان الامر كذلك فان كان الاول كانت هذه المعصيــة صغيرة فيحبط عقابها وان كان الثانى كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها الا بالتوبة ومذهب اصحابنا ان الله تعالى قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة وهذه الآية تدل على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) ان غفران الكبيرة بعــد التوبة وغفران الصغيرة من الامور الواجبة على العبد وجميع الانبياء والاولياء والصالحين من اوساط الناس مشتركون فى فعل الواجبات فلو حملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين اقل الناس من زمرة المطيعين فرق فى المعنى الموجب لهــذا المدح وذلك باطل فثبت انه يجب ان يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الثانى) ان الغفران عبارة عن الستر ومعنى الستر انما يعقل فى الشئ الذى يكون باقيا موجودا فيستر والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها فمعنى الغفر فيها غير معقول ولا يمكن حمل قوله غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة لان معنى كونه قابلا للتــوب ليس الا ذلك فلو كان المراد بكونه غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وانه باطل فثبت ان كونه غافر الذنب يفيد كونه غافرا للذنوب الكبائر قبل التوبة (الثالث) ان قوله غافر الذنب مذكور فى معرض المدح العظيم فوجب حمله على ما يفيد اعظم انواع المدح وذلك هو كونه غافرا للكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الصفة الثانية) قوله تعالى قابل التوب وفيه بحثان (الاول) فى لفظ التوب قولان الاول انه مصدر وهو قول ابى عبيدة والثانى انه جماعة التوبة وهو قول الاخفش قال المبرد يجوز ان يكون مصدرا يقال تاب يتوب توبا وتوبة مثل قال يقول قولا وقولة ويجوز ان يكون جمع التوبة فيكون توبة وتوب مثل تمرة وتمر الا ان المصدر اقرب لان على هذا التقدير يكون تأويله انه يقبل هذا الفعل (البحث الثانى) مذهب اصحابنا ان قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل وليس بواجب على الله وقالت المعتزلة انه واجب على الله واحتج اصحابنا بانه تعالى ذكر كونه قابلا للتوب على سبيل المدح والثناء ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح الا القليل وهو القدر الذى يحصل لجميع الصالحين عند اداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات (الصفة الثالثة) قوله شديد العقاب وفيه مباحث (البحث الاول) فى هذه الآية سؤال وهو ان قوله شديد العقاب يصلح ان يكون نعتا للنكرة ولا يصلح ان يكون نعتا للمعرفة تقول مررت برجل شديد البطش ولا تقول مررت بعبد الله شديد البطش وقوله الله اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع انه لا يصلح الا ان يجعل وصفا للنكرة قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب لانه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وانه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن او غدا وانما اريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم اله الخلق ورب العرش واما شديد العقاب فمشكل لانه فى تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جعله

قوله ان غفران الخ غرضه ان من تاب لعبد مما جنى فمقتضى التحسين العقلى الذى هو مذهب المعتزلة يجب ان يسامحه وحينئذ فيكون لا فرق بين الله والعبيد

النهى او وجوب الانتهاء على ماقبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذى لا شئ أمقت منه عند الله تعالى ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة فان من تحقق ذلك يكاد يغتر بما لهم من حظوظ الدنيا وزخارفها فانهم مأخوذون عما قليل اخذ من قبلهم من الامم حسبما ينطق به قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم) اى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح مثل عاد وثمود واضرابهم (وهمت كل امة) من تلك الامم العاتية (برسولهم) وقرئ برسولها (ليأخذوه) ليتمكنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا من تعذيب اوقتل من الاخذ بمعنى الاسر (وجادلوا بالباطل) الذى لا أصل ولا حقيقة له أصلا (ليدحضوا به الحق) الذى لا محيد عنه كما فعل هؤلاء (فأخذتهم) بسبب ذلك اخذ عزيز مقتدر (فكيف كان عقاب) الذى عاقبتهم به فان آثار دمارهم عبرة للناظرين ولآخذن هؤلاء ايضا لاتحادهم فى الطريقة واشتراكهم فى الجريرة كما ينبئ عنه قوله تعالى (وكذلك حقت كلمت ربك) اى كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الامم المكذبة

صفة للمعرفة هذا تقرير السؤال واجيب عنه بوجوه (الاول) ان هذه الصفة وان كانت نكرة الا انها لما ذكرت مع سائر الصفات التى هى معارف حسن ذكرها كما فى قوله وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد (والثانى) قال الزجاج ان خفض شديد العقاب على البدل لان جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس امر جائز واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة (الثالث) انه لا نزاع فى ان قوله غافر الذنب وقابل التوب يحسن جعلهما صفة وانما كان كذلك لانهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك قوله شديد العقاب يفيد معنى الدوام والاستمرار لان صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد فكونه شديد العقاب معناه كونه بحيث يشتد عقابه وهذا المعنى حاصل ابدا وغير موصوف بأنه حصل بعد ان لم يكن كذلك فهذا ماقيل فى هذا الباب (البحث الثانى) هذه الآية مشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل لانه تعالى لما اراد ان يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضى زوال العقاب وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب وذكر بعده مايدل على حصول الرحمة العظيمة وهو قوله ذى الطول فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقا بتينك الصفتين وملحوقا بهذه الصفة دل ذلك على ان جانب الرحمة والكرم ارجح (البحث الثالث) لقائل ان يقول ذكر الواو فى قوله غافر الذنب وقابل التوب ولم يذكرها فى قوله شديد العقاب فما الفرق قلنا انه لو لم يذكر الواو فى قوله غافر الذنب وقابل التوب لاحتمل ان يقع فى خاطر انسان انه لا معنى لكونه غافر الذنب الا كونه قابل التوب اما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال لان عطف الشئ على نفسه محال اما كونه شديد العقاب فعلوم انه مغاير لكونه غافر الذنب وقابل التوب فاستغنى به عن ذكر الواو (الصفة الرابعة) قوله ذى الطول اى ذى التفضل يقال طال علينا طولا اى تفضل علينا تفضلا ومن كلامهم طل على بفضلك ومنه قوله تعالى اولو الطول منهم ومضى تفسيره عند قوله ومن لم يستطع منكم طولا واعلم انه لما وصف نفسه بكونه شديد العقاب لابد وان يكون المراد بكونه تعالى آتيا بالعقاب الشديد الذى لا يقبح منه اتيانه به بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتيا بالفعل القبيح واذا ثبت هذا فنقول ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل فيجب ان يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب ان يترك العقاب الذى له ان يفعله لانه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين انه ذو الطول فيماذا فوجب صرفه الى كونه ذا الطول فى الامر الذى سبق ذكره وهو فعل العقاب الحسن دفعا للاجمال وهذا يدل على انه تعالى قد يترك العقاب الذى يحسن منه تعالى فعله وذلك يدل على ان العفو عن اصحاب الكبائر جائز وهو المطلوب (الصفة الخامسة) التوحيد المطلق وهو قوله لا اله الا هو والمعنى انه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل فلو كان معه اله آخر يشاركه ويساويه فى صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة الى عبوديته شديدة اما اذا كان واحدا وليس له شريك ولا شبيه كانت الحاجة الى الاقرار بعبوديته شديدة

المتحزبة على رسلهم المجادلة بالباطل لادحاض الحق به وجب ايضا (على الذين كفروا) اى كفروا بك وتحزبوا عليك وهموا بما لم ينالوا كما ينبئ عنه اضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام فان ذلك للاشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من احكام تربيته التى من جملتها نصرته عليه الصلاة والسلام وتعذيب اعدائه وذلك انما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه لا عن الامم المهلكة وقوله تعالى (انهم اصحاب النار) فى حيز النصب بحذف لام التعليل اى لانهم مستحقوا اشد العقوبات وافظعها التى هى عذاب النار وملازموها ابدا لكونهم كفارا معاندين متحزبين على الرسول عليه الصلاة والسلام كدأب من قبلهم من الامم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات اشد استحقاقا واحق استيجابا وقيل هو فى محل الرفع على انه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من اصحاب النار اى كما وجب اهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل الكاف على التقديرين النصب على

(فكان)

فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد (الصفة السادسة) قوله اليه المصير وهذه الصفة ايضا مما يقوى الرغبة فى الاقرار بعبوديته لانه بتقدير أن يكون موصوفا بصفات الفضل والكرم وكان واحدا لا شريك له الا ان القول بالحشر والنشر ان كان باطلا لم يكن الخوف الشديد حاصلا من عصيانه أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلا كان الخوف اشد والحذر أكمل فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات واحتج اهل التشبيه بلفظة الى قالوا انها تفيد انتهاء الغاية والجواب عنه مذكور فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب واعلم انه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب انزله ليهتدى به فى الدين ذكر احوال من يجادل لغرض ابطاله واخفاء امره فقال ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الجدال نوعان جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل اما الجدال فى تقرير الحق فهو حرفة الانبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتى هى احسن وقال حكاية عن الكفار انهم قالوا لنوح عليه السلام يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا واما الجدال فى تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية حيث قال ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وقال ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وقال وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر فقوله ان جدالا على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال واعلم الفظ ان الجدال فى الشئ مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشئ مشعر بالجدال لاجل تقريره والذب عنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر وقال لا تماروا فى القرآن فان المراء فيه كفر (المسئلة الثانية) الجدال فى آيات الله هو ان يقال مرة انه سحر ومرة انه شعر ومرة انه قول الكهنة ومرة اساطير الاولين ومرة انما يعلمه بشر واشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى انه لا يفعل هذا الا الذين كفروا واعرضوا عن الحق ثم قال تعالى فلا يغررك تقلبهم فى البلاد اى لا ينبغى ان تغتر بانى امهلهم واتركهم سالمين فى ابدانهم واموالهم يتقلبون فى البلاد اى يتصرفون فيها للتجارات وطلب المعاش فانى وان امهلتهم فانى سآخذهم وانتقم منهم كما فعلت باشكالهم من الامم الماضية وكانت قريش كذلك يتقلبون فى بلاد الشام واليمن ولهم الاموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون ثم كشف عن هذا المعنى فقال كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم فذكر من اولئك المكذبين قوم نوح والاحزاب من بعدهم اى الامم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم كما قال فى سورة ص كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط واصحاب الايكة اولئك الاحزاب وقوله وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه اى وعزمت كل امة من هؤلاء الاحزاب ان يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه وجادلوا بالباطل اى هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل اى بايراد الشبهات ليدحضوا به الحق اى ان

انه نعت لمصدر محذوف (الذين يحملون العرش ومن حوله) وهم اعلى طبقات الملائكة عليهم السلام واولهم وجودا وحملهم اياه وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له وكناية عن زلفاهم من ذى العرش جل جلاله ومكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (يسبحون بحمد ربهم) والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ان اشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين اى ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التى لا تتناهى (ويؤمنون به) ايمانا حقيقيا بحالهم والتصريح به مع الغنى عن ذكره رأسا لاظهار فضيلة الايمان وابراز شرف اهله والاشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا) فان المشاركة فى الايمان اقوى المناسبات واتمها وادعى الدواعى الى النصح والشفقة وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وايمانهم ايذان بكمال اعتنائهم به واشعار بوقوعه

يزيلوا بسبب ايراد تلك الشبهات الحق والصدق فأخذتهم فكيف كان عقاب أى فأنزلت بهم من الهلاك ماهموا بانزاله بالرسل وارادوا ان يأخذوهم فأخذتهم أنا فكيف كان عقابى اياهم أليس كان مهلكا مستأصلا مهيبا فى الذكر والسماع فانا افعل بقومك كما فعلت بهؤلاء ان اصروا على الكفر والجدال فى آيات الله ثم كشف عن هذا المعنى فقال وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا انهم اصحاب النار اى ومثل الذى حق على اولئك الامم السالفة من العقاب حقت كلمتى ايضا على هؤلاء الذين كفروا من قومك فهم على شرف نزول العقاب بهم قال صاحب الكشاف انهم اصحاب النار فى محل الرفع بدل من قوله كلمة ربك أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من اصحاب النار ومعناه كما وجب اهلاكهم فى الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب اهلاكهم بعذاب النار فى الآخرة اوفى محل النصب بحذف لام التعليل وايصال الفعل واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان قضاء الله بالسعادة والشقاوة لازم لايمكن تغيره فقالوا انه تعالى أخبرانه حقت كلمة العذاب عليهم وذلك يدل على انهم لاقدرة لهم على الايمان لانهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من ابطال هذه الكلمة الحقة ولتمكنوا من ابطال علم الله وحكمه ضرورة ان المتمكن من الشئ يجب كونه متمكنا من كل ماهو من لوازمه ولانهم لو آمنوا لوجب عليهم ان يؤمنوا بهذه الآية فحينئذ كانوا قد آمنوا بأنهم لايؤمنون أبدا وذلك تكليف مالايطاق وقرأ نافع وابن عامر حقت كلمات ربك على الجمع والباقون على الواحد ❁ قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار يبالغون فى اظهار العداوة مع المؤمنين بين ان اشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون فى اظهار المحبة والنصرة للمؤمنين كأنه تعالى يقول ان كان هؤلاء الاراذل يبالغون فى العداوة فلاتبال بهم ولاتلتفت اليهم ولاتقم لهم وزنا فان حملة العرش معك والحافون من حول العرش معك ينصرونك وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية (احدهما) الذين يحملون العرش وقد حكى تعالى ان الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية فيمكن ان يقال الذين يحملون فى هذا الوقت هم اولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة ولاشك ان حملة العرش اشراف الملائكة واكابرهم روى صاحب الكشاف ان حملة العرش أرجلهم فى الارض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لايرفعون طرفهم وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لاتتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة فان خلقا من

(الملائكة)

عندالله تعالى فى موقع القبول روى ان حملة العرش ارجلهم فى الارض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لايرفعون طرفهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم لاتتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فان خلقا من الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الارض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وفى الحديث ان الله امر جميع الملائكة ان يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائرهم وقيل خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين الف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا ايديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا أيمانهم على الشمائل مامنهم أحد الا وهو يسبح بمالا يسبح به الآخر (ربنا) على ارادة القول اى يقولون ربنا على انه اما بيان لاستغفارهم

الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الارض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع قيل انه طائر صغير وروى ان الله تعالى أمر جميع الملائكة ان يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة وقيل خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين الف عام وقيل حول العرش سبعون الف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون الف صف قيام قد وضعوا ايديهم على عواتقهم رافعين اصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الايمان على الشمائل مامنهم احد الا ويسبح بما لا يسبح به الآخر هذه الآثار نقلتها من الكشاف (واما القسم الثانى) من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى فى هذه الآية فقوله تعالى ومن حوله والاظهر ان المراد منهم ماذكره فى قوله وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وأقول العقل يدل على ان حملة العرش والحافين حول العرش يجب ان يكونوا افضل الملائكة وذلك لان نسبة الارواح الى الارواح كنسبة الاجساد الى الاجساد فلما كان العرش اشرف الموجودات الجسمانية كانت الارواح المتعلقة بتدبير العرش يجب ان تكون افضل من الارواح المدبرة للاجساد وايضا يشبه ان يكون هناك ارواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الارواح القاهرة المستعلية المدبرة لجسم العرش ارواح اخر من جنسها وهى متعلقة باطراف العرش واليهم الاشارة بقوله وترى الملائكة حافين من حول العرش وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية وبالمكاشفات الصادقة انه لانسبة لعالم الاجساد الى عالم الارواح فكل ماشاهدته بعين البصر فى اختلاف مراتب عالم الاجساد فيجب ان تشاهده بعين بصيرتك فى اختلاف مراتب عالم الارواح (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على انه سبحانه منزه عن ان يكون فى العرش وذلك لانه تعالى قال فى هذه الآية الذين يحملون العرش وقال فى آية أخرى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ولاشك ان حامل العرش يكون حاملا لكل من فى العرش فلو كان اله العالم فى العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لاله العالم فحينئذ يكونون حافظين لاله العالم والحافظ القادر اولى بالالهية والمحمول المحفوظ اولى بالعبودية فحينئذ ينقلب الاله عبدا والعبد الها وذلك فاسد فدل هذا على ان اله العرش والاجسام متعال عن العرش والاجسام واعلم انه تعالى حكى عن حملة العرش وعن الحافين بالعرش ثلاثة اشياء (اولها) قوله يسبحون بحمد ربهم ونظيره قوله حكاية عن الملائكة ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغى والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الاطلاق فالتسبيح اشارة الى الجلال والتحميد اشارة الى الاكرام فقوله يسبحون بحمد ربهم قريب من قوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام (والنوع الثانى) مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة هو قوله تعالى ويؤمنون به فان قيل فاى

اوحال (وسعت كل شئ رحمة وعلما) اى وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن اصله للاغراق فى وصفه تعالى بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لانها المقصودة بالذات ههنا والفاء فى قوله تعالى (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) اى للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ماقبلها من سعة الرحمة والعلم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه وهو تصريح بعد اشعار للتأكيد (ربنا وادخلهم) عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة فى الجؤار (جنات عدن التى وعدتهم) اى وعدتهم اياها وقرئ جنة عدن (ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم) اى صلاحا مصحما لدخول الجنة فى الجملة وان كان دون صلاح اصولهم وهو عطف على الضمير الاول اى وادخلهم معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم او على الثانى لكن لابناء على الوعد العام للكل كما قيل اذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى الحقنا بهم ذريتهم بأن يكونوا اعلى درجة من ذريتهم قال سعيد ابن جبير يدخل المؤمن الجنة

فائدة فى قوله ويؤمنون به فان الاشتغال بالتسبيح والتحميد لايمكن الا وقدسبق الايمان بالله قلنا الفائدة فيه ماذكره صاحب الكشاف وقداحسن فيه جدافقال ان المقصود منه التنبيه على ان الله تعالى لوكان حاضرا بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ولما كان ايمانهم بوجود الله موجبا للمدح والثناء لان الاقرار بوجودشئ حاضر مشاهد معاين لايوجب المدح والثناء ألاترى ان الاقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لايوجب المدح والثناء فلما ذكر الله تعالى ايمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم علم انهم آمنوا به بدليل انهم ماشاهدوه حاضرا جالسا هناك ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل فى كتابه الا هذه النكتة لكفاه فخرا وشرفا (النوع الثالث) مماحكى الله عن هؤلاء الملائكة قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا واعلم انه قدثبت ان كمال السعادة مربوط بأمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ويجب ان يكون التعظيم لامر الله مقدما على الشفقة على خلق الله فقوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به مشعر بالتعظيم لامر الله وقوله ويستغفرون للذين آمنوا مشعر بالشفقة على خلق الله ثم فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج كثير من العلماء بهذه الآية فى اثبات ان الملك افضل من البشر قالوا لان هذه الآية تدل على ان الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون وهذا يدل على انهم مستغنون عن الاستغفار لانفسهم اذلو كانوا محتاجين اليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ابدأ بنفسك وايضا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لااله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فأمر محمدا ان يذكر اولا الاستغفار لنفسه ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره وحكى عن نوح عليه السلام انه قال رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات وهذا يدل على ان كل من كان محتاجا الى الاستغفار فانه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره فالملائكة لوكانوا محتاجين الى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لانفسهم مقدما على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لانفسهم علمنا ان ذلك انما كان لانهم ماكانوا محتاجين الى الاستغفار واما الانبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين الى الاستغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام واستغفر لذنبك واذاثبت هذا فقد ظهر ان الملك افضل من البشر والله اعلم (المسئلة الثانية) احتج الكعبى بهذه الآية على ان تأثير الشفاعة فى حصول زيادة الثواب للمؤمنين لافى اسقاط العقاب عن المذنبين قال وذلك لان الملائكة قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصرا على الفسق اولم يكن كذلك لان من هذا حاله لايوصف بكونه متبعا سبيل ربه ولايطلق ذلك فيه وايضا ان الملائكة يقولون وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم وهذا لايليق بالفاسقين لان خصومنا لايقطعون على

فيقول ابن ابى ابن ولدى ابن زوجى فيقال انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول انى كنت اعمل لى ولهم فيقال ادخلوهم الجنة وسبق الوعد بالادخال والالحاق لايستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار وعليه مبنى قول من قال فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب والاول هو الاولى لان الدعاء بالادخال فيه صريح وفى الثانى ضمنى وقرئ صلح بالضم وذريتهم بالافراد (انك انت العزيز) اى الغالب الذى لايمتنع عليه مقدور (الحكيم) اى الذى لايفعل الا ماتقتضيه الحكمة الباهرة من الامور التى من جملتها انجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها (وقهم السيئات) اى العقوبات لان جزاء السيئة سيئة مثلها اوجزاء السيئات على حذف المضاف وهو تعميم بعد تخصيص او مخصوص بالاتباع او المعاصى فى الدنيا فمعنى قوله تعالى (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ومن تقه المعاصى فى الدنيا فقد رحمته فى الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب بعد ماسألوا المسبب (وذلك) اشارة الى الرحمة المفهومة من رحمته او اليها والى الوقاية ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من الاشعار ببعد درجة المشار اليه (هو الفوز العظيم) الذى لامطمع وراءه لطامع

ان الله تعالى وعدهم الجنة وانما يجوزون ذلك فثبت ان شفاعة الملائكة لاتتناول الا اهل الطاعة فوجب ان تكون شفاعة الانبياء كذلك ضرورة انه لاقائل بالفرق والجواب ان نقول هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين فنبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبي اما بيان دلالة هذه الآية على ماقلناه فمن وجوه (الاول) قوله ويستغفرون للذين آمنوا والاستغفار طلب المغفرة والمغفرة لاتذكر الا في اسقاط العقاب اما طلب النفع الزائد فانه لايسمى استغفارا (الثانى) قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا وهذا يدل على انهم يستغفرون لكل اهل الايمان فاذا دللنا على ان صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة (الثالث) قوله تعالى فاغفر للذين تابوا طلب المغفرة للذين تابوا ولايجوز ان يكون المراد اسقاط عقوبة الكبيرة بعدا لتوبة لان ذلك واجب على الله عند الخصم وما كان فعله واجبا كان طلبه بالدعاء قبيحا ولايجوز ايضا ان يكون المراد اسقاط عقوبة الصغائر لان ذلك ايضا واجب فلايحسن طلبه بالدعاء ولايجوز ان يكون المراد طلب زيادة منفعة على الثواب لان ذلك لايسمى مغفرة فثبت انه لايمكن حمل قوله فاغفر للذين تابوا الاعلى اسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة واذاثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الانبياء لانعقاد الاجماع على انه لافرق اما الذى تمسك به الكعبي وهو انهم طلبوا المغفرة للذين تابوا فنقول يجب ان يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الايمان وقوله ان التائب عن الكفر المصر على الفسق لايسمى تائبا ولا متبعا سبيل الله قلنا لانسلم قوله بل يقال انه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله فى الدين والشريعة واذا ثبت انه تائب عن الكفر ثبت انه تائب الاترى انه يكفى فى صدق وصفه بكونه ضاربا وضاحكا صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة ولايتوقف ذلك على صدور كل انواع الضرب والضحك عنه فكذا ههنا (المسئلة الثالثة) قال اهل التحقيق ان هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة فى حق البشر تجرى مجرى اعتذار عن زلة سبقت وذلك لانهم قالوا فى اول تخليق البشر اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا فى آخر الامر بأن قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وهذا كالتنبيه على ان من آذى غيره فالاولى ان يجبر ذلك الايذاء بايصال نفع اليه واعلم انه تعالى لما حكى عن الملائكة انهم يستغفرون للذين تابوا بين كيفية ذلك الاستغفار فحكى عنهم انهم قالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الدعاء فى اكثر الامر مذكور بلفظ ربنا ويدل عليه ان الملائكة عند الدعاء قالوا ربنا بدليل هذه الآية وقال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا انفسنا وقال نوح عليه السلام رب انى اعوذ بك ان اسئلك ماليس لى به علم وقال ايضا رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا وقال ايضا رب اغفرلى ولوالدى وقال عن ابراهيم عليه السلام رب ارنى كيف تحيى الموتى وقال رب اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب

(ان الذين كفروا) شروع فى بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار بعد مابين فيما سبق انهم اصحاب النار (ينادون) اى من مكان بعيد وهم فى النار وقد مقتوا انفسهم الامارة بالسوء التى وقعوا فيها وقعوا باتباع هواها اومقت بعضهم بعضا من الاحباب كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا اى ابغضوها اشد البغض وانكروها ابلغ الانكار واظهروا ذلك على رؤس الاشهاد فيقال لهم عند ذلك (لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم) اى لمقت الله انفسكم الامارة بالسوء اومقته اياكم فى الدنيا (اذتدعون) من جهة الانبياء (الى الايمان فتأبون قبوله (فتكفرون) اتباعا لانفسكم الامارة ومسارعة الى هواها او اقتداء بأخلائكم المضلين واستحبابا لآرائهم اكبر من مقتكم انفسكم الامارة اومن مقت بعضكم بعضا اليوم فاذ ظرف للمقت الاول وان توسط بينهما الخبر لما فى الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر اى مقته اياكم اذتدعون وقيل مفعول لاذكروا والاول هو الوجه وقيل كلام المتقين فى الآخرة واذ تدعون تعليل لمابين الظرف والسبب من علاقة اللزوم والمعنى لمقت الله اياكم الآن اكبر من

وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وقال عن يوسف رب قد آتيتني من الملك وقال عن موسى عليه السلام رب ارني انظر اليك وقال في قصة الوكز رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا للمجرمين وحكى تعالى عن داود انه استغفر ربه وخر راكعا واناب وعن سليمان انه قال رب هب لي ملكا وعن زكريا انه نادى ربه نداء خفيا وعن عيسى عليه السلام انه قال ربنا انزل علينا مائدة من السماء وعن محمد صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال له وقل رب اعوذبك من همزات الشياطين وحكى عن المؤمنين انهم قالوا ربنا ماخلقت هذا باطلا واعادوا هذه اللفظة خمس مرات وحكى ايضا عنهم انهم قالوا اغفرانك ربنا واليك المصير الى آخر السورة فثبت بما ذكرنا ان من ارضى الدعاء ان ينادى العبد ربه بقوله يارب وتمام الاشكال فيه ان يقال لفظ الله اعظم من لفظ الرب فلم صار لفظ الرب مختصا بوقت الدعاء والجواب كأن العبد يقول كنت في كتم العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني الى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك لي شفيعا اليك في ان لاتخليني طرفة عين عن تربيتك واحسانك وفضلك (المسئلة الثانية) السنة في الدعاء ان يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ثم يذكر الدعاء عقيبه والدليل عليه هذه الآية فان الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدؤا بالثناء فقالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وايضا ان الخليل عليه السلام لما اراد ان يذكر الدعاء ذكر الثنا اولا فقال الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتني ثم يحيين والذى اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين فكل هذا ثناء على الله تعالى ثم بعده ذكر الدعاء فقال رب هب لي حكما والحقني بالصالحين واعلم ان العقل يدل ايضا على رعاية هذا الترتيب وذلك لان ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة الى جوهر الروح كالاكسير الاعظم بالنسبة الى النحاس فكما ان ذرة من الاكسير اذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهبا ابريزا فكذلك اذا وقعت ذرة من اكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية انقلب من نحوسة النحاسة الى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة فثبت ان عند اشراق نور معرفة الله تعالى في جوهر الروح يصير الروح اقوى صفاء واكمل اشراقا ومتى صار كذلك كانت قوته اقوى وتأثيره اكمل فكان حصول الشئ المطلوب بالدعاء اقرب واكمل وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء (المسئلة الثالثة) اعلم ان الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة انواع من الصفات الربوبية والرحمة والعلم اما الربوبية فهي اشارة الى الايجاد والابداع وفيه لطيفة اخرى وهي ان قولهم ربنا اشارة الى التربية والتربية عبارة عن ابقاء الشئ على اكمل أحواله وأحسن صفاته وهذا يدل على ان هذه الممكنات كما انها محتاجة حال حدوثها الى احداث الحق سبحانه وتعالى وايجاده فكذلك انها محتاجة حال بقائها الى ابقاء الله واما الرحمة فهي اشارة الى ان جانب الخير والرحمة والاحسان

مقتكم انفسكم لما كنتم تدعون الى الايمان فتكفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بأنفسهم اضرابهم مما لاداعي اليه (قالوا ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين) صفتان لمصدري الفعلين المذكورين اي اماتتين واحياءتين اوموتتين وحياتين على انهما مصدران لهما ايضا بحذف الزوائد اولفعلين يدل عليهما المذكور ان فان الاماتة والاحياء ينبئان عن الموت والحياة حتما كأنه قيل امتنا فمتنا موتتين اثنتين واحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع
من المال الا مسحت او مجلف

اي لم تدع فلم يبق الا مسحت الخ قيل ارادوا بالاماتة الاولى خلقهم امواتا وبالثانية اماتتهم عند انقضاء آجالهم على أن الاماتة جعل الشئ عادم الحياة اعم من ان يكون بانشائه كذلك كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل او بجعله كذلك بعد الحياة وبالاحياءين الاحياء الاول واحياء البعث وقيل ارادوا بالاماتة الاولى ما بعد حياة الدنيا وبالثانية ما بعد حياة القبر وبالاحياءين ما في القبر وما عند البعث وهو الانسب بحالهم واما حديث لزوم الزيادة على النص ضرورة تحقق حياة الدنيا فمدفوع

راجح على جانب الضرر وانه تعالى انما خلق الخلق للرحمة والخير لا للاضرار والشر فان قيل قوله ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فيه سؤال لان العلم وسع كل شئ اما الرحمة فما وصلت الى كل شئ لان المضرور حال وقوعه فى الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة وهذا السؤال ايضا مذكور فى قوله ورحمتى وسعت كل شئ قلنا كل موجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيبا وذلك لان الموجود اما واجب واما ممكن اما الواجب فليس الا الله سبحانه وتعالى واما الممكن فوجوده من الله تعالى وبايجاده وذلك رحمة فثبت انه لا موجود غير الله الا وقد وصل اليه نصيب ونصاب من رحمة الله فلهذا قال ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وفى الآية دقيقة اخرى وهى ان الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا وسعت كل شئ رحمة وعلما وذلك لان مطلوبهم ايصال الرحمة وان يتجاوز عما علمه منهم من انواع الذنوب فالمطلوب بالذات هو الرحمة والمطلوب بالعرض ان يتجاوز عما علمه منهم والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض الا ترى انه لما كان ابقاء الصحة مطلوبا بالذات وازالة المرض مطلوبا بالعرض لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على ازالة المرض فقالوا الطب علم يتعرف منه احوال بدن الانسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة فكذا ههنا المطلوب بالذات هو الرحمة واما التجاوز عما علمه منهم من انواع الذنوب فهو مطلوب بالعرض لاجل ان حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل الا بالتجاوز عن الذنوب فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقا على ذكر العلم (المسئلة الرابعة) دلت هذه الآية على ان المقصود بالقصد الاولى فى الخلق والتكوين انما هو الرحمة والفضل والجود والكرم ودلت الدلائل اليقينية على ان كل ما دخل فى الوجود من انواع الخير والشر والسعادة والشقاوة فبقضاء الله وقدره والجمع بين هذين الاصلين فى غاية الصعوبة فعند هذا قالت الحكماء الخير مراد مرضى والشر مراد مكروه والخير مقضى به بالذات والشر مقضى به بالعرض وفيه غور عظيم (المسئلة الخامسة) قوله وسعت كل شئ رحمة وعلما يدل على كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات التى لا نهاية لها من الكليات والجزئيات وايضا فلولا ذلك لم يكن فى الدعاء والتضرع فائدة لانه اذا جاز ان يخرج عن علمه بعض الاشياء فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعى ان الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه وعلى هذا التقدير لا يبقى فى الدعاء فائدة البتة واعلم انه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى حكى عنهم كيفية دعائهم وهو انهم قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم واعلم ان الملائكة طلبوا بالدعاء من الله تعالى اشياء كثيرة للمؤمنين فالمطلوب الاول الغفران وقد سبق تفسيره فى قوله فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك فان قيل لا معنى للغفران الا اسقاط العذاب وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله فاغفر لهم وبين قوله وقهم عذاب الجحيم قلنا دلالة لفظ المغفرة على اسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على سبيل الرمز والاشارة فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز

لكن لا كما قيل من عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاع آثارها واحكامها بأن مقصودهم احداث الاعتراف بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما ينطق به قولهم (فاعترفنا بذنوبنا) والتزام العمل بموجب ذلك الاعتراف ليتوسلوا بذلك الى ما علقوا به اطماعهم الفارغة من الرجع الى الدنيا كما قد صرحوا به حيث قالوا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون وهو الذى ارادوه بقولهم (فهل الى خروج من سبيل) مع نوع استبعاد له واستشعار يأس منه لا انهم قالوه بطريق القنوط البحت كما قيل ولا ريب فى ان الذى كانوا ينكرونه ويفرعون عليه فنون الكفر والمعاصى ليس الا الاحياء بعد الموت واما الاحياء الاول فلم يكونوا ينكرونه لينظموه فى سلك ما اعترفوا به وزعموا ان الاعتراف يجديهم نفعا وانما ذكروا الموتة الاولى مع كونهم معترفين بها فى الدنيا لتوقف حياة القبر عليها وكذا حال الموتة فى القبر فان مقصدهم الاصلى هو الاعتراف بالاحياءين وانما ذكروا الاماتتين لترتبهما عليهما ذكرا حسب ترتبهما عليهما وجودا وتنكير سبيل للابهام اى من سبيل ما كيفما كان وقوله تعالى (ذلكم) الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من

والاشارة اردفوه بذكره على سبيل التصريح لاجل التأكيد والمبالغة واعلم انهم لما طلبوا من الله ازالة العذاب عنهم اردفوه بأن طلبوا من الله ايصال الثواب اليهم فقالوا ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم فان قيل انتم زعمتم ان هذه الشفاعة انما حصلت للمذنبين وهذه الآية تبطل ذلك لانه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم في جنات عدن قلنا لا نسلم انه ما وعدهم بذلك لانا بينا ان الدلائل الكثيرة في القرآن دلت على انه تعالى لا يخلد أهل لا اله الا الله محمد رسول الله في النار واذا اخرجهم من النار وجب ان يدخلهم الجنة فكان هذا وعدا من الله تعالى لهم بأن يدخلهم في جنات عدن اما من غير دخول النار واما بعد ان يدخلهم النار قال تعالى ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم يعني وادخل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاثة وهم الصالحون من الآباء والازواج والذريات وذلك لان الرجل اذا حضر معه في موضع عيشه وسروره اهله وعشيرته كان ابتهاجه اكمل قال الفراء والزجاج من نصب من مكانين فان شئت رددته على الضمير في قوله وادخلهم وان شئت في وعدتهم والمراد من قوله ومن صلح اهل الايمان ثم قالوا انك انت العزيز الحكيم وانما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لانه لو لم يكن عزيزا بل كان بحيث يغلب ويمنع لما صح وقوع المطلوب منه ولو لم يكن حكيما لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة ثم قالوا بعد ذلك وقهم السيآت قال بعضهم المراد وقهم عذاب السيآت فان قيل فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله وقهم السيآت وبين ما تقدم من قوله وقهم عذاب الجحيم وحينئذ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة وانه لا يجوز قلنا بل التفاوت حاصل من وجهين (الاول) ان يكون قوله وقهم عذاب الجحيم دعاء مذكورا للاصول وقوله وقهم السيآت دعاء مذكورا للفروع (الثاني) ان يكون قوله وقهم عذاب الجحيم مقصورا على ازالة الجحيم وقوله وقهم السيآت يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال (والقول الثاني) في تفسير قوله وقهم السيآت هو ان الملائكة طلبوا ازالة عذاب النار بقولهم وقهم عذاب الجحيم وطلبوا ايصال ثواب الجنة اليهم بقولهم وأدخلهم جنات عدن ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة والاعمال الفاسدة وهو المراد بقولهم وقهم السيآت ثم قالوا ومن تق السيآت يومئذ فقد رحمته يعني ومن تق السيآت في الدنيا فقد رحمته في يوم القيامة ثم قالوا وذلك هو الفوز العظيم حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لا ينقطع وبأعمال حقيرة ملكا لا تصل العقول الى كنه جلالته ۞ قوله تعالى (ان الذين كفروا ينادون لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون قالوا ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) اعلم انه تعالى لما عاد الى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله وهم الذين ذكرهم الله في قوله

(ما يجادل)

اعمالهم السيئة اي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب مطلقا لا مقيدا بالخلود كما قيل (بأنه) اي بسبب ان الشأن (اذا دعي الله) في الدنيا اي عبد (وحده) اي منفردا (كفرتم) اي بتوحيده (وان يشرك به تؤمنوا) اي بالاشراك به وتسارعوا فيه وفي ايراد اذا وصيغة الماضي في الشرطية الاولى وان وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك (فالحكم لله) الذي لا يحكم الا بالحق ولا يقضي الا ما تقتضيه الحكمة (العلي الكبير) الذي ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه وقد حكم بأنه لا مغفرة للشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لكم الى الخروج ابدا (هو الذي يريكم آياته) الدالة على شؤنه العظيمة الموجبة لتفرده بالالوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى وتخصوه بالعبادة (وينزل) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الانزال (لكم من السماء رزقا) اي سبب رزق وهو المطر وافراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر

مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا بين انهم فى القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذى ينزل بهم ويسألون الرجوع الى الدنيا ليتلافوا مافرط منهم فقال ان الذين كفروا ينادون لمقت الله اكبر من مقتكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى الآية حذف وفيها ايضا تقديم وتأخير اما الحذف فتقديره لمقت الله اياكم واما التقديم والتأخير فهو ان التقدير ان يقال لمقت الله لكم حال ماتدعون الى الايمان فتكفرون اكبر من مقتكم أنفسكم وفى تفسير مقتهم أنفسهم وجوه (الاول) انهم اذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على اصرارهم على التكذيب بهذه الاشياء فى الدنيا (الثانى) ان الاتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم الى الكفر فى الدنيا والرؤساء ايضا يشتد مقتهم للاتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم كما انه تعالى قال فاقتلوا أنفسكم والمراد قتل بعضهم بعضا (الثالث) قال محمد بن كعب اذا خطبهم ابليس وهم فى النار بقوله وما كان لى عليكم من سلطان الى قوله ولوموا أنفسكم ففى هذه الحالة مقتوا أنفسهم واعلم انه لانزاع ان مقتهم أنفسهم انما يحصل فى القيامة اما مقت الله لهم ففيه وجهان (الاول) انه حاصل فى الآخرة والمعنى لمقت الله لكم فى هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم فى هذا الوقت (والثانى) وعليه الاكثرون ان التقدير لمقت الله لكم فى الدنيا اذ تدعون الى الايمان فتكفرون اكبر من مقتكم انفسكم الآن ففى تفسير الالفاظ المذكورة فى الآية اوجه (الاول) ان الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم (الثانى) المقت اشد البغض وذلك فى حق الله تعالى محال فالمراد منه ابلغ الانكار والزجر (الثالث) قال الفراء ينادون لمقت الله معناه انهم ينادون ان مقت الله اكبر يقال ناديت ان زيدا قائم وان زيدا لقائم (الرابع) قوله اذ تدعون الى الايمان فيه حذف والتقدير لمقت الله لكم اذ تدعون الى الايمان فتأتون بالكفر اكبر من مقتكم الآن انفسكم ثم انه تعالى بين ان الكفار اذا خوطبوا بهذا الخطاب قالوا ربنا امتنا اثنتين الى آخر الآية والمعنى انهم لما عرفوا ان الذى كانوا عليه فى الدنيا كان فاسدا باطلا تمنوا الرجوع الى الدنيا لكى يشتغلوا عند الرجوع اليها بالاعمال الصالحة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج اكثر العلماء بهذه الآية فى اثبات عذاب القبر وتقرير الدليل انهم أثبتوا لانفسهم موتتين حيث قالوا ربنا أمتنا اثنتين فأحد الموتتين مشاهد فى الدنيا فلابد من اثبات حياة اخرى فى القبر حتى يصير الموت الذى يحصل عقيبها موتا ثانيا وذلك يدل على حصول حياة فى القبر فان قيل قال كثير من المفسرين الموتة الاولى اشارة الى الحالة الحاصلة عند كون الانسان نطفة وعلقة والموتة الثانية اشارة الى ماحصل فى الدنيا فلم لايجوز ان يكون الامر كذلك والذى يدل على ان الامر ماذكرناه قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم والمراد من قوله وكنتم امواتا الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة وتحقيق الكلام ان الاماتة تستعمل

وصيغة المضارع فى الفعلين للدلالة على تجدد الاراءة والتنزيل واستمرارهما وتقديم الجار والمجرور على المفعول لمامر غير مرة (ومايتذكر) بتلك الآيات الباهرة ولايعمل بمقتضاها (الا من ينيب) الى الله تعالى ويتفكر فيما اودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ (فادعوا الله مخلصين له الدين) اى اذا كان الامر كما ذكر من اختصاص التذكر بمن ينيب فاعبدوه ايها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب انابتكم اليه تعالى وايمانكم به (ولو كره الكافرون) ذلك وغاظهم اخلاصكم (رفيع الدرجات) نحو بديع السموات على انه صفة مشبهة اضيفت الى فاعلها بعد النقل الى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون من اضافة اسم الفاعل الى المفعول بعيد فى الاستعمال اى رفيع درجات ملائكته اى معارجهم ومصاعدهم الى العرش (ذو العرش) اى مالكه وهما خبران آخران لقوله تعالى هو الخبر عنه بهما ايذانا بعلو شأنه تعالى وعظم سلطانه الموجبين لتخصيص العبادة به واخلاص الدين له اما بطريق الاستشهاد بهما عليهما

بمعنيين (احدهما) ايجاد الشئ ميتا (والثانى) تصيير الشئ ميتا بعدان كان حيا كقولك وسع الخياط ثوبى يحتمل انه خاطه واسعا ويحتمل انه صيره واسعا بعدان كان ضيقافلم لايجوز فى هذه الآية ان يكون المراد بالاماتة خلقها ميتة ولايكون المراد تصييرها ميتة بعد ان كانت حية (السؤال الثانى) ان هذا كلام الكفار فلا يكون حجة (السؤال الثالث) ان هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة فى القبر وبيانه انه لوكان الامر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات اولها فى الدنيا وثانيها فى القبر وثالثها فى القيامة والمذكور فى الآية ليس الاحياتين فقط فتكون احداهما الحياة فى الدنيا والحياة الثانية فى القيامة والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد فى الدنيا (السؤال الرابع) انه ان دلت هذه الآية على حصول الحياة فى القبر فههنا مايدل على عدمه وذلك بالمنقول والمعقول اما المنقول فمن وجوه (الاول) قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فلم يذكر فى هذه الآية الا الحذر عن الآخرة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الحذر عنها حاصلا ولوكان الامر كذلك لذكره ولما لم يذكره علمنا انه غير حاصل (الثانى) انه تعالى حكى فى سورة الصافات عن المؤمنين المحقين انهم يقولون بعد دخولهم فى الجنة افما نحن بميتين الاموتتنا الاولى ولاشك ان كلام اهل الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة فى القبر لكانوا قدماتوا موتتين وذلك على خلاف قوله أفما نحن بميتين الاموتتنا الاولى قالوا والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التى تموها لان الآية التى تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة والآية التى تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار واما المعقول فمن وجوه (الاول) وهو ان الذى افترسته السباع واكلته لوأعيد حيا لكان امان يعاد حيا بمجموعه او بآحاد اجزائه والاول باطل لان الحس يدل على انه لم يحصل له مجموع والثانى باطل لانه لما اكلته السباع فلو جعلت تلك الاجزاء احياء لحصلت احياء فى معدة السباع وفى امعائها وذلك فى غاية الاستبعاد (الثانى) ان الذى مات لو تركناه ظاهرا بحيث يراه كل احد فانهم يرونه باقيا على موته فلو جوزنا مع هذه الحالة انه يقال انه صار حيا لكان هذا تشكيكا فى المحسوسات وانه دخول فى السفسطة (والجواب) قوله لم لايجوز ان تكون الموتة الاولى هى الموتة التى كانت حاصلة حال ماكان نطفة وعلقة فنقول هذا لايجوز وبيانه ان المذكور فى الآية ان الله اماتهم ولفظ الاماتة مشروط بسبق حصول الحياة اذلوكان الموت حاصلا قبل هذه الحالة امتنع كون هذا اماتة والالزم تحصيل الحاصل وهو محال وهذا بخلاف قوله كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا لان المذكور فى هذه الآية انهم كانوا امواتا وليس فيها ان الله أماتهم بخلاف الآية التى نحن فى تفسيرها لانها تدل على ان الله تعالى أماتهم مرتين وقدبينا ان لفظ الاماتة لايصدق الا عند سبق الحياة فظهر الفرق اما قوله ان هذا كلام الكفار فلايكون حجة قلنا لما ذكروا

فان ارتفاع معارج ملائكته الى العرش وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضى بكون علوشانه وعظم سلطانه فى غاية لاغاية وراءها واما بجعلهما عبارة عنهما بطريق المجاز المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش وتمهيدا لما يعقبهما من قوله تعالى (يلقى الروح من امره) فانه خبر آخر لما ذكر منبئ عن انزال الرزق الروحانى الذى هو الوحى بعد بيان انزال الرزق الجسمانى الذى هو المطر اى ينزل الوحى الجارى من القلوب منزلة الروح من الاجساد وقوله تعالى من امره بيان للروح الذى اريد به الوحى فانه امر بالخير او حال منه اى حال كونه ناشئا ومبتدأ من امره او صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته اى الروح الكائن من امره او متعلق بيلقى ومن للسببية كالباء مثل مافى قوله تعالى مما خطيئاتهم اى يلقى الوحى بسبب امره (على من يشاء من عباده) وهو الذى اصطفاه لرسالته وتبليغ احكامه اليهم (لينذر) اى الله تعالى او الملقى عليه او الروح وقرئ لتنذر على ان الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام او الروح لانها قد تؤنث (يوم التلاق) اما ظرف للمفعول الثانى اى لينذر الناس

ذلك لم يكذبهم الله تعالى اذلو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم الاترى انهم لما كذبوا في قولهم والله ربنا ما كنا مشركين كذبهم الله في ذلك فقال انظر كيف كذبوا واما قوله ظاهر الآية يمنع من اثبات حياة في القبر اذلو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لامرتين فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان مقصودهم تعديد اوقات البلاء والمحنة وهي اربعة الموتة الاولى والحياة في القبر والموتة الثانية والحياة في القيامة فهذه الاربعة اوقات البلاء والمحنة فاما الحياة في الدنيا فليست من اقسام اوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها (الثاني) لعلهم ذكروا الحياتين وهي الحياة في الدنيا والحياة في القيامة اما الحياة في القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقصر مدتها (الثالث) لعلهم لما صاروا احياء في القبور لم يموتوا بل بقوا احياء اما في السعادة واما في الشقاوة واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من ارادهم الله بالاستثناء في قوله فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله (الرابع) لو لم تثبت الحياة في القبر لزم ان لا يحصل الموت الامرة واحدة فكان اثبات الموت مرتين كذبا وهو على خلاف لفظ القرآن اما لو اثبتنا الحياة في القبر لزمنا اثبات الحياة ثلاث مرات والمذكور في القرآن مرتين اما المرة الثالثة فليس في اللفظ ما يدل على ثبوتها او عدمها فثبت ان نفي حياة القبر يقتضي ترك ما دل اللفظ عليه فاما اثبات حياة القبر فانه يقتضي اثبات شيء زائد على ما دل عليه اللفظ مع ان اللفظ لا اشعار فيه بثبوته ولا بعدمه فكان هذا اولى واما ما ذكروه في المعارضة الاولى فنقول قوله يحذر الآخرة تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت في القبر او في القيامة واما المعارضة الثانية فجوابها انا نرجح قولنا بالاحاديث الصحيحة الواردة في عذاب القبر واما الوجهان العقليان فدفوعان لانا اذا قلنا ان الانسان ليس عبارة من هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نوراني سار في هذا البدن كانت الاشكالات التي ذكرتموها غير واردة في هذا الباب والله اعلم (المسئلة الثانية) اعلم انا لما اثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل في حق بعضهم اربعة انواع من الحياة وثلاثة انواع من الموت والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم فهؤلاء اربع مراتب في الحياة حياتان في الدنيا وحياة في القبر وحياة رابعة في القيامة (المسئلة الثالثة) قوله اثنتين نعت لمصدر محذوف والتقدير اماتتين اثنتين ثم حكى الله عنهم انهم قالوا فاعترفنا بذنوبنا فان قيل الفاء في قوله فاعترفنا تقتضي ان تكون الاماتة مرتين والاحياء مرتين سببا لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية قلنا لانهم كانوا منكرين للبعث فلما شاهدوا الاحياء بعد الاماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الاقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الاقرار كالمسبب عن تلك الاحياء والاماتة ثم قال فهل الى خروج من سبيل اي هل الى نوع من الخروج سريع او بطيء من سبيل ام اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل اليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط واعلم

العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة لانه يتلاقى فيه الارواح والاجسام واهل السموات والارض او هو المفعول الثاني اتساعا او اصالة فانه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالانذار اصالة وقرئ لينذر على البناء للمفعول ورفع اليوم (يوم هم بارزون) بدل من يوم التلاق اي خارجون من قبورهم او ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل او اكمة او بناء لكون الارض يومئذ قاعا صفصفا ولا عليهم ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا وقيل ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الابدان او اعمالهم وسرائرهم (لا يخفى على الله منهم شيء) استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وازاحة لما كان يتوهمه المتوهمون في الدنيا من الاستتار توهما باطلا او خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون اي لا يخفى عليه تعالى شيء ما من اعيانهم واعمالهم واحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة او مستأنف يقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور احوالهم كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ اي ينادي

ان الجواب الصريح عنه ان يقال لا او نعم وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلاما يدل على انه لا سبيل لهم الى الخروج فقال ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا اى ذلكم الذى انتم فيه وهو ان لا سبيل لكم الى خروج قط انما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى وايمانكم بالاشراك به فالحكم لله حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدى وقوله العلى الكبير دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى ان عقابه لا يكون الا كذلك والمشبهة استدلوا بقوله تعالى العلى على العلو الاعلى فى الجهة وبقوله الكبير على كبر الجثة والذات وكل ذلك باطل لانا دللنا على ان الجسمية والمكان محالان فى حق الله تعالى فوجب ان يكون المراد من العلى الكبير لعلو والكبرياء بحسب القدرة والالهية * قوله تعالى (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) اعلم انه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد فى حق المشركين اردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير ذلك دليلا على انه لا يجوز جعل هذه الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله تعالى فى المعبودية فقال هو الذى يريكم آياته واعلم ان اهم المهمات رعاية مصالح الاديان ومصالح الابدان فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح اديان العباد باظهار البينات والآيات وراعى مصالح ابدانهم بانزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الاديان كموقع الارزاق من الابدان فالآيات لحياة الاديان والارزاق لحياة الابدان وعند حصولهما يحصل الانعام على اقوى الاعتبارات واكمل الجهات ثم قال وما يتذكر الا من ينيب والمعنى ان الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالامر المركوز فى العقل الا ان القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلى تلك الانوار فاذا اعرض العبد عنها واناب الى الله تعالى زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على الله تعالى فقال فادعوا الله مخلصين له الدين من الشرك ومن الالتفات الى غير الله ولو كره الكافرون قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد * قوله تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب) اعلم انه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه واكرامه كونه مظهرا للآيات منزلا للارزاق ذكر فى هذه الآية ثلاثة اخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح قال صاحب الكشاف ثلاثة اخبار لقوله هو مرتبة على قوله الذى يريكم او اخبار مبتدأ محذوف وهى مختلفة تعريفا وتنكيرا وقرئ رفيع الدرجات بالنصب على المدح واقول لا بد من تفسير هذه الصفات الثلاث (فالصفة الاولى) قوله رفيع الدرجات واعلم ان الرفيع يحتمل ان يكون المراد منه الرافع وان يكون المراد منه المرتفع اما اذا حملناه على الاول ففيه وجوه (الوجه الاول) انه تعالى يرفع

مناد لمن الملك اليوم فيجيبه اهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى انه يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد فى ارض بيضاء كانها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به ان ينادى مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع اسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الافاعيل لقبضة القدرة الالهية (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) الخ اما من تتمة الجواب لبيان حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التى هى الحكم السوى والقضاء الحق او حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب اى تجزى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير او شر (لا ظلم اليوم) بنقص ثواب اوزيادة عذاب (ان الله سريع الحساب) اى سريع حسابه تماما اذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن فيحاسب الخلائق قاطبة فى اقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما انه تعالى اذا اخذ فى حسابهم لم يقل اهل الجنة الا فيها ولا اهل النار الا فيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى الخ فان كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقى ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه او سريع مجيئا فيكون تعليلا للانذار

درجات الانبياء والاولياء فى الجنة (والثانى) رافع درجات الخلق فى العلوم والاخلاق الفاضـلة. فهو سبحانه عين لكل احد من الملائكة درجة معينة كما قال وما منا الا له مقام معلوم وعين لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وعين لكل جسم درجة معينة فجعل بعضها سفلية عنصرية وبعضها فلكية كوكبية وبعضها من جواهر العرش والكرسى فجعل لبعضهـا درجة اعلى من درجة الثانى وايضا جعل لكل احد مرتبة معينة فى الخلق والرزق والاجل فقال وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وجعل لكل احد من السعداء والاشقياء فى الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفى الآخرة لظهور آثار تلك السعادة والشقاوة فاذا حملنا الرفيع على الرافع كان معناه ما ذكرناه واما اذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه ارفع الموجودات فى جميع صفات الكمال والجلال اما فى اصل الوجود فهو ارفع الموجودات لانه واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن ومحتاج اليه واما فى دوام الوجود فهو ارفع الموجودات لانه واجب الوجود لذاته وهو الازلى والابدى والسرمدى الذى هو اول لكل ما سواه وليس له اول وآخر لكل ما سواه وليس له آخر واما فى العلم فلانه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات كما قال وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو واما فى القدرة فهو اعلى القـادرين وارفعهم لانه فى وجوده وجميع كمالات وجوده غنى عن كل ما سواه وكل سواه فانه محتاج فى وجوده وفى جميع كمالات وجوده اليه واما فى الوحدانية فهو الواحد الذى يمتنع ان يحصل له ضد وند وشريك ونظير واقول الحق سبحانه له صفتان (احدهما) استغناؤه فى وجوده وفى جميع صفات وجوده عن كل ما سواه (والثانى) افتقار كل ما سواه اليه فى وجوده وفى صفات وجوده فالرفيع ان فسرناه بالمرتفع كان معنـاه انه ارفع الموجوات واعلاها فى جميع صفات الجلال والاكرام وان فسرناه بالرافع كان معناه ان كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشئ سواه فانما حصلت بايجاده وتكوينه وفضله ورحمته (الصفة الثانية) قوله ذو العرش ومعناه انه مالك العرش ومدبره وخالقه واحتج بعض الاغمار من المشبهة بقوله رفيع الدرجات ذو العرش وحملوه على ان المراد بالدرجات السموات وبقوله ذو العرش انه موجود فى العرش فوق سبع سموات وقد اعظموا الفرية على الله تعـالى فانا بينـا بالدلائل القاهرة العقلية والنقلية ان كونه تعالى جسما وفى جهة محال ايضـا فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه لان قوله ذو العرش لا يفيد الا اضافته الى العرش ويكفى فيـه اضافته اليه بكونه مالكا له ومخرجا له من العـدم الى الوجود فاى ضرورة تدعونا الى الذهاب الى القول الباطل والمذهب الفاسد والفائدة فى تخصيص العرش بالذكر هو انه اعظم الاجسـام والمقصود بيـان كمال الهيبة ونفاذ قدرته فكل ما كان محل التصرف والتدبير اعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى (الصفة الثالثة) قوله يلقى الروح من

امره على من يشاء من عباده وفيه مباحث (البحث الاول) اختلفوا فى المراد بهذا الروح والصحيح ان المراد هو الوحى وقد اطنبنا فى بيان انه لم سمى الوحى بالروح فى اول سورة النحل فى تفسير قوله ينزل الملائكة بالروح من امره وقال ايضا اومن كان ميتا فأحييناه وحاصل الكلام فيه ان حياة الارواح بالمعارف الالهية والجلايا القدسية فاذا كان الوحى سببا لحصول هذه الارواح سمى بالروح فان الروح سبب لحصول الحياة والوحى سبب لحصول هذه الحياة الروحانية واعلم ان هذه الآية مشتملة على اسرار عجيبة من علوم المكاشفات وذلك لان كمال كبرياء الله تعالى لاتصل اليه العقول والافهام فالطريق الكامل فى تعريفه بقدر الطاقة البشرية ان يذكر ذلك الكلام على الوجه الكلى العقلى ثم يذكر عقيبه شئ من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلى ليصير الحصر بهذا الطريق معاضدا للعقل فههنا ايضا كذلك فقوله رفيع الدجات اما ان يكون بمعنى كونه رافعا للدرجات وهو اشارة الى تأثير قدرة الله تعالى فى ايجاد الممكنات على اختلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها او الى كونه تعالى مرتفعا فى صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات فهذا الكلام كلى عقلى برهانى ثم انه سبحانه بين هذا الكلام الكلى بمزيد تقرير وذلك لان ماسوى الله تعالى اما جسمانيات واما روحانيات فبين فى هذه الآية ان كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى اما الجسمانيات فأعظمها العرش فقوله ذو العرش يدل على استيلائه على كلية عالم الاجسام ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكدا لذلك المعقول اعنى قوله رفيع الدرجات واما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه واليه الاشارة بقوله يلقى الروح من امره واعلم ان اشرف الاحوال الظاهرة فى روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحى والوحى انما يتم باركان اربعة (فاولها) المرسل وهو الله سبحانه وتعالى فلهذا اضاف القاء الوحى الى نفسه فقال يلقى الروح (والركن الثانى) الارسال والوحى هو الذى سماه بالروح (والركن الثالث) ان وصول الوحى من الله تعالى الى الانبياء لايمكن ان يكون الا بواسطة الملائكة وهو المشار اليه فى هذه الآية بقوله من امره فالركن الروحانى يسمى امرا قال تعالى وأوحى فى كل سما امرها وقال الا له الخلق والامر (والركن الرابع) الانبياء الذين يلقى الله الوحى اليهم وهو المشار اليه بقوله على من يشاء من عباده (والركن الخامس) تعيين الغرض والمقصود الاصلى من القاء هذا الوحى اليهم وذلك هو ان الانبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من عالم الدنيا الى عالم الآخرة ويحملونهم على الاعراض عن هذه الجسمانيات والاقبال على الروحانيات واليه الاشارة بقوله لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الاشارات العالية من علوم المكاشفات الالهية وبقى ههنا ان نبين انه ما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق وكم الصفات التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ليوم التلاق اما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه

(وجوه)

وجوه (الاول) ان الارواح كانت متباينة عن الاجساد فاذا جاء يوم القيمة صارت الارواح ملاقية للاجساد فكان ذلك اليوم يوم التلاق (الثانى) ان الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال البعض (الثالث) ان اهل السماء ينزلون على اهل الارض فيلتقى فيه اهل السماء واهل الارض قال تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (الرابع) ان كل احد يصل الى جزاء عمله فى ذلك اليوم فكان ذلك من باب التلاق وهو مأخوذ من قولهم فلان لقى عمله (الخامس) يمكن ان يكون ذلك مأخوذا من قوله فمن كان يرجو لقاء ربه ومن قوله تحيتهم يوم يلقونه سلام (السادس) يوم يلتقى فيه العابدون والمعبودون (السابع) يوم يلتقى فيه آدم عليه السلام وآخر ولده (الثامن) قال ميمون بن مهران يوم يلتقى فيه الظالم والمظلوم فربما ظلم الرجل رجلا وانفصل عنه ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه ففى يوم القيمة يحضران ويلقى بعضهم بعضا قرأ ابن كثير التلاقى والتنادى باثبات الياء فى الوصل والوقف وهادى وواقى بالياء فى الوقف وبالتنوين فى الوصل واما بيان ان الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيمة فى هذه الآية فنقول (الصفة الاولى) كونه يوم التلاق وقد ذكرنا تفسيره (الصفة الثانية) قوله يوم هم بارزون وفى تفسير هذا البروز وجوه (الاول) انهم برزوا عن بواطن القبور (والثانى) بارزون أى ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل او اكمة او بناء لان الارض بارزة قاع صفصف وليس عليهم أيضا ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا (الثالث) ان يجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور اعمالهم وانكشاف اسرارهم كما قال تعالى يوم تبلى السرائر (الرابع) ان هذه النفوس الناطقة البشرية كأنها فى الدنيا انغمست فى ظلمات اعمال الابدان فاذا جاء يوم القيامة اعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية الى عالم القيامة ومجمع الروحانيات فكأنها برزت بعد ان كانت كامنة فى الجسمانيات مستترة بها (الصفة الثالثة) قوله لا يخفى على الله منهم شئ والمراد يوم لا يخفى على الله منهم شئ والمقصود منه الوعيد فانه تعالى بين انهم اذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا فان الله تعالى يعلم مافعله كل واحد منهم فيجازى كلا بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهم وان لم يعلموا تفصيل مافعلوه فالله تعالى عالم بذلك ونظيره قوله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية وقال يوم تبلى السرائر وقال اذا بعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور وقال يومئذ تحدث أخبارها فان قيل الله تعالى لا يخفى عليه منهم شئ فى جميع الايام فامعنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم قلنا انهم كانوا يتوهمون فى الدنيا اذا استتروا بالحيطان والحجب ان الله لا يراهم ويخفى عليه اعمالهم فهم فى ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف الى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه فى الدنيا قال تعالى ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وقال يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معنى قوله وبرزوا لله الواحد القهار (الصفة الرابعة) قوله

تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار والتقدير يوم ينادى فيه لمن الملك اليوم وهذا النداء فى أى الاوقات يحصل فيه قولان (الاول) قال المفسرون اذاهلك كل من فى السموات ومن فى الارض فيقول الرب تعالى لمن الملك اليوم يعنى يوم القيمة فلا يجيبه احد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول لله الواحد القهار قال اهل الاصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى بين ان هذا النداء انما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت والناس فى ذلك الوقت احياء فبطل قولهم ان الله تعالى انما ينادى بهذا النداء حين هلك كل من فى السموات والارض (والثانى) ان الكلام لابد فيه من فائدة لان الكلام اما ان يذكر حال حضور الغير او حال مالا يحضر الغير والاول باطل ههنا لان القوم قالوا انه تعالى انما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل والثانى أيضا باطل لان الرجل انما يحسن تكلمه حال كونه وحده امالانه يحفظ به شيئا كالذى يكرر على الدرس وذلك على الله محال او لاجل انه يحصل له سرور بما يقوله وذلك أيضا على الله محال او لاجل ان يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضا على الله محال فثبت ان قول من يقول ان الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لااصل له (والقول الثانى) ان فى يوم التلاق اذا حضر الاولون والآخرون وبرزوا لله نادى مناد لمن الملك اليوم فيقول كل الحاضرين فى محفل القيمة لله الواحد القهار فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة والكفار يقولونه على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على ان فاتهم هذا الذكر فى الدنيا وقال القائلون بهذا القول ان صح القول الاول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع ان يكون المراد ان هذا النداء يذكر بعد فناء البشر الا انه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء وأقول ايضا على هذا القول لايبعد ان يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولايبعد ايضا ان يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمعا آخرين والكل ممكن وليس على التعيين دليل فان قيل وما الفائدة فى تخصيص هذا اليوم بهذا النداء فنقول الناس كانوا مغرورين فى الدنيا بالاسباب الظاهرة وكان الشيخ الامام الوالد عمر رضى الله عنه يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب وفى يوم القيامة زالت الاسباب وانعزلت الارباب ولم يبق البتة غير حكم مسبب الاسباب فلهذا اختص النداء بيوم القيامة واعلم انه وان كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم الا ان قوله لله الواحد القهار يفيد ان هذا النداء حاصل من جهة المعنى ابدا وذلك لان قولنا الله اسم لواجب الوجود لذاته وواجب الوجود لذاته واحد وكل ماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته لايوجد الا بايجاد الواجب لذاته ومعنى الايجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح فثبت ان الاله القهار واحد أبدا وان نداء لمن الملك اليوم انما ظهر من كونه واحدا قهارا فاذا كان كونه قهارا باقيا من الازل الى الابد لاجرم كان نداء لمن الملك اليوم

(باقيا)

باقيا فى جانب المعنى من الازل الى الابد (الصفة الخامسة) من صفات ذلك اليوم قوله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت واعلم انه سبحانه لماشرح صفات القهر فى ذلك اليوم اردفه ببيان صفات العدل والفضل فى ذلك اليوم فقال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا الكلام اشتمل على امور ثلاثة (اولها) اثبات الكسب للانسان (والثانى) ان كسبه يوجب الجزاء (والثالث) ان ذلك الجزاء انما يستوفى فى ذلك اليوم فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الاصول الثلاثة فى هذا الكتاب وهى اصول عظيمة الموقع فى الدين وقدسبق تقرير هذه الاصول مرارا ولابأس بذكر بعض النكت فى تقرير هذه الاصول اما الاول فهو اثبات الكسب للانسان وهو عبارة عن كون اعضائه سليمة صالحة للفعل والترك فادام بقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه فاذا انضاف اليه الداعى الى الفعل او الداعى الى الترك وجب صدور ذلك الفعل او الترك عنه واما الثانى وهو بيان ترتب الجزاء عليه فاعلم ان الافعال على قسمين منها مايكون الداعى اليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة فى عالم الدنيا ومنها مايكون الداعى اليه طلب الخيرات الروحانية التى لايظهر كمالها الا فى عالم الآخرة وقد ثبت بالتجربة ان كثرة الافعال سبب لحصول الملكات الراسخة فمن غلب عليه القسم الاول استحكمت رغبته فى الدنيا وفى الجسمانيات فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين مطلوبه على اعظم الوجوه ويعظم عليه البلاء ومن غلب عليه القسم الثانى فعند الموت يفارق المبغوض ويتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء فهذا هو معنى الكسب ومعنى كون ذلك الكسب موجبا للجزاء فظهر بهذا ان كمال الجزاء لايحصل الا فى يوم القيامة فهذا قانون كلى عقلى والشريعة الحقة أتت بما يقوى هذا القانون الكلى فى تفاصيل الاعمال والاقوال والله اعلم (المسئلة الثانية) هذه الآية أصل عظيم فى اصول الفقه وذلك لانا نقول لو كان شئ من انواع الضرر مشروعا لكان اما ان يكون مشروعا لكونه جزاء على شئ من الجنايات اولا لكونه جزاء والقسمان باطلان فبطل القول بكونه مشروعا اما بيان انه لايجوز ان يكون مشروعا ليكون جزاء على شئ من الاعمال فلان هذا النص يقتضى تأخير الاجزية الى يوم القيامة فاثباته فى الدنيا يكون على خلاف هذا النص واما بيان انه لايجوز ان يكون مشروعا للجزاء لقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ولقوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج ولقوله صلى الله عليه وسلم لاضرر ولاضرار فى الاسلام عدلنا عن هذه العمومات فيما اذا كانت المضار اجزية وفيما ورد نص فى الاذن فيه كذبح الحيوانات فوجب ان يبقى على اصل الحرمة فيما عداه فثبت بما ذكرنا ان الاصل فى المضار والآلام التحريم فان وجدنا نصا خاصا يدل على الشرعية قضينا به تقديما للخاص على العام والا فهو باق على اصل التحريم وهذا اصل كلى منتفع به فى الشريعة والله اعلم (الصفة السادسة) من صفات ذلك اليوم قوله لاظلم

اليوم والمقصود انه لما قال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت اردفه بمايدل على انه لايقع في ذلك اليوم نوع من انواع الظلم قال المحققون وقوع الظلم في الجزاء يقع على اربعة اقسام (احدها) ان يستحق الرجل ثوابا فيمنع منه (وثانيها) ان يعطى بعض حقه ولكن لايوصل اليه حقه بالتمام (وثالثها) ان يعذب من لايستحق العذاب (ورابعها) ان يكون الرجل مستحقا للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى لا ظلم اليوم يفيد نفى هذه الاقسام الاربعة قال القاضى هذه الآية قوية فى ابطال قول الجبرة لان على قولهم لا ظلم غائبا وشاهدا الا من الله ولانه تعالى اذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم ثم قال تعالى ان الله سريع الحساب وذكر هذا الكلام فى هذا الموضع لائق جدا لانه تعالى لما بين انه لا ظلم بين انه سريع الحساب وذلك يدل على انه يصل اليهم مايستحقونه فى الحال والله اعلم ❊ قوله تعالى (وانذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشئ ان الله هو السميع البصير اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم اشد منهم قوة وآثارا فى الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب) اعلم ان المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع اخرى من الصفات الهائلة المهيبة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير يوم الآزفة وجوها (الاول) ان يوم الآزفة هو يوم القيامة والآزفة فاعلة من ازف الامر اذا دنا وحضر لقوله فى صفة يوم القيامة ازفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة وقال الشاعر

ازف الترحل غير ان ركابنا ❊ لما تزل برحالنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على ان يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى اقتربت الساعة قال الزجاج انما قيل لها آزفة لانها قريبة وان استبعد الناس مداها وما هو كائن فهو قريب واعلم ان الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة او يوم المجازاة الآزفة قال القفال واسماء القيامة تجرى على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها كأنها يرجع معناها الى الداهية (والقول الثانى) ان المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهى مسارعتهم دخول النار فان عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف (والقول الثالث) قال ابو مسلم يوم الآزفة يوم المنية وحضور الاجل والذى يدل عليه انه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ويوم هم بارزون ثم قال بعده وانذرهم يوم الآزفة فوجب ان يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم وايضا هذه الصفة مخصوصة فى سائر الآيات بيوم الموت قال تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون وقال كلا اذا بلغت التراقى وايضا فوصف يوم الموت بالقرب اولى من وصف يوم القيامة بالقرب وايضا الصفات المذكورة بعد قوله يوم

(وانذرهم يوم الآزفة) اى القيامة سميت بها لازوفها وهو القرب غير ان فيه اشعارا بضيق الوقت وقيل الخطة الآزفة وهى مشارفة اهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما فى قوله تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وقوله كلا اذا بلغت التراقى وقوله تعالى (اذ القلوب لدى الحناجر) بدل من يوم الآزفة فانها ترتفع من اماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت (كاظمين) على الغم حال من اصحاب القلوب على المعنى اذ الاصل قلوبهم او من ضميرها فى الظرف وجمع السلامة باعتبار ان الكظم من احوال العقلاء كقوله تعالى فظلت اعناقهم لها خاضعين او من مفعول انذرهم على انها حال مقدرة اى انذرهم مقدرا كظمهم او مشارفين الكظم (ما للظالمين من حميم) اى قريب مشفق (ولا شفيع يطاع) اى لا شفيع مشفع على معنى نفى الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله

الآزفة لانقة بيوم حضور الموت لان الرجل عندمعاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه فكان قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف ويبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما فى قلوبهم من شدة الخوف ولا يكون لهم حميم ولا شفيع يدفع مابهم من انواع الخوف و القلق (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان المراد من قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين كناية عن شدة الخوف او هو محمول على ظاهره قيل المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع ونظيره قوله تعالى وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا وقال فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون وقيل بل هو محمول على ظاهره قال الحسن القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف وبلغت القلوب الحناجر فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع الى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقوله كاظمين اى مكروبين والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا فان قيل بم انتصب كاظمين قلنا هو حال عن اصحاب القلوب على المعنى لان المراد اذ قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاظمين ويجوز ايضا ان يكون حالا عن القلوب وان القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وانما جمع الكاظمة جمع السلامة لانه وصفها بالكظم الذى هو من افعال العقلاء كما قال رأيتهم لى ساجدين وقال فظلت اعناقهم لها خاضعين ويعضده قراءة من قرأ كاظمون وبالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين (احدهما) الخوف الشديد وهو المراد من قوله اذ القلوب لدى الحناجر (والثانى) العجز عن الكلام وهو المراد من قوله كاظمين فان الملهوف اذا قدر على الكلام حصلت له خفة وسكون اما اذا لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم قلقه وقوى خوفه (المسئلة الثالثة) احتج اكثر المعتزلة فى نفى الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع قالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع فوجب ان لا يحصل لهم هذا الشفيع اجاب اصحابنا عنه من وجوه (الاول) انه تعالى نفى ان يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفى الشفيع الا ترى انك اذا قلت ما عندى كتاب يباع فهذا يقتضى نفى كتاب يباع ولا يقتضى نفى الكتاب وقالت العرب * ولا ترى الضب بها ينجحر * ولفظ الطاعة يقتضى حصول المرتبة فهذا يدل على انه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله لانه ليس فى الوجود احد اعلى حالا من الله تعالى حتى يقال ان الله يطيعه (الوجه الثانى) فى الجواب ان المراد من الظالمين ههنا الكفار والدليل عليه ان هذه الآية وردت فى زجر الكفار الذين يجادلون فى آيات الله فوجب ان يكون مختصا بهم وعندنا انه لا شفاعة فى حق الكفار (الثالث) ان لفظ الظالمين اما ان يفيد الاستغراق واما ان لا يفيد فان افاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم ويدخل فى مجموع هذا الكلام الكفار وعندنا انه ليس لهذا المجموع شفيع لان بعض هذا المجموع هم الكفار وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع وان لم يفد الاستغراق كان المراد من

* على لاحب لا يهتدى بمناره * والضمائر ان عادت الى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به (يعلم خائنة الاعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه او خيانة الاعين على انها مصدر كالعافية (وما تخفى الصدور) من الضمائر والاسرار والجملة خبر آخر مثل يلقى الروح للدلالة على انه ما من خفى الا وهو متعلق العلم والجزاء (والله يقضى بالحق) لانه المالك الحاكم على الاطلاق فلا يقضى بشئ الا وهو حق وعدل (والذين يدعون) يعبدونهم (من دونه) تعالى (لا يقضون بشئ) تهكم بهم لان الجماد لا يقال فى حقه يقضى او لا يقضى وقرئ تدعون على الخطاب التفاتا او على اضمار قل (ان الله هو السميع البصير) تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه (اولم يسيروا فى الارض فينظروا

الظالمين بعض من كان موصوفا بهذه الصفة وعندنا ان بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكافرون أجاب المستدلون عن السؤال الاول فقالوا يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكل احد يعلم انه ليس فى الوجود شئ يطيعه الله لان المطيع ادون حالا من المطاع وليس فى الوجود شئ اعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال ان الله يطيعه واذا كان هذا المعنى معلوما بالضرورة كان حمل الآية عليه اخراجا لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الاجابة والذى يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الاجابة قول الشاعر

رب من انضجت غيظا صدره * قد تمنى لى موتا لم يطع

(واما السؤال الثانى) فقد اجابوا عنه بان لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم اقصى ما فى الباب ان هذه الآية وردت لذم الكفار الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (واما السؤال الثالث) فجوابه ان قوله ما للظالمين من حميم يفيد ان كل واحد من الظالمين محكوم عليه بانه ليس له حميم ولا شفيع يطاع فهذا تمام كلام القوم فى تقرير ذلك الاستدلال اجاب اصحابنا عن السؤال الاول فقالوا ان القوم كانوا يقولون فى الاصنام انه شفعاؤنا عند الله وكانوا يقولون انها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه الى اذن الله ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه فهذا يدل على ان القوم اعتقدوا انه يجب على الله اجابة الاصنام فى تلك الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع واجابوا عن الكلام الثانى بأن قالوا الاصل فى حرف التعريف ان ينصرف الى المعهود السابق فاذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف اليه وقد حصل فى هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون فى آيات الله فوجب ان ينصرف اليه واجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يحتمل عموم السلب ويحتمل سلب العموم اما الاول فعلى تقدير ان يكون المعنى ان كل واحد من الظالمين محكوم عليه بانه ليس له حميم ولا شفيع واما الثانى فعلى تقدير ان يكون المعنى ان مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع فلا يلزم من نفى الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذى يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون فقوله ان الذين كفروا لا يؤمنون ان حملناه على ان كل واحد منهم محكوم عليه بانه لا يؤمن لزم وقوع الخلف فى كلام الله لان كثيرا ممن كفر فقد آمن بعد ذلك اما لو حملناه على ان مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم او لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام فى هذا الباب (المسئلة الرابعة) فى بيان نظم الآية فنقول انه تعالى

كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) اى مآل حال من قبلهم من الامم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود واضرابهم (كانوا هم اشد منهم قوة) قدرة وتمكنا من التصرفات وانما جئ بضمير الفصل مع ان حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة افعل من للمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه وقرئ اشد منكم بالكاف (وآثارا فى الارض) مثل القلاع الحصينة والمدائن المتينة وقيل المعنى واكثر آثارا كقوله * متقلدا سيفا ورمحا * (فأخذهم الله بذنوبهم) اخذا وبيلا (وما كان لهم من الله من واق) اى من واق يقيهم عذاب الله (ذلك) اى ما ذكر من الاخذ (بأنهم) بسبب انهم (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) اى بالمعجزات او بالاحكام الظاهرة (فكفروا فأخذهم الله انه قوى) متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه عند عقابه بعقاب

ذكر فى هذه الآية جميع الاسباب الموجبة للخوف (فأولها) انه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة اى يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنب العظيم لانه اذا قرب زمان عقوبته كان فى اقصى غايات الخوف حتى قيل ان تلك الغموم والهموم اعظم فى الايحاش من عين تلك العقوبة (والثانية) قوله اذ القلوب لدى الحناجر والمعنى انه بلغ ذلك الخوف الى ان انقلع القلب من الصدر وارتفع الى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس (والثالثة) قوله كاظمين والمعنى انه لا يمكنهم ان ينطقوا وان يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب (والرابعة) قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع فبين انه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته (والخامسة) قوله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور والمعنى انه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض والحاكم اذا بلغ فى العلم الى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا قال صاحب الكشاف الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد استراق النظر الى ما لا يحل كما يفعل اهل الريب والمراد بقوله وما تخفى الصدور مضمرات القلوب والحاصل ان الافعال قسمان افعال الجوارح وافعال القلوب اما افعال الجوارح فاخفاها خائنة الاعين والله اعلم بها فكيف الحال فى سائر الاعمال واما افعال القلوب فهى معلومة لله تعالى لقوله وما تخفى الصدور فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع افعالهم (السادسة) قوله تعالى والله يقضى بالحق وهذا ايضا يوجب عظم الخوف لان الحاكم اذا كان عالما بجميع الاحوال وثبت منه انه لا يقضى الا بالحق فى كل مادق وجل كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى (السابعة) ان الكفار انما عولوا فى دفع العقاب عن انفسهم على شفاعة هذه الاصنام وقد بين الله تعالى انه لا فائدة فيها البتة فقال والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ (الثامنة) قوله ان الله هو السميع البصير اى يسمع من الكفار ثناءهم على الاصنام ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله فهذه الاحوال الثمانية اذا اجتمعت فى حق المذنب الذى عظم ذنبه كان بالغا فى التخويف الى الحد الذى لا تعقل الزيادة عليه ثم انه تعالى لما بالغ فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة اردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم والمعنى ان العاقل من اعتبر بغيره فان الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى آثارا فى الارض منهم والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى ان هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول وبين بقوله وما كان لهم من الله من واق انه لما نزل العذاب بهم عند اخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم ثم بين ان ذلك نزل بهم لاجل انهم كفروا وكذبوا الرسل فحذر قوم الرسول من مثله وختم الكلام بانه قوى شديد العقاب مبالغة

(ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) وهى معجزاته (وسلطان مبين) اى وحجة قاهرة وهى اما عين الآيات والعطف لتغاير العنوانين واما بعض مشاهيرها كالعصا افردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لانافتها افراد جبريل وميكال به مع دخولهما فى الملائكة عليهم السلام (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) اى فيما اظهره من المعجزات وفيما ادعاه من رسالة رب العالمين (فلما جاءهم بالحق من عندنا) وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة (قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) كما قال فرعون سنقتل ابناءهم ونستحيى نساءهم اى اعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه اولا وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث عليه الصلاة والسلام واحس بأنه قد وقع ما وقع اعاده عليه غيظا وحنقا وزعما منه انه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنا منهم انه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده (وما كيد الكافرين الا فى ضلال) اى فى ضياع وبطلان لا يغنى عنهم شيئا وينفذ عليهم لا محالة لقدر المقدور والقضاء المحتوم واللام اما للعهد

فى التحذير والتخويف والله اعلم وقرأ ابن عامر وحده كانوا هم اشد منكم بالكاف والباقون بالهاء (اما وجه) قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة الى الخطاب كقوله اياك نعبد واياك نستعين بعد قوله الحمد لله والوجه فى حسن هذا الخطاب انه فى شان اهل مكة فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم وهذه الآية فى المعنى كقوله مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم واما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلاجل موافقة ماقبله من الفاظ الغيبة ❊ قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين الا فى ضلال وقال فرعون ذرونى اقتل موسى وليدع ربه انى أخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر فى الارض الفساد وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) واعلم انه تعالى لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الانبياء قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام وانه مع قوة معجزاته بعثه الى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه وقالوا هو ساحر كذاب واعلم ان موسى عليه السلام لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة وبالنبوة وهى المراد بقوله فلما جاءهم بالحق من عندنا حكى الله تعالى عنهم ماصدر عنهم من الجهالات (فالاول) انهم وصفوه بكونه ساحرا كذابا وهذا فى غاية البعد لان تلك المعجزات كانت قد بلغت فى القوة والظهور الى حيث يشهد كل ذى عقل سليم بانه ليس من السحر البتة (الثانى) انهم قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم والصحيح ان هذا القتل غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى عليه السلام لان فى ذلك الوقت اخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه فأمر بقتل الابناء فى ذلك الوقت واما فى هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاءه واظهر المعجزات الظاهرة فعند هذا امر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشؤا على دين موسى فيقوى بهم وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات فلهذا السبب امر بقتل الابناء ثم قال تعالى وما كيد الكافرين الا فى ضلال ومعناه ان جميع مايسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل لان ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (النوع الثالث) من قبائح افعال اولئك الكفار مع موسى عليه السلام ماحكاه الله تعالى وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وهذا الكلام كالدلالة على انهم كانوا يمنعونه من قتله وفيه احتمالان (الاول) انهم منعوه عن قتله لوجوه (الاول) لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيأتى بوجوه الحيل فى منع فرعون من قتله (الثانى) قال الحسن ان اصحابه قالوا له لا تقتله فانما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه ان يغلب سحرتك وان قتلته ادخلت الشبهة على الناس وقالوا انه كان محقا وعجزوا عن جوابه فقتلوه (الثالث) لعلهم كانوا يحتالون فى منعه من قتله لاجل ان يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب اولئك الاقوام فان من شأن الامراء ان يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجى حتى

والاظهار فى موقع الاضمار لذمهم بالكفر والاشعار بعلة الحكم اوللجنس وهم داخلون فيه دخولا اوليا والجملة اعتراض جئ به فى تضاعيف ماحكى عنهم من الاباطيل للمسارعة الى بيان بطلان ماظهروه من الابراق والارعاد واضمحلاله بالمرة (وقال فرعون ذرونى اقتل موسى) كان ملؤه اذا هم بقتله عليه الصلاة والسلام كفوه بقولهم ليس هذا بالذى تخافه فانه اقل من ذلك واضعف وما هو الا بعض السحرة وبقولهم اذا قتلته ادخلت على الناس شبهة واعتقدوا انك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت الى المقارعة بالسيف والظاهر من دهاء اللعين ونكارته انه كان قد استيقن انه نبى وان ماجاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن كان يخاف ان هم بقتله ان يعاجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويها على قومه وايهاما انهم هم الكافون له من قتله ولولاهم لقتله وما كان الذى يكفه الا ما فى نفسه عن الفزع الهائل وقوله (وليدع ربه) تجلد منه واظهار لعدم المبالاة بدعائه ولكنه اخوف ما يخافه (انى اخاف) ان لم اقتله (ان يبدل دينكم) ان يغير ما انتم عليه من الدين الذى هو عبارة عن

يصير وا آمنين من شر ذلك الملك (والاحتمال الثانى) ان احدا مامنع فرعون من قتل موسى وانه كان يريد ان يقتله الا انه كان خائفا من انه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح الا انه لوقاحته قال ذرونى اقتل موسى وغرضه منه انه يوهم انه انما امتنع عن قتله رعاية لقلوب اصحابه وغرضه منه اخفاء خوفه اماقوله وليدع ربه فانما ذكره على سبيل الاستهزاء يعنى انى اقتله فليقل لربه حتى يخلصه منى واما قوله انى اخاف ان يبدل دينكم اوان يظهر فى الارض الفساد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فتح ابن كثير الياء من قوله ذرونى وفتح نافع وابن كثير وابو عمرو الياء من انى اخاف وايضا قرأ نافع وابو عمرو وان يظهر بالواو بحذف او يعنى انه يجمع بين تبديل الدين وبين اظهار الفاسد والذين قرؤا بصيغة او فمعناه انه لابد من وقوع احد الامرين وقرئ يظهر بضم الياء وكسر الهاء الفساد بالنصب على التعدية وقرأ حمزة والكسائى وابو بكر عن عاصم بلفظ او يظهر بفتح الياء والهاء الفساد بالرفع اماوجه القراءة الاولى فهو انه اسند الفعل الى موسى فى قوله يبدل فكذلك فى يظهر ليكون الكلام على نسق واحد واماوجه القراءة الثانية فهو انه اذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل (المسئلة الثانية) المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو ان وجوده يوجب اما فساد الدين او فساد الدنيا اما فساد الدين فلان القوم اعتقدوا ان الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه فلما كان موسى ساعيا فى افساده كان فى اعتقادهم انه ساع فى افساد الدين الحق واما فساد الدنيا فهو انه لابد وان يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات واثارة الفتن ولما كان حب الناس لاديانهم فوق حبهم لاموالهم لاجرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال انى اخاف ان يبدل دينكم ثم اتبعه بذكر فساد الدنيا فقال اوان يظهر فى الارض الفساد واعلم انه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ماذكره موسى عليه السلام فحكى عنه انه قال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابو بكر وحمزة والكسائى عدت بادغام الذال فى التاء والباقون بالاظهار (المسئلة الثانية) المعنى انه لم يأت فى دفع شره الا بان استعاذ بالله واعتمد على فضل الله فلا جرم صانه الله عن كل بلية واوصله الى كل امنية واعلم ان هذه الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد (الفائدة الاولى) ان لفظة انى تدل على التأكيد فهذا يدل على ان الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى (الفائدة الثانية) انه قال انى عذت بربى وربكم فكما ان عند القراءة يقول المسلم اعوذ بالله من الشيطان الرجيم فالله تعالى يصون دينه واخلاصه عن وساوس شياطين الجن فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الانس اذا قال المسلم اعوذ بالله فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات (الفائدة الثالثة) قوله ربى وربكم والمعنى كأن العبد يقول ان الله سبحانه هو الذى ربانى والى درجات الخيرات رقانى

عبادته وعبادة الاصنام لتقربهم اليه (اوان يظهر فى الارض الفساد) مايفسد دنياكم من التحارب والتهارج ان لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرئ بالواو الجامعة وقرئ بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرئ يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر اى تتابع وتعاون (وقال موسى) اى لقومه حين سمع بماتقوله اللعين من حديث قتله عليه الصلاة والسلام (انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) صدر عليه الصلاة والسلام كلامه بأن تأكيداله واظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية لانهما الذى يستدعيه واضافه اليه واليهم حثالهم على موافقته فى العياذ به تعالى والتوكل عليه فان فى تظاهر النفوس تأثيرا قويا فى استجلاب الاجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة والاشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى وقرئ عدت بالادغام (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) قيل كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا وقيل كان اسرائيليا او غريبا موحدا

ومن الآفات وقانى واعطانى نعماً لاحد لها ولا حصر فلما كان المولى ليس الا الله وجب ان لا يرجع العاقل فى دفع كل الآفات الا الى حفظ الله تعالى (الفائدة الرابعة) ان قوله وربكم فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على ان يقتدوا به فى الاستعاذة بالله والمعنى فيه ان الارواح الطاهرة القوية اذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جدا وذلك هو السبب الاصلى فى اداء الصلوات فى الجماعات (الفائدة الخامسة) انه لم يذكر فرعون فى هذا الدعاء لانه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه فترك التعيين رعاية لذلك الحق (الفائدة السادسة) ان فرعون وان كان قد اظهر ذلك الفعل الا انه لا فائدة فى الدعاء على فرعون بعينه بل الاولى الاستعاذة بالله فى دفع كل من كان موصوفا بتلك الصفة حتى يدخل فيه كل من كان عدوا سواء كان مظهرا لتلك العدواة او كان مخفيا لها (الفائدة السابعة) ان الموجب للاقدام على ايذاء الناس امران (احدهما) كون الانسان متكبرا قاسى القلب (والثانى) كونه منكرا للبعث والقيامة وذلك لان المتكبر القاسى قد يحمله طبعه على ايذاء الناس الا انه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له من الجرى على موجب تكبره فاذا لم يحصل عنده الايمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له الى الايذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلا واذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلا فلا جرم تحصل القسوة والايذاء (الفائدة الثامنة) ان فرعون لما قال ذرونى اقتل موسى قال على سبيل الاستهزاء وليدع ربه فقال موسى ان الذى ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير وانا ادعو ربى واطلب منه ان يدفع شرك عنى وسترى ان ربى كيف يقهرك وكيف يسلطنى عليك واعلم ان من احاط عقله بهذه الفوائد علم انه لا طريق اصلح ولا اصوب فى دفع كيد الاعداء وابطال مكرهم الا الاستعاذة بالله والرجوع الى حفظ الله والله اعلم ❊ قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) اعلم انه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام انه مازاد فى دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله بين انه تعالى قيض انسانا اجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على احسن الوجوه وبالغ فى تسكين تلك الفتنة واجتهد فى ازالة ذلك الشر ❊ يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله ولقد جربت فى احوال نفسى انه كلما قصدنى شرير بشر ولم اتعرض له واكتفى بتفويض ذلك الامر الى الله فانه سبحانه يقيض اقواما لا اعرفهم البتة يبالغون فى دفع ذلك الشر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ذلك الرجل الذى كان من آل فرعون فقيل انه كان ابن عم له وكان جاريا مجرى ولى العهد ومجرى صاحب الشرطة وقيل كان قبطيا من آل فرعون وما كان من اقاربه وقيل انه كان من بنى اسرائيل والقول الاول اقرب لان لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة قال تعالى

(يكتم ايمانه) اى من فرعون وملئه (أتقتلون رجلا) اتقصدون قتله (ان يقول) لأن يقول او كراهة ان يقول (ربى الله) اى وحده من غير روية وتأمل فى أمره (وقد جاءكم بالبينات) والحال انه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها وعهدتموها (من ربكم) أضافه اليهم بعد ذكر البينات احتجاجا عليهم واستنزالا لهم عن رتبة المكابرة ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال (وان يك كاذبا فعليه كذبه) لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه الى قتله (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) اى ان لم يصبكم كله فلا اقل من اصابة بعضه لاسيما ان تعرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الانصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شقى الترديد كونه كاذبا او يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض ما يعدهم كأنه خوفهم بما هو اظهر احتمالا عندهم وتفسير البعض بالكل مستدلا بقول لبيد

تراك امكنة اذا لم ارضها
اويرتبط بعض النفوس حمامها

مردود لما ان مراده بالبعض نفسه (ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) احتجاج آخر ذو

الا آل لوط نجيناهم بسحر روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله والثالث على بن ابى طالب وهو افضلهم وعن جعفر بن محمد انه قال كان ابو بكر خيرا من مؤمن آل فرعون لانه كان يكتم ايمانه وقال ابو بكر جهارا أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله فكان ذلك سرا وهذا كان جهارا (المسئلة الثانية) لفظ من فى قوله من آل فرعون يجوز ان يكون متعلقا بقوله مؤمن اى كان ذلك المؤمن شخصا من آل فرعون ويجوز ان يكون متعلقا بقوله يكتم ايمانه والتقدير رجل مؤمن يكتم ايمانه من آل فرعون وقيل ان هذا الاحتمال غير جائز لانه لا يقال كتمت من فلان كذا انما يقال كتمته كذا قال تعالى ولا يكتمون الله حديثا (المسئلة الثالثة) رجل مؤمن الاكثرون قرؤا بضم الجيم وقرئ رجل بكسر الجيم كما يقال عضد فى عضد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله استفهام على سبيل الانكار وقد ذكر فى هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار وذلك لانه ما زاد على ان قال ربى الله وجاء بالبينات وذلك لا يوجب القتل البتة وقوله وقد جاءكم بالبينات من ربكم يحتمل وجهين (الاول) ان قوله ربى اشارة الى التوحيد وقوله وقد جاءكم بالبينات اشارة الى تقرير النبوة باظهار المعجزة (الثانى) ان قوله ربى الله اشارة الى التوحيد وقوله وقد جاءكم بالبينات اشارة الى الدلائل الدالة على التوحيد وهو قوله فى سورة طه ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله فى سورة الشعراء رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين الى آخر الآيات ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية فى ان الاقدام على قتله غير جائز وهى حجة مذكورة على طريقة التقسيم فقال ان كان هذا الرجل كاذبا كان وبال كذبه عائدا عليه فاتركوه وان كان صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم فثبت ان على كلا التقديرين كان الاولى ابقاءه حيا فان قيل السؤال على هذا الدليل من وجهين (الاول) ان قوله وان يك كاذبا فعليه كذبه معناه ان ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه وهذا الكلام فاسد لوجوه (احدها) انا لا نسلم ان بتقدير كونه كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه لانه يدعو الناس الى ذلك الدين الباطل فيغتر به جماعة منهم ويقعون فى المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة فثبت ان بتقدير كونه كاذبا لم يكن ضرر كذبه مقصورا عليه بل كان متعديا الى الكل ولهذا السبب فان العلماء اجمعوا على ان الزنديق الذى يدعو الناس الى زندقته يجب قتله (وثانيها) انه ان كان هذا الكلام حجة فلا كذاب الا ويمكنه ان يتمسك بهذه الطريقة فوجب تمكين جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير اديانهم الباطلة (وثالثها) ان الكفار الذين انكروا نبوة موسى عليه السلام وجب ان لا يجوز الانكار عليهم لانه يقال ان كان ذلك المنكر كاذبا فى ذلك الانكار فعليه كذبه وان يك صادقا انتفعتم بصدقه فثبت ان هذا الطريق يوجب تصويب ضده وما افضى ثبوته الى عدمه كان باطلا

وجهين احدهما انه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله تعالى الى البينات ولما ايده بتلك المعجزات وثانيهما ان كان كذلك خذله الله واهلكه فلا حاجة لكم الى قتله ولعله اراهم المعنى الثانى وهو عاكف على المعنى الاول لتلين شكيمتهم وقد عرض به لفرعون بانه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين) غالبين عالين على بنى اسرائيل (فى الارض) اى ارض مصر لا يقاومكم احد فى هذا الوقت (فمن ينصرنا من بأس الله) من اخذه وعذابه (ان جاءنا) اى فلا تفسدوا امركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه احد وانما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الارض اليهم خاصة ونظم نفسه فى سلكهم فيما يسوءهم من مجئ بأس الله تعالى تطييبا لقلوبهم وايذانا بانه مناصح لهم ساع فى تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه (قال فرعون) بعد ما سمع نصحه (ما أريكم) اى ما اشير عليكم (الا ما أرى) واستصوبه من قتله (وما اهديكم) بهذا الرأى (الا سبيل الرشاد) اى الصواب اولا اعلمكم

(السؤال الثانى) انه كان من الواجب ان يقال وان يك صادقا يصبكم كل الذى يعدكم لان الذى يصيب فى بعض مايعد دون البعض هم اصحاب الكهانة والنجوم اما الرسول الصادق الذى لايتكلم الا بالوحى فانه يجب ان يكون صادقا فى كل مايقول فكان قوله يصبكم بعض الذى يعدكم غير لائق بهذا المقام (والجواب) عن الاسئلة الثلاثة بحرف واحد وهو ان تقدير الكلام ان يقال انه لاحاجة بكم فى دفع شره الى قتله بل يكفيكم ان تمنعوه عن اظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فان كان كاذبا فحينئذ لايعود ضرره الا اليه وان كان صادقا انتفعتم به والحاصل ان المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان انه لاحاجة الى قتله بل يكفيكم ان تعرضوا عنه وان تمنعوه عن اظهار دينه فبهذا الطريق الاسئلة الثلاثة مدفوعة (واما السؤال الثانى) وهو قوله كان الاولى ان يقال يصبكم كل الذى يعدكم فالجواب عنه من وجوه (الاول) ان مدار هذا الاستدلال على اظهار الانصاف وترك اللجاج لان المقصود منه ان كان كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه وان كان صادقا فلا اقل من ان يصل اليكم بعض مايعدكم وان كان المقصود من هذا الكلام ماذكر صح ونظيره قوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين (والوجه الثانى) انه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة فاذا وصل اليهم فى الدنيا عذاب الدنيا فقد اصابهم بعض الذى يعدهم به (الوجه الثالث) حكى عن ابى عبيدة انه قال ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز واحتج بقول لبيد

تراك امكنة اذا لم ارضها * او يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على ان هذا القول خطأ قالوا واراد لبيد ببعض النفوس نفسه والله اعلم ثم حكى تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة فى انه لايجوز ايذاء موسى عليه السلام فقال ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب وتقرير هذا الدليل ان يقال ان الله تعالى هدى موسى الى الاتيان بهذه المعجزات الباهرة ومن هداه الله الى الاتيان بالمعجزات لايكون مسرفا كذابا فهذا يدل على ان موسى عليه السلام ليس من الكاذبين فكان قوله ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب اشارة الى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض ويحتمل ايضا ان يكون المراد ان فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى كذاب فى اقدامه على ادعاء الالهية والله لايهدى من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم امره

* قوله تعالى (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعون ما اريكم الا ما ارى وما اهديكم الا سبيل الرشاد وقال الذى آمن ياقوم انى اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد وياقوم انى اخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد) اعلم ان مؤمن آل فرعون لما اقام انواع الدلائل على انه لايجوز الاقدام على قتل موسى خوفهم فى ذلك بعذاب الله فقال ياقوم لكم الملك اليوم

(ظاهرين)

الا ما علم ولا اسر عنكم خلاف ما اظهره ولقد كذب حيث كان مستشعرا للخوف الشديد ولكنه كان يتجلد ولولاه لما استشار احدا ابدا وقرئ * بتشديد الشين للمبالغة من رشد كعلام او من رشد كعباد لا من ارشد كجبار من اجبر لانه مقصور على السماع او للنسبة الى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه الى فعل (وقال الذى آمن) مخاطبا لقومه (ياقوم انى اخاف عليكم) فى تكذيبه والتعرض له بالسوء (مثل يوم الاحزاب) مثل ايام الامم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير اغنى عن جمع اليوم (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) اى مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وايذاء الرسل (والذين من بعدهم) كقوم لوط (وما الله يريد ظلما للعباد) فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو ابلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد لما ان المنفى فيه ارادة ظلم ما فينتفى الظلم بطريق الاولوية (وياقوم انى اخاف عليكم يوم التناد) خوفهم بالعذاب الاخروى بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوى ويوم التناد يوم القيامة لانه ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة او يتصايحون بالويل والثبور او يتنادى اصحاب الجنة

ظاهرين فى الارض يعنى قد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه فانه لاقبل لكم به وانما قال ينصرنا وجاءنا لانه كان يظهر من نفسه انه منهم وان الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام قال فرعون ماأريكم الا ماأرى اى لاأشير اليكم برأى سوى ماذكرته انه يجب قتله حسما لمادة الفتنة وماأهديكم بهذا الرأى الا سبيل الرشاد والصلاح ثم حكى تعالى ان ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب واعلم انه تعالى حكى عن ذلك المؤمن انه كان يكتم ايمانه والذى يكتم كيف يمكنه ان يذكر هذه الكلمات مع فرعون ولهذا السبب حصل ههنا قولان (الاول) ان فرعون لما قال ذرونى أقتل موسى لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى بل أوهم انه مع فرعون وعلى دينه الا انه زعم ان المصلحة تقتضى ترك قتل موسى لانه لم يصدر عنه الا الدعوة الى الله والاتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لايوجب القتل والاقدام على قتله يوجب الوقوع فى ألسنة الناس بأقبح الكلمات بل الاولى ان يؤخر قتله وان يمنع من اظهار دينه لان على هذا التقدير ان كان كاذبا كان وبال كذبه عائدا اليه وان كان صادقا حصل الانتفاع به من بعض الوجوه ثم أكد ذلك بقوله ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب يعنى انه ان صدق فيما يدعيه من اثبات الاله القادر الحكيم فهو لايهدى المسرف الكذاب فأوهم فرعون انه أراد بقوله ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب انه يريد موسى وهو انما كان يقصد به فرعون لان المسرف الكذاب هو فرعون (والقول الثانى) ان مؤمن آل فرعون كان يكتم ايمانه أولا فلما قال فرعون ذرونى أقتل موسى ازال الكتمان واظهر كونه على دين موسى وشافه فرعون بالحق واعلم انه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعا من الكلمات ذكرها لفرعون (فالاول) قوله ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب والتقدير مثل أيام الاحزاب الا انه لما اضاف اليوم الى الاحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود فحينئذ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين فى البلاء فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ثم فسر قوله انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب بقوله مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ودأب هؤلاء دونهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصى فيكون ذلك دائبا ودائما لايفترون عنه ولابد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم والحاصل انه خوفهم بهلاك معجل فى الدنيا ثم خوفهم ايضا بهلاك الآخرة وهو قوله ومن يضلل الله فماله من هاد والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة (النوع الثانى) من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى وما الله يريد ظلما للعباد يعنى أن تدمير أولئك الاحزاب كان عدلا لانهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للانبياء فتلك العلة قائمة ههنا فوجب حصول الحكم ههنا قالت المعتزلة قوله وما الله يريد ظلما للعباد يدل على انه لايريد أن يظلم بعض العباد بعضا ويدل على أنه لايريد ظلم احد من العباد فلو خلق الكفر فيهم ثم يعذبهم على ذلك الكفر لكان ظالما واذا ثبت انه لايريد الظلم البتة ثبت

واصحاب النار حسبما حكى فى سورة الاعراف وقرئ بتشديد الدال وهو ان يند بعضهم من بعض كقوله تعالى يوم يفر المرء من اخيه وعن الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فبيناهم يموج بعضهم فى بعض اذ سمعوا مناديا اقبلوا الى الحساب (يوم تولون مدبرين) بدل من يوم التناد اى منصرفين عن الموقف الى النار اوفارين منها حسبما نقل آنفا (مالكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه والجملة حال اخرى من ضمير تولون (ومن يضلل الله فماله من هاد) يهديه الى طريق النجاة (ولقد جاءكم يوسف) هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على ان فرعونه فرعون موسى او على نسبة احوال الآباء الى الاولاد وقيل سبطه يوسف بن افرايم بن يوسف الصديق (من قبل) من قبل موسى (بالبينات) بالمعجزات الواضحة (فما زلتم فى شك مما جاءكم به) من الدين (حتى اذا هلك) بالموت (قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ضما الى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده اوجزما بأن لايبعث بعده رسول مع الشك فى رسالته وقرئ ألن يبعث الله على ان بعضهم

انه غير خالق لافعال العباد لانه لو خلقها لارادها وثبت ايضا أنه قادر على الظلم اذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك الظلم وهذا الاستدلال قد ذكرناه مرارا فى هذا الكتاب مع الجواب فلا فائدة فى الاعادة (النوع الثالث) من كلمات هذا المؤمن قوله ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التناد تفاعل من النداء يقال تنادى القوم اى نادى بعضهم بعضا والاصل الياء وحذف الياء حسن فى الفواصل وذكرنا ذلك فى يوم التلاق واجمع المفسرون على ان يوم التناد يوم القيامة وفى سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه (الاول) أن اهل النار ينادون اهل الجنة واهل الجنة ينادون اهل النار كما ذكر الله عنهم فى سورة الاعراف ونادى اصحاب النار اصحاب الجنه ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار (الثانى) قال الزجاج لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم (الثالث) انه ينادى بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور فيقولون ياويلنا (الرابع) ينادون الى المحشر اى يدعون (الخامس) ينادى المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر ياليتنى لم أوت كتابيه (السادس) ينادى باللعنة على الظالمين (السابع) يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح وينادى يا اهل القيامة لاموت فيزداد اهل الجنة فرحا على فرحهم واهل النار حزنا على حزنهم (الثامن) قال ابو على الفارسى التنادى مشتق من التناد من قولهم ندفلان اذا هرب وهو قراءة ابن عباس وفسرها فقال يندون كما تند الابل ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه الآية وقوله تعالى بعد هذه الآية يوم تولون مدبرين لانهم اذا سمعوا زفير النار يندون هاربين فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فيرجعون الى المكان الذى كانوا فيه (المسئلة الثانية) انتصب قوله يوم التناد لوجهين (احدهما) الظرف للخوف كأنه خاف عليهم فى ذلك اليوم لما يلحقهم من العذاب ان لم يؤمنوا (والآخر) أن يكون التقدير انى اخاف عليكم عذاب يوم التناد واذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به لا انتصاب الظرف لان اعرابه اعراب المضاف المحذوف ثم قال يوم تولون مدبرين وهو بدل من قوله يوم التناد عن قتادة منصرفين عن موقف يوم الحساب الى النار وعن مجاهد فارين عن النار غير معجزين ثم أكد التهديد فقال مالكم من الله من عاصم ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال ومن يضلل الله فاله من هاد

❊ قوله تعالى (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فازلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) واعلم ان مؤمن آل فرعون لما قال ومن يضلل الله فاله من هاد ذكر لهذا مثلا وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة ولم ينتفعوا بتلك الدلائل وهذا يدل على ان من أضله الله فاله

يقرر بعضا بنفى البعث (كذلك) مثل ذلك الاضلال الفظيع (يضل الله من هو مسرف) فى عصيانه (مرتاب) فى دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك فى التقليد (الذين يجادلون فى آيات الله) بدل من الموصول الاول اوبيان له اوصفة باعتبار معناه كأنه قيل كل مسرف مرتاب او المسرفين المرتابين (بغير سلطان) متعلق بيجادلون اى بغير حجة صالحة للتمسك بها فى الجملة (أتاهم) صفة سلطان (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) فيه ضرب من التعجب والاستعظام وفى كبر ضمير يعود الى من وتذكيره باعتبار اللفظ وقيل الى الجدال المستفاد من يجادلون (كذلك) اى مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) فيصدر عنه امثال ماذكر من الاسراف والارتياب والمجادلة بالباطل وقرئ بتنوين قلب ووصفه بالتكبر والتجبر لانه منبعهما

من هاد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل ان يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب
عليهما السلام ونقل صاحب الكشاف انه يوسف بن افرايم بن يوسف بن يعقوب اقام
فيهم نيفا وعشرين سنة وقيل ان فرعون موسى هو فرعون يوسف بقى حيا الى زمانه
وقيل فرعون آخر والمقصود من الكل شئ واحد وهو ان يوسف جاء قومه بالبينات
وفى المراد بها قولان (الاول) ان المراد بالبينات قوله أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد
القهار (والثانى) المراد بها المعجزات وهذا اولى ثم انهم بقوا فى نبوته شاكين مرتابين
ولم ينتفعوا البتة بتلك البينات فلما مات قالوا انه لن يبعث الله من بعده رسولا وانما حكموا
بهذا الحكم على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان بل انما ذكروا ذلك ليكون
ذلك اساسا لهم فى تكذيب الانبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس قولهم لن يبعث الله
من بعده رسولا لاجل تصديق رسالة يوسف وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وانما هو
تكذيب رسالة من هو بعده مضموما الى تكذيب رسالته ثم قال كذلك يضل الله من هو
مسرف مرتاب اى مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف فى عصيانه مرتاب فى دينه
قال الكعبى هذه الآية حجة لاهل القدر لانه تعالى بين كفرهم ثم بين انه تعالى انما اضلهم
لكونهم مسرفين مرتابين فثبت ان العبد مالم يضل عن الدين فان الله تعالى لا يضله ثم بين
تعالى ما لاجله بقوا فى ذلك الشك والاسراف فقال الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان
اى بغير حجة بل اما بناء على التقليد المجرد واما بناء على شبهات خسيسة كبر مقتا عند الله
والمقت هو ان يبلغ المرء فى القوم مبلغا عظيما فيمقته الله ويبغضه ويظهر خزيه وتعسه
وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على ان الجدال
بالحجة حسن وحق وفيه ابطال للتقليد (المسئلة الثانية) قال القاضى مقت الله اياهم يدل
على ان فعلهم ليس بخلق الله لان كونه فاعلا للفعل وماقتاله محال (المسئلة الثالثة) الآية
تدل على انه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده الا ان ذلك صفة واجبة
التأويل فى حق الله كالغضب والحياء والتعجب والله اعلم ثم بين ان هذا المقت كما حصل
عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا ثم قال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر
جبار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائى قلب
منونا متكبر صفة للقلب والباقون بغير تنوين على اضافة القلب الى المتكبر قال ابو عبيد
الاختيار الاضافة لوجوه (الاول) ان عبد الله قرأ على قلب كل متكبر وهو شاهد لهذه
القراءة (الثانى) ان وصف الانسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما واما
الذين قرؤا بالتنوين فقالوا ان الكبر قد أضيف الى القلب فى قوله ان فى صدورهم الا كبر
وقال تعالى فانه آثم قلبه وأيضا فيمكن ان يكون ذلك على حذف المضاف أى على كل ذى
قلب متكبر وايضا قال قوم الانسان الحقيقى هو القلب وهذا البحث طويل وقد ذكرناه فى
تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك قالوا ومن اضاف فلا بد له من تقدير حذف

والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر (المسئلة الثانية) الكلام فى الطبع والرين والقسوة والغشاوة قدسبق فى هذا الكتاب بالاستقصاء واصحابنا يقولون قوله كذلك يطبع الله يدل على ان الكل من الله والمعتزلة يقولون ان قوله كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار يدل على ان هذا الطبع انما حصل من الله لانه كان فى نفسه متكبرا جبارا وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه وعليه من وجه آخر والقول الذى يخرج عليه الوجهان ماذهبنا اليه وهو انه تعالى يخلق دواعى الكبر والرياسة فى القلب فتصير تلك الدواعى مانعة من حصول مايدعو الى الطاعة والانقياد لامر الله فيكون القول بالقضاء والقدر حقا ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبرا متكبرا باقيا فثبت ان هذا المذهب الذى اخترناه فى القضاء والقدر هو الذى ينطبق لفظ القرآن من اوله الى آخره عليه (المسئلة الثالثة) لابد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار قال مقاتل متكبر عن قبول التوحيد جبار فى غير حق واقول كمال السعادة فى امرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لامر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله والله اعلم * قوله تعالى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع الى اله موسى وانى لاظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا فى تباب) اعلم انه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرا جبارا بين انه بلغ فى البلادة والحماقة الى ان قصد الصعود الى السموات وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية فى اثبات ان الله فى السموات وقرروا ذلك من وجوه (الاول) ان فرعون كان من المنكرين لوجود الله وكل مايذكره فى صفات الله تعالى فذلك انما يذكره لاجل انه سمع ان موسى يصف الله بذلك فهو ايضا يذكره كما سمعه فلولا انه سمع موسى يصف الله بأنه موجود فى السماء والا لما طلبه فى السماء (الوجه الثانى) انه قال وانى لاظنه كاذبا ولم يبين انه كاذب فيماذا والمذكور السابق متعين لصرف الكلام اليه فكان التقدير فأطلع الى الاله الذى يزعم موسى انه موجود فى السماء ثم قال وانى لاظنه كاذبا اى وانى لاظن موسى كاذبا فى ادعائه ان الاله موجود فى السماء وذلك يدل على ان دين موسى هو ان الاله موجود فى السماء (الوجه الثالث) العلم بأنه لو وجد اله لكان موجودا فى السماء علم بديهى متقرر فى كل العقول ولذلك فان الصبيان اذا تضرعوا الى الله رفعوا وجوههم وأيديهم الى السماء وان فرعون مع نهاية كفره لما طلب الاله فقد طلبه فى السماء وهذا يدل على ان العلم بأن الاله موجود فى السماء علم متقرر فى عقل الصديق والزنديق والملحد والموحد والعالم والجاهل فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية والجواب ان هؤلاء الجهال يكفيهم فى كمال الخزى والضلال ان جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم واما موسى عليه السلام فانه لم يزد فى تعريف اله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال فى سورة طه ربنا الذى

(وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا) اى بناء مكشوفا عاليا من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى ابلغ الاسباب) اى الطرق (اسباب السموات) بيان لها وفى ابهامها ثم ايضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع الى معرفتها (فاطلع الى اله موسى) بالنصب على جواب الترجى وقرئ بالرفع عطفا على ابلغ ولعله اراد ان يبنى له رصدا فى موضع عال ليرصد منه احوال الكواكب التى هى اسباب سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها مايدل على ارسال الله تعالى اياه او ان يرى فساد قوله عليه الصلاة والسلام بأن اخباره من اله السماء يتوقف على اطلاعه عليه ووصوله اليه وذلك لايتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لايقوى عليه الانسان وماذاك الا لجهله بالله سبحانه وكيفية استنبائه (وانى لاظنه كاذبا) فيما يدعيه من الرسالة (وكذلك) اى ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط (زين لفرعون سوء عمله) فانهمك فيه انهماكا لايرعوى عنه بحال (وصد عن السبيل) اى سبيل الرشاد والفاعل فى الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده قراءة زين بالفتح وبالتوسط الشيطان وقرئ وصد على ان فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده قوله تعالى (وماكيد فرعون الا فى تباب) اى

اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقال فى سورة الشعراء ربكم ورب آبائكم الاولين رب المشرق والمغرب وما بينهما فظهر ان تعريف ذات الله بكونه فى السماء دين فرعون وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى فمن قال بالاول كان على دين فرعون ومن قال بالثانى كان على دين موسى ثم نقول لانسلم ان كل مايقوله فرعون فى صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام بل لعله كان على دين المشبهة فكان يعتقد ان الاله لو كان موجودا لكان حاصلا فى السماء فهو انما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لاجل انه قد سمعه من موسى عليه السلام واما قوله وانى لاظنه كاذبا فنقول لعله لما سمع موسى عليه السلام قال رب السموات والارض ظن انه عنى به انه رب السموات كما يقال للواحد منا انه رب الدار بمعنى كونه ساكنا فيه فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه وهذا ليس بمستبعد فان فرعون كان قد بلغ فى الجهل والحماقة الى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال اليه فان استبعد الخصم نسبة هذا الخيال اليه كان ذلك لائقا بهم لانهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه واما قوله ان فطرة فرعون شهدت بأن الاله لو كان موجودا لكان فى السماء قلنا نحن لاننكر ان فطرة اكثر الناس تخيل اليهم صحة ذلك لاسيما من بلغ فى الحماقة الى درجة فرعون فثبت ان هذا الكلام ساقط (المسئلة الثانية) اختلف الناس فى ان فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه الى السماء ام لا اما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك وذكروا حكاية طويلة فى كيفية بناء ذلك الصرح والذى عندى انه بعيد والدليل عليه ان يقال فرعون لايخلو اما ان يقال انه كان من المجانين او كان من العقلاء فان قلنا انه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى ارسال الرسول اليه لان العقل شرط فى التكليف ولم يجز من الله ان يذكر حكاية كلام مجنون فى القرآن واما ان قلنا انه كان من العقلاء فنقول ان كل عاقل يعلم ببديهة عقله انه يتعذر فى قدرة البشر وضع بناء يكون ارفع من الجبل العالى ويعلم أيضا ببديهة عقله انه لايتفاوت فى البصر حال السماء بين أن ينظر اليه من اسفل الجبال وبين ان ينظر اليه من أعلى الجبال واذا كان هذان العلمان بديهيين امتنع ان يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه الى السماء واذا كان فساد هذا معلوما بالضرورة امتنع اسناده الى فرعون والذى عندى فى تفسير هذه الآية ان فرعون كان من الدهرية وغرضه من ذكر هذا الكلام ايراد شبهة فى نفى الصانع وتقريره انه قال انا لا نرى شيئا نحكم عليه بأنه اله العالم فلم يجز اثبات هذا الاله اما انه لانراه فلأنه لو كان موجودا لكان فى السماء ونحن لاسبيل لنا الى صعود السموات فكيف يمكننا ان نراه ثم انه لاجل المبالغة فى بيان انه لايمكنه صعود السموات قال ياهامان ابن لى صرحا لعلى ابلغ الاسباب والمقصود انه لما عرف كل احد ان هذا الطريق ممتنع كان الوصول الى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعا ونظيره قوله تعالى فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض او سلما فى السماء فتأتيهم بآية وليس المراد منه ان محمدا صلى الله عليه وسلم طلب نفقا فى الارض

خسار وهلاك او على انه من صد صدودا اى اعرض وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليه وقرئ وصد على انه عطف على سوء عمله وقرئ وصدوا اى هو وقومه

او وضع سلما الى السماء بل المعنى انه لما عرف ان هذا المعنى ممتنع فقد عرف انه لاسبيل لك الى تحصيل ذلك المقصود فكذا ههنا غرض فرعون من قوله ياهامان ابن لى صرحا يعنى ان الاطلاع على اله موسى لما كان لاسبيل اليه الا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعا فحينئذ يظهر منه انه لاسبيل الى معرفة الاله الذى يثبته موسى فنقول هذا ماحصلته فى هذا الباب واعلم ان هذه الشبهة فاسدة لان طرق العلم ثلاثة الحس والخبر والنظر ولايلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب وذلك لان موسى عليه السلام كان قد بين لفرعون ان الطريق فى معرفة الله تعالى انما هو الحجة والدليل كما قال ربكم ورب آبائكم الاولين رب المشرق والمغرب الا ان فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل والقى الى الجهال انه لما كان لاطريق الى الاحساس بهذا الاله وجب نفيه فهذا ماعندى فى هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة (المسئلة الثالثة) ذهب قوم الى انه تعالى خلق جواهر الافلاك وحركاتها بحيث تكون هى الاسباب لحدوث الحوادث فى هذا العالم الاسفل واحتجوا بقوله تعالى لعلى ابلغ الاسباب أسباب السموات ومعلوم انها ليست اسبابا الاحوادث هذا العالم قالوا ويؤكد هذا بقوله تعالى فى سورة ص فليرتقوا فى الاسباب اما المفسرون فقد ذكروا فى تفسير قوله تعالى لعلى ابلغ الاسباب أسباب السموات ان المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها ومايؤدى اليها وكل ماأداك الى شئ فهو سبب كالرشاء ونحوه (المسئلة الرابعة) قالت اليهود اطبق الباحثون عن تواريخ بنى اسرائيل وفرعون ان هامان ماكان موجودا البتة فى زمان موسى وفرعون وانما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر فالقول بأن هامان كان موجودا فى زمان فرعون خطأ فى التاريخ وليس لقائل ان يقول ان وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لايمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم فى زمانه قالوا لان هذا الشخص المسمى بهامان الذى كان موجودا فى زمان فرعون ماكان شخصا خسيسا فى حضرة فرعون بل كان كالوزير له ومثل هذا الشخص لايكون مجهول الوصف والحلية فلوكان موجودا لعرف حاله وحيث اطبق الباحثون عن احوال فرعون وموسى ان الشخص المسمى بهامان ماكان موجودا فى زمان فرعون وانما جاء بعده بادوار علم انه غلط وقع فى التواريخ قالوا ونظير هذا انا نعرف فى دين الاسلام ان اباحنيفة انما جاء بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلو ان قائلا ادعى ان ابا حنيفة كان موجودا فى زمان محمد عليه السلام وزعم انه شخص آخر سوى الاول وهو أيضا يسمى بأبى حنيفة فان اصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا والجواب ان تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الاحوال والادوار فلم يبق على كلام اهل التواريخ اعتماد فى هذا الباب فكان الاخذ بقول الله اولى بخلاف حال رسولنا مع ابى حنيفة فان هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هى مضبوطة فظهر الفرق بين البابين فهذا جملة مايتعلق بالمباحث المعنوية فى هذه الآية وبقى مايتعلق

(بالمباحث)

بالمباحث اللفظية قيل الصرح البناء الظاهر الذى لايخفى على الناظر وان بعداشتقوه من صرح الشئ اذاظهر واسباب السموات طرقها فان قيل مافائدة هذا التكرير ولوقيل لعلى ابلغ اسباب السموات كان كافيا اجاب صاحب الكشاف عنه فقال اذا أبهم الشئ ثم اوضح كان تفخيما لشأنه فلما اراد تفخيم اسباب السموات ابهمها ثم اوضحها وقوله فأطلع الى اله موسى قرأحفص عن عاصم فأطلع بفتح العين والباقون بالرفع قال المبرد من رفع فقد عطفه على قوله ابلغ والتقدير لعلى ابلغ الاسباب ثم اطلع الا ان حرف ثم اشد تراخيا من الفاء ومن نصب جعله جوابا والمعنى لعلى ابلغ الاسباب فتى بلغتها اطلع والمعنى مختلف لان الاول لعلى اطلع والثانى لعلى ابلغ وانا ضامن انى متى بلغت فلابدوان اطلع واعلم انه تعالى لماحكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأعاصم وحمزة والكسائى وصد بضم الصاد قال ابو عبيدة وبه يقرألان ماقبله فعل مبنى للمفعول به فجعل ماعطف عليه مثله والباقون وصد بفتح الصاد على انه منع الناس عن الايمان قالوا ومن صده قوله لأقطعن ايديكم وارجلكم ويؤيد هذه القراءة قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وقوله هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام (المسئلة الثانية) قوله تعالى زين لابدله من المزين فقالت المعتزلة انه الشيطان فقيل لهم ان كان المزين لفرعون هو الشيطان فالمزين للشيطان ان كان شيطانا آخر لزم اثبات التسلسل فى الشياطين أو الدور وهو محال ولما بطل ذلك وجب انتهاء الاسباب والمسببات فى درجات الحاجات الى واجب الوجود وايضا فقوله زين يدل على ان الشئ ان لم يكن فى اعتقاد الفاعل موصوفا بأنه خير وزينة وحسن فانه لايقدم عليه الا ان ذلك الاعتقاد ان كان صوابا فهو العلم وان كان خطأ فهو الجهل ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الانسان لان العاقل لايقصد تحصيل الجهل لنفسه ولانه انمايقصد تحصيل الجهل لنفسه اذا عرف كونه جهلا ومتى عرف كونه جهلا امتنع بقاؤه جاهلا فثبت ان فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الانسان ولايجوز ان يكون فاعله هو الشيطان لان البحث الاول بعينه عائد فيه فلم يبق الا ان يكون فاعله هو الله تعالى والله اعلم ويقوى ماقلناه ان صاحب الكشاف نقل انه قرئ وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عزوجل ويدل عليه قوله الى اله موسى ثم قال تعالى وماكيد فرعون الافى تباب والتباب الهلاك والخسران ونظيره قوله تعالى ومازادوهم غير تتبيب وقوله تعالى تبت يدا ابى لهب والله اعلم ۞ قوله تعالى (وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انماهذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار من عمل سيئة فلايجزى الامثلها ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيهابغير حساب وياقوم مالى ادعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار تدعوننى لأكفر بالله واشرك به ماليس لى به علم وانا ادعوكم الى العزيز الغفار لاجرم انماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة وان مردنا الى

(وقال الذى آمن) اى مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام (ياقوم اتبعون) فيما دللتكم عليه (اهدكم سبيل الرشاد) اى سبيلا يصل سالكه الى المقصود وفيه تعريض بأن مايسلكه فرعون وقومه سبيل الغى والضلال (ياقوم انماهذه الحياة الدنيا متاع) اى تمتع يسير لسرعة زوالها جمل لهم اولا ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها لان الاخلاد اليها رأس كل شر ومنه تتشعب فنون مايؤدى الى سخط الله تعالى ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال (وان الآخرة هى دار القرار) لخلودها ودوام مافيها (من عمل) فى الدنيا (سيئة فلايجزى) فى الآخرة (الامثلها) عدلا من الله سبحانه وفيه دليل على ان الجنايات تغرم بأمثالها (ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك) الذين عملوا ذلك (يدخلون الجنة يرزقون فيهابغير حساب) اى بغير تقدير وموازنة بالعمل بل اضعافا مضاعفة فضلا من الله عزوجل ورحمة وجعل العمل عمدة والايمان حالا للايذان بأنه لاعبرة بالعمل بدونه وان ثوابه اعلى من ذلك (وياقوم مالى ادعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كرر نداءهم ايقاظا لهم عن سنة الغفلة واعتناء بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على مايقابلون به نصحه ومدار التعجب الذى يلوح

الله وان المسرفين هم اصحاب النار فستذكرون ما اقول لكم وافوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد) اعلم ان هذا من بقية كلام الذى آمن من آل فرعون وقد كان يدعوهم الى الايمان بموسى والتمسك بطريقته واعلم انه نادى فى قومه ثلاث مرات فى المرة الاولى دعاهم الى قبول ذلك الدين على سبيل الاجمال وفى المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل اما الاجمال فهو قوله ياقوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد وليس المراد بقوله اتبعون طريقة التقليد لانه قال بعده اهدكم سبيل الرشاد والهدى هو الدلالة ومن بين الادلة للغير يوصف بأنه هداه وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدى اليه لان الرشاد نقيض الغى وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى واما التفصيل فهو انه بين حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة اما حقارة الدنيا فهى قوله ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع والمعنى انه يستمتع بهذه الحياة الدنيا فى ايام قليلة ثم تنقطع وتزول واما الآخر فهى دار القرار والبقاء والدوام وحاصل الكلام ان الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة والدائم خير من المنقضى وقال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خيرا من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق واعلم ان الآخرة كما ان النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم وان الترغيب فى النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من اقوى وجوه الترغيب والترهيب ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة واشار فيه الى ان جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها والمراد بالمثل ما يقابلها فى الاستحقاق فان قيل كيف يصح هذا الكلام مع ان كفر ساعة يوجب عقاب الابد قلنا ان الكافر يعتقد فى كفره كونه طاعة وايمانا فلهذا السبب يكون الكافر على عزم ان يبقى مصرا على ذلك الاعتقاد ابدا فلا جرم كان عقابه مؤبدا بخلاف الفاسق فانه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم ان لا يبقى مصرا عليه فلا جرم قلنا ان عقاب الفاسق منقطع اما الذى يقوله المعتزلة من ان عقابه مؤبد فهو باطل لان مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الاتيان بها ايضا ليس دائما بل منقطعا فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها واعلم ان هذه الآية اصل كبير فى علوم الشريعة فيما يتعلق باحكام الجنايات فانها تقتضى ان يكون المثل مشروعا وان يكون الزائد على المثل غير مشروع ثم نقول ليس فى الآية بيان ان تلك المماثلة معتبرة فى اى الامور فلو حملناه على رعاية المماثلة فى شئ معين مع ان ذلك المعين غير مذكور فى الآية صارت الآية مجملة ولو حملناه على رعاية المماثلة فى جميع الامور صارت الآية عاما مخصوصا وقد ثبت فى اصول الفقه ان التعارض اذا وقع بين الاجمال وبين التخصيص كان دفع الاجمال اولى فوجب ان تحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه الا فى مواضع التخصيص واذا ثبت هذا فالاحكام الكثيرة فى باب الجنايات على النفوس وعلى الاعضاء وعلى الاموال يمكن تفريعها على هذه الآية ثم نقول

(انه)

به الاستفهام دعوتهم اياه الى النار ودعوته اياهم الى النجاة كأنه قيل اخبرونى كيف هذه الحال ادعوكم الى الخير وتدعوننى الى الشر وقد جعله بعضهم من قبيل مالى اراك حزينا اى مالك تكون حزينا وقوله تعالى (تدعوننى لاكفر بالله) بدل اوبيان فيه تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بالى واللام (واشرك به ماليس لى به) بشركته له تعالى فى المعبودية وقيل بربوبيته (علم) والمراد نفى المعلوم والاشعار بان الالوهية لابد لها من برهان موجب للعلم بها (وانا ادعوكم الى العزيز الغفار) الجامع لجميع صفات الالوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والارادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران (لاجرم) لارد لما دعوه اليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله قوله تعالى (ان ماتدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) اى حق ووجب عدم دعوة آلهتكم الى عبادتها اصلا اوعدم دعوة مستجابة اوعدم استجابة دعوة لها وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه اى كسب ذلك الدعاء اليه بطلان دعوته بمعنى ما حصل من ذلك الاظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع كما ان بد من لابد فعل من التبديد اى التفريق والمعنى لاقطع لبطلان

انه تعالى لما بين ان جزاء السيئة مقصور على المثل بين ان جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واحتج اصحابنا بهذه الآية فقالوا قوله ومن عمل صالحا نكرة فى معرض الشرط فى جانب الاثبات يجرى مجرى ان يقال من ذكر كلمة او من خطا خطوة فله كذا فانه يدخل فيه كل من اتى بتلك الكلمة او بتلك الخطوة مرة واحدة فكذلك ههنا وجب ان يقال كل من عمل صالحا واحدا من الصالحات فانه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب والآتى بالايمان والمواظب على التوحيد و التقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات فوجب ان يدخل الجنة والخصم يقول انه يبقى مخلدا فى النار ابد الآباد فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح قالت المعتزلة انه تعالى شرط فيه كونه مؤمنا وصاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن فلا يدخل فى هذا الوعد والجواب انا بينا فى اول سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب ان صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام واختلفوا فى تفسير قوله يرزقون فيها بغير حساب فمنهم من قال لما كان لانهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب وقال الآخرون لانه تعالى يعطيهم ثواب اعمالهم ويضم الى ذلك الثواب من اقسام التفضل مايخرج عن الحساب وقوله بغير حساب واقع فى مقابلة الامثلها يعنى ان جزاء السيئة له حساب و تقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فاما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل ماشئت من الزيادة على الحق والكثرة و السعة واقول هذا يدل على ان جانب الرحمة و الفضل راجح على جانب القهر والعقاب فاذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة ثم استأنف ذلك المؤمن و نادى فى المرة الثالثة وقال ياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار يعنى أنا أدعوكم الى الايمان الذى يوجب النجاة وتدعوننى الى الكفر الذى يوجب النار فان قيل لم كرر نداء قومه ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى قلنا أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وايقاظ من سنة الغفلة واظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام وعلى أولئك الاقوام فرط شفقة واما المجئ بالواو العاطفة فلأن الثانى يقرب من أن يكون عين الاول لان الثانى بيان للاول والبيان عين المبين واما الثالث فلأنه كلام مباين للاول والثانى فحسن ايراد الواو العاطفة فيه ولما ذكر هذا المؤمن انه يدعوهم الى النجاة وهم يدعونه الى النار فسر ذلك بانهم يدعونه الى الكفر بالله والى الشرك به اما الكفر بالله فلأن الاكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الاله ومنهم من كان يقر بوجود الله الا انه كان يثبت عبادة الاصنام وقوله تعالى وأشرك به ماليس لى به علم المراد بنفى العلم نفى المعلوم كأنه قال وأشرك به ماليس باله وماليس باله كيف يعقل جعله شريكا للاله ولما بين أنهم يدعونه الى الكفر والشرك بين انه يدعوهم الى الايمان بالعزيز الغفار فقوله العزيز اشارة الى كونه

الوهية الاصنام اى لاينقطع فى وقت ما فينقلب حقا ويؤيده قولهم لاجرم انه بفعل بضم الجيم وسكون الراء وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد (وان مردنا الى الله) اى بالموت عطف على ان ماتدعوننى داخل فى حكمه وكذا قوله تعالى (وان المسرفين) اى فى الضلال والطغيان كالاشراك وسفك الدماء (هم اصحاب النار) اى ملازموها (فستذكرون) وقرئ فستذكرون اى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما اقول لكم) من النصائح (وافوض امرى الى الله) قاله لما انهم كانوا توعدوه (ان الله بصير بالعباد) فيحرس من يلوذ به من المكاره

كامل القدرة وفيه تنبيه على ان الاله هو الذى يكون كامل القدرة واما فرعون فهو فى غاية العجز فكيف يكون الهـا واما الاصنام فانها احجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلهة وقوله الغفار اشارة الى انه لايجب ان يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فان اله العالم وان كان عزيزا لايغلب قادرا لايغالب لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة ثم قال ذلك المؤمن لاجرم الكلام فى تفسير لاجرم مر فى سورة هود فى قوله لاجرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون وقد اعاده صاحب الكشاف ههنا فقال لاجرم مساقه على مذهب البصريين ان يجعل لا ردا لما دعاه اليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وانما مع مافى حيزه فاعله اى حق ووجب بطلان دعوته او بمعنى كسب من قوله تعالى ولايجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا اى كسب ذلك الدعاء اليه بطلان دعوته بمعنى انه ماحصل من ذلك الاظهور بطلان دعوته ويجوز ان يقال ان لاجرم نظيره لابد فعل من الجرم وهو القطع كما ان بد فعل من التبديد وهو التفريق وكما ان معنى لابد انك تفعل كذا انه لابد لك من فعله فكذلك لاجرم ان لهم النار اى لاقطع لذلك بمعنى انهم ابدا يستحقون النار لاانقطاع لاستحقاقهم ولاقطع لبطلان دعوة الاصنام اى لاتزال باطلة لاينقطع ذلك فينقلب حقا وروى عن بعض العرب لاجرم انه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد وكعدم وعدم هذا كله الفاظ صاحب الكشاف ثم قال انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة والمراد أن الاوثان التى تدعوننى الى عبادتها ليس لها دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة وفى تفسير هذه الدعوة احتمالان (الاول) ان المعنى ان ماتدعوننى الى عبادته ليس له دعوة الى نفسه لانها جمادات والجمادات لاتدعو احدا الى عبادة نفسها وقوله فى الآخرة يعنى انه تعالى اذا قلبها حيوانا فى الآخرة فانها تتبرأ من هؤلاء العابدين (والاحتمال الثانى) ان يكون قوله ليس له دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة معناه ليس له استجابة دعوة فى الدنيا ولافى الآخرة فسميت استجابة الدعوة بالدعوة اطلاقا لاسم أحد المتضايفين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها ثم قال وان مردنا الى الله فبين ان هذه الاصنام لافائدة فيها البتة ومع ذلك فان مردنا الى الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات الغنى عن كل الحاجات الذى لايبدل القول لديه وماهو بظلام للعبيد فأى عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الاشياء الباطلة وان يعرض عن عبادة هذا الاله الذى لابد وان يكون مرده اليه وقوله وان المسرفين هم اصحاب النار قال قتادة يعنى المشركين وقال مجاهد السفاكين للدماء والصحيح انهم أسرفوا فى معصية الله بالكمية والكيفية اما الكمية فالدوام واما الكيفية فبالعود والاصرار ولما بالغ مؤمن آل فرعون فى هذه البيـانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال فستذكرون ماأقول لكم وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل

ان يكون المراد ان هذا الذكر يحصل فى الدنيا وهو وقت الموت وان يكون فى القيامة وقت مشاهدة الاهوال وبالجملة فهو تحذير شديد ثم قال وافوض امرى الى الله وهذا كلام من هدد بأمر يخافه فكأنهم خوفوه بالقتل وهو ايضا خوفهم بقوله فستذكرون ماأقول لكم ثم عول فى دفع تخويفهم وتأكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال وافوض امرى الى الله وهو انما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فان فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى فى دفع ذلك الشر الى الله حيث قال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب فتح نافع وابو عمرو الياء من امرى والباقون بالاسكان ثم قال ان الله بصير بالعباد اى عالم باحوالهم وبمقادير حاجاتهم وتمسك اصحابنا بقوله تعالى وافوض امرى الى الله على ان الكل من الله وقالوا ان المعتزلة الذين قالوا ان الخير والشر يحصل بقدرتهم قدفوضوا امر انفسهم اليهم وما فوضوها الى الله والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا ان قوله افوض اعتراف بكونه فاعلا مستقلا بالفعل والمباحث المذكورة فى قوله اعوذ بالله عائدة بتمامها فى هذا الموضع والله اعلم وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون والله الهادى * قوله تعالى (فوقاه الله سيآت مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين الا فى ضلال)

اعلم انه تعالى لما بين ان ذلك الرجل لم يقصر فى تقرير الدين الحق وفى الذب عنه فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين وقوله تعالى فوقاه الله سيئات مامكروا يدل على انه لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من انواع السوء * قال مقاتل لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه وقيل المراد بقوله فوقاه الله سيئات مامكروا انهم قصدوا ادخاله فى الكفر وصرفه عن الاسلام فوقاه الله عن ذلك الا ان الاول اولى لان قوله بعد ذلك وحاق بآل فرعون سوء العذاب لايليق الا بالوجه الاول وقوله تعالى وحاق بآل فرعون اى احاط بهم سوء العذاب اى غرقوا فى البحر وقيل بل المراد منه النار المذكورة فى قوله النار يعرضون عليها قال الزجاج النار بدل من قوله سوء العذاب قال وجائز ايضا أن تكون مرتفعة على اضمار تفسير سوء العذاب كأن قائلا قال ماسوء العذاب فقيل النار يعرضون عليها قرأ حمزة حاق بكسر الحاء وكذلك فى كل القرآن والباقون بالفتح اماقوله النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج اصحابنا بهذه الآية على اثبات عذاب القبر قالوا

(فوقاه الله سيئات مامكروا) شدائد مكرهم وماهموا به من الحاق انواع العذاب بمن خالفهم قيل نجا مع موسى عليه السلام (وحاق بآل فرعون) اى بفرعون وقومه وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة انه اولى منهم بذلك وقيل بطلبة المؤمن من قومه لما انه فر الى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه يصلى والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم (سوء العذاب) الغرق والقتل والنار (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب او النار خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا قال ماسوء العذاب فقيل هو النار ويعرضون استئناف للبيان او بدل من سوء العذاب ويعرضون حال منها او من الآل ولايشترط فى الحيق ان يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى يرد ان آل فرعون لم يهموا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ماهموا به عليهم بل يكفى فى ذلك ان يكون مما يطلق عليه اسم السوء وقرئت منصوبة على الاختصاص او باضمار فعل يفسره يعرضون مثل يصلون فان عرضهم على النار باحراقهم بها من قولهم عرض الاسارى على السيف اذا قتلوا به وذلك لارواحهم كما روى ابن مسعود رضى الله عنه ان ارواحهم فى اجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيا الى يوم القيامة وذكر الوقتين اما للتخصيص واما فيما بينهما فالله

الآية تقضى عرض النار عليهم غدوا وعشيا وليس المراد منه يوم القيامة لانه قال ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب وليس المراد منه ايضا الدنيا لان عرض النار عليهم غدوا وعشيا ماكان حاصلا فى الدنيا فثبت ان هذا العرض انما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة وذلك يدل على اثبات عذاب القبر فى حق هؤلاء واذا ثبت فى حقهم ثبت فى حق غيرهم لانه لاقائل بالفرق فان قيل لم لايجوز ان يكون المراد من عرض النار عليهم غدوا وعشيا عرض النصائح عليهم فى الدنيا لان اهل الدين اذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ثم نقول فى الآية مايمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين (الاول) ان ذلك العذاب يجب ان يكون دائما غير منقطع وقوله يعرضون عليها غدوا وعشيا يقتضى ان لايحصل ذلك العذاب الا فى هذين الوقتين فثبت ان هذا لايمكن حمله على عذاب القبر (الثانى) ان الغدوة والعشية انما يحصلان فى الدنيا اما فى القبر فلا وجود لهما فثبت بهذين الوجهين انه لايمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر والجواب عن السؤال الاول ان فى الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم امر النار لانه يعرض عليهم نفس النار فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكرة لامر النار كانت تعرض عليهم وذلك يفضى الى ترك ظاهر اللفظ والعدول الى المجاز اما قوله الآية تدل على حصول هذا العذاب فى هذين الوقتين وذلك لايجوز قلنا لم لايجوز ان يكتفى فى القبر بايصال العذاب اليه فى هذين الوقتين ثم عند قيام القيامة يلقى فى النار فيدوم عذابه بعد ذلك وايضا لايمتنع ان يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما قوله انه ليس فى القبر والقيامة غدوة وعشية قلنا لم لايجوز ان يقال ان عند حصول هذين الوقتين لاهل الدنيا يعرض عليهم العذاب والله اعلم (المسئلة الثانية) قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم ادخلوا آل فرعون اى يقال لخزنة جهنم ادخلوهم فى اشد العذاب والباقون ادخلوا على معنى انه يقال لهؤلاء الكفار ادخلوا اشد العذاب والقراءة الاولى اختيار ابى عبيدة واحتج عليها بقوله تعالى يعرضون فهذا يفعل بهم فكذلك ادخلوا واما وجه القراءة الثانية فقوله ادخلوا ابواب جهنم وههنا آخر الكلام فى قصة مؤمن آل فرعون واعلم ان الكلام فى تلك القصة لما انجر الى شرح احوال النار لاجرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التى تجرى بين الرؤساء والاتباع من اهل النار فقال واذ يتحاجون فى النار والمعنى اذكر يا محمد لقومك اذ يتحاجون اى يحاجج بعضهم بعضا ثم شرح خصومتهم وذلك ان الضعفاء يقولون للرؤساء انا كنا لكم تبعا فى الدنيا قال صاحب الكشاف تبعا كخدم فى جمع خادم اوذوى تبع اى اتباع او وصفا بالمصدر فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار اى فهل تقدرون على أن تدفعوا ايها الرؤساء عنا نصيبا من العذاب واعلم ان اولئك الاتباع يعلمون ان اولئك الرؤساء لاقدرة لهم على ذلك التخفيف وانما مقصودهم

(من)

تعالى اعلم بحالهم واما للتأبيد هذا مادامت الدنيا (ويوم تقوم الساعة) يقال للملائكة (ادخلوا آل فرعون اشد العذاب) اى عذاب جهنم فانه اشد مما كانوا فيه اواشد عذاب جهنم فان عذابها الوان بعضها اشد من بعض وقرئ ادخلوا من الدخول اى يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون اشد العذاب (واذ يتحاجون فى النار) اى واذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها (فيقول الضعفاء) منهم (للذين استكبروا) وهم رؤساؤهم (انا كنا لكم تبعا) اتباعا كخدم فى جمع خادم اوذوى تبع اى اتباع على اضمار المضاف اوتبعا على الوصف بالمصدر مبالغة (فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار) بالدفع اوبالحمل ونصيبا منصوب بمضمر يدل عليه مغنون اى دافعون عنا نصيبا الخ او بمغنون على تضمينه معنى الحمل اى مغنون عنا حاملين نصيبا الخ اونصب على المصدرية كشيئا فى قوله تعالى لن تغنى عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا فانه فى موقع غناء فكذلك نصيبا (قال الذين استكبروا انا كل فيها) اى نحن وانتم فكيف نغنى عنكم ولو قدرنا لاغنينا عن انفسنا وقرئ كلا على التأكيد لاسم ان بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف اليه ولامساغ لجعله حالا من المستكن فى الظرف فانه لا يعمل فى الحال المتقدمة كما يعمل فى الظرف المتقدم فانك تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول جديدا لك ثوب (ان الله قد حكم بين العباد)

من هذا الكلام المبالغة فى تخجيل أولئك الرؤساء وايلام قلوبهم لانهم هم الذين سعوا فى ايقاع هؤلاء الاتباع فى انواع الضلالات فعندهذا يقول الرؤساء انا كل فيها يعنى ان كلنا واقعون فى هذا العذاب فلو قدرت على ازالة العذاب عنك لدفعته عن نفسى ثم يقولون ان الله قد حكم بين العباد يعنى يوصل الى كل احد مقدار حقه من النعيم او من العذاب ثم عند هذا يحصل اليأس للاتباع من المتبوعين فيرجعون الى خزنة جهنم ويقولون لهم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فان قيل لم لم يقل وقال الذين فى النار لخزنتها بل قال وقال الذين فى النار لخزنة جهنم قلنا فيه وجهان (الاول) ان يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع (والثانى) ان يكون جهنم اسما لموضع هو ابعد النار قعرا من قولهم بئر جهنام اى بعيدة القعر وفيها اعظم اقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون اعظم خزنة جهنم عند الله درجة فاذا عرف الكفار ان الامر كذلك استغاثوا بهم فأولئك الملائكة يقولون لهم اولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات والمقصود ان قبل ارسال الرسل كان للقوم ان يقولوا انه ما جاءنا من بشير ولا نذير اما بعد مجئ الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وهذه الآية تدل على ان الواجب لا يتحقق الا بعد مجئ الشرع ثم ان أولئك الملائكة يقولون للكفار ادعوا انتم فانا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع الا بشرطين (احدهما) كون المشفوع له مؤمنا (والثانى) حصول الاذن فى الشفاعة ولم يوجد واحد من هذين الشرطين فاقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع لكن ادعوا انتم وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن للدلالة على الخيبة فان الملك المقرب اذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكفار ثم يصرحون لهم بأنه لا اثر لدعائهم فيقولون وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فان قيل ان الحاجة على الله محال واذا كان كذلك امتنع ان يقال انه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم واذا كان التأذى محالا عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة فى حقه اذا ثبت هذا فنقول ايصال هذه المضار العظيمة الى اولئك الكفار اضرار لا منفعة فيه الى الله تعالى ولا لاحد من العبيد فهو اضرار خال عن جميع الجهات المنتفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم ان يبقى على ذلك الايلام ابد الآباد ودهر الداهرين من غير ان يرحم حاجتهم ومن غير ان يسمع دعاءهم ومن غير ان يلتفت الى تضرعهم وانكسارهم ولو ان اقسى الناس قلبا فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده لدعاه كرمه ورحمته الى العفو عنه مع ان هذا السيد فى محل النفع والضرر والحاجة فاكرم الاكرمين كيف يليق به هذا الاضرار قلنا افعال الله لا تعلل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فلما جاء الحكم الحق به فى الكتاب الحق وجب الاقرار به والله أعلم بالصواب

* قوله تعالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولقد آتينا موسى الهدى واورثنا

وقضى قضاء متقنا الامر لا مرد له ولا معقب لحكمه (وقال الذين فى النار) من الضعفاء والمستكبرين جميعا لما ضاقت حيلهم وعيت بهم عللهم (لخزنة جهنم) اى للقوام بتعذيب اهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع اوليبان محلهم فيها بان تكون جهنم ابعد دركات النار وفيها اعتى الكفرة واطغاهم اولكون الملائكة الموكلين بعذاب اهلها قدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما) اى مقدار يوم او فى يوم ما من الايام على انه ظرف لا معيار شيئا (من العذاب) واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر من تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأسا او تخفيف قدر كثير منه فى زمان مديد لان ذلك عندهم مما ليس فى حيز الامكان ولا يكاد يدخل تحت امانيهم (قالوا) اى الخزنة (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) اى الم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما فى قوله تعالى الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا أرادوا بذلك الزامهم وتوبيخهم على اضاعة اوقات الدعاء وتعطيل اسباب الاجابة (قالوا بلى) اى أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ان انتم الا فى ضلال كبير والفاء فى قوله تعالى (قالوا فادعوا) فصيحة كما فى

بنى اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) اعلم ان فى كيفية النظم وجوها (الاول) انه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون بين فى هذه الآية انه ينصر رسله والذين آمنوا معه (الثانى) لما بين من قبل مايقع بين اهل النار من التخاصم وانهم عند الفزع الى خزنة جهنم يقولون الم تك تأتيكم رسلكم بالبينات اتبع ذلك بذكر الرسل وانه ينصرهم فى الدنيا والآخرة (الثالث) وهو الاقرب عندى ان الكلام فى اول السورة انما وقع من قوله مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد وامتد الكلام فى الرد على أولئك المجادلين وعلى ان المحقين ابدا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين وكل ذلك انما ذكره الله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبيراله على تحمل أذى قومه ولما بلغ الكلام فى تقرير المطلوب الى الغاية القصوى وعد تعالى رسوله بأن ينصره على اعدائه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فقال انا لننصر رسلنا الآية اما فى الدنيا فهو المراد بقوله فى الحياة الدنيا واما فى الآخرة فهو المراد بقوله ويوم يقوم الاشهاد فحاصل الكلام انه تعالى وعد بأنه ينصر الانبياء والرسل وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر اثرها فى الدنيا وفى الآخرة واعلم ان نصرة الله المحقين تحصل بوجوه (احدها) النصرة بالحجة وقد سمى الله الحجة سلطانا فى غير موضع وهذه النصرة عامه للمحقين اجمع ونعم ماسمى الله هذه النصرة سلطانا لان السلطنة فى الدنيا قد تبطل وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور اما السلطنة الحاصلة بالحجة فانها تبقى ابد الآباد ويمتنع تطرق الخلل والفتور اليها (وثانيها) انهم منصورون بالمدح والتعظيم فان الظلمة وان قهروا شخصا من المحقين الا انهم لايقدرون على اسقاط مدحه عن ألسنة الناس (وثالثها) انهم منصورون بسبب ان بواطنهم مملوءة من انوار الحجة وقوة اليقين فانهم انما ينظرون الى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات الى اخس الاشياء (ورابعها) ان المبطلين وان كان يتفق لهم ان يحصل لهم استيلاء على المحقين ففى الغالب ان ذلك لايدوم بل ينكشف للناس ان ذلك كان امرا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق (وخامسها) ان المحق ان اتفق له ان وقع فى نوع من انواع المحذور فذلك يكون سببا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته (وسادسها) ان الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولايبقى لهم فى الدنيا اثر ولاخبر واما المحقون فان آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون فى اعمال البر والخير ولمنهجهم يتركون فهذا كله انواع نصرة الله للمحقين فى الدنيا (وسابعها) انه تعالى قد ينتقم للانبياء والاولياء بعد موتهم كما نصر يحيى بن زكريا فانه لما قتل قتل به سبعون الفا واما نصرته تعالى اياهم فى الآخرة فذلك باعلاء درجاتهم فى مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لانبياء الله كما قال فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا واعلم ان فى قوله انا

(لننصر)

قول من قال * فقد جئنا خراسانا * اى اذا كان الامر كذلك فأدعوا انتم فان الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الاذن فيه مع عرائه عن بيان ان سببه من قبلهم كما تفصح عنه الفاء ربما يوهم ان الاذن فى حيز الامكان وانهم لو اذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء اطماعهم فى الاجابة بل اقناطهم منها واظهار خيبتهم حسبما صرحوا به فى قولهم (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) اى ضياع وبطلان وقوله تعالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان ان ما اصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة وهو ان شاننا المستمر انا ننصر رسلنا واتباعهم (فى الحيوة الدنيا) بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبى وغير ذلك من العقوبات ولايقدح فى ذلك ماقد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا اذ العبرة انما هى بالعواقب وغالب الامر (ويوم يقوم الاشهاد) اى يقوم القيامة عبر عنه بذلك للاشعار بكيفية النصرة وانها تكون عند جميع الاولين والآخرين بشهادة الاشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب (يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) بدل من الاول وعدم نفع المعذرة لانها باطلة وقرئ لاتنفع بالتاء (ولهم اللعنة) اى البعد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) اى جهنم (ولقد آتينا

لننصر رسلنا الى قوله يوم يقوم الاشهاد دقيقة معتبرة وهى ان السلطان العظيم اذا خص بعض خواصه بالاكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من اهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج فقوله انا لننصر رسلنا الى يوم يقوم الاشهاد المقصود منه هذه الدقيقة واختلفوا فى المراد بالاشهاد والظاهر ان المراد كل من يشهد باعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبى ومؤمن اما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا واما الانبياء فقال تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا وقال تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا قال المبرد يجوز ان يكون واحد الاشهاد شاهدا كاطيار وطائر واصحاب وصاحب ويجوز ان يكون واحد الاشهاد شهيدا كاشراف وشريف وايتام ويتيم ثم قال تعالى يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار قرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر لاتنفع بالتاء لتأنيث المعذرة والباقون بالياء كأنه اريد الاعتذار واعلم ان المقصود ايضا من هذا شرح تعظيم ثواب اهل الثواب وذلك لانه تعالى بين انه ينصرهم فى يوم يجتمع فيه الاولون والآخرون فحالهم فى علو الدرجات فى ذلك اليوم ماذكرناه واما حال اعدائهم فهو انه حصلت لهم امور ثلاثة (احدها) انه لاينفعهم شئ من المعاذير البتة (وثانيها) ان لهم اللعنة وهذا يفيد الحصر يعنى اللعنة مقصورة عليهم وهى الاهانة والاذلال (وثالثها) سوء الدار وهو العقاب الشديد فهذا اليوم اذا كان الاعداء واقعين فى هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية ثم انه خص الانبياء والاولياء بأنواع التشريفات الواقعة فى الجمع الاعظم فههنا يظهر ان سرور المؤمن كم يكون وان غموم الكافرين الى اين تبلغ فان قيل قوله يوم لاينفع الظالمين معذرتهم يدل على انهم يذكرون الاعذار الا أن تلك الاعذار لاتنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله ولايؤذن لهم فيعتذرون قلنا قوله لاتنفع الظالمين معذرتهم لايدل على انهم ذكروا الاعذار بل ليس فيه الا انه ليس عندهم عذر مقبول نافع وهذا القدر لايدل على انهم ذكروه أم لا وايضا فيقال يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون فى وقت ولايعتذرون فى وقت آخر ولما بين الله تعالى أنه ينصر الانبياء والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من انواع تلك النصرة فى الدنيا فقال ولقد آتينا موسى الهدى ويجوز ان يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ويجوز ان يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التى أوردها على فرعون واتباعه وكادهم بها ويجوز ان يكون المراد هو النبوة التى هى اعظم المناصب الانسانية ويجوز ان يكون المراد انزال التوراة عليه ثم قال تعالى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب يجوز ان يكون المراد منه انه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بقى ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفا عن سلف ويجوز ان يكون المراد سائر الكتب التى انزلها الله عليهم وهى كتب انبياء بنى اسرائيل التوراة والزبور

موسى الهدى) مايهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع (واورثنا بنى اسرائيل الكتاب) وتركنا عليهم من بعده التوراة (هدى وذكرى) هداية وتذكرة او هاديا ومذكرا (لاولى الالباب) لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه (فاصبر) على ما نالك من اذية المشركين (ان وعد الله) اى وعده الذى ينطق به قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون او وعده الخاص بك اوجميع مواعيده التى من جملتها ذلك (حق) لايحتمل الاخلاف اصلا واستشهد بحال موسى وفرعون (واستغفر لذنبك) تدارك كالمافرط منك من ترك الاولى فى بعض الاحايين فانه تعالى كافيك فى نصره دينك واظهاره على الدين كله (وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) اى ودم على التسبيح ملتبسا بحمده تعالى وقيل صل لهذين الوقتين اذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا وقيل صل شكرا لربك بالعشى والابكار وقيل هما صلاة العصر وصلاة الفجر (ان الذين يجادلون فى آيات الله) ويجحدون بها (بغير سلطان اتاهم) فى ذلك من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة اتيانه للايذان بأن التكلم فى امر الدين لابد من استناده الى سلطان مبين البتة وهذا عام لكل مجادل مبطل وان نزل فى مشركى مكة وقوله تعالى (ان فى صدورهم الا كبر) خبر لان اى ما فى قلوبهم الا تكبر عن الحق وتعظم عن

والانجيل والفرق بين الهدى والذكرى ان الهدى مايكون دليلا على الشيء وليس من شرطه ان يذكر شيئا آخر كان معلوما ثم صار منسيا واما الذكرى فهي الذي يكون كذلك فكتب انبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في انفسها وبعضها مذكرات لماورد في الكتب الالهية المتقدمة ولما بين ان الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى وخاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وسلم فقال فاصبر ان وعد الله حق فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده في حقك كما كان كذلك في حقهم ثم امره بأن يقبل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة فان من كان لله كان الله له واعلم ان مجامع الطاعات محصورة في قسمين التوبة عما لا ينبغي والاشتغال بما ينبغي والاول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية فوجب ان يكون مقدما عليه في الذكر اما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله واستغفر لذنبك والطاعنون في عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون به ونحن نحمله على التوبة عن ترك الاولى والافضل او على ماكان قد صدر عنهم قبل النبوة وقيل ايضا المقصود منه محض التعبد كما في قوله ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك فان ايتاء ذلك الشيء واجب ثم انه امرنا بطلبه وكقوله رب احكم بالحق مع انا نعلم انه لا يحكم الا بالحق وقيل اضافة المصدر الى الفاعل والمفعول فقوله واستغفر لذنبك من باب اضافة المصدر الى المفعول اى واستغفر لذنب امتك في حقك واما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل مالا يليق به والعشي والابكار قيل صلاة العصر وصلاة الفجر وقيل الابكار عبارة عن اول النهار الى النصف والعشي عبارة عن النصف الى آخر النهار فيدخل فيه كل الاوقات وقيل المراد طرفي النهار كما قال واقم الصلاة طرفي النهار وبالجملة فالمراد منه الامر بالمواظبة على ذكر الله وان لا يفتر اللسان عنه وان لا يغفل القلب عنه حتى يصير الانسان بهذا السبب داخلا في زمرة الملائكة كما قال في وصفهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون والله اعلم ❊ قوله تعالى (ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون ومايستوى الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ماتتذكرون ان الساعة لآتية لاريب فيها ولكن اكثر الناس لا يؤمنون) اعلم انا بينا ان الكلام في اول هذه السورة انما ابتدىء ردا على الذين يجادلون في آيات الله واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه والنسق الذي كشفناعنه الى هذا الموضع ثم انه تعالى نبه في هذه الآية على الداعية التي تحمل اولئك الكفار على تلك المجادلة فقال ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان انما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر في صدورهم فذلك الكبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل وذلك الكبر هو انهم لو سلموا نبوتك لزمهم ان يكونوا

التفكر والتعلم او الا ارادة الرياسة والتقدم على الاطلاق اوالا ارادة ان تكون النبوة لهم دونك حسدا وبغيا حسبما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقالوا لو كان خيرا ماسبقونا اليه ولذلك يجادلون فيها لا ان فيها موقع جدال ما او ان شيئا يتوهم ان يصلح مدارا لمجادلتهم في الجملة وقوله تعالى (ماهم ببالغيه) صفة لكبر قال مجاهد ماهم ببالغي مقتضى ذلك الكبر وهو ما أرادوه من الرياسة اوالنبوة وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور في التوراة بل هو المسيح ابن داود يريدون الدجال يخرج في آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الانهار وهو آية من آيات الله تعالى فيرجع الينا الملك فسمى الله تعالى تمنيهم ذلك كبرا ونفى ان يبلغوا متمناهم (فاستعذ بالله) اى فالتجىء اليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك وفيه رمز الى انه من همزات الشياطين (انه هو السميع البصير) لاقوالكم وافعالكم وقوله تعالى (لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس) تحقيق للحق وتبيين لاشهر مايجادلون فيه من امر البعث على منهاج قوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض

(تحت)

تحت يدك وامرك ونهيك لان النبوة تحتها كل ملك ورياسة وفى صدورهم كبر لايرضون ان يكونوا فى خدمتك فهذا هو الذى يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة ثم قال تعالى ماهم ببالغيه يعنى انهم يريدون ان لايكونوا تحت يدك ولا يصلون الى هذا المراد بل لابد وان يصيروا تحت امرك ونهيك ثم قال فاستعذ بالله اى فالتجئ اليه من كيدمن يجادلك انه هو السميع بما يقولون اوتقول البصير بما تعمل ويعملون فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم ويصونك عن مكرهم وكيدهم واعلم انه تعالى لما وصف جدالهم فى آيات الله بأنه بغير سلطان ولاحجة ذكر لهذا مثالا فقال لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس والقادر على الاكبر قادر على الاصغر لامحالة وتقرير هذا الكلام ان الاستدلال بالشئ على غيره على ثلاثة اقسام (احدها) ان يقال لماقدر على الاضعف وجب ان يقدر على الاقوى وهذا فاسد (وثانيها) ان يقال لماقدر على الشئ قدر على مثله فهذا استدلال حق لماثبت فى العقول ان حكم الشئ حكم مثله (وثالثها) ان يقال لماقدر على الاقوى الاكمل فبأن يقدر على الاقل الارذل كان اولى وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولايرتاب فيه عاقل البتة ثم ان هؤلاء القوم يسلمون ان خالق السموات والارض هو الله سبحانه وتعالى ويعلمون بالضرورة ان خلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وكان من حقهم ان يقروا بأن القادر على خلق السموات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه اولا فهذا برهان جلى فى افادة هذا المطلوب ثم ان هذا البرهان على قوته صار بحيث لايعرفه اكثر الناس والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال ان هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ولاحجة بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ولما بين الله تعالى ان الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وان الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال ومايستوى الاعمى والبصير يعنى ومايستوى المستدل والجاهل المقلد ثم قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ فالمراد بالاول التفاوت بين العالم والجاهل والمراد بالثانى التفاوت بين الآتى بالاعمال الصالحة وبين الآتى بالاعمال الفاسدة الباطلة ثم قال قليلا ماتتذكرون يعنى انهم وان كانوا يعلمون ان العلم خير من الجهل وان العمل الصالح خير من العمل الفاسد الا انه قليلا ماتتذكرون فى النوع المعين من الاعتقاد انه علم اوجهل والنوع المعين من العمل انه عمل صالح او فاسد فان الحسد يعمى قلوبهم فيعتقدون فى الجهل والتقليد انه محض المعرفة وفى الحسد والحقد والكبر انه محض الطاعة فهذا هو المراد من قوله قليلا ماتتذكرون قرأ عاصم وحمزة والكسائى تتذكرون بالتاء على الخطاب اى قل لهم قليلا ماتتذكرون والباقون بالياء على الغيبة ولما قرر الدليل الدال على امكان وجود يوم القيامة اردفه بأن اخبر عن وقوعها ودخولها فى الوجود فقال ان الساعة لآتية لاريب فيها ولكن اكثر الناس لايؤمنون

بقادر على ان يخلق مثلهم (ولكن اكثر الناس لايعلمون) لقصورهم فى النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لاهوائهم (ومايستوى الاعمى والبصير) اى الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ) اى والمحسن والمسئ فلابد ان تكون لهم حال اخرى يظهر فيها مابين الفريقين من التفاوت وهى فيما بعد البعث وزيادة لا فى المسئ لتأكيد النفى لطول الكلام بالصلة ولان المقصود نفى مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثانى عطف الموصول بما عطف عليه على الاعمى والبصير لتغاير الوصفين فى المقصود اوالدلالة بالصراحة والتمثيل (قليلا ماتتذكرون) على الخطاب بطريق الالتفات اى تذكرا قليلا تتذكرون وقرئ على الغيبة والضمير للناس او الكفار (ان الساعة لآتية لاريب فيها) اى فى مجيئها لوضوح شواهدها واجماع الرسل على الوعد بوقوعها (ولكن اكثر الناس لايؤمنون) لايصدقون بها لقصور انظارهم على ظواهر مايحسون به (وقال ربكم ادعونى) اى اعبدونى (استجب لكم) اى اثبكم لقوله تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين اى صاغرين اذلاء وان فسر الدعاء بالسؤال كان الامر الصارف عنه

والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة * قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) اعلم انه تعالى لمابين أن القول بالقيامة حق وصدق وكان من المعلوم بالضرورة ان الانسان لاينتفع فى يوم القيامة الابطاعة الله تعالى لاجرم كان الاشتغال بالطاعة من اهم المهمات ولما كان اشرف انواع الطاعات الدعاء والتضرع لاجرم امر الله تعالى به فى هذه الآية فقال وقال ربكم ادعونى استجب لكم واختلف الناس فى المراد بقوله ادعونى فقيل انه الامر بالدعاء وقيل انه الامر بالعبادة بدليل انه قال بعده ان الذين يستكبرون عن عبادتى ولولا ان الامر بالدعاء امر بمطلق العبادة لمابقى لقوله ان الذين يستكبرون عن عبادتى معنى وايضا الدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن كقوله ان يدعون من دونه الا اناثا وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة فكأنه قيل ان تارك الدعاء انما تركه لاجل ان يستكبر عن اظهار العبودية وأجيب عن قوله ان الدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن بأن ترك الظاهر لايصار اليه الا بدليل منفصل فان قيل كيف قال ادعونى استجب لكم وقد يدعى كثيرا فلايستجاب أجاب الكعبى عنه بان قال الدعاء انمايصح على شرط ومن دعا كذلك استجيب له وذلك الشرط هو ان يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ثم سأل نفسه فقال فاهو اصلح يفعله بلا دعاء فما الفائدة فى الدعاء واجاب عنه من وجهين (الاول) ان فيه الفزع والانقطاع الى الله (والثانى) ان هذا ايضا وارد على الكل لانه ان علم انه يفعله فلابد وان يفعله فلا فائدة فى الدعاء وان علم انه لايفعله فانه البتة لايفعله فلا فائدة فى الدعاء وكل مايقولونه ههنا فهو جوابنا هذا تمام ماذكره وعندى فيه وجه آخر وهو انه قال ادعونى استجب لكم فكل من دعا الله وفى قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه واقاربه واصدقائه وجده واجتهاده فهو فى الحقيقة مادعا الله الا باللسان امابالقلب فانه معول فى تحصيل ذلك المطلوب على غير الله فهذا الانسان مادعا ربه فى وقت اما اذا دعا فى وقت لايبقى فى القلب التفات الى غير الله فالظاهر انه تحصل الاستجابة اذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة وهى ان انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لايحصل الا عند القرب من الموت فان الانسان قاطع فى ذلك الوقت بأنه لاينفعه شئ سوى فضل الله تعالى فعلى القانون الذى ذكرناه وجب ان يكون الدعاء فى ذلك الوقت مقبولا عند الله ونرجو من فضل الله واحسانه ان يوفقنا للدعاء المقرون بالاخلاص والتضرع فى ذلك الوقت واعلم ان الكلام المستقصى فى الدعاء قدسبق ذكره فى سورة البقرة ثم قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين اى صاغرين وهذا احسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء فان

منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة او المراد بالعبادة الدعاء فانه من افضل ابوابها وقرئ سيدخلون على صيغة المبنى للمفعول من الادخال (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى الى ضعف المحركات وهدء الحواس لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول قدمر سره مرارا (والنهار مبصرا) اى مبصرا فيه اوبه (ان الله لذو فضل) عظيم لايوازيه ولايدانيه فضل (على الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون) لجهلهم بالمنعم واغفالهم مواضع النعم وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم (ذلكم) المتفرد بالافعال المقتضية للالوهية والربوبية (الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو) اخبار مترادفة تخصص اللاحقة منها السابقة وتقررها وقرئ خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا اله الا هو استئنافا بما هو كالنتيجة للاوصاف المذكورة (فانى تؤفكون) فكيف ومن اى وجه تصرفون عن عبادته خاصة الى عبادة غيره (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) اى مثل ذلك الافك العجيب الذى لاوجه له ولامصحح اصلا يؤفك كل من جحد بآياته تعالى اى آية كانت لا افكا آخر له وجه ومصحح فى الجملة

قيل روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال حكاية عن رب العزة انه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى اعطيته افضل ما اعطى السائلين فهذا الخبر يقتضى ان ترك الدعاء افضل وهذه الآية تدل على ان ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد فكيف الجمع بينهما قلنا لاشك ان العقل اذا كان مستغرقا فى الثناء كان ذلك افضل من الدعاء لان الدعاء طلب للحظ والاستغراق فى معرفة جلال الله افضل من طلب الحظ اما اذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء اولى لان الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية ثم قال تعالى الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه واعلم ان تعلقه بما قبله من وجهين (الاول) كأنه تعالى قال انى انعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة ومن انعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالاشياء القليلة بعد السؤال (والثانى) انه تعالى لما امر بالدعاء فكأنه قبل الاشتغال بالدعاء لابد وان يكون مسبوقا بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الاله القادر وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته واعلم انا بينا ان دلائل وجود الله وقدرته اما فلكية واما عنصرية اما الفلكيات فاقسام كثيرة (احدها) تعاقب الليل والنهار وكان اكثر مصالح العالم مربوطا بهما فذكرهما الله تعالى فى هذا المقام وبين ان الحكمة فى خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون والحكمة فى خلق النهار ابصار الاشياء ليحصل مكنة لتصرف فيها على الوجه الانفع اما ان السكون فى وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين (الاول) ان الحركات توجب الاعياء من حيث ان الحركة توجب السخونة والجفاف وذلك يوجب التألم (والثانى) ان الاحساس بالاشياء انما يمكن بايصال الارواح الجسمانية الى ظاهر الحس ثم ان تلك الارواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والاحساسات واذا نام الانسان عادت الارواح الحساسة فى باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الاعياء وايضا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل فى النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات فهذه هى المنافع المعلومة من قوله تعالى الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه واما قوله والنهار مبصرا فاعلم ان الانسان مدنى بالطبع ومعناه انه مالم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الانسان فى مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه وتلك المهمات لاتحصل الا باعمال كثيرة وتلك الاعمال تصرفات فى امور وهذه التصرفات لاتكمل الا بالضوء والنور حتى يميز الانسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لايوافقه فهذا هو الحكمة فى قوله والنهار مبصرا فان قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم ان يقال هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه او جعل لكم الليل ساكنا ولكنه لم يقل كذلك بل قال فى الليل لتسكنوا فيه وقال فى النهار مبصرا فما الفائدة فيه وايضا فما الحكمة فى تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع ان النهار اشرف من الليل قلنا اما الجواب عن الاول فهو ان الليل والنوم فى

(الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء) بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان وقوله تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) بيان لفضله المتعلق بأنفسهم والفاء فى فأحسن تفسيرية فان الاحسان عين التصوير اى صوركم احسن تصوير حيث خلقكم منتصب القامة بادى البشرة متناسب الاعضاء والتخطيطات متهيئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) اى اللذائذ (ذلكم) الذى نعت بما ذكر من النعوت الجليلة (الله ربكم) خبران لذلكم (فتبارك الله) اى تعالى بذاته (رب العالمين) اى مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر اليه فى ذاته ووجوده وسائر احواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنا لانعدم بالكلية (هو الحى) المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية (لا اله الا هو) اذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وافعاله (فادعوه) فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجبه به تعالى (مخلصين له الدين) اى الطاعة من الشرك الجلى والخفى (الحمد لله رب العالمين) اى قائلين ذلك * عن ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على اثرها الحمد لله رب العالمين (قل انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) من الحجج والآيات او من الآيات لكونها مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فان الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والانفسية (وامرت ان اسلم لرب

الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود اما اليقظة فأمور وجودية وهى مقصودة بالذات وقد بين الشيخ عبدالقاهر النحوى فى (دلائل الاعجاز) ان دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال اقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذاهو السبب فى هذا الفرق والله اعلم واما الجواب عن الثانى فهو ان الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم فى المحدثات مقدم على الوجود ولهذا السبب قال فى اول سورة الانعام وجعل الظلمات والنور واعلم انه تعالى لما ذكر مافى الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون والمراد ان فضل الله على الخلق كثير جدا ولكنهم لايشكرونه واعلم ان ترك الشكر لوجوه (احدها) ان يعتقد الرجل ان هذه النعم ليست من الله تعالى مثل ان يعتقد ان هذه الافلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها فحينئذ هذا الرجل لايعتقد ان هذه النعم من الله (وثانيها) ان الرجل وان اعتقد ان كل هذا العالم حصل بتخليق الله وتكوينه الا ان هذه النعم عظيمة اعنى نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الانسان فاذا ابتلى الانسان بفقد ان شئ منها عرف قدرها مثل ان يتفق لبعض الناس والعياذ بالله ان يحبسه بعض الظلمة فى آبار عميقة مظلمة مدة مديدة فحينئذ يعرف ذلك الانسان قدر نعمة الهواء الصافى وقدر نعمة الضوء ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن امر أقواما حتى يمنعونه عن الاستناد الى الجدار وعن النوم فعظم وقع هذا التعذيب (وثالثها) ان الرجل وان كان عارفا بمواقع هذه النعم الا انه يكون حريصا على الدنيا محبا للمال والجاه فاذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع فى كفران هذه النعم العظيمة ولما كان اكثر الخلق هالكين فى احد هذه الاودية الثلاثة التى ذكرناها لاجرم قال تعالى ولكن اكثر الناس لايشكرون ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وقول ابليس ولاتجد اكثرهم شاكرين ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الاله القادر الرحيم الحكيم قال ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لااله الاهو قال صاحب الكشاف ذلكم المعلوم المميز بالافعال الخاصة التى لايشاركه فيها احد هو الله ربكم خالق كل شئ لااله الاهو اخبار مترادفة اى هو الجامع لهذه الاوصاف من الالهية والربوبية وخلق كل شئ وانه لاثانى له فأنى تؤفكون والمراد فأنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ثم قال تعالى كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون يعنى ان كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة الطلب الحق وخوف العاقبة افك كما افكوا ❁ قوله تعالى

الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحى لااله الاهو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين قل انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وامرت ان اسلم لرب العالمين هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من

(علقة)

العالمين) اى بان انقاد له واخلص له دينى (هو الذى خلقكم من تراب) اى فى ضمن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منه حسبما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) اى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة اى منى (ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) اى اطفالا والافراد لارادة الجنس او لارادة كل واحد من افراده (ثم لتبلغوا اشدكم) علة ليخرجكم معطوفة على علة اخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل وكذا الكلام فى قوله تعالى (ثم لتكونوا شيوخا) ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرئ شيخا كقوله تعالى طفلا (ومنكم من يتوفى من قبل) اى من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الاشد او قبله ايضا (ولتبلغوا) متعلق بفعل مقدر بعده اى ولتبلغوا (اجلا مسمى) هو وقت الموت او يوم القيامة يفعل ذلك (ولعلكم تعقلون) ولكى تعقلوا ما فى ذلك من فنون الحكم والعبر (هو الذى يحيى الاموات (ويميت) الاحياء او الذى يفعل الاحياء والاماتة (فاذا قضى امرا) اى أراد امرا من الامور (فانما يقول له كن فيكون) من غير توقف على شئ من الاشياء اصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات عند تعلق ارادته بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير ان يكون هناك آمر ومأمور والفاء الاولى للدلالة على ان ما بعدها من نتائج ماقبلها من اختصاص الاحياء والاماتة

علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا اجلا مسمى ولعلكم تعقلون) اعلم انا بينا ان دلائل وجود الله وقدرته اما ان تكون من باب دلائل الآفاق او من باب دلائل الانفس اما دلائل الآفاق فالمراد كل ماهو غير الانسان من كل هذا العالم وهى اقسام كثيرة والمذكور منها فى هذه الآية اقسام منها احوال الليل والنهار وقد سبق ذكره (وثانيها) الارض والسماء وهو المراد من قوله الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء قال ابن عباس فى قوله قرارا اى منزلا فى حال الحياة وبعد الموت والسماء بناء كالقبة المضروبة على الارض وقيل مسك الارض بلا عمد حتى امكن التصرف عليها والسماء بناء اى قائما ثابتا والا لوقعت علينا واما دلائل الانفس فالمراد منها دلالة احوال بدن الانسان دلالة احوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم والمذكور منها فى هذه الآية قسمان (احدهما) ماهو حاصل مشاهد حال كمال حاله والثانى ما كان حاصلا فى ابتداء خلقته وتكوينه (اما القسم الاول) فأنواع كثيرة والمذكور منها فى هذه الآية انواع ثلاثة (اولها) حدوث صورته وهو المراد من قوله وصوركم (وثانيها) حسن صورته وهو المراد من قوله فأحسن صوركم (وثالثها) انه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله ورزقكم من الطيبات وقد اطنبنا فى تفسير هذه الاشياء فى هذا الكتاب مرارا لاسيما فى تفسير قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الانفس قال ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين وتفسير تبارك اما الدوام والثبات واما كثرة الخيرات ثم قال هو الحى لا اله الا هو وهذا يفيد الحصر وان لاحى الا هو فوجب ان يحمل ذلك على الحى الذى يمتنع ان يموت امتناعا ذاتيا وحينئذ لاحى الا هو فكأنه اجرى الشئ الذى يجوز زواله مجرى المعدوم واعلم ان الحى عبارة عن الدراك الفعال والدراك اشارة الى العلم التام والفعال اشارة الى القدرة الكاملة ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهى الوحدانية بقوله لا اله الا هو ولما وصفه بهذه الصفات امر العباد بشيئين (احدهما) بالدعاء (والثانى) بالاخلاص فيه فقال فادعوه مخلصين له الدين ثم قال الحمد لله رب العالمين فيجوز ان يكون المراد قول الحمد لله رب العالمين ويجوز ان يكون المراد انه لما كان موصوفا بصفات الجلال والعزة استحق لذاته ان يقال له الحمد لله رب العالمين ولما بين صفات الجلال والعظمة قال قل انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله فأورد ذلك على المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الاوثان وبين ان وجه النهى فى ذلك ما جاءه من البينات وتلك البينات ان اله العالم قد ثبت كونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة على ما تقدم ذكره وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق الا به وان جعل الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء له فى المعبودية مستنكر فى بديهة العقل ولما بين انه نهى عن عبادة غير الله بين انه امر بعبادة الله تعالى

به سبحانه (ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله انى يصرفون) تعجيب من احوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك كما ان ماسبق من قوله تعالى ان الذين يجادلون فى آيات الله الخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لايكاد يدخل تحت الوجود هو الامنية الفارغة فلا تكرير فيه اى انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين فى آياته تعالى الواضحة الموجبة للايمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى الى الاقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية وقوله تعالى (الذين كذبوا بالكتاب) اى بكل القرآن او بجنس الكتب السماوية فان تكذيبه تكذيب لها فى محل الجر على انه بدل من الموصول الاول او فى حيز النصب او الرفع على الذم وانما وصل الموصول الثانى بالتكذيب دون المجادلة لان المعتاد وقوع المجادلة فى بعض المواد لا فى الكل وصيغة الماضى للدلالة على التحقق كما ان صيغة المضارع فى الصلة الاولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها (وبما ارسلنا به رسلنا) من سائر الكتب او مطلق الوحى والشرائع (فسوف يعلمون) كنه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته (اذ الاغلال فى اعناقهم) ظرف ليعلمون اذ المعنى على الاستقبال ولفظ الماضى لتيقنه (والسلاسل) عطف على الاغلال والجار فى نية التأخير وقيل مبتدأ حذف

فقال وامرت ان اسلم لرب العالمين وانما ذكر هذه الاحكام فى حق نفسه لانهم كانوا يعتقدون فيه انه فى غاية العقل وكمال الجوهر ومن المعلوم بالضرورة ان كل احد فانه لا يريد لنفسه الا الافضل الاكمل فاذا ذكر ان مصلحته لا تتم الا بالاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به ان هذا الطريق اكمل من كل ماسواه ثم قال هو الذى خلقكم من تراب واعلم انا قد ذكرنا ان الدلائل على قسمين دلائل الآفاق والانفس اما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها فى هذه الآية اربعة الليل والنهار والارض والسماء واما دلائل الانفس فقد ذكرنا انها على قسمين (احدهما) الاحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهى اقسام كثيرة والمذكور ههنا منها ثلاثة انواع الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات (واما القسم الثانى) وهو كيفية تكون هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينا الى آخر الشيخوخة والموت فهو المذكر فى هذه الآية فقال هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة فقيل المراد آدم وعندى لا حاجة اليه لان كل انسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى مخلوق من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما يتولد من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحال فى تكون ذلك الحيوان كالحال فى تكون الانسان فالاغذية بأسرها منتهية الى النباتية والنبات انما يكون من التراب والماء فثبت ان كل انسان فهو متكون من التراب ثم ان ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة ثم بعد كونه علقة مراتب كثيرة الى ان ينفصل من بطن الام فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لاجل انه تعالى ذكرها فى سائر الآيات واعلم انه تعالى رتب عمر الانسان على ثلاث مراتب اولها كونه طفلا وثانيها ان يبلغ اشده وثالثها الشيخوخة وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل وذلك لان الانسان فى اول عمره يكون فى التزايد والنشو والنماء وهو المسمى بالطفولية والمرتبة الثانية ان يبلغ الى كمال النشو والى اشد السن من غير ان يكون قد حصل فيه نوع من انواع الضعف وهذه المرتبة هى المراد من قوله لتبلغوا اشدكم والمرتبة الثالثة ان يتراجع ويظهر فيه اثر من آثار الضعف والنقص وهذه المرتبة هى المراد من قوله ثم لتكونوا شيوخا واذا عرفت هذا التقسيم عرفت ان مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لا تزيد على هذه الثلاثة قال صاحب الكشاف قوله لتبلغوا اشدكم متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا ثم قال ومنكم من يتوفى من قبل اى من قبل الشيخوخة او من قبل هذه الاحوال اذا خرج سقطا ثم قال ولتبلغوا أجلا مسمى ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة ثم قال ولعلكم تعقلون مافى هذه الاحوال العجيبة من انواع العبر والاقسام الدلائل ❊ قوله تعالى (هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون) اعلم انه تعالى لما ذكر انتقال الانسان من كونه ترابا الى كونه نطفة ثم الى كونه علقة ثم الى كونه طفلا ثم الى بلوغ الاشد ثم الى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الاله القادر قال بعده هو الذى يحيى ويميت

خبره لدلالة خبر الاول عليه وقيل قوله تعالى (يسحبون) بحذف العائد اى يسحبون بها وهو على الاولين حال من المستكن فى الظرف وقيل استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل فماذا يكون حالهم بعد ذلك فقيل يسحبون (فى الحميم) وقرئ والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية والسلاسل بالجر حملا على المعنى لان قوله تعالى اذ الاغلال فى اعناقهم فى معنى اعناقهم فى الاغلال او اضمار للباء ويدل عليه القراءة به (ثم فى النار يسجرون) اى يحرقون من سجر التنور اذا ملأه بالوقود ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب اى ملئ والمراد بيان انهم يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من باب الى باب (ثم قيل لهم اين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا) اى يقال لهم ويقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ومعنى ضلوا عنا غابوا عنا وذلك قبل ان يقرن بهم آلهتهم اوضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم (بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا) اى بل تبين لنا انا لم نكن نعبد شيئا بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم انهم لم يكونوا شيئا يعتد به كقولك حسبته شيئا فلم يكن (كذلك) اى مثل ذلك الضلال الفظيع (يضل الله الكافرين) حيث لا يهتدون الى شئ ينفعهم فى الآخرة او كما ضل عنهم آلهتهم حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا (ذلكم) الاضلال (بما كنتم تفرحون فى الارض)

(يعنى)

يعنى كان الانتقال من صفة الى صفة اخرى من الصفات التى تقدم ذكرها يدل على الاله القادر فكذلك الانتقال من الحياة الى الموت وبالعكس يدل على الاله القادر وقوله فاذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون فيه وجوه (الاول) معناه انه لما نقل هذه الاجسام من بعض هذه الصفات الى صفة اخرى لم يتعب فى ذلك التصرف ولم يحتج الى آلة واداة فعبر عن نفاذ قدرته فى الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما اذا قال كن فيكون (الوجه الثانى) انه عبر عن الاحياء والاماتة بقوله كن فيكون فكأنه قيل الانتقال من كونه ترابا الى كونه نطفة ثم الى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا قليلا واما صيرورة الحياة فهى انما تحصل لتعلق جوهر الروح النطقية به وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله كن فيكون (الوجه الثالث) ان من الناس من يقول ان تكون الانسان انما ينعقد من المنى والدم فى الرحم فى مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات الى حالات فكأنه قيل انه يمتنع ان يكون كل انسان عن انسان آخر لان التسلسل محال ووقوع الحادث فى الازل محال فلابد من الاعتراف بانسان هو اول الناس فحينئذ يكون حدوث ذلك الانسان لا بواسطة المنى والدم بل بايجاد الله تعالى ابتداء فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله كن فيكون ❊ قوله تعالى (الم ترالى الذين يجادلون فى آيات الله انى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ثم قيل لهم اينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) اعلم انه تعالى عاد الى ذم الذين يجادلون فى آيات الله فقال الم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله انى يصرفون وهذا ذم لهم على أن جادلوا فى انكار آيات الله ودفعها والتكذيب بها فعجب تعالى منهم بقوله انى يصرفون كما يقول الرجل لمن لا يبين انى يذهب بك تعجبا من غفلته ثم بين انهم هم الذين كذبوا بالكتاب اى بالقرآن وبما ارسلنا به رسلنا من سائر الكتب فان قيل سوف للاستقبال واذ للماضى فقوله فسوف يعلمون اذ الاغلال فى اعناقهم مثل قولك سوف أصوم أمس قلنا المراد من قوله اذ هو اذا لان الامور المستقبلة لما كانت فى اخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال هذا لفظ صاحب الكشاف ثم انه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم والمعنى انه يكون فى اعناقهم الاغلال والسلاسل ثم يسحبون بتلك السلاسل فى الحميم اى فى الماء المسخن بنار جهنم ثم فى النار يسجرون والسجر فى اللغة الايقاد فى التنور ومعناه انهم فى النار فهى محيط بهم ويقرب منه قوله تعالى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ثم قيل لهم اينما كنتم تشركون من دون الله فيقولون ضلوا

اى تبطرون وتتكبرون (بغير الحق) وهو الشرك والطغيان (وبما كنتم تمرحون) تتوسعون فى البطر والاشر والالتفات للمبالغة فى التوبيخ (ادخلوا ابواب جهنم) اى ابوابها السبعة المقسومة لكم (خالدين فيها) مقدرا خلودكم فيها (فبئس مثوى المتكبرين) اى عن الحق جهنم والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود (فاصبر) الى ان يلاقوا ما اعدلهم من العذاب (ان وعد الله) بتعذيبهم (حق) كائن لا محالة (فامانرينك) اى فان نرك وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحقه مع ان وحدها (بعض الذى نعدهم) وهو القتل والاسر (اونتوفينك) قبل ذلك (فالينا يرجعون) يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم وهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز ان يكون جوابا لهما بمعنى ان نعذبهم فى حياتك اولم نعذبهم فانا نعذبهم فى الآخرة اشد العذاب وافظعه كما ينبئ عنه الاقتصار على ذكر الرجوع فى هذا المعرض (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) اذ قيل عدد الانبياء عليهم السلام مائة واربعة وعشرون الفا والمذكور قصصهم افراد معدودة وقيل اربعة آلاف من بنى اسرائيل واربعة آلاف من سائر الناس (وما كان لرسول) اى وما صح وما استقام لرسول منهم (ان يأتى باية الا باذن الله) فان المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله قسمها بينهم حسبما اقتضته

عنا اى غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ثم قالوا بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ اى تبين لنا انهم لم يكونوا شيأ وما كنا نعبد بعبادتهم شيأ كما تقول حسبت ان فلانا شئ فاذا هو ليس بشئ اذا جربته فلم تجد عنده خيرا ويجوز ايضا ان يقال انهم كذبوا وانكروا انهم عبدوا غير الله كما اخبر الله تعالى عنهم فى سورة الانعام انهم قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ثم قال تعالى كذلك يضل الله الكافرين قال القاضى معناه انه يضلهم عن طريق الجنة اذ لا يجوز ان يقال يضلهم عن الحجة اذ قد هداهم فى الدنيا اليها وقال صاحب الكشاف كذلك يضل الله الكافرين مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتى انهم لو طلبوا الآلهة او طلبتهم الآلهة لم يجد احدهما الآخر ثم قال ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض اى ذلكم الاضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الاصنام ادخلوا ابواب جهنم السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين والمراد منه ما قال فى الآية المتقدمة فى صفة هؤلاء المجادلين ان فى صدورهم الا كبر * قوله تعالى (فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فالينا يرجعون ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء امر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) اعلم انه تعالى لما تكلم من اول السورة الى هذا الموضع فى تزييف طريقة المجادلين فى آيات الله امر فى هذه الآية رسوله بأن يصبر على ايذائهم وايحاشهم بتلك المجادلات ثم قال ان وعد الله حق وعنى به ما وعده الرسول من نصرته ومن انزال العذاب على اعدائه ثم قال فاما نرينك بعض الذى نعدهم يعنى اولئك الكفار من انواع العذاب مثل القتل يوم بدر فذلك هو المطلوب او نتوفينك قبل انزال العذاب عليهم فالينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم اشد الانتقام ونظيره قوله تعالى فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون او نرينك الذى وعدناهم فانا عليهم مقتدرون ثم قال تعالى ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك والمعنى انه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم انت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس فيهم احد اعطاه الله آيات ومعجزات الا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا وكانوا ابدا يقترحون على الانبياء اظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت ثم ان الله تعالى لما علم ان الصلاح فى اظهار ما أظهره والا لم يظهره ولم يكن ذلك قادحا فى نبوتهم فكذلك الحال فى اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن اظهارها صلاحا لا جرم ما اظهرناها وهذا هو المراد من قوله وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله ثم قال فاذا جاء امر الله قضى بالحق وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات وامر الله القيامة والمبطلون هم المعاندون الذين يجادلون فى آيات الله ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت * قوله تعالى (الله

(الذى)

مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار فى ايثار بعضها والاستبداد باتيان المقترح منها (فاذا جاء امر الله) بالعذاب فى الدنيا والآخرة (قضى بالحق) بانجاء المحق واثابته واهلاك المبطل وتعذيبه (وخسر هنالك) اى وقت مجئ امر الله اسم مكان استعير للزمان (المبطلون) اى المتمسكون بالباطل على الاطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولا اوليا (الله الذى جعل لكم الانعام) قيل هى الابل خاصة اى خلقها لاجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى (لتركبوا منها ومنها تأكلون) تفصيل لما دل عليه اللام اجمالا ومن لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والاكل منها اى تعلقهما بها وقيل للتبعيض اى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها لا على ان كلا من الركوب والاكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما وتغيير النظم الكريم فى الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الاشعار بأصالة الركوب (ولكم فيها منافع) اخر غير الركوب والاكل كألبانها واوبارها وجلودها (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) بحمل اثقالكم من بلد الى بلد (وعليها وعلى الفلك تحملون) لعل المراد حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر فى فصله عن الركوب والجمع بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هى الازواج الثمانية فمعنى الركوب الاكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على ان كلا منهما يجوز تعلقه بكل منها

الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فاى آيات الله تنكرون) اعلم انه تعالى لما اطنب فى تقرير الوعيد عاد الى ذكر مايدل على وجود الاله الحكيم الرحيم والى ذكر مايصلح ان يعد انعاما على العباد قال الزجاج الانعام الابل خاصة وقال القاضى هى الازواج الثمانية وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) انه لم أدخل لام الغرض على قوله لتركبوا وعلى قوله لتبلغوا ولم يدخل على البواقى فالسبب فيه (الجواب) قال صاحب الكشاف الركوب فى الحج والغزو اما ان يكون واجبا او مندوبا فهذان القسمان اغراض دينية فلاجرم ادخل عليهما حرف التعليل واما الاكل واصابة المنافع فمن جنس المباحات فلاجرم ما ادخل عليها حرف التعليل نظيره قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة فادخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة (السؤال الثانى) قوله تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون معناه تحملون فى البر والبحر اذا عرفت هذا فنقول لم لم يقل وفى الفلك كما قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين والجواب ان كلمة على للاستعلاء فالشئ الذى يوضع فى الفلك كما يصح ان يقال وضع فيه يصح ان يقال وضع عليه ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى يتم المراد فى قوله وعلى الفلك تحملون ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون يعنى ان هذه الآيات التى عددناها كلها ظاهرة فقوله فاى آيات الله تنكرون تنبيه على انه ليس فى شئ من الدلائل التى تقدم ذكرها ما يمكن انكاره قال صاحب الكشاف قوله اى آيات الله جاء على اللغة المستفيضة وقولك فأية آيات الله قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حار وحارة غريب وهى فى اى اغرب لابهامه والله اعلم ۞ قوله تعالى

(افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم واشد قوة وآثارا فى الارض فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) اعلم انه تعالى راعى ترتيبا لطيفا فى آخر هذه السورة وذلك انه ذكر فصلا فى دلائل الالهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ثم اردفه بفصل فى التهديد والوعيد وهذا الفصل الذى وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد والمقصود ان هؤلاء الكفار الذين يجادلون فى آيات الله وحصل التكبر العظيم فى صدورهم بهذا والسبب فى ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير فى المال والجاه فمن ترك الانقياد للحق لاجل طلب هذه الاشياء فقد باع الآخرة بالدنيا فبين تعالى ان هذه الطريقة فاسدة لان الدنيا فانية ذاهبة واحتج عليه بقوله تعالى افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم يعنى لو ساروا فى اطراف الارض لعرفوا ان عاقبة المتكبرين

ولا على ان كلا منهما مختص ببعض معين منها بحيث لايجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على ان بعضها يتعلق به الاكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالابل والبقر والمنافع تعم الكل وبلوغ الحاجة عليها يعم البقر (ويريكم آياته) دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته (فأى آيات الله) اى فأى آية من تلك الآيات الباهرة (تنكرون) فان كلا منها من الظهور بحيث لايكاد يجترئ على انكارها من له عقل فى الجملة وهو ناصب لاى واضافة الآيات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل انكارها وتذكير اى هو الشائع المستفيض والتأنيث قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حار وحارة غريب وهى فى اى اغرب لابهامه (افلم يسيروا)اى اقعدوا فلم يسيروا (فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)من الامم المهلكة وقوله تعالى (كانوا اكثر منهم واشد قوة) الخ استئناف مسوق لبيان مبادى احوالهم وعواقبها (وآثارا فى الارض) باقية بعدهم من الابنية والقصور والمصانع وقيل هى آثار اقدامهم فى الارض لعظم اجرامهم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) ما الاولى نافية او استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة او مصدرية مرفوعة اى لم يغن عنهم او اى شئ اغنى عنهم مكسوبهم او كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات او بالآيات الواضحة (فرحوا بما عندهم من العلم) اى اظهروا الفرح بذلك وهو مالهم من العقائد الزائغة والشبه الداحضة وتسميتها علما للتهكم بهم او علم الطبائع

المتمردين ليست الا الهلاك والبوار مع انهم كانوا اكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة الاالخيبة والخسار والحسرة والبوار فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين اما بيان انهم كانوا أكثر من هؤلاء عددا فانما يعرف في الاخبار واما انهم كانوا اشد قوة وآثارا في الارض فلانه قد بقيت آثارهم بعدهم مثل الاهرام الموجودة بمصر ومثل هذه البلاد العظيمة التى بناها الملوك المتقدمون ومثل ماحكى الله عنهم من انهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ثم قال تعالى فاأغنى عنهم ما كانوا يكسبون ما في قوله فاأغنى عنهم نافية او مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب وما في قوله ما كانوا يكسبون موصولة او مصدرية ومحلها الرفع يعني اى شئ اغنى عنهم مكسوبهم او كسبهم ثم بين تعالى ان أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات فرحوا بما عندهم من العلم واعلم ان الضمير في قوله فرحوا يحتمل ان يكون عائدا الى الكفار وان يكون عائدا الى الرسل اما اذا قلنا انه عائد الى الكفار فذلك العلم الذى فرحوا به اى علم كان وفيه وجوه (الاول) ان يكون المراد الاشياء التى كانوا يسمونها بالعلم وهى الشبهات التى حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم وما يهلكنا الا الدهر وقولهم لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا وقولهم من يحيي العظام وهى رميم ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الانبياء كما قال كل حزب بما لديهم فرحون (الثانى) يجوز ان يكون المراد علوم الفلاسفة فانهم كانوا اذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الانبياء الى علومهم وعن سقراط انه سمع بمجئ بعض الانبياء فقيل له لو هاجرت اليه فقال نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا الى من يهدينا (الثالث) يجوز ان يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهى معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا اليها واستهزؤا بها واعتقدوا انه لا علم انفع واجلب بالفوائد من علمهم ففرحوا به أما اذا قلنا الضمير عائد الى الانبياء ففيه وجهان (الاول) ان يجعل الفرح للرسل ومعناه ان الرسل لما رأوا من قومهم جهلا كاملا واعراضا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم ومايلحقهم من العقوبة على جهلهم واعراضهم فرحوا بما اوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (الثانى) ان يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال استهزؤا بالبينات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين ويدل عليه قوله تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ثم قال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس فان قيل اى فرق بين قوله فلم يك ينفعهم ايمانهم وبين مالو قيل فلم ينفعهم ايمانهم قلنا هو مثل كان في نحو قوله ما كان لله ان يتخذ من ولد والمعنى فلم يصح ولم يستقم

والتنجيم والصنائع ونحو ذلك او هو علم الانبياء الذى اظهره رسلهم على ان معنى فرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) وقيل الفرح ايضا للرسل فانهم لما شاهدوا تمادى جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما اوتوا من العلم المؤدى الى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الاصنام (فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا) اى عند رؤية عذابنا لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء الاولى لبيان عاقبة كثرتهم ومدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعما منهم ان ذلك يغنى عنهم فلم يترتب عليه الا عدم الاغناء فبهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وان كان عكس الغرض ونقيض المطلوب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ والثانية تفسير وتفصيل لما أبهم واجمل من عدم الاغناء وقد كثر فى الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على ان التفسير بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال والثالثة لمجرد التعقيب وجعل مابعدها تابعا لما قبلها واقعا عقيبه لان مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ هو انهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة ان يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لان النافع هو الايمان الاختيارى (سنة الله التى قد خلت فى عباده) اى سن الله تعالى ذلك سنة ماضية فى العباد وهو من المصادر المؤكدة (وخسر هنالك الكافرون) اى وقت رؤيتهم البأس على انه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمنون لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الا صلى عليه واستغفر له (ان)

ان ينفعهم ايمانهم فان قيل اذكروا ضابطا فى الوقت الذى لاينفع الاتيان بالايمان فيه قلنا انه الوقت الذى يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب لان فى ذلك الوقت يصير المرء ملجأ الى الايمان فذلك الايمان لاينفع انما ينفع مع القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختارا أما اذا عاينوا علامات الآخرة فلا ثم قال تعالى سنة الله التى قد خلت فى عباده والمعنى ان عدم قبول الايمان حال اليأس سنة الله مطردة فى كل الامم ثم قال وخسر هنالك الكافرون فقوله هنالك مستعار للزمان أى وخسروا وقت رؤية البأس والله الهادى للصواب * تم تفسير هذه السورة يوم السبت الثانى من ذى الحجة من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة فى بلد هراة * يامن لايبلغ ادنى ماستأثرت به من جلالك وعزتك اقصى نعوت الناعتين يامن تقاصرت عن الاحاطة بمبادى اسرار كبريائه افهام المتفكرين وانظار المتأملين لاتجعلنا بفضلك ورحمتك فى زمرة الخاسرين المبطلين ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين فانك اكرم الاكرمين وارحم الراحمين والحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه اجمعين

﴿ سورة فصلت السجدة خمسون وأربع آيات مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض اكثرهم فهم لايسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون) اعلم ان فى اول هذه السورة احتمالات (احدها) وهو الاقوى ان يقال حم اسم للسورة وهو فى موضع المبتدأ وتنزيل خبره (وثانيها) قال الاخفش تنزيل رفع بالابتداء وكتاب خبره (وثالثها) قال الزجاج تنزيل رفع بالابتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه ان قوله تنزيل تخصص بالصفة وهو قوله من الرحمن الرحيم فجاز وقوعه مبتدأ * واعلم انه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء (اولها) كونها تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور يقال هذا بناء الامير أى مبنيه وهذا الدرهم ضرب السلطان اى مضروبه والمراد من كونها منزلا ان الله تعالى كتبها فى اللوح المحفوظ وامر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويبلغها اليه فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمى لذلك تنزيلا (وثانيها) كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم وذلك يدل على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لان الفعل المقرون بالصفة لابد وان يكون مناسبا لتلك الصفة فكونه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال

(حم) ان جعل اسما للسورة فهو اما خبر لمبتدأ محذوف وهو الاظهر لما مر سره مرارا او مبتدأ خبره (تنزيل) وهو على الاول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف ان جعل مسرودا على نمط التعديد وقوله تعالى (من الرحمن الرحيم) متعلق به مؤكد لما افاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية او خبر آخر او تنزيل مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره (كتاب) وهو على الوجوه الاول بدل منه او خبر آخر او خبر لمحذوف ونسبة التنزيل الى الرحمن الرحيم للايذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وما ارسلناك الارحمة للعالمين (فصلت آياته) وميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل فى اساليب مختلفة ومعان متغايرة من احكام وقصص ومواعظ وامثال ووعد ووعيد وقرئ فصلت اى فرقت بين الحق والباطل او فصل بعضها من بعض باختلاف الاساليب والمعانى من قولك فصل من البلد فصولا (قرآنا عربيا) نصب على المدح او الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة او من آياته (لقوم يعلمون) اى معانيه لكونه على لسانهم وقيل لاهل العلم والنظر لانهم المنتفعون به واللام متعلقة بمحذوف هو صفة اخرى لقرآنا اى كائنا لقوم الخ او بتنزيل على ان من الرحمن الرحيم ليست بصفة له او بفصلت (بشيرا ونذيرا) صفتان اخريان لقرآنا اى بشيرا لاهل الطاعة ونذيرا لاهل المعصية او حالان من كتاب او من آياته وقرئتا بالرفع على الوصفية لكتاب او الخبرية لمحذوف (فأعرض اكثرهم)

عن تدبره مع كونه على لغتهم (فهم لايسمعون) سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به (وقالوا) اى لرسول الله

صلى الله عليه وسلم عند دعوته اياهم الى الايمان فى القرآن (٣٤٦) (قلوبنا فى اكنة) اى اغطية متكاثفة (مما تدعونا اليه وفى

الرحمة فالتنزيل المضاف الى هاتين الصفتين لابد وان يكون دالا على اعظم وجوه النعمة والامر فى نفسه كذلك لان الخلق فى هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين والقرآن مشتمل على كل مايحتاج اليه المرضى من الادوية وعلى كل مايحتاج اليه الاصحاء من الاغذية فكان اعظم النعم عند الله تعالى على اهل هذا العالم انزال القرآن عليهم (وثالثها) كونه كتابا وقد بينا ان هذا الاسم مشتق من الجمع وانما سمى كتابا لانه جمع فيه علوم الاولين والآخرين (ورابعها) قوله فصلت آياته والمراد انه فرقت آياته وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها فى وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب احوال خلقة السموات والارض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب احوال النبات والحيوان والانسان وبعضها فى احوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح وبعضها فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب ودرجات اهل الجنة ودرجات اهل النار وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الاخلاق ورياضة النفس وبعضها فى قصص الاولين وتواريخ الماضين وبالجملة فمن انصف علم انه ليس فى يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل مافى القرآن (وخامسها) قوله قرآنا والوجه فى تسميته قرآنا قد سبق وقوله تعالى قرآنا نصب على الاختصاص والمدح أى اريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت وقيل هو نصب على الحال (وسادسها) قوله عربيا والمعنى ان هذا القرآن انما نزل بلغة العرب وتأكد هذا بقوله تعالى وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه (وسابعها) قوله تعالى لقوم يعلمون والمعنى اناجعلناه عربيا لاجل انا انزلناه على قوم عرب فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد فان قيل قوله لقوم يعلمون متعلق بماذا قلنا يجوز ان يتعلق بقوله تنزيل او بقوله فصلت اى تنزيل من الله لأجلهم او فصلت آياته لأجلهم والاجود ان يكون صفة مثل ماقبله ومابعده اى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات (وثامنها وتاسعها) قوله بشيرا ونذيرا يعنى بشيرا للمطيعين بالثواب ونذيرا للمجرمين بالعقاب والحق ان القرآن بشارة ونذارة الا انه اطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملا فى هذه الصفة كما يقال شعر شاعر وكلام قائل (الصفة العاشرة) كونهم معرضين عنه لايسمعون ولايلتفتون اليه فهذه هى الصفات العشرة التى وصف الله القرآن بها ويتفرع عليها مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) انه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال الى حال فوجب ان يكون مخلوقا (الثانى) ان التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين (الثالث) المراد بالكتاب اما الكتاب وهو المصدر الذى هو المفعول المطلق او المكتوب الذى هو المفعول (الرابع) ان قوله فصلت يدل على ان متصرفا يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز وذلك لايليق بالقديم (الخامس) انه انما سمى قرآنا لانه قرن

آذاننا وقر) اى صمم واصله الثقل وقرئ بالكسر وقرئ بفتح القاف (ومن بيننا و بينك حجاب) غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على ان الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب مابينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ اصلا وهذه تمثلات لنبو قلوبهم عن ادراك الحق وقبوله ومج اسماعهم له كأن بها صمما وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (فاعمل) اى على دينك وقيل فى ابطال امرنا (اننا عاملون) اى على ديننا وقيل فى ابطال امرك والاول هو الاظهر فان قوله تعالى (قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد) تلقين للجواب عنه اى لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الاعمال والاديان كما ينبئ عنه قولكم فاعمل اننا عاملون بل انما انا بشر مثلكم مأمور بما امرتم به حيث اخبرنا جميعا بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فان الخطاب فى الهكم محكى منتظم للكل لانه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقى منه ولا ادعوكم الى ماتنبو عنه العقول والاسماع وانما ادعوكم الى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى انى لست بملك وانما انا بشر مثلكم وقد أوحى الى دونكم فصحت بالوحى الى وانا بشر نبوتى واذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فاستقيموا اليه) لترتيب مابعدها على ماقبلها من ايحاء الوحدانية فان ذلك موجب لاستقامتهم اليه تعالى بالتوحيد والاخلاص فى الاعمال (واستغفروه) (بعض)

بعض اجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل (السادس) وصفه بكونه عربيا وانما صحت هذه النسبة لاجل ان هذه الالفاظ انما دخلت على هذه المعانى بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وماجعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بدوان يكون محدثا ومخلوقا (والجواب) ان كل هذه الوجوه التى ذكرتموها عائدة الى اللغات والى الحروف والكلمات وهى عندنا محدثة مخلوقة انما الذى ندعى قدمه شئ آخر سوى هذه الالفاظ والله اعلم (المسئلة الثانية) ذهب اكثر المتكلمين الى انه يجب على المكلف تنزيل الفاظ القرآن على المعانى التى هى موضوعة لها بحسب اللغة العربية فاما حملها على معان اخر لابهذا الطريق فهذا باطل قطعا وذلك مثل الوجوه التى يذكرها اهل الباطل مثل انهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شئ آخر وللصوفية طرق كثيرة فى هذا الباب ويسمونها علم المكاشفة والذى يدل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى قرآنا عربيا وانما سماه عربيا لكونه دالا على هذه المعانى المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم وذلك يدل على ان دلالة هذه الالفاظ لم تحصل الا على تلك المعانى المخصوصة وان ماسواه فهو باطل (المسئلة الثالثة) ذهب قوم الى انه حصل فى القرآن من سائر اللغات كقوله استبرق وسجيل فانهما فارسيان وقوله مشكاة فانها من لغة الحبشة وقوله قسطاس فانه من لغة الروم والذى يدل على فساد هذا المذهب قوله قرآنا عربيا وقوله وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة لفظ الايمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج الفاظ شرعية لالغوية والمعنى ان الشرع نقل هذه الالفاظ عن مسمياتها اللغوية الاصلية الى مسميات اخرى وعندنا ان هذا باطل وليس للشرع تصرف فى هذه الالفاظ عن مسمياتها الا من وجه واحد وهو انه خصص هذه الاسماء بنوع واحد من انواع مسمياتها مثلا الايمان عبارة عن التصديق فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء وكذا القول فى البواقى ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى قرآنا عربيا وقوله وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه (المسئلة الخامسة) انما وصف الله القرآن بكونه عربيا فى معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لايتم الا اذا ثبت ان لغة العرب افضل اللغات واعلم ان هذا المقصود انما يتم اذا ضبطنا اقسام فضائل اللغات بضابط معلوم ثم بينا ان تلك الاقسام حاصلة فيه لافى غيره فنقول لاشك ان الكلام مركب من الكلمات المفردة وهى مركبة من الحروف فالكلمة لها مادة وهى الحروف ولها صورة وهى تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب فهذه الفضيلة انما تحصل اما بحسب مادتها او بحسب صورتها اما التى بحسب مادتها فهى آحاد الحروف واعلم ان الحروف على قسمين بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع لايشتبه شئ منها بالآخر واما الحروف المستعملة

ووصفهم بقوله تعالى (الذين لايؤتون الزكوة) لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من اوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل (وهم بالآخرة هم كافرون) وهو عطف على لايؤتون داخل فى حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والاسمية لما ان عدم ايتائها متجدد والكفر امر مستمر ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما انه فسر لايؤتون الزكاة بقوله لايقولون لا اله الا الله فانها زكاة الانفس والمعنى لايطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها وقال الضحاك ومقاتل لاينفقون فى الطاعة ولايتصدقون وقال مجاهد لايزكون اعمالهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون) اى لايمن به عليهم من المن واصله الثقل اولا يقطع من منت الحبل قطعته وقيل نزلت فى المرضى والهرمى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كاصح ما كانوا يعملونه (قل أئنكم لتكفرون) انكار وتشنيع لكفرهم وان واللام اما لتأكيد الانكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لالانكار التأكيد واما للاشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج الى التأكيد وانما علق كفرهم بالموصول حيث قيل (بالذى خلق الارض فى يومين) لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به اى بالعظيم الشأن الذى قدر وجودها اى حكم بانها ستوجد فى مقدار يومين اوفى نوبتين على ان ما يوجد فى كل نوبة يوجد بأسرع مايكون والا فاليوم الحقيقى انما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وابداع نيراتها وترتيب حركاتها (وتجعلون له اندادا) عطف على تكفرون داخل فى حكم

فى سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حروف يشتبه بعضها بالبعض وذلك يخل بكمال الفصاحة وايضا الحركات المستعملة فى سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهى النصب والرفع والجر وكل واحد من هذه الثلاثة فانه يمتاز عن غيره امتيازا ظاهرا جليا واما الاشمام والروم فيقل حصولهما فى لغات العرب وذلك ايضا من جنس ما يوجب الفصاحة واما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهى انواع (احدها) ان الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج وايضا الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة فيحصل من هذا التقسيم اقسام اربعة الصلبة المتقاربة والرخوة المتقاربة والصلبة المتباعدة والرخوة المتباعدة فاذا توالى فى الكلمة حرفان صلبان متقاربان صعب اللفظ بها لان بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جاريا مجرى ما اذا كان الانسان مقيدا ثم يمشى وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الاعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج وتوالى الاعمال الشاقة يوجب الضعف والاعياء ومثل هذا التركيب فى اللغة العربية قليل (وثانيها) ان جنس بعض الحروف الذواطيب فى السمع وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها اطيب (وثالثها) الوزن فنقول الكلمة اما ان تكون ثنائية اوثلاثية اورباعية واعدلها هو الثلاثى لان الصوت انما يتولد بسبب الحركة والحركة لابدلها من مبدأ ووسط ومنتهى فهذه ثلاث مراتب فالكلمة لابد وان يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة اما الثنائية فهى ناقصة واما الرباعية فهى زائدة والغالب فى كلام العرب الثلاثيات فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات والاستقراء تدل على ان لغة العرب موصوفة بها واما سائر اللغات فليست كذلك والله اعلم (المسئلة السادسة) قوله لقوم يعلمون يعنى انما جعلناه عربيا لاجل ان يعلموا المراد منه والقائلون بان افعال الله معللة بالمصالح والحكم تمسكوا بهذه الآية وقالوا انها تدل على انه انما جعله عربيا لهذه الحكمة فهذا يدل على ان تعليل افعال الله تعالى واحكامه جائز (المسئلة السابعة) قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه مالا يعلم وقال المتكلمون لايجوز ان يحصل فيه شئ غير معلوم والدليل عليه قوله تعالى قرآ نا عربيا لقوم يعلمون يعنى انما جعلناه عربيا ليصير معلوما والقول بانه غير معلوم يقدح فيه (المسئلة الثامنة) قوله تعالى فأعرض اكثرهم فهم لايسمعون يدل على ان الهادى من هداه الله وان الضال من اضله الله وتقريره ان الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه لانا بينا ان كونه نازلا من عند الاله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على افضل المنافع واجل المطالب وكونه قرآ نا عربيا مفصلا يدل على انه فى غاية الكشف والبيان وكونه بشيرا ونذيرا يدل على ان الاحتياج الى فهم مافيه من اهم المهمات لان سعى الانسان فى معرفة مايوصله الى الثواب اوالى العقاب من اهم المهمات وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة فى تأكيد الرغبة فى فهم القرآن وفى شدة الميل الى الاحاطة به ثم مع ذلك

الانكار والتوبيخ وجع الانداد باعتبار ماهو الواقع لابان يكون مدار الانكار هو التعددى وتجعلون له انداداو الحال انه لا يمكن ان يكون له ند واحد (ذلك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى العظمة وافراد الكاف لمامر مرارا من ان المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده اى ذلك العظيم الشأن الذى فعل ماذكر (رب العالمين) اى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الارض خاصة فكيف يتصور ان يكون اخس مخلوقاته ندا له وقوله تعالى (وجعل فيها رواسى) عطف على خلق داخل فى حكم الصلة والجعل ابداعى وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز الصلة مدفوع بأن الاولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الاعادة له والثانية اعتراضية مقررة لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على ان فيه فائدة التنبيه على ان مجرد المعطوف عليه كاف فى تحقق ربوبيته للعالمين واستحالة ان يجعل له ند فكيف اذا انضم اليه المعطوفات وقيل هو عطف على مقدر اى خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وايا ما كان فالمراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل وقوله تعالى (من فوقها) متعلق بجعل او بمضمر هو صفة لرواسى اى كائنة من فوقها مرتفعة عليها لتكون منا فعها معرضة لاهلها ويظهر للنظار مافيها من مراصد الاعتبار ومطارح الافكار (وبارك فيها) اى قدر ان يكثر خيرها بان يخلق انواع الحيوانات التى من جملتها الانسان واصناف النبات التى منها معايشهم (وقدر فيها اقواتها) اى حكم بالفعل بان يوجد فيها سيأتى لاهلها من الانواع المختلفة اقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة (فقد)

وقرى وقسم فيها اقواتها (في اربعة ايام) متعلق (٣٤٩) بحصول الامور المذكورة لا بتقديرها اى قدر حصولها في يومين وانما قيل في اربعة ايام اى تتمة اربعة تصريحا بالفذلكة (سواء) مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لايام اى استوت سواء اى استواء كما ينبئ عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير في اقواتها او في فيها وقرئ بالرفع اى هى سواء (للسائلين) متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الارض ومافيها اوبقدر اى قدر فيها اقواتها لاجل السائلين اى الطالبين لها المحتاجين اليها من المقتاتين وقوله تعالى (ثم استوى الى السماء) شروع في بيان كيفية التكوين اثر بيان كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالارض واهلها لما ان بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادى معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الايمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان اى ثم قصد نحوها قصدا سويا لا يلوى على غيره (وهى دخان) اى امر ظلماني عبر به عن مادتها او عن الاجزاء المتصغرة التي ركبت هى منها او دخان مرتفع من الماء كما سيأتي وانما خص الاستواء بالسماء مع ان الخطاب المترتب عليه متوجه اليهما معا حسبما ينطق به قوله تعالى (فقال لها وللارض) اكتفاء بذكر تقديرها وتقدير مافيها كأنه قيل فقال لها وللارض التي قدر وجودها ووجود مافيها (ائتيا) اى كونا واحدثا على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل بعد تقدير امرهما من غير ان يكون هناك امر ومأمور كما في قوله تعالى كن وقوله تعالى (طوعا او كرها) تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا اثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال اى طائعتين او كارهتين

فقد اعرضوا عنه ولم يلتفتوا اليه ونبذوه وراء ظهورهم وذلك يدل على انه لا مهدى الا من هداه الله ولا ضال الا من اضله الله واعلم انه تعالى لما وصف القرآن بأنهم اعرضوا عنه ولا يسمعونه بين انهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة اشياء (احدها) انهم قالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه واكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء والكنان هو الذى يجعل فيه السهام (وثانيها) قولهم وفي آذاننا وقر أى صمم وثقل يمنع من استماع قولك (وثالثها) قولهم ومن بيننا وبينك حجاب والحجاب هو الذى يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة من في قوله ومن بيننا انه لو قيل وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى ان حجابا حصل وسط الجهتين واما بزيادة لفظ من كان المعنى ان الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب ومابقى جزء منها فارغا عن هذا الحجاب فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب هكذا ذكره صاحب الكشاف وهو في غاية الحسن واعلم انه انما وقع الاقتصار على هذه الاعضاء الثلاثة وذلك لان القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف فلما بين ان هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك اقصى مايمكن في هذا الباب واعلم انه اذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب فاذا سمع منه كلاما لم يفهم معناه كما ينبغي واذا رآه لم تصر تلك الرؤية سببا للوقوف على دقائق احوال ذلك المرئى وذلك لان المدرك والشاعر هو النفس وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء فاذا كان الامر كذلك كان قولهم قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب استعارات كاملة في افادة المعنى المراد فان قيل انه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم وذكر ايضا مايقرب منه في معرض الذم فقال وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ثم انه تعالى ذكر هذه الاشياء الثلاثة بعينها في معرض التقرير والاثبات في سورة الانعام فقال وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا فكيف الجمع بينهما قلنا انه لم يقل ههنا انهم كذبوا في ذلك انما الذى ذمهم عليه انهم قالوا انا اذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الامر والنهى علينا وهذا الثانى باطل اما الاول فلانه ليس في الآية مايدل على انهم كذبوا فيه واعلم انهم لما وصفوا انفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا فاعمل اننا عاملون والمراد فاعمل على دينك اننا عاملون على ديننا ويجوز ان يكون المراد فاعمل في ابطال امرنا اننا عاملون في ابطال امرك والحاصل عندنا ان القوم ما كذبوا في قولهم قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب بل انما أتوا بالكفر والكلام الباطل في قولهم فاعمل اننا عاملون ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة امر محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجيب عن هذه الشبهة بقوله قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى وبيان هذا الجواب كأنه يقول انى لا اقدر على ان احملكم على الايمان جبرا وقهرا فاني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم الا بمجرد ان الله عز وجل اوحى الى وما اوحى اليكم فأنا ابلغ هذا الوحى اليكم ثم

بعد ذلك ان شرفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه وان خذلكم بالحرمان رددتموه وذلك لا يتعلق بنبوتي ورسالتي ثم بين ان خلاصة ذلك الوحي ترجع الى امرين العلم والعمل اما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد وذلك لان الحق هو ان الله واحد وهو المراد من قوله انما الهكم اله واحد واذا كان الحق في نفس الامر ذلك وجب علينا ان نعترف به وهو المراد من قوله فاستقيموا اليه ونظيره قوله اهدنا الصراط المستقيم وقوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقوله تعالى وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه وفي قوله تعالى فاستقيموا اليه وجهان (الاول) فاستقيموا متوجهين اليه (الثاني) ان يكون قوله فاستقيموا اليه معناه فاستقيموا له لان حروف الجر يقام بعضها مقام البعض واعلم ان التكليف له ركنان (احدهما) الاعتقاد والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد فلما امر بذلك انتقل الى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار فلهذا السبب قال واستغفروه فان قيل المقصود من الاستغفار والتوبة ازالة ما لا ينبغي وذلك مقدم على فعل ما ينبغي فلم عكس هذا الترتيب ههنا وقدم فعل ما ينبغي على ازالة ما لا ينبغي قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر بل المراد منه ان يعمل ثم يستغفر بعده لاجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي اتى به كما قال صلى الله عليه وسلم وانه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة امر بالتحذير عما لا ينبغي فقال وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون وفي هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم في هذه الآية من وجوه الاول ان العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وذلك لان الموجودات اما الخالق واما الخلق فاما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه ان يقر بكونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة ثم يأتي بافعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لامر الله واما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم ان يسعى في دفع الشر عنهم وفي ايصال الخير اليهم وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله فثبت ان اعظم الطاعات التعظيم لامر الله وافضل ابواب التعظيم لامر الله والاقرار بكونه واحدا واذا كان التوحيد اعلى المراتب واشرفها كان ضده وهو الشرك اخس المراتب وارذلها ولما كان افضل انواع المعاملة مع الخلق هو اظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة اخس الاعمال لانه ضد الشفقة على خلق الله اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى اثبت الويل لمن كان موصوفا بصفات ثلاثة (اولها) ان يكون مشركا وهو ضد التوحيد واليه الاشارة بقوله وويل للمشركين (وثانيها) كونه ممتنعا من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله واليه الاشارة بقوله الذين لا يؤتون الزكاة (وثالثها) كونه منكر القيامة مستغرقا في طلب الدنيا ولذاتها واليه الاشارة بقوله وهم بالآخرة هم كافرون وتمام الكلام في انه لا زيادة على هذه المراتب

(الثلاثة)

وقوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) اى منقادين تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة (٣٥٠) الربانية وحصولهما كما امرتا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جاريا على مقتضى الحكمة البالغة فان الطوع منبئ عن ذلك والكره موهم لخلافه وانما قيل طائعين باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى ساجدين وقوله تعالى (فقضاهن سبع سموات) تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالامر وجوابه لا انه فعل مترتب على تكوينها اى خلقهن خلقا ابداعيا واتقن امرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير اما للسماء على المعنى او مبهم وسبع سموات حال على الاول تمييز على الثاني (في يومين) في وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان خلق الارض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل في ستة ايام حسبما نص عليه في مواقع من التنزيل (واوحى في كل سماء امرها) عطف على فقضاهن اى خلق في كل منها ما فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله تعالى كما قاله قتادة والسدي فالوحي عبارة عن التكوين كالامر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت او اوحى الى اهل كل منها اوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وايا ما كان فعلى ما قرر من التفصيل لا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب بين ايجاد الارض وايجاد السماء وانما الترتيب بين التقدير والايجاد واما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الافعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهي وما في سورة البقرة من قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات تدلان على تقدم خلق الارض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه اطباق اكثر

الثلاثة ان الانسان له ثلاثة ايام الامس واليوم والغد اما معرفة انه كيف كانت احوال الامس في الازل فهو بمعرفة الله تعالى الازلى الخالق لهذا العالم واما معرفة انه كيف ينبغي وقوع الاحوال في اليوم الحاضر فهو بالاحسان الى اهل العالم بقدر الطاقة واما معرفة الاحوال في اليوم المستقبل فهو الاقرار بالبعث والقيامة واذا كان الانسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال فلهذا حكم الله عليه بالويل فقال وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون وهذا ترتيب في غاية الحسن والله اعلم (الوجه الثاني) في تقرير كيفية النظم ان يقال المراد بقوله لا يؤتون الزكاة اى لا يزكون انفسهم من لوث الشرك بقولهم لا اله الا الله وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها (الثالث) قال الفراء ان قريشا كانت تطعم الحاج فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا في اثبات ان الكفار مخاطبون بفروع الاسلام بهذه الآية فقالوا انه تعالى الحق الوعيد الشديد بناء على أمرين (احدهما) كونه مشركا (والثاني) انه لا يؤتي الزكاة فوجب ان يكون لكل واحد من هذين الامرين تأثير في حصول ذلك الوعيد وذلك يدل على ان لعدم ايتاء الزكاة من المشرك تأثيرا عظيما في زيادة الوعيد وذلك هو المطلوب (المسئلة الثالثة) احتج بعضهم على ان الامتناع من ايتاء الزكاة يوجب الكفر فقال انه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر وهو قوله وويل للمشركين وذكر ايضا بعدها ما يوجب الكفر وهو قوله وهم بالآخرة هم كافرون فلو لم يكن عدم ايتاء الزكاة كفرا لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحا لان الكلام انما يكون فصيحا اذا كانت المناسبة مرعية بين اجزائه ثم اكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حكم بكفر مانعي الزكاة والجواب لما ثبت بالدليل ان الايمان عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان وهما حاصلان عند عدم ايتاء الزكاة فلا يلزم حصول الكفر بسبب عدم ايتاء الزكاة والله اعلم ثم انه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون اى غير مقطوع من قولك مننت الحبل اى قطعته ومنه قولهم قد منه السفر اى قطعه وقيل لا يمن عليهم لانه تعالى لما سماه أجرا فاذا الاجر لا يوجب المنة وقيل نزلت في المرضى والزمنى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كاحسن ما كانوا يعملون * قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) اعلم انه تعالى لما امر محمدا صلى الله عليه وسلم في الآية الاولى ان يقول انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه

اهل التفسير وقد روى ان العرش العظيم كان قبل خلق السموات والارض على الماء ثم انه تعالى احدث في الماء اضطرابا فازبد فارتفع منه دخان فاما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله ارضا واحدة ثم فتقها فجعلها ارضين واما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى انه تعالى خلق جرم الارض يوم الاحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الاربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة وقيل ان خلق جرم الارض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن رحمه الله من انه تعالى خلق الارض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منه السموات وامسك الفهر في موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الآية وليس المراد بنظمها مع السماء في سلك الامر بالاتيان انشاءها واحداثها بل انشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل ائتيا على ما ينبغي ان تأتيا عليه ائتي يا ارض مدحوة قرارا ومهادا لاهلك وائتي يا سماء مقببة سقفا لهم ومعنى الاتيان الحصول على ذلك الوجه كما ينبئ عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهي الموافقة وانت خبير بان المذكور قبل الامر بالاتيان ليس بمجرد خلق جرم الارض حتى يتأتى ما ذكر بل خلق ما فيها ايضا من الامور المتأخرة عن دحوها قطعا فالاظهر ان يسلك مسلك الاولين ويحمل الامر بالاتيان على تكوينهما متوافقين على الوجه المذكور وليس من ضرورته ان يكون دحوها مترتبا على

واستغفروه اردفه بما يدل على انه لايجوز اثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الاصنام فى الالهية والمعبودية وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والارض فى مدة قليلة فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الاصنام الخسيسة شركاء له فى الالهية والمعبودية فهذا تقرير النظم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير أينكم لتكفرون بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلامد وأما نافع فى رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة الا انهما يمدان والباقون بهمزتين بلامد (المسئلة الثانية) قوله تعالى أئنكم استفهام بمعنى الانكار وقد ذكر عنهم شيئين منكرين (احدهما) الكفر بالله وهو قوله لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين (وثانيهما) اثبات الشركاء والانداد له ويجب ان يكون الكفر المذكور اولا مغايرا لاثبات الانداد له ضرورة ان عطف احدهما على الآخر يوجب التغاير والاظهر ان المراد من كفرهم وجوه (الاول) قولهم ان الله تعالى لايقدر على حشر الموتى فلما نازعوا فى ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله (والثانى) انهم كانوا ينازعون فى صحة التكليف وفى بعثة الانبياء وكل ذلك قدح فى الصفات المعتبرة فى الالهية وهو كفر بالله (والثالث) انهم كانوا يضيفون اليه الاولاد وذلك ايضا قدح فى الالهية وهو يوجب الكفر بالله فالحاصل انهم كفروا بالله لاجل قولهم بهذه الاشياء وأثبتوا الانداد أيضا لله لاجل قولهم بالهية تلك الاصنام واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال كيف يجوز الكفر بالله وكيف يجوز جعل هذه الاصنام الخسيسة اندادا لله تعالى مع انه تعالى هو الذى خلق الارض فى يومين وتمم بقية مصالحها فى يومين آخرين وخلق السموات بأسرها فى يومين آخرين فمن قدر على خلق هذه الاشياء العظيمة كيف يعقل الكفر به وانكار قدرته على الحشر والنشر وكيف يعقل انكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الانبياء وكيف يعقل جعل هذه الاصنام الخسيسة اندادا له فى المعبودية والالهية فان قيل من استدل بشئ على اثبات شئ فذلك الشئ المستدل به يجب ان يكون مسلما عند الخصم حتى يصح الاستدلال به وكونه تعالى خالقا للارض فى يومين امر لايمكن اثباته بالعقل المحض وانما يمكن اثباته بالسمع ووحى الانبيا والكفار كانوا منازعين فى الوحى والنبوة فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم واذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم قلنا اثبات كون السموات والارض مخلوقة بطريق العقل ممكن فاذا ثبت ذلك امكن الاستدلال به على وجود الاله القادر القاهر العظيم وحينئذ يقال للكافرين فكيف يعقل التسوية بين الاله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذى هو جاد لايضر ولا ينفع فى المعبودية والالهية بقى ان يقال فحينئذ لايبقى فى الاستدلال بكونه تعالى خالقا للارض فى يومين اثر فنقول هذا ايضا له اثر فى هذا الباب وذلك لان اول التوراة مشتمل على هذا المعنى فكان ذلك فى غاية الشهرة بين اهل الكتاب فكفار مكة كانوا يعتقدون فى اهل الكتاب انهم اصحاب العلوم والحقائق

ولايقدح فى ذلك تكوين الارض على الوجه المذكور قبل ذلك وان يجعل الارض فى قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها منصوبا بمضمر قد حذف على شريطة التفسير ويجعل ذلك اشارة الى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا الى انفسها وتحمل البعدية اما على انه قاصر عن الاول فى الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل واما على انه داخل فى الالزام لما ان المنافع المنوطة بما فى الارض اكثر وتعلق مصالح الناس بذلك اظهر واحاطتهم بتفاصيلها اكمل وليس ماروى عن الحسن رضى الله عنه نصا فى تأخر دحو الارض عن خلق السماء فان بسط الارض معطوف على اصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة فى ذلك على الترتيب قطعا وقد نقل الامام الواحدى عن مقاتل ان خلق السماء مقدم على ايجاد الارض فضلا عن دحوها فلابد من حمل الامر باتيانهما حينئذ ايضا على ماذكر من التوافق والمواتاة ولايقدح فى ذلك تقدم خلق السماء على خلق الارض كما لم يقدح فيه تقدم خلق الارض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخى الزمانى واما على تقدير كونها للتراخى الرتبى كما جنح اليه الاكثرون فلا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب كما فى الوجه الاول وعلى ذلك بنى الكلام فى تفسير قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا الآية وانما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقه (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) من الكواكب فانها كلها ترى

والظاهر انهم كانوا قد سمعوا من اهل الكتاب هذه المعانى واعتقدوا فى كونها حقة واذا كان الامر كذلك فحينئذ يحسن ان يقال لهم ان الاله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الاشياء العظيمة فى هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكاله فى المعبودية والالهية فظهر بماقررنا ان هذا الاستدلال قوى حسن واماقوله تعالى ذلك رب العالمين اى ذلك الموجود الذى علمت من صفته وقدرته انه خلق الارض فى يومين هورب العالمين وخالقهم ومبدعهم فكيف اثبتم له اندادا من الخشب والحجر ثم انه تعالى لما اخبرعن كونه خالقا للارض فى يومين اخبرانه اتى بثلاثة انواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعدذلك (فالاول) قوله وجعل فيها رواسى من فوقها والمراد منها الجبال وقدتقدم تفسيركونها رواسى فى سورة النحل فان قيل ماالفائدة فى قوله من فوقها ولم يقتصر على قوله وجعل فيها رواسى كقوله تعالى وجعلنا فيها رواسى شامخات وجعلنا فى الارض رواسى قلنا لانه تعالى لوجعل فيها رواسى من تحتها لأوهم ذلك ان تلك الاساطين التحتانية هى التى امسكت هذه الارض الثقيلة عن النزول ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الارض ليرى الانسان بعينه ان الارض والجبال اثقال على اثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وماذاك الحافظ المدبر الاالله سبحانه وتعالى (والنوع الثانى) مما اخبرالله تعالى فى هذه الآية قوله وبارك فيها والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الارض اكثر مما يحيط به الشرح والبيان وقدذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد شق الانهار وخلق الجبال وخلق الاشجار والثمار وخلق اصناف الحيوانات وكل مايحتاج اليه من الخيرات (والنوع الثالث) قوله تعالى وقدر فيها اقواتها وفيه اقوال (الاول) ان المعنى وقدر فيها اقوات اهلها ومعايشهم ومايصلحهم قال محمد بن كعب قدر اقوات الابدان قبل ان يخلق الابدان (والقول الثانى) قال مجاهد وقدر فيها اقواتها من المطر وعلى هذا القول فالاقوات للارض لاللسكان والمعنى ان الله تعالى قدر لكل ارض حظها من المطر (والقول الثالث) ان المراد من اضافة الاقوات الى الارض كونها متولدة من تلك الارض وحادثة فيها لان النحويين قالوا يكفى فى حسن الاضافة ادنى سبب فالشئ قد يضاف الى فاعله تارة والى محله اخرى فقوله وقدر فيها اقواتها اى قدر الاقوات التى يختص حدوثها بها وذلك لانه تعالى جعل كل بلدة معدنا لنوع آخر من الاشياء المطلوبة حتى ان اهل هذه البلدة يحتاجون الى الاشياء المتولدة فى تلك البلدة وبالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس فى التجارات من اكتساب الاموال ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة اكثر الحرف والصنائع بركة لان الله تعالى وضع الارزاق والاقوات فى الارض قال وقدر فيها اقواتها واذا كانت الاقوات موضوعة فى الارض كان طلبها من الارض متعينا ولما ذكر الله سبحانه هذه الانواع الثلاثة من التدبير قال

على زينا اى وحفظناها من الآفات اومن المسترقة حفظا وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظا (ذلك) الذى ذكر بتفاصيله (تقدير العزيز العليم) المبالغ فى القدرة والعلم (فان اعرضوا) متصل بقوله تعالى قل أئنكم الخ اى فان اعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الامور الداعية الى الايمان اوعن الايمان بعد هذا البيان (فقل) لهم (أنذرتكم) اى أنذركم وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الانذار المنبئ عن تحقق المنذر به (صاعقة) اى عذابا هائلا شديد الوقع كأنه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهى المرة من الصعق اوالصعق يقال صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا

بعده في اربعة ايام سواء للسائلين وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى ذكر انه خلق الارض في يومين وذكر انه اصلح هذه الانواع الثلاثة في اربعة ايام اخر وذكر انه خلق السموات في يومين فيكون المجموع ثمانية ايام لكنه ذكر في سائر الآيات انه خلق السموات والارض في ستة ايام فلزم التناقض واعلم ان العلماء اجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام مع اليومين الاولين وهذا كقول القائل سرت من البصرة الى بغداد في عشرة ايام وسرت الى الكوفة في خمسة عشر يوما يريد كلا المسافتين ويقول الرجل للرجل اعطيتك الفا في شهر والوفا في شهرين فيدخل الالف في الالوف والشهر في الشهرين (السؤال الثاني) انه لما ذكر انه خلق الارض في يومين فلو ذكر انه خلق هذه الانواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان ابعد عن الشبهة وابعد عن الغلط فلم ترك هذا التصريح وذكر ذلك الكلام المجمل والجواب ان قوله في اربعة ايام سواء للسائلين فيه فائدة زائدة على ما اذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين وذلك لانه لو قال خلقت هذه الاشياء في يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الاعمال لانه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع ان اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل اما لما ذكر خلق الارض وخلق هذه الاشياء ثم قال بعده في اربعة ايام سواء للسائلين دل ذلك على ان هذه الايام الاربعة صارت مستغرقة في تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان (السؤال الثالث) كيف القراآت في قوله سواء والجواب قال صاحب الكشاف قرئ سواء بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء اى استواء والرفع على هى سواء (السؤال الرابع) ما المراد من كون تلك الايام الاربعة سواء فنقول ان الايام قد تكون متساوية المقادير كالايام الموجودة في اماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالايام الموجودة في سائر الاماكن فبين تعالى ان تلك الايام الاربعة كانت متساوية غير مختلفة (السؤال الخامس) بم يتعلق قوله للسائلين الجواب فيه وجهان (الاول) ان الزجاج قال قوله في اربعة ايام اى في تتمة اربعة ايام اذا عرفت هذا فالتقدير وقدر فيها اقواتها في تتمة اربعة ايام لاجل السائلين اى الطالبين للاقوات المحتاجين اليها (والثاني) انه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لاجل من سأل في كم خلقت الارض وما فيها ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الارض وما فيها اتبعه بكيفية تخليق السموات فقال ثم استوى الى السماء وهى دخان وفيه مباحث (البحث الاول) قوله تعالى ثم استوى الى السماء من قولهم استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه توجها لا يلتفت معه الى عمل آخر وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج ونظيره قولهم استقام اليه وامتد اليه ومنه قوله تعالى فاستقيموا اليه والمعنى ثم دعاه داعى الحكمة الى خلق السماء بعد خلق الارض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك (البحث الثاني) ذكر صاحب الاثر انه كان عرش الله على الماء قبل خلق

(السموات)

وهو من باب فعلته ففعل (اذ جاءتهم الرسل) حال من صاعقة عاد ولاسداد لجعله ظرفا لأنذرتكم او صفة لصاعقة لفساد المعنى واما جعله صفة لصاعقة عاد اى الكائنة اذ جاءتهم ففيه حذف الموصول مع بعض صلته (من بين ايديهم ومن خلفهم) متعلق بجاءتهم اى من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة اومن جهة الزمان الماضي للانذار عما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم الى الحق منزلة مجيء انفسهم فان هودا وصالحا كانا داعيين لهم الى الايمان بهما وبجميع الرسل ممن

السموات والارض فأحدث الله فى ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان اما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة واحدث منه الارض واما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات واعلم ان هذه القصة غير موجودة فى القرآن فان دل عليه دليل صحيح قبل والا فلا فهذه القصة مذكورة فى اول الكتاب الذى يزعم اليهود انه التوراة وفيه انه تعالى خلق السماء من اجزاء مظلمة وهذا هو المعقول لانا قد دللنا فى المعقولات على ان الظلمة ليست كيفية وجودية بدليل انه لو جلس انسان فى ضوء السراج وانسان آخر فى الظلمة فان الذى جلس فى الضوء لايرى مكان الجالس فى الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلما واما الذى جلس فى الظلمة فانه يرى ذلك الذى كان جالسا فى الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئا ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الاحوال بحسب اختلاف احوال الناظرين فثبت ان الظلمة عبارة عن عدم النور فالله سبحانه وتعالى لما خلق الاجزاء التى لاتتجزأ فقبل ان خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ثم ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقمرا واحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة فثبت ان تلك الاجزاء حين قصد الله تعالى ان يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة فصح تسميتها بالدخان لانه لامعنى للدخان الا اجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور فهذا ما خطر بالبال فى تفسير الدخان والله اعلم بحقيقة الحال (البحث الثالث) قوله ثم استوى الى السماء وهى دخان مشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الارض وقوله تعالى والارض بعض ذلك دحاها مشعر بأن تخليق الارض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض واختلف العلماء فى هذه المسئلة والجواب المشهور ان يقال انه تعالى خلق الارض فى يومين اولا ثم خلق بعدها السماء ثم بعد خلق السماء دحا الارض وبهذا الطريق يزول التناقض واعلم ان هذا الجواب مشكل عندى من وجوه (الاول) انه تعالى بين انه خلق الارض فى يومين ثم فى اليوم الثالث جعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها وهذه الاحوال لايمكن ادخالها فى الوجود الابعد ان صارت الارض مدحوة لان خلق الجبال فيها لايمكن الابعد ان صارت الارض مدحوة منبسطة وقوله تعالى وبارك فيها مفسر بخلق الاشجار والنبات والحيوان فيها وذلك لايمكن الابعد صيرورتها منبسطة ثم انه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى الى السماء فهذا يقتضى انه تعالى خلق السماء بعد خلق الارض وبعد ان جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال المذكور (الثانى) انه قد دلت الدلائل الهندسية على ان الارض كرة فهى فى اول حدوثها ان قلنا انها كانت كرة والآن بقيت كرة ايضا فهى منذ خلقت كانت مدحوة وان قلنا انها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم ان يقال انها كانت مدحوة قبل ذلك ثم ازيل عنها هذه الصفة وذلك باطل (الثالث) ان الارض جسم فى غاية العظم والجسم الذى يكون كذلك فانه من اول دخوله فى الوجود يكون مدحوا فيكون القول بأنها كانت مدحوة ثم صارت مدحوة قولا

جاء من بين ايديهم اى من قبلهم وممن يجئ من خلفهم اى من بعدهم فكأن الرسل قد جاؤهم وخاطبوهم بقوله تعالى (ان لاتعبدوا الا الله) اى بأن لاتعبدوا على ان ان مصدرية اواى لاتعبدوا على انها مفسرة (قالوا لوشاء ربنا) اى ارسال الرسل لانزال الملائكة كما قيل فانه عار عن افادة ما ارادوه من نفى رسالة البشر وقدم فيما سلف (لأنزل ملائكة) اى لارسلهم لكن لما كان ارسالهم بطريق الانزال قيل لانزل (فانا بما ارسلتم به) اى على زعمكم وفيه ضرب تهكم بهم (كافرون) لما انكم بشر مثلنا من غير فضل لكم علينا روى ان ابا جهل قال فى ملأ من قريش قد التبس علينا امر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة

باطلا والذى جاء فى كتب التواريخ ان الارض خلقت فى موضع الصخرة ببيت المقدس فهو كلام مشكل لانه ان كان المراد انها على عظمها خلقت فى ذلك الموضع فهذا قول بتداخل الاجسام الكثيفة وهو محال وان كان المراد منه انه خلق اولا اجزاء صغيرة فى ذلك الموضع ثم خلق بقية اجزائها واضيفت الى تلك الاجزاء التى خلقت اولا فهذا يكون اعترافا بأن تخليق الارض وقع متأخرا عن تخليق السماء (الرابع) انه لما حصل تخليق ذات الارض فى يومين وتخليق سائر الاشياء الموجودة فى الارض فى يومين آخرين وتخليق السموات فى يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة ايام فاذا حصل دحو الارض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو فى زمان آخر بعد الايام الستة فحينئذ يقع تخليق السموات والارض فى اكثر من ستة ايام وذلك باطل (الخامس) انه لانزاع ان قوله تعالى بعد هذه الآية ثم استوى الى السماء فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها كناية عن ايجاد السماء والارض فلو تقدم ايجاد السماء على ايجاد الارض لكان قوله ائتيا طوعا او كرها يقتضى ايجاد الموجود وانه محال باطل فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ونقل الواحدى فى البسيط عن مقاتل انه قال خلق الله السموات قبل الارض وتأويل قوله ثم استوى الى السماء ثم كان قد استوى الى السماء وهى دخان وقال لها قبل ان يخلق الارض فأضمر فيه كان كما قال تعالى قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل معناه ان يكن سرق وقال تعالى وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا والمعنى فكان قد جاءها هذا مانقله الواحدى وهو عندى ضعيف لان تقدير الكلام ثم كان قد استوى الى السماء وهذا جمع بين الضدين لان كلمة ثم تقتضى التأخير وكلمة كان تقتضى التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض وذلك دليل على انه لايمكن اجراؤه على ظاهره وقد بينا ان قوله ائتيا طوعا او كرها انما حصل قبل وجودهما واذا كان الامر كذلك امتنع حمل قوله ائتيا على الامر والتكليف فوجب حمله على ماذكرناه بقى على لفظ الآية سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها (الجواب) المقصود منه اظهار كمال القدرة والتقدير ائتيا شئتما ذلك اوأبيتما كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت اولم تشأ ولتفعلنه طوعا او كرها وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين او مكرهين فقالتا اتينا على الطوع لاعلى الكره وقيل انه تعالى ذكر السماء والارض ثم ذكر الطوع والكره فوجب ان ينصرف الطوع الى السماء والكره الى الارض وتخصيص السماء بالطوع لوجوه (احدها) ان السماء فى دوام حركتها على نهج واحد لايختلف تشبه حيوانا مطيعا لله تعالى بخلاف الارض فانها مختلفة الاحوال تارة تكون فى السكون واخرى فى الحركات المضطربة (وثانيها) ان الموجود فى السماء ليس الا الطاعة قال تعالى يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون واما أهل الارض فليس الامر فى حقهم كذلك (وثالثها) السماء موصوفة بكمال الحال فى جميع الامور قالوا انها افضل الالوان وهى

والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من امره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما ومايخفى على فأتاه فقال انت يامحمد خير أم هاشم انت خير ام عبدالمطلب انت خير ام عبدالله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسا وان تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن اى بنات قريش شئت وان كان بك المال جمعنا لك ماتستغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ عتبة قال عليه الصلاة والسلام بسم الله الرحمن الرحيم حم الى قوله تعالى مثل صاعقة عاد وثمود فامسك عتبة على فيه عليه الصلاة والسلام وناشده بالرحم ورجع الى اهله ولم يخرج الى قريش فلما

المستنيرة واشكالها افضل الاشكال وهى المستديرة ومكانها افضل الامكنة وهوالجو العالى واجرامها افضل الاجرام وهى الكواكب المتلا ٔلئة بخلاف الارض فانها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الاحوال وتغير الذوات والصفات فلاجرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الارض بالكره واذا كان مدار خلق الارض على الكره كان اهلهاموصوفين ابدا بماىوجب الكره والكرب والقهر والقسر (السؤال الثانى) ماالمراد من قوله ائتيا ومن قوله أتينا الجواب المراد ائتيا الى الوجود والحصول وهو كقوله كن فيكون وقيل المعنى ائتيا على ماينبغى ان تأتيا عليه من الشكل والوصف أى بأرض مدحوة قرارا ومهادا واى بسماء مقبة سقفا لهم ومعنى الاتيان الحصول والوقوع على وفق المراد كما تقول اتى عمله مرضيا وجاء مقبولا ويجوز أيضا ان يكون المعنى لتأتى كل واحدة منكما صاحبتها الاتيان الذى تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الارض قرارا للسماء وكون السماء سقفا للارض (السؤال الثالث) هلا قيل طائعين على اللفظ او طائعات على المعنى لانهما سموات وارضون (الجواب) لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين فى موضع طائعات نحو قوله ساجدين ومنهم من استدل به على كون السموات احياء وقال الارض فى جوف السموات اقل من الذرة الصغيرة فى جوف الجبل الكبير فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة على العقل والحياة غالبة الاان هذا القول باطل لاجماع المتكلمين على فساده ثم قال تعالى فقضاهن سبع سموات فى يومين وقضاء الشئ انما هواتمامه والفراغ منه والضمير فى قوله فقضاهن يجوز ان يرجع الى السماء على المعنى كما قال طائعين ونحوه اعجاز نخل خاوية ويجوز ان يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات والفرق بين النصبين ان احدهما على الحال والثانى على التمييز ٭ ذكر اهل الاثر انه تعالى خلق الارض فى يوم الاحد والاثنين وخلق سائرمافى الارض فى يوم الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات ومافيهافى يوم الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة فان قيل اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك انما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السماوات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم قلنامعناه انه مضى من المدة مالوحصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرا بيوم ثم قال تعالى واوحى فى كل سماء امرها قال مقاتل امر فى كل سماء بما اراد وقال قتادة خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وقال السدى خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة ومافيها من البحار وجبال البرد قال والله فى كل سماء بيت يحج اليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة ولو وقعت منه حصاة ماوقعت الا على الكعبة والاقرب ان يقال قد ثبت فى علم النحو انه يكفى فى حسن الاضافة ادنى سبب والله تعالى على اهل كل سماء تكليف خاص فن الملائكة من هو فى القيام من اول خلق العالم الى قيام القيامة ومنهم

حتبس عنهم قالوا ماترى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا ياعتبة ماحبسك عنا الا انك قد صبأت فغضب ثم قال والله لقد كلمته فاجابنى بشئ والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود امسكت بفيه وناشدته بالرحم ان يكف وقد علمتم ان محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب (فأما عاد فاستكبروا فى الارض) شروع فى حكاية مايخص بكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب اثر حكاية مايعم الكل من الكفر المطلق اى فتعظموا فيها على اهلها او استعلوا فيها واستولوا على اهلها (بغير الحق) اى بغير استحقاق للتعظم والولاية (وقالوا مدلين بشدتهم وقوتهم (من اشد مناقوة) حيث كانوا ذوى اجسام

ركوع لا ينتصبون، ومنهم سجود لا يرفعون واذا كان ذلك الامر مختصا باهل ذلك السماء كان ذلك الامر مختصا بتلك السماء، وقوله تعالى واوحى فى كل سماء امرها اى وكان قد خص كل سماء بالامر المضاف اليه كقوله وكم من قرية اهلكناها فجاءها بأسنا والمعنى فكان قدجاءها هذا مانقله الواحدى وهو عندى ضعيف لان تقدير الكلام ثم كان قداستوى الى السماء وكان قداوحى وهذا جمع بين الضدين لان كلمة ثم تقتضى التأخير وكلمة كان تقتضى التقديم فالجمع بينهما يفيدالتناقض ونظيره قول القائل ضربت اليوم زيدا ثم ضربت عمرا بالامس فكما ان هذا باطل فكذا ماذكرتموه وانما يجوز تأويل كلام الله بمالايؤدى الى وقوع التناقض والركاكة فيه والمختار عندى ان يقال خلق السموات مقدم على خلق الارض بقى ان يقال كيف تأويل هذه الآية فنقول الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد والدليل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فلوكان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين لكان تقدير الآية اوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال لانه يلزم انه تعالى قدقال للشئ الذى وجد كن ثم انه يكون وهذا محال فثبت ان الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد بل هو عبارة عن التقدير والتقدير فى حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك واذا ثبت هذا فنقول قوله خلق الارض فى يومين معناه انه قضى بحدوثه فى يومين وقضاء الله بأنه سيحدث كذا فى مدة كذا لايقتضى حدوث ذلك الشئ فى الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الارض فى يومين قد تقدم على احداث السماء ولا يلزم منه تقدم احداث الارض على احداث السماء وحينئذ يزول السؤال فهذا ماوصلت اليه فى هذا الموضع المشكل ثم قال تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين واعلم ان ظاهر هذا الكلام يقتضى ان الله تعالى امر السماء والارض بالاتيان فأطاعا وامتثلا وعند هذا حصل فى هذه الآية قولان (الاول) ان نجرى هذه الآية على ظاهرها فنقول ان الله تعالى امرهما بالاتيان فاطاعاه قال القائلون بهذا القول وهذا غير مستبعد الاترى انه تعالى امر الجبال ان تنطق مع داود عليه السلام فقال ياجبال اوبى معه والطير والله تعالى تجلى للجبل قال فلما تجلى ربه للجبل والله تعالى انطق الايدى والارجل قال يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون واذا كان كذلك فكيف يستبعد ان يخلق الله فى ذات السماء والارض حياة وعقلا وفهما ثم يوجه الامر والتكليف عليهما ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه (الاول) ان الاصل حمل اللفظ على ظاهره الااذامنع منه مانع وههنا لامانع فوجب اجراؤه على ظاهره (الثانى) انه تعالى اخبر عنهما فقال قالتا أتينا طائعين وهذا الجمع جمع مايعقل ويعلم (والثالث) قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وهذا يدل على كونها عارفة بالله مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها والاشكال عليه ان يقال المراد

طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم ان الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده (أولم يروا) اى اغفلوا والم ينظروا ولم يعلموا علما جليا شبيها بالمشاهدة والعيان (ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة) اى قدرة فانه تعالى قادر بالذات مقتدر على مالا يتناهى قوى على مالا يقدر عليه غيره مفيض للقوى والقدر على كل قوى وقادر وانما اورد فى حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والارض لادعائهم الشدة فى القوة وفيه ضرب من التهكم بهم (وكانوا بآياتنا) المنزلة على الرسل (يجحدون) اى ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على فاستكبروا كقوله تعالى وقالوا وما بينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء (فارسلنا

من قوله ائتياطوعا اوكرها الاتيان الى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة اذلو كانت موجودة لصار حاصل هذا الامر ان يقال ياموجود كن موجودا وذلك لايجوز فثبت انه محال توجه هذا الامر عليها كانت معدومة واذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب فلم يجز توجيه الامر عليها فان قال قائل روى مجاهد عن ابن عباس انه قال قال الله سبحانه للسموات اطلعى شمسك وقمرك ونجومك وقال للارض شقق انهارك واخرجى ثمارك وكان الله تعالى اودع فيهما هذه الاشياء ثم امرهما بابرازها واظهارها فنقول فعلى هذا التقدير لايكون المراد من قوله ائتيناطائعين حدوثهما فى ذاتهما بل يصير المراد من هذا الامر أن يظهرا ما كان مودعا فيهما الا ان هذا الكلام باطل لانه تعالى قال فقضاهن سبع سموات فى يومين والفاء للتعقيب وذلك يدل على ان حدوث السموات انما حصل بعد قوله ائتياطوعا اوكرها فهذا جملة مايمكن ذكره فى هذا البحث (القول الثانى) ان قوله تعالى قال لها وللارض ائتياطوعا اوكرها ليس المراد منه توجيه الامر والتكليف على السموات والارض بل المراد منه انه اراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع اذاورد عليه أمر الامير المطاع ونظيره قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد اسأل من يدقنى فان الحجر الذى ورائى ماخلانى ورأى واعلم ان هذا عدول عن الظاهر وانما جاز العدول عن الظاهر اذا قام دليل على انه لايمكن اجراؤه على ظاهره وقد بينا ان قوله ائتيا طوعا اوكرها انما حصل قبل وجودهما واذا كان الامر كذلك امتنع حمل قوله ائتيا طوعا اوكرها على الامر والتكليف فوجب حمله على ماذكرنا واعلم ان اثبات الامر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما وهذا يدل على انه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة وانه تعالى امرهم بأشياء ونهاهم عن اشياء وليس فى الآية مايدل على انه انما خلق الملائكة مع السموات او انه تعالى خلقهم قبل السموات ثم انه تعالى اسكنهم فيها وايضا ليس فى الآية بيان الشرائع التى امر الملائكة بها وهذه الاسرار لاتليق بعقول البشر بل هى اعلى من مصاعد افهامهم ومرامى اوهامهم ثم قال وزينا السماء الدنيا بمصابيح وهى النيرات التى خلقها فى السموات وخص كل واحد بضوء معين وسر معين وطبيعة معينة لايعرفها الا الله ثم قال وحفظا يعنى وحفظناها حفظا يعنى من الشياطين الذين يسترقون السمع فأعد لكل شيطان نجما يرميه به ولايخطئه فمنها مايحرق ومنها مايقتل ومنها مايجعله مخبلا وعن ابن عباس ان اليهود سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن خلق السموات والارض فقال خلق الله تعالى الارض فى يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال والشجر فى يومين وخلق فى يوم الخميس السماء وخلق فى يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ثم خلق آدم عليه السلام واسكنه الجنة ثم قالت اليهود ثم ماذا يامحمد قال ثم استوى على العرش قالوا ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليهم ريحا صرصرا) اى باردة تهلك وتحرق بشدة بردها من الصر وهوالبرد الذى يصر اى يجمع ويقبض اوعاصفة تصوت فى هبوبها من الصرير (فى ايام نحسات) جمع نحسة من نحس نحسا نقيض سعد سعدا وقرئ بالسكون على التخفيف او على انه نعت على فعل اووصف بمصدر مبالغة قيل كن آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء وماعذب قوم الا فى يوم الاربعاء (لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) وقرئ لتذيقهم على اسناد الاذاقة الى الريح او الى الايام واضيف العذاب الى الخزى الذى هو الذل والاستكانة على انه وصف له كما يعرب عنه قوله سبحانه (ولعذاب الآخرة اخزى) وهو فى الحقيقة وصف للعذب وقد وصف به

فنزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم انه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال ذلك تقدير العزيز العليم والعزيز اشارة الى كمال القدرة والعليم اشارة الى كمال العلم وما أحسن هذه الخاتمة لان تلك الاعمال لا تمكن الا بقدرة كاملة وعلم محيط * قوله تعالى (فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) اعلم ان الكلام انما ابتدئ من قوله انما الهكم اله واحد واحتج عليه بقوله قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وحاصله ان الاله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به وكيف يجوز جعل هذه الاجسام الخسيسة شركاء له فى الالهية ولما تمم تلك الحجة قال فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وبيان ذلك لان وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه فان بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج فى حقهم الا انزال العذاب عليهم فلهذا السبب قال فان اعرضوا فقل انذرتكم بمعنى ان اعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التى ذكرناها واصروا على الجهل والتقليد فقل انذرتكم والانذار هو التخويف قال المبرد والصاعقة النازلة المهلكة لاى شئ كان وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود قال صاحب الكشاف وهى المرة من الصعق ثم قال اذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم وفيه وجهان (الاول) المعنى ان الرسل المبعوثين اليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم الا العتو والاعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم يعنى لآتينهم من كل جهة ولاعملن فيهم كل حيلة ويقول الرجل استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتى فيه (السؤال الثانى) المعنى ان الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم فان قيل الرسل الذين جاؤا من قبلهم ومن بعدهم كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤهم قلنا قد جاءهم هود وصالح داعيين الى الايمان بهما وبجميع الرسل وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤهم ثم قال الا تعبدوا الا الله يعنى ان الرسل الذين جاؤهم من بين ايديهم ومن خلفهم امروهم بالتوحيد ونفى الشرك قال صاحب الكشاف ان فى قوله ان لا تعبدوا الا الله بمعنى اى او مخففة من الثقيلة اصله بانه لا تعبدوا اى بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا الا الله ثم حكى الله تعالى عن اولئك الكفار انهم قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة يعنى انهم

العذاب للمبالغة (وهم لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (واما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية وارسال الرسل وانزال الآيات التشريعية وازحنا عللهم بالكلية وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وقرئ ثمود بالنصب بفعل يفسره ما بعده ومنونا فى الحالين وبضم الثاء (فاستحبوا العمى على الهدى) اى اختاروا الضلالة على الهداية (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) داهية العذاب وقارعة العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة او ابدل منه (بما كانوا يكسبون) من اختيار الضلالة (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) من تلك الصاعقة

(كذبوا)

كذبوا اولئك الرسل وقالوا الدليل على كونكم كاذبين انه تعالى لوشاء ارسال الرسل الى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة لان ارسال الملائكة الى الخلق افضى الى المقصود من البعثة والرسالة ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا فانا بما ارسلتم به كافرون معناه فاذا انتم بشر ولستم بملائكة فأنتم لستم برسل واذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم وهو المراد من قوله فانا بما ارسلتم به كافرون واعلم انا بالغنا فى الجواب عن هذه الشبهات فى سورة الانعام وقوله ارسلتم به ليس باقرار منهم بكون اولئك الانبياء رسلا وانما ذكروه حكاية لكلام الرسل او على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون * روى ان اباجهل قال فى ملأ من قريش التبس علينا امر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ثم أتانا ببيان عن امره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما ومايخفى على فأتاه فقال يامحمد انت خير ام هاشم انت خير ام عبد المطلب انت خير أم عبدالله لم تشتم آلهتنا وتضللنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار هن اى بنات من شئت من قريش وان كان المال مرادك جمعنا لك ماتستغنى به ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم الى قوله صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فامسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع الى اهله ولم يخرج الى قريش فلما احتبس عنهم قالوا لانرى عتبة الا قدصبأ فانطلقوا اليه وقالوا ياعتبة ماحبسك عنا الا انك قدصبأت فغضب واقسم لايكلم محمدا أبدا ثم قال والله لقد كلمته فاجابنى بشئ ماهو بشعر ولاسحر ولا كهانة ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود امسكت بفيه وناشدته بالرحم ولقد علمت ان محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب واعلم انه تعالى لمابين كفر قوم عاد وثمود على الاجمال بين خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وهذا الاستكبار فيه وجهان (الاول) اظهار النخوة والكبر وعدم الالتفات الى الغير (والثانى) الاستعلاء على الغير واستخدامهم ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو انهم قالوا من اشد منا قوة وكانوا مخصوصين بكبر الاجسام وشدة القوة ثم انه تعالى ذكر مايدل على انه لايجوز لهم ان يغتروا ابشدة قوتهم فقال اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة يعنى انهم وان كانوا اقوى من غيرهم فالله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة فان كانت الزيادة فى القوة توجب كون الناقص فى طاعة الكامل فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى خاضعين لاوامره ونواهيه واحتج اصحابنا بهذه الآية على اثبات القدرة لله فقالوا القوة ههناهى القدرة فقوله الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة يدل على اثبات القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فان قيل صيغة افعل التفضيل انما تجرى بين شيئين لاحدهما مع الآخر نسبة لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله

(ويوم يحشر اعداء الله) شروع فى بيان عقوباتهم الآجلة اثر بيان عقوباتهم العاجلة والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والايذان بعلة مايحيق بهم من الوان العذاب وقيل المراد بهم الكفار من الاولين والآخرين ويرده ماسيأتى من قوله تعالى فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس وقرئ يحشر على بناء الفاعل ونصب اعداء الله وبنون العظمة وضم الشين وكسرها (الى النار) اى الى موقف الحساب اذهناك تحقق الشهادة الآتية لابعد تمام السؤال والجواب وسوقهم الى النار والتعبير عنه بالنار اما للايذان بأنها عاقبة حشرهم وانهم على شرف دخولها واما لان حسابهم يكون على شفيرها ويوم امامنصوب باذكر اوظرف لمضمر مؤخر قدحذف ايهاما لقصور العبارة عن تفصيله كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقيل ظرف لمايدل عليه قوله تعالى (فهم يوزعون) اى يحبس اولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون الى النار وقوله تعالى (حتى اذا ماجاؤها) اى جميعا غاية ليحشر اوليوزعون اى حتى اذا حضروها ومامزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور

لانهاية لهاوالمتناهي لانسبة له الى غير المتناهي فامعنى قوله ان الله اشد منهم قوة قلنا هذا ورد على قانون قولنا الله اكبر ثم قال وكانوا بآياتنا يجحدون والمعنى انهم كانوا يعرفون انها حق ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة واعلم ان نظم الكلام ان يقال اما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون وقوله وقالوا من اشد منا قوة اولم يروا ان الله الذى خلقكم هو اشد منكم قوة اعتراض وقع فى البين لتقرير السبب الداعى لهم الى الاستكبار واعلم انا ذكرنا ان مجامع الخصال الحميدة الاحسان الى الخلق والتعظيم للخالق فقوله استكبروا فى الارض بغير الحق مضاد للاحسان الى الخلق وقوله وكانوا بآياتنا يجحدون مضاد للتعظيم للخالق واذا كان الامر كذلك فهم قد بلغوا فى الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والابطال الى الغاية القصوى فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال فارسلنا عليهم ريحا صرصرا وفى الصرصر قولان (احدهما) انها العاصفة التى تصرصر اى تصوت فى هبوبها وفى علة هذه التسمية وجوه قيل ان الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم وقيل هو من صرير الباب وقيل من الصرة وهى الصيحة ومنه قوله تعالى فاقبلت امرأته فى صرة (والقول الثانى) انها الباردة التى تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها واصلها من الصر وهو البرد قال تعالى كمثل ريح فيها صر وروى عن رسول الله انه قال الرياح ثمان اربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم واربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وعن ابن عباس ان الله تعالى ما ارسل على عباده من الريح الا قدر خاتمى والمقصود انه مع قلته اهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته واما قوله فى ايام نحسات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو نحسات بسكون الحاء والباقون بكسر الحاء قال صاحب الكشاف يقال نحس نحسا نقيض سعد سعدا فهو نحس واما نحس فهو اما مخفف نحس او صفة على فعل او وصف بمصدر (المسئلة الثانية) استدل الاحكاميون من المنجمين بهذه الآية على ان بعض الايام قد يكون نحسا وبعضها قد يكون سعدا وقالوا هذه الآية صريحة فى هذا المعنى أجاب المتكلمون بأن قالوا أيام نحسات اى ذوات غبار وتراب ثائر لايكاد يبصر فيه ويتصرف وايضا قالوا معنى كون هذه الايام نحسات ان الله اهلكهم فيها أجاب المستدل الاول بأن النحسات فى وضع اللغة هى المشؤمات لان النحس يقابله السعد والكدر يقابله الصافى واجاب عن السؤال الثانى ان الله تعالى اخبر عن ايقاع ذلك العذاب فى تلك الايام النحسات فوجب ان يكون كون تلك الايام نحسة مغايرا لذلك العذاب الذى وقع فيها ثم قال تعالى لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا اى عذاب الهوان والذل والسبب فيه انهم استكبروا فقابل الله ذلك الاستكبار بايصال الخزى والهوان والذل اليهم ثم قال تعالى ولعذاب الآخرة اخزى اى اشد اهانة وخزيا وهم لاينصرون اى انهم يقعون فى الخزى الشديد ومع ذلك فلا يكون

(لهم)

(شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا من فنون الكفر والمعاصى بأن ينطقها الله تعالى او يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج وهو الانسب بتخصيص السؤال بها فى قوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) فان ماتشهد به من الزنا اعظم جناية وقبحا واجلب للخزى والعقوبة مما يشهد به السمع والابصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وقيل المراد بالجلود الجوارح اى سألوها سؤال توبيخ لما روى أنهم قالوا لها فعنكن كنا نناضل وفى رواية بعدا لكن وسحقا عنكن كنت اجادل وصيغة جمع العقلاء فى خطاب الجلود وفى قوله تعالى (قالوا أنطقنا الله الذى انطق كل شئ) لوقوعها فى موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء اى أنطقنا الله الذى أنطق كل ناطق وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها وقيل ما نطقنا باختيارنا بل انطقنا الله الذى انطق كل شئ وليس بذاك لما فيه من ايهام الاضطرار فى الاخبار وقيل سألوها سؤال تعجب فالمعنى

لهم ناصر يدفع ذلك الخزى عنهم ولما ذكر الله تعالى قصة عاد اتبعه بقصة ثمود فقال واما ثمود قال صاحب الكشاف قرئ ثمود بالرفع والنصب منونا وغير منون والرفع افصح لوقوعه بعد حرف الابتداء وقرئ بضم الثاء فهديناهم اى دللناهم على طريق الخير والشر فاستحبوا العمى على الهدى اى اختاروا الدخول فى الضلالة على الدخول فى الرشد واعلم ان صاحب الكشاف ذكر فى تفسير الهدى فى قوله تعالى هدى للمتقين ان الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة الى البغية وهذه الآية تبطل قوله لانها تدل على ان الهدى قد حصل مع ان الافضاء الى البغية لم يحصل فثبت ان قيد كونه مفضيا الى البغية غير معتبر فى اسم الهدى وقد ثبت فى هذه الآية سؤال يشعر بذلك الا انه لم يذكر جوابا شافيا فتركناه قالت المعتزلة هذه الآية دالة على ان الله تعالى قد نصب الدلائل وازاح الاعذار والعلل الا ان الايمان انما يحصل من العبد لان قوله واما ثمود فهديناهم يدل على انه تعالى قد نصب لهم الدلائل وقوله فاستحبوا العمى على الهدى يدل على انهم من عند انفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على ان الكفر والايمان يحصلان من العبد واقول بل هذه الآية من ادل الدلائل على انهما انما يحصلان من الله لامن العبد وبيانه من وجهين (الاول) انهم انما صدر عنهم ذلك العمى لانهم احبوا تحصيله فلما وقع فى قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده فان حصل ذلك الترجيح لا لمرجح فهو باطل وان كان المرجح هو العبد عاد الطلب وان كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب (الثانى) انه تعالى قال فاستحبوا العمى على الهدى ومن المعلوم بالضرورة ان احدا لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلا بل مالم يظن فى ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلما لا يرغب فيه فاقدامه على اختيار ذلك الجهل لابد وان يكون مسبوقا بجهل آخر فان كان ذلك الجهل الثانى باختياره ايضا لزم التسلسل وهو محال فلابد من انتهاء تلك الجهالات الى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ولما وصف الله كفرهم قال فأخذتهم صاعقة العذاب الهون وصاعقة العذاب اى داهية العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة او أبدل منه بما كانوا يكسبون يريد من شركهم وتكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة وشرع صاحب الكشاف ههنا فى سفاهة عظيمة والاولى ان لا يلتفت اليه لانه وان كان قد سعى سعيا حسنا فيما يتعلق بالالفاظ الا ان المسكين كان بعيدا من المعانى ولما ذكر الله الوعيد اردفه بالوعد فقال ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون يعنى وكانوا يتقون الاعمال التى كان يأتى بها قوم عاد وثمود فان قيل كيف يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم ان ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع فى امة محمد صلى الله عليه وسلم وقد صرح الله تعالى بذلك فى قوله وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وجاء فى الاحاديث الصحيحة ان الله تعالى رفع عن هذه الامة هذه الانواع من الآفات قلنا انهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود فى استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك وان كان اقل درجة منهم وهذا القدر يكفى فى

حينئذ ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذى انطق كل حى (وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون) فان من قدر على خلقكم وانشائكم اولا وعلى اعادتكم ورجعكم الى جزائه ثانيا لا يتعجب من انطاقه لجوارحكم ولعل صيغة المضارع مع ان هذه المحاورة بعد البعث والرجع لما ان المراد بالرجع ليس بمجرد الرد الى الحياة بالبعث بل مايعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع على ان فيه مراعاة الفواصل وقوله تعالى (وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم) حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقرير الجواب الجلود اى ما كنتم تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة ان تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح عندهم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسا (ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) من القبائح الخفية فلا يظهرها فى الآخرة ولذلك اجترأتم على مافعلتم وفيه ايذان بان شهادة الجوارح باعلامه تعالى حينئذ

التخويف ❊ قوله تعالى (ويوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شئ وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لايعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتم من الخاسرين فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فاهم من المعتبين) واعلم انه تعالى لما بين كيفية عقوبة اولئك الكفار فى الدنيا اردفه بكيفية عقوبتهم فى الآخرة ليحصل منه تمام الاعتبار فى الزجر والتحذير وقرأ نافع نحشر بالنون اعداء بالنصب اضاف الحشر الى نفسه والتقدير يحشر الله عز وجل اعداءه الكفار من الاولين والآخرين وجته انه معطوف على قوله ونجينا فيحسن ان يكون على وفقه فى اللفظ ويقويه قوله يوم نحشر المتقين وحشرناهم واما الباقون فقرؤا على فعل مالم يسم فاعله لان قصة ثمود قد تمت وقوله ويوم يحشر ابتداء كلام آخر وايضا الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله احشروا وهم الملائكة وايضا ان هذه القراءة موافقة لقوله فهم يوزعون وايضا فتقدير القراءة الاولى ان الله تعالى قال ويوم نحشر اعداء الله الى النار فكان الاولى على هذا التقدير ان يقال ويوم نحشر اعداءنا الى النار واعلم انه تعالى لما ذكر ان اعداء الله يحشرون الى النار قال فهم يوزعون اى يحبس اولهم على آخرهم اى يوقف سوابقهم حتى يصل اليهم تواليهم والمقصود بيان انهم اذا اجتمعوا اسئلوا عن اعمالهم ثم قال حتى اذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التقدير حتى اذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم وعلى هذا التقدير فكلمة ما صلة وقيل فيها فائدة زائدة وهى تأكيد ان عند مجيئهم لابد وان تحصل هذه الشهادة كقوله أثم اذا ما وقع آمنتم به اى لابد لوقت وقوعه من ان يكون وقت ايمانهم به (المسئلة الثانية) روى ان العبد يقول يوم القيامة يارب العزة الست قد وعدتنى ان لا تظلمنى فيقول الله تعالى فان لك ذلك فيقول العبد انى لا اقبل على نفسى شاهدا الا من نفسى فيختم الله على فيه وينطق اعضاءه بالاعمال التى صدرت منه فذلك قوله شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم واختلف الناس فى كيفية الشهادة وفيه ثلاثة اقوال (احدها) انه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على مايعرفه (والثانى) انه تعالى يخلق فى تلك الاعضاء الاصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة (والثالث) ان يظهر فى تلك الاعضاء احوالا تدل على صدور تلك الاعمال من ذلك الانسان وتلك الامارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات احواله على حدوثه واعلم ان هذه المسئلة صعبة على المعتزلة اما القول الاول فهو صعب على مذهبهم لان البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فالسان مع كونه لسانا يمتنع ان يكون محلا للعلم والعقل فان غير الله تعالى تلك البنية

(والصورة)

لا بانها كانت عالمة بما شهدت به عند صدوره عنهم ❊ عن ابن مسعود رضى الله عنه كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى او قرشيان وثقفى فقال احدهم أترون ان الله يسمع مانقول قال الآخر يسمع ان جهرنا ولا يسمع ان أخفينا فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية فالحكم المحكى حينئذ يكون خاصا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الانسب ان يراد بالظن معنى مجازى يعم معناه الحقيقى وما يجرى مجراه من الاعمال المنبئة عنه كما فى قوله تعالى يحسب ان ماله اخلده ليعم ماحكى من الحال جميع اصناف الكفرة فتدبر (وذلكم) اشارة الى ماذكر من ظنهم ومافيه من معنى البعد للايذان بغاية بعد منزلته فى الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم الذى ظننتم بربكم ارداكم) خبران له ويجوز ان يكون ظنكم بدلا وارداكم خبرا فأصبحتم بسبب ذلك الظن السوء الذى اهلككم (من الخاسرين) اذ صار ما منحوا لنيل سعادة الدارين سببا لشقاء النشأتين (فان يصبروا فالنار مثوى لهم) اى محل ثواء واقامة

والصورة خرج عن كونه لسانا وجلدا وظاهر الآية يدل على اضافة تلك الشهادة الى السمع والبصر والجلود فان قلنا ان الله تعالى ماغير بنية هذه الاعضاء فحينئذ يمتنع عليها كونها عاقلة ناطقة فاهمة واما القول الثانى وهو ان يقال ان الله تعالى خلق هذه الاصوات والحروف فى هذه الاعضاء وهذا ايضا باطل على اصول المعتزلة لان مذهبهم ان المتكلم هو الذى فعل الكلام لا ماكان موصوفا بالكلام فانهم يقولون ان الله تعالى خلق الكلام فى الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة فههنا لو قلنا ان الله خلق الاصوات والحروف فى تلك الاعضاء لزم ان يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك الاعضاء ولزم ان يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لا تلك الاعضاء وظاهر القرآن يدل على ان تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الاعضاء لا من الله تعالى لانه تعالى قال شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم وايضا انهم قالوا لتلك الاعضاء لم شهدتم علينا فقالت الاعضاء انطقنا الله الذى انطق كل شئ وكل هذه الآيات دالة على ان المتكلم بتلك الكلمات تلك الاعضاء وان تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى فهذا توجيه الاشكال على هذين القولين واما القول الثالث وهو تفسير هذه الشهادة بظهور امارات مخصوصة على هذه الاعضاء دالة على صدور تلك الاعمال منهم فهذا عدول عن الحقيقة الى المجاز والاصل عدمه فهذ امنتهى الكلام فى هذا البحث اما على مذهب اصحابنا فهذا الاشكال غير لازم لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة ولا للعلم ولا للقدرة فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من اجزاء هذه الاعضاء وعلى هذا التقدير فالاشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان ان البنية ليست شرطا للحياة ولا لشئ من الصفات المشروطة بالحياة والله اعلم (المسئلة الثالثة) ما رأيت للمفسرين فى تخصيص هذه الاعضاء الثلاثة بالذكر سببا وفائدة واقول لاشك ان الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ولاشك ان آلة اللمس هى الجلد فالله تعالى ذكرههنا ثلاثة انواع من الحواس وهى السمع والبصر واللمس واهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم لان الذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه لان ادراك الذوق انما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام فكان هذا داخلا فيه فبقى حس الشم وهو حس ضعيف فى الانسان وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهى اذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس انه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج قال وهذا من باب الكنايات كما قال ولكن لا تواعدوهن سرا واراد النكاح وقال اوجاء أحد منكم من الغائط والمراد قضاء الحاجة وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اول ما يتكلم من الآدمى فخذه وكفه وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيدا شديدا فى الاتيان بالزنا لان مقدمة الزنا انما تحصل بالكف ونهاية الامر فيها انما تحصل بالفخذ ثم حكى الله تعالى عنهم انهم يقولون لتلك الاعضاء لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شئ وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون ومعناه

قوله وقرئ وان يستعتبوا اى بصيغة المفعول والمعتبين بصيغة الفاعل اهـ

ابدية لهم بحيث لا براح لهم منها والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء حالهم ان يعرض عنهم ويحكى سوء حالهم لغيرهم او للاشعار بابعادهم عن حيز الخطاب والقائهم فى غاية دركات النار (وان يستعتبوا) اى يسألوا العتبى وهو الرجوع الى ما يحبونه جزعا مماهم فيهم (فماهم من المعتبين) المجابين اليها ونظيره قوله تعالى سواء علينا اجزعنا ام صبرنا مالنا من محيص وقرئ وان يستعتبوا فماهم من المعتبين اى ان يسألوا ان يرضوا ربهم فماهم فاعلون لفوات المكنة (وقيضنا لهم) اى قدرنا وقرنا للكفرة فى الدنيا (قرناء) جمع قرين اى اخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل اصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة (فزينوا لهم مابين ايديهم) من امور الدنيا واتباع الشهوات (وماخلفهم) من امور الآخرة حيث اروهم ان لابعث ولاحساب ولامكروه قط (وحق عليهم القول) اى ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها وهو قوله تعالى

ان القادر على خلقكم وانطاقكم فى المرة الاولى حال ما كنتم فى الدنيا ثم على خلقكم وانطاقكم فى المرة الثانية وهى حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه انطاق الجوارح والاعضاء ثم قال تعالى وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم فالمعنى اثبات انهم كانوا يستترون عند الاقدام على الاعمال القبيحة الا ان استتارهم ما كان لاجل خوفهم من ان تشهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم وذلك لانهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ولكن ذلك الاستتار لاجل انهم كانوا يظنون ان الله لا يعلم الاعمال التى يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار * عن ابن مسعود قال كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر على ثقفيان وقرشى فقال احدهم اترون الله يسمع ماتقولون فقال الرجلان اذا سمعنا اصواتنا سمع والا لم يسمع فذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فنزل وما كنتم تستترون ثم قال تعالى وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتم من الخاسرين وهذا نص صريح فى ان من ظن بالله تعالى انه يخرج شئ من المعلومات عن علمه فانه يكون من الهالكين الخاسرين قال اهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد اما الظن الحسن فهو ان يظن به الرحمة والفضل قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل انا عند ظن عبدى بى وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله والظن القبيح فاسد وهو ان يظن بالله تعالى انه يعزب عن علمه بعض هذه الاحوال وقال قتادة الظن نوعان ظن منج وظن مرد فالمنجى قوله انى ظننت انى ملاق حسابيه وقوله الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم واما الظن المردى فهو قوله وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ارداكم قال صاحب الكشاف وذلكم رفع بالابتداء وظنكم وارداكم خبران ويجوز ان يكون ظنكم بدلا من ذلكم وارداكم الخبر ثم قال فان يصبروا فالنار مثوى لهم يعنى ان امسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم اى مقاما لهم وان يستعتبوا فاهم من المعتبين اى لم يعطوا العتبى ولم يجابوا اليها ونظيره قوله تعالى اجزعنا ام صبرنا مالنا من محيص وقرئ وان يستعتبوا فاهم من المعتبين اى ان يسئلوا ان يرضوا ربهم فاهم فاعلون اى لاسبيل لهم الى ذلك * قوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين ايديهم وماخلفهم وحق عليهم القول فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم اسوأ الذى كانوا يعملون ذلك جزاء اعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الاسفلين) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على كفر اولئك الكفار اردفه بذكر السبب الذى لاجله وقعوا فى ذلك الكفر فقال وقيضنا لهم قرناء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الصحاح يقال قايضت الرجل مقايضة

لابليس فالحق والحق اقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين وقوله تعالى لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين كما مر مرارا (فى امم) حال من الضمير المجرور اى كائنين فى جملة امم وقيل فى بمعنى مع وهذا كما ترى صريح فى ان المراد باعداء الله تعالى فيما سبق المعهودون من عاد وثمود لا الكفار من الاولين والآخرين كما قيل (قد خلت) صفة لامم اى مضت (من قبلهم من الجن والانس) على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء (انهم كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير للاولين والآخرين (وقال الذين كفروا) من رؤساء المشركين لاعقابهم او قال بعضهم لبعض (لا تسمعوا لهذا القرآن) اى لا تنصتوا له (والغوا فيه) وعارضوه بالخرافات من الرجز والشعر والتصدية والمكاء اوارفعوا اصواتكم بها لتشوشوه على القارئ وقرئ بضم الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغى كلقى يلقى ولغا يلغو اذا هذى (لعلكم تغلبون) اى تغلبونه على قراءته (فلنذيقن الذين كفروا) اى فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين او جميع الكفار وهم داخلون فيهم دخولا اوليا (عذابا شديدا) لا يقادر قدره (ولنجزينهم

أى عاوضته بمتاع وهما قيضان كما يقال بيعان وقيض الله فلانا لفلان أى جاءه به واتى به له ومنه قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يريد الكفر من الكافر فقالوا انه تعالى ذكر انه قيض لهم اولئك القرناء وكان عالما بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فانهم يزينون الباطل لهم وكل من فعل فعلا وعلم ان ذلك الفعل يفضى الى اثر لا محالة فان فاعل ذلك الفعل لابد وان يكون مريدا لذلك الاثر فثبت انه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر اجاب الجبائى عنه بأن قال لو اراد المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين اذ الفاعل لما اراده منه غيره يجب ان يكون مطيعا له وبأن قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون يدل على انه لم يرد منهم الا العبادة فثبت بهذا انه تعالى لم يرد منهم المعاصى واما هذه الآية فنقول انه تعالى لم يقل وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم وانما قال فزينوا لهم فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى انه تعالى أخرج كل احد الى آخر من جنسه فقيض احد الزوجين للآخر والغنى للفقير والفقير للغنى ثم بين تعالى ان بعضهم يزين المعاصى للبعض واعلم ان وجه استدلال اصحابنا ما ذكرناه وهو ان من فعل فعلا وعلم قطعا ان ذلك الفعل يفضى الى اثر فان فاعل ذلك الفعل يكون مريدا لذلك الاثر فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعلم انه متى قيض أولئك القرناء لهم فانهم يقعون فى ذلك الكفر والضلال وما ذكره الجبائى لا يدفع ذلك وقوله ولو اراد الله منهم المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين لله قلنا لو كان من فعل ما اراده غيره مطيعا له لوجب ان يكون الله مطيعا لعباده اذا فعل ما ارادوه ومعلوم انه باطل وايضا فهذا الزام لفظى لانه يقال ان اردت بالطاعة انه فعل ما اراد فهذا الزام للشئ على نفسه وان أردت غيره فلابد من بيانه حتى ينظر فيه انه هل يصح ام لا (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى المراد بقوله فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وذكر الزجاج فيه وجهين (الاول) زينوا لهم ما بين ايديهم من امر الآخرة انه لا بعث ولا جنة ولا نار وما خلفهم من امر الدنيا فزينوا ان الدنيا قديمة وانه لا فاعل ولا صانع الا الطبائع والافلاك (الثانى) زينوا لهم اعمالهم التى يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون انهم يعملونه وعبر ابن زيد عنه فقال زينوا لهم ما مضى من اعمالهم الخبيثة وما بقى من اعمالهم الخسيسة ثم قال تعالى وحق عليهم القول فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين فقوله فى امم فى محل النصب على الحال من الضمير فى عليهم والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين فى جملة امم من المتقدمين انهم كانوا خاسرين واحتج اصحابنا ايضا بانه تعالى اخبر بأن هؤلاء حق عليهم القول فلو لم يكونوا كفارا لانقلب هذا القول الحق باطلا وهذا العلم جهلا وهذا الخبر الصدق كذبا وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال فثبت ان صدور الايمان عنهم وعدم صدور الكفر عنهم محال واعلم ان الكلام فى اول السورة ابتدئ من قوله وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه الى قوله فاعمل اننا عاملون فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه

أسوأ الذى كانوا يعملون) اى جزاء سيآت اعمالهم التى هى فى انفسها اسوأ وقيل انه لا يجازيهم بمحاسن اعمالهم كاغاثة الملهوفين وصلة الارحام وقرى الاضياف لانها محبطة بالكفر وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذابا شديدا يوم بدر واسوأ الذى كانوا يعملون فى الآخرة (ذلك) مبتدأ وقوله تعالى (جزاء اعداء الله) خبره اى ما ذكر من الجزاء جزاء معد لاعدائه تعالى وقوله تعالى (النار) عطف بيان للجزاء او ذلك خبر مبتدأ محذوف اى الامر ذلك على انه عبارة عن مضمون الجملة لا عن الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى (لهم فيها دار الخلد) جملة مستقلة مقررة لما قبلها او النار مبتدأ هى خبره اى هى بعينها دار اقامتهم على ان فى للتجريد وهو ان ينتزع من امر ذى صفة امر آخر مثله مبالغة لكماله فيها كما يقال فى البيضة عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد ان لهم فى النار المشتملة على الدركات دارا مخصوصة هم فيها خالدون (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) منصوب

من الاجوبة واتصل الكلام بعضه بالبعض الى هذا الموضع ثم انه تعالى حكى عنهم شبهة اخرى فقال وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون قال صاحب الكشاف قرئ والغوا فيه بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذى لاطائل تحته واعلم ان القوم علموا ان القرآن كلام كامل فى المعنى وفى اللفظ وان كل من سمعه وقف على جزالة الفاظه واحاط عقله بمعانيه وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول فدبروا تدبيرا فى منع الناس عن استماعه فقال بعضهم لبعض لاتسمعوا لهذا القرآن اذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الاصوات بالخرافات والاشعار الفاسدة والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته كانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضا والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن مايكون لغوا وباطلا لتخرجوا قراءة القرآن عن ان تصير مفهومة للناس فبهذا الطريق تغلبون محمدا صلى الله عليه وسلم وهذا جهل منهم لانهم فى الحال اقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمدا بفضله ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا لان لفظ الذوق انما يذكر فى القدر القليل الذى يؤتى به لاجل التجربة ثم انه تعالى ذكر ان ذلك الذوق عذاب شديد فاذا كان القليل منه عذابا شديدا فكيف يكون حال الكثير منه ثم قال ولنجزينهم اسوأ الذى كانوا يعملون واختلفوا فيه فقال الاكثرون المراد جزاء سوء اعمالهم وقال الحسن بل المراد انه لايجازيهم على محاسن اعمالهم لانهم احبطوها بالكفر فضاعت تلك الاعمال الحسنة عنهم ولم يبق معهم الا الاعمال القبيحة الباطلة فلاجرم لم يحصلوا الا على جزاء السيآت ثم قال تعالى ذلك جزاء اعداء الله النار والمعنى انه تعالى لما قال فى الآية المتقدمة ولنجزينهم اسوأ الذى كانوا يعملون بين ان ذلك الاسوأ الذى جعل جزاء اعداء الله هو النار ثم قال تعالى لهم فيها دار الخلد اى لهم فى جملة النار دار السيآت معينة وهى دار العذاب المخلد لهم جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون اى جزاء بما كانوا يلغون فى القراءة وانما سماه جحودا لانهم علموا ان القرآن بالغ الى حد الاعجاز خافوا من انه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة وذلك يدل على انهم علموا كونه معجزا الا انهم جحدوا للحسد واعلم انه تعالى لما بين ان الذى حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ان الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد يقولون ربنا أرنا الذين اضلانا من الجن والانس والسبب فى ذكر هذين القسمين ان الشيطان على ضربين جنى وانسى قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن وقال الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وقيل هما ابليس وقابيل لان الكفر سنة ابليس والقتل بغير حق سنة قابيل وقرئ أرنا بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا فى فخذ فخذ وقيل معناه اعطنا الذين أضلانا وحكوا عن الخليل انك اذا قلت أرنى ثوبك بالكسر فالمعنى بصرنيه واذا قلته بالسكون فهو

(استعطاء)

بفعل مقدر اى يجزون جزاء او بالمصدر السابق فان المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا والباء الاولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لمراعاة الفواصل اى بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة اويلغون فيها وذكر الجحود لكونه سببا للغو (وقال الذين كفروا) وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب (ربنا أرنا الذين اضلانا من الجن والانس) يعنون فريقى شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصى بالتسويل والتزيين وقيل هما ابليس وقابيل فانهما سنا الكفر والقتل بغير حق وقرئ ارنا تخفيفا كفخذ فى فخذ وقيل معناه اعطناهما وقرئ باختلاس كسرة الراء (نجعلهما تحت اقدامنا) اى ندسهما انتقاما منهما وقيل نجعلهما فى الدرك الاسفل (ليكونا من الاسفلين) اى ذلا ومهانة ومكانا

استعطاء معناه اعطنى ثوبك ثم قال تعالى نجعلهما تحت اقدامنا قال مقاتل يكونان اسفل منا فى النار ليكونا من الاسفلين قال الزجاج ليكونا فى الدرك الاسفل من النار وكان بعض تلامذتى ممن يميل الى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب واليهما الاشارة فى قصة الملائكة بقوله اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ثم قال والمراد بقوله نجعلهما تحت اقدامنا يعنى يا ربنا اعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت اقدام جوهر النفس القدسية والمراد بكونهما تحت اقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها وان لا يكونا مستولين عليها قاهرين لها ❁ قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) اعلم انه تعالى لما اطنب فى الوعيد اردفه بهذا الوعد الشريف وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه وقد ذكرنا مرارا ان الكمالات على ثلاثة اقسام النفسانية والبدنية والخارجية واشرف المراتب النفسانية واوسطها البدنية وادونها الخارجية وذكرنا ان الكمالات النفسانية محصورة فى نوعين العلم اليقينى والعمل الصالح فان اهل التحقيق قالوا كمال الانسان فى ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله واليه الاشارة بقوله ان الذين قالوا ربنا الله ورأس الاعمال الصالحة ورئيسها ان يكون الانسان مستقيما فى الوسط غير مائل الى طرفى الافراط والتفريط كما قال وكذلك جعلناكم امة وسطا وقال ايضا اهدنا الصراط المستقيم واليه الاشارة فى هذه الآية بقوله ثم استقاموا وسمعت ان القارئ قرأ فى مجلس العبادى هذه الآية فقال العبادى والقيامة فى القيامة بقدر الاستقامة اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ليس المراد منه القول باللسان فقط لان ذلك لا يفيد الاستقامة فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا ان ذلك القول كان مقرونا باليقين التام والمعرفة الحقيقية اذا عرفت هذا فنقول فى الاستقامة قولان (احدهما) ان المراد منه الاستقامة فى الدين والتوحيد والمعرفة (والثانى) ان المراد منه الاستقامة فى الاعمال الصالحة اما على القول الاول ففيه عبارات قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه ثم استقاموا اى لم يلتفتوا الى اله غيره قال ابن عباس فى بعض الروايات هذه الآية نزلت فى ابى بكر الصديق رضى الله عنه وذلك ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه وقع فى انواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه فكان هو الذى قال ربنا الله وبقى مستقيما عليه لم يتغير بسبب من الاسباب واقول يمكن فيه وجوه اخرى وذلك ان من اقر بأن لهذا العالم الها بقيت له مقامات اخرى (فاولها) ان لا يتوغل فى جانب النفى الى حيث ينتهى الى التعليل ولا يتوغل فى جانب الاثبات الى حيث ينتهى الى التشبيه بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل وايضا يجب ان يبقى على الخط المستقيم الفاصل

(ان الذين قالوا ربنا الله) شروع فى بيان حسن احوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما اى قالوا اعترافا بربوبيته تعالى واقرارا بوحدانيته (ثم استقاموا) اى ثبتوا على الاقرار ومقتضياته على ان ثم للتراخى فى الزمان او فى الرتبة فان الاستقامة لها الشان كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم فى معناها من الثبات على الايمان واخلاص العمل واداء الفرائض بيان لجزئياتها (تتنزل عليهم الملائكة) من جهته تعالى يمدونهم فيما يعن لهم من الامور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الالهام كما ان الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل تتنزل عند الموت بالبشرى وقيل اذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى فى مواطن ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث والاظهر هو العموم والاطلاق كما ستعرفه (ان لا تخافوا) ما تقدمون عليه فان الخوف غم يلحق لتوقع المكروه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم فانه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع او حصول ضار وقيل المراد نهيهم عن الغموم على الاطلاق والمعنى ان الله تعالى

بين الجبر والقدر وكذا فى الرجاء والقنوط يجب ان يكون على الخط المستقيم فهذا هو المراد من قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا واما على القول الثانى وهو ان تحمل الاستقامة على الاتيان بالاعمال الصالحة فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين قالوا وهذا اولى حتى يكون قوله ان الذين قالوا ربنا الله متنا ولا للقول والاعتقاد ويكون قوله ثم استقاموا متنا ولا للاعمال الصالحة ثم قال تتنزل عليهم الملائكة قيل عند الموت وقيل فى مواقف ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث الى القيامة ان لاتخافوا ان بمعنى اى او مخففة من الثقيلة واصله بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشان واعلم ان الغاية القصوى فى رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ومعلوم ان دفع المضرة اولى بالرعاية من جلب المصلحة والمضرة اما ان يكون حاصلة فى المستقبل او فى الحال او فى الماضى وههنا دقيقة عقلية وهى ان المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضى فان الشئ الذى لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلا فاذا وجد يصير حاضرا فاذا عدم وفنى بعد ذلك يصير ماضيا وايضا المستقبل فى كل ساعة يصير اقرب حصولا والماضى فى كل حالة ابعد حصولا ولهذا قال الشاعر

فلازال ما تهواه اقرب من غد * ولازال ما تخشاه أبعد من امس

واذا ثبت هذا فالمضار التى يتوقع حصولها فى المستقبل اولى بالدفع من المضار الماضية وايضا الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة فى المستقبل والغم عبارة من تألم القلب بسبب فوت نفع كان موجودا فى الماضى واذا كان كذلك فدفع الخوف اولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى اخبر عن الملائكة انهم فى اول الامر يخبرون بأنه لاخوف عليكم ما تستقبلونه من احوال القيامة ثم يخبرون بانه لاحزن عليكم بسبب مافاتكم من احوال الدنيا وعند حصول هذين الامرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون فان قيل البشارة عبارة من الخبر الاول بحصول المنافع فاما اذا اخبر الرجل بحصول منفعة ثم اخبر ثانيا بحصولها كان الاخبار الثانى اخبارا ولايكون بشارة والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب ان يكون هذا اخبارا ولايكون بشارة فما السبب فى تسمية هذا الخبر بالبشارة قلنا المؤمن يسمع ان من كان مؤمنا تقيا كان له الجنة اما من لم يسمع البتة انه من اهل الجنة فاذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا اخبارا بنفع عظيم مع انه هو الخبر الاول بذلك فكان ذلك بشارة * واعلم ان هذا الكلام يدل على ان المؤمن عند الموت وفى القبر وعند البعث لايكون فازعا من الاهوال ومن الفزع الشديد بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لان قوله ان لا تخافوا ولاتحزنوا يفيد نفى الخوف والحزن على الاطلاق ثم انه تعالى أخبر عن الملائكة انهم قالوا للمؤمنين نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا والآخرة

كتب لكم الامن من كل غم فلن تذوقوه ابدا وان مامفسرة او مخففة من الثقيلة والاصل بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشأن وقرئ لاتخافوا اى يقولون لاتخافوا على انه حال من الملائكة واستئناف (وابشروا) اى سروا (بالجنة التى كنتم توعدون) فى الدنيا على ألسنة الرسل هذا من بشاراتهم فى احد المواطن الثلاثة وقوله تعالى (نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا) الخ من بشاراتهم فى الدنيا اى اعوانكم فى اموركم نلهمكم الحق ونرشدكم الى مافيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من ان ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام (وفى الآخرة) نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم مايقع من التعادى والخصام (ولكم فيها) اى فى الآخرة (ماتشتهى انفسكم) من فنون الطيبات (ولكم فيها ما تدعون) ماتتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب اى تدعون لانفسكم وهو اعم من الاول ولكم فى الموضعين خبر ومامبتدأ وفيها حال من ضميره فى الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ماتدعون على تشتهى للاشباع فى البشارة والايذان باستقلال كل

(وهذا)

وهذا فى مقابلة ماذكره فى وعيد الكفار حيث قال وقيضنالهم قرناء ومعنى كونهم اولياء للمؤمنين ان للملائكة تأثيرات فى الارواح البشرية بالالهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية كما ان للشياطين تأثيرات فى الارواح بالقاء الوساوس فيها وتخييل الاباطيل اليها وبالجملة فكون الملائكة اولياء للارواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لارباب المكاشفات والمشاهدات فهم يقولون كما ان تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا فهى تكون باقية فى الآخرة فان تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال بل كأنها تصير بعد الموت اقوى وابقى وذلك لان جوهر النفس من جنس الملائكة وهى كالشعلة بالنسبة الى الشمس والقطرة بالنسبة الى البحر والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة كما قال صلى الله عليه وسلم لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات فاذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية فقد زال الغطاء والوطاء فيتصل الاثر بالمؤثر والقطرة بالبحر والشعلة بالشمس فهذا هو المراد من قوله نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم قال ولكم فيها ماتشتهى انفسكم ولكم فيها ماتدعون قال ابن عباس قوله ولكم فيها ماتدعون اى ماتتمنون كقوله تعالى لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون فان قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله ولكم فيها ماتشتهى انفسكم وبين قوله ولكم فيها ماتدعون قلنا الاقرب عندى ان قوله ولكم فيها ماتشتهى انفسكم اشارة الى الجنة الجسمانية وقوله ولكم فيها ماتدعون اشارة الى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ثم قال نزلا من غفور رحيم والنزل رزق النزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال قال العارفون دلت هذه الآية على ان كل هذه الاشياء المذكورة جارية مجرى النزل والكريم اذا اعطى النزل فلابد وان يبعث الخلع النفيسة بعدها وتلك الخلع النفيسة ليست الا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلى والكشف التام نسأل الله تعالى ان يجعلنا لها اهلا بفضله وكرمه انه قريب مجيب * قوله تعالى (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا ان الكلام من اول هذه السورة انما ابتدئ حيث قالوا للرسول قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه ومرادهم ان لانقبل قولك ولا نلتفت الى دليلك ثم ذكروا طريقة اخرى فى السفاهة فقالوا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وانه سبحانه ذكر الاجوبة الشافية والبيانات الكافية فى دفع هذه الشبهات وازالة هذه الضلالات ثم انه سبحانه وتعالى بين ان القوم وان اتوا بهذه الكلمات الفاسدة الا انه يجب عليك تابع المواظبة على التبليغ

منهما (نزلا من غفور رحيم) حال عما تدعون مفيدة لكون ما يتمنونه بالنسبة الى مايعطون من عظائم الاجور كالنزل للضيف (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله) اى الى توحيده تعالى وطاعته • عن ابن عباس رضى الله عنهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى الاسلام وعنه انهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى المؤذنين والحق ان حكمها عام لكل من جمع مافيها من الخصال الحميدة وان نزلت فيمن ذكر (وعمل صالحا) فيمابينه وبين ربه (وقال اننى من المسلمين) ابتهاجا بأنه منهم او اتخاذا للاسلام دينا ونحلة من قولهم هذا قول فلان اى مذهبه لانه تكلم بذلك وقرئ انى بنون واحدة (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الاعمال الجارية بين العباد اثر بيان محاسن الاعمال الجارية بين العبد وبين الرب عز وجل ترغيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على اذية المشركين ومقابلة اساءتهم بالاحسان اى لاتستوى الخصلة الحسنة والسيئة فى الآثار والاحكام ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفى وقوله تعالى (ادفع بالتى هى احسن) الخ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة اى ادفع السيئة حيث اعترضتك

والدعوة فان الدعوة الى الدين الحق اكمل الطاعات ورأس العبادات وعبر عن هذا المعنى فقال ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين فهذا وجه شريف حسن فى نظم آيات هذه السورة وفيه وجه آخر وهو ان مراتب السعادات اثنان التام وفوق التام اما التام فهو ان يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا فى ذاته فاذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو التام اذا عرفت هذا فنقول ان قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اشارة الى المرتبة الاولى وهى اكتساب الاحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها فاذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال الى المرتبة الثانية وهى الاشتغال بتكميل الناقص وذلك انما يكون بدعوة الخلق الى الدين وهو المراد من قوله ومن احسن قولا ممن دعا الى الله فهذا ايضا وجه حسن فى نظم هذه الآيات واعلم ان من آتاه الله قريحة قوية ونصابا وافيا من العلوم الالهية الكشفية عرف انه لا ترتيب احسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن (المسئلة الثانية) من الناس من قال المراد من قوله ومن احسن قولا ممن دعا الى الله هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم من قال هم المؤذنون ولكن الحق المقطوع به ان كل من دعا الى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه وللدعوة الى الله مراتب (فالمرتبة الاولى) دعوة الانبياء عليهم السلام ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه (احدها) انهم جمعوا بين الدعوة بالحجة اولا ثم الدعوة بالسيف ثانيا وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين (وثانيها) انهم هم المبتدؤن بهذه الدعوة واما العلماء فانهم يبنون دعوتهم على دعوة الانبياء والشارع فى احداث الامر الشريف على طريق الابتداء (وثالثها) ان نفوسهم اقوى قوة وارواحهم اصفى جوهرا فكانت تأثيراتها فى احياء القلوب الميتة واشراق الارواح الكدرة اكمل فكانت دعوتهم افضل (ورابعها) ان النفوس على ثلاثة اقسام ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين (فالقسم الاول) العوام (والقسم الثانى) هم الاولياء (والقسم الثالث) هم الانبياء ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم علماء امتى كأنبياء بنى اسرائيل واذا عرفت هذا فنقول ان نفوس الانبياء حصلت لها مرتبتان الكمال فى الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على الدعوة اقوى وكانت درجاتهم افضل واكمل اذا عرفت هذا فنقول الانبياء عليهم السلام لهم صفتان العلم والقدرة اما العلماء فهم ثواب الانبياء فى العلم واما الملوك فهم ثواب الانبياء فى القدرة والعلم يوجب الاستيلاء على الارواح والقدرة توجب الاستيلاء على الاجساد فالعلماء خلفاء الانبياء فى عالم الارواح والملوك خلفاء الانبياء فى عالم الاجساد واذا عرفت هذا ظهر ان اكمل الدرجات فى الدعوة الى الله بعد الانبياء درجة العلماء ثم العلماء على ثلاثة اقسام العلماء بالله والعلماء بصفات الله والعلماء بأحكام الله اما العلماء بالله فهم الحكماء الذين قال الله تعالى فى حقهم يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت

من بعض اعاديك بالتى هى احسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالاحسان الى من اساء فانه احسن من العفو واخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف اصنع للمبالغة ولذلك وضع احسن موضع الحسنة وقوله تعالى (فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) بيان لنتيجة الدفع المأمور به اى فاذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولى الشفيق (وما يلقاها) اى يلقى هذه الخصلة والسجية التى هى مقابلة الاساءة بالاحسان (الا الذين صبروا) اى شأنهم الصبر (وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة وقيل هو الثواب قيل نزلت فى ابى سفيان بن حرب وكان مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار وليا مصافيا (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس شبه به وسوسة الشيطان لانها بعث على الشر وجعل نازغا على طريقة جد جده او اريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر اى وان صرفك الشيطان وصيت به من الدفع بالتى هى احسن (فاستعذ بالله) من شره ولا تطعه (انه هو السميع) باستعاذتك (العليم) بنيتك او بصلاحك وفى جعل ترك

(الحكمة)

الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا واما العلماء بصفات الله تعالى فهم اصحاب الاصول واما العلماء باحكام الله فهم الفقهاء ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لانهاية لها فلهذا السبب كان للدعوة الى الله درجات لانهاية لها واما الملوك فهم ايضا يدعون الى دين الله بالسيف وذلك بوجهين اما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار واما بابقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل واما المؤذنون فهم يدخلون فى هذا الباب دخولا ضعيفا اما دخولهم فيه فلان ذكر كلمات الاذان دعوة الى الصلاة فكان ذلك داخلا تحت الدعاء الى الله واما كون هذه المرتبة ضعيفة فلان الظاهر من حال المؤذن انه لايحيط بمعانى تلك الكلمات وبتقدير ان يكون محيطا بها الا انه لايريد بذكرها تلك المعانى الشريفة فهذا هو الكلام فى مراتب الدعوة الى الله (المسئلة الثالثة) قوله ومن احسن قولا ممن دعا الى الله يدل على ان الدعوة الى الله احسن من كل ماسواها اذا عرفت هذا نقول كل ما كان احسن الاعمال وجب ان يكون واجبا لان كل مالا يكون واجبا فالواجب احسن منه فثبت ان كل ما كان احسن الاعمال فهو واجب اذا عرفت هذا فنقول الدعوة الى الله أحسن الاعمال بمقتضى هذه الآية وكل ما كان احسن الاعمال فهو واجب فينتج ان الدعوة الى الله واجبة ثم نقول الأذان دعوة الى الله والدعوة اليه واجبة فينتج الاذان واجب واعلم ان الاكثرين من الفقهاء زعموا ان الاذان غير واجب وزعموا ان الاذان غير داخل فى هذه الآية والدليل القاطع عليه ان الدعوة المرادة بهذه الآية يجب ان تكون احسن الاقوال وثبت ان الاذان ليس احسن الاقوال لان الدعوة الى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية احسن من الاذان ينتج من الشكل الثانى ان الداخل تحت هذه الآية ليس هو الاذان (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى ان الاولى ان يقول الرجل انا مسلم او الاولى ان يقول انا مسلم ان شاء الله فالقائلون بالقول الاول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فان التقدير ومن احسن قولا ممن قال انى من المسلمين فحكم بان هذا القول احسن الاقوال ولو كان قولنا ان شاء الله معتبرا فى كونه احسن الاقوال لبطل مادل عليه ظاهر هذه الآية (المسئلة الخامسة) الآية تدل على ان احسن الاقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة (اولها) الدعوة الى الله (وثانيها) العمل الصالح (وثالثها) ان يكون من المسلمين اما الدعوة الى الله فقد شرحناها وهى عبارة عن الدعوة الى الله باقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية واما قوله وعمل صالحا فاعلم ان العمل الصالح اما ان يكون عمل القلب وهو المعرفة او عمل الجوارح وهو سائر الطاعات واما قوله وقال اننى من المسلمين فهو ان ينضم الى عمل القلب وعمل الجوارح الاقرار باللسان فيكون هذا الرجل موصوفا بخصال اربعة (احدها) الاقرار باللسان (والثانى) الاعمال الصالحة بالجوارح (والثالث) الاعتقاد الحق بالقلب (والرابع) الاشتغال باقامة الحجة على دين الله ولاشك ان الموصوف

بهذه الخصال الاربعة اشرف الناس وافضلهم وكمال الدرجة فى هذه المراتب الاربعة ليس الا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة واعلم انا بينا ان الكلام من اول السورة ابتدئ من ان الله حكى عنهم انهم قالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه فأظهروا من انفسهم الاصرار الشديد على اديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ثم انه تعالى اطنب فى الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة واردفها بالوعد والوعيد ثم حكى عنهم شبهة اخرى وهى قولهم لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه واجاب عنها ايضا بالوجوه الكثيرة ثم انه تعالى بعد الاطناب فى الجواب عن تلك الشبهات رغب محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فى ان لا يترك الدعوة الى الله فابتدأ اولا بأن قال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة الى درجة اخرى وهى ان الدعوة الى الله من اعظم الدرجات فصار الكلام من اول السورة الى هذا الموضع واقعا على احسن وجوه الترتيب ثم كأن سائلا سأل فقال ان الدعوة الى الله وان كانت طاعة عظيمة الا ان الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لاطاقة لنا به فعند هذا ذكر الله مايصلح لان يكون دافعا لهذا الاشكال فقال ولا تستوى الحسنة ولا السيئة والمراد بالحسنة دعوة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى الدين الحق والصبر على جهالة الكفار وترك الانتقام وترك الالتفات اليهم والمراد بالسيئة ماظهروه من الجلافة فى قولهم قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وماذكروه فى قولهم لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فكأنه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة ولا تستوى الحسنة ولا السيئة بمعنى انك اذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجبا للتعظيم فى الدنيا والثواب فى الآخرة وهم بالضد من ذلك فلا ينبغى ان يكون اقدامهم على تلك السيئة مانعا لك من الاشتغال بهذه الحسنة ثم قال ادفع بالتى هى احسن يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو احسن الطرق فانك اذا صبرت على سوء اخلاقهم مرة بعد اخرى ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا اضرارهم بالايذاء والايحاش استحيوا من تلك الاخلاق المذمومة وتركوا تلك الافعال القبيحة ثم قال فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم يعنى اذا قابلت اساءتهم بالاحسان وافعالهم القبيحة بالافعال الحسنة تركوا افعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة الى المحبة ومن البغضة الى المودة ولما ارشد الله تعالى الى هذا الطريق النافع فى الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال وما يلقاها الا الذين صبروا ومايلقاها الاذو حظ عظيم قال الزجاج أى ومايلقى هذه الفعلة الا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ثم قال ومايلقاها الاذو حظ عظيم من الفضائل النفسانية والدرجة العالية فى القوة الروحانية فان الاشتغال بالانتقام والدفع لايحصل الا بعد تأثر النفس وتأثر النفس من الواردات الخارجية لايحصل الا عند ضعف النفس فاما اذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية واذا لم تتأثر منها

لم تصعب ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام فثبت ان هذه السيرة التى شرحناها لا يلقاها الا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ويحتمل ان يكون المراد وما يلقاها الا ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة فعلى هذا الوجه قوله وما يلقاها الا الذين صبروا امدح له بفعل الصبر وقوله وما يلقاها الا ذو حظ عظيم وعد بأعظم الحظ من الثواب ولما ذكر هذا الطريق الحسن الكامل فى دفع الغضب والانتقام وفى ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقا آخر عظيم النفع ايضا فى هذا الباب فقال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة فى آخر سورة الاعراف على الاستقصاء قال صاحب الكشاف النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه بعثه على ما لا ينبغى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو اريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر وبالجملة فالمقصود من الآية وان صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتى هى احسن فاستعذ بالله من شره وامض على شأنك ولا تطعه والله أعلم * قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحيى الموتى انه على كل شئ قدير) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ان احسن الاعمال والاقوال هو الدعوة الى الله تعالى اردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته تنبيها على ان الدعوة الى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات فكان العلم بهذه اللطائف احسن علوم القرآن وقد عرفت ان الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هى العالم بجميع ما فيه من الاجزاء والابعاض فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهى الليل والنهار وانما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيها على ان الظلمة عدم والنور وجود والعدم سابق على الوجود فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الاشياء واما دلالة الشمس والقمر والافلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع فقد شرحناها فى هذا الكتاب مرارا لا سيما فى تفسير قوله الحمد لله رب العالمين وفى تفسير قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض ولما بين ان الشمس والقمر محدثان وهما دليلان على وجود الاله القادر قال لا تسجدوا للشمس ولا للقمر يعنى انهما عبدان دليلان على وجود الاله والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهى لا تليق الا بمن كان اشرف الموجودات فقال لا تسجدوا للشمس ولا للقمر لانهما عبدان مخلوقان واسجدوا لله الخالق القادر الحكيم والضمير فى قوله خلقهن لليل والنهار والشمس والقمر لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى او الاناث يقال للاقلام بريتها وبريتهن ولما قال ومن آياته كن فى معنى الاناث فقال خلقهن وانما قال ان كنتم اياه تعبدون لان ناسا كانوا يسجدون للشمس والقمر

الدفع بالاحسن من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه (ومن آياته) الدالة على شؤنه العظيمة (الليل والنهار والشمس والقمر) كل منهما مخلوق من مخلوقاته مسخر لامره (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) لانهما من جملة مخلوقاته المسخرة لاوامره مثلكم (واسجدوا لله الذى خلقهن) الضمير للاربعة لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى او الاناث او لانها عبارة عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان مخلوقية الشمس والقمر للايذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية بنظمهما فى المخلوقية فى سلك الاعراض التى لا قيام لها بذاتها وهو السر فى نظم الكل فى سلك آياته تعالى (ان كنتم اياه تعبدون) فان السجود اقصى مراتب العبادة فلابد من تخصيصه به سبحانه وهو موضع السجود عند الشافعى رحمه الله وعندنا آخر الآية الاخرى لانه تمام المعنى (فان استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) اى دائما (وهم لا يسأمون) لا يفترون ولا يملون وقرئ لا يسامون بكسر الياء (ومن آياته انك ترى الارض خاشعة) يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل (فاذا أنزلنا عليها الماء) اى المطر (اهتزت)

كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ويزعمون انهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وامروا ان لا يسجدوا الا لله الذى خلق هذه الاشياء فان قيل اذا كان لا بد فى الصلاة من قبلة معينة فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك اولى قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالى الدرجة فلو اذن الشرع فى جعلها قبلة فى الصلوات فعند اعتياد السجود الى جانب الشمس ربما غلب الاوهام على ان ذلك السجود للشمس لا لله فلاجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود بخلاف الحجر المعين فانه ليس فيه مايوهم الالهية فكان المقصود من القبلة حاصلا والمحذور المذكور زائلا فكان هذا أولى واعلم ان مذهب الشافعى رضى الله عنه ان موضع السجود هو قوله تعبدون لاجل ان قوله واسجدوا لله متصل به وعند أبى حنيفة هو قوله وهم لا يسأمون لان الكلام انما يتم عنده ثم انه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون وفيه سؤالات (السؤال الاول) ان الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن اقل واذل من ان يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى ولكنا عبيد للشمس والقمر وهما عبدان لله واذا كان قول هؤلاء هكذا فكيف يليق ان يقال انهم استكبروا عن السجود لله (والجواب) ليس المراد من لفظ الاستكبار ماذكرتم بل المراد فان استكبروا عن قبول قولك يامحمد فى النهى عن السجود للشمس والقمر (السؤال الثانى) ان المشبهة تمسكوا بقوله فالذين عند ربك فى اثبات المكان والجهة لله تعالى والجواب انه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ولا يراد به قرب المكان فكذا ههنا ويدل عليه قوله انا عند ظن عبدى بى وانا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ويقال عند الشافعى رضى الله عنه ان المسلم لا يقتل بالذمى (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على ان الملك افضل من البشر الجواب نعم لانه انما يستدل بحال الاعلى على حال الادون فيقال هؤلاء الاقوام ان استكبروا عن طاعة فلان فالاكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه فثبت أن هذا النوع من الاستدلال انما يحسن بحال الاعلى على حال الادون (السؤال الرابع) قال ههنا فى صفة الملائكة يسبحون له بالليل والنهار فهذا يدل على انهم مواظبون على التسبيح لا ينفكون عنه لحظة واحدة واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الاعمال ككونهم ينزلون الى الارض كما قال نزل به الروح الامين على قلبك وقال ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد (والجواب) ان الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح اقوام معينون من الملائكة وهم الاشراف الاكابر منهم لانه تعالى وصفهم بكونهم عنده والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة وهذا لا ينافى كون طائفة اخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الاعمال فان قالوا هب ان الامر كذلك الا انهم لا بد وان يتنفسوا فاشتغالهم بذلك التنفس

وربت) اى تحركت بالنبات وانتفخت لان النبت اذا دنا ان يظهر ارتفعت له الارض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل تزخرفت بالنبات وقرئ ربأت اى ارتفعت (ان الذى احياها) بما ذكر بعد موتها (لمحيى الموتى) بالبعث (انه على كل شئ) من الاشياء التى من جملتها الاحياء (قدير) مبالغ فى القدرة

(يصدهم)

يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح قلنا كان التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة الى البشر فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم فى حياتهم ولا يجب على العاقل المنصف ان يقيس احوال الملائكة فى صفاء جوهرها واشراق ذواتها واستغراقها فى معارج معارف الله بأحوال البشر فان بين الحالتين بعد المشرقين ثم قال تعالى ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة واعلم انه تعالى لما ذكر الآيات الاربع الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر اتبعها بذكر آية ارضية فقال ومن آياته انك ترى الارض خاشعة والخشوع التذلل والتصاغر واستعير هذا اللفظ لحال الارض حال خلوها عن المطر والنبات فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت اى تحركت بالنبات وربت انتفخت لان النبت اذا قرب ان يظهر ارتفعت له الارض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات ثم قال ان الذى احياها لمحيي الموتى يعنى ان القادر على احياء الأرض بعد موتها هو القادر على احياء هذه الاجساد بعد موتها وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مرارا لا حصر لها ثم قال انه على كل شئ قدير وهذا هو الدليل الاصلى وتقريره ان عودة التأليف والتركيب الى تلك الاجزاء المتفرقة ممكن لذاته وعود الحياة والعقل والقدرة الى تلك الاجزاء بعد اجتماعها ايضا امر ممكن لذاته والله تعالى قادر على الممكنات فوجب ان يكون قادرا على اعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم الى تلك الاجزاء وهذا يدل دلالة واضحة على ان حشر الاجساد ممكن لا امتناع فيه البتة والله اعلم ※ قوله تعالى (ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم انه بما تعملون بصير ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) اعلم انه تعالى لما بين ان الدعوة الى دين الله تعالى اعظم المناصب واشرف المراتب ثم بين ان الدعوة الى دين الله تعالى انما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة عاد الى تهديد من ينازع فى تلك الآيات ويحاول القاء الشبهات فيها فقال ان الذين يلحدون فى آياتنا يقال الحد الحافر ولحد اذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق فالملحد هو المنحرف ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق الى الباطل وقوله لا يخفون علينا تهديد كما اذا قال الملك المهيب ان الذين ينازعوننى فى ملكى اعرفهم فانه يكون ذلك تهديدا ثم قال أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة وهذا استفهام بمعنى التقرير والغرض التنبيه على ان الذين يلحدون فى آياتنا يلقون فى النار والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة ثم قال اعملوا ماشئتم انه بما تعملون بصير وهذا ايضا تهديد ثالث ونظيره مايقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد اذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم اعملوا ماشئتم فان هذا مما يدل على الوعيد الشديد ثم قال تعالى ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وهذا أيضا تهديد وفى جوابه وجهان (احدهما) انه محذوف كسائر الاجوبة المحذوفة فى القرآن على تقرير ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يجازون

(ان الذين يلحدون) يميلون عن الاستقامة وقرئ يلحدون (فى آياتنا) بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل الباطلة (لا يخفون علينا) فنجازيهم بالحادهم وقوله تعالى (افمن يلقى فى النار خير امن يأتى آمنا يوم القيامة) تنبيه على كيفية الجزاء (اعملوا ماشئتم) من الاعمال المؤدية الى ماذكر من الالقاء فى النار والاتيان آمنا وفيه تهديد شديد (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم بحسب اعمالكم وقوله تعالى (ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) بدل من قوله تعالى ان الذين يلحدون الخ وخبر ان هو الخبر السابق وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال الكسائى سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى (وانه لكتاب عزيز) اى كثير المنافع عديم النظير او منيع لا تتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به وقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) اى لا يتطرق اليه الباطل من جهة من الجهات صفة اخرى لكتاب وقوله تعالى (تنزيل من حكيم حميد) خبر لمبتدأ محذوف او صفة اخرى لكتاب مفيدة لفخامته الاضافية كما ان الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية وقوله تعالى لا يأتيه الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن وقوله تعالى (ما يقال لك) الخ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من اذية الكفار اى ما يقال فى شأنك وشأن ما أنزل اليك من القرآن من جهة كفار قومك (الا ما قد قيل للرسل من قبلك) اى الا مثل ما قد قيل فى حقهم مما لا خير فيه (ان ربك لذو مغفرة) لانبيائه (وذو عقاب اليم) لاعدائهم وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم (٤٨)(ر١)(سا) من اعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك او باعدائك ايضا (ولو

بكفرهم أو ماشبه ذلك (والثانى) ان جوابه قوله اولئك ينادون من مكان بعيد والاول اصوب ولما بالغ فى تهديد الذين يلحدون فى آيات القرآن اتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال وانه لكتاب عزيز والعزيز له معنيان (احدهما) الغالب القاهر (والثانى) الذى لايوجد نظيره اما كون القرآن عزيزا بمعنى كونه غالبا فالامر كذلك لانه بقوة حجته غلب على كل ماسواه واما كونه عزيزا بمعنى عديم النظير فالامر كذلك لان الاولين والآخرين عجزوا عن معارضته ثم قال لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفيه وجوه (الاول) لاتكذبه الكتب المتقدمة عليه كالتوراة والانجيل والزبور ولايجيء كتاب من بعده يكذبه (الثانى) ماحكم القرآن بكونه حقا لايصير باطلا وماحكم بكونه باطلا لايصير حقا (الثالث) معناه انه محفوظ من ان ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه اويزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه والدليل عليه قوله وانا له لحافظون فعلى هذا الباطل هو الزيادة والنقصان (الرابع) يحتمل ان يكون المراد انه لايوجد فى المستقبل كتاب يمكن جعله معارضا له ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضا له (الخامس) قال صاحب الكشاف هذا تمثيل والمقصود ان الباطل لايتطرق اليه ولايجد اليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل اليه واعلم ان لابى مسلم الاصفهانى ان يحتج بهذه الآية على انه لم يوجد النسخ فيه لان النسخ ابطال فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وانه على خلاف هذه الآية ثم قال تعالى تنزيل من حكيم حميد اى حكيم فى جميع احواله وأفعاله حميد الى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه ولهذا السبب جعل الحمد لله رب العالمين فاتحة كلامه واخبر ان خاتمة كلام اهل الجنة هو قوله الحمد لله رب العالمين ❊ قوله تعالى (مايقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وماربك بظلام للعبيد) واعلم انه تعالى لما هدد الملحدين فى آيات الله ثم بين شرف آيات الله وعلو درجة كتاب الله رجع الى امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على اذى قومه وان لايضيق قلبه بسبب ماحكاه عنهم فى اول السورة من انهم قالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه الى قوله فاعمل اننا عاملون فقال مايقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك وفيه وجهان (الاول) وهو الاقرب ان المراد ماتقول لك كفار قومك الا مثل ماقد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة ان ربك لذو مغفرة للمحقين وذو عقاب أليم للمبطلين ففوض هذا الامر الى الله واشتغل بما امرت به وهو التبليغ والدعوة الى الله تعالى (الثانى) ان يكون المراد ماقال الله لك الا مثل ماقال لسائر الرسل وهو انه تعالى امرك وامر كل الانبياء بالصبر على سفاهة الاقوام فمن حقه ان يرجوه اهل

وقوله تعالى (أأعجمى وعربى) انكار مقرر للتحضيض والاعجمى يقال لكلام لايفهم وللمتكلم به والياء للمبالغة فى الوصف كأحمرى والمعنى أكلام اعجمى ورسول اومرسل اليه عربى على ان الافراد مع كون المرسل اليهم أمة جمة لما ان المراد بيان التنافى والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لابيان كون المخاطب واحدا اوجمعا وقرئ اعجمى اى اكلام منسوب الى أمة العجم وقرئ اعجمى على الاخبار بأن القرآن اعجمى والمتكلم والمخاطب عربى ويجوز ان يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها اعجميا لافهام العجم وبعضها عربيا لافهام العرب وايا ما كان فالمقصود بيان ان آيات الله تعالى على اى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به (قل هو للذين آمنوا هدى) يهديهم الى الحق (وشفاء) لما فى الصدور من شك وشبهة (والذين لايؤمنون) مبتدأ خبره (فى آذانهم وقر) على ان التقدير هو اى القرآن فى آذانهم وقر على ان وقر خبر للضمير المقدر وفى آذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر وهو اوفق لقوله تعالى (وهو عليهم عمى) وقيل خبر الموصول فى آذانهم ووقر فاعل الظرف وقيل وقر مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر ومن جوز العطف على عاملين عطف الموصول على الموصول الاول أى هو للاولين هدى وشفاء وللآخرين وقر فى آذانهم (اولئك) اشارة الى الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وملاحظة ماأثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد

طاعته ويخافه اهل معصيته وقد ظهر من كلامنا فى تفسير هذه السورة ان المقصود من هذه السورة هو ذكر الاجوبة عن قولهم وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه وامتد الكلام الى هذا الموضع من اول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل ثم انه تعالى ذكر جوابا آخر عن قولهم وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر فقال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وابوبكر عن عاصم أأعجمى بهمزتين على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة ومدة على اصلهم فى امثاله كقوله أأنذرتهم ونحوها على الاستفهام وروى عن ابن عباس بهمزة واحدة على الخبر واما القراءة بهمزتين فالهمزة الاولى همزة انكار والمراد انكروا وقالوا قرآن أعجمى ورسول عربى او مرسل اليه عربى واما القراءة بغير همزة الاستفهام فالمراد الاخبار بأن القرآن أعجمى والمرسل اليه عربى (المسئلة الثانية) نقلوا فى سبب نزول هذه الآية ان الكفار لاجل التعنت قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية وعندى ان امثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن لانه يقتضى ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض وانه يوجب اعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابا منتظما فضلا عن ادعاء كونه معجزا بل الحق عندى ان هذه السورة من اولها الى آخرها كلام واحد على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر وهذا الكلام ايضا متعلق به وجواب له والتقدير انا لو انزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم ان يقولوا كيف ارسلت الكلام العجمى الى القوم العرب ويصح لهم ان يقولوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه اى من هذا الكلام وفى آذاننا وقر منه لانا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه اما لما انزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبالفاظهم وانتم من اهل هذه اللغة فكيف يمكنكم ادعاء ان قلوبكم فى اكنة منها وفى آذانكم وقر منها فظهر انا اذا جعلنا هذا الكلام جوابا عن ذلك الكلام بقيت السورة من اولها الى آخرها على احسن وجوه النظم اما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جدا ثم قال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد واعلم ان هذا متعلق بقولهم وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه الى آخر الآية كأنه تعالى يقول ان هذا الكلام ارسلته اليكم بلغتكم لا بلغة اجنبية عنكم فلا يمكنكم ان تقولوا ان قلوبنا فى اكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة فبقى ان يقال ان كل من آتاه الله طبعا مائلا الى الحق وقلبا مائلا الى الصدق وهمة تدعوه الى بذل الجهد فى طلب الدين فان هذا القرآن يكون فى حقه هدى وشفاء اما كونه هدى فلأنه دليل على الخيرات ويرشد الى كل السعادات واما كونه شفاء فانه اذا امكنه

اى اولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها (ينادون من مكان بعيد) تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الاصوات (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) كلام مستأنف مسوق لبيان ان الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للامم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك اى وبالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك فى شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر (ولولا كلمة سبقت من ربك) فى حق امتك المكذبة وهى العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة الى يوم القيامة بنحو قوله تعالى بل الساعة موعدهم وقوله تعالى ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى (لقضى بينهم) باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبى الامم السالفة (وانهم) اى كفار قومك (لفى شك منه مريب) اى من القرآن وجعل الضمير الاول لليهود والثانى للتوراة مما لا وجه له (من عمل صالحا) بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها (فلنفسه) اى فلنفسه يعمله او فنفعه لنفسه لا لغيره (ومن اساء فعليها) ضرره لا على غيره (وما ربك بظلام للعبيد) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله مبنى على تنزيل ترك اثابة المحسن بعمله او اثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير اساءة او باساءة غيره منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه سبحانه وتعالى وقد مر ما فى المقام من التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الانفال (اليه يرد علم الساعة) اى اذا سئل عنها يقال الله يعلم او لا يعلمها الا الله تعالى (وما تخرج من ثمرات من اكمامها) اى من اوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرئ

الاهتداء فقد حصل الهدى فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل واما من كان
غرقا فى بحر الخذلان وتائها فى مفاوز الحرمان ومشغوفا بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن
فى آذانه وقرا كما قال وفى آذاننا وقر وكان القرآن عليهم عمى كما قال ومن بيننا وبينك حجاب
فأولئك ينادون من مكان بعيد بسبب ذلك الحجاب الذى حال بين الانتفاع ببيان القرآن
وكل من انصف ولم يتعسف علم انا اذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذى ذكرناه صارت
هذه السورة من اولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد فيكون
هذا التفسير أولى مما ذكروه وقرأ الجمهور وهو عليهم عمى على المصدر وقرأ ابن عباس عم
على النعت قال ابو عبيد والاول هو الوجه كقوله هدى وشفاء وكذلك عمى هو مصدر مثلها
ولو كان المذكور انه هاد وشاف لكان الكسر فى عمى اجود فيكون نعتا مثلهما وقوله تعالى
اولئك ينادون من مكان بعيد قال ابن عباس يريد مثل البهيمة التى لا تفهم الادعاء ونداء
وقيل من دعى من مكان بعيد لم يسمع وان سمع لم يفهم فكذا حال هؤلاء ثم قال تعالى ولقد
آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه واقول ايضا ان هذا متعلق بما قبله كأنه قيل انا لما
آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه فقبله بعضهم ورده الآخرون فكذلك آتيناك هذا
الكتاب فقبله بعضهم وهم اصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا فى أكنة
مما تدعونا اليه ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك يعنى فى تأخير العذاب عنهم الى اجل
مسمى وهو يوم القيامة كما قال بل الساعة موعدهم لقضى بينهم يعنى المصدق والمكذب
بالعذاب الواقع بمن كذب وانهم لفى شك من صدقك وكتابك مريب فلا ينبغى ان تستعظم
استيحاشك من قولهم قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه ثم قال من عمل صالحا فلنفسه ومن
أساء فعليها يعنى خفف على نفسك اعراضهم فانهم ان آمنوا فنفع ايمانهم يعود عليهم وان
كفروا فضرر كفرهم يعود اليهم والله سبحانه يوصل الى كل احد ما يليق بعمله من الجزاء
وما ربك بظلام للعبيد ❊ قوله تعالى (اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرة من اكمامها
وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه ويوم يناديهم اين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد
وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص لا يسأم الانسان من دعاء الخير
وان مسه الشر فيؤس قنوط ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى
وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما
عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ واذا أنعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه
الشر فذو دعاء عريض قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى
شقاق بعيد سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك
انه على كل شئ شهيد الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شئ محيط) اعلم انه تعالى لما
هدد الكفار فى الآية المتقدمة بقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومعناه ان
جزاء كل احد يصل اليه فى يوم القيامة وكأن سائلا قال ومتى يكون ذلك اليوم فقال تعالى انه

من ثمرة على ارادة الجنس والجمع لاختلاف الانواع وقد قرئ بجمع الضمير ايضا وما نافية ومن الاولى مزيدة للاستغراق واحتمال
ان تكون ما موصولة معطوفة
على الساعة ومن مبينة بعيد
(وتحمل من انثى ولا تضع) اى
حملها وقوله تعالى (الا بعلمه)
استثناء مفرغ من اعم الاحوال
اى وما يحدث شئ من خروج
ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع
واضع ملابسا بشئ من الاشياء
الا ملابسا بعلمه المحيط (ويوم
يناديهم اين شركائى) اى بزعمكم
كما نص عليه فى قوله تعالى اين
شركائى الذين زعمتم وفيه تهكم
بهم وتقريع لهم ويوم منصوب
باذكر او ظرف لمضمر مؤخر
قد ترك ايذانا بقصور البيان عنه
كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله
الرسل (قالوا آذناك) اى
اخبرناك (ما منا من شهيد) من
احد يشهد لهم بالشركة اذ تبرأنا
منهم لما عاينا الحال وما منا احد
الا وهو موحد لك او ما منا من احد
يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم
حينئذ وقيل قول الشركاء اى
ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا
محقين وقولهم آذناك اما لان
هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ
آخر مجاب بهذا الجواب اولان
معناه انك علمت من قلوبنا وعقائدنا
الآن انا لا نشهد تلك الشهادة
الباطلة لانه اذا علمه من نفوسهم
فكأنهم اعلموه اولان معناه
الانشاء لا الاخبار بايذان قد
كان قبل ذلك (وضل عنهم ما كانوا
يدعون) اى يعبدون (من قبل)
اى غابوا عنهم اوظهر عدم
نفعهم فكأن حضورهم كغيبتهم
(وظنوا) اى ايقنوا (ما لهم من
محيص) مهرب والظن معلق عنه
بحرف النفى (لا يسأم الانسان) اى
لا يمل ولا يفتر (من دعاء الخير)
من طلب السعة فى النعمة واسباب
المعيشة وقرئ من دعاء بالخير
(وان مسه الشر) اى العسر والضيقة (فيؤس قنوط) فيه مبالغة من جهة البناء ومن جهة التكرير ومن جهة ان القنوط عبارة عن يأس مفرط (لاسبيل)

لاسبيل للخلق الى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه الا الله فقال اليه يرد علم الساعة وهذه الكلمة تفيد الحصر اى لا يعلم وقت الساعة بعينه الا الله وكما ان هذا العلم ليس الا عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى اوقاتها المعينة ليس الا عند الله سبحانه وتعالى ثم ذكر من امثلة هذا الباب مثالين (احدهما) قوله وما تخرج من ثمرة من اكمامها (والثانى) قوله وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه قال ابو عبيدة اكمامها اوعيتها وهى ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكمة قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم من ثمرات بالالف على الجمع والباقون من ثمرة بغير الف على الواحد واعلم ان نظير هذه الآية قوله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث الى آخر الآية فان قيل أليس ان المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم احوالا كثيرة من احوال العالم وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس اشياء من احوالهم وههنا شئ آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الاصابة وايضا علم التعبير بالاتفاق قد يدل على احوال المغيبات فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية قلنا ان اصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم فى شئ من المطالب البتة وانما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور فى هذه الآية ان علمها ليس الا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة والله اعلم ثم انه تعالى لما ذكر القيامة اردفه بشئ من احوال يوم القيامة وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق ايضا بما وقع الابتداء به فى اول السورة وذلك لان اول السورة يدل على ان شدة نفورهم عن استماع القرآن انما حصلت من اجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم الى التوحيد والى البراءة عن الاصنام والاوثان بدليل انه قال فى اول السورة قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فذكر فى خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والانداد فقال ويوم يناديهم فيقول اين شركائى اى بحسب زعمكم واعتقادكم قالوا آذناك قال ابن عباس اسمعناك كقوله تعالى واذنت لربها وحقت بمعنى سمعت وقال الكلبى اعلمناك وهذا بعيد لان اهل القيامة يعلمون الله ويعلمون انه يعلم الاشياء علما واجبا فالاعلام فى حقه محال ثم قال ما منا من شهيد وفيه وجوه (الاول) ليس احد منا يشهد بأن لك شريكا فالمقصود انهم فى ذلك اليوم تبرؤن من اثبات الشريك لله تعالى (الثانى) ما منا من احد يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ (الثالث) ان قوله ما منا من شهيد كلام الاصنام فان الله يحييها ثم انها تقول ما منا من احد يشهد بصحة ما اضافوا الينا من الشركة وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالهم عنهم انها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم ثم قال وظنوا ما لهم من محيص وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول ان الكفار ظنوا اولا ثم ايقنوا انه لا محيص لهم عن النار والعذاب ومنهم من قال انهم ظنوا اولا انه لا محيص لهم عن النار ثم ايقنوا ذلك بعده وهذا بعيد لان اهل النار يعلمون ان عقابهم دائم ولما بين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار انهم بعد ان كانوا مصرين على

يظهر اثره فى الشخص فيتضاءل وينكسر اى مبالغ فى قطع الرجاء من فضل الله تعالى ورحمته وهذا وصف للجنس بوصف غالب افراده لما ان اليأس من رحمته تعالى لا يتأتى الا من الكافر وسيصرح به (ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) بتفريجها عنه (ليقولن هذا لى) اى حق استحقه لما لى من الفضل والعمل اولى لا لغيرى فلا يزول عنى ابدا (وما أظن الساعة قائمة) اى تقوم فيما سيأتى (ولئن رجعت الى ربى) على تقدير قيامها (ان لى عنده للحسنى) اى للحالة الحسنى من الكرامة وذلك لاعتقاده ان ما اصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وان نعم الآخرة كذلك (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) اى لنعلمنهم بحقيقة اعمالهم حين اظهرناها بصورها الحقيقية وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق وفى قوله تعالى انما بغيكم على انفسكم من سورة يونس (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه (واذا انعمنا على الانسان اعرض) اى عن الشكر (ونأى بجانبه) اى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبرا وتعظما والجانب مجاز عن النفس كما فى قوله تعالى فى جنب الله ويجوز ان يراد به عطفه ويكون عبارة عن الانحراف

القول باثبات الشركاء والاضداد لله فى الدنيا تبرؤا عن تلك الشركاء فى الآخرة بين ان الانسان فى جميع الاوقات متبدل الاحوال متغير المنهج فان احس بخير وقدرة انتفخ وتعظم وان احس ببلاء ومحنة ذبل كما قيل فى المثل ان هذا كالقرلى ان خيرا تدلى وان رأى شرا تولى فقال لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط يعنى انه فى حال الاقبال ومجىء المرادات لا ينتهى قط الى درجة الا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها وفى حال الادبار والحرمان يصير آيسا قانطا فالانتقال من ذلك الرجا الذى لا آخر له الى هذا اليأس الكلى يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال وفى قوله يؤس قنوط مبالغة من وجهين (احدهما) من طريق بناء فعول (والثانى) من طريق التكرير واليأس من صفة القلب والقنوط ان يظهر آثار اليأس فى الوجه والاحوال الظاهرة ثم بين تعالى ان هذا الذى صار آيسا قانطا لو عاودته النعمة والدولة وهو المراد من قوله ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته فان هذا الرجل يأتى بثلاثة انواع من الاقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى (فأولها) انه لابد وان يقول هذا لى وفيه وجهان (الاول) معناه ان هذا حق وصل الى لانى استوجبته بما حصل عندى من انواع الفضائل واعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين ان احدا لا يستحق على الله شيئا وذلك لانه ان كان ذلك الشخص عاريا عن الفضائل فهذا الكلام ظاهر الفساد وان كان موصوفا بشىء من الفضائل والصفات الحميدة فهى بأسرها انما حصلت له بفضل الله واحسانه واذا تفضل الله بشىء على بعض عبيده امتنع ان يصير تفضله عليه بتلك العطية سببا لأن يستحق على الله شيئا آخر فثبت بهذا فساد قوله انما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاق (والوجه الثانى) ان هذا لى اى لا يزول عنى ويبقى على وعلى اولادى وذريتى (والنوع الثانى) من كلماتهم الفاسدة ان يقول وما اظن الساعة قائمة يعنى انه يكون شديد الرغبة فى الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فاذا آل الامر الى احوال الدنيا يقول انها لى واذا آل الامر الى الآخرة يقول وما اظن الساعة قائمة (والنوع الثالث) من كلماتهم الفاسدة ان يقول ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى يعنى ان الغالب على الظن ان القول بالبعث والقيامة باطل وبتقدير ان يكون حقا فان لى عنده للحسنى وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم الى الثواب من وجوه (الاول) ان كلمة ان تفيد التأكيد (الثانى) ان تقديم كلمة لى تدل على هذا التأكيد (الثالث) قوله عنده يدل على ان تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده كما تقول لى عند فلان كذا من الدنانير فان هذا يفيد كونها حاضرة عنده فلو قلت ان لى على فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك (الرابع) اللام فى قوله للحسنى تفيد التأكيد (الخامس) للحسنى يفيد الكمال فى الحسنى ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الاقوال الثلاثة الفاسدة قال فلننبئن الذين كفروا بما عملوا اى نظهر لهم ان الامر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه

(هباء)

والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) اى كثير مستعار مما له عرض متسع للاشعار بكثرته واستمراره وهو ابلغ من الطويل اذ الطول اطول الامتدادين فاذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ولعل هذا شأن بعض غير البعض الذى حكى عنه اليأس والقنوط او شأن الكل فى بعض الاوقات (قل أرأيتم) أى أخبرونى (ان كان) اى القرآن (من عند الله ثم كفرتم به) مع تعاضد موجبات الايمان به (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) اى من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم (سنريهم آياتنا) الدالة على حقيته وكونه من عند الله (فى الآفاق) هو ما اخبرهم به النبى صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة (وفى انفسهم) هو ما ظهر فيما بين اهل مكة وما حل بهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآفاق اى منازل الامم الخالية وآثارهم وفى انفسهم يوم بدر وقال مجاهد والحسن والسدى فى الآفاق

هباء منثورا ولنذيقنهم من عذاب غليظ في مقابلة قولهم ان لي عنده للحسنى ولما حكى الله تعالى اقوال الذي انعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى افعاله ايضا فقال واذا انعمنا على الانسان اعرض عن التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ونأى بجانبه اي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ثم مسه الضر والفقر اقبل على دوام الدعاء واخذ في الابتهال والتضرع وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الاجرام ويستعار له الطول ايضا كما استعير الغلظ لشدة العذاب واعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين ان المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة ويظهرون من انفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم وبين ان الانسان جبل على التبدل فان وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظم وان احس بالفتور والضعف بالغ في اظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاما آخر يوجب على هؤلاء الكفار لا يبالغوا في اظهار النفرة من قبول التوحيد وان لا يفرطوا في اظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو في شقاق بعيد وتقرير هذا الكلام انكم كلما سمعتم هذا القرآن اعرضتم عنه وما تأملتم فيه وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ثم من المعلوم بالضرورة انه ليس العلم بكون القرآن باطلا علما بديهيا وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علما بديهيا فقبل الدليل يحتمل ان يكون صحيحا وان يكون فاسدا فبتقدير ان يكون صحيحا كان اصراركم على دفعه من اعظم موجبات العقاب فهذا الطريق يوجب عليكم ان تتركوا هذه النفرة وان ترجعوا الى النظر والاستدلال فان دل الدليل على صحته قبلتموه وان دل على فساده تركتموه فأما قبل الدليل فالاصرار على الدفع والاعراض بعيد عن العقل وقوله ممن هو في شقاق بعيد موضوع منكم بيانا لحالهم وصفاتهم ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة واجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين قال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق قال الواحدي واحد الآفاق افق وهو الناحية من نواحي الارض وكذلك آفاق السماء نواحيها واطرافها وفي تفسير قوله سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم قولان (الاول) ان المراد بآيات الآفاق والآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الاضواء والاضلال والظلمات وآيات عالم العناصر الاربعة وآيات المواليد الثلاثة وقد اكثر الله منها في القرآن وقوله وفي انفسهم المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الاجنة في ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كما قال تعالى وفي انفسكم أفلا تبصرون يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد اخرى الى ان تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الاله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد فان قيل هذا الوجه ضعيف لان قوله تعالى سنريهم يقتضي انه تعالى ما اطلعهم على تلك الآيات الى

ما يفتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام والمسلمين وفي انفسهم فتح مكة وقيل في الآفاق اي في اقطار السموات والارض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والاضواء والضلال والظلمات ومن النبات والاشجار والانهار وفي انفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة في تكوين الاجنة في ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفي انفسكم أفلا تبصرون واعتذر بأن معنى السين مع ان اراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك انه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما (حتى يتبين لهم) بذلك (انه الحق) اي القرآن او الاسلام والتوحيد (أولم يكف بربك) استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم في شأن القرآن وعنادهم المحوج الى اراءة الآيات وعدم اكتفائهم باخباره تعالى والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اي الم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة للتأكيد ولا تكاد تزاد الا مع كفى وقوله تعالى (انه على كل شيء شهيد) بدل منه اي الم يغنهم عن اراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم في

الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك والآيات الموجودة فى العالم الاعلى والاسفل قد كان الله اطلعهم عليها قبل ذلك فثبت انه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه قلنا ان القوم وان كانوا قد رأوا هذه الاشياء الا ان العجائب التى اودعها الله تعالى فى هذه الاشياء مما لا نهاية لها فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانا فزمانا ومثاله كل احد رأى بعينه بنية الانسان وشاهدها الا ان العجائب التى ابدعها الله فى تركيب هذا البدن كثيرة واكثر الناس لا يعرفونها والذى وقف على شئ منها فكلما ازداد تفكرا ازداد وقوفا على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم (والقول الثانى) ان المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات انفسهم فتح مكة والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الاول لاجل ان قوله سنريهم يليق بهذا الوجه ولا يليق بالاول الا انا اجبنا عنه بأن قوله سنريهم لائق بالوجه الاول كما قررناه فان قيل حمل الآية على هذا الوجه بعيد لان اقصى ما فى الباب ان محمدا صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيط بمكة ثم استولى على مكة الا ان الاستيلاء بعض البلاد لا يدل على كون المستولى محقا فانا نرى ان الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الاسلام وعلى ملوكهم وذلك لا يدل على كونهم محقين قلنا ولهذا السبب قلنا نحمل الآية على الوجه الاول اولى ثم نقول ان اردنا تصحيح هذا الوجه قلنا انا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقا فى ادعاء النبوة بل نستدل به من حيث انه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبر عن مكة انه يستولى عليها ويقهر اهلها ويصير اصحابه قاهرين للاعداء فهذا اخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقا لخبره فيكون هذا اخبارا صدقا عن الغيب والاخبار عن الغيب معجزة فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقا ثم قال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد وقوله بربك فى موضع الرفع على انه فاعل يكف وانه على كل شئ شهيد بدل منه وتقديره اولم يكفهم ان ربك على كل شئ شهيد ومعنى كونه تعالى شهيدا على الاشياء خلق الدلائل عليها وقد استقصينا ذلك فى تفسير قوله قل اى شئ أكبر شهادة قل الله والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى اوضحها الله تعالى وقررها فى هذه السورة وفى كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة والمعاد ثم ختم السورة بقوله ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم اى ان القوم فى شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة وقرئ فى مرية بالضم ثم قال ألا انه بكل شئ محيط اى عالم بجميع المعلومات التى لا نهاية لها فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ويجازى كل احد على فعله بحسب ما يليق به ان خيرا فخير وان شرا فشر فان قيل قوله ألا انه بكل شئ محيط يقتضى ان تكون علومه متناهية قلنا قوله بكل شئ محيط يقتضى ان يكون علمه محيطا بكل شئ من الاشياء فهذا يقتضى كون كل واحد منها متناهيا لا كون مجموعها متناهيا والله اعلم بالصواب تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذى

ذلك انه تعالى شهيد على جميع الاشياء وقد اخبر بانه من عنده وقيل معناه ان هذا الموعود من اظهار آيات الله فى الآفاق وفى انفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك ان القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شئ شهيد اى مطلع يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على انه حق وانه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة فتأمل واما ما قيل من ان المعنى أولم يكفك انه تعالى على كل شئ شهيد محقق له فيحقق امرك باظهار الآيات الموعودة فمع اشعاره بما لا يليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود يرده قوله تعالى (ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم) اى فى شك عظيم من ذلك بالبعث والجزاء فانه صريح فى ان عدم الكفاية معتبر بالنسبة اليهم وقرئ مرية بالضم وهو لغة فيها (ألا انه بكل شئ محيط) عالم بجميع الاشياء جملها وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لا محالة * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السجدة اعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات والله اعلم

الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم

❊(سورة شورى خمسون وثلاث آيات مكية)❊

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم عسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم له ما فى السموات وما فى الارض وهو العلى العظيم تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه اولياء الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل) اعلم ان الكلام فى امثال هذه الفواتح معلوم الان فى هذا الموضع سؤالان زائدان (الاول) ان يقال ان هذه السور السبعة مصدرة بقوله حم فما السبب فى اختصاص هذه السورة بمزيد عسق (الثانى) انهم اجمعوا على انه لا يفصل بين كهيعص وههنا يفصل بين حم وبين عسق فما السبب فيه واعلم ان الكلام فى امثال هذه الفواتح يضيق وفتح باب المجازفات مما لا سبيل اليه فالاولى ان يفوض علمها الى الله وقرأ ابن عباس وابن مسعود حم سق اما قوله تعالى كذلك يوحى اليك فالكاف معناه المثل وذا للاشارة الى شئ سبق ذكره فيكون المعنى مثل حم عسق يوحى اليك والى الذين من قبلك وعند هذا حصل قولان (الاول) نقل عن ابن عباس رضى الله عنه انه قال لانبى صاحب كتاب الا وقد اوحى اليه حم عسق وهذا عندى بعيد (والثانى) ان يكون المعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى الله اليك والى الذين من قبلك وهذه المماثلة المراد منها المماثلة فى الدعوة الى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح احوال الدنيا والترغيب فى التوجه الى الآخرة والذى يؤكد هذا انا بينا فى تفسير سورة سبح اسم ربك الأعلى ان أولها فى تقرير التوحيد واوسطها فى تقرير النبوة وآخرها فى تقرير المعاد ولما تم الكلام فى تقرير هذه المطالب الثلاثة قال ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى يعنى ان المقصود من انزال جميع الكتب الالهية ليس الا هذه المطالب الثلاثة فكذلك ههنا يعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى الله اليك والى كل من قبلك من الانبياء والمراد بهذه المماثلة الدعوة الى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الالهية قال صاحب الكشاف ولم يقل أوحى اليك ولكن قال يوحى اليك على لفظ المضارع ليدل على ان ايحاء مثله عادته وقرأ ابن كثير كذلك يوحى بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وهى احدى الروايتين عن ابى عمرو وعن بعضهم نوحى بالنون وقرأ الباقون يوحى اليك والى الذين من قبلك بكسر الحاء فان قيل فعلى القراءة الاولى ما رافع اسم الله تعالى قلنا ما دل عليه يوحى كأن قائلا قال من الموحى فقيل الله ونظيره قراءة السلمى وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم فان قيل فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون قلنا يرتفع بالابتداء والعزيز وما بعده اخبار

(سورة حم عسق وتسمى)
(الشورى مكية وهى ثلاث)
(وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم عسق) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين وقيل اسم واحد والفصل ليناسب سائر الحواميم وقرئ حم سق فعلى الاول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل حم مبتدأ وعسق خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد وقوله تعالى (كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) كلام مستأنف وارد لتحقيق ان مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة فى الدعوة الى التوحيد والارشاد الى الحق اوان ايحاءها مثل ايحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها والكاف فى حيز النصب على انه مفعول ليوحى على الاول وعلى انه نعت لمصدر مؤكد له على الثانى وذلك على الاول اشارة الى ما فيها وعلى الثانى الى ايحائها وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل اى مثل ما فى هذه السورة من المعانى اوحى اليك فى سائر السور والى من قبلك من الرسل فى كتبهم على ان مناط المماثلة ما اشير اليه من الدعوة الى التوحيد والارشاد الى الحق وما فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد او مثل ايحائها اوحى اليك عند ايحاء سائر السور والى سائر الرسل عند ايحاء كتبهم اليهم لا ايحاء مغايرا له كما فى قوله تعالى انا اوحينا اليك كما اوحينا

او العزيز الحكيم صفتان و الظرف خبره ولماذكران هذا الكتاب حصل بالوحى بين ان الموحى من هو فقال انه هو العزيز الحكيم وقد بينا فى اول سورة حم المؤمن ان كونه عزيزا يدل على كونه قادرا على مالانهاية له وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات فيحصل لنا من كونه عزيزا حكيما كونه قادرا على جميع المقدورات عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات ومن كان كذلك كانت افعاله واقواله حكمة وصوابا وكانت مبرأة عن العيب و العبث قال مصنف الكتاب قلت فى قصيدة

الحمد لله ذى الآلاء والنعم * والفضل والجود والاحسان والكرم

منزه الفعل عن عيب وعن عبث * مقدس الملك عن عزل وعن عدم

(الصفة الثالثة) قوله له مافى السموات و مافى الارض وهذا يدل على مطلوبين فى غاية الجلال (احدهما) كونه موصوفا بقدرة كاملة نافذة فى جميع اجزاء السموات والارض على عظمتها وسعتها بالايجاد والاعدام والتكوين والابطال (والثانى) انه لما بين بقوله له مافى السموات و مافى الارض ان كل مافى السموات و مافى الارض فهو ملكه وملكه وجب ان يكون منزها عن كونه حاصلا فى السموات وفى الارض و الالزم كونه ملكا لنفسه واذا ثبت انه ليس فى شئ من السموات امتنع كونه ايضا فى العرش لان كل ماسماك فهو سماء فاذا كان العرش موجودا فوق السموات كان فى الحقيقة سماء فوجب ان يكون كل ماكان حاصلا فى العرش ملكا لله وملكا له فوجب ان يكون منزها عن كونه حاصلا فى العرش وان قالوا انه تعالى قال له مافى السموات وكلمة ما لا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) ان لفظة ما واردة فى حق الله تعالى قال تعالى والسماء ومابناها والارض وماطحاها وقال لااعبد ماتعبدون ولاانتم عابدون مااعبد (والثانى) ان صيغة من وردت فى مثل هذه السورة قال تعالى ان كل من فى السموات والارض الاآتى الرحمن عبدا وكلمة من لاشك انها واردة فى حق الله تعالى فدلت هذه الآية على ان كل من فى السموات والارض فهو عبد لله فلو كان الله موجودا فى السموات والارض وفى العرش لكان هو من جملة من فى السموات فوجب ان يكون عبدا لله ولما ثبت بهذه الآية ان كل من كان موجودا فى السموات و العرش فهو عبد لله وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية ان يكون منزها عن الكون فى المكان والجهة والعرش والكرسى (الصفة الرابعة والخامسة) قوله تعالى وهو العلى العظيم ولا يجوز ان يكون المراد بكونه عليا العلو فى الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده ولا يجوز ان يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم لان ذلك يقتضى كونه مؤلفا من الاجزاء والابعاض وذلك ضد قوله الله احد فوجب ان يكون المراد من العلى المتعالى عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر

(بالاستعلاء)

الى نوح الآية على ان مدار المثلية كونه بواسطة الملك و صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للايذان باستمرار الوحى وان ايحاء مثله عادته وفى جعل مضمون السورة اوايحائها مشبها به من تفخيمها مالا يخفى وكذا فى وصفه تعالى بوصفى العزة والحكمة وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع مافيه من التشويق وقرئ يوحى على البناء للمفعول على ان كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند الى ضميره اومصدر ويوحى مسند الى اليك والله مرتفع بما دل عليه يوحى كأنه قيل من يوحى فقيل الله والعزيز الحكيم صفتان له اومبتدأ كما فى قراءة نوحى والعزيز ومابعده خبران له اوالعزيز الحكيم صفتان له و قوله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض وهو العلى العظيم) خبران له وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرر لعزته وحكمته (تكاد السموات) وقرئ بالياء (يتفطرن) يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل من دعاء الولد له كما فى سورة مريم وقرئ ينفطرن والاول ابلغ لانه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر وقرئ تتفطرن بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر (من فوقهن) اى يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الاول لماان اعظم الآيات وادلها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى الثانى للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الاولى لان تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الارض حيث اثرت فى جهة الفوق فلأن تؤثر

بالاستعلاء وكمال الالهية ثم قال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابو عمرو وعاصم فى رواية ابى بكر تكاد بالتاء ينفطرن بالياء والنون وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة تكاد بالتاء يتفطرن بالياء والتاء وقرأ نافع والكسائى يكاد بالياء يتفطرن ايضا بالياء قال صاحب الكشاف وروى يونس عن ابى عمرو قراءة غريبة تتفطرن بالتائين مع النون ونظيرها حرف نادر روى فى نوادر ابن الاعرابى الابل تتشمس (المسئلة الثانية) فى فائدة قوله من فوقهن وجوه (الاول) روى عكرمة عن ابن عباس انه قال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن قال والمعنى انها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها واعلم ان هذا القول سخيف ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ويدل على فساده وجوه (الاول) ان قوله من فوقهن لا يفهم منه من فوقهن (وثانيها) هب انه يحمل على ذلك لكن لم قلتم ان هذه الحالة انما حصلت من ثقل الله عليها ولم لا يجوز ان يقال ان هذه الحالة انما حصلت من ثقل الملائكة عليها كما جاء فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال أطت السماء وحق لها ان تئط ما فيها موضع شبر الا وفيه ملك قائم او راكع او ساجد (وثالثها) لم لا يجوز ان يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالالهية والقهر والقدرة فثبت بهذه الوجوه ان القول الذى ذكروه فى غاية الفساد والركاكة (الوجه الثانى) فى تأويل الآية ما ذكره صاحب الكشاف وهو ان كلمة الكفر انما جاءت من الذين تحت السموات وكان القياس ان يقال ينفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ فى ذلك فقلب فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل يكدن ينفطرن من الجهة التى فوقهن ودع الجهة التى تحتهن ونظيره فى المبالغة قوله تعالى يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود فجعل مؤثرا فى اجزائهم الباطنة (الوجه الثالث) فى تأويل الآية ان يقال من فوقهن اى من فوق الارضين لانه تعالى قال قبل هذه الآية له ما فى السموات وما فى الارض ثم قال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن اى من فوق الارضين (الوجه الرابع) فى التأويل ان يقال معنى من فوقهن اى من الجهة التى حصلت هذه السموات فيها وتلك الجهة هى فوق فقوله من فوقهن اى من الجهة الفوقانية التى هن فيها (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان هذه الهيئة لم حصلت وفيه قولان (الاول) انه تعالى لما بين ان الموحى لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم بين وصف جلاله وكبريائه فقال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن اى من هيبته وجلالته (والقول الثانى) ان السبب فيه اثباتهم الولد لله لقوله تكاد السموات ينفطرن منه وههنا السبب فيه اثباتهم الشركاء لله لقوله بعد هذه الآية والذين اتخذوا من دونه اولياء والصحيح هو الاول ثم قال والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض واعلم ان مخلوقات الله تعالى نوعان عالم الجسمانيات واعظمها السموات وعالم الروحانيات واعظمها الملائكة والله تعالى يقرر كمال عظمته

فى جهة التحت اولى وقيل الضمير للارض فانها فى معنى الارضين (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده (ويستغفرون لمن فى الارض) بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والالهام وترتيب الاسباب المقربة الى الطاعة واستدعاء تأخيرا لعقوبة طمعا فى ايمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد وحيث خص بالمؤمنين كما فى قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا فالمراد به الشفاعة (الا ان الله هو الغفور الرحيم) اذ ما من مخارق الاوله حظ عظيم من رحمته تعالى والآية على الاول زيادة تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال تقدسه عما نسب اليه وان ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز الى انه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة (والذين اتخذوا من دونه اولياء) شركاء وانداداً (الله حفيظ عليهم) رقيب على احوالهم واعمالهم فيجازيهم بها (وما انت عليهم بوكيل) بموكل بهم او بموكول اليك امرهم وانما وظيفتك الانذار (وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا) ذلك اشارة الى مصدر اوحينا ومحل الكاف النصب على المصدرية وقرآنا عربيا مفعول لأوحينا اى ومثل ذلك الايحاء البديع البين المفهم اوحينا اليك قرآنا عربيا لا لبس

لاجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات والدليل عليه انه تعالى قال في سورة عم يتساءلون لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات فقال رب السموات والارض ومابينهما الرحمن لايملكون منه خطابا ثم انتقل الى ذكر عالم الروحانيات فقال يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون الامن اذن له الرحمن وقال صوابا فكذلك القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات فقال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ثم انتقل الى ذكر الروحانيات فقال والملائكة يسبحون بحمد ربهم فهذا ترتيب شريف وبيان باهر واعلم ان الموجودات على ثلاثة اقسام مؤثر لايقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو اشرف الاقسام ومتأثر لايؤثر وهو القابل وهو الجسم وهو اخس الاقسام وموجود يقبل الاثر من القسم الاول ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيات المقدسة وهو المرتبة المتوسطة اذا عرفت هذا فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان تعلق بعالم الجلال والكبرياء وهو تعلق القبول فان الجلايا القدسية والاضواء الصمدانية اذا اشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها واشرقت ماهياتها ثم ان الجواهر الروحانية اذا استفادت تلك القوى الروحانية قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات واذا كان كذلك فلها وجهان وجه الى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ووجه الى عالم الاجسام والوجه الاول اشرف من الثاني اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى يسبحون بحمد ربهم اشارة الى الوجه الذي لهم الى عالم الجلال والكبرياء وقوله ويستغفرون لمن في الارض اشارة الى الوجه الذي لهم الى عالم الاجسام فما احسن هذه اللطائف وما اشرفها وما اشد تأثيرها في جذب الارواح من حضيض الخلق الى اوج معرفة الحق اذا عرفت هذا فنقول اما الجهة الاولى وهي الجهة العلوية المقدسة فقد اشتملت على امرين احدهما التسبيح وثانيهما التحميد لان قوله يسبحون بحمد ربهم يفيد هذين الامرين والتسبيح مقدم على التحميد لان التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لاينبغي والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضا لكل الخيرات وكونه منزها في ذاته عما لاينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضا للخيرات والسعادات لان وجود الشيء مقدم على ايجاد غيره وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره فلهذا السبب كان التسبيح مقدما على التحميد ولهذا قال يسبحون بحمد ربهم واما الجهة الثانية وهي الجهة التي لتلك الارواح الى عالم الجسمانيات فالاشارة اليها بقوله ويستغفرون لمن في الارض والمراد منه تأثيراتها في نظم احوال هذا العالم وحصول الطريق الاصوب الاصلح فيها فهذه ملامح من المباحث العالية الالهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة ولنرجع الى مايليق بعلم التفسير فان قيل كيف يصح ان يستغفروا لمن في الارض وفيهم الكفار وقد قال تعالى اولئك عليهم لعنة الله والملائكة فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان قوله لمن

(في)

فيه عليك ولا على قومك وقيل اشارة الى معنى الآية المتقدمة من انه تعالى هو الحفيظ عليهم وانما انت نذير فحسب فالكاف مفعول به لأوحينا وقرآنا عربيا حال من المفعول به اي أوحيناه اليك وهو قرآن عربي بين (لتنذر أم القرى) أي اهلها وهي مكة (ومن حولها) من العرب (وتنذر يوم الجمع) اي يوم القيامة لانه يجمع فيه الخلائق قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل تجمع فيه الارواح والاشباح وقيل الاعمال والعمال والانذار يتعدى الى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثاني مفعولي الاول واول مفعولي الثاني للتهويل وايهام التعميم وقرئ لينذر بالياء على ان فاعله ضمير القرآن (لاريب فيه) اعتراض مقرر لما قبله (فريق في الجنة وفريق في السعير) اي بعد جمعهم في الموقف فانهم يجمعون فيه اولا ثم يفرقون بعد الحساب والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه وقرئا منصوبين على الحالية منهم اي وتنذر يوم جمعهم متفرقين اي مشارفين للتفرق او متفرقين في داري الثواب والعقاب (ولو شاء الله لجعلهم) أي في الدنيا (أمة واحدة) قيل مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما اجمله ابن عباس رضي الله عنهما في قوله على دين واحد فمعنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء في رحمته) أنه تعالى يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب في ان مشيئته

فى الارض لايفيد العموم لانه يصح ان يقال انهم استغفروا لكل من فى الارض وان يقال انهم استغفروا لبعض من فى الارض دون البعض ولو كان قوله لمن فى الارض صريحا فى العموم لماصح ذلك التقسيم (الثانى) هب ان هذا النص يفيد العموم الا انه تعالى حكى عن الملائكة فى سورة حم المؤمن فقال ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك (الثالث) يجوز ان يكون المراد من الاستغفار ان لايعاجلهم بالعقاب كما فى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا الى ان قال انه كان حليما غفورا (الرابع) يجوز ان يقال انهم يستغفرون لكل من فى الارض امافى حق الكفار فبواسطة طلب الايمان لهم واما فى حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيآتهم فانا نقول اللهم اهد الكفار وزين قلوبهم بنور الايمان وازل عن خواطرهم وحشة الكفر وهذا فى الحقيقة استغفار واعلم ان قوله ويستغفرون لمن فى الارض يدل على انهم لايستغفرون لانفسهم ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لانفسهم قبل استغفارهم لمن فى الارض وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لانفسهم علمنا انهم مبرؤن عن كل الذنوب والانبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذى لاذنب له البتة افضل ممن له ذنب وايضا فقوله ويستغفرون لمن فى الارض يدل على انهم يستغفرون للانبياء لان الانبياء من جملة من فى الارض واذا كانوا مستغفرين للانبياء عليهم السلام كان الظاهر انهم افضل منهم ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال الا ان الله هو الغفور الرحيم والمقصود التنبيه على ان الملائكة وان كانوا يستغفرون للبشر الا ان المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه من وجوه (الاول) ان اقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى انما كان لان الله تعالى خلق فى قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ولولا ان الله تعالى خلق فى قلوبهم تلك الدواعى والا لما اقدموا على ذلك الطلب واذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى (الثانى) ان الملائكة قالوا فى اول الامر اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ثم فى آخر الامر صاروا يستغفرون لمن فى الارض واما رحمة الحق واحسانه فقد كان موجودا فى الاول والآخر فثبت ان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى (الثالث) انه تعالى حكى عنهم انهم يستغفرون لمن فى الارض ولم يحك عنهم انهم يطلبون الرحمة لمن فى الارض فقال الا ان الله هو الغفور الرحيم يعنى انه يعطى المغفرة التى طلبوها ويضم اليها الرحمة الكاملة التامة ثم قال تعالى والذين اتخذوا من دونه اولياء اى جعلوا له شركاء واندادا الله حفيظ عليهم اى رقيب على احوالهم واعمالهم لايفوته منها شئ وهو محاسبهم عليها لارقيب عليهم الا هو وحده وما انت يا محمد بمفوض اليك امرهم ولا قسرهم على الايمان انما انت منذر فحسب ❊ قوله تعالى (وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر ام القرى

تعالى لكل من الادخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما فلم يشأ جعل الكل امة واحدة بل جعلهم فريقين وانما قيل (والظالمون مالهم من ولى ولا نصير) للايذان بأن الادخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لامن جهته تعالى كما فى الادخال فى الرحمة لانا قبل من المبالغة فى الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ماقاله مقاتل على دين الاسلام كما فى قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها والمعنى ولو شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الايمان ولكنه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى امرهم على مايختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى يدخل من يشاء وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير وانت خبير بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بادخال بعضهم فى رحمته اذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره باخراج بعضهم من بينهم وادخالهم فى عذابه فالذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسباقه ان يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين الآية على احد الوجهين بأن يراد بهم الذين هم فى فترة ادريس اوفى فترة نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة متفقة على الكفر بأن لايرسل اليهم رسولا لينذرهم

ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولا نصير ام اتخذوا من دونه اولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه انيب فاطر السموات والارض جعل لكم من انفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شئ عليم) اعلم ان كلمة ذلك للاشارة الى شئ سبق ذكره فقوله وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا يقتضى تشبيه وحى الله بالقرآن بشئ ههنا قد سبق ذكره وليس ههنا شئ سبق ذكره يمكن تشبيه وحى القرآن به الا قوله والذين اتخذوا من دونه اولياء الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل يعنى كما اوحينا اليك انك لست حفيظا عليهم ولست وكيلا عليهم فكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتكون نذيرا لهم وقوله تعالى لتنذر ام القرى اى لتنذر اهل ام القرى لان البلد لا تعقل وهو كقوله واسئل القرية وام القرى اصل القرى وهى مكة وسميت بهذا الاسم اجلالا لها لان فيها البيت ومقام ابراهيم والعرب تسمى اصل كل شئ امه حتى يقال هذه القصيدة من امهات قصائد فلان ومن حولها من اهل البدو والحضر واهل المدر والانذار التخويف فان قيل فظاهر اللفظ يقتضى ان الله تعالى انما اوحى اليه لينذر اهل مكة واهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضى ان يكون رسولا اليهم فقط وان لا يكون رسولا الى كل العالمين (والجواب) ان التخصيص بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما سواه فهذه الآية تدل على كونه رسولا الى هؤلاء خاصة وقوله وما ارسلناك الا كافة للناس يدل على كونه رسولا الى كل العالمين وايضا لما ثبت كونه رسولا الى اهل مكة وجب كونه صادقا ثم انه نقل الينا بالتواتر انه كان يدعى انه رسول الى كل العالمين والصادق اذا اخبر عن شئ وجب تصديقه فيه فثبت انه رسول الى كل العالمين ثم قال تعالى وتنذر يوم الجمع الاصل ان يقال انذرت فلانا بكذا فكان الواجب ان يقال لتنذر ام القرى بيوم الجمع وايضا فيه اضمار والتقدير لتنذر اهل ام القرى بعذاب يوم الجمع وفى تسميته بيوم الجمع وجوه (الاول) ان الخلائق يجمعون فيه قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع فيجتمع فيه اهل السموات مع اهل الارض (الثانى) انه يجمع بين الارواح والاجساد (الثالث) يجمع بين كل عامل وعمله (الرابع) يجمع بين الظالم والمظلوم وقوله لاريب فيه صفة ليوم الجمع اى يوم الجمع الذى لاريب فيه وقوله فريق فى الجنة وفريق فى السعير تقديره ليوم الجمع الذى من صفته يكون القوم فيه فريقين فريق فى الجنة وفريق فى السعير فان قيل قوله يوم الجمع يقتضى كون القوم مجتمعين وقوله فريق فى الجنة وفريق فى السعير يقتضى كونهم متفرقين والجمع بين الصفتين محال قلنا انهم يجتمعون اولا ثم يصيرون فريقين

(ثم)

ماذكر من يوم الجمع ومافيه من الوان الاهوال فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته اى شأنه ذلك فيرسل الى الكل من ينذرهم ماذكر فيتأثر بعضهم بالانذار فيصرفون اختيارهم الى الحق فيوفقهم الله للايمان والطاعة ويدخلهم فى رحمته ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا على ماهم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة الى السعير من غير ولى يلى امرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب (أم اتخذوا من دونه اولياء) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء ان يكون للظالمين ولى او نصير وام منقطعة ومافيها من بل للانتقال من بيان ماقبلها الى بيان مابعدها والهمزة لانكار الوقوع ونفيه على ابلغ وجه وآكده لا للانكار الواقع واستقباحه كما قيل اذ المراد بيان ان مافعلوا ليس من اتخاذ الاولياء فى شئ لان ذلك فرع كون الاصنام اولياء وهو اظهر الممتنعات اى بل اتخذوا متجاوزين الله اولياء من الاصنام وغيرها هيهات وقوله تعالى (فالله هو الولى) جواب شرط محذوف كأنه قيل بعد ابطال ولاية ما اتخذوه اولياء ان ارادوا وليا فى الحقيقة فالله هو الولى لاولى سواه (وهو يحيي الموتى) اى ومن شأنه ذلك (وهو على كل شئ قدير) فهو الحقيق بان يتخذ وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شئ (وما اختلفتم فيه من شئ) حكاية لقول

ثم قال ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة والمراد تقرير قوله والذين اتخذوا من دونه اولياء الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل اى لايكون فى قدرتك ان تحملهم على الايمان فلو شاء الله ذلك لفعله لانه اقدر منك لكنه جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا فقوله يدخل من يشاء فى رحمته يدل على انه تعالى هو الذى ادخلهم فى الايمان والطاعة وقوله والظالمون مالهم من ولى ولانصير يعنى انه تعالى ماادخلهم فى رحمته وهذا يدل على ان الاولين انما دخلوا فى رحمته لانه كان لهم ولى ونصير ادخلهم فى تلك الرحمة وهؤلاء ما كان لهم ولى ولانصير يدخلهم فى رحمته ثم قال تعالى أم اتخذوا من دونه اولياء والمعنى انه تعالى حكى عنهم اولا انهم اتخذوا من دونه اولياء ثم قال بعده لمحمد صلى الله عليه وسلم لست عليهم رقيبا ولا حافظا ولا يجب عليك ان تحملهم على الايمان شاؤا أم ابوا فان هذا المعنى لو كان واجبا لفعله الله لانه اقدر منك ثم انه تعالى اعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار فان قوله ام اتخذوا من دونه اولياء استفهام على سبيل الانكار ثم قال تعالى فالله هو الولى والفاء فى قوله فالله هو الولى جواب شرط مقدر كأنه قال ان ارادوا اولياء بحق فالله هو الولى بالحق لا ولى سواه لانه يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لايقدر على شئ ثم قال وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم انه تعالى كما منع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يحمل الكفار على الايمان قهرا فكذلك منع المؤمنين ان يشرعوا معهم فى الخصومات والمنازعات فقال وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله وهو اثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين وقيل وما اختلفتم فيه من شئ وتنازعتم فتحاكموا فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الامور التى لاتصل بتكليفكم ولا طريق لكم الى علمه كحقيقة الروح فقولوا الله اعلم به قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى (المسئلة الثانية) تقدير الآية كأنه تعالى قال قل يا محمد وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله والدليل عليه قوله تعالى ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه انيب (المسئلة الثالثة) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله اما ان يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه او المراد فحكمه مستفاد من القياس على مانص الله عليه والثانى باطل لانه يقتضى كون كل الاحكام مثبتة بالقياس وانه باطل فيعتبر الاول فوجب كون كل الاحكام مثبتة بالنص وذلك ينفى العمل بالقياس ولقائل ان يقول لم لا يجوز ان يكون المراد فحكمه يعرف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص او بالقياس اجيب عنه بأن المقصود من التحاكم الى الله قطع الاختلاف والرجوع الى القياس يقوى حكم الاختلاف ولا يوضحه فوجب ان يكون الواجب هو الرجوع الى نصوص الله تعالى ثم قال تعالى ذلكم الله ربى اى ذلكم الحاكم بينكم هو ربى عليه توكلت فى دفع كيد

رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين اى وما خالفكم الكفار فيه من امور الدين فاختلفتم انتم وهم (فحكمه) راجع (الى الله) وهو اثابة المحقين وعقاب المبطلين (ذلكم) الحاكم العظيم الشان (الله ربى) مالكى (عليه توكلت) فى مجامع امورى خاصة لا على غيره (واليه انيب) ارجع فى كل مايعن لى من معضلات الامور لا الى احد سواه وحيث كان التوكل امرا واحدا مستمرا والانابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها اوثر فى الاول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم فى شئ من الخصومات فتحاكموا فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه الى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم الى علمه فقولوا الله اعلم كمعرفة الروح ولا مساغ لحمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام (فاطر السموات والارض) خبر آخر لذلكم او خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره (جعل لكم) وقرئ بالجر على انه بدل من الضمير او وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى الى الله وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف (من انفسكم) من جنسكم

الاعداء وفى طلب كل خير واليه انيب اى واليه ارجع فى كل المهمات وقوله عليه توكلت يفيد الحصر اى لااتوكل الا عليه وهو اشارة الى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليا ثم قال فاطر السموات والارض قرئ بالرفع والجر فالرفع على انه خبر ذلكم او خبر مبتدأ محذوف والجر على تقدير ان يكون الكلام هكذا وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله فاطر السموات والارض وقوله ذلكم الله ربى اعتراض وقع بين الصفة والموصوف جعل لكم من انفسكم من جنسكم من الناس ازواجا ومن الانعام ازواجا اى خلق من الانعام ازواجا ومعناه وخلق ايضا للانعام من انفسها ازواجا يذرؤكم يكثركم يقال ذرأ الله الخلق اى كثرهم وقوله فيه اى فى هذا التدبير وهو التزويج وهو ان جعل الناس والانعام ازواجا حتى كان بين ذكورهم واناثهم التوالد والتناسل والضمير فى يذرؤكم يرجع الى المخاطبين الا انه غلب فيه جانب الناس من وجهين (الاول) انه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء (والثانى) انه غلب فيه جانب المخاطبين على الغائبين فان قيل مامعنى يذرؤكم فى هذا التدبير ولم يقل يذرؤكم به قلنا جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير الا ترى انه يقال للحيوان فى خلق الازواج تكثير كما قال تعالى ولكم فى القصاص حياة ثم قال تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وهذه الآية فيها مسائل (المسئلة الاولى) احتج علماء التوحيد قديما وحديثا بهذه الآية فى نفى كونه تعالى جسما مركبا من الاعضاء والاجزاء وحاصلا فى المكان والجهة وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الاجسام فيلزم حصول الامثال والاشباه له وذلك باطل بصريح قوله تعالى ليس كمثله شئ ويمكن ايراد هذه الحجة على وجه آخر فيقال اما ان يكون المراد ليس كمثله شئ فى ماهيات الذات او ان يكون المراد ليس كمثله فى الصفات شئ والثانى باطل لان العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما ان الله تعالى يوصف بذلك وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع ان الله تعالى يوصف بذلك فثبت ان المراد بالمماثلة المساواة فى حقيقة الذات فيكون المعنى ان شيئا من الذوات لايساوى الله تعالى فى الذاتية فلو كان الله تعالى جسما لكان كونه جسما ذاتا لاصفة فاذا كان سائر الاجسام مساوية له فى الجسمية اعنى فى كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة فحينئذ تكون سائر الاجسام مماثلة لذات الله تعالى فى كونه ذاتا والنص ينفى ذلك فوجب ان لايكون جسما واعلم ان محمد بن اسحق بن حزيمة اورد استدلال اصحابنا بهذه الآية فى الكتاب الذى سماه بالتوحيد وهو فى الحقيقة كتاب الشرك واعترض عليها وانا اذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات لانه كان رجلا مضطرب الكلام قليل الفهم ناقص العقل فقال نحن نثبت لله وجها ونقول ان لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء مالو كشف حجابه لاحرقت سبحات وجهه كل شئ ادركه بصره ووجه ربنا منفى عنه الهلاك والفناء ونقول ان لبنى آدم وجوها كتب الله عليها الهلاك والفناء ونفى عنها الجلال والاكرام غير موصوفة بالنور والضياء

(ازواجا) نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قدمر سره غير مرة (ومن الانعام) اى وجعل للانعام من جنسها (ازواجا) او خلق لكم من الانعام اصنافا او ذكورا واناثا (يذرؤكم) يكثركم من الذرء وهو البث وفى معناه الذرو والذر (فيه) اى فيما ذكر من التدبير فان جعل الناس والانعام ازواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير (ليس كمثله شئ) اى ليس مثله شئ فى شأن من الشؤن التى من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كما فى قولهم مثلك لايفعل كذا على قصد المبالغة فى نفيه عنه فانه اذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه اولى ثم سلكت هذه الطريقة فى شان من لامثل له وقيل مثله صفته اى ليس كصفته صفة (وهو السميع البصير) المبالغ فى العلم بكل مايسمع ويبصر (له مقاليد السموات والارض) اى خزائنهما (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته المؤسسة على الحكم البالغة (انه بكل شئ عليم) مبالغ فى الاحاطة به فيفعل كل مايفعل على ماينبغى ان يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى

(والبهاء)

والبهاء ولوكان مجرد اثبات الوجه لله يقتضى التشبيه لكان من قال ان لبنى آدم وجوها وللخنازير والقردة والكلاب وجوها لكان قد شبه وجوه بنى آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب ثم قال ولاشك انه اعتقاد الجهمية لانه لو قيل له وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء فعلمنا انه لايلزم من اثبات الوجه واليدين لله اثبات التشبيه بين الله وبين خلقه وذكر فى فصل آخر من هذا الكتاب ان القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه فى صفات كثيرة ولم يلزم منها ان يكون القائل بها مشبها فكذا ههنا ونحن نعد الصور التى ذكرها على الاستقصاء (فالاول) انه تعالى قال فى هذه الآية وهو السميع البصير وقال فى حق الانسان فجعلناه سميعا بصيرا (الثانى) قال وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وقال فى حق المخلوقين أولم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء (الثالث) قال واصنع الفلك بأعيننا واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وقال فى حق المخلوقين ترى اعينهم تفيض من الدمع (الرابع) قال لابليس مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدى وقال بل يداه مبسوطتان وقال فى حق المخلوقين ذلك بما قدمت ايديكم ذلك بما قدمت يداك ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم (الخامس) قال تعالى الرحمن على العرش استوى وقال فى الذين يركبون الدواب لتستووا على ظهوره وقال فى سفينة نوح واستوت على الجودى (السادس) سمى نفسه عزيزا فقال العزيز الجبار ثم ذكر هذا الاسم فى حق المخلوقين بقوله يأيها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا يأيها العزيز مسنا واهلنا الضر (السابع) سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده ايضا بالملك فقال وقال الملك ائتونى به وسمى نفسه بالعظيم ثم اوقع هذا الاسم على المخلوق فقال رب العرش العظيم وسمى نفسه بالجبار المتكبر واوقع هذا الاسم على المخلوق فقال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ثم طول فى ضرب الامثلة من هذا الجنس وقال ومن وقف على الامثلة التى ذكرناها امكنه الاكثار منها فهذا ماأورده هذا الرجل فى هذا الكتاب واقول هذا المسكين الجاهل انما وقع فى امثال هذه الخرافات لانه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حققوا الكلام فى المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية فنقول المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول المعتبر فى كل شئ اما تمام ماهيته واما جزء من اجزاء ماهيته واما امر خارج عن ماهيته ولكنه يكون من لوازم تلك الماهية واما امر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبنى على الفرق بين ذات الشئ وبين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة فانا نرى الحبة من الحصرم كانت فى غاية الخضرة والحموضة ثم صارت فى غاية السواد والحلاوة فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة وايضا نرى الشعر قد كان فى غاية السواد ثم صار فى غاية البياض فالذات باقية والصفات متبدلة والباقى غير المتبدل فظهر بما ذكرنا

(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى) وايذان بأن ماشرع لهم صادر عن كال العلم والحكمة كما ان بيان نسبته الى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما اجمع عليه الرسل والخطاب لامته عليه الصلاة والسلام اى شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ومن بعده من ارباب الشرائع واولى العزائم من مشاهير الانبياء عليهم الصلاة والسلام وامرهم به امرا مؤكدا على ان تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ولاستمالة قلوب الكفرة اليه لاتفاق الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود فى شأن موسى عليه السلام وتفرد النصارى فى حق عيسى عليه السلام والافما من نبى الا وهو مأمور بما امروا به وهو عبارة عن التوحيد ودين الاسلام ومالايختلف باختلاف الامم وتبدل الاعصار من اصول الشرائع والاحكام كما ينبئ عنه التوصية فانها معربة عن تأكيد الامر والاعتناء بشأن المأمور به والمراد بايحائه اليه عليه الصلاة والسلام اماماذكر فى صدر السورة الكريمة وفى قوله تعالى وكذلك اوحينا الآية او مايعمهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواقع التى من جملتها قوله تعالى ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا

ان الذوات مغايرة للصفات اذا عرفت هذا فنقول اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة لا ترى الجسم الواحد كان ساكنا ثم يصير متحركا ثم يسكن بعد ذلك فالذوات باقية فى الاحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد والصفات متعاقبة متزايلة فثبت بهذا ان اختلاف الصفات والاعراض لا يوجب اختلاف الذوات اذا عرفت هذا فنقول الاجسام التى منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للاجسام التى تألف منها وجه الانسان والفرس وانما حصل الاختلاف بسبب الاعراض القائمة وهى الالوان والاشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها فالاختلاف انما وقع بسبب الاختلاف فى الصفات والاعراض فاما ذوات الاجسام فهى متماثلة الا ان العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات فلاجرم يقولون ان وجه الانسان مخالف لوجه الحمار ولقد صدقوا فانه حصلت تلك المخالفة بسبب الشكل واللون وسائر الصفات فاما الاجسام من حيث انها اجسام فهى متماثلة متساوية فثبت ان الكلام الذى اورده انما ذكره لاجل انه كان من العوام وما كان يعرف ان المعتبر فى التماثل والاختلاف حقائق الاشياء وماهياتها لا الاعراض والصفات القائمة بها بقى ههنا ان يقال فالدليل على ان الاجسام كلها متماثلة فنقول لنا ههنا مقامان (المقام الاول) ان نقول هذه المقدمة اما ان تكون مسلمة او لا تكون مسلمة فان كانت مسلمة فقد حصل المقصود وان كانت ممنوعة فنقول فلم لا يجوز ان يقال اله العالم هو الشمس او القمر او الفلك او العرش او الكرسى ويكون ذلك الجسم مخالفا لماهية سائر الاجسام فكان هو قديما ازليا واجب الوجود وسائر الاجسام محدثة مخلوقة ولو ان الاولين والآخرين اجتمعوا على ان يسقطوا هذا الالزام عن المجسمة لا يقدرون عليه فان قالوا هذا باطل لان القرآن دل على ان الشمس والقمر والافلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لان صحة القرآن وصحة نبوة الانبياء مفرعة على معرفة الاله فاثبات معرفة الاله بالقرآن وقول النبى لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به (والمقام الثانى) ان علماء الاصول اقاموا البرهان القاطع على تماثل الاجسام فى الذوات والحقيقة واذا ثبت هذا ظهر انه لو كان اله العالم جسما لكانت ذاته مساوية لذوات الاجسام الا ان هذا باطل بالعقل والنقل اما العقل فلان ذاته اذا كانت مساوية لذوات سائر الاجسام وجب ان يصح عليه ما يصح على سائر الاجسام فيلزم كونه محدثا مخلوقا قابلا للعدم والفناء قابلا للتفرق والتمزق واما النقل فقوله تعالى ليس كمثله شئ فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر انا لا نقول بانه متى حصل الاستواء فى الصفة لزم حصول الاستواء فى تمام الحقيقة الا انا نقول لما ثبت ان الاجسام متماثلة فى تمام الماهية فلو كانت ذاته جسما لكان ذلك الجسم مساويا لسائر الاجسام متماثلة فى تمام الماهية وحينئذ يلزم ان يكون كل جسم مثلا له لما بينا ان المعتبر فى حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هى هى لا اعتبار الصفات القائمة بها

وقوله تعالى قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد وغير ذلك والتعبير عن ذلك عند نسبته اليه عليه الصلاة والسلام بالذى لزيادة تفخيم شأنه من تلك الحيثية وايثار الايحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة ولما فى الايحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لانكار الكفرة والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الاعتناء بايحائه وهو السر فى تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة الى بيان كون المشروع لهم دينا قديما وتوجيه الخطاب اليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على انه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (ان اقيموا الدين) اى دين الاسلام الذى هو توحيد الله تعالى وطاعته والايمان بكتبه ورسله ويوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل به مؤمنا والمراد باقامته تعديل اركانه وحفظه من ان يقع فيه زيغ او المواظبة عليه والتشمر له ومحل ان اقيموا اما النصب على انه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه او الرفع على انه جواب عن سؤال نشأ من ابهام المشروع كأنه قيل وما ذاك فقيل هو اقامة الدين وقيل بدل من ضميره وليس بذاك لما انه مع

(فظهر)

فظهر بالتقرير الذى ذكرناه ان حجة اهل التوحيد فى غاية القوة وان هذه الكلمات التى اوردها هذا الانسان انما اوردها لانه كان بعيدا عن معرفة الحقائق فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التى ذكرها ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة (المسئلة الثانية) فى ظاهر هذه الآية اشكال فانه يقال المقصود منها نفى المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب اثبات المثل لله فانه يقتضى نفى المثل عن مثله لاعنه وذلك يوجب اثبات المثل لله تعالى واجاب العلماء عنه بان قالوا ان العرب تقول مثلك لايبخل اى انت لاتبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عنه ويقول الرجل هذا الكلام لايقال لمثلى اى لايقال لى قال الشاعر • ومثلى كمثل جذوع النخيل • والمراد منه المبالغة فانه اذا كان ذلك الحكم منتفيا عمن كان مشابها بسبب كونه مشابها له فلأن يكون منتفيا عنه كان ذلك اولى ونظيره قولهم سلام على المجلس العالى والمقصود ان سلام الله اذا كان واقعا على مجلسه وموضعه فلأن يكون واقعا عليه كان ذلك اولى فكذا ههنا قوله تعالى ليس كمثله شئ والمعنى ليس كهو شئ على سبيل المبالغة من الوجه الذى ذكرناه وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطا عديم الاثر بل كان مفيدا للمبالغة من الوجه الذى ذكرناه وزعم جهم ابن صفوان ان المقصود من هذه الآية بيان انه تعالى ليس مسمى باسم الشئ قال لان كل شئ فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقوله ليس كمثله شئ معناه ليس مثل مثله شئ وذلك يقتضى ان لايكون هو مسمى باسم الشئ وعندى فيه طريقة اخرى وهى ان المقصود من ذكر الجمع بين حرفى التشبيه الدليل الدال على كونه منزها عن المثل وتقريره ان يقال لوكان له مثل لكان هو مثل نفسه وهذا محال فاثبات المثل له محال امابيان انه لوكان له مثل لكان هو مثل نفسه فالامر فيه ظاهر وامابيان ان هذا محال فلانه لوكان مثل مثل نفسه لكان مساويا لمثله فى تلك الماهيه ومباينا له فى نفسه ومابه المشاركة غير مابه المباينة فتكون ذات كل واحد منهما مركبا وكل مركب ممكن فثبت انه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو فى نفسه واجب الوجود اذا عرفت هذا فقوله ليس مثل مثله شئ اشارة الى انه لو صدق عليه انه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئا بناء على مابيناه انه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود فهذا مايحتمله اللفظ (المسئلة الثالثة) هذه الآية دالة على نفى المثل وقوله تعالى وله المثل الاعلى يقتضى اثبات المثل فلابد من الفرق بينهما فنقول المثل هو الذى يكون مساويا للشئ فى تمام الماهية والمثل هو الذى يكون مساويا له فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية وان كان مخالفا فى تمام الماهية (المسئلة الرابعة) قوله وهو السميع البصير يدل على كونه تعالى سامعا للمسموعات مبصرا للمرئيات فان قيل يمتنع اجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لانه اذا حصل قرع او قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلابا بعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج الى سطح الصماخ فهذا هو السماع واما الابصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئى فثبت ان السمع

فضائه الى خروجه عن حيز الايحاء الى النبى عليه الصلاة والسلام مستلزم لكون الخطاب فى قوله تعالى (ولاتتفرقوا فيه) للانبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وتوجيه النهى الى اممهم تمحل ظاهر مع ان الاظهر انه متوجه الى امته صلى الله عليه وسلم وانهم المتفرقون كما ستحيط به خبرا اى لاتتفرقوا فى الدين الذى هو عبارة عما ذكر من الاصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الاعصار كما ينطق به قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله تعالى (كبر على المشركين) شروع فى بيان احوال بعض من شرع لهم ماشرع من الدين القويم اى عظم وشق عليهم (ماتدعوهم اليه) من التوحيد ورفض عبادة الاصنام واستبعدوه حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وقوله تعالى (الله يجتبى اليه من يشاء) استئناف وارد لتحقيق الحق وفيه اشعار بأن منهم من يجاب الى الدعوة اى الله يجلب الى ماتدعوهم اليه من يشاء ان يجتبيه اليه وهو من صرف اختياره الى ماادعى اليه كما ينبئ عنه قوله تعالى (ويهدى اليه من ينيب) اى يقبل اليه حيث يمده بالتوفيق والالطاف وقوله تعالى (وما تفرقوا) شروع فى بيان احوال اهل الكتاب عقيب الاشارة

والبصر عبارة عن تأثر الحاسة وذلك على الله محال فثبت ان اطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز (والجواب) الدليل على ان السماع مغاير لتأثر الحاسة انا اذا سمعنا الصوت علمنا انه من اى الجوانب جاء فعلمنا انا ادركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت فى نفسه وهذا يدل على ان ادراك الصوت حالة مغايرة لتأثر الصماخ عن تموج ذلك الهواء واما الرؤية فالدليل على انها حالة مغايرة لتأثر الحدقة فذلك لان نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية فى نفس العالم عظيمة وهذا يدل على ان الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع واذا ثبت هذا فنقول لا يلزم من امتناع التأثر فى حق الله امتناع السمع والبصر فى حقه فان قالوا هب ان السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة الا ان حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر فلما كان حصول ذلك التأثر فى حق الله تعالى ممتنعا كان حصول السمع والبصر فى حق الله ممتنعا فنقول ظاهر قوله وهو السميع البصير يدل على كونه سميعا بصيرا فلم يجز لنا ان نعدل عن هذا الظاهر الا اذا قام الدليل على ان الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر والتأثر فى حق الله تعالى ممتنع فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعا وانتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله وانما نحن متمسكون بظاهر اللفظ الى ان تذكروا ما يوجب العدول عنه فان قال قائل قوله وهو السميع البصير يفيد الحصر فما معنى هذا الحصر مع ان العباد ايضا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال والكمال فى كل الصفات ليس الا لله فهذا هو المراد من هذا الحصر اما قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فاعلم ان المراد من الآية انه تعالى فاطر السموات والارض والاصنام ليست كذلك وايضا فهو خالق انفسنا وازواجنا وخالق اولادنا منا ومن ازواجنا والاصنام ليست كذلك وايضا فله مقاليد السموات والارض والاصنام ليست كذلك والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم فكيف يجوز جعل الاصنام التى هى جمادات مساوية له فى المعبودية فقوله له مقاليد السموات والارض يريد مفاتيح الرزق من السموات والارض فمقاليد السموات الامطار ومقاليد الارض النبات وذكرنا تفسير المقاليد فى سورة الزمر عند قوله الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لان مفاتيح الارزاق بيده انه بكل شئ من البسط والتقدير عليم * قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت

الاجمالية الى احكام اهل الشرك قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود والنصارى لقوله تعالى وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينه اى ما تفرقوا فى الدين الذى دعوا اليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم (الا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيته بما شاهدوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه فى كتابهم او العلم بمبعثه عليه الصلاة والسلام وهو استثناء مفرغ من اعم الاحوال او من اعم الاوقات اى وما تفرقوا فى حال من الاحوال او فى وقت من الاوقات الا حال مجئ العلم او الا وقت مجئ العلم (بغيا بينهم) وحمية وطلبا للرياسة لا لان لهم فى ذلك شبهة (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى العدة بتأخير العقوبة (الى اجل مسمى) هو يوم القيامة (لقضى بينهم) لاوقع القضاء بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعا وقوله تعالى (وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم) الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن اثر بيان كيفية كفر اهل الكتاب وقرئ ورثوا وورثوا اى وان المشركين الذين اورثوا القرآن من بعد ما اورث اهل الكتاب كتابهم (لفى شك منه) من القرآن (مريب) موقع فى القلق او فى الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لمحض البغى والمكابرة بعد

بما انزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير والذين يحاجون فى الله من بعدما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) اعلم انه تعالى لما عظم وحيه الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك فقال شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والمعنى شرع الله لكم يا اصحاب محمد من الدين ماوصى به نوحا ومحمدا وابراهيم وموسى وعيسى هذا هو المقصود من لفظ الآية وانما خص هؤلاء الانبياء الخمسة بالذكر لانهم اكابر الانبياء واصحاب الشرائع العظيمة والاتباع الكثيرة الاانه بقى فى لفظ الآية اشكالات (احدها) انه قال فى اول الآية ماوصى به نوحا وفى آخرها وماوصينا به ابراهيم وفى الوسط والذى اوحينا اليك فما الفائدة فى هذه التفاوت (وثانيها) انه ذكر نوحا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال ماوصى به نوحا والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال والذى اوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم (وثالثها) انه يصير تقدير الآية شرع الله لكم من الدين الذى اوحينا اليك فقوله شرع لكم خطاب الغيبة وقوله والذى اوحينا اليك خطاب الحضور فهذا يقتضى الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور فى الكلام الواحد بالاعتبار الواحد وهو مشكل فهذه المضائق يجب البحث عنها والقوم مادار وا حولها وبالجملة فالمقصود من الآية انه يقال شرع لكم من الدين دينا تطابقت الانبياء على صحته واقول يجب ان يكون المراد من هذا الدين شيئا مغايرا للتكاليف والاحكام وذلك لانها مختلفة متفاوتة قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا فيجب ان يكون المراد منه الامور التى لاتختلف باختلاف الشرائع وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والايمان يوجب الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة والسعى فى مكارم الاخلاق والاحتراز عن رذائل الاحوال ويجوز عندى ان يكون المراد من قوله ولاتتفرقوا اى لاتتفرقوا بالالهة الكثيرة كما قال يوسف عليه السلام أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار وقال تعالى ومارسلنا من قبلك من رسول الانوحى اليه انه لااله الاأنا فاعبدون واحتج بعضهم بقوله شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا على ان النبى صلى الله عليه وسلم فى اول الامر كان مبعوثا بشريعة نوح عليه السلام والجواب ماذكرناه انه عطف عليه سائر الانبياء وذلك يدل على ان المراد هو الاخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ومحل ان اقيموا الدين امانصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه وامارفع على الاستئناف كانه قيل ماذاك المشروع فقيل هو اقامة الدين كبر على المشركين عظم عليهم

ماعلموا بحقيته كدأب اهل الكتابين هذا واماماقيل من ان ضمير تفرقوا لامم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان المراد تفرق كل امة بعد نبيها مع علمهم بان الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم وكذا ماقيل من ان الناس كانوا امة واحدة مؤمنين بعدما اهلك الله تعالى اهل الارض بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الابناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وانما اختلفوا للبغى بينهم فان مشاهير الامم المذكورة قد اصابهم عذاب الاستئصال من غير انظار وامهال على ان مساق النظم الكريم لبيان احوال هذه الامة وانما ذكر من ذكر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لتحقيق ان ماشرع لهؤلاء دين قديم اجمع عليه اولئك الاعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيدا لوجوب اقامته وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق اممهم عنه ربما يوهم الاخلال بذلك المرام (فلذلك) اى فلاجل ما ذكر من التفرق والشك المريب اوفلاجل انه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بان يتنافس فيه المتنافسون (فادع) اى الناس كافة الى اقامة

وشق عليهم ماتدعوهم اليه من اقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والاجماع بدليل ان الكفار قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا انه تعالى اخبر ان اكابر الانبياء اطبقوا على انه يجب اقامة الدين بحيث لايفضى الى الاختلاف والتنازع والله تعالى ذكر فى معرض المنة على عباده انه ارشدهم الى الدين الخالى عن التفرق والمخالفة ومعلوم ان فتح باب القياس يفضى الى اعظم انواع التفرق والمنازعة فان الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الاخذ بالقياس تفرقوا تفرقا لارجاء فى حصول الاتفاق بينهم الى آخر القيامة فوجب ان يكون ذلك محرما ممنوعا عنه (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على ان هذه الشرائع على قسمين منها مايمتنع دخول النسخ والتغيير فيه بل يكون واجب البقاء فى جميع الشرائع والاديان كالقول بحسن الصدق والعدل والاحسان والقول بقبح الكذب والظلم والايذاء ومنها مايختلف باختلاف الشرائع والاديان ودلت هذه الآية على ان سعى الشرع فى تقرير النوع الاول اقوى من سعيه فى تقرير النوع الثانى لان المواظبة على القسم الاول مهمة فى اكتساب الاحوال المفيدة لحصول السعادة فى الدار الآخرة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ان اقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه مشعر بأن حصول الموافقة امر مطلوب فى الشرع والعقل وبيان منفعته من وجوه (الاول) ان للنفوس تأثيرات واذا انطابقت النفوس وتوافقت على شئ واحد قوى التأثير (الثانى) انها اذا توافقت صار كل واحد منها معينا للآخر فى ذلك المقصود المعين وكثرة الاعوان توجب حصول المقصود اما اذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلايحصل المقصود (الثالث) ان حصول التنازع ضد مصلحة العالم لان ذلك يفضى الى الهرج والمرج والقتل والنهب فلهذا السبب امر الله تعالى فى هذه الآية باقامة الدين على وجه لايفضى الى التفرق وقال فى آية اخرى ولاتنازعوا فتفشلوا ثم قال تعالى الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب وفيه وجهان (الاول) انه تعالى لما ارشد امة محمد صلى الله عليه وسلم الى التمسك بالدين المتفق عليه بين انه تعالى انما ارشدهم الى هذا الخير لانه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة (الثانى) انه انما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرا وانفة فبين تعالى انه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ولايعتبر الحسب والنسب والغنى بل الكل سواء فى انه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء فى الحوض فقوله الله يجتبى اليه اى يضمه اليه ويقربه منه تقريب الاكرام والرحمة وقوله من يشاء كقوله تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ثم قال ويهدى اليه من ينيب وهو كما روى فى الخبر من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتانى يمشى اتيته هرولة اى من اقبل الى بطاعته اقبلت اليه بهدايتى وارشادى بان اشرح له صدره واسهل امره

(واعلم)

ذلك الدين والعمل بموجبه فان كلا من تفرقهم وكونهم فى شك مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة اليه والامر بها وليس المشار اليه ماذكر من التوصية والامر بالاقامة والنهى عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار وقيل المشار اليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى الى كما فى قوله تعالى بان ربك اوحى لها اى فالى ذلك الدين فادع (واستقم) عليه وعلى الدعوة اليه (كما امرت) واوحى اليك (ولاتتبع اهواءهم) الباطلة (وقل آمنت بما انزل الله من كتاب) اى كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الاصول وتأليف لقلوب اهل الكتابين وتعريض بهم وقد مربيان كيفية الايمان بها فى خاتمة سورة البقرة (وامرت لاعدل بينكم) فى تبليغ الشرائع والاحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لاسوى بينى وبينكم ولا آمركم بما لا اعمله ولااخالفكم الى ماانهاكم عنه ولافرق بين اكابركم واصاغركم واللام اما على حقيقتها والمأمور به محذوف اى امرت بذلك لاعدل اوزائدة اى امرت ان اعدل والباء محذوفة (الله ربنا وربكم) اى خالقنا

واعلم انه تعالى لما بين انه امر كل الانبياء والامم بالاخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل ان يقول فلما ذا نجدهم متفرقين فأجاب الله تعالى عنهم بقوله وماتفرقوا الا من بعدماجاءهم العلم بغيابينهم يعنى انهم ماتفرقوا الامن بعدان علموا ان الفرقة ضلالة ولكنهم فعلوا ذلك للبغى وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية والانفة الطبيعية على ان ذهب كل طائفة الى مذهب ودعا الناس اليه وقبح ماسواه طلبا للذكر والرياسة فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف ثم اخبر تعالى انهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل الا انه تعالى اخر عنهم ذلك العذاب لان لكل عذاب عنده اجلا مسمى اى وقتا معلوما اما لمحض المشيئة كما هو قولنا اولانه علم ان الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة وهو معنى قوله ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم والاجل المسمى قديكون فى الدنيا وقديكون فى القيامة واختلفوا فى الذين اريدوا بهذه الصفة من هم فقال الاكثرون هم اليهود والنصارى والدليل عليه قوله تعالى فى آل عمران وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الامن بعدماجاءهم العلم بغيا بينهم وقال فى سورة لم يكن وماتفرق الذين اوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءتهم البينة ولان قوله الا من بعد جاءهم العلم لائق بأهل الكتاب وقال آخرون انهم هم العرب وهذا باطل للوجوه المذكورة لان قوله تعالى بعد هذه الآية وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لايليق بالعرب لان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم هم اهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لفى شك من كتابهم لايؤمنون به حق الايمان ثم قال تعالى فلذلك فادع واستقم كما امرت يعنى فلاجل ذلك التفرق ولاجل ماحدث من الاختلافات الكثيرة فى الدين فادع الى الاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها وعلى الدعوة اليها كما امرك الله ولاتتبع اهواءهم المختلفة الباطلة وقل آمنت بما انزل الله من كتاب اى بأى كتاب صح ان الله انزله يعنى الايمان بجميع الكتب المنزلة لان المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ونظيره قوله نؤمن ببعض ونكفر ببعض الى قوله اولئك هم الكافرون ثم قال وامرت لأعدل بينكم اى فى الحكم اذا تخاصمتم فتحاكمتم الى قال القفال معناه ان ربى امرنى ان لاافرق بين نفسى وانفسكم بأن آمركم بما لااعمله او اخالفكم الى مانهيتكم عنه لكنى اسوى بينكم وبين نفسى وكذلك اسوى بين اكابركم واصاغركم فيما يتعلق بحكم الله ثم قال الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير والمعنى ان اله الكل واحد وكل واحد مخصوص بعمل نفسه فوجب ان يشتغل كل واحد فى الدنيا بنفسه فان الله يجمع بين الكل فى يوم القيامة ويجازيه على عمله والمقصود منه المتاركة واشتغال كل احد بهم نفسه فان قيل كيف يليق بهذه المتاركة مافعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والاجلاء قلنا هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط ان يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الانبياء ودخل فيه التوحيد وترك عبادة الاصنام والاقرار بنبوة الانبياء وبصحة البعث والقيامة فلما لم

جميعا ومتولى امورنا (لنا اعمالنا) لايتخطانا جزاؤها ثوابا كان او عقابا (ولكم اعمالكم) لايتجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيآتكم (لاحجة بيننا وبينكم) اى لامحاجة ولاخصومة لان الحق قدظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ولاللمخالفة محمل سوى المكابرة (الله يجمع بيننا) يوم القيامة (واليه المصير) فيظهر هناك حالنا وحالكم وهذا كما ترى محاجزة فى مواقف المجاوبة لامتاركة فى مواطن المحاربة حتى يصار الى النسخ بآية القتال (والذين يحاجون فى الله) اى فى دينه (من بعدما استجيب له) من بعدما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم اليه اومن بعدما استجاب الله لرسوله عليه الصلاة والسلام وايده بنصره اومن بعد مااستجاب له اهل الكتاب بان أقروا بنبوته عليه الصلاة والسلام واستفتحوا به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام وذلك ان اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم واولى بالحق (حجتهم داحضة عند ربهم) زائلة زائلة باطلة بل لاحجة لهم اصلا وانما عبر عن اباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (وعليهم غضب) عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره (ولهم عذاب شديد) لايقادر قدره (الله الذى انزل الكتاب) اى جنس الكتاب (بالحق) ملتبسا به فى احكامه واخباره اوبما يحق انزاله من العقائد والاحكام (والميزان) والشرع الذى يوزن به الحقوق

يقبلوا هذا الدين فحينئذ فات الشرط فلا جرم فات المشروط واعلم انه ليس المراد من قوله لا حجة بيننا وبينكم تحريم ما يجرى مجرى محاجتهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان هذا الكلام مذكور فى معرض المحاجة فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض (الثانى) انه لولا الادلة لما توجه التكليف (الثالث) ان الدليل يفيد العلم وذلك لا يمكن تحريمه بل المراد ان القوم عرفوا بالحجة صدق محمد صلى الله عليه وسلم وانما تركوا تصديقه بغيا وعنادا فبين تعالى انه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لانهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم الى المحاجة البتة ومما يقوى قولنا انه لا يجوز تحريم المحاجة قوله وجادلهم بالتى هى احسن وقوله تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن وقوله يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وقوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ثم قال تعالى والذين يحاجون فى الله اى يخاصمون فى دينه من بعد ما استجيب له اى من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين حجتهم داحضة اى باطلة وتلك المخاصمة هى ان اليهود قالوا ألستم تقولون ان الاخذ بالمتفق اولى من الاخذ بالمختلف فنبوة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ونبوة محمد ليست متفقا عليها فاذا بنيتم كلامكم فى هذه الآية على ان الاخذ بالمتفق اولى وجب ان يكون الاخذ باليهودية اولى فبين تعالى ان هذه الحجة داحضة اى باطلة فاسدة وذلك لان اليهود اطبقوا على انه انما وجب الايمان بموسى عليه السلام لاجل ظهور المعجزات على وفق قوله وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام واليهود شاهدوا تلك المعجزات فان كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان كان لا يدل على الصدق وجب فى حق موسى ان لا يقروا بنبوته واما الاقرار بنبوة موسى والاصرار على انكار نبوة محمد مع استوائهما فى ظهور المعجزة يكون متناقضا ولما قرر الله هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب والمعنى انه تعالى انزل الكتاب المشتمل على انواع الدلائل والبينات وانزل الميزان وهو الفصل الذى هو القسطاس المستقيم وانهم لا يعلمون ان القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الامر كذلك وجب على العاقل ان يجدو يجتهد فى النظر والاستدلال ويترك طريقة اهل الجهل والتقليد ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة واكثر فى ذلك وانهم ماراوا منه اثرا قالوا على سبيل السخرية فمتى تقوم القيامة وليتها قامت حتى يظهر لنا ان الحق ما نحن عليه او الذى عليه محمد واصحابه فلدفع هذه الشبهة قال تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها والمعنى ظاهر وانما يشفقون ويخافون لعلمهم ان عندها تمتنع التوبة واما منكر البعث فلانه لا يحصل له هذا الخوف ثم قال الا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد والمماراة الملاجة قال الزجاج الذين تدخلهم المرية والشك فى وقوع الساعة فيمارون فيها ويجحدون لفى ضلال بعيد لان

ويسوى بين الناس اونفس العدل بان انزل الامر به اوآلة الوزن (وما يدريك) اى اى شئ يجعلك عالما (لعل الساعة) التى يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق (قريب) اى شئ قريب او قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب والساعة بمعنى البعث والمعنى انها على جناح الاتيان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل ان يفاجئك اليوم الذى يوزن فيه الاعمال ويوفى جزاؤها (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) استعجال انكار واستهزاء كانوا يقولون متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق اهو الذى نحن عليه ام الذى عليه محمد واصحابه (والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها مع اعتنائهم بها لتوقع الثواب (ويعلمون انها الحق) اى الكائن لا محالة (الا ان الذين يمارون فى الساعة) يجادلون فيها من المرية او من مريت الناقة اذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لان كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة (لفى ضلال بعيد) عن الحق فان البعث اشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد الى تجويزه فهو عن الاهتداء الى ماوراءه ابعد وابعد (الله لطيف بعباده) اى بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون الطافه ما لا يكاد ينال ايدى الافكار والظنون (يرزق من يشاء) اى يرزقه كيفما يشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة (وهو القوى) الباهر القدرة الغالب على كل شئ (العزيز) المنيع الذى لا يغلب

استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب فى العدل فلو لم تحصل القيامة لزم اسناد الظلم الى الله تعالى وهذا من أمحل المحالات فلا جرم كان انكار القيامة ضلالا بعيدا ثم قال الله لطيف بعباده اى كثير الاحسان بهم وانما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لانه انزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة فكان ذلك من لطف الله بعباده وايضا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد ثم انه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك ايضا من لطف الله تعالى فلما سبق ذكر ايصال اعظم المنافع اليهم ودفع اعظم المضار عنهم لاجرم حسن ذكره ههنا ثم قال يرزق من يشاء يعنى ان اصل الاحسان والبر عام فى حق كل العباد وذلك هو الاحسان بالحياة والعقل والفهم واعطاء ما لابد منه من الرزق ودفع اكثر الآفات والبليات عنهم فاما مراتب العطية والبهجة فتفاوتة مختلفة ثم قال وهو القوى اى القادر على كل ما يشاء العزيز الذى لا يغالب ولا يدافع ۞ قوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وان الظالمين لهم عذاب اليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم عليه اجرا الا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكور ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد) اعلم انه تعالى لما بين كونه لطيفا بعباده كثير الاحسان اليهم بين انه لابد لهم من ان يسعوا فى طلب الخيرات وفى الاحتراز عن القبائح فقال من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه قال صاحب الكشاف انه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى اظهر الفرق فى هذه الآية بين من اراد الآخرة وبين من اراد الدنيا من وجوه (الاول) انه قدم مريد حرث الآخرة فى الذكر على مريد حرث الدنيا وذلك يدل على التفضيل لانه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه فى الذكر تنبيها على قوله نحن الآخرون السابقون (الثانى) انه قال فى مريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه وقال فى مريد حرث الدنيا نؤته منها وكلمة من للتبعيض فالمعنى انه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كله وقال فى سورة بنى اسرائيل عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد واقول البرهان العقلى مساعد على الفرق وذلك لان كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل فكثرة الاعمال سبب لحصول الملكات فكل من كانت مواظبته على تلك الاعمال اكثر كان ميل

(من كان يريد حرث الآخرة) الحرث فى الاصل القاء البذر فى الارض يطلق على الزرع الحاصل منه ويستعمل فى ثمرات الاعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الاعمال بالبذور اى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة (نزد له فى حرثه) نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة الى سبعمائة فما فوقها (ومن كان يريد) بأعماله (حرث الدنيا) وهو متاعها وطيباتها (نؤته منها) اى شيئا منها حسبما قسمناه له لا ما يريده ويبتغيه (وماله فى الآخرة من نصيب) اذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله فى سورة الاسراء (أم لهم شركاء) اى بل الهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتقريع (شرعوا لهم) بالتسويل (من الدين ما لم يأذن به الله) كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم اوثانهم واضافتها اليهم لانهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى واسناد الشرع

قلبه الى طلب الآخرة اكثر وكلما كان الامر كذلك كان الابتهاج اعظم والسعادات اكثر وذلك هو المراد بقوله نزد له فى حرثه واما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على اعمال ذلك الطلب اكثر كانت رغبته فى الفوز بالدنيا اكثر وميله اليها اشد واذا كان الميل ابدا فى التزايد وكان حصول المطلوب باقيا على حالة واحدة كان الحرمان لازما لامحالة (الثالث) انه تعالى قال فى طالب حرث الآخرة نزد له فى حرثه ولم يذكر انه تعالى يعطيه الدنيا ام لا بل بقى الكلام ساكتا عنه نفيا واثباتا واما طالب حرث الدنيا فانه تعالى بين انه لا يعطيه شيئا من نصيب الآخرة على التنصيص وهذا يدل على التفاوت العظيم كأنه يقول الآخرة اصل والدنيا تبع فواجد الاصل يكون واجدا للتبع بقدر الحاجة الا انه لم يذكر ذلك تنبيها على ان الدنيا اخس من ان يقرن ذكرها بذكر الآخرة (الرابع) انه تعالى بين ان طالب الآخرة يزاد فى مطلوبه وبين ان طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا واما فى الآخرة فانه لا يحصل له منها نصيب البتة فبين بالكلام الاول ان طالب الآخرة يكون حاله ابدا فى الترقى والتزايد وبين بالكلام الثانى ان طالب الدنيا يكون حاله فى المقام الاول فى النقصان وفى المقام الثانى فى البطلان التام (الخامس) ان الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة مرجوحة بالنسبة الى النقد لان الناس يقولون النقد خير من النسيئة فبين تعالى ان هذه القضية انعكست بالنسبة الى احوال الآخرة والدنيا فالآخرة وان كانت نسيئة الا انها متوجهة للزيادة والدوام فكانت افضل واكمل والدنيا وان كانت نقدا الا انها متوجهة الى النقصان ثم الى البطلان فكانت اخس وارذل فهذا يدل على ان حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا البتة وانه ليس فى الدنيا من احوال الآخرة الا مجرد الاسم كما هو مروى عن ابن عباس (السادس) الآية دالة على ان منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد فى البابين من الحرث والحرث لا يتأتى الا بتحمل المشاق فى البذر ثم التسقية والتنمية ثم الحصد ثم التنقية فلما سمى الله كلا القسمين حرثا علمنا ان كل واحد منهما لا يحصل الا بتحمل المتاعب والمشاق ثم بين تعالى ان مصير الآخرة الى الزيادة والكمال وان مصير الدنيا الى النقصان ثم الفناء فكأنه قيل اذا كان لابد فى القسمين جميعا من تحمل متاعب الحراثة والتسقية والتنمية والحصد والتنقية فلان تصرف هذه المتاعب الى ما يكون فى التزايد والبقاء اولى من صرفها الى ما يكون فى النقصان والانقضاء والفناء (المسئلة الثانية) فى تفسير قوله نزد له فى حرثه قولان (الاول) المعنى انا نزيد فى توفيقه واعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه وقال مقاتل نزد له فى حرثه بتضعيف الثواب قال تعالى ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن اصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه فى قلبه واتته الدنيا وهى راغمة عن انفها او لفظ يقرب من ان يكون هذا معناه

(المسئلة)

اليها لانها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى انهن اضللن كثيرا او تمثيل من سن الضلالة لهم (ولولا كلمة الفصل) اى القضاء السابق بتأخير الجزاء او العدة بان الفصل يكون يوم القيامة (لقضى بينهم) اى بين الكافرين والمؤمنين او بين المشركين وشركائهم (وان الظالمين لهم عذاب اليم) وقرئ بالفتح عطفا على كلمة الفصل اى ولولا كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا فان العذاب الاليم غالب فى عذاب الآخرة (ترى الظالمين) يوم القيامة والخطاب لكل احد ممن يصلح له للقصد الى ان سوء حالهم غير مختص برؤية راء دون راء (مشفقين) خائفين (مما كسبوا من السيآت (وهو واقع بهم) اى ووباله لاحق بهم لامحالة اشفقوا اولم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين او اعتراض (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات) مستقرون فى اطيب بقاعها وانزهها (لهم ما يشاؤن

(المسئلة الثالثة) ظاهر اللفظ يدل على ان من صلى لاجل طلب الثواب اولاجل دفع العقاب فانه تصح صلاته واجمعوا على انها لاتصح (والجواب) انه تعالى قال من كان يريد حرث الآخرة والحرث لايتأتى الا بالقاء البذر الصحيح فى الارض والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس الا عبودية الله تعالى (المسئلة الرابعة) قال اصحابنا اذا توضأ بغير نية لم يصح قالوا لان هذا الانسان ما اراد حرث الآخرة لان الكلام فيما اذا كان غافلا عن ذكر الله وعن الآخرة فوجب ان لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة فوجب ان لايحصل فى الوضوء العارى عن النية واعلم ان الله تعالى لما بين القانون الاعظم والقسطاس الاقوم فى اعمال الآخرة والدنيا اردفه بالتنبيه على ماهو الاصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ومعنى الهمزة فى أم التقرير والتقريع وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وانكار البعث والعمل للدنيا لانهم لايعلمون غيرها وقيل شركاؤهم اوثانهم وانما اضيفت اليهم لانهم هم الذين اتخذوها شركاء الله ولما كانت سببا لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن اضللن كثيرا من الناس وقوله شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله يعنى ان تلك الشرائع باسرها على ضد دين الله ثم قال ولولا كلمة الفصل اى القضاء السابق بتأخير الجزاء اويقال ولولا الوعد بأن الفصل يكون يوم القيامة لقضى بينهم اى بين الكافرين والمؤمنين او بين المشركين وشركائهم وان الظالمين لهم عذاب اليم وقرأ بعضهم وان بفتح الهمزة فى ان عطفا له على كلمة الفصل يعنى ولولا كلمة الفصل وتقريره تعذيب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا ثم انه تعالى ذكر احوال اهل العقاب واحوال اهل الثواب اما الاول فهو قوله ترى الظالمين مشفقين خائفين خوفا شديدا مما كسبوا من السيآت وهو واقع بهم يريد ان وباله واقع بهم سواء اشفقوا اولم يشفقوا واما الثانى فهو احوال اهل الثواب وهو قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لان روضة الجنة اطيب بقعة فيها وفى الآية تنبيه على ان الفساق من اهل الصلاة كلهم فى الجنة الا انه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات وهى البقاع الشريفة من الجنة فالبقاع التى دون تلك الروضات لابد وان تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم قال لهم مايشاؤن عند ربهم وهذا يدل على ان كل الاشياء حاضرة عنده مهيأة ثم قال تعالى فى تعظيم هذه الدرجة ذلك هو الفضل الكبير واصحابنا استدلوا بهذه الآية على ان الثواب غير واجب على الله وانما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لانه تعالى قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاؤن عند ربهم فهذا يدل على ان روضات الجنات ووجدان كل مايريدونه انما كان جزاء على الايمان والاعمال الصالحة ثم قال تعالى ذلك هو الفضل

عند ربهم) اى مايشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم على ان عند ربهم ظرف للاستقرار العامل فى لهم وقيل ظرف ليشاؤن (ذلك) اشارة الى ماذكر من حال المؤمنين ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه (هو الفضل الكبير) الذى لايقادر قدره ولايبلغ غايته (ذلك) الفضل الكبير هو (الذى يبشر الله عباده) اى يبشرهم به فحذف الجار ثم العائد الى الموصول كما فى قوله تعالى اهذا الذى بعث الله رسولا اوذلك التبشير الذى يبشره الله تعالى عباده (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقرئ يبشر من ابشر (قل لاأسئلكم عليه) روى انه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون ان محمدا يسأل على مايتعاطاه اجرا فنزلت اى لااطلب منكم على ماانا عليه من التبليغ والبشارة (اجرا) نفعا (الا المودة فى القربى) اى الا ان تودونى لقرابتى منكم اوتودوا اهل قرابتى وقيل الاستثناء منقطع والمعنى

الكبير وهذا تصريح بان الجزاء المرتب على العمل انما حصل بطريق الفضل لابطريق الاستحقاق ثم قال ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال صاحب الكشاف قرئ يبشر من بشره ويبشر من ابشره ويبشر من بشره واعلم ان هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه (الاول) ان الله سبحانه رتب على الايمان وعمل الصالحات روضات الجنات والسلطان الذى هو اعظم الموجودات واكرمهم اذا رتب على اعمال شاقة جزاء دل ذلك على ان ذلك الجزاء قد بلغ الى حيث لا يعلم كنهه الا الله تعالى (الثانى) انه تعالى قال لهم مايشاؤن عند ربهم وقوله لهم مايشاؤن يدخل فى باب غير المتناهى لانه لادرجة الا والانسان يريد ماهو اعلى منها (الثالث) انه تعالى قال ذلك هو الفضل الكبير والذى يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الاطلاق كان فى غاية الكبر (الرابع) انه تعالى اعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال الذى يبشر الله عباده وذلك يدل ايضا على غاية العظمة نسأل الله الفوز بها والوصول اليها واعلم انه تعالى لما أوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الشريف العالى واودع فيه ثلاثة اقسام الدلائل واصناف التكاليف ورتب على الطاعة الثواب وعلى المعصية العقاب بين انى لا اطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعا عاجلا ومطلوبا حاضرا لئلا يتخيل جاهل ان مقصود محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التبليغ المال والجاه فقال قل لا أسئلكم عليه اجرا الا المودة فى القربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الناس فى هذه الآية ثلاثة اقوال (الاول) قال الشعبى اكثر الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولده فقال الله قل لا أسئلكم على ما أدعوكم اليه اجرا الا ان تودونى لقرابتى منكم والمعنى انكم قومى وأحق من اجابنى واطاعنى فاذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى ولا تهيجوا على (القول الثانى) روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس فى يده سعة فقال الانصار ان هذا الرجل قد هدا كم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم فى بلدكم فاجمعوا له طائفة من اموالكم ففعلوا ثم اتوه به فرده عليهم فنزل قوله تعالى قل لا أسئلكم عليه اجرا اى على الايمان الا ان تودوا أقاربى فحثهم على مودة أقاربه (القول الثالث) ماذكره الحسن فقال الا ان تودوا الى الله فيما يقربكم اليه من التودد اليه بالعمل الصالح فالقربى على القول الاول القرابة التى هى بمعنى الرحم وعلى الثانى القرابة التى هى بمعنى الاقارب وعلى الثالث هى فعلى من القرب والتقرب فان قيل الآية مشكلة وذلك لان طلب الاجرة على تبليغ الوحى لايجوز ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى حكى عن اكثر الانبياء عليهم السلام انهم صرحوا بنفى طلب الاجرة فذكر فى قصة نوح عليه السلام وما أسئلكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين وكذا فى

لا أسالكم اجرا فطولكن أسالكم المودة وفى القربى حال منها اى الا المودة ثابتة فى القربى متمكنة فى اهلها اوفى حق القرابة والقربى مصدر كالزلفى بمعنى القرابة روى انها لما نزلت قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال على وفاطمة وابناهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم اهل بيتى وآذانى فى عترتى ومن اصطنع صنيعة الى احد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا اجازيه عليها غدا اذا لقينى يوم القيامة وقيل القربى التقرب الى الله اى الا ان تودوا الله ورسوله فى تقربكم اليه بالطاعة والعمل الصالح وقرئ الا مودة فى القربى (ومن يقترف حسنة) اى يكتسب اى حسنة كانت فتتناول مودة ذى القربى تناولا اوليا وعن السدى انها المرادة وقيل نزلت فى الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم (نزد له فيها) اى فى الحسنة (حسنا) بمضاعفة الثواب وقرئ يزد اى يزد الله

(قصة)

قصة هود وصالح وفى قصة لوط وشعيب عليهم السلام ورسولنا افضل من سائر الانبياء عليهم السلام فكان بان لايطلب الاجر على النبوة والرسالة اولى (الثانى) انه صلى الله عليه وسلم صرح بنفى طلب الاجر فى سائر الآيات فقال ما سألتكم من اجر فهو لكم وقال قل ما اسئلكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين (الثالث) العقل يدل عليه وذلك لان ذلك التبليغ كان واجبا عليه قال تعالى بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته وطلب الاجر على اداء الواجب لايليق بأقل الناس فضلا عن اعلم العلماء (الرابع) ان النبوة افضل من الحكمة وقد قال تعالى فى صفة الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا وقال فى صفة الدنيا قل متاع الدنيا قليل فكيف يحسن فى العقل مقابلة اشرف الاشياء باخس الاشياء (الخامس) ان طلب الاجر كان يوجب التهمة وذلك ينافى القطع بصحة النبوة فثبت بهذه الوجوه انه لايجوز من النبى صلى الله عليه وسلم ان يطلب اجرا البتة على التبليغ والرسالة وظاهر هذه الآية يقتضى انه طلب اجرا على التبليغ والرسالة وهو المودة فى القربى هذا تقرير السؤال (والجواب) عنه انه لانزاع فى انه لايجوز طلب الاجر على التبليغ والرسالة بقى قوله الا المودة فى القربى نقول الجواب عنه من وجهين (الاول) ان هذا من باب قوله

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهامن قراع الدارعين فلول

يعنى انا لا اطلب منكم الا هذا وهذا فى الحقيقة ليس اجرا لان حصول المودة بين المسلمين امر واجب قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض وقال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا والآيات والاخبار فى هذا الباب كثيرة واذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصولها فى حق اشرف المسلمين واكابرهم اولى وقوله تعالى قل لا اسئلكم عليه اجرا الا المودة فى القربى تقديره والمودة فى القربى ليست اجرا فرجع الحاصل الى انه لا اجر البتة (والوجه الثانى) فى الجواب ان هذا استثناء منقطع وتم الكلام عند قوله قل لا اسئلكم عليه اجرا ثم قال الا المودة فى القربى اى لكن اذكركم قرابتى منكم وكأنه فى اللفظ اجر وليس باجر (المسئلة الثالثة) نقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له الا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير الا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان الى الجنة ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ألا ومن

وقرئ حسنى (ان الله غفور) لمن اذنب (شكور) لمن اطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة (ام يقولون) بل ايقولون (افترى) محمد (على الله كذبا) بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على ان الهمزة للانكار التوبيخى كأنه قيل أيتمالكون ان ينسبوا مثله عليه السلام وهو هو الى الافتراء لاسيما الافتراء على الله الذى هو اعظم الفرى وافحشها وقوله تعالى (فان يشأ الله يختم على قلبك) استشهاد على بطلان ماقالوا ببيان انه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعا وتحقيقه ان دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لايشاء صدوره عن النبى صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورته منعه عنه قطعا فكأنه قيل لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وان يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الامر كذلك بل تواتر الوحى حينا

مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة هذا هو الذى رواه صاحب الكشاف وأنا اقول آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤل امرهم اليه فكل من كان امرهم اليه اشد واكمل كانوا هم الآل ولاشك ان فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم اشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب ان يكونوا هم الآل وايضا اختلف الناس فى الآل فقيل هم الاقارب وقيل هم امته فان حملناه على القرابة فهم الآل وان حملناه على الامة الذين قبلوا دعوته فهم ايضا آل فثبت ان على جميع التقديرات هم الآل واما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه وروى صاحب الكشاف انه لما نزلت هذه الآية قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم فقال على وفاطمة وابناهما فثبت ان هؤلاء الاربعة اقارب النبى صلى الله عليه وسلم واذاثبت هذا وجب ان يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه (الاول) قوله تعالى الا المودة فى القربى ووجه الاستدلال به ماسبق (الثانى) ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة منى يؤذينى مايؤذيها وثبت بالنقل المتواتر عن محمد صلى الله عليه وسلم انه كان يحب عليا والحسن والحسين واذاثبت ذلك وجب على كل الامة مثله لقوله واتبعوه لعلكم تهتدون ولقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره ولقوله قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ولقوله سبحانه لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة (الثالث) ان الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل فكل ذلك يدل على ان حب آل محمد واجب وقال الشافعى رضى الله عنه

يارا كبا قف بالمحصب من منى * واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا اذافاض الحجيج الى منى * فيضا كما نظم الفرات الفائض
ان كان رفضا حب آل محمد * فليشهد الثقلان انى رافضى

(المسئلة الثالثة) قوله الا المودة فى القربى فيه منصب عظيم للصحابة لانه تعالى قال والسابقون السابقون اولئك المقربون فكل من اطاع الله كان مقربا عندالله تعالى فدخل تحت قوله الا المودة فى القربى والحاصل ان هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب اصحابه وهذا المنصب لايسلم الا على قول اصحابنا اهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة وسمعت بعض المذكرين قال انه صلى الله عليه وسلم قال مثل اهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا وقال صلى الله عليه وسلم اصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ونحن الآن فى بحر التكليف وتضر بنا امواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج الى امرين (احدهما) السفينة

(الخالية)

فمحينا تبين انه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى ان يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فانه لايجترئ على الافتراء عليه تعالى الا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام وانه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى يعنى لوافترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ماقيل لوكذب على الله لأنساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك اذاهم (ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته) استئناف مقرر لنفى الافتراء غير معطوف على يختم كما ينبئ عنه اظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما فى بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما فى قوله تعالى ويدع الانسان بالشر اى ومن عادته تعالى انه يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه اوبقضائه كقوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه

الخالية عن العيوب والثقب (والثانى) الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة فاذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبا فكذلك ركب اصحابنا اهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا ابصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى ان يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة ولنرجع الى التفسير اورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالا فقال هلا قيل الامودة القربى او الامودة للقربى ومامعنى قوله الاالمودة فى القربى واجاب عنه بأن قال جعلوا مكانا للمودة ومقرالها كقولك لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى وحب شديد تريد احبهم وهم مكان حبى ومحله ثم قال تعالى ومن يقترف حسنة نزدله فيها حسنا قيل نزلت هذه الآية فى ابى بكر رضى الله عنه والظاهر العموم فى اى حسنة كانت الاانها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على ان المقصود التأكيد فى تلك المودة ثم قال تعالى ان الله غفور شكور والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى انه تعالى يحسن الى المطيعين فى ايصال الثواب اليهم وفى ان يزيد عليه انواعا كثيرة من التفضل وقال تعالى أم يقولون افترى على الله كذبا واعلم ان الكلام فى اول هذه السورة انما ابتدئ فى تقرير ان هذا الكتاب انما حصل بوحى الله وهو قوله تعالى كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم واتصل الكلام فى تقرير هذا المعنى. وتعلق البعض بالبعض حتى وصل الى ههنا ثم حكى ههنا شبهة القوم وهى قولهم ان هذا ليس وحيا من الله تعالى فقال أم يقولون افترى على الله كذبا قال صاحب الكشاف ام منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل أيقع فى قلوبهم ويجرى فى ألسنتهم ان ينسبوا مثله الى الافتراء على الله الذى هو اقبح انواع الفرية وافحشها ثم اجاب عنه بأن قال فان يشأ الله يختم على قلبك وفيه وجوه (الاول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لايشق عليك قولهم انه مفتر كذاب (الثانى) يعنى بهذا الكلام انه ان يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفترى عليه الكذب فانه لايجترئ على افتراء الكذب على الله الامن كان فى مثل هذه الحالة والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ومثاله ان ينسب رجل بعض الامناء الى الخيانة فيقول الامين لعل الله خذلنى لعل الله اعمى قلبى وهو لايريد اثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وانما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه ثم قال تعالى ويمح الله الباطل ويحق الحق اى ومن عادة الله ابطال الباطل وتقرير الحق فلو كان محمد مبطلا كذابا لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما ايده بالقوة والنصرة ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انه ليس من الكاذبين المفترين على الله ويجوز ان يكون هذا وعدا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ويثبت الحق الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه ثم قال انه عليم بذات الصدور اى ان الله عليم بما فى صدرك وصدورهم فيجرى الامر على حسب ذلك وعن قتادة يختم على قلبك ينسك

فلو كان افتراء لمحاه كما محا الباطل وثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن او بقضائه الذى لامرد له بنصرته عليهم (انه عليم بذات الصدور) فيجرى عليها احكامها اللائقة بها من المحو والاثبات (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) التوبة هى الرجوع عن المعاصى بالتدم عليها والعزم على ان لايعاودها ابدا وروى جابر رضى الله عنه ان اعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انى استغفرك واتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه ياهذا ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج الى التوبة فقال ياامير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة

القرآن ويقطع عنك الوحى بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك واعلم انه تعالى لما قال ام يقولون افترى على الله كذبا ثم برأ رسوله مما اضافوه اليه من هذا وكان من المعلوم انهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابا عظيما الاجرم ندبهم الله الى التوبة وعرفهم انه يقبلها من كل مسيء وان عظمت اساءته فقال وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه فمعنى قبلته منه اخذته منه وجعلته مبدأ قبوله ومنشأه ومعنى قبلته عنه اخذته عنه واثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة فى سورة البقرة واقل مالابد منه الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على ان لايعود اليه فى المستقبل وروى جابر ان اعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انى استغفرك واتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على عليه السلام ياهذا ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج الى توبة فقال ياامير المؤمنين وما التوبة فقال اسم يقع على ستة اشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية واذاقة النفس مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلا قبول التوبة وقال اصحابنا لايجب على الله شيء وكل مايفعله فانما يفعله بالكرم والفضل واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا انه تعالى تمدح بقبول التوبة ولو كان ذلك القبول واجبا لما حصل التمدح العظيم ألا ترى ان من مدح نفسه بأن لايضرب الناس ظلما ولايقتلهم غضبا كان ذلك مدحا قليلا اما اذا قال انى احسن اليهم مع ان ذلك لايجب على كان ذلك مدحا وثناء (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ويعفو عن السيآت اما ان يكون المراد منه ان يعفو عن الكبائر بعد الاتيان بالتوبة او المراد منه انه يعفو عن الصغائر أو المراد منه انه يعفو عن الكبائر قبل التوبة والاول باطل والالصار قوله ويعفو عن السيآت عين قوله وهو الذى يقبل التوبة والتكرار خلاف الاصل (والثانى) ايضا باطل لان ذلك واجب واداء الواجب لايتمدح به فبقى القسم الثالث فيكون المعنى انه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداء من غير توبة ثم قال ويعلم ماتفعلون قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة والمعنى انه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيآته ثم قال ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وفيه قولان (احدهما) الذين امنوا وعملوا الصالحات رفع على انه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم اليه (والثانى) محله نصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ويستجيب الله للمؤمنين الاانه حذف اللام كما حذف فى قوله واذا كالوهم وهذا الثانى اولى لان الخبر فيما قبل وبعد عن الله لان ماقبل الآية قوله تعالى وهو الذى يقبل

النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية واذاقتها مرارة الطاعة كما اذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (ويعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء (ويعلم ماتفعلون) كائنا ما كان من خير وشر فيجازى ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقرئ مايفعلون بالياء (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) اى يستجيب الله لهم فحذف اللام كما فى قوله تعالى واذا كالوهم اى كالوا لهم والمراد اجابة دعوتهم والاثابة على طاعتهم فانها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله عليه السلام افضل الدعاء الحمد لله اويستجيبون الله بالطاعة اذا دعاهم اليها وعن ابراهيم بن ادهم انه قيل له مابالنا ندعو فلا نجاب قال لانه دعاكم ولم تجيبوه ثم قرأ والله يدعو الى دار السلام (ويزيدهم من فضله) على ماسألوا واستحقوا بموجب الوعد (والكافرون لهم عذاب شديد) بدل ماللمؤمنين من الثواب والفضل المزيد

التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت وما بعدها قوله ويزيدهم من فضله فيزيد عطف على ويستجيب وعلى الاول ويجيب العبد ويزيد الله من فضله اما من قال ان الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان (احدهما) ويجيب المؤ منون ربهم فيما دعاهم اليه (والثانى) يطيعونه فيما امرهم به والاستجابة الطاعة واما من قال ان الفعل لله فقد اختلفوا فقيل يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ماطلبوه من فضله فان قالوا تخصيص المؤمنين باجابة الدعاء هل يدل على انه تعالى لا يجيب دعاء الكفار قلنا قال بعضهم لايجوز لان اجابة الدعاء تعظيم وذلك لايليق بالكفار وقيل يجوز على بعض الوجوه وفائدة التخصيص ان اجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف واجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج ثم قال ويزيدهم من فضله اى يزيدهم على ماطلبوه بالدعاء والكافرون لهم عذاب شديد والمقصود التهديد ❁ قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر مايشاء انه بعباده خبير بصير وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفوا عن كثير وما انتم بمعجزين فى الارض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما قال فى الآية الاولى انه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو ان المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يشاهد اثر الاجابة فكيف الحال فيه مع ماتقدم من قوله ويستجيب الذين آمنوا فاجاب تعالى عنه بقوله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولأقدموا على المعاصى ولما كان ذلك محذورا وجب ان لايعطيهم ماطلبوه قال الجبائى هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين (الاول) ان حاصل الكلام انه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا فى الارض والبغى فى الارض غير مراد فارادة بسط الرزق غير حاصلة فهذا الكلام انما يتم اذا قلنا انه تعالى لا يريد البغى فى الارض وذلك يوجب فساد قول المجبرة (الثانى) انه تعالى بين انه انما لم يرد بسط الرزق لانه يفضى الى المفسدة فلما بين تعالى انه لا يريد مايفضى الى المفسدة فبأن لايكون مريدا للمفسدة كان أولى أجاب اصحابنا بأن الميل الشديد الى البغى والقسوة والقهر صفة حدثت بعد ان لم تكن فلابد لها من فاعل وفاعل هذه الاحوال اما العبد او الله (والاول) باطل لانه انما يفعل هذه الاشياء لو مال طبعه اليها فيعود السؤال فى انه من المحدث لذلك الميل الثانى ويلزم التسلسل وايضا فالميل الشديد الى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات والعاقل لايرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ولما بطل هذا ثبت ان محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ثم اورد الجبائى فى تفسيره على نفسه سؤالا قال فان قيل أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض) لتكبروا وافسدوا فيها بطرا او لعلا بعضهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلة البشرية واصل البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى من حيث الكمية او الكيفية (ولكن ينزل بقدر) اى بتقدير (مايشاء) ان ينزله مما تقتضيه مشيئته (انه بعباده خبير بصير) محيط بخفايا امورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من اوقاتهم مايليق بشأنهم فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو اغناهم جميعا لبغوا ولو افقرهم لهلكوا وروى ان اهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت فى العرب كانوا اذا اخصبوا تحاربوا واذا اجدبوا انتجعوا (وهو الذى ينزل الغيث) اى المطر الذى يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرئ ينزل من الانزال (من بعد ماقنطوا) يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه ايضا لتذكير كمال النعمة وقرئ بكسر النون (وينشر رحمته) اى بركات الغيث ومنافعه فى كل شئ من السهل والجبل والنبات والحيوان او رحمته

معانه بغى واجاب عنه بان الذى عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله انه يبغى على كل حال سواء اعطى ذلك الرزق اولم يعط واقول هذا الجواب فاسد ويدل عليه القرآن والعقل اما القرآن فقوله تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى حكم مطلقا بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان واما العقل فهو ان النفس اذا كانت مائلة الى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والادوات كان الشر اقل واذا كانت واجدة لها كان الشر اكثر فثبت ان المال يوجب الطغيان (المسئلة الثانية) فى بيان الوجه الذى لاجله كان التوسع موجبا للطغيان ذكروا فيه وجوها (الاول) ان الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادما للبعض ولو صار الامر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح (الثانى) ان هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر مايرويهم ومن الكلا والعشب مايشبعهم اقدموا على النهب والغارة (الثالث) ان الانسان متكبر بالطبع فاذا وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية وهو التكبر واذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد الى الطاعة والتواضع (المسئلة الثالثة) قال حباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية وذلك انا نظرنا الى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها وقيل نزلت فى اهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى ثم قال تعالى ولكن ينزل بقدر مايشاء قرأ ابن كثير وابو عمرو ينزل خفيفة والباقون بالتشديد ثم نقول بقدر بتقدير يقال قدره قدر او قدرا انه بعباده خبير بصير يعنى انه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب امورهم فيقدر ارزاقهم على وفق مصالحهم ولما بين تعالى انه لايعطيهم مازاد على قدر حاجتهم لاجل انه علم ان تلك الزيادة تضرهم فى دينهم بين انهم اذا احتاجوا الى الرزق فانه لايمنعهم منه فقال وهو الذى ينزل الغيث من بعدما قنطوا قرأ نافع وابن عامر وعاصم ينزل مشددة والباقون مخففة قال صاحب الكشاف قرئ قنطوا بفتح النون وكسرها وانزال الغيث بعد القنوط ادعى الى الشكر لان الفرج بحصول النعمة بعد البلية اتم فكان اقدام صاحبه على الشكر اكثر وينشر رحمته اى بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب وعن عمر رضى الله عنه انه قيل له اشتد القحط وقنط الناس فقال اذن مطروا اراد هذه الآية ويجوز ان يريد رحمته الواسعة فى كل شئ كأنه قيل ينزل الرحمة التى هى الغيث وينشر سائر انواع الرحمة وهو الولى الحميد الولى الذى يتولى عباده باحسانه والحميد المحمود على مايوصل الخلق من اقسام الرحمة ثم ذكر آية أخرى تدل على الهيته فقال ومن آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما من دابة فنقول اما دلالة خلق السموات والارض على وجود الاله الحكيم فقد ذكرناها وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الاله الحكيم فان قيل كيف يجوز اطلاق لفظ الدابة على الملائكة قلنا فيه وجوه (الاول) انه قد يضاف الفعل الى جماعة وان كان فاعله واحدا منهم يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله واحد منهم ومنه قوله تعالى يخرج منهما

الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما اولبا (وهو الولى) الذى يتولى عباده بالاحسان ونشر الرحمة (الحميد) المستحق للحمد على ذلك لاغيره (ومن آياته خلق السموات والارض) على ماهما عليه من تعاجيب الصنائع فانها بذاتها وصفاتها تدل على شؤنه العظيمة (ومابث فيهما) عطف على السموات اوالخلق (من دابة) من حى على اطلاق اسم المسبب على السبب اوممايدب على الارض فان مايختص بأحد الشيئين المتجاورين يصح نسبته اليهما كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من الملح وقد جوزان يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران فيوصفوا بالدبيب وان يخلق الله فى السماء حيوانا يمشون فيها مشى الأناسى على على الارض كما ينبئ عنه قوله تعالى ويخلق مالاتعلمون وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فوق السماء السابعة بحر بين اسفله واعلاه كمابين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية اوعال بين ركبهن واظلافهن كمابين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش العظيم (وهو على جمعهم) اى حشرهم بعد البعث للمحاسبة وقوله تعالى (اذا

(اللؤلؤ)

اللؤلؤ والمرجان (الثانى) ان الدبيب هو الحركة والملائكة لهم حركة (الثالث) لايبعد ان يقال انه تعالى خلق فى السموات انواعا من الحيوانات يمشون مشى الاناسى على الارض ثم قال تعالى وهو على جمعهم اذا يشاء قدير قال صاحب الكشاف اذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى قال تعالى والليل اذا يغشى ومنه اذا يشاء قدير والمقصود انه تعالى خلقها متفرقة لا لعجز ولكن لمصلحة فلهذا قال وهو على جمعهم اذا يشاء قدير يعنى الجمع للحشر والمحاسبة وانما قال على جمعهم ولم يقل على جمعها لاجل ان المقصود من هذا الجمع المحاسبة فكأنه تعالى قال وهو على جمع العقلاء اذا يشاء قدير واحتج الجبائى بقوله اذا يشاء قدير على ان مشيئته تعالى محدثة بأن قال ان كلمة اذا تفيد ظرف الزمان وكلمة يشاء صيغة المستقبل فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ولما دل قوله اذا يشاء قدير على هذا التخصيص علمنا ان مشيئته تعالى محدثة (والجواب) ان هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة اى مشيئة الله فقد دخلتا ايضا على لفظ القدير فلزم على هذا ان يكون كونه قادرا صفة محدثة ولما كان هذا باطلا فكذا القول فيما ذكرته والله اعلم ثم قال تعالى وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر بما كسبت بغير فاء وكذلك هى فى مصاحف الشام والمدينة والباقون بالفاء وكذلك هى فى مصاحفهم وتقدير الاول ان ما مبتدأ بمعنى الذى وبما كسبت خبره والمعنى والذى اصابكم وقع بما كسبت ايديكم وتقدير الثانى تضمين كلمة ما معنى الشرطية (المسئلة الثانية) المراد بهذه المصائب الاحوال المكروهة نحو الآلام والاسقام والقحط والغرق والصواعق واشباهها واختلفوا فى نحو الآلام انها هل هى عقوبات على ذنوب سلفت ام لا منهم من انكر ذلك لوجوه (الاول) قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت بين تعالى ان الجزاء انما يحصل فى يوم القيامة وقال تعالى فى سورة الفاتحة مالك يوم الدين اى يوم الجزاء واطبقوا على ان المراد منه يوم القيامة (والثانى) ان مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب بل الاستقراء يدل على ان حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين اكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل (الثالث) ان الدنيا دار التكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معا وهو محال واما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون اجزية على الذنوب المتقدمة فقد تمسكوا ايضا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره الا بذنب او لفظ هذا معناه وتمسكوا ايضا بهذه الآية وتمسكوا ايضا بقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات وتمسكوا ايضا بقوله تعالى بعد هذه الآية او يوبقهن بما كسبوا وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك كان بسبب كسبهم وأجاب الاولون عن التمسك بهذه الآية فقالوا

يشاء) متعلق بما قبله لا بقوله تعالى (قدير) فان المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لا قدرته واذا عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضى تدخل المضارع (وما اصابكم من مصيبة) اى مصيبة كانت (فبما كسبت ايديكم) اى فهى بسبب معاصيكم التى اكتسبتموها والفاء لان ما شرطية او متضمنة لمعنى الشرط وقرئ بدونها اكتفاء بما فى الباء من معنى السببية (ويعفوا عن كثير) من الذنوب فلا يعاقب عليها والآية مخصوصة بالمجرمين فان ما اصاب غيرهم لاسباب اخر منها تعريضه للثواب بالصبر عليه (وما انتم بمعجزين فى الارض) فائتين ما قضى عليكم من المصائب وان هربتم من اقطارها كل مهرب (وما لكم من دون الله من ولى) يحميكم منها (ولا نصير) يدفعها عنكم (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر) وقرئ الجوارى (كالاعلام) اى كالجبال على الاطلاق لا التى عليها النار للاهتداء خاصة (ان يشأ يسكن الريح) التى تجريها وقرئ الرياح (فيظللن رواكد على ظهره) فيبقين ثوابت على ظهر البحر اى غير جاريات لا غير متحركات اصلا (ان

ان حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان فى التكليف لا من باب العقوبة كما فى حق لانبياء والاولياء ويحمل قوله فبما كسبت ايديكم على ان الاصلح عند اتيانكم بذلك الكسب انزال هذه المصائب عليكم وكذا الجواب عن بقية الدلائل والله اعلم (المسئلة الثالثة) احتج اهل التناسخ بهذه الآية وكذلك الذين يقولون ان الاطفال والبهائم لا تتألم فقالوا دلت الآية على ان حصول المصائب لا يكون الا لسابقة الجرم ثم ان اهل التناسخ قالوا لكن هذه المصائب حاصلة للاطفال والبهائم فوجب ان يكون قد حصل لها ذنوب فى الزمان السابق واما القائلون بأن الاطفال والبهائم ليس لها الم قالوا قد ثبت ان هذه الاطفال والبهائم ما كانت موجودة فى بدن آخر لفساد القول بالتناسخ فوجب القطع بأنها لا تتألم اذ الالم مصيبة (والجواب) ان قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم خطاب مع من يفهم ويعقل فلا يدخل فيه البهائم والاطفال ولم يقل تعالى ان جميع مايصيب الحيوان من المكاره فانه بسبب ذنب سابق والله اعلم (المسئلة الرابعة) قوله فبما كسبت ايديكم يقتضى اضافة الكسب الى اليد قال والكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة باليد واذا كان المراد من لفظ اليد ههنا القدرة وكان هذا المجاز مشهورا مستعملا كان لفظ اليد الوارد فى حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيها لله تعالى عن الاعضاء والاجزاء والله اعلم ثم قال تعالى ويعفو عن كثير ومعناه انه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته وعن الحسن قال دخلنا على عمران بن حصين فى الوجع الشديد فقيل له انا لنغتم لك من بعض ما نرى فقال لا تفعلوا فوالله ان احبه الى الله احبه الى وقرأ وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم فهذا بما كسبت يداى وسيأتينى عفو ربى وقد روى ابو سخلة عن على بن ابى طالب رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال ما عفا الله عنه فهو أعز واكرم من ان يعود اليه فى الآخرة وما عاقب عليه فى الدنيا فالله اكرم من ان يعيد العذاب عليه فى الآخرة رواه الواحدى فى البسيط وقال اذا كان كذلك فهذه ارجى آية فى كتاب الله لان الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفره عنهم بالمصائب فى الدنيا وصنف عفا عنه فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه وهذه سنة الله مع المؤمنين واما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافى يوم القيامة ثم قال تعالى وما انتم بمعجزين فى الارض يقول ما انتم يا معشر المشركين بمعجزين فى الارض اى لا تعجزوننى حيث ما كنتم فلا تسبقوننى بسبب هربكم فى الارض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير والمراد بهم من يعبد الاصنام بين انه لا فائدة فيها البتة والنصير هو الله تعالى فلا جرم هو الذى تحسن عبادته ❁ قوله تعالى

(ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور او يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص فما اوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير

(وابقى)

فى ذلك) الذى ذكر من السفن اللاتى يجرين تارة ويركدن أخرى على حسب مشيئته تعالى (لآيات) عظيمة فى انفسها كثيرة فى العدد دالة على ما ذكر من شؤنه تعالى (لكل صبار شكور) لكل من حبس نفسه عن التوجه الى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه اولكل مؤمن كامل فان الايمان نصفه صبرونصفه شكر (او يوبقهن بما كسبوا) عطف على يسكن والمعنى ان يشأ يسكن الريح فيركدن اويرسلها فيغرقن بعصفها وايقاع الايباق عليهن مع انه حال اهلهن للمبالغة والتهويل واجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى (ويعف عن كثير) لما ان المعنى اويرسلها فيوبق ناسا وينج آخرين بطريق العفو عنهم وقرئ ويعفو على الاستئناف (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما فى قوله تعالى ولنجعله آية للناس وقوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث ونظائرهما وقرئ بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفا على يعف فيكون المعنى وان يشأ يجمع بين اهلاك قوم وانجاء قوم وتحذير قوم

وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ماغضبواهم يغفرون والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابو عمرو الجوارى بياء فى الوصل والوقف فاثبات الياء على الاصل وحذفها للتخفيف (المسئلة الثانية) الجوارى يعنى السفن الجوارى لحذف الموصوف لعدم الالتباس (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى ذكر من آياته ايضا هذه السفن العظيمة التى تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح واعلم ان المقصود من ذكره امران (احدهما) ان يستدل به على وجود القادر الحكيم (والثانى) ان يعرف مافيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد (اما الوجه الاول) فقد اتفقوا على ان المراد بالاعلام الجبال قالت الخنساء فى مرثية اخيها

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم فى رأسه نار

ونقل ان النبى صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوى الى هذا البيت قال قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا اذا عرفت هذا فنقول هذه السفن العظيمة التى تكون كالجبال تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح على اسرع الوجوه وعند سكون هذه الرياح تقف وقد بينا بالدليل فى سورة النحل ان محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى اذ لا يقدر احد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها وذلك يدل على وجود الاله القادر وايضا ان تلك السفينة تكون فى غاية الثقل ثم انها مع ثقلها بقيت على وجه الماء وهو ايضا دلالة اخرى (واما الوجه الثانى) وهو معرفة مافيها من المنافع فهو انه تعالى خص كل جانب من جوانب الارض بنوع آخر من الامتعة واذا نقل متاع هذا الجانب الى ذلك الجانب فى السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة فى التجارة فلهذه الاسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة ثم قال تعالى ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره قرأ ابو عمرو والجمهور بهمزة ان يشأ لان سكون الهمزة علامة للجزم وعن ورش عن نافع بلا همزة وقرأ نافع وحده يسكن الرياح على الجمع والباقون الريح على الواحد قال صاحب الكشاف قرئ يظللن بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل وقوله تعالى رواكد اى رواتب اى لا تجرى على ظهره اى على ظهر البحر ان فى ذلك لآيات لكل صبار على بلاء الله شكور لنعمائه والمقصود التنبيه على ان المؤمن يجب ان لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة لانه لابد وان يكون اما فى البلاء واما فى الآلاء فان كان فى البلاء كان من الصابرين وان كان فى النعماء كان من الشاكرين وعلى هذا التقدير فانه لا يكون البتة من الغافلين ثم قال تعالى او يوبقهن بما كسبوا يعنى او يهلكهن يقال اوبقه اى اهلكه ويقال للمجرم اوبقته ذنوبه اى اهلكته والمعنى انه تعالى ان شاء ابتلى المسافرين فى البحر باحدى بليتين اما ان يسكن الريح فتركد

(مالهم من محيص) اى من مهرب من العذاب والجملة معلق عنها الفعل (فما اوتيتم من شئ) مما ترغبون وتتنافسون فيه (فمتاع الحياة الدنيا) اى فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم (وما عند الله) من ثواب الآخرة (خير) ذاتا لخلوص نفعه (وابقى) زمانا حيث لا يزول ولا يفنى (للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره اصلا والموصول الاول لما كان متضمنا لمعنى الشرط من حيث ان ايتاء ما اوتوا سبب للتمتع بها فى الحياة الدنيا دخلت جوابها الفاء بخلاف الثانى وعن على رضى الله عنه انه تصدق ابو بكر رضى الله عنه بماله كله فلامه جمع من المسلمين فنزلت وقوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الاثم) اى الكبائر من هذا الجنس (والفواحش واذا ماغضبواهم يغفرون) مع مابعده عطف على الذين آمنوا اومدح بالنصب او الرفع وبناء يغفرون على الضمير خبر اللدلالة على انهم الاخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرئ كبير الاثم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كبير الاثم الشرك (والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة) نزل فى الانصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان فاستجابوا لله

الجوارى على متن البحر وتقف واما ان يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكهن بسبب الاغراق وعلى هذا التقدير فقوله اويوبقهن معطوف على قوله يسكن لان التقدير ان يشأ يسكن الريح فيركدن او يعصفها فيغرقن بعصفها وقوله ويعفو عن كثير معناه ان يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم فان قيل فامعنى ادخال العفو فى حكم الايباق حيث جعل مجزوما مثله قلنا معناه ان يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم واما من قرأ ويعفو فقد استأنف الكلام ثم قال ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص قرأ نافع وابن عامر يعلم بالرفع على الاستئناف وقرأ الباقون بالنصب فالقراءة بالرفع على الاستئناف واما بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن ومنه قوله تعالى ولنجعله آية للناس وقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت قال صاحب الكشاف ومن قرأ على جزم ويعلم فكأنه قال او ان يشأ يجمع بين ثلاثة امور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية وليعلم الذين يجادلون اى ينازعون على وجه التكذيب ان لا مخلص لهم اذا وقفت السفن واذا عصفت الرياح فيصير ذلك سببا لاعترافهم بأن الاله النافع الضار ليس الا الله واعلم انه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد اردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها لان الذى يمنع من قبول الدليل انما هو الرغبة فى الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه فاذا صغرت الدنيا فى عين الرجل لم يلتفت اليها فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل فقال فما اوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته ولان الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فانه يكون سريع الانقراض والانقضاء ثم قال تعالى وما عند الله خير وابقى والمعنى ان مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا واما الآخرة فانها خير وابقى وصريح العقل يقتضى ترجيح الخير الباقى على الخسيس الفانى ثم بين ان هذه الخيرية انما تحصل لمن كان موصوفا بصفات (الصفة الاولى) ان يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى للذين آمنوا (الصفة الثانية) ان يكون من المتوكلين على فضل الله بدليل قوله تعالى وعلى ربهم يتوكلون فأما من زعم ان الطاعة توجب الثواب فهو متكل على عمل نفسه لا على الله فلا يدخل تحت الآية (الصفة الثالثة) ان يكونوا مجتنبين لكبائر الاثم والفواحش عن ابن عباس كبير الاثم هو الشرك نقله صاحب الكشاف وهو عندى بعيد لان شرط الايمان مذكور اولا وهو يغنى عن عدم الشرك وقيل المراد بكبائر الاثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله واذا ما غضبوا هم يغفرون ما يتعلق بالقوة الغضبية وانما خص الغضب بلفظ الغفران لان الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ والله اعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين

(استجابوا)

(وامرهم شورى بينهم) اى ذو شورى لا ينفردون برأى حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعدها اذا حزبهم امر اجتمعوا وتشاوروا (ومما رزقناهم ينفقون) اى فى سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات (والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون) اى ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل وهذا لا ينافى وصفهم بالغفران فان كلا منهما فضيلة محمودة فى موقع نفسه ورذيلة مذمومة فى موقع صاحبه فان الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب ولغواء اللئام مذموم فانه اغراء على البغى وعليه قول من قال
اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
* فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع الندى *
وقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة مع كونه فى نفسه اساءة الى الغير بالاشارة الى ان البادئ هو الذى فعله لنفسه فان الافعال مستتبعة لاجزيتها حتما

استجابوا لربهم والمراد منه تمام الانقياد فان قالوا اليس انه لما جعل الايمان شرطا فيه فقد دخل فى الايمان اجابة الله قلنا الاقرب عندى ان يحمل هذا على الرضا بقضاء الله من صميم القلب وان لا يكون فى قلبه منازعة فى امر من الامور ولما ذكر هذا الشرط قال واقاموا الصلاة والمراد منه اقامة الصلوات الواجبة لان هذا هو الشرط فى حصول الثواب واما قوله تعالى وامرهم شورى بينهم فقيل كان اذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فاثنى الله عليهم اى لا ينفردون برأى بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه وعن الحسن ما تشاور قوم الا هدوا لأرشد امرهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله وامرهم شورى بينهم اى ذو شورى (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون والمعنى ان يقتصروا فى الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه وعن النخعى انه كان اذا قرأها قال كانوا يكرهون ان يذلوا انفسهم فيجترئ عليهم السفهاء فان قيل هذه الآية مشكلة لوجهين (الاول) انه لما ذكر قبله واذا ما غضبوا هم يغفرون فكيف يليق ان يذكر معه ما يجرى مجرى الضد له وهو قوله والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون (الثانى) وهو ان جميع الآيات دالة على ان العفو احسن قال تعالى وان تعفوا اقرب للتقوى وقال واذا مروا باللغو مروا كراما وقال خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وقال وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية (والجواب) ان العفو على قسمين (احدهما) ان يصير العفو سببا لتسكين الفتنة وجناية الجانى ورجوعه عن جنايته (والثانى) ان يصير العفو سببا لمزيد جراءة الجانى ولقوة غيظه وغضبه والآيات فى العفو محمولة على القسم الاول وهذه الآية محمولة على القسم الثانى وحينئذ يزول التناقض والله اعلم الا ترى ان العفو عن المصر يكون كالاغراء له ولغيره فلو ان رجلا وجد عبده فجر بجاريته وهو مصر فلو عفا عنه كان مذموما وروى ان زينب اقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبى صلى الله عليه وسلم دونك فانتصرى وايضا انه تعالى لم يرغب فى الانتصار بل بين انه مشروع فقط ثم بين بعده ان شرعه مشروط برعاية المماثلة ثم بين ان العفو أولى بقوله فمن عفا واصلح فاجره على الله فزال السؤال والله اعلم ❁ قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين

ان خيرا فخير وان شرا فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدى واطلاق السيئة على الثانية لانها تسوء من نزلت به (فمن عفا) على المسىء اليه (واصلح) بينه وبين من يعاديه بالعفو والاغضاء كما فى قوله تعالى فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم (فأجره على الله) عدة مبهمة منبئة عن عظم شأن الموعود وخروجه عن الحد المعهود (انه لا يحب الظالمين) البادئين بالسيئة والمعتدين فى الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) اى بعد ما ظلم وقد قرئ به (فأولئك) اشارة الى من باعتبار المعنى كما ان الضميرين لها باعتبار اللفظ (ما عليهم من سبيل) بالمعاتبة او المعاقبة (انما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبدؤنهم بالاضرار او يعتدون فى الانتقام (ويبغون فى الارض بغير الحق) اى يتكبرون فيها تجبرا وفسادا (اولئك) الموصوفون بما ذكر من الظلم والبغى بغير الحق (لهم عذاب اليم) بسبب ظلمهم وبغيهم (ولمن صبر) على الاذى (وغفر) لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض امره الى الله تعالى (ان ذلك) الذى ذكر من الصبر والمغفرة (لمن عزم الامور) اى ان ذلك منه فحذف ثقة بغاية ظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم وهذا فى المواد التى لا يؤدى العفو الى الشر كما اشير

خسروا انفسهم واهلهم يوم القيامة الا ان الظالمين فى عذاب مقيم وما كان لهم من اولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فاله من سبيل) اعلم انه تعالى لما قال والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون اردفه بما يدل على ان ذلك الانتصار يجب ان يكون مقيدا بالمثل فان النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوى هو العدل وبه قامت السموات والارض فلهذا السبب قال وجزاء سيئة سيئة مثلها وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول جزاء السيئة مشروع مأذون فيه فكيف سمى بالسيئة اجاب صاحب الكشاف عنه كلتا الفعلتين الاولى سيئة وجزاؤها سيئة لانها تسوء من تنزل به قال تعالى وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا وأجاب غيره بأنه لما جعل احدهما فى مقابلة الآخر اطلق اسم احدهما على الآخر على سبيل المجاز والحق ما ذكره صاحب الكشاف (المسئلة الثانية) هذه الآية اصل كبير فى علم الفقه فان مقتضاها ان تقابل كل جناية بمثلها وذلك لان الاهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان لان فى طبع كل احد الظلم والبغى والعدوان فاذا لم يزجر عنه اقدم عليه ولم يتركه واما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلم يبق الا ان يقابل بالمثل ثم تأكد هذا النص بنصوص اخر كقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وقوله تعالى من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها وقوله عزوجل كتب عليكم القصاص فى القتلى والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله تعالى والجروح قصاص وقوله تعالى ولكم فى القصاص حياة فهذه النصوص بأسرها تقتضى مقابلة الشئ بمثله ثم ههنا دقيقة وهى انه اذا لم يمكن استيفاء الحق الا باستيفاء الزيادة فههنا وقع التعارض بين الحاق زيادة الضرر بالجانى وبين منع المجنى عليه من استيفاء حقه فأيهما أولى فههنا محل اجتهاد المجتهدين ويختلف ذلك باختلاف الصور وتفرع على هذا الاصل بعض المسائل تنبيها على الباقى (المثال الاول) احتج الشافعى رضى الله عنه على ان المسلم لا يقتل بالذمى وان الحر لا يقتل بالعبد بأن قال المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة فى هاتين المسئلتين فوجب ان لا يجرى القصاص بينهما اما بيان ان المماثلة شرط لجريان القصاص فهى النصوص المذكورة وكيفية الاستدلال بها ان نقول اما ان نحمل المماثلة المذكورة فى هذه النصوص على المماثلة فى كل الامور الا ما خصه الدليل او نحملها على المماثلة فى امر معين والثانى مرجوح لان ذلك الامر المعين غير مذكور فى الآية فلو حملنا الآية عليها لزم الاجمال ولو حملنا النص على القسم الاول لزم تحمل التخصيص ومعلوم ان دفع الاجمال أولى من دفع التخصيص فثبت ان الآية تقتضى رعاية المماثلة فى كل الامور الا ما خصه دليل العقل ودليل نقلى منفصل واذا ثبت هذا فنقول رعاية المماثلة فى قتل المسلم بالذمى وفى قتل الحر بالعبد لا تمكن لان الاسلام اعتبره الشرع فى ايجاب القتل لتحصيله عند عدمه كما فى حق الكافر الاصلى ولابقائه عند وجوده كما فى حق

اليه (ومن يضلل الله فاله من ولى من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلانه تعالى اياه (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) اى حين يرونه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (يقولون هل الى مرد) اى الى رجعة الى الدنيا (من سبيل) حتى نؤمن ونعمل صالحا (وتراهم يعرضون عليها) اى على النار المدلول عليها بالعذاب والخطاب فى الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية (خاشعين من الذل) متذللين متضائلين مما دهاهم (ينظرون من طرف خفى) اى يبتدئ نظرهم الى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر الى السيف (وقال الذين آمنوا ان الخاسرين) اى المتصفين بحقيقة الخسران (الذين خسروا انفسهم واهليهم) بالتعريض للعذاب الخالد (يوم القيامة) اما ظرف لخسروا فالقول فى الدنيا اولقال فالقول يوم القيامة اى يقولون حين يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقوله تعالى (ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم) اما من تمام كلامهم او تصديق من الله تعالى لهم (وما كان لهم من اولياء ينصرونهم) برفع العذاب عنهم (من دون الله) حسبما كانوا يرجون ذلك فى الدنيا (ومن يضلل الله فاله من سبيل) يؤدى سلوكه الى النجاة

المرتد وايضا الحرية صفة اعتبرها الشرع فى حق القضاء والامامة والشهادة فثبت ان المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص (المثال الثانى) احتج الشافعى رضى الله عنه فى ان الايدى تقطع باليد الواحدة فقال لاشك انه اذا صدر كل القطع او بعضه عن كل أولئك القاطعين او عن بعضهم فوجب ان يشرع فى حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال بشرع القطع اما كله او بعضه فى حق كلهم او بعضهم قال بايجابه على الكل بقى ان يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجانى وهو ممنوع منه الا انا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجانى وبين جانب المجنى عليه كان جانب المجنى عليه بالرعاية اولى (المثال الثالث) قال شريك الاب شرع فى حقه القصاص والدليل عليه انه صدر عنه الجرح فوجب ان يقابل بمثله لقوله تعالى والجروح قصاص واذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لانه لاقائل بالفرق (المثال الرابع) قال الشافعى رضى الله تعالى عنه من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شئ بمماثله (المثال الخامس) شهود القصاص اذا رجعوا وقالوا تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص لانهم بتلك الشهادة اهدروا دمه فوجب ان يصير دمهم مهدرا لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال السادس) قال الشافعى رضى الله عنه المكره يجب عليه القود لانه صدر عنه القتل ظلما فوجب ان يجب عليه مثله اما انه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه واما انه قتل ظلما فلان المسلمين اجمعوا على انه مكلف من قبل الله تعالى بان لا يقتل واجمعوا على انه يستحق به الاثم العظيم والعقاب الشديد واذا ثبت هذا فوجب ان يقابل بمثله لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال السابع) قال الشافعى رضى الله عنه القتل بالمثقل يوجب القود والدليل عليه ان الجانى ابطل حياته فوجب ان يتمكن ولى المقتول من ابطال حياة القاتل لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال الثامن) الحر لا يقتل بالعبد قصاصا ونحن وان ذكرناه هذه المسئلة فى المثال الاول الا انا نذكرها ههنا وجها آخر من البيان فنقول ان القاتل اتلف على مالك العبد شيئا يساوى عشرة دنانير مثلا فوجب عليه اداء عشرة دنانير لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها واذا وجب الضمان وجب ان لا يجب القصاص لانه لا قائل بالفرق (المثال التاسع) منافع الغصب مضمونة عند الشافعى رضى الله عنه والدليل عليه ان الغاصب فوت على المالك منافع تقابل فى العرف بدينار فوجب ان يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بانه يجب اداؤه الى المغصوب منه (المثال العاشر) الحر لا يقتل بالعبد قصاصا لانه لو قتل بالعبد لكان هو مساويا للعبد فى المعانى الموجبة للقصاص لقوله من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ولسائر النصوص التى تلوناها ثم ان عبد غيره يقتل قصاصا بعبد نفسه فوجب ان يكون عبد غيره مساويا لعبد نفسه فى المعانى الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التى ذكرناها

(استجيبوا لربكم) اذ دعاكم الى الايمان على لسان نبيه (من قبل ان يأتى يوم لا مرد له من الله) اى لا يرده الله بعدما حكم به على ان من صلة مرد او من قبل ان يأتى من الله يوم لا يمكن رده (مالكم من ملجأ يومئذ) اى مفر تلجؤن اليه (ومالكم من نكير) اى انكار لما اقترفتموه لانه مدون فى صحائف اعمالكم وتشهد عليكم جوارحكم (فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا) تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد امرهم بالاستجابة وتوجيه له الى الرسول عليه الصلاة والسلام اى فان لم يستجيبوا واعرضوا عما تدعوهم اليه فما ارسلناك رقيبا ومحاسبا عليهم (ان عليك الا البلاغ) وقد فعلت (وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة) اى نعمة من الصحة والغنى والامن (فرح بها) اريد بالانسان

فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساويا لعبد غيره فى المعانى الموجبة للقصاص فكان عبدنفسه مثلالمثل نفسه ومثل المثل مثل فوجب كون عبدنفسه مثلا لنفسه فى المعانى الموجبة للقصاص ولوقتل الحربعبد غيره لقتل بعبد نفسه بالبيان الذى ذكرناه ولايقتل بعبد نفسه فوجب ان لايقتل بعبد غيره فقدذكرناهذه الامثلة العشرة فى التفريع على هذه الآية ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثيرمن مسائل الشريعة على هذا الاصل والله اعلم ثم ههنا بحث وهو ان اباحنيفة رضى الله عنه قال فى قطع الايدى لاشك انه صدر كل القطع اوبعضه عن كلهم اوعن بعضهم الاانه لايمكن استيفاء ذلك الحق الاباستيفاء الزيادة لان تفويت عشرة من الايدى ازيد من تفويت يدواحدة فوجب ان يبقى على اصل الحرمة فقال الشافعى رضى الله عنه لوكان تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة يدواحدة حراما لكان تفويت عشرة من النفوس فى مقابلة نفس واحدة حراما لان تفويت النفس يشتمل على تفويت اليدفتفويت عشرة من النفوس فى مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة اليدالواحدة فلوكان تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة اليد الواحدة حرامالكان تفويت عشرة من النفوس لاجل النفس الواحدة مشتملا على الحرام والمشتمل على الحرام حرام فكان يجب ان يحرم قتل النفوس العشرة فى مقابلة النفس الواحدة وحيث اجمعنا على انه لايحرم علمنا ان ماذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعا والله اعلم (المسئلة الثانية) قدبينا ان قوله وجزاء سيئة سيئة مثلها يقتضى وجوب رعاية المماثلة مطلقا فى كل الاحوال الافيما خصه الدليل والفقهاء ادخلوا التخصيص فيه فى صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أخص منه وأخرى بناء على القياس ولاشك ان من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه ان يتمسك بهذا النص فى جميع المطالب قال مجاهد والسدى اذا قال له أخزاه الله فليقل له أخزاه الله اما اذا قذفه قذفا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى امر الله به ثم قال تعالى فمن عفى واصلح بينه وبين خصمه بالعفو والاغضاء كما قال تعالى فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم فأجره على الله وهو وعد مبهم لايقاس امره فى التعظيم ثم قال تعالى انه لايحب الظالمين وفيه قولان (الاول) ان المقصود منه التنبيه على ان الجنى عليه لايجوز له استيفاء الزيادة من الظالم لان الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لايكاد يؤمن فيه تجاوز التسويه والتعدى خصوصا فى حال الحرب والتهاب الحمية فربما صار المظلوم عند الاقدام على استيفاء القصاص ظالما وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذاكان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله اجر فليقم قال فيقوم خلق فيقال لهم ما اجركم على الله فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة باذن الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما حث على العفو عن الظالم اخبر انه مع ذلك لايحبه تنبيها على انه اذاكان لايحبه ومع ذلك فانه ندب الى عفوه فالمؤمن الذى هو حبيب الله بسبب ايمانه أولى ان يعفو عنه ثم قال تعالى ولمن

(انتصر)

الجنس لقوله تعالى (وان تصبهم سيئة) اى بلاء من مرض وفقر وخوف (بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور) بليغ الكفر ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم انها اصابته بغير استحقاق لها واسناد هذه الخصلة الى الجنس مع كونها من خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الافراد وتصدير الشرطية الاولى باذا مع اسناد الاذاقة الى نون العظمة للتنبيه على ان ايصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع وانه مقتضى الذات كما ان تصدير الثانية بأن واسناد الاصابة الى السيئة وتعليلها بأعمالهم للايذان بندرة وقوعها وانها بمعزل عن الانتظام فى سلك الارادة بالذات ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على ان هذا الجنس موسوم بكفران النعم (لله ملك السموات

انتصر بعد ظلمه اى ظلم الظالم اياه وهذا من باب اضافة المصدر الى المفعول فأولئك يعنى المنتصرين ماعليهم من سبيل كعقوبة ومؤاخذه لانهم اتوا بما ابيح لهم من الانتصار واحتج الشافعى رضى الله تعالى عنه بهذه الآية فى بيان ان سراية القود مهدرة فقال الشرع اما ان يقال انه اذن له فى القطع مطلقا او بشرط ان لا يحصل منه السريان وهذا الثانى باطل لان الاصل فى القطع الحرمة فاذا كان تجويزه معلقا بشرط عدم السريان وكان هذا الشرط مجهولا وجب أن يبقى ذلك القطع على اصل الحرمة لان الاصل فيما هو الحرمة والحل انما يحصل معلقا على شرط مجهول فوجب ان يبقى ذلك على اصل الحرمة وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الشرع اذن له فى القطع كيف كان سواء سرى او لم يسر واذا كان كذلك وجب ان لا يكون ذلك السريان مضمونا لانه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب ان لا يحصل لاحد عليه سبيل ثم قال انما السبيل على الذين يظلمون الناس اى يبدؤن بالظلم ويبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم ثم قال تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور والمعنى ولمن صبر بأن لا يقتص وغفر وتجاوز فان ذلك الصبر والتجاوز من عزم الامور يعنى ان عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الامور الجيدة وحذف الراجع لانه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكى ان رجلا سب رجلا فى مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية فقال الحسن عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون ثم قال تعالى ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده اى فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه اى من بعد اضلال الله اياه وهذا صريح فى جواز الاضلال من الله تعالى وفى ان الهداية ليست فى مقدور احد سوى الله تعالى قال القاضى المراد ومن يضلل الله عن الجنة فماله من ولى من بعده ينصره (والجواب) ان تقييد الاضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل وايضا فالله تعالى ما اضله عن الجنة على قولكم بل هو اضل نفسه عن الجنة ثم قال تعالى وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل والمراد انهم يطلبون الرجوع الى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل اى حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل ثم قال ينظرون من طرف خفى اى يبتدئ نظرهم من تحريك لاجفانهم ضعيف خفى بمسارقة كما ترى الذى يتيقن ان يقتل فانه ينظر الى السيف كأنه لا يقدر على ان يفتح اجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل فى نظره الى المحبوبات فان قيل أليس انه تعالى قال فى صفة الكفار انهم يحشرون عميا فكيف قال ههنا انهم ينظرون من طرف خفى قلنا لعلهم يكونون فى الابتداء هكذا ثم يجعلون عميا او لعل هذا فى قوم وذلك فى قوم آخرين ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة قال صاحب الكشاف يوم القيامة اما ان يتعلق بخسروا او يكون

والارض) فمن قضيته ان يملك التصرف فيهما وفى كل ما فيهما كيفما يشاء ومن جملته ان يقسم النعمة والبلية حسبما يريده (يخلق ما يشاء) مما تعلمه ومما لا تعلمه (يهب لمن يشاء اناثا) من الاولاد (ويهب لمن يشاء الذكور) منهم من غير ان يكون فى ذلك مدخل لاحد (او يزوجهم) اى يقرن بين الصنفين فيهبهما جميعا (ذكرانا واناثا) قال والمعنى يزوجهم ان تلد غلاما ثم جارية او جارية ثم غلاما او تلد ذكرا وانثى توأمين (ويجعل من يشاء عقيما) والمعنى يجعل احوال العباد فى حق الاولاد مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن فيهب لبعض اما صنفا واحدا من ذكر او انثى واما صنفين ويعقم آخرين ولعل تقديم الاناث لانها اكثر لتكثير النسل او لان مساق الآية للدلالة على ان الواقع ما تعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق

قول المؤمنين واقعا فى الدنيا واما ان يتعلق بقال اى يقولون يوم القيامة اذارأ وهم على تلك الصفة ثم قال الاان الظالمين فى عذاب مقيم اى دائم قال القاضى وهذا يدل على ان الكافر والفاسق يدوم عذابهما (والجواب) ان لفظ الظالم المطلق فى القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى والكافرون هم الظالمون والذى يؤكد هذا انه تعالى قال بعد هذه الآية وما كان لهم من اولياء ينصرونهم من دون الله والمعنى ان الاصنام التى كانوا يعبدونها لاجل ان تشفع لهم عند الله تعالى ما اتوا بتلك الشفاعة ومعلوم ان هذا لايليق الا بالكفار ثم قال ومن يضلل الله فماله من سبيل وذلك يدل على ان المضل والهادى هو الله تعالى على ماهو قولنا ومذهبنا والله اعلم * قوله تعالى (استجيبوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لامرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور لله ملك السموات والارض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور او يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير) اعلم انه تعالى لما اطنب فى الوعد والوعيد ذكر بعده ماهو المقصود فقال استجيبوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لامرد له من الله وقوله من الله يجوز ان يكون صلة لقوله لامرد له يعنى لايرده الله بعدما حكم به ويجوز ان يكون صلة لقوله يأتى اى من قبل ان يأتى من الله يوم لايقدر احد على رده واختلفوا فى المراد بذلك اليوم فقيل هو يوم ورود الموت وقيل يوم القيامة لانه وصف ذلك اليوم بانه لامرد له وهذا الوصف موجود فى كلا اليومين ويحتمل ان يكون معنى قوله لامرد له انه لايقبل التقديم والتأخير اوان يكون معناه ان لامرد فيه الى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافى ثم قال تعالى فى وصف ذلك اليوم مالكم من ملجأ ينفع فى التخلص من العذاب ومالكم من نكير ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر ويجوز ان يكون المراد من النكير الانكار اى لاتقدرون ان تنكروا شيئا مما اقترفتموه من الاعمال فان اعرضوا اى هؤلاء الذين امرتهم بالاستجابة ان لم يقبلوا هذا الامر فما ارسلناك عليهم حفيظا بان تحفظ اعمالهم وتحصيها ان عليك الا البلاغ وذلك تسلية من الله تعالى ثم انه تعالى بين السبب فى اصرارهم على مذاهبهم الباطلة وذلك انهم وجدوا فى الدنيا سعادة وكرامة والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها ونعم الله فى الدنيا وان كانت عظيمة الا انها بالنسبة الى السعادات المعدة فى الآخرة كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سماها ذوقا فبين تعالى ان الانسان اذا فاز بهذا القدر الحقير الذى حصل فى الدنيا فانه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع فى العجب والكبر ويظن انه فاز بكل المنى ووصل الى اقاصى السعادات وهذه طريقة من يضعف اعتقاده فى سعادات

به مشيئة الانسان والاناث كذلك اولان الكلام فى البلاء والعرب تعدهن اعظم البلايا اولتطييب قلوب آبائهن اوللمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور اولجبر التأخير وتغيير العاطف فى الثالث لانه قسيم المشترك بين القسمين ولاحاجة اليه فى الرابع لافصاحه بانه قسيم المشترك بين الاقسام المتقدمة وقيل المراد بيان احوال الانبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط اناثا ولابراهيم ذكورا وللنبى صلى الله عليه وسلم ذكورا واناثا وجعل يحيى وعيسى عقيمين (انه عليم قدير) مبالغ فى العلم والقدرة فيفعل مافيه حكمة ومصلحة (وماكان لبشر) اى وماصح لفرد من افراد البشر (ان يكلمه الله) بوجه من الوجوه (الاوحيا) اى الابان يوحى اليه ويلهمه ويقذف فى قلبه كما اوحى الى ام موسى والى

(الاخرة)

الآخرة وهذه الطريقة مخالفة لطريق المؤمن الذي لايعد نعم الدنيا الا كالوصلة الى نعم الآخرة ثم بين انه متى اصابتهم سيئة اى شئ يسوءهم فى الحال كالمرض والفقر وغيرهما فانه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله فان الانسان كفور والكفور الذى يكون مبالغا فى الكفران ولم يقل فانه كفور ليبين ان طبيعة الانسان تقتضى هذه الحالة الا اذا أدبها الرجل بالآداب التى ارشد الله اليها ولما ذكر الله اذاقة الانسان الرحمة واصابته بضدها اتبع ذلك بقوله لله ملك السموات والارض والمقصود منه ان لايغتر الانسان بما ملكه من المال والجاه بل اذا علم ان الكل ملك الله وملكه وانه انما حصل ذلك القدر تحت يده لان الله انعم عليه به فحينئذ يصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة والخدمة واما اذا اعتقد ان تلك النعم انما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقى مغرورا بنفسه معرضا عن طاعة الله تعالى ثم ذكر من اقسام تصرف الله فى العالم انه يخص البعض بالاولاد الاناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض بأن يجعله محروما من الكل وهو المراد من قوله ويجعل من يشاء عقيما واعلم ان اهل الطبائع يقولون السبب فى حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكورة استيلاء الحرارة وسبب الانوثة استيلاء البرودة وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام فى سورة النحل وابطلناه بالدلائل اليقينية وظهر ان ذلك من الله تعالى لا انه من الطبائع والانجم والافلاك وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) انه قدم الاناث فى الذكر على الذكور فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ثم فى الآية الثانية قدم الذكور على الاناث فقال او يزوجهم ذكرانا واناثا فما السبب فى هذا التقديم والتأخير (السؤال الثانى) انه ذكر الاناث على سبيل التنكير فقال يهب لمن يشاء اناثا وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال ويهب لمن يشاء الذكور فما السبب فى هذا الفرق (السؤال الثالث) لم قال فى اعطاء الاناث وحدهن وفى اعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور وقال فى اعطاء الصنفين معا او يزوجهم ذكرانا واناثا (السؤال الرابع) لما كان حصول الولد هبة من الله فيكفى فى عدم حصوله ان لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله الى ان يقول ويجعل من يشاء عقيما (السؤال الخامس) هل المراد من هذا الحكم جمع معينون او المراد الحكم على الانسان المطلق (والجواب) عن السؤال الاول من وجوه (الاول) ان الكريم يسعى فى ان يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فاذا وهب الولد الانثى اولا ثم اعطاه الذكر بعده فكأنه نقله من الغم الى الفرح وهذا غاية الكرم اما اذا اعطى الولد الذكر اولا ثم اعطى الانثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح الى الغم فذكر تعالى هبة الولد الانثى اولا وثانيا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم الى الفرح فيكون ذلك اليق بالكرم (الوجه الثانى) انه اذا اعطى الولد الانثى اولا علم انه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك فاذا اعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم ان هذه الزيادة فضل من الله تعالى واحسان اليه فيزداد شكره وطاعته ويعلم ان ذلك انما حصل

ابراهيم عليهما السلام فى ذبح ولده وقدورى عن مجاهد اوحى الله الزبور الى داود عليه السلام فى صدره او بأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الاجرام من غير ان يبصر السامع من يكلمه وهو المراد بقوله تعالى (او من وراء حجاب) فانه تمثيل له بحال الملك المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام او بأن يكلمه بواسطة الملك وذلك قوله تعالى (او يرسل رسولا) اى ملكا (فيوحى) ذلك الرسول الى المرسل اليه الذى هو الرسول البشرى (باذنه) اى بأمره تعالى وتيسيره (مايشاء) ان يوحيه اليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الاوقات من الكلام وقيل قوله تعالى وحيا

بمحض الفضل والكرم (الوجه الثالث) قال بعض المذكرين الانثى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبيها على انه كلما كان العجز والحاجة اتم كانت عناية الله به اكثر (الوجه الرابع) كأنه يقال ايتها المرأة الضعيفة العاجزة ان اباك وامك يكرهان وجودك فان كانا قد كرها وجودك فانا قدمتك فى الذكر لتعلمى ان المحسن المكرم هو الله تعالى فاذا علمت المرأة ذلك زادت فى الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم فهذه المعانى هى التى لاجلها وقع ذكر الاناث مقدما على ذكر الذكور وانما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الاناث لان الذكر اكمل وافضل من الانثى والافضل الاكمل مقدم على الاخس الارذل والحاصل ان النظر الى كونه ذكرا او انثى يقتضى تقديم ذكر الذكر على ذكر الانثى اما العوارض الخارجية التى ذكرناها فقد اوجبت تقديم ذكر الانثى على ذكر الذكر فلما حصل المقتضى للتقديم والتأخير فى البابين لاجرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة اخرى والله اعلم (واما السؤال الثانى) وهو قوله لم عبر عن الاناث بلفظ التنكير وعن الذكور بلفظ التعريف فجوابه ان المقصود منه التنبيه على كون الذكر افضل من الانثى (واما السؤال الثالث) وهو قوله لم قال تعالى فى اعطاء الصنفين اويزوجهم ذكرانا واناثا فجوابه ان كل شيئين يقرن احدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية فى يزوجهم عائدة على الاناث والذكور التى فى الآية الاولى والمعنى يقرن الاناث والذكور فيجعلهم ازواجا (واما السؤال الرابع) فجوابه ان العقيم هو الذى لايولد له يقال رجل عقيم لايلد وامرأة عقيم لاتلد واصل العقم القطع ومنه قيل الملك عقيم لانه يقطع فيه الارحام بالقتل والعقوق (واما السؤال الخامس) فجوابه قال ابن عباس يهب لمن يشاء اناثا يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما الا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له الا الذكور اويزوجهم ذكرانا واناثا يريد محمدا صلى الله عليه وسلم كان له من البنين اربعة القاسم والطاهر وعبدالله وابراهيم ومن البنات اربعة زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة ويجعل من يشاء عقيما يريد عيسى ويحيى وقال الاكثرون من المفسرين هذا الحكم عام فى حق كل الناس لان المقصود بيان نفاذ قدرة الله فى تكوين الاشياء كيف شاء وأراد فلم يكن للتخصيص معنى والله اعلم ثم ختم الآية بقوله انه عليم قدير قال ابن عباس عليم بما خلق قدير على ما يشاء ان يخلقه والله اعلم

❁ قوله تعالى (وماكان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا اومن وراء حجاب اويرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ألا الى الله تصير الامور) اعلم انه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته اتبعه ببيان انه كيف يخص انبياءه بوحيه وكلامه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وماكان لبشر وما صح لاحد من البشر

وقوله تعالى اويرسل مصدران واقعان مواقع الحال وقوله تعالى اومن وراء حجاب ظرف واقع موقعها والتقدير وماصح ان يكلم الاموحيا او مسمعا من وراء حجاب اومرسلا وقرئ اويرسل بالرفع على اضمار مبتدأ وروى ان اليهود قالت للنبى عليه الصلاة والسلام الاتكلم الله وتنظر اليه ان كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر اليه فانا لن نؤمن حتى تفعل ذلك فقال عليه السلام لم ينظر موسى عليه السلام الى الله تعالى فنزلت وعن عائشة رضى الله عنهـا من زعم ان محمدا رأى ربه فقد اعظم على الله الفرية ثم قالت رضى الله عنهـا اولم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية (انه على) متعال عن صفات المخلوقين لايتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم الا بأحد الوجوه المذكورة (حكيم) يجرى افعاله على سنن

ان يكلمه الله الا على احد ثلاثة اوجه اما على الوحى وهو الالهام والقذف فى القلب او المنام كما اوحى الله الى ام موسى وابراهيم عليه السلام فى ذبح ولده وعن مجاهد اوحى الله تعالى الزبور الى داود عليه السلام فى صدره واما على ان يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ وهذا ايضا وحى بدليل انه تعالى اسمع موسى كلامه من غير واسطة مع انه سماه وحيا قال تعالى فاستمع لما يوحى واما على ان يرسل اليه رسولا من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحى الى الرسول البشرى فطريق الحصر ان يقال وصول الوحى من الله الى البشر اما ان يكون من غير واسطة مبلغ او يكون بواسطة مبلغ واذا كان الاول وهو ان يصل اليه وحى الله لا بواسطة شخص آخر فههنا اما ان يقال انه لم يسمع عين كلام الله او يسمعه اما الاول وهو انه وصل اليه الوحى لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله الا وحيا واما الثانى وهو انه وصل اليه الوحى لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله او من وراء حجاب واما الثالث وهو انه وصل اليه الوحى بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء واعلم ان كل واحد من هذه الاقسام الثلاثة وحى الا انه تعالى خصص القسم الاول باسم الوحى لان ما يقع فى القلب على سبيل الالهام فهو يقع دفعة فكان تخصيص لفظ الوحى به اولى فهذا هو الكلام فى تمييز هذه الاقسام بعضها عن بعض (المسئلة الثانية) القائلون بأن الله فى مكان احتجوا بقوله او من وراء حجاب وذلك لان التقدير وما كان لبشر ان يكلمه الله الا على احد ثلاثة اوجه (احدها) ان يكون الله من وراء حجاب وانما يصح ذلك لو كان مختصا بمكان معين وجهة معينة (والجواب) ان ظاهر اللفظ وان اوهم ما ذكرتم الا انه دلت الدلائل العقلية والنقلية على انه تعالى يمتنع حصوله فى المكان والجهة فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل والمعنى ان الرجل اذا سمع كلاما مع انه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شبيها بما اذا تكلم من وراء حجاب والمشابهة سبب لجواز المجاز (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على انه تعالى لا يرى وذلك لانه تعالى حصر اقسام وحيه فى هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى انه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد فحينئذ يكون ذلك قسما رابعا زائدا على هذه الاقسام الثلاثة والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله وما كان لبشر ان يكلمه الله الا على احد هذه الاوجه الثلاثة (والجواب) نزيد فى اللفظ قيدا فيكون التقدير وما كان لبشر ان يكلمه الله فى الدنيا الا على احد هذه الاقسام الثلاثة وحينئذ لا يلزم ما ذكرتموه وزيادة هذا القيد وان كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير اليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية فى يوم القيامة والله اعلم (المسئلة الرابعة) اجمعت الامة على ان الله تعالى متكلم ومن سوى الاشعرى واتباعه اطبقوا على ان كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والاصوات المؤلفة واما الاشعرى واتباعه فانهم زعموا ان كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف

الحكمة فيكلم تارة بواسطة واخرى بدونها اما الهاما واما خطابا (وكذلك) اى ومثل ذلك الايحاء البديع (اوحينا اليك روحا من امرنا) هو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للابدان حيث يحييها حياة ابدية وقيل هو جبريل عليه السلام ومعنى ايحائه اليه عليهما السلام ارساله اليه بالوحى (ما كنت تدرى) قبل الوحى (ما الكتاب) أى أى شىء هو (ولا الايمان) اى الايمان بتفاصيل ما فى تضاعيف الكتاب من الامور التى لا تهتدى اليها العقول لا الايمان بما يستقل به العقل والنظر فان درايته عليه الصلاة والسلام له مما لاريب فيه قطعا (ولكن جعلناه) اى الروح الذى اوحيناه اليك (نورا نهدى به من نشاء) هدايته (من عبادنا) وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله تعالى (وانك لتهدى) تقرير

والاصوات (اماالفريق الاول) وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (احدهما) الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء اخس من ان يذكروا فى زمرة العقلاء واتفق انى قلت يوما لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف امان يتكلم بها دفعة واحدة اوعلى التعاقب والتوالى والاول باطل لان التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لايفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالى فوجب ان لايكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى والثانى باطل لانه تعالى لو تكلم بها على التوالى والتعاقب كانت محدثة ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا ان نقر ونمر يعنى نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ماسمعناه فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل واما العقلاء من الناس فقد اطبقوا على ان هذه الحروف والاصوات كائنة بعد ان لم تكن حاصلة بعد ان كانت معدومة ثم اختلف عباراتهم فى انها هل هى مخلوقة اولا يقال ذلك بل يقال انها حادثة اويعبر عنها بعبارة اخرى واختلفوا ايضا فى ان هذه الحروف هل هى قائمة بذات الله تعالى اويخلقها فى جسم آخر فالاول هو قول الكرامية والثانى قول المعتزلة واما الاشعرية الذين زعموا ان كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الالفاظ والعبارات فقد اتفقوا على ان قوله اومن وراء حجاب هو ان الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحرف والصوت من وراء حجاب قالوا وكما لايبعد ان ترى ذات الله مع انه ليس بجسم ولا فى حيز فأى بعد فى ان يسمع كلام الله مع انه لايكون حرفا ولاصوتا وزعم ابو منصور الماتريدى السمرقندى ان تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة وانما المسموع حروف واصوات يخلقها الله تعالى فى الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله اعلم (المسئلة الخامسة) قال القاضى هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه (الاول) ان قوله تعالى ان يكلمه الله يدل عليه لان كلمة ان مع المضارع تفيد الاستقبال (الثانى) انه وصف الكلام بانه وحى لان لفظ الوحى يفيد انه وقع على اسرع الوجوه (الثالث) ان قوله او يرسل رسولا فيوحى بأذنه مايشاء يقتضى ان يكون الكلام الذى يبلغه الملك الى الرسول البشرى مثل الكلام الذى سمعه من الله والذى يبلغه الى الرسول البشرى حادث فلما كان الكلام الذى سمعه من الله مماثلا لهذا الذى يبلغه الى الرسول البشرى وهذا الذى يبلغه الى الرسول البشرى حادث ومثل الحادث حادث وجب ان يقال ان الكلام الذى سمعه من الله حادث (الرابع) ان قوله او يرسل رسولا فيوحى يقتضى كون الوحى حاصلا بعد الارسال وما كان حصوله متأخرا عن حصول غيره كان حادثا (والجواب) انا نصرف جملة هذه الوجوه التى ذكرتموها الى الحروف والاصوات ونعترف بانها حادثة كائنة بعد ان لم تكن وبديهة العقل شاهدة بان الامر كذلك فاى حاجة الى اثبات هذا المطلوب الذى علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن والله اعلم (المسئلة السادسة) ثبت ان الوحى من الله تعالى

(اما)

لهدايته تعالى وبيان لكيفيتها ومفعول لتهدى محذوف ثقة بغاية الظهور اى وانك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته (الى صراط مستقيم) هو الاسلام وسائر الشرائع والاحكام وقرئ لتهدى اى ليهديك الله وقرئ لتدعو (صراط الله) بدل من الاول واضافته الى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى (الذى له مافى السموات ومافى الارض) لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فان كون جميع مافيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم ايجاب (الا الى الله تصير الامور) اى امور مافيهما قاطبة لاالى غيره ففيه من الوعد للمهتدين الى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه مالايخفى * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون ويسترحمون له

امالن لايكون بواسطه شخص آخر واما ان يكون بواسطة شخص آخر ويمتنع ان يكون كل وحى حاصلا بواسطة شخص آخر والا لزم اما التسلسل واما الدور وهما محالان فلابد من الاعتراف بحصول وحى يحصل لابواسطة شخص آخر ثم ههنا ابحاث (البحث الاول) ان الشخص الاول الذى سمع وحى الله لابواسطة شخص آخر كيف يعرف ان الكلام الذى سمعه كلام الله فان قلنا انه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفا وصوتا لم يبعد انه اذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ولم يبعد ان يقال انه يحتاج بعد ذلك الى دليل زائد اما ان قلنا ان المسموع هو الحرف والصوت امتنع ان يقطع بكونه كلاما لله تعالى الا اذا ظهرت دلالة على ان ذلك المسموع هو كلام الله تعالى (البحث الثانى) ان الرسول اذا سمعه من الملك كيف يعرف ان ذلك المبلغ ملك معصوم لاشيطان مضل والحق انه لايمكنه القطع بذلك الابناء على معجزة تدل على ان ذلك المبلغ ملك معصوم لاشيطان خبيث وعلى هذا التقدير فالوحى من الله تعالى لايتم الابثلاث مراتب فى ظهور المعجزات (المرتبة الاولى) ان الملك اذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلابد له من معجزة تدل على ان ذلك الكلام كلام الله تعالى (والمرتبة الثانية) ان ذلك الملك اذا وصل الى الرسول لابد له ايضا من معجزة (والمرتبة الثالثة) ان ذلك الرسول اذا وصله الى الامة فلابد له ايضا من معجزة فثبت ان التكليف لايتوجه على الخلق الابعد وقوع ثلاث مراتب فى المعجزات (البحث الثالث) انه لاشك ان ملكا من الملائكة قد سمع الوحى من الله تعالى ابتداء فذلك الملك هو جبريل ويقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر فالكل محتمل ولو بألف واسطة ولم يوجد مايدل على القطع بواحد من هذه الوجوه (البحث الرابع) هل فى البشر من سمع وحى الله تعالى من غير واسطة المشهور ان موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة بدليل قوله تعالى فاستمع لما يوحى وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم سمعه ايضا لقوله تعالى فأوحى الى عبده مااوحى (البحث الخامس) ان الملائكة يقدرون على ان يظهروا انفسهم على اشكال مختلفة فبتقدير ان يراه الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل مرة وجب ان يحتاج الى المعجزة ليعرف ان هذا الذى رآه فى هذه المرة عين مارآه فى المرة الاولى وان كان لايرى شخصه كانت الحاجة الى المعجزة اقوى لاحتمال انه حصل الاشتباه فى الصوت الا ان الاشكال فى ان الحاجة الى اظهار المعجزة فى كل مرة لم يقل به احد (المسئلة السابعة) دلت المناظرات المذكورة فى القرآن بين الله تعالى وبين ابليس على انه تعالى كان يتكلم مع ابليس من غير واسطة فذلك هل يسمى وحيا من الله تعالى الى ابليس ام لا الاظهر منعه ولا بد فى هذا الموضع من بحث غامض كامل (المسئلة الثامنة) قرأ نافع او يرسل رسولا برفع اللام فيوحى بسكون الياء ومحله رفع على تقدير اوهو يرسل فيوحى والباقون بالنصب على تأويل المصدر كأنه قيل ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او اسماعا لكلامه من وراء حجاب اويرسل لكن فيه اشكال لان قوله وحيا او سماعا اسم وقوله او يرسل فعل

﴿سورة الزخرف مكية وقيل (الاقوله واسأل من ارسلنا) (وآيها تسع وثمانون)﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم) الكلام فيه كالذى مر فى فاتحة سورة يس خلا ان الظاهر على تقدير اسميته كونه اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فان ذلك مخل بجزالة النظم الكريم (والكتاب) بالجر على انه مقسم به اما ابتداء او عطفا على حم على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم على ان مدار العطف المغايرة فى العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة فى تأكيد مضمون الجملة القسمية (المبين) اى البين لمن انزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى اساليبهم او المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل مايحتاج اليه فى ابواب الديانة (انا جعلناه قرآنا عربيا) جواب للقسم لكن لا على ان مرجع التأكيد جعله كذلك كما قيل بل ماهو غايته التى يعرب عنها قوله تعالى (لعلكم تعقلون) فانها المحتاجة الى

وعطف الفعل على الاسم قبيح فأجيب عنه بان التقدير وما كان لبشران يكلمه الا ان يوحى اليه وحيا او يسمع اسماعا من وراء حجاب او يرسل رسولا (المسئلة التاسعة) الصحيح عند اهل الحق ان عندما يبلغ الملك الوحى الى الرسول لا يقدر الشيطان على القاء الباطل فى اثناء ذلك الوحى وقال بعضهم يجوز ذلك لقوله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته وقالوا الشيطان القى فى اثناء سورة النجم تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله وكان افضل من لقيته من ارباب السلطنة يقول هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة باطل من وجهين آخرين (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لا يتمثل بصورتى فاذا لم يقدر الشيطان على ان يتمثل فى المنام بصورة الرسول فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحى الله تعالى (والثانى) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ماسلك عمر فجا الا وسلك الشيطان فجا آخر فاذا لم يقدر الشيطان ان يحضر مع عمر فى فج واحد فكيف يقدر على ان يحضر مع جبريل فى موقف تبليغ وحى الله تعالى (المسئلة العاشرة) قوله تعالى فيوحى باذنه مايشاء يعنى فيوحى ذلك الملك باذن الله مايشاء الله وهذا يقتضى ان الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه وان القبيح لا يقبح لوجه عائد اليه بل لله ان يأمر بمايشاء من غير تخصيص وان ينهى عما يشاء من غير تخصيص اذ لو لم يكن الامر كذلك لما صح قوله مايشاء والله اعلم ثم قال تعالى فى آخر الآية انه على حكيم يعنى انه على عن صفات المخلوقين حكيم يجرى افعاله على موجب الحكمة فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الالهام وأخرى باسماع الكلام وثالثا بتوسيط الملائكة الكرام ولما بين الله تعالى كيفية اقسام الوحى الى الانبياء عليهم السلام قال وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا والمراد به القرآن وسماه روحا لانه يفيد الحياة من موت الجهل او الكفر ثم قال تعالى ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان واختلف العلماء فى هذه الآية مع الاجماع على انه لا يجوز ان يقال الرسل كانوا قبل الوحى على الكفر وذكروا فى الجواب وجوها (الاول) ماكنت تدرى ماالكتاب أى القرآن ولا الايمان اى الصلاة لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم اى صلاتكم (الثانى) ان يحمل هذا على حذف المضاف اى ماكنت تدرى ماالكتاب ومن اهل الايمان يعنى من الذى يؤمن ومن الذى لا يؤمن (الثالث) ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان حين كنت طفلا فى المهد (الرابع) الايمان عبارة عن الاقرار بجميع ماكلف الله تعالى به وانه قبل النبوة ماكان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفا بالله تعالى وذلك لا ينافى ماذكرناه (الخامس) صفات الله تعالى على قسمين منها مايمكن معرفته بمحض دلائل العقل ومنها مالا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثانى لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة ثم قال تعالى ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا واختلفوا فى الضمير

التحقيق والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بامرهم واتمام النعمة عليهم وازاحة اعذارهم اى جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة فى ذلك وتنقطع اعذاركم بالكلية (وانه فى ام الكتاب) اى فى اللوح المحفوظ فانه اصل الكتب السماوية وقرئ ام الكتاب بالكسر (لدينا) اى عندنا (لعلى) رفيع القدر بين الكتب شريف (حكيم) ذو حكمة بالغة او محكم وهما خبران لان ومابينهما بيان لمحل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا فى ام الكتاب ولدينا والجملة اما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة فى حكمها ففى الاقسام بالقرآن على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وايذان بأنه من علو الشأن بحيث

فى قوله ولكن جعلناه منهم من قال انه راجع الى القرآن دون الايمان لانه هو الذى يعرف به الاحكام فلاجرم شبه بالنور الذى يهتدى به ومنهم من قال انه راجع اليهما معا وحسن ذلك لان معناهما واحد كقوله تعالى واذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها ثم قال نهدى به من نشاء من عبادنا وهذا يدل على انه تعالى بعد ان جعل القرآن فى نفسه هدى كما قال هدى للمتقين فانه قد يهدى به البعض دون البعض وهذه الهداية ليست عبارة عن الدعوة وايضاح الادلة لانه تعالى قال فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وانك لتهدى الى صراط مستقيم وهو يفيد العموم بالنسبة الى الكل وقوله نهدى به من نشاء من عبادنا يفيد الخصوص فثبت ان الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية فى قوله نهدى به من نشاء من عبادنا خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب ان يكون المراد من قوله نهدى به من نشاء من عبادنا امرا مغايرا لاظهار الدلائل ولازالة الاعذار ولا يجوز ايضا ان يكون عبارة عن الهداية الى طريق الجنة لانه تعالى قال ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا اى جعلنا القرآن نورا نهدى به من نشاء وهذا لا يليق الا بالهداية التى تحصل فى الدنيا وايضا فالهداية الى الجنة عندكم فى حق البعض واجب وفى حق الآخرين محظور وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله من نشاء من عبادنا فائدة فثبت ان المراد انه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وانك لتهدى الى صراط مستقيم فبين تعالى انه كما ان القرآن يهدى فكذلك الرسول يهدى وبين انه يهدى الى صراط مستقيم وبين ان ذلك الصراط هو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض نبه بذلك على ان الذى تجوز عبادته هو الذى يملك السموات والارض والغرض منه ابطال قول من يعبد غير الله ثم قال الا الى الله تصير الامور وذلك كالوعيد والزجر فبين ان امر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع الى الله تعالى اى الى حيث لا حاكم سواه فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب او عقاب (قال رضى الله عنه) تم تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة * يا مدبر الامور ويا مدهر الدهور ويا معطى كل خير وسرور ويا دافع البلايا والشرور اوصلنا الى منازل النور فى ظلمات القبور بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين

(سورة الزخرف وهى تسع وثمانون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم افنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين وكم ارسلنا من نبى فى الاولين وما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزؤن فأهلكنا اشد منهم بطشا ومضى مثل الاولين) اعلم ان قوله حم والكتاب المبين يحتمل وجهين (الاول) ان يكون التقدير هذه حم والكتاب

لا يحتاج فى بيانه الى الاستشهاد عليه بالاقسام بغيره بل هو بذاته كاف فى الشهادة على ذلك من حيث الاقسام به كما أنه كاف فيها من حيث اعجازه ورمزه الى انه لا يخطر بالبال عند ذكره شئ آخر اولى منه بالاقسام به واما مستأنفة مقررة لعلو شأنه الذى انبأ عنه الاقسام به على منهاج الاعتراض فى قوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وبعد ما بين علو شأن القرآن العظيم وحقق ان انزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب ذلك بانكار ان يكون الامر بخلافه فقيل (أفنضرب عنكم الذكر) اى ننحيه ونبعده عنكم مجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض وفيه اشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام اى انهملكم فننحى الذكر عنكم (صفحا) اى اعراضا عنكم على انه مفعول له للمذكور او مصدر

المبين فيكون القسم واقعا على ان هذه السورة هى سورة حم ويكون قوله انا جعلناه قرآنا عربيا ابتداء لكلام آخر (والثانى) ان يكون التقدير هذه حم ثم قال والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا فيكون المقسم عليه هو قوله انا جعلناه قرآنا عربيا وفى المراد بالكتاب قولان (احدهما) ان المراد به القرآن وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن انه جعله عربيا (الثانى) ان المراد بالكتاب الكتابة والخط اقسم بالكتابة لكثرة مافيها من المنافع فان العلوم انما تكاملت بسبب الخط فان المتقدم اذا استنبط علما واثبته فى كتاب وجاء المتأخر ووقف عليه امكنه ان يزيد فى استنباط الفوائد فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد انتهت الى الغايات العظيمة وفى وصف الكتاب بكونه مبينا وجوه (الاول) انه المبين للذين انزل اليهم لانه بلغتهم ولسانهم (والثانى) المبين هو الذى ابان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة واعلم ان وصفه بكونه مبينا مجاز لان المبين هو الله تعالى وسمى القرآن بذلك توسعا من حيث انه حصل البيان عنده اما قوله انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) ان الآية تدل على ان القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق فان قالوا لم لا يجوز ان يكون المراد انه سماه عربيا قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) انه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب ان من سماه عجميا ان يصير عجميا وان كان بلغة العرب ومعلوم انه باطل (الثانى) انه لو صرف الجعل الى التسمية لزم كون التسمية مجعولة والتسمية ايضا كلام الله وذلك يوجب انه فعل بعض كلامه واذا صح ذلك فى البعض صح فى الكل (الثانى) انه وصفه بكونه قرآنا وهو انما سمى قرآنا لانه جعل بعضه مقرونا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعا معمولا (الثالث) انه وصفه بكونه عربيا وهو انما كان عربيا لان هذه الالفاظ انما اختصت بمسمياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم وذلك يدل على كونه معمولا ومجعولا (الرابع) ان القسم بغير الله لا يجوز على ماهو معلوم فكان التقدير حم ورب الكتاب المبين وتأكد هذا ايضا بما روى انه عليه السلام كان يقول يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم (والجواب) ان هذا الذى ذكرتموه فى حق وذلك لانكم انما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذى ينازعكم فيه بل كان كلامكم يرجع حاصله الى اقامة الدليل على ماعرف ثبوته بالضرورة (المسئلة الثانية) كلمة لعل للتمنى والترجى وهو لا يليق بمن كان عالما بعواقب الامور فكان المراد منها ههنا كى اى انزلناه قرآنا عربيا لكى تعقلوا معناه وتحيطوا بفحواه قالت المعتزلة فصار حاصل الكلام انا انزلناه قرآنا عربيا لاجل ان تحيطوا بمعناه وهذا يفيد امرين (احدهما) ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض والدواعى (والثانى) انه تعالى انما انزل القرآن ليهتدى به الناس وذلك يدل على انه تعالى اراد من الكل

مؤكد لما دل هو عليه فان التنحية منبئة عن الصفح والاعراض قطعا كأنه قيل افنصفح عنكم صفحا او بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية اى افننحيه عنكم جانبا (ان كنتم قوما مسرفين) اى لان كنتم منهمكين فى الاسراف مصرين عليه على معنى ان حالكم وان اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا فى العذاب الخالد لكنا لسعة رحمتنا لانفعل ذلك بل نهديكم الى الحق بارسال الرسول الامين وانزال الكتاب المبين وقرئ ان بالكسر على ان الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم والجزاء محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه وقوله تعالى (وكم ارسلنا من نبى فى الاولين وما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزؤن) تقرير لما قبله ببيان ان اسراف الامم السالفة لم يمنعه تعالى من ارسال الانبياء اليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه

الهداية و المعرفة خلاف قول من يقول انه تعالى أراد من البعض الكفر و الاعراض واعلم ان هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور واجوبتنا عنه مشهورة فلا فائدة في الاعادة والله اعلم (المسئلة الثالثة) قوله لعلكم تعقلون يدل على ان القرآن معلوم وليس فيه شئ مبهم مجهول خلافا لمن يقول القرآن بعضه معلوم و بعضه مجهول ثم قال تعالى وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي ام الكتاب بكسر الالف والباقون بالضم (المسئلة الثانية) الضمير في قوله وانه عائد الى الكتاب الذي تقدم ذكره في ام الكتاب لدينا واختلفوا في المراد بام الكتاب على قولين (فالقول الاول) انه اللوح المحفوظ لقوله بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ واعلم ان على هذا التقدير فالصفات المذكورة ههنا كلها صفات اللوح المحفوظ (فالصفة الاولى) انه ام الكتاب والسبب فيه ان اصل كل شئ امه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ثم نقل الى سماء الدنيا ثم انزل حالا بعد حال بحسب المصلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ان اول ما خلق الله القلم فأمره ان يكتب ما يريد ان يخلق فالكتاب عنده فان قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع انه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان قلنا انه تعالى لما اثبت في ذلك احكام حوادث المخلوقات ثم ان الملائكة يشاهدون ان جميع الحوادث انما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه (الصفة الثانية) من صفات اللوح المحفوظ قوله لدينا هكذا ذكره ابن عباس وانما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابا جامعا لاحوال جميع المحدثات فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته فلا جرم حصل له هذا التشريف قال الواحدي ويحتمل ان يكون هذا صفة القرآن والتقدير وانه لدينا في ام الكتاب (الصفة الثالثة) كونه عليا والمعنى كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر (الصفة الرابعة) كونه حكيما اى محكما في ابواب البلاغة والفصاحة وقيل حكيم اى ذو حكمة بالغة وقيل ان هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه (والقول الثاني) في تفسير ام الكتاب انه الآيات المحكمة لقوله تعالى هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب ومعناه ان سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الاصل والام ثم قال تعالى أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وحمزة والكسائي ان كنتم بكسر الالف تقديره ان كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحا وقيل ان بمعنى اذ كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط والباقون بفتح الالف على التعليل اى لان كنتم مسرفين (المسئلة الثانية) قال الفراء والزجاج يقال ضربت عنه واضربت عنه اى تركته وامسكت عنه وقوله صفحا اى اعراضا والاصل فيه انك توليت بصفحة عنقك

وسلم عن استهزاء قومه به وقوله تعالى (فأهلكنا اشد منهم بطشا) اى من هؤلاء القوم المسرفين عدة له عليه الصلاة والسلام ووعيد لهم بمثل ما جرى على الاولين ووصفهم بشدية البطش لاثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الاولوية (ومضى مثل الاولين) اى سلف في القرآن غير مرة ذكر قصتهم التي حقها ان تسير مسير المثل (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم) اى ليسندن خلقها الى من هذا شأنه في الحقيقة وفي نفس الامر لا انهم يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للاشعار بأن اتصافه تعالى بما سرد من جلائل الصفات والافعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء امر بين لا ريب فيه وان الحجة قائمة عليهم شاؤا او أبوا وقد يجوز ان يكون ذلك عين عبارتهم وقوله تعالى (الذي جعل لكم الارض مهادا) استئناف من جهته تعالى اى بسطها لكم تستقرون فيها (وجعل لكم فيها

وعلى هذا فقوله أفنضرب عنكم الذكر صفحا تقديره أفنضرب عنكم اضرابا اوتقديره أفنصفح عنكم صفحا واختلفوا فى معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ وقيل أفنرد عنكم القرآن وهذا استفهام على سبيل الانكار يعنى انا لانترك هذا الاعذار والانذار بسبب كونكم مسرفين قال قتادة لوان هذا القرآن رفع حين رده اوائل هذه الامة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم اليه عشرين سنة اذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين (الاول) الرحمة يعنى انا لانترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم الى ان ترجعوا الى الطريق الحق (الثانى) المبالغة فى التغليظ يعنى أتظنون ان تتركوا مع ماتريدون كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم الى الدين ونؤاخذكم متى اخللتم بالواجب واقدمتم على القبيح (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف الفاء فى قوله أفنضرب للعطف على محذوف تقديره انهملكم فنضرب عنكم الذكر ثم قال تعالى وكم ارسلنا من نبى فى الاولين ومايأتيهم من نبى الاكانوا به يستهزؤن والمعنى ان عادة الامم مع الانبياء الذين يدعونهم الى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء فلا ينبغى ان تتأذى من قومك بسبب اقدامهم على التكذيب والاستهزاء لان المصيبة اذا عمت خفت ثم قال تعالى فأهلكنا اشد منهم بطشا يعنى ان أولئك المتقدمين الذين ارسل الله اليهم الرسل كانوا اشد بطشا من قريش يعنى اكثر عددا وجلدا ثم قال ومضى مثل الاولين والمعنى ان كفار مكة سلكوا فى الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا ان ينزل بهم من الخزى مثل مانزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال وكلا ضربنا له الامثال وكقوله وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم الى قوله وضربنا لكم الامثال والله اعلم ❋ قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذى جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون) اعلم انه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم ايضا ذكر الانبياء فقوله ولئن سألتهم يحتمل ان يرجع الى الانبياء ويحتمل ان يرجع الى الكفار الا ان الاقرب رجوعه الى الكفار فبين تعالى انهم مقرون بان خالق السموات والارض ومابينهما هو الله العزيز الحكيم والمقصود انهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث وقد تقدم الاخبار عنهم ثم انه تعالى ابتدأ دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال الذى جعل لكم الارض مهدا ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب ان يقول الذى جعل لنا الارض مهدا ولان قوله فى اثناء الكلام

(فأنشرنا)

سبلا) تسلكونها فى اسفاركم (لعلكم تهتدون) اى لكى تهتدوا بسلوكها الى مقاصدكم او بالتفكر فيها الى التوحيد الذى هو المقصد الاصلى (والذى نزل من السماء ماء بقدر) بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (فانشرنا به) اى احيينا بذلك الماء (بلدة ميتا) خاليا عن النماء والنبات بالكلية وقرئ ميتا بالتشديد وتذكيره لان البلدة فى معنى البلد والمكان والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال العناية بأمر الاحياء والاشعار بعظم خطره (كذلك) اى مثل ذلك الاحياء الذى هو فى الحقيقة اخراج النبات من الارض (تخرجون) اى تبعثون من قبوركم احياء وفى التعبير عن اخراج النبات بالانشار الذى هو احياء الموتى وعن احيائهم بالاخراج تفخيم لشأن الانبات وتهويل لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس (والذى خلق الازواج كلها) اى

فأنشرنا به بلدة ميتا لايليق الابكلام الله ونظيره من كلام الناس ان يسمع الرجل رجلا يقول الذى بنى هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كان ذلك السامع يقول انا اعرفه بصفات جيدة فوق ماتعرفه فازيد فى وصفه فيكون النعتان جميعا من رجلين لرجل واحد اذا عرفت كيفية النظم فى الآية فنقول انها تدل على انواع من صفات الله تعالى (الصفة الاولى) كونه خالقا للسموات والارض والمتكلمون بينوا ان اول العلم بالله العلم بكونه محدثا للعالم فاعلا له فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقا وهذا انما يتم اذا فسرنا الخلق بالاحداث والابداع (الصفة الثانية) العزيز وهو الغالب ومالاجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة فكان العزيز اشارة الى كمال القدرة (الصفة الثالثة) العليم وهو اشارة الى كمال العلم واعلم ان كمال العلم والقدرة اذا حصل كان الموصوف به قادرا على خلق جميع الممكنات فلهذا المعنى اثبت تعالى كونه موصوفا بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل (الصفة الرابعة) قوله الذى جعل لكم الارض مهدا وقد ذكرنا فى هذا الكتاب ان كون الارض مهدا انما حصل لاجل كونها واقفة ساكنة ولاجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها فى الزراعة وبناء الابنية وفى كونها ساترة لعيوب الاحياء والاموات ولما كان المهد موضع الراحة للصبى جعل الارض مهدا لكثرة ما فيها من الراحات (الصفة الخامسة) قوله وجعل لكم فيها سبلا والمقصود ان انتفاع الناس انما يكمل اذا قدر كل احد ان يذهب من بلد الى بلد ومن اقليم الى اقليم ولولا ان الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة والا لما حصل هذا الانتفاع ثم قال تعالى لعلكم تهتدون يعنى المقصود من وضع السبل ان يحصل لكم المكنة من الاهتداء والثانى المعنى لتهتدوا الى الحق فى الدين (الصفة السادسة) قوله تعالى والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا وههنا مباحث (احدها) ان ظاهر هذه الآية يقتضى ان الماء ينزل من السماء فهل الامر كذلك او يقال انه ينزل من السحاب وسمى نازلا من السماء لان كل ما سماك فهو سماء وهذا البحث قد مر ذكره بالاستقصاء (وثانيها) قوله بقدر اى انما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج اليه اهل تلك البقعة من غير زيادة ولانقصان لاكما انزل على قوم نوح بغير قدر حتى اغرقهم بل بقدر حتى يكون معاشا لكم ولانعامكم (وثالثها) قوله فانشرنا به بلدة ميتا اى خالية من النبات فاحييناها وهو الانشار ثم قال كذلك تخرجون يعنى ان هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه انه يجعلهم احياء بعد الاماتة كهذه الارض التى انشرت بعدما كانت ميتة وقال بعضهم بل وجه التشبيه ان يعيدهم ويخرجهم من الارض بماء كالمنى كما تنبت الارض بماء المطر وهذا الوجه ضعيف لانه ليس فى ظاهر اللفظ الا اثبات الاعادة فقط دون هذه الزيادة (الصفة السابعة) قوله تعالى والذى

اصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضى الله عنهما الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقيل كل ماسوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار الى غير ذلك (وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون) اى ماتركبونه تغليبا للانعام على الفلك فان الركوب متعد بنفسه واستعماله فى الفلك ونحوها بكلمة فى للرمز الى مكانيتها وكون حركتها غير ارادية كما مر فى سورة هود عند قوله تعالى وقال اركبوا فيها (لتستووا على ظهوره) اى لتستعلوا على ظهور ماتركبونه من الفلك والانعام والجمع باعتبار المعنى (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) اى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) متعجبين من ذلك كما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه

خلق الازواج كلها قال ابن عباس الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقال بعض المحققين كل ماسوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف وكونها ازواجا يدل على كونها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فاما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه والذى خلق الازواج كلها اى كل ماهو زوج فهو مخلوق فدل هذا على ان خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية واقول ايضا العلماء بعلم الحساب بينوا ان الفرد افضل من الزوج من وجوه (الاول) ان اقل الازواج هو الاثنان وهو لايوجد الاعند حصول وحدتين فالزوج يحتاج الى الفرد والفرد هو الوحدة غنية عن الزوج والغنى افضل من المحتاج (الثانى) ان الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد هو الذى لايقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد افضل من الزوج (الثالث) ان العدد الفرد لابد وان يكون احد قسميه زوجا والثانى فردا فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معا واما العدد الزوج فلابد وان يكون كل واحد من قسميه زوجا والمشتمل على القسمين افضل من الذى لايكون كذلك (الرابع) ان الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلا للقسم الآخر فى الذات والصفات والمقدار واذا كان كل ماحصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملا على الاطلاق اما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لالغيره ولا لمثله فكان كماله حاصلا له لالغيره فكان افضل (الخامس) ان الزوج لابد وان يكون كل واحد من قسميه مشاركا للقسم الآخر فى بعض الامور ومغايرا له فى امور اخرى ومابه المشاركة غير مابه المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما وكل ممكن فهو محتاج فثبت ان الزوجية منشأ الفقر والحاجة واما الفردانية فهى منشأ الاستغناء والاستقلال لان العدد محتاج الى كل واحد من تلك الوحدات واما كل واحد من تلك الوحدات فانه غنى عن ذلك العدد فثبت ان الازواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات وان الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغنى عن كل ماسواه فلهذا قال سبحانه والذى خلق الازواج كلها (الصفة الثامنة) قوله وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون وذلك لان السفر اما سفر البحر او سفر البر اما سفر البحر فالحامل هو السفينة واماسفر البر فالحامل هو الانعام وههنا سؤالان (الاول) لم لم يقل على ظهورها اجابوا عنه من وجوه (الاول) قال ابو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ماتركبوه (الثانى) قال الفراء اضاف الظهور الى واحد فيه معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) ان هذا التأنيث ليس تأنيثا حقيقيا فجاز ان يختلف اللفظ فيه كما يقال عندى من النساء من يوافقك (السؤال الثانى) يقال ركبوا الانعام وركبوا فى الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون (والجواب) غلب

كان اذا وضع رجله فى الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا الى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا (وما كناله مقرنين) اى مطيقين من اقرن الشئ اذا أطاقه واصله وجده قرينته لان الصعب لايكون قرينة للضعيف وقرئ بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى اذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لايعرف قدرها ولاحق المنعم بها (وانا الى ربنا لمنقلبون) اى راجعون وفيه ايذان بأن حق الراكب ان يتأمل فيمايلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى التى هى الانقلاب الى الله تعالى فيبنى اموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولايخطر بباله فى شئ مما يأتى ويذر امرا ينافيها ومن ضرورته ان يكون ركوبه لأمر مشروع

المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة ثم قال تعالى ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها فى قلوبهم وذلك الذكر هو ان يعرف ان الله تعالى خلق وجه البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الانسان من تصريف هذه السفينة الى اى جانب شاء وأراد فاذا تذكروا ان خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الانسان ولتحريكاته ليس من ذلك الانسان وانما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التى لا نهاية لها ثم قال تعالى وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين واعلم انه تعالى عين ذكرا معينا لركوب السفينة وهو قوله بسم الله مجراها ومرساها وذكرا آخر لركوب الانعام وهو قوله سبحان الذى سخر لنا هذا وذكر عند دخول المنازل ذكرا آخر وهو قوله رب انزلنى منزلا مباركا وانت خير المنزلين وتحقيق القول فيه ان الدابة التى يركبها الانسان لابد وان تكون اكثر قوة من الانسان بكثير وليس لها عقل يهديها الى طاعة الانسان ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة فى خلقها الظاهر وفى خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع اما خلقها الظاهر فلأنها تمشى على اربع قوائم فكان ظاهرها كالموضع الذى يحسن استقرار الانسان عليه واما خلقها الباطن فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحث تصير منقادة للانسان ومسخرة له فاذا تأمل الانسان فى هذه العجائب وغاص بعقله فى بحار هذه الاسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة الغير المتناهية فلابد وان يقول سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين قال ابو عبيدة فلان مقرن لفلان اى ضابط له قال الواحدى وكان اشتقاقه من قولك ضرب له قرنا ومعنى انا قرن لفلان اى مثله فى الشدة فكان المعنى انه ليس عندنا من القوة والطاقة ان نقرن هذه الدابة والفلك وان نضبطها فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجليه فى الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا الى قوله لمنقلبون وروى القاضى فى تفسيره عن ابى مخلد ان الحسن بن على عليهما السلام رأى رجلا ركب دابة فقال سبحان الذى سخر لنا هذا فقال له ما بهذا امرت امرت ان تقول الحمد لله الذى هدانا للاسلام الحمد لله الذى من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله الذى جعلنا من خير امة اخرجت للناس ثم تقول سبحان الذى سخر لنا هذا وروى ايضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا سافر وركب راحلته كبر ثلاثا ثم يقول سبحان الذى سخر لنا هذا ثم قال اللهم انى اسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا السفر واطو عنا بعد الارض اللهم انت الصاحب فى السفر والخليفة على الاهل اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى اهلنا وكان اذا رجع الى اهله يقول آيبون تائبون

(وجعلوا له من عباده جزأ) متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم الخ اى وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف من عباده ولدا وانما عبر عنه بالجزء لمزيد استحالته فى حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرئ جزأ بضمتين (ان الانسان لكفور مبين) ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون ما يقولون سبحان الله عما يصفون (ام اتخذ مما يخلق بنات) ام منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من بيان بطلان جعلهم له تعالى ولدا على الاطلاق الى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من اخس صنفيه والهمزة للانكار والتوبيخ والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) اما عطف على اتخذ داخل فى حكم الانكار والتعجيب او حال من فاعله باضمار قد او بدونه على الخلاف المشهور والالتفات الى خطابهم لتأكيد الالزام وتشديد التوبيخ اى بل اتخذ من خلقه اخس الصنفين واختار لكم افضلهما على معنى هبوا انكم اجترأتم على اضافة اتخاذ جنس الولد اليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه اما كان لكم شئ من العقل ونبذ من الحياء حتى اجترأتم على التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء انه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين واعلاهما وترك له شرهما وادناهما وتنكير بنات وتعريف

لربنا حامدون قال صاحب الكشاف دلت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه (الاول) انه تعالى قال لتستووا على ظهورهم ثم تذكروا نعمة ربكم فذكره بلام كى وهذا يدل على انه تعالى اراد مناهذا الفعل وهذا يدل على بطلان قولهم انه تعالى اراد الكفر منه واراد الاصرار على الانكار (الثانى) ان قوله لتستووا يدل على ان فعله معلل بالاغراض (الثالث) انه تعالى بين ان خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع انما كان لغرض ان يصدر الشكر عن العبد فلو كان فعل العبد فعلا لله تعالى لكان معنى الآية انى خلقت هذه الحيوانات لاجل ان اخلق سبحان الله فى لسان العبد وهذا باطل لانه تعالى قادر على ان يخلق هذا اللفظ فى لسانه بدون هذه الوسايط واعلم ان الكلام على هذه الوجوه معلوم فلا فائدة فى الاعادة ثم قال تعالى وانا الى ربنا لمنقلبون واعلم ان وجه اتصال هذا الكلام بماقبله ان ركوب الفلك فى خطر الهلاك فانه كثيرا ماتنكسر السفينة ويهلك الانسان وراكب الدابة أيضا كذلك لان الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب واذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك فوجب على الراكب ان يتذكر امر الموت وان يقطع انه هالك لامحالة وانه منقلب الى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان وطن نفسه على الموت ❁ قوله تعالى (وجعلوا له من عباده جزأ ان الانسان لكفور مبين أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم او من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون) اعلم انه تعالى لما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله بين انهم مع اقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزأ والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة محصولهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية ابى بكر جزأ بضم الزاى والهمزة فى كل القرآن وهما لغتان واما حمزة فاذا وقف عليه قال جزا بفتح الزاى بلا همزة (المسئلة الثانية) فى المراد من قوله وجعلوا له من عباده جزأ قولان (الاول) وهو المشهور ان المراد انهم اثبتوا له ولدا وتقرير الكلام ان ولد الرجل جزء منه قال عليه السلام فاطمة بضعة منى ولان المعقول من الوالد ان ينفصل عنه جزء من اجزائه ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الاصل واذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه فقوله وجعلوا له من عباده جزأ معنى جعلوا حكموا واثبتوا وقالوا به والمعنى انهم اثبتوا له جزأ وذلك الجزء هو عبد من عباده واعلم انه لو قال وجعلوا لعباده منه جزأ لافاد ذلك انهم أثبتوا انه حصل جزء من اجزائه فى بعض عباده وذلك هو الولد فكذا قوله وجعلوا له من عباده جزأ معناه واثبتوا له جزأ وذلك الجزء هو عبد من عباده والحاصل انهم اثبتوا الله ولدا وذكروا فى تقرير هذا القول وجوها أخر فقالوا الجزء هو الانثى فى لغة العرب واحتجوا فى اثبات هذه اللغة بيتين فالاول قوله

(ان)

البنين لتربية ماعتبر فيهما من الحقارة والفخامة (واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا) الخ استئناف مقرر لماقبله وقيل حال على معنى انهم نسبوا اليه ماذكر ومن حالهم ان احدهم اذا بشربه اغتم والالتفات للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم ان يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيبا منها اى اذا اخبر احدهم بولادة ماجعله مثلا له سبحانه اذ الولد لابد ان يجانس الوالد ويماثله (ظل وجهه مسودا) اى صار اسود فى الغاية من سوء مابشر به (وهو كظيم) مملوء من الكرب والكآبة والجملة حال وقرئ مسود ومسواد على ان فى ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة وقعت خبرا له (أو من ينشأ فى الحلية) تكرير للانكار وتثنية للتوبيخ ومن منصوبة بمضمر معطوف على جعلوا اى او جعلوا من شأنه ان يربى فى الزينة وهو عاجز عن ان يتولى لامره بنفسه فالهمزة لانكار الواقع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فالهمزة حينئذ لانكار الوقوع واستبعاده واقحامها بين المعطوفين لتذكير مافى ام المنقطعة من الانكار وتأكيده والعطف للتغاير العنوانى اى او اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته (وهو مع ماذكر من القصور (فى الخصام) اى الجدال الذى لايكاد يخلو عنه

ان اجزأت حرة يوما فلا عجب * قد تجزئ الحرة المذكاة احيانا

وقوله زوجتها من بنات الاوس مجزئة * للعوسج اللدن فى ابياتها غزل

وزعم الزجاج والازهرى وصاحب الكشاف ان هذه اللغة فاسدة وان هذه الابيات مصنوعة (والقول الثانى) فى تفسير الآية ان المراد من قوله وجعلوا له من عباده جزأ اثبات الشركاء لله وذلك لانهم لما اثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا ان كل العباد ليس لله بل بعضها لله وبعضها لغير الله فهم ماجعلوا لله من عباده كلهم بل جعلوا له منهم بعضا وجزأ منهم قالوا والذى يدل على ان هذا القول اولى من الاول انا اذا حملنا هذه الآية على انكار الشريك لله وحملنا الآية التى بعدها على انكار الولد لله كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين ثم قال تعالى ام اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واعلم انه تعالى رتب هذه المناظرة على احسن الوجوه وذلك لانه تعالى بين ان اثبات الولد لله محال وبتقدير ان يثبت الولد فجعله بنتا ايضا محال اما بيان ان اثبات الولد لله محال فلان الولد لابد وان يكون جزأ من الوالد وما كان له جزء كان مركبا وكل مركب ممكن وايضا ما كان كذلك فانه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق وما كان كذلك فهو عبد محدث فلا يكون الهاقديما ازليا (واما المقام الثانى) وهو ان بتقدير ثبوت الولد فانه يمتنع كونه بنتا وذلك لان الابن افضل من البنت فلو قلنا انه اتخذ لنفسه البنات واعطى البنين لعباده لزم ان يكون حال العبد اكمل وافضل من حال الله وذلك مدفوع فى بديهة العقل يقال اصفيت فلانا بكذا اى آثرته به ايثارا حصل له على سبيل الصفاء من غير ان يكون له فيه مشارك وهو كقوله أفأصفاكم ربكم بالبنين ثم بين نقصان البنات من وجوه (الاول) قوله واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم والمعنى ان الذى بلغ حاله فى النقص الى هذا الحد كيف يجوز للعاقل اثباته لله تعالى وعن بعض العرب ان امرأته وضعت انثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت

مالأبى حمزة لايأتينا * يظل فى البيت الذى يلينا * غضبان ان لانلد البنينا

ليس لنا من امرنا ماشينا * وانما نأخذ ما اعطينا

وقوله ظل اى صار كما يستعمل اكثر الافعال الناقصة قال صاحب الكشاف قرئ مسود ومسواد والتقدير وهو مسود فتقع هذه الجملة موقع الخبر (والثانى) قوله أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على مالم يسم فاعله اى يربى والباقون ينشأ بضم الياء وسكون النون وفتح الشين قال صاحب الكشاف وقرئ يناشأ قال ونظير المناشاة بمعنى الانشاء المغالاة بمعنى الاغلاء (المسئلة الثانية) المراد من قوله أومن ينشأ فى الحلية التنبيه على نقصانها وهو ان الذى يربى فى الحلية يكون ناقص الذات لانه لولا نقصان فى ذاتها لما احتاجت تزيين نفسها بالحلية ثم بين نقصان حالها بطريق آخر وهو قوله وهو

الانسان فى العادة (غير مبين) غير قادر على تقرير دعواه واقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه واضافة غير لاتمنع عمل مابعده فى الجار المتقدم لانه بمعنى النفى وقرئ ينشأ ويناشأ من الافعال والمفاعلة والكل بمعنى واحد ونظيره غلاه واغلاه وغالاه (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا) بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم اكمل العباد واكرمهم على الله عز وجل انقصهم رأيا واخسهم صنفا وقرئ عبيد الرحمن وقرئ عند الرحمن على تمثيل زلفاهم وقرئ اناثا وهو جمع الجمع (اشهدوا خلقهم) اى احضروا خلق الله تعالى اياهم فشاهدوهم اناثا حتى يحكموا بانوثتهم فان ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم وقرئ أأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وآأشهدوا بألف بينهما (ستكتب شهادتهم) هذه فى ديوان اعمالهم (ويسئلون) عنها يوم القيامة وقرئ سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرئ شهاداتهم وهى قولهم ان لله جزأ وان له بنات وانها الملائكة وقرئ يساءلون من المساءلة للمبالغة (وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم) بيان لفن آخر من كفرهم اى لوشاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ماعبدناهم ارادوا بذلك بيان ان مافعلوه حق مرضى عنده تعالى

فى الخصام غير مبين يعنى انها اذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت ان تكلم بحجتها الا تكلمت بما كانت حجة عليها فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها فكيف يجوز اضافتهن بالولدية اليه (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان التحلى مباح للنساء وانه حرام للرجال لانه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان واقدام الرجل عليه يكون القاء لنفسه فى الذل وذلك حرام لقوله عليه السلام ليس للمؤمن ان يذل نفسه وانما زينة الرجل الصبر على طاعة الله والتزين بزينة التقوى قال الشافعى

تدرعت يوما للقنوع حصينة • اصون بها عرضى واجعلها ذخرا
ولم احذر الدهر الخؤن وانما * قصاراه ان يرمى بى الموت والفقرا
فأعددت للموت الاله وعفوه * واعددت للفقر التجلد والصبرا

ثم قال تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد بقوله جعلوا اى حكموا به ثم قال اشهدوا خلقهم وهذا استفهام على سبيل الانكار يعنى انهم لم يشهدوا خلقهم وهذا مما لا سبيل الى معرفته بالدلائل العقلية واما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على اثبات النبوة وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة فلا سبيل لهم الى اثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية فثبت انهم ذكروا هذه الدعوى من غير ان عرفوه لا بضرورة ولا بدليل ثم انه تعالى هددهم فقال ستكتب شهادتهم ويسألون وهذا يدل على ان القول بغير دليل منكر وان التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد قال اهل التحقيق هؤلاء الكفار كفروا فى هذا القول من ثلاثة اوجه (اولها) اثبات الولد لله تعالى (وثانيها) ان ذلك الولد بنت (وثالثها) الحكم على الملائكة بالانوثة (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر عند الرحمن بالنون وهو اختيار ابى حاتم واحتج عليه بوجوه (الاول) انه يوافق قوله ان الذين عند ربك وقوله ومن عنده (والثانى) ان كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه (والثالث) ان التقدير ان الملائكة يكونون عند الرحمن لا عند هؤلاء الكفار فكيف عرفوا كونهم اناثا واما الباقون فقرؤا عباد جمع عبد وقيل جمع عابد كقائم وقيام وصائم وصيام ونائم ونيام وهى قراءة ابن عباس واختيار ابى عبيد قال لانه تعالى رد عليهم قولهم انهم بنات الله واخبر انهم عبيد ويؤيد هذه القراءة قوله بل عباد مكرمون (المسئلة الثالثة) قرأ نافع وحده آشهدوا بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة اى احضروا خلقهم وعن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله والباقون اشهدوا بفتح الالف من شهدوا اى احضروا (المسئلة الرابعة) احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية فقال اما قراءة عند بالنون فهذه العندية لا شك انها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ولفظة هم توجب الحصر والمعنى انهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم فوجب كونهم افضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر اما من قرأ عباد

وانهم انما يفعلونه بمشيئته تعالى لا الاعتذار من ارتكاب ما ارتكبوه بأنه بمشيئته تعالى اياه منهم مع اعترافهم بقبحه حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ومبنى كلامهم الباطل على مقدمتين احداهما ان عبادتهم لهم بمشيئته تعالى والثانية ان ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ولقد اخطؤا فى الثانية حيث جهلوا ان المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا او السخط فى شئ من الطرفين ولذلك جهلوا بقوله تعالى (ما لهم بذلك) اى بما ارادوا بقولهم ذلك من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فان ذلك محقق ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة (من علم) يستند الى سند ما (ان هم الا يخرصون) يتمحلون تمحلا باطلا وقد جوز ان يشار بذلك الى اصل الدعوى كأنه لما اظهر وجوه فسادها وحكى شبههم المزيفة نفى ان يكون لهم بها علم من طريق العقل ثم اضرب عنه الى ابطال ان يكون لهم من جهة النقل فقيل (ام آتيناهم كتابا من قبله) من قبل القرآن او من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه (فهم به) بذلك الكتاب (مستمسكون) وعليه معولون (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون) اى لم يأتوا بحجة عقلية او نقلية بل اعترفوا بأن

جمع العبد وقد ذكرنا ان لفظ العباد مخصوص فى القرآن بالمؤمنين فقوله هم عباد الرحمن يفيد حصر العبودية فيهم فاذا كان اللفظ الدال على العبودية دالا على الفضل والشرف كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالا على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم وذلك يوجب كونهم افضل من غيرهم والله اعلم ۞ قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ام آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون قال اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) اعلم انه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم وهو انهم قالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة هذه آية تدل على فساد قول المجبرة فى ان كفر الكافر يقع بارادة الله من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عنهم انهم قالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم وهذا صريح قول المجبرة ثم انه تعالى ابطله بقوله مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون فثبت انه حكى مذهب المجبرة ثم اردفه بالابطال والافساد فثبت ان هذا المذهب باطل ونظيره قوله تعالى فى سورة الانعام سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا الى قوله قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون (والوجه الثانى) انه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية انواع كفرهم (فأولها) قوله وجعلوا له من عباده جزأ (وثانيها) قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (وثالثها) قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم فلما حكى هذه الاقاويل الثلاث بعضها على اثر بعض وثبت ان القولين الاولين كفر محض فكذلك هذا القول الثالث يجب ان يكون كفرا واعلم ان الواحدى اجاب فى البسيط عنه من وجهين (الاول) ماذكره الزجاج وهو ان قوله تعالى مالهم بذلك من علم عائد الى قولهم الملائكة اناث والى قولهم الملائكة بنات الله (والثانى) انهم ارادوا بقولهم لو شاء الرحمن ماعبدناهم انه امرنا بذلك وانه رضى بذلك واقرنا عليه فانكر ذلك عليهم فهذا ماذكره الواحدى فى الجواب وعندى هذان الوجهان ضعيفان (اما الاول) فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين وبين وجه بطلانهما ثم حكى بعده مذهبا ثالثا فى مسئلة اجنبية عن المسئلتين الاولين ثم حكم بالبطلان والوعيد فصرف هذا الابطال عن هذا الذى ذكره عقيبه الى كلام متقدم اجنبى عنه فى غاية البعد (واما الوجه الثانى) فهو ايضا ضعيف لان قوله لو شاء الله ماعبدناهم ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة والاجمال خلاف الدليل فوجب ان يكون التقدير لو شاء الله ان لانعبدهم ماعبدناهم وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فهذا يدل على انه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم وهذا عين مذهب المجبرة فالابطال والافساد يرجع الى هذا المعنى ومن الناس من اجاب عن هذا الاستدلال بأن قال انهم انما ذكروا ذلك الكلام على

لاسند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم والامة الدين والطريقة التى تام اى تقصد كالرحلة لما يرحل اليه وقرئ امة بالكسر وهى الحالة التى يكون عليها الآم اى القاصد وقوله تعالى على آثارهم مهتدون خبر ان والظرف صلة لمهتدون (وكذلك) اى والامر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد وقوله تعالى (ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) استئناف مبين لذلك دال على ان التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لاسلافهم ايضا سند غيره وتخصيص المترفين بتلك المقالة للايذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذى صرفهم عن النظر الى التقليد (قال) حكاية لما جرى بين المنذرين وبين اممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم اى قال كل نذير من اولئك المنذرين لاممهم (اولو جئتكم) اى اتقتدون بآبائكم ولو جئتكم (بأهدى) بدين اهدى (مما وجدتم عليه آباءكم) من الضلالة التى ليست من الهداية فى شئ وانما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الانصاف وقرئ قل على انه حكاية امر ماض اوحى حينئذ الى كل نذير لا على انه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم كما قيل لقوله تعالى (قالوا انا بما ارسلتم به كافرون) فانه حكاية عن الامم قطعا اى قال كل امة لنذيرها انا بما ارسلت به الخ

سبيل الاستهزاء والسخرية فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم واجاب صاحب الكشاف عنه من وجهين (الاول) انه ليس فى اللفظ مايدل على انهم قالوا مستهزئين وادعاء مالادليل عليه باطل (الثانى) انه تعالى حكى عنهم ثلاثة اشياء وهى انهم جعلوا له من عباده جزأ وانهم جعلوا الملائكة اناثا وانهم قالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم فلو قلنا بانه انما جاء الذم على القول الثالث لانهم ذكروه على طريق الهزؤ لاعلى طريق الجد وجب ان يكون الحال فى حكاية القولين الاولين كذلك فلزم انهم لونطقوا بتلك الاشياء على سبيل الجدان يكونوا محقين ومعلوم انه كفر واما القول بأن الطعن فى القولين الاولين انما توجه على نفس ذلك القول وفى القول الثالث لاعلى نفسه بل على ايراده على سبيل الاستهزاء فهذا يوجب تشويش النظم وانه لايجوز فى كلام الله واعلم ان الجواب الحق عندى عن هذا الكلام ماذكرناه فى سورة الانعام وهوان القوم انما ذكروا هذا الكلام لانهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على انه لايجوز ورود الامر بالايمان فاعتقدوا ان الامر والارادة يجب كونهما متطابقين وعندنا ان هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم ان الله يريد الكفر من الكافر بل لاجل انهم قالوا لما اراد الكفر من الكافر وجب ان يقبح منه امر الكافر بالايمان واذا صرفنا الذم والطعن الى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية وتمام التقرير مذكور فى سورة الانعام والله اعلم (المسئلة الثانية) انه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال مالهم بذلك من علم ان هم الايخرصون وتقريره كأنه قيل ان القوم يقولون لما اراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما اوجب ذلك الكفر وجب ان يقبح منه ان يأمره بالايمان لان مثل هذا التكليف قبيح فى الشاهد فيكون قبيحا فى الغائب فقال تعالى مالهم بذلك من علم اى مالهم بصحة هذا القياس من علم وذلك لان افعال الواحد منا واحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد لاجل ان كل ماسوى الله فانه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد فلاجرم ان صريح طبعه وعقله يحمله على بناء احكامه وافعاله على رعاية المصالح اما سبحانه وتعالى فانه لاينفعه شئ ولايضره شئ فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبنى احكامه وافعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى مالهم بذلك من علم اى مالهم بصحة قياس الغائب على الشاهد فى هذا الباب علم ثم قال ان هم الايخرصون اى كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين فى ذلك القياس لان قياس المنزه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر قياس باطل فى بديهة العقل ثم قال ام آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون يعنى القول الباطل الذى حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل او بالنقل اما اثباته بالعقل فهو باطل لقوله مالهم بذلك من علم ان هم الايخرصون واما اثباته بالنقل فهو ايضا باطل لقوله ام آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون والضمير فى قوله من قبله للقرآن او للرسول والمعنى انهم وجدوا ذلك الباطل

وقد اجمل عند الحكاية للايجاز كما مر فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام يحمل صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذرين عليهم السلام وتوجيه كفرهم الى ما ارسل به الكل من التوحيد لاجماعهم عليه كما فى نظائر قوله تعالى كذبت عاد المرسلين تمحل بعيد يرده بالكلية قوله تعالى (فانتقمنا منهم) اى بالاستئصال (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) من الامم المذكورين فلاتكترث بتكذيب قومك (واذ قال ابراهيم) اى واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام (لأبيه وقومه) المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله (اننى براء مما تعبدون) وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلكه فى الاستدلال اوليقلدوه ان لم يكن لهم بد من التقليد فانه اشرف آبائهم وبراء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وقرئ برئ وبراء بضم الباء ككريم وكرام وما اما مصدرية او موصولة حذف عائدها اى اننى برئ من عبادتكم او معبودكم (الا الذى فطرنى) استثناء منقطع او متصل على ان ما تم اولى العلم وغيرهم وانهم كانوا يعبدون الله والاصنام او صفة على ان ما موصوفة اى اننى براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى (فانه

فى كتاب منزل قبل القرآن حتى جاز لهم ان يعولوا عليه وان يتمسكوا به والمقصود منه ذكره فى معرض الانكار ولما ثبت انه لم يدل عليه لادليل عقلى ولادليل نقلى وجب ان يكون القول به باطلا ثم قال تعالى بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون والمقصود انه تعالى لما بين انه لادليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين انه ليس لهم حامل يحملهم عليه الا التقليد المحض ثم بين ان تمسك الجهال بطريقة التقليد امر كان حاصلا من قديم الدهر فقال و كذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ على امة بالكسر وكلتاهما من الام وهو القصد فالامة الطريقة التى تؤم اى تقصد كالرحلة للمرحول اليه والامة الحالة التى يكون عليها الآم وهو القاصد (المسئلة الثانية) لو لم يكن فى كتاب الله الا هذه الآيات لكفت فى ابطال القول بالتقليد وذلك لانه تعالى بين ان هؤلاء الكفار لم يتمسكوا فى اثبات ماذهبوا اليه لابطريق عقلى ولا بدليل نقلى ثم بين انهم انما ذهبوا اليه بمجرد تقليد الآباء والاسلاف وانما ذكر تعالى هذه المعانى فى معرض الذم والتهجين وذلك يدل على ان القول بالتقليد باطل ومما يدل عليه ايضا من حيث العقل ان التقليد امر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لانه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لاضدادهم اقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقا الى الحق لوجب كون الشئ ونقيضه حقا ومعلوم ان ذلك باطل (المسئلة الثالثة) انه تعالى بين ان الداعى الى القول بالتقليد والحامل عليه انما هو حب التنعم فى طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة والمترفون هم الذين اترفتهم النعمة اى ابطرتهم فلا يحبون الا الشهوات والملاهى ويبغضون تحمل المشاق فى طلب الحق واذا عرفت هذا علمت ان رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة فلهذا قال عليه السلام حب الدنيا رأس كل خطيئة ثم قال تعالى لرسوله قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم اى بدين اهدى من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم انهم قالوا انا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وان جئتنا بما هو اهدى فانا بما ارسلتم به كافرون وان كان اهدى مما كنا عليه فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة فلهذا قال تعالى فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين والمراد منه تهديد الكفار والله اعلم ❊ قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لابيه وقومه اننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة انه ليس لاولئك الكفار داع يدعوهم الى تلك الاقاويل الباطلة الا تقليد الآباء والاسلاف ثم بين انه طريق باطل ومنهج فاسد وان الرجوع الى الدليل اولى من

سيهدين) اى سيثبتنى على الهداية اوسيهدين الى ماوراء الذى هدانى اليه الى الآن والاوجهان السين للتأكيد دون التسويف وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (وجعلها) اى جعل ابراهيم كلمة التوحيد التى ماتكلم به عبارة عنها (كلمة باقية فى عقبه) اى فى ذريته حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى ووصى بها ابراهيم و يعقوب الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو الى توحيده وقرئ كلمة وفى عقبه على التخفيف (لعلهم يرجعون) علة للجعل اى جعلها باقية فى عقبه رجاء ان يرجع اليها من اشرك منهم بدعاء الموحد (بل متعت هؤلاء) اضراب عن محذوف ينساق اليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية فى عقبه بأن وصى بها بنيه رجاء ان يرجع اليها من اشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل مارجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم من اهل مكة (وآباءهم) بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا فى الشهوات وشغلوا بها عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم) اى هؤلاء (الحق) اى القرآن (ورسول) اى رسول (مبين) ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة اومبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرئ متعنا ومتعت بالخطاب على انه تعالى اعترض به على ذاته فى قوله

الاعتماد على التقليد اردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام انه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول اما ان يكون تقليد الآباء فى الاديان محرما او جائزا فان كان محرما فقد بطل القول بالتقليد وان كان جائزا فمعلوم ان اشرف آباء العرب هو ابراهيم عليه السلام وذلك لانه ليس لهم فخر ولا شرف الا بانهم من اولاده واذا كان كذلك فتقليد هذا الاب الذى هو اشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء واذا ثبت ان تقليده أولى من تقليد غيره فنقول انه ترك دين الآباء وحكم بان اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء واذا كان كذلك وجب تقليده فى ترك تقليد الآباء ووجب تقليده فى ترجيح الدليل على التقليد واذا ثبت هذا فنقول ظهر ان القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد وما افضى ثبوته الى نفيه كان باطلا فوجب ان يكون القول بالتقليد باطلا فهذا طريق دقيق فى ابطال التقليد وهو المراد من هذه الآية (الوجه الثانى) فى بيان ان ترك التقليد والرجوع الى متابعة الدليل أولى فى الدنيا وفى الدين انه تعالى بين ان ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة ابيه الى متابعة الدليل لاجرم جعل الله دينه ومذهبه باقيا فى عقبه الى يوم القيامة واما اديان آبائه فقد اندرست وبطلت فثبت ان الرجوع الى متابعة الدليل يبقى محمود الاثر الى قيام الساعة وان التقليد والاصرار ينقطع اثره ولا يبقى منه فى الدنيا خبر ولا اثر فثبت من هذين الوجهين ان متابعة الدليل وترك التقليد أولى فهذا بيان المقصود الاصلى من هذه الآية ولنرجع الى تفسير الفاظ الآية اما قوله اننى براء مما تعبدون فقال الكسائى والفراء والمبرد والزجاج براء مصدر لا يثنى ولا يجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب انا البراء منك والخلاء منك ونحن البراء منك والخلاء ولا يقولون البراآن ولا البراؤن لان المعنى ذو البراء وذو البراء فان قلت برئ وخلى ثنيت وجمعت ثم استثنى خالقه من البراءة فقال الا الذى فطرنى والمعنى انا اتبرأ مما تعبدون الا من الله عز وجل ويجوز ان يكون الا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذى فطرنى فانه سيهدين اى سيرشدنى لدينه ويوفقنى لطاعته واعلم انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام فى آية أخرى انه قال الذى خلقنى فهو يهدين وحكى عنه ههنا انه قال سيهدين فاجمع بينهما وقدر كانه قال فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال وجعلها اى وجعل ابراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله اننى براء مما تعبدون جاريا مجرى لا اله وقوله الا الذى فطرنى جاريا مجرى قوله الا الله فكان مجموع قوله اننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى جاريا مجرى قوله لا اله الا الله ثم بين تعالى ان ابراهيم جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه اى فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو الى توحيده لعلهم يرجعون اى لعل من اشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم وقيل وجعلها الله وقرئ كلمة على التخفيف وفى عقبه ثم قال تعالى بل متعت هؤلاء يعنى اهل مكة وهم من عقب ابراهيم بالمد فى العمر

تعالى وجعلها كلمة باقية الخ مبالغة فى تعييرهم فان التمتيع بزيادة النعم يوجب عليهم ان يجعلوه سببا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والايمان فجعلوه سببا لزيادة الكفران اقصى مراتب الكفر والضلال (ولما جاءهم الحق) لينبههم عما هم فيه من الغفلة ويرشدهم الى التوحيد ازدادوا كفرا وعتوا وضموا الى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به حيث (قالوا هذا سحر وانا به كافرون) فسموا القرآن سحرا وكفروا به واستحقروا الرسول صلى الله عليه وسلم

(والنعمة)

والنعمة فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد حتى جاءهم الحق وهو القرآن ورسول مبين بين الرسالة واوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا وكفروا به ووجه النظم انهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا فى الحجة اغتروا بطول الامهال وامتاع الله اياهم بنعيم الدنيا فاعرضوا عن الحق قال صاحب الكشاف ان قيل ما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء قلنا كأن الله سبحانه اعترض على ذاته فى قوله وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون فقال بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة فى الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد وأراد بذلك المبالغة فى تعييرهم لانه اذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم ان يجعلوا ذلك سببا فى زيادة الشكر والثبات على التوحيد لا ان يشركوا به ويجعلوا له اندادا فمثاله ان يشكو الرجل اساءة من احسن عليه ثم يقبل على نفسه فيقول انت السبب فى ذلك بمعروفك واحسانك اليه وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسئ لا تقبيح فعل نفسه ❊ قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) اعلم ان هذا هو النوع الرابع من كفرياتهم التى حكاها الله تعالى عنهم فى هذه السورة وهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق الا برجل شريف وقد صدقوا فى ذلك الا انهم ضموا اليه مقدمة فاسدة وهى ان الرجل الشريف هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به وانما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال فى احدى القريتين وهى مكة والطائف قال المفسرون والذى بمكة هو الوليد بن المغيرة والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى ثم ابطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين (الاول) قوله أهم يقسمون رحمة ربك وتقرير هذا الجواب من وجوه (احدها) انا اوقعنا التفاوت فى مناصب الدنيا ولم يقدر احد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذى اوقعناه فى مناصب الدين والنبوة بأن لا يقدروا على التصرف فيه كان اولى (وثانيها) ان يكون المراد ان اختصاص ذلك الغنى بذلك المال الكثير انما كان لاجل حكمنا وفضلنا واحساننا اليه فكيف يليق بالعقل ان نجعل احساننا اليه بكثرة المال حجة علينا فى ان نحسن اليه ايضا بالنبوة (وثالثها) انا لما اوقعنا التفاوت فى الاحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لا يجوز ايضا ان نوقع التفاوت فى الاحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق فهذا تقرير الجواب ونرجع الى تفسير الالفاظ فنقول الهمزة فى قوله أهم يقسمون رحمة ربك للانكار الدال على التجهيل والتعجيب من اعراضهم وتحكمهم وان يكونوا هم المدبرين لامر النبوة ثم ضرب لهذا مثالا فقال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انا اوقعنا

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين)(٤٤١) من اى احدى القريتين مكة والطائف على نهج قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (عظيم) اى بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة المخزومى وعروة بن مسعود الثقفى وقيل حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا على نزوله الى الرسول صلى الله عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته بل استدلالا على عدمها بمعنى انه لو كان قرآنا لنزل الى احد هؤلاء بناء على ما زعموا من ان الرسالة منصب جليل لا يليق به الا من له جلالة من حيث المال والجاه ولم يدروا انها رتبة روحانية لا يترقى اليها الا همم الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الانسية واما المتزخرفون بالزخارف الدينوية المتمتعون بالحظوظ الدنية فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف منزل وقوله تعالى (اهم يقسمون رحمة ربك) انكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة النبوة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) اى اسباب معيشتهم (فى الحياة الدنيا) قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض امرها اليهم علما منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية (ورفعنا بعضهم فوق بعض) فى الرزق وسائر مبادى المعاش (درجات) متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوى وفقير وغنى وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ليصرف بعضهم بعضا فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويسخروهم فى اشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا الى مرافقهم لا لكمال فى الموسع

ولا لنقص فى المقترولو فوضنا ذلك الى تدبيرهم لضاعوا واهلكوا فاذا كانوا (٤٤٢) فى تدبير خويصة امرهم ومايصلحهم من متاع الدنيا الدنيئة وهو فى طرف التمام على هذه الحالة فاظنهم بأنفسهم فى تدبير امر الدين وهو ابعد من مناط العيوق ومن اين لهم البحث عن امر النبوة والتخيز لها من يصلح لها ويقوم بأمرها (ورحمة ربك) اى النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الدنيئة الفانية وقوله تعالى (ولولا ان يكون الناس امة واحدة) استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل والمعنى ان حقارة شأنه بحيث لولا ان يرغب الناس لحبهم الدنيا فى الكفر اذ رأوا اهله فى سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لاعطيناه بحذافيره من هو شر الخلائق وادناهم منزلة وذلك قوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة) اى متخذة منها ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن وجمع الضمير باعتبار معنى من كما ان افراد المستكن فى يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء انه جمع سقيفة كسفن وسفينة وقرئ سقفا بسكون القاف تخفيفا وسقفا اكتفاء بجمع البيوت وسقفا كأنه لغة فى سقف وسقوفا (ومعارج) اى جعلنا لهم معارج من فضة اى مصاعد جمع معرج وقرئ معاريج جمع معراج (عليها يظهرون) اى يعلون السطوح والعلالى (ولبيوتهم) اى وجعلنا لبيوتهم (ابوابا وسررا) من فضة (عليها) اى على السرر (يتكؤن) ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير (وزخرفا) اى زينة عطف على سقفا او ذهبا عطف على محل من فضة (وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) اى وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة الا شئ يتمتع (لحصولهما)

هذا التفاوت بين العباد فى القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول وانما فعلنا ذلك لانا لو سوينا بينهم فى كل هذه الاحوال لم يخدم احد احدا ولم يصر احد منهم مسخرا لغيره وحينئذ يفضى ذلك الى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ثم ان احدا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا فان عجزوا عن الاعراض عن حكمنا فى احوال الدنيا مع قلتها ودناءتها فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا فى تخصيص بعض العباد بمنصب النبوة والرسالة (المسئلة الثانية) قوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا يقتضى ان تكون كل اقسام معايشهم انما تحصل بحكم الله وتقديره وهذا يقتضى ان يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى (والوجه الثانى) فى الجواب ماهو المراد من قوله ورحمة ربك خير مما يجمعون وتقريره ان الله تعالى اذا خص بعض عبيده بنوع من انواع فضله ورحمته فى الدين فهذه الرحمة خير من الاموال التى يجمعها لان الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى ابد الآباد ❊ قوله تعالى (ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم ابوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون حتى اذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى أجاب عن الشبهة التى ذكروها بناء على تفضيل الغنى على الفقير بوجه ثالث وهو انه تعالى بين ان منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله ولولا ان يكون الناس امة واحدة والمعنى لولا ان يرغب الناس فى الكفر اذا رأوا الكافر فى سعة من الخير والرزق لأعطيتهم اكثر الاسباب المفيدة للتنعم (احدها) ان يكون سقفهم من فضة (وثانيها) معارج ايضا من فضة عليها يظهرون (وثالثها) ان نجعل لبيوتهم ابوابا من فضة وسررا ايضا من فضة عليها يتكؤن ثم قال وزخرفا وله تفسيران (احدهما) انه الذهب (والثانى) انه الزينة بدليل قوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت فعلى التقدير الاول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهبا كثيرا وعلى الثانى انا نعطيهم زينة عظيمة فى كل باب ثم بين تعالى ان كل ذلك متاع الحياة الدنيا وانما سماه متاعا لان الانسان يستمتع به قليلا ثم ينقضى فى الحال واما الآخرة فهى باقية دائمة وهى عند الله تعالى وفى حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى وحاصل الجواب ان اولئك الجهال ظنوا ان الرجل الغنى اولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره فبين تعالى ان المال والجاه حقيران عند الله وانهما على شرف الزوال

لحصولهما لايفيد حصول الشرف والله اعلم (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وابو عمرو سقفا بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لارادة الجنس كما فى قوله فخر عليهم السقف من فوقهم والباقون سقفا على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف كرهن ورهن قال ابو عبيد ولا ثالث لهما وقيل السقف جمع سقوف كرهن ورهون وزبر وزبور فهو جمع الجمع (المسئلة الثالثة) قوله لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم فقوله لبيوتهم بدل اشتمال من قوله لمن يكفر قال صاحب الكشاف قرئ معارج ومعاريج والمعارج جمع معراج او اسم جمع لمعراج وهى المصاعد الى المساكن العالية كالدرج والسلالم عليها يظهرون اى على تلك المعارج يظهرون وفى نصب قوله وزخرفا قولان قيل لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ولجعلنا لهم زخرفا وقيل من فضة وزخرف فلما حذف الخافض انتصب واما قوله وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا قرأ عاصم وحمزة لما بتشديد الميم والباقون بالتخفيف اما قراءة حمزة بالتشديد فانه جعل لما فى معنى الا وحكى سيبويه نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا فعلت ويقوى هذه القراءة ان فى حرف ابى وماذلك الامتاع الحياة الدنيا وهذا يدل على ان لما بمعنى الا واما القراءة بالتخفيف فقال الواحدى لفظة ما لغو والتقدير لمتاع الحياة الدنيا قال ابو الحسن الوجه التخفيف لان لما بمعنى الا لا نعرف وحكى عن الكسائى انه قال لا اعرف وجه التثقيل (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما لم يعط الناس نعم الدنيا لاجل انه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك الى الكفر فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لاجل ان لا يدعوهم الى الكفر وهذا يدل على احكام (احدها) انه اذا لم يفعل بهم مايدعوهم الى الكفر فلان لايخلق فيهم الكفر اولى (وثانيها) انه ثبت ان فعل اللطف قائم مقام ازاحة العذر والعلة فلما بين تعالى انه لم يفعل ذلك ازاحة للعذر والعلة عنهم دل ذلك على انه يجب ان يفعل بهم كل ما كان لطفا داعيا لهم الى الايمان فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على انه يجب على الله تعالى فعل اللطف (وثالثها) انه ثبت بهذه الآية ان الله تعالى انما يفعل مايفعله ويترك مايتركه لاجل حكمة ومصلحة وذلك يدل على تعليل احكام الله تعالى وافعاله بالمصالح والعلل فان قيل لما بين تعالى انه لو فتح على الكافر ابواب النعم لصار ذلك سببا لاجتماع الناس على الكفر فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سببا لاجتماع الناس على الاسلام قلنا لان الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الاسلام لطلب الدنيا وهذا الايمان ايمان المنافقين فكان الاصوب ان يضيق الامر على المسلمين حتى ان كل من دخل الاسلام فانما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب ثم قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا وذلك ان من فاز بالمال والجاه صار كالاعشى عن ذكر الله ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله قال صاحب الكشاف

وقرئ بكسر اللام على انها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها اى للذى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى تماما على الذى احسن (والآخرة) بما فيها من فنون النعم التى يقصر عنها البيان (عند ربك للمتقين) اى عن الكفر والمعاصى وبهذا تبين ان العظيم هو العظيم فى الآخرة لا فى الدنيا (ومن يعش) اى يتعام (عن ذكر الرحمن) وهو القرآن واضافته الى اسم الرحمن للايذان بنزوله رحمة للعالمين وقرئ يعش بالفتح اى يعم يقال عشى يعشى اذا كان فى بصره آفة وعشا يعشو اذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج وقرئ يعشو على ان من موصولة غير مضمنة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهماكه فى حظوظها الفانية والشهوات (نقيض له شيطانا فهو له قرين) لايفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وقرئ يقيض بالياء على اسناده الى ضمير الرحمن ومن رفع يعشو فحقه ان يرفع يقيض (وانهم) اى الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو (ليصدونهم) اى قرناءهم فدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما ان مدار افراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها (عن السبيل) المستبين الذى يدعو اليه القرآن (ويحسبون) اى العاشون (انهم) اى الشياطين (مهتدون) اى الى السبيل المستقيم والالما اتبعوهم او يحسبون ان انفسهم مهتدون لان اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدأ أو من فاعله او منهما لاشتمالها على ضميريهما اى وانهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم

قرئ ومن يعش بضم الشين وفتحها والفرق بينهما انه اذا حصلت الآفة في بصره قيل عشي واذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشى ونظيره عرج لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيئة * متى تأته تعشو الى ضوء ناره * اى تنظر اليها نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء وقرئ يعشو على ان من موصولة غير مضمنة معنى الشرط وحق هذا القارئ ان يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن لقوله صم بكم عمي واما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره اى يعرف انه الحق وهو يتجاهل ويتعامى كقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم نقيض له شيطانا قال مقاتل نضم اليه شيطانا فهو له قرين ثم قال وانهم ليصدونهم عن السبيل يعني وان الشياطين ليصدنهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكناية عن الانسان والشياطين بلفظ الجمع لان قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا يفيد الجمع وان كان اللفظ على الواحد ويحسبون انهم مهتدون يعني الشياطين يصدون الكفار عن السبيل والكفار يحسبون انهم مهتدون ثم عاد الى لفظ الواحد فقال حتى اذا جاءنا يعني الكافر وقرئ جآءنا يعني الكافر وشيطانه روي ان الكافر اذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتى يصيرهما الله الى النار فذلك حيث يقول ياليت بيني وبينك بعد المشرقين والمراد ياليت حصل بيني وبينك بعد على اعظم الوجوه واختلفوا في تفسير قوله بعد المشرقين وذكروا فيه وجوها (الاول) قال الاكثرون والمراد بعد المشرق والمغرب ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم احدهما قال الفرزدق * لنا قمراها والنجوم الطوالع * يريد الشمس والقمر ويقولون للكوفة والبصرة البصرتان وللغداة والعصر العصران ولابي بكر وعمر العمران وللماء والتمر الاسودان (الثاني) ان اهل النجوم يقولون الحركة التي تكون من المشرق الى المغرب هي حركة الفلك الاعظم والحركة التي من المغرب الى المشرق هي حركة الكواكب الثابتة وحركة الافلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر واذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة الى شئ آخر فثبت ان اطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة (الثالث) قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بعد عظيم وهذا بعيد عندي لان المقصود من قوله ياليت بيني وبينك بعد المشرقين المبالغة في حصول البعد وهذه المبالغة انما تحصل عند ذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر ازيد منه والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك فيبعد حمل اللفظ عليه (الرابع) وهو ان الحس يدل على ان الحركة اليومية انما تحصل بطلوع الشمس من المشرق الى المغرب واما القمر فانه يظهر في اول الشهر في جانب المغرب ثم لا يزال يتقدم الى جانب المشرق وذلك يدل على ان مشرق حركة القمر هو المغرب واذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر واما الجانب المسمى بالمغرب فانه

فان حتى وان كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتما ان تكون غاية لامر ممتد كما مر مرارا وافراد الضمير في جاء وما بعده لما ان المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين لقرينه لتهويل الامر وتفظيع الحال والمعنى يستمر العاشون على ما ذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل حتى اذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة (قال) مخاطبا له (ياليت بيني وبينك) في الدنيا (بعد المشرقين) اى بعد المشرق والمغرب اى تباعد كل منهما عن الآخر فغلب المشرق وثني واضيف البعد اليهما (فبئس القرين) اى انت وقوله تعالى (ولن ينفعكم) الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عزوجل توبيخا وتقريعا اى لن ينفعكم (اليوم) اى يوم القيامة تمنيكم لمباعدتهم (اذ ظلمتم) اى لاجل ظلمكم انفسكم في الدنيا باتباعكم اياهم في الكفر والمعاصي وقيل اذ ظلمتم بدل من اليوم اى اذ تبين عندكم وعند الناس جميعا انكم ظلمتم انفسكم في الدنيا وعليه قول من قال * اذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة * اى تبين اني لم تلدني لئيمة بل كريمة وقوله تعالى (انكم في العذاب مشتركون) تعليل لنفي النفع اى لان حقكم ان تشتركوا انتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ويجوز ان يسند الفعل اليه لكن لا بمعنى لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمل اعبائها وتقسيمهم لعنائها لان لكل منهم ما لا تبلغه طاقته كما قيل لان الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد

عليهم بنفيه بل بمعنى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم (٤٤٥) معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم ربنا آتهم ضعفين

مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين ولعل هذا الوجه اقرب الى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه والله اعلم ثم قال تعالى فبئس القرين اى الكافر يقول لذلك الشيطان ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين انت فهذا ما يتعلق بتفسير الالفاظ والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان مافى المال والجاه من المضار العظيمة وذلك لان كثرة المال والجاه تجعل الانسان كالاعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليسا للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقى جليس الشيطان فى الدنيا وفى القيامة ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد فى القيامة بحيث يقول الكافر ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين انت فثبت بما ذكرنا ان كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان فى الدين والدنيا واذا ظهر هذا فقد ظهر ان الذين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قالوا كلاما فاسدا وشبهة باطلة ثم قال تعالى ولن ينفعكم اليوم اذظلمتم انكم فى العذاب مشتركون فقوله انكم فى محل الرفع على الفاعلية يعنى ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين فى العذاب والسبب فيه ان الناس يقولون المصيبة اذاعمت طابت وقالت الخنساء فى هذا المعنى

ولولا كثرة الباكين حولى * على اخوانهم لقتلت نفسى
ولايبكون مثل اخى ولكن * اعزى النفس عنه بالتأسى

فبين تعالى ان حصول الشركة فى ذلك العذاب لايفيد التخفيف كما كان يفيده فى الدنيا والسبب فيه وجوه (الاول) ان ذلك العذاب شديد فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر فلا جرم الشركة لاتفيد الخفة (الثانى) ان قوما اذا اشتركوا فى العذاب اعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف وهذا المعنى متعذر فى القيامة (الثالث) ان جلوس الانسان مع قرينه يفيده انواعا كثيرة من السلوة فبين تعالى ان الشيطان وان كان قرينا له الا ان مجالسته فى القيامة لاتوجب السلوة وخفة العقوبة وفى كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ اذظلمتم انكم بكسر الالف والباقون انكم بفتح الالف والله اعلم * قوله تعالى (افانت تسمع الصم او تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون او نرينك الذى وعدناهم فانا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذى اوحى اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون واسئل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) اعلم انه تعالى لما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم فى هذه الآية بالصمم والعمى وما احسن هذا الترتيب وذلك لان الانسان فى اول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ثم كلما كان اشتغاله بتلك الاعمال اكثر كان ميله الى الجسمانيات اشد واعراضه عن الروحانيات اكمل لما ثبت فى علوم العقل ان كثرة

من العذاب والعنهم لعنا كبيرا وقولكم فآتهم عذابا ضعفا من النار ونظائرهما لتتشفوا بذلك * كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه وهم لايزيدون الا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزل (افانت تسمع الصم او تهدى العمى) وهو انكار تعجيب من ان يكون هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واستغرقوا فى الضلال بحيث صار مابهم من العشى عمى مقرونا بالصمم (ومن كان فى ضلال مبين) عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين ومدار الانكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط بحيث لاارعواء له منه لاتوهم القصور من قبل الهادى ففيه رمز الى انه لايقدر على ذلك الا الله تعالى وحده بالقسر والالجاء (فاما نذهبن بك) اى فان قبضناك قبل ان نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدر المؤمنين (فانا منهم منتقمون) لا محالة فى الدنيا والآخرة فان زيدة للتأكيد بمنزلة لام القسم فى انها لاتفارق النون المؤكدة (او نرينك الذى وعدناهم) اى اواردنا ان نريك العذاب الذى وعدناهم (فانا عليهم مقتدرون) بحيث لامناص لهم من تحت ملكتنا وقهرنا ولقد اراه عليه السلام ذلك يوم بدر (فاستمسك بالذى اوحى اليك) من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعود اواخرناه الى يوم الآخرة وقرئ اوحى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل (انك على صراط مستقيم) تعليل للاستمساك اوللامر به (وانه لذكر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) يوم القيامة عنه وعن قيامكم

الافعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الانسان من الرمد الى أن يصير اعشى فاذا واظب على تلك الحالة اياما اخرى انتقل من كونه اعشى الى كونه اعمى فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية روى انه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا تصميما على الكفر وتماديا فى الغى فقال تعالى افأنت تسمع الصم او تهدى العمى يعنى انهم بلغوا فى النفرة عنك وعن دينك الى حيث اذا اسمعتهم القرآن كانوا كالاصم واذا أريتهم المعجزات كانوا كالاعمى ثم بين تعالى ان صممهم وعماهم انما كان بسبب كونهم فى ضلال مبين ولما بين تعالى ان دعوته لا تؤثر فى قلوبهم قال فاما نذهبن بك يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم فانا منهم منتقمون بعدك او نرينك فى حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فانا مقتدرون على ذلك واعلم ان هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لانه تعالى بين انهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس احدى الراحتين ثم بين انه لا بد وان ينتقم لاجله منهم اما حال حياته او بعد وفاته وذلك ايضا يوجب التسلية فبعد هذا امره ان يتمسك بما امره الله تعالى به فقال فاستمسك بالذى اوحى اليك بأن تعتقد انه حق وبأن تعمل بموجبه فانه الصراط المستقيم الذى لا يميل عنه الا ضال فى الدين ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين فى منافع الدين بين ايضا تأثيره فى منافع الدنيا فقال وانه لذكر لك ولقومك اى انه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال ان هذا الكتاب العظيم انزله الله على رجل من قوم هؤلاء * واعلم ان هذه الآية تدل على ان الانسان لا بد وان يكون عظيم الرغبة فى الثناء الحسن والذكر الجميل ولو لم يكن الذكر الجميل امرا مرغوبا فيه لما من الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال وانه لذكر لك ولقومك ولما طلبه ابراهيم عليه السلام حيث قال واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ولان الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة بل الذكر افضل من الحياة لان اثر الحياة لا يحصل الا فى مسكن ذلك الحى اما اثر الذكر الجميل فانه يحصل فى كل مكان وفى كل زمان ثم قال تعالى وسوف تسئلون وفيه وجوه (الاول) قال الكلبى تسألون هل اديتم شكر انعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل (الثانى) قال مقاتل المراد ان من كذب به يسأل لم كذبه فيسأل سؤال توبيخ (الثالث) تسألون هل عملتم بما دل القرآن عليه من التكاليف واعلم ان السبب الاقوى فى انكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه ولبغضهم له انه كان ينكر عبادة الاصنام فبين تعالى ان انكار عبادة الاصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم بل كل الانبياء والرسل كانوا مطبقين على انكاره فقال واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وفيه اقوال (الاول) معناه واسأل مؤمنى اهل الكتاب اى اهل التوراة والانجيل فانهم سيخبرونك انه لم يرد فى دين احد من الانبياء عبادة الاصنام واذا كان هذا الامر متفقا عليه بين كل الانبياء والرسل وجب ان لا يجعلوه سببا لبغض محمد صلى الله

بحقوقه (واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا) اى واسأل اممهم (٤٤٦) وعلماء دينهم كقوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك وفائدة هذا المجاز التنبيه على ان المسؤل عنه عين ما نطقت به السنة الرسل لا ما يقوله اممهم وعلماؤهم من تلقاء انفسهم قال الفراء هم انما يخبرونه عن كتب الرسل فاذا سألهم فكأنه سأل الانبياء عليهم الصلاة والسلام (اجعلنا من دون الرحمة آلهة يعبدون) اى هل حكمنا بعبادة الاوثان وهل جاءت فى ملة من مللهم والمراد به الاستشهاد باجماع الانبياء على التوحيد والتنبيه على انه ليس ببدع ابتدعه حتى يكذب ويعادى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) ملتبسا بها (الى فرعون وملئه فقال انى رسول رب العالمين) اريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام الى التوحيد اثر ما اشير الى اجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه (فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون) اى فاجؤا وقت ضحكهم منها اى استهزؤا بها اول ما رأوها ولم يتأملوا فيها (وما نريهم من آية) من الآيات (الا هى اكبر من اختها) الا وهى بالغة اقصى مراتب الاعجاز بحيث يحسب كل من ينظر اليها انها اكبر من كل ما يقاس بها من الآيات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور فى شئ منها او الا وهى مختصة بضرب من الاعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها (واخذناهم بالعذاب) كالسنين والطوفان والجراد وغيرها (لعلهم يرجعون) لكى يرجعوا عما هم عليه من الكفر (وقالوا يا أيها الساحر) نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم

(عليه)

عليه وسلم (والقول الثانى) قال عطاء عن ابن عباس لما اسرى به صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذن جبريل ثم أقام فقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال له جبريل عليه السلام واسأل يا محمد من ارسلنا من قبلك من رسلنا الآية فقال صلى الله عليه وسلم لأسأل لانى لست شاكا فيه (والقول الثالث) ان ذكر السؤال فى موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال كقول من قال سل الارض من شق انهارك وغرس اشجارك وجنى ثمارك فانها ان لم تجبك جوابا اجابتك اعتبارا فههنا سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الانبياء الذين كانوا قبله ممتنع فكان المراد منه انظر فى هذه المسئلة بعقلك وتدبر فيها بفهمك والله اعلم ❊ قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذاهم منها يضحكون وما نريهم من آية الاهى اكبر من اختها واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب اذاهم ينكثون ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى افلا تبصرون أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم اجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان المقصود من اعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون فى هذا المقام تقرير الكلام الذى تقدم وذلك لان كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيرا عديم المال والجاه فبين الله تعالى ان موسى عليه السلام بعد ان اورد المعجزات القاهرة الباهرة التى لا يشك فى صحتها عاقل اورد فرعون عليه هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال انى غنى كثير المال والجاه ألا ترون انه حصل لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى واما موسى فانه فقير مهين وليس له بيان ولسان والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند الله الى الملك الكبير الغنى فثبت ان هذه الشبهة التى ذكرها كفار مكة وهى قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قد أوردها بعينها فرعون على موسى ثم انا انتقمنا منهم فأغرقناهم والمقصود من ايراد هذه القصة تقرير امرين (احدهما) ان الكفار والجهال ابدا يحتجون على الانبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت اليها (والثانى) ان فرعون على غاية كمال حاله فى الدنيا صار مقهورا باطلا فيكون الامر فى حق اعدائك هكذا فثبت انه ليس المقصود من اعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرا للقصة البتة وهذا من نفائس الابحاث والله اعلم

السحر وقرئ ايه الساحر بضم الهاء (ادع لنا ربك) ليكشف عنا العذاب (بما عهد عندك) بعهده عندك من النبوة او من استجابة دعوتك او من كشف العذاب عمن اهتدى او بما عهد عندك فوفيت به من الايمان والطاعة (اننا لمهتدون) اى لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (فلما كشفنا عنهم العذاب) بدعوته (اذاهم ينكثون) فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقد مر تفصيله فى الاعراف (ونادى فرعون) بنفسه او بمناديه (فى قومه) فى مجمعهم وفيما بينهم بعد ان كشف العذاب عنهم مخافة ان يؤمنوا (قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار) انهار النيل ومعظمها اربعة انهر نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس (تجرى من تحتى) اى من تحت قصرى او امرى وقيل من تحت سريرى لارتفاعه وقيل بين يدى فى جنانى وبساتينى والواو اما عاطفة لهذه الانهار على ملك مصر فتجرى حال منها او للحال فهذه مبتدأ والانهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ (أفلا تبصرون) ذلك يريد به استعظام ملكه (ام انا خير) مع هذه المملكة والبسطة (من هذا الذى هو مهين) ضعيف حقير من المهانة وهى القلة (ولا يكاد يبين) اى الكلام قاله افتراء عليه عليه السلام وتنقيصا له عليه السلام فى أعين الناس باعتبار ما كان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى قد اوتيت سؤلك وأم اما منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال اثر ما عدد اسباب فضله ومبادى خيريته أثبت عندكم واستقر لديكم انى انا خير وهذه حالى من هذا الخ واما متصلة فالمعنى افلا

السبب منزلة المسبب ويجوز ان يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فان ابصارهم لما ذكر من اسباب فضله سبب على زعمه لحكمهم بخيريته (فلولا ألقى عليه اسورة من ذهب) اى فهلا ألقى اليه مقاليد الملك ان كان صادقا لما انهم كانوا اذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب وأسورة جمع سوار وقرئ أساور جمع اسورة وقرئ اساورة جمع اسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء اساوير وقد قرئ كذلك وقرئ التى عليه أسورة واساور على البناء للفاعل وهو الله تعالى (اوجاء معه الملائكة مقترنين) مقرونين يعينونه اويصدقونه من قرنته به فاقترن اومتقارنين من اقترن بمعنى تقارن (فاستخف قومه) فاستفزهم وطلب منهم الخفة فى مطاوعته اوفاستخف احلامهم (فأطاعوه) فيما امرهم به (انهم كانوا قوما فاسقين) فلذلك سارعوا الى طاعة ذلك الفاسق الغوى (فلما آسفونا) اى أغضبونا اشد الغضب منقول من اسف اذا اشتد غضبه (انتقمنا منهم فأغرقناهم اجمعين) فى اليم (فجعلناهم سلفا) قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم فى استيجاب مثل ماحل بهم من العذاب وهو امامصدر نعت به اوجمع سالف كخدم جمع خادم وقرئ بضم السين واللام على انه جمع سليف اى فريق قد سلف كرغف اوسالف كصبر اوسلف كأسد وقرئ سلفا بابدال ضمة اللام فتحة اوعلى انه جمع سلفة اى ثلة قد سلفت (ومثلا للآخرين) اى عظة لهم اوقصة عجيبة تسير مسير الامثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون (أفلا)

(المسئلة الثانية) فى تفسير الالفاظ ذكر تعالى انه ارسل موسى بآياته وهو المعجزات التى كانت مع موسى عليه السلام الى فرعون وملائه اى قومه فقال موسى انى رسول رب العالمين فلما جاءهم بتلك الآيات اذا هم منها يضحكون قيل انه لما ألقى عصاه صار ثعبانا ثم اخذه فعاد عصا كما كان ضحكوا ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا فان قيل كيف جاز ان يجاب عن لما باذا الذى يفيد المفاجأة قلنا لان فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا فاجاؤا وقت ضحكهم ثم قال ومانريهم من آية الاهى اكبر من أختها فان قيل ظاهر هذا اللفظ يقتضى كون كل واحد منها افضل من الثانى وذلك محال قلنا اذا أريد المبالغة فى كون كل واحد من تلك الاشياء بالغا الى اقصى الدرجات فى الفضيلة فقد يذكر هذا الكلام بمعنى انه لايبعد فى أناس ينظرون اليها ان يقول هذا ان هذا أفضل من الثانى وان يقول الثانى لابل الثانى افضل وان يقول الثالث لابل الثالث أفضل وحينئذ يصير كل واحد من تلك الاشياء مقولا فيه انه افضل من غيره ثم قال تعالى واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون اى عن الكفر الى الايمان قالت المعتزلة هذا يدل على انه تعالى يريد الايمان من الكل وانه انما اظهر تلك المعجزات القاهرة لارادة ان يرجعوا من الكفر الى الايمان قال المفسرون ومعنى قوله واخذناهم بالعذاب اى بالاشياء التى سلطها عليهم كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ثم قال تعالى وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون فان قيل كيف سموه بالساحر مع قولهم اننا لمهتدون قلنا فيه وجوه (الاول) انهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لانهم كانوا يستعظمون السحر وكما يقال فى زماننا فى العامل العجيب الكامل انه أتى بالسحر (الثانى) ياأيها الساحر فى زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون اى نزل عليه الذكر فى اعتقاده وزعمه (الثالث) ان قولهم اننا لمهتدون وقد كانوا عازمين على خلافه ألاترى الى قوله فلما كشفنا عنهم العذاب اذاهم ينكثون فتسميتهم اياه بالساحر لاينافى قولهم اننا لمهتدون ثم بين تعالى انه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد ولما حكى الله تعالى معاملة قوم فرعون مع موسى حكى ايضا معاملة فرعون معه فقال ونادى فرعون فى قومه والمعنى انه اظهر هذا القول فقال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى يعنى الانهار التى فصلوها من النيل ومعظمها اربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس قيل كانت تجرى تحت قصره وحاصل الامر انه احتج بكثرة امواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه ثم قال أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين وعنى بكونه مهينا كونه فقيرا ضعيف الحال وبقوله ولايكاد يبين حبسة كانت فى لسانه واختلفوا فى معنى أم ههنا فقال ابو عبيدة مجازها بل انا خير وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله أفلا تبصرون ثم ابتدأ فقال أم انا خير بمعنى بل انا خير وقال الباقون ام هذه متصلة لان المعنى

(ولما ضرب ابن مريم مثلا) اى ضربه ابن الزبعرى حين جادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم حيث قال اهذا لنا (٤٤٩) ولآلهتنا او لجميع الامم فقال عليه الصلاة والسلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الامم فقال اللعين خصمتك ورب الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيزا وبنو مليح الملائكة فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا ان نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت اصواتهم وذلك قوله تعالى (اذا قومك منه) اى من ذلك المثل (يصدون) اى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجدلا وقرئ يصدون) اى من اجل ذلك المثل يعرضون عن الحق اى يثبتون على ما كانوا عليه من الاعراض او يزدادون فيه وقيل هو ايضا من الصديد وهما لغتان فيه نحو يعكف ويعكف وهو الانسب بمعنى المفاجأة (وقالوا أآلهتنا خير ام هو) حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيدا لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء اى ظاهر ان عيسى خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها واعلم ان ما نقل عنهم من الفرح ورفع الاصوات لم يكن لما قيل من انه عليه الصلاة والسلام سكت عند ذلك الى ان نزل قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية فان ذلك مع ايهامه لما يجب تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عنه من شائبة الافحام من اول الامر خلاف الواقع كيف لا وقد روى ان قول ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة صدر عنه من اول الامر عند سماع الآية الكريمة فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عليه السلام ما اجهلك بلغة قومك أما فهمت ان ما لما لا يعقل وانما لم يخص عليه السلام هذا الحكم بآلهتهم حين سأل الفاجر عن الخصوص والعموم عملا بما ذكر من اختصاص كلمة (٥٧) (را) (سا) ما بغير العقلاء لان اخراج بعض المعبودين عنه عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادته فى الجملة فعممه عليه السلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية

افلا تبصرون أم تبصرون الا انه وضع قوله انا خير موضع تبصرون لانهم اذا قالوا له انت خير فهم عنده بصراء وقال آخرون ان تمام الكلام عند قوله أم وقوله انا خير ابتداء الكلام والتقدير افلا تبصرون ام تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر ام كما تقول لغيرك اتأكل ام اى اتأكل أم لا تأكل تقتصر على ذكر كلمة أم ايثارا للاختصار فكذا ههنا فان قيل أليس ان موسى عليه السلام سأل الله تعالى ان يزيل الرتة عن لسانه بقوله واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله قد اوتيت سؤلك ياموسى فكيف عابه فرعون بتلك الرتة (والجواب) عنه من وجهين (الاول) ان فرعون اراد بقوله ولا يكاد يبين حجته التى تدل على صدقه فيما يدعى ولم يرد انه لا قدرة له على الكلام (والثانى) انه عابه بما كان عليه اولا وذلك ان موسى كان عند فرعون زمانا طويلا وفى لسانه حبسة فنسبه فرعون الى ما عهده عليه من الرتة لانه لم يعلم ان الله تعالى ازال ذلك العيب عنه ثم قال فلولا ألقى عليه اسورة من ذهب والمراد ان عادة القوم جرت بأنهم اذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة واختلف القراء فى اسورة فبعضهم قرأ اسورة وآخرون أساورة فاسورة جمع سوار لادنى العدد كقولك حمار واحمرة وغراب واغربة ومن قرأ اساورة فذاك لان اساور جمع اسوار وهو السوار فاساورة تكون الهاء عوضا عن الياء نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة فتكون اساورة جمع اسوار وحاصل الكلام يرجع الى حرف واحد وهو ان فرعون كان يقول انا اكثر مالا وجاها فوجب ان أكون افضل منه فيمتنع كونه رسولا من الله لان منصب النبوة يقتضى المخدومية والاخس لا يكون مخدوما للاشرف ثم المقدمة الفاسدة هى قوله من كان اكثر مالا وجاها فهو افضل وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار قريش فى قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ثم قال او جاء معه الملائكة مقترنين يجوز ان يكون المراد مقترنين به من قولك قرنته به فاقترن وان يكون من قولهم اقترنوا بمعنى تقارنوا قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته ثم قال تعالى فاستخف قومه فاطاعوه اى طلب منهم الخفة فى الاتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين حيث اطاعوا اذلك الجاهل الفاسق فلما آسفونا اغضبونا حكى ان ابن جريج غضب فى شئ فقيل له اتغضب يا ابا خالد فقال قد غضب الذى خلق الاحلام ان الله يقول فلما آسفونا اى اغضبونا ثم قال تعالى انتقمنا منهم واعلم ان ذكر لفظ الاسف فى حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منهما من المتشابهات التى يجب ان يصار فيها الى التأويل ومعنى الغضب فى حق الله ارادة العقاب ومعنى الانتقام ارادة العقاب لجرم سابق ثم قال تعالى فجعلناهم سلفا ومثلا السلف كل شئ قدمته من عمل صالح او قرض فهو سلف والسلف أيضا من تقدم من آبائك واقاربك واحدهم سالف ومنه قول طفيل يرثى قومه

من دون الله تعالى ثم بين عليه الصلاة والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى امرتهم بذلك ان الملائكة والمسيح بمعزل من ان يكونوا معبوديهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن (٤٥٠) الآية وقدم تحقيق المقام عند قوله تعالى ان الذين سبقت لهم من الحسنى الآية بل انما كان ما اظهروه من الاحوال المنكرة لمحض وقاحتهم وتهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى (ماضربوه لك الا جدلا) اى ماضربوا ذلك المثل الا لأجل الجدال والخصام لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك (بل هم قوم خصمون) اى لد شداد الخصومة مجبولون على المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قالوا نحن اهدى من النصارى لانهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم أآلهتنا خير ام هو حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام لان المراد بهم الملائكة ومعنى ماضربوه الخ ماقالوا هذا القول الا للجدل وقيل لما نزلت ان مثل عيسى الآية قالوا ما يريد محمد بهذا الا ان نعبده وانه يستأهل ان يعبدوان كان بشرا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير فى ام هو لمحمد عليه الصلاة والسلام وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز ان يكون مرادهم التنصل عما انكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا ماقلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل فان النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه فنحن اشف منهم قولا وفعلا حيث نسبنا اليه الملائكة وهم نسبوا اليه الاناسى فقوله تعالى (ان هو الا عبد انعمنا عليه) اى بالنبوة (وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل) اى امرا عجيبا حقيقا بان يسير ذكره كالامثال السائرة على الوجه الاول استئناف مسوق لتنزيه عليه السلام عن ان ينسب اليه ماسب الى الاصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحا قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم * وصرف المنايا بالرجال تقلب

فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون اى لجعلناهم سلفا لكفار امة محمد عليه السلام واكثر القراء قرؤا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه وقرأ حمزة والكسائى سلفا بالضم وهو جمع سلف قال الليث يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفا فهو سلف اى متقدم وقوله ومثلا للآخرين يريد عظة لمن بقى بعدهم وآية وعبرة قال ابو على الفارسى المثل واحد براد به الجمع ومن ثم عطف على سلف والدليل على وقوعه على اكثر من واحد قوله تعالى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه فأدخل تحت المثل شيئين والله اعلم * قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير ام هو ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ان هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر انواعا كثيرة من كفرياتهم فى هذه السورة واجاب عنها بالوجوه الكثيرة (فأولها) قوله تعالى وجعلوا له من عباده جزأ (وثانيها) قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (وثالثها) قوله وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم (ورابعها) قوله وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (وخامسها) هذه الآية التى نحن الآن فى تفسيرها ولفظ الآية لا يدل الا على انه لما ضرب ابن مريم مثلا اخذ القوم يضجون ويرفعون اصواتهم فاما ان ذلك المثل كيف كان وفى اى شئ كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوها كلها محتمل (فالاول) ان الكفار لما سمعوا ان النصارى يعبدون عيسى قالوا اذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى وانما قالوا ذلك لانهم كانوا يعبدون الملائكة (الثانى) روى انه لما نزل قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال عبد الله بن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا ام لجميع الامم فقال صلى الله عليه وسلم بل لجميع الامم فقال خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم ان عيسى بن مريم نبى وتثنى عليه خيرا وعلى امه وقد علمت ان النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيزا والملائكة يعبدون فاذا كان هؤلاء فى النار فقد رضينا ان نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبى صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضجوا فأنزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون ونزلت هذه الآية ايضا والمعنى ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله بعبادة النصارى اياه اذا قومك قريش منه اى من هذا المثل يصدون اى يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من اسكات رسول الله فانه قد جرت العادة بان احد الخصمين اذا انقطع اظهر الخصم الثانى الفرح والضجيج وقالوا أآلهتنا خير ام هو يعنون ان آلهتنا عندك ليست خيرا من عيسى فاذا كان عيسى من حصب

جهنم كان أمر آلهتنا اهون (الوجه الثالث) فى التأويل وهو ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما حكى ان النصارى عبدوا المسيح وجعلوه الها لأنفسهم قال كفار مكة ان محمدا يريد ان يجعل لنا الها كما جعل النصارى المسيح الها لأنفسهم ثم عند هذا قالوا أآلهتنا خير ام هو يعنى أآلهتنا خير ام محمد وذكروا ذلك لاجل انهم قالوا ان محمدا يدعونا الى عبادة نفسه وآباؤنا زعموا انه يجب عبادة هذه الاصنام واذا كان لا بد من احد هذين الامرين فعبادة هذه الاصنام اولى لان آباءنا واسلافنا كانوا متطابقين عليه واما محمد فانه متهم فى امرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الاصنام اولى ثم انه تعالى بين انا لم نقل ان الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل فان عيسى ليس الا عبدا انعمنا عليه فاذا كان الامر كذلك فقد زالت شبهتهم فى قوله ان محمدا يريد ان يأمرنا بعبادة نفسه فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن عامر والكسائى وابو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة على بن ابى طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهى قراءة ابن عباس واختلفوا فقال الكسائى هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون ومنهم من فرق اما القراءة بالضم فمن الصدود اى من اجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه واما بالكسر فمعناه يضجون (المسئلة الثالثة) قرأ عاصم وحمزة والكسائى أآلهتنا استفهاما بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاما بهمزة ومدة ثم قال تعالى ماضربوه لك الا جدلا اى ماضربوا لك هذا المثل الا لاجل الجدل والغلبة فى القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل بل هم قوم خصمون مبالغون فى الخصومة وذلك لان قوله انكم وما تعبدون من دون الله لا يتناول الملائكة وعيسى وبيانه من وجوه (الاول) ان كلمة ما لا تتناول العقلاء البتة (الثانى) ان كلمة ما ليست صريحة فى الاستغراق بدليل انه يصح ادخال لفظتى الكل والبعض عليه فيقال انكم وكل ما تعبدون من دون الله انكم وبعض ما تعبدون من دون الله (الثالث) ان قوله انكم وكل ما تعبدون من دون الله او وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم احد يعبد المسيح والملائكة (الرابع) ان قوله انكم وما تعبدون من دون الله هب انه عام الا ان النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه والخاص مقدم على العام (المسئلة الرابعة) القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية الا انا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا ان الآيات الكثيرة دالة على ان الجدل موجب للمدح والثناء وطريق التوفيق ان تصرف تلك الآيات الى الجدل الذى يفيد تقرير الحق وان تصرف هذه الآية الى الجدل الذى يوجب تقرير الباطل ثم قال تعالى ان هو الا عبد انعمنا عليه يعنى ما عيسى الا عبد كسائر العبيد انعمنا عليه حيث جعلناه آية بان خلقناه من غير اب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ولو نشاء لجعلنا منكم لولدنا منكم يارجال ملائكة يخلفونكم فى الارض كما يخلفكم اولادكم كما ولدنا عيسى من انثى

الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض بفساد رأى من يرى رأيهم فى شأن الملائكة وعلى الثانى والرابع لبيان انه قياس باطل بباطل او بأبطل على زعمهم وما عيسى (٤٥١) الا عبد كسائر العبيد قصارى امره انه ممن انعمنا عليهم بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه ابدع منه فأين هو من رتبة الربوبية ومن اين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة الملائكة بكونهم اهدى منهم اويعتذروا بأن حالهم اشف او اخف من حالهم واما على الوجه الثالث فهو لردهم وتكذيبهم فى افترائهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ان عيسى فى الحقيقة وفيما اوحى الى الرسول عليهما الصلاة والسلام ليس الا انه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى عليه السلام بمعبوديته او كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه وقوله تعالى (ولو نشاء) الخ لتحقيق ان مثل عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله وانه تعالى قادر على ابدع من ذلك وابرع مع التنبيه على سقوط الملائكة ايضا من درجة المعبودية اى قدرتنا بحيث لو نشاء (لجعلنا) اى لخلقنا بطريق التوالد (منكم) وانتم رجال ليس من شانكم الولادة (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الابداع (فى الارض) مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء (يخلفون) اى يخلفونكم مثل اولادكم فيما تأتون وما تذرون ويباشرون الافاعيل المنوطة بمباشرتكم مع ان شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة الى القدرة الربانية كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية اوانتسابهم اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وانه) وان عيسى (لعلم للساعة) اى انه بنزوله شرط من اشراطها وتسميته علما لحصوله به او بحدوثه بغير اب او باحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الامور الواقعة فى الساعة وقرئ لعلم اى علامة وقرئ للعلم وقرئ لذكر على تسمية ما يذكر به ذكرا كتسمية ما يعلم به علما وفى الحديث ان عيسى عليه السلام ينزل على ثنية

بالارض المقدسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح فيتأخر الامام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد (٤٥٢) صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الامن آمن به وقيل الضمير للقرآن لما ان فيه الاعلام بالساعة (فلا تمترن بها) فلا تشكن فى وقوعها (واتبعون) اى واتبعوا هداى اوشرعى او رسولى وقيل هو قول الرسول مأمورا من جهته تعالى (هذا) اى الذى ادعوكم اليه اوالقرآن على ان الضمير فى انه له (صراط مستقيم) موصل الى الحق (ولا يصدنكم الشيطان) عن اتباعى (انه لكم عدو مبين) بين العداوة حيث اخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية (ولما جاء عيسى بالبينات) اى بالمعجزات اوبآيات الانجيل او بالشرائع الواضحات (قال) لبنى اسرائيل (قد جئتكم بالحكمة) اى الانجيل اوالشريعة (ولأبين لكم) عطف على مقدر ينبئ عنه المجئ بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لاعلمكم اياها ولأبين لكم (بعض الذى تختلفون فيه) وهو مايتعلق بامور الدين واما مايتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الانبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام انتم اعلم بامور دنياكم (فاتقوا الله) فى مخالفتى (واطيعون) فيما ابلغه عنه تعالى (ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه) بيان لما امرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع (هذا) اى التوحيد والتعبد بالشرائع (صراط مستقيم) لا يضل سالكه وهو امامن تمة كلامه عليه السلام او استئناف من جهته تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام (فاختلف الاحزاب) الفرق المتحزبة (من بينهم) اى من بين من بعث اليهم من اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا) من المختلفين (من عذاب يوم اليم) هو يوم القيامة (هل ينظرون) اى ماينتظر الناس (الا الساعة ان تأتيهم) اى الا اتيان الساعة (بغتة) اى فجأة لكن لاعند كونهم مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بامور الدنيا منكرين لها وذلك قوله

من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا ان دخول التوليد والتولد فى الملائكة امر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك وان عيسى لعلم للساعة اى شرط من اشراطها تعلم به فسمى الشرط الدال على الشئ علما لحصول العلم به وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة وقرئ للعلم وقرأ ابى لذكر وفى الحديث ان عيسى ينزل على ثنية فى الارض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح والامام يؤم بهم فيتأخر الامام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الامن آمن به فلا تمترن بها من المرية وهو الشك واتبعون واتبعوا هداى وشرعى هذا صراط مستقيم اى هذا الذى ادعوكم اليه صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين قد بانت عداوته لكم لاجل انه هو الذى أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور ❊ قوله تعالى (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم هل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) اعلم انه تعالى ذكر انه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات قال قد جئتكم بالحكمة وهى معرفة ذات الله وصفاته وافعاله ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه يعنى ان قوم موسى كانوا قد اختلفوا فى اشياء من احكام التكاليف واتفقوا على اشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحق فى تلك المسائل الخلافية وبالجملة فالحكمة معناها اصول الدين وبعض الذى تختلفون فيه معناه فروع الدين فان قيل لم لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه قلنا لان الناس قد يختلفون فى اشياء لا حاجة بهم الى معرفتها فلا يجب على الرسول بيانها ولما بين الاصول والفروع قال فاتقوا الله فى الكفر به والاعراض عن دينه واطيعون فيما ابلغه اليكم من التكاليف ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم والمعنى ظاهر فاختلف الاحزاب اى الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية وقيل اليهود والنصارى فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم وهو وعيد بيوم الاحزاب فان قيل قوله من بينهم الضمير فيه الى من يرجع قلنا الى الذين خاطبهم عيسى فى قوله قد جئتكم بالحكمة وهم قومه ثم قال هل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة فقوله ان تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون الا اتيان الساعة فان قالوا قوله بغتة يفيد عين مايفيده قوله وهم لا يشعرون فما الفائدة فيه قلنا يجوز ان تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب انهم يشاهدونه ❊ قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة انتم وازواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها

(خالدون)

خالدون وتلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تاكلون) اعلم انه تعالى لما قال هل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة ذكر عقيبه بعض مايتعلق بأحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين والمعنى الأخلاء فى الدنيا يومئذ يعنى فى الآخرة بعضهم لبعض عدو يعنى ان الخلة اذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة الا المتقين يعنى الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضا على الايمان والتقوى فان خلتهم لاتصير عداوة وللحكماء فى تفسير هذه الآية طريق حسن قالوا ان المحبة امر لايحصل الا عند حصول خير اودفع ضرر فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لامحالة ومتى حصل اعتقاد انه يوجب ضررا حصل البغض والنفرة اذا عرفت هذا فنقول تلك الخيرات التى كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة اما ان تكون قابلة للتغير والتبدل او لاتكون كذلك فان كان الواقع هو القسم الاول وجب ان تبدل تلك المحبة بالنفرة لان تلك المحبة انما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة فاذا زال ذلك الاعتقاد وحصل عقيبه اعتقاد ان الحاصل هو الضرر والالم وجب ان تتبدل تلك المحبة بالبغضة لان تبدل العلة يوجب تبدل المعلول اما اذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة خيرات باقية ابدية غير قابلة للتبدل والتغير كانت تلك المحبة ايضا محبة باقية آمنة من التغير اذا عرفت هذا الاصل فنقول الذين حصلت بينهم محبة ومودة فى الدنيا ان كانت تلك المحبة لاجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها فهذه المطالب لاتبقى فى القيامة بل يصير طلب الدنيا سببا لحصول الآلام والآفات فى يوم القيامة فلاجرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة فى القيامة اما ان كان الموجب لحصول المحبة فى الدنيا الاشتراك فى محبة الله وفى خدمته وطاعته فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير فلاجرم كانت هذه المحبة باقية فى القيامة بل كأنها تصير اقوى واصفى واكمل وافضل مما كانت فى الدنيا فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (الحكم الثانى) من احكام يوم القيامة قوله تعالى ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون وقد ذكرنا مرارا ان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين فقوله ياعبادى كلام الله تعالى فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون وفيه انواع كثيرة مما يوجب الفرح (اولها) ان الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة (وثانيها) انه تعالى وصفهم بالعبودية وهذا تشريف عظيم بدليل انه لما اراد ان يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال سبحان الذى اسرى بعبده (وثالثها) قوله لاخوف عليكم اليوم فأزال عنهم الخوف فى يوم القيامة بالكلية وهذا من اعظم النعم (ورابعها) قوله ولا انتم تحزنون فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية ثم قال تعالى الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين قيل الذين آمنوا مبتدأ وخبره مضمر والتقدير يقال لهم ادخلوا الجنة ويحتمل ان يكون المعنى اعنى الذين آمنوا قال

تعالى (وهم لايشعرون الاخلاء) المتحابون فى الدنيا على الاطلاق اوفى الامور الدنيوية (يومئذ) يوم اذ تأتيهم الساعة (بعضهم لبعض عدو) لانقطاع مابينهم من علائق الخلة والتحاب لظهور (٤٥٣) كونها اسبابا للعذاب (الا المتقين) فان خلتهم فى الدنيا لما كانت فى الله تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب ورفع الدرجات والاستثناء على الاول متصل وعلى الثانى منقطع (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون) حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ تشريفا لهم وتطييبا لقلوبهم (الذين آمنوا بآياتنا) صفة للمنادى اونصب على المدح (وكانوا مسلمين) اى مخلصين وجوههم لنا جاعلين انفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو امنوا عن مقاتل اذا بعث الله الناس فزع كل احد فينادى مناد ياعبادى فيرفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يتبعها الذين آمنوا الآية فينكس اهل الاديان الباطلة رؤسهم (ادخلوا الجنة أنتم وازواجكم) نساؤكم المؤمنات (تحبرون) تسرون سرورا يظهر حباره اى اثره على وجوهكم اوتزينون من الحبرة وهو حسن الهيئة اوتكرمون اكراما بليغا والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل (يطاف عليهم) بعد دخولهم الجنة حسبما امروا به (بصحاف من ذهب واكواب) كذلك والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة وقيل اعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المكيلة والاكواب جمع كوب وهو كوز لاعروة له (وفيها) اى فى الجنة (ماتشتهيه الانفس) من فنون الملاذ وقرئ ماتشتهى (وتلذ الاعين) اى تستلذه وتقر بمشاهدته وقرئ وتلذه (وانتم فيها خالدون) اتمام للنعمة واكمال للسرور فان كل نعيم له زوال بالآخرة مقارن لخوفه لامحالة والالتفات للتشريف (وتلك الجنة) مبتدأ وخبر (التى اورثتموها) وقرئ ورثتموها (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من الاعمال الصالحة شبه جزاء العمل بالميراث لانه يخلفه العامل عليه وقيل تلك الجنة مبتدأ وصفة والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الاول والخبر بما كنتم تعملون

مقاتل اذاوقع الخوف يوم القيامة نادى مناد ياعبادى لاخوف عليكم اليوم فاذاسمعوا النداء رفع الخلائق رؤسهم فيقال الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فتنكس اهل الاديان الباطلة رؤسهم (الحكم الثالث) من وقائع القيامة انه تعالى اذاأمن المؤمنين من الخوف والحزن وجب ان يمر حسابهم على اسهل الوجوه وعلى احسنها ثم يقال لهم ادخلوا الجنة انتم وازواجكم تحبرون والحبرة المبالغة فى الاكرام فيماوصف بالجميل يعنى يكرمون اكراما على سبيل المبالغة وهذا مماسبق تفسيره فى سورة الروم ثم قال يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب قال الفراء الكوب المستدير الرأس الذى لااذن له فقوله يطاف عليهم بصحاف من ذهب اشارة الى المطعوم وقوله واكواب اشارة الى المشروب ثم انه تعالى ترك التفصيل وذكر بيانا كليا فقال وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذالاعين وانتم فيها خالدون ثم قال وتلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون وقدذكرنا فى وراثة الجنة وجهين فى تفسير قوله اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم ذكر ههنا حال الفاكهة فقال لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون واعلم انه تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى العرب اولا ثم الى العالمين ثانيا والعرب كانوا فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة فلهذا السبب تفضل الله تعالى عليهم بهذه المعانى مرة بعد اخرى تكميلا لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ❁ قوله تعالى (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون لقدجئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون ام ابرموا امرا فانامبرمون ام يحسبون انالانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) اعلم انه تعالى لماذكر الوعد اردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج القاضى على القطع بوعيد الفساق بقوله ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق فوجب كون الكل فى عذاب جهنم وقوله خالدون يدل على الخلود وقوله ايضا لايفتر عنهم يدل على الخلود والدوام ايضا (والجواب) ان ماقبل هذه الآية ومابعدها يدل على ان المراد من لفظ المجرمين ههنا الكفار اما ماقبل هذه الآية فلأنه قال ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولاانتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فهذا يدل على ان كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين فانهم يدخلون تحت قوله ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولاانتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين والفاسق من اهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته واسلم فوجب ان يكون داخلا تحت ذلك الوعد ووجب ان يكون خارجا عن هذا الوعيد واماما بعد هذه الآية فهو قوله لقدجئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون والمراد بالحق ههنا اما الاسلام واما القرآن والرجل المسلم لايكره الاسلام ولاالقرآن فثبت ان ماقبل هذه الآية ومابعدها يدل على ان المراد من المجرمين الكفار والله اعلم

(المسئلة)

فتتعلق الباء بمحذوف لاباورثتموها كمافى الاولين (لكم فيهافاكهة كثيرة) بحسب الانواع والاصناف لابحسب الافراد فقط (منهاتأكلون) اى بعضها تأكلون فى كل نوبة واما الباقى فعلى الاشجار على الدوام لاترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة بالثمار ابداموقرة بها وعن النبى صلى الله عليه وسلم لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها الانبت مثلاهامكانها (ان المجرمين) اى الراسخين فى الاجرام وهم الكفار حسبما ينبئ عنه ايرادهم فى مقابلة المؤمنين بالآيات (فى عذاب جهنم خالدون) خبران اوخالدون هو الخبر وفى متعلقة به (لايفتر عنهم) اى لايخفف العذاب عنهم من قولهم فترت عنه الحمى اذا سكنت قليلا والتركيب للضعف (وهم فيه) اى فى العذاب وقرئ فيها اى فى النار (مبلسون) آيسون من النجاة (وماظلمناهم) بذلك (ولكن كانوا هم الظالمين) لتعريضهم انفسهم للعذاب الخالد (ونادوا) خازن النار (يامالك) وقرئ يامال على الترخيم بالضم والكسر ولعله رمز الى ضعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه (ليقض علينا ربك) اى ليميتنا حتى نستريح من قضى عليه اذا اماته والمعنى سل ربك ان يقضى علينا وهذا لاينافى ماذكر من ابلاسهم لانه جؤار وتمن للموت لفرط الشدة (قال انكم ماكثون) اى فى العذاب ابدا لاخلاص لكم منه بموت ولابغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما انه لايجيبهم الابعد الف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد اربعين سنة (لقدجئناكم بالحق) فى الدنيا بارسال الرسل وانزال الكتب وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم وقيل فى قال ضمير الله تعالى (ولكن اكثركم للحق) اى حق كان (كارهون) لايقبلونه وينفرون عنه واما الحق المعهود الذى هو التوحيد او القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه (ام ابرموا امرا) كلام مبتدأ ناع على المشركين مافعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وام منقطعة ومافيها من معنى بل للانتقال من توبيخ اهل النار الى حكاية جناية هؤلاء والهمزة

(المسئلة الثانية) انه تعالى وصف عذاب جهنم فى حق المجرمين بصفات ثلاثة (احدها) الخلود وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة انه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام (وثانيها) قوله لايفتر عنهم اى لايخفف ولاينقص من قولهم فترت عنه الحمى اذا سكنت ونقص حرها (وثالثها) قوله وهم فيه مبلسون والمبلس اليائس الساكت سكوت يائس من فرج عن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالدا لايرى ولا يرى قال صاحب الكشاف وقرئ وهم فيها اى وهم فى النار (المسئلة الثالثة) احتج القاضى بقوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فقال ان كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار فالذى نفاه بقوله وما ظلمناهم وما الذى نسبه اليهم مما نفاه عن نفسه اوليس لو اثبتناه ظلما لهم كان لايزيد على مايقوله القوم فان قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عز وجل فقط بل انما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معا فلم يكن ذلك ظلما من الله قلنا عندكم ان القدرة على الظلم موجبة للظلم وخالق تلك القدرة هو الله تعالى فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن ان يكون ظالما لهم وذلك محال لان من يكون ظالما فى فعل فاذا فعل معه مايوجب ذلك الفعل يكون بذلك احق فيقال للقاضى قدرة العبد هل هى صالحة للطرفين او هى متعينة لاحد الطرفين فان كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح ان وقع لا لمرجح لزم نفى الصانع وان افتقر الى مرجح عاد التقسيم الاول فيه ولابد وان ينتهى الى داعية مرجحة يخلقها الله فى العبد وان كانت متعينة لاحد الطرفين فحينئذ يلزمك ماأوردته علينا واعلم انه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره انما الرجل الذى ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده فان رآه واردا على مذهبه بعينه لم يذكره والله اعلم (المسئلة الرابعة) قرأ ابن مسعود يامال بحذف الكاف للترخيم فقيل لابن عباس ان ابن مسعود قرأ ونادوا يامال فقال مااشغل اهل النار عن هذا الترخيم واجيب عنه بانه انما حسن هذا الترخيم لانه يدل على انهم بلغوا فى الضعف والنحافة الى حيث لايمكنهم ان يذكروا من الكلمة الابعضها (المسئلة الخامسة) اختلفوا فى ان قولهم يامالك ليقض علينا ربك على اى وجه طلبوه فقال بعضهم على التمنى وقال آخرون على وجه الاستغاثة والافهم عالمون بانه لاخلاص لهم عن ذلك العقاب وقيل لايبعد ان يقال انهم لشدة ماهم فيه من العذاب نسوا تلك المسئلة فذكروه على وجه الطلب ثم انه تعالى بين ان مالكا يقول لهم انكم ماكثون وليس فى القرآن متى اجابهم هل اجابهم فى الحال او بعد ذلك بمدة وان كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة او بمدة طويلة فلا يمتنع ان تؤخر الاجابة استخفافا بهم وزيادة فى غمهم فعن عبدالله بن عمر بعد اربعين سنة وعن غيره بعد مائة سنة وعن ابن عباس بعد الف سنة والله اعلم بذلك المقدار ثم بين تعالى ان مالكا لما اجابهم بقوله انكم ماكثون ذكر بعده ماهو كالعلة لذلك الجواب فقال لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة

للانكار فان اريد بالابرام الاحكام حقيقة فهى لانكار الوقوع واستبعاده وان اريد الاحكام صورة فهى لانكار الواقع واستقباحه اى أبرم مشركو مكة امرا من كيدهم ومكرهم برسول الله (٤٥٥) صلى الله عليه وسلم (فانا مبرمون) كيدنا حقيقة لاهم اوفانا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما ابرموا كيدهم صورة كقوله تعالى أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتناجون فى انديتهم ويتشاورون فى اموره عليه الصلاة والسلام (أم يحسبون) اى بل ايحسبون (انا لانسمع سرهم) وهو ماحدثوا به انفسهم اوغيرهم فى مكان خال (ونجواهم) اى ماتكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى (بلى) نحن نسمعهما ونطلع عليهما (ورسلنا) الذين يحفظون عليهم اعمالهم ويلازمونهم اينما كانوا (لديهم) عندهم (يكتبون) اى يكتبونهما اويكتبون كل ماصدر عنهم من الافعال والاقوال التى من جملتها ماذكر من سرهم ونجواهم والجملة اماعطف على مايترجم عنه بلى اوحال اى نسمعهما والحال ان رسلنا يكتبون (قل) اى للكفرة تحقيقا للحق وتنبيها لهم على ان مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم السلام ليست لبغضك وعداوتك لهم اولمعبوديهم بل انما هو لجزمك باستحالة مانسبوا اليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالى (ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين) اى له وذلك لانه عليه الصلاة والسلام اعلم الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لايجوز واولاهم بمراعاة حقوقه ومن مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على ابلغ الوجوه واقواها وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم فى باب التوحيد مالا يخفى مع مافيه من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه ايراد ان مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم الشرطية وقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فانا اول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فانا اول الآنفين اى المستنكفين منه اومن ان يكون له ولد من عبد يعبد

اذا اشتد أنفه وقيل ان نافيـة اى ما كان للرحمن ولد فانا اول من قال بذلك وقرئ ولد (سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون) اى يصفونه به من ان يكون له ولد (٤٥٦) وفى اضافة اسم الرب الى اعظم الاجرام واقواها تنبيه على انها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف يتوهم ان يكون شئ منها جزأ منه سبحانه وفى تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش (فذرهم) حيث لم يذعنوا للحق بعدما سمعوا هذا البرهان الجلى (يخوضوا) فى اباطيلهم (ويلعبوا) فى دنياهم فان ماهم فيه من الافعال والاقوال ليست الا من باب الجهل واللعب والجزم فى الفعل لجواب الامر (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) من يوم القيامة فانهم يومئذ يعلمون مافعلوا ومايفعل بهم (وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله) الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفى الذى ينبئ عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق كما مر فى تفسير البسملة كأنه قيل وهو الذى يستحق لأن يعبد فيهما وقد مر تحقيقه فى سورة الانعام وقرئ وهو الذى فى السماء الله وفى الارض الله والراجع الى الموصول مبتدأ قد حذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبرا مقدما واله مبتدأ مؤخرا للزوم عراء الجملة حينئذ عن العائد نعم يجوز ان يكون صلة للموصول واله خبرا لمبتدأ محذوف على ان الجملة بيان للصلة وان كونه فى السماء على سبيل الالهية لا على سبيل الاستقرار وفيه نفى الآلهة السماوية والارضية وتخصيص لاستحقاق الالهية به تعالى وقوله تعالى (وهو الحكيم العليم) كالدليل على ماقبله (وتبارك الذى له ملك السموات والارض ومابينهما) اما على الدوام كالهواء اوفى بعض الاوقات كالطير (وعنده علم الساعة) اى العلم بالساعة التى فيها تقوم القيامة (واليه ترجعون) للجزاء والالتفات للتهديد وقرئ على الغيبة وقرئ تحشرون بالتاء (ولا يملك الذين يدعون) اى يدعونهم وقرئ بالتاء مخففا ومشددا (من دونه الشفاعة)

بغضهم لقبول الدين الحق فان قيل كيف قال ونادوا يامالك بعد ما وصفهم بالابلاس قلنا تلك ازمنة متطاولة واحقاب ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون اوقاتا لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون اوقاتا لشدة مابهم روى انه يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يامالك ليقض علينا ربك ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم فى الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم فى الدنيا فقال ام ابرموا أمرا فانا مبرمون والمعنى ام ابرموا مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله فانا مبرمون كيدنا كما ابرموا كيدهم كقوله تعالى ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون قال مقاتل نزلت فى تدبيرهم فى المكر به فى دار الندوة وهو ماذكره الله تعالى فى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وقد ذكرنا القصة ثم قال ام يحسبون انا لانسمع سرهم ونجواهم السر ماحدث به الرجل نفسه او غيره فى مكان خال والنجوى ماتكلموا به فيما بينهم بلى نسمعها ونطلع عليها ورسلنا يريد الحفظة يكتبون عليهم تلك الاحوال وعن يحيى بن معاذ من ستر من الناس ذنوبه وابداها للذى لايخفى عليه شئ فى السموات فقد جعله اهون الناظرين اليه وهو من علامات النفاق * قوله تعالى (قل ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وهو الحكيم العليم وتبارك الذى له ملك السموات والارض ومابينهما وعنده علم الساعة واليه يرجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون وقيله يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى ولد بضم الواو واسكان اللام والباقون بفتحهما فانا اول العابدين قرأ نافع فانا بفتحة طويلة على النون والباقون بلا تطويل (المسئلة الثانية) اعلم ان الناس ظنوا ان قوله قل ان كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين لو اجريناه على ظاهره فانه يقتضى وقوع الشك فى اثبات ولد لله تعالى وذلك محال فلاجرم افتقروا الى تأويل الآية وعندى انه ليس الامر كذلك وليس فى ظاهر اللفظ مايوجب العدول عن الظاهر وتقريره ان قوله ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين ادخل على احداهما حرف الشرط وعلى الاخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة ومثاله هذه الآية فان قوله ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين قضية مركبة من قضيتين (احداهما) قوله ان كان للرحمن ولد (والثانية) قوله فانا اول العابدين ثم ادخل حرف الشرط وهو لفظة ان على القضية الاولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية فحصل من مجموعهما قضية واحدة وهى القضية الشرطية اذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لاتفيد الا كون الشرط مستلزما للجزاء وليس فيها اشعار بكون

(الشرط)

الشرط حقا اوباطلا اويكون الجزاء حقا اوباطلا بل نقول القضية الشرطية الحقة قدتكون مركبة من قضيتين حقيتين او من قضيتين باطلتين او من شرط باطل وجزاء حق او من شرط حق وجزاء باطل (فأما القسم الرابع) وهو ان تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال ولنبين امثلة هذه الاقسام الاربعة فاذا قلنا ان كان الانسان حيوانا فالانسان جسم فهذه شرطية حقة وهى مركبة من قضيتين حقيتين (احداهما) قولنا الانسان حيوان والثانية قولنا الانسان جسم واذا قلنا ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان وكونهما باطلين لايمنع من ان يكون استلزام احدهما للآخر حقا وقد ذكرنا ان القضية الشرطية لاتفيد الامجرد الاستلزام واذا قلنا ان كان الانسان حجرا فهو جسم فهذا ايضا حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الانسان حجر ومن جزاء حق وهو قولنا الانسان جسم وانما جاز هذا لان الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق فانا لو فرضنا كون الانسان حجرا وجب كونه جسما فهذا شرط باطل يستلزم جزاء حقا (واما القسم الرابع) وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال لان هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزما للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فانه يلزم منه كون الباطل مستلزما للحق وذلك ليس بمحال اذا عرفت هذا الاصل فلنرجع الى الآية فنقول قوله ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لان قولنا كان للرحمن ولد باطل وقولنا انا اول العابدين لذلك الولد باطل ايضا الا انا بينا ان كون كل واحد منهما باطلا لايمنع من ان يكون استلزام احدهما للآخر حقا كما ضربنا من المثال فى قولنا ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فثبت ان هذا الكلام لاامتناع فى اجرائه على ظاهره ويكون المراد منه انه ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين لذلك الولد فان السلطان اذا كان له ولد فكما يجب على عبده ان يخدمه فكذلك يجب عليه ان يخدم ولده وقد بينا ان هذا التركيب لايدل على الاعتراف باثبات ولد ام لا ومما يقرب من هذا الباب قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا فيهما آلهة والجزاء هو قولنا فسدتا فالشرط فى نفسه باطل والجزاء أيضا باطل لان الحق انه ليس فيهما آلهة وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ بانتفاء غيره لانهما مافسدتا ثم مع كون الشرط باطلا وكون الجزاء باطلا كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقا فكذا ههنا فان قالوا الفرق ان ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة لو فقال لو كان فيهما آلهة وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره واما فى الآية التى نحن فى تفسيرها فانما ذكر الله تعالى كلمة ان وهذه الكلمة لاتفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره بل هذه الكلمة تفيد الشك فى انه هل حصل الشرط ام لا وحصول هذا الشك للرسول

كما زعمون (الامن شهد بالحق) الذى هو التوحيد (وهم يعلمون) عمايشهدون به عن بصيرة وايقان واخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من كما ان الافراد اولا باعتبار لفظها والاستثناء اما متصل والموصول عام لكل مايعبد من دون الله اومنفصل على انه خاص بالاصنام (ولئن سألتهم من خلقهم) اى سألت العابدين والمعبودين (ليقولن الله) لتعذر الانكار لغاية بطلانه (فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن عبادته الى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا لله تعالى (وقيله) بالجر اما على انه عطف على الساعة اى عنده علم الساعة وعلم قوله عليه الصلاة والسلام (يارب) الخ فان القول والقيل والقال كلها مصادر اوعلى ان الواو للقسم وقوله

غير ممكن قلنا الفرق الذى ذكرتم صحيح الا ان مقصودنا بيان انه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزأيها صادقين او كاذبين على ما قررناه اما قوله ان لفظة ان تفيد حصول الشك فى ان الشرط هل حصل ام لا قلنا هذا ممنوع فان حرف ان حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد الا كون الشرط مستلزما للجزاء واما بيان ان ذلك الشرط معلوم الوقوع او مشكوك الوقوع فاللفظ لا دلالة فيه عليه البتة فظهر من المباحث التى لخصناها ان الكلام ههنا ممكن الاجراء على ظاهره من جميع الوجوه وانه لا حاجة فيه البتة الى التأويل والمعنى انه تعالى قال قل يا محمد ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين لذلك الولد وانا أول الخادمين له والمقصود من هذا الكلام بيان انى لا انكر ولده لاجل العناد والمنازعة فان بتقدير ان يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقرا به معترفا بوجوب خدمته الا انه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة فكيف أقول به بل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف اقول به وكيف اعترف بوجوده وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتة الى التأويل والعدول عن الظاهر فهذا ما عندى فى هذا الموضع ونقل عن السدى من المفسرين انه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة الى التأويل والتقرير الذى ذكرناه يدل على ان الذى قاله هو الحق اما القائلون بانه لا بد من التأويل فقد ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الواحدى كثرت الوجوه فى تفسير هذه الآية والاقوى ان يقال المعنى ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فانا اول العابدين اى الموحدين لله المكذبين لقولكم باضافة الولد اليه ولقائل ان يقول اما ان يكون تقدير الكلام ان يثبت للرحمن ولد فى نفس الامر فانا اول المنكرين له او يكون التقدير ان يثبت لكم ادعاء ان للرحمن ولدا فانا اول المنكرين له والاول باطل لان ثبوت الشئ فى نفسه لا يقتضى كون الرسول منكرا له لان قوله ان كان الشئ ثابتا فى نفسه فانا اول المنكرين يقتضى اصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول (والثانى) ايضا باطل لانهم سواء اثبتوا لله ولدا او لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد فلم يكن لزعمهم تأثير فى كون الرسول منكرا لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم اثبات الولد مؤثرا فى كون الرسول منكر الولد (والوجه الثانى) قالوا معناه ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين الآنفين من ان يكون له ولد من عبد يعبد اذا اشتدت انفته فهو عبد وعابد وقرأ بعضهم عبدين واعلم ان السؤال المذكور قائم ههنا لانه ان كان المراد ان كان للرحمن ولد فى نفس الامر فانا اول الآنفين من الاقرار به فهذا يقتضى الاصرار على الجهل والكذب وان كان المراد ان كان للرحمن ولد فى زعمكم واعتقادكم فانا اول الآنفين فهذا التعليق فاسد لان هذه الانفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد او لم يحصلا واذا كان الامر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزا (والوجه الثالث) قال بعضهم ان كلمة ان ههنا هى النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فانا اول الموحدين من اهل مكة ان لا ولد له واعلم ان التزام

تعالى (ان هؤلاء قوم لا يؤمنون) جوابه وفى الاقسام به من رفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتفخيم دعائه والتجائه اليه تعالى ما لا يخفى وقرئ بالنصب بالعطف على سرهم او على محل الساعة او باضمار فعله او بتقدير فعل القسم وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده وقد جوز عطفه على علم الساعة (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم واقنط عن ايمانهم (وقل سلام) اى امرى تسلم منكم ومتاركة (فسوف يعلمون) حالهم البتة وان تأخر ذلك وهو وعيد من الله تعالى لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ تعلمون على انه داخل فى حيز قل *عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عباد لا خوف

هذه الوجوه البعيد انما يكون للضرورة و قد بينا انه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير اليها والله اعلم ثم قال سبحانه وتعالى سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون والمعنى ان اله العالم يجب ان يكون واجب الوجود لذاته وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزى بوجه من الوجوه والولد عبارة عن ان ينفصل عن الشئ جزء من اجزائه فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا انما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزى والتبعض واذا كان ذلك محالا فى حق اله العالم امتنع اثبات الولد له ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون والمقصود منه التهديد يعنى قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا وهم لم يلتفتوا اليها لاجل كونهم مستغرقين فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا الى ذلك اليوم الذى وعدوا فيه بما وعدوا والمقصود منه التهديد ثم قال تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وفيه بحثان (البحث الاول) قال ابو على نظرت فيما يرتفع به اله فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير وهو الذى فى السماء هو اله (والبحث الثانى) هذه الآية من أدل الدلائل على انه تعالى غير مستقر فى السماء لانه تعالى بين بهذه الآية ان نسبته الى السماء بالالهية كنسبته الى الارض فلما كان الها للارض مع انه غير مستقر فيها فكذلك يجب ان يكون الها للسماء مع انه لا يكون مستقرا فيها فان قيل واى تعلق لهذا الكلام بنفى الولد عن الله تعالى قلنا تعلقه به انه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والاب فكأنه قيل ان هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولدا لله سبحانه لان هذا المعنى حاصل فى تخليق السموات والارض ومابينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك ثم قال تعالى وهو الحكيم العليم وقد ذكرنا فى سورة الانعام ان كونه تعالى حكيما عليما ينافى حصول الولد له ثم قال وتبارك الذى له ملك السموات والارض ومابينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون واعلم ان قوله تبارك اما ان يكون مشتقا من الثبات والبقاء واما ان يكون مشتقا من كثرة الخير وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافى كون عيسى عليه السلام ولدا لله تعالى لانه ان كان المراد منه الثبات والبقاء فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام لانه حدث بعد ان لم يكن ثم عند النصارى انه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقى الدائم الازلى مجانسة ومشابهة فامتنع كونه ولدا له وان كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقا للسموات والارض ومابينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجا الى الطعام وعند النصارى انه كان خائفا من اليهود وبالآخرة اخذوه وقتلوه فالذى هذا صفته كيف يكون ولدا لمن كان خالقا للسموات والارض ومابينهما واما قوله وعنده علم الساعة فالمقصود منه انه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه والمقصود التنبيه على ان من كان كاملا فى الذات والعلم والقدرة على الحد الذى شرحناه امتنع ان يكون

عليكم اليوم ولا انتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب

(سورة الدخان مكية الا قوله (انا كاشفوا العذاب الآية) (وهى سبع اوتسع وخمسون) (آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم والكتاب المبين) الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة (انا انزلناه) اى الكتاب المبين الذى هو القرآن (فى ليلة مباركة) هى ليلة القدر وقيل ليلة البراءة ابتدئ فيها انزاله او انزل فيها جملة الى السماء الدنيا من اللوح واملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما مر فى سورة الفاتحة ووصفها بالبركة لما ان نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها

ولده فى العجز وعدم الوقوف على احوال العالم بالحد الذى وصفه النصارى ولما اطنب الله تعالى فى نفى الولد اردفه ببيان نفى الشركاء فقال ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الامن شهد بالحق وهم يعلمون ذكر المفسرون فى هذه الآية قولين (احدهما) ان الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير والمعنى ان الملائكة وعيسى وعزيرا لايشفعون الالمن شهد بالحق روى ان النضر بن الحرث ونفرا معه قالوا ان كان مايقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد فأنزل الله هذه الآية يقول لايقدر هؤلاء ان يشفعوا لأحد ثم استثنى فقال الامن شهد بالحق والمعنى على هذا القول هؤلاء لايشفعون الالمن شهد بالحق فأضمر اللام اويقال التقدير الاشفاعة من شهد بالحق فحذف المضاف وهذا على لغة من يعدى الشفاعة بغير لام فيقول شفعت فلانا بمعنى شفعت له كما تقول كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له (والقول الثانى) ان الذين يدعون من دونه كل معبود من دون الله وقوله الامن شهد بالحق الملائكة وعيسى وعزير والمعنى ان الاشياء التى عبدها هؤلاء الكفار لايملكون الشفاعة الامن شهد بالحق وهم الملائكة وعيسى وعزير فان لهم شفاعة عند الله ومنزلة ومعنى من شهد بالحق من شهد انه لااله الا الله ثم قال تعالى وهم يعلمون وهذا القيد يدل على ان الشهادة باللسان فقط لاتفيد البتة واحتج القائلون بأن ايمان المقلد لاينفع البتة بهذه الآية فقالوا بين الله تعالى ان الشهادة لاتنفع الا اذاحصل معها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذى لوشكك صاحبه فيه لم يتشكك وهذا لم يحصل الاعند الدليل فثبت ان ايمان المقلد لاينفع البتة ثم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ظن قوم ان هذه الآية وامثالها فى القرآن تدل على ان القوم مضطرون الى الاعتراف بوجود الاله للعالم قال الجبائى وهذا لايصح لان قوم فرعون قالوا لااله لهم غيره وقوم ابراهيم قالوا واننا لفى شك مما تدعوننا اليه فيقال لهم لانسلم ان قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الاله والدليل على قولنا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وقال موسى لفرعون لقد علمت ما انزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر فالقراءة بفتح التاء فى علمت تدل على ان فرعون كان عارفا بالله واما قول ابراهيم حيث قالوا واننا لفى شك مما تدعوننا اليه فهو مصروف الى اثبات القيامة واثبات التكاليف واثبات النبوة (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى ذكر هذا الكلام فى اول هذه السورة وفى آخرها والمقصود التنبيه على انهم لما اعتقدوا ان خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف اقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة اجسام خسيسة واصنام خبيثة لاتضر ولاتنفع هى جمادات محضة واما قوله فأنى تؤفكون معناه لم تكذبون على الله فتقولون ان الله امرنا بعبادة الاصنام وقد احتج بعض اصحابنا به على ان افكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله فأنى تؤفكون وأجاب

أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة واجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الاقضية وفضيلة العبادة واعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل يزيد فى هذه الليلة ماء زمزم زيادة ظاهرة (انا كنا منذرين) استئناف مبين لما يقتضى الانزال كأنه قيل انا انزلناه لان من شأننا الانذار والتحذير من العقاب قيل جواب للقسم وقوله تعالى انا انزلناه الخ اعتراض وقيل جواب ثان بغير عاطف (فيها يفرق كل امر حكيم) استئناف كما قبله فان كونها مفرق الامور المحكمة او الملتبسة بالحكمة الموافقة لها يستدعى ان ينزل فيها القرآن الذى هو من عظائمها وقيل صفة اخرى لليلة ومابينهما اعتراض وهذا يدل على انها ليلة القدر ومعنى

القاضى بان من يضل فى فهم الكلام او فى الطريق يقال له اين يذهب بك والمراد اين تذهب واجاب الاصحاب بأن قول القائل اين يذهب بك ظاهره يدل على ان ذاهبا آخر ذهب به فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الاصل الظاهر وايضا فان الذى ذهب به هو الذى خلق تلك الداعية فى قلبه وقد ثبت بالبرهان الباهر ان خالق تلك الداعية هو الله تعالى ثم قال تعالى وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون وفيه مباحث (الاول) قرأ الاكثرون وقيله بفتح اللام وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام قال الواحدى وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع اما الذين قرؤا بالنصب فذكر الاخفش والفراء فيه قولين (احدهما) انه نصب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه الى ربه يعنى النبى صلى الله عليه وسلم فانتصب قيله باضمار قال (والثانى) انه عطف على ماتقدم من قوله انا لانسمع سرهم ونجواهم وقيله وذكر الزجاج فيه وجها ثالثا فقال انه نصب على موضع الساعة لان قوله وعنده علم الساعة معناه انه علم الساعة والتقدير علم الساعة وقيله ونظيره قولك عجبت من ضرب زيد وعمرا واما القراءة بالجر فقال الاخفش والفراء والزجاج انه معطوف على الساعة اى عنده علم الساعة وعلم قيله يارب قال المبرد العطف على المنصوب حسن وان تباعد المعطوف من المعطوف عليه لانه يجوز ان يفصل بين المنصوب وعامله والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح واما القراءة بالرفع ففيها وجهان (الاول) ان يكون وقيله مبتدأ وخبره مابعده (والثانى) ان يكون معطوفا على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله قال صاحب الكشاف هذه الوجوه ليست قوية فى المعنى لاسيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ثم ذكر وجها آخر وزعم انه اقوى مما سبق وهو ان يكون النصب والجر على اضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله وامانة الله ويمين الله ويكون قوله ان هؤلاء قوم لا يؤمنون جواب القسم كأنه قيل واقسم بقيله يارب او وقيله يارب قسمى واقول هذا الذى ذكره صاحب الكشاف متكلف ايضا وههنا اضمار امتلأ القرآن منه وهو اضمار اذكر والتقدير واذكر قيله يارب واما القراءة بالجر فالتقدير واذكر وقت قيله يارب واذا وجب التزام الاضمار فلان يضمر شيئا جرت العادة فى القرآن بالتزام اضماره اولى من غيره وعن ابن عباس انه قال فى تفسير قوله وقيله يارب المراد وقيل يارب والهاء زيادة (البحث الثانى) القيل مصدر كالقول ومنه قوله النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال قال الليث تقول العرب كثر فيه القيل والقال وروى شمر عن ابى زيد يقال ما احسن قيلك وقولك ومقالك وقالك ومقالتك خمسة اوجه (البحث الثالث) الضمير فى قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم (البحث الرابع) ان النبى صلى الله عليه وسلم لما ضجر منهم وعرف اصرارهم اخبر عنهم انهم قوم لا يؤمنون وهو قريب مما حكى الله عن نوح انه قال رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ثم انه تعالى قال له فاصفح

يفرق انه يكتب ويفصل كل امر حكيم من ارزاق العباد وآجالهم وجميع امورهم من هذه الليلة الى الاخرى من السنة القابلة وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبريل وكذا الزلازل والخسف والصواعق ونسخة الاعمال الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت عليهم السلام وقرئ يفرق بالتشديد وقرئ يفرق على البناء للفاعل اى يفرق الله تعالى كل امر حكيم وقرئ نفرق بنون العظمة (امرا من عندنا) نصب على الاختصاص اى اعنى بهذا الامر امرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو بيان

عنهم فامره بان يصفح عنهم وفى ضمنه منعه من ان يدعو عليهم بالعذاب والصفح هو الاعراض ثم قال وقل سلام قال سيبويه انمامعناه المتاركة ونظيره قول ابراهيم لأبيه سلام عليك سأستغفر لك ربى وكقوله سلام عليكم لانبتغى الجاهلين ثم قال فسوف يعلمون المقصود منه التهديد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأنافع وابن عامر تعلمون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء كناية عن قوم لايؤمنون (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على انه يجوز السلام على الكافر واقول ان صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله سلام وان يقال للمؤمن سلام عليكم والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام منسوخ بآية السيف وعندى التزام النسخ فى امثال هذه المواضع مشكل لان الامر لايفيد الفعل الامرة واحدة فاذا اتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ فأى حاجة فيه الى التزام النسخ وايضا فثله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء وهى دالة على ان اللفظ المطلق قد يتقيد بحسب قرينة العرف واذا كان الامر كذلك فلا حاجة فيه الى التزام النسخ والله اعلم بالصواب (قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان) تم تفسير هذه السورة يوم الاحد الحادى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله اولا وآخرا وباطنا وظاهرا والصلاة على ملائكته المقربين والانبياء والمرسلين خصوصا على محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه اجمعين ابد الآبدين ودهر الداهرين

(سورة الدخان خمسون وتسع آيات مكية الا قوله انا كاشفوا العذاب)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم والكتاب المبين انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم امرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم رب السموات والارض ومابينهما ان كنتم موقنين لااله الاهو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الاولين بل هم فى شك يلعبون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله حم والكتاب المبين وجوه من الاحتمالات (اولها) ان يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين كقولك هذا زيد والله (وثانيها) ان يكون الكلام قد تم عند قوله حم ثم يقال والكتاب المبين انا انزلناه (وثالثها) ان يكون التقدير وحم والكتاب المبين انا انزلناه فيكون ذلك فى التقدير قسمين على شئ واحد (المسئلة الثانية) قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه (الاول) ان قوله حم تقديره هذه حم يعنى هذا شئ مؤلف من هذه الحروف والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث (الثانى) انه ثبت ان الحلف لايصح بهذه الاشياء بل بالله هذه الاشياء فيكون التقدير ورب حم ورب الكتاب المبين وكل من كان مربوبا فهو محدث (الثالث) انه وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الجمع فمعناه انه مجموع والمجموع محل تصرف

(الغير)

لفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية ويجوز كونه حالا من كل امر لتخصصه بالوصف او من ضميره فى حكيم وقد جوزان يراد به مقابل النهى ويجعل مصدرا مؤكدا ليفرق لاتحاد الامر والفرقان فى المعنى اولفعله المضمر لما ان الفرق به اوحالا من احد ضميرى انزلناه اى آمرين او مأمورا به (انا كنا مرسلين) بدل من انا كنا منذرين وقيل جواب ثالث وقيل مستأنف وقوله تعالى (رحمة من ربك) غاية للارسال متأخرة عنه على ان المراد بها الرحمة الواصلة الى العباد وباعث متقدم عليه على ان المراد مبدؤها اى انا انزلنا القرآن لان من عادتنا ارسال الرسل بالكتب الى العباد لاجل افاضة رحمتنا عليهم اولاقتضاء رحمتنا السابقة

الغير وما كان كذلك فهو محدث (الرابع) قوله انا انزلناه والمنزل محل تصرف الغير وما كان كذلك فهو محدث وقد ذكرنا مرارا ان جميع هذه الدلائل تدل على ان الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والاصوات المتوالية محدث والعلم بذلك ضروري بديهي لا ينازع فيه الامن كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث واذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل انما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والاصوات (المسئلة الثالثة) يجوز ان يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي انزلها الله على انبيائه كما قال تعالى لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ويجوز ان يكون المراد اللوح المحفوظ كما قال يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال وانه في أم الكتاب لدينا ويجوز ان يكون المراد به القرآن وبهذا التقدير فقد اقسم بالقرآن على انه انزل القرآن في ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقد يقول الرجل اذا أراد تعظيم رجل له حاجة اليه استشفع بك اليك واقسم بحقك عليك (المسئلة الرابعة) المبين هو المشتمل على بيان مابالناس حاجة اليه في دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبينا وان كانت حقيقة الابانة لله تعالى لاجل ان الابانة حصلت به كما قال تعالى ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل وقال في آية أخرى نحن نقص عليك احسن القصص وقال أم انزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون فوصفه بالتكلم اذا كان غاية في الابانة فكأنه ذو لسان ينطق والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى (المسئلة الخامسة) اختلفوا في هذه الليلة المباركة فقال الاكثرون انها ليلة القدر وقال عكرمة وطائفة آخرون انها ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان (اما الاولون) فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه (اولها) انه تعالى قال انا انزلناه في ليلة القدر وههنا قال انا انزلناه في ليلة مباركة فوجب ان تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض (وثانيها) انه تعالى قال شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن فبين ان انزال القرآن انما وقع في شهر رمضان وقال ههنا انا أنزلناه في ليلة مباركة فوجب ان تكون هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان وكل من قال ان هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان قال انها ليلة القدر فثبت انها ليلة القدر (وثالثها) انه تعالى قال في صفة ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي وقال ايضا ههنا فيها يفرق كل أمر حكيم وهذا مناسب لقوله تنزل الملائكة والروح فيها وههنا قال أمرا من عندنا وقال في تلك الآية باذن ربهم من كل امر وقال ههنا رحمة من ربك وقال في تلك الآية سلام هي واذا تقاربت الاوصاف وجب القول بأن احدى الليلتين هي الاخرى (ورابعها) نقل محمد ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة أنه قال نزلت صحف ابراهيم في اول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتي عشرة مضت منه والانجيل لثمان عشرة مضت منه

ارسالهم ووضع الرب موضع الضمير للايذان بأن ذلك من احكام الربوبية ومقتضياتها واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وتعليل ليفرق اولقوله تعالى امرا على ان قوله تعالى رحمة مفعول للارسال كما في قوله تعالى وما يمسك فلا مرسل له اى يفرق فيها كل امر او نصدر الاوامر من عندنا لان من عادتنا ارسال رحمتنا ولا ريب في ان كلا من قسمة الارزاق وغيرها والاوامر الصادرة منه تعالى من باب الرحمة فان الغاية لتكليف العباد تعريضهم للمنافع وقرئ رحمة بالرفع اى تلك رحمة وقوله تعالى (انه هو السميع العليم) تحقيق لربوبيته تعالى وانها لاتحق الالمن هذه نعوته (رب السموات والارض وما بينهما) بدل من ربك او بيان اونعت وقرئ بالرفع على انه خبر آخر او استئناف على اضمار مبتدأ (ان كنتم موقنين)

والقرآن لاربع وعشرين مضت من رمضان والليلة المباركة هى ليلة القدر (خامسها) ان ليلة القدر انما سميت بهذا الاسم لان قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم انه ليس قدرها وشرفها لسبب نفس ذلك الزمان لان الزمان شئ واحد فى الذات والصفات فيمتنع كون بعضه اشرف من بعض لذاته فثبت ان شرفه وقدره بسبب انه حصل فيه امور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة ومعلوم ان منصب الدين اعلى واعظم من منصب الدنيا واعلى الاشياء واشرفها منصبا فى الدين هو القرآن لاجل ان به ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل فى سائر كتب الله المنزلة كما قال فى صفته ومهيمنا عليه وبه ظهرت درجات ارباب السعادات ودركات ارباب الشقاوات فعلى هذا الاشئ الاولى القرآن اعظم قدرا واعلى ذكرا واعظم منصبا منه فلو كان نزوله انما وقع فى ليلة أخرى سوى ليلة القدر لكانت ليلة القدر هى هذه الثانية لا الاولى وحيث اطبقوا على ان ليلة القدر هى التى وقعت فى رمضان علمنا ان القرآن انما انزل فى تلك الليلة واما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة فى هذه الآية هى ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلا يعول عليه وانما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس فان صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه كلام فلا مزيد عليه والا فالحق هو الاول ثم ان هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا ان ليلة النصف من شعبان لها اربعة اسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل انما سميت بليلة البراءة وليلة الصك لان البندار اذا استوفى الخراج من اهله كتب لهم البراءة كذلك الله عزوجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة فى هذه الليلة وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال (الاولى) تفريق كل امر حكيم فيها قال تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم (والثانية) فضيلة العبادة فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى فى هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله اليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان (الخصلة الثالثة) نزول الرحمة قال عليه السلام ان الله يرحم امتى فى هذه الليلة بعدد شعر اغنام بنى كلب (والخصلة الرابعة) حصول المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يغفر لجميع المسلمين فى تلك الليلة الا لكاهن اومشاحن اومدمن خمر أوعاق للوالدين اومصر على الزنا (والخصلة الخامسة) انه تعالى اعطى رسوله فى هذه الليلة تمام الشفاعة وذلك انه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان فى امته فاعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فاعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فاعطى الجميع الا من شرد على الله شراد البعير (هذا الفصل نقلته من الكشاف) فان قيل لاشك ان الزمان عبارة عن المدة الممتدة التى تقديرها حركات الافلاك والكواكب وانه فى ذاته أمر متشابه الاجزاء فيمتنع كون بعضها افضل من بعض والمكان ايضا عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالى فيمتنع كون بعض اجزائه اشرف

اى ان كنتم من اهل الايقان فى العلوم اوان كنتم موقنين فى اقراركم بأنه تعالى رب السموات والارض وما بينهما اذا سئلتم من خلقها فقلتم الله علمتم ان الامر كما قلنا اوان كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك (لا اله الا هو) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها وقيل خبر لقوله رب السموات الخ وما بينهما اعتراض (يحيي ويميت) مستأنفة كما قبلها وكذا قوله تعالى (ربكم ورب آبائكم الاولين) باضمار مبتدأ او بدل من رب السموات على قراءة الرفع اوبيان اونعت له وقيل فاعل ليميت وفى يحيي ضمير راجع الى رب السموات وقرئ بالجر بدلا من رب السموات على قراءة الجر (بل هم فى شك) مما ذكر من شؤنه تعالى غير موقنين فى اقرارهم (يلعبون) لا يقولون ما يقولون عن جد واذعان بل مخلوطا بهزؤ ولعب والفاء فى قوله تعالى

من البعض واذا كان كذلك كان تخصيص بعض اجزائه بمزيد الشرف دون الباقي ترجيحا لاحد طرفي الممكن على الآخر لالمرجح وانه محال قلنا القول باثبات حدوث العالم واثبات ان فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو انه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين باحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده فان بطل هذا الاصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار وحينئذ لا يكون للخوض في تفسير القرآن فائدة وان صح هذا الاصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال فهذا هو الجواب المعتمد والناس قالوا لا يبعد ان يخص الله تعالى بعض الاوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعيا للمكلف الى الاقدام على الطاعات في ذلك الوقت ولهذا السبب بين انه تعالى أخفاه في الاوقات وما عينه لانه اذا لم يكن معينا جوز المكلف في كل وقت معين ان يكون هو ذلك الوقت الشريف فيصير ذلك حاملا له على المواظبة على الطاعات في كل الاوقات واذا وقفت على هذا الحرف ظهر عندك ان الزمان والمكان انما فازا بالتشريفات الزائدة تبعا لشرف الانسان فهو الاصل وكل ما سواه فهو تبع له والله اعلم (المسئلة السادسة) روى ان عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله انا انزلناه في ليلة القدر وقوله انا انزلناه في ليلة مباركة كيف يصح ذلك مع ان الله تعالى انزل القرآن في جميع الشهور فقال ابن عباس رضي الله عنهما يا ابن الاسود لو هلكت انا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه لهلكت نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور وهو في السماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك في انواع الوقائع حالا فحالا والله اعلم (المسئلة السابعة) في بيان نظم هذه الآيات اعلم ان المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه (احدها) بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته (والثاني) بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه (والثالث) بيان تعظيمه بحسب شرف منزله اما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه (احدها) انه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه (وثانيها) انه تعالى اقسم به على كونه نازلا في ليلة مباركة وقد ذكرنا ان القسم بالشئ على حالة من احوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف (وثالثها) انه تعالى وصفه بكونه مبينا وذلك يدل ايضا على شرفه في ذاته (واما النوع الثاني) وهو بيان شرفه لاجل شرف الوقت الذي انزل فيه فهو قوله انا انزلناه في ليلة مباركة وهذا تنبيه على ان نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته ثم نقول ان قوله انا انزلناه في ليلة مباركة يقتضي امرين (احدهما) انه تعالى انزله (والثاني) كون تلك الليلة مباركة فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحد منهما اما بيان انه تعالى لم انزله فهو قوله انا كنا منذرين يعني الحكمة في انزال هذه السورة ان انذار الخلق لا يتم الا به واما بيان ان هذه الليلة ليلة مباركة فهو امران (احدهما) انه تعالى يفرق فيها كل امر حكيم (والثاني) ان ذلك الامر الحكيم يكون مخصوصا بشرف انه انما يظهر من عنده واليه الاشارة بقوله امرا من عندنا (واما النوع الثالث) فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله

(فارتقب) لترتيب الارتقاب او الامر به على ما قبلها فان كونهم في شك مما يوجب ذلك حتما اي فانتظر لهم (يوم تأتي السماء بدخان مبين) اي يوم شدة ومجاعة فان الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان اما الضعف بصره اولان في عام القحط يظلم الهواء لقلة الامطار وكثرة الغبار اولان العرب تسمي الشر الغالب دخانا وذلك ان قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فأخذتهم سنة حتى اكلوا الجيف والعظام والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والارض الدخان وكان يحدث الرجل ويسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى (يغشى الناس) اي يحيط بهم (هذا عذاب اليم) اي قائلين ذلك فمشى اليه عليه الصلاة والسلام ابو سفيان ونفر معه وناشدوه الله تعالى والرحم وواعدوه ان دعا لهم وكشف عنهم ان يؤمنوا وذلك قوله تعالى (ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وبه اخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج وقيل هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة فيدخل في اسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الارض كلها كبيت اوقد فيه ليس فيه خصاص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم اول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم

انا كنا مرسلين فبين ان ذلك الانذار والارسال انما حصل من الله تعالى ثم بين ان ذلك الارسال انما كان لاجل تكميل الرحمة وهو قوله رحمة من ربك وكان الواجب ان يقال رحمة منا الا انه وضع الظاهر موضع المضمر ايذانا بان الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين ثم بين ان تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لانه تعالى يسمع تضرعاتهم ويعلم انواع حاجاتهم فهذا قال انه هو السميع العليم فهذا ماخطر بالبال فى كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض (المسئلة الثامنة) فى تفسير مفردات هذه الالفاظ اما قوله تعالى انا انزلناه فى ليلة مباركة فقد قيل فيه انه تعالى انزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى هذه الليلة ثم انزل فى كل وقت مايحتاج اليه المكلف وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبرائيل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الاعمال الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت اما قوله تعالى فيها يفرق اى فى تلك الليلة المباركة يفرق اى يفصل ويبين من قولهم فرقت الشئ افرقه فرقا وفرقانا قال صاحب الكشاف وقرئ يفرق بالتشديد ويفرق على اسناد الفعل الى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل وقرأ زيد بن على نفرق بالنون اما قوله كل أمر حكيم فالحكيم معناه ذو الحكمة وذلك لان تخصيص الله تعالى كل واحد بحالة معينة من العمر والرزق والاجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله تعالى فلما كانت تلك الافعال والاقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة وهذا من الاسناد المجازى لان الحكيم صفة صاحب الامر على الحقيقة ووصف الامر به مجاز ثم قال امرا من عندنا وفى انتصاب قوله امرا وجهان (الاول) انه نصب على الاختصاص وذلك لانه تعالى بين شرف تلك الاقضية والاحكام بسبب ان وصفها بكونها حكيمة ثم زاد فى بيان شرفها بأن قال اعنى بهذا الامر امرا حاصلا من عندنا كائنا من لدنا وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا (والثانى) انه نصب على الحال وفيه وجهان (الاول) ان يكون حالا من احد الضميرين فى انزلناه اما من ضمير الفاعل اى انا انزلناه آمرين امرا او من ضمير المفعول اى انا انزلناه فى حال كونه امرا من عندنا بما يجب ان يفعل (والثانى) ماحكاه ابو على الفارسى عن ابى الحسن رحمهما الله انه حمل قوله امرا على الحال وذو الحال قوله كل امر حكيم وهو نكرة ثم قال انا كنا مرسلين يعنى انا انما فعلنا ذلك الانذار لاجل انا كنا مرسلين يعنى الانبياء ثم قال رحمة من ربك اى للرحمة فهى نصب على ان يكون مفعولا له ثم قال انه هو السميع العليم يعنى ان تلك الرحمة كانت رحمة فى الحقيقة لان المحتاجين اما ان يذكروا بألسنتهم حاجاتهم واما ان لا يذكروها فان ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم وان لم يذكروها فهو تعالى عالم بها فثبت ان كونه سميعا عليما يقتضى ان ينزل رحمته عليهم ثم قال رب السموات والارض ومابينهما ان كنتم موقنين وفيه مسائل

(المسئلة)

ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا الآية وقال يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث اربعين يوما وليلة اما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة واما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه واذنيه ودبره والاول هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم قطعا فان قوله تعالى (انى لهم الذكرى) الخ رد لكلامهم واستدعائهم الكشف وتكذيب لهم فى الوعد بالايمان المنبئ عن التذكر والاتعاظ بما اعتراهم من الداهية اى كيف يتذكرون او من اين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الايمان عند كشف العذاب عنهم (وقد جاءهم رسول مبين) اى والحال انهم شاهدوا من دواعى التذكر وموجبات الاتعاظ ماهو اعظم منه فى ايجابها حيث جاءهم رسول عظيم الشأن وبين لهم مناهج الحق باظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تخر لها صم الجبال (ثم تولوا عنه) عن ذلك الرسول وهو هو ريثما شاهدوا منه ماشاهدوا من العظائم الموجبة للاقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولى (وقالوا) فى حقه (معلم مجنون) اى قالوا تارة يعلمه غلام اعجمى لبعض ثقيف واخرى مجنون او يقول بعضهم كذا وآخرون كذا فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم ان يتأثروا بالعظة والتذكير وما مثلهم الا كمثل الكلب اذا جاع ضغا واذا شبع طغى وقوله تعالى (انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون) جواب من جهته تعالى عن قولهم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون بطريق

(المسئلة الاولى) قرأعاصم وحمزة والكسائي بكسر الباء من رب عطفا على قوله رحمة من ربك والباقون بالرفع عطفا على قوله هو السميع العليم (المسئلة الثانية) المقصود من هذه الآية ان المنزل اذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذى هو القرآن فى غاية الشرف والرفعة (المسئلة الثالثة) الفائدة فى قوله ان كنتم موقنين من وجوه (الاول) قال ابو مسلم معناه ان كنتم تطلبون اليقين وتريدونه فاعرفوا ان الامر كما قلنا كقولهم فلان منجد متهم اى يريد نجدا وتهامة (الثانى) قال صاحب الكشاف كانوا يقرون بأن للسموات والارض ربا وخالقا فقيل لهم ان ارسال الرسل وانزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى ثم قيل ان هذا الرب هو السميع العليم الذى انتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والارض ومابينهما ان كان اقراركم عن علم ويقين كما تقول هذا انعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه ان بلغك حديثه وسمعت قصته ثم انه تعالى رد ان يكونوا موقنين بقوله بل هم فى شك يلعبون وان اقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزؤ ولعب والله اعلم * قوله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) اعلم ان المراد بقوله فارتقب انتظر ويقال ذلك فى المكروه والمعنى انتظر يا محمد عذابهم فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ماذكر بعده عليه وهو قوله هذا عذاب اليم ويجوز ايضا ان يكون يوم تأتى السماء مفعول الارتقاب وقوله بدخان فيه قولان (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال اللهم اجعل سنيهم كسنى يوسف فارتفع المطر واجدبت الارض واصابت قريشا شدة المجاعة حتى اكلوا العظام والكلاب والجيف فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه وكان ينكر ان يكون الدخان الا هذا الذى اصابهم من شدة الجوع كالظلمة فى ابصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانا فالحاصل ان هذا الدخان هو الظلمة التى فى ابصارهم من شدة الجوع وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين (الاول) ان فى سنة القحط يعظم يبس الارض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة الغبراء (الثانى) ان العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقولون كان بيننا امر ارتفع له دخان والسبب فيه ان الانسان اذا اشتد خوفه او ضعفه اظلمت عيناه فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان (والقول الثانى) فى الدخان انه دخان يظهر فى العالم وهو احدى علامات القيامة قالوا فاذا حصلت هذه الحالة حصل لاهل الايمان منه حالة تشبه الزكام وحصل لاهل الكفر حالة يصير لاجلها رأسه كرأس الحنيذ وهذا القول هو المنقول عن

الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد ومابينهما اعتراض اى انا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا اوزمانا قليلا انكم تعودون اثر ذلك الى ماكنتم عليه من العتو والاصرار على الكفر وتنسون هذه الحالة وصيغة الفاعل فى الفعلين للدلالة على تحققهما لامحالة ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فما لبثوا ان عادوا الى ما كانوا عليه من العتو والعناد ومن فسر الدخان بما هو من الاشراط قال اذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون فيكشفه الله تعالى عنهم بعد اربعين يوما وريثما يكشفه عنهم يرتدون ولايتمهلون (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة وقيل يوم بدر وهو ظرف لما دل عليه قوله تعالى (انا منتقمون) لا لمنتقمون لان ان مانعة من ذلك اى يومئذ ننتقم انا منتقمون وقيل هو بدل من يوم تأتى الخ وقرئ نبطش اى نحمل الملائكة على ان يبطشوا بهم البطشة الكبرى وهو التناول بعنف وصولة او نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم وقرئ نبطش بضم الطاء وهى لغة (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) اى امتحناهم بارسال موسى عليه السلام او اوقعناهم فى الفتنة بالامهال وتوسيع الرزق عليهم وقرئ بالتشديد للمبالغة اولكثرة القوم (وجاءهم رسول كريم) على الله تعالى اوعلى المؤمنين او فى نفسه لان الله تعالى لم يبعث نبيا الا من سراة قومه وكرامهم (ان ادوا الى عباد الله) اى بأن ادوا الى بنى اسرائيل

على بن ابى طالب عليه السلام وهو قول مشهور لابن عباس واحتج القائلون بهذا القول بوجوه (الاول) ان قوله يوم تأتى السماء بدخان يقتضى وجود دخان تأتى به السماء وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان اتت به السماء فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولا عن الظاهر لا لدليل منفصل وانه لا يجوز (الثانى) انه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لانها عارضة تعرض لبعض الناس فى ادمغتهم ومثل هذا لا يوصف بكونها دخانا مبينا (الثالث) انه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس وهذا انما يصدق اذا وصل ذلك الدخان اليهم واتصل بهم والحالة التى ذكرتموها لا توصف بأنها تغشى الناس الا على سبيل المجاز وقد ذكرنا ان العدول من الحقيقة الى المجاز لا يجوز الا لدليل منفصل (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث اربعين يوما وليلة اما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة واما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه واذنيه ودبره رواه صاحب الكشاف وروى القاضى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال باكروا بالاعمال ستا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة اما القائلون بالقول الاول فلا شك ان ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته الى المجاز وذلك لا يجوز الا عند قيام دليل يدل على ان حمله على حقيقته ممتنع والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير الى ماذكروه مشكلا جدا فان قالوا الدليل على ان المراد ماذكرناه انه تعالى حكى عنهم انهم يقولون ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون وهذا اذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة استقام فانه نقل ان القحط لما اشتد بمكة مشى اليه ابو سفيان وناشده بالله والرحم واوعده انه ان دعا لهم وازال الله عنهم تلك البلية ان يؤمنوا به فلما ازال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا الى شركهم اما اذا حملناه على ان المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك لان عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم ان يقولوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون ولم يصح ايضا ان يقال لهم انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون (والجواب) لم لا يجوز ان يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى ظهور سائر علامات القيامة فى انه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ثم ان الناس يخافون جدا فيتضرعون فاذا زالت تلك الواقعة عادوا الى الكفر والفسق واذا كان هذا محتملا فقد سقط ما قالوه والله اعلم ولنرجع الى التفسير فنقول قوله تعالى يوم تأتى السماء بدخان مبين أى ظاهر الحال لا يشك احد فى انه دخان يغشى الناس اى يشملهم وهو فى محل الجر صفة لقوله بدخان وفى قوله هذا عذاب اليم قولان (الاول) انه منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال اى قائلين ذلك (الثانى) قال

وارسلوهم معى او بأن ادوا الى ياعباد الله حقه من الايمان وقبول الدعوة وقيل ان مفسرة لان مجئ الرسول لا يكون الا برسالة ودعوة وقيل مخففة من الثقيلة اى جاءهم بأن الشأن ادوا الى الخ وقوله تعالى (انى لكم رسول امين) تعليل للامر او لوجوب المأمور به اى رسول غير ظنين قد ائتمننى الله تعالى على وحيه وصدقنى بالمعجزات القاهرة (وان لا تعلوا على الله) اى لا تتكبروا عليه تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله وان كالتى سلفت وقوله تعالى (انى آتيكم) اى من جهته تعالى (بسلطان مبين) تعليل للنهى اى آتيكم بحجة واضحة لا سبيل الى انكارها وآتيكم على صيغة الفاعل او المضارع وفى ايراد الاداء مع الامين والسلطان مع العلاء من الجزالة ما لا يخفى (وانى عذت بربى وربكم) اى التجأت اليه وتوكلت عليه (ان ترجمون) من ان ترجمونى اى تؤذونى ضربا او شتما او ان تقتلونى قيل لما قال وان لا تعلوا على الله توعدوه بالقتل وقرئ بادغام الذال فى التاء (وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون) اى وان كابرتم مقتضى العقل ولم تؤمنوا لى فخلونى كفافا لا على ولا لى ولا تتعرضوا لى بشر ولا اذى فليس ذلك جزاء من يدعوكم الى مافيه فلاحكم وحمله على معنى فاقطعوا اسباب الوصلة عنى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن يأباه المقام (فدعا ربه) بعد ما تموا على تكذيبه عليه السلام (ان هؤلاء) اى بأن هؤلاء (قوم مجرمون) وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سمى

الجرجانى صاحب النظم هذا اشارة اليه واخبار عن دنوه واقترابه كما يقال هذا العدو فاستقبله والغرض منه التنبيه على القرب ثم قال ربنا اكشف عنا العذاب فان قلنا التقدير يقولون هذا عذاب اليم ربنا اكشف عنا العذاب فالمعنى ظاهر وان لم يضمر القول هناك اضمرناه ههنا والعذاب على القول الاول هو القحط الشديد وعلى القول الثانى الدخان المهلك انا مؤمنون اى بمحمد وبالقرآن والمراد منه الوعد بالايمان ان كشف عنهم العذاب ثم قال تعالى أنى لهم الذكرى يعنى كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ماهو اعظم وادخل فى وجوب الطاعة وهو ماظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة ثم تولوا عنه ولم يلتفتوا اليه وقالوا معلم مجنون وذلك لان كفار مكة كان لهم فى ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان منهم من كان يقول ان محمدا يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وكقوله تعالى وأعانه عليه قوم آخرون ومنهم من كان يقول انه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال مايعرض له الغشى ثم قال تعالى انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون اى كما يكشف العذاب عنكم تعودون فى الحال الى ماكنتم عليه من الشرك والمقصود التنبيه على انهم لايوفون بعهدهم وانهم فى حال العجز يتضرعون الى الله تعالى فاذا زال الخوف عادوا الى الكفر والتقليد لمذاهب الاسلاف ثم قال تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون قال صاحب الكشاف وقرئ نبطش بضم الطاء وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم والبطش الاخذ بشدة واكثر مايكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يستعمل فى ايصال الآلام المتتابعة وفى المراد بهذا اليوم قولان (الاول) انه يوم بدر وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وابى العالية رضى الله تعالى عنهم قالوا ان كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا الى التكذيب فانتقم الله منهم يوم بدر (والقول الثانى) انه يوم القيامة روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر وانا اقول هى يوم القيامة وهذا القول اصح لان يوم بدر لايبلغ هذا المبلغ الذى يوصف بهذا الوصف العظيم ولان الانتقام التام انما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ولان هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الاطلاق وجب ان تكون اعظم انواع البطش وذلك ليس الا فى القيامة ولفظ الانتقام فى حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب والمعنى معلوم والله اعلم

❊ قوله تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ان أدوا الى عباد الله انى لكم رسول امين وان لاتعلوا على الله انى آتيكم بسلطان مبين وانى عذت بربى وربكم ان ترجمون وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون وزروع

دعاء وقرئ بالكسر على اضمار القول قيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم مايستحقونه بأجرامهم وقيل هو قوله ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين (فأسر بعبادى ليلا) باضمار القول اما بعد الفاء اى فقال ربه اسر بعبادى واما قبلها كأنه قيل قال ان كان الامر كما تقول فأسر بعبادى اى بنى اسرائيل فقد دبر الله تعالى ان تتقدموا وقرئ بوصل الهمزة من سرى (انكم متبعون) اى يتبعكم فرعون وجنوده بعد ماعلموا بخروجكم (واترك البحر رهوا) مفتوحا ذا فجوة واسعة اوساكنا على هيئته بعد ماجاوزته ولاتضربه بعصاك لينطبق ولاتغيره عن حاله ليدخله القبط (انهم جند مغرقون) وقرئ انهم بالفتح اى لانهم (كم تركوا) اى كثيرا تركوا بمصر (من جنات وعيون وزروع ومقام كريم) محافل مزينة ومنازل محسنة (ونعمة) اى تنعم (كانوا فيها فاكهين) متنعمين وقرئ فكهين (كذلك) الكاف فى حيز النصب وذلك اشارة الى مصدر فعل يدل عليه تركوا اى مثل ذلك السلب سلبناهم اياها (واورثناها قوما آخرين) وقيل مثل ذلك الاخراج اخرجناهم منها وقيل فى حيز الرفع على الخبرية اى الامر كذلك فحينئذ يكون اورثناها معطوفا على تركوا وعلى الاولين على الفعل المقدر (فما بكت عليهم السماء والارض) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال له بكت عليه السماء والارض ومنه ماروى ان المؤمن ليبكى عليه مصلاه ومحل عبادته ومصاعد

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما آخرين فابكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين) اعلم انه تعالى لمابين ان كفار مكة مصرون على كفرهم بين ان كثيرا من المتقدمين ايضا كانوا كذلك فبين حصول هذه الصفة في اكثر قوم فرعون قال صاحب الكشاف قرئ ولقد فتنا بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا قال الزجاج بلونا والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول اليهم وجاءهم رسول كريم وهو موسى واختلفوا في معنى الكريم ههنا فقال الكلبي كريم على ربه يعنى انه استحق على ربه انواعا كثيرة من الاكرام وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه لانه قل مابعث رسول الامن اشراف قومه وكرامهم ثم قال ان أدوا الى عباد الله وفي ان قولان (الاول) انها المفسرة وذلك لان مجئ الرسول الى من بعث اليهم متضمن لمعنى القول لانه لايجيئهم الامبشرا ونذيرا وداعيا الى الله (الثانى) انها المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بأن الشان والحديث أدوا وعباد الله مفعول به وهم بنو اسرائيل يقول أدوهم الى وارسلوهم معى وهو كقوله فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم ويجوز ايضا ان يكون نداء لهم والتقدير أدوا الى ياعباد الله ماهو واجب عليكم من الايمان وقبول دعوتى واتباع سبيلى وعلل ذلك بأنه رسول امين قد ائتمنه الله تعالى على وحيه ورسالته وان لاتعلوا ان هذه مثل الاولى في وجهيها اى لاتتكبروا على الله باهانة وحيه ورسوله انى آتيكم بسلطان مبين بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل وانى عذت بربى وربكم ان ترجمون قيل المراد ان تقتلون وقيل ان ترجمون بالقول فتقولوا انه ساحر كذاب وان لم تؤمنوا لى اى ان لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لاجل ماآتيتكم به من الحجة فاللام في لى لام الاجل فاعتزلون اى خلوا سبيلى لالى ولا على قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى ان المعتزلة يتصلفون ويقولون ان لفظ الاعتزال اينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لاعن الحق فاتفق حضورى معهم في بعض المحافل وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية وقلت المراد من الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لاشك انه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل ثم قال تعالى فدعا ربه الفاء في فدعا تدل على انه متصل بمحذوف قبله والتأويل انهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون فان قالوا الكفر اعظم حالا من الجرم فما السبب في ان جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ماأراد المبالغة في ذمهم قلت لان الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون مجرما في دينه وقد يكون فاسقا في دينه فيكون اخس الناس قال صاحب الكشاف قرئ ان هؤلاء بالكسر على اضمار القول اى فدعا ربه فقال ان هؤلاء فأسر بعبادى ليلا قرأ ابن كثير ونافع فاسر موصولة الالف والباقون مقطوعة الالف سرى واسرى لغتان اى اوحينا الى موسى ان اسر بعبادى ليلا انكم متبعون اى يتبعكم فرعون وقومه ويصير ذلك سببا لهلاكهم واترك البحر رهوا وفي الرهو قولان (احدهما) انه الساكن يقال عيش

عمله ومهابط رزقه وآثاره في الارض وقيل تقديره اهل السماء والارض (وما كانوا) لماجاء وقت هلاكهم (منظرين) ممهلين الى وقت آخر اوالى الآخرة بل عجل لهم في الدنيا (ولقد نجينا بنى اسرائيل) بأن فعلنا بفرعون وقومه مافعلنا (من العذاب المهين) من استعباد فرعون اياهم وقتل ابنائهم واستحياء نسائهم على الخسف والضيم (من فرعون) بدل من العذاب اما على جعله نفس العذاب لافراطه فيه واما على حذف المضاف اى عذاب فرعون اوحال من المهين اى كائنا من فرعون وقرئ من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوه وتفرعنه وفي ابهام أمره اولا وتبيينه بقوله تعالى (انه كان عاليا من المسرفين) ثانيا من الافصاح عن كنه امره في الشر والفساد مالا مزيد عليه وقوله تعالى من المسرفين اما خبر ثان لكان اى كان متكبرا مسرفا اوحال من الضمير في عاليا اى كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقا لهم بليغا في الاسراف (ولقد اخترناهم) اى بنى اسرائيل (على علم) اى عالمين بأنهم احقاء بالاختيار اوعالمين بأنهم يزيغون في بعض الاوقات ويكثر منهم الفرطات (على العالمين) جميعا لكثرة الانبياء فيهم اوعلى عالمى زمانهم (وآتيناهم من الآيات) كفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد مثلها في غيرهم (ما فيه بلاء مبين) نعمة جلية او اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون (ان هؤلاء) يعنى كفار قريش لان الكلام

راه اذا كان خافضا وادعا وافعل ذلك سهوا رهوا اى ساكنا بغير تشدد اراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر ان يضربه بعصاه فينطبق كما كان فامره الله تعالى بان يتركه ساكنا على هيئته قارا على حاله فى انفلاق الماء وبقاء الطريق يبسا حتى يدخله القبط فاذا حصلوا فيه اطبقه الله عليهم (والثانى) ان الرهو هو الفرجة الواسعة والمعنى اذا رهوا اى ذا فرجة يعنى الطريق الذى اظهره الله فيما بين البحر انهم جند مغرقون يعنى اترك الطريق كما كان حتى يدخلوا فيغرقوا وانما اخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وايذائهم ثم قال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم دلت هذه الآية على انه تعالى اغرقهم ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام وبين تعالى انهم تركوا هذه الاشياء الخمسة وهى الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل المنابر التى كانوا يمدحون فرعون عليها ونعمة كانوا فيها فاكهين قال علماء اللغة نعمة العيش بفتح النون حسنه ونضارته ونعمة الله احسانه وعطاؤه قال صاحب الكشاف النعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الانعام وقرئ فاكهين وفكهين كذلك الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الاخراج اخرجناهم منها واورثناها او فى موضع الرفع على تقدير ان الامر كذلك واورثناها قوما آخرين ليسوا منهم فى شئ من قرابة ولادين ولاولاء وهم بنو اسرائيل كانوا مستعبدين فى ايديهم فأهلكهم الله على ايديهم واورثهم ملكهم وديارهم ثم قال تعالى فابكت عليهم السماء والارض وفيه وجوه (الاول) قال الواحدى فى البسيط روى انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال مامن عبد الا وله فى السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله فاذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية قال وذلك لانهم لم يكونوا يعملون على الارض عملا صالحا فتبكى عليهم ولم يصعد لهم الى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكى عليهم وهذا قول اكثر المفسرين (القول الثانى) التقدير فابكت عليهم اهل السماء واهل الارض فحذف المضاف والمعنى مابكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين (القول الثالث) ان عادة الناس جرت بان يقولوا فى هلاك الرجل العظيم الشان انه اظلمت له الدنيا وكسفت الشمس والقمر لاجله وبكت الريح والسماء والارض ويريدون المبالغة فى تعظيم تلك المصيبة لانفس هذا الكذب ونقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن مؤمن مات فى غربة غابت فيها بواكيه الابكت عليه السماء والارض وقال جرير الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكى عليك نجوم الليل والقمر وفيه مايشبه السخرية بهم يعنى انهم كانوا يستعظمون انفسهم وكانوا يعتقدون فى انفسهم انهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والارض فما كانوا فى هذا الحد بل كانوا دون ذلك وهذا انما يذكر على سبيل التهكم ثم قال وما كانوا منظرين اى لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا الى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير ❁ قوله تعالى (ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين

فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على تماثلهم فى الاصرار على الضلالة والتحذير عن حلول مثل ما حل بهم (ليقولون ان هى الاموتتنا الاولى) اى ما العاقبة ونهاية الامر الا الموتة الاولى المزيلة للحياة الدنيوية ولاقصد فيه الى اثبات موتة اخرى كما فى قولك حج زيد الحجة الاولى ومات وقيل لما قيل لهم انكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا ما هى الاموتتنا الاولى اى ما الموتة التى تعقبها حياة الا الموتة الاولى وقيل المعنى ليست الموتة الا هذه الموتة دون الموتة التى تعقب حياة القبر كما تزعمون (ومانحن بمنشرين) بمبعوثين (فأتوا بآبائنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان كنتم صادقين) فيما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ليظهر انه حق وقيل كانوا يطلبون اليهم ان يدعوا الله تعالى فينشر لهم قصى ابن كلاب ليشاوروه وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات والملمات (اهم خير) رد لقولهم وتهديد لهم اى اهم خير فى القوة والمنعة اللتين يدفع بهما اسباب الهلاك (ام قوم تبع) هو تبع الحميرى الذى سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند وقيل هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين ولذلك ذمهم الله تعالى دونه وكان يكتب فى عنوان كتابه بسم الله الذى ملك بحرا وبحرا اى

من فرعون انه كان عاليا من المسرفين ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين ان هؤلاء ليقولون ان هى الا موتتنا الاولى ومانحن بمنشرين فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين أهم خير ام قوم تبع والذين من قبلهم اهلكناهم انهم كانوا مجرمين وماخلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لايعلمون) اعلم انه تعالى لمابين كيفية اهلاك فرعون وقومه بين كيفية احسانه الى موسى وقومه واعلم ان دفع الضرر مقدم على ايصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين يعنى قتل الابناء واستخدام النساء والاتعاب فى الاعمال الشاقة ثم قال من فرعون وفيه وجهان (الاول) ان يكون التقدير من العذاب المهين الصادر من فرعون (الثانى) ان يكون فرعون بدلا من العذاب المهين كأنه فى نفسه كان عذابا مهينا لافراطه فى تعذيبهم واهانتهم قال صاحب الكشاف وقرئ من عذاب المهين وعلى هذه القراءة فالمهين هو فرعون لانه كان عظيم السعي فى اهانة المحقين وفى قراءة ابن عباس من فرعون وهو بمعنى الاستفهام وقوله انه كان عاليا من المسرفين جوابه كأن التقدير ان يقال هل تعرفونه من هو فى عتوه وشيطنته ثم عرف حاله بقوله انه كان عاليا من المسرفين اى كان عالى الدرجة فى طبقة المسرفين ويجوز ان يكون المراد انه كان عاليا لقوله ان فرعون علا فى الارض وكان ايضا مسرفا ومن اسرافه انه على حقارته وخسته ادعى الالهية ولما بين الله تعالى انه كيف دفع الضرر عن بنى اسرائيل بين انه كيف اوصل اليهم الخيرات فقال ولقد اخترناهم على علم على العالمين وفيه بحثان (البحث الاول) ان قوله على علم فى موضع الحال ثم فيه وجهان (احدهما) اى عالمين بكونهم مستحقين لان يختاروا ويرجحوا على غيرهم (والثانى) ان يكون المعنى مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات فى بعض الاحوال (البحث الثانى) ظاهر قوله ولقد اخترناهم على علم على العالمين يقتضى كونهم افضل من كل العالمين فقيل المراد على عالمى زمانهم وقيل هذا عام دخله التخصيص كقوله كنتم خير امة اخرجت للناس ثم قال تعالى وآتيناهم من الآيات مثل فلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التى ماأظهر الله مثلها على احد سواهم بلاء مبين اى نعمة ظاهرة لانه تعالى لماكان يبلو بالمحنة فقد يبلو ايضا بالنعمة اختبارا ظاهرا ليتميز الصديق عن الزنديق وههنا آخر الكلام فى قصة موسى عليه السلام ثم رجع الى ذكر كفار مكة وذلك لان الكلام فيهم حيث قال بل هم فى شك يلعبون اى بل هم فى شك من البعث والقيامة ثم بين كيفية اصرارهم على كفرهم ثم بين ان قوم فرعون كانوا فى الاصرار عن الكفر على هذه القصة ثم بين انه كيف اهلكهم وكيف انعم على بنى اسرائيل ثم رجع الى الحديث الاول وهو كون كفار مكة منكرين للبعث فقال ان هؤلاء ليقولون ان هى الا موتتنا الاولى ومانحن بمنشرين

(فان)

بحارا كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم لاتسبوا تبعا فانه كان قد اسلم وعنه عليه الصلاة والسلام ماادرى اكان تبع نبيا اوغير نبى وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان نبيا وقيل لملوك اليمن التبابعة لانهم يتبعون كما يقال لهم الاقيال لانهم يتقيلون (والذين من قبلهم) عطف على قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود واضرابهم من كل جبار عنيد اولى بأس شديد والاستفهام لتقرير ان اولئك اقوى من هؤلاء وقوله تعالى (اهلكناهم) استئناف لبيان عاقبة أمرهم وقوله تعالى (انهم كانوا مجرمين) تعليل لاهلاكهم ليعلم ان اولئك حيث اهلكوا بسبب اجرامهم مع ما كانوا فى غاية القوة والشدة فلأن يهلك هؤلاء وهم شركاؤهم فى الاجرام اضعف منهم فى الشدة والقوة اولى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما) اى ما بين الجنسين وقرئ وما بينهن (لاعبين) لاهين من غير ان يكون فى خلقهما غرض صحيح وغاية حميدة (ماخلقناهما) وما بينهما (الابالحق) استثناء مفرغ من اعم الاحوال اواعم الاسباب اى ما خلقناهما ملتبسا بشئ من الاشياء الاملتبسا بالحق او ما خلقناهما بسبب من الاسباب الابسبب الحق الذى هو الايمان والطاعة والبعث والجزاء (ولكن اكثرهم لا يعلمون) ان الامر كذلك فينكرون البعث والجزاء

فان قيل القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم ان يقولوا ان هى الا حياتنا الاولى وما نحن بمنشرين قلنا انه قيل لهم انكم تموتون موتة تعقبها حياة كما انكم حال كونكم نطفا كنتم امواتا وقد تعقبها حياة وذلك قوله وكنتم امواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم فقالوا ان هى الا موتتنا الاولى يريدون ما الموتة التى من شأنها ان تعقبها حياة الا الموتة الاولى دون الموتة الثانية وما هذه الصفة التى تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة لها الا الموتة الاولى خاصة فلا فرق اذا بين هذا الكلام وبين قوله ان هى الا حياتنا الدنيا هذا ما ذكره صاحب الكشاف ويمكن ان يذكر فيه وجه آخر فيقال قوله ان هى الا موتتنا الاولى يعنى انه لا يأتينا شئ من الاحوال الا الموتة الاولى وهذا الكلام يدل على انهم لا تأتيهم الحياة الثانية البتة ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا وما نحن بمنشرين فلا حاجة الى التكلف الذى ذكره صاحب الكشاف ثم قال تعالى وما نحن بمنشرين يقال نشر الله الموتى وانشرهم اذا بعثهم ثم ان الكفار احتجوا على نفى الحشر والنشر بأن قالوا ان كان البعث والنشور ممكنا معقولا فجعلوا لنا احياء من مات من آبائنا بان تسألوا ربكم ذلك حتى يصير ذلك دليلا عندنا على صدق دعواكم فى النبوة والبعث فى القيامة قيل طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ان يدعو الله حتى ينشر قصى بن كلاب ليشاوروه فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى صحة البعث ولما حكى الله عنهم ذلك قال أهم خير ام قوم تبع والذين من قبلهم اهلكناهم انهم كانوا مجرمين والمعنى ان كفار مكة لم يذكروا فى نفى الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج الى الجواب عنها ولكنهم اصروا على الجهل والتقليد فى ذلك الانكار فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد فقال ان سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء ثم ان الله تعالى اهلكهم فكذلك يهلك هؤلاء فقوله تعالى أهم خير أم قوم تبع استفهام على سبيل الانكار قال ابو عبيدة ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمى تبعا لان اهل الدنيا كانوا يتبعونه وموضع تبع فى الجاهلية موضع الخليفة فى الاسلام وهم الاعاظم من ملوك العرب قالت عائشة كان تبع رجلا صالحا وقال كعب ذم الله قومه ولم يذمه قال الكلبى هو ابو كرب اسعد وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فانه كان قد اسلم ما أدرى أكان تبع نبيا او غير نبى فان قيل ما معنى قوله اهم خير أم قوم تبع مع انه لا خير فى الفريقين قلنا معناه أهم خير فى القوة والشوكة كقوله اكفاركم خير من أولئكم بعد ذكر آل فرعون ثم انه تعالى ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة فقال وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبا وعبثا وقد مر تقرير هذه الطريقة بالاستقصاء فى اول سورة يونس وفى آخر سورة قد افلح المؤمنون حيث قال أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وفى سورة ص حيث قال وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ثم قال ما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون والمراد اهل مكة واما استدلال المعتزلة بهذه الآية على انه تعالى

(ان يوم الفصل) اى فصل الحق عن الباطل وتمييز المحق من المبطل او فصل الرجل عن اقاربه واحبائه (ميقاتهم) وقت موعدهم (اجمعين) وقرئ ميقاتهم بالنصب على انه اسم ان ويوم الفصل خبرها اى ان ميعاد حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل (يوم لا يغنى) بدل من يوم الفصل او صفة لميقاتهم او ظرف لما دل عليه الفصل لا لنفسه (مولى) من قرابة اوغيرها (عن مولى) اى مولى كان (شيئا) اى شيئا من الاغناء (ولاهم ينصرون) الضمير لمولى الاول باعتبار المعنى لانه عام (الا من رحم الله) بالعفو عنه وقبول الشفاعة فى حقه ومحله الرفع على البدل من الواو او النصب على الاستثناء (انه هو العزيز) الذى لا ينصر من اراد تعذيبه (الرحيم) لمن اراد ان يرحمه (ان شجرت الزقوم) وقرئ بكسر الشين وقد مر معنى الزقوم فى سورة الصافات (طعام الاثيم) اى الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه (كالمهل) وهو ما يمهل فى النار حتى يذوب وقيل هو دردى الزيت (يغلى فى البطون) وقرئ

لايخلق الكفر والفسق ولايريدهما فهو مع جوابه معلوم والله اعلم ❊ قوله تعالى (ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون الامن رحم الله انه هو العزيز الرحيم ان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق انك انت العزيز الكريم ان هذا ما كنتم به تمترون) اعلم ان المقصود من قوله وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين اثبات القول بالبعث والقيامة فلاجرم ذكر عقيبه قوله ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين وفى تسمية يوم القيمة بيوم الفصل وجوه (الاول) قال الحسن يفصل الله فيه بين اهل الجنة واهل النار (الثانى) يفصل فى الحكم والقضاء بين عباده (الثالث) أنه فى حق المؤمنين يوم الفصل بمعنى انه يفصل بينه وبين كل مايكرهه وفى حق الكفار بمعنى انه يفصل بينه وبين كل مايريده (الرابع) انه يظهر حال كل احد كما هو فلا يبقى فى حاله ريبة ولاشبهة فتنفصل الخيالات والشبهات وتبقى الحقائق والبينات قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى ان يوم يفصل الرحمن بين عباده ميقاتهم اجمعين البر والفاجر ثم وصف ذلك اليوم فقال يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا يريد قريب عن قريب ولاهم ينصرون اى ليس لهم ناصر والمعنى ان الذين يتوقع منه النصرة اما القريب فى الدين او فى النسب او المعتق وكل هؤلاء يسمون بالمولى فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لاتحصل ممن سواهم اولى وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا الى قوله ولاهم ينصرون قال الواحدى والمراد بقوله مولى عن مولى الكفار ألاترى انه ذكر المؤمن فقال الامن رحم الله قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد المؤمن فانه تشفع له الانبياء والملائكة واعلم انه تعالى لما اقام الدلالة على ان القول بالقيامة حق ثم اردفه بوصف ذلك اليوم ذكر عقيبه وعيد الكفار ثم بعده وعد الابرار اما وعيد الكفار فهو قوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ ان شجرة الزقوم بكسر الشين ثم قال وفيها ثلاث لغات شجرة بفتح الشين وكسرها وشيرة بالياء وشبرة بالباء (المسئلة الثانية) البحث عن اشتقاق لفظ الزقوم قد تقدم فى سورة والصافات فلافائدة فى الاعادة (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للاثيم والاثيم هو الذى صدر عنه الاثم فيكون هذا الوعيد حاصلا للفساق (والجواب) انا بينا فى اصول الفقه ان اللفظ المفرد الذى دخل عليه حرف التعريف الاصل فيه ان ينصرف الى المذكور السابق ولايفيد العموم وههنا المذكور السابق هو الكافر فينصرف اليه (المسئلة الرابعة) مذهب ابى حنيفة ان قراءة القرآن بالمعنى جائز واحتج عليه بأنه نقل ان ابن مسعود كان يقرئ رجلا هذه الآية فكان يقول طعام اللثيم فقال قل طعام الفاجر وهذا الدليل فى غاية الضعف على مابيناه فى اصول الفقه ثم قال كالمهل قرئ بضم الميم وفتحها وسبق تفسيره فى سورة الكهف وقد شبه الله تعالى هذا

(الطعام)

بالتاء على اسناد الفعل الى الشجرة (كغلى الحميم) غليانا كغليه (خذوه) على ارادة القول والخطاب للزبانية (فاعتلوه) اى جروه والعتل الاخذ بمجامع الشئ وجره بقهر وعنف وقرئ بضم التاء وهى لغة فيه (الى سواء الجحيم) اى وسطه (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) كان الاصل يصب من فوق رؤسهم الحميم فقيل يصب من فوق رؤسهم عذاب هو الحميم للمبالغة ثم اضيف العذاب الى الحميم للتخفيف وزيد من للدلالة على ان المصبوب بعض هذا النوع (ذق انك انت العزيز الكريم) اى وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعا له على ما كان يزعمه روى ان اباجهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مابين جبليها اعز ولا اكرم منى فوالله ماتستطيع انت ولاربك ان تفعلابى شيئا وقرئ بالفتح اى لانك او عذاب انك (ان هذا) اى العذاب (ما كنتم تمترون) تشكون وتمارون فيه والجمع باعتبار المعنى لان المراد جنس الاثيم (ان المتقين) اى عن الكفر والمعاصى (فى مقام) فى موضع قيام والمراد

الطعام بالمهل وهو دردي الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات وتم الكلام ههنا ثم اخبر عن غليانه فى بطون الكفار فقال يغلى فى البطون وقرئ بالتاء فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة ومن قرأ بالياء حمله على الطعام فى قوله طعام الاثيم لان الطعام هو الشجرة فى المعنى واختار ابو عبيد الياء لان الاسم المذكور يعنى المهل هو الذى يلى الفعل فصار التذكير به اولى واعلم انه لا يجوز ان يحمل الغلى على المهل لان المهل مشبه به وانما يغلى مايشبه بالمهل كغلى الحميم والماء اذا اشتد غليانه فهو حميم ثم قال خذوه أى خذوا الاثيم فاعتلوه قرئ بكسر التاء قال الليث العتل ان تأخذ بمنكب الرجل فتعتله اى تجره اليك وتذهب به الى حبس او محنة واخذ فلان بزمام الناقة يعتلها وذلك اذا قبض على اصل الزمام عند الرأس وقادها قودا عنيفا وقال ابن السكيت عتلته الى السجن وأعتلته اذا دفعته دفعا عنيفا هذا قول جميع اهل اللغة فى العتل وذكروا فى اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان مثل يعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون قوله تعالى الى سواء الجحيم أى الى وسط الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم وكان الاصل ان يقال ثم صبوا من فوق رأسه الحميم يصب من فوق رؤسهم الحميم الا ان هذه الاستعارة أكمل فى المبالغة كأنه يقول صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ونظيره قوله تعالى ربنا أفرغ علينا صبرا ثم قال ذق انك انت العزيز الكريم وذكروا فيه وجوها (الاول) انه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء والمراد انك انت بالضد منه (والثانى) ان اباجهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مابين جبليها اعز ولا أكرم منى فوالله ماتستطيع انت ولاربك ان تفعلا بى شيئا (والثالث) انك كنت تعتز لا بالله فانظر ماوقعت فيه وقرئ انك بمعنى لانك ثم قال ان هذا ما كنتم به تمترون اى ان هذا العذاب ما كنتم به تمترون اى تشكون والمراد منه ماذكره فى اول السورة حيث قال بل هم فى شك يلعبون ۞ قوله تعالى

(ان المتقين فى مقام امين فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب انهم مرتقبون)

اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد فى الآيات المتقدمة ذكر الوعد فى هذه الآيات فقال ان المتقين قال اصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقى فوجب ان يدخل الفاسق فى هذا الوعد واعلم انه تعالى ذكر من اسباب تنعمهم اربعة اشياء (اولها) مساكنهم فقال فى مقام أمين واعلم ان المسكن انما يطيب بشرطين (احدهما) ان يكون آمنا عن جميع مايخاف ويحذر وهو المراد من قوله فى مقام امين قرأ الجمهور فى مقام بفتح الميم وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم قال صاحب الكشاف المقام بفتح الميم هو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذى جعل مستعملا فى المعنى العام وبالضم هو موضع الاقامة والأمين من قولك امن الرجل امانة

المكان على الاطلاق فانه من الخاص الذى شاع استعماله فى معنى العموم وقرئ بضم الميم وهو موضع اقامة (امين) يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه وهو من الأمن الذى هو ضد الخيانة وصف به المكان بطريق الاستعارة كأن المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره (فى جنات وعيون) بدل من مقام جئ به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب (يلبسون من سندس واستبرق) اما خبر ثان او حال من الضمير فى الجار او استئناف والسندس مارق من الحرير والاستبرق ماغلظ منه معرب (متقابلين) فى المجالس ليستأنس بعضهم ببعض (كذلك) اى الامر كذلك او كذلك اثبناهم (وزوجناهم بحور عين) على الوصف وقرئ بالاضافة اى قرناهم بهن والحور جمع الحوراء وهى البيضاء والعين جمع العيناء وهى العظيمة العينين واختلف فى انهن نساء الدنيا اوغيرها (يدعون فيها بكل فاكهة) اى يطلبون ويأمرون باحضار مايشتهونه من الفواكه لا يتخصص شئ منها

فهو امين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لان المكان المخيف كانه يخون صاحبه (والشرط الثانى) لطيب المكان ان يكون قدحصل فيه اسباب النزهة وهى الجنات والعيون فلماذكر تعالى هذين الشرطين فى مساكن اهل الجنة فقد وصفها بما لايقبل الزيادة (القسم الثانى) من تنعماتهم الملبوسات فقال يلبسون من سندس واستبرق قيل السندس مارق من الديباج والاستبرق ماغلظ منه وهو تعريب استبرك فان قالوا كيف جاز ورود الاعجمى فى القرآن قلنا لماعرب فقد صار عربيا (القسم الثالث) فهو جلوسهم على صفة التقابل والغرض منه استئناس البعض بالبعض فان قالوا الجلوس على هذا الوجه موحش لانه يكون كل واحد منهم مطلعا على مايفعله الآخر وايضا فالذى يقل ثوابه اذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه قلنا احوال الآخرة بخلاف احوال الدنيا (القسم الرابع) ازواجهم فقال كذلك وزوجناهم بحور عين الكاف فيه وجهان ان تكون مرفوعة والتقدير الامر كذلك اومنصوبة والتقدير آتيناهم مثل ذلك قال ابوعبيدة جعلناهم ازواجا كما يزوج البعل بالبعل اى جعلناهم اثنين اثنين واختلفوا فى ان هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج ام لاقال يونس قوله وزوجناهم بحور عين أى قرناهم بهن فليس من عقد التزويج والعرب لاتقول تزوجت بها وانماتقول تزوجتها قال الواحدى رحمه الله والتنزيل يدل على ماقال يونس وذلك قوله فلماقضى زيدمنها وطرا زوجناكها ولوكان المرادتزوجت بها لقال زوجناك بها وايضا فقول القائل زوجته به معناه انه كان فردا فزوجته بآخر كمايقال شفعته بآخر واماالحور فقال الواحدى اصل الحور البياض والتحوير التبييض وقدذكرناذلك فى تفسير الحواريين وعين حوراء اذااشتدبياض بياضها واشتدسواد سوادها ولاتسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضا فى لون الجسد والدليل على ان المراد بالحور فى هذه الآية البيض قراءة ابن مسعود بعيس عين والعيس البيض واماالعين فجمع عيناء وهى التى تكون عظيمة العينين من النساء قال الجبائى رجل اعين اذاكان ضخم العين واسعها والانثى عيناء والجمع عين ثم اختلفوا فى هؤلاء الحور العين فقال الحسن هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقا آخر وقال ابوهريرة انهن ليسوا من نساء الدنيا (النوع الخامس) من تنعمات اهل الجنة المأكول فقال يدعون فيها بكل فاكهة آمنين قالوا انهم يأكلون جميع انواع الفاكهة لاجل انهم آمنون من التخم والامراض ولما اوصف الله تعالى انواع ماهم فيه من الخيرات والراحات بين ان حياتهم دائمة فقال لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وفيه سؤالان (السؤال الاول) انهم ماذاقوا الموتة الاولى فى الجنة فكيف حسن هذا الاستثناء واجيب عنه من وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف اريد ان يقال لايذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله الا الموتة الاولى موضع ذلك لان الموتة الماضية محال فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كانه قيل ان كانت

بمكان ولازمان (آمنين) من كل مايسوءهم (لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) بل يستمرون على الحياة ابدا والاستثناء منقطع اومتصل على ان المراد بيان استحالة ذوق الموت فيها على الاطلاق كانه قيل لايذوقون فيها الموت الا اذا امكن ذوق الموتة الاولى حينئذ (ووقاهم عذاب الجحيم) وقرئ مشددا للمبالغة فى الوقاية (فضلا من ربك) اى اعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه تعالى وقرئ بالرفع اى ذلك فضل (ذلك هو الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه اذهو خلاص عن جميع المكاره ونيل لكل المطالب وقوله تعالى (فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) فذلكة للسورة الكريمة اى انما انزلنا الكتاب المبين بلغتك كى يفهمه قومك ويتذكروا ويعملوا بموجبه واذا لم يفعلوا ذلك (فارتقب) فانتظر مايحل بهم (انهم مرتقبون) مايحل بك

* روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة اصبح مغفورا له

* (سورة الجاثية مكية وهى سبع اوست وثلاثون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

الموتة الاولى يمكن ذوقها فى المستقبل فانهم يذوقونها (الثانى) أن الابعى لكن والتقدير لايذوقون فيها الموت لكن الموتة الاولى قدذاقوها (الثالث) ان الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته واذا كان الامر كذلك فان الانسان الذى فاز بهذه السعادة فهو فى الدنيا فى الجنة وفى الآخرة ايضا فى الجنة واذا كان الامر كذلك فقد وقعت الموتة الاولى حين كان الانسان فى الجنة الحقيقية التى هى جنة المعرفة بالله والمحبة فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا ان الجنة الحقيقية هى حصول هذه الحالة لاالدار التى هى دار الاكل والشرب ولهذا السبب قال عليه السلام انبياء الله لايموتون ولكن ينقلون من دار الى دار (والرابع) ان من جرب شيئا ووقف عليه صح أن يقال انه ذاقه واذا صح أن يسمى ذلك العلم بالذوق صح أن يسمى تذكره ايضا بالذوق فقوله لايذوقون فيها الموت الاالموتة الاولى يعنى الاالذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الاولى (السؤال الثانى) أليس أن اهل النار ايضا لايموتون فلم بشر اهل الجنة بهذا مع ان اهل النار يشاركونهم فيه (والجواب) ان البشارة ماوقعت بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات فظهر الفرق ثم قال تعالى ووقاهم عذاب الجحيم قرئ ووقاهم بالتشديد فان قالوا مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدما على ذكر الفوز بالجنة لان الذى وقى عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لايفوز فاذا ذكر بعده انه فاز بالجنة حصلت الفائدة اما الذى فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لامحالة فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد ذكر الفوز بثواب الجنة مفيدا قلنا التقدير كأنه تعالى قال ووقاهم فى اول الامر عن عذاب الجحيم ثم قال فضلا من ربك يعنى كل ماوصل اليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة فانما يحصل بفضل الله واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان الثواب يحصل تفضلا من الله تعالى لابطريق الاستحقاق لانه تعالى لما عدد اقسام ثواب المتقين بين انها بأسرها انما حصلت على سبيل الفضل والاحسان من الله تعالى قال القاضى اكثر هذه الاشياء وان كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لانه تعالى تفضل بالتكليف وغرضه منه ان يصيرهم الى هذه المنزلة فهو كمن اعطى غيره مالا ليصل به الى ملك ضيعة فانه يقال فى تلك الضيعة انها من فضله قلنا مذهبك ان هذا الثواب حق لازم على الله وانه تعالى لو اخل به لصار سفيها ولخرج به عن الالهية فكيف يمكن وصف مثل هذا الشئ بأنه فضل من الله تعالى ثم قال تعالى ذلك هو الفوز العظيم واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان التفضل اعلى درجة من الثواب المستحق فانه تعالى وصفه بكونه فضلا من الله ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزا عظيما ويدل عليه أيضا ان الملك العظيم اذا اعطى الاجير اجرته ثم خلع على انسان آخر فان تلك الخلعة اعلى حالا من اعطاء تلك الاجرة ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون والمعنى انه تعالى وصف القرآن فى اول هذه

(حم) الكلام فيه كما مر فى فاتحة سورة المؤمن فان جعل اسما للسورة فمحله الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اى هذا مسمى بحم والاشارة الى السورة قبل جريان ذكرها قد وقفت على سره مرارا وان جعل مسرودا على نمط التعديد فلاحظ له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على انه مصدر اطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ مضمر يلوح به ماقبله اى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم اى المسمى به تنزيل الخ وقدمر مرارا ان الذى يجعل عنوانا للموضوع حقه ان يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لاعهد بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها واما جعله خبرا له بتقدير المضاف وابقاء التنزيل على اصله اى تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع عرائه عن افادة فائدة يعتد بها تمحل على تمحل وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) كما مر فى صدر سورة الزمر على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب صفته وجواب القسم قوله تعالى (ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين) وهو على الوجوه

السورة بكونه كتابا مبينا اى كثير البيان والفائدة وذكر فى خاتمتها مايؤكد ذلك فقال ان ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة انما يسرناه بلسانك اى انما أنزلناه عربيا بلغتك لعلهم يتذكرون قال القاضى وهذا يدل على انه تعالى أراد من الكل الايمان والمعرفة وانه ما أراد من احد الكفر واجاب اصحابنا ان الضمير فى قوله لعلهم يتذكرون عائد الى اقوام مخصوصين فنحن نحمل ذلك على المؤمنين ثم قال فارتقب اى فانتظر مايحل بهم انهم مرتقبون مايحل بك متربصون بك الدوائر والله اعلم * قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء فى نصف الليل الثانى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ياداثم المعروف ياقديم الاحسان شهد لك اشراق العرش وضوء الكرسى ومعارج السموات وانوار الثوابت والسيارات على منابرها المتوغلة فى العلوا لاعلى ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد بان الاول الحق الازلى لايناسبه شئ من علائق العقول وشوائب الخواطر ومناسبات المحدثات فالقمر بسبب محوه مقر بالنقصان والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها معترفة بالحاجة الى تدبير الرحمن والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة فالله فى غيبيات المعارج العالية والمتغيرات شاهدة بعدم تغيره والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته وكل ماتوجه عليه انه مضى وسيأتى فهو خالقه واعلى منه فبجوده الوجود والايجاد وباعدامه الفناء والفساد وكل ماسواه فهو تائه فى جبروته تائر عند طلوع نور ملكوته وليس عند عقول الخلق الا انه بخلاف كل الخلق له العز والجلال والقدرة والكمال والجود والافضال ربنا ورب مبادينا اياك نروم ولك نصلى ونصوم وعليك المعول وانت المبدأ الاول سبحانك سبحانك

(سورة الجاثية ثلاثون وسبع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وماانزل الله من السماء من رزق فاحيى به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى قوله حم تنزيل الكتاب وجوها (الاول) ان يكون حم مبتدأ وتنزيل الكتاب خبره وعلى هذا التقدير فلابد من حذف مضاف والتقدير تنزيل حم تنزيل الكتاب ومن الله صلة للتنزيل (الثانى) ان يكون قوله حم فى تقدير هذه حم ثم نقول تنزيل الكتاب واقع من الله العزيز الحكيم (الثالث) ان يكون حم قسما وتنزيل الكتاب نعتا له وجواب القسم ان فى السموات والتقدير وحم الذى هو تنزيل الكتاب ان الامر كذا وكذا (المسئلة الثانية) قوله العزيز الحكيم يجوز جعلهما صفة الكتاب

(ويجوز)

المقدمة كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية الآفاقية والانفسية ومحل الآيات اما نفس السموات والارض فانهما منطويتان من فنون الآيات على مايقصر عنه البيان واما خلقهما كما فى قوله تعالى ان فى خلق السموات والارض وهو الاوفق بقوله تعالى (وفى خلقكم) اى من نطفة ثم من علقة متقلبة فى اطوار مختلفة الى تمام الخلق (ومايبث من دابة) عطف على المضاف دون المضاف اليه اى وفيما ينشره ويفرقه من دابة (آيات) بالرفع على انه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ماقبلها من الجملة المصدرة بان وقيل آيات عطف على ماقبلها من آيات باعتبار المحل عند من يجوزه وقرئ آية بالتوحيد وقرئ آيات بالنصب عطفا على ماقبلها من اسم ان والخبر هو الخبر كأنه قيل وان فى خلقكم وما يبث من دابة آيات (لقوم يوقنون) اى من شأنهم ان يوقنوا بالاشياء على ماهى عليه (واختلاف الليل والنهار) بالجر على اضمار الجار المذكور فى الآيتين قبله وقد قرئ بذكره والمراد باختلافهما اما تعاقبهما او تفاوتهما طولا وقصرا

ويجوز جعلهما صفة لله تعالى الا ان هذا الثانى اولى ويدل عليه وجوه (الاول) انا اذا جعلناهما صفة لله تعالى كان ذلك حقيقة واذا جعلناهما صفة الكتاب كان ذلك مجازا والحقيقة اولى من المجاز (الثانى) ان زيادة القرب توجب الرجحان (الثالث) انا اذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك اشارة الى الدليل الدال على ان القرآن حق لان كونه عزيزا يدل على كونه قادرا على كل الممكنات وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى عزيزا حكيما كونه قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل واذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلا على الصدق فثبت انا اذا جعلنا كونه عزيزا حكيما صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة واما اذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة فكان الاول اولى والله اعلم ثم قال تعالى ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفيه مباحث (الاول) ان قوله ان فى السموات والارض لآيات يجوز اجراؤه على ظاهره لانه حصل فى ذوات السموات والارض احوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها وايضا الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة فى السموات والارض وهى آيات ويجوز ان يكون المعنى ان فى خلق السموات والارض كما صرح به فى سورة البقرة فى قوله ان فى خلق السموات والارض وهو يدل على وجود القادر المختار وفى تفسير قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض (البحث الثانى) قد ذكرنا الوجوه الكثيرة فى دلالة السموات والارض على وجود الاله القادر المختار فى تفسير قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض ولا بأس باعادة بعضها فنقول انها تدل على وجود الاله من وجوه (الاول) انها اجسام لا تخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فهذه الاجسام حادثة وكل حادث فله محدث (الثانى) انها مركبة من الاجزاء وتلك الاجزاء متماثلة لما بينا ان الاجسام متماثلة وتلك الاجزاء وقع بعضها فى العمق دون السطح وبعضها فى السطح دون العمق فيكون وقوع كل جزء فى الموضع الذى وقع فيه من الجائزات وكل جائز فلا بد له من مرجح ومخصص (الثالث) ان الافلاك والعناصر مع تماثلها فى تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية فيكون ذلك امرا جائزا ولا بد لها من مرجح (الرابع) ان اجرام الكواكب مختلفة فى الالوان مثل كمودة زحل وبياض المشترى وحمرة المريخ والضوء الباهر للشمس ودرية الزهرة وصفرة عطارد ومحو القمر وايضا فبعضها سعدة وبعضها نحسة وبعضها نهارى ذكر وبعضها ليلى انثى وقد بينا ان الاجسام فى ذواتها متماثلة فوجب ان يكون اختلاف الصفات لاجل ان الاله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة (الخامس) ان كل فلك فانه مختص بالحركة الى جهة

(وما انزل الله من السماء) عطف على اختلاف (من رزق) اى من مطر وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيها على كونه آية من جهتى القدرة والرحمة (فأحيى به الارض) بأن اخرج منها اصناف الزروع والثمرات والنبات (بعد موتها) وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو اشجارها عن الثمار (وتصريف الرياح) من جهة الى اخرى ومن حال الى حال وقرئ بتوحيد الريح وتأخيره عن انزال المطر مع تقدمه عليه فى الوجود اما للايذان بانه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم ان مجموع تصريف الرياح وانزال المطر آية واحدة واما لان كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لانشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى من جملتها سوق السفن فى البحار (آيات لقوم يعقلون) بالرفع على انه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور والجملة معطوفة على ما قبلها وقرئ بالنصب

معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء وكل ذلك ايضا من الجائزات فلابد من الفاعل المختار (السادس) ان كل فلك مختص بشيء معين وكل ذلك ايضا من الجائزات فلابد من الفاعل المختار وتمام الوجوه المذكورة في تفسير تلك الآيات (البحث الثالث) قوله لآيات للمؤمنين يقتضي كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين وقالت المعتزلة انها آيات للمؤمن والكافر الا انه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر اضيف كونها آيات الى المؤمنين ونظيره قوله تعالى هدى للمتقين فانه هدى لكل الناس كما قال تعالى هدى للناس الا انه لما انتفع بها المؤمن خاصة لاجرم قيل هدى للمتقين فكذا ههنا وقال الاصحاب الدليل والآية هو الذي يترتب على معرفة حصول العلم وذلك العلم انما يحصل بخلق الله تعالى لا بايجاب ذلك الدليل والله تعالى انما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلا في حق المؤمن لا في حق الكافر والله اعلم ثم قال تعالى وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون وفيه مباحث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف قوله وما يبث عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف اليه لان المضاف ضمير متصل مجرور والعطف عليه مستقبح فلا يقال مررت بك وزيد ولهذا طعنوا في قراءة حمزة تساءلون به والارحام بالجر في قوله والارحام وكذلك ان الذين استقبحوا هذا العطف فلا يقولون مررت بك انت وزيد (البحث الثاني) قرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء وكذلك الذي بعده وتصريف الرياح آيات والباقون بالرفع فيهما اما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وابو علي (احدهما) العطف على موضع ان وما عملت فيه لان موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع كما تقول ان زيدا منطلق وعمرو وان الله بريء من المشركين ورسوله لان معنى قوله ان الله بريء ان يقول الله بريء من المشركين ورسوله (والوجه الثاني) ان يكون قوله وفي خلقكم مستأنفا ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة اخرى كما تقول ان زيدا منطلق وعمرو كاتب جعلت قولك وعمرو كاتب كلاما آخر كما تقول زيد في الدار واخرج غدا الى بلد كذا فانما احدثت بحديثين ووصلت احدهما بالآخر بالواو وهذا الوجه هو اختيار ابي الحسن والفراء واما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله ان في السموات على معنى وان في خلقكم لآيات ويقولون هذه القراءة انها في قراءة ابي وعبد الله لآيات ودخول اللام يدل على ان الكلام محمول على ان (البحث الثالث) قوله وفي خلقكم معناه خلق الانسان وقوله وما يبث من دابة اشارة الى خلق سائر الحيوانات ووجه دلالتها على وجود الاله القادر المختار ان الاجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الاعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين لابد وان يكون بتخصيص القادر المختار ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن الى سن آخر ومن حال الى حال آخر والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم ثم قال تعالى واختلاف الليل والنهار وهذا الاختلاف يقع على وجوه (احدها) تبدل النهار بالليل

(وبالضد)

على الاختصاص وقيل على انها اسم ان والمجرور المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولى عاملين مختلفين هما ان وفي اقيمت الواو مقامهما فعلمت الجر في اختلاف والنصب في آيات وتنكير آيات في المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا واختلاف الفواصل لاختلاف مراتب الآيات في الدقة والجلاء (تلك آيات الله) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (نتلوها عليك) حال عاملها معنى الاشارة وقيل هو الخبر وآيات الله بدل او عطف بيان (بالحق) حال من فاعل نتلو ومن مفعوله اى نتلوها محقين او ملتبسة بالحق (فبأي حديث) من الاحاديث (بعد الله وآياته) اى بعد آيات الله وتقديم الاسم الجليل لتعظيمها كما في قولهم اعجبني زيد وكرمه او بعد حديث الله الذي هو القرآن حسبما نطق به قوله تعالى الله نزل احسن الحديث وهو المراد بآياته ايضا ومناط العطف التغاير العنواني (يؤمنون) بصيغة الغيبة وقرئ بالتاء

(ويل لكل افاك) كذاب (أثيم) كثير الآثام (٤٨١) (يسمع آيات الله) صفة اخرى لافاك وقيل استئناف وقيل حال من الضمير فى أثيم

وبالضد منه (وثانيها) انه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار مايزداد فى النهار الصيفى يزداد فى الليل الشتوى (وثالثها) اختلاف مطالع الشمس فى ايام السنة ثم قال تعالى وما انزل الله من السماء من رزق فأحيي به الارض بعد موتها وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه (احدها) انشاء السحاب وانزال المطر منه (وثانيها) تولد النبات من تلك الحبة الواقعة فى الارض (وثالثها) تولد الانواع المختلفة وهى ساق الشجرة واغصانها واوراقها واثمارها ثم تلك الثمرة منها مايكون القشر محيطا باللب كالجوز واللوز ومنها مايكون اللب محيطا بالقشر كالمشمش والخوخ ومنها مايكون خاليا عن القشر كالتين فتولد اقسام النبات على كثرة اصنافها وتباين اقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم ثم قال وتصريف الرياح وهى تنقسم الى اقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة فنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ولما ذكر الله تعالى هذه الانواع الكثيرة من الدلائل قال انها آيات لقوم يعقلون واعلم ان الله تعالى جمع هذه الدلائل فى سورة البقرة فقال ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيي به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون فذكر الله تعالى هذه الاقسام الثمانية من الدلائل والتفاوت بين الموضعين من وجوه (الاول) انه تعالى قال فى سورة البقرة ان فى خلق السموات والارض وقال ههنا ان فى السموات والصحيح عند اصحابنا ان الخلق عين المخلوق وقد ذكر لفظ الخلق فى سورة البقرة ولم يذكره فى هذه السورة تنبيها على انه لاتفاوت بين ان يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلا على ان الخلق عين المخلوق (الثانى) انه ذكر هناك ثمانية انواع من الدلائل وذكر ههنا ستة انواع واهمل منها الفلك والسحاب والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذى هو كالسبب يغنى عن ذكرهما (التفاوت الثالث) انه جمع الكل وذكر لها مقطعا واحدا وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع والغرض التنبيه على انه لابد من افراد كل واحد منها بنظر تام شاف (التفاوت الرابع) انه تعالى ذكر فى هذا الموضع ثلاثة مقاطع (اولها) يؤمنون (وثانيها) يوقنون (وثالثها) يعقلون واظن ان سبب هذا الترتيب انه قيل ان كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا اقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل واعلم ان كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس فى القرآن العلوم التى يبحث عنها المتكلمون بل ليس فيه الا ما يتعلق بالاحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لانه ليس فى القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الاحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها الا ذكر دلائل

(تتلى عليه) حال من آيات الله ولا مساغ لجعله مفعولا ثانيا ليسمع لان شرطه ان يكون مابعده مما لايسمع كقولك سمعت زيدا يقرأ (ثم يصر) اى يقيم على كفره واصله من اصرار الحمار على العانة (مستكبرا) عن الايمان بما سمعه من آيات الله تعالى والاذعان لما تنطق به من الحق مزدريا لها معجبا بما عنده من الاباطيل وقيل نزلت فى النضر بن الحرث وكان يشترى من احاديث الاعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لكنها وردت بعبارة عامة ناعية عليه وعلى كل من يسير سيرته ماهم فيه من الشر والفساد وكلمة ثم لاستبعاد الاصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التى حقها ان تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب كما فى قول من قال

يرى غمرات الموت ثم يزورها

(كأن لم يسمعها) اى كأنه لم يسمعها فخفف وحذف ضمير الشأن والجملة حال من يصر اى يصر شبيها بغير السامع (فبشره بعذاب اليم) على اصراره واستكباره (واذا علم من آياتنا شيئا) اى اذا بلغه من آياتنا شئ وعلم انه من آياتنا لا انه علمه كما هو عليه فانه بمعزل من ذلك العلم وقيل اذا علم منها شيئا يمكن ان يتشبث به المعاند ويجد له محملا فاسدا يتوصل به الى الطعن والغميزة (اتخذها) اى الآيات كلها (هزوا) اى مهزوا بها لا ما سمعه فقط وقيل الضمير للشئ والتأنيث لانه فى معنى الآية (اولئك) اشارة الى كل افاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح والجمع باعتبار الشمول للكل كما فى قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون كما ان الافراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد (٦١) (را) (سا) واحد (لهم) بسبب جناياتهم المذكورة (عذاب مهين) وصف العذاب

التوحيد والنبوة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الاصوليين ومن تأمل علم انه ليس فى يد علماء الاصول الا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجمال ثم قال تعالى تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق والمراد من قوله بالحق هو ان صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لان العلم بانها حقة صحيحة اما ان يكون مستفادا من النقل او العقل والاول باطل لان صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم باثبات الاله العالم القادر الحكيم وباثبات النبوة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها فلو اثبتنا هذه الاصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ولما بطل هذا ثبت ان العلم بحقية هذه الدلائل لا يمكن تحصيله الا بمحض العقل واذا كان كذلك كان قوله تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق من اعظم الدلائل على الترغيب فى علم الاصول وتقرير المباحث العقلية ثم قال تعالى فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون يعنى ان من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شىء بعده يجوز ان ينتفع به وابطل بهذا قول من يزعم ان التقليد كاف وبين انه يجب على المكلف التأمل فى دلائل دين الله وقوله يؤمنون قرئ بالياء والتاء واختار ابو عبيد الياء لان قبله غيبة وهو قوله لقوم يؤمنون ولقوم يعقلون فان قيل ان فى اول الكلام خطابا وهو قوله وفى خلقكم قلنا الغيبة التى ذكرنا أقرب الى الحرف المختلف فيه والاقرب اولى ووجه قول من قرأ على الخطاب ان قل فيه مقدر اى قل لهم فبأى حديث بعد ذلك تؤمنون * قوله تعالى (ويل لكل أفاك اثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء ولهم عذاب عظيم هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز اليم) اعلم انه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين انهم بأى حديث بعده يؤمنون اذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها اتبعه بوعيد عظيم لهم فقال ويل لكل أفاك أثيم الافاك الكذاب والاثيم المبالغ فى اقتراف الآثام واعلم ان هذا الاثيم له مقامان (الاول) ان يبقى مصرا على الانكار والاستكبار فقال تعالى يسمع آيات الله ثم يصر اى يقيم على كفره اقامة بقوة وشدة مستكبرا عن الايمان بالآيات معجبا بما عنده قيل نزلت فى النضر بن الحرث وما كان يشترى من احاديث الاعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة فى كل من كان موصوفا بالصفة المذكورة فان قالوا اما معنى ثم فى قوله ثم يصر مستكبرا قلنا نظيره قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض الى قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ومعناه انه تعالى لما كان خالقا للسموات والارض كان من المستبعد جعل هذه الاصنام مساوية له فى المعبودية كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالانكار والاعراض ثم قال تعالى كأن لم يسمعها الاصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشان ومحل الجملة النصب على الحال اى يصير مثل غير السامع (المقام الثانى) ان ينتقل من مقام الاصرار والاستكبار الى مقام الاستهزاء فقال واذا علم من آياتنا

بالاهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى (من ورائهم جهنم) اى من قدامهم لانهم متوجهون الى ما اعد لهم او من خلفهم لانهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا فان الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام (ولا يغنى عنهم) ولا يدفع (ما كسبوا) من الاموال والاولاد (شيئا) من عذب الله تعالى او شيئا من الاغناء (ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء) اى الاصنام وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع ان عدم اغناء الاصنام اظهر واجلى من عدم اغناء الاموال والاولاد قطعا مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وفيه تهكم (ولهم) فيما وراءهم من جهنم (عذاب عظيم) لا يقادر قدره (هذا) اى القرآن (هدى) فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها (والذين كفروا) اى بالقرآن وانما وضع موضع ضميره قوله تعالى (بآيات ربهم) لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم (لهم عذاب من رجز) اشد العذاب (اليم) بالرفع صفة عذاب وقرئ بالجر على انه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم ورفعه اما على الابتداء واما على الفاعلية (الله الذى سخر لكم البحر) بأن جعله املس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالاخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه (لتجرى الفلك فيه بأمره) وانتم راكبوها (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص والصيد وغيرها (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض) من الموجودات بأن جعلها مدار المنافعكم (جميعا) اما حال من ما فى السموات والارض او توكيد له (منه) متعلق بمحذوف هو صفة لجميعا او حال من ما أى جميعا كائنا منه تعالى او سخر لكم هذه الاشياء (شيئا)

شيئا اتخذها هزوا وكان من حق الكلام ان يقال اتخذه هزوا اى اتخذ ذلك الشئ هزوا الا انه تعالى قال اتخذها للاشعار بان هذا الرجل اذا أحس بشئ من الكلام انه من جملة الآيات التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد ثم قال تعالى أولئك لهم عذاب مهين أولئك اشارة الى كل أفاك أثيم لشموله جميع الافاكين ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال من ورائهم جهنم اى من قدامهم جهنم قال صاحب الكشاف الوراء اسم للجهة التى توارى بها الشخص من خلف او قدام ثم بين ان ماملكوه فى الدنيا لا ينفعهم فقال ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ثم أن اصنامهم لاتنفعهم فقال ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء ثم قال ولهم عذاب عظيم فان قالوا انه قال قبل هذه الآية لهم عذاب مهين فما الفائدة فى قوله بعده ولهم عذاب عظيم قلنا كون العذاب مهينا يدل على حصول الاهانة مع العذاب وكونه عظيما يدل على كونه بالغا الى اقصى الغايات فى كونه ضررا ثم قال هذا هدى اى كامل فى كونه هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم والرجز اشد العذاب بدلالة قوله تعالى فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء وقوله لئن كشفت عنا الرجز وقرئ أليم بالجر والرفع اما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم واذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليما ومن رفع كان المعنى لهم عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجس الذى هو النجاسة ومعنى النجاسة فيه قوله ويسقى من ماء صديد وكان المعنى لهم عذاب من تجرع رجس اوشرب رجس فتكون من تبيينا للعذاب ۞ قوله تعالى (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون ايام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل الا بسبب تسخير ثلاثة اشياء (احدها) الرياح التى تجرى على وفق المراد (وثانيها) خلق وجه المياه على الملاسة تجرى عليها الفلك (وثالثها) خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه وهذه الاحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر فلابد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى وقوله ولتبتغوا من فضله معناه اما بسبب التجارة اوبالغوص على اللؤلؤ والمرجان اولاجل استخراج اللحم الطرى ثم قال تعالى وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه والمعنى لو ان الله تعالى اوقف اجرام السموات والارض فى مقارها واحيازها لما حصل الانتفاع لان بتقدير كون الارض هابطة او صاعدة لم يحصل الانتفاع بها وبتقدير كون الارض من الذهب او الفضة او الحديد لم يحصل الانتفاع وكل ذلك قد بيناه فان قيل مامعنى منه فى قوله جميعا منه قلنا معناه انها واقعة موقع الحال والمعنى انه سخر هذه الاشياء كائنة

كائنة منه مخلوقة له تعالى او خبر لمحذوف اى هى جميعا منه تعالى وقرئ منة على المفعول له ومنه على انه فاعل سخر على الاسناد المجازى او خبر مبتدأ محذوف اى ذلك منه (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من الامور العظام (لآيات) عظيمة الشان كثيرة العدد (لقوم يتفكرون) فى بدائع صنع الله تعالى فانهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ويوفقون لشكرها (قل للذين آمنوا) حذف المقول لدلالة (يغفروا) عليه فانه جواب للامر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط اى قل لهم اغفروا يغفروا (للذين لايرجون ايام الله) اى يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى باعدائه من قولهم ايام العرب لوقائعها وقيل لا يأملون الاوقات التى وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه حين شتمه غفارى فهم ان يبطش به وقيل حين قال ابن ابى ما قال وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فارسل ابن ابى غلامه يستقى فابطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك احدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب ابى بكر فقال ابن ابى ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فانزلها الله تعالى (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) تعليل للامر بالمغفرة والمراد بالقوم المؤمنون والتنكير لمدحهم والثناء عليهم اى امروا بذلك ليجزى يوم القيامة قوما اعا قوم لا قوما مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الاعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على اذية الكفار والاغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه مايقصر عنه البيان من الثواب العظيم هذا

منه وحاصلة من عنده يعنى انه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه قال صاحب الكشاف قرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الاسناد المجازى او على انه خبر مبتدأ محذوف اى ذلك منه او هو منه واعلم انه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة اتبع ذلك بتعليم الاخلاق الفاضلة والافعال الحميدة بقوله قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله والمراد بالذين لا يرجون ايام الله الكفار واختلفوا فى سبب نزول الآية قال ابن عباس قل للذين آمنوا يعنى عمر يغفروا والذين لا يرجون ايام الله يعنى عبدالله بن أبي وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل عبدالله غلامه ليستقى الماء فابطأ عليه فلما أتاه قال له ماحبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك احدا يستقى حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب ابى بكر وملأ لمولاه فقال عبدالله ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه اليه فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة فهم أن يبطش به فامر الله بالعفو والتجاوز وانزل هذه الآية وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودى لما نزل قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى رده وقوله للذين لا يرجون ايام الله قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الامم الخالية وذكرنا تفسير ايام الله عند قوله وذكرهم بأيام الله واكثر المفسرين يقولون انه منسوخ وانما قالوا ذلك لانه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا فلما امر الله بهذه المقاتلة كان نسخا والاقرب ان يقال انه محمول على ترك المنازعة فى المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والافعال الموحشة ثم قال تعالى ليجزى قوما بما كانوا يكسبون اى لكى يجازى بالمغفرة قوما يعملون الخير فان قيل ما الفائدة فى التنكير فى قوله ليجزى قوما مع ان المراد بهم هم المؤمنون المذكورون فى قوله قل للذين آمنوا قلنا التنكير يدل على تعظيم شانهم كأنه قيل ليجزى قوما واى قوم من شانهم الصفح عن السيآت والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ليجزى الله الكفار بما كانوا يكسبون من الاثم كأنه قيل لهم لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن ثم ذكر الحكم العام فقال من عمل صالحا فلنفسه وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ومن أساء فعليها مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على ايذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل فبين تعالى ان العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله والعمل الردى يعود بالضرر على فاعله وانه تعالى امر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع اليه وهذا ترغيب منه فى العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل * قوله تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من

(الطيبات)

وقد جوز ان يراد بالقوم الكفرة وبما كانوا يكسبون سيآتهم التى من جملتها ماحكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير وفيه ان مطلق الجزاء لا يصلح تعليلا للامر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلابد من تخصيصه بالكل بان لا يتحقق بعض منه فى الدنيا او بما يصدر عنه تعالى بالذات وفى ذلك من التكلف مالا يخفى وان يراد كلا الفريقين وهو اكثر تكلفا واشد تمحلا وقرئ ليجزى قوم ولنجزى قوما اى ليجزى الجزاء قوما وقرئ لنجزى بنون العظمة (من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها) لا يكاد يسرى عمل الى غير عامله (ثم الى ربكم) مالك اموركم (ترجعون) فيجازيكم على اعمالكم خيرا كان اوشرا (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) اى التوراة (والحكم) اى الحكمة النظرية والعملية الفقه فى الدين او فصل الخصومات بين الناس اذ كان الملك فيهم (والنبوة) حيث كثر فيهم الانبياء مالم يكثر فى غيرهم (ورزقناهم من الطيبات) مما احل الله تعالى من اللذائذ كالمن والسلوى (وفضلناهم على العالمين) حيث آتيناهم مالم نؤت من عداهم من فلق البحر واظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمى زمانهم (وآتيناهم بينات من الامر) دلائل ظاهرة فى امر الدين ومعجزات قاهرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ومابين لهم من امره وانه يهاجر من تهامة الى يثرب ويكون انصاره اهل يثرب (فما اختلفوا) فى ذلك الامر (الا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقته وحقيته فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لرسوخه (بغيا بينهم) اى عداوة وحسدا لا شكا فيه (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة) بالمؤاخذة والجزاء (فيما كانوا فيه يختلفون) من امر الدين (ثم جعلناك

على شريعة) اى سنة وطريقة عظيمة الشان (من الامر) اى امر الدين (فاتبعها) باجراء احكامها فى نفسك وفى غيرك من غير

الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم
العلم بغيا بينهم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على
شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا
وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولى المتقين هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم
يوقنون أم حسب الذين اجترحوا السيآت ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات

سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) اعلم انه تعالى بين انه انعم بنعم كثيرة على بنى اسرائيل
مع انه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغى والحسد والمقصود ان بين ان طريقة قومه
كطريقة من تقدم واعلم ان النعم على قسمين نعم الدين ونعم الدنيا ونعم الدين افضل من نعم
الدنيا فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين فقال ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم
والنبوة والاقرب ان كل واحد من هذه الثلاثة يجب ان يكون مغايرا لصاحبه اما
الكتاب فهو التوراة واما الحكم ففيه وجوه يجوز ان يكون المراد العلم والحكمة ويجوز
ان يكون المراد العلم بفصل الحكومات ويجوز ان يكون المراد معرفة احكام الله تعالى
وهو علم الفقه واما النبوة فمعلومة واما نعم الدنيا فهى المراد من قوله تعالى ورزقناهم من
الطيبات وذلك لانه تعالى وسع عليهم فى الدنيا فاورثهم اموال قوم فرعون وديارهم ثم
أنزل عليهم المن والسلوى ولما بين تعالى انه اعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبا وافرا
قال وفضلناهم على العالمين يعنى انهم كانوا أكبر درجة وارفع منقبة ممن سواهم فى وقتهم
فلهذا المعنى قال المفسرون المراد وفضلناهم على عالمى زمانهم ثم قال تعالى وآتيناهم
بينات من الامر وفيه وجوه (الاول) انه آتاهم بينات من الامر اى أدلة على امور الدنيا
(الثانى) قال ابن عباس يعنى بين لهم من أمر النبى صلى الله عليه وسلم انه يهاجر من تهامة
الى يثرب ويكون انصاره اهل يثرب (الثالث) المراد وآتيناهم بينات اى معجزات قاهرة
على صحة نبوتهم والمراد معجزات موسى عليه السلام ثم قال تعالى فما اختلفوا الا من بعد
ما جاءهم العلم بغيا بينهم وهذا مفسر فى سورة حم عسق والمقصود من ذكر هذا الكلام
التعجب من هذه الحالة لان حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف وههنا صار مجيء العلم
سببا لحصول الاختلاف وذلك لانهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم وانما المقصود
منه طلب الرياسة والتقدم ثم ههنا احتمالات يريد انهم علموا ثم عاندوا ويجوز ان يريد بالعلم
الدلالة التى توصل الى العلم والمعنى انه تعالى وضع الدلائل والبينات التى لو تأملوا فيها
لعرفوا الحق لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا واظهروا النزاع ثم قال تعالى ان
ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون والمراد انه لا ينبغى ان يغتر المبطل
بنعم الدنيا فانها وان ساوت نعم المحق او زادت عليها فانه سيرى فى الآخرة ما يسوءه وذلك
كالزجر لهم ولما بين تعالى انهم اعرضوا عن الحق لاجل البغى والحسد امر رسوله صلى الله
عليه وسلم بان يعدل عن تلك الطريقة وان يتمسك بالحق وان لا يكون له غرض سوى اظهار

الخلال بشئ منها (ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون) اى آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام ارجع الى دين آبائك (انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا) مما اراد بك ان اتبعتهم (وان الظالمين بعضهم اولياء بعض) لا يواليهم ولا يتبع اهواءهم الا من كان ظالما مثلهم (والله ولى المتقين) الذين انت قدوتهم فدم على ما انت عليه من توليه خاصة والاعراض عما سواه بالكلية (هذا) اى القرآن او اتباع الشريعة (بصائر للناس) فان ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب (وهدى) من ورطة الضلالة (ورحمة) عظيمة (لقوم يوقنون) من شأنهم الايقان بالامور (ام حسب الذين اجترحوا السيآت) استئناف مسوق لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين اثر بيان تباين حالى الظالمين والمتقين وام منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الاول الى الثانى والهمزة لانكار الحسبان لكن لا بطريق انكار الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار بل بطريق انكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه والاجتراح الاكتساب (ان نجعلهم) اى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه من مساوى الاحوال (كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهم فيما هم فيه من محاسن الاعمال ونعاملهم معاملتهم فى الكرامة ورفع

الدرجة وقوله تعالى (سواء محياهم ومماتهم) اى محيا الفريقين جميعا ومماتهم حال من الضمير فى الظرف والموصول معا لاشتماله

الحق وتقرير الصدق فقال تعالى ثم جعلناك على شريعة من الامر اى على طريقة ومنهاج من امر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات ولا تتبع ما لا حجة عليه من اهواء الجهال وأديانهم المبنية على الاهواء والجهل قال الكلبي ان رؤساء قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع الى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك واسن فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم قال تعالى انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا اى لو ملت الى اديانهم الباطلة فصرت مستحقا للعذاب فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك ثم بين تعالى ان الظالمين يتولى بعضهم بعضا فى الدنيا وفى الآخرة لا ولى لهم ينفعهم فى ايصال الثواب وازالة العقاب واما المتقون المهتدون فالله وليهم وناصرهم وهم موالوه وما أبين الفرق بين الولايتين ولما بين الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة قال هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون وقد فسرناه فى آخر سورة الاعراف والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البيانات الشافية والبينات الكافية بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل فى سائر الآيات روحا وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذى تقدم بين الفرق بينهما من وجه آخر فقال أم حسب الذين اجترحوا السيآت ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات وفيه مباحث (البحث الاول) أم كلمة وضعت للاستفهام عن شئ حال كونه معطوفا على شئ آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكورا او مضمرا والتقدير ههنا أفيعلم المشركون هذا أم يحسبون انا نتولاهم كما نتولى المتقين (البحث الثانى) الاجتراح الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة اهله اى كاسبهم قال تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار (البحث الثالث) قال الكلبي نزلت هذه الآية فى على وحمزة وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم وفى ثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا للمؤمنين والله ما أنتم على شئ ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا افضل من حالكم فى الآخرة كما انا افضل حالا منكم فى الدنيا فانكر الله عليهم هذا الكلام وبين انه لا يمكن ان يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر العاصى فى درجات الثواب ومنازل السعادات واعلم ان لفظ حسب يستدعى مفعولين (أحدهما) الضمير المذكور فى قوله ان نجعلهم (والثانى) الكاف فى قوله كالذين آمنوا والمعنى احسب هؤلاء المجترحين ان نجعلهم امثال الذين آمنوا ونظيره قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار وقوله تعالى أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون وقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار ثم قال تعالى سواء محياهم ومماتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم سواء بالنصب والباقون بالرفع واختيار أبى عبيد النصب اما وجه القراءة بالرفع فهو ان

على ضميريهما على ان السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى ام حسبوا ان نجعلهم كائنين مثلهم حال كون الكل مستويا محياهم ومماتهم كلا لا يستوون فى شئ منهما فان هؤلاء فى عز الايمان والطاعة وشرفهما فى المحيا وفى رحمة الله تعالى ورضوانه فى الممات واولئك فى ذل الكفر والمعاصى وهوانهما فى المحيا وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات شتان بينهما وقد قيل المراد انكار ان يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة لان المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة وانما يفترقون فى الممات وقرئ محياهم ومماتهم بالنصب على انهما ظرفان كمقدم الحاج وسواء حال على حاله اى حال كونهم مستوين فى محياهم ومماتهم وقد ذكر فى الآية الكريمة وجوه اخر من الاعراب والذى يليق بجزالة التنزيل هو الاول فتدبر وقرئ سواء بالرفع على انه خبر ومحياهم مبتدأ فقيل الجملة بدل من الكاف وقيل حال وايا ما كان فنسبة حسبان التساوى اليهم فى ضمن الانكار التوبيخى مع انهم بمعزل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة فى الانكار والتشديد فى التوبيخ فان انكار حسبان التساوى والتوبيخ عليه انكار لحسبان الجزم بالفضل وتوبيخ عليه على ابلغ وجه وآكده (ساء ما يحكمون) اى ساء حكمهم هذا او بئس شيئا حكموا به ذلك (وخلق الله السموات والارض بالحق) استئناف مقرر لما سبق من الحكم فان خلق الله تعالى لهما ولما فيهما بالحق المقتضى للعدل يستدعى لا محالة تفضيل المحسن على المسئ فى المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم واذا لم يطرد ذلك فى المحيا فهو بعد الممات حتما (ولتجزى كل نفس بما كسبت) عطف على بالحق لان فيه معنى التعليل اذ معناه خلقها

(قوله)

قوله سواء محياهم ومماتهم مبتدأ والجملة فى حكم المفرد فى محل النصب على البدل من المفعول الثانى لقوله ام نجعل وهو الكاف فى قوله كالذين آمنوا ونظيره قوله ظننت زيدا ابوه منطلق واما وجه القراءة بالنصب فقال صاحب الكشاف أجرى سواء مجرى مستويا فارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفردا غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم أى سواء فى محياهم وفى مماتهم قال ابو على من نصب سواء جعل المحيا والممات بدلا من الضمير المنصوب فى نجعلهم فيصير التقدير ان نجعل محياهم ومماتهم سواء قال ويجوز ان نجعله حالا ويكون المفعول الثانى هو الكاف فى قوله كالذين (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله محياهم ومماتهم قال مجاهد عن ابن عباس يعنى احسبوا ان حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم كلا فانهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين وذلك لان المؤمن مادام يكون فى الدنيا فانه يكون وليه هو الله وانصاره المؤمنون وحجة الله معه والكافر بالضد منه كما ذكره فى قوله وان الظالمين بعضهم اولياء بعض وعند القرب الى الموت فان احال المؤمن ماذكره فى قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة وحال الكافر ماذكره فى قوله الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم واما فى القيامة فقال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة فهذا هو الاشارة الى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين (والوجه الثانى) فى تأويل الآية ان يكون المعنى انكار ان يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة وذلك لان المؤمن والكافر قد يستوى محياهم فى الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر ارجح حالا من المؤمن وانما يظهر الفرق بينهما فى الممات (والوجه الثالث) فى التأويل ان قوله سواء محياهم ومماتهم مستأنف على معنى ان محيا المسيئين ومماتهم سواء فكذلك محيا المحسنين ومماتهم اى كل يموت على حسب ماعاش عليه ثم انه تعالى صرح بانكار تلك التسوية فقال ساء مايحكمون وهو ظاهر ۞ قال تعالى (وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلاتذكرون وقالوا ماهى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيي ومايهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الايظنون واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم الا ان قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لاريب فيه ولكن اكثر الناس لايعلمون)

اعلم انه تعالى لما افتى بان المؤمن لايساوى الكافر فى درجات السعادات أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال وخلق السموات والارض بالحق ولولم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل لانه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ثم لاينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالما ولوكان ظالما لبطل انه خلق السموات

اوليعدل ولتجزى (وهم) اى النفوس المدلول عليها بكل نفس (لايظلمون) بنقص ثواب اوبزيادة عقاب وتسمية ذلك ظلما مع انه ليس كذلك على ماعرف من قاعدة اهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر بتنزيله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى (افرأيت من اتخذ الهه هواه) تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى الى مطاوعة الهوى فكأنه عبده اى انظرت فرأيته فان ذلك مما يقضى منه العجب وقرئ آلهته هواه لان احدهم كان يستحسن حجرا فيعبده فاذا رأى احسن منه رفضه اليه فكأنه اتخذ آلهة شتى (واضله الله) وخذله (على علم) اى عالما بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها (وختم على سمعه وقلبه) بحيث لايتأثر بالمواعظ ولايتفكر فى الآيات والنذر (وجعل على بصره غشاوة) مانعة عن الاستبصار والاعتبار وقرئ بفتح الغين وضمها وقرئ غشوة (فمن يهديه من بعد الله) اى من بعد اضلاله تعالى اياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه فى الغى (افلاتذكرون) اى ألاتلاحظون فلاتذكرون وقرئ تتذكرون على الاصل (وقالوا) بيان لاحكام ضلالهم المحكى اى قالوا من غاية غيهم وضلالهم (ماهى) اى ما الحياة (الاحياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيي) اى يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وقيل نكون نطفا وماقبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك اونموت بانفسنا ونحيا ببقاء اولادنا اويموت بعضنا ويحيا بعضنا وقد جوز ان يريدوا به التناسخ فانه عقيدة اكثر عبدة الاوثان وقرئ نحيا (ومايهلكنا الا الدهر) الامرور الزمان وهو فى الاصل مدة بقاء العالم من دهره

اى غلبه وقرئ الادهر يمر وكانوا يزعمون ان المؤثر فى هلاك الانفس هو مرور الايام والليالى وينكرون ملك الموت وقبضه للارواح بامر الله تعالى ويضيفون الحوادث الى الدهر والزمان ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا (٤٨٨) الدهر فان الله هو الدهر اى فان الله هو الآتى بالحوادث

والارض بالحق وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور فى اول سورة يونس قال القاضى هذه الآية تدل على ان فى مقدور الله مالو حصل لكان ظلما وذلك لايصح الا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شئ اراده لم يكن ظلما وعلى قول من يقول انه لايوصف بالقدرة على الظلم واجاب الاصحاب عنه بان المراد فعل مالو فعله غيره لكان ظلما كما ان المراد من الابتلاء والاختبار فعل مالو فعله غيره لكان ابتلاء واختبارا وقوله تعالى ولتجزى فيه وجهان (الاول) انه معطوف على قوله بالحق فيكون التقدير وخلق الله السموات والارض لاجل اظهار الحق ولتجزى كل نفس (الثانى) ان يكون العطف على محذوف والتقدير خلق الله السموات والارض بالحق ليدل بها على قدرته ولتجزى كل نفس والمعنى ان المقصود من خلق هذا العالم اظهار العدل والرحمة وذلك لايتم الا اذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت فى الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين ثم عاد تعالى الى شرح احوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال أفرأيت من اتخذ الهه هواه يعنى تركوا متابعة الهدى واقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل الهه وقرئ آلهته هواه لانه كلما مال طبعه الى شئ اتبعه وذهب خلفه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدا منها ثم قال تعالى واضله الله على علم يعنى على علم بان جوهر روحه لايقبل الصلاح ونظيره فى جانب التعظيم قوله تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالاته وتحقيق الكلام فيه ان جواهر الارواح البشرية مختلفة فمنها مشرقة نورانية علوية الهية ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل الى الشهوات الجسمانية فهو تعالى يقابل كلا منهم بحسب مايليق بجوهره وماهيته وهو المراد من قوله واضله الله على علم فى حق المردودين وبقوله الله اعلم حيث يجعل رسالاته فى حق المقبولين ثم قال وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فقوله واضله الله على علم هو المذكور فى قوله ان الذين كفروا الى قوله لايؤمنون وقوله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة هو المراد من قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة وكل ذلك قدم تفسيره فى سورة البقرة بالاستقصاء والتفاوت بين الآيتين انه فى هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب وفى سورة البقرة قدم القلب على السمع والفرق ان الانسان قد يسمع كلاما فيقع فى قلبه منه اثر مثل ان جماعة من الكفار كانوا يلقون الى الناس ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شاعر وكاهن وانه يطلب الملك والرياسة فالسامعون اذا سمعوا ذلك ابغضوه ونفرت قلوبهم عنه واما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون اليه ولو سمعوا كلامه مافهموا منه شيئا نافعا ففى الصورة الاولى كان الاثر يصعد من البدن الى جوهر النفس وفى الصورة الثانية كان الاثر ينزل من جوهر النفس الى قرار البدن فلما اختلف القسمان لاجرم ارشد الله تعالى الى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال فمن يهديه من بعد الله اى من بعد ان اضله الله افلا تذكرون ايها (الناس)

لا الدهر (ومالهم بذلك) اى بما ذكر من اقتصار الحياة على مافى الدنيا واستناد الحياة والموت الى الدهر (من علم) مامستند الى عقل او نقل (ان هم الا يظنون) ماهم الاقوم قصارى امرهم الظن والتقليد من غير ان يكون لهم شئ يصح ان يتمسك به فى الجملة هذا معتقدهم الفاسد فى انفسهم (واذا تتلى عليهم آياتنا) الناطقة بالحق الذى من جملته البعث (بينات) واضحات الدلالة على مانطقت به او مبينات له (ما كان حجتهم) بالنصب على انه خبر كان اى ما كان متمسكا لهم شئ من الاشياء (الا ان قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) فى انا نبعث بعد الموت اى الا هذا القول الباطل الذى يستحيل ان يكون من قبيل الحجة وتسميته حجة امالسوقهم اياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم او لانه من قبيل * تحية بينهم ضرب وجيع * وقرئ برفع حجتهم على انها اسم كان فالمعنى ما كان حجتهم شيئا من الاشياء الا هذا القول الباطل (قل الله يحييكم) ابتداء (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم لا كما تزعمون من انكم تحيون وتموتون بحكم الدهر (ثم يجمعكم) بعد الموت (الى يوم القيامة) للجزاء (لاريب فيه) اى فى جمعكم فان من قدر على البدء قدر على الاعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لامحالة والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتما والاتيان بآبائهم حيث كان مزاحا للحكمة التشريعية امتنع ايقاعه (ولكن اكثر الناس لايعلمون) استدراك من قوله تعالى لاريب فيه وهو اما من تمام الكلام المأمور به او كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على ان ارتيابهم لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر لالان فيه شائبة ريب ما

لناس قال الواحدى وليس يبق للقدرية مع هذه الآية عذر ولاحيلة لان الله تعالى صرح بمنعه اياهم عن الهدى حين اخبر انه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه و بصره وأقول هذه المناظرة قدسبقت بالاستقصاء فى اول سورة البقرة واعلم انه تعالى حكى عنهم بعدذلك شبهتهم فى انكار القيامة وفى انكار الاله القادر اما شبهتهم فى انكار القيامة فهى قوله تعالى وقالوا ماهى الاحياتنا الدنيانموت ونحيى فان قالوا الحياة مقدمة على الموت فى الدنيا فنكروا القيامة كان يجب ان يقولوا نحيى ونموت فاالسبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة قلنا فيه وجوه (الاول) المراد بقوله نموت حال كونهم نطفا فى اصلاب الآباء وأرحام الامهات وبقوله نحيى ماحصل بعدذلك فى الدنيا (الثانى) نموت نحن ونحيى بسبب بقاء اولادنا (الثالث) يموت بعض ويحيى بعض (الرابع) وهو الذى خطر بالبال عندكتبة هذا الموضع انه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ماهى الاحياتنا الدنيا ثم قال بعده نموت ونحيى يعنى تلك الحياة منها مايطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ومنها مالم يطرأ الموت عليها وذلك فى حق الاحياء الذين لم يموتوا بعدواما شبهتهم فى انكار الاله الفاعل المختار فهو قولهم ومايهلكنا الا الدهر يعنى تولد الاشخاص انما كان بسبب حركات الافلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع واذاوقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة واذاوقعت على وجه آخر حصل الموت فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الافلاك ولاحاجة فى هذا الباب الى اثبات الفاعل المختار فهذه الطائفة جمعوا بين انكار الاله وبين انكار البعث والقيامة ثم قال تعالى ومالهم بذلك من علم ان هم الايظنون والمعنى ان قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات باسرها قائمة فالذى قالوه يحتمل وضده أيضا يحتمل وذلك هوان يكون القول بالبعث والقيامة حقاوان يكون القول وجود الاله الحكيم حقا فانهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولاقوية فى ان هذا الاحتمال الثانى باطل ولكنه خطر بالهم ذلك الاحتمال الاول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولابينة فثبت انه ليس لهم علم ولاجزم ولايقين فى صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب اليه من غير موجب وهذه الآية من اقوى الدلائل على ان القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد وان متابعة الظن والحسبان منكر عندالله تعالى ثم قال تعالى واذاتتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره (المسئلة الثانية) سمى قولهم حجة لوجوه (الاول) انه فى زعمهم حجة (الثانى) ان يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم البتة حجة كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع (الثالث) انهم ذكروها فى معرض الاحتجاج بها (المسئلة الثالثة) ان حجتهم على انكار البعث أن قالوا لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث واعلم ان هذه الشبهة ضعيفة جدا لانه ليس كل مالايحصل فى الحال وجب ان يكون ممتنع

(ولله ملك السموات والارض) بيان لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل اثر بيان تصرفه تعالى فى الناس بالاحياء والاماتة والبعث والجمع للمجازاة (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) العامل فى يوم يخسر ويومئذ بدل منه (وترى كل امة) من الامم المجموعة (جاثية) باركة على الركب مستوفزة وقرئ جاذية اى جالسة على اطراف الاصابع والجذو اشد استيفازا من الجثو وعن ابن عباس رضى الله عنهما جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثوة وهى الجماعة (كل امة تدعى الى كتابها) الى صحيفة اعمالها وقرئ كل بالنصب على انه بدل من الاول وتدعى صفة او حال اومفعول ثان (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) اى يقال لهم ذلك وقوله تعالى (هذا كتابنا) الخ من تمام مايقال حينئذ وحيث كان كتاب كل امة مكتوبا بأمر الله تعالى اضيف الى نون العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لامره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى (ينطق عليكم) اى يشهد عليكم (بالحق) من غير زيادة ولانقص خبر آخر او حال وبالحق حال من فاعل ينطق وقوله تعالى (انا كنا نستنسخ) الخ تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من

الحصول فان حصول كل واحد منا كان معدوما من الازل الى الوقت الذى حصلنا فيه ولو كان عدم الحصول فى وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك وذلك باطل بالاتفاق ثم قال تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة فان قيل هذا الكلام مذكور لاجل جواب من يقول ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر فهذا القائل كان منكرا لوجود الاله ولوجود يوم القيامة فكيف يجوز ابطال كلامه بقوله قل الله يحييكم ثم يميتكم وهل هذا الا اثبات للشئ بنفسه وهو باطل قلنا انه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والانسان على وجود الفاعل الحكيم فى القرآن مرارا واطوارا فقوله ههنا قل الله يحييكم اشارة الى تلك الدلائل التى بينها وأوضحها مرارا وليس المقصود من ذكر هذا الكلام اثبات الاله بقول الاله بل المقصود منه التنبيه على ماهو الدليل الحق القاطع فى نفس الامر ولما ثبت ان الاحياء من الله تعالى وثبت ان الاعادة مثل الاحياء الاول وثبت ان القادر على الشئ قادر على مثله ثبت انه تعالى قادر على الاعادة وثبت ان الاعادة ممكنة فى نفسها وثبت ان القادر الحكيم اخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة واما قوله تعالى ثم يجمعكم الى يوم القيامة لاريب فيه فهو اشارة الى ماتقدم ذكره فى الآية المتقدمة وهو ان كونه تعالى عادلا خالقا بالحق منزها عن الجور والظلم يقتضى صحة البعث والقيامة ثم قال تعالى ولكن اكثر الناس لايعلمون اى لكن أكثر الناس لايعلمون دلالة حدوث الانسان والحيوان والنبات على وجود الاله القادر الحكيم ولايعلمون ايضا انه تعالى لما كان قادرا على الايجاد ابتداء وجب ان يكون قادرا على الاعادة ثانيا ❁ قوله تعالى (ولله ملك السموات والارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل امة جاثية كل امة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) واعلم انه تعالى لما احتج بكونه قادرا على الاحياء فى المرة الاولى وعلى كونه قادرا على الاحياء فى المرة الثانية فى الآيات المتقدمة عمم الدليل فقال ولله ملك السموات والارض اى لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات او من الارض واذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات وثبت ان حصول الحياة فى هذه الذات ممكن اذ لو لم يكن ممكنا لما حصل فى المرة الاولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرا على الاحياء فى المرة الثانية ولما بين تعالى امكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين ذكر تفاصيل أحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وفيه ابحاث (البحث الاول) عامل النصب فى يوم تقوم يخسر ويومئذ بدل من يوم

غير اخلال بشئ منها اى انا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة (ماكنتم تعملون) فى الدنيا من الاعمال حسنة كانت او سيئة وقوله تعالى (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) اى فى جنة تفصيل لما يفعل بالامم بعد بيان ماخوطبوا به من الكلام المنطوى على الوعد والوعيد (ذلك) اى الذى ذكر من الادخال فى رحمته تعالى (هو الفوز المبين) الظاهر كونه فوزا لافوز وراءه (واما الذين كفروا افلم تكن آياتى تتلى عليكم) اى فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع الم يكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه ثقة بدلالة القرينة عليه (فاستكبرتم) عن الايمان بها (وكنتم قوما مجرمين) اى قوما عادتهم الاجرام (واذا قيل ان وعد الله) اى ماوعده من الامور الآتية او وعده بذلك (حق) اى واقع لامحالة او مطابق للواقع (والساعة) التى هى اشهر ماوعده (لاريب فيها) اى فى وقوعها وقرئ والساعة بالنصب عطفا على اسم ان وقراءة الرفع للعطف على محل ان واسمها (قلتم) لغاية عتوكم (ماندرى ماالساعة) اى اى شئ هى استغرابا لها (ان نظن الا ظنا) اى مانفعل الا ظنا وقدم تحقيقه فى

تقوم (البحث الثانى) قدذكرنا فى مواضع من هذا الكتاب ان الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجرى مجرى تصرف التاجر فى رأس المال لطلب الربح والكفار قداتعبوا انفسهم فى هذه التصرفات وماوجدوا منها الاالحرمان والخذلان فكان ذلك فى الحقيقة نهاية الخسران (وثانيها) قوله تعالى وترى كل امة جاثية قال الليث الجثو الجلوس على الركب كما يجثى بين يدى الحاكم قال الزجاج ومثله جذا يجذو قال صاحب الكشاف وقرئ جاذية قال اهل اللغة والجذو أشد استيفازا من الجثو لان الجاذى هو الذى يجلس على اطراف اصابعه وعن ابن عباس جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها ثم قال تعالى كل امة تدعى الى كتابها على الابتداء وكل امة على الابدال من كل امة وقوله الى كتابها اى الى صحائف اعمالها فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه والظاهر انه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك فأما الذين آمنوا ثم قال تعالى واما الذين كفروا فان قيل الجثو على الركبة انما يليق بالخائف والمؤمنون لاخوف عليهم يوم القيامة قلنا ان المحق الآمن قديشارك المبطل فى مثل هذه الحالة الى ان يظهر كونه محقا ثم قال تعالى اليوم تجزون والتقدير يقال لهم اليوم تجزون فان قيل كيف اضيف الكتاب اليهم والى الله تعالى قلنا لامنافاة بين الامرين لانه كتابهم بمعنى انه الكتاب المشتمل على اعمالهم وكتاب الله بمعنى انه هو الذى امر الملائكة بكتبه ينطق عليكم اى يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولانقصان انا كنا نستنسخ الملائكة ما كنتم تعملون اى نستكتبهم اعمالكم ثم بين احوال المطيعين فقال فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر بعد وصفهم بالايمان كونهم عاملين للصالحات فوجب ان يكون عمل الصالحات مغايرا للايمان زائدا عليه (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة علق الدخول فى رحمة الله على كونه آتيا بالايمان والاعمال الصالحة والمعلق على مجموع امرين يكون عدما عند عدم احدهما فعند عدم الاعمال الصالحة وجب ان لايحصل الفوز بالجنة (وجوابنا) ان تعليق الحكم على الوصف لايدل على عدم الحكم عند عدم الوصف (المسئلة الثالثة) سمى الثواب رحمة والرحمة انما تصح تسميتها بهذا الاسم اذا لم تكن واجبة فوجب ان لايكون الثواب واجبا على الله تعالى ثم قال تعالى واما الذين كفروا أفلم تكون آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسما ثالثا وهذا يدل على ان مذهب المعتزلة فى اثبات المنزلة بين المنزلتين باطل (المسئلة الثانية) انه تعالى علل استحقاق العقوبة بان آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها وهذا يدل على ان استحقاق العقوبة لايحصل الابعد مجئ الشرع وذلك يدل على ان الواجبات لاتجب الابالشرع خلافا لما يقوله المعتزلة من ان بعض الواجبات قد يجب

قوله تعالى ان اتبع الاما يوحى الى وقيل مانعتقد الاظنا اى لاعلما وقيل مانحن الانظن ظنا وقيل مانظن الاظنا ضعيفا ويرده قوله تعالى (ومانحن بمستيقنين) اى لامكانه فان مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه ولعل هؤلاء غير القائلين ماهى الاحياتنا الدنيا (وبدالهم) اى ظهر لهم حينئذ (سيآت ماعملوا) على ماهى عليه من الصورة المنكرة الهائلة وعاينوا وخامة عاقبتها او جزاءها فان جزاء السيئة سيئة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) من الجزاء والعقاب (وقيل اليوم ننساكم) نتركم فى العذاب ترك المنسى (كما نسيتم) فى الدنيا (لقاء يومكم هذا) اى كما تركتم عدته ولم تبالوا به واضافة اللقاء الى اليوم اضافة المصدر الى ظرفه (ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) اى مالاحد منكم ناصر واحد يخلصكم منها (ذلكم) العذاب (بأنكم) بسبب انكم (اتخذتم آيات الله هزوا) مهزوأ بها ولم ترفعوا لها رأسا (وغرتكم الحياة الدنيا) فحسبتم ان لاحياة سواها (فاليوم لايخرجون منها) اى من النار وقرئ يخرجون من الخروج والالتفات الى الغيبة للايذان باسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم اوبنقلهم من

بالعقل (المسئلة الثالثة) جواب امامحذوف والتقدير واما الذين كفروا فيقال لهم افلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قوما مجرمين فان قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرما فى معرض الطعن فيه والذم له قلنا معناه انهم مع كونهم كفارا ما كانوا عدولا فى اديان انفسهم بل كانوا فساقا فى ذلك الدين والله اعلم ❊ قوله تعالى (واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لاريب فيها قلتم ماندرى ماالساعة ان نظن الاظنا ومانحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لايخرجون منها ولاهم يستعتبون فلله الحمد رب السموات ورب الارض رب العالمين وله الكبرياء فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ والساعة رفعا ونصبا قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعلى معنى وقيل الساعة لاريب فيها قال الاخفش الرفع اجود فى المعنى واكثر فى كلام العرب اذا جاء بعد خبر ان لانه كلام مستقل بنفسه بعد مجئ الكلام الاول بتمامه (المسئلة الثانية) حكى الله تعالى عن الكفار انهم اذا قيل ان وعد الله بالثواب والعقاب حق وان الساعة آتية لاريب فيها قالوا ماندرى ما الساعة ان نظن الاظنا ومانحن بمستيقنين اقول الاغلب على الظن ان القوم كانوا فى هذه المسئلة على قولين منهم من كان قاطعا بنفى البعث والقيامة وهم الذين ذكرهم الله فى الآية المتقدمة بقوله وقالوا ماهى الاحياتنا الدنيا ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه لانهم لكثرة ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين ارادهم الله بهذه الآية والذى يدل عليه انه تعالى حكى مذهب اولئك القاطعين ثم اتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الاول ثم قال تعالى وبدا لهم اى فى الآخرة سيآت ماعملوا وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك اول خسرانهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن وهذا كالدليل على ان هذه الفرقة لما قالوا ان نظن الاظنا انما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية وعلى هذا الوجه فهذا الفريق اشر من الفريق الاول لان الاولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهذا الفريق ضموا الى الاصرار على الانكار الاستهزاء ثم قال تعالى وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وفى تفسير هذا النسيان وجهان (الاول) نترككم فى العذاب كما تركتم الطاعة التى هى الزاد ليوم المعاد (الثانى) نجعلكم بمنزلة الشئ المنسى غير المبالى به كما لم تبالوا انتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا اليه بل جعلتموه كالشئ الذى يطرح نسيا منسيا فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة اشياء (فأولها) قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية (وثانيها) انه يصير مأواهم النار (وثالثها) ان لايحصل لهم احد من الاعوان

(والانصار)

مقام الخطاب الى غيابة النار (ولاهم يستعتبون) اى يطلب منهم ان يعتبوا ربهم اى يرضوه لفوات اوانه (فلله الحمد) خاصة (رب السموات ورب الارض رب العالمين) فلا يستحق الحمد أحد سواه وتكرير الرب للتأكيد والايذان بأن ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الاصالة وقرئ برفع الثلاثة على المدح باضمار هو (وله الكبرياء فى السموات والارض) لظهور آثارها واحكامها فيهما واظهارهما فى موقع الاضمار لتفخيم شأن الكبرياء (وهو العزيز) الذى لايغلب (الحكيم فى كل ماقضى وقدر فاحمدوه وكبروه وأطيعوه ٭ عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ حم الجاثية ستر الله تعالى عورته وسكن روعته يوم الحساب

٭ (سورة الاحقاف مكية وآيها (اربع او خمس وثلاثون آية) ٭

٭ (بسم الله الرحمن الرحيم) ٭

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الكلام فيه كالذى مر فى مطلع السورة السابقة (ماخلقنا السموات والارض) بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما (ومابينهما) من المخلوقات (الابالحق) استثناء مفرغ من اعم المفاعيل اى الاخلقا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية

والانصار ثم بين تعالى انه يقال لهم انكم انما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد لاجل انكم أتيتم بثلاثة انواع من الاعمال القبيحة (فأولها) الاصرار على انكار الدين الحق (وثانيها) الاستهزاء به والسخرية منه وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى ذلكم بانكم اتخذتم آيات الله هزوا (وثالثها) الاستغراق في حب الدنيا والاعراض بالكلية عن الآخرة وهو المراد من قوله تعالى وغرتكم الحياة الدنيا ثم قال تعالى فاليوم لايخرجون منها قرأ حمزة والكسائى يخرجون بفتح الياء والباقون بضمها ولاهم يستعتبون اى ولايطلب منهم ان يعتبوا ربهم اى يرضوه ولما تم الكلام فى هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال فلله الحمد رب السموات ورب الارض رب العالمين اى فاحمدوا الله الذى هو خالق السموات والارض بل خالق كل العالمين من الاجسام والارواح والذوات والصفات فان هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل احد من المخلوقين والمربوبين ثم قال تعالى وله الكبرياء فى السموات والارض وهذا مشعر بامرين (احدهما) ان التكبير لابد وان يكون بعد التحميد والاشارة الى ان الحامدين اذا حمدوه وجب أن يعرفوا انه أعلى وأكبر من ان يكون الحمد الذى ذكروه لائقا بانعامه بل هو اكبر من حمد الحامدين واياديه اعلى واجل من شكر الشاكرين (والثانى) ان هذا الكبرياء له لالغيره لان واجب الوجود لذاته ليس الاهو ثم قال تعالى وهو العزيز الحكيم يعنى انه لكمال قدرته يقدر على خلق اى شئ أراد ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم وقوله وهو العزيز الحكيم يفيد الحصر فهذا يفيد ان الكامل فى القدرة وفى الحكمة وفى الرحمة ليس الاهو وذلك يدل على انه لااله للخلق الاهو ولامحسن ولامتفضل الاهو قال مولانا رضى الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله حمدا دائما طيبا مباركا مخلدا مؤبدا كما يليق بعلو شانه وباهر برهانه وعظيم احسانه والصلاة على الارواح الطاهرة المقدسة من ساكنى اعالى السموات وتخوم الارضين من الملائكة والانبياء والاولياء والموحدين خصوصا على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه اجمعين

(سورة الاحقاف وهى ثلاثون وخمس آيات مكية وقيل اربع وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق واجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين) اعلم ان نظم اول هذه السورة كنظم اول سورة

اومن اعم الاحوال من فاعل خلقنا او من مفعوله اى ماخلقناها فى حال من الاحوال الاحال ملابستنا بالحق اوحال ملابستها به وفيه من الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفات كماله وابتناء افعاله على حكم بالغة وانتهائها الى غايات جليلة مالايخفى (واجل مسمى) عطف على الحق بتقدير مضاف اى وبتقدير اجل مسمى ينتهى اليه امر الكل وهو يوم القيامة يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وقيل هو آخر مدة البقاء المقدر لكل واحد ويأباه قوله تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) فان ماأنذروه يوم القيامة وما فيه من الطامة التامة والاهوال العامة لاآخر اعمارهم وقد جوز كون مامصدرية والجملة حالية اى ماخلقنا الخلق الابالحق وتقدير الاجل الذى يجازون عنده والحال انهم غير مؤمنين به معرضون عنه وعن الاستعداد له (قل) توبيخا لهم وتبكيتا (أرأيتم) اخبرونى وقرئ ارأيتكم (ماتدعون) ماتعبدون (من دون الله) من الاصنام (اورنى) تأكيد لارأيتم (ماذا خلقوا من الارض) بيان للابهام فى ماذا (أم لهم شرك) اى شركة مع الله تعالى (فى السموات) اى فى خلقها اوملكها وتدبيرها

الجاثية وقد ذكرنا مافيه واما قوله ماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق فهذا يدل على اثبات الاله بهذا العالم ويدل على ان ذلك الاله يجب أن يكون عادلا رحيما بعباده ناظرا لهم محسنا اليهم ويدل على ان القيامة حق (اما المطلوب الاول) وهو اثبات الاله بهذا العالم وذلك لان الخلق عبارة عن التقدير وآثار التقدير ظاهرة فى السموات والارض من الوجوه العشرة المذكورة فى سورة الانعام وقد بينا ان جملة تلك الوجوه تدل على وجود الاله القادر المختار (واما المطلوب الثانى) وهو اثبات ان اله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى الا بالحق لان قوله الا بالحق معناه الا لاجل الفضل والرحمة والاحسان وان الاله يجب أن يكون فضله زائدا وان يكون احسانه راجحا وان يكون وصول المنافع منه الى المحتاجين اكثر من وصول المضار اليهم قال الجبائى هذا يدل على ان كل مابين السموات والارض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من افعال عباده والا لزم أن يكون خالقا لكل باطل وذلك ينافى قوله ماخلقناهما الا بالحق اجاب اصحابنا وقالوا خلق الباطل غير والخلق بالباطل غير فنحن نقول انه هو الذى خلق الباطل الا انه خلق ذلك الباطل بالحق لان ذلك تصرف من الله تعالى فى ملك نفسه وتصرف المالك فى ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل قالوا والذى يقرر ماذكرناه ان قوله تعالى ماخلقنا السموت والارض ومابينهما يدل على كونه تعالى خالقا لكل أعمال العباد لان اعمال العباد من جملة مابين السموات والارض فوجب كونها مخلوقة لله تعالى ووقوع التعارض فى الآية الواحدة محال فلم يبق الا أن يكون المراد ماذكرناه فان قالوا افعال العباد اعراض والاعراض لاتوصف بأنها حاصلة بين السموات والارض فنقول فعلى هذا التقدير سقط ماذكرتموه من الاستدلال والله اعلم (واما المطلوب الثالث) فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة وتقريره انه لولم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفية العقاب على الكافرين وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والارض ومابينهما الا بالحق واما قوله تعالى واجل مسمى فالمراد انه ماخلق هذه الاشياء الا بالحق والا لاجل مسمى وهذا يدل على ان اله العالم ماخلق هذا العالم ليبقى مخلدا سرمدا بل انما خلقه ليكون دارا للعمل ثم انه سبحانه يفنيه ثم يعيده فيقع الجزاء فى الدار الآخرة فعلى هذا الاجل المسمى هو الوقت الذى عينه الله تعالى لافناء الدنيا ثم قال تعالى والذين كفروا عما أنذروا معرضون والمراد ان مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع ارسال الرسل وانزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والاعذار والانذار بقى هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين اليها وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال وعلى ان الاعراض عن الدليل مذموم فى الدين والدنيا واعلم انه تعالى لما قرر هذا الاصل الدال على اثبات الاله وعلى اثبات كونه عادلا رحيما وعلى اثبات البعث والقيامة بنى عليه

(التفاريع)

حتى يتوهم ان يكون لهم شائبة استحقاق للمعبودية فان مالامدخل له فى وجود شئ من الاشياء بوجه من الوجوه فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالمرة وان كان من الاحياء العقلاء فما ظنكم بالجماد وقوله تعالى (أئتونى بكتاب) الخ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الاتيان بسند نقلى بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الاتيان بسند عقلى اى أئتونى بكتاب الهى كائن (من قبل هذا) الكتاب اى القرآن الناطق بالتوحيد وابطال الشرك دال على صحة دينكم (او اثارة من علم) او بقية من علم بقيت عليكم من علوم الاولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة (ان كنتم صادقين) فى دعواكم فانها لاتكاد تصح مالم يقم عليها برهان عقلى او سلطان نقلى وحيث لم يقم عليها شئ منهما وقد قامت على خلافها ادلة العقل والنقل تبين بطلانها وقرئ اثارة بكسر الهمزة اى مناظرة فانها تثير المعانى وثرة اى شئ اوثر تم به وخصصتم من علم مطوى عن غيركم واثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء اما المكسورة فبمعنى الاثرة واما المفتوحة فهى المرة من اثر الحديث اى رواه واما المضمومة فاسم مايؤثر كالخطبة التى هى اسم مايخطب به (ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له) انكار ونفى لان يكون احد

التفاريع (فالفرع الاول) الرد على عبدة الاصنام فقال قل أرأيتم ماتدعون من دون الله وهى الاصنام اورونى اى اخبرونى ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السموات والمراد ان هذه الاصنام هل يعقل ان يضاف اليها خلق جزء من اجزاء هذا العالم فان لم يصح ذلك فهل يجوز ان يقال انها اعانت اله العالم فى خلق جزء من اجزاء هذا العالم ولما كان صريح العقل حاكما بأنه لايجوز اسناد خلق جزء من اجزاء هذا العالم اليها وان كان ذلك الجزء اقل الاجزاء ولايجوز أيضا اسناد الاعانة اليها فى اقل الافعال وأذلها فحينئذ صح ان الخالق الحقيق لهذا العالم هو الله سبحانه وان المنعم الحقيق بجميع اقسام النعم هو الله سبحانه والعبادة عبارة عن الاتيان بأكمل وجوه التعظيم وذلك لايليق الا بمن صدر عنه اكمل وجوه الانعام فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيق هو الله سبحانه وتعالى وجب ان لايجوز الاتيان بالعبادة والعبودية الا له ولاجله بقى ان يقال انا لانعبدها لانها تستحق هذه العبادة بل انما نعبدها لاجل ان الاله الخالق المنعم امرنا بعبادتها فعند هذا ذكر الله تعالى مايجرى مجرى الجواب عن هذا السؤال فقال ائتونى بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم وتقرير هذا الجواب ان ورود هذا الامر لاسبيل الى معرفته الا بالوحى والرسالة فنقول هذا الوحى الدال على الامر بعبادة هذه الاوثان اما ان يكون على محمد او فى سائر الكتب الالهية المنزلة على سائر الانبياء وان لم يوجد ذلك فى الكتب الالهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل اما اثبات ذلك بالوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم فهو معلوم البطلان واما اثباته بسبب اشتمال الكتب الالهية المنزلة على الانبياء المتقدمين عليه وهو ايضا باطل لانه علم بالتواتر الضرورى اطباق جميع الكتب الالهية على المنع من عبادة الاصنام وهذا هو المراد من قوله تعالى ائتونى بكتاب من قبل هذا واما اثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الانبياء سوى ماجاء فى الكتب فهذا ايضا باطل لان العلم الضرورى حاصل بأن احدا من الانبياء مادعا الى عبادة الاصنام وهذا هو المراد من قوله او اثارة من علم ولما بطل الكل ثبت ان الاشتغال بعبادة الاصنام عمل باطل وقول فاسد وبقى فى قوله تعالى او أثارة من علم نوعان من البحث (النوع الاول) البحث اللغوى قال ابو عبيد والفراء والزجاج أثارة من علم اى بقية وقال المبرد اثارة مايؤثر من علم اى بقية وقال المبرد أثارة تؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ومن هذا المعنى سميت الاخبار بالآثار يقال جاء فى الاثر كذا وكذا قال الواحدى وكلام اهل اللغة فى تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة اقوال (الاول) البقية واشتقاقها من اثرت الشئ اثيره اثارة كأنها بقية تستخرج فتثار (والثانى) من الاثر الذى هو الرواية (والثالث) هو الاثر بمعنى العلامة قال صاحب الكشاف وقرئ اثرة اى من شئ اوثرتم به وخصصتم من علم لا احاطة به لغيركم وقرئ أثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الاثر واما الأثرة فالمرة من مصدر اثر الحديث اذا رواه واما الاثرة بالضم

يساوى المشركين فى الضلال وان كان سبك التركيب لنفى الاضل منهم من غير تعرض لنفى المساوى كما مر غير مرة اى هم اضل من كل ضال حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير الى عبادة مصنوعهم العارى عن السمع والقدرة والاستجابة (الى يوم القيامة) غاية لنفى الاستجابة (وهم عن دعائهم) الضمير الاول لمفعول يدعو والثانى لفاعله والجمع فيهما باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها (غافلون) لكونهم جمادات وضمائر العقلاء لاجرائهم اياها مجرى العقلاء ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها كقوله تعالى ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم الآية (واذا حشر الناس) عند قيام القيامة (كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) اى مكذبين بلسان الحال او المقال على ماروى انه تعالى يحيى الاصنام فتتبرأ عن عبادتهم وقد جوز ان يراد بهم كل من يعبد من دون الله من الملائكة والجن والانس وغيرهم ويبنى ارجاع الضمائر واسناد العداوة والكفر اليهم على التغليب ويراد بذلك تبرؤهم عنهم وعن عبادتهم وقيل ضمير كانوا للعبدة وذلك قولهم والله ربنا ما كنا مشركين (واذا تتلى عليهم

فاسم مايؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به وههنا قول آخر فى تفسير قوله تعالى او اثارة من علم وهو ماروى عن ابن عباس انه قال او اثارة من علم هو علم الخط الذى يخط فى الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كان نبى من الانبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه وعلى هذا الوجه فمعنى الآية ائتونى بعلم من قبل هذا الخط الذى تخطونه فى الرمل يدل على صحة مذهبكم فى عبادة الاصنام فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم والله تعالى اعلم ❊ قوله تعالى (ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له الى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ام يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم) اعلم انه تعالى بين فيما سبق ان القول بعبادة الاصنام قول باطل من حيث انها لاقدرة لها البتة على الخلق والفعل والايجاد والاعدام والنفع والضر فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب وهى انها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين ولاتعلم حاجات المحتاجين وبالجملة فالدليل الاول كان اشارة الى نفى العلم من كل الوجوه واذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل فقوله ومن اضل ممن يدعو من دون الله استفهام على سبيل الانكار والمعنى انه لاامرأ ابعد عن الحق واقرب الى الجهل ممن يدعو من دون الله الاصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهى اذا دعيت لاتسمع ولاتصح منها الاجابة لافى الحال ولابعد ذلك اليوم الى يوم القيامة وانما جعل ذلك غاية لان يوم القيامة قد قيل انه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حدا واذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الاصنام تعادى هؤلاء العابدين واختلفوا فيه فالاكثرون على انه تعالى يحيى هذه الاصنام يوم القيامة وهى تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة وعيسى فانهم فى يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فان قيل ما المراد بقوله تعالى وهم عن دعائهم غافلون وكيف يعقل وصف الاصنام وهى جمادات بالغفلة وايضا كيف جاز وصف الاصنام بما لايليق الا بالعقلاء وهى لفظة من وقوله هم غافلون قلنا انهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح ان يقال فيها انها بمنزلة الغافل الذى لايسمع ولايجيب وهذا هو الجواب ايضا عن قوله ان لفظة من ولفظة هم كيف يليق بها وايضا يجوز ان يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والاصنام الا انه غلب غير الاوثان على الاوثان واعلم انه تعالى لما تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الاضداد والانداد تكلم فى النبوة وبين ان محمدا صلى

(الله)

آياتنا بينات) واضحات او مبينات (قال الذين كفروا للحق) اى لاجله وفى شانه وهو عبارة عن عن الآيات المتلوة وضع موضع ضميرها تنصيصا على حقيتها ووجوب الايمان بها كما وضع الموصول موضع ضمير المتلو عليهم تسجيلا عليهم بكمال الكفر والضلالة (لما جاءهم) اى فى اول ماجاءهم من غير تدبر وتأمل (هذا سحر مبين) اى ظاهر كونه سحرا (ام يقولون افتراه) اضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة الى حكاية ماهو اشنع منها ومافى ام من الهمزة للانكار التوبيخى المتضمن للتعجيب اى بل أيقولون افترى القرآن (قل ان افتريته) على الفرض (فلا تملكون لى من الله شيئا) اذ لاريب فى انه تعالى يعاجلنى حينئذ بالعقوبة فكيف اجترئ على ان افترى عليه تعالى كذبا فأعرض نفسى للعقوبة التى لامناص عنها (هو اعلم بما تفيضون فيه) اى تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته وتسميته سحرا تارة وفرية اخرى (كفى به شهيدا بينى وبينكم) حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود وهو وعيد بجزاء افاضتهم وقوله تعالى (وهو الغفور الرحيم) وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن واشعار بحلم الله تعالى عنهم مع عظم جرائمهم

الله عليه وسلم كلما عرض عليهم نوعا من انواع المعجزات زعموا انه سحر فقال واذا تتلى عليهم الآيات البينة وعرضت عليهم المعجزات الظاهرة سموها بالسحر ولما بين انهم يسمون المعجزة بالسحر بين انهم متى سمعوا القرآن قالوا ان محمدا افتراه واختلقه من عند نفسه ومعنى الهمزة في ام للانكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ثم انه تعالى بين بطلان شبهتهم فقال ان افتريته على سبيل الفرض فان الله تعالى يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك في الافتراء وانتم لاتقدرون على دفعه عن معاجلتي بالعقوبة فكيف اقدم على هذه الفرية واعرض نفسي لعقابه يقال فلان لايملك نفسه اذا غضب ولايملك عنانه اذا صمم ومثله فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لااملك لكم من الله شيئا ثم قال تعالى هو اعلم بما تفيضون فيه اى تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحرا تارة وفرية اخرى كفى به شهيدا بيني وبينكم يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد لهم على اقامتهم في الطعن والشتم ثم قال وهو الغفور الرحيم بمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه * قوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى مايفعل بي ولا بكم ان اتبع الا مايوحى الي وما انا الا نذير مبين قل ارأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لايهدى القوم الظالمين وقال الذين كفروا للذين آمنوا لوكان خيرا ماسبقونا اليه واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم انهم طعنوا في كون القرآن معجزا بان قالوا انه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه الى انه كلام الله على سبيل الفرية حكى عنهم نوعا آخر من الشبهات وهو انهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات فأجاب الله تعالى عنه بان قال قل ما كنت بدعا من الرسل والبدع والبديع من كل شئ المبدأ والبدعة مااخترع مما لم يكن موجودا قبله بحكم السنة وفيه وجوه (الاول) ما كنت بدعا من الرسل اى ما كنت اولهم فلاينبغي أن تنكروا اخباري باني رسول الله اليكم ولاتنكروا دعائي لكم الى التوحيد ونهيي عن عبادة الاصنام فان كل الرسل انمابعثوا بهذا الطريق (الوجه الثاني) انهم طلبوا منه معجزات عظيمة واخبارا عن الغيوب فقال قل ما كنت بدعا من الرسل والمعنى ان الاتيان بهذه المعجزات القاهرة والاخبار عن هذه الغيوب ليس في وسع البشر وانا من جنس الرسل واحد منهم لم يقدر على ماتريدونه فكيف اقدر عليه (الوجه الثالث) انهم كانوا يعيبونه بأنه يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وبأنه فقير وبأن أتباعه فقراء فقال قل ما كنت بدعا من الرسل وكلهم

(قل ما كنت بدعا من الرسل) البدع بمعنى البديع كالحل بمعنى الحليل وهو الامثل له وقرئ بفتح الدال على انه صفة كقيم وزيم اوجع مقدر بمضاف اى ذابدع وقدجوز ذلك في القراءة الاولى ايضا على انه مصدر كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه عن المغيبات عنادا ومكابرة فأمر عليه السلام بأن يقول لهم ما كنت بديعا من الرسل قادرا على مالم يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ماتقترحونه واخبركم بكل ماتسألون عنه من الغيوب فان من قبلي من الرسل عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يأتون الا بما آتاهم الله تعالى من الآيات ولا يخبرونهم الا بما اوحى اليهم (وماأدرى مايفعل بي ولابكم) اى اى شئ يصيبنا فيمايستقبل من الزمان من افعاله تعالى وماذا يقدر لنا من قضاياه وعن الحسن رضي الله عنه ماادرى مايصير اليه امرى وامركم في الدنيا وعن ابن عباس رضي الله عنهما مايفعل بي ولابكم في الآخرة وقال هي منسوخة بقوله تعالى ليغفرلك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر وقيل يجوزان يكون المنفي هي الدراية المفصلة والاظهر الاوفق لما ذكر من سبب النزول ان ماعبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية دون ماسيقع في الآخرة فان العلم بذلك من وظائف النبوة وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل مايفعل بالجانبين هذا وقد روى عن

كانوا على هذه الصفة و بهذه المثابة فهذه الاشياء لاتقدح فى نبوتى كما لاتقدح فى نبوتهم ثم قال وما ادرى مايفعل بى ولا بكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير الآية وجهان (احدهما) ان يحمل ذلك على احوال الدنيا (والثانى) ان يحمل على احوال الآخرة (اما الاول) ففيه وجوه (الاول) لا ادرى مايصير اليه امرى وامركم ومن الغالب منا والمغلوب (والثانى) قال ابن عباس فى رواية الكلبى لما اشتد البلاء باصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة رأى فى المنام انه يهاجر الى ارض ذات نخل وشجر وماء فقصها على اصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا ان ذلك فرج مماهم فيه من اذى المشركين ثم انهم مكثوا برهة من الدهر لايرون اثر ذلك فقالوا يارسول الله مارأينا الذى قلت ومتى نهاجر الى الارض التى رأيتها فى المنام فسكت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله تعالى ما ادرى مايفعل بى ولا بكم وهو شئ رأيته فى المنام وانا لا اتبع الا ما اوحاه الله الى (والثالث) قال الضحاك لاادرى ماتؤمرون به ولا أومر به فى باب التكليف والشرائع والجهاد ولا فى الابتلاء والامتحان وانما انذركم بما اعلمنى الله به من احوال الآخرة فى الثواب والعقاب (والرابع) المراد انه يقول لاادرى مايفعل بى فى الدنيا أأموت ام اقتل كما قتل الانبياء قبلى ولاادرى مايفعل بكم ايها المكذبون اترمون بالحجارة من السماء ام يخسف بكم ام يفعل بكم مافعل بسائر الامم اما الذين حملوا هذه الآية على احوال الآخرة فروى عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبيا لايدرى مايفعل به وبنا فأنزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك الى قوله وكان ذلك عندالله فوزا عظيما فبين تعالى مايفعل به وبمن واتبعه ونسخت هذه الآية وارغم الله أنف المنافقين والمشركين واكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم لابد وان يعلم من نفسه كونه نبيا ومتى علم كونه نبيا علم انه لاتصدر عنه الكبائر وانه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى انه هل هو مغفور له أم لا (الثانى) لاشك أن الانبياء ارفع حالا من الاولياء فلما قال فى هذا ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون فكيف يعقل ان يبقى الرسول الذى هو رئيس الاتقياء وقدوة الانبياء والاولياء شاكا فى انه هل هو من المغفورين او من المعذبين (الثالث) انه تعالى قال الله اعلم حيث يجعل رسالته والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ومن هذا حاله كيف يليق به ان يبقى شاكا فى انه من المعذبين او من المغفورين فثبت أن هذا القول ضعيف (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ مايفعل بفتح الياء اى يفعل الله عز وجل فان قالوا مايفعل مثبت وغير منفى وكان وجه الكلام ان يقال مايفعل بى وبكم قلنا التقدير ماأدرى مايفعل بى وماأدرى مايفعل بكم ثم قال تعالى ان اتبع الا مايوحى الى يعنى انى لا اقول قولا واعمل عملا الا بمقتضى الوحى واحتج نفاة القياس بهذه

(الآية)

الكلبى ان اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له عليه السلام وقد ضجروا من اذية المشركين حتى متى نكون على هذا فقال ماادرى مايفعل بى ولا بكم أأترك بمكة ام أومر بالخروج الى ارض ذات نخيل وشجر قد وقعت لى ورأيتها يعنى فى منامه وجوز ان تكون ما موصولة والاستفهامية اقضى لحق مقام التبرؤ عن الدراية وتكرير لا لتذكير النفى المنسحب اليه وتأكيده وقرئ مايفعل على اسناد الفعل الى ضميره تعالى (ان اتبع الا مايوحى الى) اى ماافعل الا اتباع مايوحى الى على قصر افعاله عليه الصلاة والسلام اتباع الوحى لاقصر اتباعه على الوحى كما هو المتسارع الى الافهام وقد مر تحقيقه فى سورة الانعام وقرئ يوحى على البناء للفاعل وهو جواب عن اقتراحهم الاخبار عما لم يوح اليه عليه السلام من الغيوب وقيل عن استعجال المسلمين ان يتخلصوا عن اذية المشركين والاول هو الاوفق لقوله تعالى (وماأنا الا نذير) انذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى الى (مبين) بين الانذار بالمعجزات الباهرة (قل أرأيتم ان كان) اى مايوحى الى من القرآن (من عندالله) لاسحرا ولامفترى كما تزعمون وقوله تعالى (وكفرتم به) حال باضمار قد من الضمير فى الخبر وسطت بين اجزاء الشرط مسارعة الى التسجيل عليهم بالكفر او عطف على كان كما فى قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عندالله ثم كفرتم به لكن لا على ان نظمه فى

الآية فقالوا النبي صلى الله عليه وسلم ماقال قولا ولا عمل عملا الا بالنص الذي اوحاه الله اليه فوجب ان يكون حالنا كذلك (بيان الاول) قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى الى (بيان الثاني) قوله تعالى واتبعوه وقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن امره ثم قال تعالى وما انا الا نذير مبين كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالاخبار عن الغيوب فقال قل وما انا الا نذير مبين والقادر على تلك الاعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب ليس الا الله سبحانه ❊ ثم قال تعالى (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) جواب الشرط محذوف والتقدير ان يقال ان كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الخاسرين ثم حذف هذا الجواب ونظيره قولك ان احسنت اليك وأسأت الي واقبلت عليك واعرضت عني فقد ظلمتني فكذا ههنا التقدير اخبروني ان ثبت ان القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضا شهادة اعلم بني اسرائيل بكونه معجزا من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم الستم اضل الناس واظلمهم واعلم ان جواب الشرط قد يحذف في بعض الآيات وقد يذكر اما الحذف فكما في هذه الآية وكما في قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى واما المذكور فكما في قوله تعالى قل ارأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل وقوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء (المسئلة الثانية) اختلفوا في المراد بقوله تعالى وشهد شاهد من بني اسرائيل على قولين (الاول) وهو الذي قال به الاكثرون ان هذا الشاهد عبد الله بن سلام روى صاحب الكشاف انه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر الى وجهه فعلم انه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق انه هو النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر فقال له اني سائلك عن ثلاث ما يعلمهن الا نبي ما اول اشراط الساعة وما اول طعام يأكله اهل الجنة والولد ينزع الى ابيه او الى امه فقال صلى الله عليه وسلم اما اول اشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب واما اول طعام يأكله اهل الجنة فزيادة كبد الحوت واما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه وان سبق ماء المرأة نزع لها فقال اشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل ان تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اي رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا واعلمنا وابن اعلمنا فقال ارأيتم ان اسلم عبد الله فقالوا اعاذه الله من ذلك فخرج عليهم عبد الله فقال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت اخاف يا رسول الله فقال سعد بن ابي وقاص ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشي على الارض

صار الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبار حاله في نفسه بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم فان كفرهم به امر محقق عندهم ايضا وانما ترددهم في ان ذلك كفر بما من عند الله تعالى ام لا وكذا الحال في قوله تعالى (وشهد شاهد من بني اسرائيل) وما بعده من الفعلين فان الكل امور محققة عندهم وانما ترددهم في انها شهادة وايمان بما من عند الله تعالى واستكبار عنه اولا والمعنى اخبروني ان كان ذلك في الحقيقة من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيم الشان من بني اسرائيل الواقفين على شؤن الله تعالى واسرار الوحي بما أوتوا من التوراة (على مثله) اي مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة المطابقة لما في القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فانها عين ما فيه في الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى وانه لفي زبر الاولين وقوله تعالى ان هذا لفي الصحف الاولى والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات اخر او على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر وقيل المثل صلة والفاء في قوله تعالى (فآمن) للدلالة على انه سارع الى الايمان بالقرآن لما علم انه من جنس الوحي الناطق بالحق وهو عبد الله بن سلام لما سمع بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه فنظر الى وجهه الكريم فعلم انه ليس بوجه كذاب وتأمله فتحقق انه النبي المنتظر فقال له اني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي ما اول اشراط الساعة وما اول طعام يأكله اهل الجنة والولد ينزع الى ابيه

انه من اهل الجنة الا لعبدالله بن سلام وفيه نزل وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله واعلم ان الشعبي ومسروقا وجاعة آخرين انكروا ان يكون الشاهد المذكور فى هذه الآية هو عبدالله بن سلام قالوا لان اسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجاب الكلبي بأن السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها فى سورة كذا فهذه الآية نزلت بالمدينة وان الله تعالى امر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها فى هذه السورة المكية فى هذا الموضع المعين ولقائل ان يقول ان الحديث الذى رويتم عن عبدالله بن سلام مشكل وذلك لان ظاهر الحديث يوهم انه لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة واجاب النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الجوابات آمن عبدالله بن سلام لاجل ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الجوابات وهذا بعيد جدا لوجهين (الاول) ان الاخبار عن اول اشراط الساعة وعن اول طعام يأكله اهل الجنة اخبار عن وقوع شيء من الممكنات وما هذا سبيله فانه لا يعرف كون ذلك الخبر صدقا الا اذا عرف اولا كون المخبر صادقا فلو انا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقا لزم الدور وانه محال (الثانى) انا نعلم بالضرورة ان الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها الى حد الاعجاز البتة بل نقول الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ الى حد الاعجاز فامثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن ان يقال انها بلغت الى حد الاعجاز (والجواب) يحتمل انه جاء فى بعض كتب الانبياء المتقدمين ان رسول آخر الزمان يسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبدالله بن سلام عالما بهذا المعنى فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم واجاب بتلك الاجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولا حقا من عندالله وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا الى ان نقول العلم بهذه الجوابات معجز والله اعلم (القول الثانى) فى تفسير قوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل انه ليس المراد منه شخصا معينا بل المراد منه ان ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود فى التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها فتقدير الكلام لو ان رجلا منصفا عارفا بالتوراة أقر بذلك واعترف به ثم انه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وانكرتم الستم كنتم ظالمين لانفسكم ضالين عن الحق فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصا معينا اولم يكن كذلك لان المقصود الاصلى من هذا الكلام انه ثبت بالمعجزات القاهرة ان هذا الكتاب من عندالله وثبت ان التوراة مشتمل على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ومع هذين الامرين كيف يليق بالعاقل انكار نبوته (المسئلة الثالثة) قوله تعالى على مثله ذكروا فيه وجوها والاقرب ان نقول انه صلى الله عليه وسلم قال لهم ارايتم ان كان هذا القرآن من عندالله كما اقول وشهد شاهد من بنى اسرائيل

(على)

اوالى امه فقال عليه الصلاة والسلام اما اول اشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب واما اول طعام اهل الجنة فزيادة كبد حوت واما الولد فان سبق ماء الرجل نزعه وان سبق ماء المرأة نزعته فقال اشهد انك رسول الله حقا فقام ثم قال يارسول الله ان اليهود قوم بهت فان علموا باسلامى قبل ان تسألهم عنى بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي عليه الصلاة والسلام اى رجل عبدالله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا واعلمنا وابن اعلمنا قال ارأيتم ان اسلم عبدالله قالوا اعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبدالله فقال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه قال هذا ما كنت اخاف يارسول الله واحذر قال سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الارض انه من اهل الجنة الا لعبدالله بن سلام وفيه نزل وشهد شاهد الآية وقيل الشاهد موسى عليه السلام وشهادته بما فى التوراة من بعثة النبي عليهما الصلاة والسلام وبه قال الشعبي وقال مسروق والله ما نزلت فى عبدالله بن سلام فان آل حم نزلت بمكة وانما اسلم عبدالله بالمدينة واجاب الكلبي بان الآية مدنية وان كانت السورة مكية (واستكبرتم) عطف على شهد شاهد وجواب الشرط محذوف والمعنى اخبرونى ان كان من

على مثل ماقلت فآمن واستكبرتم ألستم كنتم ظالمين انفسكم ثم قال تعالى ان الله لايهدى القوم الظالمين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تهديد وهو قائم مقام الجواب المحذوف والتقدير قل أرأيتم ان كان من عندالله ثم كفرتم به فانكم لاتكونون مهتدين بل تكونون ضالين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على انه تعالى انما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذى صدر منهم اولا فان قوله تعالى ان الله لايهدى القوم الظالمين صريح فى انه تعالى لايهديهم لكونهم ظالمين انفسهم فوجب ان يعتقدوا فى جميع الآيات الواردة فى المنع من الايمان والهداية ان يكون الحال فيها كما ههنا والله اعلم ثم قال تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لوكان خيرا ماسبقونا اليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه شبهة اخرى للقوم فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى سبب نزوله وجوه (الاول) ان هذا كلام كفار مكة قالوا ان عامة من يتبع محمدا الفقراء والاراذل مثل عمار وصهيب وابن مسعود ولوكان هذا الدين خيرا ماسبقنا اليه هؤلاء (الثانى) قيل لما اسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر وغطفان وأسد واشجع لوكان هذا خيرا ماسبقنا اليه رعاء البهم (الثالث) قيل ان أمة لعمر اسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر ويقول لولا انى فترت لزدتك ضربا فكان كفار قريش يقولون لوكان مايدعو محمد اليه حقا ماسبقتنا اليه فلانة (الرابع) قيل كان اليهود يقولون هذا الكلام عند اسلام عبدالله بن سلام (المسئلة الثانية) اللام فى قوله تعالى للذين آمنوا ذكروا فيه وجهين (الاول) ان يكون المعنى وقال الذين كفروا للذين آمنوا على وجه الخطاب كما تقول قال زيد لعمرو ثم تترك الخطاب وتنتقل الى الغيبة كقوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (الثانى) قال صاحب الكشاف للذين آمنوا لاجلهم يعنى ان الكفار قالوا لاجل ايمان الذين آمنوا لوكان خيرا ماسبقونا اليه وعندى فيه وجه ثالث وهو ان الكفار لما سمعوا ان جماعة آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين وقالوا لهم لوكان هذا الدين خيرا لما سبقنا اليه اولئك الغائبون الذين اسلموا واعلم انه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام اجاب عنه بقوله واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم والمعنى انهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزا فلابد من عامل فى الظرف فى قوله واذلم يهتدوا به ومن متعلق لقوله فسيقولون وغير مستقيم ان يكون فسيقولون هو العامل فى الظرف لتدافع دلالتى المضى والاستقبال فاوجه هذا الكلام واجاب عنه بان العامل فى اذ محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير واذلم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا افك قديم ثم قال تعالى ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة كتاب موسى مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرا مقدما عليه وقوله اماما نصب على الحال كقولك فى الدار زيد قائما وقرئ ومن قبله كتاب موسى والتقدير وآتينا الذى قبله التوراة ومعنى اماما اى قدوة ورحمة يؤتم به فى دين الله وشرائعه كما يؤتم بالامام ورحمة لمن آمن به

عندالله تعالى وشهد على ذلك اعلم بنى اسرائيل فآمن به من غير تلعثم واستكبرتم عن الايمان به بعد هذه المرتبة من اضل منكم بقرينة قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عندالله ثم كفرتم به من اضل ممن هو فى شقاق بعيد وقوله تعالى (ان الله لايهدى قوم الظالمين) فان عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعا ووصفهم بالظلم للاشعار بعلة الحكم فان تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم (وقال الذين كفروا) حكاية لبعض آخر من اقاويلهم الباطلة فى حق القرآن العظيم والمؤمنين به اى قال كفار مكة (للذين آمنوا) اى لاجلهم (لوكان) اى ماجاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن والدين (خيرا ماسبقونا اليه) فان معالى الامور لاينالها ايدى الاراذل وهم سقاط عامتهم فقراء وموال ورعاة قالوه زعما منهم ان الرياسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية كما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وزل عنهم انها منوطة بكمالات نفسانية وملكات روحانية مبناها الاعراض عن زخارف الدنيا الدنية والاقبال على الآخرة بالكلية وان من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ومن حرمها فماله منها من خلاق وقيل قاله بنو عامر وغطفان واسد واشجع لما اسلم جهينة ومزينة واسلم وغفار وقيل قالته اليهود حين اسلم عبدالله بن سلام واصحابه ويأباه ان السورة مكية ولابد حينئذ من الالتجاء الى ادعاء ان الآية نزلت بالمدينة (واذلم يهتدوا به) ظرف لمحذوف يدل عليه ماقبله ويترتب عليه مابعده اى واذلم يهتدوا بالقرآن قالوا ماقالوا (فسيقولون) غير مكتفين بنفى خيريته (هذا افك قديم) كما قالوا أساطير الاولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذاك (ومن قبله) اى من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى (كتاب

وعمل بما فيه ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله ان القوم طعنوا فى صحة القرآن وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه هؤلاء الصعاليك وكأنه تعالى قال الذى يدل على صحة القرآن انكم لا تنازعون فى ان الله تعالى انزل التوراة على موسى عليه السلام وجعل هذا الكتاب اماما يقتدى به ثم ان التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فاذا سلمتم كون التوراة اماما يقتدى به فاقبلوا حكمه فى كون محمد صلى الله عليه وسلم حقا من الله ثم قال تعالى وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا اى وهذا القرآن مصدق لكتاب موسى فى ان محمدا رسول حق من عند الله وقوله تعالى لسانا عربيا نصب على الحال ثم قال لينذر الذين ظلموا قال ابن عباس مشركى مكة وفى قوله لتنذر قراءتان التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى لتنذر به وذكرى للمؤمنين والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الانذار الى الكتاب كما اسند الى الرسول فى قوله تعالى الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب الى قوله لينذر بأسا شديدا من لدنه ثم قال تعالى وبشرى للمحسنين قال الزجاج الاجود ان يكون قوله وبشرى فى موضع رفع والمعنى وهو بشرى للمحسنين قال ويجوز ان يكون فى موضع نصب على معنى لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين وحاصل الكلام ان المقصود من انزال هذا الكتاب انذار المعرضين وبشارة المطيعين * قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه واصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم فى اصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) اعلم انه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين واجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة فى سورة السجدة والفرق بين الموضعين ان فى سورة السجدة ذكر ان الملائكة ينزلون ويقولون ان لا تخافوا ولا تحزنوا وههنا رفع الواسطة من البين وذكر انه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما ان الملائكة يبلغون اليهم هذه البشارة وان الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة ايضا من غير واسطة واعلم ان هذه الآيات دالة على ان من آمن بالله وعمل صالحا فانهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن ولهذا قال اهل التحقيق انهم يوم القيامة آمنون من الاهوال وقال بعضهم خوف العقاب زائل عنهم اما خوف الجلال والهيبة فلا يزول البتة عن العبد الا ترى ان الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى يخافون ربهم من فوقهم وهذه المسئلة سبقت بالاستقصاء

موسى) قيل والجملة حالية او مستأنفة واياما كان فهو لرد قولهم (٥٠٢) هذا افك قديم وابطاله فان كونه مصدقا لكتاب موسى مقرر لحقيته قطعا (اماما ورحمة) حالان من كتاب موسى اى اماما يقتدى به فى دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالامام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه (وهذا) الذى يقولون فى حقه ما يقولون (كتاب) عظيم الشأن (مصدق) اى لكتاب موسى الذى هو امام ورحمة اولما بين يديه من جميع الكتب الالهية وقد قرئ كذلك (لسانا عربيا) حال من ضمير الكتاب فى مصدق او من نفسه لتخصصه بالصفة وعاملها معنى الاشارة وعلى الاول مصدق وقيل مفعول لمصدق اى يصدق ذا لسان عربى (لينذر الذين ظلموا) متعلق بمصدق وفيه ضمير الكتاب او الله او الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيد الاخير القراءة بتاء الخطاب (وبشرى للمحسنين) فى حيز النصب عطفا على محل لينذر وقيل فى محل الرفع على انه خبر مبتدأ مضمر اى وهو بشرى وقيل على انه عطف على مصدق (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) اى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم والاستقامة فى امور الدين التى هى منتهى العمل وثم للدلالة على تراخى رتبة العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد (فلا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات محبوب والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط والمراد بيان دوام نفى الحزن لا بيان نفى دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعا وقد مر بيانه مرارا (اولئك) الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين (اصحاب الجنة خالدين فيها) حال من المستكن فى اصحاب وقوله تعالى (جزاء) منصوب اما بعامل (فى

في آيات كثيرة منها قوله تعالى لايحزنهم الفزع الاكبر ثم قال تعالى اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مسائل (اولها) قوله تعالى اولئك اصحاب الجنة وهذا يفيد الحصر وهذا يدل على ان اصحاب الجنة ليسوا الا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وهذا يدل على ان صاحب الكبيرة قبل التوبة لايدخل الجنة (وثانيها) قوله تعالى جزاء بما كانوا يعملون وهذا يدل على فساد قول من يقول الثواب فضل لاجزاء (وثالثها) ان قوله تعالى بما كانوا يعملون يدل على اثبات العمل للعبد (ورابعها) ان هذا يدل على انه يجوز ان يحصل الاثر في حال المؤثر واي اثر كان موجودا قبل ذلك بدليل ان العمل المتقدم اوجب الثواب المتأخر (وخامسها) كون العبد مستحقا على الله تعالى واعظم انواع هذا النوع الاحسان الى الوالدين لاجرم اردفه بهذا المعنى فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت وفي سورة لقمان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بوالديه احسانا والباقون حسنا واعلم ان الاحسان خلاف الاساءة والحسن خلاف القبح فمن قرأ احسانا فحجته قوله تعالى في سورة بني اسرائيل وبالوالدين احسانا والمعنى امرناه بأن يوصل اليهما احسانا وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت ووصينا الانسان بوالديه حسنا ولم يختلفوا فيه والمراد ايضا انا امرناه بان يوصل اليهما فعلا حسنا الا انه سمى ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة كما يقال هذا الرجل علم وكرم وانتصب حسنا على المصدر لان معنى ووصينا الانسان بوالديه امرناه ان يحسن اليهما احسانا ثم قال تعالى حملته امه كرها ووضعته كرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي كرها بضم الكاف والباقون بفتحها قيل هما لغتان مثل الضعف والضعف والفقر والفقر ومن غير المصادر الدف والدف والشهد والشهد قال الواحدي الكره مصدر من كرهت الشيء أكرهه والكره الاسم كأنه الشيء المكروه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم فهذا بالضم وقال ان ترثوا النساء كرها فهذا في موضع الحال ولم يقرأ الثانية بغير الفتح فما كان مصدرا او في موضع الحال فالفتح فيه احسن وما كان اسما نحو ذهبت به على كره كان الضم فيه احسن (المسئلة الثانية) قال المفسرون حملته امه على مشقة ووضعته في مشقة وليس يريد ابتداء الحمل فان ذلك لايكون مشقة وقد قال تعالى فلما تغشاها حملت حملا خفيفا يريد ابتداء الحمل فان ذلك لايكون مشقة فالحمل نطفة وعلقة ومضغة فاذا اثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها يريد شدة الطلق (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان حق الام اعظم لانه تعالى قال اولا ووصينا الانسان بوالديه حسنا فذكرهما معا ثم خص الام بالذكر فقال حملته أمه كرها ووضعته كرها وذلك يدل على ان حقها اعظم وان وصول المشاق اليها بسبب الولد اكثر والاخبار كثيرة مذكورة في هذا الباب ثم قال تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا

مقدر اي يجزون جزاء او بمعنى ما تقدم فان قوله تعالى اولئك اصحاب الجنة في معنى جازيناهم (بما كانوا يعملون) من الحسنات العلية والعملية (ووصينا الانسان) بأن يحسن (بوالديه احسانا) وقرئ حسنا اي بأن يفعل بهما حسنا اي فعلا ذا حسن او كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حسنه وقرئ بضم السين ايضا وبفتحها اي بان يفعل بهما فعلا حسنا او ووصيناه ايصاء حسنا (حملته أمه كرها ووضعته كرها) اي ذات كره او حملا ذا كره وهو المشقة وقرئ بالفتح وهما لغتان كالفقر والفقر وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر (وحمله وفصاله) اي مدة حمله وفصاله وهو الفطام وقرئ وفصله والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى والمراد به الرضاع التام المنتهى به كما اراد بالامد المدة من قال

كل حي مستكمل مدة العمر ومود اذا انتهى امده

(ثلاثون شهرا) تمضي عليها بمعاناة المشاق ومقاساة الشدائد لاجله وهذا دليل على ان اقل مدة الحمل ستة اشهر لما انه اذا حط عنه للفصال حولان لقوله تعالى حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة يبقى للحمل ذلك قيل ولعل تعيين اقل مدة الحمل واكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط النسب والرضاع بهما (حتى اذا بلغ اشده) اي اكتهل واستحكم قوته وعقله (وبلغ اربعين سنة) قيل لم يبعث نبي قبل اربعين وقرئ حتى اذا استوى او بلغ اشده (قال رب اوزعني) اي الهمني واصله اولعني من اوزعته بكذا (ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي) اي نعمة الدين او ما يعمهما وغيرها (وان اعمل صالحا ترضاه) التنكير للتفخيم والتكثير (واصلح لي في ذريتي) اي واجعل الصلاح ساريا في ذريتي راسخا فيهم كما في

وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا من باب حذف المضاف والتقدير ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا والفصال الفطام وهو فصله عن اللبن فان قيل المراد بيان مدة الرضاعة لا الفطام فكيف عبر عنه بالفصال قلنا لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه لانه ينتهى ويتم به سمى فصالا (المسئلة الثانية) دلالت الآية على ان اقل مدة الحمل ستة اشهر لانه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا قال والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين فاذا اسقطت الحولين الكاملين وهى اربعة وعشرون شهرا من الثلاثين بقى اقل مدة الحمل ستة اشهر روى عن عمر ان امرأة رفعت اليه وكانت قد ولدت لستة اشهر فامر برجمها فقال على لا رجم عليها وذكر الطريق الذى ذكرناه وعن عثمان انه هم بذلك فقرأ ابن عباس عليه ذلك* واعلم ان العقل والتجربة يدلان ايضا على ان الامر كذلك * قال اصحاب التجارب ان لتكوين الجنين زمانا مقدرا فاذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين فاذا انضاف الى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الام* فلنفرض انه يتم خلقه فى ثلاثين يوما فاذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين فاذا تضاعف الى هذا المجموع مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة اشهر فحينئذ ينفصل الجنين* ولنفرض انه يتم خلقه فى خمسة وثلاثين يوما فيتحرك فى سبعين يوما فاذا انضاف اليه مثلاه وهو مائة واربعون يوما صار المجموع مائتين وعشرة ايام وهو سبعة اشهر انفصل الولد* ولنفرض انه يتم خلقه فى اربعين يوما فيتحرك فى ثمانين يوما فينفصل عند مائتين واربعين يوما وهو ثمانية أشهر *ولنفرض انه تمت الخلقة فى خمسة واربعين يوما فيتحرك فى تسعين يوما فينفصل عند مائتين وسبعين يوما وهو تسعة اشهر فهذا هو الضبط الذى ذكره اصحاب التجارب* قال جالينوس انى كنت شديد التفحص عن مقادير ازمنة الحمل فرأيت امرأة ولدت فى المائة والاربع والثمانين ليلة وزعم ابو على بن سينا انه شاهد ذلك فقد صار اقل مدة الحمل بحسب نص القرآن و بحسب التجارب الطبية شيئا واحدا وهو ستة اشهر واما اكثر مدة الحمل فليس فى القرآن مايدل عليه *قال ابو على بن سينا فى الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء بلغنى من حيث وثقت به كل الثقة ان امرأة وضعت بعد الرابع من سنى الحمل ولدا قد نبتت اسنانه وعاش *وحكى عن ارسطاطاليس انه قال ازمنة الولادة وحبل الحيوان مضبوطة سوى الانسان فربما وضعت الحبلى لسبعة اشهر وربما وضعت فى الثامن وقلما يعيش المولود فى الثامن الافى بلاد معينة مثل مصر والغالب هو الولادة بعد التاسع قال اهل التجارب والذى قلناه من انه اذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين واذا انضم الى المجموع مثلاه انفصل الجنين انما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد فانه ربما زاد او نقص بحسب الايام لانه لم يقم على هذا الضبط برهان انما هو تقريب ذكروه بحسب التجربة والله اعلم ثم قالوا المدة

(التى)

قوله يجرح فى عراقيبها نصلى
قال ابن عباس اجاب الله تعالى دعاء ابى بكر رضى الله عنهم فاعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يرد شيئا من الخير الا اعانه الله تعالى عليه ودعا ايضا فقال واصلح لى فى ذريتى فأجابه الله عز وجل فلم يكن له ولد الا آمنوا جميعا فاجتمع له اسلام ابويه واولاده جميعا فادرك ابوه ابو قحافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه عبد الرحمن بن ابى بكر وابن عبد الرحمن ابو عتيق كلهم ادركوا النبى عليه الصلاة والسلام ولم يكن ذلك لاحد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين (انى تبت اليك) عما لا ترضاه او عما يشغلنى عن ذكرك (وانى من المسلمين) الذين اخلصوا لك انفسهم (اولئك) اشارة الى الانسان والجمع لان المراد به الجنس المتصف بالوصف المحكى عنه ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته اى اولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة (الذين نتقبل عنهم احسن ماعملوا) من الطاعات فان المباح حسن ولا يثاب عليه (ونتجاوز عن سيئاتهم) وقرئ الفعلان بالياء على اسنادهما الى الله تعالى وعلى بنائهما للمفعول ورفع احسن على انه قائم مقام الفاعل وكذا الجار والمجرور (فى اصحاب الجنة) اى كائنين فى عدادهم منتظمين فى سلكهم (وعد الصدق) مصدر مؤكد لما ان قوله تعالى نتقبل ونتجاوز وعد من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز (الذى كانوا يوعدون) على ألسنة الرسل

التي فيها تتم خلقة الجنين تنقسم الى اقسام (فاولها) ان الرحم اذا اشتملت على المنى ولم تقذفه الى الخارج استدار المنى على نفسه منحصرا الى ذاته وصار كالكرة ولما كان من شأن المنى ان يفسده الحركان لاجرم يثخن فى هذا الوقت وبالحرى ان خلق المنى من مادة تجف بالحر اذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف اجزائه يصير المنى زبدا فى اليوم السادس (وثانيها) ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه (احداها) فى الوسط وهو الموضع الذى اذا تمت خلقته كان قلبا (والثانى) فوق وهو الدماغ (والثالث) على اليمين وهو الكبد ثم ان تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر وذلك يحصل بعد ثلاثة ايام اخرى فيكون المجموع تسعة ايام (وثالثها) ان تنفذ الدموية فى الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة ايام اخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يوما (ورابعها) ان يصير لحما وقد تميزت الاعضاء الثلاثة وامتدت رطوبة النخاع وذلك انما يتم باثنى عشر يوما فيكون المجموع سبعة وعشرين يوما (وخامسها) ان ينفصل الرأس عن المنكبين والاطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس فى بعض ويخفى فى بعض وذلك يتم فى تسعة ايام اخرى فيكون المجموع ستة وثلاثين يوما (وسادسها) ان يتم انفصال هذه الاعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهورا بينا وذلك يتم فى اربعة ايام اخرى فيكون المجموع اربعين يوما وقد يتأخر الى خمسة واربعين يوما قال والاقل هو الثلاثون فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما اخبر عنه الصادق المصدوق فى قوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلق احدكم فى بطن امه اربعين يوما قال اصحاب التجارب ان السقط بعد الاربعين اذا شق عنه السلالة ووضع فى الماء البارد ظهر شئ صغير متميز الاطراف (المسئلة الثالثة) هذه الآية دلت على اقل مدة الحمل وعلى اكثر مدة الرضاع اما انها تدل على اقل مدة الحمل فقد بيناه واما انها تدل على اكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين احكاما كثيرة فى الفقه وايضا فاذا ثبت ان اقل مدة الحمل هو الاشهر الستة فبتقدير ان تأتى بالولد فى هذه الاشهر بقى جانبها مصونا عن تهمة الزنا والفاحشة وبتقدير ان يكون اكثر مدة الرضاع ماذكرناه فاذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لايترتب عليها احكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الاجانب وعند هذا يظهر ان المقصود من تقدير اقل الحمل ستة اشهر وتقدير اكثر الرضاع حولين كاملين السعى فى دفع المضار والفواحش وانواع التهمة عن المرأة فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم اسرار عجيبة ونفائس لطيفة تعجز العقول عن الاحاطة بكمالها وروى الواحدى فى البسيط عن عكرمة انه قال اذا حملت تسعة اشهر ارضعته احدا وعشرين شهرا واذا حملت ستة اشهر ارضعته اربعة وعشرين شهرا والصحيح ماقدمناه ثم قال تعالى حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى

(والذى قال لوالديه) عند دعوتهما الى الايمان (اف لكما) هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره واللام لبيان المؤفف له كما فى هيت لك وقرئ اف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولذلك اخبر عنه بالمجموع كما سبق قيل هو فى الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن

والدى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف المفسرون فى تفسير الاشد قال ابن عباس فى رواية عطاء يريد ثمانى عشرة سنة والأكثرون من المفسرين على انه ثلاثة وثلاثون سنة واحتج الفراء عليه بأن قال ان الاربعين أقرب فى النسق الى ثلاث وثلاثين منها الى ثمانية عشر ألا ترى انك تقول اخذت عامة المال أو كله فيكون احسن من قولك اخذت اقل المال اوكله ومثله قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه فبعض هذه الاقسام قريب من بعض فكذا ههنا وقال الزجاج الاولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة لان هذا الوقت الذى يكمل فيه بدن الانسان واقول تحقيق الكلام فى هذا الباب ان يقال ان مراتب سن الحيوان ثلاثة وذلك لان بدن الحيوان لايتكون الا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ولاشك ان الرطوبة الغريزية غالبة فى اول العمر وناقصة فى آخر العمر والانتقال من الزيادة الى النقصان لايعقل حصوله الا اذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين فثبت ان مدة العمر منقسمة الى ثلاثة اقسام (اولها) ان تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الاعضاء قابلة للتمدد فى ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشو والنماء (والمرتبة الثانية) وهى المرتبة المتوسطة ان تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب (والمرتبة الثالثة) وهى المرتبة الاخيرة ان تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين (فالاول) هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة (والثانى) هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة فهذا ضبط معلوم ثم ههنا مقدمة اخرى وهى ان دور القمر انما يكمل فى مدة ثمانية وعشرين يوما وشئ فاذا قسمنا هذه المدة بأربعة اقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قدروا الشهر بالاسابيع الاربعة ولهذه الاسابيع تأثيرات عظيمة فى اختلاف احوال هذا العالم اذا عرفت هذا فنقول ان المحققين من اصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشو الى اربعة اسابيع ويحصل للآدمى بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الاربعة نوع من التغير يؤدى الى كماله اما عند تمام السابوع الاول من العمر فتصلب اعضاؤه بعض الصلابة وتقوى افعاله ايضا بعض القوة وتتبدل اسنانه الضعيفة الواهية باسنان قوية وتكون قوة الشهوة فى هذا السابوع اقوى فى الهضم مما كان قبل ذلك واما فى نهاية السابوع الثانى فتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجارى وتقوى قوة الهضم وتقوى الاعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع وعندهذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ على قول الشافعى رضى الله عنه وهذا هو الحق الذى لامحيد عنه لان هذا الوقت لماقويت الحرارة الغريزية قلت الرطوبات واعتدل الدماغ فتكمل القوى النفسانية التى هى الفكر والذكر فلاجرم يحكم عليه بكمال العقل فلاجرم حكمت

قتادة هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه وماروى من انها نزلت فى عبدالرحمن بن ابى بكر رضى الله عنهما قبل اسلامه يرده ماسيأتى من قوله تعالى اولئك الذين حق عليهم القول الآية فانه كان من افاضل المسلمين وسرواتهم وقد كذبت الصديقة رضى الله عنها من قال ذلك (اتعداننى ان اخرج) ابعث من القبر بعد الموت وقرئ أخرج من الخروج (وقد خلت القرون من قبلى) ولم يبعث

الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية فـاحسن قول من ضبط البلوغ الشرعى بخمس عشرة سنة واعلم انه يتفرع على حصول هذه الحالة احوال فى ظاهر البدن (احـدها) انفراق طرف الارنبة لان الرطوبة الغريزية التى هناك تنقص فيظهر الانفراق (وثانيها) نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لان الحرارة التى تنهض فى ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتؤ ويغلظ الصوت (وثالثها) تغير ريح الابط وهى الفضلة العفنية التى يدفعها القلب الى ذلك الموضع وذلك لان القلب لمـا قويت حرارته لاجرم قويت على انضاج المـادة ودفعها الى اللحم الغددى الرخو الذى فى الابط (ورابعها) نبات الشعر وحصول الاحتلام وكل ذلك لان الحرارة قويت فقدرت على توليد الابخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع وفى هذا الوقت تتحرك الشهوة فى الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن وكل ذلك بسبب ان الحرارة الغريزية التى فيهن قويت فى آخر هذا السابوع واما فى السابوع الثالث فيدخل فى حد الكمال وينبت للذكر اللحية ويزداد حسنه وكماله واما فى السابوع الرابع فلا تزال هذه الاحوال فيـه متكاملة متزايدة وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية ان لايظهر الازدياد اما مدة سن الشباب وهى مدة الوقوف فسابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة ولمـا كانت هذه المدة اماقد تزداد واماقد تنقص بحسب الامزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة وهذا هو السن الذى يحصل فيه الكمال اللائق بالانسان شرعا وطبا فان هذا الوقت تسكن افعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهى له افعال القوة الحيوانية غايتها وتبتدئ افعال القوة النفسانية بالقوة والكمال واذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك ان بلوغ الانسان وقت الاشد شئ وبلوغه الى الاربعين شئ آخر فان بلوغه الى وقت الاشد عبارة عن الوصول الى آخر سن النشو والنماء وان بلوغه الى الاربعين عبارة عن الوصول الى آخر مدة الشباب ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية فى الانتقـاص وتأخذ القوة العقلية والنطقية فى الاستكمال وهذا احد مايدل على ان النفس غير البدن فان البدن عند اربعين يأخذ فى الانتقـاص والنفس من وقت الاربعين تأخذ فى الاستكمال ولوكانت النفس عين البدن لحصل للشئ الواحد فى الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال وهذا الكلام الذى ذكرناه ولخصناه مذكور فى صريح لفظ القرآن لانا بينا ان عند الاربعين تنتهى الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية واما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فانها تبتدئ بالاستكمال والدليل عليه قوله تعالى حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى فهذا يدل على ان توجه الانسان الى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله انما يحصل من هذا الوقت وهذا تصريح بان القوة النفسانية العقلية النطقية انما تبتدئ بالاستكمال من هذا الوقت فسبحان من اودع فى هذا الكتاب الكريم هذه الاسرار الشريفة

منهم احد (وهما يستغيثان الله) يسألانه ان يغيثه ويوفقه للايمان (و يلك) اى قائلين له ويلك وهو فى الاصل دعاء عليه بالثبور اريد به الحث والتحريض على الايمان لاحقيقة الهلاك (آمن ان وعد الله حق) اى البعث اضافاه اليه تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على خطئه فى اسناد الوعد اليهما وقرئ بأن وعد الله اى آمن بأن وعد الله حق (فيقول) مكذبا لهما

المقدسة قال المفسرون لم يبعث نبي قط الا بعد اربعين سنة واقول هذا مشكل بعيسى عليه السلام فان الله جعله نبيا من اول عمره الا انه يجب ان يقال الاغلب انه ماجاءه الوحي الا بعد الاربعين وهكذا كان الامر في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ويروى ان عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول اللهم اوزعني ان أشكر نعمتك الى تمام الدعاء وروى انه جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يؤمر الحافظان أن ارفقا بعبدي من حداثة سنه حتى اذا بلغ الاربعين قيل احفظا وحققا فكان راوي هذا الحديث اذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته رواه القاضي في التفسير (المسئلة الثانية) اعلم ان قوله تعالى حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة يدل على ان الانسان كالمحتاج الى مراعاة الوالدين له الى قريب من هذه المدة وذلك لان العقل كالناقص فلابد له من رعاية الابوين على رعاية المصالح ودفع الآفات وفيه تنبيه على ان نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد الى هذه المدة الطويلة وذلك يدل على ان نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الانسان مكافأتها الا بالدعاء والذكر الجميل (المسئلة الثالثة) حكى الواحدي عن ابن عباس وقوم كثير من متأخري المفسرين ومتقدميهم ان هذه الآية نزلت في ابي بكر الصديق رضي الله عنه قالوا والدليل عليه ان الله تعالى قد وقت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم انه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس في هذه الاحوال فوجب ان يكون المقصود منه شخصا واحدا حتى يقال ان هذا التقدير اخبار عن حاله فيمكن ان يكون ابو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر ثم قال تعالى في صفة ذلك الانسان حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي ومعلوم انه ليس كل انسان يقول هذا القول فوجب ان يكون المراد من هذه الآية انسانا معينا قال هذا القول واما ابو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن لانه كان اقل سنا من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وشيء والنبي صلى الله عليه وسلم بعث عند الاربعين وكان ابو بكر قريبا من الاربعين وهو قد صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به فثبت بما ذكرناه ان هذه الآيات صالحة لان يكون المراد منها ابو بكر واذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول ندعي انه هو المراد من هذه الآية ويدل عليه انه تعالى قال في آخر هذه الآية اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ماعملوا ونتجاوز عن سيآتهم في اصحاب الجنة وهذا يدل على ان المراد من هذه الآية افضل الخلق لان الذي يتقبل الله عنه احسن اعماله ويتجاوز عن كل سيآته يجب ان يكون من افاضل الخلق واكابرهم واجمعت الامة على ان افضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اما ابو بكر واما علي ولا يجوز ان يكون المراد من هذه الآية علي بن ابي طالب رضي الله عنه لان هذه الآية انما تليق بمن اتى بهذه الكلمة عند بلوغ الاشد وعند القرب من الاربعين وعلي بن ابي طالب ما كان كذلك لانه انما آمن في زمان الصبا او عند القرب من

(ماهذا) الذي تسميانه وعد الله (الا اساطير الاولين) اباطيلهم التي سطروها في الكتب من غير ان يكون لها حقيقة (اولئك) القائلون هذه المقالات الباطلة (الذين حق عليهم القول) وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين كما ينبئ عنه قوله تعالى (في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس) وقد مر تفصيله في سورة ألم السجدة

(الصبا)

الصبا فثبت ان المراد من هذه الآية هو ابو بكر والله اعلم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اوزعنى قال ابن عباس معناه الهمنى قال صاحب الصحاح اوزعته بالشئ أغريته به فاوزع به فهو موزع به اى مغرى به واستوزعت الله شكره فاوزعنى اى استلهمته فالهمنى (المسئلة الخامسة) اعلم انه تعالى حكى عن هذا الداعى انه طلب من الله تعالى ثلاثة اشياء (احدها) ان يوفقه الله للشكر على نعمه (والثانى) ان يوفقه للاتيان بالطاعة المرضية عند الله (والثالث) ان يصلح له فى ذريته وفى ترتيب هذه الاشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان (الاول) انا بينا ان مراتب السعادات ثلاثة اكملها النفسانية واوسطها البدنية وادونها الخارجية والسعادات النفسانية هى اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه والسعادات البدنية هى اشتغال البدن بالطاعة والخدمة والسعادات الخارجية هى سعادة الاهل والولد فلما كانت المراتب محصورة فى هذه الثلاثة لاجرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه (والسبب الثانى) لرعاية هذا الترتيب انه تعالى قدم الشكر على العمل لان الشكر من اعمال القلوب والعمل من اعمال الجوارح وعمل القلب اشرف من عمل الجارحة وايضا المقصود من الاعمال الظاهرة احوال القلب قال تعالى وأقم الصلاة لذكرى بين ان الصلاة مطلوبة لاجل انها تفيد الذكر فثبت ان اعمال القلوب اشرف من اعمال الجوارح والاشرف يجب تقديمه فى الذكر وايضا الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة وقضاء الحقوق الماضية يجرى مجرى قضاء الدين وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد ومعلوم ان قضاء الدين مقدم على سائر المهمات فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات وايضا انه قدم طلب التوفيق على الشكر وطلب التوفيق على الطاعة على طلب ان يصلح له ذريته وذلك لان المطلوبين الاولين اشتغال بالتعظيم لامر الله والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ومعلوم ان التعظيم لامر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله (المسئلة السادسة) قال اصحابنا ان العبد طلب من الله تعالى ان يلهمه الشكر على نعم الله وهذا يدل على انه لا يتم شئ من الطاعات والاعمال الا باعانة الله تعالى ولو كان العبد مستقلا بافعاله لكان هذا الطلب عبثا وايضا المفسرون قالوا المراد من قوله اوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على هو الايمان او الايمان يكون داخلا فيه والدليل عليه قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم والمراد صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الايمان واذا ثبت هذا فنقول العبد يشكر الله على نعمة الايمان فلو كان الايمان من العبد لا من الله لكان ذلك شكرا لله تعالى على فعله لا على فعل غيره وذلك قبيح لقوله تعالى ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فان قيل فهب ان يشكر الله على ما انعم به عليه فكيف يشكره على النعم التى انعم بها على والديه وانما يجب على الرجل ان يشكر ربه على ما يصل اليه من النعم قلنا كل نعمة وصلت من الله تعالى الى

(انهم) جميعا (كانوا خاسرين) قد ضيعوا فطرتهم الاصلية الجارية مجرى رؤس اموالهم باتباعهم الشيطان والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقى (ولكل) من الفريقين المذكورين (درجات مما عملوا) مراتب من اجزية ما عملوا من الخير والشر والدرجات غالبة فى مراتب المثوبة وايرادها ههنا بطريق التغليب (وليوفيهم اعمالهم) اى

والديه فقد وصل منها أثر اليه فلذلك وصاه الله تعالى على ان يشكر ربه على الامرين (واما المطلوب الثانى) من المطالب المذكورة فى هذا الدعاء فهو قوله وان اعمل صالحا ترضاه واعلم ان الشئ الذى يعتقد الانسان فيه كونه صالحا على قسمين (احدهما) الذى يكون صالحا عنده ويكون صالحا ايضا عند الله تعالى (والثانى) الذى يظنه صالحا ولكنه لايكون صالحا عند الله تعالى فلما قسم الصالح فى ظنه الى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لان يأتى بعمل صالح يكون صالحا عند الله ويكون مرضيا عند الله (والمطلوب الثالث) من المطالب المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى واصلح لى فى ذريتى لان ذلك من اجل نعم الله على الوالد كما قال ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام فان قيل مامعنى فى فى قوله واصلح لى فى ذريتى قلنا تقدير الكلام هب لى الصلاح فى ذريتى واوقعه فيهم واعلم انه تعالى لما حكى عن ذلك الداعى انه طلب هذه الاشياء الثلاثة قال بعد ذلك انى تبت اليك وانى من المسلمين والمراد ان الدعاء لايصح الا مع التوبة والا مع كونه من المسلمين فبين انى انما اقدمت على هذا الدعاء بعد ان تبت اليك من الكفر ومن كل قبيح وبعد أن دخلت فى الاسلام والانقياد لامر الله تعالى ولقضائه واعلم ان الذين قالوا ان هذه الآية نزلت فى ابى بكر قالوا ان ابابكر اسلم والداه ولم يتفق لاحد من الصحابة والمهاجرين اسلام الابوين الا له فابوه ابو قحافة عثمان بن عمرو وامه ام الخير بنت صخر بن عمرو وقوله وان اعمل صالحا ترضاه قال ابن عباس فاجابه الله اليه فاعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يترك شيئا من الخير الا اعانه الله عليه وقوله تعالى واصلح لى فى ذريتى قال ابن عباس لم يبق لأبى بكر ولد من الذكور والاناث الا وقد آمنوا ولم يتفق لاحد من الصحابة ان اسلم ابواه وجميع اولاده الذكور والاناث الا لأبى بكر ثم قال تعالى اولئك اى اهل هذا القول الذين نتقبل عنهم قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرئ بالنون المفتوحة وكذلك نتجاوز وكلاهما فى المعنى واحد لان الفعل وان كان مبنيا للمفعول فمعلوم انه لله سبحانه فهو كقوله يغفر لهم ماقد سلف فبين تعالى بقوله اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ماعملوا ان من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا الدعاء ويسلك هذه الطريقة التى تقدم ذكرها نتقبل عنهم والتقبل من الله هو ايجاب الثواب له على عمله فان قيل ولم قال تعالى احسن ماعملوا والله يتقبل الاحسن ومادونه قلنا الجواب من وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسن كقوله تعالى واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم وكقولهم الناقص والاشج اعدلا بنى مروان اى عادلا بنى مروان (الثانى) ان الحسن من الاعمال هو المباح الذى لايتعلق به ثواب ولا عقاب والاحسن مايغاير ذلك وهو كل ماكان مندوبا اوواجبا ثم قال تعالى ونتجاوز عن سيآتهم والمعنى انه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيآتهم ثم قال فى اصحاب الجنة قال صاحب الكشاف ومعنى هذا الكلام مثل قولك اكرمنى الامير فى مائتين من اصحابه

اجزية اعمالهم وقرئ بنون العظمة (وهم لايظلمون) بنقص ثواب الاولين وزيادة عقاب الآخرين والجملة اما حال مؤكدة للتوفية اواستئناف مقرر لها واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل وليوفيهم اعمالهم ولايظلمهم حقوقهم فعل مافعل من تقدير الاجزية على مقادير اعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات (ويوم يعرض

يريد اكرمنى فى جملة من اكرم منهم وضمنى فى عدادهم ومحله النصب على الحال على معنى كائنين فى اصحاب الجنة ومعدودين منهم وقوله وعد الصدق مصدر مؤكد لان قوله نتقبل ونتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز والمقصود بيان انه تعالى يعامل من صفته ماقدمناه بهذا الجزاء وذلك وعد من الله تعالى فبين انه صدق ولاشك فيه * قوله تعالى (والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى ان اخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ماهذا الا اساطير الاولين اولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لايظلمون ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) اعلم انه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه فى الآية المتقدمة وصف الولد العاق لوالديه فى هذه الآية فقال والذى قال لوالديه أف لكما وفى هذه الآية قولان (الاول) انها نزلت فى عبدالرحمن بن ابى بكر قالوا كان ابواه يدعوانه الى الاسلام فيأبى وهو قوله أف لكما واحتج القائلون بهذا القول على صحته بانه لما كتب معاوية الى مروان بان يبايع الناس ليزيد قال عبدالرحمن بن ابى بكر لقد جئتم بها هرقلية اتبايعون لابنائكم فقال مروان ياأيها الناس هو الذى قال الله فيه والذى قال لوالديه أف لكما (والقول الثانى) انه ليس المراد منه شخص معين بل المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة وهو كل من دعاه ابواه الى الدين الحق فأباه وانكره وهذا القول هو الصحيح عندنا ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى وصف هذا الذى قال لوالديه أف لكما اتعداننى بقوله اولئك الذين حق عليهم القول فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولاشك ان عبدالرحمن آمن وحسن اسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه فان قالوا روى انه لما دعاه ابواه الى الاسلام واخبراه بالبعث بعد الموت قال اتعداننى أن أخرج من القبر يعنى ابعث بعد الموت وقد خلت القرون من قبلى يعنى الامم الخالية فلم أر أحدا منهم بعث فأين عبدالله بن جدعان وابن فلان وفلان اذا عرفت هذا فنقول قوله اولئك الذين حق عليهم القول المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبدالرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله وهم الذين حق عليهم القول وبالجملة فهو عائد الى المشار اليهم بقوله وقد خلت القرون من قبلى لا الى المشار اليه بقوله والذى قال لوالديه أف لكما هذا ماذكره الكلبى فى دفع ذلك الدليل وهو حسن (الوجه الثانى) فى ابطال ذلك القول ماروى ان مروان لما خاطب عبدالرحمن ابن أبى بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت والله ماهو به ولكن الله لعن اباك وانت فى صلبه (الوجه الثالث) وهو الاقوى ان يقال انه تعالى وصف الولد البار

الذين كفروا على النار) اى يعذبون بها من قولهم عرض الاسارى على السيف اى قتلوا وقيل يعرض النار عليهم بطريق القلب مبالغة (اذهبتم طيباتكم) اى يقال لهم ذلك وهو الناصب للظرف وقرئ أاذهبتم بهمزتين وبألف بينهما على الاستفهام التوبيخى اى اصبتم واخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها (فى حياتكم الدنيا

بأبويه فى الآية المتقدمة ووصف الولد العاق لابويه فى هذه الآية وذكر من صفات ذلك الولد انه بلغ فى العقوق الى حيث لما دعاه ابواه الى الدين الحق وهو الاقرار بالبعث والقيامة اصر على الانكار وابى واستكبر وعول فى ذلك الانكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية واذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة البتة الى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين قال صاحب الكشاف قرئ أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين وهو صوت اذا صوت به الانسان علم انه متضجر كما اذا قال حس علم انه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة ولاجلكما دون غيركما وقرئ أتعدانني بنونين وأتعدانى باحدهما وأتعدانى بالادغام وقرأ بعضهم أتعدانى بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء ففتح الاولى تحريا للتخفيف كما تحراه من ادغم ومن طرح احدهما ثم قال ان اخرج اى ان ابعث واخرج من الارض وقرئ اخرج وقد خلت القرون من قبلى يعنى ولم يبعث منهم احد ثم قال وهما يستغيثان الله اى الوالدان يستغيثان الله فان قالوا كان الواجب ان يقال يستغيثان بالله قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان المعنى انهما يستغيثان بالله من كفره وانكاره فلما حذف الجار وصل الفعل (الثانى) يجوز ان يقال الباء حذف لانه أريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ماقاله المفسرون يدعوان الله فلما اريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار لان الدعاء لايقتضيه وقوله ويلك اى يقولان له ويلك آمن وصدق بالبعث وهو دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الايمان لاحقيقة الهلاك ثم قال ان وعد الله بالبعث حق فيقول لهما ماهذا الذى تقولان من امر البعث وتدعوانني اليه الا اساطير الاولين ثم قال تعالى اولئك الذين حق عليهم القول اى حقت عليهم كلمة العذاب ثم ههنا قولان فالذين يقولون المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن ابى بكر قالوا المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله والذين قالوا المراد به ليس عبد الرحمن بل كل ولد كان موصوفا بالصفة المذكورة قالوا هذا الوعيد مختص بهم وقوله فى امم نظير لقوله فى اصحاب الجنة وقد ذكرنا انه نظير لقوله اكرمنى الامير فى اناس من اصحابه يريد اكرمنى فى جملة من اكرم منهم ثم قال انهم كانوا خاسرين وقرئ ان بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق ثم قال ولكل درجات مما عملوا وفيه قولان (الاول) ان الله تعالى ذكر الولد البار ثم اردفه بذكر الولد العاق فقوله ولكل درجات مما عملوا خاص بالمؤمنين وذلك لان المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة ومراتب مختلفة فى هذا الباب (والقول الثانى) ان قوله ولكل درجات مما عملوا عائد الى الفريقين والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية فان قالوا كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات فى اهل النار وقد جاء فى الاثر الجنة درجات والنار دركات قلنا فيه وجوه (الاول) يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب (الثانى) قال ابن زيد درج اهل الجنة

واستمتعتم بها فلم يبق لكم بعد ذلك شئ منها (فاليوم تجزون عذاب الهون) اى الهوان وقد قرئ كذلك (بما كنتم) فى الدنيا (تستكبرون فى الارض بغير الحق) بغير استحقاق لذلك (وبما كنتم تفسقون) أى تخرجون عن طاعة الله عزوجل اى بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين وقرئ تفسقون بكسر السين

يذهب علوا ودرج اهل النار ينزل هبوطا (الثالث) ان المراد بالدرجات المراتب المتزائدة الاان زيادات اهل الجنة فى الخيرات والطاعات وزيادات اهل النار فى المعاصى والسيئات ثم قال تعالى وليوفيهم وقرئ بالنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه قيل وليوفيهم اعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم قدر جزاء هم على مقادير اعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ولما بين الله تعالى انه يوصل حق كل احد اليه بين احوال اهل العقاب اولا فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار قيل يدخلون النار وقيل تعرض عليها النار ليروا اهوالها اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا قرأ ابن كثير آذهبتم استفهام بهمزة ومدة وابن عامر استفهام بهمزتين بلا مد والباقون اذهبتم بلفظ الخبر والمعنى ان كل ماقدر لكم من الطيبات والراحات فقد استوفيتموه فى الدنيا وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شئ منها وعن عمر لو شئت لكنت اطيبكم طعاما واحسنكم لباسا ولكنى استبقى طيباتى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه دخل على اهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالادم مايجدون لها رقاعا فقال انتم اليوم خير ام يوم يغدو احدكم فى حلة ويروح فى اخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه باخرى ويستر بيته كما تستر الكعبة قالوا نحن يومئذ خير قال بل انتم اليوم خير رواه صاحب الكشاف قال الواحدى ان الصالحين يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء ان يكون ثوابهم فى الآخرة اكمل الا ان هذه الآية لاتدل على المنع من التنعم لان هذه الآية وردت فى حق الكافر وانما وبخ الله الكافر لانه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والايمان به واما المؤمن فانه يؤدى بايمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه والدليل عليه قوله تعالى قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق نعم لاننكر ان الاحتراز عن التنعم اولى لان النفس اذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض وحينئذ فربما حمله الميل الى تلك الطيبات على فعل مالا ينبغى وذلك مما يجر بعضه الى بعض ويقع فى البعد عن الله تعالى بسببه ثم قال تعالى فاليوم تجزون عذاب الهون اى الهوان وقرئ عذاب الهوان بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون فعلل تعالى ذلك العذاب بأمرين (اولهما) الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب (والثانى) الفسق وهو ذنب الجوارح وقدم الاول على الثانى لان احوال القلوب اعظم وقعا من اعمال الجوارح ويمكن ان يكون المراد من الاستكبار انهم يتكبرون عن قبول الدين الحق ويستنكفون عن الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام واما الفسق فهو المعاصى واحتج اصحابنا بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع قالوا لانه تعالى علل عذابهم بأمرين (اولهما) الكفر (وثانيهما) الفسق وهذا الفسق لابد وان يكون مغايرا لذلك الكفر لان العطف يوجب المغايرة فثبت ان فسق الكفار يوجب العقاب فى حقهم ولا معنى للفسق الا ترك المأمورات وفعل المنهيات

جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشئ اذا اعوج وكانت عاد اصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بارض يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة (وقد خلت النذر) اى الرسل جمع نذير بمعنى المنذر (من بين يديه) اى من قبله (ومن خلفه) اى من بعده والجملة اعتراض مقرر لماقبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الانذار وسط بين انذر قومه وبين قوله (ان لاتعبدوا الاالله) مسارعة الى ماذكر من التقرير والتأكيد وايذانا باشتراكهم فى العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك انذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد انذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكرهم واماجعلها حالا من فاعل انذر على معنى انه عليه الصلاة والسلام انذرهم وقال لهم لاتعبدوا الاالله (انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقد أعلمهم ان الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره فمما فيه من تكلف تقدير الاعلام لابد فى نسبة الخلو الى من بعده من الرسل من تنزيل الآتى منزلة الخالى (قالوا أجئتنا لتأفكنا) اى تصرفنا (عن آلهتنا) عن عبادتها (فأتنا بماتعدنا) من العذاب العظيم (ان كنت من الصادقين) فى وعدك بنزوله بنا (قال انما العلم) اى بوقت نزوله او العلم بجميع الاشياء التى من جملتها ذلك (عند الله) وحده لاعلم لى بوقت نزوله ولامدخل لى

والله اعلم * قوله تعالى (واذكر أخاعاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ان لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لاترى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم انه تعالى لما اورد انواع الدلائل فى اثبات التوحيد والنبوة وكان اهل مكة بسبب استغراقهم فى لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها اعرضوا عنها ولم يلتفتوا اليها ولهذا السبب قال تعالى فى حقهم ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا فلما كان الامر كذلك بين ان قوم عاد كانوا اكثر اموالا وقوة وجاها منهم ثم ان الله تعالى سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها اهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويقبلوا على طلب الدين فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة فى هذا الموضع وهو مناسب لما تقدم لان من اراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الامثال وتقريره ان من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا وقوله تعالى واذكر اخاعاد أى واذكر يا محمد لقومك اهل مكة هودا عليه السلام اذ أنذر قومه اى حذرهم عذاب الله ان لم يؤمنوا وقوله بالاحقاف قال ابو عبيدة الحقف الرمل المعوج ومنه قيل للمعوج محقوف وقال الفراء الاحقاف واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج قال ابن عباس الاحقاف وادبين عمان ومهرة والنذر جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه من قبله ومن خلفه من بعده والمعنى ان هودا عليه السلام قد انذرهم وقال لهم ان لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم العذاب واعلم ان الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره ثم حكى تعالى عن الكفار انهم قالوا أجئتنا لتأفكنا الافك الصرف يقال افكه عن رأيه اى صرفه وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب عن آلهتنا وعن عبادتها فأتنا بما تعدنا من معاجلة العذاب على الشرك ان كنت من الصادقين فى وعدك فعند هذا قال هود انما العلم عند الله وانما صلح هذا الكلام جوابا لقولهم فأتنا بما تعدنا لان قولهم فأتنا بما تعدنا استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود لاعلم عندى بالوقت الذى يحصل فيه ذلك العذاب انما علم ذلك عند الله تعالى وابلغكم ما ارسلت به وهو التحذير عن العذاب واما العلم بوقته فما اوحاه الله الى ولكنى أراكم قوما تجهلون وهذا يحتمل وجوها (الاول) المراد انكم لاتعلمون ان الرسل

حيث تقترحون على ماليس من وظائف الرسل من الاتيان بالعذاب وتعيين وقته والفاء فى قوله تعالى (فلما رأوه) فصيحة والضمير اما مبهم يوضحه قوله تعالى (عارضا) اما تمييز او حال او راجع الى ما استعجلوه بقولهم فأتنا بما تعدنا اى فأتاهم فلما رأوه سحابا يعرض فى افق السماء (مستقبل اوديتهم) اى متوجه اوديتهم والاضافة فيه لفظية كما فى قوله تعالى (قالوا هذا عارض ممطرنا) ولذلك وقعا وصفين للنكرة (بل هو) اى قال هود وقد قرئ كذلك وقرئ قل وهو رد عليهم اى ليس الامر كذلك بل هو (ما استعجلتم به) من العذاب (ريح) بدل من ما او خبر لمبتدأ محذوف (فيها عذاب اليم) صفة لريح وكذا قوله تعالى (تدمر) اى تهلك (كل شئ) من نفوسهم واموالهم (بأمر ربها) وقرئ يدمر كل شئ من دمر دمارا اذا هلك فالعائد الى الموصوف محذوف او هو الهاء فى ربها ويجوز ان يكون استئنافا واردا للبيان أن لكل ممكن فناء مقضيا منوطا بأمر ربه وتكون الهاء لكل شئ لكونه بمعنى الاشياء وفى ذكر الامر والرب والاضافة الى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل مالا يخفى والفاء فى قوله تعالى (فأصبحوا لايرى الا مساكنهم) فصيحة اى فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لايرى الا مساكنهم وقرئ ترى بالتاء ونصب مساكنهم خطابا لكل احد يتأتى منه الرؤية تنبيها على ان حالهم بحيث لو حضر كل احد بلادهم لايرى فيها الا مساكنهم (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى القوم المجرمين) وقد مر تفصيل القصة فى سورة الاعراف

لم يبعثوا سائلين عن غير ما اذن لهم فيه وانما بعثوا مبلغين (الثانى) اراكم قوما تجهلون من حيث انكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظنى انه قرب الوقت الذى ينزل عليكم العذاب بسبب هذا الجهل المفرط والوقاحة التامة (الثالث) انى اراكم قوما تجهلون حيث تصرون على طلب العذاب وهب انه لم يظهر لكم كونى صادقا ولكن لم يظهر ايضا لكم كونى كاذبا فالاقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم ثم قال تعالى فلما رأوه ذكر المبرد فى الضمير فى رأوه قولين (احدهما) انه عائد الى غير مذكور وبينه قوله عارضا كما قال ما ترك على ظهرها من دابة ولم يذكر الارض لكونها معلومة فكذا ههنا الضمير عائد الى السحاب كأنه قيل فلما رأوا السحاب عارضا وهذا اختيار الزجاج ويكون من باب الاضمار لا على شريطة التفسير (والقول الثانى) ان يكون الضمير عائدا الى ما فى قوله فأتنا بما تعدنا اى فلما رأوا ما يوعدون به عارضا قال ابو زيد العارض السحابة التى ترى فى ناحية السماء ثم تطبق وقوله مستقبل اوديتهم قال المفسرون كانت عاد قد حبس عنهم المطر اياما فساق الله اليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوه مستقبل اوديتهم استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا والمعنى ممطر ايانا قيل كان هود قاعدا فى قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا هذا عارض ممطرنا فقال بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم بين ماهيته فقال ريح فيها عذاب اليم ثم وصف تلك الريح فقال تدمر كل شئ اى تهلك كل شئ من الناس والحيوان والنبات بأمر ربها والمعنى ان هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات بل هو امر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لاجل تعذيبكم فأصبحوا يعنى عادا لاترى الا مساكنهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى ان الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها فى الجو حتى يرى كأنها جرادة وقيل اول من ابصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان اول ما عرفوا به انه عذاب اليم انهم رأوا ما كان فى الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا ابوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأحال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر وروى ان هودا لما احس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع فكانت الريح التى تصيبهم ريحا لينة هادية طيبة والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الارض وتطيرهم الى السماء وتضربهم على الارض واثر المعجزة انما ظهر فى تلك الريح من هذا الوجه وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما امر الله خازن الرياح ان يرسل على عاد الا مثل مقدار الخاتم ثم ان ذلك القدر اهلكهم بكليتهم والمقصود من هذا الكلام اظهار كمال قدرة الله تعالى وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا رأى الريح فزع وقال اللهم انى اسألك خيرها وخير ما ارسلت به وأعوذ بك من شرها ومن شر ما ارسلت به (المسئلة الثانية) قرأ عاصم

وقد روى ان الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها فى الجو حتى ترى كأنها جرادة قيل اول من ابصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان اول ما عرفوا به انه عذاب ما رأوا ما كان فى الصحراء من رجالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا ابوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم فأمال الله تعالى الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية ايام لهم انين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر وروى ان هودا عليه السلام لما احس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعتزل هود ومن معه فى حظيرة ما يصيبهم من الريح الا ما يلين على الجلود وتلذه الانفس وانها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة (ولقد مكناهم) اى قررنا عادا واقدرناهم وما فى قوله تعالى (فيما ان مكناكم فيه) موصولة او موصوفة وان نافية اى فى الذى او فى شئ ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الاعمار وسائر مبادى التصرفات كما فى قوله تعالى الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم ومما يحسن موقع ان ههنا التفصى عن تكرر لفظة ما وهو الداعى الى قلب الفها هاء فى مهما وجعلها شرطية اوزائدة مما لا يليق بالمقام (وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة) ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شؤن منعمها عز وجل ويداوموا على شكره (فما اغنى عنهم سمعهم) حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل (ولا ابصارهم) حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة

وحمزة لايرى بالياء وضمها مساكنهم بضم النون قال الكسائى معناه لايرى شئ الامساكنهم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر والكسائى لاترى على الخطاب اى لاترى انت ايها المخاطب وفى بعض الروايات عن عاصم لاترى بالتاء مساكنهم بضم النون وهى قراءة الحسن والتأويل لاترى من بقايا عاد اشياء الامساكنهم وقال الجمهور هذه القراءة ليست بالقوية ثم قال تعالى كذلك نجزى القوم المجرمين والمقصود منه تخويف كفار مكة فان قيل لما قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم فكيف يبقى التخويف حاصلا قلنا قوله وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم انما نزل فى آخر الامر فكان التخويف حاصلا قبل نزوله ثم انه تعالى خوف كفار مكة وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه قال المبرد ما فى قوله فيما بمنزلة الذى وان بمنزلة ما والتقدير ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه والمعنى انهم كانوا اقوى منكم قوة واكثر منكم اموالا وقال ابن قتيبة كلمة ان زائدة والتقدير ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه وهذا غلط لوجوه (الاول) ان الحكم بأن حرفا من كتاب الله عبث لايقول به عاقل (والثانى) ان المقصود من هذا الكلام انهم كانوا اقوى منكم قوة ثم انهم مع زيادة القوة مانجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم وهذا المقصود انما يتم لو دلت الآية على انهم كانوا اقوى قوة من قوم مكة (والثالث) ان سائر الآيات تفيد هذا المعنى قال تعالى هم احسن اثاثا ورئيا وقال كانوا اكثر منهم واشد قوة وآثارا فى الارض ثم قال تعالى وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة والمعنى انا فتحنا عليهم ابواب النعم واعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الدلائل واعطيناهم ابصارا فما استعملوها فى تأمل العبر واعطيناهم أفئدة فما استعملوها فى طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى الى طلب الدنيا ولذاتها فلاجرم ما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من عذاب الله تعالى شيئا ثم بين تعالى انه انما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا افئدتهم لاجل انهم كانوا يجحدون بآيات الله وقوله اذ كانوا يجحدون بمنزلة التعليل ولفظ اذ قد يذكر لافادة التعليل تقول ضربته اذ اساء والمعنى ضربته لانه أساء وفى هذه الآية تخويف لاهل مكة فان قوم عاد لما اغتروا بدنياهم واعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم فاهل مكة مع عجزهم وضعفهم اولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا ثم قال تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن يعنى انهم كانوا يطلبون نزول العذاب وانما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء والله أعلم * قوله تعالى (ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون) اعلم ان المراد ولقد اهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى وهى قرى عاد وثمود باليمن والشام وصرفنا الآيات بيناها لهم لعلهم اى لعل اهل القرى يرجعون فالمراد بالتصريف الاحوال الهائلة التى

فى صحائف العالم (ولا أفئدتهم) حيث لم يستعملوها فى معرفة (٥١٦) الله تعالى (من شئ) اى شيئا من الاغناء ومن مزيدة للتأكيد وقوله تعالى (اذ كانوا يجحدون بآيات الله) متعلق بما اغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث ان الحكم مرتب على ما اضيف اليه فان قولك اكرمته اذ اكرمنى فى قوة قولك اكرمته لاكرامه لانك اذا اكرمته وقت اكرامه فانما اكرمته فيه لوجود اكرامه فيه وكذا الحال فى حيث (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (ولقد اهلكنا ما حولكم) يا اهل مكة (من القرى) كحجر ثمود وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كررناها لهم (لعلهم يرجعون) لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) القربان ما يتقرب به الى الله تعالى واحد مفعولى اتخذوا ضمير الموصول المحذوف والثانى آلهة وقربانا حال والتقدير فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقربا بها الى الله تعالى حيث كانوا يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وهؤلاء شفعاؤنا عند الله وفيه تهكم بهم ولا مساغ لجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى فان البدل وان كان هو المقصود لكنه لابد فى غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا ريب فى ان قولنا اتخذوهم من دون الله قربانا اى متقربا به مما لا صحة له قطعا لانه تعالى متقرب اليه لا متقرب به فلا يصح انهم اتخذوهم قربانا متجاوزين الله فى ذلك وقرئ قربانا بضم الراء (بل ضلوا عنهم) اى غابوا عنهم وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم نصرهم لغيبتهم (وجدت)

وجدت قبل الاهلاك قال الجبائى قوله لعلهم يرجعون معناه لكى يرجعوا عن كفرهم دل بذلك على انه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد اصرارهم (والجواب) انه فعل مالو فعله غيره لكان ذلك لاجل الارادة المذكورة وانما ذهبنا الى هذا التأويل للدلائل الدالة على انه سبحانه مريد لجميع الكائنات ثم قال تعالى فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة القربان مايتقرب به الى الله تعالى أى اتخذوهم شفعاء متقربا بهم الى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقالوا مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى وفى اعراب الآية وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف احد مفعولى اتخذ الراجع الى الذين هو محذوف والثانى آلهة وقربانا حال وقيل عليه ان الفعل المتعدى الى مفعولين لايتم الابذكرهما لفظا والحال مشعر بتمام الكلام ولاشك ان اتيان الحال بين المفعولين على خلاف الاصل (الثانى) قال بعضهم قربانا مفعول ثان قدم على المفعول الاول وهو آلهة فقيل عليه انه يؤدى الى خلو الكلام عن الراجع الى الذين (الثالث) قال بعض المحققين يضمر احد مفعولى اتخذوا وهو الراجع الى الذين ويجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة عطف بيان اذا عرفت الكلام فى الاعراب فنقول المقصود ان يقال ان اولئك الذين اهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم وزعموا انهم متقربون بعبادتهم الى الله ليشفعوا لهم بل ضلوا عنهم اى غابوا عن نصرتهم وذلك اشارة الى ان كون آلهتهم ناصرين لهم امر ممتنع ثم قال تعالى وذلك افكهم اى ذلك الامتناع اثر افكهم الذى هو اتخاذهم اياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب فى اثبات الشركاء له قال صاحب الكشاف وقرئ افكهم والافك والافك كالحذر والحذر وقرئ وذلك افكهم بفتح الفاء والكاف اى ذلك الاتخاذ الذى هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق وقرئ افكهم على التشديد للمبالغة وآفكهم جعلهم آفكين وآفكهم اى قولهم الافك اى ذو الافك كما تقول قول كاذب ثم قال وما كانوا يفترون والتقدير وذلك افكهم وافتراؤهم فى اثبات الشركاء لله تعالى والله اعلم ۞ قوله تعالى (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ياقومنا اجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه اولياء اولئك فى ضلال مبين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين ان فى الانس من آمن وفيهم من كفر بين ايضا ان الجن فيهم من آمن وفيهم من كفر وان مؤمنهم معرض للثواب وكافرهم معرض للعقاب وفى كيفية هذه الواقعة قولان (الاول) قال سعيد بن جبير كانت الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذى حدث فى السماء انما حدث لشئ فى الارض فذهبوا يطلبون السبب

اوضاعوا عنهم اى ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقيل امتنع نصرهم امتناع نصر الغائب عن المنصور (وذلك) اى ضياع آلهتهم عنهم وامتناع نصرهم (افكهم) اثر افكهم الذى هو اتخاذهم اياها الهة ونتيجة شركهم وقرئ افكهم وكلاهما مصدر كالحذر والحذر وقرئ افكهم على صيغة الماضى فذلك اشارة حينئذ الى الاتخاذ أى وذلك الاتخاذ الذى هذه ثمرته وعاقبته صرفهم عن الحق وقرئ افكهم بالتشديد للمبالغة وآفكهم من الافعال اى جعلهم آفكين وقرئ آفكهم على صيغة اسم الفاعل مضافا الى ضميرهم أى قولهم الافك أى ذو الافك كما يقال قول كاذب (وما كانوا يفترون) عطف على افكهم أى وأثر افترائهم على الله تعالى أو أثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى وقرئ وذلك افك مما كانوا يفترون أى بعض ما كانوا يفترون من الافك (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن) املناهم اليك واقبلنا بهم نحوك وقرئ صرفنا بالتشديد للتكثير لانهم جماعة وهو السر فى جمع الضمير فى قوله تعالى (يستمعون القرآن) ومابعده وهو حال مقدرة من نفر لتخصصه بالصفة اوصفة أخرى له اى واذكر لقومك وقت صرفنا اليك نفرا كائنا من الجن مقدرا استماعهم القرآن (فلما حضروه) اى القرآن عند تلاوته او الرسول عند تلاوته له على الالتفات والاول هو الاظهر (قالوا) اى قال بعضهم لبعض (أنصتوا) اى اسكتوا لنسمعه (فلما قضى) أتم وفرغ عن تلاوته وقرئ على البناء للفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا يؤيد عود ضمير حضروه اليه عليه الصلاة والسلام (ولوا الى قومهم منذرين) مقدرين انذارهم عند رجوعهم اليهم • روى ان الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا

وكان قد اتفق ان النبي صلى الله عليه وسلم لما آيس من اهل مكة ان يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به نفر من اشراف جن نصيبين لان ابليس بعثهم ليعرفوا السبب الذى اوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا ان ذلك هو السبب (والقول الثانى) ان الله تعالى امر رسوله ان ينذر الجن ويدعوهم الى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله اليه نفرا من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم ويتفرع على ماذكرناه فروع (الاول) نقل عن القاضى فى تفسير سورة الجن انه قال انهم كانوا يهود الان فى الجن مللا كما فى الانس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاصنام واطبق المحققون على ان الجن مكلفون (سئل ابن عباس) هل للجن ثواب فقال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة ويزدحمون على ابوابها (الفرع الثانى) قال صاحب الكشاف النفر دون العشرة ويجمع على أنفار ثم روى محمد بن جرير الطبرى عن ابن عباس ان أولئك الجن كانوا سبعة نفر من اهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم وعن زر بن حبيش كانوا تسعة احدهم زوبعة وعن قتادة ذكر لنا انهم صرفوا اليه من ساوة (الفرع الثالث) اختلفوا فى انه هل كان عبدالله بن مسعود مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن والروايات فيه مختلفة ومشهورة (الفرع الرابع) روى القاضى فى تفسيره عن انس قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جبال مكة اذ اقبل شيخ متوكئ على عكازة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مشية جنى ونغمته فقال اجل فقال من اى الجن انت فقال انا هامة بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال لأرى بينك وبين ابليس الا ابوين فكم اتى عليك فقال اكلت عمر الدنيا الا اقلها وكنت وقت قتل قابيل هابيل امشى بين الآكام وذكر كثيرا مما مر به وذكر فى جملته ان قال قال لى عيسى بن مريم ان لقيت محمدا فاقرئه منى السلام وقد بلغت سلامه وآمنت بك فقال عليه السلام وعلى عيسى السلام وعليك يا هامة ما حاجتك فقال ان موسى عليه السلام علمنى التوراة وعيسى علمنى الانجيل فعلمنى القرآن فعلمه عشر سور وقبض صلى الله عليه وسلم ولم ينعه قال عمر بن الخطاب ولا أراه الا حيا واعلم ان تمام الكلام فى قصة الجن مذكور فى سورة الجن (المسئلة الثانية) اختلفوا فى تفسير قوله واذ صرفنا اليك نفرا من الجن فقال بعضهم لما لم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة القرآن عليهم فهو تعالى القى فى قلوبهم ميلا وداعية الى استماع القرآن فلهذا السبب قال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن ثم قال تعالى فلما حضروه الضمير للقرآن او لرسول الله قالوا اى قال بعضهم لبعض انصتوا اى اسكتوا مستمعين يقال انصت لكذا واستنصت له فلما فرغ من القراءة ولوا الى قومهم منذرين ينذرونهم وذلك لا يكون الا بعد ايمانهم لانهم لا يدعون غيرهم الى استماع القرآن والتصديق به الا وقد آمنوا فعنده قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى ووصفوه

بالشهب قالوا ماهذا الا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر او ستة نفر من اشراف جن نصيبين او نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا الى وادى نخلة فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم فى جوف الليل يصلى او فى صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف وعن سعيد بن جبير ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجن ولا رآهم وانما كان يتلو فى صلاته فروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فانبأه الله تعالى باستماعهم وقيل بل امره الله تعالى ان ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف اليه نفرا منهم جمعهم له فقال عليه الصلاة والسلام انى امرت ان اقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى قالها ثلاثا فاطرقوا الا عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه قال فانطلقنا حتى اذا كنا باعلى مكة فى شعب الحجون خط لى خطا فقال لا تخرج منه حتى اعود اليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته اسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما اسمع صوته عليه الصلاة والسلام ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت شيئا قلت نعم رجالا سوداء مستشعرى ثياب بيض فقال اولئك جن نصيبين وكانوا اثنى عشر الفا والسورة التى قرأها عليهم اقرأ باسم ربك (قالوا) اى عند رجوعهم الى قومهم (يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى) قيل قالوه لانهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام (مصدقا لما بين يديه) ارادوا به التوراة (يهدى الى الحق) من العقائد الصحيحة (والى طريق مستقيم) موصل اليه وهو الشرائع

(بوصفين)

والاعمال الصالحة (ياقومنا اجيبوا داعى الله وآمنوا به) (٥١٩) ارادوا به ماسمعوه من الكتاب وصفوه بالدعوة الى الله تعالى بعد

بوصفين (الاول) كونه مصدقا لما بين يديه اى مصدقا لكتب الانبياء والمعنى ان كتب سائر الانبياء كانت مشتملة على الدعوة الى التوحيد والنبوة والمعاد والامر بتطهير الاخلاق فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعانى (الثانى) قوله يهدى الى الحق والى طريق مستقيم واعلم ان الوصف الاول يفيد ان هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الالهية فى الدعوة الى هذه المطالب العالية الشريفة والوصف الثانى يفيد ان هذه المطالب التى اشتمل القرآن عليها مطالب حقة صدق فى انفسها يعلم كل احد بصريح عقله كونها كذلك سواء وردت الكتب الالهية قبل ذلك بها اولم تردفان قالوا كيف قالوا من بعد موسى قلنا قد نقلنا عن الحسن انه قال انهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس ان الجن ماسمعت امر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ثم ان الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا ياقومنا أجيبوا داعى الله واختلفوا فى انه هل المراد بداعى الله الرسول او الواسطة التى تبلغ عنه والاقرب انه هو الرسول لانه هو الذى يطلق عليه هذا الوصف واعلم ان قوله اجيبوا داعى الله فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذه الآية تدل على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن كما كان مبعوثا الى الانس قال مقاتل ولم يبعث الله نبيا الى الانس والجن قبله (المسئلة الثانية) قوله أجيبوا داعى الله أمر باجابته فى كل ماأمر به فيدخل فيه الامر بالايمان الا انه اعاد ذكر الايمان على التعيين لاجل انه اهم الاقسام واشرفها وقد جرت عادة القرآن بانه يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه اشرف انواعه كقوله وملائكته وجبريل وقوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ولما أمر بالايمان به ذكر فائدة ذلك الايمان وهى قوله يغفر لكم من ذنوبكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال بعضهم كلمة من ههنا زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل بل الفائدة فيه ان كلمة من ههنا لابتداء الغاية فكان المعنى انه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهى الى غفران ماصدر عنكم من ترك الاولى والاكمل (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان الجن هل لهم ثواب أم لا فقيل لاثواب لهم الا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى ويجركم من عذاب أليم وهو قول ابى حنيفة والصحيح انهم فى حكم بنى آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وهذا القول قول ابن ابى ليلى ومالك وجرت بينه وبين ابى حنيفة فى هذا الباب مناظرة قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون والدليل على صحة هذا القول ان كل دليل دل على ان البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم فى حق الجن والفرق بين البابين بعيد جدا واعلم ان ذلك الجنى لما أمر قومه باجابة الرسول والايمان به حذرهم من ترك تلك الاجابة فقال ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض اى لاينجى منه مهرب ولايسبق قضاءه سابق ونظيره قوله تعالى وانا ظننا أن لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا ولانجد له ايضا وليا

ماوصفوه بالهداية الى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما دعوهم الى ذلك بعد بيان حقيته واستقامته ترغيبا لهم فى الاجابة ثم اكدوه بقولهم (يغفر لكم من ذنوبكم) اوبعض ذنوبكم وهو ما كان فى خالص حق الله تعالى فان حقوق العباد لاتغفر بالايمان (ويجركم من عذاب اليم) معد للكفرة واختلف فى ان لهم اجرا غير هذا اولا والاظهر انهم فى حكم بنى آدم ثوابا وعقابا وقوله تعالى (ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض) ايجاب للاجابة بطريق الترهيب اثر ايجابها بطريق الترغيب وتحقيق لكونهم منذرين واظهار داعى الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة فى الايجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وادخال الروعة وتقييد الاعجاز بكونه فى الارض لتوسيع الدائرة اى فليس بمعجز له تعالى بالهرب وان هرب كل مهرب من اقطارها اودخل فى اعماقها وقوله تعالى (وليس له من دونه اولياء) بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير اثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الاولياء باعتبار معنى من فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد الى الآحاد كما ان الجمع فى قوله تعالى (اولئك) بذلك الاعتبار اى اولئك الموصوفون بعدم اجابة داعى الله (فى ضلال مبين) اى ظاهر كونه ضلالا بحيث لايخفى على احد حيث اعرضوا عن اجابة من هذا شأنه (أولم يروا) الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية اى ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما متاخما للمشاهدة والعيان (أن الله الذى خلق السموات والارض) ابتداء من غير مثال

ولانصير او لادافعا من دون الله ثم بين انهم فى ضلال مبين ❊ قوله تعالى (اولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على ان يحيى الموتى بلى انه على كل شئ قدير ويوم يعرض الذين كفرو على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر فى اول السورة مايدل على وجود الاله القادر الحكيم المختار ثم فرع عليه فرعين (الاول) ابطال قول عبدة الاصنام (والثانى) اثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فى النبوة واجاب عنها ولما كان اكثر اعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم فى استيفاء طيباتها وشهواتها وبسبب انه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلا وهم قوم عاد فانهم كانوا اكمل فى منافع الدنيا من قوم محمد فلما اصروا على الكفر ابادهم الله واهلكهم فكان ذلك تخويفا لاهل مكة باصرارهم على انكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ثم لما قرر نبوته على الانس اردفه باثبات نبوته فى الجن والى ههنا قد تم الكلام فى التوحيد وفى النبوة ثم ذكر عقيبهما تقرير مسئلة المعاد ومن تأمل فى هذا البيان الذى ذكرناه علم ان المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد واما القصص فالمراد من ذكرها مايجرى مجرى ضرب الامثال فى تقرير هذه الاصول (المسئلة الثانية) المقصود من هذه الآية اقامة الدلالة على كونه تعالى قادرا على البعث والدليل عليه انه تعالى اقام الدلائل فى اول هذه السورة على انه هو الذى خلق السموات والارض ولاشك ان خلقها اعظم وافخم من اعادة هذا الشخص حيا بعد ان صار ميتا والقادر على الاقوى الاكمل لابد وان يكون قادرا على الاقل الاضعف ثم ختم الآية بقوله انه على كل شئ قدير والمقصود منه ان تعلق الروح بالجسد امر ممكن اذ لو لم يكن ممكنا فى نفسه لما وقع اولا والله تعالى قادر على كل الممكنات فوجب كونه قادرا على تلك الاعادة وهذه الدلائل يقينية ظاهرة (المسئلة الثالثة) فى قوله تعالى بقادر ادخال الباء على خبر ان وانما جاز ذلك لدخول حرف النفى على ان ومايتعلق بها فكأنه قيل اليس الله بقادر قال الزجاج لو قلت ماظننت ان زيدا بقائم جاز ولايجوز ظننت ان زيدا بقائم والله اعلم (المسئلة الرابعة) يقال عييت بالامر اذا لم تعرف وجهه ومنه افعيينا بالخلق الاول واعلم انه تعالى لما اقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض احوال الكفار فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فقوله اليس هذا بالحق التقدير يقال لهم اليس هذا بالحق والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم ومانحن بمعذبين ❊ قوله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون) واعلم

(انه)

وقوله تعالى (بقادر) فى حيز الرفع لانه خبر ان كما ينبئ عنه القراءة بغير باء ووجه دخولها فى القراءة الاولى اشتمال النفى الوارد فى صدر الآية على ان وما فى حيزها كأنه قيل أوليس الله بقادر (على ان يحيى الموتى) ولذلك اجيب عنه بقوله تعالى (بلى انه على كل شئ قدير) تقريرا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) ظرف عامله قول مضمر مقوله (اليس هذا بالحق) على ان الاشارة الى مايشاهدونه حينئذ من حيث هو من غير ان يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه اذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه وقد مر فى سورة الاحزاب وقيل هى الى العذاب وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم ومانحن بمعذبين (قالوا بلى وربنا) اكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون فى الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما فى الدنيا وأنى لهم ذلك (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بها فى الدنيا ومعنى الامر الاهانة بهم والتوبيخ لهم والفاء فى قوله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) جواب شرط محذوف أى اذا كان عاقبة أمر الكفرة ماذكر فاصبر على مايصيبك من جهتهم كما صبر أولو الثبات والحزم من الرسل فانك من جملتهم بل من عليتهم ومن للتبيين وقيل للتبعيض والمراد باولى العزم اصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وقيل هم

انه تعالى لماقرر المطالب الثلاثة وهى التوحيد والنبوة والمعاد واجاب عن الشبهات اردفه بما يجرى مجرى الوعظ والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لان الكفار كانوا يؤذونه ويوجسون صدره فقال تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل اى أولوا الجد والصبر والثبات وفى الآية قولان (الاول) ان تكون كلمة من للتبعيض ويراد بأولو العزم بعض الانبياء قيل هم نوح صبر على اذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه وابراهيم على النار وذبح الولد واسحق على الذبح ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر ويوسف على الجب والسجن وايوب على الضر وموسى قال له قومه انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين وداود بكى على زلته اربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال انها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى فى آدم ولم نجد له عزما وفى يونس ولا تكن كصاحب الحوت (والقول الثانى) ان كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولا الا كان ذا عزم وحزم ورأى وكمال وعقل ولفظة من فى قوله من الرسل تبين لا تبعيض كما يقال كسيته من الخز وكأنه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على اذى قومهم ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم ثم قال ولا تستعجل لهم ومفعول الاستعجال محذوف والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه بعض الضجر واحب ان ينزل الله العذاب بمن ابى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم اخبر ان ذلك العذاب منهم قريب وانه نازل بهم لا محالة وان تأخر وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار والمعنى انهم اذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم فى الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من النهار او كأن لم يكن لهول ماعاينوا او لان الشئ اذا مضى صار كأنه لم يكن وان كان طويلا قال الشاعر

كأن شيئا لم يكن اذا مضى * كأن شيئا لم يزل اذا أتى

واعلم انه تم الكلام ههنا ثم قال تعالى بلاغ اى هذا بلاغ ونظيره قوله تعالى هذا بلاغ للناس اى هذا الذى وعظتم به فيه كفاية فى الموعظة او هذا تبليغ من الرسل فهل يهلك الا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه والله أعلم (قال المصنف رحمه الله تعالى) تم تفسير هذه السورة يوم الاربعاء العشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله واصحابه وازواجه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على اذية قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وابراهيم صبر على النار وعلى ذبح ولده والذبيح على الذبح ويعقوب على فقد الولد والبصر ويوسف على الجب والسجن وايوب على الضر وموسى قال له قومه انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين وداود بكى على خطيئته اربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة صلوات الله تعالى وسلامه عليهم اجمعين (ولا تستعجل لهم) اى لكفار مكة بالعذاب فانه على شرف النزول بهم (كأنهم يوم يرون مايوعدون) من العذاب (لم يلبثوا) فى الدنيا (الا ساعة) يسيرة (من نهار) لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدأ محذوف اى هذا الذى وعظتم به كفاية فى الموعظة او تبليغ من الرسول

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثون وتسع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم) اول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة فان آخرها قوله تعالى فهل يهلك الا القوم الفاسقون فان قال قائل كيف يهلك الفاسق وله اعمال صالحة كاطعام الطعام وصلة الارحام وغير ذلك مما

لايخلو عنه الانسان فى طول عمره فيكون فى اهلاكه اهدار عمله وقدقال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وقال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل اعمالهم اى لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الاهلاك وسنبين كيف ابطال الاعمال مع تحقيق القول فيه وتعالى الله عن الظلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) من المراد بقوله الذين كفروا قلنا فيه وجوه (الاول) هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم ابوجهل والحرث ابناهشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم (الثانى) كفار قريش (الثالث) اهل الكتاب (الرابع) هو عام يدخل فيه كل كافر (المسئلة الثانية) فى الصدوجهان (احدهما) صدوا انفسهم معناه انهم صدوا انفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل (وثانيهما) صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين قال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين وعلى هذا فيه بحث وهو ان اضلال الاعمال مرتب على الكفر والصد والمستضعفون لم يصدوا فلايضل اعمالهم فنقول التخصيص بالذكر لايدل على نفى ماعداه ولاسيما اذا كان المذكور اولى بالذكر من غيره وههنا الكافر الصاد ادخل فى الفساد فصار هو اولى بالذكر او نقول كل من كفر صار صادا لغيره اما المستكبر فظاهر واما المستضعف فلأنه بمتابعته اثبت للمستكبر مايمنعه من اتباع الرسول فانه بعد مايكون متبوعا يشق عليه بأن يصير تابعا ولان كل من كفر صار صادا لمن بعده لان عادة الكفار اتباع المتقدم كما قال عنهم انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون او مقتدون فان قيل فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة فى ذكر الصد بعد الكفر نقول هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه تقول أكلت كثيرا وشبعت والكفر على هذا سبب الصد ثم اذا قلنا بأن المراد منه انهم صدوا انفسهم ففيه اشارة الى ان مافى الانفس من الفطرة كان داعيا الى الايمان والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه (المسئلة الثالثة) فى المصدود عنه وجوه (الاول) عن الانفاق على محمد عليه السلام واصحابه (الثانى) عن الجهاد (الثالث) عن الايمان (الرابع) عن كل مافيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم هاد اليه وهو صراط الله قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله (المسئلة الرابعة) فى الاضلال وجوه (الاول) المراد منه الابطال ووجهه هو ان المراد انه اضله بحيث لايجده فالطالب انما يطلبه فى الوجود ومالايوجد فى الوجود فهو معدوم فان قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها نقول ان الابطال على وجوه (احدها) يوازن بسيآتهم الحسنات التى صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقى لهم سيآت محضة لان الكفر يزيد على غير الايمان من الحسنات والايمان يترجح على غير الكفر من السيآت (وثانيها) ابطلها لفقد شرط ثبوتها واثباتها وهو الايمان لانه شرط قبول العمل قال تعالى من عمل صالحا من ذكر

ويؤيده انه قرئ بلغ وقرئ بلاغا اى بلغوا بلاغا (فهل يهلك الا القوم الفاسقون) اى الخارجون عن الاتعاظ به او عن الطاعة وقرئ بفتح الياء وكسر اللام وبفتحهما من هلك وهلك وبنون العظمة من الاهلاك ونصب القوم ووصفه * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الاحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا

*سورة محمد صلى الله عليه وسلم وتسمى سورة القتال وهى مدنية وقيل مكية وآيها تسع او ثمان وثلاثون) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) اى اعرضوا عن الاسلام وسلوك طريقه من صد صدودا او منعوا الناس عن ذلك من صده صدا كالمطعمين يوم بدر وقيل هم اثنا عشر رجلا من اهل الشرك

او انثى وهو مؤمن واذا لم يقبل الله العمل لايكون له وجود لان العمل لابقاء له فى نفسه بل هو يعدم عقيب مايوجد فى الحقيقة غير ان الله تعالى يكتب عنده بفضله ان فلانا عمل صالحا وعندى جزاؤه فيبقى حكما وهذا البقاء حكما خير من البقاء الذى للاجسام التى هى محل الاعمال حقيقة فان الاجسام وان بقيت غير ان مآلها الى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عندالله ابدا واذا ثبت هذا تبين ان الله بالقبول متفضل وقد اخبرانى لاأقبل الامن مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الايمان فهو المضيع تعبه لاالله تعالى (وثالثها) لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلاير دعلينا قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وبيانه هو ان العمل لايتميز الابمن له العمل لابالعامل ولابنفس العمل وذلك لان من قام ليقتل شخصا ولم يتفق قتله ثم قام ليكرمه ولم يتفق الاكرام ولاالقتل وأخبره عن نفسه انه قام فى اليوم الفلانى لقتله وفى اليوم الآخر لاكرامه يتميز القيامان لابالنظر الى القيام فانه واحد ولابالنظر الى القائم فانه حقيقة واحدة وانما يتميز بما كان لاجله القيام وكذلك من قام وقصد بقيامه اكرام الملك وقام وقصد بقيامه اكرام بعض العوام يتميز احدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم الى الاصنام فوق نسبة الملوك الى العوام فالعمل للاصنام ليس بخير ثم ان اتفق ان يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الاوثان لايكون عمله خيرا لان مثل ماأتى به لوجه الله اتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم (الوجه الثانى) الاضلال هو جعله مستهلكا وحقيقته هو انه اذا كفر وأتى للاحجار والاخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لايبقى معتبرا بسبب كفره وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس اذا قام فالسلطان لايعلم قيامه تعظيما لخسته كذلك الكافر واما المؤمن فبقدرما يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله كالملك الذى لاينقاد لاحد اذا انقاد فى وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته (الوجه الثالث) اضله اى اهمله وتركه كما يقال اضل بعيره اذا تركه مسيبا فضاع ثم ان الله تعالى لمابين حال الكفار بين حال المؤمنين * فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وامنوا بمانزل على محمد وهو الحق من ربهم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا مرارا ان الله تعالى كلما ذكر الايمان والعمل الصالح رتب عليهما المغفرة والاجر كما قال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم وقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم وقلنا بأن المغفرة ثواب الايمان والاجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه فى سورة العنكبوت فنقول ههنا جزاء ذلك قوله كفر عنهم سيآتهم اشارة الى مايثيب على الايمان وقوله واصلح بالهم اشارة الى مايثيب على العمل الصالح (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة تكفير السيآت مرتب على الايمان والعمل الصالح فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى فى العذاب خالدا فنقول لوكان كما ذكرتم لكان الاضلال مرتبا على الكفر والصد فمن يكفر لاينبغى ان تضل اعماله اونقول قد ذكرنا ان

كانوا يصدون الناس عن الاسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل اهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من ارادمنهم ومن غيرهم ان يدخل فى الاسلام وقيل هو عام فى كل من كفر وصد (اضل اعمالهم) اى أبطلها واحبطها وجعلها ضائعة لااثر لها اصلا لكن لابمعنى انه ابطلها وأحبطها بعد ان لم تكن كذلك بل بمعنى انه حكم ببطلانها وضياعها فان ما كانوا يعملون من اعمال البر كصلة الارحام وقرى الاضياف وفك الاسارى وغيرها من المكارم ليس لها أثر من اصلها لعدم مقارنتها للايمان او ابطل ماعملوه من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيله بنصر رسوله واظهار دينه على الدين كله وهو الاوفق لماسيأتى من قوله تعالى فتعسا لهم واضل اعمالهم وقوله تعالى فاذا لقيتم

الله تعالى رتب امرين على امرين فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحا اصلح باله او نقول اى مؤمن يتصور انه غيرآت بالصالحات بحيث لايصدرعنه صلاة ولاصيام ولاصدقة ولااطعام وعلى هذا فقوله وعملوا عطف المسبب على السبب كما قلنا فى قول القائل أكلت كثيرا وشبعت (المسئلة الثالثة) قوله وآمنوا بمانزل على محمد مع ان قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه فنقول اما وجهه فبيانه من وجوه (الاول) قوله والذين آمنوا اى بالله ورسوله واليوم الآخر وقوله وآمنوا بما نزل اى بجميع الاشياء الواردة فى كلام الله ورسوله تعميم بعد امور خاصة وهو حسن تقول خلق الله السموات والارض وكل شئ اما على معنى وكل شئ غير ماذكرنا واما على العموم بعد ذكر الخصوص (الثانى) ان يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بمانزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعنى آمنوا اولا بالمعجز وايقنوا بأن القرآن لايأتى به غير الله فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ويجوز ان يكون المتأخر ذكرا متقدما وقوعا وهذا كقول القائل آمن به وكان الايمان به واجبا او يكون بيانا لايمانهم كأنهم آمنوا وآمنوا بمانزل على محمد اى آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيبا اى وكان خروجى جيدا حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لماقال آمنوا بين ان ايمانهم كان بما امر الله وانزل الله لابما كان باطلا من عند غير الله (الثالث) ماقاله اهل المعرفة وهو ان العلم العمل والعمل العلم فالعلم يحصل ليعمل به لماجاء اذا عمل العالم العمل الصالح علم مالم يكن يعلم فيعلم الانسان مثلا قدرة الله بالدليل وعلمه وامره فيحمله الامر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه فاذا اتى بالعمل الصالح علم من انواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى مالم يعلمه احد الابا طلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن وهذا هو المعنى فى قوله هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم فاذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحا حمله علمه على ان يؤمن بكل ماقاله محمد ولم يجد فى نفسه شكا وللمؤمن فى المرتبة الاولى احوال وفى المرتبة الاخيرة احوال امافى الايمان بالله ففى الاول يجعل الله معبودا وقد يقصد غيره فى حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمرو ويجعل امرا سببا لامر وفى الاخيرة يجعل الله مقصودا ولايقصد غيره ولايرى الامنه سره وجهره فلا ينيب الى شئ فى شئ فهذا هو الايمان الآخر بالله وذلك الايمان الاول واما فى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول اولا هو صادق فيما ينطق ويقول آخرا لانطق له الابالله ولا كلام يسمع منه الا وهو من الله فهو فى الاول يقول بالصدق ووقوعه منه وفى الثانى يقول بعدم امكان الكذب منه لان حاكى كلام الغير لاينسب اليه الكذب ولايمكن الافى نفس الحكاية وقد علم هو انه حاك عنه كما قاله واما فى المرتبة الاولى فيجعل الحشر مستقبلا والحياة العاجلة حالا وفى المرتبة الاخيرة يجعل الحشر حالا والحياة الدنيا ماضيا فيقسم حياة نفسه

الخ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقيل هم ناس من قريش وقيل من الانصار وقيل هم مؤمنوا اهل الكتاب وقيل عام للكل (وآمنوا بما نزل على محمد) خص بالذكر الايمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر مايجب الايمان به وانه الاصل فى الكل ولذلك اكد بقوله تعالى (وهو الحق من ربهم) بطريق حصر الحقية فيه وقيل حقيته بكونه ناسخا غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الاول مقابل الباطل واياما كان فقوله تعالى من ربهم حال من ضمير الحق وقرئ نزل على البناء للفاعل وانزل على البنائين ونزل بالتخفيف (كفر عنهم سياتهم) اى سترها بالايمان والعمل الصالح (واصلح بالهم) اى حالهم فى الدين والدنيا بالتأييد

فى كل لحظة ويجعل الدنيا كلها عدما لايلتفت اليها ولايقبل عليها (المسئلة الرابعة) قوله وآمنوا بما نزل على محمد هو فى مقابلة قوله فى حق الكافر وصدوا لانا بينا فى وجدان المراد بهم صدوا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حث على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم فهم صدوا انفسهم عن سبيل الله وهو محمد عليه السلام وما انزل عليه وهؤلاء حثوا انفسهم على اتباع سبيله لاجرم حصل لهؤلاء ضدما حصل لاولئك فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيآت هؤلاء (المسئلة الخامسة) قوله تعالى وهو الحق من ربهم هل يمكن ان يكون من ربهم وصفا فارقا كما يقال رأيت رجلا من بغداد فيصير وصفا للرجل فارقا بينه وبين من يكون من الموصل وغيره نقول لالان كل ما كان من الله فهو الحق فليس هذا هو الحق من ربهم بل قوله من ربهم خبر بعد خبر كأنه قال وهو الحق وهو من ربهم او ان كان وصفا فارقا فهو على معنى انه الحق النازل من ربهم لان الحق قد يكون مشاهدا فان كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازلا من الرب بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى لنا ❊ ثم قال تعالى (كفر عنهم سيآتهم وأصلح بالهم) اى ستر ها وفيه اشارة الى بشارة ما كانت تحصل بقوله اعدمها ومحاها لان محو الشئ لاينبئ عن اثبات أمر آخر مكانه واما الستر فينبئ عنه وذلك لان من يريد ستر ثوب بال او وسخ لايستره بمثله وانما يستره بثوب نفيس نظيف ولاسيما الملك الجواد اذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالى امر باحضار ثوب من الجنس العالى لايحصل الا بالثمن الغالى فيلبس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين وكذلك المغفرة فان المغفرة والتكفير من باب واحد فى المعنى وهذا هو المذكور فى قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقوله واصلح بالهم اشارة الى ماذكرنا من انه يبدلها حسنة فان قيل كيف تبدل السيئة حسنة نقول معناه انه يجزيه بعد سيآته ما يجزى المحسن على احسانه فان قال الاشكال باق وباد ومازال بل زاد فان الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة لكان ذلك حثا على السيئة نقول ماقلنا انه يثيب على السيئة وانما قلنا انه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة وذلك حيث يأتى المؤمن بسيئة ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدى ربه معترفا بذنبه مستحقرا لنفسه فيصير اقرب الى الرحمة من الذى لم يذنب ودخل على ربه مفتخرا فى نفسه فصار الذنب شرطا للندم والثواب ليس على السيئة وانما هو على الندم وكان الله تعالى قال عبدى اذنب ورجع الى ففعله سيئ لكن ظنه بى حسن حيث لم يجد ملجأ غيرى فاتكل على فضلى والظن عمل القلب والفعل عمل البدن واعتبار عمل القلب اولى ألاترى ان النائم والمغمى عليه لايلتفت الى عمل بدنه والمفلوج الذى لاحركة له يعتبر قصد قلبه ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدى ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه فى استنانه فهل يلتفت الى فعل الدابة مع فعل الفارس بلى لو كان الراكب فارغا والفرس يؤذى بالتلويث يخاطب الفارس به فكذلك الروح راكب والبدن مركوب فان كانت

والتوفيق (ذلك) اشارة الى مامر من اضلال الاعمال وتكفير السيآت واصلاح البال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) اى ذلك كائن بسبب ان الاولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا مافعلوا من الكفر والصد فبيان سببية اتباعه للاضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه اصلا مستتبعا لهما قطعا وبسبب ان الآخرين اتبعوا الحق الذى لامحيد عنه كائنا من ربهم ففعلوا مافعلوا من الايمان به وبكتابه ومن الاعمال الصالحة فبيان سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والاصلاح بعد الاشعار بسببية الايمان والعمل الصالح له متضمن لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تدافع بين الاشعار والتصريح فى شئ

الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ويصدر من البدن شئ لايلتفت اليه بل يستحسن منه ذلك ويزاد فى تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف وان كان غير مشغول فهو مؤاخذ بافعال البدن * ثم قال تعالى (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى ذلك الاضلال والابطال بسبب اتباعهم الباطل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الباطل وجوه (الاول) مالايجوز وجوده وذلك لانهم اتبعوا الها غير الله واله غير الله محال الوجود وهو الباطل وغاية الباطل لان الباطل هو المعدوم يقال بطل كذا أى عدم والمعدوم الذى لايجوز وجوده ولايمكن ان يوجد ولايجوز ان يصير حقا موجودا فهو فى غاية البطلان فعلى هذا فالحق هو الذى لايمكن عدمه وهو الله تعالى وذلك لان الحق هو الموجود يقال تحقق الامر أى وجد وثبت والموجود الذى لايجوز عدمه هو فى غاية الثبوت (الثانى) الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين فبين ان الشيطان متبوع واتباعه هم الكفار والفجار وعلى هذا فالحق هو الله لانه تعالى جعل فى مقابلة حزب الشيطان حزب الله (الثالث) الباطل هو قول كبرائهم ودين آبائهم كما قال تعالى عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون او مقتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبى عليه السلام عن الله (الرابع) الباطل كل ماسوى الله تعالى لان الباطل والهالك بمعنى واحد وكل شئ هالك الا وجهه وعلى هذا فالحق هو الله تعالى ايضا (المسئلة الثانية) لو قال قائل من ربهم لايلائم الا وجها واحدا من اربعة اوجه وهو قولنا المراد من الحق هو ما انزل الله وما قال النبى عليه السلام من الله فأما على قولنا الحق هو الله فكيف يصح قوله اتبعوا الحق من ربهم نقول على هذا من ربهم لايكون متعلقا بالحق وانما يكون تعلقه بقوله تعالى اتبعوا اى اتبعوا امر ربهم اى من فضل الله او هداية ربهم اتبعوا الحق وهو الله سبحانه (المسئلة الثالثة) اذا كان الباطل هو المعدوم الذى لايجوز وجوده فكيف يمكن اتباعه نقول لما كانوا يقولون انما يفعلون للاصنام وهى آلهة وهى تؤجرهم بذلك كانوا متبعين فى زعمهم ولامتبع هناك (المسئلة الرابعة) قال فى حق المؤمنين اتبعوا الحق من ربهم وقال فى حق الكفار اتبعوا الباطل من آلهتهم او الشيطان نقول اما آلهتهم فلأنهم لاكلام لهم ولاعقل وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم كما قال تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم وقال تعالى وكانوا بعبادتهم كافرين والله تعالى رضى بفعلهم وثبتهم عليه ويحتمل ان يقال قوله من ربهم عائد الى الامرين جميعا اى من ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق اى من حكم ربهم ومن عند ربهم * ثم قال تعالى (كذلك يضرب الله للناس امثالهم) وفيه ايضا مسائل (المسئلة الاولى) اى مثل ضربه الله تعالى حتى يقول كذلك يضرب الله للناس امثالهم نقول فيه وجهان (احدهما) اضلال اعمال الكفار وتكفير سيآت الابرار (الثانى) كون الكافر متبعا للباطل وكون المؤمن متبعا للحق ويحتمل وجهين آخرين

(احدهما)

من الموضعين ويجوز ان يحمل الباطل على مايقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذى لااصل له اصلا فالتصريح بسببية اتباعه لاضلال اعمالهم وابطالها بيان ان ابطالها لبطلان مبناها وزواله واما حمله على مالاينتفع به فليس كما ينبغى لما ان الكفر والصد أخص منه فلاوجه للتصريح بسببيته لما ذكر من اضلال اعمالهم بطريق القصر بعد الاشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز ان يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الايمان والاعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الاضلال ومن التكفير والاصلاح تصريحا بالسببية المشعر بها فى الموقعين (كذلك) اى مثل ذلك الضرب البديع (يضرب الله) اى يبين (للناس امثالهم) اى احوال الفريقين واوصافهما الجارية فى الغرابة

(احدهما) على قولنا من ربهم اى من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الامثال فان الكل من عند الله الاضلال وغيره والاتباع وغيره (وثانيهما) هو ان الله تعالى لما بين ان الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيآته وكان بين الكفر والايمان مباينة ظاهرة فانهما ضدان نبه على ان السبب كذا اى ليس الاضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل واذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة واحدهما يورث ابطال الاعمال والآخر يورث تكفير السيآت بسبب ان احدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل فان من يؤمن ظاهرا وقلبه مملوء من الكفر ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الايمان اتحد فعلاهما فى الظاهر وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل لا بدع من ذلك فان من يؤمن ظاهرا وهو يسر الكفر ومن يكفر ظاهرا بالاكراه وقلبه مطمئن بالايمان اختلف الفعلان فى الظاهر وابطال الاعمال لمن اظهر الايمان بسبب ان اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والايمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه وهو اتباع الحق والباطل فكذلك اعلموا ان كل شئ اتبع فيه الحق كان مقبولا مثابا عليه وكل امر اتبع فيه الباطل كان مردودا معاقبا عليه فصار هذا عاما فى الامثال على انا نقول قوله كذلك لا يستدعى ان يكون هناك مثل مضروب بل معناه انه تعالى لما بين حال الكافر واضلال اعماله وحال المؤمن وتكفير سيآته وبين السبب فيهما كان ذلك غاية الايضاح فقال كذلك أى مثل هذا البيان يضرب الله للناس أمثالهم ويبين لهم احوالهم (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله امثالهم عائد الى من فيه وجهان (أحدهما) الى الناس كافة قال تعالى يضرب الله للناس أمثالهم على انفسهم (وثانيهما) الى الفريقين السابقين فى الذكر معناه يضرب الله للناس امثال الفريقين السابقين ❊ ثم قال تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم)وفيه مسائل (المسئلة الاولى)الفاء فى قوله فاذا لقيتم يستدعى متعلقا يتعلق به ويترتب عليه فاوجه التعلق بما قبله نقول هو من وجوه (الاول) لما بين ان الذين كفروا أضل الله اعمالهم واعتبار الانسان بالعمل ومن لم يكن له عمل فهو همج فان صار مع ذلك يؤذى حسن اعدامه فاذا لقيتم بعد ظهور ان لا حرمة لهم وبعد ابطال اعمالهم فاضربوا اعناقهم (الثانى) اذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين وان احدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب فاذا لقيتموهم فاقتلوهم (الثالث) ان من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره ايلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذى هو تخريب بنيان فيقال ردا عليهم لما كان اعتبار الاعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل فى سبيل الله لتعظيم امر الله لهم من الاجر ما للمصلى والصائم فاذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فان ذلك اتباع الحق والاعتبار به لا بصورة الفعل (المسئلة الثانية)

مجرى الامثال وهى اتباع الاولين الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء فى قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) لترتيب ما فى حيزها من الامر على ماقبلها فان ضلال اعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح احوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب ان يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الاحكام اى فاذا كان الامر كما ذكر فاذا لقيتموهم فى المحاربة (فضرب الرقاب) اصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر وانيب منابه مضافا الى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لامره وارشاد للغزاة الى ايسر ما يكون

فضرب منصوب على المصدر اى فاضربوا ضرب الرقاب (المسئلة الثالثة) ما الحكمة فى اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الاعضاء نقول فيه لما بين ان المؤمن ليس بدافع انما هو دافع وذلك ان من يدفع الصائل لا ينبغى ان يقصد اولا مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل فان اندفع فذاك ولا يترقى الى درجة الاهلاك فقال تعالى ليس المقصود الا دفعهم عن وجه الارض وتطهير الارض منهم وكيف لا والارض لكم مسجد والمشركون نجس والمسجد يطهر عن النجاسة فاذن ينبغى ان يكون قصدكم اولا الى قتلهم بخلاف دفع الصائل والرقبة اظهر المقاتل لان قطع الحلقوم والاوداج مستلزم للموت لكن فى الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة فى الحرب ففى ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما فى الحرب وفى قوله لقيتم ماينبئ عن مخالفتهم الصائل لان قوله لقيتم يدل على ان القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ولذلك قال فى غير هذا الموضع فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (المسئلة الرابعة) قال ههنا ضرب الرقاب باظهار المصدر وترك الفعل وقال فى الانفال فاضربوا فوق الاعناق باظهار الفعل وترك المصدر فهل فيه فائدة نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة وهى ان المقصود اولا فى بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنا اذ لا يمكن ان يفعل فاعل الا ويقع منه المصدر فى الوجود وقد يكون المقصود اولا المصدر ولكنه لا يوجد الا من فاعل فيطلب منه ان يفعل مثاله من قال انى حلفت ان اخرج من المدينة فيقال له فاخرج صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج فى نفسه غير مقصود الانتفاء ولو امكن ان يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه الان يخرج لكن من ضرورات الخروج ان يخرج فاذا قال قائل ضاق بى المكان بسبب الاعداء فيقال له مثلا الخروج يعنى الخروج فاخرج فان الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل اذا عرفت هذا فنقول فى الانفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة انزلوا لنصرة من حضر فى صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب وههنا الامر وارد وليس فى وقت القتال بدليل قوله تعالى فاذا لقيتم والمقصود بيان كون المصدر مطلوبا بالتقدم المأمور على الفعل قال فضرب الرقاب وفيما ذكرنا تبين فائدة اخرى وهى ان الله تعالى قال هناك واضربوا منهم كل بنان وذلك لان الوقت وقت القتال فأرشدهم الى المقتل وغيره ان لم يصيبوا المقتل وههنا ليس وقت القتال فبين ان المقصود القتل وغرض المسلم ذلك (المسئلة الخامسة) حتى لبيان غاية الامر لا لبيان غاية القتل اى حتى اذا أثخنتموهم لا يبقى الامر بالقتل ويبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل والقتل جائز اذا تحقق المثخن بالشيخ الهرم والمراد كما اذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله ❊ ثم قال تعالى (فشدوا الوثاق) امر ارشاد ❊ ثم قال تعالى (فاما منا بعد واما فداء) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اما وانما للحصر وحالهم بعد الاسر غير منحصر

منه (حتى اذا أثخنتموهم) اى اكثرتم قتلهم واغلظتموه من الشئ الثخين وهو الغليظ او اثقلتموهم بالقتل والجراح حتى اذهبتم عنهم النهوض (فشدوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرئ بذلك (فاما منا بعد واما فداء) اى فاما تمنون منا بعد ذلك او تفدون فداء والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمن والفداء وهذا ثابت عند الشافعى رحمه الله تعالى وعندنا منسوخ قالوا نزل ذلك يوم بدر ثم نسخ والحكم اما القتل او الاسترقاق وعن مجاهد ليس اليوم من ولا فداء انما هو الاسلام او ضرب العنق

فى الامرين بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء نقول هذا ارشاد فذكر الامر العام الجائز فى سائر الاجناس والاسترقاق غير جائز فى اسر العرب فان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم فلم يذكر الاسترقاق واما القتل فلان الظاهر فى المثخن الازمان ولان القتل ذكره بقوله فضرب الرقاب فلم يبق الا الامران (المسئلة الثانية) مناوفداء منصوبان لكونهما مصدرين تقديره فاما تمنون مناواما تفدون فداء وتقديم المن على الفداء اشارة الى ترجيح حرمة النفس على طلب المال والفداء يجوز ان يكون مالاوان يكون غيره من الاسرى اوشرطا يشرط عليهم اوعليه وحده (المسئلة الثالثة) اذاقدرنا الفعل وهو تمنون اوتفدون على تقدير المفعول حتى نقول اما تمنون عليهم مناواو تفدونهم فداء نقول لا لان المقصود المن والفداء لاعليهم وبهم كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يقال يعطى زيدا ويمنع عمرا لان غرضه ذكر كونه فاعلا لابيان المفعول وكذلك ههنا المقصود ارشاد المؤمنين الى الفضل ❁ ثم قال تعالى (حتى تضع الحرب اوزارها) وفى تعلق حتى وجهان (احدهما) تعلقها بالقتل اى اقتلوهم حتى تضع (وثانيهما) بالمن والفداء ويحتمل ان يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل اظهر وان كان ذكره ابعد وفى الاوزار وجهان (احدهما) السلاح (والثانى) الآثام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان كان المراد الاثم فكيف تضع الحرب الاثم والاثم على المحارب وكذلك السؤال فى السلاح لكنه على الاول اشد توجها فنقول تضع الحرب الاوزار لامن نفسها بل تضع الاوزار التى على المحاربين والسلاح الذى عليهم (المسئلة الثانية) هل هذا كقوله تعالى واسئل القرية حتى يكون كأنه قال حتى تضع امة الحرب اوفرقة الحرب اوزارها نقول ذلك محتمل فى النظر الاول لكن اذا امعنت فى المعنى تجد بينهما فرقا وذلك لان المقصود من قوله حتى تضع الحرب اوزارها انقراض الحرب بالكلية بحيث لايبقى فى الدنيا حزب من احزاب الكفر يحارب حزبا من احزاب الاسلام ولو قلنا حتى تضع امة الحرب جاز ان يضعوا الاسلحة ويتركوا الحرب وهى باقية بمادتها كما تقول خصومتى ماانفصلت ولكنى تركتها فى هذه الايام واذا اسندنا الوضع الى الحرب يكون معناه ان الحرب لم يبق (المسئلة الثالثة) لو قال حتى لايبقى حرب اوينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله حتى تضع الحرب اوزارها نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم بل النظر الى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية وقولك لم يبق من دولتهم اثر ولاشك ان الثانى ابلغ فكذلك ههنا قوله تعالى اوزارها معناه آثارها فان اوزار الحرب من آثارها (المسئلة الرابعة) وقت وضع اوزار الحرب متى هو نقول فيه اقوال حاصلها راجع الى ان ذلك الوقت هو الوقت الذى لايبقى فيه حزب من احزاب الاسلام وحزب من احزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام ❁ ثم قال تعالى (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) فى معنى ذلك وجهان (احدهما) الامر ذلك والمبتدأ محذوف ويحتمل ان يقال ذلك واجب اومقدم

وقرئ فدا كعصا (حتى تضع الحرب اوزارها) اوزار الحرب آلاتها وأثقالها التى لاتقوم الابها من السلاح والكراع واسند وضعها اليها وهو لاهلها اسنادا مجازيا وحتى غاية عند الشافعى لاحد الامور الاربعة اوللمجموع والمعنى انهم لايزالون على ذلك ابدا الى ان لايكون مع المشركين حرب بأن لاتبقى لهم شوكة وقيل بأن ينزل عيسى عليه السلام وأما عند ابى حنيفة رحمه الله تعالى فان حمل الحرب على حرب بدر فهى غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر اوزارها وان حملت على الجنس فهى غاية للضرب والشد والمعنى انهم يقتلون ويؤسرون حتى يضع جنس الحرب اوزارها بأن لايبقى للمشركين شوكة وقيل اوزارها آثامها اى حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم بأن اسلموا (ذلك) اى الامر ذلك اوافعلوا ذلك (ولو يشاء الله لانتصر منهم) لانتقم منهم ببعض اسباب الهلكة والاستئصال (ولكن) لم يشأ ذلك (ليبلو بعضكم

كما يقول القائل ان فعلت فذاك اى فذاك مقصود ومطلوب ثم بين ان قتالهم ليس طريقا متعينا بل الله لو أراد اهلكهم من غير جند * قوله تعالى (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) اى ولكن ليكلفكم به فيحصل لكم شرف باختياره اياكم لهذا الامر فان قيل ما التحقيق فى قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى وماذا يفهم من قوله ولكن ليبلو بعضكم ببعض نقول فيه وجوه (الاول) ان المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين اى كما يفعل المبتلى المختبر ومنها ان الله تعالى يبلو ليظهر الامر لغيره اما للملائكة واما للناس والتحقيق هو ان الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه امر غير متعين عند العقلاء بالنظر اليه قصدا الى ظهوره وقولنا فعل يظهر بسببه امر ظاهر الدخول فى مفهوم الابتداء لان ما لا يظهر بسببه شئ اصلا لا يسمى ابتلاء واما قولنا امر غير متعين عند العقلاء وذلك لان من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال انه يمتحن لان الامر الذى يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين فاذا ضرب بسيفه سبعا يقال يمتحن سيفه لان الامر فيه غير متعين وقد يقده وقد لا يقده واما قولنا ليظهر منه ذلك فلان من يضرب سبعا بسيفه ليدفعه عن نفسه يقال انه يمتحن لان ضربه ليس لظهور امر متعين اذا علم هذا فنقول الله تعالى اذا امر بفعل يظهر بسببه امر غير متعين وهو اما الطاعة او المعصية فى العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنا وان كان عالما به لكون عدم العلم مقارنا فينا الابتلاء فاذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر امرنا وليس من ضرورات الابتلاء (فان قيل) الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى فاذا كان الله تعالى عالما فأية فائدة فيه نقول ليس هذا سؤالا يختص بالابتلاء فان قول القائل لم ابتلى كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ولم خلق النار محرقة وهو قادر على ان يخلقها بحيث تنفع ولا تضر (وجوابه) لا يسئل عما يفعل ونقول حينئذ ما قاله المتقدمون انه لظهور الامر المتعين لا له وبعد هذا فنقول المبتلى لا حاجة له الى الامر الذى يظهر من الابتلاء فان الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له الى قطع ما يجرب السيف فيه حتى انه لو كان محتاجا كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال انه يمتحن وقوله ليبلو بعضكم ببعض اشارة الى عدم الحاجة تقرير القوله تعالى ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم * ثم قال تعالى (والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل اعمالهم) قرئ قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم اما من قرأ قتلوا فلانه لما قال فضرب الرقاب ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل اعمالهم ردا على من زعم ان القتل فساد محرم اذ هو افناء من هو مكرم فقال عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر اضل الله اعمال الكفار ولن يضل القاتلين فكيف يكون القتل سيئة واما من قرأ قاتلوا فهو اكثر فائدة واعم تناولا لانه يدخل فيه من سعى فى القتل سواء قتل او لم يقتل واما من قرأ والذين قتلوا على البناء للمفعول فنقول هى مناسبة لما تقدم من وجوه (احدها) هو انه تعالى لما قال فضرب الرقاب اى اقتلوا والقتل لا يتأتى الا بالاقدام

(وخوف)

ببعض) فامركم بالقتال وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجب الوعد والكافرين بكم ليعاجلهم على ايديكم ببعض عذابهم كى يرتدع بعضهم عن الكفر (والذين قتلوا فى سبيل الله) اى استشهدوا وقرئ قاتلوا اى جاهدوا وقتلوا وقتلوا (فلن يضل اعمالهم) اى فلن يضيعها وقرئ يضل اعمالهم على البناء للمفعول ويضل اعمالهم من ضل وعن قتادة انها نزلت فى يوم احد (سيهديهم) فى الدنيا الى ارشد الامور وفى الآخرة الى الثواب او سيثبت هدايتهم (ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم) فى الدنيا بذكر اوصافها بحيث اشتاقوا اليها او بينها لهم بحيث يعلم كل احد منزله ويهتدى اليه كانه كان ساكنه منذ خلق وعن مقاتل ان الملك الموكل بعمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شئ اعطاه الله تعالى او طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة او حددها لهم وأفرزها من عرف الدار فجنة كل منهم

محددة مفرزة والجملة امامستأنفة اوحال باضمار قداوبدونه (ياايها الذين آمنوا ان تنصروا الله) اى دينه ورسوله (ينصركم) على اعدائكم ويفتح لكم (ويثبت اقدامكم) فى مواطن الحرب ومواقفها اوعلى محجة الاسلام (والذين كفروا فتعسا لهم) التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعا اى فقال تعسالهم اوفقضى تعسالهم وقوله تعالى (واضل اعمالهم) عطف عليه داخل معه فى حيز الخبرية للموصول (ذلك) اى ماذكر من التعس واضلال الاعمال (بأنهم) بسبب انهم (كرهوا ما انزل الله) من القرآن لمافيه من التوحيد وسائر الاحكام المخالفة لما القوه واشتهته انفسهم الامارة بالسوء (فأحبط) لاجل ذلك (اعمالهم) التى لوكانوا عملوها مع الايمان لاثيبوا عليها (افلم يسيروا فى الارض) اى اقعدوا فى اماكنهم فلم يسيروا فيها (فينظروا كيف كان عاقبة الذين

وخوف ان يقتل المقدم يمنعه من الاقدام فقال لاتخافوا القتل فان من يقتل فى سبيل الله له من الاجر والثواب مالايمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه (وثانيها) هو انه تعالى لما قال ليبلو بعضكم ببعض والمبتلى بالشئ له على كل وجه من وجوه الاثر الظاهر بالابتلاء حال من الاحوال فان السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير ان يقطع وتنقص على تقدير ان لايقطع فحال المبتلين ماذا فقال ان قتل فله ان لايضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة واما ان قتل فلايخفى امره عاجلا وآجلا وترك بيانه على تقدير كونه قاتلا لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولا (وثالثها) هو انه تعالى لما قال ليبلوكم ولايبتلى الشئ النفيس بمايخاف منه هلاكه فان السيف المهند العضب الكبير القيمة لايجرب بالشئ الصلب الذى يخاف عليه منه الانكسار ولكن الآدمى مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضى الى القتل والهلاك افضاء غير نادر فكيف يحسن هذا الابتلاء فنقول القتل ليس باهلاك بالنسبة الى المؤمن فانه يورث الحياة الابدية فاذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير ان يقتل مكرم وعلى تقدير ان لايقتل مكرم هذا ان قاتل وان لم يقاتل فالموت لابد منه وقد فوت على نفسه الاجر الكبير واما قوله تعالى فلن يضل اعمالهم قدعلم معنى الاضلال بقى الفرق بين العبارتين فى حق الكافر والضال قال اضل وقال فى حق المؤمن الداعى لن يضل لان المقاتل داع الى الايمان لان قوله حتى تضع الحرب اوزارها قدذكر ان معناه حتى لم يبق اثم بسبب حرب وذلك حيث يسلم الكافر فالمقاتل يقول امان تسلم واما ان تقتل فهو داع والكافر صاد وبينهما تباين وتضاد فقال فى حق الكافر اضل بصيغة الماضى ولم يقل يضل اشارة الى ان عمله حيث وجد عدم وكأنه لم يوجد من اصله وقال فى حق المؤمن فلن يضل ولم يقل ماأضل اشارة الى ان عمله كماثبت عليه أثبت له فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية الخلاف كما ان بين الداعى والصاد غاية التباين والتضاد فان قيل مامعنى الفاء فى قوله فلن يضل جوابه لان فى قوله تعالى والذين قتلوا معنى الشرط ❊ وقوله تعالى (سيهديهم) ان قرئ قتلوا او قاتلوا فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة وان قرئ قتلوا فهو فى الآخرة سيهديهم طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم الى موضع حبورهم ❊ وقوله تعالى (ويصلح بالهم) قدتقدم تفسيره فى قوله تعالى واصلح بالهم والماضى والمستقبل راجع الى ان هناك وعدهم ماوعدهم بسبب الايمان والعمل الصالح وذلك كان واقعا منهم فاخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل فكان فى اللفظ مايدل على الاستقبال لان قوله تعالى فاذا لقيتم يدل على الاستقبال فقال ويصلح بالهم ❊ ثم قال تعالى (ويدخلهم الجنة) وكان الله تعالى عند حشرهم يهديهم الى طريق الجنة ويلبسهم فى الطريق خلع الكرامة وهو اصلاح البال ويدخلهم الجنة فهو على ترتيب الوقوع ❊ واما قوله تعالى (عرفها لهم) ففيه وجوه (احدها) هو ان كل احد يعرف منزلته ومأواه حتى ان اهل الجنة يكونون اعرف بمنازلهم فيها من اهل الجمعة ينتشرون

فى الارض كل احد يأوى الى منزله ومنهم من قال الملك الموكل باعماله يهديه (الوجه الثانى) عرفها لهم اى طيبها يقال طعام معرف (الوجه الثالث) قال الزمخشرى يحتمل ان يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وارفها اى حددها وتحديدها فى قوله وجنة عرضها السموات والارض ويحتمل ان يقال المراد هو قوله تعالى وتلك الجنة التى اورثتموها مشيرا اليها معرفا لهم بانها هى تلك وفيه وجه آخر وهو ان يقال معناه عرفها لهم قبل القتل فان الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته فى الجنة فيشتاق اليه (ووجه ثان) معناه يدخلهم الجنة ولا حاجة الى وصفها فانه تعالى عرفها لهم مرارا ووصفها (ووجه ثالث) وهو من باب تعريف الضالة فان الله تعالى لما قال ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فكأنه تعالى قال من يأخذ الجنة ويطلبها بماله او بنفسه فالذى قتل سمع التعريف وبذل ماطلب منه عليها فادخلها ثم انه تعالى لما بين ما على القتال من الثواب والاجر وعدهم بالنصر فى الدنيا زيادة فى الحث ليزداد منهم الاقدام ✽ فقال (ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) وفى نصر الله تعالى وجوه (الاول) ان تنصروا دين الله وطريقه (الثانى) ان تنصروا حزب الله وفريقه (الثالث) المراد نصرة الله حقيقة فنقول النصرة تحقيق مطلوب احد المتعاديين عند الاجتهاد والاخذ فى تحقيق علامته فالشيطان عدو الله يجتهد فى تحقيق الكفر وغلبة اهل الايمان والله يطلب قمع الكفر وهلاك اهله وافناء من اختار الاشراك بجهله فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا نقول حقق مراده فان الله لا يحققه غيره ومطلوبه عند اهل السنة غير مراده فانه طلب الايمان من الكافر ولم يرده والا لوقع ثم قال ينصركم فان قيل فعلام قلت اذا نصر المؤمنين الله تعالى فقد حقق ماطلبه فكيف يحقق ماطلبه العبد وهو شئ واحد فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه الى القتال واقدامه والله ينصره بتقويته وتثبيت اقدامه وارسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه ✽ ثم قال تعالى (والذين كفروا فتعسا لهم) هذا زيادة فى تقوية قلوبهم لانه تعالى لما قال ويثبت اقدامكم جاز ان يتوهم ان الكافر ايضا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات وسببه ظاهر لان الهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة فهى غير صالحة لدفع ماقدره الله تعالى عليهم من الدمار وعند هذا لابد من زوال القدم والعثار وقال فى حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد لان الله تعالى لا يجب عليه شئ وقال فى حقهم بصيغة الدعاء وهى ابلغ من صيغة الاخبار من الله لان عثارهم واجب لان عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع اذ لا قدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع لانه قادر مختار يفعل مايشاء ✽ وقوله (واضل اعمالهم) اشارة الى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين حيث قال فى حق قتلاهم فلن يضل اعمالهم وقال فى موتى الكافرين اضل اعمالهم ثم بين الله تعالى سبب

(مااختلفوا)

من قبلهم) من الامم المكذبة فان آثار ديارهم تنبئ عن اخبارهم وقوله تعالى (دمر الله عليهم) استيناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل كيف كان عاقبتهم فقيل استأصل الله تعالى عليهم مااختص بهم من انفسهم واهليهم واموالهم يقال دمره اهلكه ودمر عليه اهلك عليه مايختص به (وللكافرين) اى ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم (امثالها) امثال عواقبهم اوعقوباتهم لكن لا على ان لهؤلاء امثال مالاولئك واضعافه بل مثله وانما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الامم المعذبة وقيل يجوز ان يكون عذابهم اشد من عذاب الاولين وقد قتلوا واسروا بأيدى من كانوا يستحقرونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل اشد الما من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة امثالها (ذلك) اشارة الى ثبوت امثال عقوبة الامم السالفة لهؤلاء (بأن الله مولى

ما اختلفوا فيه ❁ فقال تعالى (ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم) وفيه وجوه (الاول) المراد القرآن ووجهه هو ان كيفية العمل الصالح لا تعلم بالعقل وانما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما اعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الاتيان به فأتوا بالباطل فأحبط اعمالهم (الثانى) كرهوا ما انزل الله من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم أئنا لتاركو آلهتنا وقال تعالى أجعل الآلهة الها واحدا الى ان قال ان هذا الا اختلاق وقال تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ووجهه ان الشرك محبط للعمل قال الله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله فلا بقاء له فى نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل لان كل ما سوى وجه الله تعالى هالك محبط (الثالث) كرهوا ما انزل الله من بيان امر الآخرة فلم يعملوا لها والدنيا وما فيها وما لها باطل فأحبط الله اعمالهم ❁ وقوله تعالى (افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيه مناسبة للوجه الثالث يعنى فينظروا الى حالهم ويعلموا ان الدنيا فانية ❁ وقوله تعالى (دمر الله عليهم) اى اهلك عليهم متاع الدنيا من الاموال والاولاد والارواح والاجساد ❁ وقوله تعالى (وللكافرين امثالها) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد لهم امثالها فى الدنيا وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام (وثانيهما) ان يكون المراد لهم امثالها فى الآخرة فيكون المراد من تقدم كأنه يقول دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة امثالها وفى العائد اليه ضمير المؤنث فى قوله امثالها وجهان (احدهما) هو المذكور وهو العاقبة (وثانيهما) هو المفهوم وهو العقوبة لان التدمير كان عقوبة لهم فان قيل على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام امثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال وهو ان الاولين اهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ولا كذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم نقول جاز ان يكون عذابهم اشد من عذاب الاولين لكون دين محمد اظهر بسبب تقدم الانبياء عليهم السلام عليه واخبارهم عنه وانذارهم به على انهم قتلوا واسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل اشد الما من الهلاك بسبب عام (وسؤال آخر) اذا كان الضمير عائدا الى العاقبة فكيف يكون لها امثال قلنا يجوز ان يقال المراد العذاب الذى هو مدلول العاقبة او الالم الذى كانت العاقبة عليه ❁ ثم قال تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين امنوا وان الكافرين لا مولى لهم) ذلك يحتمل ان يكون اشارة الى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدى ويحتمل وجها آخر اغرب من حيث النقل واقرب من حيث العقل وهو انا لما بينا ان قوله تعالى وللكافرين امثالها اشارة الى ان قوم محمد عليه الصلاة والسلام اهلكوا بأيدى امثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم وهو آلم من الهلاك بالسبب العام قال تعالى ذلك اى الاهلاك والهوان بسبب ان الله تعالى ناصر المؤمنين والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر وتركوا الله فلا ناصر لهم ولا شك ان من ينصره

الذين آمنوا) اى ناصرهم على اعدائهم وقرئ ولى الذين (وان الكافرين لا مولى لهم) فيدفع عنهم ما حل بهم من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى ثم ردوا الى الله مولاهم الحق فان المولى هناك بمعنى المالك (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الاخروية (والذين كفروا يتمتعون) اى ينتفعون فى الدنيا بمتاعها (ويأكلون كما تأكل الانعام) غافلين عن عواقبهم (والنار مثوى لهم) اى منزل ثواء واقامة والجملة اما حال مقدرة من واو يأكلون او استئناف (وكأين) كلمة مركبة من الكاف واى بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى (من قرية) تمييز لها وقوله تعالى (هى اشد قوة من قريتك) صفة لقرية كما ان قوله تعالى (التى اخرجتك) صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف واجرى احكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذى هو قوله تعالى (اهلكناهم) اى وكم من اهل قرية

الله تعالى يقدر على القتل والاسر وان كان له الف ناصر فضلا عن ان يكون لا ناصر لهم فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى لامولى لهم وبين قوله مولاهم الحق نقول المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر فحيث قال لامولى لهم أراد لا ناصر لهم وحيث قال مولاهم الحق اى ربهم ومالكهم كما قال تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم وقال ربكم ورب آبائكم الاولين وفى الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين والكافر لامولى له بصيغة نافية للجنس فليس له ناصر وانه شر الناصرين ❁ ثم قال تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم) لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا بين حالهم فى الآخرة وقال انه يدخل المؤمن الجنة والكافر النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كثيرا ما يقتصر الله على ذكر الانهار فى وصف الجنة لان الانهار يتبعها الاشجار والاشجار تتبعها الثمار ولانه سبب حياة العالم والنار سبب الاعدام وللمؤمنين الماء ينظر اليه وينتفع به وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها (المسئلة الثانية) ذكرنا مرارا ان من فى قوله من تحتها الانهار يحتمل ان يكون صلة معناه تجرى من تحتها الانهار ويحتمل ان يكون المراد ان ماءها منها لا يجرى اليها من موضع آخر فيقال هذا النهر منبعه من اين يقال من عين كذا من تحت جبل كذا (المسئلة الثالثة) قال والذين كفروا يتمتعون خصهم بالذكر مع ان المؤمن ايضا له التمتع بالدنيا وطيباتها تقول من يكون له ملك عظيم ويملك شيئا يسيرا ايضا لا يذكر الا بالملك العظيم لا يقال فى حق الملك العظيم صاحب الضيعة الفلانية ومن لا يملك الا شيئا يسيرا فلا يذكر الا به فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يلتفت اليه فى حقه والكافر ليس له الا الدنيا ووجه آخر الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ومن يأكل فى السجن لا يقال انه يتمتع فان قيل كيف تكون الدنيا سجنا مع ما فيها من الطيبات نقول للمؤمن فى الآخرة طيبات معدة واخوان مكرمون نسبتها ونسبتهم الى الدنيا ومن فيها تبين بمثال وهو ان من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة فى غاية اللذة وانهار جارية فى غاية الصفاء ودور وغرف فى غاية الرفعة واولاده فيها وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه اليهم وهم فيها فلما قرب منهم عوق فى اجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة وفيها سباع وحشرات كثيرة فهل يكون حاله فيها كحال مسجون فى بئر مظلمة وفى بيت خراب ام لا وهل يجوز ان يقال له اترك ما هولك وتعلق بهذه الثمار وهذه الانهار ام لا كذلك حال المؤمن واما الكافر فحاله كحال من يقدم الى القتل فيصبر عليه اياما فى مثل تلك الاجمة التى ذكرناها يكون فى جنة ونسبة الدنيا الى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال لكنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال وقوله تعالى كما تأكل الانعام يحتمل وجوها (احدها) ان الانعام يهمها الاكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحا ويقوى عليه (وثانيها) الانعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك

(وثالثها)

هم اشد قوة من اهل قريتك الذين كانوا سببا لخروجك من بينهم ووصف القرية الاولى بشدة القوة للايذان بأولوية الثانية منها بالاهلاك لضعف قوتها كما ان وصف الثانية بأخراجه عليه الصلاة والسلام للايذان بأولويتها به لقوة جنايتها وعلى طريقته قول النابغة

كليب لعمرى كان اكثر ناصرا ... وايسر جرما منك ضرج بالدم

وقوله تعالى (فلا ناصر لهم) بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الاعوان والانصار اثر بيان عدم خلاصهم منه بانفسهم والفاء لترتيب ذكرما بالغير على ذكرما بالذات وهو حكاية حال (أفمن كان على بينة من ربه) تقرير لتباين حالى فريقى المؤمنين والكافرين وكون الاولين فى اعلى عليين والآخرين فى اسفل سافلين وبيان لعلة مالكل منهما من الحال والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرئ بدونها ومن عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين وجعلها عبارة عن النبى عليه الصلاة والسلام اوعنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم على ان الموازنة بينه عليه الصلاة

(وثالثها) الانعام تعلف لتسمن وهى غافلة عن الامر لاتعلم انها كلما كانت اسمن كانت اقرب الى الذبح والهلاك وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى والنار مثوى لهم (المسئلة الرابعة) قال فى حق المؤمن ان الله يدخل بصيغة الوعد وقال فى حق الكافر والنار مثوى لهم بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لما ذكرنا ان الاحسان لايستدعى ان يكون عن استحقاق فالمحسن الى من لم يوجد منه مايوجب الاحسان كريم والمعذب من غير استحقاق ظالم ❊ قوله تعالى (وكأين من قرية هى اشدقوة من قريتك التى اخرجتك اهلكناهم فلاناصر لهم) لما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله افلم يسيروا فى الارض ولم ينفعها مع ماتقدم من الدلائل ضرب للنبى عليه السلام مثلا تسلية له فقال وكأين من قرية هى اشدقوة من قريتك التى اخرجتك اهلكناهم وكانوا اشد من اهل مكة كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم وقوله فلاناصر لهم قال الزمخشرى كيف قوله ناصر لهم مع ان الاهلاك ماض وقوله فلاناصر لهم للحال والاستقبال والجواب انه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ويحتمل ان يقال اهلكناهم فى الدنيا فلاناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذى هم فيه ويحتمل ان يقال قوله فلاناصر لهم عائد الى اهل قرية محمد عليه السلام كأنه قال اهلكنا من تقدم اهل قريتك ولاناصر لاهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الاولين ❊ ثم قال تعالى (افمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم) اعلم ان هذا اشارة الى الفرق بين النبى عليه السلام والكفار ليعلم ان اهلاك الكفار ونصرة النبى عليه السلام فى الدنيا محقق وان الحال يناسب تعذيب الكافر واثابة المؤمن وقوله على بينة فرق فارق وقوله من ربه مكمل له وذلك ان البينة اذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولا لادليل عليه فاذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون اقوى واظهر فتكون اعلى وابهر ويحتمل ان يقال قوله من ربه ليس المراد انزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله يهدى من يشاء وقولنا الهداية من الله وكذلك قوله تعالى كمن زين له سوء عمله فرق فارق وقوله واتبعوا أهواءهم تكملة وذلك ان من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه فى مقابلة من يتبين له البرهان وقبله لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر فى الامر ويرجع الى الحق فيكون اقرب الى من هو على البرهان وقد يتبع هواه ولا يتدبر فى البرهان ولا يتفكر فى البيان فيكون فى غاية البعد فاذن حصل النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمن مع الكافر فى طرفى التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا من ربه معناه الاضافة الى الله كقولنا الهداية من الله فقوله اتبعوا اهواءهم مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك وقوله كمن زين له سوء عمله بصيغة التوحيد محمول على لفظة من وقوله واتبعوا اهواءهم محمول على معناه فانها للجمع والعموم وذلك لان التزيين للكل على حد واحد فحمل على

والسلام وبينهم مما يأباه منصبه الجليل والتقدير أليس الامر كما ذكر فمن كان مستقرا على حجة ظاهرة وبرهان نير من مالك امره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية (كمن زين له سوء عمله) من الشرك وسائر المعاصى مع كونه فى نفسه اقبح القبائح (واتبعوا) بسبب ذلك التزيين (اهواءهم) الزائغة وانهمكوا فى فنون الضلالات من غير ان يكون لهم شبهة توهم صحة ماهم عليه فضلا عن حجة تدل عليه وجمع الضميرين الاخيرين باعتبار معنى من كما ان افراد الاولين باعتبار لفظها (مثل الجنة التى وعد المتقون) استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفا للمؤمنين وبيان كيفية انهارها التى اشير الى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين ايذانا بأن الايمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيآت عن آخرها ومثلها وصفها العجيب الشأن وهو مبتدأ محذوف الخبر فقدره النضر بن شميل مثل الجنة ماتسمعون وقوله تعالى (فيها انهار)

اللفظ لقربه منه فى الحس والذكر وعند اتباع الهوى كل احد يتبع هوى نفسه فظهر التعدد فحمل على المعنى ❁ قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون) لما بين الفرق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال بين الفرق بينهما فى مرجعهما وما آلهما وكما قدم من على البينة فى الذكر على من اتبع هواه قدم حاله فى مآله على حال من هو بخلاف حاله وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى مثل الجنة يستدعى امرا يمثل به فما هو نقول فيه وجوه (الاول) قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة وذلك لايقتضى ممثلا به وعلى هذا فيه احتمالان (احدهما) ان يكون الخبر محذوفا ويكون مثل الجنة مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة ثم يستأنف ويقول فيها انهار وكذلك القول فى سورة الرعد يكون قوله تعالى تجرى من تحتها الانهار ابتداء بيان (والاحتمال الثانى) ان يكون فيها انهار وقوله تجرى من تحتها خبرا كما يقال صف لى زيدا فيقول القائل زيد احمر قصير والقول الثانى ان المثل زيادة والتقدير الجنة التى وعد المتقون فيها انهار (الوجه الثانى) ههنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين (احدهما) قول الزجاج حيث قال مثل الجنة تجرى فيها انهار كما يقال مثل زيد رجل طويل اسمر فيذكر عين صفات زيد فى رجل منكر لايكون هو فى الحقيقة الا زيدا (الثانى) من القولين هو ان يقال معناه مثل الجنة التى وعد المتقون مثل عجيب او شىء عظيم او مثل ذلك وعلى هذا يكون قوله فيها انهار كلاما مستأنفا محققا لقولنا مثل عجيب (الوجه الثانى) الممثل به مذكور وهو قول الزمخشرى حيث قال كمن هو خالد فى النار مشبه به على طريقة الانكار وحينئذ فهذا كقول القائل حركات زيد او اخلاقه كعمرو وعلى احد التأويلين اما على تأويل كحركات عمرو او على تأويل زيد فى حركاته كعمرو وكذلك ههنا كأنه تعالى قال مثل الجنة كمن هو خالد فى النار وهذا اقصى ما يمكن ان يقرر به قول الزمخشرى وعلى هذا فقوله تعالى فيها انهار وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر كما يقال نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله اصل عمرو ❁ ثم قال تعالى (فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى) اختار الانهار من الاجناس الاربعة وذلك لان المشروب اما ان يشرب لطعمه واما ان يشرب لامر غير عائد الى الطعم فان كان للطعم فالطعوم تسعة المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم الذها الحلو والدسم لكن احلى الاشياء العسل فذكر واما ادسم الاشياء فالدهن لكن الدسومة اذا تمحضت لاتطيب للاكل ولا للشرب فان الدهن لايؤكل ولا يشرب كما هو فى الغالب واما اللبن فيه الدسم الكائن فى غيره وهو طيب للاكل وبه تغذية الحيوان اولا فذكره الله تعالى واما ما يشرب لا لامر عائد الى الطعم فالماء والخمر فان الخمر فيها امر يشربها الشارب لاجله وهى كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به ثم عرى كل واحد من الاشياء الاربعة عن صفات النقص التى هى فيها وتغير بها فى الدنيا فالماء يتغير يقال اسن

الخ مفسر له وقدره سيبويه فيما يتلى عليكم مثل الجنة والاول هو الانسب لصدر النظم الكريم وقيل المثل زائدة كزيادة الاسم فى قول من قال
❁ الى الحول ثم اسم السلام عليكما ❁
والجنة مبتدأ خبره فيها انهار الخ (من ماء غير آسن) اى غير متغير الطعم والرائحة وقرئ غير أسن (وانهار من لبن لم يتغير طعمه) بأن صار قارصا ولا خازرا كألبان الدنيا (وانهار من خمر لذة للشاربين) لذيذة ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وانما هى تلذذ محض ولذة اما تأنيث لذ بمعنى لذيذ او مصدر نعت به مبالغة وقرئ لذة بالرفع على انها صفة انهار وبالنصب على العلة اى لاجل لذة الشاربين (وانهار من عسل مصفى) لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفى هذا تمثيل لما يجرى مجرى الاشربة فى الجنة بأنواع مايستطاب منها ويستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينغصها وينقصها والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها

الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آسن واسن اللبن اذا بقى زمانا يتغير طعمه والخمر يكرهه الشارب عند الشرب والعسل يشوبه اجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيرا ثم ان الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذى يشرب لا للطعم وهو عام الشرب وقرن به اللبن الذى يشرب لطعمه وهو عام الشرب اذ ما من احد الا وكان شربه اللبن ثم ذكر الخمر الذى يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب وقرن به العسل الذى يشرب للطعم وهو قليل الشرب فان قيل العسل لا يشرب نقول شراب الجلاب لم يكن الا من العسل والسكر قريب الزمان الا ترى ان السكنجبين من سركه وانكبين وهو الخل والعسل بالفارسية كما ان استخراجه كان اولا من الخل والعسل ولم يعرف السكر الا فى زمان متأخر ولان العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز والله اعلم (المسئلة الثانية) قال فى الخمر لذة للشاربين ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين لان اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال لذة للشاربين باسرهم ولان الخمر كريهة الطعم فقال لذة اى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم واما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس فان الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل احد كذلك لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على انه طعم واحد وكذلك اللون فلم يكن الى التصريح بالتعميم حاجة وقوله لذة يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ واطعمة لذة ولذيذة (وثانيهما) ان يكون ذلك وصفا بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم هو حلم كله وللعاقل عقل كله ثم قال تعالى * (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) بعد ذكر المشروب اشار الى المأكول ولما كان فى الجنة الاكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فانها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم وهذا كقوله تعالى فى سورة الرعد مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار اكلها دائم وظلها حيث اشار الى المأكول والمشروب وههنا لطيفة وهى انه تعالى قال فيها وظلها ولم يقل ههنا ذلك نقول قال ههنا ومغفرة والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ولان المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الامير وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد (المسئلة الثالثة) المتقى لا يدخل الجنة الا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة فنقول (الجواب) عنه من وجهين (الاول) ليس بلازم ان يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها بل يكون عطفا على قوله لهم كأنه تعالى قال لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها (والثانى) هو ان يكون المعنى لهم فيها مغفرة اى رفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فان الثمار فيها عليها حساب او عقاب ووجه آخر وهو ان الاكل فى الدنيا لا يخلو عن استتباع قبيح او مكروه كمرض او حاجة الى برز فقال لهم فيها من كل الثمرات ومغفرة لا قبيح على الاكل بل هو مستور القبائح مغفور وهذا استفدته من المعلمين فى بلادنا فانهم يعودون الصبيان بان يقولوا

(ولهم فيها) مع ماذكر من فنون الانهار (من كل الثمرات) اى صنف من كل الثمرات (ومغفرة) اى ولهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لما افاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية اى كائنة من ربهم وقوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره امن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على ان فى الكلام حذفا تقديره امثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار او امثل اهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار فعرى عن حرف الانكار وحذف ما حذف تصويرا لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة وبين التابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار (وسقوا ماء حميما) مكان تلك الاشربة (فقطع امعاءهم) من فرط الحرارة قيل اذا دنا منهم

وقت حاجتهم الى اراقة البول وغيره يامعلم غفر الله لك فيفهم المعلم انهم يطلبون الاذن فى الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم فقلت فى نفسى معناه هو ان الله تعالى فى الجنة غفر لمن اكل واما فى الدنيا فلان للاكل توابع ولوازم لابد منها فيفهم من قولهم حاجتهم * ثم قال تعالى (كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم) وفيه ايضا مسائل (المسئلة الاولى) على قول من قال مثل الجنة معناه وصف الجنة فقوله كمن هو بماذا يتعلق نقول قوله لهم فيها من كل الثمرات يتضمن كونهم فيها فكأنه قال هو فيها كمن هو خالد فى النار فالمشبه يكون محذوفا مدلولا عليه بما سبق ويحتمل ان يقال ماقيل فى تقرير قول الزمخشرى ان المراد هذه الجنة التى مثلها ماذكرنا كمقام من هو خالد فى النار (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله تعالى كمن هو خالد فى النار راجع الى ماتقدم كأنه تعالى قال أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار فهل هو صحيح ام لا نقول لو نظر الى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر الى المعنى لايصح الابان يعود الى ماذكرناه اما التصحيح فبحذف كمن فى المرة الثانية اوجعله بدلا عن المتقدم او باضمار عاطف يعطف كمن هو خالد على كمن زين له سوء عمله اوكمن هو خالد فى النار واما التعسف فبين نظر الى الحذف والى الاضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به واما طريقة البدل ففاسدة والالكان الاعتماد على الثانى فيكون كأنه قال أفمن كان على بينة كمن هو خالد وهو سمج فى التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك والقول فى اضمار العاطف كذلك لان المعطوف أيضا يصير مستقلا فى التشبيه اللهم الا ان يقال يقابل المجموع بالمجموع كأنه يقول افمن كان على بينة من ربه وهو فى الجنة التى وعد المتقون فيها انهار كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه وبين من زين له سوء عمله وبين من فى الجنة وبين من هو خالد فى النار وقد ذكرناه فلا حاجة الى خلط الآية بالآية وكيف وعلى ماقاله تقع المقابلة بين من هو فى النار وسقوا ماء حميما وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما بخلاف ماذكرناه من الوجوه الأخر فان المقابلة فيها بين الجنة التى فيها الانهار وبين النار التى فيها الماء الحميم وذلك تشبيه انكار مناسب (المسئلة الثالثة) قال كمن هو خالد حملا على اللفظ الواحد وقال وسقوا ماء حميما على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل كمن زين له سوء عمله على التوحيد والافراد واتبعوا أهواءهم على الجمع فالوجه فيه نقول المسند الى من اذا كان متصلا فرعاية اللفظ اولى لانه هو المسموع واذا كان مع انفصال فالعود الى المعنى اولى لان اللفظ لايبقى فى السمع والمعنى يبقى فى ذهن السامع فالحمل فى الثانى على المعنى أولى وحمل الاول على اللفظ أولى فان قيل كيف قال فى سائر المواضع من آمن وعمل صالحا ومن تاب واصلح نقول اذا كان المعطوف مفردا أو شبيها بالمعطوف عليه فى المعنى فالاولى ان يختلفا كما ذكرت فانه عطف مفرد على مفرد وكذلك لوقال كمن هو خالد فى النار ومعذب فيها لان

شوى وجوههم وانمارت فروة رؤسهم فاذا شربوه قطع امعاءهم (ومنهم من يستمع اليك) هم المنافقون وافراد الضمير باعتبار لفظ من كما ان جمعه فيما سيأتى باعتبار معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولايعونه ولايراعونه حق رعايته تهاونا منهم (حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم) من الصحابة رضى الله عنهم (ماذا قال آنفا) اى ما الذى قال الساعة على طريقة الاستهزاء وان كان بصورة الاستعلام وآنفا من قولهم انف الشئ لما تقدم منه مستعار من الجارحة ومنه استأنف الشئ وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتنفا اوحال من الضمير فى قال وقرئ أنفا (اولئك) الموصوفون بماذكر (الذين طبع الله على قلوبهم) لعدم توجههم نحو الخير اصلا (واتبعوا اهواءهم) الباطلة فلذلك فعلوا مافعلوا مما لاخير فيه (والذين اهتدوا) الى طريق الحق (زادهم) اى الله تعالى (هدى) بالتوفيق والالهام

المشابهة تنافى المخالفة واما اذا لم يكن كذلك كما فى هذا الموضع فان قوله سقوا ماء جملة غير مشابهة لقوله هو خالد وقوله تعالى وسقوا ماء حميما يان لمخالفتهم فى سائر احوال اهل الجنة فلهم انهار من ماء غير آسن ولهم ماء حميم فان قيل المشابهة الانكارية بالمخالفة على ماثبت وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله على بينة فى مقابلة زين له سوء عمله ومن ربه فى مقابلة قوله واتبعوا اهواءهم والجنة فى مقابلة النار فى قوله خالد فى النار والماء الحميم فى مقابلة الانهار فأين مايقابل قوله ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة فنقول تقطع الامعاء فى مقابلة مغفرة لانا بينا على احد الوجوه ان المغفرة التى فى الجنة هى تعرية اكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والامراض وغيرها كأنه قال للمؤمن اكل وشرب مطهر طاهر لايجتمع فى جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم الى قضاء حاجة وللكافر ماء حميم فى اول مايصل الى جوفهم يقطع امعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم واما الثمار فلم يذكر مقابلها لان فى الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر امر زائد (المسئلة الرابعة) الماء الحار يقطع امعاءهم لامر آخر غير الحرارة وهى الحدة التى تكون فى السموم المدونة والا فمجرد الحرارة لايقطع فان قيل قوله تعالى فقطع بالفاء يقتضى ان يكون القطع بما ذكر نقول نعم لكنه لايقتضى ان يقال يقطع لانه ماء حميم فحسب بل ماء حميم مخصوص يقطع ۞ ثم قال تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفا) لما بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار وقوله ومنهم يحتمل ان يكون الضمير عائدا الى الناس كما قال تعالى فى البقرة ومن الناس من يقول آمنا بالله بعد ذكر الكفار ويحتمل ان يكون راجعا الى اهل مكة لان ذكرهم سبق فى قوله تعالى هى اشد قوة من قريتك التى اخرجتك اهلكناهم ويحتمل ان يكون راجعا الى معنى قوله هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما يعنى ومن الخالدين فى النار قوم يستمعون اليك وقوله حتى اذا خرجوا من عندك على ماذكرنا حمل على المعنى الذى هو الجمع ويستمع حمل على اللفظ وقد سبق التحقيق فيه وقوله حتى للعطف فى قول المفسرين وعلى هذا فالعطف بحتى لايحسن الا اذا كان المعطوف جزأ من المعطوف عليه اما اعلاه او دونه كقول القائل اكرمنى الناس حتى الملك وجاء الحاج حتى المشاة وفى الجملة ينبغى ان يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ولا يشترط فى العطف بالواو ذلك فيجوز ان تقول فى الواو جاء الحاج وما علمت ولا يجوز مثل ذلك فى حتى اذا علمت هذا فوجه التعلق ههنا هو ان قوله حتى اذا خرجوا من عندك يفيد معنى زائدا فى الاستماع كأنه يقول يستمعون استماعا بالغا جيدا لانهم يستمعون واذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد فى التعلم الطالب للتفهم فان قلت فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم وهو ذكرهم فى معرض الذم نقول تميز بما بعده وهو احد امرين اما كونهم بذلك مستهزئين كالذى يقول للبليد اعد كلامك حتى افهمه ويرى فى نفسه انه مستمع اليه غاية الاستماع وكل احد يعلم انه

(وآتاهم تقواهم) اعانهم على تقواهم او اعطاهم جزاءها او بين لهم مايتقون (فهل ينظرون الا الساعة) اى القيامة وقوله تعالى (ان تأتيهم بغتة) اى تباغتهم بغتة وهى المفاجأة بدل اشتمال من الساعة والمعنى انهم لايتذكرون بذكر اهوال الامم الخالية ولا بالاخبار باتيان الساعة وما فيها من عظائم الاهوال وما ينتظرون للتذكر الا اتيان نفس الساعة بغتة وقرئ بغتة بفتح الغين وقوله تعالى (فقد جاء اشراطها) تعليل لمفاجأتها لا لاتيانها مطلقا على معنى انه لم يبق من الامور الموجبة للتذكر امر مترقب ينظرونه سوى اتيان نفس الساعة اذ قد جاء اشراطها فلم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من مبادى اتيانها فيكون اتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والاشراط جمع شرط بالتحريك وهى العلامة والمراد بها مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى (فانى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر الى اتيانها

مستهزئ غير مستفيد ولامستعيد واما كونهم لايفهمون مع انهم يستمعون ويستعيدون ويناسب هذا الثانى قوله تعالى كذلك يطبع الله على قلوب المجرمين والاول يؤ كده قوله تعالى واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن (والثانى) يؤ كده قوله تعالى قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم وقوله آنفا قال بعض المفسرين معناه الساعة ومنه الاستئناف وهو الابتداء فعلى هذا فالاولى ان يقال يقولون ماذا قال آنفا بمعنى انهم يستعيدون كلامه من الابتداء كما يقول المستعيد للمعيد اعد كلامك من الابتداء حتى لايفوتنى شئ منه * ثم قال تعالى (اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم) اى تركوا اتباع الحق اما بسبب عدم الفهم او بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده * ثم قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) لما بين الله تعالى ان المنافق يستمع ولاينتفع ويستعيد ولايستفيد بين ان حال المؤمن المهتدى بخلافه فانه يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم والمنافق يستعيد والمهتدى يفسر ويعيد وفيه فائدتان (احدهما) ماذكرنا من بيان التباين بين الفريقين (وثانيهما) قطع عذر المنافق وايضاح كونه مذموم الطريقة فانه لوقال مافهمته لغموضه وكونه معمى يرد عليه ويقول ليس كذلك فان المهتدى فهم واستنبط لوازمه وتوابعه فذلك لعماء القلوب لالخفاء المطلوب وفيه مسائل المسئلة الاولى) ما الفاعل للزيادة فى قوله زادهم نقول فيه وجوه (الاول) المسموع من النبى عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله ومنهم من يستمع اليك فانه يدل على مسموع والمقصود بيان التباين بين الفريقين فكأنه قال هم لم يفهموه وهؤلاء فهموه (والثانى) ان الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله تعالى اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى والمهتدى زاده هدى (والثالث) استهزاء المنافق زاد المهتدى هدى ووجهه هو انه تعالى لما قال واتبعوا اهوءهم قال والذين اهتدوا زادهم اتباعهم الهدى هدى فانهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه (المسئلة الثانية) مامعنى قوله وآتاهم تقواهم نقول فيه وجوه منقولة ومستنبطة (اما المنقولة) فنقول قيل فيه ان المراد آتاهم ثواب تقواهم وقيل آتاهم نفس تقوا هم من غير اضمار يعنى بين لهم التقوى وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا (واما المستنبطة) فنقول يحتمل ان يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بيانا لغاية الخلاف بين المنافق فانه استمع ولم يفهمه واستعاد ولم يعلمه والمهتدى فانه علمه وبينه لغيره ويدل عليه قوله تعالى زادهم هدى ولم يقل اهتداء والهدى مصدر من هدى قال الله تعالى فبهداهم اقتده اى خذبما هدوا واهد كما هدوا وعلى هذا فقوله تعالى وآتاهم تقواهم معناه جنبهم عن القول فى القرآن بغير برهان وحملهم على الاتقاء من التفسير بالرأى وعلى هذا فقوله زادهم هدى معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى حتى

(ارتقوا)

بيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله تعالى يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى اى وكيف لهم ذكراهم اذا جاءتهم على ان انى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ واذا جاءتهم اعتراض وسط بينهما رمزا الى غاية سرعة مجيئها واطلاق المجئ عن قيد البغتة لما ان مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئه مطلقا لامقيدا بقيد البغتة وقرئ ان تأتهم على انه شرط مستأنف جزاؤه فانى لهم الخ والمعنى ان تأتهم الساعة بغتة لانه قد ظهر اماراتها فكيف لهم تذكرهم واتعاظهم اذا جاءتهم (فاعلم انه لااله الا الله) اى اذا علمت ان مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الاشراك والعصيان فاثبت على ماانت عليه من العلم بالواحدانية والعمل بموجبه (واستغفر لذنبك) وهو الذى ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الاولى عبر عنه بالذنب نظرا الى منصبه الجليل كيف لاوحسنات الابرار سيات المقربين وارشاد له عليه الصلاة والسلام الى التواضع

ارتقوا من درجة المهتدين الى درجة الهادين يحتمل ان يقال قوله زادهم هدى اشارة الى العلم وآتاهم تقواهم اشارة الى الاخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه وهو مستنبط من قوله تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه وقوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنابه (المعنى الثالث) يحتمل ان يكون المراد بيان ان المخلص على خطر فهو اخشى من غيره وتحقيقه هو انه لما قال زادهم هدى افادانهم ازداد علمهم وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فقال آتاهم خشيتهم التى يفيدها العلم (المعنى الرابع) تقواهم من يوم القيامة كما قال تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ويدل عليه قوله تعالى فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة كان ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه (المعنى الخامس) آتاهم تقواهم التقوى التى تليق بالمؤمن وهى التقوى التى لا يخاف معها لومة لائم قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله وكذلك قوله تعالى يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وهذا الوجه مناسب لان الآية لبيان تباين الفريقين وهذا يحقق ذلك من حيث ان المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان المؤمنون والكافرون فكان يتردد بينهما ويرضى الفريقين ويسخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهتدى بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك واتقى الله لاغيره واتقى ذلك غير الله ❁ ثم قال تعالى (فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها) يعنى الكافرون والمنافقون لا ينظرون الا الساعة وذلك لان البراهين قد صحت والامور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الايمان الا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير لا ينظرون الا الساعة اتيانها بغتة وقرئ فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم يدل عليه قوله تعالى فانى لهم اذا جاءتهم ذكراهم وقد ذكرنا ان القيامة سميت بالساعة لسرعة الامور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب وقوله فقد جاء اشراطها يحتمل وجهين (احدهما) لبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو ان الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق الا ايمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن اشراطها بانت فكان ينبغى ان يؤمنو اولم يؤمنوا فهم فى لجة الفساد وغاية العناد (ثانيهما) ان يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال فهل ينظرون فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطاة فكأن قائلا قال متى تكون الساعة فقد جاء اشراطها كقوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر والاشراط العلامات قال المفسرون هى مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ويحتمل ان يقال معنى الاشراط البينات الموضحة لجواز الحشر مثل خلق الانسان ابتداء وخلق السموات والارض كما قال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم والاول هو التفسير ❁ ثم قال تعالى (فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) يعنى لا تنفعهم الذكرى اذ لا تقبل التوبة ولا يحسب

وهضم النفس واستقصار العمل (وللمؤمنين والمؤمنات) اى لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبهم فيما يستدعى غفرانهم وفى اعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلقيه جنسا وفى حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اشعار بعراقتهم فى الذنب وفرط افتقارهم الى الاستغفار (والله يعلم متقلبكم) فى الدنيا فانها مراحل لابد من قطعها لامحالة (ومثواكم) فى العقبى فانها موطن اقامتكم فلا يأمركم الا بما هو خير لكم فيهما فبادروا الى الامتثال بما امركم به فانه المهم لكم فى المقامين وقيل يعلم جميع احوالكم فلا يخفى عليه شئ منها (ويقول الذين آمنوا) حرصا منهم على الجهاد (لولا نزلت سورة) اى هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد (فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) بطريق الامر به اى سورة مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال

الايمان والمراد فكيف لهم الحال اذا جاءتهم ذكراهم ومعنى ذلك يحتمل ان يكون هو قوله تعالى هذا يومكم الذى كنتم توعدون هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون فيذكرون به التحسر وكذلك قوله تعالى الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا * ثم قال تعالى (فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ولبيان المناسبة وجوه (الاول) هو انه تعالى لما قال فقد جاء اشراطها قال فاعلم انه لا اله الا الله يأتى بالساعة كما قال تعالى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة (وثانيها) فقد جاء اشراطها وهى آتية فكأن قائلا قال متى هذا فقال فاعلم انه لا اله الا الله فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار وكن فى اى وقت مستعدا للقائها ويناسبه قوله تعالى واستغفر لذنبك (الثالث) فاعلم انه لا اله الا الله ينفعك فان قيل النبى عليه الصلاة والسلام كان عالما بذلك فما معنى الامر نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) فاثبت على ما انت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام اجلس اى لا تقم (ثانيهما) الخطاب مع النبى عليه الصلاة والسلام والمراد قومه والضمير فى انه للشان وتقدير هذا هو انه عليه السلام لما دعا القوم الى الايمان ولم يؤمنوا ولم يبق شئ يحملهم على الايمان الا ظهور الامر بالبعث والنشور وكان ذلك مما يحزن النبى عليه الصلاة والسلام فسلى قلبه وقال انت كامل فى نفسك مكمل لغيرك فان لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيرا فأنت فى نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم ان الله واحد وتستغفر وانت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وانت تستغفر لهم فقد حصل لك الوصفان فأثبت على ما انت عليه ولا يحزنك كفرهم وقوله تعالى واستغفر لذنبك يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لافراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر وقال بعض الناس لذنبك اى لذنب اهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات اى الذين ليسوا منك بأهل بيت (ثانيهما) المراد هو النبى والذنب هو ترك الافضل الذى هو بالنسبة اليه ذنب وحاشاه من ذلك (وثالثها) وجه حسن مستنبط وهو ان المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيء ووجهه ان الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الغفران ان لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبى صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو فى حق المؤمنين والمؤمنات وفى هذه الآية لطيفة وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم له احوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره فأما مع الله فوحده واما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله واما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله والله يعلم متقلبكم ومثواكم يعنى حالكم فى الدنيا وفى الآخرة وحالكم فى الليل والنهار * ثم قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة

* عن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة لم تنسخ وقرئ فاذا نزلت سورة وقرئ وذكر على اسناد الفعل الى ضميره تعالى ونصب القتال (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) اى ضعف فى الدين وقيل نفاق وهو الاظهر الاوفق لسياق النظم الكريم (ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) اى تشخص ابصارهم جبنا وهلعا كدأب من اصابته غشية الموت (فأولى لهم) اى فويل لهم وهو افعل من الولى وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه او يؤول اليه امرهم وقيل هو مشتق من الويل واصله اويل نقلت العين الى ما بعد اللام فوزنه افلع (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف اى امرهم طاعة الخ او طاعة وقول معروف خير لهم او حكاية لقولهم ويؤيده قراءة ابى يقولون طاعة وقول معروف اى امرنا ذلك (فاذا عزم الامر) اسند العزم وهو الجد الى الامر وهو لاصحابه مجازا كما فى قوله تعالى ان ذلك من عزم الامور وعامل

محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم) لما بين الله حال المنافق والكافر والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله ومنهم من يستمع اليك وقوله والذين اهتدوا زادهم هدى بين حالهم فى الآيات العملية فان المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها واذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا امرت بشئ من العبادة خوفا من ان لايؤهل لها والمنافق اذا نزلت السورة او الآية وفيها تكليف شق عليه ليعلم تباين الفريقين فى العلم والعمل حيث لايفهم المنافق العلم ولايريد العمل والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم لولا نزلت سورة المراد منه سورة فيها تكليف يمحن المؤمن والمنافق ثم انه تعالى انزل سورة فيها القتال فانه اشق تكليف وقوله سورة محكمة فيها وجوه (احدها) سورة لم تنسخ (ثانيها) سورة فيها الفاظ اريدت حقائقها بخلاف قوله الرحمن على العرش استوى وقوله فى جنب الله فان قوله تعالى فضرب الرقاب أراد القتل وهو ابلغ من قوله اقتلوهم وقوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال وعلى الوجهين فقوله محكمة فيها فائدة زائدة من حيث انهم لايمكنهم ان يقولوا المراد غير مايظهر منه او يقولوا هذه آية وقد نسخت فلا نقاتل وقوله رأيت الذين فى قلوبهم مرض اى المنافقين ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت لان عند التكليف بالقتال لايبقى لنفاقهم فائدة فانهم قبل القتال كانوا يترددون الى القبيلتين وعند الامر بالقتال لم يبق لهم امكان ذلك فأولى لهم دعاء كقول القائل فويل لهم ويحتمل ان يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت كأن الله تعالى لما قال نظر المغشى عليه من الموت قال فالموت اولى لهم لان الحياة التى لافى طاعة الله ورسوله الموت خير منها وقال الواحدى يجوز ان يكون المعنى فاولى لهم طاعة اى الطاعة اولى لهم ❁ ثم قال تعالى (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خير لهم اى احسن وامثل لايقال طاعة نكرة لاتصلح للابتداء لانا نقول هى موصوفة يدل عليه قوله وقول معروف فانه موصوف فكأنه تعالى قال طاعة مخلصة وقول معروف خير وقيل معناه قالوا طاعة وقول معروف اى قولهم امرنا طاعة وقول معروف ويدل عليه قراءة ابى يقولون طاعة وقول معروف ❁ وقوله تعالى (فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) جوابه محذوف تقديره فاذا عزم الامر خالفوا وتخلفوا وهو مناسب لمعنى قراءة ابى كأنه يقول فى اول الامر قالوا سمعا وطاعة وعند آخر الامر خالفوا واخلفوا موعدهم ونسب العزم الى الامر والعزم لصاحب الامر معناه فاذا عزم صاحب الامر هذا قول الزمخشرى ويحتمل ان يقال هو مجاز كقولنا جاء الامر وولى فان الامر فى الاول يتوقع ان لايقع وعند اظلاله وعجز الكاره عن ابطاله فهو واقع فقال عزم والوجهان متقاربان وقوله تعالى فلو صدقوا فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة انهم قالوا اطاعة فمعناه لو صدقوا فى ذلك

الظرف محذوف اى خالفوا وتخلفوا وقيل ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى (فلو صدقوا الله) على طريقة قولك اذا حضرنى طعام فلو جئتنى لاطعمتك اى فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجرى على موجبه (لكان) اى الصدق (خيرا لهم) وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى لولا نزلت سورة وقيل فلو صدقوه فى الايمان وواطأت قلوبهم فى ذلك السنتهم وايا ما كان فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى (فهل عسيتم) الخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع اى هل يتوقع منكم (ان توليتم) امور الناس وتأمرتم عليهم (ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا ارحامكم) تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا فان من شاهد احوالهم الدالة على الضعف فى الدين والحرص على الدنيا حين امرتم بالجهاد الذى هو عبارة عن احراز كل خير وصلاح ودفع كل

القول واطاعوا لكان خيرا لهم وعلى قولنا طاعة وقول معروف خير لهم واحسن فمعناه لو صدقوا فى ايمانهم واتباعهم الرسول لكان خيرا لهم ❁ ثم قال تعالى (فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم) وهذه الآية فيها اشارة الى فساد قول قالوه وهو انهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل افساد والعرب من ذوى ارحامنا وقبائلنا فقال تعالى ان توليتم لايقع منكم الا الفساد فى الارض فانكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم أليس قتلكم البنات افسادا وقطعا للرحم فلا يصح تعللكم بذلك مع انه خلاف ما امر الله وهذا طاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى استعمال عسى ثلاثة مذاهب (احدها) الاتيان بها على صورة فعل ماض معه فاعل تقول عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا (والثانى) ان يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول تقول عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساى وعسانا (والثالث) الاتيان بها من غير ان يقرن بها شئ تقول عسى زيد يخرج وعسى انت تخرج وعسى انا اخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله اوجه وذلك لان عسى من الافعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل اولى من اقتران المفعول لان الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه اربع متحركات فى مثل قول القائل نصرت وجوز فى مثل قولهم نصرك ولان كل فعل له فاعل سواء كان لازما أو متعديا ولا كذلك المفعول به فعسيت وعساك كعصيت وعصاك فى اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به واما قول من قال عسى انت تقوم وعسى ان اقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذى فيه (المسئلة الثانية) الاستفهام للتقرير المؤكد فانه لو قال على سبيل الاخبار عسيتم ان توليتم لكان للمخاطب ان ينكره فاذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول انا اسألك عن هذا وانت لاتقدر أن تجيب الابلا او نعم فهو مقرر عندك وعندى (المسئلة الثالثة) عسى للتوقع والله تعالى عالم بكل شئ فنقول فيه ما قلنا فى لعل وفى قوله لنبلوهم ان بعض الناس قال يفعل بكم فعل المترجى والمبتلى والمتوقع وقال آخرون كل من ينظر اليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا هو محمول على الحقيقة وذلك لان الفعل اذا كان ممكنا فى نفسه فالنظر اليه غير مستلزم لامر وانما الامر يجوز ان يحصل منه تارة ولا يحصل منه اخرى فيكون الفعل لذلك الامر المطلوب على سبيل الترجى سواء كان الفاعل يعلم حصول الامر منه وسواء ان لم يكن يعلم مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فان حصل له العلم بوقوعه فيه باخبار صادق انه سيقع فيه اوبطريق اخرى لايخرج عن التوقع غاية ما فى الباب ان فى الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن ان عدم العلم لازم للمتوقع وليس كذلك بل المتوقع هو المنتظر لامر ليس بواجب الوقوع نظرا الى ذلك الامر فحسب سواء كان له به علم اولم يكن وقوله ان توليتم فيه وجهان (احدهما) انه من الولاية يعنى ان اخذتم الولاية وصار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الارحام (وثانيهما) هو من التولى الذى

شر وفساد وانتم مأمورون شأنكم الطاعة والقول المعروف يتوقع منكم اذا اطلقت اعنكتم وصرتم آمرين ماذكر من الافساد وقطع الارحام وقيل ان اعرضتم عن الاسلام ان ترجعوا الى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الافساد فى الارض بالتغاور والتناهب وقطع الارحام بمقاتلة بعض الاقارب بعضا ووأد البنات وفيه ان الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لابد ان تكون محذوريته باعتبار ما يستتبعه من المفاسد لاباعتبار ذاته ولاريب فى ان الاعراض عن الاسلام رأس كل شر وفساد فحقه ان يجعل عمدة فى التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد وقرئ وليتم على البناء للمفعول اى جعلتم ولاة وقرئ توليتم اى تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم فى الافساد وقطيعة الرحم وقرئ وتقطعوا من التقطع بحذف احدى التاءين فانتصاب ارحامكم حينئذ على نزع الجار اى فى ارحامكم وقرئ وتقطعوا من القطع والحاق الضمير بعسى لغة اهل الحجاز واما بنو تميم فيقولون عسى ان تفعل وعسى ان تفعلوا

هو الاعراض وهذا مناسب لما ذكرنا اى ان كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الافساد وقطع الارحام لكون الكفار اقاربنا فلا يقع منكم الا ذلك حيث تقاتلون على ادنى شيء كما كان عادة العرب (الاول) يؤكده قراءة من قرأ وليتم وقراءة على عليه السلام توليتم اى ان تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وافسدتم بافسادهم معهم وقطعتم ارحامكم والنبي عليه السلام لا يأمركم الا بالاصلاح وصلة الارحام فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون في الضلال * ثم قال تعالى (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى ابصارهم) اشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين ابعدهم الله عنه او عن الخير فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين واعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم وفيه ترتيب حسن وذلك من حيث انهم استمعوا الكلام العلمي ولم يفهموه فهم بالنسبة اليه صم اصمهم الله وعند الامر بالعمل تركوه وعللوا بكونه افسادا وقطعا للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهى عنه فلم يروا حالهم وما هم عليه وتركوا اتباع النبي الذى يأمرهم بالاصلاح وصلة الارحام ولو دعاهم من يأمر بالافساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فهم عمى اعماهم الله وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال اصمهم ولم يقل اصم آذانهم وقال اعمى ابصارهم ولم يقل اعماهم وذلك لان العين آلة الرؤية ولو اصابها آفة لا يحصل الابصار والاذن لو اصابها آفة من قطع او قلع تسمع الكلام لان الاذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى كما يؤذى الصوت القوى فقال أصمهم من غير ذكر الاذن وقال اعمى ابصارهم مع ذكر العين لان البصر ههنا بمعنى العين ولهذا جمعه بالابصار ولو كان مصدرا لما جمع فلم يذكر الاذن اذ لا مدخل لها في الاصمام والعين لها مدخل في الرؤية بل هى الكل ويدل عليه ان الآفة في غير هذه المواضع لما اضافها الى الاذن سماها وقرا كما قال تعالى وفي آذاننا وقر وقال كان في اذنيه وقرا ولو قردون الصمم وكذلك الطرش * ثم قال تعالى (افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) ولنذكر تفسيرها في مسائل (المسئلة الاولى) لما قال الله تعالى فأصمهم واعمى ابصارهم كيف يمكنهم التدبر في القرآن قال تعالى افلا يتدبرون وهو كقول القائل للاعمى ابصر وللاصم اسمع فنقول (الجواب) عنه من ثلاثة اوجه مترتبة بعضها احسن من البعض (الاول) تكليفه ما لا يطاق جائز والله امر من علم انه لا يؤمن بأن يؤمن فكذلك جاز ان يعميهم ويذمهم على ترك التدبر (الثانى) ان قوله أفلا يتدبرون المراد منه الناس (الثالث) ان نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة فانه تعالى قال اولئك الذين لعنهم الله اى ابعدهم عنه او عن الصدق او عن الخير او غير ذلك من الامور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام واعماهم لا يتبعون طريق الاسلام فاذن هم بين امرين اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه لان الله تعالى لعنهم وابعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما الصنف الاعلى بل النوع الاشرف واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في

(اولئك) اشارة الى المخاطبين بطريق الالتفات ايذانا بأن ذكر هناتهم اوجب اسقاطهم من رتبة الخطاب وحكاية احوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ خبره (الذين لعنهم الله) اى ابعدهم من رحمته (فاصمهم) عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم (واعمى ابصارهم) لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة في الانفس والآفاق (أفلا يتدبرون القرآن) اى ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات (ام على قلوب اقفالها) فلا يكاد يصل اليها ذكر اصلا وام منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر الى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر والهمزة للتقرير وتنكير القلوب اما لتهويل حالها وتفظيع شأنها بابهام امرها في القساوة والجهالة كأنه قيل على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة واما لان المراد بها قلوب بعض منهم وهم المنافقون واضافة الاقفال اليها للدلالة على انها اقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الاقفال المعهودة وقرئ اقفلها واقفالها على المصدر (ان الذين ارتدوا على ادبارهم) اى رجعوا الى ما كانوا

قلوبهم لكونها مقفلة تقديره افلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعودين أم على قلوب اقفال فيتدبرون ولا يفهمون وعلى هذا لا نحتاج ان نقول أم بمعنى بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام (المسئلة الثانية) قوله على قلوب على التنكير ما الفائدة فيه نقول قال الزمخشري يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون للتنبيه على كونه موصوفا لان النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال أم على قلوب قاسية او مظلمة (الثاني) ان يكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لان النكرة لا تعم تقول جاءني رجال فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الانكار الذي في القلوب وذلك لان القلب اذا كان عارفا كان معروفا لان القلب خلق للمعرفة فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف وهذا كما يقول القائل في الانسان المؤذي هذا ليس بانسان هذا سبع ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر اذا علم هذا فالتعريف اما بالالف واللام واما بالاضافة واللام لتعريف الجنس او للعهد ولم يمكن ارادة الجنس اذ ليس على كل قلب قفل ولا تعريف العهد لان ذلك القلب ليس ينبغي ان يقال له قلب واما بالاضافة بان نقول على قلوب اقفالها وهي لعدم عود فائدة اليهم كأنها ليست لهم فان قيل فقد قال ختم الله على قلوبهم وقال فويل للقاسية قلوبهم فنقول الاقفال ابلغ من الختم فترك الاضافة لعدم انتفاعهم رأسا (المسئلة الثالثة) في قوله أقفالها بالاضافة ولم يقل اقفال كما قال قلوب لان الاقفال كانت من شأنها فأضافها اليها كأنها ليست الا لها وفي الجملة لم يضف القلوب اليهم لعدم نفعها اياهم واضاف الاقفال اليها لكونها مناسبة لها ونقول اراد به اقفالا مخصوصة هي اقفال الكفر والعناد ❁ ثم قال تعالى (ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) اشارة الى اهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وارتدوا أو الى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون انه الحق الشيطان سول لهم سهل لهم وأملى لهم يعني قالوا نعيش اياما ثم نؤمن به وقرئ وأملي لهم فان قيل الاملاء والامهال وحد الآجال لا يكون الا من الله فكيف يصح قراءة من قرأ وأملى لهم فان المملي حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) جاز ان يكون المراد وأملى لهم الله فيقف على سول لهم (وثانيهما) هو ان المسول ايضا ليس هو الشيطان وانما اسند اليه من حيث ان الله قدر على يده ولسانه ذلك فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم في آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم في آخر الامر تؤمنون وقرئ وأملي لهم بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول ❁ ثم قال تعالى (ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم اسرارهم) قال بعض المفسرين ذلك اشارة الى الاملاء اي ذلك الاملاء بسبب

(انهم)

عليه من الكفر وهم المنافقون الذين وصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الافعال والاحوال فانهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام (من بعد ما تبين لهم الهدى) بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة وقيل هم اليهود وقيل اهل الكتابين جميعا كفروا به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نعته في كتابهم وعرفوا انه المنعوت بذلك وقوله تعالى (الشيطان سول لهم) جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لان اي سهل ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقيل من السول المخفف من السؤل لاستمرار القلب فمعنى سول له امرا حينئذ اوقعه في امنيته فان السؤل الامنية وقرئ سول مبنيا للمفعول على حذف المضاف اي كيد الشيطان (واملى لهم) ومد لهم في الاماني والآمال وقيل امهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرئ واملي لهم على صيغة المتكلم فالمعنى ان الشيطان يغويهم وانا انظرهم فالواو للحال او للاستئناف وقرئ املي لهم على البناء للمفعول اي امهلوا ومد في عمرهم (ذلك) اشارة الى ما ذكر من ارتدادهم لا الى الاملاء كما نقل عن الواحدي ولا الى التسويل كما قيل لان شيئا منهما ليس مسببا عن القول الآتي وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بانهم) اي بسبب انهم

انهم قالوا للذين كرهوا وهو اختيار الواحدى وقال بعضهم ذلك اشارة الى التسويل ويحتمل ان يقال ذلك الارتداد بسبب انهم قالوا سنطيعكم وذلك لانا بينا ان قوله سنطيعكم فى بعض الامر هو انهم قالوا نوافقكم على ان محمدا ليس بمرسل وانما هو كاذب ولكن لا نوافقكم فى انكار الرسالة والحشر والاشراك بالله مع الاصنام ومن لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فهو كافر وان آمن بغيره لا بل من لم يؤمن بمحمد عليه السلام لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر لان الله كما اخبر عن الحشر وهو جائز اخبر عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وهى جائزة فاذا لم يصدق الله فى شئ لا ينفى الكذب بقول الله فى غيره فلا يكون مصدقا موقنا بالحشر ولا برسالة احد من الانبياء لان طريق معرفتهم واحد والمراد من الذين كرهوا ما نزل الله هم المشركون والمنافقون وقيل المراد اليهود فان اهل مكة قالوا لهم نوافقكم فى اخراج محمد وقتله وقتال اصحابه والاول اصح لان قوله كرهوا ما نزل الله لو كان مسندا الى اهل الكتاب لكان مخصوصا ببعض ما انزل الله وان قلنا بانه مسند الى المشركين يكون عاما لانهم كرهوا ما نزل الله وكذبوا الرسل باسرهم وانكروا الرسالة رأسا وقوله سنطيعكم فى بعض الامر يعنى فيما يتعلق بمحمد من الايمان فلا نؤمن والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه واما الاشراك بالله واتخاذ الانداد له من الاصنام وانكار الحشر والنبوة فلا وقوله والله يعلم اسرارهم قال اكثرهم المراد منه هو انهم قالوا ذلك سرا فافشاه الله واظهره لنبيه عليه السلام والاظهر ان يقال والله يعلم اسرارهم وهو ما فى قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه السلام فانهم كانوا مكابرين معاندين وكانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون ابناءهم وقرئ اسرارهم بكسر الهمزة على المصدر وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة فانهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار سنطيعكم فى بعض الامر وكانوا يسرون انهم ان غلبوا انقلبوا كما قال الله تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم وقال تعالى فاذا جاء الخوف سلقوكم بألسنة حداد * ثم قال تعالى (فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم) اعلم انه لما قال الله تعالى والله يعلم اسرارهم قال فهب انهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفيا وقت وفاتهم او نقول كأنه تعالى قال والله يعلم اسرارهم وهب انهم يختارون القتال لما فيه من الضراب والطعان مع انه مفيد على الوجهين جميعا ان غلبوا فالمال فى الحال والثواب فى المآل وان غلبوا فالشهادة والسعادة فكيف حالهم اذا ضرب وجوههم وادبارهم وعلى هذا فيه لطيفة وهى ان القتال فى الحال ان اقدم المبارز فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه وان لم يهزمه فالضرب على وجهه ان صبر وثبت وان لم يثبت وانهزم فان فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه وان لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر فوجهه وظهره مضروب مطعون فكيف يحترز عن الاذى.

(قالوا) يعنى المنافقين المذكورين لا اليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعدما وجدوا نعته فى التوراة كما قيل فان كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان القول لهم المنافقين او المشركين على رأى القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام (للذين كرهوا ما نزل الله) اى اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بانه من عند الله تعالى حسدا وطمعا فى نزوله عليهم لا المشركين كما قيل فان قوله تعالى (سنطيعكم فى بعض الامر) عبارة قطعا عما حكى عنهم بقوله تعالى الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وان قوتلتم لننصرنكم وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وارادوا بالبعض الذى اشاروا الى عدم اطاعتهم فيه اظهار كفرهم واعلان امرهم بالفعل قبل قتالهم واخراجهم من ديارهم فانهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية اليه لما كان لهم فى اظهار الايمان من المنافع الدنيوية وانما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرا كما يعرب عنه قوله تعالى (والله يعلم اسرارهم) اى اخفاءهم لما يقولونه

ويختار العذاب الاكبر ❊ قوله تعالى (ذلك بانهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه) وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى ذكر امرين ضرب الوجه وضرب الادبار وذكر بعدهما امرين آخرين اتباع ما اسخط الله وكراهة رضوانه فكأنه تعالى قابل الامرين فقال يضربون وجوههم حيث اقبلوا على سخط الله فان المتبع للشئ متوجه اليه ويضربون ادبارهم لانهم تولوا عما فيه رضا الله فان الكاره للشئ يتولى عنه وما اسخط الله يحتمل وجوها (الاول) انكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الاقرار به والاسلام (الثانى) الكفر هو ما اسخط الله والايمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية الى ان قال رضى الله عنهم ورضوا عنه (الثالث) ما اسخط الله تسويل الشيطان ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن فان قيل هم ما كانوا يكرهون رضوان الله بل كانوا يقولون ان ما نحن عليه فيه رضوان الله ولا نطلب الا رضا الله وكيف لا والمشركون باشراكهم كانوا يقولون انا نطلب رضا الله كما قالوا فيقربونا الى الله زلفى وقالوا ليشفعوا لنا فنقول معناه كرهوا ما فيه رضا الله تعالى (وفيه لطفية) وهى ان الله تعالى قال ما اسخط الله ولم يقل ما ارضى الله وذلك لان رحمة الله سابقة فله رحمة ثابتة وهى منشأ الرضوان وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب فقال رضوانه لانه وصف ثابت لله سابق ولم يقل سخط الله بل ما اسخط الله اشارة الى ان السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ولهذا المعنى قال فى اللعان فى حق المرأة والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين فقال غضب الله مضافا لان لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه وقبله لم يكن لله غضب ورضوان الله امر يكون منه الفعل وغضب الله امر يكون من فعله ولنضرب له مثالا الكريم الذى رسخ الكرم فى نفسه يحمله الكرم على الافعال الحسنة فاذا كثر من المسئ الاساءة فغضبه لا لامر يعود اليه بل غضبه عليه يكون لاصلاح حاله وزجرا لامثاله عن مثل فعاله فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة لكن فلانا اغضبه وظهر منه الغضب فيجعل الغضب ظاهرا من الفعل والفعل الحسن ظاهرا من الكرم فالغضب فى الكريم بعد فعل والفعل منه بعد كرم ومن هذا يعرف لطف قوله ما اسخط الله وكرهوا رضوانه ❊ ثم قال تعالى (فأحبط اعمالهم) حيث لم يطلبوا رضا الله وانما طلبوا رضا الشيطان والاصنام ❊ قوله تعالى (ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله اضغانهم) هذا اشارة الى المنافقين وام تستدعى جملة اخرى استفهامية اذا كانت للاستفهام لان كلمة ام اذا كانت متصلة استفهامية تستدعى سبق جملة اخرى استفهامية يقال ازيد فى الدار ام عمرو واذا كانت منقطعة لا تستدعى ذلك يقال ان هذا لزيد ام عمر كما يقال بل عمرو والمفسرون على انها منقطعة ويحتمل ان يقال انها استفهامية والسابق مفهوم من قوله تعالى والله يعلم اسرارهم فكأنه تعالى قال

(احسب)

ليهود وقرئ اسرارهم اى جميع اسرارهم التى من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للافشاء فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة والفاء فى قوله تعالى (فكيف اذا توفتهم الملائكة) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف كأنه قيل يفعلون فى حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون اذا توفتهم الملائكة وقيل مرفوع على انه خبر مبتدأ محذوف اى فكيف حالهم او حيلتهم اذا توفتهم الخ وقرئ توفاهم على انه اما ماض او مضارع قد حذف احدى تاءيه (يضربون وجوههم وادبارهم) حال من فاعل توفتهم او من مفعوله وهو تصوير لتوفيهم على اهول الوجوه وافظعها وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يتوفى احد على معصية الا يضرب الملائكة وجهه ودبره (ذلك) التوفى الهائل (بأنهم) اى بسبب انهم (اتبعوا ما اسخط الله) من الكفر والمعاصى (وكرهوا رضوانه) اى ما يرضاه من الايمان والطاعة حيث كفروا بعد الايمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود (فأحبط) لاجل ذلك (اعمالهم) التى عملوها حال ايمانهم من الطاعات او بعد ذلك من اعمال البر التى لو عملوها حال الايمان لانتفعوا بها (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض)

أحسب الذين كفروا ان لن يعلم الله اسرارهم ام حسب المنافقون ان لن يظهرها والكل قاصر وانما يعلمها ويظهرها ويؤيد هذا ان المنقطعة لا تكاد تقع فى صدر الكلام فلا يقال ابتداء بل جاء زيد ولا ام جاء عمرو والاخراج بمعنى الاظهار فانه ابراز والاضغان هى الحقود والامراض واحدها ضغن ❊ ثم قال تعالى (ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم اعمالكم) لما كان مفهوم قوله ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله اضغانهم ان الله يظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم كأن قائلا قال فلم يظهر فقال اخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم كما لا تفشى اسرار الاكابر خوفا منهم ولو نشاء لأريناكهم اى لا مانع لنا والاراءة بمعنى التعريف وقوله فلعرفتهم لزيادة فائدة وهى ان التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة يقال عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال ههنا فلعرفتهم يعنى عرفناهم تعريفا تعرفهم به اشارة الى قوة التعريف واللام فى قوله فلعرفتهم هى التى تقع فى جزاء لو كما فى قوله لأريناكهم ادخلت على المعرفة اشارة الى ان المعرفة كالمرتبة على المشيئة كأنه قال ولو نشاء لعرفتهم ليفهم ان المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف اى لو نشاء لعرفناك تعريفا معه المعرفة لا بعده واما اللام فى قوله تعالى ولتعرفنهم جواب لقسم محذوف كأنه قال ولتعرفنهم والله وقوله فى لحن القول فيه وجوه (احدها) فى معنى القول وعلى هذا فيحتمل ان يكون المراد من القول قولهم اى لتعرفنهم فى معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حين مجىء النصر انا كنا معكم وقولهم لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن وقولهم ان بيوتنا عورة وغير ذلك ويحتمل ان يكون المراد قول الله عز وجل اى لتعرفنهم فى معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا وقوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى غير ذلك (وثانيها) فى ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا فأمالوا كلامهم حيث قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقالوا ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار الى غير ذلك (وثالثها) فى لحن القول اى فى الوجه الخفى من القول الذى يفهمه النبى عليه السلام ولا يفهمه غيره وهذا يحتمل امرين ايضا والنبى عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر امره الى ان اذن الله تعالى له فى اظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم واما قوله بسيماهم فالظاهر ان المراد ان الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة او يمسخهم كما قال تعالى ولو نشاء لمسخناهم وروى ان جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق وقوله تعالى والله يعلم اعمالكم وعد للمؤمنين وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق فان المنافق له قول بلا عمل والمؤمن كان له عمل ولا يقول به وانما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا

هم المنافقون الذين فصلت احوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدار النفى عليهم بقوله تعالى (ان لن يخرج الله اضغانهم) فأم منقطعة وان مخففة من ان وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف ولن بما فى حيزها خبرها والاضغان جمع ضغن وهو الحقد اى بل احسب الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين انه لن يخرج الله احقادهم ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فتبقى امورهم مستورة والمعنى ان ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال (ولو نشاء) اراءتهم (لاريناكهم) لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية والالتفات الى نون العظمة لابراز العناية بالاراءة (فلعرفتهم بسيماهم) بعلامتهم التى نسمهم بها وعن انس رضى الله عنه ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة واصبحوا وعلى كل واحد منهم مكتوب هذا منافق واللام لام الجواب كررت فى المعطوف للتأكيد والفاء لترتيب المعرفة على الاراءة واما ما فى قوله تعالى

او اخطأنا وقوله ربنا فاغفرلنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون فى السيآت مستغفرين مشفقين والمنافق كان يتكلم فى الصالحات كقوله انامعكم قالت الاعراب آمناومن الناس من يقول آمنا ويعمل السيئ فقال تعالى الله يسمع اقوالهم الفارغة ويعلم اعمالكم الصالحة فلا يضيع ❊ ثم قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم) اى لنأمرنكم بما لا يكون متعينا للوقوع بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر وقوله تعالى حتى نعلم المجاهدين اى نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل فى علم الشهادة فانه تعالى قد علمه علم الغيب وقد ذكرنا ماهو التحقيق فى الابتلاء وفى قوله حتى نعلم وقوله المجاهدين اى المقدمين على الجهاد والصابرين اى الثابتين الذين لا يولون الادبار وقوله ونبلوا اخباركم يحتمل وجوها (احدها) قوله آمنا لان المنافق وجد منه هذا الخبر والمؤمن وجد منه ذلك ايضا وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب كما قال تعالى اولئك هم الصادقون (وثانيها) اخبارهم من عدم التولية فى قوله ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار الى غير ذلك فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع اصحابه فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة (وثالثها) المؤمن كان له اخبار صادقة مسموعة من النبى عليه السلام كقوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام لأغلبن انا ورسلى وان جندنا لهم الغالبون وللمنافق اخبار هى اراجيف كما قال تعالى فى حقهم والمرجفون فى المدينة فعند تحقق الايجاف يتبين الصدق من الارجاف ❊ ثم قال تعالى (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم) وفيه وجهان (احدهما)هم اهل الكتاب قريظة والنضير (والثانى) كفار قريش يدل على الاول قوله تعالى من بعد ما تبين لهم الهدى قيل اهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام وقوله لن يضروا الله شيئا تهديد معناه هم يظنون ان ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك بل الشقاق مع الله فان محمدا رسول الله ماعليه الا البلاغ فان ضروا يضروا المرسل لكن الله منزه عن ان يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق وقوله وسيحبط اعمالهم قد علم معناه فان قيل قد تقدم فى اول السورة ان الله تعالى احبط اعمالهم فكيف يحبط فى المستقبل فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان المراد من قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فى اول السورة المشركون ومن اول الامر كانوا مبطلين واعمالهم كانت على غير شريعة والمراد من الذين كفروا ههنا اهل الكتاب وكانت لهم اعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم ايمانهم بالحشر والرسل والتوحيد والكافر المشرك احبط عمله حيث لم يكن على شرع اصلا ولا كان معترفا بالحشر (الثانى) هو ان المراد بالاعمال ههنا مكايدهم فى القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين والمراد بالاعمال فى اول السورة هو ما ظنوه حسنة ❊ ثم قال

(تعالى)

(ولتعرفنهم فى لحن القول) فالجواب قسم محذوف ولحن القول نحوه وأسلوبه او امالته الى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطئ لاحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب (والله يعلم اعمالكم) فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين وايذان بان حالهم بخلاف حال المنافقين (ولنبلونكم) بالامر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاق الجهاد علما فعليا يتعلق به الجزاء (ونبلو اخباركم) ما يخبر به عن اعمالكم فيظهر حسنها وقبيحها وقرئ وبيلو بالياء وقرئ نبلو بسكون الواو على ونحن نبلو (ان الذين كفروا وصدوا) الناس (عن سبيل الله وشاقوا الرسول) وعادوه (من بعد ما تبين لهم الهدى) بما شاهدوا نعته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وبما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة والنضير او المطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) بكفرهم وصدهم (شيئا) من الاشياء او شيئا من الضرر او لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئا وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته (وسيحبط اعمالهم) اى مكايدهم التى نصبوها فى ابطال دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه

تعالى (ياأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم) العطف
ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لان طاعة
الله تحمل على طاعة الرسول وهذا اشارة الى العمل بعد حصول العلم كأنه تعالى قال
ياأيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير وقوله ولا تبطلوا اعمالكم يحتمل وجوها
(احدها) دوموا على ما انتم عليه ولا تشركوا فتبطل اعمالكم قال تعالى لئن اشركت
ليحبطن عملك (الوجه الثاني) لا تبطلوا اعمالكم بترك طاعة الرسول كما ابطل اهل الكتاب
اعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ويؤيده قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا
اصواتكم الى ان قال ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون (الثالث) لا تبطلوا اعمالكم
بالمن والاذى كما قال تعالى يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم وذلك ان من يمن
بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لاجل قلبك ولولا رضاك به لما فعلت وهو
مناف للاخلاص والله لا يقبل الا العمل الخالص * ثم قال تعالى (ان الذين كفروا
وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) بين ان الله لا يغفر الشرك وما
دون ذلك يغفره ان شاء حتى لا يظن ظان ان اعمالهم وان بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم
بفضله وان لم يغفر لهم بعملهم * ثم قال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون
والله معكم ولن يتركم اعمالكم) لما بين ان عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط وذنبه
الذي هو اقبح السيآت غير مغفور بين ان لا حرمة له في الدنيا ولا في الآخرة وقد امر الله
تعالى بطاعة الرسول بقوله واطيعوا الرسول وامر بالقتال بقوله فلا تهنوا اي لا تضعفوا
بعد ما وجد السبب في الجد في الامر والاجتهاد في الجهاد فقال فلا تهنوا وتدعوا الى السلم
وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن وذلك لان قوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول يقتضي
السعي في القتال لان امر الله وامر الرسول ورد بالجهاد وقد امروا بالطاعة فذلك يقتضي
ان لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون ثم ان بعد المقتضي قد يتحقق مانع
ولا يتحقق المسبب والمانع من القتال اما اخروي واما دنيوي فذكر الاخروي وهو ان
الكافر لا حرمة له في الدنيا والآخرة لانه لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة فاذا وجد
السبب ولم يوجد المانع ينبغي ان يتحقق المسبب ولم يقدم المانع الدنيوي على قوله فلا تهنوا
اشارة الى ان الامور الدنيوية لا ينبغي ان تكون مانعة من الاتيان فلا تهنوا فان لكم
النصر او عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوي
مع انه لا ينبغي ان يكون مانعا ليس بموجود ايضا حيث انتم الاعلون والاعلون
والمصطفون في الجمع حالة الرفع معلوم الاصل ومعلوم ان الامر كيف آل الى هذه الصيغة
في التصريف وذلك لان اصله في الجمع الموافق اعليون ومصطفيون فسكنت الياء لكونها
حرف علة فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان ولم يكن بد من حذف احدهما
او تحريكه والتحريك كان يوقع في المحذور الذي اجتنب منه فوجب الحذف والواو كانت

الصلاة والسلام فلا يصلون بها الى
ما كانوا يبغون من الغوائل
ولا تثمر لهم الا القتل والجلاء عن
اوطانهم (ياأيها الذين آمنوا
اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا
تبطلوا اعمالكم) بما ابطل به هؤلاء
اعمالهم من الكفر والنفاق
والعجب والرياء والمن والاذى
ونحوها وليس فيه دليل على
احباط الطاعات بالكبائر (ان
الذين كفروا وصدوا عن سبيل
الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر
الله لهم) حكم يعم كل من مات على
الكفر وان صح نزوله في اصحاب
القليب (فلا تهنوا) اي لا تضعفوا
(وتدعوا الى السلم) اي ولا تدعوا
الكفار الى الصلح خورا فان
ذلك اعطاء الدنية ويجوز ان
يكون منصوبا باضمار ان على
جواب النهي وقرئ ولا تدعوا
من ادعى القوم بمعنى تداعوا
نحو ارتموا الصيد وتراموه ومنه
تراؤا الهلال فان صيغة التفاعل
قد يراد بها صدور الفعل عن
المتعدد من غير اعتبار وقوعه
عليه ومنه قوله تعالى عم يتساءلون
على احد الوجهين والفاء لترتيب
النهي على ما سبق من الامر
بالطاعة وقوله تعالى (وانتم
الاعلون) جملة حالية مقررة لمعنى
النهي مؤكدة لوجود الانتهاء
وكذا قوله تعالى (والله معكم)
فان كونهم الاعلين وكونه

فيه لمعنى لايستفاد الامنها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقى اعلون و بهذا الدليل صار فى الجر اعلين ومصطفين وقوله تعالى والله معكم هداية وارشاد يمنع المكلف من الاعجاب بنفسه وذلك لانه تعالى لما قال انتم الاعلون كان ذلك سبب الافتخار فقال والله معكم يعنى ليس ذلك من انفسكم بل من الله او نقول لما قال وانتم الاعلون فكان المؤمنون يرون ضعف انفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم وكان يقع فى نفس بعضهم انهم كيف يكون لهم الغلبة فقال ان الله معكم لا يبقى لكم شك ولا ارتياب فى ان الغلبة لكم وهذا كقوله تعالى لاغلبن انا ورسلى وقوله وان جندنا لهم الغالبون وقوله ولن يتركم اعمالكم وعد آخر وذلك لأن الله لما قال ان الله معكم كان فيه ان النصرة بالله لا بكم فكان القائل يقول لم يصدر منى عمل له اعتبار فلا استحق تعظيما فقال هو ينصركم ومع ذلك لاينقص من اعمالكم شيئا ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ومنكم فكأنكم مستقلون فى ذلك ويعطيكم اجر المستبد والترة النقص ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه ويقول عند القتال ان قتل من الكافرين احد فقد وتروا فى اهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم والمؤمن ان قتل فانما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله وكيف ولم ينقص من عدده ايضا فانه حى مرزوق فرح بما هو اليه مسوق * ثم قال تعالى (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم ولايسألكم اموالكم) زيادة فى التسلية يعنى كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد وهى لاتفوتك لكونك منصورا غالبا وان فاتتك فعملك غير موتر فكيف ومايفوتك فان فات فائت ولم يعوض لاينبغى لك ان تلتفت اليها لكونها لعبا ولهوا وقد ذكرنا فى اللعب واللهو مرارا ان اللعب ماتشتغل به ولايكون فيه ضرورة فى الحال ولامنفعة فى المآل ثم ان استعمله الانسان ولم يشغله عن غيره ولم يثنه عن اشغاله المهمة فهو لعب وان شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ولهذا يقال ملاهى لآلات الملاهى لانها مشغلة عن الغير ويقال لمادونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام وقد ذكرنا ذلك غير مرة وقوله وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم اعاده لوعدو الاضافة للتعريف اى الاجر الذى وعدكم بقوله اجر كريم واجر كبير واجر عظيم وقوله ولايسئلكم اموالكم يحتمل وجوها (احدها) ان الجهاد لابد له من انفاق فلو قال قائل انا لاانفق مالى فيقال له الله لايسئلكم مالكم فى الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة واموال المصالح فيما تحتاجون اليه من المال لاترعون باخراجه (وثانيها) الاموال لله وهى فى ايديكم عارية وقد طلب منكم اواجاز لكم فى صرفها فى جهة الجهاد فلامعنى لبخلكم بماله والى هذا اشار بقوله تعالى ومالكم ان لاتنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والارض اى الكل لله (وثالثها) لايسألكم اموالكم كلها وانما يسألكم شيئا يسيرا منها وهو ربع العشر وهو قليل جدا لان العشر هو الجزء الاقل اذ ليس دونه جزء آخر وليس اسما مفردا واما الجزء من احد عشر ومن اثنى عشر ومن مائة جزء لما لم يكن ملتفتا اليه لم يوضع له اسم مفرد ثم ان الله تعالى لم يوجب ذلك

عز وجل ناصرهم من اقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة وكذا توفيته تعالى لاجور الاعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ولن يتركم اعمالكم) اى ولن يضيعها من وترت الرجل اذا قتلت له قتيلا من ولد او اخ او حميم فأفردته عنه من الوتر الذى هو الفرد وعبر عن ترك الاثابة فى مقابلة الاعمال بالوتر الذى هو اضاعة شئ معتد به من الانفس والاموال مع ان الاعمال غير موجبة للثواب على قاعدة اهل السنة ابرازا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الاثابة منزلة اضاعة اعظم الحقوق واتلافها وقد مر فى قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم انى لااضيع عمل عامل منكم (انما الحياة الدنيا لعب ولهو) لاثبات لها ولا اعتداد بها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم) اى ثواب ايمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون (ولايسألكم اموالكم) بحيث يخل اداؤها بمعاشكم وانما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع العشر تؤدونها الى فقرائكم

فى رأس المال بل أوجب ذلك فى الربح الذى هو من فضل الله وعطائه وان كان رأس المال ايضا كذلك لكن هذا المعنى فى الربح اظهر ولما كان المال منه ماينفق للتجارة فيه ومنه مالاينفق ومانفق منه للتجارة احد قسميه وهو يحتمل ان تكون التجارة فيه رابحة ويحتمل ان لاتكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار فى التقدير كان الربح فى ربعه فأوجب عشر الذى فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب فعلم ان الله لايسألكم اموالكم ولا الكثير منه ٭ ثم قال تعالى (ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج اضغانكم) الفاء فى قوله فيحفكم للاشارة الى ان الاحفاء يتبع السؤال بيانا لشح الانفس وذلك لان العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لايكون الا للمتعاقبين او متعلقين احدهما بالآخر فكأنه تعالى بين ان الاحفاء يقع عقيب السؤال لان الانسان بمجرد السؤال لايعطى شيئا وقوله تبخلوا ويخرج اضغانكم يعنى ماطلبها ولو طلبها والح عليكم فى الطلب لبخلتم كيف وانتم تبخلون باليسير فكيف لاتبخلون بالكثير وقوله ويخرج اضغانكم يعنى بسببه فان الطالب وهو النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه يطلبونكم وانتم لمحبة المال وشح الانفس تمتنعون فيفضى الى القتال وتظهر به الضغائن ٭ ثم قال تعالى بيانا لماقاله (هاانتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وانتم الفقراء) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل وقوله هؤلاء يحتمل وجهين (احدهما) ان تكون موصولة كأنه قال انتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا فى سبيل الله (وثانيهما) هؤلاء وحدها خبر انتم كما يقال انت هذا تحقيقا للشهرة والظهور اى ظهر اثركم بحيث لاحاجة الى الاخبار عنكم بامر مغاير ثم يبتدئ تدعون وقوله تدعون اى الى الانفاق امافى سبيل الله تعالى بالجهاد وامافى صرفه الى المستحقين من اخوانكم وبالجملة ففى الجهتين تخذيل الاعداء ونصرة الاولياء فمنكم من يبخل ثم بين ان ذلك البخل ضرر عائد اليه فلا تظنوا انهم لاينفقونه على غيرهم بل لاينفقونه على انفسهم فان من يبخل باجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل الا على نفسه ثم حقق ذلك بقوله والله الغنى غير محتاج الى مالكم واتمه بقوله وانتم الفقراء حتى تقولوا انا ايضا اغنياء عن القتال ودفع حاجة الفقراء فانهم لاغنى لهم عن ذلك فى الدنيا والآخرة امافى الدنيا فلانه لولا القتال لقتلوا فان الكافر ان لم يغز يغز والمحتاج ان لم يدفع حاجته يقصده لاسيما اباح الشارع للمضطر ذلك امافى الآخرة فظاهر فكيف لايكون فقيرا وهو موقوف مسؤل يوم لاينفع مال ولابنون ٭ ثم قال تعالى (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا امثالكم) بيان الترتيب من وجهين (احدهما) انه ذكره بيانا للاستغناء كما قال تعالى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وقد ذكر ان هذا تقرير بعد التسليم كأنه تعالى يقول الله غنى عن العالم باسره فلا حاجة له اليكم فان كان ذاهب

(ان يسألكموها) اى اموالكم (فيحفكم) اى يجهدكم بطلب الكل فان الاحفاء والالحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال احفى شاربه اذا استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا (ويخرج اضغانكم) اى احقادكم وضمير يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة او البخل لانه سبب الاضغان وقرئ يخرج من الخروج بالياء والتاء مسندا الى الاضغان (هاانتم هؤلاء) اى انتم ايها المخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) استئناف مقرر لذلك او صلة لهؤلاء على انه بمعنى الذين اى هاانتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والانفاق فى سبيل الله يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فمنكم من يبخل) اى ناس يبخلون وهو فى حيز الدليل على الشرطية السابقة (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه) فان كلا من نفع الانفاق وضرر البخل عائد اليه والبخل يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الامساك والتعدى (والله الغنى) دون من عداه (وانتم الفقراء) فما يأمركم به فهو لاحتياجكم الى ما فيه من المنافع فان امتثلتم فلكم وان

يذهب الى ان ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده فنقول هب ان هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له بل الله قادر على ان يخلق خلقا غيركم يفتخرون بعبادته وعالما غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه (وثانيهما) انه تعالى لما بين الامور وأقام عليها البراهين واوضحها بالامثلة قال ان اطعتم فلكم أجوركم وزيادة وان تتولوا لم يبق لكم الا الاهلاك فان مامن نبي انذر قومه واصروا على تكذيبه الا وقد حق عليهم القول بالاهلاك وطهر الله الارض منهم واتى بقوم آخرين طاهرين وقوله ثم لايكونوا امثالكم فيه مسئلة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهى ان النحاة قالوا يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم الجزم والرفع جميعا قال الله تعالى ههنا وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا امثالكم بالجزم وقال في موضع آخر وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لاينصرون بالرفع باثبات النون وهو مع الجواز ففيه تدقيق وهو ان ههنا لايكون متعلقا بالتولي لانهم ان لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وان تولوا لايكونون مثلهم لكونهم عاصين وكون من يأتي بهم مطيعين واما هناك سواء قاتلوا اولم يقاتلوا لاينصرون فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء وههنا جزم للتعليق وقوله ثم لايكونوا امثالكم يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد لايكونوا امثالكم في الوصف ولا في الجنس وهو لائق (الوجه الثاني) وفيه وجوه (احدها) قوم من العجم (وثانيها) قوم من فارس روى ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عمن يستبدل بهم ان تولوا وسلمان الى جنبه فقال هذا وقومه ثم قال لوكان الايمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس (وثالثها) قوم من الانصار والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته واهل بيته اجمعين وسلم تسليما كثيرا آمين

(سورة الفتح عشرون وتسع آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا فتحنالك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الفتح وجوه (احدها) فتح مكة وهو ظاهر (وثانيها) فتح الروم وغيرها (وثالثها) المراد من الفتح صلح الحديبية (ورابعها) فتح الاسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان (وخامسها) المراد منه الحكم كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقوله ثم يفتح بيننا بالحق والمختار من الكل وجوه (احدها) فتح مكة (والآخر) فتح الحديبية (والثالث) فتح الاسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان والاول مناسب لآخر ماقبلها من وجوه (احدها) انه تعالى لما قال هاانتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله الى ان قال ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه بين تعالى انه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم اضعاف ماانفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلايكون بخلهم الا على انفسهم (ثانيها) لما قال والله معكم وقال وانتم

توليتم فعليكم وقوله تعالى (وان تتولوا) عطف على ان تؤمنوا اى وان تعرضوا عن الايمان والتقوى (يستبدل قوما غيركم) يخلف مكانكم قوما آخرين (ثم لايكونوا امثالكم) في التولي عن الايمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما قيل هم الانصار وقيل الملائكة وقيل أهل فارس لما روى انه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم وكان سلمان الى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذى نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كندة والنخع وقيل العجم وقيل الروم * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقا على الله عز وجل ان يسقيه من انهار الجنة

* (سورة الفتح مدنية نزلت في مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وآيها تسع وعشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(انا فتحنالك) فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة او صلحا بحراب او بدونه فانه مالم يظفر به منغلق مأخوذ من فتح باب الدار واسناده الى نون العظمة لاستناد افعال

الاعلون بين برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلون (ثالثها) لما قال تعالى فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم بل اصبروا فانهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح فى احد الوجوه وكما كان فتح مكة حيث اتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين فان قيل ان كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن قد فتحت فكيف قال تعالى فتحنا لك فتحا مبينا بلفظ الماضى نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) فتحنا فى حكمنا وتقديرنا (ثانيهما) ما قدره الله تعالى فهو كائن فأخبر بصيغة الماضى اشارة الى انه امر لا دافع له واقع لا رافع له (المسئلة الثانية) قوله ليغفر لك الله ينبئ عن كون الفتح سببا للمغفرة والفتح لا يصلح سببا للمغفرة فالجواب عنه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ما قيل ان الفتح لم يجعله سببا للمغفرة وحدها بل هو سبب لاجتماع الامور المذكورة وهى المغفرة واتمام النعمة والهداية والنصرة كأنه تعالى قال ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ولا شك ان الاجتماع لم يثبت الا بالفتح فان النعمة به تمت والنصرة بعده قد عمت (الثانى) هو ان فتح مكة كان سببا لتطهير بيت الله تعالى من رجس الاوثان وتطهير بيته صار سببا لتطهير عبده (الثالث) هو ان بالفتح يحصل الحج ثم بالحج تحصل المغفرة الا ترى الى دعاء النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال فى الحج اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا (الرابع) المراد منه التعريف تقديره انا فتحنا لك ليعرف انك مغفور معصوم فان الناس كانوا علموا بعد عام الفيل ان مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه وانما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور (المسئلة الثالثة) لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم ذنب فماذا يغفر له قلنا الجواب عنه قد تقدم مرارا من وجوه (احدها) المراد ذنب المؤمنين (ثانيها) المراد ترك الافضل (ثالثها) الصغائر فانها جائزة على الانبياء بالسهو والعمد وهو يصونهم عن العجب (رابعها) المراد العصمة وقد بينا وجهه فى سورة القتال (المسئلة الرابعة) ما معنى قوله وما تأخر نقول فيه وجوه (احدها) انه وعد النبى عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة (ثانيها) ما تقدم على الفتح وما تأخر عن الفتح (ثالثها) العموم يقال اضرب من لقيت ومن لا تلقاه مع ان من لا يلقى لا يمكن ضربه اشارة الى العموم (رابعها) من قبل النبوة ومن بعدها وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة وفيه وجوه اخر ساقطة منها قول بعضهم ما تقدم من امر مارية وما تأخر من امر زينب وهو ابعد الوجوه واسقطها لعدم التئام الكلام وقوله تعالى ويتم نعمته عليك يحتمل وجوها (احدها) هو ان التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكاليف نعم (ثانيها) يتم نعمته عليك باخلاء الارض لك عن معانديك فان يوم الفتح لم يبق للنبى عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار فان بعضهم كانوا اهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح (ثالثها) ويتم نعمته عليك فى الدنيا باستجابة دعائك فى طلب الفتح وفى الآخرة

لعباد اليه تعالى خلقا وايجادا والمراد به فتح مكة شرفها الله وهو المروى عن أنس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الاخبار الربانية للايذان بتحققه لا محالة تأكيدا للتبشير كما ان تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعز سلطانه ما لا يخفى وقيل هو ما أتيح له عليه الصلاة والسلام فى تلك السنة من فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فانه وان لم يكن فيه حراب شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحا بلا ريب وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما رموا المشركين حتى ادخلوهم ديارهم وعن الكلبى ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح وقد روى انه عليه الصلاة والسلام حين بلغه ان رجلا قال ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا قال بل هو اعظم الفتوح وقد رضى المشركون ان يدفعوكم بالراح

بقبول شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح وقوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما يحتمل وجوها (اظهرها) يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت الى قوله من المضلين او ممن يقدر على الاكراه على الكفر وهذا يوافق قوله تعالى ورضيت لكم الاسلام دينا حيث اهلكت المجادلين فيه وحملتهم على الايمان (وثانيها) ان يقال جعل الفتح سببا للهداية الى الصراط المستقيم لانه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد والجهاد سلوك سبيل الله ولهذا يقال للغازي في سبيل الله مجاهد (وثالثها) ماذكرنا ان المراد التعريف اى ليعرف انك على صراط مستقيم من حيث ان الفتح لا يكون الا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل وقوله وينصرك الله نصرا عزيزا ظاهر لان بالفتح ظهر النصر واشتهر الامر وفيه مسئلتان (احدهما) لفظية (والاخرى) معنوية (اما اللفظية) فهى ان الله وصف النصر بكونه عزيزا والعزيز من له النصر والجواب من وجهين (احدهما) ماقاله الزمخشرى انه يحتمل وجوها ثلاثة (الاول) معناه نصرا اذا عز كقوله في عيشة راضية اى ذات رضا (الثانى) وصف النصر بما يوصف به المنصور اسنادا مجازيا يقال له كلام صادق كما يقال له متكلم صادق (الثالث) المراد نصرا عزيزا صاحبه (الوجه الثانى) من الجواب ان نقول انما يلزمنا ماذكره الزمخشرى من التقديرات اذا قلنا العزة من الغلبة والعزيز الغالب واما اذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير او المحتاج اليه القليل الوجود يقال عز الشئ اذا قل وجوده مع انه محتاج اليه فالنصر كان محتاجا اليه ومثله لم يوجد وهو اخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد (اما المسئلة المعنوية) وهى ان الله تعالى لما قال ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك ابرز الفاعل وهو الله ثم عطف عليه بقوله ويتم وبقوله ويهديك ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام وهو ان الافعال الكثيرة اذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الاول ولا يظهر فيما بعده تقول جاء زيد وتكلم وقام وراح ولا تقول جاء زيد وقعد زيد اختصارا للكلام بالاقتصار على الاول ههنا لم يقل وينصرك نصرا بل اعاد لفظ الله فنقول هذا ارشاد الى طريق النصر ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير اضافة فقال تعالى بنصر الله ينصر ولم يقل بالنصر ينصر وقال هو الذى ايدك بنصره ولم يقل ايدك بالنصر وقال اذا جاء نصر الله والفتح وقال نصر من الله وفتح قريب ولم يقل نصر وفتح وقال وما النصر الا من عند الله وهذا ادل الآيات على مطلوبنا وتحقيقه هو ان النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى واصبر وماصبرك الا بالله وذلك لان الصبر سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فلما قال ههنا وينصرك الله اظهر لفظ الله ذكرا للتعليم ان بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب وبه يحصل الصبر وبه يتحقق النصر وههنا مسئلة اخرى وهو ان الله تعالى قال انا فتحنا ثم قال ليغفر لك الله ولم يقل انا فتحنا لنغفر لك تعظيما لامر الفتح وذلك لان المغفرة وان كانت عظيمة

ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم في الامان وقد رأوا منكم مايكرهون وعن الشعبي نزلت بالحديبية واصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة مالم يصب في غزوة حيث اصاب ان بويع بيعة الرضوان وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر وبلغ الهدى محله واطعموا نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح به المسلمون وكان في فتح الحديبية آية عظيمة هى انه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وشبع وقيل فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع مافتح له عليه الصلاة والسلام من الفتوح وقيل هو مافتح الله له عليه الصلاة والسلام من الاسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح ابين منه واعظم وهو رأس الفتوح كافة اذ لا فتح من فتوح الاسلام الا وهو شعبة من شعبه وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتاحة للحكومة والمعنى قضينا لك على اهل مكة ان تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة رضى الله عنه

لكنها عامة لقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقال ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي عليه السلام العصمة فذلك لم يختص بنبينا بل غيره من الرسل كان معصوما واتمام النعمة كذلك قال الله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي وقال يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وكذلك الهداية قال الله تعالى يهدي اليه من يشاء فعمم وكذلك النصرة قال الله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون واما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي صلى الله عليه وسلم فعظمه بقوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا وفيه التعظيم من وجهين احدهما انا وثانيهما لك اى لأجلك على وجه المنة * ثم قال تعالى (هو الذى انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما) لما قال تعالى وينصرك الله بين وجه النصر وذلك لان الله تعالى قد نصر رسله بصيحة يهلك بها اعداءهم اورجفة تحكم عليهم بالفناء اوجند يرسله من السماء اونصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال هو الذى انزل السكينة اى تحقيقا للنصر وفي السكينة وجوه (احدها) هو السكون (الثاني) الوقار لله ولرسول الله وهو من السكون (الثالث) اليقين والكل من السكون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم في قول اكثر المفسرين ويحتمل هي تلك لان المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب (المسئلة الثانية) السكينة المنزلة عليهم هي سبب ذكرهم الله كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (المسئلة الثالثة) قال الله تعالى في حق الكافرين وقذف في قلوبهم بلفظ القذف المزعج وقال في حق المؤمنين وانزل السكينة بلفظ الانزال المثبت وفيه معنى حكمي وهوان من علم شيئا من قبل وتذكره واستدام تذكره فاذا وقع لايتغير ومن كان غافلا عن شئ فيقع دفعة يرجف فؤاده ألاترى ان من اخبر بوقوع صيحة وقيل له لاتنزعج منها فوقعت الصيحة لايرجف ومن لم يخبر به اواخبر وغفل عنه يرتجف اذا وقعت فكذلك الكافر أتاه الله تعالى من حيث لايحتسب وقذف في قلبه فارتجف والمؤمن اتاه من حيث كان يذكره فسكن وقوله تعالى ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم فيه وجوه (احدها) امرهم بتكاليف شيئا بعدشئ فآمنوا بكل واحد منها مثلا امروا بالتوحيد فآمنوا واطاعوا ثم امروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا فازدادوا ايمانا مع ايمانهم (ثانيها) انزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين ايمانا بالغيب فازدادوا ايمانا مستفادا من الشهادة مع ايمانهم المستفاد من الغيب (ثالثها) ازدادوا بالفروع مع ايمانهم بالاصول فانهم آمنوا بأن محمدا رسول الله وان الله واحد والحشر كائن وآمنوا بان كل مايقول النبي صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب (رابعها) ازدادوا ايمانا استدلاليا مع ايمانهم الفطرى

وايا ما كان فحذف المفعول للقصد الى نفس الفعل والايذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لاخصوصية المفتوح (فتحا مبينا) بينا ظاهر الامر مكشوف الحال اوفارقا بين الحق والباطل وقوله تعالى (ليغفر لك الله) غاية للفتح من حيث انه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في اعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات الى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للاشعار بأن كل واحد مما انتظم في سلك الغاية من افعال الله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) اى جميع مافرط منك من ترك الاولى وتسميته ذنبا بالنظر الى منصبه الجليل (ويتم نعمته عليك) باعلاء الدين وضم الملك الى النبوة وغيرهما مما افاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية (ويهديك صراطا مستقيما) في تبليغ الرسالة واقامة مراسم الرياسة واصل الاستقامة وان كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق واستقامة مناهجه مالم يكن

وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهى ان الله تعالى قال فى حق الكافرين انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولم يقل مع كفرهم لان كفرهم عنادى وليس فى الوجود كفر فطرى لينضم اليه الكفر العنادى بل الكفر ليس الا عناديا وكذلك الكفر بالفروع ولا يقال انضم الى الكفر بالاصول لان من ضرورة الكفر بالاصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الايمان بالاصول الايمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم وقوله ولله جنود السموات والارض فكان قادرا على اهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل انزل السكينة على المؤمنين ليكون اهلاك اعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب وفى جنود السموات والارض وجوه (احدها) ملائكة السموات والارض (ثانيها) من فى السموات من الملائكة ومن فى الارض من الحيوانات والجن (ثالثها) الاسباب السماوية والارضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده وقوله تعالى وكان الله عليما حكيما لما قال ولله جنود السموات والارض وعددهم غير محصور اثبت العلم اشارة الى انه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وايضا لما ذكر امر القلوب بقوله هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين والايمان من عمل القلوب ذكر العلم اشارة الى انه يعلم السر واخفى وقوله حكيما بعد قوله عليما اشارة الى انه يفعل على وفق العلم فان الحكيم من يعمل شيئا متقنا ويعلمه فان من يقع منه صنع عجيب اتفاقا لا يقال له حكيم ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم ❊ وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) يستدعى فعلا سابقا ليدخل فان من قال ابتداء لتكرمنى لا يصح مالم يقل قبله جئتك او مايقوم مقامه وفى ذلك الفعل وجوه وضبط الاحوال فيه بأن نقول ذلك الفعل اما ان يكون مذكورا بصريحه اولا يكون وحينئذ ينبغى ان يكون مفهوما فاما ان يكون مفهوما من لفظ يدل عليه اولا من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فان كان مذكورا فهو يحتمل وجوها (احدها) قوله ليزدادوا ايمانا كأنه تعالى انزل السكينة ليزدادوا ايمانا بسبب الانزال ليدخلهم بسبب الايمان جنات فان قيل فقوله يعذب عطف على قوله ليدخل وازدياد ايمانهم لا يصلح سببا لتعذيبهم نقول بلى وذلك من وجهين (احدهما) ان التعذيب مذكور لكونه مقصودا للمؤمنين كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم فى الايمان يدخلكم فى الآخرة جنات ويعذب بأيديكم فى الدنيا الكفار والمنافقين (الثانى) تقديره ويعذب بسبب مالكم من الازدياد يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق اى لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن ايمانا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرا فيعذبه به (ووجه آخر ثالث) وهو ان سبب زيادة ايمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيى المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا (الثانى) قوله وينصرك الله كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين

سما علا قبل (وينصرك الله) اظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات ولاظهار كمال العناية بشأن النصر كما يعرب عنه تأكيده بقوله تعالى (نصرا عزيزا) اى نصرا فيه عزة ومنعة او قويا منيعا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازا للمبالغة او عزيزا صاحبه (هو الذى انزل السكينة) بيان لما افاض عليهم من مبادى الفتح من الثبات والطمأنينة اى انزلها (فى قلوب المؤمنين) بسبب الصلح والأمن اظهارا لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) اى يقينا منضما الى يقينهم او انزل فيها السكون الى ماجاء به عليه الصلاة والسلام من الشرائع ليزدادوا ايمانا بها مقرونا مع ايمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما ان اول ما اتاهم به النبى صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا ايمانا مع ايمانهم او انزل فيها الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك ايمانا الى ايمانهم (ولله جنود السموات والارض) يدبر امرها كيفما يريد يسلط بعضها على

(جنات)

جنات (الثالث) قوله تعالى ليغفرلك الله ماتقدم من ذنبك على قولنا المراد ذنب المؤمن كأنه تعالى قال ليغفرلك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين جنات واما ان قلناهو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوها ايضا (احدها) قوله حكيما يدل على ذلك كأنه تعالى قال الله حكيم فعل مافعل ليدخل المؤمنين جنات (وثانيها) قوله تعالى ويتم نعمته عليك فى الدنيا والآخرة فيستجيب دعاءك فى الدنيا ويقبل شفاعتك فى العقبى ليدخل المؤمنين جنات (وثالثها) قوله انافتحنالك وجهه هو انه روى ان المؤمنين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم هنيئالك ان الله غفرلك فماذا لنا فنزلت هذه الآية كأنه تعالى قال انا فتحنالك فتحا مبينا ليغفرلك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات واما ان قلنا ان ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال فنقول هو الامر بالقتال لان من ذكر الفتح والنصر علم ان الحال حال القتال فكأنه تعالى قال ان الله تعالى امر بالقتال ليدخل المؤمنين اونقول عرف من قرينة الحال ان الله اختار المؤمنين فكأنه تعالى قال اختار المؤمنين ليدخلهم جنات (المسئلة الرابعة) قال ههنا وفى بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفى بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما فى قوله تعالى وبشر المؤمنين وقوله تعالى قدافلح المؤمنون فما الحكمة فيه نقول فى المواضع التى فيها مايوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحا وفى المواضع التى ليس فيهامايوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين فقوله وبشر المؤمنين مع انه علم من قوله تعالى وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا العموم لايوهم خروج المؤمنات عن البشارة واماههنا فلما كان قوله تعالى ليدخل المؤمنين لفعل سابق وهو ماالامر بالقتال والصبر فيه اوالنصرة للمؤمنين او الفتح بايديهم على ماكان يتوهم لان ادخال المؤمنين كان للقتال والمرأة لاتقاتل فلاتدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن وكذلك فى المنافقات والمشركات والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب فصرح الله تعالى بذكرهن وكذلك فى قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات لان الموضع موضع ذكر النساء واحوالهن لقوله ولاتبرجن واقمن وآتين واطعن وقوله واذكرن مايتلى فى بيوتكن فكان ذكر النساء هناك اصلا لكن الرجال لما كان لهم ماللنساء من الاجر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا ان الاصل ذكرهن فى ذلك الموضع (المسئلة الخامسة) قال الله تعالى ويكفر عنهم سيئاتهم بعد ذكر الادخال مع ان تكفير السيئات قبل الادخال نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) الواو لاتقتضى الترتيب (الثانى) تكفير السيآت والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من اهل الجنة فقدم الادخال فى الذكر بمعنى انه من اهل الجنة (الثالث) وهو ان التكفير يكون بالباس خلع الكرامة وهى فى الجنة وكان الانسان فى الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير وتثبت فيه الصفات الملكية وهى اشرف

بعض تارة ويوقع بينهما السلم اخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (وكان الله عليما) مبالغة فى العلم بجميع الامور (حكيما) فى تقديره وتدبيره وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها)متعلق بمايدل عليه ماذكر من كون جنود السموات والارض له تعالى من معنى التصرف والتدبير اى دبر مادبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة (ويكفر عنهم سيآتهم) اى يغطيها ولايظهرها وتقديم الادخال فى الذكر على التكفير مع ان الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة الى ماهو المطلب الاعلى (وكان ذلك) اى ما ذكر من الادخال والتكفير (عندالله فوزا عظيما) لايقادر قدره لانه منتهى مايمتد اليه اعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر وعندالله حال من فوزا لانه صفته فى الاصل فلما قدم عليه صار حالا اى كائنا عندالله اى فى علمه تعالى وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل وفى تقديم المنافقين على

انواع الخلع وقوله تعالى وكان ذلك عندالله فوزا عظيما وفيه وجهان (احدهما) مشهور وهو ان الادخال والتكفير فى علم الله فوز عظيم يقال عندى هذا الامر على هذا الوجه اى فى اعتقادى (وثانيهما) اغرب منه واقرب منه عقلا وهو ان يجعل عندالله كالوصف لذلك كأنه تعالى يقول ذلك عندالله اى بشرط ان يكون عندالله تعالى وبوصف ان يكون عندالله فوز عظيم حتى ان دخول الجنة لولم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزا

❁ ثم قال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم واعدلهم جهنم وساءت مصيرا ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) اعلم انه قدم المنافقين على المشركين فى الذكر فى كثير من المواضع لامور (احدها) انهم كانوا اشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لان المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بايمانه وهو كان يفشى اسراره والى هذا اشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك والمنافق على صورة الشيطان فانه لا يأتى الانسان على انى عدوك وانما يأتيه على انى صديقك والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ولان المنافق كان يظن ان يتخلص بالمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن ان غلب يفديه فأول ما اخبر الله اخبر عن المنافق وقوله الظانين بالله ظن السوء هذا الظن يحتمل وجوها (احدها) هو الظن الذى ذكره الله فى هذه السورة بقوله بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول (ثانيها) ظن المشركين بالله فى الاشراك كما قال تعالى ان هى الا اسماء سميتموها انتم الى ان قال ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا (ثالثها) ظنهم ان الله لا يرى ولا يعلم كما قال ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون والاول اصح او نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذى ظنوا ان الله لا يحيى الموتى وان العالم خلقه باطل كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا ويؤيد هذا الوجه الالف واللام الذى فى السوء وسنذكره فى قوله ظن السوء وفيه وجوه (احدها) ما اختاره المحققون من الادباء وهو ان السوء صار عبارة عن الفساد والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء اى فاسد وسئلت عن رجل صدق اى صالح فاذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدى معنى قولنا فاسد فالسوء وحده يكون بمعنى الفاسد وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشرى وتحقيق هذا ان السوء فى المعانى كالفساد فى الاجساد يقال ساء مزاجه وساء خلقه وساء ظنه كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء بل كل ما ساء فقد فسد وكل ما فسد فقد ساء غير ان احدهما كثير الاستعمال فى المعانى والآخر فى الاجرام قال الله تعالى ظهر الفساد فى البر والبحر وقال ساء ما كانوا يعملون هذا ما يظهر لى من تحقيق كلامهم ثم قال تعالى عليهم دائرة السوء اى دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه ثم قال تعالى وغضب الله عليهم زيادة فى الافادة لان من كان به بلاء فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان فيكون مصابا

المشركين ما لا يخفى من الدلالة على انهم أحق منهم بالعذاب (الظانين بالله ظن السوء) اى ظن الامر السوء وهو ان لا ينصر رسوله والمؤمنين (عليهم دائرة السوء) اى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم وقرئ دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء كالكره والكره خلا ان المفتوح غلب فى ان يضاف اليه ما يراد ذمه من كل شئ واما المضموم فجار مجرى الشر (وغضب الله عليهم ولعنهم واعدلهم جهنم) عطف على ما استحقوه فى الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا والواو فى الاخيرين مع ان حقهما الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للايذان باستقلال كل منهما فى الوعيد واصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض (وساءت مصيرا) اى جهنم (ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) اعادة لما سبق قالوا فائدتها التنبيه على ان لله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب وان المراد ههنا جنود العذاب كما ينبئ عنها التعرض لوصف العزة

لكي بصير مثابا وقد يكون مصابا على وجه التعذيب فقوله وغضب الله عليهم اشارة الى ان الذي حاق بهم على وجه التعذيب وقوله ولعنهم زيادة افادة لان المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم او الضرب ولا يفضي غضبه الى ابعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه وقد يكون بحيث يفضي الى الطرد والابعاد فقال ولعنهم لكون الغضب شديدا ثم لما بين حالهم في الدنيا بين ما لهم في العقبى قال وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا وقوله ساءت اشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال هذه الدار نعم المكان وقوله تعالى ولله جنود السموات والارض قد تقدم تفسيره وبقي فيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في الاعادة نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب اوجنود الله انزالهم قد يكون للرحمة وقد يكون للعذاب فذكرهم اولا لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وثانيا لبيان انزال العذاب على الكافرين (المسئلة الثانية) قال هناك وكان الله عليما حكيما وهنا وكان الله عزيزا حكيما لان قوله ولله جنود السموات والارض قد بينا ان المقصود من ذكرهم الاشارة الى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى أليس الله بعزيز ذي انتقام وقال تعالى فأخذناهم اخذ عزيز مقتدر وقال تعالى العزيز الجبار (المسئلة الثالثة) ذكر جنود السموات والارض قبل ادخال المؤمنين الجنة وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار واعداد جهنم نقول فيه ترتيب حسن لان الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله ويكفر عنهم سيآتهم كما بينا ثم تكون لهم القربة والزلفى بقوله وكان ذلك عند الله فوزا عظيما وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود فالجنود في الرحمة اولا ينزلون ويقربون آخرا واما في الكافر فيغضب عليه اولا فيبعد ويطرد الى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ولذلك ذكر جنود الرحمة اولا والقربة بقوله عند الله آخرا وقال ههنا غضب الله عليهم ولعنهم وهو الابعاد اولا وجنود السموات والارض آخرا ❊ ثم قال تعالى (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) قال المفسرون شاهدا على امتك بما يفعلون كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا والاولى ان يقال ان الله تعالى قال انا أرسلناك شاهدا وعليه يشهد انه لا اله الا الله كما قال تعالى شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم وهم الانبياء عليهم السلام الذين آتاهم الله علما من عنده وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ولذلك قال تعالى فاعلم انه لا اله الا الله اي فاشهد وقوله ومبشرا لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ونذيرا لمن رد شهادته ويخالفه فيها ثم بين فائدة الارسال على الوجه الذي ذكره فقال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا وهذا يحتمل وجهين (احدهما) ان تكون الامور الاربعة

(انا ارسلناك شاهدا) اى على امتك لقوله تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا (ومبشرا) على الطاعة (ونذيرا) على المعصية (لتؤمنوا بالله ورسوله) الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولامته (وتعزروه) وتقووه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه او تصلوا له من السبحة (بكرة واصيلا) غدوة وعشيا عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وقرئ الافعال الاربعة بالياء التحتانية وقرئ وتعزروه بضم التاء وتخفيف الزاي المكسورة وقرئ بفتح التاء وضم الزاي وكسرها وتعززوه بزايين وتوقروه من اوقره بمعنى وقره (ان الذين يبايعونك) اى على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى (انما يبايعون الله) خبر ان يعني ان مبايعتك هي مبايعة الله عز وجل لان المقصود توثيق العهد بمراعاة اوامره ونواهيه وقوله تعالى (يد الله فوق ايديهم) حال او استئناف مؤكد

المذكورة مرتبة على الامور المذكورة من قبل فقوله لتؤمنوا بالله ورسوله مرتب على قوله انا ارسلناك لان كونه مرسلا من الله يقتضى ان يؤمن المكلف بالله والمرسل وبالمرسل وقوله شاهدا يقتضى ان يعزر الله ويقوى دينه لان قوله شاهدا على ما بينا معناه انه يشهد انه لا اله الا هو فدينه هو الحق واحق ان يتبع وقوله مبشرا يقتضى ان يوقر الله لان تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله اياه وقوله نذيرا يقتضى ان ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الاليم وعقابه الشديد واصل الارسال مرتب على اصل الايمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن (وثانيهما) ان يكون كل واحد مقتضيا للامور الاربعة فكونه مرسلا يقتضى ان يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه وكذلك كونه شاهدا بالوحدانية يقتضى الامور المذكورة وكذلك كونه مبشرا ونذيرا لا يقال ان اقتران اللام بالفعل يستدعى فعلا مقدما يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله لتؤمنوا يستدعى فعلا وهو قوله انا ارسلناك فكيف تترتب الامور على كونه شاهدا ومبشرا لانا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظا كما ان القائل اذا قال بعثت اليك عالما لتكرمه فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الاكرام وفى المعنى كونه عالما هو السبب للاكرام ولهذا لو قال بعثت اليك جاهلا لتكرمه كان حسنا واذا اردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول الارسال الذى هو ارسال حال كونه شاهدا سبب كما تقول بعث العالم سبب جعله سببا لا مجرد البعث ولا مجرد العالم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الاحزاب انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فالحكمة فيه نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان ذلك المقام كان مقام ذكره لان اكثر السورة فى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم واحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك ولم يفصل ههنا (ثانيهما) ان نقول الكلام مذكور ههنا لان قوله شاهدا لما لم يقتض ان يكون داعيا لجواز ان يقول مع نفسه اشهد ان لا اله الا الله ولا يدعو الناس قال هناك وداعيا لذلك وههنا لما لم يكن كونه شاهدا منبئا عن كونه داعيا قال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه وقوله تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه دليل على كونه سراجا لانه اتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح (المسئلة الثانية) قد ذكرنا مرارا ان اختيار البكرة والاصيل يحتمل ان يكون اشارة الى المداومة ويحتمل ان يكون امرا بخلاف ما كان المشركون يعملونه فانهم كانوا يجتمعون على عبادة الاصنام فى الكعبة بكرة وعشية فأمروا بالتسبيح فى اوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر (المسئلة الثالثة) الكنايات المذكورة فى قوله تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه راجعة الى الله تعالى او الى الرسول عليه الصلاة والسلام والاصح هو الاول ❁ ثم قال تعالى (ان الذين يبايعونك

انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد

(عليه)

له على طريقة التخييل والمعنى ان عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى من يطع الرسول فقد اطاع الله وقرئ انما يبايعون الله اى لاجله ولوجهه (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) اى فمن نقض عهده فانما يعود ضرر نكثه على نفسه وقرئ بكسر الكاف (ومن اوفى بما عاهد عليه الله) بضم الهاء فانه ابقى بعد حذف الواو توسلا بذلك الى تفخيم لام الجلالة وقرئ بكسرها اى ومن وفى بعهده (فسيؤتيه اجرا عظيما) هو الجنة وقرئ بما عهد وقرئ فسنؤتيه بنون العظمة (سيقول لك المخلفون من الاعراب) هم اعراب غفار ومزينة وجهينة واشجع واسلم والديل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنفر من حول المدينة من الاعراب واهل البوادى ليخرجوا معه عند ارادته المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا حذرا من قريش ان يتعرضوا له بحرب او يصدوه عن البيت واحرم عليه الصلاة

عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما) لمابين انه مرسل ذكر ان من بايعه فقد بايع الله وقوله تعالى يدالله فوق ايديهم يحتمل وجوها وذلك ان اليد فى الموضعين اما ان تكون بمعنى واحد واما تكون بمعنيين فان قلنا انها بمعنى واحد ففيه وجهان (احدهما) يدالله بمعنى نعمة الله عليهم فوق احسانهم الى الله كما قال تعالى بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان (وثانيها) يدالله فوق ايديهم اى نصرته اياهم اقوى واعلى من نصرتهم اياه يقال اليد لفلان اى الغلبة والنصرة والقهر واما ان قلنا انها بمعنيين فنقول فى حق الله تعالى بمعنى الحفظ وفى حق المبايعين بمعنى الجارحة واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين اذامد كل واحدمنهما يده الى صاحبه فى البيع والشراء وبينهما ثالث متوسط لايريد ان يتفاسخا العقد من غير اتمام البيع فيضع يده على يديهما ويحفظ ايديهما الى ان يتم العقد ولا يترك احدهما يترك يد الآخر فوضع اليد فوق الايدى صار سببا للحفظ على البيعة فقال تعالى يدالله فوق ايديهم يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط ايدى المتبايعين وقوله تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه اما على قولنا المراد من اليد النعمة او الغلبة والقوة فلأن من نكث فوت على نفسه الاحسان الجزيل فى مقابلة العمل القليل فقد خسر ونكثه على نفسه واما على قولنا المراد الحفظ فهو عائد الى قوله انما يبايعون الله يعنى من يبايعك ايها النبى اذا نكث لايكون نكثه عائدا اليك لان البيعة مع الله ولا الى الله لانه لايتضرر بشئ فضرره لايعود الا اليه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما وقد ذكرنا ان العظم فى الاجرام لايقال الا اذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ فيقال للجبل الذى هو مرتفع ولا اتساع لعرضه جبل عال او مرتفع او شاهق فاذا انضم اليه الاتساع فى الجوانب يقال عظيم والاجر كذلك لان مأكل الجنة تكون من ارفع الاجناس وتكون فى غاية الكثرة وتكون ممتدة الى الابد لا انقطاع لها فحصل فيه ما ناسب ان يقال له عظيم والعظيم فى حق الله تعالى اشارة الى كماله فى صفاته كما انه فى الجسم اشارة الى كماله فى جهاته ۞ ثم قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا او أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا) لمابين حال المنافقين ذكر المخلفين فان قوما من الاعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لظنهم انه يهزم فانهم قالوا اهل مكة يقاتلون عن باب المدينة فكيف يكون حالهم اذا دخلوا بلادهم واحاط بهم العدو فاعتذروا وقولهم شغلتنا اموالنا واهلونا فيه امران يفيدان وضوح العذر (احدهما) اموالنا ولم يقولوا اشغلتنا الاموال وذلك لان جمع المال لايصلح عذرا لانه لانهاية له واما حفظ ماجمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذرا فقالوا اموالنا اى ماصار مالا لنا لا لمطلق الاموال (وثانيهما) قوله تعالى واهلونا وذلك لوان قائلا قال لهم المال لاينبغى

والسلام وساق معه الهدى ليعلم انه لايريد الحرب وتثاقلوا عن الخروج وقالوا نذهب الى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا اصحابه فنقاتلهم فأوحى الله تعالى اليه عليه الصلاة والسلام بانهم سيعتلون ويقولون (شغلتنا اموالنا واهلونا) ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرئ شغلتنا بالتشديد للتكثير (فاستغفر لنا) الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن اضطرار (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) بدل من سيقول او استئناف لتكذيبهم فى الاعتذار والاستغفار (قل) ردا لهم عند اعتذارهم اليك بأباطيلهم (فمن يملك لكم من الله شيئا) اى فمن يقدر لاجلكم من مشيئة الله تعالى وقضائه على شئ من النفع (ان اراد بكم ضرا) اى مايضركم من هلاك الاهل والمال وضياعهما حتى تخلفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما وقرئ ضرا بالضم (او اراد بكم نفعا)اى

ان يبلغ الى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لكان لهم ان يقولوا فالاهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن اهم الامور ثم انهم مع العذر تضرعوا وقالوا فاستغفر لنا يعني فنحن مع اقامة العذر معترفون بالاساءة فاستغفر لنا واعف عنا في امر الخروج فكذبهم الله تعالى وقال يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم وهذا يحتمل امرين (احدهما) ان يكون التكذيب راجعا الى قولهم فاستغفر لنا وتحقيقه هو انهم اظهروا انهم يعتقدون انهم مسيؤن بالتخلف حتى استغفروا ولم يكن في اعتقادهم ذلك بل كانوا يعتقدون انهم بالتخلف محسنون (ثانيهما) قالوا شغلتنا اشارة الى ان امتناعنا لهذا لا لغير ولم يكن ذلك في اعتقادهم بل كانوا يعتقدون امتناعهم لاعتقاد ان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يقهرون ويغلبون كما قال بعده بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهليهم ابدا وقوله قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان اراد بكم ضرا او اراد بكم نفعا معناه انكم تحترزون عن الضرر وتتركون امر الله ورسوله وتقعدون طلبا للسلامة ولو اراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئا او معناه انكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون ان اهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو فهب انكم حفظتم انفسكم عن ذلك فمن يدفع عنكم عذاب الله في الآخرة مع ان ذلك اولى بالاحتراز وقد ذكرنا في سورة يس في قوله تعالى ان يردن الرحمن بضر انه في صورة كون الكلام مع المؤمن ادخل الباء على الضر فقال ان أرادني الله بضر وقال وان يمسسك الله بضر وفي صورة كون الكلام مع الكافر ادخل الباء على الكافر فقال ههنا ان اراد بكم ضرا وقال من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك ولا نعيده ليكون هذا باعثا على مطالعة تفسير سورة يس فانها درج الدرر اليتيمة بل كان الله بما تعملون خبيرا اي بما تعملون من اظهار الحرب واضمار غيره ❊ ثم قال تعالى (بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم بل ظننتم ان لن ينقلب وان مخففة من الثقيلة اي ظننتم انهم لا ينقلبون ولا يرجعون وقوله وزين ذلك في قلوبكم يعني ظننتم اولا فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به وذلك لان الشبهة قد يزينها الشيطان ويضم اليها مخايلة يقطع بها الغافل وان كان لا يشك فيها العاقل وقوله تعالى وظننتم ظن السوء يحتمل وجهين (احدهما) أن يكون هذا العطف عطفا يفيد المغايرة فقوله وظننتم ظن السوء غير الذي في قوله بل ظننتم وحينئذ يحتمل ان يكون الظن الثاني معناه وظننتم ان الله يخلف وعده او ظننتم ان الرسول كاذب في قوله (وثانيهما) ان يكون قوله وظننتم ظن السوء هو ما تقدم من ظن ان لا ينقلبوا ويكون على حد قول القائل علمت هذه المسئلة وعلمت كذا اي هذه المسئلة لا غيرها وذلك كأنه قال بل ظننتم ظن ان لن ينقلب وظنكم ذلك فاسد وقد بينا التحقيق في ظن السوء وقوله تعالى وكنتم قوما بورا يحتمل

(وجهين)

ومن يقدر على شئ من الضر ان اراد بكم ما ينفعكم من حفظ اموالكم واهليكم فأي حاجة الى التخلف لاجل القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق وردلهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة وتعميم الضر والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر والغنيمة يرده قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فانه اضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه اي ليس الامر كما تقولون بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملون من الاعمال التي من جملتها تخلفكم وما هو من مباديه وقوله تعالى (بل ظننتم) الخ بدل من كان الله الخ مفسر لما فيه من الابهام اي بل ظننتم (ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهليهم ابدا) بان يستأصلهم المشركون بالمرة فخشيتم ان كنتم معهم ان يصيبكم ما اصابهم فلاجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة والاهلون جمع اهل وقد يجمع على اهلات

وجهين (احدهما) وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين (وثانيهما) انتم فى الاصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد ❊ ثم قال تعالى (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا) على قولنا قوله وظننتم ظن السوء ظن آخر غير ما فى قوله بل ظننتم ظاهر لانا بينا ان ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده او ظنهم بأن الرسول كاذب فقال ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويظن به خلفا وبرسوله كذبا فانا اعتدنا له سعيرا وفى قوله للكافرين بدلا عن ان يقول فانا اعتدنا له فائدة وهى التعميم كأنه تعالى قال ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين وانا اعتدنا للكافرين سعيرا ❊ ثم قال تعالى (ولله ملك السموات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) بعد ما ذكر من له اجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين اشار الى انه يغفر للاولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته وغفرانه ورحمته اعم واشمل وأتم وأكمل وقوله تعالى ولله ملك السموات والارض يفيد عظمة الامرين جميعا لان من عظم ملكه يكون اجره وهبته فى غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك فى غاية النكال والالم ❊ ثم قال تعالى (سيقولون المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم) اوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عند ما يكون السير الى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء انفسهم ذرونا نتبعكم فاذا كان اموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم اياهم الى اهل مكة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم اخذ الغنيمة والمراد من المغانم مغانم اهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم الا من كان معه فى المدينة وفى قوله سيقول المخلفون وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان ❊ وقوله تعالى (يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) يحتمل وجوها (احدها) هو ما قال الله ان غنيمة خيبر لمن شاهد الحديبية وعاهد بها لا غير وهو الاشهر عند المفسرين والاظهر نظرا الى قوله تعالى كذلكم قال الله من قبل (ثانيها) يريدون ان يبدلوا كلام الله وهو قوله وغضب الله عليهم وذلك لانهم لو اتبعوكم لكانوا فى حكم بيعة اهل الرضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضى الله عنهم كما قال تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله (ثالثها) هو ان النبى صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم اطلعه الله على باطنهم واظهر له نفاقهم وانه يريد ان يعاقبهم وقال للنبى صلى الله عليه وسلم فقل لن تخرجوا معى ابدا ولن تقاتلوا معى عدوا فأرادوا ان يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه لا يقال فالآية التى ذكرتم واردة فى غزوة تبوك لا فى هذه الواقعة لانا نقول قد وجدهنا بقوله لن تتبعونا على صيغة النفى بدلا عن قوله لا تتبعونا على صيغة النهى معنى لطيف وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم بنى على اخبار الله تعالى عنهم النفى لوثوقه وقطعه بصدقه بجزم وقال لن تتبعونا

كالرضات على تقدير تاء التأنيث واما الاهالى فاسم جمع كالليالى وقرئ الى اهلهم (وزين ذلك فى قلوبكم) وقبلتموه واشتغلتم بشأن انفسكم غير مبالين بهم وقرئ زين على البناء للفاعل باسناده الى الله سبحانه او الى الشيطان (وظننتم ظن السوء) المراد به اما الظن الاول والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء او ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة التى من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه الصلاة والسلام فان الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال (وكنتم قوما بورا) اى هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه على انه جمع بائر كعائذ وعوذ او فاسدين فى انفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم وقيل البور من بار كالهلك من هلك بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل

يعنى لو اذنتكم ولو امرتكم او لو أردتم واخترتم لايتم لكم ذلك لما اخبر الله تعالى ❁ ثم قال تعالى (فسيقولون بل تحسدوننا) ردا على قوله تعالى كذلكم قال الله من قبل كأنهم قالوا ماقال الله كذلك من قبل بل تحسدوننا وبل للاضراب والمضروب عنه محذوف فى الموضعين اما ههنا فهو بتقدير ما قال الله كذلك فان قيل بماذا كان الحسد فى اعتقادهم نقول كأنهم قالوا نحن كنا مصيبين فى عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا فان خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم تعبوا معنا ❁ ثم قال تعالى ردا عليهم كما ردوا عليه (بل كانوا لايفقهون الاقليلا) اى لم يفقهوا من قولك لاتخرجوا الاظاهر النهى ولم يفهموا من حكمه الاقليلا فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد ❁ ثم قال تعالى (قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا اليما) قال النبى صلى الله عليه وسلم قل لن تتبعونا وقال فقل لن تخرجوا معى ابدا فكان المخلفون جمعا كثيرا من قبائل متشعبة دعت الحاجة الى بيان قبول توبتهم فانهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق بل منهم من حسن حاله وصلح باله فجعل لقبول توبتهم علامة وهو انهم يدعون الى قتال قوم اولى بأس شديد ويطيعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من اداء الزكاة ثم اتى بها ولم يقبل منه النبى صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه احد من الصحابة كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا انه تعالى بين انهم يدعون فان كانوا يطيعون يؤتون الاجر الحسن وما كان احد من الصحابة يتركهم يتبعونه والفرق بين حال ثعلبة وبين حال هؤلاء من وجهين (احدهما) ان ثعلبة جاز ان يقال حاله لم يكن يتغير فى علم الله فلم يبين لتوبته علامة وحال الاعراب تغيرت فان بعد النبى صلى الله عليه وسلم لم يبق من المنافقين على النفاق احد على مذهب اهل السنة (وثانيهما) ان الحاجة الى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير امس لانه لولا البيان لكان يفضى الامر الى قيام الفتنة بين فرق المسلمين وفى قوله تعالى ستدعون الى قوم اولى بأس شديد وجوه اشهرها واظهرها انهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم ابو بكر (وثانيها) هم فارس والروم غزاهم عمر (ثالثها) هم هوازن وثقيف غزاهم النبى صلى الله عليه وسلم واقوى الوجوه هو ان الدعاء كان من النبى صلى الله عليه وسلم وان كان الاظهر غيره اما الدليل على قوة هذا الوجه هو ان اهل السنة اتفقوا على ان امر العرب فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ظهر ولم يبق الا كافر مجاهر او مؤمن تقى طاهر وامتنع النبى صلى الله عليه وسلم من الصلاة على موتى المنافقين وترك المؤمنون مخالطتهم حتى ان عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقا فان كان ظهر حالهم بغير هذا فلا معنى لجعل هذا علامة وان

(ظهر)

فى الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته اى ومن لم يؤمن بهما كداب هؤلاء المخلفين (فانا اعتدنا للكافرين سعيرا) اى لهم وانما وضع موضع الضمير الكافرون ايذانا بأن من لم يجمع بين الايمان بالله وبرسوله فهو كافر وانه مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيرا للتهويل اولانها نار مخصوصة (ولله ملك السموات والارض) ومافيهما يتصرف فى الكل كيف يشاء (يغفر لمن يشاء) ان يغفر له (ويعذب من يشاء) ان يعذبه من غير دخل لاحد فى شئ منهما وجودا وعدما وفيه حسم لاطماعهم الفارغة فى استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء الالمن تقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله واما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعا (سيقول المخلفون) اى المذكورون وقوله تعالى (اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها) ظرف لما قبله لاشرط لما بعده اى سيقولون عند انطلاقكم الى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم اياها وخصكم بها عوضا مما فاتكم من غنائم مكة (ذرونا نتبعكم) الى خيبر ونشهد معكم قتال اهلها (يريدون ان يبدلوا

ظهر بهذا والظهور كان فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم لان النبى عليه الصلاة والسلام
لو امتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع ابوبكر وعمر لقوله تعالى واتبعوه وقوله فاتبعونى فان
قيل هذا ضعيف لوجهين (احدهما) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لن تتبعونا وقال
لن تخرجوا معى ابدا كيف كانوا يتبعونه مع النفى (الثانى) قوله تعالى اولى بأس شديد
ولم يبق بعد ذلك للنبى عليه الصلاة والسلام حرب مع قوم اولى بأس شديد فان الرعب
استولى على قلوب الناس ولم يبق للكفار بعده شدة وبأس واتفاق الجمهور يدل على
القوة والظهور نقول اما الجواب عن الاول فمن وجهين (احدهما) ان يكون ذلك
مقيدا تقديره لن تخرجوا معى ابدا وانتم على ما انتم عليه ويجب هذا التقييد لانا اجمعنا
على ان منهم من اسلم وحسن اسلامه بل الاكثر ذلك وما كان يجوز للنبى صلى الله عليه وسلم
ان يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا ومع
القول باسلامهم ما كان يجوز ان يمنعهم من الجهاد فى سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان
ذلك مقيدا وقد تبين حسن حالهم فان النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم الى جهاد فأطاعه
قوم وامتنع آخرون وظهر امرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الايمان
(الثانى) المراد من قوله لن تتبعونا فى هذا القتال فحسب وقوله لن تخرجوا معى كان فى غير
هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا فى غزوة تبوك واما اتفاق الجمهور فنقول لا مخالفة بيننا
وبينهم لانا نقول النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم اولا وابوبكر رضى الله عنه ايضا دعاهم
بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبى صلى الله عليه وسلم انما نحن نثبت ان النبى صلى الله
عليه وسلم دعاهم فان قالوا ابوبكر رضى الله عنه دعاهم لا يكون بين القولين تناف وان قالوا
لم يدعهم النبى صلى الله عليه وسلم فالنفى والجزم به فى غاية البعد لجواز ان يكون ذلك قد وقع
وكيف لا والنبى عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ان كنتم تحبون الله فاتبعونى
وقال واتبعونى هذا صراط مستقيم ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبى محمد صلى الله
عليه وسلم لان بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الاسلام واجتمعت
العرب على الايمان بعيد ويوم قوله صلى الله عليه وسلم لن تتبعونا كان اكثر العرب على
الكفر والنفاق لانه كان قبل فتح مكة وقبل اخذ حصون كثيرة واما قوله لم يبق للنبى
صلى الله عليه وسلم حرب مع اولى بأس شديد قلنا لا نسلم ذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم
عام الحديبية دعاهم الى الحرب لانه خرج محرما ومعه الهدى ليعلم قريش انه لا يطلب القتال
وامتنعوا فقال ستدعون الى الحرب ولاشك ان من يكون خصمه مسلحا محاربا اكثر
بأسا ممن يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة انهم لا يوقرون حاجا ولا معتمرا
فقوله اولى بأس شديد يعنى اولى سلاح من آلة الحديد فان الحديد فيه بأس شديد ومن قال
بأن الداعى ابوبكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة وحينئذ تقاتلونهم
او يسلمون اشارة الى ان احدهما يقع وقرئ او يسلموا بالنصب باضمار ان على معنى

كلام الله) بأن يشاركوا فى الغنائم
التى خصها بأهل الحديبية فانه
عليه الصلاة والسلام رجع من
الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست
واقام بالمدينة بقيتها واوائل المحرم
من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد
الحديبية ففتحها وغنم اموالا
كثيرة فخصها بهم حسبما امره الله
عز وجل وقرئ كلم الله وهو
جمع كلمة واياما كان فالمراد ماذكر
من وعده تعالى غنائم خيبر لاهل
الحديبية خاصة لا قوله تعالى لن
تخرجوا معى ابدا فان ذلك فى
غزوة تبوك (قل) اقناطا لهم
(لن تتبعونا) اى لا تتبعونا فانه
نفى فى معنى النهى للمبالغة (كذلكم
قال الله من قبل) اى عند الانصراف
من الحديبية (فسيقولون) للمؤمنين
عند سماع هذا النهى (بل
تحسدوننا) اى ليس ذلك النهى
حكم الله بل تحسدوننا ان
نشاركم فى الغنائم وقرئ
تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى
(بل كانوا لا يفقهون) اى
لا يفهمون (الا قليلا) اى
الا فهما قليلا وهو فطنتهم لامور
الدنيا ودل قولهم الباطل ووصف
لهم بما هو اعظم من الحسد واطم
من الجهل المفرط وسوء الفهم فى
امور الدين (قل للمخلفين من
الاعراب) كرر ذكرهم بهذا
العنوان مبالغة فى ذمهم

تقاتلونهم الى ان يسلموا والتحقيق فيه هو ان او لا تجئ الا بين المتغايرين وتنبئ عن الحصر فيقال العدد زوج او فرد ولهذا لا يصح ان يقال هو زيد او عمرو ولهذا يقال العدد زوج او خمسة او غيرهما اذا علم هذا فقول القائل لا لزمنك او تقضيني حتى يفهم منه ان الزمان انحصر فى قسمين قسم يكون فيه الملازمة وقسم يكون فيه قضاء الحق فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق فيكون فى قوله لالزمنك او تقضيني كما حكى فى قول القائل لالزمنك الى ان تقضى لامتداد زمان الملازمة الى القضاء وهذا ما يضعف قول القائل الداعى هو عمر والقوم فارس والروم لان الفريقين يقران بالجزية فالقتال معهم لا يمتد الى الاسلام لجواز ان يؤدوا الجزية وقوله تعالى فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل فيه فائدة لان التولى اذا كان بعذر كما قال تعالى ليس على الاعمى حرج لا يكون للمتولى عذاب اليم فقال وان تتولوا كما توليتم يعنى ان كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم شغلتنا اموالنا فالله يعذبكم عذابا اليما ❁ ثم ان الله تعالى قال (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر وبين ذلك ببيان ثلاثة اصناف (الاول) الاعمى فانه لا يمكنه الاقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب والاعرج كذلك والمريض كذلك وفى معنى الاعرج الاقطع والمقعد بل ذلك اولى بان يعذر ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يغفر وكذلك المرض القليل الذى لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال اذ به يضعف وبعض اوجاع المفاصل لا يكون عذرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان هذه اعذار تكون فى نفس المجاهد ولنا اعذار خارجة كالفقر الذى لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج اليه والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل او مريض والاعذار تعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير فى بيان مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الاعذار التى فى السفر لان غيرها يمكن الازالة بخلاف العرج والعمى (المسئلة الثانية) اقتصر منها على الاصناف الثلاثة لان العذر اما ان يكون باخلال فى عضو او باختلال فى القوة والذى بسبب اخلال العضو فاما ان يكون بسبب اختلال فى العضو الذى به الوصول الى العدو والانتقال فى مواضع القتال او فى العضو الذى تتم به فائدة الحصول فى المعركة والوصول والاول هو الرجل والثانى هو العين لان بالرجل يحصل الانتقال وبالعين يحصل الانتفاع فى الطلب والهرب واما الاذن والانف واللسان وغيرها من الاعضاء فلا مدخل لها فى شئ من الامرين بقيت اليد فان المقطوع اليدين لا يقدر على شئ وهو عذر واضح ولم يذكره نقول لان فائدة الرجل وهى الانتقال تبطل بالخلل فى احداهما وفائدة اليد وهى الضراب والبطش لا تبطل الا ببطلان اليدين جميعا ومقطوع اليدين لا يوجد الا نادرا ولعل فى جماعة النبى صلى الله عليه وسلم لم

(يكن)

(ستدعون الى قوم اولى باس شديد) هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب اوغيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اوالمشركون لقوله تعالى (تقاتلونهم او يسلمون) اى يكون احد الامرين اما المقاتلة ابدا اوالاسلام لاغير كما يفصح عنه قراءة اويسلموا واما من عداهم فينتهى قتالهم بالجزية كما ينتهى بالاسلام وفيه دليل على امامة ابى بكر رضى الله عنه اذ لم تتفق هذه الدعوة لغيره الا اذا صح انهم ثقيف وهو ازن فان ذلك كان فى عهد النبوة فخص دوام نفى الاتباع بما فى غزوة خيبر كما قاله محي السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى يسلمون ينقادون فان الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم الجزية (فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا) هو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (وان تتولوا). عن الدعوة (كما توليتم من قبل) فى الحديبية (يعذبكم عذابا اليما) لتضاعف جرمكم (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) اى فى التخلف عن الغز ولما بهم من العذر والعاهة فان التكليف يدور على الاستطاعة وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة

يكن احد مقطوع اليدين فلم يذكره اولان المقطوع ينتفع به فى الجهاد فانه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن ان يقاتل وهو غير معذور فى التخلف لان المجاهدين ينتفعون به بخلاف الاعمى فان قيل كما ان المقطوع اليد الواحدة لاتبطل منفعة بطشه كذلك الاعور لاتبطل منفعة رؤيته وقد ذكر الاعمى وماذكر الاشل واقطع اليدين قلنا لما بينا ان مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة باحدى اليدين لاتعمهما والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لان منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما فان الاعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر (المسئلة الثالثة) قدم الآفة فى الآلة على الآفة فى القوة لان الآفة فى القوة تزول وتطرأ والآفة فى الآلة اذا طرأت لاتزول فان الاعمى لايعود بصيرا فالعذر فى محل الآلة اتم (المسئلة الرابعة) قدم الاعمى على الاعرج لان عذر الاعمى يستمر ولو حضر القتال والاعرج ان حضر راكبا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمى وغيره * قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذابا اليما لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) اعلم ان طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر فجمع بينهما بيانا لطاعة الله فان الله تعالى لو قال ومن يطع الله كان لبعض الناس ان يقول نحن لانرى الله ولانسمع كلامه فمن اين نعلم امره حتى نطيعه فقال طاعته فى طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله ثم قال ومن يتول اى بقلبه ثم لما بين حال المخلفين بعد قوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله عاد الى بيان حالهم وقال لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم من الصدق كما علم مافى قلوب المنافقين من المرض فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا على الموت وفيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى قال قبل هذه الآية ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات فجعل طاعة الله والرسول علامة لادخال الله الجنة فى تلك الآية وفى هذه الآية بين ان طاعة الله والرسول وجدت من اهل بيعة الرضوان اما طاعة الله فالاشارة اليها بقوله لقد رضى الله عن المؤمنين واما طاعة الرسول فبقوله اذ يبايعونك تحت الشجرة بقى الموعود به وهو ادخال الجنة اشار اليه بقوله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين لان الرضا يكون معه ادخال الجنة كما قال تعالى ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ثم قال تعالى فعلم مافى قلوبهم والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لانه علم مافى قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب فى العلم نقول قوله فعلم مافى قلوبهم متعلق بقوله اذ يبايعونك تحت الشجرة كما يقول القائل فرحت امس اذ كلمت زيدا فقام الى او اذ دخلت عليه فاكرمنى فيكون الفرح بعد الاكرام ترتيبا كذلك ههنا قال تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم من الصدق اشارة الى ان الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب بل عند المبايعة التى كان معها علم الله بصدقهم والفاء فى قوله فأنزل

(ومن يطع الله ورسوله) فيما ذكر من الاوامر والنواهى (يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار) وقرئ ندخله بنون العظمة (ومن يتول) اى عن الطاعة (يعذبه) وقرئ بالنون (عذابا اليما) لايقادر قدره (لقد رضى الله عن المؤمنين) هم الذين ذكر شان مبايعتهم وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى (اذ يبايعونك تحت الشجرة) منصوب برضى وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة متعلق به او بمحذوف هو حال من مفعوله روى انه عليه الصلاة والسلام لما نزل الحديبية بعث خراش بن امية الخزاعى رسولا الى اهل مكة فهموا به فمنعه الاحابيش فرجع فبعث عثمان بن عفان رضى الله عنه فأخبرهم انه عليه الصلاة والسلام لم يأت لحرب وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا ان شئت ان تطوف بالبيت فافعل فقال ما كنت لاطوف قبل ان يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال عليه الصلاة والسلام لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس الى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة وقيل سدرة على ان يقاتلوا قريشا ولايفروا وروى على الموت دونه وان لايفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انتم اليوم خير اهل الارض وكانوا الفا وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل الفا واربعمائة وقيل الفا وثلثمائة وقوله تعالى (فعلم مافى قلوبهم) عطف على يبايعونك لما عرفت من انه بمعنى بايعوك لاعلى رضى فان

السكينة عليهم للتعقيب الذى ذكرته فانه تعالى رضى عنهم فانزل السكينة عليهم وفى علم
بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذى فى قلوبهم وهذا توفيق لايتأتى الالمن
هداه الله تعالى الى معانى كتابه الكريم وقوله تعالى واثابهم فتحا قريبا هو فتح خيبر ومغانم
كثيرة يأخذونها مغانمها وقيل مغانم هجر وكان الله عزيزا كامل القدرة غنيا عن اعانتكم
اياه حكيما حيث جعل هلاك اعدائه على ايديكم ليثيبكم عليه اولان فى ذلك اعزاز قوم
واذلال آخرين فانه يذل من يشاء بعزته و يعز من يشاء بحكمته ❊ قال تعالى (وعدكم الله

مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين
و يهديكم صراطا مستقيما) اشارة الى ان ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب
بل الجزاء قدامهم وانما هى لعاجلة عجل بها وفى المغانم الموعود بها أقوال اصحها انه وعد
مغانم كثيرة من غير تعيين وكل ما غنموه كان منها والله كان عالما بها وهذا كما يقول الملك
الجواد لمن يخدمه يكون لك منى على ما فعلته الجزاء ان شاء الله ولابد شيئا بعينه ثم كل
ما يأتى به ويؤتيه يكون داخلا تحت ذلك الوعد غيران الملك لايعلم تفاصيل مايصل اليه
وقت الوعد والله عالم بها وقوله تعالى وكف ايدى الناس عنكم لاتمام المنة كأنه قال
رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم هذا جزاء تعبنا وقوله تعالى
ولتكون آية للمؤمنين عطف على مفهوم لانه لما قال الله تعالى فعجل لكم هذه واللام ينبئ
عن النفع كما ان على ينبئ عن الضر القائل لاعلى ولا ليا بمعنى لاما انضرر به ولاما انتفع به
ولااضر به ولاانفع فكذلك قوله فعجل لكم هذه لتنفعكم ولتكون آية للمؤمنين وفيه
معنى لطيف وهو ان المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون فقوله ولتكون آية للمؤمنين
يعنى لينفعكم بها ولجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على ان ما وعدهم الله يصل اليهم كما وصل اليكم
اونقول معناه لتنفعكم فى الظاهر وتنفعكم فى الباطن حيث يزداد يقينكم اذا رأيتم
صدق الرسول فى اخباره عن الغيوب فتجمل اخباركم ويكمل اعتقادكم وقوله ويهديكم
صراطا مستقيما وهو التوكل عليه والتفويض اليه والاعتزاز به ❊ قوله تعالى (واخرى
لم تقدروا عليها قد احاط الله بها وكان الله على كل شئ قديرا) قيل غنيمة هوازن وقيل
غنائم فارس والروم وذكر الزمخشرى فى اخرى ثلاثة اوجه ان تكون منصوبة بفعل مضمر
يفسره قد احاط ولم تقدروا عليها صفة لاخرى كأنه يقول وغنيمة اخرى غير مقدورة قد
احاط الله بها (وثانيها) ان تكون مرفوعة وخبرها قد احاط الله بها وحسن جعلها مبتدأ مع
كونها نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا (وثالثها) الجر باضمار رب ويحتمل ان يقال
منصوبة بالعطف على منصوب وفيه وجهان (احدهما) كأنه تعالى قال فعجل لكم هذه
واخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لان اخرى لم يعجل بها (وثانيهما) على مغانم كثيرة
تأخذونها واخرى اى وعدكم الله اخرى وحينئذ كأنه قال وعدكم الله مغانم تأخذونها
ومغانم لاتأخذونها انتم ولاتقدرون عليها وانما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين وعلى

رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه
تعالى بما فى قلوبهم من الصدق
والاخلاص عند مبايعتهم له صلى
الله عليه وسلم وقوله تعالى (فانزل
السكينة عليهم) عطف على رضى اى
فانزل عليهم الطمأنينة والامن
وسكون النفس بالربط على
قلوبهم وقيل بالصلح (وأثابهم فتحا
قريبا) هو فتح خيبر غب انصرافهم
من الحديبية كما مر تفصيله وقرئ
وآتاهم (ومغانم كثيرة يأخذونها)
اى مغانم خيبر والالتفات الى
الخطاب على قراءة الاعمش
وطلحة ونافع لتشريفهم فى مقام
الامتنان (وكان الله عزيزا) غالبا
(حكيما) مراعيا لمقتضى الحكمة فى
احكامه وقضاياه (وعدكم الله مغانم
كثيرة) هى ما يفيئه على المؤمنين الى
يوم القيامة (تأخذونها) فى اوقاتها
المقدرة لكل واحدة منها (فعجل
لكم هذه) اى غنائم خيبر (وكف
ايدى الناس عنكم) اى ايدى اهل
خيبر وخلفائهم من بنى اسد
وغطفان حيث جاؤا لنصرتهم
فقذف الله فى قلوبهم الرعب
فنكصوا وقيل ايدى اهل مكة
بالصلح (ولتكون آية للمؤمنين)
امارة يعرفون بها صدق الرسول
صلى الله عليه وسلم فى وعده اياهم
عند رجوعه من الحديبية ما ذكر
من المغانم وفتح مكة ودخول
المسجد الحرام واللام متعلقة اما
بمحذوف مؤخر اى ولتكون آية
لهم فعل ما فعل من التعجيل
والكف او بما تعلق به علة اخرى
محذوفة من احد الفعلين اى
فعجل لكم هذه اوكف ايدى
الناس لتغنموها ولتكون الخ
قالوا وعلى الاول اعتراضية وعلى
الثانى عاطفة (ويهديكم)

(هذا)

هذا تبين لقول الفراء حسن وذلك لانه فسر قوله تعالى قد احاط الله بها أى حفظها للمؤمنين لايجرى عليها هلاك الى ان يأخذها المسلمون كاحاطة الحراس بالخزائن * ثم قال تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار) وهو يصلح جوابا لمن يقول كف الايدى عنهم كان امرا اتفاقيا ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها فقال ليس كذلك بل سواء قاتلوا او لم يقاتلوا لا ينصرون والغلبة واقعة للمسلمين فليس امرهم امرا اتفاقيا بل هو امر الهى محكوم به محتوم * وقوله تعالى (ثم لايجدون وليا ولا نصيرا) قد ذكرنا مرارا ان دفع الضرر عن الشخص اما ان يكون بولى ينفع باللطف او بنصير يدفع بالعنف وليس للذين كفروا شئ من ذلك وفى قوله تعالى ثم لطيفة وهى ان من يولى دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه فقال وليس اذا ولوا الادبار يتخلصون بل بعد التولى الهلاك لاحق بهم * وقوله تعالى (سنة الله التى قد خلت من قبل) جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد وهو ان الطوالع لها تأثيرات والاتصالات لها تغيرات فقال ليس كذلك سنة الله نصرة رسوله واهلاك عدوه * وقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم وهو انه اذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه بل الله فاعل مختار ولو أراد ان يهلك العباد لهلكهم بخلاف قول المنجم بان الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضى غلبته قطعا فقال الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا يعنى ان الله فاعل مختار يفعل مايشاء ويقدر على اهلاك أصدقائه ولكن لايبدل سنته ولايغير عادته * ثم قال تعالى (وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم) تبيينا لما تقدم من قوله ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار أى هو بتقدير الله لانه كف ايديهم عنكم بالفرار وايديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم وقوله تعالى ببطن مكة اشارة الى امر كان هناك يقتضى عدم الكف ومع ذلك وجد كف الايدى وذلك الامر هو دخول المسلمين ببطن مكة فان ذلك يقتضى ان يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم وذلك مما يوجب اجتهاد البليد فى الذب عن الحريم ويقتضى ان يبالغ المسلمون فى الاجتهاد فى الجهاد لكونهم لو قصروا لكسروا واسروا لبعدما منهم فقوله ببطن مكة اشارة الى بعد الكف ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى وقوله تعالى من بعد اظفركم عليهم صالح لامرين (احدهما) ان يكون منة على المؤمنين بان الظفر كان لكم مع ان الظاهر كان يستدعى كون الظفر لهم لكون البلاد لهم ولكثرة عددهم (الثانى) ان يكون ذكرا لامرين مانعين من الامرين الاولين مع ان الله حققهما مع المنافقين اما كف ايدى الكفار فكان بعيدا لكونهم فى بلادهم ذابين عن اهليهم واولادهم واليه اشار بقوله ببطن مكة واما كف ايدى المسلمين فلانه كان بعد ان ظفروا بهم ومتى ظفر الانسان بعدوه الذى لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه مع ان الله كف اليدين * وقوله تعالى (وكان الله بما تعملون بصيرا) يعنى كان الله يرى فيه من المصلحة وان كنتم لاترون ذلك وبينه

بذلك الآية (صراطا مستقيما) هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه فى كل ماتأتون وماتذرون (واخرى) عطف على هذه اى فعجل لكم هذه المغانم ومغانم اخرى (لم تقدروا عليها) وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى (قد احاط الله بها) صفة اخرى لاخرى مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة الى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر الى قدرتهم اى قد قدر الله عليها واستولى واظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم هذا وقد قيل ان اخرى منصوب بمضمر يفسره قد احاط الله بها اى وقضى الله اخرى ولاريب فى ان الاخبار بقضاء الله اياها بعد اندراجها فى جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ليس فيه مزيد فائدة وانما الفائدة فى بيان تعجيلها (وكان الله على كل شئ قديرا) لان قدرته تعالى ذاتية لاتختص بشئ دون شئ (ولو قاتلكم الذين كفروا) اى اهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خيبر (لولوا الادبار) منهزمين (ثم لايجدون وليا) يحرسهم (ولانصيرا) ينصرهم (سنة الله التى قد خلت من قبل) اى سن الله غلبة انبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الامم (ولن تجد لسنة الله تبديلا) اى تغييرا (وهو الذى كف ايديهم) اى ايدى كفار مكة (عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة) اى فى داخلها (من بعد ان اظفركم عليهم) وذلك ان عكرمة بن ابى جهل خرج فى خمسمائة الى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله

بقوله تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا الى ان قال ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يعنى كان الكف محافظة على ما فى مكة من المسلمين ليخرجوا منها ويدخلوها على وجه لايكون فيه ايذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات واختلف المفسرون فى ذلك الكف منهم من قال المراد ما كان عام الفتح ومنهم من قال ما كان عام الحديبية فان المسلمين هزموا جيش الكفار حتى ادخلوهم بيوتهم وقيل ان الحرب كان بالحجارة ❊ وقوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله) اشارة الى ان الكف لم يكن لامر فيهم لانهم كفروا وصدوا واحصروا وكل ذلك يقتضى قتالهم فلا يقع لاحد ان الفريقين اتفقوا ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا ولم يبق بينهما نزاع بل الاختلاف باق والنزاع مستمر لانهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفرا وعداوة وانما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات وقوله والهدى منصوب على العطف على كم فى صدوكم ويجوز الجر عطفا على المسجد اى وعن الهدى ومعكوفا حال وان يبلغ تقديره عن ان يبلغ ويحتمل ان يقال ان يبلغ محله رفع تقديره معكوفا بلوغه محله كما يقال رأيت زيدا شديدا بأسه ومعكوفا اى ممنوعا ولا يحتاج الى تقدير عن على هذا الوجه ❊ وقوله تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) وصف الرجال والنساء يعنى لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين وقوله تعالى ان تطؤهم بدل اشتمال كأنه قال رجال غير معلومى الوطء فتصيبكم منهم معرة عيب او اثم وذلك لانكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهى دليل الاثم او يعيبكم الكفار بانهم فعلوا باخوانهم مافعلوا باعدائهم وقوله تعالى بغير علم قال الزمخشرى هو متعلق بقوله ان تطؤهم يعنى تطؤهم بغير علم وجاز ان يكون بدلا عن الضمير المنصوب فى قوله لم تعلموهم ولقائل ان يقول يكون هذا تكرارا لان على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير لم تعلموا ان تطؤهم بغير علم فيلزم تكرار بغير علم لحصوله بقوله لم تعلموهم فالاولى ان يقال بغير علم هو فى موضعه تقديره لم تعلموا ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم من الذى يعركم ويعيب عليكم يعنى ان وطئتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار بغير علم أى بجهل لايعلمون انكم معذورون فيه او نقول تقديره لم تعلموا ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم أى فتقتلوهم بغير علم او تؤذوهم بغير علم فيكون الوطء سبب القتل والوطء غير معلوم لكم والقتل الذى هو سبب المعرة وهو الوطء الذى يحصل بغير علم او نقول المعرة قسمان (احدهما) مايحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل (والثانى) مايحصل من القتل خطأ وهو غير عدم العلم فقال تصيبكم منهم معرة غير معلومة لا التى تكون عن العلم وجواب لولا محذوف تقديره لولا ذلك لما كف ايديكم عنهم هذا ماقاله الزمخشرى وهو حسن ويحتمل ان يقال جوابه مادل عليه قوله تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام يعنى قد استحقوا ان لايمهلوا لولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه كما يقول القائل

(هو)

عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى ادخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد ابو حنيفة على ان مكة فتحت عنوة لا صلحا (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم وهزمهم اولا والكف عنهم ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرئ بالياء (بصيرا) فيجازيكم بذلك او يجازيهم (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى) بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى صدوكم وقرئ بالجر عطفا على المسجد بحذف المضاف اى ونحر الهدى وبالرفع على وصد الهدى وقوله تعالى (معكوفا) حال من الهدى اى محبوسا وقوله (ان يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدى او منصوب بنزع الخافض اى محبوسا من ان يبلغ مكانه الذى يحل فيه نحره وبه استدل ابو حنيفة رحمه الله تعالى على ان المحصر محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من الحرم وروى ان خيامه صلى الله عليه وسلم كانت فى الحل ومصلاه فى الحرم وهناك نحرت هداياه صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها المعهود الذى هو منى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم باعيانهم لاختلاطهم وهو صفة لرجال ونساء وقوله تعالى (ان تطؤهم) اى توقعوا بهم (فتصيبكم منهم) بدل اشتمال منهم او من الضمير المنصوب فى تعلموهم (فتصيبكم منهم) اى من جهتهم (معرة) اى مشقة ومكروه كوجوب الدية او الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء قالتهم والاثم بالتقصير فى البحث

هو سارق ولولا فلان لقطعت يده وذلك لان لولا لاتستعمل الالامتناع الشئ لوجود غيره وامتناع الشئ لايكون الااذا وجد المقتضى له فنعه الغير فذكر الله تعالى اولا المقتضى التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع وذكر ماامتنع لاجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين ❊ وقوله تعالى (ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا اليما) فيه ابحاث (الاول) فى الفعل الذى يستدعى اللام الذى بسببه يكون الادخال وفيه وجوه (احدها) ان يقال قوله كف ايديكم عنهم ليدخل لايقال بانك ذكرت ان المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال كف ايديكم لئلا تطؤا فكيف يكون لشئ آخر نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان نقول كف ايديكم لئلا تطؤا لتدخلوا كما يقال اطعمته ليشبع ليغفر الله لى اى الاطعام للشبع كان ليغفر (الثانى) هو انا بينا ان لولا جوابه مادل عليه قوله هم الذين كفروا فيكون كأنه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجيل فى اهلاكهم ولولا رجال لعجل بهم ولكن كف ايديكم ليدخل (ثانيها) ان يقال فعل مافعل ليدخل لان هناك افعالا من الالطاف والهداية وغيرهما وقوله ليدخل الله فى رحمته من يشاء ليؤمن منهم من علم الله تعالى انه يؤمن فى تلك السنة او ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم فى رحمته وقوله تعالى لو تزيلوا اى لو تميزوا والضمير يحتمل ان يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات فان قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بان جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف او لعجل ولو كان لو تزيلوا راجعا الى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا نقول وقد قال به الزمخشرى فقال لو تزيلوا يتضمن ذكر لولا فيحتمل ان يكون لعذبنا جواب لولا ويحتمل ان يقال هو ضمير من يشاء كأنه قال ليدخل من يشاء فى رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم انهم لايؤمنون وفيه ابحاث (البحث الاول) وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد ان العذاب الاليم اندفع عنهم امابسبب عدم التزييل اوبسبب وجود الرجال وعلى تقدير وجود الرجال والعذاب الاليم لايندفع عن الكافر نقول المراد عذابا عاجلا بأيديكم يبتدأ بالجنس اذ كانوا غير مقرين ولامنقلبين اليهم فيظهرون ويقتدرون يكون اليما (البحث الثانى) ماالحكمة فى ذكر المؤمنين والمؤمنات مع ان المؤنث يدخل فى ذكر المذكر عند الاجتماع قلنا الجواب عنه من وجهين (احدهما) ماتقدم يعنى ان الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لان قوله تطؤهم فتصيبكم معناه تهلكوهم والمرأة لاتقاتل ولاتقتل فكان المانع هو وجود الرجال المؤمنين فقال والنساء المؤمنات ايضا لان تخريب بيوتهن ويتم اولادهن بسبب قتل رجالهن وطأة شديدة (وثانيهما) ان فى محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب يقال لمن يعذب شخصا لاتعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه ويقال اولاده وصغاره واهله الضعفاء العاجزين فكذلك ههنا قال لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لترقيق قلوب المؤمنين ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر ❊ ثم قال تعالى

عنهم مفعلة من عره اذاعراه ودهاه مايكرهه (بغير علم) متعلق بان تطؤهم اى غير عالمين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى لولا كراهة ان تهلكوا اناسا مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف ايديكم عنهم وقوله تعالى (ليدخل الله فى رحمته) متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كأنه قيل عقيبه لكن كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى الى الفتح بلا محذور فى رحمته الواسعة بقسميها (من يشاء) وهم المؤمنون فانهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التى من جملتها الامن مستضعفين تحت ايدى الكفرة واما الرحمة الاخروية فهم وان كانوا غير محرومين منها بالمرة لكنهم كانوا قاصرين فى اقامة مراسم العبادة كما ينبغى فتوفيقهم لاقامتها على الوجه الاتم ادخال لهم فى الرحمة الاخروية وقد جوز ان يكون من يشاء عبارة عمن رغب فى الاسلام من المشركين ويأباه قوله تعالى (لو تزيلوا) الخ فان فرض التنزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضى تحقق المباينة بين الفريقين بالايمان والكفر قبل التنزيل حتما اى لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض وقرئ لو تزايلوا (لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا اليما) بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها (اذ جعل الذين كفروا) منصوب باذكر على المفعولية او يعذبنا على الظرفية وقيل بمضمر هو احسن الله اليكم واياما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة وتعليل الحكم به

(اذجعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها واهلها وكان الله بكل شئ عليما) اذ يحتمل ان يكون ظرفا فلابد من فعل يقع فيه ويكون عاملا له ويحتمل ان يكون مفعولا به فان قلنا انه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل ان يقال هو مذكور ويحتمل ان يقال هو مفهوم غير مذكور فان قلنا هو مذكور ففيه وجهان (احدهما) هو قوله تعالى وصدوكم اى وصدوكم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (وثانيها) قوله تعالى لعذبنا الذين كفروا منهم اى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (والثانى) اقرب لقربه لفظا وشدة مناسبته معنى لانهم اذا جعلوا فى قلوبهم الحمية لا يرجعون الى الاستسلام والانقياد والمؤمنون لما انزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد فى الجهاد والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذابا أليما او غير المؤمنين واما ان قلنا ان ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان (احدهما) حفظ الله المؤمنين عن ان يطؤهم وهم الذين كفروا الذين جعل فى قلوبهم الحمية (وثانيها) احسن الله اليكم اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية وعلى هذا فقوله تعالى فأنزل الله سكينته تفسير لذلك الاحسان واما ان قلنا انه مفعول به فالعامل مقدر تقديره اذكر أى اذكر ذلك الوقت كما تقول أتذكر اذ قام زيد اى أتذكر وقت قيامه كما تقول أتذكر زيدا وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف اليه عاملا فيه وفيه لطائف معنوية ولفظية (الاولى) هو ان الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فاشار الى ثلاثة اشياء (احدها) جعل ما للكافرين بجعلهم فقال اذ جعل الذين كفروا وجعل ما للمؤمنين بجعل الله فقال فأنزل الله وبين الفاعلين ما لا يخفى (ثانيها) جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره (ثالثها) اضاف الحمية الى الجاهلية واضاف السكينة الى نفسه حيث قال حمية الجاهلية وقال سكينته وبين الاضافتين ما لا يذكر (الثانية) زاد المؤمنين خيرا بعد حصول مقابلة شئ بشئ فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والاضافة الى الجاهلية بالاضافة الى الله تعالى والزمهم كلمة التقوى وسنذكر معناه واما اللفظية فثلاث لطائف (الاولى) قال فى حق الكافر جعل وقال فى حق المؤمن انزل ولم يقل خلق ولا جعل سكينته اشارة الى ان الحمية كانت مجعولة فى الحال فى العرض الذى لا يبقى واما السكينة فكانت كالمحفوظة فى خزانة الرحمة معدة لعباده فانزلها (الثانية) قال الحمية ثم اضافها بقوله حمية الجاهلية لان الحمية فى نفسها صفة مذمومة وبالاضافة الى الجاهلية تزداد قبحا وللحمية فى القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف الى الجاهلية واما السكينة فى نفسها وان كانت حسنة لكن الاضافة الى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار فقال سكينته اكتفاء بحسن الاضافة (الثالثة) قوله فأنزل بالفاء لا بالواو اشارة الى ان ذلك كالمقابلة تقول اكرمنى فاكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت اكرمنى واكرمته لا ينبئ عن ذلك وحينئذ يكون فيه لطيفة وهى ان عند اشتداد غضب احد العدوين فالعدو الآخر اما ان يكون

(ضعيفا)

والجعل اما بمعنى الالقاء فقوله تعالى (فى قلوبهم الحمية) اى الانفة والتكبر متعلق به او بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له اى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم (حمية الجاهلية) بدل من الحمية اى حمية الملة الجاهلية او الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى (فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) على الاول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثانى على ما يدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قبل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ وعلى الثالث على المضمر تفسيرله والسكينة الثبات والوقار يروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث قريش سهيل ابن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الاحنف على ان يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم ان يرجع من عامه ذلك على ان تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة ايام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ماهذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله اهل مكة فقالوا لو كنا نعلم انك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله اهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم المؤمنون ان يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فانزل الله

ضعيفا اوقويافان كان ضعيفا ينهزم وينقهروان كان قويافيورث غضبه فيه غضبا وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال فى نفس الحركة عند حركتهم ما اقدمنا وما انهزمنا وقوله تعالى فأنزل الله بالفاء يدل تعلق الانزال بالفاء على ترتيبه على شئ نقول فيه وجهان (احدهما) ماذكرنا من ان اذ ظرف كأنه قال احسن الله اذ جعل الذين كفروا وقوله فأنزل يفسير لذلك الاحسان كما يقال اكرمنى فاعطانى لتفسير اكرام (وثانيهما) ان تكون الفاء للدلالة على ان تعلق انزال السكينة بجعلهم الحمية فى قلوبهم على معنى المقابلة تقول اكرمنى فأثنيت عليه ويجوز ان يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة كما تقول جاءنى زيد وخرج عمرو وهوهنا كذلك لانهم لما جعلوا فى قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لونظرت اليهم لزم ان يوجد منهم احد الامرين اما اقدام واما انهزام لان احد العدوين اذا اشتد غضبه فالعدو الآخر ان كان مثله فى القوة يغضب ايضا وهذا يثير الفتن وان كان اضعف منه ينهزم او ينقاد له فالله تعالى انزل فى مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا وهو بعيد فى العادة فهو من فضل الله تعالى • وقوله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين فانه هو الذى اجاب الكافرين الى الصلح وكان فى نفس المؤمنين ان لا يرجعوا الا باحد الثلاثة بالنحر فى المنحر وابوا ان لا يكتبوا محمدا رسول الله وبسم الله فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون * وقوله تعالى والزمهم كلمة التقوى فيه وجوه اظهرها انه قول لا اله الا الله فان بها يقع الاتقاء عن الشرك وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فان الكافرين ابوا ذلك والمؤمنون التزموه وقيل هى الوفاء بالعهد الى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول والزمهم يحتمل ان يكون عائدا الى النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين جميعا يعنى الزم النبى والمؤمنين كلمة التقوى ويحتمل ان يكون عائدا الى المؤمنين فحسب فان قلنا انه عائد اليهما جميعا نقول هو الامر بالتقوى فان الله تعالى قال للنبى صلى الله عليه وسلم يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين وقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته والامر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات الى ما سوى الله كما قال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم اتق الله ولا تطع الكافرين وقال تعالى وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه ثم بين له حال من صدقه بقوله الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله واما فى حق المؤمنين فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال فلا تخشوهم واخشونى وان قلنا بأنه راجع الى المؤمنين فهو قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا الا ترى الى قوله واتقوا الله وهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وفى معنى قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى على هذا معنى لطيف وهو انه تعالى اذا قال اتقوا يكون الامر واردا ثم ان من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه ومن التزمه فقد التزمه بالزام الله اياه فكأنه قال تعالى والزمهم كلمة التقوى وفى هذا المعنى رجحان

السكينة عليهم فتوقروا وحلموا (والزمهم كلمة التقوى) اى كلمة الشهادة اوبسم الله الرحمن الرحيم اومحمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه واضافتها الى التقوى لانها سبب التقوى واساسها او كلمة اهلها (وكانوا احق بها) متصفين بمزيد استحقاق لها على ان صيغة التفضيل للزيادة مطلقا وقيل احق بها من الكفار (واهلها) اى المستأهل لها (وكان الله بكل شئ عليما) فيعلم حق كل شئ فيسوقه الى مستحقه (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه الى الحديبية كأنه واصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على اصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا انهم داخلوها فى عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن ابى وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت اى صدقه صلى الله عليه وسلم فى رؤياه كما فى قولهم صدقنى سن بكره وتحقيقه اراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى (بالحق) اما صفة لمصدر مؤكد محذوف اى صدقا ملتبسا بالحق اى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التى هى التمييز بين الراسخ فى الايمان والمتزلزل فيه او حال من الرؤيا اى ملتبسة بالحق ليست من قبيل اضغاث الاحلام وقد جوز ان يكون قسما بالحق الذى هو من اسماء الله تعالى او بنقيض الباطل وقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) جوابه وهو على الاولين جواب قسم محذوف

من حيث ان التقوى وان كان كاملا ولكنه أقرب الى الكلمة وعلى هذا فقوله وكانوا احق بها واهلها معناه انهم كانوا عندالله اكرم الناس فالزموا تقواه وذلك لان قوله تعالى ان اكرمكم عندالله اتقاكم يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون معناه ان من يكون تقواه اكثر يكرمه الله اكثر (والثانى) ان يكون معناه ان من سيكون اكرم عندالله واقرب اليه كان اتقى كما فى قوله والمخلصون على خطر عظيم وقوله تعالى وهم من خشية ربهم مشفقون وعلى الوجه الثانى يكون معنى قوله وكانوا احق بها لانهم كانوا اعلم بالله لقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله واهلها يحتمل وجهين (احدهما) انه يفهم معنى الاحق انه يثبت رجحانا على الكافرين ان لم يثبت الاهلية كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن احدهما ابعد عن الاستحقاق فقال فى الاقرب الى الاستحقاق اذا كان ولابد فهذا احق كما يقال الحبس اهون من القتل مع انه لا هين هناك فقال واهلها دفعا لذلك (الثانى) وهو اقوى وهو ان يقال قوله تعالى واهلها فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الاحق فنقول هو يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون الاحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما فى قوله تعالى خير مقاما واحسن نديا اذ لا خير فى غيره (والثانى) ان يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون بالنسبة الى غيرهم اى المؤمنون احق من الكافرين (والثانى) ان يكون بالنسبة الى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى تقول زيد احق بالاكرام منه بالاهانة كما اذا سأل شخص عن زيد انه بالطب اعلم او بالفقه تقول هو بالفقه اعلم أى من الطب ❊ وقوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) بيان لفساد ماقاله المنافقون بعد انزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عندما أمروا به من عدم الاقبال على القتال وذلك قولهم مادخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه ان المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتا فقص رؤياه على المؤمنين فقطعوا بأن الامر كما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وظنوا ان الدخول يكون عام الحديبية والله اعلم انه لا يكون الا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء مادخلنا ولا حلقنا فقال تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وتعدية صدق الى مفعولين يحتمل ان يكون بنفسه وكونه من الافعال التى تتعدى الى المفعولين ككلمة جعل وخلق ويحتمل ان يقال عدى الى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله فى الرؤيا وعلى الاول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده اذ وقع الموعود به وانى به وعلى الثانى معناه ماراه الله لم يكذب فيه وعلى هذا فيحتمل ان يكون رأى فى منامه ان الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله صدق ظاهرا لان استعمال الصدق فى الكلام ظاهر ويحتمل ان يكون عليه الصلاة

(والسلام)

اى والله لتدخلن الخ وقوله تعالى (ان شاء الله) تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد اوللاشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت اوغيبة اوغير ذلك اوهى حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اولما قاله عليه الصلاة والسلام لاصحابه (آمنين) حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى (محلقين رؤسكم ومقصرين) اى محلقا بعضكم ومقصرا آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة (لا تخافون) حال مؤكدة من فاعل لتدخلن او آمنين او محلقين اومقصرين او استئناف اى لا تخافون بعد ذلك (فعلم مالم تعلموا) عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه اى فعلم عقيب ماراه الرؤيا الصادقة مالم تعلموا من الحكمة الداعية الى تقديم مايشهد بالصدق علما فعليا (فجعل) لاجله (من دون ذلك) اى من دون تحقق مصداق ماراه من دخول المسجد الحرام الخ (فتحا قريبا) وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وانجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون آية للمؤمنين واما جعل مافى قوله تعالى مالم تعلموا عبارة عن الحكمة فى تأخير فتح مكة الى العام القابل كما جنح اليه الجمهور فتأباه الفاء فان علمه تعالى بذلك متقدم على ارائة الرؤيا قطعا

والسلام رأى انه يدخل المسجد فيلون قوله صدق الله معناه انه اتى بما يحقق المنام
ويدل على كونه صادقا يقال صدقنى سن بكره مثلا فيما اذا حقق الامر الذى بربه من
نفسه مأخوذ من الابل اذا قيل له هدع سكن لحقق كونه من صغار الابل فان هدع كلمة
يسكن بها صغار الابل وقوله تعالى بالحق قال الزمخشرى هو حال او قسم او صفة صدق
وعلى كونه حالا تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه
صدقا ملتبسا بالحق وعلى تقدير كونه قسما اما ان يكون قسما بالله فان الحق من اسمائه
واما ان يكون قسما بالحق الذى هو نقيض الباطل هذا ماقاله ويحتمل ان يقال فيه
وجهين آخرين (احدهما) ان يقال فيه تقديم وتأخير تقديره صدق الله رسوله بالحق
الرؤيا اى الرسول الذى هو رسول بالحق وفيه اشارة الى امتناع الكذب فى الرؤيا لانه
لما كان رسولا بالحق فلا يرى فى منامه الباطل (والثانى) ان يقال بأن قوله لتدخلن
المسجد الحرام ان قلنا بأن الحق قسم فام اللام ظاهر وان لم يقل به فتقديره لقد صدق
الله رسوله الرؤيا بالحق والله لتدخلن وقوله والله لتدخلن جاز ان يكون تفسيرا للرؤيا
يعنى الرؤيا هى والله لتدخلن وعلى هذا تبين ان قوله صدق الله كان فى الكلام لان
الرؤيا كانت كلاما ويحتمل ان يكون تحقيقا لقوله تعالى صدق الله رسوله يعنى والله
ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام وقوله تعالى ان شاء الله فيه
وجوه (احدها) انه ذكره تعليما لعباده الادب وتأكيدا لقوله تعالى ولاتقولن لشئ انى
فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله (الثانى) هو ان الدخول لما لم يقع عام الحديبية وكان
المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال لتدخلن ولكن لا بجلادتكم
ولا بارادتكم وانما تدخلون بمشيئة الله تعالى (الثالث) هو ان الله تعالى لما قال فى الوحى
المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم لتدخلن ذكر انه بمشيئة الله تعالى لان ذلك من الله وعد
ليس عليه دين ولا حق واجب ومن وعد بشئ لايحققه الا بمشيئة الله تعالى والافلا يلزمه
به احد واذا كان هذا حال الموعود به فى الوحى المنزل صريحا فى اليقظة فما ظنكم بالوحى
بالمنام وهو يحتمل التأويل اكثر مما يحتمله الكلام فاذا تأخر الدخول لم يستهزؤن
(الرابع) هو ان ذلك تحقيقا للدخول وذلك لان اهل مكة قالوا لاتدخلوها الا بارادتنا
ولانريد دخولكم فى هذه السنة ونختار دخولكم فى السنة القابلة والمؤمنون ارادوا
الدخول فى عامهم ولم يقع فكان لقائل ان يقول بقى الامر موقوفا على مشيئة أهل
مكة ان ارادوا فى السنة الآتية يتركونا ندخلها وان كرهوا لاندخلها فقال لاتشترط
ارادتهم ومشيئتهم بل تمام الشرط بمشيئة الله وقوله محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون
اشارة الى انكم تتمون الحج من اوله الى آخره فقوله لتدخلن اشارة الى الاول وقوله
محلقين اشارة الى الآخر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) محلقين حال الداخلين
والداخل لايكون الا محرما والمحرم لايكون محلقا فقوله آمنين ينبئ عن الدوام فيه الى

(هو الذى ارسل رسوله بالهدى)
اى ملتبسا به اوبسببه ولاجله
(ودين الحق) وبدين الاسلام
(ليظهره على الدين كله) ليعليه
على جنس الدين بجميع افراده
التى هى الاديان المختلفة بنسخ
ماكان حقا من بعض الاحكام
المتبدلة بتبدل الاعصار واظهار
بطلان ماكان باطلا او بتسليط
المسلمين على اهل سائر الاديان
اذ مامن اهل دين الاوقد قهرهم
المسلمون وفيه فضل تأكيد لما
وعد من الفتح وتوطين لنفوس
المؤمنين على انه سبحانه سيفتح لهم
من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على
الاقاليم مايستقلون اليه فتح مكة
(وكفى بالله شهيدا) على ان ماوعده
كائن لامحالة اوعلى نبوته عليه
الصلاة والسلام باظهار المعجزات
(محمد) خبر مبتدأ محذوف وقوله
تعالى (رسول الله) بدل اوبيان
اونعت اى ذلك الرسول المرسل
بالهدى ودين الحق محمد رسول
الله وقيل محمد مبتدأ رسول الله
خبره والجملة مبينة للمشهود به
وقوله تعالى (والذين معه) مبتدأ
خبره (اشداء على الكفار رحماء
بينهم)واشداء جمع شديد ورحماء
جمع رحيم والمعنى انهم يظهرون
لمن خالف دينهم الشدة والصلابة
ولمن وافقهم فى الدين الرحمة
والرأفة كقوله تعالى اذلة على

الحلق فكأنه قال تدخلونها آمنين متمكنين من ان تموا الحج محلقين (المسئلة الثانية) قوله تعالى لاتخافون ايضاحال معناه غير خائفين و ذلك حصل بقوله تعالى آمنين فاالفائدة فى اعادته نقول فيه بيان كمال الأمن وذلك لان بعدالحلق يخرج الانسان عن الاحرام فلايحرم عليه القتال وكان عنداهل مكة يحرم قتال من احرم ومن دخل الحرم فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى امنكم بعدخروجكم عن الاحرام وقوله تعالى فعلم مالم تعلموا اى من المصلحة وكون دخولكم فى سنتكم سببالوطء المؤمنين والمؤمنات اوفعلم للتعقيب فعلم وقع عقيب ماذانقول ان قلنا المرادمن فعلم وقت الدخول فهو عقيب صدق وان قلنا المرادفعلم المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لاعلم الغيب والتقدير يعنى حصلت المصلحة فى العام القابل فعلم مالم تعلموا من المصلحة المتجددة فجعل من دون ذلك فتحاقريبا اماصلح الحديبية واما فتح خيبر وقدذكرناه وقوله تعالى وكان الله بكل شئ عليما يدفع وهم حدوث علمه من قوله فعلم وذلك لان قوله وكان الله بكل شئ عليما يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث ❁ ثم قال تعالى (هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمدرسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماءبينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) تأكيدا لبيان صدق الله فى الرؤيا وذلك لانه لما كان مرسلا لرسوله ليهدى لايريد مالايكون مهديا للناس فيظهر خلافه فيقع ذلك سببا للضلال ويحتمل وجوها اقوى من ذلك وهوان الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل لكن رؤية الاشياء قبل وقوعها فى اليقظة لاتقع لكل احدفقال تعالى هوالذى ارسل رسوله بالهدى وحكى له ماسيكون فى اليقظة ولايبعدمن ان يريه فى المنام مايقع فلااستبعاد فى صدق رؤياه وفيهاايضا بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى ليظهره على الدين كله اى من يقويه على الاديان لايستبعد منه فتح مكة له والهدى يحتمل ان يكون هو القرآن كماقال تعالى انزل فيه القرآن هدى للناس وعلى هذا دين الحق هومافيه من الاصول والفروع ويحتمل ان يكون الهدى هوالمعجزة اى ارسله بالحق اى مع الحق اشارة الى ماشرع ويحتمل ان يكون الهدى هوالاصول ودين الحق هوالاحكام وذلك لان من الرسل من لم يكن له احكام بل بين الاصول فحسب والالف واللام فى الهدى يحتمل ان تكون للاستغراق اى كل ماهوهدى ويحتمل ان تكون للعهد وهوقوله تعالى ذلك هدى الله يهدى به من يشاء وهو اما القرآن لقوله تعالى كتابامتشابها مثانى تقشعر الى ان قال ذلك هدى الله يهدى به من يشاء واماماتفق عليه كلمة الرسل لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده والكل من باب واحد لان مافى القرآن موافق لمااتفق عليه الانبياء وقوله تعالى ودين الحق يحتمل وجوها (احدها) ان يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال بالهدى ودين الله (وثانيها) ان يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال ودين الامرالحق (وثالثها) ان يكون المرادبه الانقياد الى الحق والتزامه

المؤمنين اعزة على الكافرين وقرئ اشداءورحماءبالنصب على المدح اوعلى الحال من المستكن فى معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى (تراهم ركعاسجدا) اى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلاة وهو على الاول خبرآخر اواستئناف وقوله تعالى (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) اى ثوابا ورضااماخبرآخر اوحال من ضمير تراهم اومن المستتر فى ركعاسجدا اواستئناف مبنى على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل ماذايريدون بذلك فقيل يبتغون فضلامن الله الخ (سيماهم) اى سمتهم وقرئ سيمياؤهم بالياء بعدالميم والمد وهما لغتان وفيها لغة ثالثة هى السيماء بالمد وهومبتدأ خبره (فى وجوههم) اى فى جباههم وقوله تعالى (من اثر السجود) حال من المستكن فى الجار اى من التأثير الذى يؤثره كثرة السجود وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله عليه الصلاة والسلام لاتعلبوا صوركم اى لاتسموها انما هو فيما اذا اعتمد بجبهته على الارض ليحدث فيها تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث فى جبهة السجاد الذى لايسجد الاخالصا لوجه الله عز

(ليظهره)

ليظهره اى ارسله بالهدى وهو المعجز على احد الوجوه ليظهره على الدين كله اى جنس الدين فينسخ والاديان دون دينه واكثر المفسرين على ان الهاء فى قوله ليظهره راجعة الى الرسول والاظهر انه راجع الى دين الحق اى ارسل الرسول بالدين الحق ليظهره اى ليظهر الدين الحق على كل الاديان وعلى هذا فيحتمل ان يكون الفاعل للاظهار هو الله ويحتمل ان يكون هو النبى اى ليظهر النبى دين الحق وقوله تعالى وكفى بالله شهيدا اى فى انه رسول الله وهذا مما يسلى قلب المؤمنين فانهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب وقالوا لانعلم انه رسول الله فلاتكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبدالله فقال تعالى كفى بالله شهيدا فى انه رسول الله وفيه معنى لطيف وهو ان قول الله مع انه كاف فى كل شئ لكنه فى الرسالة اظهر كفاية لان الرسول لايكون الابقول المرسل فاذا قال ملك هذا رسولى لو انكر كل من فى الدنيا انه رسول فلا يفيد انكارهم فقال تعالى اى خلل فى رسالته بأنكارهم مع تصديق اياه بأنه رسولى وقوله محمد رسول الله فيه وجوه (احدها) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذى سبق ذكره بقوله ارسل رسوله ورسول الله عطف بيان (وثانيها) ان محمدا مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لانه لما قال هو الذى ارسل رسوله ولاتوقف رسالته الاعلى شهادته وقد شهد له بها فهو محمد رسول الله من غير نكير (وثالثها) وهو مستنبط وهو ان يقال محمد مبتدأ ورسول الله عطف بيان سبق للمدح لا للتمييز والذين معه عطف على محمد وقوله اشداء خبره كأنه قال تعالى والذين معه جميعهم اشداء على الكفار رحماء بينهم لان وصف الشدة والرحمة وجد فى جميعهم اما فى المؤمنين فكما فى قوله تعالى اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين واما فى حق النبى صلى الله عليه وسلم فكما فى قوله واغلظ عليهم وقال فى حقه بالمؤمنين رؤف رحيم وعلى هذا قوله تراهم لايكون خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم بل يكون عاما اخرج مخرج الخطاب تقديره تراهم ايها السامع كائنا من كان كما قلنا ان الواعظ يقول انتبه قبل ان يقع الانتباه ولا يريد به واحدا بعينه وقوله تعالى يبتغون فضلا من الله ورضوانا تمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم وركوع المرائى وسجوده فانه لايبتغى به ذلك وفيه اشارة الى معنى لطيف وهو ان الله تعالى قال الراكعون والساجدون لوجهه فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله وقال الراكع يبتغى الفضل ولم يذكر الاجر لان الله تعالى اذا قال لكم اجر كان ذلك منه تفضلا واشارة الى ان عملكم جاء على ماطلب الله منكم لان الاجرة لاتستحق الاعلى العمل الموافق للطلب من المالك والمؤمن اذا قال انا ابتغى فضلك يكون منه اعترافا بالتقصير فقال يبتغون فضلا من الله ولم يقل اجرا ❊ وقوله تعالى (سيماهم فى وجوههم من اثر السجود) فيه وجهان (احدهما) ان ذلك يوم القيامة كما قال تعالى يوم تبيض وجوه وقال تعالى نورهم يسعى وعلى هذا فنقول نورهم فى وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال ابراهيم

وجل كان الامام زين العابدين وعلى بن عبدالله بن العباس رضى الله عنهما يقال لهما ذوا الثفنات لما احدثت كثرة سجودهما فى مواقعه منهما اشباه ثفنات البعير قال قائلهم

ديار على والحسين وجعفر
وحمزة والسجاد ذى الثفنات

وقيل صفرة الوجه من خشية الله تعالى وقيل ندى الطهور وتراب الارض وقيل استنارة وجوههم من طول ماصلوا بالليل قال عليه الصلاة والسلام من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وقرئ من آثار السجود ومن اثر السجود بكسر الهمزة (ذلك) اشارة الى ماذكر من نعوتهم الجليلة ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مثلهم) اى وصفهم العجيب الشان الجارى فى الغرابة مجرى الامثال وقوله تعالى (فى التوراة) حال من مثلهم والعامل معنى الاشارة وقوله تعالى (ومثلهم فى الانجيل) عطف على مثلهم الاول كأنه قيل ذلك مثلهم فى التوراة والانجيل وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها وقوله تعالى (كزرع اخرج شطأه) الخ تمثيل مستأنف اى هم كزرع اخرج

عليه السلام انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض ومن يحاذى الشمس يقع شعاعها على وجهه فيتبين على وجهه النور منبسطا مع ان الشمس لها نور عارضى يقبل الزوال والله نور السموات والارض فمن يتوجه الى وجهه يظهر فى وجهه نور يبهر الانوار (وثانيهما) ان ذلك فى الدنيا وفيه وجهان (احدهما) ان المراد ما يظهر فى الجباه بسبب كثرة السجود (والثانى) ما يظهره الله تعالى فى وجوه الساجدين ليلا من الحسن نهارا وهذا محقق لمن يعقل فان رجلين يسهران بالليل احدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم فكل احد فى اليوم الثانى يفرق بين الساهر فى الشرب واللعب وبين الساهر فى الذكر والشكر ۞ وقوله تعالى (ذلك مثلهم فى التوراة) فيه ثلاثة اوجه مذكورة (احدها) ان يكون ذلك مبتدأ ومثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل خبرا له وقوله تعالى كزرع اخرج شطأه خبرا له مبتدأ محذوف تقديره ومثلهم فى التوراة والانجيل كزرع (وثانيها) ان يكون خبر ذلك هو قوله مثلهم فى التوراة وقوله ومثلهم فى الانجيل مبتدأ وخبره كزرع (وثالثها) ان يكون ذلك اشارة غير معينة اوضحت بقوله تعالى كزرع كقوله ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وفيه وجه رابع وهو ان يكون ذلك خبرا له مبتدأ محذوف تقديره هذا الظاهر فى وجوههم ذلك يقال ظهر فى وجهه اثر الضرب فنقول اى والله ذلك اى هذا ذلك الظاهر او الظاهر الذى تقوله ذلك ۞ وقوله تعالى (ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) اى وصفوا فى الكتابين به ومثلوا بذلك وانما جعلوا كالزرع لانه اول ما يخرج يكون ضعيفا وله نمو الى حد الكمال فكذلك المؤمنون والشطأ الفرخ فآزره ويحتمل ان يكون المراد اخرج الشطأ وآزر الشطأ وهو اقوى واظهر والكلام يتم عند قوله يعجب الزراع ۞ وقوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) اى تنمية الله ذلك ليغيظ او يكون الفعل المعلل هو ۞ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) اى وعد ليغيظ بهم الكفار يقال رغما لانفك انعم عليه ۞ وقوله تعالى (منهم مغفرة واجرا عظيما) لبيان الجنس لا للتبعيض ويحتمل ان يقال هو للتبعيض ومعناه ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الاجر العظيم والعظيم والمغفرة قد تقدم مرارا والله تعالى اعلم وههنا لطيفة وهو انه تعالى قال فى حق الراكعين الساجدين انهم يبتغون فضلا من الله وقال لهم اجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لان المؤمن عند العمل لم يلتفت الى عمله ولم يجعل له اجرا يعتد به فقال لا ابتغى الا فضلك فان عملى نزر لا يكون له اجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه اجرا اشارة الى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزرا لا يستحق المؤمن عليه اجرا وقد علم بما ذكرنا مرارا ان قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لبيان ترتب المغفرة على الايمان فان كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والاجر العظيم على العمل الصالح

(والله)

فراخه وقيل هو تفسير لذلك على انه اشارة مبهمة وقيل خبر لقوله تعالى ومثلهم فى الانجيل على ان الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم فى التوراة وقرئ شطأه بفتحات وقرئ شطاه بفتح الطاء وتخفيف الهمزة وشطاءه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها الى ما قبلها وشطوه بقلبها واوا (فآزره) فقواه من المؤازرة بمعنى المعاونة او من الايزار وهى الاعانة وقرئ فازره بالتخفيف وأزره بالتشديد اى شد أزره وقوله تعالى (فاستغلظ) فصار غليظا بعد ما كان دقيقا (فاستوى على سوقه) فاستقام على قصبه جمع ساق وقرئ سؤقه بالهمزة (يعجب الزراع) بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله عز وجل لاصحابه عليه الصلاة والسلام قلوا فى بدء الاسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى امرهم يوما فيوما بحيث اعجب الناس وقيل مكتوب فى الانجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) علة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه اولما بعده من قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا

والله أعلم (قال المصنف رحمه الله تعالى) تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين

(سورة الحجرات ثمان عشرة آية مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم) فى بيان حسن الترتيب وجوه (احدها) ان فى السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل الى الامتناع مما اجاز النبى صلى الله عليه وسلم من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله قال لهم على سبيل العموم لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ولاتتجاوزوا مايأمر الله تعالى ورسوله (الثانى) هو أن الله تعالى لما بين محل النبى عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذى يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله رحيما قال لاتتركوا من احترامه شيئا لابالفعل ولابالقول ولاتغتروا برأفته وانظروا الى رفعة درجته (الثالث) هو ان الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحاء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرا الى جانب الله تعالى وذكر ان لهم من الحرمة عند الله ماأورثهم حسن الثناء فى الكتب المتقدمة بقوله ذلك مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الانجيل فان الملك العظيم لايذكر احدا فى غيبته الا اذا كان عنده محترما ووعدهم بالاجر العظيم فقال فى هذه السورة لاتفعلوا مايوجب انحطاط درجتكم واحباط حسناتكم ولاتقدموا وقيل فى سبب نزول الآية وجوه قيل نزلت فى صوم يوم الشك وقيل نزلت فى التضحية قبل صلاة العيد وقيل نزلت فى ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بنى عامر وقيل نزلت فى جماعة اكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفود والاصح انه ارشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل اثبات وتقدم واستبداد بالامر واقدام على فعل غير ضرورى من غير مشاورة وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى لاتقدموا يحتمل وجهين (احدهما) أن يكون من التقديم الذى هو متعد وعلى هذا ففيه وجهان (احدهما) ترك مفعوله برأسه كما فى قوله تعالى يحيى ويميت وقول القائل فلان يعطى ويمنع ولايريد بهما اعطاء شئ معين ولامنع شئ معين وانما يريد بهما ان له منعا واعطاء كذلك ههنا كأنه تعالى يقول لاينبغى ان يصدر منكم تقديم اصلا (والثانى) ان يكون المفعول الفعل او الامر كأنه يقول لا تقدموا يعنى فعلا بين يدى الله ورسوله اولا تقدموا امرا (الثانى) ان يكون المراد لا تقدموا بمعنى لاتتقدموا وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لاتجعلوا لانفسكم تقدما عند النبى صلى الله عليه وسلم يقال فلان تقدم من بين الناس

عظيما) فان الكفار اذا سمعوا بما اعد للمؤمنين فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك اشد غيظ ومنهم للبيان * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة

* (سورة الحجرات مدنية)
(وهى ثمانى عشرة آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا ايها الذين آمنوا) تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على ان ما فى حيزه امر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط تأملهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالايمان لتنشيطهم والايذان بأنه داع الى المحافظة عليه ووازع عن الاخلال به (لاتقدموا) اى لاتفعلوا التقديم على ان ترك المفعول للقصد الى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الامور على طريقة قولهم فلان يعطى ويمنع اى يفعل الاعطاء والمنع اولاتقدموا امرا من الامور على ان حذف المفعول للقصد الى تعميمه والاول اوفى بحق المقام لافادته النهى عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهانى وقد جوز ان يكون التقديم بمعنى

اذا ارتفع امره وعلا شأنه والسبب فيه ان من ارتفع يكون متقدما فى الدخول فى الامور العظام وفى الذكر عند ذكر الكرام وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعديا او لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فالمعنى واحد لان قوله لا تقدموا اذا جعلناه متعديا او لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فتقديره لا تقدموا انفسكم فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم اى لا تجعلوا لانفسكم تقدما ورأيا عنده ولا نقول بأن المراد لا تقدموا امرا وفعلا وحينئذ تتحد القراءتان فى المعنى وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال وقوله تعالى بين يدى الله ورسوله اى بحضرتهما لان ما بحضرة الانسان فهو بين يديه وهو ناظر اليه وهو نصب عينيه وفى قوله بين يدى الله ورسوله فوائد (احدها) ان قول القائل فلان بين يدى فلان اشارة الى كون كل واحد منهما حاضرا عند الآخر مع ان لاحدهما علو الشان وللآخر درجة العبيد والغلمان لان من يجلس بجنب الانسان يكلفه تقليب الحدقة اليه وتحريك الرأس اليه عند الكلام والامر ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ولان اليدين تنبئ عن القدرة يقول القائل هو بين يدى فلان اى يقلبه كيف شاء فى اشغاله كما يفعل الانسان بما يكون موضوعا بين يديه وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقديم وتقديم النفس لان من يكون كمتاع يقلبه الانسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم (وثانيها) ذكر الله اشارة الى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لاوامره وذلك لان احترام الرسول صلى الله عليه وسلم قد يترك على بعد المرسل وعدم اطلاعه على ما يفعل برسوله فقال بين يدى الله اى أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر اليكم وفى مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله (وثالثها) هو ان هذه العبارة كما تقرر النهى المتقدم تقرر معنى الامر المتأخر وهو قوله واتقوا لان من يكون بين يدى الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديرا بأن يتقيه وقوله تعالى واتقوا الله يحتمل ان يكون ذلك عطفا يوجب مغايرة مثل المغايرة التى فى قول القائل لا تنم واشتغل اى فائدة ذلك النهى هو ما فى هذا الامر وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى ويحتمل ان يكون بينهما مغايرة اتم من ذلك وهى التى فى قول القائل احترم زيدا واخدمه اى ائت بأتم الاحترام فكذلك ههنا معناه لا تتقدموا عنده واذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا بل مع انكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه والا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام وقوله تعالى ان الله سميع عليم يؤكد ما تقدم لانهم قالوا آمنا لان الخطاب يفهم بقوله يا أيها الذين آمنوا فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما فى قلوبهم من التقوى والخيانة فلا ينبغى أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم بل ينبغى أن يتم ما فى سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما فى علمه من فعلكم الظاهر وهو عدم

التقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف احدى التاءين من تتقدموا وقرئ لا تقدموا من القدوم وقوله تعالى (بين يدى الله ورسوله) مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الانسان تهجينا لما نهوا عنه والمعنى لا تقطعوا امرا قبل ان يحكما به وقيل المراد بين يدى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والايذان بجلالة محله عنده عز وجل قيل نزل فيما جرى بين ابى بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تأمير الاقرع بن حابس او القعقاع بن معبد (واتقوا الله) فى كل ما تأتون وما تذرون من الاقوال والافعال التى من جملتها ما نحن فيه (ان الله سميع) لاقوالكم (عليم) بافعالكم فمن حقه ان يتقى ويراقب (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى عليه الصلاة والسلام بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل واعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الايقاظ والتنبيه والاشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه اى لا تبلغوا باصواتكم وراء حد يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته وقرئ لا ترفعوا باصواتكم على ان الباء زائدة (ولا تجهروا له

التقدم وما فى قلوبكم من الضمائر وهو التقوى ❊ ثم قال تعالى (يا أيها الذين امنوا لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لاتشعرون) لاتقدموا نهى عن فعل ينبئ عن كونهم جاعلين لانفسهم عند الله ورسوله بالنسبة اليهما وزنا ومقدارا ومدخلا فى امر من أوامرهما ونواهيهما وقوله لاترفعوا نهى عن قول ينبئ عن ذلك الامر لان من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارا زائدا وعظمة وفيه مباحث (البحث الاول) ما الفائدة فى اعادة النداء وماهذا النمط من الكلامين على قول القائل يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله لاترفعوا اصواتكم نقول فى اعادة النداء فوائد خمسة منها ان يكون فى ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما فى قول لقمان لابنه يابنى لاتشرك بالله يابنى انها ان تك مثقال حبة يابنى اقم الصلاة لان النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه فاعادته تفيد ذلك ومنها ان لايتوهم متوهم ان المخاطب ثانيا غير المخاطب اولا فان من الجائز ان يقول القائل يازيد افعل كذا وقل كذا ياعمرو فاذا اعاده مرة أخرى وقال يازيد قل كذا يعلم من اول الكلام انه هو المخاطب ثانيا أيضا ومنها ان يعلم ان كل واحد من الكلامين مقصود ليس الثانى تأكيدا للاول كما تقول يازيد لاتنطق ولاتتكلم الا بالحق فانه لايحسن ان يقال يازيد لاتنطق يازيد لاتتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين وقوله تعالى لاترفعوا اصواتكم يحتمل وجوها (احدها) ان يكون المراد حقيقته وذلك لان رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام وهذا من مسئلة حكمية وهى ان الصوت بالمخارج ومن خشى قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلايخرج منه الصوت بقوة ومن لم يخف ثبت قلبه وقوى فرفع الهواء دليل عدم الخشية (ثانيها) ان يكون المراد المنع من كثرة الكلام لان من يكثر الكلام يكون متكلما عند سكوت الغير فيكون فى وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وان كان خائفا اذا نظرت الى حال غيره فلا ينبغى ان يكون لاحد عند النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير بالنسبة الى كلام النبى صلى الله عليه وسلم لان النبى عليه الصلاة والسلام مبلغ فالمتكلم عنده ان أراد الاخبار لايجوز وان استخبر النبى عليه السلام عما وجب عليه البيان فهو لايسكت عما يسأل وان لم يسأل وربما يكون فى السؤال حقيدة برد جواب لايسهل على المكلف الاتيان به فيبقى فى ورطة العقاب (ثالثها) ان يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم اى لاتجعلوا لكلامكم ارتفاعا على كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطاب كما يقول القائل لغيره امرتك مرارا بكذا عندما يقول له صاحبه مرنى بامر مثله فيكون احد الكلامين اعلى وارفع من الآخر والاول اصح والكل يدخل فى حكم المراد لان المنع من رفع الصوت لايكون الا للاحترام واظهار الاحتشام ومن بلغ احترامه الى حيث تخفض الاصوات

بالقول) اذا كلمتموه (كجهر بعضكم لبعض) اى جهرا كائنا كالجهر الجارى فيما بينكم بل اجعلوا اصواتكم اخفض من صوته عليه الصلاة والسلام وتعهدوا فى مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة ابهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لاتقولوا له يامحمد يااحمد وخاطبوه بالنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال ابوبكر يارسول الله والله لا اكلمك الا السرار او اخا السرار حتى القى الله تعالى وعن عمر رضى الله عنه انه كان يكلمه عليه الصلاة والسلام كاخى السرار لايسمعه حتى يستفهمه وكان ابوبكر رضى الله عنه اذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود ارسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (ان تحبط اعمالكم) اما علة للنهى اى لاتجهروا خشية ان تحبط او كراهة ان تحبط كما فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا او للنهى اى لاتجهروا لاجل الحبوط فان الجهر حيث كان بصدد الاداء الى الحبوط فكأنه فعل لاجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا وليس المراد بما

عنده من هيبته وعلو مرتبته لايكثر عنده الكلام ولا يرجع المتكلم معه فى الخطاب وقوله تعالى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض فيه فوائد (احداها) ان بالاول حصل المنع من ان يجعل الانسان كلامه او صوته اعلى من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وصوته ولقائل ان يقول فامنعت من المساواة فقال تعالى ولا تجهروا له كما تجهرون لاقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا (والثانية) ان هذا افادانه لاينبغى ان يتكلم المؤمن عند النبى عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده لان العبد داخل تحت قوله كجهر بعضكم لبعض لانه للعموم فلا ينبغى ان يجهر المؤمن للنبى صلى الله عليه وسلم كما يجهر العبد للسيد والا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض لا يقال المفهوم من هذا النمط ان لا تجعلوه كما يتفق بينكم بل تميزوه بان لا تجهروا عنده ابدا وفيما بينكم لاتحافظون على الاحترام لانا نقول ماذكرنا اقرب الى الحقيقة وفيه ماذكرتم من المعنى وزيادة ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لو كانا فى مخمصة ووجد العبد مالو لم يأكله لمات لايجب عليه بذله لسيده ويجب البذل للنبى صلى الله عليه وسلم ولو علم العبدان بموته ينجو سيده لايلزمه ان يلقى نفسه فى التهلكة لانجاء سيده ويجب لانجاء النبى عليه الصلاة والسلام وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية وان الحكمة تقتضى ذلك كما ان العضو الرئيس اولى بالرعاية من غيره لان عند خلل القلب مثلا لايبقى لليدين والرجلين استقامة فلو حفظ الانسان نفسه وترك النبى عليه الصلاة والسلام لهلك هو ايضا بخلاف العبد والسيد (الفائدة الثالثة) ان قوله تعالى لاترفعوا أصواتكم لما كان من جنس لاتجهروا لم يستأنف النداء ولما كان هو يخالف التقدم لكون احدهما فعلا والآخر قولا استأنف كما فى قول لقمان يابنى لاتشرك وقوله يابنى أقم الصلاة لكون الاول من عمل القلب والثانى من عمل الجوارح وقوله يابنى أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر من غير استئناف النداء لكون الكل من عمل الجوارح واعلم انا ان قلنا المراد من قوله لاترفعوا أصواتكم اى لاتكثروا الكلام فقوله ولاتجهروا يكون مجازا عن الاتيان بالكلام عند النبى صلى الله عليه وسلم بقدر مايؤتى به عند غيره اى لاتكثروا وقللوا غاية التقليل وكذلك ان قلنا المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله لاتجهروا اى لاتخاطبوه كما تخاطبون غيره وقوله تعالى ان تحبط اعمالكم فيه وجهان مشهوران (احدهما) لئلا تحبط (والثانى) كراهة ان تحبط وقد ذكرنا ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم ان تضلوا وامثاله ويحتمل ههنا وجها آخر وهو ان يقال معناه واتقوا الله واجتنبوا ان تحبط اعمالكم والدليل على هذا ان الاضمار لما لم يكن منه بد فادل عليه الكلام الذى هو فيه اولى ان يضمر والامر بالتقوى قد سبق فى قوله تعالى واتقوا واما المعنى فنقول قوله ان تحبط اشارة الى انكم ان رفعتم اصواتكم وتقدمتم تمكن منكم هذه الرذائل وتؤدى

(الى)

نهى عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فان ذلك كفر بل ماتوهم ان يؤدى اليه عما يجرى بينهم فى اثناء المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى كجهر بعضكم لبعض خلا ان رفع الصوت فوق صوته عليه الصلاة والسلام لما كان منكرا محضا لم يقيد بشئ ولا مايقع منهما فى حرب او مجادلة معاند او ارهاب عدو او نحو ذلك وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان فى اذنه وقر وكان جهورى الصوت وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته وعن انس رضى الله عنه انه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقده عليه الصلاة والسلام فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال يارسول الله لقد انزلت اليك هذه الآية وانى رجل جهير الصوت فأخاف ان يكون عملى قد حبط فقال له عليه الصلاة والسلام لست هناك انك تعيش بخير وتموت بخير وانك من اهل الجنة واما مايروى عن الحسن من انها نزلت فى بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون اصواتهم فوق صوته عليه الصلاة والسلام فقد قيل محمله ان نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدلالة النص (وانتم لاتشعرون) حال من فاعل تحبط اى والحال انكم لاتشعرون بحبوطها وفيه مزيد تحذير مما نهوا عنه وقوله تعالى

الى الاستحقار وانه يفضى الى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى وانتم لاتشعرون اشارة الى ان الردة تتمكن من النفس بحيث لايشعر الانسان فان من ارتكب ذنبا لم يرتكبه فى عمره تراه نادما غاية الندامة خائفا غاية الخوف فاذا ارتكبه مرارا يقل الخوف والندامة و يصير عادة من حيث لايعلم انه لايتمكن وهذا كان للتمكن فى المرة الاولى او الثانية او الثالثة او غيرها وهذا كما ان من بلغه خبر فانه لايقطع بقول المخبر فى المرة الاولى فاذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين و يتمكن الاعتقاد ولايدرى متى كان ذلك وعند اى خبر حصل هذا اليقين فقوله وانتم لاتشعرون تأكيد للمنع اى لاتقولوا بأن المرة الواحدة تعفى ولا توجب ردة لان الامر غير معلوم فاحسموا الباب وفيه بيان آخر وهو ان المكلف اذا لم يحترم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويجعل نفسه مثله فيما يأتى به بناء على امره يكون كما يأتى به بناء على امر نفسه لكن ماتأمر به النفس لايوجب الثواب وهو محبط حابط كذلك مايأتى به بغير امر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حينئذ حابط محبط والله اعلم واعلم ان الله تعالى لما امر المؤمنين باحترام النبى صلى الله عليه وسلم واكرامه وتقديمه على انفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى امر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة وان يكون ارأف بهم من الوالد كما قال واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وقال ولاتكن كصاحب الحوت الى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الاحرار بالقهر فيكون انقيادهم لوجه الله ۞ ثم قال تعالى (ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وفيه الحث على ما ارشدهم اليه من وجهين (احدهما) ظاهر لكل أحد وذلك فى قوله تعالى امتحن الله قلوبهم للتقوى و بيانه هو ان من يقدم نفسه و يرفع صوته يريد اكرام نفسه واحترام شخصه فقال تعالى ترك هذا الاحترام يحصل به حقيقة الاحترام و بالاعراض عن هذا الاكرام يكمل الاكرام لان به تتبين تقواكم وان اكرمكم عند الله اتقاكم ومن القبيح ان يدخل الانسان حماما فيتخير لنفسه فيه منصبا و يفوت بسببه منصبه عند السلطان ويعظم نفسه فى الخلاء والمستراح و بسببه يهون فى الجمع العظيم وقوله تعالى امتحن الله قلوبهم للتقوى فيه وجوه (احدها) امتحنها ليعلم منها التقوى فان من يعظم واحدا من ابناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل اعظم وخوفه منه اقوى وهذا كما فى قوله تعالى ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب اى تعظيم أوامر الله من تقوى الله فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه (الثانى) امتحن اى علم وعرف لان الامتحان تعرف الشئ فيجوز استعماله فى معناه وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة اى كائنة للتقوى كما يقول القائل انت لكذا اى صالح او كائن (الثالث) امتحن اى اخلص يقال للذهب ممتحن اى مخلص فى النار وهذه الوجوه كلها مذكورة و يحتمل ان يقال معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل وهو يحتمل وجهين

(ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله) الخ ترغيب فى الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الاخلال به اى يخفضونها مراعاة للادب او خشية من مخالفة النهى (اولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من تفخيم شأنه وهو مبتدأ خبره (الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) اى جربها للتقوى ومرنها عليها اوعرفها كائنة للتقوى خالصة لها فان الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمحذوف اوللفعل باعتبار الاصل اوضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لاجل التقوى فانها لاتظهر الا بالاصطبار عليها او اخلصها للتقوى من امتحن الذهب اذا أذابه وميز ابريزه من خبثه وعن عمر رضى الله عنه اذهب عنها الشهوات (لهم) فى الآخرة (مغفرة) عظيمة لذنوبهم (واجر عظيم) لايقادر قدره والجملة اما خبر آخر لان كالجملة المصدرة باسم الاشارة او استئناف لبيان جزائهم احمادا لحالهم وتعريضا بسوء حال من ليس مثلهم (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) اى من خارجها من خلفها اوقدامها

(احدهما) ان يكون تعليلا يجرى مجرى بيان السبب المتقدم كما يقول القائل جئتك لاكرامك لى امس اى صار ذلك السابق سبب المجئ (وثانيها) ان يكون تعليلا يجرى مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذى يكون لاحقا لا سابقا كما يقول القائل جئتك لاداء الواجب فان قلنا بالاول فتحقيقه هو ان الله علم ما فى قلوبهم من تقواه وامتحن قلوبهم للتقوى التى كانت فيها ولولا ان قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما امرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على انفسهم بل كان يقول لهم آمنوا برسولى ولا تؤذوه ولا تكذبوه فان الكافر اول ما يؤمر من يؤمن بالاعتراف بكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صادقا وبين من قيل له لا تستهزئ برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذه وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزنا بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه بون عظيم واعلم ان بقدر تقديمك للنبى عليه الصلاة والسلام على نفسك فى الدنيا يكون تقديم النبى عليه الصلاة والسلام اياك فى العقبى فانه لا يدخل احد الجنة مالم يدخل الله امته المتقين الجنة وان قلنا بالثانى فتحقيقه هو ان الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى اى ليرزقهم الله التقوى التى هى حق التقاة وهى التى لا تخشى مع خشية الله احدا فتراه آمنا من كل مخيف لا يخاف فى الدنيا بخسا ولا يخاف فى الآخرة نحسا والناظر العاقل اذا علم ان بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان ويتجنب الاراذل ينجوا من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة فكذلك العالم لو امعن النظر لعلم ان بخشية الله النجاة فى الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التى يحرس بها نفسه فى الدنيا والآخرة ❁ ثم قال تعالى (لهم مغفرة واجر عظيم) وقد ذكرنا ان المغفرة ازالة السيئات التى هى فى الدنيا لازمة للنفس والاجر العظيم اشارة الى الحياة التى هى بعد مفارقة الدنيا عن النفس فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية ❁ ثم قال تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون) بيانا لحال من كان فى مقابلة من تقدم فان الاول غض صوته والآخر رفعه وفيه اشارة الى انه ترك لادب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه واما قول القائل للملك يافلان من سوء الادب فان قلت كل احد يقول يا الله مع ان الله اكبر نقول النداء على قسمين (احدهما) لتنبيه المنادى (وثانيهما) لاظهار حاجة المنادى (مثال الاول) قول القائل لرفيقه او غلامه يافلان (ومثال الثانى) قول القائل فى الندبة ياامير المؤمنناه اويازيداه ولقائل ان يقول ان كان زيد بالمشرق لا تنبيه فانه محال فكيف يناديه وهو ميت فنقول قولنا يا الله لاظهار حاجة الانفس لا لتنبيه المنادى وانما كان فى النداء الامران جميعا لان المنادى لا ينادى الا لحاجة فى نفسه يعرضها ولا ينادى فى الاكثر الا معرضا او غافلا فحصل فى النداء الامران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء ادب واما قول احدنا للكبير ياسيدى ويامولاى فهو جار مجرى الوصف والاخبار (الثانى) النداء من وراء الحجرات فان من ينادى غيره

ومن ابتدائية دالة على ان المناداة نشأت من جهة الوراء وان المنادى داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدأ والمنتهى بحسب الجهة بخلاف مالو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرئ الحجرات بفتح الجيم وبسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهى القطعة من الارض المحجورة بالحائط ولذلك يقال لحظيرة الابل حجرة وهى فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد بها حجرات امهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها اما بأنهم اتوها حجرة حجرة فنادوه عليه الصلاة والسلام من ورائها او بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فأسند فعل الابعاض الى الكل وقد جوز ان يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التى كان عليه الصلاة والسلام فيها ولكنها جمعت اجلالا له عليه الصلاة والسلام وقيل ان الذى ناداه عيينة بن حصن الفزارى والاقرع ابن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بنى تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج الينا وانما اسند

ولاحائل بينهما لايكلفه المشى والمجئ بل يجيبه من مكانه ويكلمه ولايطلب المنادى الاالتفات المنادى اليه ومن ينادى غيره من وراء الحائل فكأنه يريد منه حضوره كمن ينادى صاحب البستان من خارج البستان (الثالث) قوله الحجرات اشارة الى كون النبى صلى الله عليه وسلم فى خلوته التى لايحسن فى الادب اتيان المحتاج اليه فى حاجته فى ذلك الوقت بل الاحسن التأخير وان كان فى ورطة الحاجة وقوله تعالى اكثرهم لا يعقلون فيه بيان المعايب بقدر مافى سوء ادبهم من القبائح وذلك لان الكلام من خواص الانسان وهو اعلى مرتبة من غيره وليس لمن دونه كلام لكن النداء فى المعنى كالتنبيه وقد يحصل بصوت بضرب شئ على شئ وفى الحيوانات العجم مايظهر لكل أحد كالنداء فان الشاة تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات والسخلة كذلك فكان النداء حصل فى المعنى لغير الآدمى فقال الله تعالى فى حقهم اكثرهم لايعقلون يعنى النداء الصادر منهم لما لم يكن مقرونا بحسن الادب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان وقوله تعالى أكثرهم فيه وجهان (احدهما) ان العرب تذكر الاكثر وتريد الكل وانما تأتى بالاكثر احترازا عن الكذب واحتياطا فى الكلام لان الكذب مما يحبط به عمل الانسان فى بعض الاشياء فيقول الاكثر وفى اعتقاده الكل ثم ان الله تعالى مع احاطة علمه بالامور أتى بما ناسب كلامهم وفيه اشارة الى لطيفة وهى ان الله تعالى يقول انا مع احاطة علمى بكل شئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة وهى الاحتراز عن الكذب فلاتتركوها واجعلوا اختيارى ذلك فى كلامى دليلا قاطعا على رضائى بذلك (وثانيهما) ان يكون المراد انهم فى اكثر احوالهم لايعقلون وتحقيق هذا هو ان الانسان اذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الاول غير المجموع الثانى مثاله الانسان يكون جاهلا وفقيرا فيصير عالما او غنيا فيقال فى العرف زيد ليس هو الذى رأيته من قبل بل الآن على احسن حال فيجعله كأنه ليس ذلك اشارة الى ماذكرنا اذا علم هذا فهم فى بعض الاحوال اذا اعتبرتهم مع تلك الحالة مغايرون لانفسهم اذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى اكثرهم اشارة الى ماذكرناه وفيه وجه ثالث وهو ان يقال لعل منهم من رجع عن تلك الاهواء ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال اكثرهم اخراجا لمن ندم منهم عنهم * ثم قال تعالى (ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) اشارة الى حسن الادب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الادب فانهم لو صبروا لما احتاجوا الى النداء واذا كنت تخرج اليهم فلا يصح اتيانهم فى وقت اختلائك بنفسك او بأهلك او بربك فان للنفس حقا وللاهل حقا وقوله تعالى لكان خيرا لهم يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد ان ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى خير مستقرا (وثانيهما) ان يكون المراد هو ان بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة فى الحال وهو مطلوب ولكن المحافظة على حرمة النبى صلى الله عليه وسلم خير من ذلك لانها

النداء الى الكل لانهم رضوا بذلك اوامروا به اولانه وجد فيما بينهم (اكثرهم لايعقلون) اذلو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الادب (ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم) اى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج اليهم فان ان وان دلت بما فى حيزها على المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبوت للفرق البين بين قولك بلغنى قيامك وبلغنى انك قائم وحتى تفيد ان الصبر ينبغى ان يكون مغيى بخروجه عليه الصلاة والسلام فانها مختصة بما هو غاية للشئ فى نفسه ولذلك تقول أكلت السمكة حتى رأسها ولا تقول حتى نصفها او ثلثها بخلاف الى فانها عامة وفى اليهم اشعار بأنه لو خرج لالاجلهم ينبغى ان يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام او يتوجه اليهم (لكان) اى الصبر المذكور (خيرا لهم) من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الادب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب والاسعاف بالمسؤل اذروى انهم وفدوا شافعين فى اسارى بنى العنبر فاطلق النصف وفادى النصف (والله غفور رحيم)

تدفع الحاجة الاصلية التى فى الآخرة وحاجات الدنيا فضلية والمرفوع الذى يقتضيه كلمة كان اما الصبر وتقديره لو انهم صبروا لكان الصبر خيرا او الخروج من غير نداء وتقديره لو صبروا حتى تخرج اليهم لكان خروجك من غير نداء خيرا لهم وذلك مناسب للحكاية لانهم طلبوا اخروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم فخرج واعتق نصفهم واخذوا نصفهم ولو صبروا لكان يعتق كلهم والاول اصح ۞ ثم قال تعالى (والله غفور رحيم) تحقيقا الامرين (احدهما) لسوء صنيعهم فى التعجل فان الانسان اذا اتى بقبيح ولا يعاقبه الملك او السيد يقال ما احلم سيده لا لبيان حلمه بل لبيان عظيم جناية العبد (وثانيهما) لحسن الصبر يعنى بسبب اتيانهم بما هو خير يغفر الله لهم سيآتهم ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيآت كما يقال للآبق اذا رجع الى باب سيده احسنت فى رجوعك وسيدك رحيم أى لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك بسبب ما اتيت به من الحسنة ويمكن ان يقال بان ذلك حث للنبى صلى الله عليه وسلم على الصفح وقوله تعالى أكثرهم لا يعقلون كالعذر لهم وقد ذكرنا ان الله تعالى ذكر فى بعض المواضع الغفران قبل الرحمة كما فى هذه السورة وذكر الرحمة قبل المغفرة فى سورة سبأ فى قوله وهو الرحيم الغفور فحيث قال غفور رحيم أى يغفر سيآته ثم ينظر اليه فيراه عاريا محتاجا فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغمورا فى السيآت فيغفر سيآته ثم يرحمه بعد المغفرة فتارة تقع الاشارة الى الرحمة التى بعد المغفرة فيقدم المغفرة وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) هذه السورة فيها ارشاد المؤمنين الى مكارم الاخلاق وهى اما مع الله تعالى او مع الرسول صلى الله عليه وسلم او مع غيرهما من ابناء الجنس وهم على صنفين لانهم اما ان يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين فى رتبة الطاعة او خارجا عنها وهو الفاسق والداخل فى طائفتهم السالك لطريقتهم اما ان يكون حاضرا عندهم او غائبا عنهم فهذه خمسة اقسام (احدها) يتعلق بجانب الله (وثانيها) بجانب الرسول (وثالثها) بجانب الفساق (ورابعها) بالمؤمن الحاضر (وخامسها) بالمؤمن الغائب فذكر الله تعالى فى هذه السورة خمس مرات يا أيها الذين آمنوا وارشد فى كل مرة مكرمة مع قسم من الاقسام الخمس فقال اولا يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لانها لا تعلم الا بقول رسول الله وقال ثانيا يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى لبيان وجوب احترام النبى صلى الله عليه وسلم وقال ثالثا يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على اقوالهم فانهم يريدون القاء الفتنة بينكم وبين ذلك عند تفسير قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وقال رابعا يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم وقال ولا تنابزوا لبيان وجوب ترك ايذاء المؤمنين فى حضورهم

بلغ المغفرة والرحمة واسعهما فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء ان تابوا واصلحوا (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) اى فتعرفوا وتفحصوا روى انه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة اخا عثمان رضى الله عنه لامه مصدقا الى بنى المصطلق وكان بينه وبينهم احنة فلما سمعوا به استقبلوه فحسب انهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم عليه الصلاة والسلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث اليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا اليه الصدقات فرجع وفى ترتيب الامر بالتبين على فسق المخبر اشارة الى قبول خبر الواحد العدل فى بعض المواد وقرئ فتثبتوا اى توقفوا الى ان يتبين لكم الحال (ان تصيبوا) حذار ان تصيبوا (قوما بجهالة) ملتبسين بجهالة حالهم (فتصبحوا) بعد ظهور براءتهم عما اسند اليهم (على ما فعلتم) فى حقهم (نادمين) مغتمين غما لازما متمنين انه لم يقع فان تركيب هذه الاحرف الثلاثة يدور مع الدوام (واعلموا ان فيكم رسول الله)

(والازدراء)

والازدراء بحالهم ومنصبهم وقال خامسا يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وقال ولا تجسسوا وقال ولا يغتب بعضكم بعضا لبيان وجوب الاحتراز عن اهانة جانب المؤمن حال غيبته وذكر مالو كان حاضر التأذى وهو فى غاية الحسن من الترتيب فان قيل لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب مندرجة الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم بالفاسق نقول قدم الله ماهو الاهم على مادونه فذكر جانب الله ثم ذكر جانب الرسول ثم ذكر مايفضى الى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الاصغاء الى كلام الفاسق والاعتماد عليه فانه يذكر كل ماكان اشد نفارا للصدور واما المؤمن الحاضر او الغائب فلا يؤذى المؤمن الى حد يفضى الى التقاتل ألا ترى ان الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال فقال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) فى سبب نزول هذه الآية وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة وهو اخو عثمان لامه بنى المصطلق واليا ومصدقا فالتقوه فظنهم مقاتلين فرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال انهم امتنعوا ومنعوا فهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالايقاع بهم فنزلت هذه الآية واخبر النبى صلى الله عليه وسلم بانهم لم يفعلوا من ذلك شيئا وهذا جيد ان قالوا بان الآية نزلت فى ذلك الوقت واما ان قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصرا عليه ومتعديا الى غيره فلا بل نقول هو نزل عاما لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق ويدل على ضعف قول من يقول انها نزلت لكذا ان الله تعالى لم يقل انى انزلتها لكذا والنبى صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه انه بين ان الآية وردت لبيان ذلك فحسب غاية مافى الباب انها نزلت فى ذلك الوقت وهو مثل التاريخ لنزول الآية ونحن نصدق ذلك ويتأكد ماذكرنا ان اطلاق لفظ الفاسق على الوليد شئ بعيد لانه توهم وظن فاخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقا وكيف والفاسق فى اكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الايمان لقوله تعالى ان الله لا يهدى القوم الفاسقين وقوله تعالى ففسق عن امر ربه وقوله تعالى واما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها الى غير ذلك (المسئلة الثانية) قوله تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ اشارة الى لطيفة وهى ان المؤمن كان موصوفا بأنه شديد على الكافر غليظ عليه فلا يتمكن الفاسق من ان يخبره بنبأ فان تمكن منه يكون نادرا فقال ان جاءكم بحرف الشرط الذى لا يذكر الامع التوقع اذ لا يحسن ان يقال ان احمر البسر وان طلعت الشمس (المسئلة الثالثة) النكرة فى معرض الشرط تعم اذا كانت فى جانب الثبوت كما انها تعم فى الاخبار اذا كانت فى جانب النفى وتخص فى معرض الشرط اذا كانت فى جانب النفى كما تخص فى الاخبار اذا كانت فى جانب الثبوت فلنذكر بيانه بالمثال وذليله اما بيانه بالمثال فنقول اذا قال قائل لعبده ان كلمت رجلا فأنت حر فيكون كأنه قال لا اكلم رجلا حتى يعتق بتكلم كل رجل واذا قال ان لم اكلم اليوم رجلا فأنت حر يكون كأنه قال لا اكلم اليوم رجلا حتى لا يعتق العبد بترك كلام كل رجل كما لا يظهر الحلف

ن ما فى حيزها ساد مسد مفعولى اعلموا باعتبار مابعده من قوله تعالى (لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم) فانه حال من احد الضميرين فى فيكم والمعنى ان فيكم رسول الله كائنا على حالة يجب عليكم تغييرها او كائنين على حالة الخ وهى انكم تريدون ان يتبع عليه الصلاة والسلام رأيكم فى كثير من الحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهد والهلاك وفيه ايذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الايقاع لبنى المصطلق تصديقا لقول الوليد وانه عليه الصلاة والسلام لم يطع رأيهم واما صيغة المضارع فقد قيل انها للدلالة على ان امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم لان عنتهم انما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الامور اذ فيه اختلال امر الايالة وانقلاب الرئيس مرؤسا لا من اطاعته فى بعض مايرونه نادرا بل فيها استمالتهم بلا معرة وقيل انها للدلالة على ان امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته عليه الصلاة والسلام لهم فى ذلك فان المضارع المنفى قد يدل على استمرار

فى كلامه بكلام كل رجل اذا ترك الكلام مع رجل واحد واما الدليل فلان النظر اولا الى جانب الاثبات ألا ترى انه من غير حرف لما ان الوضع للاثبات والنفى بحرف فقول القائل زيد قائم وضع اولا ولم يحتج الى ان يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد وفى جانب النفى احتجنا الى ان نقول زيد ليس بقائم ولو كان الوضع والتركيب اولا للنفى لما احتجنا الى الحرف الزائد اقتصارا او اختصارا واذا كان كذلك فقول القائل رأيت رجلا يكفى فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد فاذا قلت ما رأيت رجلا وهو وضع لمقابلة قوله رأيت رجلا وركب لتلك المقابلة والمتقابلان ينبغى ان لا يصدقا فقول القائل ما رأيت رجلا لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا رأيت رجلا وما رأيت رجلا فلا يكونان متقابلين فيلزمنا من الاصطلاح الاول الاصطلاح الثانى ولزم منه العموم فى جانب النفى اذا علم هذا فنقول الشرطية وضعت اولا ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو فى مقابلة الجزمية وكان قول القائل اذا لم تكن أنت حرا ما كلمت رجلا يرجع الى معنى النفى وكما علم عموم القول فى الفاسق علم عمومه فى النبأ فعناه اى فاسق جاءكم بأى نبأ فالتثبت فيه واجب (المسئلة الرابعة) متمسك اصحابنا فى ان خبر الواحد حجة وشهادة الفاسق لا تقبل اما فى المسئلة الاولى فقالوا علل الامر بالتوقف بكونه فاسقا ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان للترتيب على الفاسق فائدة وهو من باب التمسك بالمفهوم واما فى الثانية فلوجهين (احدهما) امر بالتبين فلو قبل قوله لما كان الحاكم مأمورا بالتبين فلم يكن قول الفاسق مقبولا ثم ان الله تعالى امر بالتبين فى الخبر والنبأ وباب الشهادة اضيق من باب الخبر (والثانى) هو انه تعالى قال ان تصيبوا قوما بجهالة والجهل فوق الخطأ لان المجتهد اذا اخطأ لا يسمى جاهلا والذى يبنى الحكم على قول الفاسق ان لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزا (المسئلة الخامسة) ان تصيبوا ذكرنا فيها وجهين (احدهما) مذهب الكوفيين وهو ان المراد لئلا تصيبوا (وثانيهما) مذهب البصريين وهو ان المراد كراهة ان تصيبوا ويحتمل ان يقال المراد فتبينوا واتقوا وقوله تعالى ان تصيبوا قوما بين ما ذكرنا ان بقول الفاسق تظهر الفتن بين اقوام ولا كذلك بالالفاظ المؤذية فى الوجه والغيبة الصادرة من المؤمنين لان المؤمن يمنعه دينه من الافحاش والمبالغة فى الايحاش وقوله بجهالة فى تقدير حال اى ان تصيبوهم جاهلين وفيه لطيفة وهو ان الاصابة تستعمل فى السيئة والحسنة كما فى قوله تعالى ما اصابك من حسنة فمن الله لكن الاكثر انها تستعمل فيما يسوء لكن الظن السوء يذكر معه كما فى قوله تعالى وان تصبهم سيئة ثم حقق ذلك بقوله فتصبحوا على ما فعلتم نادمين بيانا لان الجاهل لابد من ان يكون على فعله نادما وقوله فتصبحوا معناه تصيروا قال النحاة اصبح يستعمل على ثلاثة اوجه (احدها) بمعنى دخول الرجل فى الصباح كما يقول القائل اصبحنا نقضى عليه (وثانيها) بمعنى كان الامر وقت الصباح كذا وكذا كما يقال اصبح اليوم مريضنا خيرا مما كان غير انه تغير ضحوة النهار ويريد كونه فى الصبح على حاله كانه يقول كان

النفى بحسب المقام كما فى نظائر قوله تعالى ولاهم يحزنون والتحقيق ان الاستمرار الذى تفيده صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة الى ما يتعلق بالفعل من الامور الزمانية المتجددة وذلك بأن يعتبر الاستمرار فى نفس الفعل على الابهام ثم يعتبر تعلق ما يتعلق به بيانا لما فيه الاستمرار واخرى بالنسبة الى ما يتعلق به من نفس الزمان المتجدد وذلك اذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به اولا ثم اعتبر استمراره فيتعين ان يكون ذلك بحسب الزمان فان اريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجددها بحسب تجدد مواقعها الكثيرة التى يفصح عنها قوله تعالى فى كثير من الامر فالحق هو الاول ضرورة ان مدار امتناع العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة فى امر ما من تلك الامور الكثيرة اصلا او بعدم وقوعها فى كلها مع وقوعها فى بعض يسير منها حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر من كثير من الامر فى وقت من الاوقات وقع العنت قطعا وان اريد به استمرار الطاعة الواقعة

المريض وقت الصبح خيرا و تغير ضحوة النهار (ثالثها) بمعنى صار يقول القائل اصبح زيد غنيا و يريد به صار من غير ارادة وقت دون وقت والمراد ههنا هو المعنى الثالث و كذلك امسى و اضحى و لكن لهذا تحقيق و هو ان نقول لابد فى اختلاف الالفاظ من اختلاف المعانى واختلاف الفوائد فنقول الصيرورة قد تكون من ابتداء امر و تدوم و قد تكون فى آخر الامر بمعنى آل الامر اليه و قد تكون متوسطة (مثال الاول) قول القائل صار الطفل فاهما اى اخذ فيه و هو فى الزيادة (مثال الثانى) قول القائل صار الحق بينا واجبا اى انتهى حده و اخذ حقه (مثال الثالث) قول القائل صار زيد عالما و قويا اذا لم يرد اخذه فيه و لا بلوغه نهايته بل كونه متلبسا به متصفا به اذا علمت هذا فاصل استعمال اصبح فيما يصير الشئ آخذا فى وصف و مبتدئا فى امر و اصل امسى فيما يصير الشئ بالغا فى الوصف نهايته و اصل اضحى التوسط لا يقال اهل الاستعمال لا يفرقون بين الامور و يستعملون الالفاظ الثلاثة بمعنى واحد نقول اذا تقاربت المعانى جاز الاستعمال و جواز الاستعمال لا ينافى الاصل و كثير من الالفاظ اصله مضى و استعمل استعمالا شائعا فيما لا يشاركه اذا علم هذا فنقول قوله تعالى فتصبحوا اى فتصيروا آخذين فى الندم متلبسين به ثم تستديمونه و كذلك فى قوله تعالى فأصبحتم بنعمته اخوانا اى اخذتم فى الاخوة و انتم فيها زائدون و مستمرون و فى الجملة اختار فى القرآن هذه اللفظة لان الامر المقرون به هذه اللفظة اما فى الثواب او فى العقاب و كلاهما فى الزيادة و لا نهاية للامور الالهية و قوله تعالى نادمين الندم هم دائم و النون و الدال و الميم فى تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام كما فى قول القائل ادمن فى الشرب و مدمن اى اقام و منه المدينة و قوله تعالى فتصبحوا على ما فعلتم نادمين فيه فائدتان (احداهما) تقرير التحذير و تأكيده و وجهه هو انه تعالى لما قال ان تصيبوا قوما بجهالة قال بعده و ليس ذلك مما لا يلتفت اليه و لا يجوز للعاقل ان يقول هب انى اصبت قوما فماذا على بل عليكم منه الهم الدائم و الحزن المقيم و مثل هذا الشئ واجب الاحتراز منه (والثانية) مدح المؤمنين اى لستم ممن اذا فعلوا سيئة لا يلتفتون اليها بل تصبحون نادمين عليها * ثم قال تعالى (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم و لكن الله حبب اليكم الايمان و زينه فى قلوبكم و كره اليكم الكفر و الفسوق و العصيان) و لنذكر فى تفسير هذه الآية ما قيل و ما يجوز ان يقال اما ما قيل فلنختر احسنه و هو ما اختاره الزمخشرى فانه بحث فى تفسير هذه الآية بحثا طويلا فقال قوله تعالى لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ليس كلاما مستأنفا لادائه الى تنافر النظم اذ لا تبقى مناسبة بين قوله و اعلموا و بين قوله لو يطيعكم ثم وجه التعلق هو ان قوله لو يطيعكم فى تقدير حال من الضمير المرفوع فى قوله فيكم كأن التقدير كائن فيكم او موجود فيكم على حال تريدون ان يطيعكم او يفعل باستصوابكم و لا ينبغى ان يكون على تلك الحال لانه لو فعل ذلك لعنتم او وقعتم فى شدة او أثمتم ثم قال تعالى و لكن الله حبب اليكم الايمان

فى الكل وتجددها بحسب تجدد الزمان واستمراره فالحق هو الثانى فان مناط امتناع العنت حينئذ ليس امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة انه موجب لوقوع العنت بل هو الاستمرار الزمانى لامتناع تلك الطاعة الواقعة فى تلك الامور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعها بان وقعت تلك الطاعة فى وقت من الاوقات وقع العنت حتما واعلم ان الاحق بالاختيار والاولى بالاعتبار هو الوجه الاول لانه اوفق بالقياس المقتضى لاعتبار الامتناع واردا على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للاول على صيغة المضارع المفيدة للثانى على ان اعتبار الاستمرار واردا على النفى على خلاف القياس بمعونة المقام انما يصار اليه اذا تعذر الجريان على موجب القياس او لم يكن فيه مزيد مزية كما فى مثل قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفى الحزن عنهم اذ ليس

خطابا مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله لو يطيعكم قال الزمخشرى اكتفى بالتغاير فى الصفة واختصر ولم يقل حبب الى بعضكم الايمان وقال ايضا بان قوله تعالى لو يطيعكم دون اطاعكم يدل على انهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ودوام النبى صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ولكن يكون مابعدها على خلاف ماقبلها وههنا كذلك وان لم تحصل المخالفة بصريح اللفظ لان اختلاف المخاطبين فى الوصف يدلنا على ذلك لان المخاطبين اولا بقوله لو يطيعكم هم الذين ارادوا ان يكون النبى صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم والمخاطبين بقوله حبب اليكم الايمان هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبى صلى الله عليه وسلم هذا ماقاله الزمخشرى واختاره وهو حسن والذى يجوز ان يقال وكأنه هو الاقوى ان الله تعالى لما قال ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا اى فتثبتوا واكشفوا قال بعده واعلموا ان فيكم رسول الله اى الكشف سهل عليكم بالرجوع الى النبى صلى الله عليه وسلم فانه فيكم مبين مرشد وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسئلة هذا الشيخ قاعد لايريد به بيان قعوده وانما يريد امرهم بالمراجعة اليه وذلك لان المراد منه انه لايطيعكم فى كثير من الامر وذلك لان الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لاتطمئن قلوبهم بالرجوع اليه اما اذا كان لايذكر الا من النقل الصحيح ويقرره بالدليل القوى يراجعه كل احد فكذلك ههنا قال استرشدوه فانه يعلم ولا يطيع احدا فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف والذى يدل على ان المراد من قوله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم بيان انه لايطيعكم هو ان الجملة الشرطية فى كثير من المواضع ترد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء كما فى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فانه لبيان انه ليس فيهما آلهة وانه ليس من عند غير الله ثم قال تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم اشارة الى جواب سؤال يرد على قوله فتبينوا وهو ان يقع لواحد ان يقول انه لاحاجة الى المراجعة وعقولنا كافية بها ادركنا الايمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد فى امورنا فقال ليس ادراك الايمان بالاجتهاد بل الله بين البرهان وزين الايمان حتى حصل اليقين وبعد حصول اليقين لايجوز التوقف والله انما امركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق وما امركم بالعناد بعد ظهور البرهان فكأنه تعالى قال توقفوا فيما يكون مشكوكا فيه لكن الايمان حببه اليكم بالبرهان فلا توقفوا فى قبوله وعلى قولنا المخاطب بقوله حبب اليكم هو المخاطب بقوله لو يطيعكم اذا علمت معنى الآية جملة فاسمعه مفصلا ولنفصله فى مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل اذا كان المراد بقوله واعلموا ان فيكم رسول الله الرجوع اليه والاعتماد على قوله فلم لم يقل بصريح اللفظ فتبينوا وراجعوا النبى صلى الله عليه وسلم وما الفائدة فى العدول الى هذا المجاز نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لان قول القائل فيما ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعدآكد فى وجوب المراجعة اليه من قوله

فى نفى استمرار الحزن مزيد فائدة واما اذا انتظم الكلام مع مراعاة موجب القياس حق الانتظام فالعدول عنه تمحل لايخفى وقوله تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان) الخ تجريد للخطاب وتوجيه له الى بعضهم بطريق الاستدراك بيانا لبراءتهم عن اوصاف الاولين واحمادا لافعالهم اى ولكنه تعالى جعل الايمان محبوبا لديكم (وزينه فى قلوبكم) حتى رسخ حبه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الاقوال والافعال (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) ولذلك اجتنبتم عما يليق بها مما لاخير فيه من آثارها واحكامها ولما كان فى التحبيب والتكريه معنى انهاء المحبة والكراهة وايصالهما اليهم استعملا بكلمة الى وقيل هو استدراك ببيان عذر الاولين كأنه قيل لم يكن ماصدر عنكم فى حق بنى المصطلق من خلل فى عقيدتكم بل من فرط حبكم للايمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والاول هو الاظهر لقوله تعالى

راجعوا شيخكم وذلك لان القائل يجعل وجوب المراجعة اليه متفقا عليه ويجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده فكأنه يقول انكم لاتشكون فى ان الكاشف هو الشيخ وان الواجب مراجعته فان كنتم لاتعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة اظهر من امر القعود كأنه يقول خفى عليكم قعوده فتركتم مراجعته ولايخفى عليكم حسن مراجعته فيجعل حسن المراجعة اظهر من الامر الحسى بخلاف مالو قال راجعوه لانه حينئذ يكون قائلا بانكم ماعلمتم ان مراجعته هو الطريق وبين الكلامين بون بعيد فكذلك قوله تعالى واعلموا ان فيكم رسول الله يعنى لايخفى عليكم وجوب مراجعته فان كان خفى عليكم كونه فيكم فاعلموا انه فيكم فيجعل حسن المراجعة اظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه واخذ فى بيان كونه فيهم وهذا من المعانى العزيزة التى توجد فى المجازات ولاتوجد فى الصرائح (المسئلة الثانية) اذا كان المراد من قوله لو يطيعكم بيان كونه غير مطيع لاحد بل هو متبع للوحى فلم لم يصرح به نقول بيان نفى الشئ مع بيان دليل النفى اتم من بيانه من غير دليل والجملة الشرطية بيان النفى مع بيان دليله فان قوله ليس فيهما آلهة لو قال قائل لم قلت انه ليس فيهما آلهة يجب ان يذكر الدليل فقال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكذلك ههنا لو قال لايطيعكم وقال قائل لم لايطيع لوجب ان يقال لو اطاعكم لاطاعكم لاجل مصلحتكم لكن لامصلحة لكم فيه لانكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم كما قال تعالى عزيز عليه ماعنتم فان طاعتكم لاتفيده شيئا فلا يطيعكم فهذا نفى الطاعة بالدليل وبين نفى الشئ بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم (المسئلة الثالثة) قال فى كثير من الامر ليعلم انه قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقا لفائدة قوله تعالى وشاورهم فى الامر (المسئلة الرابعة) اذا كان المراد بقوله تعالى حبب اليكم الايمان فلا تتوقفوا فلم لم يصرح به قلنا لما بيناه من الاشارة الى ظهور الامر يعنى أنتم تعلمون ان اليقين لايتوقف فيه اذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف الى بلوغ تلك المرتبة لان من بلغ الى درجة الظن فانه يتوقف الى ان يبلغ درجة اليقين فلما كان عدم التوقف فى اليقين معلوما متفقا عليه لم يقل فلا تتوقفوا بل قال حبب اليكم الايمان اى بينه وزينه بالبرهان اليقينى (المسئلة الخامسة) ما المعنى فى قوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم نقول قوله تعالى حبب اليكم اى قربه اليكم وادخله فى قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لاتفارقونه ولايخرج من قلوبكم وهذا لان من يحب اشياء فقد يمل شيئا منها اذا حصل عنده وطال لبثه والايمان كل يوم يزداد حسنا ولكن من كانت عبادته اكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم تكون العبادة والتكليف عنده الذ واكمل ولهذا قال فى الاول حبب اليكم وقال ثانيا زينه فى قلوبكم كأنه قربه اليهم ثم اقامه فى قلوبهم (المسئلة السادسة) ما الفرق بين الامور الثلاثة وهى الكفر والفسوق والعصيان فنقول هذه امور ثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل لان الايمان الكامل المزين

(أولئك هم الراشدون) اى السالكون الى الطريق السوى الموصل الى الحق والالتفات الى الغيبة كالذى فى قوله تعالى وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (فضلا من الله ونعمة) اى وانعاما تعليل لما حبب او كره ومابينهما اعتراض وقيل نصبهما بفعل مضمر اى جرى ذلك فضلا وقيل يبتغون فضلا (والله عليم) مبالغ فى العلم فيعلم احوال المؤمنين ومابينهم من التفاضل (حكيم) يفعل كل مايفعل بموجب الحكمة (وان

هو ان يجمع التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان (احدها) قوله تعالى وكره اليكم الكفر وهو التكذيب فى مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب (وثانيها) هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ سمى من كذب فاسقا فيكون الكذب فسوقا (وثالثها) ماذكره بعد هذه الآية وهو قوله تعالى بئس الاسم الفسوق بعد الايمان فانه يدل على ان الفسوق امر قولى لاقترانه بالاسم وسنبين تفسيره ان شاء الله تعالى (ورابعها) وجه معقول وهو ان الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ماعلم فى قول القائل فسقت الرطبة اذا خرجت وغير ذلك لان الفسوق هو الخروج زيد فى الاستعمال كونه الخروج من الطاعة لكن الخروج لايكون له ظهور بالامر القلبى اذ لااطلاع على مافى القلوب لأحد الا الله تعالى ولايظهر بالافعال لان الامر قد يترك اما لنسيان او سهو فلايعلم حال التارك والمرتكب انه مخطئ او متعمد واما الكلام فانه حصول العلم بما عليه حال المتكلم فالدخول فى الايمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالامر القولى أقرب واما العصيان فترك الامر وهو بالفعل اليق فاذا علم هذا ففيه ترتيب فى غاية الحسن وهو انه تعالى كره اليكم الكفر وهو الامر الاعظم كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثم قال تعالى والفسوق يعنى مايظهر لسانكم ايضا ثم قال والعصيان وهو دون الكل ولم يترك عليكم الامر الادنى وهو العصيان وقال بعض الناس الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة وماذكرناه أقوى ❊ ثم قال تعالى (اولئك هم الراشدون) خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى فى اول الامر قال واعلموا ان فيكم رسول الله اى هو مرشدلكم فخطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين فقال فى الاول كفى النبى مرشدا لكم ماتسترشدونه فاشفق عليهم وارشدهم وعلى هذا قوله الراشدون اى الموافقون للرشد يأخذون مايأتيهم وينتهون عما نهاهم ❊ ثم قال تعالى (فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) نصب فضلا لاجل امور اما لكونه مفعولا له وفيه وجهان (احدهما) ان العامل فيه هو الفعل الذى فى قوله الراشدون فان قيل كيف يجوز ان يكون فضل الله الذى هو فعل الله مفعولا له بالنسبة الى الرشد الذى هو فعل العبد نقول لما كان الرشد توفيقا من الله كان كأنه فعل الله فكأنه تعالى ارشدهم فضلا اى يكون متفضلا عليهم منعما فى حقهم (الوجه الثانى) هو ان العامل فيه هو قوله حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر فضلا وقوله اولئك هم الراشدون جملة اعترضت بين الكلامين او يكون العامل فعلا مقدرا فكأنه قال تعالى جرى ذلك فضلا من الله واما لكونه مصدرا وفيه وجهان (احدهما) ان يكون مصدرًا من غير اللفظ ولان الرشد فضل فكأنه قال اولئك هم الراشدون رشدا (وثانيهما) هو ان يكون مصدرا لفعل مضمر كأنه قال حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر فأفضل فضلا وانعم نعمة والقول بكونه

طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) اى تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء الى حكم الله تعالى (فان بغت) اى تعدت (احداهما على الاخرى) ولم تتأثر بالنصيحة (فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ) اى ترجع (الى امر الله) الى حكمه او الى ما امر به (فان فاءت) اليه واقلعت عن القتال حذرا من قتالكم (فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما عسى

(منصوبا)

منصوبا على انه مفعول مطلق وهو المصدر او مفعول له قول الزمخشرى واما ان يكون فضلا مفعولا به والفعل مضمرا دل عليه قوله تعالى أولئك هم الراشدون أى يبتغون فضلا من الله ونعمة (المسئلة الثانية) ما الفرق بين الفضل والنعمة فى الآية نقول فضل الله اشارة الى ماعنده من الخير وهو مستغن عنه والنعمة اشارة الى مايصل الى العبد وهو محتاج اليه لان الفضل فى الاصل ينبئ عن الزيادة وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة اليها ويرسل منها على عباده مالا يبقون معه فى ورطة الحاجة بوجه من الوجوه والنعمة تنبئ عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الاعطاء وذلك لان المحتاج يقول للغنى اعطنى مافضل عنك وعندك وذلك غير ملتفت اليه وأنا به قيامى وبقائى فاذا قوله فضلا من الله اشارة الى ماهو من جانب الله الغنى والنعمة اشارة الى ماهو من جانب العبد من اندفاع الحاجة وهذا مما يؤكد قولنا فضلا منصوب بفعل مضمر وهو الابتغاء والطلب (المسئلة الثالثة) ختم الآية بقوله والله عليم حكيم فيه مناسبات عدة (منها) انه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق قال ان يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور فان الله عليم ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول فان الله حكيم لا يفعل الا على وفق حكمته (ثانيها) لما قال الله تعالى واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم بمعنى لا يطيعكم بل يتبع الوحى قال فان الله من كونه عليما يعلمه ومن كونه حكيما يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه (ثالثها) المناسبة التى بين قوله تعالى عليم حكيم وبين قوله حبب اليكم الايمان اى حبب بعلمه الايمان لاهل الايمان واختار له من يشاء بحكمته (رابعها) وهو الاقرب وهو انه سبحانه وتعالى قال فضلا من الله ونعمة ولما كان الفضل هو ماعند الله من الخير المستغنى عنه قال تعالى هو عليم بما فى خزائن رحمته من الخير وكانت النعمة هو مايدفع به حاجة العبد قال هو حكيم ينزل الخير بقدر مايشاء على وفق الحكمة ❁ قال سبحانه وتعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله) لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق اشار الى مايلزم منه استدراك مايفوت فقال فان اتفق انكم تبنون على قول من يوقع بينكم وآل الامر الى اقتتال طائفتين من المؤمنين فأزيلوا ما اثبته ذلك الفاسق واصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى اى الظالم يجب عليكم دفعه عنه ثم ان الظالم ان كان هو الرعية فالواجب على الامير دفعهم وان كان هو الامير فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها وشرطه ان لا يثير فتنة مثل التى فى اقتتال الطائفتين او اشد منها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وان اشارة الى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين فان قيل فنحن نرى اكثر الاقتتال بين طوائفهم نقول قوله تعالى وان اشارة الى انه ينبغى ان لا يقع الا نادرا غاية مافى الباب ان الامر على خلاف ماينبغى وكذلك ان جاءكم فاسق بنبأ اشارة الى ان مجئ

يكون بينهما قتال فى وقت آخر وتقييد الاصلاح بالعدل لانه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد اكد ذلك حيث قيل (واقسطوا) اى واعدلوا فى كل ماتأتون وماتذرون (ان الله يحب المقسطين) فيجازيهم احسن الجزاء والآية نزلت فى قتال حدث بين الاوس والخزرج فى عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال وفيها دلالة على ان الباغى لا يخرج بالبغى عن الايمان وانه اذا امسك عن الحرب ترك لانه فى ء الى امر الله

الفاسق بالنبأ ينبغى ان يقع قليلا مع ان مجئ الفاسق بالنبأ كثير وقول الفاسق صار عند اولى الامر اشد قبولا من قول الصادق الصالح (المسئلة الثانية) قال تعالى وان طائفتان ولم يقل وان فرقتان تحقيقا للمعنى الذى ذكرناه وهو التقليل لان الطائفة دون الفرقة ولهذا قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة (المسئلة الثالثة) قال تعالى من المؤمنين ولم يقل منكم مع ان الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ تنبيها على قبح ذلك وتبعيدا لهم عنهم كما يقول السيد لعبده ان رأيت احدا من غلمانى يفعل كذا فامنعه فيصير بذلك مانعا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن كأنه يقول انت حاشاك ان تفعل ذلك فان فعل غيرك فامنعه كذلك ههنا قال وان طائفتان من المؤمنين ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع ان المعنى واحد (المسئلة الرابعة) قال تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ولم يقل وان اقتتل طائفتان من المؤمنين مع ان كلمة ان اتصالها بالفعل أولى وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة ان وذلك لان كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضى أن لا يقع القتال منهما فان قيل فلم لم يقل يا أيها الذين آمنوا ان فاسق جاءكم أو ان أحد من الفساق جاءكم ليكون الابتداء بما يمنعهم من الاصغاء الى كلامه وهو كونه فاسقا نقول المجئ بالنبا الكاذب يورث كون الانسان فاسقا أو يزداد بسببه فسقه فالمجئ به سبب الفسق فقدمه واما الاقتتال فلا يقع سببا للايمان او الزيادة فقال ان جاءكم فاسق أى سواء كان فاسقا أو لا او جاءكم بالنبأ فصار فاسقا به ولو قال وان احد من الفساق جاءكم كان لا يتناول الامشهور الفسق قبل المجئ اذا جاءهم بالنبأ (المسئلة الخامسة) قال تعالى اقتتلوا ولم يقل يقتتلوا لان صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والاستمرار فيفهم منه ان طائفتين من المؤمنين ان تمادى الاقتتال بينهما فاصلحوا وهذا لان صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك يقال فلان يتهجد ويصوم (المسئلة السادسة) قال اقتتلوا ولم يقل اقتتلا وقال فأصلحوا بينهما ولم يقل بينهم وذلك لان عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة وكل احد برأسه يكون فاعلا فعلا فقال اقتتلوا وعند العود الى الصلح تتفق كلمة كل طائفة والا لم يكن يتحقق الصلح فقال بينهما لكون الطائفتين حينئذ كنفسين ثم قال تعالى فان بغت احداهما اشارة الى نادرة اخرى وهى البغى لانه غير متوقع فان قيل كيف يصح فى هذا الموضع كلمة ان مع انها تستعمل فى الشرط الذى لا يتوقع وقوعه وبغى احدهما عند الاقتتال لابد منه اذ كل واحد منهما لا يكون محسنا فقوله ان تكون من قبيل قول القائل ان طلعت الشمس نقول فيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى يقول الاقتتال بين طائفتين لا يكون الا نادر الوقوع وهو كما تظن كل طائفة ان الاخرى فيها الكفر والفساد فالقتال واجب كما سبق فى الليالى المظلمة او يقع لكل واحد ان القتال جائز بالاجتهاد وهو خطأ فقال تعالى لا يقع الا كذا فان بان لهما او لاحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر

(وعند)

تعالى وانه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعى فى المصالحة (انما المؤمنون اخوة) استئناف مقرر لما قبله من الامر بالاصلاح اى انهم منتسبون الى اصل واحد هو الايمان الموجب للحياة الابدية والفاء فى قوله تعالى (فأصلحوا بين اخويكم) للايذان بأن الاخوة الدينية موجبة للاصلاح ووضع المظهر مقام المضمر مضافا الى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الاصلاح والتحضيض عليه وتخصيص الاثنين بالذكر

وعندذلك يكون قدبغى فقال فان بغت احداهما على الاخرى يعنى بعد استبانة الامر وحينئذ فقوله ان بغت فى غاية الحسن لانه يفيد الندرة وقلة الوقوع وفيه ايضا مباحث (الاول) قال فان بغت ولم يقل فان تبغ لماذكرنا فى قوله تعالى اقتتلوا ولم يقل يقتتلوا (الثانى) قال حتى تفئ اشارة الى ان القتال ليس جزاء للباغى كحد الشرب الذى يقام وان ترك الشرب بل القتال الى حد الفيئة فان فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم (الثالث) هذا القتال لدفع الصائل فيتدرج فيه وذلك لانه لما كانت الفيئة من احداهما فان حصلت من الاخرى لايوجد البغى الذى لاجله حل القتال (الرابع) هذا دليل على ان المؤمن بالكبيرة لايخرج عن كونه مؤمنا لان الباغى جعله من احدى الطائفتين وسماهما مؤمنين (الخامس) قوله تعالى الى امر الله يحتمل وجوها (احدها) الى طاعة الرسول واولى الامر لقوله تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم (ثانيها) الى امر الله اى الى الصلح فانه مأمور به يدل عليه قوله تعالى فأصلحوا ذات بينكم (ثالثها) الى امر الله بالتقوى فان من خاف الله حق الخوف لايبقى له عداوة الامع الشيطان كما قال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (السادس) لو قال قائل قد ذكرتم مايدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغى من المؤمن نادر فاذن تكون الفيئة متوقعة فكيف قال فان فاءت نقول قول القائل لعبده ان مت فانت حر مع ان الموت لابد من وقوعه لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلا للعتق بان يكون باقيا فى ملكه حيا بعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك ههنا لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء انفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الاخذ بينهم فقال تعالى فان فاءت بقتالكم اياهم بعد اشتداد الامر والتحام الحرب فأصلحوا وفيه معنى لطيف وهو انه تعالى اشار الى ان من لم يخف الله وبغى لايكون رجوعه بقتالكم الاجبرا (السابع) قال ههنا فاصلحوا بينهما بالعدل ولم يذكر العدل فى قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا نقول لان الاصلاح هناك بازالة الاقتتال نفسه وذلك يكون بالنصيحة او التهديد والزجر والتعذيب والاصلاح ههنا بازالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال بالعدل فكأنه قال واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق واصلحوا بالعدل ممايكون بينهما لئلا يؤدى الى ثوران الفتنة بينهما مرة اخرى (الثامن) اذا قال فاصلحوا بينهما بالعدل فأية فائدة فى قوله وأقسطوا نقول قوله فاصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعم الامر بقوله واقسطوا اى فى كل امر مفض الى اشرف درجة وارفع منزلة وهى محبة الله والاقساط ازالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر والتركيب دال على كون الامر غير مرضى من القسط والقاسط فى القلب وهو ايضا غير مرضى ولامعتد به فكذلك القسط ❊ ثم قال تعالى (انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم) تتميما للارشاد وذلك لانه لما قال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا كان لظان ان يظن

لاثبات وجوب الاصلاح فيما فوق ذلك بطريق الاولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالاخوين الاوس والخزرج وقرئ بين اخوتكم واخوانكم (واتقوا الله) فى كل ماتأتون وماتذرون من الامور التى من جملتها ماأمرتم به من الاصلاح (لعلكم ترحمون) راجين ان ترحموا على تقواكم (ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم) اى منكم (من قوم) آخرين ايضا منكم وقوله تعالى (عسى ان يكونوا خيرا منهم) تعليل للنهى او لموجبه

او لمتوهم ان يتوهم ان ذلك عند اختلاف قوم فاما اذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالاصلاح وكذلك الامر بالاصلاح هناك عند الاقتتال واما اذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الاصلاح فقال بين اخويكم وان لم تكن الفتنة عامة وان لم يكن الامر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلين ادنى اختلاف فاسعوا فى الاصلاح * وقوله تعالى (واتقوا الله لعلكم ترحمون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى انما المؤمنون اخوة قال بعض اهل اللغة الاخوة جمع الاخ من النسب والاخوان جمع الاخ من الصداقة فالله تعالى قال انما المؤمنون اخوة تأكيدا للامر واشارة الى ان مابينهم مابين الاخوة من النسب والاسلام كالاب قال قائلهم

ابى الاسلام لا أب سواه * اذا افتخروا بقيس او تميم

(المسئلة الثانية) عند اصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا وقال ههنا اتقوا مع ان ذلك أهم نقول الفائدة هو ان الاقتتال بين طائفتين يفضى الى ان تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شئ وكل يسعى فى الاصلاح لامر نفسه فلم يؤكد بالامر بالتقوى واما عند تخاصم رجلين لايخاف الناس ذلك وربما يريد بعضهم تأكد الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله او نقول قوله فأصلحوا اشارة الى الصلح وقوله واتقوا الله اشارة الى ما يصونهم عن التشاجر لان من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه لان المسلم يكون منقادا لامر الله مقبلا على عبادة الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه ان يرهب الاخ المؤمن واليه اشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله المؤمن من يأمن جاره بوائقه يعنى اتقى الله فلا تفرغ لغيره (المسئلة الثالثة) انما للحصر اى لا اخوة الا بين المؤمنين واما بين المؤمن والكافر فلا لان الاسلام هو الجامع ولهذا اذا مات المسلم وله اخ كافر يكون ماله للمسلين ولا يكون لاخيه الكافر واما الكافر فكذلك لان فى النسب المعتبر الاب الذى هو اب شرعا حتى ان ولدى الزنا من رجل واحد لا يرث احدهما الآخر فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الاخوة ولهذا من مات من الكفار وله اخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار كما ان مال المسلم للمسلين عند عدم الوارث فان قيل قد ثبت ان الاخوة للاسلام اقوى من الاخوة النسبية بدليل ان المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الاخ الكافر من النسب فلم لم يقدموا الاخوة الاسلامية على الاخوة النسبية مطلقا حتى يكون مال المسلم للمسلين لا لاخوته من النسب نقول هذا سؤال فاسد وذلك لان الاخ المسلم اذا كان اخا من النسب فقد اجتمع فيه اخوتان فصار اقوى والعصوبة لمن له القوة ألا ترى ان الاخ من الابوين يرث ولا يرث الاخ من الاب معه فكذلك الاخ المسلم من النسب له اخوتان فيقدم على سائر المسلين والله اعلم (المسئلة الرابعة) قال النحاة

اى عسى ان يكون المسخور منهم خيرا عند الله تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لانهم القوام على النساء وهو فى الاصل اما جمع قائم كصوم وزور فى جمع صائم وزائر او مصدر نعت به فشاع فى الجمع واما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون فاما للتغليب او لانهن توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع والتنكير اما للتعميم او للقصد الى نهى بعضهم عن سخرية بعض لما انها مما يجرى بين بعض وبعض (ولا نساء) اى

مافى هذا الموضع كافة تكف ان عن العمل ولولا ذلك لقيل انما المؤمنين اخوة وفى قوله تعالى فبما رحمة من الله وقوله عما قليل ليست كافة والسؤال الاقوى هو ان رب من حروف الجر والباء وعن كذلك ومافى رب كافة وفى عما وبما ليست كافة والتحقيق فيه هو ان الكلام بعد ربما وانما يكون تاما يمكن جعله مستقلا ولو حذف ربما وانما لماضر فتقول ربما قام الامير وربما زيد فى الدار ولو حذفت ربما وقلت زيد فى الدار وقام الامير لصح وكذلك فى انما ولكنما واما عما وبما فليست كذلك لان قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم لو اذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم لما كان كلاما فالباء بعد تعلقها بما يحتاج اليها فهى باقية حقيقة ولكنما وانما وربما لما استغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم (فان قيل) ان اذا لم تكف بما فما بعده كلام تام فوجب ان لايكون له عمل تقول ان زيدا قائم ولو قلت زيد قائم لكفى وتم (نقول) ليس كذلك لان مابعد ان جاز ان يكون نكرة تقول ان رجلا جاءنى واخبرنى بكذا واخبرنى بعكسه وتقول جاءنى رجل واخبرنى ولايحسن انما رجل جاءنى كما لو لم تكن هناك انما وكذلك القول فى بينما وانما فانك لو حذفتهما واقتصرت على مايكون بعدهما لايكون تاما فلم يكف والكلام فى لعل قد تقدم مرارا ❁ ثم قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولاتلمزوا انفسكم ولاتنابزوا بالالقاب) وقد بينا ان السورة للارشاد بعد ارشاد فبعد الارشاد الى ماينبغى ان يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبى صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق بين ماينبغى ان يكون عليه المؤمن مع المؤمن وقد ذكرنا ان المؤمن اما ان يكون حاضرا واما ان يكون غائبا فان كان حاضرا فلاينبغى ان يسخر منه ولايلتفت اليه بما ينافى التعظيم وفى الآية اشارة الى امور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهى السخرية واللمز والنبز فالسخرية هى ان لاينظر الانسان الى اخيه بعين الاجلال ولايلتفت اليه ويسقطه عن درجته وحينئذ لايذكر مافيه من المعايب وهذا كما قال بعض الناس تراهم اذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون ان يذكر واقل من ان يلتفت اليه فقال لاتحقروا اخوانكم ولاتستصغروهم (الثانى) هو اللمز وهو ذكر مافى الرجل من العيب فى غيبته وهذا دون الاول لان فى الاول لم يلتفت اليه ولم يرض بأن يذكره احد وانما جعله مثل المسخرة الذى لايغضب له ولاعليه (والثالث) هو النبز وهو دون الثانى لان فى هذه المرتبة يضيف اليه وصفا ثابتا فيه يوجب بغضه وحط منزلته واما النبز فهو مجرد التسمية وان لم يكن فيه وذلك لان اللقب الحسن والاسم المستحسن اذا وضع لواحد وعلق عليه لايكون معناه موجودا فان من يسمى سعدا وسعيدا قد لايكون كذلك وكذا من لقب امام الدين وحسام الدين لايفهم منه انه كذلك وانما هو علامة وزينة وكذلك النبز بالمروان ومروان الحمار لم يكن كذلك وانما كان ذلك سمة ونسبة ولايكون اللفظ مرادا اذا لم يرد به الوصف كما ان الاعلام

ولاتسخر نساء من المؤمنات (من نساء) منهن (عسى ان يكن) اى المسخور منهن (خيرا منهن) اى من الساخرات فان مناط الخيرية فى الفريقين فليس مايظهر للناس من الصور والاشكال ولا الاوضاع والاطوار التى عليها يدور امر السخرية غالبا بل انما هو الامور الكامنة فى القلوب

كذلك فانك اذا قلت لمن سمى بعبدالله انت عبدالله فلا تعبد غيره و تريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم علم الاشارة فقال لاتتكبروا فتستحقروا اخوانكم وتستصغروهم بحيث لاتلتفوا اليهم اصلا واذا نزلتم عن هذا من النعم اليهم فلا تعيبوا طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم واذا تركتم النظر فى معايبهم ووصفهم بمايعيبهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولاتقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه انما هو اسم يتلفظ به من غير قصد الى بيان صفة وذكر فى الآية مباحث (الاول) قوله لايسخر قوم من قوم القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الاطفال لانه جمع قائم كصوم جمع صائم والقائم بالامورهم الرجال فعلى هذا الاقوام الرجال لا النساء (فائدة) وهى ان عدم الالتفات والاستحقار انما يصدر فى اكثر الامر من الرجال بالنسبة الى الرجال لان المرأة فى نفسها ضعيفة فاذا لم يلتفت الرجال اليها لا يكون لها امر قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم النساء لحم على وضم الاما رددت عنه واما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها اليه لاضطرارها فى دفع حوائجها واما الرجال بالنسبة الى الرجال والنساء بالنسبة الى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا اشهر (المسئلة الثانية) قال فى الدرجة العالية التى هى نهاية المنكر عسى ان يكونوا خيرا منهم كسرا له وبغضا للنكره وقال فى المرتبة الثانية لاتلمزوا انفسكم جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة وفى الاول جعل المسخور منه خيرا وفى الثانى جعل المسخور منه مثلا وفى قوله عسى ان يكونوا خيرا منهم حكمة وهى انه وجد منهم النكر الذى هو مفض الى الاهمال وجعل نفسه خيرا منهم كما فعل ابليس حيث لم يلتفت الى آدم وقال انا خير منه فصار هو خيرا ويمكن ان يقال المراد من قوله ان يكونوا يصيروا فان من استحقر انسانا لفقره او وحدته او ضعفه لا يأمن ان يفتقر هو ويستغنى الفقير ويضعف هو ويقوى الضعيف (المسئلة الثالثة) قال تعالى قوم من قوم ولم يقل نفس من نفس وذلك لان هذا فيه اشارة الى منع التكبر والمتكبر فى اكثر الامر يرى جبروته على رؤس الاشهاد واذا اجتمع فى الخلوات مع من لا يلتفت اليه فى الجامع يجعل نفسه متواضعا فذكرهم بلفظ القوم منعا لهم عما يفعلونه (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ولاتلمزوا انفسكم فيه وجهان (احدهما) ان عيب الاخ عائد الى الاخ فاذا عاب عائب نفسا فكأنه عاب نفسه (وثانيهما) هو انه اذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه فيكون هو بعيبه حاملا للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى ولاتقتلوا انفسكم اى انكم اذا قتلتم نفسا قتلتم فتكونوا كأنكم قتلتم انفسكم ويحتمل وجها آخر ثالثا وهو ان تقول لاتعيبوا انفسكم اى كل واحد منكم فانكم ان فعلتم فقد عبتم انفسكم اى كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك فى قوله تعالى ولاتقتلوا انفسكم (المسئلة الخامسة) ان قيل قد ذكرتم ان هذا ارشاد

(للمؤمنين)

فلا يجترئ احد على استحقار احد فلعله اجمع منه لما نيط به الخيرية عند الله تعالى فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرئ عسوا ان يكونوا وعسين ان يكن فعسى حينئذ هى ذات الخبر كما فى قوله تعالى فهل عسيتم واما على الاول فهى التى لاخبر لها (ولاتلمزوا انفسكم) اى ولا يعب بعضكم بعضا فان المؤمنين كنفس واحدة او لاتفعلوا ما تلمزون به فان من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه واللمز الطعن باللسان وقرئ بضم الميم (ولاتنابزوا بالالقاب) اى ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء فان النبز مختص به عرفا

للمؤمنين الى مايجب ان يفعله المؤمن عند حضوره بعد الاشارة الى مايفعله فى غيبته لكن قوله تعالى ولا تلمزوا قيل بأنه العيب خلف الانسان والهمز هو العيب فى وجه الانسان نقول ليس كذلك بل العكس اولى وذلك لانا اذا نظرنا الى قلب الحروف دلان على العكس لان لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم والاول يدل على القرب والثانى على البعد فان قيل اللمز هو الطعن والعيب فى الوجه كان اولى مع ان كل واحد قيل بمعنى واحد (المسئلة السادسة) قال تعالى ولا تنابزوا ولم يقل لاتنبزوا وذلك لان اللماز اذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه فى الحال عيبا يلمزه به وانما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من جانب واما النبز فلا يعجز كل واحد عن الاتيان به فان من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره فالظاهر ان النبز يفضى فى الحال الى التنابز ولا كذلك اللمز ※ وقوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) قيل فيه ان المراد بئس ان يقول للمسلم يا يهودى بعد الايمان اى بعدما آمن فبئس تسميته بالكافر ويحتمل وجها احسن من هذا وهو ان يقال هذا تمام للزجر كأنه تعالى قال ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولا تنابزوا فانه ان فعل يفسق بعدما آمن والمؤمن يقبح منه ان يأتى بعد ايمانه بفسوق فيكون كقوله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الايمان وبئس ان تسموا بالفاسق بسبب هذه الافعال بعدما سميتموهم مؤمنين ※ قال تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وهذا يحتمل وجهين (احدهما) ان يقال هذه الاشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالما فاسقا وبالمرة الواحدة لايتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم (وثانيهما) ان يقال قوله تعالى لايسخروا ولا تلمزوا ولا تنابزوا منع لهم عن ذلك فى المستقبل وقوله تعالى ومن لم يتب امرهم بالتوبة عما مضى واظهار الندم عليها مبالغة فى التحذير وتشديدا فى الزجر والاصل فى قوله تعالى ولا تنابزوا لا تتنابزوا اسقطت احدى التائين كما اسقط فى الاستفهام احدى الهمزتين فقال سواء عليهم أنذرتهم والحذف ههنا اولى لان تاء الخطاب وتاء التفاعل حرفان من جنس واحد فى كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين فى كلمتين أسهل من احتماله فى كلمة ولهذا وجب الادغام فى قولنا مد ولم يجب فى قولنا امدد وقولنا مردود وقوله امر ربنا ※ ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم) لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل اذا اوقف اموره على اليقين فقلما يتيقن فى احد عيبا فيلمزه به فان الفعل فى الصورة قد يكون قبيحا وفى نفس الامر لايكون كذلك لجواز ان يكون فاعله ساهيا او يكون الرائى

(بئس الاسم الفسوق) بعد الايمان اى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين ان يذكروا بالفسق بعد دخولهم الايمان او اشتهارهم به فان الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى الناس بالكرم او باللؤم والمراد به اما تهجين نسبة الكفر والفسوق الى المؤمنين خصوصا اذ روى ان الآية نزلت فى صفية بنت حيي اتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقال عليه الصلاة والسلام هلا قلت ان ابى هرون وعمى موسى وزوجى محمد عليهم السلام او الدلالة على ان التنابز فسق والجمع بينه وبين الايمان قبيح (ومن لم يتب) عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب (ياايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) اى كونوا على جانب منه

مخطئا وقوله كثيرا اخراج للظنون التى عليها تبنى الخيرات قال النبى صلى الله عليه وسلم ظنوا بالمؤمن خيرا وبالجملة كل امر لايكون بناؤه على اليقين فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود الى غير ذلك فقوله اجتنبوا كثيرا وقوله تعالى ان بعض الظن اثم اشارة الى الاخذ بالاحوط كما ان الطريق المخوفة لايتفق فى كل مرة فيه قاطع طريق لكنك لاتسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين الا اذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغى بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ ثم قال تعالى ولاتجسسوا اتماما لما سبق لانه تعالى لما قال اجتنبوا كثيرا من الظن فهم منه ان المعتبر اليقين فيقول القائل انا أكشف فلانا يعنى اعلمه يقينا واطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فاكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى ولاتتبعوا الظن ولاتجتهدوا فى طلب اليقين فى معايب الناس ثم قال تعالى ولايغتب بعضكم بعضا اشارة الى وجوب حفظ عرض المؤمن فى غيبته وفيه معان (احدها) فى قوله تعالى بعضكم بعضا فانه للعموم فى الحقيقة كقوله لاتلمزوا أنفسكم واما من اغتاب فالمغتاب اولايعلم عيبه فلا يحمل فعله على ان يغتابه فلم يقل ولاتغتابوا أنفسكم لما ان الغيبة ليست حاملة للغائب على غيبة من اغتابه والعيب حامل على العيب (ثانيها) لوقال قائل هذا المعنى كان حاصلا بقوله تعالى لاتغتابوا مع الاقتصار عليه نقول لاوذلك لان الممنوع اغتياب المؤمن فقال بعضكم بعضا واما الكافر فيلعن ويذكر بما فيه وكيف لاوالفاسق يجوز ان يذكر بما فيه عند الحاجة (ثالثها) قوله تعالى أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا دليل على ان الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لاذكر الكافر وذلك لانه شبهه بأكل لحم الاخ وقال من قبل انما المؤمنون اخوة فلا اخوة الابين المؤمنين ولامنع الامن شئ يشبه اكل لحم الاخ ففى هذه الآية نهى عن اغتياب المؤمن دون الكافر (رابعها) ما الحكمة فى هذا التشبيه نقول هو اشارة الى ان عرض الانسان كدمه ولحمه وهذا من باب القياس الظاهر وذلك لان عرض المرء اشرف من لحمه فاذا لم يحسن من العاقل اكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لان ذلك الم وقوله لحم اخيه آكد فى المنع لان العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو فقال اصدق الاصدقاء من ولدته امك فأكل لحمه اقبح مايكون وقوله تعالى ميتا اشارة الى دفع وهم وهو ان يقال القول فى الوجه يؤلم فيحرم واما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلايؤلم فقال أكل لحم الاخ وهو ميت ايضا لايؤلم ومع هذا هو فى غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم كما ان الميت لو احس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى وهو ان الاغتياب كأكل لحم الآدمى ميتا ولايحل اكله الا للمضطر بقدر الحاجة والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمى الميت فلايأكل لحم الآدمى فكذلك المغتاب ان وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلايباح له الاغتياب وقوله تعالى ميتا حال عن اللحم او عن الاخ فان قيل اللحم لايكون ميتا قلنا بلى قال النبى صلى الله عليه وسلم ماابين من حى فهو

(ميت)

وابهام الكثير لايجاب الاحتياط والتأمل فى كل ظن ظن حتى يعلم انه من اى قبيل فان من الظن مايجب اتباعه كالظن فيما لاقطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ومنه مايحرم كالظن فى الالهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه ما يباح كالظن فى الامور المعاشية (ان بعض الظن اثم) تعليل للامر بالاجتناب والموجبه بطريق الاستئناف التحقيق والاثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو كأنه يثم الاعمال اى يكسرها (ولاتجسسوا) اى ولا تبحثوا عن عورات المسلمين تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب كما ان التلمس بمعنى التطلب لما فى اللمس من الطلب وقد جاء بمعنى الطلب فى قوله تعالى وانا لمسنا السماء وقرئ بالحاء من الحس الذى هو اثر الجس وغايته ولتقاربهما

ميت فسمى القلفة ميتا فان قيل اذا جعلناه حالا عن الاخ لايكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حالا كما يقول القائل مررت بأخي زيد قائما ويريد كون زيد اقائما قلنا يجوز ان يقال من اكل لحمه فقد اكل فصار الاخ مأكولا مفعولا بخلاف المرور بأخي زيد فيجوز ان تقول ضربت وجهه آثما اى وهو آثم اى صاحب الوجه كانك اذا ضربت وجهه فقد ضربته ولا يجوز ان تقول مزقت ثوبه آثما فتجعل الآثم حالا من غيرك وقوله تعالى فكرهتموه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) العائد اليه الضمير يحتمل وجوها (الاول) وهو الظاهر ان يكون هو الاكل لان قوله تعالى أيحب احدكم ان يأكل معناه أيحب احدكم الاكل لان ان مع الفعل تكون للمصدر يعنى فكرهتم الاكل (الثانى) ان يكون هو اللحم اى فكرهتم اللحم (الثالث) ان يكون هو الميت فى قوله ميتا وتقديره أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا متغيرا فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتا ويكون فيه زيادة مبالغة فى التحذير يعنى الميتة ان اكلت فى الندرة لسبب كان نادرا ولكن اذا أنتن واروح وتغير لايؤكل اصلا فكذلك ينبغى ان تكون الغيبة (المسئلة الثانية) الفاء فى قوله تعالى فكرهتموه تقتضى وجود تعلق فاذلك نقول فيه وجوه (احدها) ان يكون ذلك تقدير جواب كلام كأنه تعالى لما قال أيحب قيل فى جوابه ذلك (وثانيها) ان يكون الاستفهام فى قوله ايحب للانكار كأنه قال لايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه اذا ولا يحتاج الى اضمار (وثالثها) ان يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب وترتبه عليه كما تقول جاء فلان ماشيا فتعب لان المشى يورث التعب فكذا قوله ميتا لان الموت يورث النفرة الى حد لايشتهى الانسان ان يبيت فى بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكل منه ففيه اذا كراهة شديدة فكذلك ينبغى ان يكون حال الغيبة ثم قال تعالى واتقوا الله ان الله تواب رحيم عطف على ماتقدم من الاوامر والنواهى اى اجتنبوا واتقوا وفى الآية لطائف منها ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية امورا ثلاثة مرتبة بيانها هو ان الله تعالى قال اجتنبوا كثيرا اى لاتقولوا فى حق المؤمنين مالم تعلموه فيهم بناء على الظن ثم اذا سئلتم عن المظنونات فلا تقولوا نحن نكشف امورهم لنستيقنها قبل ذكرها ثم ان علمتم منها شيئا من غير تجسس فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا ففى الاول نهى عما لم يعلم ثم نهى عن طلب ذلك العلم ثم نهى عن ذكر ما علم ومنها ان الله تعالى لم يقل اجتنبوا أن تقولوا أمرا على خلاف ماتعلمونه ولا قال اجتنبوا الشك بل اول مانهى عنه هو القول بالظن وذلك لان القول على خلاف العلم كذب وافتراء والقول بالشك والرجم بالغيب سفه وهزؤ وهما فى غاية القبح فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لان وصفهم بالايمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذى هو دأب الكافر وانما منعهم عما يكثر وجوده فى المسلمين ولذلك قال فى الآية لايسخر ومنها انه ختم الآيتين بذكر التوبة فقال فى الاولى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وقال فى

للمشاعر الحواس بالحاء والجيم وفى الحديث لاتتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته (ولا يغتب بعضكم بعضا) اى لا يذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال ان تذكر اخاك بما يكره فان كان فيه فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيبة ادام كلاب الناس (ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا) تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على افحش وجه واشنعه طبعا وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون شتى الاستفهام التقريرى واسناد الفعل الى احد ايذانا بأن احدا

الاخرى ان الله تواب لكن فى الآية الاولى لما كان الابتداء بالنهى فى قوله لايسخر قوم من قوم ذكر النفى الذى هو قريب من النهى وفى الآية الثانية لما كان الابتداء بالامر فى قوله اجتنبوا ذكر الارتياب الذى هو قريب من الامر ❊ ثم قال تعالى (ياأيها الناس اناخلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم ان الله عليم خبير) تبيينا لماتقدم وتقريرا له وذلك لان السخرية من الغير والعيب ان كان بسبب التفاوت فى الدين والايمان فهو جائز لما بينا ان قوله لايغتب بعضكم بعضا وقوله ولاتلمزوا أنفسكم منع من عيب المؤمن وغيبته وان لم يكن لذلك السبب فلايجوز لان الناس بعمومهم كفارا كانوا اومؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الايمان والكفر والافتخار ان كان بسبب الغنى فالكافر قديكون غنيا والمؤمن فقيرا وبالعكس وان كان بسبب النسب فالكافر قديكون نسيبا والمؤمن قديكون عبدا اسود وبالعكس فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون وشئ من ذلك لايؤثر مع عدم التقوى فان كل من يتدين بدين يعرف ان من يوافقه فى دينه اشرف ممن يخالفه فيه وان كان ارفع نسبا اواكثر نشبا فكيف من له الدين الحق وهوفيه راسخ وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره وقوله تعالى ياأيها الناس اناخلقناكم من ذكر وأنثى فيه وجهان (احدهما) من آدم وحواء (ثانيهما) كل واحد منكم ايها الموجودون وقت النداء خلقناه من اب وام فان قلنا ان المراد هو الاول فذلك اشارة الى ان لايتفاخر البعض على البعض لكونهم ابناء رجل واحد وامرأة واحدة وان قلنا ان المراد هو الثانى فذلك اشارة الى ان الجنس واحد فان كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وام والتفاوت فى الجنس دون التفاوت فى الجنسين فان من سنن التفاوت ان لايكون تقدير التفاوت بين الذباب والذباب لكن التفاوت الذى بين الناس بالكفر والايمان كالتفاوت الذى بين الجنسين لان الكافر جماد اذهو كالانعام بل اضل والمؤمن انسان فى المعنى الذى ينبغى ان يكون فيه والتفاوت فى الانسان تفاوت فى الحس لافى الجنس اذ كلهم من ذكر وانثى فلايبقى لذلك عندهذا اعتبار وفيه مباحث (البحث الاول) فان قيل هذا مبنى على عدم اعتبار النسب وليس كذلك فان للنسب اعتبارا عرفا وشرعا حتى لايجوز تزويج الشريفة بالنبطى فنقول اذا جاء الامر العظيم لايبقى الامر الحقير معتبرا وذلك فى الحس والشرع والعرف اما الحس فلان الكواكب ألاترى عند طلوع الشمس ولجناح الذباب دوى ولايسمع عند مايكون رعد قوى واما فى العرف فلان من جاء مع الملك لايبقى له اعتبار ولااليه التفات اذا علمت هذا فيهما ففى الشرع كذلك اذا جاء الشرف الدينى الالهى لايبقى لامر هناك اعتبار لالنسب ولالنشب الاترى ان الكافر وان كان من اعلى الناس نسبا والمؤمن وان كان من ادونهم نسبا لايقاس احدهما بالآخر وكذلك ماهو من الدين مع غيره ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء

من الاحدين لايفعل ذلك وتعليق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وتمثيل الاغتياب باكل لحم الانسان وجعل المأكول اخا للاكل وميتا واخراج تماثلها مخرج امر بين غنى عن الاخبار به وقرئ ميتا بالتشديد وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الاخ والفاء فى قوله تعالى (فكرهتموه) لترتيب مابعدها على ماقبلها من التمثيل كأنه قيل وحيث كان الامر كما ذكر فقد كرهتموه وقرئ كرهتموه اى جبلتم على كراهته (واتقوا الله) بترك ما امرتم باجتنابه والندم على ماصدر عنكم من قبل (ان الله تواب رحيم) مبالغ فى قبول التوبة وافاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب ولايخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجمع وان كثرت ذنوبهم روى ان رجلين من الصحابة رضى الله عنهم بعثا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه

(والشهادة

والشهادة كل شريف ووضيع اذا كان دينا عالما صالحا ولا يصلح لشئ منها فاسق وان كان قرشى النسب وقارونى النشب ولكن اذا اجتمع فى اثنين الدين المتين واحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله لان الله تعالى يقول وان ليس للانسان الا ماسعى وشرف النسب ليس مكتسبا ولا يحصل بسعى (البحث الثانى) ما الحكمة فى اختيار النسب من جملة اسباب التفاخر ولم يذكر المال نقول الامور التى يفتخر بها فى الدنيا وان كانت كثيرة لكن النسب اعلاها لان المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به والحسن والسن وغير ذلك غير ثابت دائم والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وابطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الاولى (البحث الثالث) اذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى انا خلقناكم فائدة نقول نعم وذلك لان كل شئ يترجح على غيره فاما ان يترجح بأمر فيه يلحقه ويترتب عليه بعد وجوده واما ان يترجح عليه بامر هو قبله والذى بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الاوصاف المطلوبة من ذلك الشئ والذى قبله فاما راجع الى الاصل الذى منه وجد أو الى الفاعل الذى هو له اوجد كما يقال فى انائين هذا من النحاس وهذا من الفضة ويقال هذا عمل فلان وهذا عمل فلان فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لانكم كلكم من ذكر وانثى ولا بالنظر الى جاعلكم لانكم كلكم خلقكم الله فان كان بينكم تفاوت يكون بامور تلحقكم و تحصل بعد وجودكم واشرفها التقوى والقرب من الله تعالى ثم قال تعالى وجعلناكم شعوبا وقبائل وفيه وجهان (احدهما) جعلناكم شعوبا متفرقة لا يدرى من يجمعكم كالعجم وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبنى اسرائيل (وثانيهما) جعلناكم شعوبا داخلين فى قبائل فان القبيلة تحتها شعوب وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الافخاذ وتحت الافخاذ الفصائل وتحت الفصائل الاقارب وذكر الاعم لانه اذهب للافتخار لان الامر الاعم منها يدخله فقراء واغنياء كثيرة غير محصورة وضعفاء واقوياء كثيرة غير معدودة ثم بين فائدة ذلك وهى التعارف وفيه وجهان (احدهما) ان فائدة ذلك التناصر لا التفاخر (وثانيهما) ان فائدته التعارف لا التناكر واللمز والسخرية والغيبة تفضى الى التناكر لا الى التعارف وفيه معان لطيفة (الاولى) قال تعالى انا خلقناكم وقال وجعلناكم لان الخلق اصل تفرع عليه الجعل شعوبا فان الاول هو الخلق والايجاد ثم الاتصاف بما اتصفوا به لكن الجعل شعوبا للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون واعتبار الاصل متقدم على اعتبار الفرع فاعلم ان النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما ان الجعل شعوبا يتحقق بعد ما يتحقق الخلق فان كان فيكم عبادة تعتبر فيكم انسابكم والافلا (الثانية) قوله تعالى خلقناكم وجعلناكم اشارة الى عدم جواز الافتخار لان ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شئ من ذلك نكيف

وسلم يبغى لهما اداما وكان اسامة على طعامه عليه الصلاة والسلام فقال ماعندى شئ فأخبرهما سلمان فقالا لو بعثنا سلمان الى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالى ارى خضرة اللحم فى افواهكما فقالا ماتناولنا لحما فقال عليه الصلاة والسلام انكما قد اغتبتما فنزلت (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى) من آدم وحواء او خلقنا كل واحد منكم من اب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب وقد جوز ان يكون تأكيدا للنهى السابق بتقرير الاخوة المانعة من الاغتياب (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون الى اصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الافخاذ والفخذ يجمع الفصائل فخزيمة شعب وكنانة

تفتخرون بما لامدخل لكم فيه فان قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى انا هديناه السبيل نهدى من نشاء فنقول اثبت الله لنا فيه كسبا مبنيا على فعل كما قال الله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ثم قال تعالى وما تشاؤن الا ان يشاء الله واما فى النسب فلا (الثالثة) قوله تعالى لتعارفوا اشارة الى قياس خفى وبيانه هو انه تعالى قال انكم جعلتم قبائل لتعارفوا وانتم اذا كنتم اقرب الى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم فاذا كنتم اقرب منه وهو اشرف الموجودات كان الاحق بالافتخار هناك من الكل الافتخار بذلك (الرابعة) فيه ارشاد الى برهان يدل على ان الافتخار ليس بالانساب وذلك لان القبائل للتعارف بسبب الانتساب الى شخص فان كان ذلك الشخص شريفا صح الافتخار فى ظنكم وان لم يكن شريفا لم يصح فشرف ذلك الرجل الذى تفتخرون به هو بانتسابه الى فضيلة اوباكتساب فضيلة فان كان بالانتساب لزم الانتهاء وان كان بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر فكيف يفتخر بالاب واب الاب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الاب والجد اللهم الا ان يجوز شرف الانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان احدا لا يقرب من الرسول فى الفضيلة حتى يقول انا مثل ابيك ولكن فى هذا النسب اثبت النبى صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب اليه بالاكتساب ونفاه لمن اراد الشرف بالانتساب فقال نحن معاشر الانبياء لا نورث وقال العلماء ورثة الانبياء اى لا نورث بالانساب وانما نورث بالاكتساب سمعت ان بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب اقرب الناس الى على عليه السلام غير انه كان فاسقا وكان هناك مولى اسود تقدم بالعلم والعمل ومال الناس الى التبرك به فاتفق انه خرج يوما من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق فلقيه الشريف سكران وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق باطراف الشيخ وقال له يا اسود الحوافر والشوافر يا كافر ابن كافر انا ابن رسول الله اذل وتجل واذم وتكرم واهان وتعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ لا هذا محتمل منه لجده وضربه معدود لحده ولكن يا أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك فيرى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت واخذت سيرة ابيك واخذت سيرة ابى فرآنى الخلق فى سيرة ابيك ورأوك فى سيرة ابى فظنونى ابن ابيك وظنوك ابن ابى فعملوا معك ما يعمل مع ابى وعملوا معى ما يعمل مع ابيك ثم قال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم وفيه وجهان (احدهما) ان المراد ان من يكون اتقى يكون عند الله اكرم اى التقوى تفيد الاكرام (ثانيهما) ان المراد ان من يكون اكرم عند الله يكون اتقى اى الاكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر عظيم والاول اشهر والثانى اظهر لان المذكور ثانيا ينبغى ان يكون محمولا على المذكور اولا فى الظاهر فيقال الاكرام للتقى لكن ذو العموم فى المشهور هو الاول يقال الذ الاطعمة احلاها اى اللذة بقدر الحلاوة لا ان الحلاوة بقدر اللذة وهى

قبيلة وقريش عمارة وقصى بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا بحسب الانساب فلا يعتزى احد الى غير آبائه لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الانساب وقرئ لتعارفوا على الاصل ولتعارفوا بالادغام ولتعرفوا (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) تعليل للنهى عن التفاخر بالانساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقى كأنه قيل ان الاكرم عنده تعالى هو الاتقى فان فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرئ بان المفتوحة على حذف لام التعليل كأنه قيل لم لا تتفاخر بالانساب فقيل لان اكرمكم عند الله اتقاكم لا انسبكم فان مدار كمال النفوس وتفاوت الاشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلى فعليه بالتقوى قال عليه الصلاة والسلام من

(اثبات) ٠

اثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة فان قيل التقوى من الاعمال والعلم اشرف قال النبي صلى الله عليه وسلم لفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فلا تقوى الا للعالم فالمتقى العالم اتم علمه والعالم الذى لا يتقى كشجرة لا ثمرة لها لكن الشجرة المثمرة اشرف من الشجرة التى لا تثمر بل هو حطب وكذلك العالم الذى لا يتقى حصب جهنم واما العابد الذى يفضل الله عليه الفقيه فهو الذى لا علم له وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل ولعله يعبده مخافة الالقاء فى النار فهو كالمكره اولدخول الجنة فهو يعمل كالفاعل له اجرة ويرجع الى بيته والمتقى هو العالم بالله المواظب لبابه اى المقرب الى جنابه عنده يبيت وفيه مباحث (البحث الاول) الخطاب مع الناس والاكرم يقتضى اشتراك الكل فى الكرامة ولا كرامة للكافر فانه اضل من الانعام واذل من الهوام نقول ذلك غير لازم مع انه حاصل بدليل قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لان كل من خلق فقد اعترف بربه كأنه تعالى قال من استمر عليه وزاد زيد فى كرامته ومن رجع عنه ازيل عنه اثر الكرامة (الثانى) ما حد التقوى ومن الاتقى نقول ادنى مراتب التقوى ان يجتنب العبد المناهى ويأتى بالاوامر ولا يقر ولا يأمن الا عندهما فان اتفق ان ارتكب منهيا لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة ومتى ارتكب منهيا وما تاب فى الحال واتكل على المهلة فى الاجل ومنعه عن التذاكر طول الامل فليس بمتق اما الاتقى فهو الذى يأتى بما امر به ويترك مانهى عنه وهو مع ذلك خاش ربه لا يشتغل بغير الله فينور الله قلبه فان التفت لحظة الى نفسه اوولده جعل ذلك ذنبه وللاولين النجاة لقوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا وللآخرين السوق الى الجنة لقوله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم فبين من اعطاه السلطان بستانا واسكنه فيه وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب منه بساتين وضياعا بون عظيم ثم قال تعالى ان الله عليم خبير اى عليم بظواهركم يعلم انسابكم خبير ببواطنكم لا تخفى عليه اسراركم فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا فى التقوى كما زادكم ❊ ثم قال تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم) لما قال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم والاتقى لا يكون الا بعد حصول التقوى واصل الايمان هو الاتقاء من الشرك قالت الاعراب لنا النسب الشريف وانما يكون لنا الشرف قال الله تعالى ليس الايمان بالقول انما هو بالقلب فما آمنتم لانه خبير يعلم ما فى الصدور ولكن قولوا اسلمنا اى انقدنا واستسلمنا قيل ان الآية نزلت فى بنى اسد اظهروا الاسلام فى سنة مجدبة طالبين الصدقة ولم يكن قلبهم مطمئنا بالايمان وقد بينا ان ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم لان كل من اظهر فعل المتقين واراد ان يصير له ما للاتقياء من الاكرام لا يحصل له ذلك لان التقوى من عمل القلب وقوله تعالى

سره ان يكون اكرم الناس فليتق الله وقال عليه الصلاة والسلام ياايها الناس انما الناس رجلان مؤمن تقى كريم على الله تعالى وفاجر شقى هين على الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى (ان الله عليم) بكم وبأعمالكم (خبير) ببواطن احوالكم (قالت الاعراب آمنا) نزلت فى نفر من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدب فاظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اتيناك بالاثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون عليه عليه الصلاة والسلام مافعلوا (قل) ردا لهم (لم تؤمنوا) اذ الايمان هو التصديق المقارن للثقة وطمانينة القلب ولم يحصل لكم ذلك والا لما مننتم على ماذكرتم كما ينبئ عنه آخر السورة (ولكن قولوا أسلمنا) فان

قل لم تؤمنوا فى تفسيره مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا وقال ههنا قل لم تؤمنوا مع انهم القوا اليهم السلام نقول اشارة الى ان عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب وانما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلا هو مرائى ولا لمن اسلم هو منافق ولكن الله خبير بما فى الصدور اذا قال فلان ليس بمؤمن حصل الجزم وقوله تعالى قل لم تؤمنوا فهو الذى جوز لنا ذلك القول وكان معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم حيث اطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم فقال لنا انتم لا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا لعدم علمكم بما فى قلبه (المسئلة الثانية) لم ولما حرفا نفى وماوان ولا كذلك من حروف النفى ولم ولما يجزمان وغيرهما من حرف النفى لا يجزم فما الفرق بينهما نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما فانهما يغيران معناه من الاستقبال الى المضى تقول لم يؤمن امس وآمن اليوم ولا تقول لا يؤمن أمس فلما فعلا بالفعل ما لم يفعل به غيرهما جزم بهما فان قيل مع هذا لم جزم بهما غاية ما فى الباب ان الفرق حصل ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما نقول لان الجزم والقطع يحصل فى الافعال الماضية فان من قال قام حصل القطع بقيامه ولا يجوز ان يكون ما قام والافعال المستقبلة اما متوقعة الحصول واما ممكنة غير متوقعة ولا يحصل القطع والجزم فيه فاذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال الى المضى كانا يفيدان الجزم والقطع فى المعنى فجعل لهما تناسبا بالمعنى وهو الجزم لفظا وعلى هذا نقول السبب فى الجزم ماذكرنا وهذا فى الامر يجزم كأنه جزم على المأمور انه يفعله ولا يتركه فأى فائدة فى ان اللفظ يجزم مع ان الفعل فيه لابد من وقوعه وان فى الشرط تغير وذلك لان ان تغير معنى الفعل من المضى الى الاستقبال كما ان لم تغيره من الاستقبال الى المضى تقول ان جئتنى جئتك وان اكرمتنى اكرمتك فلما كان ان مثل لم فى كونه حرفا وفى لزوم الدخول على الافعال وتغييره معنى الفعل صار جازما لشبه لفظى اما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى فان الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط فالجزم اذا اما لمعنى او لشبه لفظى كما ان الجزاء كذلك فى الاضافة وفى الجر بحرف (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ولكن قولوا يقتضى قولا سابقا مخالفا لما بعده كقولنا لا تقولوا آمنا ولكن قولوا اسلمنا وفى ترك التصريح به ارشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهى عن قولهم آمنا فلم يقل لا تقولوا آمنا وارشدهم الى الامتناع عن الكذب فقال لم تؤمنوا فان كنتم تقولون شيئا فقولوا امرا عاما لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم اسلمنا فان الاسلام بمعنى الانقياد حصل (المسئلة الرابعة) المؤمن والمسلم واحد عند اهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا نقول بين العام والخاص فرق فالايمان لا يحصل الا بالقلب وقد يحصل باللسان والاسلام اعم لكن العام فى صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون امرا آخر غيره مثاله الحيوان اعم من الانسان لكن الحيوان فى صورة الانسان ليس امرا ينفك عن الانسان ولا يجوز ان يكون ذلك الحيوان حيوانا

الاسلام انقياد ودخول فى السلم واظهار الشهادة وترك المحاربة مشعر به وايثار ما عليه النظم الكريم على ان يقال لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا او لم تؤمنوا ولكن اسلمتم للاحتراز من النهى عن التلفظ بالايمان وللتفادى عن اخراج قولهم مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولا محضا (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) حال من ضمير قولوا اى ولكن قولوا اسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم وما فى لما من معنى التوقع مشعر بان هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لا يلتكم من اعمالكم) لا ينقصكم (شيئا) من اجورها من لات يليت ليتا اذا نقص وقرئ لا يالتكم من الالت وهى لغة غطفان او شيئا من النقص (ان الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم

ولايكون انسانا فالعام والخاص مختلفان فى العموم متحدان فى الوجود فكذلك المؤمن والمسلم وسنبين ذلك فى تفسير قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ان شاء الله تعالى (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ولما يدخل الايمان فى قلوبكم هل فيه معنى غير معنى قوله تعالى قل لم تؤمنوا نقول نعم وبيانه من وجوه (الاول) هو انهم لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا قالوا اذا أسلمنا فقد آمنا قيل لا فان الايمان من عمل القلب لاغير والاسلام قد يكون عمل اللسان واذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل فى قلوبكم الايمان لم تؤمنوا (الثانى) قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا اجدالا قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما اخبروا فقال ولما يدخل الايمان فى قلوبكم لان لما يفعل يقال فى مقابلة قد فعل ويحتمل ان يقال بان الآية فيها اشارة الى حال المؤلفة اذا أسلموا ويكون ايمانهم بعد ضعيفا قال لهم لم تؤمنوا لان الايمان ايقان وذلك بعد لم يدخل فى قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الاسلام وان تطيعوا الله ورسوله يكمل لكم الاجر والذى يدل على هذا هو ان لما فيها معنى التوقع والانتظار والايمان اما ان يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره فى الدلائل واما ان يكون الهاما يقع فى قلب المؤمن فقوله قل لم تؤمنوا اى ما فعلتم ذلك انتم وقوله تعالى ولما يدخل الايمان فى قلوبكم اى ولا دخل الايمان فى قلبكم الهاما من غير فعلكم فلا ايمان لكم حينئذ ثم انه تعالى عند فعلهم قال لم تؤمنوا بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم وعند فعل الايمان قال لما يدخل بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الايمان كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها ثم انه تعالى قال وان تطيعوا الله ورسوله لايلتكم اى لاينقصكم والمراد انكم اذا اتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء وهذا لان من حمل الى ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها فى السوق درهما واعطاه الملك درهما او دينارا ينسب الملك الى قلة العطاء بل البخل فليس معناه انه يعطى مثل ذلك من غير نقص بل المعنى يعطى ما تتوقعون باعمالكم من غير نقص وفيه تحريض على الايمان الصادق لان من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطى عليه أجرا فقال ان تطيعوا وتصدقوا لاينقص عليكم فلا تضيعوا اعمالكم بعدم الاخلاص وفيه ايضا تسلية لقلوب من تأخر ايمانه كأنه يقول غيرى سبقنى وآمن حين كان النبى وحيدا وآواه حين كان ضعيفا ونحن آمنا عند ما عجزنا عن مقاومته وغلبنا بقوته فلا يكون لايماننا وقع ولا لنا عليه أجر فقال تعالى ان أجركم لاينقص وما تتوقعون تعطون غاية ما فى الباب ان التقدم يزيد فى اجورهم وماذا عليكم اذا ارضاكم الله ان يعطى غيركم من خزائن رحمته رحمة واسعة وما حالكم فى ذلك الا حال ملك اعطى واحداشيئا وقال لغيره وماذا تمنى فتمنى عليه بلدة واسعة واموالا فأعطاه ووفاه ثم زاد ذلك الاول أشياء أخر من خزائنه فان تأذى من ذلك يكون بخلا وحسدا وذلك فى الآخرة لايكون وفى الدنيا هو من صفة الاراذل وقوله تعالى ان الله

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه اذا اوقعه فى الشك مع التهمة وفيه اشارة الى ان فيهم ما يوجب نفى الايمان عنهم وثم للاشعار بأن اشتراط عدم الارتياب فى اعتبار الايمان ليس فى حال انشائه فقط بل وفيما يستقبل فهى كما فى قوله تعالى ثم استقاموا (وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله) فى طاعته على تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد (اولئك) الموصوفون بما ذكر من الاوصاف الجميلة (هم الصادقون) اى الذين صدقوا فى دعوى الايمان لاغيرهم روى انه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا انهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى (قل اتعلمون الله بدينكم) اى اتخبرونه بذلك بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم (والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض) حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم وقوله تعالى (والله بكل شئ عليم) تذييل مقرر لما قبله اى

غفور رحيم اى يغفر لكم ماقد سلف ويرحمكم بما اتيتم ❁ ثم قال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله اولئك هم الصادقون) ارشادا للاعراب الذين قالوا آمنا الى حقيقة الايمان فقال ان كنتم تريدون الايمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا يعنى ايقنوا بان الايمان ايقان وثم للتراخى فى الحكاية كأنه يقول آمنوا ثم اقول شيئا آخر لم يرتابوا ويحتمل ان يقال هو للتراخى فى الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبى صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر وقوله تعالى وجاهدوا بأموالهم وانفسهم يحقق ذلك اى ايقنوا ان بعد هذه الدار دارا فجاهدوا طالبين العقبى وقوله اولئك هم الصادقون فى ايمانهم لا الاعراب الذين قالوا قولا ولم يخلصوا عملا ❁ ثم قال تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم مافى السموات ومافى الارض والله بكل شئ عليم) فانه عالم به لايخفى عليه شئ وفيه اشارة الى ان الدين ينبغى ان يكون لله وأنتم اظهرتموه لنا لا لله فلا يقبل منكم ذلك ❁ وقوله تعالى (يمنون عليك ان اسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) ويقرر ذلك ويبين ان اسلامهم لم يكن لله وفيه لطائف (الاولى) فى قوله تعالى يمنون عليك زيادة بيان لقبيح فعلهم وذلك لان الايمان له شرفان (احدهما) بالنسبة الى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده فى العظمة (وثانيهما) بالنسبة الى المؤمن فانه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق فهم لايطلبون باسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف انفسهم بل منوا ولو علموا ان فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا (اللطيفة الثانية) قال قل لاتمنوا على اسلامكم اى الذى عندكم اسلام ولهذا قال تعالى ولكن قولوا اسلمنا ولم يقل لم تؤمنوا ولكن اسلمتم لئلا يكون تصديقا لهم فى الاسلام ايضا كما لم يصدقوا فى الايمان فان قيل لم لم يجز ان يصدقوا فى اسلامهم والاسلام هو الانقياد وقد وجد منهم قولا وفعلا وان لم يوجد اعتقادا وعلما وذلك القدر كاف فى صدقهم نقول التكذيب يقع على وجهين (احدهما) ان لايوجد نفس المخبر عنه (وثانيهما) ان لايوجد كما اخبر فى نفسه فقد يقول ماجئتنا بل جاءت بك الحاجة فالله تعالى كذبهم فى قولهم آمنا على الوجه الاول اى ما آمنتم اصلا ولم يصدقهم فى الاسلام على الوجه الثانى فانهم انقادوا للحاجة واخذ الصدقة (اللطيفة الثالثة) قال بل الله يمن عليكم يعنى لامنة لكم ومع ذلك لاتسلمون رأسا برأس بحيث لايكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة بل المنة عليكم وقوله تعالى بل الله يمن عليكم حسن ادب حيث لم يقل لاتمنوا على بل لى المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ثم فى مقابلة هذا الادب قال الله تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم (اللطيفة الرابعة) لم يقل يمن عليكم ان اسلمتم بل قال ان هداكم للايمان لان اسلامهم كان ضلالة حيث كان نفاقا فما من به عليهم فان قيل كيف من عليهم بالهداية الى الايمان مع انه بين انهم لم يؤمنوا نقول الجواب عنه من ثلاثة اوجه (احدها) انه تعالى لم يقل بل الله يمن

(عليكم)

مبالغ فى العلم بجميع الاشياء التى من جلتها ماأخفوه من الكفر عند اظهارهم الايمان وفيه مزيد تجهيل وتوبيخ لهم (يمنون عليك ان اسلموا) اى يعدون اسلامهم منة عليك وهى النعمة التى لايطلب موليها ثوابا ممن انعم بها عليه من المن بمعنى القطع لان المقصود بها قطع حاجته وقيل النعمة الثقيلة من المن (قل لاتمنوا على اسلامكم) اى لاتعدوا اسلامكم منة على اولاتمنوا على باسلامكم فنصب بنزع الخافض (بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان) على ما زعمتم مع ان الهداية لاتستلزم الاهتداء وقرئ ان هداكم واذ هداكم (ان كنتم صادقين) فى ادعاء الايمان وجوابه محذوف يدل عليه ماقبله اى فلله المنة عليكم وفى سياق النظم الكريم من اللطف مالا يخفى فانهم لما سموا ماصدر عنهم ايمانا ومنوا به فنفى كونه ايمانا وسمى اسلاما قيل يمنون عليك بما هو فى الحقيقة اسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للايمان فلله المنة عليهم بالهداية اليه لا لهم

عليكم ان رزقكم الايمان بل قال ان هداكم للايمان وارسال الرسل بالآيات البينات هداية (ثانيها) هوانه تعالى بمن عليهم بما زعموا فكأنه قال انتم قلتم آمنا فذلك نعمة فى حقكم حيث تخلصتم من النار فقال هداكم فى زعمكم (ثالثها) وهو الاصح هو ان الله تعالى بين بعد ذلك شرطا فقال ان كنتم صادقين * ثم قال تعالى (ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعملون) اشارة الى انه لا يخفى عليه اسراركم واعمال قلوبكم الخفية وقال بصير بما تعملون يبصر اعمال جوارحكم الظاهرة وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير مافى اول السورة وهو قوله تعالى لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله فانه لا يخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه فى السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه فى العلانية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده

(سورة ق اربعون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

ق *والقرآن المجيد) وقبل التفسير نقول ما يتعلق بالسورة وهى امور (الاول) ان هذه السورة تقرأ فى صلاة العيد لقوله تعالى فيها ذلك يوم الخروج وقوله تعالى كذلك الخروج وقوله تعالى ذلك حشر علينا يسير فان العيد يوم الزينة فينبغى ان لا ينسى الانسان خروجه الى عرصات الحساب ولا يكون فى ذلك اليوم فرحا فخورا ولا يرتكب فسقا ولا فجورا ولما امر النبى صلى الله عليه وسلم بالتذكير بقوله فى آخر السورة فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ذكرهم بما يناسب حالهم فى يومهم بقوله ق والقرآن (الثانى) هذه السورة وسورة ص يشتركان فى افتتاح اولهما بالحرف المعجم والقسم بالقرآن وقوله بل والتعجب ويشتركان فى شئ آخر وهو ان اول السورتين واخرهما متناسبان وذلك لان فى ص قال فى اولها والقرآن ذى الذكر وقال فى آخرها ان هو الا ذكر للعالمين وفى ق قال فى اولها والقرآن المجيد وقال فى آخرها فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فافتتح بما اختتم به (الثالث) وهو ان فى تلك السورة صرف العناية الى تقرير الاصل الاول وهو التوحيد بقوله تعالى أجعل الآلهة الها واحدا وقوله تعالى ان امشوا واصبروا على آلهتكم وفى هذه السورة الى تقرير الاصل الآخر وهو الحشر بقوله تعالى أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ولما كان افتتاح السورة فى ص فى تقرير المبدأ قال فى آخرها اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين وختمه بحكاية بدء آدم لانه دليل الوحدانية ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال فى آخرها يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير • واما التفسير ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل (ق) اسم جبل محيط بالعالم وقيل معناه حكمة هى قولنا قضى الامر وفى (ص) صدق الله وقد ذكرنا ان الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليبقى السامع مقبلا على استماع ما يرد عليه فلا يفوته من الكلام الرائق والمعنى الفائق • وذكرنا ايضا ان العبادة منها قلبية

(ان الله يعلم غيب السموات والارض) اى ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) فى سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه مافى ضمائركم وقرئ بالياء • عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجرات اعطى من الاجر بعدد من اطاع الله وعصاه

* (سورة ق مكية وهى خمس (واربعون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ق والقرآن المجيد) اى ذى المجد والشرف على سائر الكتب ولانه كلام المجيد اولان من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس والكلام فيه كالذى فصل فى مطلع سورة ص وقوله تعالى *

ومنها لسانية ومنها جارحية ظاهرة ووجد فى الجارحية ماعقل معناه ووجد منها مالم يعقل معناه كأعمال الحج من الرمى والسعى وغيرهما ووجد فى القلبية ماعقل بدليل كعلم التوحيد وامكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها مابعدها عن كونها معقولة المعنى امور لا يمكن التصديق والجزم بها لولا السمع كالصراط الممدود الأحد من السيف الارق من الشعر والميزان الذى يوزن به الاعمال فكذلك كان ينبغى ان تكون الاذكار التى هى العبادة اللسانية منها مايعقل معناه كجميع القرآن الاقليلا منه ومنها مالا يعقل ولا يفهم كحرف التهجى لكون التلفظ به محض الانقياد للامر لا لما يكون فى الكلام من طيب الحكاية والقصد الى غرض كقولنا ربنا اغفرلنا وارحمنا بل يكون النطق تعبدا محضا ويؤيد هذا وجه آخر وهو ان هذه الحروف مقسم بها وذلك لان الله تعالى لما اقسم بالتين والزيتون كان تشريفا لهما فاذا اقسم بالحروف التى هى اصل الكلام الشريف الذى هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان اولى واذا عرفت هذا فنقول على هذا فيه مباحث (الاول) القسم من الله وقع بأمر واحد كما فى قوله تعالى والعصر وقوله تعالى والنجم وبحرف واحد كما فى قوله تعالى ص و ن ووقع بأمرين كما فى قوله تعالى والضحى والليل اذا سجى وفى قوله تعالى والسماء والطارق وبحرفين كما فى قوله تعالى طه وطس ويس وحم وبثلاثة امور كما فى قوله تعالى والصافات فالزاجرات فالتاليات وبثلاثة احرف كما فى الم وفى طسم والر وبأربعة امور كما فى والذاريات وفى والسماء ذات البروج وفى والتين وبأربعة احرف كما فى المص والمر وبخمسة امور كما فى والطور وفى والمرسلات وفى والنازعات وفى والفجر وبخمسة احرف كما فى كهيعص وحم عسق ولم يقسم بأكثر من خمسة اشياء الا فى سورة واحدة وهى والشمس وضحاها ولم يقسم بأكثر اصول لانه يجمع كلمة الاستثقال ولما استثقل حين ركب لمعنى كان استثقالها حين ركب من غير احاطة العلم بالمعنى اولا لمعنى كان اشد (البحث الثانى) عند القسم بالاشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهى الواو فقال والطور والنجم والشمس وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وق وحم لان القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به فلم يورده فى موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف • (البحث الثالث) اقسم الله بالاشياء كالتين والطور ولم يقسم بأصولها وهى الجواهر الفردة والماء والتراب * واقسم بالحروف من غير تركيب لان الاشياء عنده بركبها على احسن حالها واما الحروف ان ركبت بمعنى يقع الحلف بمعناه لا باللفظ كقولنا والسماء والارض وان ركبت لا بمعنى كان المفرد اشرف فاقسم بمفردات الحروف (البحث الرابع) اقسم بالحروف فى اول ثمانية وعشرين سورة وبالاشياء التى عددها عدد الحروف وهى غير والشمس فى اربع عشرة سورة لان القسم بالامور غير الحروف وقع فى اوائل السور وفى اثنائها كقوله تعالى كلا والقمر والليل اذ ادبر وقوله تعالى والليل وماوسق وقوله والليل اذا عسعس والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن الا فى اوائل السور لان ذكر مالا يفهم معناه فى اثناء

(الكلام)

(بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم) اى لان جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك او من جلدتهم اضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف كأنه قيل والقرآن المجيد انزلناه اليك لتنذر به الناس حسبما ورد فى صدر سورة الاعراف كأنه قيل بعد ذلك لم يؤمنوا به بل جعلوا

الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم ولما كان القسم بالاشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد جعل القسم بالاشياء في اوائل السور على نصف القسم بالحروف في اوائلها (البحث الخامس) القسم بالحروف وقع في النصفين جميعا بل في كل سبع وبالاشياء المعدودة لم يوجد الا في النصف الاخير بل لم يوجد الا في السبع الاخير غير والصفات وذلك لانا بينا ان القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن او الكتاب او التنزيل بعده الا نادرا فقال تعالى يس والقرآن الحكيم حم تنزيل الكتاب الم ذلك الكتاب ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وجد ذلك عاما في جميع المواضع ولا كذلك القسم بالاشياء المعدودة وقد ذكرنا شيئا من ذلك في سورة العنكبوت ❁ ولنذكر ما يختص بقاف قيل انه اسم جبل محيط بالارض عليه اطراف السماء وهو ضعيف لوجوه (احدها) ان القراءة الكثيرة الوقف ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الادراج لان من قال ذلك قال بان الله تعالى اقسم به (ثانيها) انه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما في قوله تعالى والطور وذلك لان حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقا لأن يقسم به كقولنا الله لافعلن كذا واستحقاقه لهذا غنى عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن ان يقال زيد لافعلن (ثالثها) هو انه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الالف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب أليس الله بكاف عبده وفي جميع المصاحف يكتب حرف ق (رابعها) هو ان الظاهر ان الامر فيه كالامر في ص ون وحم وهي حروف لا كلمات وكذلك في ق * فان قيل هو منقول عن ابن عباس نقول المنقول عنه ان ق اسم جبل واما ان المراد في هذا الموضع به ذلك فلا وقيل ان معناه قضى الامر وفي ص صدق الله وقيل هو اسم الفاعل من قفا يقفو وص من صاد من المصاداة وهي المعارضة ومعناه هذا قاف جميع الاشياء بالكشف ومعناه حينئذ هو قوله تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين اذا قلنا ان الكتاب هناك القرآن هذا ما قيل في ق * واما القراءة فيه فكثيرة وحصرها ببيان معناها فنقول ان قلنا هي مبنية على ما بينا لحقها الوقف اذ لا عامل فيها فيشبه بناء الاصوات ويجوز الكسر حذرا من التقاء الساكنين ويجوز الفتح اختيار الاخف فان قيل كيف جاز اختيار الفتح ههنا ولم يجز عند التقاء الساكنين اذا كان احدهما آخر كلمة والآخر أول اخرى كما في قوله تعالى لم يكن الذين كفروا ولا تطرد الذين نقول لان هناك انما وجب التحريك وعين الكسر في الفعل لشبهة تحرك الاعراب لان الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر فاختيرت الكسرة التي لا يخفى على احد انها ليست بجر لان الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فتح لاشتبه بالنصب واما في اواخر الاسماء فلا اشتباه لان الاسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الاخف واما ان قلنا انها حرف مقسم به فحقها الجر ويجوز النصب بجعله مفعولا باقسم على وجه الاتصال وتقدير الباء كأن لم يوجد وان قلنا هي اسم السورة فان قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لانها

كلا من المنذر والمنذر به عرضة لانكير والتعجب مع كونهما اوفق شيء لقضية العقول واقربه الى التلقي بالقبول وقيل التقدير والقرآن المجيد انك لمنذر ثم قيل بعده انهم شكوا فيه ثم اضرب عنه وقيل بل عجبوا اي لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الامور العجيبة وقيل هو اضراب عما يفهم من

لاتنصرف حينئذ فتفتح فى موضع الجر كما تقول وابراهيم واحد فى القسم بهما وان قلنا انه
ليس مقسما بها وقلنا اسم السورة فحقها الرفع ان جعلناها خبرا تقديره هذه ق وان قلنا
هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا هذا داع وراع وان قلنا اسم جبل فالجر والتنوين
ان كان قسما • ولنعد الى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتميز وهو الاكثر كقولنا الكلام
القديم ليتميز عن الحادث والرجل الكريم ليمتاز عن اللئيم وقد يكون لمجرد المدح كقولنا
الله الكريم اذ ليس فى الوجود اله آخر حتى نميزه عنه بالكريم وفى هذا الموضع
يحتمل الوجهين والظاهر انه لمجرد المدح واما التميز فبأن نجعل القرآن اسما للمقرو.
ويدل عليه قوله تعالى ولو ان قرآنا سيرت به الجبال (والمجيد) العظيم وقيل المجيد هو كثير الكرم
وعلى الوجهين القرآن مجيد اما على قولنا المجيد هو العظيم فلان القرآن عظيم الفائدة
ولانه ذكر الله العظيم وذكر العظيم عظيم ولانه لم يقدر عليه احد من الخلق وهو آية العظمة
يقال ملك عظيم اذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى
والقرآن العظيم اى الذى لايقدر على مثله احد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى
بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ اى محفوظ من ان يطلع عليه احد الا باطلاعه تعالى فلا
يبدل ولايغير ولايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو غير مقدور عليه فهو عظيم
واما على قولنا المجيد هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده وانه
مغنى كل من لاذ به واغناء المحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو ان المجيد مقرون بالحميد فى
قولنا انك حميد مجيد فالحميد هو المشكور والشكر على الانعام والمنعم كريم فالمجيد هو
الكريم البالغ فى الكرم وفيه مباحث (الاول) القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا نقول
فيه وجوه وضبطها بان نقول ذلك اما ان يفهم بقرينة حالية او قرينة مقالية والمقالية
اما ان تكون متقدمة على المقسم به او متأخرة فان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية
متقدمة فلا متقدم هناك لفظا الاق فيكون التقدير هذا ق والقرآن المجيد اوق انزلها
الله تعالى والقرآن كما يقول هذا حاتم والله اى هو المشهور بالسخاء او يقول الهلال رأيته
والله وان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة فنقول ذلك أمران أحدهما المنذر
والثانى الرجع فيكون التقدير والقرآن المجيد انك المنذر او والقرآن المجيد ان الرجع
لكائن لان الامرين وردا لقسم عليهما ظاهرا اما الاول فيدل عليه قوله تعالى يس
والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين الى ان قال لتنذر قوما ما انذر آباؤهم واما الثانى فدل
عليه قوله تعالى والطور وكتاب مسطور الى ان قال ان عذاب ربك لواقع وهذا الوجه
يظهر غاية الظهور على قول من قال ق اسم جبل فان القسم يكون بالجبل والقرآن وهناك
القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن • فان قيل اى الوجهين منهما اظهر
عندك قلت الاول لان المنذر أقرب من الرجع ولان الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم
كونه مرسلا ومنذرا وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر واعتبر ذلك فى سور منها

وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل
ليس سبب امتناعهم من الايمان
بالقرآن انه لامجد له ولكن لجهلهم
(فقال الكافرون هذا شئ عجيب)
تفسير لتعجبهم وبيان لكونه
مقارنا لغاية الانكار مع زيادة
تفصيل لمحل التعجب وهذا اشارة
الى كونه عليه الصلاة والسلام

(قوله)

قوله تعالى الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ام يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر ولان القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله فالقسم به عليه يكون اشارة الى الدليل على طريقة القسم وليس هو بنفسه دليلا على الحشر بل فيه امارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول واما ان قلنا هو مفهوم بقرينة حالية فهو كون محمد صلى الله عليه وسلم على الحق ولكلامه صفة الصدق فان الكفار كانوا ينكرون ذلك والمختار ماذكرناه (المبحث الثانى) بل عجبوا يقتضى ان يكون هناك امر مضرب عنه فاذلك نقول قال الواحدى ووافقه الزمخشرى انه تقدير قوله ما الامر كما يقولون ونزيده وضوحا فنقول على ما اخترناه فان التقدير والله اعلم ق والقرآن المجيد انك لتنذر فكأنه قال بعده وانهم شكوا فيه فأضرب عنه ❊ وقال تعالى (بل عجبوا ان جاء هم منذر) يعنى لم يقتنعوا بالشك فى صدق الامر وطرحه بالترك وبعد الامكان بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الامور العجيبة فان قيل فا الحكمة فى هذا الاختصار العظيم فى موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه واتى بأمر لايفهم الابعد الفكر العظيم ولايفهم مع الفكر الابالتوفيق العزيز فنقول انما حذف المقسم عليه لان الترك فى بعض المواضع يفهم منه ظهور لايفهم من الذكر وذلك لان من ذكر الملك العظيم فى مجلس واثنى عليه يكون قد عظمه فاذا قال له غيره هو لايذكر فى هذا المجلس يكون بالارشاد الى ترك الذكر دالا على عظمته فوق مايستفيد صاحبه بذكره فالله تعالى يقول لبيان رسالتك اظهر من ان يذكر واما حذف المضرب عنه فلان المضرب عنه اذا ذكر واضرب عنه بأمر آخر انما يحسن اذا كان بين المذكورين تفاوت ما فاذا عظم التفاوت لايحسن ذكرهما مع الاضراب مثاله يحسن ان يقال الوزير يعظم فلانا بل الملك يعظمه ولايحسن ان يقال البواب يعظم فلانا بل الملك يعظمه لكون البون بينهما بعيدا اذ الاضراب للتدرج فاذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحا وأتى بحرف الاضراب استفيد منه امران احدهما انه يشير الى امر آخر قبله وثانيهما انه يجعل الثانى تفاوتا عظيما مثل مايكون ومما لايذكر وههنا كذلك لان الشك بعد قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه فى غاية مايكون من البعد (المبحث الثالث) ان مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر تقول امرت بأن اقوم وامرت بالقيام وتقول ماكان جوابه الا ان قال وماكان جوابه الاقوله كذا وكذا واذا كان كذلك فلم ينزل عن الاتيان بالمصدر حيث جاز ان يقال امرت ان اقوم من غير حرف الالصاق ولايجوز ان يقال امرت القيام بل لابد من الباء ولذلك قالوا اى عجبوا من مجيئه نقول ان جاءهم وان كان فى المعنى قائما مقام المصدر لكنه فى الصورة فعل وحرف وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لايدخل على الفعل فكان الواجب ان لايدخل فلا اقل من ان يجوز عدم الدخول فجاز ان يقال عجبوا ان جاءهم ولايجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من ادخال الحرف عليه ❊ وقوله تعالى (منهم) يصلح ان يكون مذكورا كالمقرر

منذرا بالقرآن واضمارهم اولا للاشعار بتعينهم بما اسند اليهم واظهارهم ثانيا للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه اوعطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة على ان هذا اشارة الى مبهم يفسره مابعده من الجملة الانكارية ووضع المظهر موضع المضمر اما لسبق

لتعجبهم ويصلح ان يكون مذكور الابطال تعجبهم اما التقرير فلأنهم كانوا يقولون أبشرا منا واحدا نتبعه وقالوا ما انتم الا بشر مثلنا اشارة الى انه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم واما الابطال فلانه اذا كان واحد منهم ويرى بين اظهرهم وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومن بعدهم كان يجب عليهم ان يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عند احد من جنسنا فهو من عند الله بخلاف ما لو جاءهم واحد من خلاف جنسهم وأتى بما يعجزون عنه فانهم كانوا يقولون نحن لا نقدر لان لكل نوع خاصية فان خاصية النعامة بلع النار والطيور الطير في الهواء وابن آدم لا يقدر عليه فان قيل الابطال جائز لان قولهم كان باطلا ولكن تقرير الباطل كيف يجوز نقول المبين لبطلان الكلام يجب ان يورده على ابلغ ما يمكن ويذكر فيه كل ما يتوهم انه دليل عليه ثم يبطله فلذلك قال عجبتم بسبب انه منكم وهو في الحقيقة سبب لهذا التعجب فان قيل النبي صلى الله عليه وسلم كان بشيرا ونذيرا والله تعالى في جميع المواضع قدم كونه بشيرا على كونه نذيرا فلم لم يذكر عجبوا ان جاءهم بشير منهم نقول هو لما لم يتعين للبشارة موضعا كان في حقهم منذرا لا غير ❊ ثم قال تعالى (فقال الكافرون هذا شيء عجيب) قال الزمخشري هذا تعجب آخر من امر آخر وهو الحشر الذي اشار اليه بقوله أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد فعجبوا من كونه منذرا ومن وقوع الحشر ويدل عليه النظر في اول سورة ص حيث قال فيه وعجبوا ان جاءهم منذر وقال اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ذكر تعجبهم من امرين والظاهر ان قولهم هذا شيء عجيب اشارة الى مجيء المنذر لا الى الحشر ويدل عليه وجوه (الاول) هو ان هناك ذكر ان هذا لشيء عجاب بعد الاستفهام الانكاري فقال اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب وقال ههنا هذا شيء عجيب ولم يكن ما يقع الاشارة اليه الا مجيء المنذر * ثم قالوا أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (الثاني) ههنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام امر يؤدي معنى التعجب وهو قولهم ذلك رجع بعيد فانه استبعاد وهو كالتعجب فلو كان التعجب ايضا عائدا اليه لكان كالتكرار فان قيل التكرار الصريح يلزم من جعل قولك هذا شيء عجيب عائدا الى مجيء المنذر فان تعجبهم منه علم من قوله عجبوا ان جاءهم فقوله هذا شيء عجيب يكون تكرارا نقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير وذلك لانه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز ان يتعجب الانسان مما لا يكون عجيبا كما قال تعالى أتعجبين من امر الله ويقال في العرف لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب فكأنهم لما عجبوا قيل لهم لا معنى لفعلكم وعجبكم فقالوا هذا شيء عجيب فكيف لا نعجب منه ويدل عليه انه تعالى قال ههنا فقال الكافرون بحرف الفاء وقال في ص وقال الكافرون هذا ساحر كذاب لان قولهم ساحر كذاب كان تعنتا غير مرتب على ما تقدم وهذا شيء عجيب امر مرتب على ما تقدم اي عجبوا وانكروا عليه ذلك فقالوا هذا شيء عجيب فكيف لا نعجب منه ويدل عليه ايضا قوله تعالى ذلك رجع بعيد بلفظ الاشارة الى

اتصافهم بما يوجب كفرهم واما للايذان بان تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ما هو اشق منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة اشنع من الاول واعرق في كونه كفرا

البعد وقوله هذا اشارة الى الحاضر القريب فينبغى ان يكون المشار اليه بذلك غير المشار اليه بهذا وذلك لا يصح الا على قولنا ❊ ثم قال تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) فانهم لما اظهروا العجب من رسالته اظهروا استبعاد كلامه وهذا كما قال تعالى عنهم قالوا ماهذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا الا افك مفترى ❊ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله أئذا متنا وكنا ترابا انكار منهم بقول او بمفهوم دل عليه قوله تعالى جاءهم منذر لان الانذار لما لم يكن الا بالعذاب المقيم والعقاب الاليم كان فيه الاشارة للحشر فقالوا أئذا متنا وكنا ترابا (المسئلة الثانية) ذلك اشارة الى ماقاله وهو الانذار وقوله هذا شئ عجيب اشارة الى المجئ على ماقلنا فلما اختلفت الصفتان تقول المجئ والجائى شئ واحد حاضر واما الانذار وان كان حاضرا لكن كون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك والرجع مصدر رجع يرجع اذا كان متعديا والرجوع مصدره اذا كان لازما وكذلك الرجعى مصدر عند لزومه والرجع ايضا يصح مصدر اللازم فيحتمل ان يكون المراد بقوله ذلك رجع بعيد اى رجوع بعيد ويحتمل ان يكون المراد الرجع المتعدى ويدل على الاول قوله تعالى ان الى ربك الرجعى وعلى الثانى قوله تعالى أئنا لمردودون اى مرجعون فانه من الرجع المتعدى فان قلنا هو من المتعدى فقد انكروا كونه مقدورا فى نفسه ❊ ثم ان الله تعالى قال (قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ) اشارة الى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه وذلك لان الله تعالى عالم بجميع اجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء احد على الآخر وقادر على الجمع والتأليف فليس الرجوع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى وهو الخلاق العليم حيث جعل للعلم مدخلا فى الاعادة وقوله قد علمنا ماتنقص الارض يعنى لا تخفى علينا اجزاؤهم بسبب تشتتها فى تخوم الارضين وهذا جواب لما كانوا يقولون أئذا ضللنا فى الارض يعنى ان ذلك اشارة الى انه تعالى كما يعلم اجزاءهم يعلم اعمالهم من ظلمهم وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون ويحتمل ان يقال معنى قوله تعالى وعندنا كتاب حفيظ هو انه عالم بتفاصيل الاشياء وذلك لان العلم اجمالى وتفصيلى فالاجمالى كما يكون عند الانسان الذى يحفظ كتابا ويفهمه ويعلم انه اذا سئل عن اية مسئلة تكون فى الكتاب يحضر عنده الجواب ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفا بحرف ولا يخطر بباله فى حالة بابا بابا او فصلا فصلا ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج الى تجديد فكر وتحديد نظر والتفصيلى مثل الذى يعبر عن الاشياء والكتاب الذى كتب فيه تلك المسائل وهذا لا يوجد عند الانسان الا فى مسئلة ومسئلتين اما بالنسبة الى كتاب فلا يقال وعندنا كتاب حفيظ يعنى العلم عندى كما يكون فى الكتاب اعلم جزأ جزأ وشيئا شيئا والحفيظ يحتمل ان يكون بمعنى المحفوظ اى محفوظ من التغيير والتبديل ويحتمل ان يكون بمعنى الحافظ اى حافظ أجزاءهم واعمالهم بحيث لا ينسى شيئا منها والثانى هو الاصح لوجهين (أحدهما) ان الحفيظ بمعنى الحافظ

(أئذا متنا وكنا ترابا) تقرير للتعجب وتأكيد للانكار والعامل فى اذا مضمر غنى عن البيان لغاية شهرته مع دلالة ما بعده عليه اى احين نموت ونصير ترابا نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ وقرئ اذا متنا على لفظ الخبر او على حذف اداة الانكار (ذلك) اشارة الى محل النزاع (رجع بعيد) اى عن الاوهام او العادة او الامكان وقيل الرجع بمعنى المرجوع الذى هو الجواب فناصب الظرف حينئذ ما ينبئ عنه المنذر من البعث

وارد فى القرآن قال تعالى وما انت عليهم بحفيظ وقال تعالى والله حفيظ عليم (وثانيهما) ان الكتاب على ماذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الاشياء وهو مستغن عن ان يحفظ * وقوله تعالى (بل كذبوا بالحق) ردعليهم فان قيل ماالمضروب عنه نقول فيه وجهان (احدهما) تقديره لم يكذب المنذر بل كذبواهم وتقديره هوانه تعالى لماقال عنهم انهم قالوا هذا شىء عجيب كان فى معنى قولهم ان المنذر كاذب فقال تعالى لم يكذب المنذر بل هم كذبوا فان قيل ماالحق نقول يحتمل وجوها (الاول) البرهان القائم على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (الثانى) الفرقان المنزل وهو قريب من الاول لانه برهان (الثالث) النبوة الثابتة بالمعجزة القاهرة فانها حق (الرابع) الحشر الذى لابد من وقوعه فهو حق فان قيل بين لنا معنى الباء فى قوله تعالى بالحق واية حاجة اليها يعنى ان التكذيب متعد بنفسه فهل هى للتعدية الى مفعول ثان او هى زائدة كما فى قوله تعالى فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون نقول فيه بحث وتحقيق وهى فى هذا الموضع لاظهار معنى التعدية وذلك لان التكذيب هو النسبة الى الكذب لكن النسبة تارة توجد فى القائل واخرى فى القول تقول كذبنى فلان وكنت صادقا وتقول كذب فلان قول فلان ويقال كذبه اى جعله كاذبا وتقول قلت لفلان زيد يجيء غدا فتأخر عمدا حتى كذبنى وكذب قولى والتكذيب فى القائل يستعمل بالباء وبدونها قال تعالى كذبت ثمود المرسلين وقال تعالى كذبت ثمود بالنذر وفى القول كذلك غير أن الاستعمال فى القائل بدون الباء أكثر قال تعالى فكذبوه وقال وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك الى غير ذلك وفى القول الاستعمال بالباء اكثر قال الله تعالى كذبوا بآياتنا كلها وقال كذبوا بالحق وقال تعالى وكذب بالصدق اذجاءه والتحقيق فيه هو ان المفعول المطلق هو المصدر لانه هو الذى يصدر من الفاعل فان من ضرب لم يصدر منه غير الضرب غير ان له محلا يقع فيه فيسمى مضروبا ثم اذا كان ظاهرا لكونه محلا للفعل يستغنى بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف يقال ضربت عمرا وشربت خمرا للعلم بأن الضرب لابد له من محل يقوم به والشرب لا يستغنى عن مشروب يتحقق فيه واذا قلت مررت يحتاج الى الحرف ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره فى نفسه لان من قال مر السحاب يفهم منه مروره ولا يفهم منه من مر به ثم ان الفعل قد يكون فى الظهور دون الضرب والشرب وفى الخفاء دون المرور فيجوز الاتيان فيه بدون الحرف لظهوره الذى فوق ظهور المرور ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب ولهذا لا يجوز ان تقول ضربت بعمر والا اذا جعلته آلة الضرب اما اذا ضربته بسوط اوغيره فلا يجوز فيه زيادة الباء ولا يجوز مررته الامع الاشتراك وتقول مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له لان المسح امرار اليد بالشىء فصار كالمرور والشكر فعل جميل غير أنه يقع بمحسن فالاصل فى الشكر الفعل الجميل وكونه واقعا بغيره كالبيع بخلاف الضرب فانه امساس جسم بجسم بعنف فالمضروب داخل فى مفهوم الضرب اولا والمشكور

(قد علمنا ماتنقص الارض منهم) رد لاستبعادهم وازاحة له فان من عم علمه ولطف حتى انتهى الى حيث علم ماتنقص الارض من اجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه اياهم احياء كما كانوا عن النبى صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب وقيل ماتنقص الارض منهم مايموت فيدفن فى الارض منهم (وعندنا كتاب حفيظ) حافظ لتفاصيل الاشياء كلها او محفوظ من التغير والمراد اما تمثيل علمه تعالى بكليات الاشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شىء او تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده (بل كذبوا بالحق) اضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة الى بيان ماهو اشنع منه وافظع

(داخل)

داخل فى مفهوم الشكر ثانيا اذا عرفت هذا فالتكذيب فى القائل ظاهر لانه هو الذى يصدق او يكذب وفى القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية ※ وقوله تعالى (لما جاءهم) فى الجائى وجهان (احدهما) انه هو المكذب تقديره كذبوا بالحق لما جاءهم الحق اى لم يؤخروه الى الفكر والتدبر (ثانيهما) الجائى ههنا هو الجائى فى قوله تعالى بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم تقديره كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر والاول لا يصح على قولنا الحق هو الرجع لانهم لا يكذبون به وقت المجئ بل يقولون هذا ما وعد الرحمن ※ وقوله تعالى (فهم فى أمر مريج) اى مختلف مختلط قال الزجاج وغيره لانهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر وطورا ينسبونه الى الكهانة وأخرى الى الجنون والاصح ان يقال هذا بيان الاختلاف المذكور فى الآيات وذلك لان قوله تعالى بل عجبوا يدل على امر سابق اضرب عنه وقد ذكرنا انه الشك وتقديره والقرآن المجيد انك لمنذر وانهم شكوا فيك بل عجبوا بل كذبوا وهذه مراتب ثلاث (الاولى) الشك وفوقها التعجب لان الشاك يكون الأمران عنده سيين والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به والمكذب الذى يجزم بخلاف ذلك فكأنهم كانوا شاكين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال فهم فى امر مريج ويدل عليه الفاء فى قوله فهم لانه حينئذ يصير كونهم فى امر مريج مرتبا على ما تقدم وفيما ذكروه لا يكون مرتبا فان قيل المريج المختلط وهذه امور مرتبة متميزة على مقتضى العقل لان الشاك ينتهى الى درجة الظن والظان ينتهى الى درجة القطع وعند القطع لا يبقى الظن وعند الظن لا يبقى الشك واما ماذكروه ففيه يحصل الاختلاط لانهم لم يكن لهم فى ذلك ترتيب بل تارة كانوا يقولون كاهن واخرى مجنون ثم كانوا يعودون الى نسبته الى الكهانة بعد نسبته الى الجنون وكذا الى الشعر بعد السحر والى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج نقول كان الواجب ان ينتقلوا من الشك الى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين اظهرهم ومن الظن الى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج واما ماذكروه فاللائق به تفسير قوله تعالى انكم لفى قول مختلف لان ما كان يصدر منهم فى حقه كان قولا مختلفا واما الشك والظن والجزم فأمور مختلفة وفيه لطيفة وهى ان اطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبئ عن عدم كون ذلك الجزم صحيحا لان الجزم الصحيح لا يتغير وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطربا بخلاف المؤمن الموفق فانه لا يقع فى اعتقاده تردد ولا يوجد فى معتقده تعدد ※ ثم قال تعالى (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) اشارة الى الدليل الذى يدفع قولهم ذلك رجع بعيد وهذا كما فى قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وقوله تعالى أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر

وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة (لما جاءهم) من غير تأمل وتفكر وقرئ لما جاءهم بالكسر على ان اللام للتوقت اى وقت مجيئه اياهم وقيل الحق القرآن أو الاخبار بالبعث (فهم فى امر مريج) اى مضطرب لا قرار له من مرج الخاتم فى اصبعه حيث يقولون تارة انه شاعر وتارة ساحر واخرى كاهن (افلم ينظروا) اى أغفلوا وأعموا افلم ينظروا (الى السماء فوقهم) بحيث يشاهدونها كل وقت (كيف بنيناها) اى رفعناها بغير عمد (وزيناها) بما فيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع (ومالها من فروج) من فتوق لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل ولعل تأخير هذا لمراعاة الفواصل (والارض مددناها) اى بسطناها (والقينا فيها رواسى)

على ان يحيى الموتى بلى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه وتارة تدخل عليه وبعدها واو فهل بين الحالتين فرق نقول فرق ادق مما على الفرق وهو ان يقول القائل ازيد فى الدار بعد وقد طلعت الشمس يذكره للانكار فاذا قال أو زيد فى الدار بعد وقد طلعت الشمس يشير بالواو اشارة خفية الى ان قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين كأنه يقول بعدما سمع ممن صدر عن زيد هو فى الدار اغفل وهو فى الدار بعد لان الواو تنبئ عن ضيف امر مغاير لما بعدها وان لم يكن هناك سابق لكنه يومئ بالواو اليه زيادة فى الانكار فان قيل قال فى موضع اولم ينظروا وقال ههنا افلم ينظروا بالفاء فما الفرق نقول ههنا سبق منهم انكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه فان قيل ففى يس سبق ذلك بقوله قال من يحيى العظام نقول هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الانكار على عقيب الانكار استدل بدليل آخر وهو قوله تعالى قل يحييها الذى انشأها اول مرة ثم ذكر الدليل الآخر وههنا الدليل كان عقيب الانكار فذكر بالفاء واما قوله ههنا بلفظ النظر وفى الاحقاف بلفظ الرؤية ففيه لطيفة وهى انهم ههنا لما استبعدوا امر الرجع بقولهم ذلك رجع بعيد استبعد استبعادهم وقال افلم ينظروا الى السماء لان النظر دون الرؤية فكأن النظر كان فى حصول العلم بانكار الرجع ولا حاجة الى الرؤية ليقع الاستبعاد فى مقابلة الاستبعاد وهناك لم يوجد منهم انكار مذكور فأرشدهم اليه بالرؤية التى هى اتم من النظر ثم انه تعالى كل ذلك وجله بقوله الى السماء ولم يقل فى السماء لان النظر فى الشئ ينبئ عن التأمل والمبالغة والنظر الى الشئ لا ينبئ عنه لان الى للغاية فينتهى النظر عنده فى الدخول فى معنى الظرف فاذا انتهى النظر اليه ينبغى ان ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية وقوله تعالى فوقهم تأكيد آخر أى وهو ظاهر فوق رؤسهم غير غائب عنهم وقوله تعالى كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج اشارة الى وجه الدلالة واولوية الوقوع وهى للرجع اما وجه الدلالة فان الانسان له أساس هى العظام التى هى كالدعامة وقوى وانوار كالسمع والبصر فبناء السماء ارفع من اساس البدن وزينة السماء اكمل من زينة الانسان بلحم وشحم واما الاولوية فان السماء مالها من فروج فتأليفها أشد وللانسان فروج ومسام ولا شك ان التأليف الاشد كالنسج الاصفق والتأليف الاضعف كالنسج الاسخف والاول أصعب عند الناس واعجب فكيف يستبعدون الادون مع علمهم بوجود الاعلى من الله تعالى قالت الفلاسفة الآية دالة على ان السماء لا تقبل الخرق وكذلك قالوا فى قوله هل ترى من فطور وقوله سبعا شدادا وتعسفوا فيه لان قوله تعالى مالها من فروج صريح فى عدم ذلك والاخبار عن عدم الشئ لا يكون اخبارا عن عدم امكانه فان من قال مالفلان مال لا يدل على نفى امكانه ثم انه تعالى بين خلاف قولهم بقوله واذا السماء فرجت وقال اذا السماء انفطرت وقال فهى يومئذ واهية فى مقابلة قوله سبعا شدادا وقال فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان الى غير ذلك والكل

جبالا ثوابت من رسا الشئ اذا ثبت والتعبير عنها بهذا الوصف للايذان بان لقاءها بارساء الارض بها (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى) علتان للافعال المذكورة معنى وان انتصبتا بالفعل الاخير او لفعل مقدر بطريق الاستئناف اى فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا (لكل عبد منيب) اى راجع الى ربه متفكر فى بدائع صنائعه وقوله تعالى (ونزلنا من السماء ماء مباركا) اى كثير المنافع شروع فى بيان كيفية انبات ما ذكر من كل زوج بهيج وهو عطف على انبتنا وما بينهما على الوجه الاخير اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على مابعده (فانبتنا به) اى بذلك الماء (جنات) كثيرة اى اشجار اذوات ثمار

(فى)

فى الرد عليهم صريح وماذكروه فى الدلالة ليس بظاهر بل وليس له دلالة خفية ايضا واما دليلهم المعقول فاضعف واسخف من تمسكهم بالمنقول * ثم قال تعالى (والارض مددناها والقينافيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج) اشارة الى دليل آخر ووجه دلالة الارض هو انهم قالوا الانسان اذامات وفارقته القوة الغاذية والنامية لاتعود اليه تلك القوى فنقول الارض اشد جمودا واكثر خمودا والله تعالى ينبت فيها انواع النبات وينمو ويزيد فكذلك الانسان تعود اليه الحياة وذكر فى الارض ثلاثة امور كما ذكر فى السماء ثلاثة امور فى الارض المد والقاء الرواسى والانبات فيها وفى السماء البناء والتزيين وسد الفروج وكل واحد فى مقابلة واحد فالمد فى مقابلة البناء لان المد وضع والبناء رفع والرواسى فى الارض ثابتة والكواكب فى السماء مركوزة مزينة لها والانبات فى الارض شقها كما قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا وهو على خلاف سد الفروج واعدامها اذا علمت هذا ففى الانسان اشياء موضوعة واشياء مرفوعة واشياء ثابتة كالانف والاذن واشياء متحركة كالمقلة واللسان واشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والاغشية المنسوجة نسجا ضعيفا كالصفاق واشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها فالقادر على الاضداد فى هذا المهاد فى السبع الشداد غير عاجز عن خلق نظيرها فى هذه الاجساد * تفسير الراسى قد ذكرناه فى سورة لقمان والبهيج الحسن * وقوله تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) يحتمل ان يكون الامران عائدين الى الامرين المذكورين وهما السماء والارض على ان خلق السماء تبصرة وخلق الارض ذكرى ويدل عليه ان السماء زينتها مستمرة غير مستجدة فى كل عام فهو كالشئ المرئى على مرور الزمان واما الارض فهى كل سنة تأخذ زخرفها فذكر السماء تبصرة والارض تذكرة ويحتمل ان يكون كل واحد من الامرين موجودا فى كل واحد من الامرين فالسماء تبصرة والارض كذلك والفرق بين التبصرة والتذكرة هو ان فيها آيات مستمرة منصوبة فى مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسى وقوله لكل عبد منيب اى راجع الى التفكر والتذكر والنظر فى الدلائل * ثم قال تعالى (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات) اشارة الى دليل آخر وهو مابين السماء والارض فيكون الاستدلال بالسماء والارض ومابينهما وذلك انزال الماء من فوق واخراج النبات من تحت وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج فالفائدة فى اعادته بقوله فانبتنا به جنات وحب الحصيد نقول قوله فانبتنا استدلال بنفس النبات اى الاشجار تنمو وتزيد فكذلك بدن الانسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى اليه قوة النشو والنماء كما يعيدها الى الاشجار بواسطة ماء السماء وحب الحصيد فيه حذف تقديره وحب الزرع

(وحب الحصيد) اى حب الزرع الذى شأنه ان يحصد من البر والشعير وامثالهما وتخصيص انبات حبه بالذكر لانه المقصود بالذات (والنخل) عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندارجها فى الجنات لبيان فضلها على سائر الاشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع مافيه من مراعاة الفواصل (باسقات) اى طوالا اوحوامل من ابسقت الشاة اذا حملت فيكون من باب افعل فهو فاعل وقرئ باصقات لاجل القاف (لها طلع نضيد) اى منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع او كثرة مافيه من الثمر

الحصيد وهو المحصود اى انشأنا جنات يقطف ثمارها واصولها باقية وزرعا يحصد كل سنة ويزرع فى كل عام اوعامين ويحتمل ان يقال التقدير ونبت الحب الحصيد والاول هو المختار وقوله تعالى والنخل باسقات اشارة الى المختلط من جنسين لان الجنات تقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة فى كل سنة لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر فهو جنس مختلط من الزرع والشجر فكانه تعالى خلق مايقطف كل سنة ويزرع وخلق مالا يزرع كل سنة ويقطف مع بقاء اصلها وخلق المركب من جنسين فى الاثمار لان بعض الثمار فاكهة ولاقوت فيه واكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت والباسقات الطوال من النخيل وقوله تعالى باسقات يؤكد كمال القدرة والاختيار وذلك من حيث ان الزرع ان قيل فيه انه يمكن ان يقطف منه ثمرته لضعفه وضعف حجمه فكذلك يحتاج الى اعادته كل سنة والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة فيقال اليس النخل الباسقات اكبر واقوى من الكرم الضعيف والنخل محتاجة كل سنة الى عمل عامل والكرم غير محتاج فالله تعالى هو الذى قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر * قوله تعالى (لها طلع نضيد) اى منضود بعضها فوق بعض فى اكمامها كما فى سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار الطوال اثمارها بارزة متميز بعضها من بعض لكل واحد منها اصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على اصل واحد * ثم قال تعالى (رزقا للعباد) وفيه وجهان احدهما نصب على المصدر لان الانبات رزق فكانه تعالى قال انبتناها انباتا للعباد والثانى نصب على كونه مفعولا له كانه قال انبتناها لرزق العباد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال فى خلق السماء والارض تبصرة وذكرى وفى الثمار قال رزقا والثمار ايضا فيها تبصرة وفى السماء والارض ايضا منفعة غير التبصرة والتذكرة فما الحكمة فى اختيار الامرين نقول فيه وجوه (احدها) ان نقول الاستدلال وقع لوجود امرين احدهما الاعادة والثانى البقاء بعد الاعادة فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وانكروا ذلك فأما الاول فالله القادر على خلق السموات والارض قادر على خلق الخلق بعد الفناء واما الثانى فلان البقاء فى الدنيا بالرزق والقادر على اخراج الارزاق من النجم والشجر قادر على ان يرزق العبد فى الجنة ويبقى فكان الاول تبصرة وتذكرة بالخلق والثانى تذكرة بالبقاء بالرزق ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وانزاله وانباته النبات (ثانيها) ان منفعة الثمار الظاهرة هى الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست امرا عائدا الى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم حتى انهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا ان يهلكوا ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع ان الامر بالعكس اولى لان السماء سبب الارزاق بتقدير الله وفيها غير ذلك من المنافع والثمار ان لم تكن كان العيش كما انزل الله على قوم المن

(والسلوى)

والجملة حال من النخل كباسقات بطريق الترادف اومن ضميرها فى باسقات على التداخل اوالحال هو الجار والمجرور وطلع مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى (رزقا للعباد) اى لنرزقهم علة لقوله تعالى فانبتنا وفى تعليله بذلك بعد تعليل انبتنا الاول بالتبصرة والتذكير تنبيه على ان الواجب على العبدان يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار اهم واقدم من تمتعه به من حيث الرزق وقيل رزقا مصدر من معنى انبتنا لان الانبات رزق (واحيينا به) اى بذلك الماء (بلدة ميتا) ارضا جدبة لا نماء فيها اصلا بأن جعلناها بحيث ربت وانبتت

والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الاظهر للناس فى هذا الموضع (ثالثها) قوله رزقا اشارة الى كونه منعما لكون تكذيبهم فى غاية القبح فانه يكون اشارة بالمنعم وهو اقبح مايكون (المسئلة الثانية) قال تبصرة وذكرى لكل عبد منيب فقيد العبد بكونه منيبا وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين وقال رزقا للعباد مطلقا لان الرزق حصل لكل أحد غير ان المنيب يأكل ذاكرا شاكرا للانعام وغيره يأكل كما تأكل الانعام فلم يخصص الرزق بقيد (المسئلة الثالثة) ذكر فى هذه الآية امورا ثلاثة ايضا وهى انبات الجنات والحب والنخل كما ذكر فى السماء والارض فى كل واحدة أمورا ثلاثة وقد ثبت ان الامور الثلاثة فى الآيتين المتقدمتين متناسبة فهل هى كذلك فى هذه الآية نقول قد بينا ان الامور الثلاثة اشارة الى الاجناس الثلاثة وهى التى يبقى اصلها سنين ولا تحتاج الى عمل عامل والتى لا يبقى اصلها وتحتاج كل سنة الى عمل عامل والتى يجتمع فيها الامران وليس شئ من الثمار والزروع خارجا عنها اصلا كما ان امور الارض منحصرة فى ثلاثة ابتداء وهو المد ووسط وهو الثبات بالجبال الراسية وثالثها هو غاية الكمال وهو الانبات والتزيين بالزخارف * ثم قال تعالى (واحيينا به بلدة ميتا) عطفا على انبتنا به وفيه بحثان (الاول) ان قلنا ان الاستدلال بانبات الزرع وانزال الماء كان لامكان البقاء بالرزق فقوله واحيينا به اشارة الى انه دليل على الاعادة كما انه دليل على البقاء ويدل عليه قوله تعالى كذلك الخروج فان قيل كيف يصح قولك استدلالا وانزال الماء كان لبيان البقاء مع انه تعالى قال بعد ذلك واحيينا به بلدة ميتا * وقال تعالى (كذلك الخروج) فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الاحياء والاحياء سابق على الابقاء فينبغى ان يبين اولا انه يحيى الموتى ثم يبين انه يبقيهم نقول لما كان الاستدلال بالسموات والارض على الاعادة كافيا بعد ذكر دليل الاحياء ذكر دليل الابقاء ثم عاد واستدرك فقال هذا الدليل الدال على الابقاء دال على الاحياء وهو غير محتاج اليه لسبق دليلين قاطعين فبدأ ببيان البقاء وقال وانبتنا به جنات ثم ثنى باعادة ذكر الاحياء فقال واحيينا به وان قلنا ان الاستدلال بانزال الماء وانبات الزرع لا لبيان امكان الحشر فقوله واحيينا به ينبغى ان يكون مغايرا لقوله فانبتنا به بخلاف مالو قلنا بالقول الاول لان الاحياء وان كان غير الانبات لكن الاستدلال لما كان به على امرين متغايرين جاز العطف تقول خرج للتجارة وخرج للزيارة ولا يجوز ان يقال خرج للتجارة وذهب للتجارة الا اذا كان الذهاب غير الخروج فنقول الاحياء غير انبات الرزق لان انزال الماء من السماء يخضر وجه الارض ويخرج منها انواع من الازهار ولا يتغذى به ولا يقتات وانما يكون به زينة وجه الارض وهو اعم من الزرع والشجر لانه يوجد فى كل مكان والزرع والثمر لا يوجدان فى كل مكان فكذلك هذا الاحياء فان قيل فكان ينبغى ان يقدم فى الذكر لان اخضرار وجه الارض يكون قبل حصول الزرع والثمر ولانه يوجد فى كل مكان بخلاف الزرع والثمر نقول لما كان انبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه فى الذكر

انواع النبات والازهار فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة هامدة وتذكيرميتا لان البلدة بمعنى البلد والمكان (كذلك الخروج) جملة قدم فيها الخبر للقصد الى القصر وذلك اشارة الى الحياة المستفادة من الاحياء ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد رتبتها اى مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لاشئ مخالف لها وفى التعبير عن اخراج النبات من الارض بالاحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشان الانبات وتهوين لامر البعث وتحقيق للمماثلة بين اخراج النبات واحياء

(الثانى) فى قوله بلدة ميتا نقول جاز اثبات التاء فى الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها لان الميت تخفيف للميت والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه اثبات التاء لان التسوية فى الفعيل بمعنى المفعول كقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين فان قيل لم سوى بين المذكر والمؤنث فى الفعيل بمعنى المفعول قلنا لان الحاجة الى التمييز بين الفاعل والمفعول اشد من الحاجة الى التمييز بين المفعول المذكر والمفعول المونث نظرا الى المعنى ونظرا الى اللفظ فأما المعنى فظاهر واما اللفظ فلان المخالفة بين الفاعل والمفعول فى الوزن والحرف اشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له اذا علم هذا فنقول فى الفعيل لم يتميز الفاعل بحرف فان فعيلا جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير وبمعنى المفعول كالكسير والاسير ولا تمييز بحرف عند المخالفة الا الاقوى فلا تميز عند المخالفة الادنى والتحقيق فيه ان فعيلا وضع لمعنى لفظى والمفعول وضع لمعنى حقيق فكأن القائل قال استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلانى واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول فصار فعيل كالموضوع للمفعول والمفعول كالموضوع للمعنى ولما كان تغير اللفظ تابعا لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بازاء المعنى ولم يتغير الفعيل لكونه بازاء اللفظ فى اول الامر فان قيل فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله وآية لهم الارض الميتة احييناها حيث اثبت التاء هناك نقول الارض اراد بها الوصف فقال الارض الميتة لان معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الاصل فيها الحياة لان الارض اذا صارت حية صارت آهلة واقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لان معنى الفاعلية ثبت فيها والذى بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء وتحقيق هذا قوله بلدة طيبة حيث اثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر وهذا بحث عزيز ❊ وقوله تعالى (كذلك الخروج) أى كالاحياء الخروج فان قيل الاحياء يشبه به الاخراج لا الخروج فنقول تقديره احييناه بلدة ميتا فتشققت وخرج منها النبات كذلك تشقق ويخرج منها الاموات وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع فى قوله ذلك رجع بعيد لانه تعالى بين لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى لناسب ان يقول كذلك الاخراج ولما قال كذلك الخروج فهم انهم انكروا الرجوع فقال كذلك الخروج نقول فيه معنى لطيف على القول الآخر وذلك لانهم استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى بمعنى الاخراج والله تعالى اثبت الخروج وفيهما مبالغة تنبيها على بلاغة القرآن مع انها مستغنية عن البيان ووجهها هو ان الرجع والاخراج كالسبب للرجوع والخروج والسبب اذا انتفى ينتفى المسبب جزما واذا وجد قد يتخلف عن المسبب لمانع تقول كسرته فلم ينكسر وان كان مجازا والمسبب اذا وجد فقد وجد سببه واذا انتفى لا ينتفى السبب لما تقدم اذا علم هذا فهم انكروا وجود السبب ونفوه وينتفى المسبب عند انتفائه جزما فبالغوا وانكروا الامرين جميعا لان نفى السبب نفى المسبب والله اثبت الامرين جميعا بالخروج كأنفوا الامرين جميعا بنفى الاخراج ❊ ثم قال تعالى (كذبت

(قبلهم)

الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه الى افهام الناس وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) الخ استئناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها وتعذيب منكريها (واصحاب الرس) قيل هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وقيل وقيل كما مر فى سورة الفرقان على التفصيل (وثمود وعاد وفرعون) اى هو وقومه ليلائم ماقبله وما بعده (واخوان لوط) قيل كانوا من اصهاره عليه الصلاة والسلام (واصحاب الايكة) هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام غير اهل مدين (وقوم تبع) سبق شرح حالهم فى سورة الدخان

قبلهم قوم نوح واصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون واخوان لوط واصحاب الايكة وقوم تبع) ذكر المكذبين تذكيرا لهم بحالهم ووبالهم وأنذرهم باهلاكهم واستئصالهم وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم واصحاب الرس فيهم وجوه من المفسرين من قال هم قوم شعيب ومنهم من قال هم الذين جاءهم من اقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام ومنهم من قال هم اصحاب الاخدود والرس موضع نسبوا اليه اوفعل وهو حفر البئر يقال رس اذا حفر بئرا وقد تقدم فى سورة الفرقان ذلك وقال ههنا اخوان لوط وقال قوم نوح لان لوطا كان مرسلا الى طائفة من قوم ابراهيم عليه السلام معارف لوط ونوح كان مرسلا الى خلق عظيم وقال فرعون ولم يقل قوم فرعون وقال قوم تبع لان فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره وتبع كان معتمدا بقومه فجعل الاعتبار لفرعون ولم يقل الى قوم فرعون ❊ وقوله تعالى (كل كذب الرسل فحق وعيد) يحتمل وجهين (احدهما) ان كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل واللام حينئذ لتعريف العهد (وثانيهما) وهو الاصح هو ان كل واحد كذب جميع الرسل واللام حينئذ لتعريف الجنس وهو على وجهين (احدهما) ان المكذب للرسول مكذب لكل رسول (وثانيهما) وهو الاصح ان المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية وقوله فحق وعيد اى ماوعدالله من نصرة الرسل عليهم واهلاكهم ❊ ثم قال تعالى (افعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد) وفيه وجهان (احدهما) انه استدلال بدلائل الانفس لانا ذكرنا مرارا ان الدلائل أفقية ونفسية كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال والارض مددناها وفى غير ذلك ذكر الدليل النفسى وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية ٭ اما اللفظية ٭ فهى انه تعالى فى الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال والارض مددناها وقال وانزلنا من السماء ماء مباركا ثم فى الدليل النفسى ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها اشارة الى ان تلك الدلائل من جنس وهذا من جنس فلم يجعل هذا تبعا لذلك ومثل هذا مراعى فى أواخر يس حيث قال تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه ثم لم يعطف الدليل الافقى ههنا نقول والله اعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقوله ذلك رجع بعيد فاستدل بالاكبر وهو خلق السموات ثم نزل كأنه قال لاحاجة الى ذلك الاستدلال بل فى أنفسهم دليل جواز ذلك وفى سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالادنى وارتقى الى الاعلى (والوجه الثانى) يحتمل ان يكون المراد بالخلق الاول هو خلق السموات لانه هو الخلق الاول وكأنه تعالى قال انلم ينظروا الى السماء ثم قال أفعيينا بهذا الخلق ويدل على هذا قوله تعالى اولم يروا ان الله الذى خلق السموات

(كل كذب الرسل) اى فيما ارسلوا به من الشرائع التى من جلتها البعث الذى اجمعوا عليه قاطبة اى كل قوم من الاقوام المذكورين كذبوا رسولهم او كذب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور وافراد الضمير باعتبار لفظ الكل او كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة الى التوحيد والانذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر واما على تقدير عدمها وهو الاظهر ففى تكذيب قومه الرسل تكذيبهم بمن قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث والى ذلك كان يدعوهم تبع (فحق وعيد) اى فوجب وحل عليهم وعيدى وهى كلمة العذاب وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم (أفعيينا بالخلق الاول) استئناف مقرر لصحة البعث الذى حكيت احوال المنكرين له من الامم المهلكة والعى بالامر العجز عنه يقال عى بالامر وعيى به اذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينبئ عنه العى من القصد والمباشرة كأنه قيل اقصدنا الخلق الاول فعجزنا عليه حتى يتوهم عجزنا عن الاعادة (بل هم فى لبس من خلق جديد) عطف على مقدر يدل عليه ماقبله كأنه قيل هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الاول بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة وتنكير خلق لتفخيم شأنه

والارض ولم يعي بخلقهن ويؤيد هذا الوجه هو ان الله تعالى قال بعد هذه الآية ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه فهو كالاستدلال بخلق الانسان وهو معطوف بحرف الواو على ماتقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الارض وتنزيل الماء وانبات الجنات * وفى تعريف الخلق الاول وتنكير خلق جديد وجهان (احدهما) ماعليه الامران لان الاول عرفه كل واحد وعلم لنفسه والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل احد ولان الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد (والوجه الثانى) ان ذلك لبيان انكارهم للخلق الثانى من كل وجه كأنهم قالوا أيكون لنا خلق ما على وجه الانكار له بالكلية وقوله تعالى بل هم فى لبس تقديره ماعيينا بل هم فى شك من خلق جديد يعنى لامانع من جهة الفاعل فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد لانهم كانوا يقولون ذلك محال وامتناع وقوع المحال بالفاعل لايوجب عجزا فيه ويقال للمشكوك فيه ملتبس كما يقال لليقين انه ظاهر وواضح ثم ان اللبس يسند الى الامر كما قلنا انه يقال ان هذا امر ظاهر وهذا امر ملتبس وههنا اسند الامر اليهم حيث قال هم فى لبس وذلك لان الشئ يكون وراء حجاب والناظر اليه بصير فيختفى الامر من جانب الرائى فقال ههنا بل هم فى لبس ومن فى قوله من خلق جديد يفيد فائدة وهى ابتداء الغاية كأن اللبس كان حاصلا لهم من ذلك * وقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) فيه وجهان * احدهما ان يكون ابتداء استدلال بخلق الانسان وهذا على قولنا أفعيينا بالخلق الاول معناه خلق السموات * وثانيهما ان يكون تتميم بيان خلق الانسان وعلى هذا قولنا الخلق الاول هو خلق الانسان اول مرة ويحتمل ان يقال هو تنبيه على امر يوجب عودهم عن مقالهم وبيانه انه تعالى لما قال ولقد خلقنا الانسان (ونعلم ماتوسوس به نفسه) كان ذلك اشارة الى انه لايخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم وقوله تعالى (ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) بيان لكمال علمه والوريد العرق الذى هو مجرى الدم يجرى فيه ويصل الى كل جزء من اجزاء البدن والله اقرب من ذلك بعلمه لان العرق تحجبه اجزاء اللحم ويخفى عنه وعلم الله تعالى لايحجب عنه شئ ويحتمل ان يقال ونحن اقرب اليه من حبل الوريد بتفرد قدرتنا فيه يجرى فيه امرنا كما يجرى الدم فى عروقه * ثم قال تعالى (اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد) اذ ظرف والعامل فيه مافى قوله تعالى ونحن اقرب اليه من حبل الوريد وفيه اشارة الى ان المكلف غير متروك سدى وذلك لان الملك اذا اقام كتابا على امر اتكل عليهم فان كان له غفلة عنه فيكون فى ذلك الوقت يتكل عليهم واذا كان عند اقامة الكتاب لايبعد عن ذلك الامر ولا يغفل عنه فهو عند عدم ذلك اقرب اليه واشد اقبالا عليه فنقول الله فى وقت اخذ الملكين منه فعله وقوله اقرب اليه من عرقه المخالط له فعندما يخفى عليهما شئ يكون حفظنا بحاله اكمل واتم ويحتمل ان يقال التلقى من الاستقبال يقال فلان يلقى الركب وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت مايتلقاه المتلقيان

والاشعار بخروجه عن حدود العادات والايذان بانه حقيق بان يبحث عنه ويهتم بمعرفته (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) اى ماتحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفى ومنه وسواس الحلى والضمير لما ان جعلت موصولة والباء كما فى صوت بكذا او للانسان ان جعلت مصدرية والباء للتعدية (ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) اى اعلم بحاله ممن كان اقرب اليه من حبل الوريد عبر عن قرب العلم بقرب الذات تجوزا لانه موجب له وحبل الوريد مثل فى فرط القرب والحبل العرق واضافته بيانية والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يردان من الرأس اليه وقيل سمى وريدا لان الروح ترده (اذ يتلقى المتلقيان) منصوب بما فى اقرب من معنى الفعل والمعنى انه لطيف يتوصل علمه الى مالا شئ اخفى منه وهو اقرب من الانسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن الحفيظان مايتلفظ به وفيه ايذان بأنه تعالى غنى عن استحفاظهما لاحاطة علمه بما يخفى عليهما وانما ذلك لما فى كتبتهما وحفظهما لاعمال العبد وعرض صحائفهما يوم يقوم الاشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه باحاطته تعالى بتفاصيل احواله خبرا من زيادة لطف له فى الكف عن السيآت والرغبة فى الحسنات * وعنه عليه الصلاة والسلام ان مقعد ملكيك على ثنيتيك

يكون عن يمينه وعن شماله قعيد فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت احدهما يأخذ ارواح الصالحين وينقلها الى السرور والحبور الى يوم النشور والآخر يأخذ ارواح الطالحين وينقلها الى الويل والثبور الى يوم الحشر من القبور فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما انه من اى القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال يعنى الملكان ينزلان وعنده ملكان آخر ان كاتبان لاعماله يسألانهما من اى القبيلين كان فان كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور ويرجع الى الملك الآخر مسرورا حيث لم يكن مسرورا ممن يأخذها هو وان كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع الى الآخر محزونا حيث لم يكن ممن يأخذها هو ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى سائق وشهيد فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقى يتلق اخذ روحه من ملك الموت فيسوقه الى منزله وقت الاعادة وهذا اعرف الوجهين واقربهما الى الفهم وقول القائل جلست عن يمين فلان فيه انباء عن تنحيه ماعنه احترامًا له واجتنابا منه وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال نحن اقرب اليه من حبل الوريد المخالط لاجزائه المداخل فى اعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا به اكمل من علم الكاتب لكن من اجلس عنده احدا ليكتب افعاله واقواله ويكون الكاتب ناهضا خبيرا والملك الذى اجلس الرقيب يكون جبارا عظيما فنفسه اقرب اليه من الكاتب بكثير والقعيد هو الجليس كما ان قعد بمعنى جلس ۞ وقوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) اى شدته التى تذهب العقول وتذهل الفطن وقوله بالحق يحتمل وجوها احدها ان يكون المراد منه الموت فانه حق كأن شدة الموت تحضر الموت والباء حينئذ للتعدية يقال جاء فلان بكذا اى احضره ۞ وثانيها ان يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لانه حق وهو يظهر عند شدة الموت وما من احد الا وهو فى تلك الحالة يظهر الايمان لكنه لا يقبل الا ممن سبق منه ذلك وآمن بالغيب ومعنى المجئ به هو انه يظهره كما يقال الدين الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم اى اظهره ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به والباء حينئذ يحتمل ان يكون المراد منها ملتبسة يقال جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع وقوله ذلك يحتمل ان يكون اشارة الى الموت ويحتمل ان يكون اشارة الى الحق وحاد عن الطريق اى مال عنه والخطاب قيل مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو منكر وقيل مع الكافرين وهو اقرب والاقوى ان يقال هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول ذلك ما كنت منه تحيد أيها السامع ۞ وقوله تعالى (ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) عطف على قوله وجاءت سكرة الموت والمراد منه اما النفخة الاولى فيكون بيانا لما يكون عند مجئ سكرة الموت او النفخة الثانية وهو اظهر لان قوله تعالى ذلك يوم الوعيد بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله وجاءت سكرة الموت اشارة الى الاماتة وقوله ونفخ فى الصور اشارة الى الاعادة والاحياء وقوله تعالى ذلك ذكر الزمخشرى انه اشارة الى المصدر الذى من قوله ونفخ اى وقت

ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وانت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحيى من الله ولا منهما وقد جوز ان يكون تلق الملكين بيانا للقرب على معنى انا اقرب اليه مطلعون على اعماله لان حفظتنا وكتبتنا موكلون به (عن اليمين وعن الشمال قعيد) اى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد اى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظا ومعنى فحذف الاول لدلالة الثانى عليه كما فى قول من قال

رمانى بامر كنت منه ووالدى
بريا ومن اجل الطوى رمانى

وقيل يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما فى قوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير (ما يلفظ من قول) ما يرمى به من فيه من خير او شر وقرئ ما يلفظ على البناء للمفعول (الا لديه رقيب) ملك يرقب قوله ويكتبه فان كان خيرا فهو صاحب اليمين بعينه والا فهو صاحب الشمال ووجه تغيير العنوان غنى عن البيان والافراد مع وقوفهما معا على ما صدر عنه لما ان كلا منهما رقيب لما فوض اليه لا لما فوض الى صاحبه كما ينبئ عنه قوله تعالى (عتيد) اى معد مهيأ لكتابة ما امر به من الخير او الشر ومن لم يتنبه له توهم ان معناه رقيبان عتيدان وتخصيص القول بالذكر لاثبات الحكم فى الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقيل يكتبان كل شئ حتى انينه فى مرضه وقيل انما يكتبان ما فيه اجر او وزر وهو الاظهر كما ينبئ عنه قوله صلى الله عليه وسلم كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت

ذلك النفخ يوم الوعيد وهو ضعيف لان يوم لو كان منصوبا لكان ماذكرنا ظاهرا واما رفع
يوم فيفيد ان ذلك نفس اليوم والمصدر لايكون نفس الزمان وانما يكون فى الزمان فالاولى
ان يقال ذلك اشارة الى الزمان المفهوم من قوله ونفخ لان الفعل كما يدل على المصدر
يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان يوم الوعيد والوعيد هو الذى اوعده به من
الحشر والايتاء والمجازاة ❊ وقوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) قد بينا من
قبل ان السائق هو الذى يسوقه الى الموقف ومنه الى مقعده والشهيد هو الكاتب
والسائق لازم للبر والفاجر اما البر فيساق الى الجنة واما الفاجر فالى النار وقال تعالى
وسيق الذين كفروا وسيق الذين اتقوا ربهم ❊ وقوله تعالى (لقد كنت فى غفلة من هذا)
اما على تقدير يقال له اوقيل له لقد كنت كما قال تعالى وقال لهم خزنتها وقال تعالى قيل
ادخلوا ابواب جهنم والخطاب عام اما الكافر فمعلوم الدخول فى هذا الحكم واما المؤمن
فانه يزداد علما ويظهر له ما كان مخفيا عنه ويرى لى علمه يقينا اى المعتبر يقينا فيكون
بالنسبة الى تلك الاحوال وشدة الاهوال كالغافل وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما
فى قوله تعالى ما كنت منه تحيد والغفلة شئ من الغطاء كاللبس واكثر منه لان الشاك
يلتبس الامر عليه والغافل يكون الامر بالكلية محجوبا قلبه عنه وهو الغلف ❊ وقوله
تعالى (فكشفنا عنك غطاءك) اى ازلنا عنك غفلتك (فبصرك اليوم حديد) وكان من
قبل كليلا وقرينك حديدا وكان فى الدنيا خليلا واليه الاشارة ❊ بقوله تعالى (وقال
قرينه هذا مالدى عتيد) وفى القرين وجهان (احدهما) الشيطان الذى زين الكفر له
والعصيان وهو الذى قال تعالى فيه وقيضنا لهم قرناء وقال تعالى نقيض له شيطانا فهو
له قرين وقال تعالى فبئس القرين فالاشارة بهذا المسوق الى المرتكب الفجور والفسوق
والعتيد معناه المعد للنار وجملة الآية معناها ان الشيطان يقول هذا العاصى شئ هو
عندى معد لجهنم اعددته بالاغواء والاضلال (والوجه الثانى) قال قرينه اى القعيد
الشهيد الذى سبق ذكره وهو الملك وهذا اشارة الى كتاب اعماله وذلك لان الشيطان
فى ذلك الوقت لايكون له من المكانة ان يقول ذلك القول ولان قوله هذا مالدى عتيد
فيكون عتيد صفته وثانيهما ان تكون موصولة فيكون عتيد محتملا لثلاثة اوجه احدها
ان يكون خبرا بعد خبر والخبر الاول مالدى معناه هذا الذى هو لدى وهو عتيد وثانيها ان
يكون عتيد هو الخبر لاغير ومالدى يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره كما تقول هذا الذى
عندى زيد وهذا الذى يجيئنى عمرو فيكون الذى عندى والذى يجيئنى لتميز المشار اليه
عن غيره ثم يخبر عنه بما بعده ثم يقال للسائق او الشهيد (القيا فى جهنم) فيكون هو امرا
لواحد وفيه وجهان احدهما انه ثنى تكرار الامر كما يقال ألق ألق وثانيهما عادة العرب
ذلك ❊ وقوله (كل كفار عنيد) الكفار يحتمل ان يكون من الكفران فيكون بمعنى كثير

على يساره وكاتب الحسنات امير
على كاتب السيآت فاذا عمل
حسنة كتبها ملك اليمين عشرا
واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين
لصاحب الشمال دعه سبع ساعات
لعله يسبح او يستغفر (وجاءت
سكرة الموت بالحق) بعد ما ذكر
استبعادهم للبعث والجزاء وازيح
ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه
وبين ان جميع اعمالهم محفوظة
مكتوبة عليهم اتبع ذلك ببيان
ما يلاقونه لامحالة من الموت
والبعث وما يتفرع عليه من
الاحوال والاهوال وقد عبر عن
وقوع كل منها بصيغة الماضى
ايذانا بتحققها وغاية اقترابها
وسكرة الموت شدته الذاهبة
بالعقل والباء اما للتعدية كما فى
قولك جاء الرسول بالخبر والمعنى
احضرت سكرة الموت حقيقة
الامر الذى نطقت به كتب الله
ورسله او حقيقة الامر وجلية
الحال من سعادة الميت وشقاوته
وقيل الحق الذى لابد ان يكون
لامحالة من الموت او الجزاء فان
الانسان خلق له واما للملابسة
كالتى فى قوله تعالى تنبت بالدهن
اى ملتبسة بالحق اى بحقيقة
الامر او بالحكمة والغاية الجميلة
وقرئ سكرة الحق بالموت
والمعنى انها السكرة التى كتبت
على الانسان بموجب الحكمة
وانها لشدتها توجب زهوق
الروح او تستعقبه وقيل الباء
بمعنى مع وقيل سكرة الحق سكرة
الله تعالى على ان الاضافة للتهويل
وقرئ سكرات الموت (ذلك)
اى الموت (ما كنت منه تحيد)
اى تميل وتنفر عنه والخطاب
للانسان فان النفرة عنه شاملة
لكل فرد   قوله لثلاثة اوجه
قداخل بالثالث اه   قوله وثانيهما الخ   وقداخل ايضا عديله اعنى كون ما موصوفة اه.

(الكفران)

الكفران ويحتمل ان يكون من الكفر فيكون بمعنى شديد الكفر والتشديد فى لفظة فعال يدل على شدة فى المعنى والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنودا ومنه العناد فان كان الكفار من الكفران فهو انكر نعم الله مع كثرتها ❊ وقوله تعالى (مناع للخير) فيه وجهان (احدهما) كثير المنع للمال الواجب وان كان من الكفر فهو انكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها فكان شديد الكفر عنيدا حيث انكر الامر اللائح والحق الواضح وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة عنيد تنكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب والخير هو المال فيكون كقوله تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة حيث بدأ ببيان الشرك وثنى بالامتناع ايتاء الزكاة وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة اذا جعلنا الكفار من الكفران كأنه يقول كفر أنعم الله تعالى ولم يؤد منها شيئا لشكر أنعمه (ثانيهما) شديد المنع من الايمان فهو مناع للخير وهو الايمان الذى هو خير محض من ان يدخل فى قلوب العباد وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة اذا جعلنا الكفار من الكفر كأنه يقول كفر بالله ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير ❊ وقوله تعالى (معتد) فيه وجهان (احدهما) ان يكون قوله معتد مرتبا على مناع بمعنى مناع الزكاة فيكون مناه لم يؤد الواجب وتعدى ذلك حتى اخذ الحرام ايضا بالربا والسرقة كما كان عادة المشركين (وثانيهما) ان يكون قوله معتد مرتبا على مناع بمعنى منع الايمان كأنه يقول منع الايمان ولم يقتنع به حتى تعداه واهان من آمن وآذاه واعان من كفر وآواه وقوله تعالى (مريب) فيه وجهان احدهما ذو ريب وهذا على قولنا الكفار كثير الكفران والمناع مانع الزكاة كأنه يقول لا يعطى الزكاة لانه فى ريب من الآخرة والثواب فيقول لا اقرب مالا من عوض وثانيهما مريب يوقع الغير فى الريب بالقاء الشبهة والارابة جاءت بالمعنيين جميعا وفى الآية ترتيب آخر غير ماذكرناه وهو ان يقال هذا بيان احوال الكفار بالنسبة الى الله والى رسول الله والى اليوم الآخر فقوله كفار عنيد اشارة الى حاله مع الله يكفر به ويعاند آياته وقوله مناع للخير معتد اشارة الى حاله مع رسول الله فيمنع الناس من اتباعه ومن الانفاق على من عنده ويتعدى بالايذاء وكثرة الهذاء وقوله مريب اشارة الى حاله بالنسبة الى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ولا يظن ان الساعة قائمة فان قيل قوله تعالى ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير الى غير ذلك يوجب ان يكون الالقاء خاصا بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها والكفر كاف فى ايراث الالقاء فى جهنم والامر به فنقول قوله تعالى كل كفار عنيد ليس المراد منه الوصف المميز كما يقال اعط العالم الزاهد بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفا به اما على سبيل المدح او على سبيل الذم كما يقال هذا حاتم السخى فقوله كل كفار عنيد يفيد ان الكفار عنيد ومناع فالكفار كافر لان آيات الوحدانية ظاهرة ونعم الله تعالى على عباده وافرة وعنيد ومناع للخير لانه يمدح دينه ويذم دين الحق

من افراده طبعا (ونفخ فى الصور) هى النفخة الثانية (ذلك) اى وقت ذلك النفخ على حذف المضاف (يوم الوعيد) اى يوم انجاز الوعيد الواقع فى الدنيا ويوم وقوع الوعيد على انه عبارة عن العذاب الموعود وقيل ذلك اشارة الى الزمان المفهوم من نفخ فان الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخصيص الوعيد بالذكر مع انه يوم الوعد ايضا لتهويله ولذلك بدئ ببيان حال الكفرة (وجاءت كل نفس) من النفوس البرة والفاجرة (معها سائق وشهيد) وان اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملا اى معها ملكان احدهما يسوقها الى المحشر والآخر يشهد بعملها او ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها وقيل السائق كاتب السيآت والشهيد كاتب الحسنات وقيل السائق نفسه او قرينه والشهيد جوارحه او اعماله ومحل معها النصب على الحالية من كل لاضافته الى ما هو فى حكم المعرفة كأنه قيل كل النفوس او الجر على انه وصف لنفس او الرفع على انه وصف لكل وقوله تعالى (لقد كنت فى غفلة من هذا) محكى باضمار قول هو اما صفة اخرى لنفس او حال اخرى منها او استئناف مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا يفعل بها فقيل يقال لقد كنت فى غفلة الخ وخطاب الكل بذلك لما انه ما من احد الا وله غفلة ما من الآخرة وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء

فهو يمنع ومريب لانه شاك فى الحشر فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات ❁ وقوله تعالى (الذى جعل مع الله الها آخر فالقياه فى العذاب الشديد) فيه ثلاثة اوجه (احدها) انه بدل من قوله كل كفار عنيد (ثانيها) انه عطف على كل كفار عنيد (ثالثها) ان يكون عطفا على قوله القيا فى جهنم كانه قال القيا فى جهنم كل كفار عنيد اى والذى جعل مع الله الها آخر فالقياه بعدما القيتموه فى جهنم فى عذاب شديد من عذاب جهنم ❁ ثم قال تعالى (قال قرينه ربنا ما اطغيته) وهو جواب لكلام مقدر كان الكافر حين مايلقى فى النار يقول ربنا اطغانى شيطانى فيقول الشيطان ربنا ما اطغيته يدل عليه قوله تعالى بعد هذا قال لاتختصموا لدى لان الاختصام يستدعى كلامامن الجانبين وحينئذ هذا كما قال الله تعالى فى هذه السورة وفى ص قالوا بل انتم لامرحبا بكم وقوله تعالى قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده الى ان قال ان ذلك لحق تخاصم اهل النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزمخشرى المراد بالقرين فى الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذى هو شهيد وقعيد واستدل عليه بهذا وقال غيره المراد الملك لا الشيطان وهذا يصلح دليلا لمن قال ذلك وبيانه هو انه فى الاول لو كان المراد الشيطان فيكون قوله هذا مالدى عتيد معناه هذا الشخص عندى عتيد معتد للنار اعتدته باغوائى فان الزمخشرى صرح فى تفسير ذلك بهذا وعلى هذا فيكون قوله ربنا ما اطغيته مناقضا لقوله اعتدته وللزمخشرى ان يقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان يقول ان الشيطان يقول اعتدته بمعنى زينت له الامر وما الجأته فيصح القولان من الشيطان (وثانيهما) ان تكون الاشارة الى حالين ففى الحالة الاولى انما فعلت به ذلك اظهارا للانتقام من بنى آدم وتصحيحا لما قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين ثم اذا رأى العذاب وانه معه مشترك وله على الاغواء عذاب كما قال تعالى فالحق والحق اقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك فيقول ربنا ما اطغيته فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب (المسئلة الثانية) قال ههنا قال قرينه من غير واو وقال فى الآية الاولى وقال قرينه بالواو العاطفة وذلك لان فى الاول الاشارة وقعت الى معنيين مجتمعين وان كل نفس فى ذلك الوقت تجئ ومعها سائق ويقول الشهيد ذلك القول وفى الثانى لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو والفاء فى قوله فالقياه فى العذاب لايناسب قوله تعالى قال قرينه ربنا ما اطغيته مناسب مقتضية للعطف بالواو (المسئلة الثالثة) القائل ههنا واحد وقال ربنا ولم يقل رب وفى كثير من المواضع مع كون القائل واحدا قال رب كما فى قوله قال رب أرنى انظر اليك وقول نوح رب اغفر لى وقوله تعالى قال رب السجن احب الى وقوله قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة الى غير ذلك وقوله تعالى قال رب انظرنى الى يوم يبعثون تقول فى جميع تلك المواضع القائل طالب ولا يحسن ان يقول الطالب يارب عمرنى واخصصنى واعطنى كذا وانما يقول اعطنا لان كونه ربا لايناسب تخصيص الطالب واما هذا الموضع فموضع الهيبة

(والعظمة)

على اعتبار تأنيث النفس والتذكير على القراءة المشهور بتأويل الشخص كما فى قول جبلة بن حريث
يانفس انك باللذات مسرور
فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير
(فكشفنا عنك غطاءك) الغطاء الحجاب المغطى لامور المعاد وهو الغفلة والانهماك فى المحسوسات والالف بها وقصر النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للابصار وقرئ بكسر الكاف فى المواضع الثلاثة (وقال قرينه) اى الشيطان المقيض له مشيرا اليه (هذا مالدى عتيد) اى هذا ما عندى وفى ملكتى عتيد لجهنم قد هيأته لها باغوائى واضلالى وقيل قال الملك الموكل به مشيرا الى مامعه من كتاب عمله هذا مكتوب عندى عتيد مهيأ للعرض وما ان جعلت موصوفة فعتيد صفتها وان جعلت موصولة فهى بدل منها او خبر بعد خبر او خبر لمبتدأ محذوف (القيا فى جهنم كل كفار) خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد او للملكين من خزنة النار او لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول من قال
فان تزجرانى يا ابن عفان انزجر
وان تدعانى احم عرضا ممنعا

قوله المسئلة الثالثة اطراف الكلام فيها غير ملتئمة كما لا يخفى

والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال ربنا ما اطغيته ❊ وقوله تعالى (ولكن كان فى ضلال بعيد) يعنى ان ذلك لم يكن بالقائه وانما كان ضالا متغلغلا فى الضلال فطغى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الوجه فى اتصاف الضلال بالبعيد نقول الضال يكون اكثر ضلالا عن الطريق فاذا تمادى فى الضلال وبقى فيه مدة يبعد عن المقصود كثيرا واذا علم الضلال قصر فى الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصود كثيرا فقوله ضلال بعيد وصف المصدر بما يوصف به الفاعل كما يقال كلام صادق وعيشة راضية اى ضلال ذو بعد والضلال اذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بينا ويظهر الضلال لان من حاد عن الطريق وابعد عنه تتغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصود ويتبين له انه ضل عن الطريق وربما يقع فى اودية ومفاوز ويظهر له امارات الضلال بخلاف من حاد قليلا فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين فى كثير من المواضع فقال تارة فى ضلال مبين واخرى قال فى ضلال بعيد (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولكن كان فى ضلال بعيدا شارة الى قوله الا عبادك منهم المخلصين وقوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان اى لم يكونوا من العباد فجعلهم اهل العناد ولو كان لهم فى سبيلك قدم صدق لما كان لى عليهم من يد والله اعلم (المسئلة الثالثة) كيف قال ما اطغيته مع انه قال لأغوينهم اجمعين قلنا الجواب عنه من ثلاثة أوجه وجهان قد تقدم ما فى الاعتذار عما قاله الزمخشرى والثالث هو ان يكون المراد من قوله لأغوينهم اى لاديمنهم على الغواية كما ان الضال اذا قال له شخص انت على الجادة فلا تترك كما يقال انه يضله كذلك ههنا وقوله ما اطغيته اى ما كان ابتداء الاطغاء منى ❊ ثم قال تعالى (قال لا تختصموا لدى) قد ذكرنا ان هذا دليل على ان هناك كلاما قبل قوله قال قرينه ربنا ما اطغيته وهو قول الملقى فى النار ربنا اطغانى وقوله لا تختصموا لدى يفيد مفهومه ان الاختصام كان ينبغى ان يكون قبل الحضور والوقوف بين يدى ❊ وقوله تعالى (وقد قدمت اليكم بالوعيد) تقرير للمنع من الاختصام وبيان لعدم فائدته كأنه يقول قد قلت انكم اذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه فان قيل ما حكم الباء فى قوله تعالى بالوعيد قلنا فيها وجوه (احدها) أنها مزيدة كما فى قوله تعالى تنبت بالدهن على قول من قال انها هناك زائدة وقوله وكفى بالله (ثانيها) معدية فقدمت بمعنى تقدمت كما فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله (ثالثها) فى الكلام اضمار تقديره وقد قدمت اليكم مقترنا بالوعيد ما يبدل القول لدى فيكون المقدم هو قوله ما يبدل القول لدى (رابعها) هى للمصاحبة يقول القائل اشتريت الفرس بلجامه وسرجه اى معه فيكون كأنه تعالى قال قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالانذار ❊ وقوله تعالى (ما يبدل القول لدى) يحتمل وجهين احدهما ان يكون قوله لدى متعلقا بالقول اى ما يبدل القول لدى وثانيهما ان يكون ذلك متعلقا بقوله ما يبدل اى لا يقع التبديل عندى وعلى الوجه الاول فى القول

اوعلى ان الالف بدل من نون التأكيد على اجراء الوصل مجرى الوقف ويؤيده انه قرئ ألقين بالنون الخفيفة (عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة وقيل المراد بالخير الاسلام فان الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة لما منع بنى اخيه منه (معتد) ظالم متخط للحق (مريب) شاك فى الله وفى دينه (الذى جعل مع الله الها آخر) مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره (فألقياه فى العذاب الشديد) او بدل من كل كفار وقوله تعالى فألقياه تكرير للتوكيد او مفعول لمضمر يفسره فألقياه (قال قرينه) اى الشيطان المقيض له وانما استؤنف استئناف الجمل الواقعة فى حكاية المقاولة لما انه جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى (ربنا ما اطغيته) فانه منبئ عن سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال اطغانى فأجاب قرينه بتكذيبه واسناد الطغيان اليه بخلاف الجملة الاولى فانها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على ان الجمع بين مفهوميهما فى الحصول اعنى مجئ كل نفس مع الملكين وقول قرينه (ولكن كان) هو بالذات (فى ضلال بعيد) من الحق فأعنته عليه بالاغواء والدعوة اليه من غير قسر والجاء كما فى قوله تعالى وما كان لى عليكم

الذى لديه وجوه (احدها) هوانهم لماقالواحتى يبدل ماقيل فى حقهم ألقيابقول الله بعد اعتذارهم لاتلقياه فقال تعالى لايبدل هذا القول لدى و كذلك قوله وقيل ادخلوا أبواب جهنم لاتبديل له (ثانيها) هوقوله ولكن حق القول منى لاملأن جهنم اى لاتبديل لهذا القول (ثالثها) لاخلف فى ايعادالله تعالى كمالااخلاف فى ميعادالله وهذا رد على المرجئة حيث قالوا ماورد فى القرآن من الوعيد فهو تخويف لايحقق الله شيئامنه وقالوا الكريم اذاوعد انجز ووفى واذا اوعداخلف وعفا (رابعها) لايبدل القول السابق ان هذاشقى وهذاسعيد حين خلقت العباد قلت هذاشقى ويعمل عمل الاشقياء وهذاتقى ويعمل عمل الاتقياء وذلك القول عندى لاتبديل له بسعى ساع ولاسعادة الابتوفيق الله تعالى واما على الوجه الثانى ففى لايبدل وجوه ايضا (احدها) لايكذب لدى ولايفترى بين يدى فانى عالم علمت من طغى ومن كان طاغيا ومن كان اطغى فلايفيدكم قولكم اطغانى شيطانى ولاقول الشيطان ربنا ماطغيته (ثانيها) اشارة الى معنى قوله تعالى فارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا كأنه تعالى قال لوأردتم ان لااقول فألقياه فى العذاب الشديد كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالايمان قبل ان تقفوا بين يدى واما الآن فما يبدل القول لدى كما قلنا فى قوله تعالى قال لاتختصموا لدى المراد ان اختصامكم كان يجب ان يكون قبل هذا حيث قلت ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (ثالثها) معناه لايبدل الكفر بالايمان لدى فان الايمان عند اليأس غير مقبول فقولكم ربنا والهنا لايفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لايفيده قوله ربنا مااشركنا وقوله ربنا آمنا وقوله تعالى مايبدل القول اشارة الى نفى الحال كأنه تعالى يقول مايبدل اليوم لدى القول لان ماينفى بها الحال اذا دخلت على الفعل المضارع يقول القائل ماذاتفعل غدا يقال مافعل شيئا اى فى الحال واذاقال القائل ماذايفعل غدا يقال لايفعل شيئا ولن يفعل شيئا اذا اريد زيادة بيان النفى فان قيل هل فيه بيان معنوى يفيد افتراق ماولا فى المعنى نقول نعم وذلك لان كلمة لاادل على النفى لكونها موضوعة للنفى ومافى معناه كالنهى خاصة لايفيد الاثبات الابطريق الحذف اوالاضمار وبالجملة فبطريق المجاز كما فى قوله لااقسم واماما فغير متمحضة للنفى لانها واردة لغيره من المعانى حيث تكون اسما والنفى فى الحال لايفيد النفى المطلق لجواز ان يكون مع النفى فى الحال الاثبات فى الاستقبال كما يقال مايفعل الآن شيئا وسيفعل ان شاءالله فاختص بما لم يتمحض نفيا حيث لم تكن متمحضة للنفى لايقال ان لاللنفى فى الاستقبال والاثبات فى الحال فاكتفى فى الاستقبال بمالم يتمحض نفيا لانانقول ليس كذلك اذلايجوز ان يقال لايفعل زيد ويفعل الآن نعم يجوز ان يقال لايفعل غدا ويفعل الآن لكون قولك غدا يجعل الزمان مميزا فلم يكن قولك لايفعل للنفى فى الاستقبال بل كان للنفى فى بعض ازمنة الاستقبال وفى مثالنا قلنا مايفعل وسيفعل وماقلناسيفعل غدا وبعد غد بل ههنانفينا فى الحال واثبتنا فى الاستقبال من غير

من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأمما قبله كأنه قيل فماذا قال الله تعالى فقيل قال (لاتختصموالدى) اى فى موقف الحساب والجزاء اذ لافائدة فى ذلك (وقدقدمت اليكم بالوعيد) على الطغيان فى دار الكسب فى كتبى وعلى السنة رسلى فلا تطمعوا فى الخلاص عنه بما انتم فيه من تعلل بالمعاذير الباطلة والجملة حال فيها تعليل للنهى على معنى لاتختصموا وقدصح عندكم انى قدمت اليكم بالوعيد حيث قلت لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين فاتبعتموه معرضين عن الحق فلاوجه للاختصام فى هذاالوقت والباء مزيدة او معدية على ان قدم بمعنى تقدم وقدجوز ان يكون قدمت واقعا على قوله تعالى (مايبدل القول لدى) الخ ويكون بالوعيد متعلقا بمحذوف هو حال من المفعول او الفاعل اى وقدقدمت اليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد مقترنا به اوقدمته اليكم موعدا لكم به فلا تطمعوا ان ابدل وعيدى والعفو بعض المذنبين لاسباب داعية اليه ليس بتبديل فان دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد

تمييز زمان من ازمنة الاستقبال عن زمان ومثاله فى العكس ان يقال لا يفعل زيد وهو يفعل من غير تعيين وتمييز ومعلوم ان ذلك غير جائز ❊ وقوله تعالى (وما انا بظلام للعبيد) مناسب لما تقدم على الوجهين جميعا اما اذا قلنا بأن المراد من قوله لدى ان قوله ألقياه وقول القائل فى قوله قيل ادخلوا ابواب جهنم لا تبديل له فظاهر لان الله تعالى بين ان قوله ألقيا فى جهنم لا يكون الا للكافر العنيد فلا يكون هو ظلاما للعبيد واما اذا قلنا بان المراد لا يبدل القول لدى بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدى فكذلك لانه انذر من قبل وما عذب الا بعد ان ارسل الرسل وبين السبل ❊ وفيه مباحث لفظية ومعنوية (اما اللفظية) فهى فى الباء من قوله ليس بظلام وفى اللام من قوله للعبيد اما الباء فنقول الباء تدخل فى المفعول به حيث لا يكون تعلق الفعل به ظاهرا ولا يجوز ادخالها فيه حيث يكون فى غاية الظهور ويجوز الادخال والترك حيث لا يكون فى غاية الظهور ولا فى غاية الخفاء فلا يقال ضربت بزيد لظهور تعلق الفعل بزيد ولا يقال خرجت وذهبت زيدا بدل قولنا خرجت وذهبت بزيد لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما ويقال شكرته وشكرت له للتوسط فكذلك خبر ما لما كان مشبها بالمفعول وليس فى كونه فعلا غير ظاهر غاية الظهور لان الحاق الضمائر التى تلحق بالافعال الماضية كالتاء والنون فى قوله لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلا كما فى قولك كنت وكنا لكن فى الاستقبال بين الفرق حيث تقول يكون وتكون وكن ولا تقول ذلك فى ليس وما يشبه بها فصار تا كالفعل الذى لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور فجاز ان يقال ليس زيد جاهلا وليس زيد بجاهل كما يقال مسحته ومسحت به وغير ذلك مما تعدى بنفسه وبالباء ولم يجز ان يقال كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج لان صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية وهذا يؤيد قول من قال ماهذا بشر وهذا ظاهر (البحث الثانى) لو قال كان ينبغى ان لا يجوز اخلاء خبر ما عن الباء كما لا يجوز ادخال الباء فى خبر كان وخبر ليس يجوز فيه الامران وتقرير هذا السؤال هو ان كان لما كان فعلا ظاهرا جعلناه بمنزلة ضرب حيث منعنا دخول الباء فى خبره كما منعناه فى مفعوله وليس لما كان فعلا من وجه نظرا الى قولنا لست ولسنا ولستم ولم يكن فعلا ظاهرا نظرا الى صيغ الاستقبال والامر جعلناه متوسطا وجوزنا ادخال الباء فى خبره وتركه كما قلنا فى مفعول شكرته وشكرت له وما لم يكن فعلا بوجه كان ينبغى ان يكون بمنزلة الفعل الذى لا يتعدى الى المفعول الا بالحرف وكان ينبغى ان لا يجيء خبره الا مع الباء كما لا يجيء مفعول ذهب الا مع الباء ويؤيد هذا انا فرقنا بين ما وليس وكان وجعلنا الكل واحدة مرتبة ليست للاخرى فجوزنا تأخير كان فى اللفظ حيث جوزنا ان يقول القائل زيد خارجا كان وما جوزنا زيد خارجا ليس لان كان فعل ظاهر وليس دونه فى الظهور وما جوزنا تأخير ما عن احد شطرى الكلام ايضا بخلاف ليس حيث لا يجوز ان يقول القائل زيد ما بظلام الا عند بعيد ما يرجع اليه فيقول زيد ماهو بظلام

وقوله تعالى (وما انا بظلام للعبيد) وارد لتحقيق الحق على الوجه الكلى وتبيين ان عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى من غير استحقاق له منهم بل انما ذلك بما صدر عنهم من الجنايات الموجبة حسبما اشير اليه آنفا اى وما انا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم والتعبير عنه بالظلم مع ان تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة اهل السنة فضلا

فصار بينهما ترتيب ماوجه وليس يؤخر عن احد الشطرين ولا يؤخر فى الكلام بالكلية
وكان يؤخر بالكلية لماذكرنا من الظهور والخفاء فكذلك القول فى الحاق الباء كان ينبغى
ان لايصح اخلاء خبر ما عن الباء وفى ليس يجوز الامران وفى كان لايجوز الادخال وهذا
هو المعتمد عليه فى لغة بنى تميم حيث قالوا ان مابعدما اذاجعل خبرا يجب ادخال الباء عليه
فان لم تدخل عليه يكون ذلك معربا على الابتداء او على وجه آخر ولايكون خبرا والجواب
عن السؤال هو ان نقول الاكثر ادخال الباء فى خبر ما ولاسيما فى القرآن قال الله
تعالى وماانت بهادى العمى عن ضلالتهم وماانت بمسمع وماهم بخارجين وماأنابظلام
واما الوجوب فلالان ماشبه ليس فى المعنى فى الحقيقة وخالفها فى العوارض وهو لحوق
التاء والنون واما فى المعنى فهما لنفى الحال فالشبه مقتض لجواز الاخلاء والمخالفة مقتضية
لوجوب الادخال لكن ذلك المقتضى اقوى لانه راجع الى الامر الحقيقى وهذا
راجع الى الامر العارضى ومابالنفس اقوى ممابالعارض واما التقديم والتأخير فلايلزم
منه وجوب ادخال الباء • واما الكلام فى اللام فنقول اللام لتحقيق معنى الاضافة يقال
غلام زيد وغلام لزيد وهذا فى الاضافات الحقيقية باثبات التنوين فيه واما فى الاضافات
اللفظية كقولنا ضارب زيد وقاتل عمرو فان الاضافة فيه غير معنوية فاذاخرج الضارب
عن كونه مضافا باثبات التنوين فقدكان يجب ان يعاد الاصل وينصب ماكان مضافا اليه
الفاعل بالمفعول به ولايؤتى باللام لانه حينئذ لم تبق الاضافة فى اللفظ ولم تكن اضافة فى
المعنى غير ان اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول اضعف من تعلق
الفعل بالمفعول وصار من باب الافعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها الى
المفعول بحرف وغير حرف فلذلك جاز ان يقال ضارب زيدا وضارب لزيد كما جاز مسحته
ومسحت به وشكرته وشكرت له وذلك اذاتقدم المفعول كما فى قوله تعالى ان كنتم للرؤيا
تعبرون للضعف (واما المعنوية فباحث الاول) الظلام مبالغة فى الظالم ويلزم من اثباته
اثبات اصل الظلم اذاقال القائل هو كذاب يلزم ان يكون كاذبا كثر كذبه ولايلزم من نفيه
نفى اصل الكذب لجواز ان يقال فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب احيانا ففى
قوله تعالى وماأنابظلام لايفهم منه نفى اصل الظلم والله ليس بظالم فاالوجه فيه نقول
الجواب عنه من ثلاثة اوجه (احدها) ان الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر وحينئذ
يكون اللام فى قوله للعبيد لتحقيق النسبة لان الفعال حينئذ بمعنى ذى ظلم وهذا وجه جيد
مستفاد من الامام زين الدين أدام الله فوائده (والثانى) ماذكره الزمخشرى وهو ان ذلك
امر تقديرى كأنه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك
غاية الظلم وماأنابذلك فيلزم من نفى كونه ظلاما نفى كونه ظالما ويحقق هذا الوجه اظهار
لفظ العبيد حيث يقول ماأنا بظلام للعبيد اى فى ذلك اليوم الذى امتلأت جهنم مع
سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق لى طاقة بهم ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام

(استكثار)

عن كونه ظلما مفرطا لبيان كمال
نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره
بصورة مايستحيل صدوره عنه
سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة
لتأكيد هذا المعنى بابراز ماذكر
من التعذيب بغير ذنب فى معرض
المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية
جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم
لعبده وظلام لعبيده على انها

استكثار فذلك اليوم مع انى الق فيها عددا لاحصر له لأكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم وهذا مناسب وذلك لانه تعالى خصص النفى بالزمان حيث قال ماانا بظلام يوم نقول اى وماانا بظلام فى جميع الازمان ايضا وخصص بالعبيد حيث قال وماانا بظلام للعبيد ولم يطلق فكذلك خصص النفى بنوع من انواع الظلم ولم يطلق فلم يلزم منه ان يكون ظالما فى غير ذلك الوقت وفى حق غير العبيد ان خصص والفائدة فى التخصيص انه اقرب الى التصديق من التعميم (الثالث) هذا يدل على ان التخصيص بالذكر لايدل على نفى ماعداه لانه نفى كونه ظلاما ولم يلزم منه نفى كونه ظالما ونفى كونه ظلاما للعبيد ولم يلزم منه نفى كونه ظلاما لغيرهم كما قال فى حق الآدمى ومنهم ظالم لنفسه (البحث الثانى) قال ههنا وماانا بظلام للعبيد من غير اضافة وقال ماانت بهادى العمى وماانت بمسمع من فى القبور على وجه الاضافة فما الفرق بينهما نقول الكلام قد يخرج اولا مخرج العموم ثم يخصص لامر ما لالغرض التخصيص يقول القائل فلان يعطى ويمنع ويكون غرضه التعميم فان سأل سائل يعطى من ويمنع من يقول زيدا وعمرا ويأتى بالمخصص لالغرض التخصيص وقد يخرج اولا مخرج الخصوص فيقول فلان يعطى زيدا ماله اذا علمت هذا فقوله ماانا بظلام كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم فأتى بلفظ العبيد لالكون عدم الظلم مختصا بهم بل لكونهم اقرب الى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى واما النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى نفسه هاديا وانما أراد نفى ذلك الخاص فقال ما انت بهادى العمى وماقال ماانت بهاد وكذلك قوله تعالى أليس الله بكاف عبده (البحث الثالث) العبيد يحتمل ان يكون المراد منه الكفار كما فى قوله تعالى ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول يعنى اعذبهم وماانا بظلام لهم ويحتمل ان يكون المراد منه المؤمنين ووجهه هو ان الله تعالى يقول لو بدلت القول ورحمت الكافر لكنت فى تكليف العباد ظالما لعبادى المؤمنين لانى منعتهم من الشهوات لاجل هذا اليوم فان كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ماناله المؤمن لكان اتيانه بما اتى به من الايمان والعبادة غير مفيد فائدة وهذا معنى قوله تعالى لايستوى اصحاب النار واصحاب الجنة اصحاب الجنة هم الفائزون ومعنى قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون وقوله تعالى لايستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر ويحتمل ان يكون المراد التعميم * ثم قال تعالى (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) العامل فى يوم ماذا فيه وجوه (الاول) ماانا بظلام مطلقا (والثانى) الوقت حيث قال ماانا يوم كذا ولم يقل ماانا بظلام فى سائر الازمان وقد تقدم بيانه فان قيل فما فائدة التخصيص نقول النفى الخاص اقرب الى التصديق من النفى العام لان المتوهم ذلك فان قاصر النظر يقول يوم يدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالما له ولا يقول بأنه يوم خلقه برزقه وبربيه يكون ظالما ويتوهم انه يظلم عبده بادخاله النار ولايتوهم انه يظلم نفسه او غير عبيده المذكورين ويتوهم انه من يدخل خلقا كثيرا لايجوزه حد ولايدركه عد النار

مبالغة كما لا كيفا (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) سؤال وجواب جئ بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل امرها والمعنى انها مع اتساعها وتباعد اقطارها نطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ او انها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ او انها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم وقرئ يقول بالياء والمزيد اما مصدر كالمحيد والمجيد او مفعول كالمبيع ويوم اما منصوب باذكر

ويتركهم فيها زمانا لا نهاية له كثير الظلم فنفى ما يتوهم دون ما لا يتوهم وهو قوله هل امتلأت بيان لتصديق قوله تعالى لأملأن جهنم وقوله هل من مزيد فيه وجهان (احدهما) انه لبيان استكثارها الداخلين كما ان من يضرب غيره ضربا مبرحا او يشتمه شتما قبيحا فاحشا يقول المضروب هل بقي شيء آخر ويدل عليه قوله تعالى لأملأن لان الامتلاء لا بد من ان يحصل فلا يبقى في جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد و (ثانيهما) هو انها تطلب الزيادة وحينئذ لو قال قائل فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى لأملأن نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان هذا الكلام ربما يقع قبل ادخال الكل وفيه لطيفة وهي ان جهنم تغيظ على الكفار فتطلبهم ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء احد من الكفار خارجا فيدخل العاصي من المؤمنين فيبرد ايمانه حرارتها ويسكن ايقانه غيظها فتسكن وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض الاخبار ان جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه والمؤمن جبار متكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله (الثاني) ان تكون جهنم تطلب اولا سعة في نفسها ثم مزيدا في الداخلين لظنها بقاء احد من الكفار (الثالث) ان الملء له درجات فان الكيل اذا ملئ من غير كبس صح ان يقال ملئ وامتلأ فاذا كبس يسع غيره ولا ينافي كونه ملآن اولا فكذلك في جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقا للمكان عليهم وزيادة في التعذيب والمزيد جاز ان يكون بمعنى المفعول اي هل بقي احد تزيده به ❊ ثم قال تعالى (وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد) بمعنى قربا او بمعنى قربت والاول أظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه التقريب مع ان الجنة مكان والامكنة يقرب منها وهي لا تقرب نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان الجنة لا تزال ولا تنقل ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال اليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب فان قيل فعلى هذا ليس ازلاف الجنة من المؤمن بأولى من ازلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله وازلفت الجنة نقول اكراما للمؤمن كأنه تعالى اراد بيان شرف المؤمن المتقي انه ممن يمشي اليه ويدنى منه (الثاني) قربت من الحصول في الدخول لا بمعنى القرب المكاني يقال يطلب من الملك امرا خطيرا والملك بعيد عن ذلك ثم اذا رأى منه مخايل انجاز حاجته يقال قرب الملك وما زلت انهي اليه حالك حتى قربته فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول لانها بما فيها لا قيمة لها ولا قدرة للمكلف على تحصيلها لولا فضل الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ما من احد يدخل الجنة الا بفضل الله تعالى فقيل ولا انت يا رسول الله فقال ولا أنا وعلى هذا فقوله غير نصب على الحال تقديره قربت من الحصول ولم تكن بعيدة في المسافة حتى يقال كيف قربت (الثالث) هو ان الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء الى الارض فيقربها للمؤمن وأما ان قلنا انها قربت فمعناه جمعت محاسنها كما قال تعالى فيها ما تشتهي الانفس (المسئلة الثانية) على هذا الوجه وعلى قولنا قربت تقريب حصول ودخول فهو يحتمل وجهين (احدهما) ان

(يكون)

او انذر او ظرف لنفخ فيكون ذلك حينئذ اشارة اليه من غير حاجة الى تقدير مضاف او لمقدر مؤخر اي يكون من الاحوال والاهوال ما يقصر عنه المقال (وازلفت الجنة للمتقين) شروع في بيان حال المؤمنين بعد النفخ ومجيء النفوس الى موقف الحساب وقد مر سر تقديم بيان حال الكفرة عليه وهو عطف على نفخ اي قربت للمتقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم محشورون اليها فائزون بها وقوله تعالى (غير بعيد) تأكيد للازلاف

يكون قوله تعالى وازلفت اى فى ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك واما فى جمع المحاسن فربما يزيد فيها زينة وقت الدخول واما فى الحصول فلأن الدخول قبل ذلك كان مستبعدا اذلم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة فى الدنيا ووعده فى الآخرة فقربت فى ذلك اليوم (وثانيهما) ان يكون معنى قوله تعالى وازلفت الجنة اى ازلفت فى الدنيا اما بمعنى جمع المحاسن فلانها مخلوقة وخلق فيها كل شئ واما بمعنى تقريب الحصول فلانها تحصل بكلمة حسنة واما على تفسير الازلاف بالتقريب المكانى فلا يكون ذلك محمولا الا على ذلك الوقت اى ازلفت فى ذلك اليوم للمتقين (المسئلة الثالثة) ان حمل على القرب المكانى فما الفائدة فى الاختصاص بالمتقين مع ان المؤمن والكافر فى عرصة واحدة فنقول قد يكون شخصان فى مكان واحد وهناك مكان آخر هو الى احدهما فى غاية القرب وعن الآخر فى غاية البعد مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العدو واذا اجتمعا فى موضع وبحضرتهما شئ لا تصل اليه اليد بالمد فذلك بعيد عن المقطوع وهو غاية القرب من العادى او نقول اذا اجتمع شخصان فى مكان واحدهما احيط به سد من حديد ووضع بقربه شئ لا تناله يده بالمد والآخر لم يحط به ذلك السد يصح ان يقال هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود وقوله تعالى غير بعيد يحتمل ان يكون نصبا على الظرف يقال اجلس غير بعيد منى اى مكانا غير بعيد وعلى هذا فقوله غير بعيد يفيد التأكيد وذلك لان القريب قد يكون بعيدا بالنسبة الى شئ فان المكان الذى هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة الى البلاد النائية وبعيد بالنسبة الى منتزهات المدينة فاذا قال قائل ايما اقرب المسجد الاقصى او البلد الذى هو باقصى المغرب او المشرق يقال له المسجد الاقصى قريب وان قال ايهما اقرب هو او البلد يقال له هو بعيد فقوله تعالى ازلفت غير بعيد اى قربت قربا حقيقيا لا نسبيا حيث لا يقال فيها انها بعيدة عنه مقايسة او مناسبة ويحتمل ان يكون نصبا على الحال تقديره قربت حال كون ذلك غاية التقريب او نقول على هذا الوجه يكون معنى ازلفت قربت وهى غير بعيد فيحصل المعنيان جميعا الاقراب والاقتراب او يكون المراد القرب والحصول لا المكان فيحصل معنيان القرب المكانى بقوله غير بعيد والحصول بقوله ازلفت وقوله غير بعيد مع قوله ازلفت على التأنيث يحتمل وجوها (الاول) اذا قلنا ان غير نصب على المصدر تقديره مكانا غير بعيد (الثانى) التذكير فيه كما فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب اجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول (الثالث) ان يقال غير منصوب نصبا على المصدر على انه صفة مصدر محذوف تقديره ازلفت الجنة ازلافا غير بعيد اى عن قدرتنا فانا قد ذكرنا ان الجنة مكان والمكان لا يقرب وانما يقرب منه فقال الازلاف غير بعيد عن قدرتنا فانا نطوى المسافة بينهما ❁ ثم قال تعالى (هذا ما توعدون) قال الزمخشرى هى جملة معترضة بين كلامين وذلك لان قوله تعالى لكل اواب بدل عن المتقين كأنه تعالى قال ازلفت الجنة للمتقين لكل اواب كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم غير ان ذلك بدل

اى مكانا غير بعيد بحيث يشاهدونها اوحال كونها غير بعيد اى شيئا غير بعيد ويجوز ان يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذى يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث اولتأويل الجنة بالبستان (هذا ما توعدون) اشارة الى الجنة والتذكير لما ان المشار اليه هو المسمى من غير ان يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من احكام اللفظ العربى كما مر فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وقوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا

الاشتمال وهذا بدل الكل وقال هذا اشارة الى الثواب اى هذا الثواب ماتوعدون اوالى الازلاف المدلول عليه بقوله ازلفت اى هذا الازلاف ماوعدتم به ويحتمل ان يقال هو كلام مستقل ووجهه ان ذلك محمول على المعنى لامايوعد به يقال للموعود هذا لك وكأنه تعالى قال هذا ماقلت انه لكم * ثم قال تعالى (لكل اواب حفيظ) بدلا عن الضمير فى توعدون وكذلك ان قرئ بالياء يكون تقديره هذا لكل اواب بدلا عن الضمير والاواب الرجاع قيل هو الذى يرجع من الذنوب ويستغفر والحفيظ الحافظ الذى يحفظ توبته من النقض ويحتمل ان يقال الاواب هو الرجاع الى الله بفكره والحفيظ الذى يحفظ الله فى ذكره اى رجع اليه بالفكر فيرى كل شئ واقعا به وموجودا منه ثم اذا انتهى اليه حفظه بحيث لاينساه عند الرخاء والنعماء والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة اى يكون كثير الاوب شديد الحفظ * وفيه وجه آخر ادق وهو ان الاواب هو الذى رجع عن متابعة هواه فى الاقبال على ماسواه والحفيظ هو الذى اذا ادركه بأشرف قواه لايتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسير المتقى لان المتقى هو الذى اتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره والاواب هو الذى لايعترف بغيره ويرجع عن كل شئ غير الله تعالى والحفيظ هو الذى لم يرجع عنه الى الشئ مماعداه * ثم قال تعالى (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) وفى من وجوه (احدها) وهو اغربها انه منادى كأنه تعالى قال يامن خشى الرحمن ادخلوها بسلام وحذف حرف النداء شائع (ثانيها) من بدل عن كل فى قوله تعالى لكل اواب من غير اعادة حرف الجر تقديره ازلفت الجنة لمن خشى الرحمن بالغيب (ثالثها) فى قوله تعالى اواب حفيظ موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول لكل شخص اواب او عبد أو غير ذلك فقوله تعالى من خشى الرحمن بالغيب بدل عن ذلك الموصوف هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشرى وقال لايجوز ان يكون بدلا عن اواب او حفيظ لان اواب وحفيظ قد وصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل فى حكم المبدل منه فتكون من موصوفا بها ومن لايوصف بها لايقال الرجل من جاءنى جالسنى كما يقال الرجل الذى جاءنى جالسنى هذا تمام كلام الزمخشرى فان قال قائل اذا كان من والذى يشتركان فى كونهما من الموصولات فلماذا لايشتركان فى جواز الوصف بهما نقول الامر معقول نبينه فى ما ومنه يتبين الامر فيه فنقول ما اسم مبهم يقع على كل شئ فمفهومه هو شئ لكن الشئ هو اعم الاشياء فان الجوهر شئ والعرض شئ والواجب شئ والممكن شئ والاعم قبل الاخص فى الفهم لانك اذا رأيت من البعد شبحا تقول اولا انه شئ ثم اذا ظهر لك منه مايختص بالناس تقول انسان فاذا بان لك انه ذكر قلت هو رجل فاذا وجدته ذاقوة تقول شجاع الى غير ذلك فالاعم اعرف وهو قبل الاخص فى الفهم فمفهوم ماقبل كل شئ فلا يجوز ان يكون صفة لان الصفة بعد الموصوف هذا من حيث المعقول واما من حيث النحو فلان الحقائق لايوصف بها فلا يقال جسم رجل جاءنى كما يقال جسم ناطق جاءنى لان الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة

هذا ماوعدنا الله ورسوله ويجوز ان يكون ذلك لتذكير الخبر وقيل هو اشارة الى الثواب وقيل الى مصدر ازلفت وقرئ يوعدون والجملة اما اعتراض بين البدل والمبدل منه واما مقدر بقول هو حال من المتقين او من الجنة والعامل ازلفت اى مقولا لهم او مقولا فى حقها هذا ماتوعدون (لكل اواب) اى رجاع الى الله تعالى بدل من المتقين باعادة الجار (حفيظ) حافظ لتوبته من النقض وقيل هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل هو الحافظ لاوامر الله تعالى وقيل لما استودعه الله تعالى من حقوقه (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)

تقوم بنفسها الا بغيرها وكل ما يقع وصفا للغير يكون معناه شيء له كذا فقولنا عالم معناه شيء له علم او عالمية فيدخل في مفهوم الوصف شيء مع امر آخر وهو له كذا لكن ما لمجرد شيء فلا يوجد فيه ما يتم به الوصف وهو الامر الآخر الذي معناه ذو كذا فلم يجز ان يكون صفة واذا بان القول فمن في العقلاء كما في غيرهم وفيهم فمن معناه انسان او ملك او غيرهما من الحقائق العاقلة والحقائق لا تقع صفات واما الذي يقع على الحقائق والاوصاف ويدخل في مفهومه تعريف اكثر مما يدخل في مجاز الوصف بما دون من ❁ وفي الآية لطائف معنوية (الاولى) الخشية والخوف معناهما واحد عند اهل اللغة لكن بينهما فرق وهو ان الخشية من عظمة المخشي وذلك لان تركيب حروف خ ش ى في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهما جميعا مهيبان والخوف خشية من ضعف الخاشي وذلك لان تركيب خ و ف في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن تضرعا وخيفة وتضرعا وخفية والمخفي فيه ضعف كالخائف اذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهي ان الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فان الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وانما الله عظيم يخشاه كل قوي وهم من خشية ربهم مشفقون مع ان الملائكة اقوياء وقال تعالى وتخشى الناس والله احق ان تخشاه اى تخافهم اعظاما لهم اذ لا ضعف فيك بالنسبة اليهم وقال تعالى لا تخف ولا تحزن اى لا تخف ضعفا فانهم لا عظمة لهم وقال يخافون يوما حيث كان عظمة اليوم بالنسبة الى عظمة الله ضعيفة وقال لا تخافوا ولا تحزنوا اى بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فان المكروهات كلها مدفوعة عنكم وقال تعالى خائفا يترقب وقال انى اخاف ان يقتلون لوحدته وضعفه وقال هرون انى خشيت لعظمة موسى في عين هرون لا لضعف فيه وقال فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا حيث لم يكن لضعف فيه وحاصل الكلام انك اذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي واذا نظرت الى استعمال الخوف وجدته مستعملا لخشية من ضعف الخائف وهذا في الاكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية (الثانية) قال الله تعالى ههنا خشي الرحمن مع ان وصف الرحمة غالبا يقابل الخشية اشارة الى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة وقال تعالى لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله اشارة الى ذم الكافر حيث لم تحمله الالوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال انما يخشى الله من عباده العلماء لان انما للحصر فكان فيه اشارة الى ان الجاهل لا يخشاه فذكر الله ليبين ان عدم خشيته مع قيام المقتضي وعدم المانع وهو الرحمة وقد ذكرنا ذلك في سورة يس ونزيد ههنا شيئا آخر وهو ان نقول لفظة الرحمن اشارة الى مقتضى الخشية لا الى المانع

بدل بعد بدل من موصوف او اب ولا يجوز ان يكون في حكمه لان من لا يوصف به ولا يوصف الا بالذي او مبتدأ خبره

وذلك لان الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو فى الدنيا رحمان حيث اوجدنا بالرحمة ورحيم حيث ابقى بالرزق ولا يقال لغيره رحيم لان البقاء بالرزق قد يظن ان مثل ذلك يأتى ممن يطعم المضطر فيقال فلان هو الذى ابقى فلانا وهو فى الآخرة ايضا رحمان حيث يوجدنا ورحيم حيث يرزقنا وذكرنا ذلك فى تفسير الفاتحة حيث قلنا قال بسم الله الرحمن الرحيم اشارة الى كونه رحمانا فى الدنيا حيث خلقنا رحيما فى الدنيا حيث رزقنا رحمة ثم قال مرة اخرى بعد قوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم اى هو رحمن مرة اخرى فى الآخرة بخلقنا ثانيا واستدلينا عليه بقوله بعد ذلك مالك يوم الدين اى بخلقنا ثانيا ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك فى ذلك اليوم اذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الانسان لايكون خوفه خشية من غيره فان القائل يقول لغيره اخاف منك ان تقطع رزقى او تبدل حياتى فاذا كان الله تعالى رحمانا منه الوجود ينبغى ان يخشى فان من بيده الوجود بيده العدم وقال صلى الله عليه وسلم خشية الله رأس كل حكمة وذلك لان الحكيم اذا تفكر فى غير الله وجده محل التغير يجوز عليه العدم فى كل طرفة عين وربما يقدر الله عدمه قبل ان تمكن من الاضرار لان غير الله ان لم يقدر الله ان يضر لا يقدر على الضرر وان قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المعذب او المعذب واما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه وقال تعالى بالغيب اى كانت خشيتهم قبل ظهور الامور حيث ترى رأى العين وقوله تعالى وجاء بقلب منيب اشارة الى صفة مدح اخرى وذلك لان الخاشى قد يهرب ويترك القرب من المخشى ولا ينتفع واذا علم المخشى انه تحت حكمه تعالى علم انه لا ينفعه الهرب فيأتى المخشى وهو خاش فقال وجاء ولم يذهب كما يذهب الآبق وقوله تعالى بقلب منيب الباء فيه يحتمل وجوها ذكرناها فى قوله تعالى وجاءت سكرة الموت بالحق (احدها) التعدية اى احضر قلبا سليما كما يقال ذهب به اذا اذهبه (ثانيها) المصاحبة يقال اشترى فلان الفرس بسرجه اى مع سرجه وجاء فلان بأهله اى مع اهله (ثالثها) وهو اعرفها الباء للسبب يقال ما اخذ فلان الا بقول فلان وجاء بالرجاء له فكأنه تعالى قال جاء وما جاء الا بسبب انابة فى قلبه علم انه لا مرجع الا الى الله فجاء بسبب قلبه المنيب والقلب المنيب كالقلب السليم فى قوله تعالى اذ جاء ربه بقلب سليم اى سليم من الشرك ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع الى الله فكان منيبا ومن اناب الى الله برئ من الشرك فكان سليما ❊ ثم قال تعالى (ادخلوها بسلام) فالضمير عائد الى الجنة التى فى وازلفت الجنة اى لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم انها منزلكم بقوله هذا ما توعدون اذن لهم فى دخولها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع من نقول ان قرئ ما توعدون بالتاء فهو ظاهر لايخفى ان الخطاب مع الموعودين وان قرئ بالياء فالخطاب مع المتقين اى يقال للمتقين ادخلوها (المسئلة الثانية) هذا يدل على ان ذلك يتوقف على الاذن وفيه من الانتظار ما لا يليق بالاكرام نقول ليس كذلك فان من دعا مكرما الى بستانه يفتح له الباب ويجلس

(ادخلوها) بتأويل يقال لهم ادخلوها والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى بالغيب متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خشى اومفعوله اوصفة لمصدره اى خشية ملتبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب عنه اوهو غائب عن الاعين لايراه احد والتعرض لعنوان الرحمانية للاشارة بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته اوبان علمهم بسعة رحمته تعالى لايصدهم عن خشيته تعالى وانهم عاملون بموجب قوله تعالى نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم ووصف القلب بالانابة لما ان العبرة برجوعه الى الله تعالى (بسلام) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ادخلوها اى ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم اوبسلام من جهة الله تعالى وملائكة

فى موضعه ولا يقف على الباب من يرحبه ويقول اذا بلغت بستانى فادخله وان لم يكن هناك احد يكون قد اداخل باكرامه بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون ادخل باسم الله يدل على الاكرام قوله تعالى بسلام كما يقول المضيف ادخل مصاحبا بالسلامة والسعادة والكرامة والبناء للمصاحبة فى معنى الحال اى سالمين مقرونين بالسلامة او معناه ادخلوها مسلما عليكم يسلم الله وملائكته عليكم ويحتمل عندى وجها آخر وهو ان يكون ذلك ارشادا للمؤمنين الى مكارم الاخلاق فى ذلك اليوم كما ارشدوا اليها فى الدنيا حيث قال تعالى لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها فكأنه تعالى قال هذه داركم ومنزلكم ولكن لا تتركوا حسن عادتكم ولاتخلوا بمكارم اخلاقكم فادخلوها بسلام ويصيحون سلاما على من فيها ويسلم من فيها عليهم ويقولون السلام عليكم ويدل عليه قوله تعالى الاقيلا سلاما سلاما اى يسلمون على من فيها ويسلم من فيها عليهم وهذا الوجه ان كان منقولا فنعم وان لم يكن منقولا فهو مناسب معقول ايده دليل منقول قال تعالى (ذلك يوم الخلود) حتى لايدخل فى قلبهم ان ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى فى قلبهم حسرته فان قيل المؤمن قد علم انه اذا دخل الجنة خلد فيها فا الفائدة فى التذكير والجواب عنه من وجهين (احدهما) ان قوله ذلك يوم الخلود قول قاله الله فى الدنيا اعلاما واخبارا وليس ذلك قولا يقوله عند قوله ادخلوها فكأنه تعالى اخبرنا فى يومنا ان ذلك اليوم يوم الخلود (ثانيهما) اطمئنان القلب بالقول اكثر قال الزمخشرى فى قوله يوم الخلود اضمار تقديره ذلك يوم تقدير الخلود ويحتمل ان يقال اليوم يذكر ويراد الزمان المطلق سواء كان يوما او ليلا تقول يوم يولد لفلان ابن يكون السرور العظيم ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلا فتريد به الزمان فكأنه تعالى قال ذلك زمان الاقامة الدائمة * ثم قال تعالى (لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد) وفى الآية ترتيب فى غاية الحسن وذلك لانه تعالى بدأ ببيان اكرامهم حيث قال وازلفت الجنة للمتقين ولم يقل قرب المتقون من الجنة بيانا للاكرام حيث جعلهم ممن تنقل اليهم الجنان بما فيها من الحسان ثم قال لهم هذا لكم بقوله هذا ماتوعدون بين انه اجر اعمالهم الصالحة بقوله لكل اواب حفيظ وقوله من خشى الرحمن فان تصرف المالك الذى ملك شيئا بعوض اتم فيه من تصرف من ملك بغير عوض لامكان الرجوع فى التمليك بغير عوض ثم زاد فى الاكرام بقوله ادخلوها كما بينا ان ذلك اكرام لان من فتح بابه للناس ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين لايكون قد اتى بالاكرام التام ثم قال ذلك يوم الخلود اى لاتخافوا ما لحقكم من قبل حيث اخرج ابويكم منها فهذا دخول لاخروج بعده منها * ثم لما بين انهم فيها خالدون قال لاتخافوا انقطاع ارزاقكم وبقاءكم فى حاجة كما كنتم فى الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج بل لكم الخلود ولا ينفد ماتمتعون به فلكم ماتشاؤن فى اى وقت تشاؤن والى الله المنتهى وعند الوصول اليه والمثول بين يديه فلا يوصف مالديه ولا يطلع احد عليه وعظمة عنده تدلك

(ذلك) اشارة الى الزمان الممتد الذى وقع فى بعض منه ماذكر من الامور (يوم الخلود) اذلا انتهاء له ابدا (لهم مايشاؤن) من فنون المطالب كائنا ما كان (فيها) متعلق بيشاؤن وقيل بمحذوف هو حال من الموصول او من عائده المحذوف من صلته (ولدينا مزيد) هو مالا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالى الكرامات التى لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقيل ان السحاب تمر باهل الجنة فتمطرهم الحور فتقول نحن المزيد الذى قال تعالى ولدينا مزيد

على فضيلة ما عنده هذا هو الترتيب واما التفسير ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال تعالى ادخلوها بسلام على سبيل المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم ما الحكمة فيه الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان قوله تعالى ادخلوها مقدر فيه يقال لهم اى يقال لهم ادخلوها فلا يكون على هذا التفاتا (الثانى) هو انه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطريقين كانه تعالى يقال اكرمهم به فى حضورهم ففى حضورهم الحبور وفى غيبتهم الحور والقصور (الثالث) هو ان يقال قوله تعالى لهم جاز ان يكون كلاما مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا ان لهم مايشاؤن فيها فأحضروا بين ايديهم مايشاؤن واما انا فعندى مالا يخطر ببالهم ولا تقدرون انتم عليه (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان لفظ مزيد يحتمل ان يكون معناه الزيادة فيكون كما فى قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة ويحتمل ان يكون بمعنى المفعول اى عندنا ما نزيده على ما يرجون ومايكون مما يشتهون ❊ ثم قال تعالى (وكم اهلكنا من قرن هم اشد منهم بطشا) لما انذرهم بما بين ايديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم انذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والاهلاك المدرك وبين لهم حال من تقدمهم وقد تقدم تفسيره فى مواضع والذى يختص بهذا الموضع امور (احدها) اذا كان ذلك للجمع بين الانذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل فلم توسطهما قوله تعالى وازلفت الجنة للمتقين الى قوله ولدينا مزيد نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع فذكر حال الكفور المعاند وحال الشكور العابد فى الآخرة ترهيبا وترغيبا ثم قال تعالى ان كنتم فى شك من العذاب الابدى الدائم فانتم فى ريب من العذاب العاجل المهلك الذى اهلك امثالكم فان قيل فلم لم يجمع بين الترهيب والترغيب فى العاجلة كما جمع بينهما فى الآجلة ولم يذكر حال من اسلم من قبل وانعم عليه كما ذكر حال من اشرك به فاهلكه نقول لان النعمة كانت قد وصلت اليهم وكانوا متقلبين فى النعم فلم يذكرهم به وانما كانوا غافلين عن الهلاك فانذرهم به واما فى الآخرة فكانوا غافلين عن الامرين جميعا فاخبرهم بهما (الثانى) ❊ قوله تعالى (فنقبوا فى البلاد) فى معناه وجوه (احدها) هو ما قال تعالى فى حق ثمود الذين جابوا الصخر بالواد من قوتهم خرقوا الطرق ونقبوها وقطعوا الصخور وثقبوها (ثانيها) نقبوا اى ساروا فى الاسفار ولم يجدوا ملجأ ومهربا وعلى هذا يحتمل يكون المراد اهل مكة اى هم ساروا فى الاسفار ورأوا ما فيها من الآثار (ثالثها) فنقبوا فى البلاد اى صاروا نقباء فى الارض اراد ما كادهم بطشهم وقوتهم ويدل على هذا الفاء لانها تصير حينئذ مفيدة ترتب الامر على مقتضاه تقول كان زيد اقوى من عمرو فغلبه وكان عمرو مريضا فغلبه زيد كذلك ههنا قال تعالى هم اشد منهم بطشا فصاروا نقباء فى الارض وقرئ فنقبوا بالتشديد وهو ايضا يدل على ما ذكرنا فى الوجه الثالث لان التنقيب البحث وهو من نقب بمعنى صار نقيبا (الثالث) ❊ قوله تعالى (هل من محيص) يحتمل وجوها ثلاثة (الاول) على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل ان يقال هو مفعول اى بحثوا عن المحيص

(وكم اهلكنا قبلهم) اى قبل قومك (من قرن هم اشد منهم بطشا) اى قوة كعاد واضرابها (فنقبوا فى البلاد) اى خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا فى اقطارها اوجالوا فى اكناف الارض كل مجال حذار الموت واصل التنقيب والنقب التنقير عن الامر والبحث والطلب والفاء للدلالة على ان شدة بطشهم اقدرتهم على التنقيب فيل هى عاطفة فى المعنى كانه قيل اشتد بطشهم فنقبوا الخ وقرئ بالتخفيف (هل من محيص) اى هل لهم من مخلص من امر الله تعالى والجملة اما على اضمار قول هو حال من واو نقبوا اى فنقبوا فى البلاد قائلين هل من محيص او على اجراء التنقيب لما فيه من معنى التفتيش مجرى القول او هو كلام مستأنف واردلنفى ان يكون لهم محيص وقيل ضمير نقبوا لاهل مكة اى ساروا فى مسايرهم وأسفارهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لانفسهم ويعضده القراءة على صيغة الامر وقرئ فنقبوا بكسر القاف من النقب وهو ان ينتقب خف البعير اى اكثروا السير حتى نقبت اقدامهم او اخفاف ابلهم

هل من محيص (الثانى) على القراآت جيعا استفهام بمعنى الانكار اى لم يكن لهم محيص (الثالث) هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم اهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تعتمدون عليه والمحيص كالمحيد غير ان المحيص معدل ومهرب عن الشدة يدلك عليه قولهم وقعوا فى حيص بيص اى فى شدة وضيق والمحيد معدل وان كان لهم بالاختيار يقال حاد عن الطريق نظرا ولا يقال حاص عن الامر نظرا ❊ ثم قال تعالى (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) الاشارة الى الاهلاك ويحتمل ان يقال هو اشارة الى ماقاله من ازلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة وهى فى نفسها مصدر ذكره يذكره ذكرا وذكرى وقوله لمن كان له قلب قيل المراد قلب موصوف بالوعى اى لمن كان له قلب واع يقال لفلان مال اى كثير فالتنكير يدل على معنى فى الكمال والاولى ان يقال هو لبيان وضوح الامر بعد الذكر وان لاخفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل كما يقال اعطه شيئا ولو كان درهما ونقول الجنة لمن عمل خيرا ولو حسنة فكأنه تعالى قال ان فى ذلك لذكرى لمن يصح ان يقال له قلب وحينئذ فمن لايتذكر لاقلب له اصلا كما فى قوله تعالى صم بكم عمى حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم واعينهم مفيدة لما يطلب منها كذلك من لايتذكر كأنه لاقلب له ومنه قوله تعالى اولئك كالانعام بل هم اضل اى هم كالجماد وقوله تعالى كأنهم خشب مسندة اى لهم صور وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر ❊ وقوله تعالى (او القى السمع وهو شهيد) اى استمع والقاء السمع كناية فى الاستماع لان من لايسمع كأنه حفظ سمعه وامسكه فاذا ارسله حصل الاستماع فان قيل على قول من قال التنكير فى القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب فى قوله او القى السمع وذلك لانه يصير كأنه تعالى يقول ان فى ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واع ذكى يستخرج الامور بذكائه او القى السمع ويستمع من المنذر فيتذكر واما على قولك المراد من صح ان يقال له قلب ولو كان غير واع لايظهر هذا الحسن نقول على ماذكرنا ربما يكون الترتيب احسن وذلك لان التقدير يصير كأنه تعالى قال فيه ذكرى لكل من كان له قلب ذكى يستمع ويتعلم ونحن نقول الترتيب من الادنى الى الاعلى كأنه يقول فيه ذكرى لكل واحد كيف كان قلبه لظهور الامر فان كان لايحصل لكل احد فلمن يستمع حاصل ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى أو ألقى السمع حيث لم يقل او استمع لان الاستماع ينبىء عن طلب زائد واما القاء السمع فمعناه ان الذكرى حاصلة لمن لايمسك سمعه بل يرسله ارسالا وان لم يقصد السماع كالسامع فى الصوت الهائل فانه يحصل عند مجرد فتح الاذن وان لم يقصد السماع والصوت الخفى لايسمع الا باستماع وتطلب فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فان لم تحصل فلمن له اذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاد أو لم يجتهد فى سماعه فان قيل فقوله تعالى وهو شهيد للحال وهو يدل على ان القاء السمع بمجرده غير كاف نقول هذا يصحح ماذكرناه لانا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما فان لم تحصل له

(ان فى ذلك) اى فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر فى السورة (لذكرى) لتذكرة وعظة (لمن كان له قلب) اى قلب سليم يدرك به كنه مايشاهده من الامور ويتفكر فيها كما ينبغى فان من كان له ذلك يعلم ان مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير (او القى السمع) اى الى مايتلى عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم فان من فعله يقف على جلية الامر فينزجر عما يؤدى اليه من الكفر فكلمة او لمنع الخلو دون الجمع فان القاء السمع لايجدى بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى (وهو شهيد) اى حاضر بفطنته لان من لايحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للايذان بأن من عرى قلبه عنها كمن لاقلب له اصلا

فتحصل له اذا القى السمع وهو حاضر باله من القلب واما على الاول فمعناه من ليس له قلب واع يحصل له الذكر اذا القى السمع وهو حاضر بقلبه فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واع وقد فرض عدمه هذا اذا قلنا بان قوله وهو شهيد بمعنى الحال واذا لم نقل به فلا يرد ما ذكر وهو يحتمل غير ذلك بيانه هو ان يقال ذلك اشارة الى القرآن وتقريره هو ان الله تعالى لما قال فى اول السورة ق والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم وذكر ما يدفع تعجبهم وبين كونه منذرا صادقا وكون الحشر امرا واقعا ورغب وارهب بالثواب والعذاب آجلا وعاجلا واتم الكلام قال ان فى ذلك اى القرآن الذى سبق ذكره لذكرى لمن له قلب او لمن يستمع ثم قال وهو شهيد اى المنذر الذى تعجبتم منه شهيد كما قال تعالى انا ارسلناك شاهدا وقال تعالى ليكون الرسول عليكم شهيدا * ثم قال تعالى (ولقد خلقنا السموات والارض ومابينهما فى ستة ايام وما مسنا من لغوب) اعاد الدليل مرة أخرى وقد ذكرنا تفسير ذلك فى الم السجدة وقلنا ان الاجسام ثلاثة اجناس (احدها) السموات ثم حركها وخصصها بامور ومواضع وكذلك الارض خلقها ثم دحاها وكذلك ما بينهما خلق اعيانها واصنافها فى ستة ايام اشارة الى ستة اطوار والذى يدل عليه ويقرره هو ان المراد من الايام لا يمكن ان يكون هو المفهوم فى وضع اللغة لان اليوم عبارة فى اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الارض من الطلوع الى الغروب وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت يقال يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد وان اتفقت الولادة او الموت ليلا ولا يتعين ذلك ويدخل فى مراد العاقل لانه أراد باليوم مجرد الحين والوقت اذا علمت الحال من اضافة اليوم الى الافعال فافهم ما عند اطلاق اليوم فى قوله ستة ايام وقال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه فى ستة ايام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى وما مسنا من لغوب ردا عليهم والظاهر ان المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والارض ومابينهما وقوله تعالى وما مسنا من لغوب اى ما تعبنا بالخلق الاول حتى لا نقدر على الاعادة ثانيا والخلق الجديد كما قال تعالى أفعيينا بالخلق الاول واما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو اما تحريف منهم او لم يعلموا تأويله وذلك لان الاحد والاثنين ازمنة متميز بعضها عن بعض فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الاحد لكان الزمان متحققا قبل الاجسام والزمان لا ينفك عن الاجسام فيكون قبل خلق الاجسام اجسام أخر فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ومن العجب ان بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف فان الفلسفى لا يثبت لله تعالى صفة أصلا ويقول بان الله تعالى لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته والمشبهى يثبت لله صفة الاجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ثم ان اليهود فى هذا

(ولقد خلقنا السموات والارض ومابينهما) من اصناف المخلوقات (فى ستة ايام وما مسنا) بذلك مع كونه مما لا يفى به القوى والقدر (من لغوب) من اعياء ما ولا تعب فى الجملة وهذا رد على جهلة اليهود فى زعمهم انه تعالى بدأ خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

الكلام جمعوا بين المسئلتين فاخذوا بمذهب الفلاسفة في المسئلة التي هي اخص المسائل بهم وهي القدم حيث اثبتوا قبل خلق الاجسام اياما معدودة وازمنة محدودة واخذوا بمذهب المشبهة في المسئلة التي هي اخص المسائل بهم وهي الاستواء على العرش فأخطؤا واضلوا في الزمان والمكان جميعا ❁ ثم قال تعالى (فاصبر على مايقولون) قال من تقدم ذكرهم من المفسرين ان معناه اصبر على مايقولون من حديث التعب بالاستلقاء وعلى ماقلنا معناه اصبر على مايقولون ان هذا لشئ عجيب وسبح بحمد ربك وماذكرناه اقرب لانه مذكور وذكر اليهود وكلامهم لم يجر ❁ وقوله تعالى (وسبح بحمد ربك) يحتمل وجوها (احدها) ان يكون الله امر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالصلاة فيكون كقوله تعالى وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ❁ وقوله تعالى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) اشارة الى طرفي النهار ❁ وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه) اشارة الى زلفا من الليل ووجه هذا هو ان النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان احدهما عبادة الله وثانيهما هداية الخلق فاذا هداهم ولم يهتدوا قيل له اقبل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق (ثانيها) سبح بحمد ربك اي نزهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكرهم بعظمة الله تعالى ونزهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذي هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب فانهما وقت اجتماعهم ومن الليل فسبحه اي اوائل الليل فانه ايضا وقت اجتماع العرب ووجه هذا انه لا ينبغي ان تسأم من تكذيبهم فان الرسل من قبلك اوذوا وكذبوا وصبروا على ماكذبوا واوذوا وعلى هذا فلقوله تعالى (وادبار السجود) فائدة جليلة وهي الاشارة الى ماذكرنا ان شغل الرسول امران العبادة والهداية فقوله وادبار السجود اي عقب ماسجدت وعبدت نزه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية ادبار السجود (ثالثها) ان يكون المراد قل سبحان الله وذلك لان الفاظا معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم فقولنا كبر يطلق و يراد به قول القائل الله اكبر وسلم يراد به قوله السلام عليكم وحمد يقال لمن قال الحمد لله و يقال هلل لمن قال لا اله الا الله وسبح لمن قال سبحان الله ووجه هذا ان هذه امور تكرر من الانسان في الكلام والحاجة تدعو الى الاخبار عنها فلو قال القائل فلان قال لا اله الا الله او قال الله اكبر طول الكلام فمست الحاجة الى استعمال لفظة واحدة مفيدة ذلك لعدم تكرر مافي الاول واما مناسبة هذا الوجه للكلام الذي هو فيه فهي ان تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله واستهزاءهم كان يوجب في العادة ان يشتغل النبي صلى الله عليه وسلم بلعنهم وسبهم والدعاء عليهم فقال فاصبر على مايقولون واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له ولا تكن كصاحب الحوت او كنوح عليه السلام حيث قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا بل ادع الى ربك فاذا ضجرت عن ذلك بسبب اصرارهم فاشتغل بذكر ربك في نفسك وفيه مباحث (الاول) استعمل الله التسبيح تارة مع اللام في قوله تعالى يسبح لله ويسبحون له واخرى مع

(فاصبر على مايقولون) اي مايقوله المشركون في شان البعث من الاباطيل المبنية على الانكار والاستبعاد فان من فعل هذه الافاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم او مايقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه (وسبح بحمد ربك) اي نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف في اخباره التي من جملتها الاخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامدا له تعالى على ماانعم به عليك من اصابة الحق وغيرها (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة (ومن الليل فسبحه) وسبحه بعض الليل (وادبار السجود) واعقاب الصلوة جمع دبر وقرئ بالكسر من ادبرت الصلاة اذا انقضت وتمت ومعناه وقت انقضاء السجود وقيل بالتسبيح الصلوات فالمراد بما قبل الطلوع صلاة الفجر وبما قبل الغروب الظهر والعصر وبما من الليل العشاآن والتهجد ومايصلى بادبار السجود النوافل بعد المكتوبات

الباء فى قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم وسبح بحمد ربك وثالثة من غير حرف فى قوله وسبحه وقوله وسبحوه بكرة وقوله سبح اسم ربك الاعلى فما الفرق بينها نقول اما الباء فهى الاهم وبالتقديم اولى فى هذا الموضع كقوله تعالى وسبح بحمد ربك فنقول اما على قولنا المراد من سبح قل سبحان الله فالباء للمصاحبة اى مقترنا بحمد الله فيكون كأنه تعالى قال قل سبحان الله والحمد لله وعلى قولنا المراد التنزيه لذلك اى نزهه واقرنه بحمد اى سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه فان السعادة الابدية لمن سبحه وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره سبح الله بحمد ربك اى ملتبسا ومقترنا بحمد ربك وعلى قولنا صل نقول يحتمل ان يكون ذلك امرا بقراءة الفاتحة فى الصلاة يقال صلى فلان بسورة كذا او صلى بقل هو الله احد فكأنه يقول صل بحمد الله اى مقروا فيها الحمد لله رب العالمين وهو ابعد الوجوه واما التعدية من غير حرف فنقول هو الاصل لان التسبيح يتعدى بنفسه لان معناه تبعيد من السوء واما اللام فيحتمل وجهين احدهما ان يكون كما فى قول القائل نصحته ونصحت له وشكرته وشكرت له وثانيهما ان يكون لبيان الاظهر اى يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة (البحث الثانى) قال ههنا سبح بحمد ربك ثم قال تعالى ومن الليل فسبحه من غير باء فما الفرق بين الموضعين نقول الامر فى الموضعين واحد على قولنا التقدير سبح الله مقترنا بحمد ربك وذلك لان سبح الله كقول القائل فسبحه غير ان المفعول لم يذكرا ولا لدلالة قوله بحمد ربك عليه وثانيا لدلالة ماسبق عليه لم يذكر بحمد ربك الجواب الثانى على قولنا سبح بمعنى صل يكون الاول امرا بالصلاة والثانى امرا بالتنزيه اى وصل بحمد ربك فى الوقت وبالليل نزهه عما لا يليق وحينئذ يكون هذا اشارة الى العمل والذكر والفكر فقوله سبح اشارة الى خير الاعمال وهو الصلاة وقوله بحمد ربك اشارة الى الذكر وقوله ومن الليل فسبحه اشارة الى الفكر حين هدو الاصوات وصفاء الباطن نزهه عن كل سوء بفكرك واعلم انه لا يتصف الا بصفات الكمال ونعوت الجلال وقوله تعالى وادبار السجود قد تقدم بعض ما يقال فى تفسيره ووجه آخر هو انه اشارة الى الامر بادامة التسبيح فقوله بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه اشارة الى اوقات الصلاة وقوله وادبار السجود يعنى بعد ما فرغت من السجود وهو الصلاة فلا تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوم ادبار السجود ليكون جميع اوقاتك فى التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت وقوله فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب وقرئ وادبار السجود (البحث الثالث) الفاء فى قوله تعالى فسبحه ماوجهها نقول هى تفيد تأكيد الامر بالتسبيح من الليل وذلك لانه يتضمن الشرط كأنه يقول واما من الليل فسبحه وذلك لان الشرط يفيد ان عند وجوده يجب وجود الجزاء وكأنه تعالى يقول النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل فاما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح او نقول بالعكس

(الليل)

الليل محل النوم والثبات والغفلة فقال اما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزهه (البحث الرابع) من في قوله ومن الليل يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون لابتداء الغاية أى من اول الليل فسبحه وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها يقال انا من الليل انتظرك (ثانيهما) ان يكون للتبعيض اى اصرف من الليل طرفا الى التسبيح يقال من مالك متع ومن الليل انتبه أى بعضه (البحث الخامس) قوله وادبار السجود عطف على ماذا نقول يحتمل ان يكون عطفا على ما قبل الغروب كأنه قال تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وادبار السجود وذكر بينهما قوله ومن الليل فسبحه وعلى هذا ففيه ماذكرنا من الفائدة وهى الامر بالمداومة كأنه قال سبح قبل طلوع الشمس واذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح وسبح قبل الغروب وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه فيكون ذلك اشارة الى صرف الليل الى التسبيح ويحتمل ان يكون عطفا على ومن الليل فسبحه وعلى هذا يكون عطفا على الجار والمجرور جميعا تقديره وبعض الليل فسبحه وادبار السجود ❁ ثم قال تعالى (واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب) هذا اشارة الى بيان غاية التسبيح بعنى اشتغل بتنزيه الله وانتظر المنادى كقوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الذى يستمعه قلنا يحتمل وجوها ثلاثة (احدها) ان يترك مفعوله رأسا ويكون المقصود كن مستمعا ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين يقال هو رجل سميع مطيع ولا يراد مسموع بعينه كما يقال فلان وكاس فلان يعطى ويمنع (ثانيها) استمع لما يوحى اليك (ثالثها) استمع نداء المنادى (المسئلة الثانية) يوم يناد المنادى منصوب باى فعل نقول هى مبنى على المسئلة الاولى ان قلنا استمع لا مفعول له فعامله مايدل عليه قوله تعالى يوم الخروج تقديره يخرجون يوم ينادى المنادى وان قلنا مفعوله لما يوحى فتقديره واستمع لما يوحى يوم ينادى ويحتمل ماذكرنا وجها آخر وهو ما يوحى اى ما يوحى يوم ينادى المنادى اسمعه فان قيل استمع عطف على فاصبر وسبح وهو فى الدنيا والاستماع يكون فى الدنيا وما يوحى يوم ينادى المنادى لا يستمع فى الدنيا نقول ليس بلازم ذلك لجواز ان يقال صل وادخل الجنة اى صل فى الدنيا وادخل الجنة فى العقبى فكذلك ههنا ويحتمل ان يقال بان استمع بمعنى انتظر فيحتمل الجمع فى الدنيا وان قلنا استمع الصيحة وهو نداء المنادى باعظام النشرى والسؤال الذى ذكره علم الجواب منه وجواب آخر نقوله حينئذ وهو ان الله تعالى قال ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله قلنا ان من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة واستيقظوا لها فلم تزعجهم كمن يرى برقا اومض وعلم ان عقيبه يكون رعد قوى فينظره ويستمع له وآخر غافل فاذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع فقال استمع ذلك كى لا تكون ممن يصعق فى ذلك اليوم (المسئلة الثالثة) ما الذى ينادى المنادى

(واستمع) اى لما يوحى اليك من احوال القيامة وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به (يوم ينادى المنادى) اى اسرافيل اوجبريل عليهما السلام فيقول ايتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة ان الله يأمركن ان تجتمعن لفصل القضاء وقيل اسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه الى الكل على سواء وقيل من صخرة بيت المقدس وقيل من تحت اقدامهم وقيل من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة ولعل ذلك فى الاعادة مثل كن فى البدء

نقول فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحصرها بان نقول المنادى اما ان يكون هو الله تعالى او الملائكة او غيرهما وهم المكلفون من الانس والجن فى الظاهر وغيرهم لا ينادى فان قلنا هو الله تعالى فيه وجوه (احدها) ينادى احشروا الذين ظلموا وازواجهم (ثانيها) ينادى القيا فى جهنم كل كفار عنيد مع قوله ادخلوها بسلام ومثله قوله تعالى خذوه فغلوه يدل على هذا قوله تعالى يوم يناد المنادى من مكان قريب وقال وأخذوا من مكان قريب (ثالثها) غيرهما لقوله تعالى يناديهم اين شركائى وغير ذلك واما على قولنا المنادى غير الله ففيه وجوه أيضا (احدها) قول اسرافيل ايتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واستمعوا للفصل (ثانيها) النداء مع النفس يقال للنفس ارجعى الى ربك لتدخلى مكانك من الجنة او النار (ثالثها) ينادى مناد هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار كما قال تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعلى قولنا المنادى هو المكلف فيحتمل ان يقال هو ما بين الله تعالى فى قوله ونادوا يامالك او غير ذلك الا ان الظاهر ان المراد احد الوجهين الاولين لان قوله المنادى للتعريف وكون الملك فى ذلك اليوم مناديا معروف عرف حاله وان لم يجر ذكره فيقال قال صلى الله عليه وسلم وان لم يكن قد سبق ذكره واما ان الله تعالى مناد فقد سبق فى هذه السورة فى قوله القيا وهذا نداء وقوله يوم نقول لجهنم وهو نداء واما المكلف فليس كذلك وقوله تعالى من مكان قريب اشارة الى ان الصوت لا يخفى على احد بل يستوى فى استماعه كل احد وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادى على الله تعالى اذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء وهو من الله تعالى اقرب وهذا كما قال فى هذه السورة ونحن اقرب اليه من حبل الوريد وليس ذلك بالمكان ثم قال تعالى (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) هذا تحقيق ما بينا من الفائدة فى قوله واستمع اى لا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة وبيانه هو انه قال استمع اى كن قبل ان تستمع مستيقظا لوقوعه فان السمع لا بد منه انت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع فيصعقون وانت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك الا ما لا بد منه ويحتمل وجوها (احدها) ما قاله الزمخشرى انه بدل من يوم فى قوله واستمع يوم ينادى المنادى والعامل فيهما الفعل الذى يدل عليه قوله ذلك يوم الخروج اى يخرجون يوم يسمعون (ثانيها) ان يوم يسمعون العامل فيه ما فى قوله ذلك ويوم ينادى المنادى العامل فيه ما ذكرنا (ثالثها) ان يقال استمع عامل فى يوم ينادى كما ذكرنا وينادى عامل فى يوم يسمعون وذلك لان يوم ينادى وان لم يجز ان يكون منصوبا بالمضاف اليه وهو ينادى لكن غيره يجوز ان يكون منصوبا به يقال اذكر حال زيد ومذلته يوم ضربه عمرو ويوم كان عمرو واليا اذا كان القائل يريد بيان مذلة زيد عند ما صار زيد يكرم بسبب من الاسباب فلا يكون يوم كان عمرو واليا منصوبا بقوله اذكر لان غرض القائل التذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضربه عمرو ويوم كان واليا فكذلك

(يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم ينادى الخ وهى النفخة الثانية (بالحق) متعلق بالصيحة والعامل فى الظرف ما يدل عليه قوله تعالى (ذلك يوم الخروج) اى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذى هو البعث يخرجون من القبور

(ههنا)

ههنا قال استمع يوم ينادى المنادى لئلا تكون ممن يفزع ويصعق ثم بين هذا النداء بقوله ينادى المنادى يوم يسمعون اى لا يكون نداء خفيا بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته الى من فى اقصى المغرب كنسبته الى من فى المشرق وكلكم تسمعون ولاشك ان مثل هذا الصوت يجب ان يكون الانسان متهيئا لاستماعه وذلك بشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكر فيه فظهر فائدة جليلة من قوله فاصبر وسبح واستمع يوم ينادى المنادى ويوم يسمعون واللام فى الصيحة للتعريف وقد عرف حالها وذكرها الله مرارا كما فى قوله تعالى ان كانت الاصيحة واحدة وقوله فانما هى زجرة واحدة وقوله نفخة واحدة وقوله بالحق جاز ان يكون متعلقا بالصيحة اى الصيحة بالحق يسمعونها وعلى هذا ففيه وجوه (الاول) الحق الحشر اى الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها يقال صاح زيد ياقوم اجتمعوا على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذ يسمعون الصيحة يا عظام اجتمعى وهو المراد بالحق (الثانى) الصيحة بالحق اى باليقين والحق هو اليقين يقال صاح فلان بيقين لابظن وتخمين اى وجد منه الصياح يقينا لا كالصدى وغيره وهو يجرى مجرى الصفة للصيحة يقال استمع سماعا بطلب وصاح صيحة بقوة اى قوية فكأنه قال الصيحة المحققة (الثالث) ان يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود يقال كن فيتحقق ويكون ويقال اذهب بالسلامة وارجع بالسعادة اى مقرونا ومصحوبا فان قيل زد بيانا فان الباء فى الحقيقة للالصاق فكيف يفهم معنى الالصاق فى هذه المواضع نقول التعدية قد تتحقق بالباء يقال ذهب بزيد على معنى الصق الذهاب بزيد فوجد قائما به فصار مفعولا فعلى قولنا المراد يسمعون صيحة من صاح يا عظام اجتمعى هو تعدية المصدر بالباء يقال اعجبنى ذهاب زيد بعمرو وكذلك قوله الصيحة بالحق اى ارفع الصوت على الحق وهو الحشر وله موعد نبينه فى موضع آخر ان شاء الله تعالى (الوجه الثانى) ان يكون الحق متعلقا بقوله يسمعون اى يسمعون الصيحة بالحق وفيه وجهان الاول هو قول القائل سمعته بيقين الثانى الباء فى يسمعون بالحق قسم اى يسمعون الصيحة بالله الحق وهو ضعيف وقوله تعالى ذلك يوم الخروج فيه وجهان احدهما ذلك اشارة الى يوم اى ذلك اليوم يوم الخروج ثانيهما ذلك اشارة الى نداء المنادى ❊ ثم قال تعالى (انا نحن نحيى ونميت والينا المصير) قد ذكرنا فى سورة يس ما يتعلق بقوله انا نحن واما قوله نحيى ونميت فالمراد من الاحياء الاحياء اولا ونميت اشارة الى الموتة الاولى وقوله والينا بيان للحشر فقدم انا نحن لتعريف عظمته يقول القائل انا انا اى مشهور ونحيى ونميت امور مؤكدة معنى العظمة والينا المصير بيان للمقصود ❊ وقوله تعالى (يوم تشقق الارض عنهم سراعا) العامل فيه هو ما فى قوله يوم الخروج من الفعل اى يخرجون يوم تشقق الارض عنهم سراعا وقوله سراعا حال الخارجين لان قوله تعالى عنهم يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر كما يقال كشف عنه

(انا نحن نحيى ونميت) فى الدنيا من غير ان يشاركنا فى ذلك احد (والينا المصير) للجزاء فى الآخرة لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا (يوم تشقق الارض عنهم) بحذف احدى التاءين من تتشقق وقرئ بتشديد الشين وتشقق على البناء للمفعول من التفعيل وتنشق (سراعا) مسرعين

فهو مكشوف عنه فيصير سراعا هيئة المفعول كأنه قال مسرعين والسراع جمع سريع كالكرام جمع كريم * قوله تعالى (ذلك حشر) يحتمل ان يكون اشارة الى التشقق عنهم ويحتمل ان يكون اشارة الى الاخراج المدلول عليه بقوله سراعا ويحتمل ان يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير لان الحشر علم مما تقدم من الالفاظ * وقوله تعالى (علينا يسير) بتقديم الظرف يدل على الاختصاص اى هو علينا هين لا على غيرنا وهو اعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد والحشر الجمع ويوم القيامة جمع الاجزاء بعضها الى بعض وجمع الارواح مع الاشباح اى يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الامم المتفرقة والرمم المتمزقة والكل واحد فى الجمع * ثم قال تعالى (نحن اعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) فيه وجوه (احدها) تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتحريض لهم على ما امر به النبي صلى الله عليه وسلم من الصبر والتسبيح اى اشتغل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى الينا فانا نعلم اقوالهم ونرى اعمالهم وعلى هذا فقوله وما انت عليهم بجبار مناسب له اى لا تقل بأنى ارسلت اليهم لاهديهم فكيف اشتغل بما يشغلنى عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح فانك مابعثت مسلطا على دواعيهم وقدرهم وانما امرت بالتبليغ وقد بلغت فاصبر وسبح وانتظر اليوم الذى يفصل فيه بينكم (ثانيها) هى كلمة تهديد وتخويف لان قوله والينا المصير ظاهر فى التهديد بالعلم بعملكم لان من يعلم ان مرجعه الى الملك ولكنه يعتقد ان الملك لا يعلم ما يفعله لا يمتنع من القبائح اما اذا علم انه يعلمه وعنده غيبه واليه عوده يمتنع فقال تعالى والينا المصير ونحن اعلم وهو ظاهر فى التهديد وهذا حينئذ كقوله تعالى ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور (ثالثها) تقرير الحشر وذلك لانه لما بين ان الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ ارادته ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال ذلك حشر علينا يسير لكمال قدرتنا ولا يخفى علينا الاجزاء لمكان علمنا وعلى هذا فقوله نحن اعلم بما يقولون معناه نحن نعلم عين ما يقولون فى قولهم أئذا متنا وكنا ترابا أئذا ضللنا فى الارض فيقول نحن اعلم الاجزاء التى يقولون فيها انها ضالة وخفية ولا يكون المراد نحن نعلم قولهم وفى الاول جاز ان تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله ما يقولون اى قولهم وفى الوجه الآخر تكون خبرية وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله نحن اعلم اذ لا عالم بتلك الاجزاء سواه حتى يقول نحن اعلم نقول قد علم الجواب عنه مرارا من وجوه (احدها) ان افعل لا يقتضى الاشتراك فى اصل الفعل كما فى قوله تعالى والله احق ان تخشاه وفى قوله تعالى احسن نديا وفى قوله وهو اهون عليه (ثانيها) معناه نحن اعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه والاول اصح واظهر واوضح واشهر وقوله تعالى وما انت عليهم بجبار فيه وجوه (احدها) انه للتسلية ايضا وذلك لانه لما من عليه بالاقبال على الشغل الاخروى وهو العبادة اخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث كما كان

(ذلك حشر) بعث وجمع وسوق (علينا يسير) اى هين وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى (نحن اعلم بما يقولون) من نفى البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك مما لا خير فيه (وما انت عليهم بجبار) بمتسلط تقسرهم على الايمان او تفعل بهم ما تريد وانما انت مذكر (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) واما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه اقوالهم وتستدعيه اعمالهم من الوان العقاب وفنون العذاب * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة ق هون الله عليه ثارات الموت وسكرات

الملك اذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه فى احدهما يقول له اقبل على الشغل الآخر منهما ونحن نبعث من يقدر على الذى عجزت عنه منهما فقال اصبر وسبح وما انت بجبار اى فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك او تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك بل كنت بهم رؤفا وعليهم عطوفا وبالغت وبلغت وامتنعوا فاقبل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الاول بسبب جبروتك وهذا فى معنى قوله تعالى ما أنت بنعمة ربك بمجنون الى ان قال وانك لعلى خلق عظيم (ثانيها) هو بيان ان النبى صلى الله عليه وسلم اتى بما عليه من الهداية وذلك لأنه ارسله منذرا وهاديا لا ملجئا ومجبرا وهذا كما فى قوله تعالى وما ارسلناك عليهم حفيظا اى تحفظهم الكفر والنار وقوله وما انت عليهم فى معنى قول القائل اليوم فلان علينا فى جواب من يقول من عليكم اليوم اى من الوالى عليكم (ثالثها) هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم لما انذر واعذر واظهر ولم يؤمنوا كان يقول ان هذا وقت العذاب فقال نحن اعلم بما يقولون وما انت عليهم بمسلط فذكر بعذابى ان لم يؤمنوا من بقى منهم ممن تعلم انه يؤمن ثم تسلط عليهم ويؤيد هذا قول المفسرين ان الآية نزلت قبل نزول آية القتال وعلى هذا فقوله فذكر بالقرآن من يخاف وعيد اى من بقى منهم ممن يخاف يوم الوعيد وفيه وجوه أخر (احدها) انا بينا فى احد الوجوه ان قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وسبح معناه أقبل على العبادة ثم قال ولا تترك الهداية بالكلية بل وذكر المؤمنين فان الذكرى تنفع المؤمنين واعرض عن الجاهلين وقوله بالقرآن فيه وجوه (الاول) فذكر بما فى القرآن واتل عليهم القرآن يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة (الثانى) فذكر بالقرآن اى بين به انك رسول لكونه معجزا واذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك فى جميع ما تقول به (الثالث) المراد فذكر بمقتضى ما فى القرآن من الاوامر الواردة بالتبليغ والتذكير وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبى صلى الله عليه وسلم به اى اجعل القرآن امامك وذكرهم بما اخبرت فيه بان تذكرهم وعلى الاول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه وقوله تعالى من يخاف وعيد من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة المخشى اكثر مما يدل عليه الخوف حيث قال يخاف عند ما جعل المخوف عذابه ووعيده وقال اخشونى عند ما جعل المخوف نفسه العظيم وفى هذه الآية اشارة الى الاصول الثلاثة قوله وذكر اشارة الى انه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال بالقرآن وقوله وعيد اشارة الى اليوم الآخر وضمير المتكلم فى قوله وعيد يدل على الوحدانية فانه لو قال من يخاف وعيد الله كان يذهب وهم الجاهل الى كل صوب فلذا قال وعيدى والمتكلم اعرف المعارف وابعد عن الاشتراك به وقبول الاشتراك فيه وقد بينا فى اول السورة ان اول السورة وآخرها متقاربان فى المعنى حيث قال فى الاول ق والقرآن المجيد وقال فى آخرها فذكر بالقرآن * وهذا آخر تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين

(سورة الذاريات مكية وآيها) (ستون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والذاريات ذروا) اى الرياح التى تذرو التراب وغيره وقرئ بادغام التاء فى الذال (فالحاملات وقرا) اى السحب الحاملة للمطر او الرياح الحاملة للسحب وقرئ وقرا على تسمية المحمول بالمصدر (فالجاريات يسرا) اى السفن الجارية فى البحر او الرياح الجارية فى مهابها او السحب الجارية فى الجو بسوق الرياح او الكواكب الجارية فى مجاريها ومنازلها ويسرا صفة لمصدر محذوف اى

وصلاته على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه وازواجه وذرياته اجمعين

(سورة الذاريات ستون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات امرا) اول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها وذلك لانه تعالى لمابين الحشر بدلائله وقال ذلك حشر علينا يسير وقال ومانت عليهم بجبار اى تجبرهم وتلجئهم الى الايمان اشارة الى اصرارهم على الكفر بعداقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق الا اليمين فقال والذاريات ذروا انماتوعدون لصادق واول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال فى اولها انما توعدون لصادق وقال فى آخرها فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون * وفى تفسير الآيات مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا الحكمة وهى فى القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة فى سورة والصافات ونعيدها ههنا وفيها وجوه (الاول) ان الكفار كانوا فى بعض الاوقات يعترفون بكون النبي صلى الله عليه وسلم غالبا فى اقامة الدليل وكانوا ينسبونه الى المجادلة والى انه عارف فى نفسه بفساد مايقوله وانه يغلبنا بقوة الجدل لابصدق المقال كما ان بعض الناس اذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة يقول انه غلبنى لعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك وهو فى نفسه يعلم ان الحق بيدى فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول والله ان الامر كما اقول ولا اجادلك بالباطل وذلك لانه لوسلك طريقا آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الاول ان ذلك تقرير بقوة علم الجدل فلا يبقى الا السكوت او التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان (الثانى) هو ان العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتعتقد انها تدع الديار بلاقع ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم اكثر من الايمان بكل شريف ولم يزده ذلك الارفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذبا والا لاصابه شؤم الايمان ولناله المكروه فى بعض الازمان (الثالث) وهو ان الايمان التى حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الايمان مثاله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة انى لازال اشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الاشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم أخرجها مخرج الايمان نقول لان المتكلم اذاشرع فى اول كلامه بحلف يعلم السامع انه يريد ان يتكلم بكلام عظيم فيصغى اليه اكثر من ان يصغى اليه حيث يعلم ان الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وادرج الدليل فى صورة اليمين حتى اقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين فى صورة اليمين وقد استوفينا الكلام فى سورة والصافات (المسئلة الثانية)

(فى)

جريا ذايسر (فالمقسمات امرا) اى الملائكة التى تقسم الامور من الامطار والارزاق وغيرها او السحب التى يقسم الله تعالى بها ارزاق العباد وقد جوزان يراد بالكل الرياح تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فانها كما تذرو ما تذروه تثير السحاب وتحمله وتجرى فى الجو جريا سهلا وتقسم الامطار بتصريف السحاب فى الاقطار فان حملت الامور المقسم بها على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الاقسام باعتبار مابينها من التفاوت فى الدلالة على كمال القدرة والا فهى لترتيب ماصدر عن الريح من الافاعيل فانها تذرو الابخرة الى الجو حتى تنعقد سحابا فتجرى به باسطة له الى ماامرت به فتقسم المطر وقوله

فى جميع السور التى اقسم الله تعالى فى ابتدائها بغير الحروف كان القسم لاثبات احد الاصول الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والحشر وهى التى يتم بها الايمان ثم انه تعالى لم يقسم لاثبات الوحدانية الا فى سورة واحدة من تلك السور وهى والصافات حيث قال فيها ان الهكم لواحد وذلك لانهم وان كانوا يقولون أجعل الآلهة الها واحدا على سبيل الانكار وكانوا يبالغون فى الشرك لكنهم فى تضاعيف اقوالهم وتصاريف احوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد وكانوا يقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى وقال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يبالغوا فى الحقيقة فى انكار المطلوب الاول فاكتفى بالبرهان ولم يكثر من الايمان وفى سورتين منها اقسم لاثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكونه رسولا فى احداهما بامر واحد وهو قوله تعالى والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وفى الثانية بأمرين وهو قوله تعالى والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وماقلى وذلك لان القسم على اثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن كما فى قوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وقد ذكرنا الحكم فيه ان من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم القرآن فاقسم به ليكون فى القسم الاشارة واقعة الى البرهان وفى باقى السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء ومايتعلق به لكون انكارهم فى ذلك خارجا عن الحد وعدم استيفاء ذلك فى صورة القسم بالحروف (المسئلة الثالثة) اقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة فى سور خمس ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة فى سورة اصلا فلم يقل والصالحين من عبادى ولا المقربين الى غير ذلك مع ان المذكر اشرف وذلك لان جموع السلامة بالواو والنون فى الامر الغالب لمن يعقل وقد ذكرنا ان القسم بهذه الاشياء ليس لبيان التوحيد الا فى صورة ظهور الامر فيه وحصول الاعتراف منهم به ولا للرسالة لحصول ذلك فى صور القسم بالحروف والقرآن* بقى ان يكون المقصود اثبات الحشر والجزاء لكن اثبات الحشر لثواب الصالح وعذاب الطالح ففائدة ذلك راجع الى من يعقل فكان الامر يقتضى ان يكون القسم بغيرهم والله اعلم (المسئلة الرابعة) فى السورة التى اقسم لاثبات الوحدانية اقسم فى اول الامر بالساكنات حيث قال والصافات وفى السور الاربع الباقية اقسم بالمتحركات فقال والذاريات وقال والمرسلات وقال والنازعات ويؤيده قوله تعالى والسابحات فالسابقات وقال والعاديات وذلك لان الحشر فيه جمع وتفريق وذلك بالحركة اليق او ان نقول فى جميع السور الاربع اقسم بالرياح على ما بين وهى التى تجمع وتفرق فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة قادر على تأليف الاجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التى يختارها بمشيته تعالى (المسئلة الخامسة) فى الذاريات اقوال (الاول) هى الرياح تذرو التراب وغيره كما قال تعالى تذروه الرياح (الثانى) هى الكواكب من ذرا يذرو اذا اسرع (الثالث) هى الملائكة (الرابع) رب الذاريات والاول اصح (المسئلة السادسة)

تعالى (ان ما توعدون لصادق وان الدين لواقع) جواب للقسم وفى تخصيص الامور المذكورة بالاقسام بها رمز الى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها من حيث انها امور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة اومصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا والدين الجزاء ووقوعه حصوله (والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة

الامور الاربعة جازان تكون امورا متباينة وجاز ان تكون امر اله اربع اعتبارات والاول هو ماروى عن على عليه السلام ان الذاريات هى الرياح والحاملات هى السحاب والجاريات هى السفن والمقسمات هى الملائكة الذين يقسمون الارزاق والثانى وهو الاقرب ان هذه صفات اربع للرياح فالذاريات هى الرياح التى تنشئ السحاب اولا والحاملات هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار المياه التى اذا سحت جرت السيول العظيمة وهى اوقار اثقل من جبال والجاريات هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها والمقسمات هى الرياح التى تفرق الامطار على الاقطار ويحتمل ان يقال هذه امور اربعة مذكورة فى مقابلة امور اربعة بها تتم الاعادة وذلك لان الاجزاء التى تفرقت بعضها فى تخوم الارضين وبعضها فى قعور البحور وبعضها فى جو الهواء وهى الاجزاء اللطيفة البخارية التى تنفصل عن الابدان فقوله تعالى والذاريات يعنى الجامع للذاريات من الارض على ان الذارية هى التى تذر والتراب عن وجه الارض وقوله تعالى فالحاملات وقرا هى التى تجمع الاجزاء من الجو وتحمله حملا فان التراب لا ترفعه الرياح حملا بل تنقله من موضع وترميه فى موضع بخلاف السحاب فانه يحمله وينقله فى الجو حملا لا يقع منه شئ وقوله فالجاريات يسرا اشارة الى الجامع من الماء فان من يجرى السفن الثقيلة من تيار البحار الى السواحل يقدر على نقل الاجزاء من البحر الى البر فاذا تبين ان الجمع من الارض وجو الهواء ووسط البحار ممكن واذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من امر الله كما قال تعالى ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربى فقال فالمقسمات امرا الملائكة التى تنفخ الروح فى الجسد بأمر الله وانما ذكرهم بالمقسمات لان الانسان فى الاجزاء الجسمية غير مخالف تخالفا بينا فان لكل احد رأسا ورجلا والناس متقاربة فى الاعداد والاقدار ولكن التفاوت الكثير فى النفوس فان الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف وتلك القسمة المتفاوتة تقسم بمقسم مختار ومأمور مختار فقال فالمقسمات امرا (المسئلة السابعة) ماهذه المنصوبات من حيث النحو فنقول اما ذروا فلاشك فى كونه منصوبا على انه مصدر واما وقرا فهو مفعول به كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا ويحتمل ان يكون اسما اقيم مقام المصدر كما يقال ضربه سوطا يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو واما يسرا فهو ايضا منصوب على انه صفة مصدر تقديره جريا ذا يسر واما المقسمات امرا فهو اما مفعول به كما يقال فلان قسم الرزق او المال واما حال اتى على صورة المصدر كما يقال قتلته صبرا اى مصبورا كذلك ههنا المقسمات امرا اى مأمورة فان قيل ان كان وقرا مفعولا به فلم يجمع وماقيل والحاملات اوقارا نقول لان الحاملات على ماذكرنا صفة الرياح وهى تتوارد على وقر واحد فان ريحا تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب فتهب اخرى وتسوقها وربما تتحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح وكذلك القول فى المقسمات امرا اذا قلنا هو مفعول به لان جماعة يكونون مأمورين تقسم امرا واحد

(او)

ذات الخلق المستوى وقال سعيد ابن جبير ذات الزينة وقال مجاهد هى المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبى والضحاك ذات الطرائق والمراد اما الطرائق المحسوسة التى هى مسير الكواكب او المعقولة التى يسلكها النظار والنجوم فان لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى وهى اما جمع حباك او حبيكة كمثال ومثل وطريقة وطرق وقرئ الحبك بوزن القفل والحبك بوزن السلك والحبك كالجبل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك كالابل (انكم لفى قول مختلف)

اونقول هو فى تقدير التكرير كأنه قال فالحاملات وقرا وقرا والمقسمات أمرا أمرا (المسئلة الثامنة) مافائدة الفاء نقول ان قلنا انها صفات الرياح فلبيان ترتيب الامور فى الوجود فان الذاريات تنشئ السحاب فتقسم الامطار على الاقطار وان قلنا انها امور اربعة فالفاء للترتيب فى القسم لا للترتيب فى المقسم به كأنه يقول اقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات وقوله فالحاملات وقوله فالجاريات اشارة الى بيان مافى الرياح من الفوائد اما فى البر فانشاء السحب واما فى البحر فاجراء السفن ثم المقسمات اشارة الى مايترتب على حمل السحب وجرى السفن من الارزاق والارباح التى تكون بقسمة الله تعالى فيجرى سفن بعض الناس كما يشتهى ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه كما قال تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم * ثم قال تعالى (انما توعدون لصادق) ما يحتمل ان تكون مصدرية معناه الايعاد صادق وان تكون موصولة اى الذى توعدون صادق والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه افادة مبالغة فكما ان من قال فلان لطف محض وحلم يجب ان يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم او غير ذلك يكون قد بالغ والوجه فيه هو أنه اذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شئ له لطف ففى اللطيف لطف وشئ آخر فأراد ان يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفا وفى الثانى لما كان الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه فكأنه قال هذا الكلام لا يحوج الى شئ آخر حتى يصح اطلاق الصادق عليه بل هو كاف فى اطلاق الصادق لكونه سببا قويا وقوله تعالى توعدون يحتمل ان يكون من وعد ويحتمل ان يكون من اوعد والثانى هو الحق لان اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد * وقوله تعالى (وان الدين لواقع) اى الجزاء كائن وعلى هذا فالايعاد بالحشر فى الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب فكأنه تعالى بين بقوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع ان الحساب يستوفى وان العقاب يوفى * ثم قال تعالى (والسماء ذات الحبك) وفى تفسيره مباحث (الاول) والسماء ذات الحبك قيل الطرائق وعلى هذا فيحتمل ان يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها كما يقال فى المحابك ويحتمل ان يكون المراد مافى السماء من الاشكال بسبب النجوم فان فى سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذى يقول به اصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ومثله قوله تعالى والسماء ذات البروج وقيل حبكها صفاقها يقال فى الثوب الصفيق حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى والسماء ذات الرجع لشدتها وقوتها هذا ماقيل فيه (البحث الثانى) فى المقسم عليه وهو قوله تعالى (انكم لفى قول مختلف) وفى تفسيره اقوال مختلفة كلها محكمة (الاول) انكم فى قول مختلف فى حق محمد صلى الله عليه وسلم تارة تقولون انه امين واخرى انه كاذب وتارة تنسبونه الى الجنون وتارة تقولون انه كاهن

اى متخالف متناقض وهو قولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام تارة شاعر واخرى ساحر واخرى مجنون وفى شأن القرآن الكريم تارة شعر واخرى سحر واخرى اساطير وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك من ان قول الكفرة لا يكون مستويا انما هو متناقض مختلف وقيل النكتة فى هذا القسم تشبيه اقوالهم فى اختلافها وتنافى اغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذاك (يؤفك عنه من افك)

وشاعر وساحر وهذا محتمل لكنه ضعيف اذلا حاجة الى اليمين على هذا لانهم كانوا يقولون ذلك من غير انكار حتى يؤكد بيمين (الثانى) انكم لفى قول مختلف اى غير ثابتين على امر ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنا فى اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى والسماء انكم غير جازمين فى اعتقادكم وانما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهى انهم لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم انك تعلم انك غير صادق فى قولك وانما تجادل ونحن نعجز عن الجدل قال والذاريات ذروا أى انك صادق ولست معاندا ثم قال تعالى بل أنتم والله جازمون بأنى صادق فعكس الامر عليهم (الثالث) انكم لفى قول مختلف اى متناقض اما فى الحشر فلأنكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون انا وجدنا آباءنا على امة فاذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت فما ذا يصيب آباءكم اذا خالفتموهم وانما يصح هذا ممن يقولون بأن بعد الموت عذابا فلو علمنا شيئا يكرهه الميت يبدى فلا معنى لقولكم انا لا ننسب آباءنا بعد موتهم الى الضلال وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الاكابر واما فى التوحيد فتقولون خالق السموات والارض هو الله تعالى لا غير ثم تقولون هو اله الآلهة وترجعون الى الشرك واما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فتقولون انه مجنون ثم تقولون له انك تغلبنا بقوة جدلك والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز الى غير ذلك من الامور المتناقضة ❊ ثم قال تعالى (يؤفك عنه من افك) وفيه وجوه (احدها) انه مدح للمؤمنين اى يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد الى القول المستوى (ثانيها) انه ذم معناه يؤفك عن الرسول (ثالثها) يؤفك عن القول بالحشر (رابعها) يؤفك عن القرآن وقرئ يؤفن عنه من افن اى يحرم وقرئ يؤفك عنه من افك اى كذب ❊ ثم قال تعالى (قتل الخراصون) وهذا يدل على ان المراد من قوله لفى قول مختلف انهم غير ثابتين على امر وغير جازمين بل هم يظنون ويخرصون ومعناه لعن الخراصون دعاء عليهم بمكروه ثم وصفهم فقال تعالى (الذين هم فى غمرة ساهون) وفيه (مسئلتان) احداهما لفظية والاخرى معنوية (اما اللفظية) فقوله ساهون يحتمل ان يكون خبرا بعد خبر والمبتدأ هو قوله هم وتقديره هم كائنون فى غمرة ساهون كما يقال زيد جاهل جائر لا على قصد وصف الجاهل بالجائر بل الاخبار بالوصفين عن زيد ويحتمل ان يكون ساهون خبرا وفى غمرة ظرف له كما يقال زيد فى بيته قاعد يكون الخبر هو القاعد لا غير وفى بيته لبيان ظرف القعود كذلك فى غمرة لبيان ظرف السهو الذى يصح وصف المعرفة بالجملة ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة (واما المعنوية) فهى ان وصف الخراص بالسهو والانهماك فى الباطل يحقق كون الخراص صفة ذم وذلك لان ما لا سبيل اليه الا الظن اذا خرص الخارص واطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص كما يقال فى خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك واما الخرص فى محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال قتل الخراصون الذى هم جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم فى التخمين والحزر

اى يصرف عن القرآن او الرسول عليه الصلاة والسلام من صرف اذ لا صرف افظع منه واشد وقيل يصرف عنه من صرف فى علم الله تعالى وقضائه ويجوز ان يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر افك من افك عن ذلك القول وقرئ من افك اى من افك الناس وهم قريش حيث كانوا يصدون الناس عن الايمان (قتل الخراصون) دعاء عليهم كقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره واصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن والخراصون الكذابون المقدرون ما لا صحة له وهم اصحاب القول المختلف كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون وقرئ قتل الخراصين اى قتل الله (الذين هم فى غمرة) من الجهل والضلال (ساهون) غافلون عما امروا به

وقوله تعالى ساهون بعد قوله فى غمرة يفيد انهم وقعوا فى جهل وباطل ونسوا انفسهم فيه فلم يرجعوا عنه ❊ ثم قال تعالى (يسئلون ايان يوم الدين) فان قيل الزمان يجعل ظرف الافعال ولا يمكن ان يكون الزمان ظرفا لظرف آخر وههنا جعل ايان ظرف اليوم فقال ايان يوم الدين ويقال متى يقدم زيد فيقال يوم الجمعة ولا يقال متى يوم الجمعة فالجواب التقدير متى يكون يوم الجمعة وايان يكون يوم الدين وايان من المركبات ركب من اى التى يقع بها الاستفهام وآن التى هى الزمان او من اى وأوان فكأنه قال اى أوان فلما ركب بنى وهذا منهم جواب لقوله وان الدين لواقع فكأنهم قالوا ايان يقع استهزاء وترك المسؤل فى قوله يسئلون حيث لم يقل يسألون من يدل على ان غرضهم ليس الجواب وانما يسألون استهزاء ❊ وقوله تعالى (يوم هم على النار يفتنون) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون جوابا عن قولهم أيان يقع وحينئذ كأنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال يوم هم على النار يفتنون وجهلهم بالثانى اقوى من جهلهم بالاول ولا يجوز ان يكون الجواب بالاخفى فاذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال المجيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لا يصح هذا الجواب الا اذا كان الكلام فى صورة جواب ولا يكون جوابا كما ان القائل اذا قال كم تعد عداتى وتخلفها الى متى هذا الاخلاف فيغضب ويقول الى اشأم يوم عليك الكلامان فى صورة سؤال وجواب ولا الاول يريد به السؤال ولا الثانى يريد به الجواب فكذلك ههنا قال يوم هم على النار يفتنون مقابلة استهزائهم بالايعاد لا على وجه الاتيان بالبيان (والثانى) ان يكون ذلك ابتداء كلام تمامه فى قوله تعالى (ذوقوا فتنتكم) فان قيل هذا يفضى الى الاضمار نقول الاضمار لابد منه لان قوله ذوقوا فتنتكم غير متصل بما قبله الا باضمار يقال ويفتنون قيل معناه يحرقون والاولى ان يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار لان كلمة على تناسب ذلك ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو فى النار اليق لان الفتنة هى التجربة واما ما يقال من اختبره ومن انه تجربة الحجارة فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن وههنا قال ذوقوا فتنتكم والفتنة الامتحان فان قيل فاذا جعلت يوم هم على النار يفتنون مقولا لهم ذوقوا فتنتكم فما قوله تعالى (هذا الذى كنتم به تستعجلون) قلنا يحتمل ان يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما فى قوله تعالى حكاية عنهم ربنا عجل لنا قطنا وقوله فأتنا بما تعدنا الى غير ذلك يدل عليه ههنا قوله تعالى يسئلون أيان يوم الدين فانه نوع استعجال ويحتمل ان يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الاصرار على العناد واظهار الفساد فانه يعجل العقوبة ❊ ثم قال تعالى (ان المتقين فى جنات وعيون) بعد بيان حال المفترين المجرمين بين حال المحق المتقى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا ان المتقى له مقامات ادناها ان يتقى الشرك واعلاها ان يتقى ما سوى الله وادنى درجات المتقى الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر الا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها (المسئلة الثانية) الجنة تارة

يسألون ايان يوم الدين) اى متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء وقرئ ايان بكسر الهمزة (يوم هم على النار يفتنون) جواب للسؤال اى يقع يوم هم على النار يحرقون ويعذبون ويجوز ان يكون يوم خبرا لمبتدأ محذوف اى هو يوم هم الخ والفتح لاضافته الى غير متمكن ويؤيده انه قرئ بالرفع (ذوقوا فتنتكم) اى مقولا لهم

وحدها كما قال تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون وأخرى جمعها كما فى هذا المقام قال ان المتقين فى جنات وتارة ثناها فقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فالحكمة فيه نقول اما الجنة عند التوحيد فلانها لاتصال المنازل والاشجار والانهار كجنة واحدة واما حكمة الجمع فلانها بالنسبة الى الدنيا وبالاضافة الى جنانها جنات لا يحصرها عدد واما التثنية فسنذكرها فى سورة الرحمن غير انا نقول ههنا الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء حيث قال ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة وعند الاعطاء جمعها اشارة الى ان الزيادة فى الوعد موجودة والخلاف مالو وعد بجنات ثم كان يقول انه فى جنة لانه دون الموعود (الثالثة) قوله تعالى وعيون يقتضى ان يكون المتقى فيها ولا لذة فى كون الانسان فى ماء او غير ذلك من المائعات نقول معناه فى خلال العيون وذلك بين الانهار بدليل ان قوله تعالى فى جنات ليس معناه الا بين جنات وفى خلالها لان الجنة هى الاشجار وانما يكون بينها كذلك القول فى العيون والتنكير مع انها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل اى عظيم فى الرجولية ❊ وقوله تعالى (آخذين ما آتاهم ربهم) فيه مسائل ولطائف اما المسائل (فالاولى) منها ما معنى آخذين نقول فيه وجهان (احدهما) قابضين ما آتاهم شيئاً فشيئاً ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء مالا نهاية له (ثانيهما) آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى ويأخذ الصدقات اى يقبلها وهذا ذكره الزمخشرى (وفيه وجه ثالث) وهو ان قوله فى جنات يدل على السكنى فحسب وقوله آخذين يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا اذا دخلها متملكا لها وكذلك يقال لمن اشترى دارا او بستانا أخذه بثمن قليل اى تملكه وان لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضا وحينئذ فائدته بيان ان دخولهم فيها ليس دخول مستعير او ضيف يسترد منه ذلك بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله آتاهم يكون لبيان ان أخذهم تلك لم يكن عنوة وفتوحا وانما كان باعطاء الله تعالى وعلى هذا الوجه ما راجعة الى الجنات والعيون ❊ وقوله تعالى (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) اشارة الى ثمنها اى اخذوها وملكوها بالاحسان كما قال تعالى للذين احسنوا الحسنى بلام الملك وهى الجنة (المسئلة الثانية) آخذين حال وهو فى معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل ما يؤتيهم ليتفق اللفظان ويوافق المعنى لان قوله آتاهم ينبئ عن الانقراض وقوله يؤتيهم تنبيه على الدوام وايتاء الله فى الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ولا سيما اذا فسرنا الاخذ بالقبول كيف يصح ان يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد امس نقول اما على ما ذكرنا من التفسير لا يرد لان معناه يتملكون ما اعطاهم وقد يوجد الاعطاء امس ويتملك اليوم واما على ما ذكروه فنقول الله تعالى اعطى المؤمن الجنة وهو فى الدنيا غير انه لم يكن جنى ثمارها فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيرا مما آتاه ولا ينافى ذلك كونه داخلا على تلك الهيئة يقول القائل جئتك خائفا فاذا انا آمن وما ذكرتم انما يلزم ان لو

هذا القول وقوله تعالى (هذا الذى كنتم به تستعجلون) جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر اى هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء ويجوز ان يكون هذا بدلا من فتنتكم بتأويل العذاب والذى صفته (ان المتقين فى جنات وعيون) لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها (آخذين ما آتاهم ربهم) اى قابلين لما اعطاهم راضين به على معنى ان كل ما آتاهم حسن

مرضى يتلقى بحسن القبول (انهم كانوا قبل ذلك) فى الدنيا (محسنين)اى لأعمالهم الصالحة اتين بها على ماينبغى فلذلك نالوا مانالوا من الفوز العظيم ومعنى الاحسان بالاجمال ماشار اليه عليه الصلاة والسلام بقوله ان تعبدالله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد فسر بقوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) اى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل على ان

كان اخذهم مقتصرا على ما آتاهم من قبل و ليس كذلك وانما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيهم الله مالم يخطر ببالهم فيأخذون مايؤتيهم الله وان دخلوها ليأخذوا ما آتاهم وقوله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم فى شغل هو اخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه فى سورة يس (المسئلة الثالثة) ذلك اشارة الى ماذا نقول يحتمل وجهين (احدهما) قبل دخولهم لان قوله تعالى فى جنات فيه معنى الدخول يعنى قبل دخولهم الجنة احسنوا (ثانيهما) قبل ايتاء الله ما آتاهم احسنوا فآتاهم الحسنى وهى الجنة فأخذوها وفيه وجه آخر وهو ان ذلك اشارة الى يوم الدين وقد تقدم (واما اللطائف) فقد سبق بعضها (ومنها) ان قوله تعالى ان المتقين لما كان اشارة الى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الايمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ولذلك دلالة أتم من قول القائل انهم احسنوا (اللطيفة الثانية) اما التقوى فلأنه لما قال لااله فقد اتقى الشرك واما الاحسان فلأنه لما قال الا الله فقد أتى بالاحسان ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى انها لااله الا الله وفى الاحسان قال تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وقيل فى تفسير هل جزاء الاحسان الا الاحسان ان الاحسان هو الاتيان بكلمة لااله الا الله وهما حينئذ لاينفصلان بل هما متلازمان ❊ وقوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) كالتفسير لكونهم محسنين تقول حاتم كان سخيا كان يبذل موجوده ولايترك مجهوده وفيه مباحث (الاول) قليلا منصوب على الظرف تقديره يهجعون قليلا تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الظرف وخبر كان هو قوله يهجعون وما زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو ان يقال كانوا قليلا معناه نفى النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل وانكر الزمخشرى كون ما نافية وقال لايجوز ان تكون نافية لان مابعد ما لايعمل فيما قبلها لاتقول زيدا ماضربت ويجوز ان يعمل مابعد لم فيما قبلها تقول زيدا لم اضرب وسبب ذلك هو ان الفعل المتعدى انما يفعل فى النفى حملا له على الاثبات لانك اذا قلت ضرب زيد عمرا ثبت تعلق فعله بعمرو فاذا قلت ماضربه لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى اليه لكن النفى محمول على الاثبات فاذا ثبت هذا فالنفى بالنسبة الى الاثبات كاسم الفاعل بالنسبة الى الفعل فانه يعمل عمل الفعل لكن اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لايعمل فلا تقول زيد ضارب عمرا امس وتقول زيد ضارب عمرا غدا واليوم والآن لان الماضى لم يبق موجودا ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل اذا عرفت هذا فنقول ماضرب للنفى فى الماضى فاجتمع فيه النفى والمضى فضعف واما لم اضرب وان كان يقلب المستقبل الى الماضى لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه مالم يوجد فى قول القائل زيد ضارب عمرا غدا فاعمل هذا بيان قوله غير ان القائل بذلك القول يقول قليلا ليس منصوبا بقوله يهجعون وانما ذلك خبر كانوا اى كانوا قليلين ثم قال من الليل ما يهجعون اى ما يهجعون اصلا بل يحيون

الليل جميعه ومن يكون لبيان الجنس لا للتبعيض وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وذلك لانا ذكرنا ان قوله ان المتقين فيه معنى الذين آمنوا وقوله محسنين فيه معنى الذين عملوا الصالحات وقوله كانوا قليلا فيه معنى قوله تعالى وقليل ماهم (البحث الثاني) على القول المشهور وهو ان ما زائدة يحتمل ان يكون قليلا صفة مصدر تقديره يهجعون هجوعا قليلا (البحث الثالث) يمكن ان يقال قليلا منصوب على انه خبر كان وما مصدرية تقديره كان هجوعهم من الليل قليلا فيكون فاعل كانوا هو الهجوع ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لان هجوعهم متصل بهم فكأنه قال كان هجوعهم قليلا كما يقال كان زيد خلقه حسنا فلا يحتاج الى القول بزيادة واعلم ان النحاة لا يقولون فيه انه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه او الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون في الاول صفة وفي الثاني بدل ونحن حيث قلنا انه من باب بدل الاشتمال اردنا به معنى لا اصطلاحا والا فقليلا عند التقديم ليس في النحو مثله عند التأخير حتى قولك فلان قليل هجوعه ليس ببدل وفلان هجوعه قليل بدل وعلى هذا يمكن ان تكون ما موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلا من الليل هذا ما يتعلق باللفظ اما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلا في الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في اواخر الآيات بل فيه فائدتان (الاولى) هي ان الهجوع راحة لهم وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور اولا راحتهم ثم يصفه بالقلة وربما يغفل الانسان السامع عما بعد الكلام فيقول احسانهم وكونهم محسنين بسبب انهم يهجعون واذا قدم قوله قليلا يكون السابق الى الفهم قلة الهجوع وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل لان الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة او الكثرة فان الهجوع لو لم يكن لكان نفي القلة اولى ولا كذلك قلة الهجوع لانها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة في الظاهر (الفائدة الثانية) في قوله تعالى من الليل وذلك لان النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل احد واما الليل فهو زمان النوم لا يسهره في الطاعة الا متعبد مقبل فان قيل الهجوع لا يكون الا بالليل والنوم نهارا لا يقال له الهجوع قلنا ذكر الامر العام وارادة التخصيص حسن فنقول رأيت حيوانا ناطقا فصيحا وذكر الخاص وارادة العام لا يحسن الا في بعض المواضع فلا تقول رأيت فصيحا ناطقا حيوانا اذا عرفت هذا فنقول في قوله تعالى كانوا قليلا من الليل ذكر امرا هو كالعام يحتمل ان يكون بعده كانوا من الليل يسجون ويستغفرون او يسهرون او غير ذلك فاذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك الامر العام المحتمل له ولغيره فلا اشكال فيه ❊ ثم قال تعالى (وبالاسحارهم يستغفرون) اشارة الى انهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون ان يكون عملهم اكثر من ذلك واخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر

(من)

قليلا ظرف اوكانوا يهجعون هجوعا قليلا على انه صفة للمصدر وما مزيدة في الوجهين ويجوز ان تكون مصدرية اوموصولة مرتفعة بقليلا على الفاعلية اى كانوا قليلا من الليل هجوعهم اوما يهجعون فيه وفيه مبالغات في تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذى هو وقت الراحة والهجوع الذى هو الفرار من النوم وزيادة ما ولا مساغ لجعل ما نافية على معنى

من التقصير واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به وفيه وجه آخر ألطف منه وهوانه تعالى لما بين انهم يهجعون قليلا والهجوع مقتضى الطبع قال يستغفرون اى من ذلك القدر من النوم القليل وفيه لطيفة اخرى تنبيها فى جواب سؤال وهوانه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر وما قال كانوا كثيرا من الليل مايسهرون فما الحكمة فيه مع ان السهر هو الكلفة والاجتهاد لاالهجوع نقول اشارة الى ان نومهم عبادة حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا وذلك الهجوع اورثهم الاشتغال بعبادة اخرى وهو الاستغفار فى وجوه الاسحار ومنعهم من الاعجاب بأنفسهم والاستكبار وفيه مباحث (البحث الاول) فى الباء فانها استعملت للظرف ههنا وهى ليست للظرف نقول قال بعض النحاة ان حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض يقال فى الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفى شهر رمضان فيستعمل اللام والباء وفى وكذلك فى المكان تقول اقمت بالمدينة كذاوفيهـا ورأيته ببلدة كذا وفيها فان قيل ما التحقيق فيه نقول الحروف لها معان مختلفة كما ان الاسماء والافعال كذلك غير ان الحروف غير مستقلة بافادة المعنى والاسم والفعل مستقلان لكن بين بعض الحروف وبعضها تناف وتباعد كما فى الاسماء والافعال فان البيت والمسكن مختلفان متفاوتان وكذلك سكن ومكث ولا كذلك كل اسمين يفرض اوكل فعلين يوجد اذاعرفت هذافنقول بين الباء واللام وفى مشاركة اما البـاء فلانها للالصاق والمتمكن فى مكان ملتصق به متصل وكذلك الفعل بالنسبة الى الزمان فاذاقال سار بالنهار معناه ذهب ذهابا متصلا بالنهار وكذاقوله تعالى وبالاسحارهم يستغفرون اى استغفارا متصلا بالاسحار مقترنا بها لان الكائن فيها مقترن بها فان قيل فهل يكون بينهما فى المعنى تفاوت نقول نعم وذلك لان من قال قمت بالليل واستغفرت بالاسحار اخبر عن الامرين وذلك ادل على وجود الفعل مع اول جزء من اجزاء الوقت من قوله قمت فى الليل لانه يستدعى احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل أقمت ببلد كذا لايفيد انه كان محاطا بالبلد وقوله اقمت فيها يدل على احاطتها به فاذن قول القائل أقمت بالبلدة ودعوت بالاسحار أعم من قوله قمت فيه لان القائم فيه قائم به والقائم به ليس قائمـا فيه من كل بد اذا علمت هذا فقوله تعالى وبالاسحارهم يستغفرون اشارة الى انهم لايخلون وقتـا عن العبادة فانهم بالليل لايهجعون ومع اول جزء من السحر يستغفرون فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب لانهم وقت الانتباه فى الاسحار لم يخلوا الوقت للذنب فان قيل زدنا بيانا فان من الازمان أزمانا لاتجعل ظروفا بالباء فلايقـال خرجت بيوم الجمعة ويقال بقى نقول ان كل فعل جار فى زمان فهو متصل به فالخروج فى يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة نقول الفارق بينهما الاطلاق والتقييد بدليل انك ان قلت خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة لم يحسن ولو قلت خرجت بيوم سعدوخرج هو بيوم نحس حسن فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص

انهم لايهجعون من الليل قليلا بل يحيونه كله لما ان ماالنافية لايعمل مابعـدها فيما قبلها (وبالاسحارهم يستغفرون) اى هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار فى الاسحار كأنهم اسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفى بناء الفعل على الضمير اشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له واطنابهم فيه (وفى اموالهم

وتقييد جاز استعمال الباء فيهما فاذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء وحيث زال الخصوص بالتنكير وقلت خرجت بيوم كذا عاد الجواز والسر فيه ان مثل يوم الجمعة وهذه الساعة وتلك الليلة وجد فيها امر غير الزمان وهو خصوصيات وخصوصية الشئ فى الحقيقة امور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الاجمال مثاله اذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ثم انك لو قلت الرجل الطويل ما كان يصير مخصصا لكنه يقرب من الخصوص ويخرج من القصار فان قلت العالم لم يصر مخصصا لكنه يخرج عن الجهال فاذا قلت الزاهد فكذلك فاذا قلت ابن عمرو خرج عن ابناء زيد وبكر وخالد وغيرهم فاذا قلت هذا يتناول تلك المخصصات التى بأجمعها لا تجتمع الا فى ذلك فاذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشئ عن الزمان واما فى فصحيح لان ماحصل فى العام فهو فى الخاص لان العام امر داخل فى الخاص واما فى فيدخل فى الذى فيه الشئ فصح ان يقال فى يوم الجمعة وفى هذه الساعة واما بحث اللام فنؤخره الى موضعه وقد تقدم بعضه فى تفسير قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وقولهم غير خال عن فائدة قال الزمخشرى فائدته انحصار المستغفرين اى لكمالهم فى الاستغفار كأن غيرهم ليس بمستغفر فهم المستغفرون لا غير يقال فلان هو العالم لكماله فى العلم كأنه تفرد به وهو جيد ولكن فيه فائدة اخرى وهى ان الله تعالى لما عطف وبالاسحار هم يستغفرون على قوله كانوا قليلا من الليل ما يهجعون فلو لم يؤكد معنى الاثبات بكلمة هم لصلح ان يكون معناه وبالاسحار قليلا ما يستغفرون تقول فلان قليلا ما يؤذى والى الناس يحسن قد يفهم انه قليل الايذاء قليل الاحسان فاذا قلت قليلا ما يؤذى وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله قليل الايذاء كثير الاحسان والاستغفار يحتمل وجوها (احدها) طلب المغفرة بالذكر بقولهم ربنا اغفر لنا (الثانى) طلب المغفرة بالفعل اى بالاسحار يأتون بفعل آخر طلبا للغفران وهو الصلاة او غيرها من العبادات (الثالث) وهو اغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع اذا جاء أوان حصاده فكأنهم بالاسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة فان قيل فالله لم يؤخر مغفرتهم الى السحر نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار وهو الوقت المشهود فيقول الله على ملأ منهم انى غفرت لعبدى والاول اظهر والثانى عند المفسرين اشهر ❁ ثم قال تعالى (وفى اموالهم حق للسائل والمحروم) وقد ذكرنا مرارا ان الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه يذكر الشفقة على خلقه ولا شك ان قليل الهجوع المستغفر فى وجوه الاسحار وجد منه التعظيم العظيم فأشار الى الشفقة بقوله وفى اموالهم حق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اضاف المال اليهم وقال فى مواضع انفقوا مما رزقكم الله وقال ومما رزقناهم ينفقون نقول سببه ان فى تلك المواضع كان الذكر للحث فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع فقال هو رزق الله والله يرزقكم فلا

(تخافوا)

حق) اى نصيب وافر يستوجبونه على انفسهم تقربا الى الله تعالى واشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) للمستجدى والمتعفف الذى يحسبه الناس غنيا فيحرم الصدقة (وفى الارض آيات للموقنين) اى دلائل واضحة على شؤنه تعالى على التفصيل من حيث انها مدحوة كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى اقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبر

يخافوا الفقر واعطوا واما ههنا فدح على ما فعلوه فلم يكن الى الحرص حاجة (المسئلة الثانية) المشهور فى الحق انه هو القدر الذى علم شرعا وهو الزكاة وحينئذ لا يبقى هذا صفة مدح لان كون المسلم فى ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لان كل مسلم كذلك بل الكافر اذا قلنا انه مخاطب بفروع الاسلام فى ماله حق معلوم غير انه اذا اسلم سقط عنه وان مات عوقب على تركه وان ادى من غير الاسلام لا يقع الموقع فكيف يفهم كونه مدحا نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) ان تفسر السائل بمن يطلب شرعا والمحروم هو الذى لا مكنة له من المطلب ومنعه الشارع من المطالبة ثم ان المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب فقال تعالى فى ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها فان ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلبا على سبيل الجزية والزكاة بل يسأل سؤالا اختياريا فيكون حينئذ كأنه قال فى ماله زكاة وصدقة والصدقة فى المال لا تكون الا بفرضه هو ذلك وتقديره وافرازه للفقراء والمساكين (الجواب الثانى) هو ان قوله وفى اموالهم حق للسائل اى مالهم ظرف لحقوقهم فان كلمة فى للظرفية لكن الظرف لا يطلب الا للمظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه الا ويجعلونه ظرفا للحق ولا شك ان المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم فجعل مالهم ظرفا للحقوق ولا يكون فوق هذا مدح فان قيل فلو قيل مالهم للسائل هل كان ابلغ قلنا لا وذلك لان من يكون له اربعون دينارا فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة لكن اذا اجتهد واتجر وعاش سنين وادى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى اكثر وهذا كما فى الصلاة والصوم لو اضعف واحد نفسه بهما حتى يعجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى وفى السائل والمحروم وجوه (احدها) ان السائل هو الناطق وهو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحرمة قال النبى صلى الله عليه وسلم لكل كبد حرى اجر (وثانيها) وهو الاظهر والاشهر ان السائل هو الذى يسأل والمحروم المتعفف الذى يحسبه بعض الناس غنيا فلا يعطيه شيئا والاول كقوله تعالى كلوا وارعوا انعامكم والثانى كقوله واطعموا القانع والمعتر فالقانع كالمحروم فان قيل على الوجه الاول الترتيب فى غاية الحسن فان دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم فما وجه الترتيب فى الوجه الثانى نقول فيه وجهان (احدهما) ان السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم فى الوجود لانه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته الا بعد الاطلاع عليه فكان الذكر على الترتيب الواقع وثانيهما هو ان ذلك اشارة الى كثرة العطاء فيقول يعطى السائل فاذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤلا (الثالث) هو ان المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام الحكمى فان قول

وبحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتنة وانها تلقح بالوان النبات وانواع الاشجار واصناف الثمار المختلفة الالوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنيها ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم (وفى انفسكم) اى وفى انفسكم آيات اذ ليس فى العالم شئ الا وفى الانفس له نظير يدل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية

القائل ان رجوعهم الينا وعلينا حسابهم ليس كقوله تعالى ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى وكما ان الانسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى ان ينور جسمه الظاهر بالنظافة كذلك الكلام ورب كلمة حكمية لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها اذا عرفت هذا فقوله وبالاسحارهم يستغفرون وفى اموالهم حق للسائل والمحروم احسن من حيث اللفظ من قولنا بالاسحارهم يستغفرون وفى اموالهم حق للمحروم والسائل فان قيل قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه ولم قدم المحروم على السائل فى قوله القانع والمعتر لان القانع هو الذى لا يسأل والمعتر السائل نقول قد قيل ان القانع هو السائل والمعتر الذى لا يسأل فلا فرق بين الموضعين وقيل بان القانع والمعتر كلاهما لا يسأل لكن القانع لا يتعرض ولا يخرج من بيته والمعتر يتعرض للاخذ بالسلام والتردد ولا يسأل وقيل بان القانع لا يسأل والمعتر يسأل فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع او مستحق مطالبة جزية والزكاة لها طالب وسائل هو الساعى والامام فقوله للسائل اشارة الى الزكاة وقوله والمحروم اى الممنوع اشارة الى الصدقة المتطوع بها واحداهما قبل الاخرى بخلاف اعطاء اللحم ❊ ثم قال تعالى (وفى الارض آيات للموقنين) وهو يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون متعلقا بقوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع وفى الارض آيات للموقنين تدلهم على ان الحشر كائن كما قال تعالى ومن آياته انك ترى الارض خاشعة الى ان قال ان الذى احياها لمحيى الموتى (وثانيهما) ان يكون متعلقا بأفعال المتقين فانهم خافوا الله فعظموه فاظهروا الشفقة على عباده وكان لهم آيات فى الارض وفى انفسهم على اصابتهم الحق فى ذلك فان من يكون له فى الارض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى ومن له فى انفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق ان يعبد ويترك الهجوع لعبادته واذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير واذا علم ان الرزق من السماء لا يبخل بماله فالآيات الثلاث المتأخرة فيها تقرير ما تقدم وعلى هذا فقوله تعالى فورب السماء والارض يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الاول اقوى واظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع ان الآيات حاصلة للكل قال تعالى وآية لهم الارض الميتة احييناها نقول قد ذكرنا ان اليمين آخر ما يأتى به المبرهن وذلك لانه أولا يأتى بالبرهان فان صدق فذلك وان لم يصدق لا بد له من ان ينسبه الخصم الى اصرار على الباطل لانه اذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه الى المكابرة فيتعين طريقه فى اليمين فاذا آيات الارض لم تفدهم لان اليمين بقوله والذاريات ذروا دلت على سبق اقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها وفى الارض آيات للموقنين وان لم يحصل للمصر المعاند منها فائدة واما فى سورة يس وغيرها من المواضع التى جعل فيها آيات الارض للعامة لم يحصل فيها اليمين

والتركيبات العجيبة والتمكن من الافعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة (افلا تبصرون) اى الا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة (وفى السماء رزقكم) اى اسباب رزقكم او تقديره وقيل المراد بالسماء السحاب وبالرزق المطر فانه سبب الاقوات (وما توعدون) من الثواب لان الجنة فى السماء السابعة اولان الاعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل انه مبتدأ خبره قوله تعالى

(وذكر)

وذكر الآيات قبله فجاز أن يقال ان الارض آيات لمن ينظر فيها (الجواب الثانى) وهو الاصح ان هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين اى حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه ان فيها آيات لهم ان نظروا وتأملوا (المسئلة الثانية) ههنا قال وفى الارض آيات وقال هناك وآية لهم الارض نقول لما جعل الآية للموقنين ذكر بلفظ الجمع لان الموقن لا يغفل عن الله تعالى فى حال ويرى فى كل شئ آيات دالة واما الغافل فلا ينتبه الا بأمور كثيرة فيكون الكل له كآية الواحدة ❊ ثم قال تعالى (وفى انفسكم افلا تبصرون) اشارة الى دليل الانفس وهو كقوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم وانما اختار من دلائل الآفاق ما فى الارض لظهورها لمن على ظهورها فان فى اطرافها واكنافها ما لا يمكن عد اصنافها فدليل الانفس فى قوله وفى انفسكم عام ويحتمل ان يكون مع المؤمنين وانما أتى بصيغة الخطاب لانها اظهر لكون علم الانسان بما فى نفسه اتم وقوله تعالى وفى انفسكم يحتمل ان يكون المراد وفيكم يقال الحجارة فى نفسها صلبة ولا يراد بها النفس التى هى منبع الحياة والحس والحركات ويحتمل ان يكون المراد وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وقوله افلا تبصرون بالاستفهام اشارة الى ظهورها ❊ وقوله تعالى (وفى السماء رزقكم) فيه وجوه (احدها) فى السحاب المطر (ثانيها) فى السماء رزقكم مكتوب (ثالثها) تقدير الارزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الارض حبة قوت وفى الآيات الثلاث ترتيب حسن وذلك لان الانسان له امور يحتاج اليها لابد من سبقها حتى يوجد هو فى نفسه وامور تقارنه فى الوجود وامور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها فالارض هى المكان واليه يحتاج الانسان ولابد من سبقها فقال وفى الارض آيات ثم فى نفس الانسان أمور من الاجسام والاعراض فقال وفى انفسكم ثم بقاؤه بالرزق فقال وفى السماء رزقكم ولولا السماء لما كان للناس البقاء ❊ وقوله تعالى (وما توعدون) فيه وجهان (احدهما) الجنة الموعود بها لانها فى السماء (ثانيهما) هو من الايعاد لان البناء للمفعول من اوعد يوعد اى وما توعدون امام الجنة والنار فى قوله تعالى يومهم على النار وقوله ان المتقين فى جنات فيكون ايعادا عاما وامام العذاب وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال وفى الارض آيات للموقنين كافية واما انتم أيها الكافرون ففى انفسكم آيات هى اظهر الآيات وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة وفى السماء الارزاق فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل لما تركتم الحق لاجل الرزق فانه واصل بكل طريق ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل ❊ ثم قال تعالى (فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون) وفى المقسم عليه وجوه (احدها) ما توعدون اى ما توعدون لحق يؤيده قوله تعالى انما توعدون لصادق وعلى هذا يعود كل ما قلناه فى وجوه ما توعدون ان قلنا ان ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هى (ثانيها) الضمير راجع الى القرآن اى ان القرآن حق وفيما ذكرنا فى قوله تعالى يؤفك عنه دليل هذا وعلى هذا فقوله مثل

(فورب السماء والارض انه لحق) على ان الضمير لما واما على الاول فاما له واما لما ذكر من امر الآيات والرزق على انه مستعار لاسم الاشارة (مثل ما انكم تنطقون) اى كما انه لا شك لكم فى انكم تنطقون ينبغى ان لا تشكوا فى حقيته ونصبه على الحالية من المستكن فى لحق او على انه وصف لمصدر محذوف اى انه لحق حقا مثل نطقكم وقيل انه مبنى على الفتح لاضافته الى غير متمكن وهو ما ان كانت عبارة عن شئ وان عا فى حيزها ان جعلت زائدة ومحله الرفع على انه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع

مانكم تنطقون معناه تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما انكم تتكلمون وسنذكره (ثالثها) انه راجع الى الدين كما فى قوله تعالى وان الدين لواقع (رابعها) انه الى اليوم المذكور فى قوله ايان يوم الدين يدل عليه وصف الله اليوم بالحق فى قوله تعالى ذلك اليوم الحق (خامسها) انه راجع الى القول الذى يقال هذا الذى كنتم به تستعجلون * وفى التفسير مباحث (الاول) الفاء تستدعى تعقيب أمر لامر فما المتقدم نقول فيه وجهان (احدهما) الدليل المتقدم كأنه تعالى يقول انما توعدون لحق بالبرهان المبين ثم بالقسم واليمين (ثانيهما) القسم المتقدم كأنه تعالى يقول والذاريات ثم ورب السماء والارض * وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف اعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل اذ يصح ان يقال ومررت بعمرو * فقوله والذاريات ذروا فالحاملات وقرا عطف من غير اعادة حرف القسم وقوله فورب السماء مع اعادة حرفه * والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ويحتمل ان يقال الامر المتقدم هو بيان الثواب فى قوله يومهم على النار يفتنون وقوله ان المتقين فى جنات وفيه فائدة وهو ان الفاء تكون تنبيها على ان لا حاجة الى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين فكأنه يقول ورب السماء والارض انه لحق كما يقول القائل بعد ما يظهر دعواه هذا والله ان الامر كما ذكرت فيؤكد قوله باليمين ويشير الى ثبوته من غير يمين (البحث الثانى) اقسم من قبل بالامور الارضية وهى الرياح وبالسماء فى قوله والسماء ذات الحبك ولم يقسم بربها وههنا أقسم بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم اولا بالادنى فان لم يصدق به يرتقى الى الاعلى ولهذا قال بعض الناس اذا قال قائل وحياتك والله لا يكفر واذا قال والله وحياتك لا شك يكفر وهذا استشهاد وان كان الامر على خلاف ما قاله ذلك القائل لان الكفر اما بالقلب او باللفظ الظاهر فى امر القلب او بالفعل الظاهر وما ذكره ليس بظاهر فى تعظيم جانب غير الله والعجب من ذلك القائل انه لا يجعل التأخير فى الذكر مفيدا للترتيب فى الوضوء وغيره (البحث الثالث) قرئ مثل بالرفع وحينئذ يكون وصفا لقوله لحق ومثل وان اضيف الى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به تقول رأيت رجلا مثل عمرو لانه لا يفيده تعريفا لانه فى غاية الابهام وقرئ مثل بالنصب ويحتمل وجهين (احدهما) ان يكون مفتوحا لاضافته الى ما وهو ضعيف والاجاز ان يقال زيد قاتل من يعرفه او ضارب من يشتمه (ثانيهما) ان يكون منصوبا على البيان تقديره لحق حقا مثل ويحتمل ان يقال انه منصوب على انه صفة مصدر معلوم غير مذكور ووجهه انا دللنا ان المراد من الضمير فى قوله انه هو القرآن فكأنه قال ان القرآن لحق نطق به الملك نطقا مثل ما انكم تنطقون وما مجرور لا شك فيه * ثم قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين) اشارة الى تسلية قلب النبى صلى الله عليه وسلم ببيان ان غيره من الانبياء عليهم السلام كان مثله واختار ابراهيم لكونه شيخ المرسلين وكون النبى عليه الصلاة والسلام على سنته فى بعض الاشياء وانذار لقومه بما

(هل أتاك حديث ضيف ابرهيم) تفخيم لشان الحديث وتنبيه على انه ليس مما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريق الوحى والضيف فى الاصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم وكانوا اثنى عشر ملكا وقيل تسعة عاشرهم جبريل وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملك آخر معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفا لانهم كانوا فى صورة الضيف حيث اضافهم ابراهيم عليه السلام اولانهم كانوا فى حسبانه كذلك (المكرمين) اى المكرمين عند الله تعالى اوعند ابراهيم حيث خدمهم بنفسه وبزوجته

جرى من الضيف ومن انزال الحجارة على المذنبين المضلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان المراد ماذكرت من التسلية والانذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة نقول ليكون ذلك اشارة الى الفرج فى حق الانبياء والبلاء على الجهلة والاغبياء اذجاءهم من حيث لايحتسب * قال الله تعالى فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فلم يكن عند ابراهيم عليه السلام خبر من انزال العذاب مع ارتفاع مكانته (المسئلة الثانية) كيف سماهم ضيفا ولم يكونوا نقول لما حسبهم ابراهيم عليه السلام ضيفا لم يكذبه الله تعالى فى حسبانه اكراما له يقال فى كلمات المحققين الصادق يكون مايقول والصديق يقول مايكون (المسئلة الثالثة) ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع فكيف وصف الواحد بالجمع نقول الضيف يقع على القوم يقال قوم ضيف ولانه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدرا وانما وصفهم بالمكرمين اما لكونهم عبادا مكرمين كما قال تعالى بل عباد مكرمون واما لاكرام ابراهيم عليه السلام اياهم فان قيل بماذا اكرمهم قلنا ببشاشة الوجه اولا وبالاجلاس فى احسن المواضع والطفها ثانيا وتعجيل القرى ثالثا وبعدم التكليف للضيف بالاكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة فى قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث وفى قول عشرة وفى آخر اثنا عشر (المسئلة الرابعة) هم ارسلوا للعذاب بدليل قولهم انا ارسلنا الى قوم مجرمين وهم لم يكونوا من قوم ابراهيم عليه السلام وانما كانوا من قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم الى ابراهيم عليه السلام نقول فيه حكمة بالغة وبيانها من وجهين (احدهما) ان ابراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن اكرام الملك للذى فى عهدته وتحت طاعته اذا كان يرسل رسولا الى غيره يقول له اعبر على فلان الملك واخبره برسالتك وخذ فيها رأيه (وثانيهما) هو ان الله تعالى لما قدر ان يهلك قوما كثيرا وجما غفيرا وكان ذلك مما يحزن ابراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه اضعاف مايهلك ويكون من صلبه خروج الانبياء عليهم السلام * ثم قال تعالى (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما العامل فى اذ فيه وجوه (احدها) ما فى المكرمين من الاشارة الى الفعل ان قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على ان ابراهيم عليه السلام اكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول اكرموا اذ دخلوا وهذا من شان الكريم ان يكرم ضيفه وقت الدخول (ثانيها) ما فى الضيف من الدلالة على الفعل لا نا قلنا ان الضيف مصدر فيكون كأنه يقول اضافهم اذ دخلوا (ثالثها) يحتمل ان يكون العامل فيه اتاك تقديره ما اتاك حديثهم وقت دخولهم فاسمع الآن ذلك لان هل ليس للاستفهام فى هذا الموضع حقيقة بل للاعلام وهذا اولى لانه فعل مصرح به ويحتمل ان يقال اذكر اذ دخلوا (المسئلة الثانية) لماذا اختلف اعراب السلامين فى القراءة المشهورة نقول نبين اولا وجوه النصب والرفع ثم نبين وجوه الاختلاف فى الاعراب اما النصب فيحتمل وجوها (احدها)

(اذ دخلوا عليه) ظرف للحديث اولما فى الضيف من معنى الفعل اوالمكرمين ان فسر باكرام ابراهيم (فقالوا سلاما) اى نسلم عليك سلاما (قال) اى ابراهيم (سلام) اى عليكم سلام عدل به الى الرفع بالابتداء للقصد الى الثبات والدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام احسن من تحيتهم وقرئ مرفوعين و قرئ سلم وقرئ منصوبا والمعنى واحد (قوم منكرون) انكرهم عليه الصلاة والسلام للسلام الذى هو علم للاسلام او لانهم ليسوا ممن عهدهم من الناس اولان اوضاعهم واشكالهم خلاف ما عليه الناس ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله فى نفسه من غير ان يشعرهم بذلك لانه خاطبهم به جهرا اوسألهم ان يعرفوه انفسهم كما قيل والا لكشفوا احوالهم عند ذلك ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لمقدمات الضيافة

ان يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاما (ثانيها) هو ان يكون السلام نوعا من انواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من ان يلغو او يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسنا سلموا من الاثم وحينئذ يكون مفعولا للقول لان مفعول القول هو الكلام يقال قال فلان كلاما ولا يكون هذا من باب ضربه سوطا لان المضروب هناك ليس هو السوط وههنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقوله تعالى قيلا سلاما سلاما (ثالثها) ان يكون مفعول فعل محذوف تقديره نبلغك سلاما لا يقال على هذا ان المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام فما كان يقول قوم منكرون ولا كان يقرب اليهم الطعام ولما قال نكرهم واوجس لانا نقول جاز ان يقال انهم قالوا نبلغك سلاما ولم يقولوا من الله تعالى الى ان سألهم ابراهيم عليه السلام ممن تبلغون لى السلام وذلك لان الحكيم لا يأتى بالامر العظيم الا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة فلو ضموا اليه الامر العظيم الذى هو السلام من الله تعالى لانزعج ابراهيم عليه السلام ثم ان ابراهيم عليه السلام اشتغل باكرامهم عن سؤالهم وآخر السؤال الى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام هذا وجه النصب واما الرفع فنقول يحتمل ان المراد منه السلام الذى هو التحية وهو المشهور أيضا وحينئذ يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره سلام عليكم وكون المبتدأ نكرة يحتمل فى قول القائل سلام عليكم وويل له او خبر مبتدأ محذوف تقديره قال جوابه سلام ويحتمل ان يكون المراد قولا يسلم به او ينبئ عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره امرى سلام بمعنى مسالمة لا تعلق بينى وبينكم لانى لا اعرفكم او يكون المبتدأ قولكم تقديره قولكم سلام ينبئ عن السلامة وانتم قوم منكرون فاخطبكم فان الامر اشكل على وهذا ما يحتمل ان يقال فى النصب والرفع واما الفرق فنقول اما على التفسير المشهور وهو ان السلام فى الموضعين بمعنى التحية فنقول الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى (اما من حيث اللفظ) فنقول سلام عليك انما جوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة من حيث انه كالمتروك على اصله لان الاصل ان يكون منصوبا على تقدير اسلم سلاما وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان فيكون كالخارج عن الكلام والكلام التام اسلم سلاما كما انك تقول ضربت زيدا على السطح يكون على السطح خارجا عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية فاذا كان الامر كذلك وكان السلام والادعية كثير الوقوع قالوا نعدل عن الجملة الفعلية الى الاسمية ونجعل لعليك حظا فى الكلام فنقول سلام عليك فتصير عليك لفائدة لا بد منها وهى الخبرية ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب اذا علم هذا فالنصب اصل والرفع مأخوذ منه والاصل مقدم على المأخوذ منه فقال قالوا سلاما قال سلام فقدم الاصل على

المتفرع منه (واما المعنى) فذلك لان ابراهيم عليه السلام اراد ان يرد عليهم بالاحسن فأتى بالجملة الاسمية فانها ادل على الدوام والاستمرار فان قولنا جلس زيد لاينبئ عنه لان الفعل لابد فيه من الانباء عن التجدد والحدوث ولهذا لوقلت الله موجود الآن لا تثبت العقل الدوام اذلاينبئ عن التجدد ولو قال قائل وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا سلاما قال سلام عليكم مستمر دائم واما على قولنا المراد القول ذو السلامة فظاهر الفرق فانهم قالوا قولا ذا سلام وقال لهم ابراهيم عليه السلام سلام اى قولكم ذو سلام وانتم قوم منكرون فالتبس الامر على وان قلنا المراد امرى مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليما فنقول فيه جمع بين امرين تعظيم جانب الله ورعاية قلب عباد الله فانه لوقال سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز ان يكونوا على غير ذلك فيكون الرسول قد امنهم فان السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل فيكون فاعلا للامر من غير اذن الله نيابة عن الله فقال انتم سلمتم على وانا متوقف امرى متاركة لاتعلق بيننا الى ان يتبين الحال ويدل على هذا هو ان الله تعالى قال واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقال فى مثل هذا المعنى للنبى صلى الله عليه وسلم فاصفح عنهم وقل سلام ولم يقل قل سلاما وذلك لان الاخيار المذكورين فى القرآن لو سلموا على الجاهلين لايكون ذلك سببا لحرمة التعرض اليهم واما النبى صلى الله عليه وسلم لوسلم عليهم لصار ذلك سببا لحرمة التعرض اليهم فقال قل سلام اى امرى معكم متاركة تركناه الى ان يأتى امر الله بأمر واما على قولنا بمعنى نبلغ سلاما فنقول هم لما قالوا نبلغك سلاما ولم يعلم ابراهيم عليه السلام انه ممن قال سلام اى ان كان من الله فان هذا منه قد ازداد به شرفى والا فقد بلغنى منه سلام وبه شرفى ولا اتشرف بسلام غيره هذا ما يمكن ان يقال فيه والله اعلم بمراده والاول والثانى عليهما الاعتماد فانهما اقوى وقد قيل بهما (المسئلة الثالثة) قال فى سورة هود فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم فدل على ان انكارهم كان حاصلا بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا قال سلام قوم منكرون ۞ ثم قال تعالى (فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون) بفاء التعقيب فدل على ان تقريب الطعام منهم بعد حصول الانكار لهم فالوجه فيه نقول جاز أن يحصل اولا عنده منهم نكر ثم زاد عند امساكهم والذى يدل على هذا هو انهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا فى انفسهم عند كل احد منكرين واشترك ابراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل انكرتكم بل قال انتم منكرون فى انفسكم عند كل احد منا ثم ان ابراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة امر منهم هو الامساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة الى الكل لكن الحالة فى سورة هود محكية على وجه ابسط مما ذكره ههنا فان ههنا لم يبين المبشر به وهناك ذكر باسمه وهو اسحق ولم يقل ههنا ان القوم قوم من وهناك قال قوم لوط وفى الجملة من تأمل السورتين يعلم ان الحكاية محكية هناك على وجه

(فراغ الى اهله) اى ذهب اليهم على خفية من ضيفه فان من ادب المضيف ان يبادره بالقرى ويبادر به حذارا من ان يكفه ويعذره او يصير منتظرا والفاء فى قوله تعالى (فجاء بعجل سمين) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بكمال سرعة المجئ بالطعام كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق اى فذبح عجلا فحنذه فجاء به (فقربه اليهم) بان وضعه لديهم حسبما هو المعتاد (قال الا تأكلون) انكارا لعدم تعرضهم للاكل

الاضافة أبسط فذكر فيها النكتة الزائدة ولم يذكرها هنا ولنعد الى بيان ما اتى به من آداب الاضافة وما أتوا به من آداب الضيافة فالاكرام اولا ممن جاءه ضيف قبل ان يجتمع به ويسلم احدهما على الآخر انواع من الاكرام وهى اللقاء الحسن والخروج اليه والتهيؤ له ثم الكلام من الضيف على الوجه الحسن الذى دل عليه النصب فى قوله سلاما اما لكونه مؤكدا بالمصدر اولكونه مبلغا ممن هو اعظم منه ثم الرد الحسن الذى دل عليه الرفع والامساك عن الكلام لايكون فيه وفاء ان قلنا ان ابراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم بل قال امرى مسالمة اوقولكم سلام وسلامكم منكر فان ذلك وان كان مخلا بالاكرام لكن الغدر ليس من شيم الكرام وموادة اعداء الله لاتليق بالانبياء عليهم السلام ثم تعجيل القرى الذى دل عليه قوله تعالى فما لبث ان جاء وقوله ههنا فراغ فان الروغان يدل على السرعة والروغ الذى بمعنى النظر الخفى اوالرواح المخفى ايضا كذلك ثم الاخفاء فان المضيف اذا احضر شيئا ينبغى ان يخفيه عن الضيف كى لايمنعه من الاحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح و يأتى بدفع مايحتاج اليه و يمنعه الحياء منه ثم اختيار الاجود بقوله سمين ثم تقديم الطعام اليهم لانقلهم الى الطعام بقوله فقربه اليهم لان من قدم الطعام الى قوم يكون كل واحد مستقرا فى مقره لايختلف عليه المكان فان نقلهم الى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الادنى و يضيق على الاعلى ثم العرض لاالامر حيث قال ألا تأكلون ولم يقل كلوا ثم كون المضيف مسرورا بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد فى بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاما كثيرا ويكون نظره ونظر اهل بيته فى الطعام متى يمسك الضيف يده عنه يدل عليه * قوله تعالى (فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم) ثم ادب الضيف انه اذا أكل حفظ حق المآكلة يدل عليه انه خافهم حيث لم يأكلوا ثم وجوب اظهار العذر عند الامساك يدل عليه قوله لاتخف ثم تحسين العبارة فى العذر وذلك لان من يكون محتميا واحضر لديه الطعام فهناك امران احدهما ان الطعام لايصلح له لكونه مضرا به الثانى كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغى ان لايقول الضيف هذا طعام غليظ لايصلح لى بل الحسن ان يأتى بالعبارة الاخرى ويقول لى مانع من اكل الطعام وفى بيتى لا اكل ايضا شيئا يدل عليه قوله وبشروه بغلام حيث فهموه انهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا لايصلح لنا الطعام والشراب ثم ادب آخر فى البشارة ان لايخبر الانسان بما يسره دفعة فانه يورث مرضا يدل عليه انهم جلسوا واستأنس بهم ابراهيم عليه السلام ثم قالوا انبشرك ثم ذكروا اشرف النوعين وهو الذكر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن الاوصاف فان الابن قد يكون دون البنت اذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والابن بالضد ثم انهم تركوا سائر الاوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم اشارة

(فأوجس منهم) اضمر فى نفسه (خيفة) لتوهم انهم جاؤا للشر وقيل وقع فى قلبه انهم ملائكة جاؤا للعذاب (قالوا لاتخف) قيل مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وامن منهم (وبشروه) وفى صورة الصافات وبشرناه اى بواسطتهم (بغلام) هو اسحق عليه السلام (عليم) عند بلوغه واستوائه

الى ان العلم رأس الاوصاف ورئيس النعوت وقدذكرنا فائدة تقديم البشارة على الاخبار عن اهلاكهم قوم لوط ليعلم ان الله تعالى يهلكهم الى خلف ويأتى بدلهم خيرا منهم * ثم قال تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) اى اقبلت على اهلها وذلك لانها كانت فى خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت واعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الاهل ولم يقل بلفظ الادبار عن الملائكة وقوله تعالى فى صرة اى صيحة كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئا من احوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء او التعجب ويحتمل ان يقال تلك الصيحة كانت بقولها ياويلتا تدل عليه الآية التى فى سورة هود وصك الوجه ايضا من عادتهن واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما احدهما كبر السن والثانى العقم لانها كانت لاتلد فى صغر سنها وعنفوان شبابها ثم عجزت وأيست فاستبعدت فكأنها قالت ياليتكم دعوتم دعاء قريبا من الاجابة ظنا منها ان ذلك منهم كما يصدر من الضيف على سبيل الاخبار من الادعية كقول الداعى الله يعطيك مالا ويرزقك ولدا فقالوا هذا منا ليس بدعاء وانما ذلك قول الله تعالى *(قالوا كذلك قال ربك) ثم دفعوا استبعادها بقولهم *(انه هو الحكيم العليم) وقد ذكرنا تفسيرهما مرارا فان قيل لم قال ههنا الحكيم العليم وقال فى هود حيد مجيد نقول لما بينا ان الحكاية هناك ابسط فذكروا مايدفع الاستبعاد بقولهم أتعجبين من امر الله ثم لما صدقت ارشدوهم الى القيام بشكر نعم الله وذكروهم بنعمته بقولهم حيد فان الحميد هو الذى يتحقق منه الافعال الحسنة وقولهم مجيد اشارة الى ان الفائق العالى الهمة لايحمده لفعله الجميل وانما يحمده ويسبح له لنفسه وههنا لما لم يقولوا أتعجبين اشاروا الى مايدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه وفيه لطيفة وهى ان هذا الترتيب مراعى فى السورتين فالحميد يتعلق بالفعل والمجيد يتعلق بالقول وكذلك الحكيم هو الذى فعله كما ينبغى لعلمه قاصدا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم فانه لايقال له حكيم واما اذا فعل فعلا قاصدا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها يقال له حكيم فيه والعليم راجع الى الذات اشارة الى انه يستحق الحمد بمجده وان لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه وان لم يفعل على وفق القاصد * ثم قال تعالى (قال فاخطبكم ايها المرسلون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لما علم حالهم بدليل قوله منكرون لم لم يقنع بما بشروه لجواز ان يكون نزولهم للبشارة لاغير نقول ابراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيفه اذا استعجل فى الخروج ماهذه العجلة وماشغلك الذى يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ولايسكت عند خروجهم مخافة ان يكون سكوته يوهم استثقالهم ثم انهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذى لايسر عن الصديق الصدوق لاسيما وكان ذلك باذن الله تعالى لهم فى اطلاع ابراهيم عليه السلام

(فاقبلت امرأته) سارة لما سمعت بشارتهم الى بيتها وكانت فى زاوية تنظر اليهم (فى صرة) فى صيحة من الصرير ومحله النصب على الحالية او المفعولية ان جعلت اقبلت بمعنى اخذت كما يقال اقبل يشتمنى (فصكت وجهها) اى لطمته من الحياء لما انها وجدت حرارة دم الطمث وقيل ضربت باطراف اصابعها جبينها كما يفعله المتعجب (وقالت عجوز عقيم) اى انا عجوز عاقر فكيف الد (قالوا كذلك) مثل ذلك القول الكريم (قال ربك) وانما نحن معبرون نخبرك به عنه تعالى لا انا نقوله من تلقاء أنفسنا (انه هو الحكيم العليم) فيكون قوله حقا وفعله متقنا لامحالة * روى ان جبريل عليه السلام قال لها انظرى الى سقف بيتك فنظرت فاذا جذوعه مورقة مثمرة ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع ابراهيم عليه السلام ايضا حسبما شرح فى صورة الحجر وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما انه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا وفى سورة هود (قال) اى ابراهيم عليه السلام لما علم انهم ملائكة ارسلوا لامر (فما خطبكم) اى شأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة (ايها المرسلون

على اهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل وهو ابو الانبياء اسحق عليه السلام على الصحيح فان قيل فا الذى اقتضى ذكره بالفاء ولو كان كما ذكرتم لقال ماهذا الاستعجال وماخطبكم المعجل لكم نقول لوكان اوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وايناس ماكان يقول شيئا فلما آنسوه قال ماخطبكم اى بعد هذا الانس العظيم ماهذا الايحاش الاليم (المسئلة الثانية) هل فى الخطب فائدة لاتوجد فى غيره من الالفاظ نقول نعم وذلك من حيث ان الالفاظ المفردة التى يقرب منها الشغل والامر والفعل وامثالها وكل ذلك لايدل على عظم الامر واما الخطب فهو الامر العظيم وعظم الشان يدل على عظم من على يده ينقضى فقال ماخطبكم اى لعظمتكم لاترسلون الا فى عظيم ولو قال بلفظ مركب بأن يقول ماشغلكم الخطير وامركم العظيم لزم التطويل فالخطب أفاد التعظيم مع الايجاز (المسئلة الثالثة) من اين عرف كونهم مرسلين فنقول ❊ (قالوا) له بدليل قوله تعالى انا ارسلنا الى قوم لوط وانما لم يذكرههنا لما بينا ان الحكاية بسبطها مذكورة فى سورة هود او نقول لما قالوا لامرأته كذلك قال ربك علم كونهم منزلين من عندالله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى يدل على هذا ان قولهم ❊(انا ارسلناك الى قوم مجرمين) كان جواب سؤاله منهم (المسئلة الرابعة) هذه الحكاية بعينها هى المحكية فى هود وهناك قالوا انا ارسلنا بعدما زال عنه الروع وبشروه وهنا قالوا انا ارسلنا بعدما سألهم عن الخطب وايضا قالوا هناك انا ارسلنا الى قوم لوط وقالوا ههنا انا ارسلنا الى قوم مجرمين والحكاية عن قولهم فان لم يقولوا ذلك ورد السؤال ايضا فنقول اذا قال قائل حاكيا عن زيد قال زيد عمرو خرج ثم يقول مرة اخرى قال زيد ان بكرا خرج فاما ان يكون صدر من زيد قولان واما ان لايكون حاكيا ماقاله زيد والجواب عن الاول هو انه لما جاز انهم ماقالوا له لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط فلما قال لهم ماذا تفعلون بهم كان لهم ان يقولوا انا ارسلنا الى قوم لوط لنهلكهم كما يقول القائل خرجت من البيت فيقال لماذا خرجت فيقول خرجت لأتجر لكن ههنا فائدة معنوية وهى انهم انما قالوا فى جواب ماخطبكم نهلكهم بأمر الله لتعلم براءتهم عن ايلام البرئ واهمال الردئ فأعادوا لفظ الارسال واما عن الثانى نقول الحكاية قد تكون حكاية اللفظ كما تقول قال زيد بعمرو مررت فيحكى لفظه المحكى وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول زيد قال عمرو خرج ولك ان تبدل مرة اخرى فى غير تلك الحكاية بلفظة اخرى فتقول لما قال زيد بكر خرج قلت كيت وكيت كذلك ههنا القرآن لفظ معجز وماصدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم وسواء كان منزلا عليهم لم يكن لفظه معجزا فيلزم ان لاتكون هذه الحكايات بتلك الالفاظ فكأنهم قالوا له انا ارسلنا الى قوم مجرمين وقالوا انا ارسلنا الى قوم لوط وله ان يقول قالوا انا ارسلنا الى قوم من آمن بك لانه لايحكى لفظهم حتى يكون ذلك واحدا بل يحكى كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة ألا ترى انه تعالى لما حكى لفظهم

(قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط

(فى)

فى السلام على احد الوجوه فى التفسير قال فى الموضعين سلاما وسلام ثم بين مالاجله ارسلوا بقوله تعالى (لنرسل عليهم حجارة من طين) وقد فسرناذلك فى العنكبوت وقلنا ان ذلك دليل على وجوب الرمى بالحجارة على اللائط وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اى حاجة الى قوم من الملائكة وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه نقول الملك القادر قد يأمر الحقير باهلاك الرجل الخطير ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير اظهارا لنفاذ امره فحيث اهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التى بها الحياة كان اظهر فى القدرة وحيث امر آلافا من الملائكة باهلاك اهل بلد مع قلتهم كان اظهر فى نفاذ الامر (وفيه فائدة أخرى) وهى ان من يكون تحت طاعة ملك عظيم ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره يكون ذلك تعظيما منه له وكلما كان العدوا كثر والمدد اوفر كان التعظيم اتم لكن الله تعالى اعان لوطا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف وبين العددين من التفاوت مالا يخفى وقد ذكرنا بذا منه فى تفسير قوله تعالى وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى تأكيد الحجارة بكونها من طين نقول لان بعض الناس يسمى البرد حجارة فقوله من طين يدفع ذلك التوهم واعلم ان بعض من يدعى النظر يقول لا ينزل من السماء الا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التى يتخذها الرماة قالوا وسبب ذلك وهو ان الاعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التى لاعمارة فيها والرياح تسوقها الى بعض البلاد ويتفق وصول ذلك الى هواء ندى فيصير طينا رطبا والرطب اذا نزل وتفرق استدار بدليل انك اذا رميت الماء الى فوق ثم نظرت اليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلى الكبار ثم فى النزول اذا اتفق ان تضربه النيران التى فى الجو جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه وقد ينزل كثيرا فى المواضع التى لاعمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ولهذا قال من طين لان مالا يكون من طين كالحجر الذى فى الصواعق لا يكون كثيرا بحيث يمطر وهذا تعسف ومن يكون كامل العقل يسند الفكر الى ماقاله ذلك القائل فيقول ذلك الاعصار لما وقع فان وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولابد من الانتهاء الى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لابد وان يكون فاعلا مختارا والمختار له ان يفعل ماذكروله ان يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له الى الجزم بطريق احداثه ولا يصل العقل اليه يجب اخذه بالنقل والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية وانما المعلوم ان الحجارة التى من طين نزولها من السماء اغرب واعجب من غيرها لانها فى العادة لابد لها من مكث فى النار ❁ قوله تعالى (مسومة عند ربك للمسرفين) فيه وجوه (احدها) مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به (ثانيها) انها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الاحجار فانها مخلوقة للانتفاع فى الابنية وغيرها (ثالثها) مرسلة للمجرمين لان الارسال يقال فى السوائم يقال ارسلها لترعى فيجوز ان يقول سومها بمعنى ارسلها وبهذا

(لنرسل عليهم) اى بعدما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة (حجارة من طين) اى طين متحجر هو السجيل (مسومة) مرسلة من اسمت الماشية اى ارسلتها اومعلمة من السومة وهى العلامة وقد مر تفصيله فى سورة هود (عند ربك للمسرفين) المجاوزين الحد فى الفجور وقوله تعالى (فاخرجنا) الخ حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام

يفسر قوله تعالى والخيل المسومة اشارة الى الاستغناء عنها وانها ليست للركوب ليكون ادل على الغنى كما قال والقناطير المقنطرة وقوله تعالى للمسرفين اشارة الى خلاف مايقوله الطبيعيون ان الحجارة اذا اصابت واحدا من الناس فذلك نوع من الاتفاق فانها تنزل بطبعها ثم يتفق شخص لها فتصيبه فقوله مسومة اى فى اول ماخلق وارسل اذا علم هذا فانما كان ذلك على قصد اهلاك المسرفين فان فقيل اذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم مع ان المسرف غير المجرم فى اللغة نقول المجرم هو الآتى بالذنب العظيم لان الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشئ لعظمة مقداره والمسرف هو الآتى بالكبير اومن اسرف ولو فى الصغائر يصير مجرما لان الصغير الى الصغير اذا انضم صار كبيرا ومن اجرم فقد اسرف لانه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم لكن فيه لطيفة معنوية وهى ان الله تعالى سومها للمسرف المصر الذى لايترك الجرم والعلم بالامور المستقبلة عند الله تعالى يعلم انهم مسرفون فأمر الملائكة بارسالها عليهم واما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمين فقالوا انا ارسلنا الى قوم نعلمهم مجرمين لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لايؤمن ويصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بانهم لو عاشوا سنين لتمادوا فى الاجرام فان قيل اللام لتعريف الجنس اولتعريف العهد نقول لتعريف العهد اى مسومة لهؤلاء المسرفين اذليس لكل مسرف حجارة مسومة فان قيل ما اسرافهم نقول مادل عليه قوله سبحانه وتعالى ماسبقكم بها من احد من العالمين اى لم يبلغ مبلغكم احد ❊ وقوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) فيه فائدتان (احداهما) بيان القدرة والاختيار فان من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار (ثانيتهما) بيان انه ببركة المحسن ينجو المسئ فان القرية مادام فيها المؤمن لم تهلك والضمير عائد الى القرية وهى معلومة وان لم تكن مذكورة ❊ وقوله تعالى (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) فيه اشارة الى ان الكفر اذا غلب والفسق اذا فشا لاتنفع معه عبادة المؤمنين بخلاف مالو كان اكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون وقيل فى مثاله ان العالم كبدن ووجود الصالحين كالاغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ثم ان البدن ان خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وان خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما وان وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب فكذلك البلاد والعباد والدلالة على ان المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة والحق ان المسلم اعم من المؤمن واطلاق العام على الخاص لامانع منه فاذا سمى المؤمن مسلما لايدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الاعم منهم الابيتا من المسلمين ويلزم من هذا ان لايكون هناك غيرهم من المؤمنين وهذا كما لو قال قائل لغيره من فى البيت من الناس فيقول له مافى البيت من الحيوانات احد غير زيد فيكون مخبرا له بخلو البيت عن كل انسان غير زيد

بطريق الاجمال بعد حكاية ماجرى بين الملائكة وبين ابراهيم عليه السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها مواضع اخر كأنه قيل فباشروا ما امروا به فاخرجنا بقولنا فأسر بأهلك الخ (من كان فيها) اى فى قرى قوم لوط واضمارها بغير ذكر لشهرتها (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت) اى غير اهل بيت (من المسلمين) قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط واهل بيته

﴿ ثم قال تعالى (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) وفي الآية خلاف قيل هو ماء اسود منتن انشقت ارضهم وخرج منها ذلك وقيل حجارة مرمية في ديارهم وهي بين الشام والحجاز وقوله للذين يخافون العذاب الاليم اى المنتفع بها هو الخائف كما قال تعالى لقوم يعقلون في سورة العنكبوت وبينهما في اللفظ فرق قال ههنا آية وقال هناك آية بينة وقال هناك لقوم يعقلون وقال ههنا للذين يخافون فهل في المعنى فرق نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى آية بينة حيث وصفها بالظهور وكذلك منها وفيها فان من للتبعيض فكأنه تعالى قال من نفسها لكم آية باقية وكذلك قال لقوم يعقلون فان العاقل أعم من الخائف فكانت الآية هناك اظهر وسببه ماذكرنا ان القصد هناك تخويف القوم وههنا تسلية القلب ألا ترى الى قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وقال هناك انا منجوك واهلك من غير بيان واف بنجاة المسلمين والمؤمنين باسرهم ﴿ ثم قال تعالى (وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين) قوله وفي موسى يحتمل ان يكون معطوفا على معلوم ويحتمل ان يكون معطوفا على مذكور اما الاول ففيه وجوه (الاول) ان يكون المراد ذلك في ابراهيم وفي موسى لان من ذكر ابراهيم يعلم ذلك (الثاني) لقومك في لوط وقومه عبرة وفي موسى وفرعون (الثالث) ان يكون هناك معنى قوله تعالى تفكروا في ابراهيم ولوط وقومهما وفي موسى وفرعون والكل قريب بعضه من بعض واما الثاني ففيه ايضا وجوه (احدها) انه عطف على قوله وفي الارض آيات للموقنين وفي موسى وهو بعيد لبعده في الذكر ولعدم المناسبة بينهما (ثانيها) انه عطف على قوله وتركنا فيها آية للذين يخافون وفي موسى اى وجعلنا في موسى على طريقة قولهم علفتها تبنا وماء باردا وتقلدت سيفا ورمحا وهو اقرب ولا يخلو عن تعسف اذا قلنا بما قال به بعض المفسرين ان الضمير في قوله تعالى وتركنا فيها عائد الى القرية (ثالثها) ان نقول فيها راجع الى الحكاية فيكون التقدير وتركنا في حكايتهم آية او في قصتهم فيكون وفي قصة موسى آية وهو قريب من الاحتمال الاول وهو العطف على المعلوم (رابعها) ان يكون عطفا على هل أتاك حديث ضيف ابراهيم وتقديره وفي موسى حديث اذ ارسلناه وهو مناسب اذ جمع الله كثيرا من ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام كما قال تعالى ام لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى وقال تعالى صحف ابراهيم وموسى والسلطان القوة بالحجة والبرهان والمبين الفارق وقد ذكرنا انه يحتمل ان يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون ويحتمل ان يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وامر المرسلين ﴿ قوله تعالى (فتولى بركنه) فيه وجوه (الاول) الباء للمصاحبة والركن اشارة الى القوم كأنه تعالى يقول اعرض مع قومه يقال نزل فلان بعسكره على كذا ويدل على هذا الوجه قوله تعالى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم ادبر يسعى قال ادبر وهو بمعنى تولى وقوله فحشر فنادى في معنى

الذين نجوا ثلاثة عشر (وتركنا فيها) اى في القرية (آية) اى علامة دالة على ما اصابهم من العذاب قيل هي تلك الاحجار او صخر منضود فيها او ماء منتن (للذين يخافون العذاب الاليم) اى من شأنهم ان يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية (وفي موسى) عطف على قوله تعالى وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا في موسى آية كقول من قال
علفتها تبنا وماء باردا (اذ ارسلناه) قيل هو منصوب بآية وقيل

قوله تعالى بركنه (الثاني) فتولى اى اتخذ وليا والباء للتعدية حينئذ يعنى تقوى بجنده (الثالث) تولى امر موسى بقوته كأنه قال اقتل موسى لئلا يبدل دينكم ولا يظهر فى الارض الفساد فتولى امره بنفسه وحينئذ يكون المفعول غير مذكور وركنه هو نفسه القوية ويحتمل ان يكون المراد من ركنه هامان فانه كان وزيره وعلى هذا الوجه الثانى اظهر ثم قال تعالى ❁ (وقال ساحر او مجنون) اى هذا ساحر او مجنون وقوله ساحر اى يأتى الجن بسحره او يقرب منهم والجن يقربون منه ويقصدونه ان كان هو لا يقصدهم فالساحر والمجنون كلاهما امره مع الجن غير ان الساحر يأتيهم باختياره والمجنون يأتونه من غير اختياره فكأنه اراد صيانة كلامه عن الكذب فقال هو يسحر الجن او يسحر فان كان ليس عنده منه خبر ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه ❁ ثم قال تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم) وهو اشارة الى بعض ما اوتى به كأنه يقول واتخذ الاولياء فلم ينفعوه واخذه الله واخذ اركانه وألقاهم جميعا فى اليم وهو البحر والحكاية مشهورة وقوله تعالى وهو مليم نقول فيه بيان شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين اما شرفه فلأنه تعالى قال بأنه اتى بما يلام عليه بمجرد قوله انى اريد هلاك اعدائك يا اله العالمين فلم يكن له سبب الا هذا واما فرعون فقال أنا ربكم الأعلى فكان سببه تلك وهذا كما قال القائل فلان عيبه انه سارق او قاتل او يعاشر الناس فيؤذيهم وفلان عيبه انه مشغول بنفسه لا يعاشر فتكون نسبة العيبين بعضهما الى بعض سببا لمدح احدهما وذم الآخر واما بشارة المؤمنين فهو بسبب ان من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه ومن اهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه ايمانه حين قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وكلاهما قد أتى بما يلام عليه فذنب المؤمن وقت ظهور اليأس مغفور وايمان الكافر غير مقبول ❁ ثم قال تعالى (وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم) وفيه ما ذكرنا من الوجوه التى ذكرناها فى عطف موسى عليه السلام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكرت ان المقصود ههنا تسلية قلب النبى صلى الله عليه وسلم وتذكيره بحال الانبياء ولم يذكر فى عاد وثمود انبياءهم كما ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام نقول فى ذكر الآيات ست حكايات حكاية ابراهيم عليه السلام وبشارته وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين وحكاية موسى عليه السلام وفى هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين لان الناجين فيهم كانوا كثيرين اما فى حق ابراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر واما فى قوم لوط فلأن الناجين وان كانوا اهل بيت واحد ولكن المهلكين كانوا ايضا اهل بقعة واحدة واما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة الى الناجين اضعاف ما كان عدد المهلكين بالنسبة الى الناجين من قوم لوط عليه السلام فذكر الحكايات الثلاث الاول للتسلية بالنجاة وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية باهلاك العدو والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى فى آخر هذه الآيات كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا

بمحذوف اى كائنة وقت ارسالنا وقيل بتركنا (الى فرعون بسلطان مبين) هو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة (فتولى بركنه) اى فأعرض عن الايمان به وازور كقوله تعالى ونأى بجانبه وقيل فتولى بما يتقوى به من ملكه وعساكره فان الركن اسم لما يركن اليه الشئ وقرئ بركنه بضم الكاف (وقال ساحر) اى هو ساحر (او مجنون) كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه الصلاة والسلام من الخوارق العجيبة الى الجن وتردد فى انه حصل باختياره وسعيه او بغيرهما (فأخذناه وجنوده فنبذناهم

ساحراو مجنون الى ان قال فتول عنهم فما انت بملوم وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وفى هود قال بعد الحكايات ذلك من انباء القرى نقصه عليك الى ان قال وكذلك اخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد فذكر بعدها مايؤكد التهديد وذكر بعد الحكايات ههنا مايفيد التسلى وقوله العقيم اى ايست من اللواقح لانها كانت تكسر وتقلع فكيف كانت تلقح والفعيل لايلحق به تاء التأنيث اذا كان بمعنى مفعول وكذلك اذا كان بمعنى فاعل فى بعض الصور وقد ذكرنا سببه ان فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعا ولم يتميز المفعول عن الفاعل فاولى ان لايتميز المؤنث عن المذكر فيه لانه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لان الفاعل جزء من الكلام محتاج اليه فاول مايحصل فى الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول تقول فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة ويدل على ذلك ايضا ان التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف ممازج للكلمة فقيل فاعل بألف فاصلة بين الفاء والعين التى هى من اصل الكلمة وقيل مفعول بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف فى آخر الكلمة فالمميز فيهما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفى التأنيث لم يؤثر ولان التمييز فى الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما باحدهما فالالف بعد الفاء يختص بالفاعل والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز فى التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على اصل التذكير فاذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول الا بأمر منفصل كذلك المؤنث والمذكر لايمتاز احدهما عن الآخر الا بحرف غير متصل به

۞ وقوله تعالى (ماتذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم) فيه مباحث (الاول) فى اعرابه وفيه وجهان (احدهما) نصب على انه صفة الريح بعد صفة العقيم ذكر الواحدى انه وصف فان قيل كيف يكون وصفا والمعرفة لاتوصف بالجمل وماتذر جملة ولايوصف بها الا النكرات نقول الجواب فيه من وجهين (احدهما) أنه يكون باعادة الريح تقديرا كأنه يقول وارسلنا عليهم الريح العقيم ريحا ماتذر (ثانيهما) هو ان المعرف نكرة لان تلك الريح منكرة كأنه يقول وارسلنا الريح التى لم تكن من الرياح التى تقع ولا وقع مثلها فهى لشدتها منكرة ولهذا اكثر ماذكرها فى القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملتها قوله تعالى بل هو مااستعجلتم به ريح فيها عذاب اليم وقوله ريح صرصر عاتية سخرها الى غير ذلك (الوجه الثانى) وهو الاصح انه نصب على الحال تقول جاءنى مايفهم شيئا فعلمته وفهمته اى حاله كذا فان قيل لم تكن حال الارسال ماتذر والحال ينبغى ان يكون موجودا مع ذى الحال وقت الفعل فلا يجوز ان يقال جاءنى زيد امس راكبا غدا والريح بعد ما ارسلت بزمان صارت ماتذر شيئا نقول المراد به البيان بالصلاحية اى أرسلناها وهى على قوة وصلاحية ان لاتذر تقول لمن جاء واقام عندك اياما ثم سألك شيئا جئتنى سائلا اى قبل السؤال بالصلاحية والامكان هذا ان قلنا انه نصب وهو المشهور ويحتمل انه رفع

فى اليم) وفيه من الدلالة على غاية عظم شان القدرة الربانية ونهاية قماءة فرعون وقومه مالايخفى (وهو مليم) اى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والجملة حال من الضمير فى فأخذناه (وفى عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم) وصفت بالعقم لانها اهلكتهم وقطعت دابرهم او لانها لم تتضمن خيرا ما من انشاء مطر او القاح شجر وهى النكباء او الدبور او الجنوب (ماتذر من شئ اتت عليه)

على انه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي ماتذر (البحث الثانى) ماتذر للنفى حال التكلم يقال مايخرج زيد اى الآن واذا أردت المستقبل تقول لايخرج اولن يخرج واما الماضى تقول ماخرج ولم يخرج والريح حالة الكلام مع النبى صلى الله عليه وسلم كانت ماتركت شيئاالاجعلته كالرميم فكيف قال بلفظ الحال ماتذر نقول الحكاية مقدرة على انهامحكية حال الوقوع ولهذا قال تعالى وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد مع ان اسم الفاعل الماضى لايعمل وانمايعمل ماكان منه بمعنى الحال والاستقبال (البحث الثالث) هل فى قوله تعالى ماتذر من شئ اتت عليه مبالغة ودخول تخصيص كما فى قوله تعالى تدمر كل شئ بامر ربها نقول هو كما وقع لان قوله أتت عليه وصف لقوله شئ كأنه قال كل شئ أتت عليه أو كل شئ تأتى عليه جعلته كالرميم ولايدخل فيه السموات لانها ماأتت عليها وانمايدخل فيه الاجسام التى تهب عليها الرياح فان قيل فالجبال والصخور أتت عليها وماجعلتها كالرميم نقول المراد أتت عليه قصدا وهو عاد وابنيتهم وعروشهم وذلك لانها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة اياهم فماتركت شيئا من تلك الاشياء الاجعلته كالرميم مع ان الصر الريح الباردة والمكرر لاينفك عن المعنى الذى فى اللفظ من غير تكرير تقول حث وحثحث وفيه مافى حث نقول فيه قولان (احدهما) انها كانت باردة فكانت فى ايام العجوز وهى ثمانية ايام من آخر شباط واول اذار والريح الباردة من شدة بردها تحرق الاشجار والثمار وغيرهما وتسودهما (والثانى) انها كانت حارة والصر هو الشديد لاالبارد وبالشدة فسر قوله تعالى فى صرة اى فى شدة من الحر (البحث الرابع) فى قوله تعالى ماتذر من شئ أتت عليه الاجعلته كالرميم لان فى قوله تعالى ماتذر نفى الترك مع اثبات الاتيان فكأنه تعالى قال تأتى على اشياء وماتتركها غير محرقة وقول القائل ماأتى على شئ الاجعله كذا يكون نفى الاتيان عمالم يجعله كذلك ❊ قوله تعالى (وفى ثمود) والبحث فيه وفى عاد هو ماتقدم فى قوله تعالى وفى موسى ❊ وقوله تعالى (اذقيل لهم تمتعوا حتى حين) قال بعض المفسرين المراد منه هو ماامهلهم الله ثلاثة ايام بعد قتلهم الناقة وكانت فى تلك الايام تتغير الوانهم فتصفر وجوههم وتسود وهو ضعيف لان قوله تعالى فعتوا عن امر ربهم بحرف الفاء دليل على ان العتو كان بعد قوله تمتعوا فاذن الظاهر ان المراد هو ماقدر الله للناس من الآجال فمامن احد الاوهو ممهل مدة الاجل يقول له تمتع الى آخر اجلك فان احسنت فقد حصل لك التمتع فى الدارين والافمالك فى الآخرة من نصيب ❊ وقوله تعالى (فعتوا عن امر ربهم فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) فيه بحث وهو ان عتا يستعمل بعلى قال تعالى ايهم اشد على الرحمن عتيا وههنا استعمل مع كلمة عن فنقول فيه معنى الاستغناء فحيث قال تعالى عن امر ربهم كان كقوله لايستكبرون عن عبادته وحيث قال على كان كقول القائل فلان يتكبر علينا والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا (احدهما) انها الواقعة (والثانى) الصوت الشديد وقوله وهم

اى جرت عليه (الاجعلته كالرميم) هو كل مارم وبلى وتفتت من عظم اونبات اوغير ذلك (وفى ثمود اذقيل لهم تمتعوا حتى حين) وهو قوله تعالى تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام قيل قال لهم صالح عليه السلام تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (فعتوا عن امر ربهم) اى فاستكبروا عن الامتثال به (فاخذتهم الصاعقة) قيل لما رأوا

ينظرون اشارة الى احد معنيين اما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كما يقول القائل للمضروب يضربك فلان وانت تنظر اشارة الى انه لايدفع واما بمعنى ان العذاب اتاهم لاعلى غفلة بل انذروا به من قبل بثلاثة ايام وانتظروه ولو كان على غفلة لكان لمتوهم ان يتوهم انهم اخذوا على غفلة اخذ العاجل المحتال كما يقول المبارز الشجاع اخبرتك بقصدى اياك فانتظرنى ❊ وقوله تعالى (فما استطاعوا من قيام) يحتمل وجهين (احدهما) انه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة فان من لايقدر على قيام كيف يمشى فضلا عن ان يهرب وعلى هذا فيه لطائف لفظية (احدها) قوله تعالى فما استطاعوا فان الاستطاعة دون القدرة لان فى الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبئ عن عدم القدرة والاستقلال فمن استطاع شيئا كان دون من يقدر عليه ولهذا يقول المتكلمون الاستطاعة مع الفعل اوقبل الفعل اشارة الى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذ منه واليه الاشارة بقوله تعالى هل تستطيع ربك على قراءة من قرأ بالتاء وقوله فما استطاعوا ابلغ من قول القائل ماقدروا على قيام (ثانيها) قوله تعالى من قيام بزيادة من وقد عرفت مافيه من التأكيد (ثالثها) قوله قيام بدل قوله هرب لما بينا ان العاجز عن القيام اولى ان يعجز عن الهرب (الوجه الثانى) هو ان المراد من قيام القيام بالامر اى مااستطاعوا من قيام به ❊ وقوله تعالى (وما كانوا منتصرين) اى مااستطاعوا الهزيمة والهرب ومن لايقدر عليه يقاتل وينتصر بكل مايمكنه لانه يدفع عن الروح وهم مع ذلك ماكانوا منتصرين وقد عرفت ان قول القائل ماهو بمنتصر ابلغ من قوله ماانتصر ولاينتصر والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله ماانتصر اى لشئ من شانه ذلك كما تقول فلان لاينصر اوفلان ليس بنصر ❊ ثم قال تعالى (وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين) قرئ قوم بالجر والنصب فاوجههما نقول اما الجر فظاهر عطفا على ماتقدم فى قوله تعالى وفى عاد وفى موسى تقول لك فى فلان عبرة وفى فلان وفلان واما النصب فعلى تقدير واهلكنا قوم نوح من قبل لان ماتقدم دل على الهلاك فهو عطف عن المحل وعلى هذا فقوله من قبل معناه ظاهر كأنه يقول واهلكنا قوم نوح من قبل واما على الوجه الاول فتقديره وفى قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم ❊ ثم قال تعالى (والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون) وهو بيان للوحدانية وماتقدم كان بيانا للحشر واما قوله ههنا والسماء بنيناها بايد وانتم تعرفون ان ماتعبدون من دون الله ماخلقوا منها شيئا فلا يصح الاشراك ويمكن ان يقال هذا عود بعد التهديد الى اقامة الدليل وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الاجسام ثانيا كما قال تعالى اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) النصب على شريطة التفسير يختار فى مواضع اذا كان العطف على جملة فعلية فاناك الجملة نقول فى بعض الوجوه التى ذكرناها فى قوله تعالى وفى عاد وثمود تقديره وهل اتاك حديث عاد وهل اتاك حديث ثمود عطفا على قوله هل اتاك حديث

العلامات التى بينها صالح عليه السلام من اصفرار وجوههم واحرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه السلام فنجاه الله تعالى الى ارض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا وقرئ الصعقة وهى المرة من الصعق (وهم ينظرون) اليها ويعاينونها (فما استطاعوا من قيام) كقوله تعالى فاصبحوا فى دارهم جاثمين (وما

ضيف ابراهيم المكرمين وعلى هذا يكون ماتقدم جملة فعلية لاخفاء فيه وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور الى النصب اقرب منه الى الرفع فكان عطفا على مابالنصب اولى ولان قوله تعالى فنبذناهم وقوله ارسلنا وقوله تعالى فاخذتهم الصاعقة وفااستطاعوا كلها فعليات فصار النصب مختارا (المسئلة الثانية) كرر ذكر البناء فى السموات قال تعالى والسماء ومابناها وقال تعالى ام السماء بناها وقال تعالى جعل الارض قرارا والسماء بناء فالحكمة فيه نقول فيه وجوه (احدها) ان البناء باق الى قيام القيامة لم يسقط منه شئ ولم يعدم منه جزء واما الارض فهى فى التبدل والتغير فهى كالفرش الذى يبسط ويطوى وينقل والسماء كالبناء المبنى الثابت واليه الاشارة بقوله تعالى سبعا شدادا واما الاراضى فكم منها ما صار بحرا وعاد ارضا من وقت حدوثها (ثانيها) ان السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤس والارض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع اليق كما قال تعالى رفع سمكها (ثالثها) قال بعض الحكماء السماء مسكن الارواح والارض موضع الاعمال والمسكن اليق بكونه بناء والله اعلم (المسئلة الثالثة) الاصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل فقوله بنينا عامل فى السماء فالحكمة فى تقديم المفعول على الفعل ولو قال وبنينا السماء بأيد كان اوجز نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر فى المعرفة فلما كان المقصود اثبات العلم بالصانع قدم الدليل فقال والسماء المزينة التى لاتشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها ان كنتم لاتعرفونا (المسئلة الرابعة) اذا كان المقصود اثبات التوحيد فكيف قال بنيناها ولم يقل بنيتها او بناها الله نقول قوله بنيناها ادل على عدم الشريك فى التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن ان يكون فيه تشريك وتمام التقرير هو ان قوله تعالى بنينا لايورث ايهاما بان الآلهة التى كانوا يعبدونها هى التى يرجع اليها الضمير فى قوله بنينا لان تلك اما اصنام منحوتة واما كواكب جعلوا الاصنام على صورها وطبائعها فاما الاصنام المنحوتة فلايشكون انها مابنت من السماء شيئا واما الكواكب فهى فى السماء محتاجة اليها فلاتكون هى بانيتها وانما يمكن ان يقال انها بنيت لها وجعلت اماكنها فلما لم يتوهم ماقالوا قال بنينا نحن ونحن غير مايقولون ويدعونه فلايصلحون لنا شركاء لان كل ماهو غير السماء فهو محتاج الى السماء ودون السماء فى المرتبة فلايكون خالق السماء وبانيها فاذن علم ان المراد جمع التعظيم وافاد النص عظمته فالعظمة انفى للشريك فثبت ان قوله تعالى بنيناها ادل على نفى الشريك من بنيتها وبناها الله * فان قيل لم قلت ان الجمع يدل على التعظيم قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان الكلام على قدر فهم السامع والسامع هو الانسان والانسان يقيس الشاهد على الغائب فان الكبير عندهم من يفعل الشئ بجنده وخدمه ولايباشر بنفسه فيقول الملك فعلنا اى فعله عبادنا بامرنا ويكون فى ذلك تعظيم فكذلك فى حق الغائب (والوجه الآخر) هو ان القول اذا وقع من واحد وكان الغير به راضيا يقول القائل فعلنا كذا واذا اجتمع جمع على فعل لايقع الا بالبعض كما اذا خرج

كانوا منتصرين) بغيرهم كما لم يمتنعوا بانفسهم (وقوم نوح) اى واهلكنا قوم نوح فان ماقبله يدل عليه او واذكر ويجوز ان يكون معطوفا على محل فى عاد يؤيده القراءة بالجر وقيل هو معطوف على مفعول فأخذناه (من قبل) اى من قبل هؤلاء المهلكين (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصى (والسماء بنيناها بأيد) اى بقوة (وانا لموسعون) لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الانفاق او لموسعون السماء او ما بينها وبين الارض او الرزق

جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قتله اهل بلدة كذا الرضا الكل به وقصد الكل اليه اذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما امر بفعل شئ لايكون لأحد رده وكان كل واحد منقادا له يقول بدل فعلت فعلنا ولهذا يقول الملك العظيم اجمعنا بحيث لاينكر احد ولا يرده نفس وقوله تعالى بأيد اى قوة والايد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى ذا الايد انه اواب ويحتمل ان يقال ان المراد جمع اليد ودليله انه قال تعالى لما خلقت بيدى وقال تعالى مما عملت ايدينا انعاما وهو راجع فى الحقيقة الى المعنى الاول وعلى هذا فحيث قال خلقت قال بيدى وحيث قال بنينا قال بأيد لمقابلة الجمع بالجمع فان قيل فلم يقل بنيناها بايدينا وقال مما عملت ايدينا نقول لفائدة جليلة وهى ان السماء لايخطر ببال احد انها مخلوقة لغير الله والانعام ليست كذلك فقال هناك مما عملت ايدينا تصريحا بان الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك خلقت بيدى وفى السماء بايد من غير اضافة للاستغناء عنها وفيه لطيفة أخرى وهى ان هناك لما اثبت الاضافة بعد حذف الضمير العائد الى المفعول فلم يقل خلقته بيدى ولا قال عملته ايدينا وقال ههنا بنيناها لان هناك لم يخطر ببال احد ان الانسان غير مخلوق وان الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته واما السماء فبعض الجهال يزعم انها غير مجعولة فقال بنيناها بعود الضمير تصريحا بانها مخلوقة وقوله تعالى وانا لموسعون فيه وجوه (احدها) انه من السعة اى اوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الى السماء وسعتها كحلقة فى فلاة والبناء الواسع الفضاء عجيب فان القبة الواسعة لايقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجون الى اقامة آلة يصح بها استدارتها وثبت بها تماسك اجزائها الى ان يتصل بعضها ببعض (ثانيها) قوله وانا لموسعون اى لقادرون ومنه قوله تعالى لايكلف الله نفسا الا وسعها اى قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة ويحتمل ان يقال بان ذلك حينئذ اشارة الى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول بنينا السماء وانا لقادرون على ان نخلق امثالها كما فى قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم (ثالثها) انا لموسعون الرزق على الخلق ❊ ثم قال تعالى (والارض فرشناها فنعم الماهدون) استدلالا بالارض وقد علم ما فى قوله والارض فرشناها وفيه دليل على ان دحو الارض بعد خلق السماء لان بناء البيت يكون فى العادة قبل الفرش وقوله تعالى فنعم الماهدون اى نحن او فنعم الماهدون ماهدوها ❊ ثم قال تعالى (ومن كل شئ خلقنا زوجين) استدلالا بما بينهما والزوجان اما الضدان فان الذكر والانثى كالضدين والزوجان منهما كذلك واما المتشاكلان فان كل شئ له شبيه ونظير وضد وند قال المنطقيون المراد بالشئ الجنس واقل مايكون تحت الجنس نوعان فن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلا المادى والمجرد ومن المادى النامى والجامد ومن النامى المدرك والنبات ومن المدرك الناطق والصامت وكل ذلك يدل على

(والارض فرشناها) مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها (فنعم الماهدون) اى نحن (ومن كل شئ) اى من الاجناس (خلقنا زوجين) اى نوعين ذكرا وانثى وقيل متقابلين السماء والارض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك (لعلكم تذكرون) اى فعلنا ذلك كله كى تتذكروا فتعرفوا انه خالق الكل ورازقه وانه المستحق للعبادة وانه قادر على اعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله تعالى (ففروا الى الله) مقدر بقول خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء اما لترتيب الامر على ماحكى من آثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن احكام رحمته المستدعية للفرار اليها كأنه قيل قل لهم اذا كان الامر كذلك فاهربوا الى الله الذى هذه شؤنه

انه فرد لا كثرة فيه ❊ وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) اى لعلكم تذكرون ان خالق الازواج لا يكون له زوج والا لكان ممكنا فيكون مخلوقا ولا يكون خالقا ولعلكم تذكرون ان خالق الازواج لا يعجز عن حشر الاجساد وجمع الازواج ❊ ثم قال تعالى (ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين) امرا بالتوحيد وفيه لطائف (الاولى) قوله تعالى ففروا ينبئ عن سرعة الاهلاك كأنه يقول الاهلاك والعذاب اسرع واقرب من ان يحتمل الحال الابطاء فى الرجوع فافزعوا الى الله سريعا وفروا (الثانية) قوله تعالى الى الله بيان المهروب اليه ولم يذكر الذى منه الهرب لأحد وجهين اما لكونه معلوما وهو هول العذاب او الشيطان الذى قال فيه ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا واما ليكون عاما كأنه يقول كل ما عدا الله عدو كم ففروا اليه من كل ما عداه وبيانه وهو ان كل ما عداه فانه يتلف عليك رأس مالك الذى هو العمر ويفوت عليك ما هو الحق والخير ومتلف رأس المال ومفوت الكمال عدو واما اذا فررت الى الله واقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع امرك ويعطيك بقاء لا فناء معه (الثالثة) الفاء للترتيب معناه اذا ثبت ان خالق الزوجين فرد ففروا اليه واتركوا غيره تركا مؤبدا (الرابعة) فى تنوع الكلام فائدة وبيانها هو ان الله تعالى قال والسماء بنيناها والارض فرشناها ومن كل شئ خلقنا ثم جعل الكلام للنبى عليه السلام وقال ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ولم يقل ففروا الينا وذلك لان لاختلاف الكلام تأثيرا وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثير ولهذا يكثر الانسان من النصائح مع ولده الذى حاد عن الجادة ويجعل الكلام مختلفا نوعا ترغيبا وترهيبا وتنبيها بالحكايات ثم يقول لغيره تكلم معه لعل كلامك ينفع لما فى اذهان الناس ان اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر والله تعالى ذكر انواعا من الكلام وكثيرا من الاستدلالات والآيات وذكر طرفا صالحا من الحكايات ثم ذكر كلاما من متكلم آخر هو النبى صلى الله عليه وسلم ومن المفسرين من يقول تقديره فقل لهم ففروا او قوله انى لكم منه نذير اشارة الى الرسالة وفيه أيضا لطائف (احداها) ان الله تعالى بين عظمته بقوله والسماء بنيناها والارض فرشناها وهيبته بقوله فنبذناهم فى اليم وقوله تعالى ارسلنا عليهم الريح العقيم وقوله فأخذتهم الصاعقة وفيه اشارة الى انه تعالى اذا عذب قدر على ان يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار فحكاية لوط تدل على ان التراب الذى منه الوجود والبقاء اذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك فى قوم فرعون والهواء فى عاد والنار فى ثمود ولعل ترتيب الحكايات الاربع للترتيب الذى فى العناصر الاربعة وقد ذكرنا فى سورة العنكبوت شيئا منه ثم اذا أبان عظمته وهيبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلا ردافه بذكر الرسول فائدة (ثانيها) فى الرسالة أمور ثلاثة المرسل والرسول والمرسل اليه وههنا ذكر الكل فقوله لكم اشارة الى المرسل اليهم وقوله منه اشارة الى

بالايمان والطاعة كى تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه واما العطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلكم تذكرون كأنه قيل قل لهم فتذكروا ففروا الى الله الخ وقوله تعالى (انى لكم منه نذير مبين) تعليل للامر بالفرار اليه تعالى او لوجوب الامتثال به فان كونه عليه الصلاة والسلام منذرا منه تعالى موجب عليه عليه الصلاة والسلام أن يأمرهم بالفرار اليه عليهم ان يمتثلوا به اى انى لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذرا منه تعالى او مظهر لما يجب اظهاره من العذاب المنذر به وفى امره تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأمرهم بالهرب اليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم

(المرسل)

بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى (ولا تجعلوا مع الله الها آخر) نهى موجب للفرار من سبب العقاب بعد الامر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى (انى لكم منه) اى من الجعل المنهى عنه (نذير مبين) فان تعلق كلة من بالانذار مع كون صلته الباء بتضمينه معنى الافرار يقال فرمنه اى هرب وافره غيره كأنه قيل وفروا من ان تجعلوا معه تعالى اعتقادا اوقولا الها آخر وفيه تأكيد لما قبله من الامر بالفرار من العقاب اليه تعالى لكن لابطريق التكرير كما قيل بل بالنهى عن سببه وايجاب الفرار منه (كذلك) اى الامر مثل ماذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحرا او مجنونا وقوله تعالى (ماأتى الذين من قبلهم) الخ تفسير له اى ما اتاهم (من رسول)

المرسل وقوله نذير بيان للرسول وقدم المرسل اليه فى الذكر لان المرسل اليه ادخل فى امر الرسالة لان عنده يتم الامر والملك لولم يكن هناك من يخالفه او يوافقه فيرسل اليه نذيرا او بشيرا لايرسل وان كان ملكا عظيما واذا حصل المخالف او الموافق يرسل وان كان غير عظيم ثم المرسل لانه متعين وهو الباعث واما الرسول فباختياره ولولا المرسل المتعين لماتمت الرسالة واما الرسول فلايتعين لان للملك اختيار من يشاء من عباده فقال منه ثم قال نذير تأخيرا للرسول عن المرسل (ثالثها) قوله مبين اشارة الى مابه تعرف الرسالة لان كل حادث له سبب وعلامة فالرسول هو الذى به تتم الرسالة ولابد له من علامة يعرف بها فقوله مبين اشارة اليها وهى اما البرهان او المعجزة * ثم قال تعالى (ولا تجعلوا مع الله الها آخر) اتماما للتوحيد وذلك لان التوحيد بين التعطيل والتشريك وطريقة التوحيد هى الطريقة فالمعطل يقول لااله اصلا والمشرك يقول فى الوجود آلهة والموحد يقول قول الاثنين باطل ونفى الواحد باطل فقوله تعالى ففروا الى الله أثبت وجود الله ولما قال ولا تجعلوا مع الله الها آخر نفى الاكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ولهذا قال مرتين (انى لكم منه نذير مبين) اى فى المقامين والموضعين وقد ذكرنا مرارا ان المعطل اذا قال لاواجب يجعل الكل ممكنا فان كل موجود ممكن لكن الله فى الحقيقة موجود فقد جعله فى تضاعيف قوله كالممكنات فقد اشرك وجعل الله كغيره والمشرك لما قال بان غيره اله يلزم من قوله نفى كون الاله الها لما ذكرنا فى تقرير دلالة التمانع من انه لو كان فيهما آلهة الا الله لزم عجز كل واحد فلايكون فى الوجود اله اصلا فيكون نافيا للالهية فيكون معطلا فالمعطل مشرك والمشرك معطل وكل واحد من الفريقين معترف بأن خصمه مبطل لكنه هو على مذهب خصمه يقول انه نفسه مبطل وهو لايعلم والحمد لله الذى هدانا وقوله ولا تجعلوا فيه لطيفة وهى انه اشارة الى ان الآلهة مجعولة لايقال فالله متخذ لقوله فاتخذه وكيلا قلنا الجواب عنه ظاهر وقد سبق فى قوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة * ثم قال تعالى (كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول الاقالوا ساحر او مجنون) والتفسير معلوم مما سبق وقد ذكرنا انه يدل على ان ذكر الحكايات للتسلية غير ان فيه لطيفة واحدة لانتركها وهى ان هذه الآية دليل على ان كل رسول كذب وحينئذ يرد عليه اسئلة (الاول) هو ان من الانبياء من قرر دين النبى الذى كان قبله وبقى القوم على ماكانوا عليه كانبياء بنى اسرائيل مدة وكيف وآدم لما ارسل لم يكذب (الثانى) ما الحكمة فى تقدير الله تكذيب الرسل ولم يرسل رسولا مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه اهل زمانه (الثالث) قوله ماأتى الاقالوا دليل على انهم كلهم قالوا ساحر وليس كذلك لانه مامن رسول الا وآمن به قوم وهم ماقالوا ذلك (والجواب عن الاول) هو ان نقول اما المقرر فلانسلم انه رسول بل هو نبى على دين رسول ومن كذب رسوله فهو مكذبه ايضا ضرورة (وعن الثانى) هو ان الله لايرسل الاعند حاجة

الخلق وذلك عند ظهور الكفر في العالم ولايظهر الكفر الاعند كثرة الجهل ثم ان الله تعالى لايرسل رسولا مع كون الايمان به ضروريا والالكان الايمان به ايمان اليأس فلا يقبل والجاهل اذالم يكن المبين له في غاية الموضوع لايقبله فيبقى في ورطة الضلالة فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه وقد ذكرنا مرة أخرى ان بعض الناس يقول كل ماهو قضاء الله فهو خير والشر في القدر فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لانها نور ويجعلونها متاعا في الاسفار وغيرها كما ذكر الله والماء فيه مصلحة الشرب لكن النار انما تتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوى وكونهما كذلك يلزمهما باجراء الله عادته عليهما ان يحرق ثوب الفقير ويغرق شاة المسكين فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر وهذا الكلام له غور والسنة ان نقول يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد (وعن الثالث) ان ذلك ليس بعام فانه لم يقل الاقال كلهم وانما قال الاقالوا ولما كان كثير منهم بل اكثرهم قائلين به قال الله تعالى الاقالوا فان قيل فلم يذكر المصدقين كما ذكر المكذبين وقال الاقال بعضهم صدقت وبعضهم كذبت نقول لان المقصود التسلية وهي على التكذيب فكأنه تعالى قال لاتأس على تكذيب قومك فان اقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا ۞ ثم قال (اتواصوا به بل هم قوم طاغون) اى بذلك القول وهو قولهم ساحر او مجنون ومعناه التعجب اى كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطؤا عليه وقال بعضهم لبعض لاتقولوا الاهذا ثم قال لم يكن ذلك عن التواطؤ وانما كان لمعنى جامع هو ان الكل اترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله كما ان الملك اذا امهل اهل بقعة ولم يكلفهم بشئ ثم قعد بعد مدة وطلبهم الى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان فيحملهم ذلك على العصيان والقول بطاعة ملك آخر ۞ ثم قال تعالى (فتول عنهم فما انت بملوم) هذه تسلية اخرى وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم كان من كرم الاخلاق ينسب نفسه الى تقصير ويقول ان عدم ايمانهم لتقصيري في التبليغ فيجتهد في الانذار والتبليغ فقال تعالى قد اتيت بما عليك ولايضرك التولى عنهم وكفرهم ليس لتقصير منك فلاتحزن فانك لست بملوم بسبب التقصير وانماهم الملومون بالاعراض والعناد ۞ ثم قال تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) يعني ليس التولى مطلقا بل تول واقبل واعرض وادع فلا التولى يضرك اذا كان منهم ولا التذكير ينفع الااذا كان مع المؤمنين وفيه معنى آخر الطف منه وهو ان الهادي اذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه اكثر فلما قال تعالى فتول كان يقع لمتوهم ان يقول فحينئذ لايكون للنبي عليه السلام ثواب عظيم فقال بلى وذلك لأن في المؤمنين كثرة فاذا ذكرتهم زاد هداهم وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم فان قوما كثيرا اذا صلى كل واحد ركعة او ركعتين وقوما قليلا اذا صلى كل واحد الف ركعة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد فالهادي له على عبادة كل مهتد

(اجر)

من رسل الله (الاقالوا) في حقه (ساحر او مجنون) ولا سبيل الى انتصاب الكاف بأتى لامتناع عمل مابعد ما النافية فيما قبلها (اتواصوا به) انكار وتعجيب من حالهم واجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لاتكاد تخطر ببال احد من العقلاء فضلا عن التفوه بها اى ا اوصى بهذا القول بعضهم بعضا حتى اتفقوا عليه وقوله تعالى (بل هم قوم طاغون) اضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك واثبات لكونه امرا افظع من التواصي واشنع من منه الطغيان الشامل للكل الدال على ان صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لابموجب وصية من قبلهم بذلك من غير ان يكون ذلك مقتضى طباعهم (فتول عنهم) فاعرض

أجر ولا ينقص اجر المهتدى قال تعالى ان لك لأجرا اى وان توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة اعراضك عن المعاندين وقوله تعالى فان الذكرى تنفع المؤمنين يحتمل وجوها (احدها) ان يراد قوة يقينهم كما قال تعالى ليزدادوا ايمانا وقال تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وقال تعالى زادهم هدى وآتاهم تقواهم (ثانيها) تنفع المؤمنين الذين بعدك فكأنك اذا اكثرت التذكير بالتكرير نقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجئ بعدك من المؤمنين (ثالثها) هو ان الذكرى ان افاد ايمان كافر فقد نفع مؤمنا لانه صار مؤمنا وان لم يفد يوجد حسنة ويزاد فى حسنة المؤمنين فينتفعوا وهذا هو الذى قيل فى قوله تعالى وتلك الجنة التى اورثتموها ❊ ثم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ولنذكرها على وجه الاستقصاء فنقول اما تعلقها بما قبلها فلوجوه (احدها) انه تعالى لما قال وذكر يعنى اقصى غاية التذكير وهو ان الخلق ليس الا للعبادة فالمقصود من ايجاد الانسان العبادة فذكرهم به واعلمهم ان كل ماعداه تضييع للزمان (الثانى) هو انا ذكرنا مرارا ان شغل الانبياء منحصر فى امرين عبادة الله وهداية الخلق فلما قال تعالى فتول عنهم فما انت بملوم بين ان الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدى واما العبادة فهى لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية فما انت بملوم اذا اتيت بالعبادة التى هى اصل اذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها (الثالث) هو انه لما بين حال من قبله من التكذيب ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم الا للعبادة واما التفسير ففيه مسائل (الاولى) الملائكة ايضا من اصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع ان المنفعة الكبرى فى ايجادهم هى العبادة ولهذا قال بل عباد مكرمون وقال تعالى لا يستكبرون عن عبادته فما الحكمة فيه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) قد ذكرنا فى بعض الوجوه ان تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له وهذا مختص بالجن والانس لان الكفر فى الجن اكثر والكافر منهم اكثر من المؤمن لما بينا ان المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم (الثانى) هو ان النبى صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن فلما قال وذكرهم ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص امته بالذكر اى ذكر الجن والانس (الثالث) ان عباد الاصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشان خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولم يذكر الملائكة لان الامر فيهم كان مسلما بين القوم فذكر المتنازع فيه (الرابع) قيل الجن يتناول الملائكة لان الجن اصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم اكثر عبادة واخلصها (الخامس) قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير فى الجرم والزمان قال تعالى خلق السموات

عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فابوا الا الاباء (فما انت بملوم) على التولى بعد ما بذلت المجهود وجاوزت فى الابلاغ كل حد معهود (وذكر) اى افعل التذكير والموعظة ولا تدعهما بالمرة اوفذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الامر (فان الذكرى تنفع المؤمنين) اى الذين قدر الله تعالى ايمانهم اوالذين آمنوا بالفعل فانها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) استئناف مؤكد للامر مقرر لمضمون تعليله فان كون خلقهم مغيا بعبادته تعالى مما يدعوه عليه الصلاة والسلام الى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ولعل تقديم خلق الجن فى الذكر لتقدمه على خلق الانس فى الوجود ومعنى

والارض ومابينهما في ستة ايام وقال تعالى خلق الارض في يومين وقال خلقت بيدى الى غير ذلك ومالم يكن ذكره بلفظ الامر قال تعالى انما امره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون وقال قل الروح من امر ربي وقال تعالى ألا له الخلق والامر والملائكة كالارواح من عالم الامر اوجدهم من غير مرور زمان فقوله وماخلقت اشارة الى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة وهو باطل لقوله تعالى خالق كل شئ فالملك من عالم الخلق (المسئلة الثانية) تقديم الجن على الانس لأية حكمة نقول فيه وجهان (الاول) بعضها مر في المسئلة الاولى (الثانى) هو ان العبادة سرية وجهرية وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لايدخلها الرياء العظيم واما عبادة الانس فيدخلها الرياء فانه قد يعبد الله لابناء جنسه وقد يعبد الله ليستخبر من الجن او مخافة منهم ولا كذلك الجن (المسئلة الثالثة) فعل الله تعالى ليس لغرض والا لكان بالغرض مستكملا وهو فى نفسه كامل فكيف يفهم لام الله الغرض والعلة نقول المعتزلة تمسكوا به وقالوا افعال الله تعالى لاغراض وبالغوا فى الانكار على منكرى ذلك ونحن نقول فيه وجوه (الاول) ان التعليل لفظى ومعنوى واللفظى مايطلق الناظر اليه اللفظ عليه وان لم يكن له فى الحقيقة مثاله اذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان فى قلبه ان يتعب عسكر نفسه لاغير ففى المعنى المقصود ذلك وفى اللفظ لايصح ولو قال هو أنا ماسافرت الا ابتغاء اجر أو لاستفيد حسنة يقال هذا ليس بشئ ولا يصح عليه ولو قال قائل فى مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق فالتعليل اللفظى هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذى فيه المنفعة يقال اتجر للربح وان لم يكن فى الحقيقة له اذا عرفت هذا فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشئ اذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظا والنزاع فى الحقيقة فى اللفظ (الثانى) هو ان ذلك تقدير كالتمنى والترجى فى كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شئ لو كان ذلك من افعالكم لقلتم انه لها كما قلنا فى قوله تعالى لعله يتذكر اى بحيث يصير تذكره عندكم مرجوا وقوله عسى ربكم ان يهلك عدوكم اى يصير اهلا كه عندكم مرجوا تقولون انه قرب (الثالث) هو ان اللام قد تثبت فيما لايصلح غرضا كما فى الوقت قال تعالى اقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن والمراد المقارنة وكذلك فى جميع الصور وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة اى بفرض العبادة اى خلقتهم وفرضت عليهم العبادة والذى يدل على عدم جواز التعليل الحقيقى هو ان الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة اليه ولا الى غيره لان الله تعالى قادر على ايصال المنفعة الى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا ليكون علة واذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلا هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسئلة واما النصوص فاكثر من ان تعد وهى على انواع منها مايدل على ان الاضلال بفعل الله كقوله تعالى يضل من يشاء وامثاله ومنها مايدل على ان الاشياء

خلقهم لعبادته تعالى خلقهم مستعدين لها ومتمكنين منها اتم استعداد واكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية على ما هى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له فان استتباع افعاله تعالى لغايات جليلة مما لانزاع فيه قطعا كيف لا وهى رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وانما الذى لايليق بجنابه عز وجل تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لافضائه الى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل من كل وجه واما بمعنى نهاية كمالية يفضى اليها فعل الفاعل الحق فغير منفى من افعاله تعالى بل كلها جارية على ذلك المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ويكفى فى تحقق معنى

كلها بخلق الله كقوله تعالى خالق كل شئ ومنها الصرائح التى تدل على عدم ذلك كقوله تعالى لايسأل عما يفعل وقوله تعالى يفعل الله مايشاء و يحكم مايريد والاستقصاء مفوض فيه الى المتكلم الاصولى لا الى المفسر (المسئلة الرابعة) قال تعالى ياأيها الناس اناخلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا وقال ليعبدون فهل بينهما اختلاف نقول ليس كذلك فان الله تعالى علل جعلهم شعوبا بالتعارف وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك ان اكرمكم عندالله اتقاكم دليل على ماذكره ههنا وموافق له لانه اذا كان اتقى كان أعبد وأخلص عملا فيكون المطلوب منه أتم فى الوجود فيكون اكرم وأعز كالشئ الذى منفعته فائدة وبعض افراده يكون انفع فى تلك الفائدة مثاله الماء اذا كان مخلوقا للتطهير والشرب فالصافى منه اكثر فائدة فى تلك المنفعة فيكون اشرف من ماء آخر فكذلك العبد الذى وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه ابلغ (المسئلة الخامسة) ما العبادة التى خلق الجن والانس لها قلنا التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فان هذين النوعين لم يخل شرع منهما وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والاركان ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والاكرام لايعلم عقلا لزم اتباع الشرائع فيها والاخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد انعم الله على عباده بارسال الرسل وايضاح السبل فى نوعى العبادة وقيل ان معناه ليعرفونى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عن ربه كنت كنزا مخفيا فأردت ان اعرف ❁ ثم قال تعالى (ماأريد منهم من رزق وماأريد ان يطعمون) وفيه جواب سؤال وهو ان الخلق لغرض ينبئ عن الحاجة فقال ماخلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لالى وذلك لان منفعة العبد فى حق السيد ان يكتسب له اما بتحصيل المال له او بحفظ المال عليه وذلك لان العبد ان كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر وان كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد الى استئجار من يفعل الشغل له فيحتاج الى اخراج مال والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الاخراج فهو نوع كسب فقال تعالى ماأريد منهم من رزق وماأريد ان يطعمون أى لست كالسادة فى طلب العبادة بل هم الرابحون فى عبادتهم وفيه وجه آخر وهو ان يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة وذلك لان الفعل فى العرف لابدله من منفعة لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الاطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه ووضع اليمين على الشمال لديه وقسم منهم للانتفاع بهم فى تحصيل الارزاق أو لاصلاحها فقال تعالى انى خلقتهم فلابد فيهم من منفعة فليتفكروا فى انفسهم هل هم من قبيل ان يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما اريد منهم من رزق او هل هم ممن يطلب منهم اصلاح قوت كالطباخ والخوانى الذى يقرب الطعام وليسوا كذلك فماأريد ان يطعمون

التعليل على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه اهل اللغة هذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام واما ارادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الارادة فان تعوق البعض عن الوصول الى الغاية مع تعاضد المبادى وتاخذ المقدمات الموصلة اليها لايمنع كونها غاية كما فى قوله تعالى كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ونظائره وقيل المعنى الاليؤمر وابعبادتى كما فى قوله تعالى وماامروا الاليعبدوا الها واحدا وقيل المراد سعداء الجنسين كما ان المراد بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس اشقياؤهما ويعضده قراءة من قرأ وما خلقت الجن

فاذن هم عبيد من القسم الاول فينبغى ان لا يتركوا التعظيم وفيه لطائف نذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى تكرار الارادتين ومن لا يريد من احد رزقا لا يريد ان يطعمه نقول هو لماذكرناه من قبل وهو ان السيد قد يطلب من العبد الكسب له وهو طلب الرزق منه وقد يكون للسيد مال وافر يستغنى عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال واحضار الطعام بين يديه من ماله فالسيد قال لا اريد ذلك ولا هذا (المسئلة الثانية) لم قدم طلب الرزق على طلب الاطعام نقول ذلك من باب الارتقاء كقول القائل لا اطلب منك الاعانة ولا ممن هو اقوى ولا يعكس ويقال فلان يكرمه الامراء بل السلاطين ولا يعكس فقال ههنا لا اطلب منكم رزقا ولاما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدى السيد فان ذلك امر كثير الطلب من العباد وان كان الكسب لا يطلب منهم (المسئلة الثالثة) لو قال ما اريد منهم ان يرزقون وما اريد منهم من طعام هل تحصل هذه الفائدة نقول على ما فصل لا وذلك لان بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل فان من اشتغل بشغل ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى وان لم يشتغل كالعبد المتكسب اذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلبا يرضى منه السيد اذا كان شغله التكسب واما من يراد منه الفعل لذات الفعل كالجائع اذا بعث عبده لاحضار الطعام فاشتغل باخذ المال من مطلب فربما لا يرضى به السيد فالمقصود من الرزق الغنى فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الاطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ولم يقل وما اريد منهم من طعام هذا مع ما فى اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع (المسئلة الرابعة) اذا كان المعنى به ماذكرت فما فائدة الاطعام وتخصيصه بالذكر مع ان المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم نقول لما عمم فى المطلب الاول اكتفى بقوله من رزق فانه يفيد العموم وأشار الى التعظيم فذكر الاطعام وذلك لان ادنى درجات الافعال ان يستعين السيد بعبده او جاريته فى تهيئة امر الطعام ونفى الادنى يستتبعه نفى الاعلى بطريق الاولى فصار كأنه قال تعالى ما اريد منهم من عين ولا عمل (المسئلة الخامسة) على ماذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره لان السيد قد يشترى العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم بل يشتريه للتجارة والربح فيه نقول عموم قوله ما اريد منهم من رزق يتناول ذلك فان من اشترى عبدا ليتجر فيه فقد طلب منه رزقا (المسئلة السادسة) ما اريد فى العربية يفيد النفى فى الحال والتخصيص بالذكر يوهم نفى ماعدا المذكور لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقا لا فى الحال ولا فى الاستقبال فلم لم يقل لا اريد منهم من رزق ولا اريد نقول ما للنفى فى الحال ولا للنفى فى الاستقبال فالقائل اذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو فى الفعل لا يصدق لكنه اذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة مثاله اذا كان الانسان فى الصلاة وقال قائل انه ما يصلى فانظر اليه فاذا كان نظر اليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح ان يقول انا قلت انك لا تصلى ولو قال القائل انه ما يصلى فى تلك الحالة

والانس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره البغوى معناه الا ليعرفون ومداره قوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزا مخفيا فأحببت ان اعرف فخلقت الخلق لاعرف ولعل السر فى التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريق اطلاق اسم السبب على المسبب التنبيه على ان المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة (ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون) بيان لكون شانه تعالى مع عباده متعاليا عن ان يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وتهيئة ارزاقهم اى ما اريد ان اصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم بل اتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم من عندى فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى

لما صدق فاذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال اولى لان المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو في امر الآخرة فالدنيا وامورها كلها حالية فقوله ما اريد اى في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا ومن المعلوم ان العبد بعدموته لايصلح ان يطلب منه رزق او عمل فكان قوله ما اريد مفيد النفي العام ولو قال لااريد لما افاد ذلك ❊ ثم قال تعالى (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) تعليلا لما تقدم من الامرين فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى ذو القوة تعليل لعدم طلب العمل لان من يطلب رزقا يكون فقيرا محتاجا ومن يطلب عملا من غيره يكون عاجزا لاقوة له فصار كأنه يقول ما اريد منهم من رزق فاني انا الرزاق ولا عمل فاني قوى وفيه مباحث (الاول) قال ما اريد ولم يقل انى رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب ان الله فما الحكمة فيه نقول قد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ انى انا الرزاق على ما ذكرت واما القراءة المشهورة ففيها وجوه (الاول) ان يكون المعنى قل يا محمد ان الله هو الرزاق (الثاني) ان يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس الى التكلم عن الغائب وفيه ههنا فائدة وهي ان اسم الله يفيد كونه رزاقا وذلك لان الاله بمعنى المعبود كما قلنا مرارا وتمسكنا بقوله تعالى ويذرك وآلهتك اى معبوديك واذا كان الله هو المعبود ورزق العبد استعماله في غير الكسب اذ رزقه على السيد وههنا لما قال ما خلقت الجن والانس الاليعبدون فقد بين انه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى ان الله هو الرزاق بلفظ الله الدال على كونه رازقا ولو قال انى انا الرزاق لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لايحصل ما ذكرنا (الثالث) ان يكون قل مضمرا عند قوله تعالى ما اريد منهم تقديره قل يا محمد ما اريد منهم من رزق فيكون بمعنى قوله قل ما اسئلكم عليه من اجر ويكون على هذا قوله تعالى ان الله هو الرزاق من قول النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل القوى بل قال ذو القوة وذلك لان المقصود تقرير ما تقدم من عدم ارادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير لكن في عدم طلب الرزق لايكفي كون المستغني بحيث يرزق واحدا فان كثيرا من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق فاذا كثر منه الرزق قل منه الطلب لان المسترزق ممن يكثر الرزق لايسترزق من رزقه فلم يكن ذلك المقصود يحصل له الا بالمبالغة في وصف الرزق فقال الرزاق واما مايغنى عن الاستعانة بالغير فدون ذلك وذلك لان القوى اذا كان في غاية القوة يعين الغير فاذا كان دون ذلك لايعين غيره ولايستعين به واذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك ولما قال وما اريد ان يطعمون كفاه بيان نفس القوة فقال ذو القوة في افادة معنى القوى دون القوى لان ذا لايقال في الوصف اللازم البين فيقال في الآدمى ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق الى غير ذلك مما لايلزمه لزوما بينا ولايقال في الثلاثة ذات فردية ولا في الاربعة ذات زوجية ولهذا

(ان الله هو الرزاق) الذى يرزق كل مايفتقر الى الرزق وفيه تلويح بانه غنى عنه وقرئ انى انا الرزاق (ذو القوة المتين) بالرفع على انه نعت للرزاق او لذو او خبر بعد خبر او خبر لمضمر وقرئ بالجر على انه وصف للقوة على تأويل الاقتدار او الايد

لم يرد فى الاوصاف الحقيقية التى ليست مأخوذة من الافعال ولذا لم يسمع ذو الوجود ولا ذو الحياة ولا ذو العلم ويقال فى الانسان ذو علم وذو حياة لانها عرض فيه عارض لا لازم بين وفى صفات الفعل يقال الله تعالى ذو الفضل كثيرا وذو الخلق قليلا لان ذا كذا يعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلا عن اللزوم البين والذى يؤيد هذا هو انه تعالى قال وفوق كل ذى علم عليم فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذى العلم والعليم فرق وكذلك بين ذى القوة والقوى ويؤيده ايضا انه تعالى قال فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب وقال تعالى الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز وقال تعالى لاغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز لان فى هذه الصور كان المراد بيان القيام بالافعال العظيمة والمراد ههنا عدم الاحتياج ومن لا يحتاج الى الغير يكفيه من القوة قدر ما ومن يقوم مستبدا بالفعل لا بد له من قوة عظيمة لان عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه ولو بين هذا البحث فى معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ذو القوة ههنا وبين قوله قوى فى تلك المواضع لكان احسن * فان قيل فقد قال تعالى ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لان قوله قوى لبيان انه غير محتاج الى النصرة وانما يريد ان يعلم ليثيب الناصر لكن عدم الاحتياج الى النصرة يكفى فيه قوة ما فلم لم يقل ان الله ذو القوة نقول فيه انه تعالى قال من ينصره ورسله ومعناه انه يغنى رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه لعجزهم وانما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين والا فالله تعالى وعدهم بالنصرة حيث قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ولما ذكر الرسل قال قوى ليكون ذلك تقوية لقلوب رسله والمؤمنين وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين (البحث الثانى) قال المتين وذلك لان ذو القوة كما بينا لا يدل الا على ان له قوة ما فزاد فى الوصف بيانا وهو الذى له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظا ومعنى فان متن الشئ هو اصله الذى عليه ثباته والمتن هو الظهر الذى عليه اساس البدن والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى فى مواضع ذكر القوة العزة فقال قوى عزيز وقال القوى العزيز وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث فى القوى وذى القوة وذلك لان المتين هو الثابت الذى لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ففى المتين انه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم وفى العزيز انه يغلب ويقهر ويزل الاقدام والعزة اكمل من المتانة كما ان القوى ابلغ من ذى القوة فقرن الاكمل بالاكمل وما دونه بما دونه ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت فى كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح انكار المعاندين ❊ ثم قال تعالى (فان الذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب اصحابهم فلا يستعجلون فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) وهو مناسب لما قبله وذلك لانه تعالى بين ان من يضع نفسه فى موضع عبادة غير الله يكون وضع الشئ

(فان للذين ظلموا) اى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم او وضعوا مكان التصديق تكذيبا وهم اهل مكة (ذنوبا) اى نصيبا وافرا من العذاب (مثل ذنوب اصحابهم) مثل انصباء نظرائهم من الامم المحكية وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوء (فلا يستعجلون) اى لا يطلبوا منى ان اعجل فى المجئ به يقال استعجله اى حثه على العجلة وامره بها ويقال استعجله اى طلب وقوعه بالعجلة ومنه قوله تعالى اتى امر الله فلا تستعجلوه وهو جواب لقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (فويل للذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر واشعارا بعلة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على ان لهم عذابا عظيما كما ان الفاء الاولى لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى (من يومهم الذى يوعدون) للتعليل اى يوعدونه من يوم بدر وقيل يوم القيامة وهو الانسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية والاول هو الاوفق لما قبله من حيث انهما من العذاب الدنيوى * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ والذاريات اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا

(فى)

في غير موضعه فيكون ظالما فقال اذا ثبت ان الانس مخلوق للعبادة فان الذين ظلموا بعبادة لغير لهم هلاك مثل هلاك من تقدم وذلك لان الشيء اذا خرج عن انتفاع المطلوب منه لايحفظ وان كان في موضع يخلى المكان عنه الاترى ان الدابة التي لايبقى منتفعا بها بالموت او بمرض يخلى عنها الاصطبل والطعام الذي يتعفن يبدد ويفرغ منه الاناء فكذلك الكافر اذا ظلم ووضع نفسه في غير موضعه خرج عن الانتفاع فحسن اخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) فيما يتعلق به الفاء وقد ذكرنا ذلك في وجه التعلق (المسئلة الثانية) مامناسبة الذنوب نقول العذاب مصبوب عليهم كأنه قال تعالى أصب من فوق رؤسهم ذنوبا كذنوب صب فوق رؤس أولئك ووجه آخر وهو ان العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوبا فذنوبا وذلك وقت عيشهم الطيب فكأنه تعالى قال فان للذين ظلموا من الدنيا وطيباتها ذنوبا اى ملأه ولايكون لهم في الآخرة من نصيب كما كان عليه حال اصحابهم استقوا ذنوبا وتركوها وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولاهلاك وانما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية وقوله تعالى فلايستعجلون فان الرزق مالم يفرغ لايأتي الاجل ثم اعاد ماذكر في اول السورة فقال فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

(سورة الطور اربعون وتسع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور) هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما واول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها لان في آخرها قوله تعالى فويل للذين كفروا وهذه السورة في اولها فويل يومئذ للمكذبين وفي آخر تلك السورة قال فان للذين ظلموا ذنوبا اشارة الى العذاب وقال ههنا ان عذاب ربك لواقع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماالطور وماالكتاب المسطور نقول فيه وجوه (الاول) الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (الثاني) هو الجبل الذي قال الله تعالى وطور سينين (الثالث) هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير ان الطور الجبل العظيم كالطود واما الكتاب ففيه ايضا وجوه (احدها) كتاب موسى عليه السلام (ثانيها) الكتاب الذي في السماء (ثالثها) صحائف اعمال الخلق (رابعها) القرآن وكيفما كان فهي في رقوق وسفين فائدة قوله تعالى في رق منشور واما البيت المعمور ففيه وجوه (الاول) هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة (الثاني) هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به

• (سورة الطور مكية وهي) (تسع اوثمان واربعون آية) •

• (بسم الله الرحمن الرحيم) •

(والطور) الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى (وكتاب مسطور) مكتوب على وجه الانتظام فان السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد به القرآن أوالواح موسى عليه السلام وهو الانسب بالطور او مايكتب في اللوح او مايكتبه الحفظة (في رق منشور) الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة وتنكيرهما للتفخيم اوللاشعار بأنهما ليسا مما يتعارفه الناس

العاكفين (الثالث) البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة والسقف المرفوع السماء والبحر المسجور قيل الموقد نارا يقال سجرت التنور وقيل هو البحر المملوء ماء المتموج وقيل هو بحر معروف في السماء يسمى بحر الحيوان (المسئلة الثانية) ما الحكمة في اختيار هذه الاشياء نقول هي تحتمل وجوها (احدها) ان الاماكن الثلاثة وهي الطور والبيت المعمور والبحر المسجور اماكن كانت لثلاثة انبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله اما الطور فانتقل اليه موسى عليه السلام والبيت محمد صلى الله عليه وسلم والبحر المسجور يونس عليه السلام والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وقال ارني انظر اليك واما محمد صلى الله عليه وسلم فقال سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك واما يونس فقال لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين فصارت الاماكن شريفة بهذه الاسباب فحلف الله تعالى بها واما ذكر الكتاب فان الانبياء كان لهم في هذه الاماكن مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب واقترانه بالطور أدل على ذلك لان موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور واما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم (ثانيها) وهو ان القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى انه لا دافع له وذلك لانه لا مهرب من عذاب الله لان من يريد دفع العذاب عن نفسه ففي بعض الاوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة بين انه لا ينفع التحصن بها من امر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم حكاية عن نوح عليه السلام (المسئلة الثالثة) ما الحكمة في تنكير الكتاب وتعريف باقي الاشياء نقول ما يحتمل الخفاء من الامور الملتبسة بأمثالها من الاجناس يعرف باللام فيقال رأيت الامير ودخلت على الوزير فاذا بلغ الامير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته ويريد الواصف وصفه بالعظمة يقول اليوم رأيت اميرا ما له نظير جالسا وعليه سيما الملوك وانت تريد ذلك الامير المعلوم والسبب فيه انك بالتنكير تشير الى انه خرج عن ان يعلم ويعرف بكنه عظمته فيكون كقوله تعالى الحاقة ما الحاقة وما ادراك ما الحاقة فاللام وان كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف فكذلك ههنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير وكذلك البيت المعمور واما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب بحيث لا يسبق الى افهام السامعين من النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الكتاب الا ذلك فلما امن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذكر باللام او لم يذكر قصد الفائدة الاخرى وهي في الذكر بالتنكير وفي تلك الاشياء لما لم تحصل فائدة التعريف الا بآلة التعريف استعملها وهذا يؤيد كون

(والبيت المعمور) اى الكعبة وعمارتها بالحجاج والعمار والمجاورين او الضراح وهو في السماء الرابعة وعمر انه كثرة غاشيته من الملائكة (والسقف المرفوع) اى السماء ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور (والبحر المسجور) اى المملوء وهو البحر المحيط او الموقد من قوله تعالى واذا البحار سجرت فالمراد به الجنس روى ان الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة نارا يسجر بها نار جهنم

المراد منه القرآن وكذلك اللوح المحفوظ مشهور (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى قوله تعالى فى رق منشور وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لابخطه ورقه نقول هو اشارة الى الوضوح وذلك لان الكتاب المطوى لايعلم مافيه فقال هو فى رق منشور ليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لايمنعكم احد من مطالعته وان قلنا بأن المراد كتاب اعمال كل احد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفى رق منشور لبيان وصفه كما قال تعالى كتابا يلقاه منشورا وذلك لان غير المعروف اذا وصف كان الى المعرفة اقرب شبها (المسئلة الخامسة) فى بعض السور اقسم بمجموع كما فى قوله تعالى والذاريات وقوله والمرسلات وقوله والنازعات وفى بعضها بأفراد كما فى هذه السورة حيث قال والطور ولم يقل والاطوار والبحار ولاسيما قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود كما فى قوله تعالى ورفعنا فوقهم الطور اى الجبل فالحكمة فيه نقول فى الجموع فى اكثرها اقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست ثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها بل هى متبدلة بافرادها مستمرة بانواعها والمقصود منها لايحصل الا بالتبدل والتغير فقال والذاريات اشارة الى النوع المستمر لاالى الفرد المعين المستقر واما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا فاقسم فى ذلك بالواحد وكذلك قوله والنجم والريح ماعلم القسم به وفى الطور علم ❊ ثم قال تعالى (ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع) اشارة الى المقسم عليه وفيه مباحث (الاول) فى حرف ان وفيه مقامات (الاول) هى تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو انها شبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى اما اللفظ فلكون الفتح لازما فيها واختصاصها بالدخول على الاسماء والمنصوب منها على وزن ان أيننا واما المعنى فنقول اعلم ان الجملة الاثباتية قبل الجملة الانتفائية ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الاثبات فاذا قالوا زيد منطلق فهم منه ارادة اثبات الانطلاق لزيد والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الاصل وهو الاثبات فقيل ليس زيد منطلقا فصار ليس زيد منطلقا بعد قول القائل زيد منطلق ثم ان قول القائل ان زيدا منطلق مستنبط من قوله ليس زيد منطلقا كأن الواضع لما وضع اولا زيد منطلق للاثبات وعند النفى يحتاج الى مايغيره اتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لانك قد تبقى مكانه ماالنافية ولهذا قيل لست وليسوا فالحق به ضمير الفاعل ولولا انه فعل لما جاز ذلك ثم اراد ان يضع فى مقابلة ليس زيد منطلقا جملة اثباتية فيها لفظ الاثبات كما ان فى النافية لفظ النفى فقال ان ولم يقصد ان ان فعل لان ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير فانها غيرت الجملة عن اصلها الذى هو الاثبات واما ان فلم تغير فالجملة على ما كانت عليه اثباتية فصارت مشبهة بالفعل وهى ليس وهذا مايقوله النحويون فى ان وان وكأن وليت ولعل انها حروف مشبهة بالافعال اذا علمت هذا فنقول كما ان ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول تقول ليس زيد لئيما بالرفع والنصب كما تقول بات زيد كريما

(ان عذاب ربك لواقع) اى لنازل حتما جواب للقسم وقوله تعالى (ماله من دافع) اما خبر ثان لان او صفة لواقع ومن دافع اما مبتدأ للظرف او مرتفع به على الفاعلية ومن مزيدة للتأكيد وتخصيص هذه الامور بالاقسام بها لما انها امور عظام تنبئ عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته الدالة على احاطته تعالى بتفاصيل اعمال العباد وضبطها الشاهدة بصدق اخباره التى من جملتها الجملة المقسم عليها وقوله تعالى

فكذلك ان لها اسم وخبر لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فان اسم ان منصوب وخبرها مرفوع لان ان لما كانت زيادة على خلاف الاصل لانها لاتفيد الا الاثبات الذى كان مستفادا من غير حرف وليس لما كانت زيادة على الاصل لانها تغير الاصل ولو لاها لماحصل المقصود جعل المرفوع والمنصوب فى ليس على الاصل لان الاصل تقديم الفاعل وفى ان جعل ذلك على خلاف الاصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديما لازما فلا يجوز ان يقال ان منطلق زيدا وهو فى ليس منطلقا زيد جائز كما فى الفعل لانها فعل (المقام الثانى) هى لم تكسر تارة وتفتح اخرى نقول الاصل فيها الكسرة والفتحة لعارض وان كان هذا فى الظاهر يخالف قول النحاة لكن فى الحقيقة هى كذلك (المقام الثالث) لم تدخل اللام على خبر ان المكسورة دون المفتوحة قلنا قد خرج مما سبق ان قول القائل زيد منطلق اصل لان المثبتات هى المحتاجة الى الاخبار عنها فان التغير فى ذلك واما العدميات فعلى اصولها مستمرة ولهذا يقال الاصل فى الاشياء البقاء ثم ان السامع له قد يحتاج الى الرد عليه فيقول ليس زيد منطلقا فيقول هو ان زيدا منطلق فيقول هو ردا عليه ليس زيد بمنطلق فيقول رداعليه ان زيدا لمنطلق وان ليست فى مقابلة ليس وانما هى متفرعة عن المكسورة (المبحث الثانى) قوله تعالى عذاب ربك فيه لطيفة عزيزة وهى انه تعالى لو قال ان عذاب الله لواقع والله اسم منبئ عن العظمة والهيبة كان يخاف المؤمن بل النبى صلى الله عليه وسلم من ان يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنيا عن العالم بأسره فضلا عن واحد فيه فأمنه بقوله ربك فانه حين يسمع لفظ الرب يأمن (المبحث الثالث) قوله لواقع فيه اشارة الى الشدة فان الواقع والوقوع من باب واحد فالواقع ادل على الشدة من الكائن * ثم قال تعالى ماله من دافع والبحث فيه قد تقدم فى قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد وقد ذكرنا ان قوله والطور والبيت المعمور والبحر المسجور فيه دلالة على عدم الدافع فان من يدفع عن نفسه عذابا قد يدفع بالتحصن بقلل الجبال ولجج البحار ولا ينفع ذلك بل الوصول الى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع ❊ ثم قال تعالى (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الناصب ليوم نقول المشهور ان ذلك هو الفعل الذى يدل عليه واقع اى يقع العذاب يوم تمور السماء مورا والذى اظن انه هو الفعل المدلول عليه بقوله ماله من دافع وانما قلت ذلك لان العذاب الواقع على هذا ينبغى ان يقع فى ذلك اليوم لكن العذاب الذى به التخويف هو الذى بعد الحشر ومور السماء قبل الحشر واما اذا قلنا معناه ليس له دافع يوم تمور فيكون فى معنى قوله فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا كأنه تعالى يقول ماله من دافع فى ذلك اليوم وهو ما اذا صارت السماء تمور فى اعينكم والجبال تسير وتحققون ان الامر لا ينفع شيئا ولا يدفع (المسئلة الثانية) ما مور السماء نقول خروجها عن مكانها تتردد وتموج والذى تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مرارا وقوله

(يوم تمور السماء مورا) ظرف لواقع مبين لكيفية الوقوع منبئ عن كمال هوله وفظاعته والمور الاضطراب والتردد فى المجئ والذهاب وقيل هو تحرك فى تموج قيل تدور السماء كما تدور الرحا وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل تختلف اجزاؤها (وتسير الجبال سيرا) اى تزول عن وجه الارض فتصير هباء وتأكيد الفعلين بمصدر يهما للايذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة اى مورا عجيبا وسيرا بديعا لا يدرك كنههما (فويل يومئذ للمكذبين) اى اذا وقع ذلك اواذا كان الامر كما ذكر فويل يوم اذ يقع ذلك لهم (الذين هم فى خوض) اى اندفاع عجيب فى الاباطيل والاكاذيب (يلعبون) يلهون

تعالى وتسير الجبال سيرا يدل على خلاف قولهم وذلك لانهم وافقوا على ان خروج الجبل العظيم عن مكانه جائز وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الارض مع ما فيها من الجبال بخار يجتمع تحت الارض فيحركها واذا كان كذلك فنقول السماء قابلة للحركة باخراجها خارجة عن السمتيات والجبل ساكن يقتضى طبعه السكون واذا قبل جسم الحركة مع انها على خلاف طبعه فلان يقبلها جرم آخر مع انها على موافقته اولى وقولهم القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة فى غاية الضعف وقوله مورا يفيد فائدة جليلة وهى ان قوله تعالى وتسير الجبال يحتمل ان يكون بيانا لكيفية مور السماء وذلك لان الجبال اذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر ان السماء كالسيارة الى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فانه يرى الجبل الساكن متحركا فكان لقائل ان يقول السماء تمور فى رأى العين بسبب سير الجبال كما يرى القمر سائرا راكب السفينة والسماء اذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا فى السماء ولا فى الارض (المسئلة الثالثة) ما السبب فى مورها وسيرها قلنا قدرة الله تعالى واما الحكمة فالايذان والاعلام بان لا عود الى الدنيا وذلك لان الارض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبنى آدم بها فان لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى (المسئلة الرابعة) لو قال قائل كنت وعدت ببحث فى الزمان يستفيد العاقل منه فوائد فى اللفظ والمعنى وهذا موضعه فان الفعل لا يضاف اليه شئ غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان وقال الله تعالى يوم ينفع الصادقين وقال يوم تمور السماء وقال يوم خلق السموات والارض وكذلك يضاف الى الجملة فما السبب فى ذلك فنقول الزمان ظرف الافعال كما ان المكان ظرف الاعيان وكما ان جوهرا من الجواهر لا يوجد الا فى مكان فكذلك عرض من الاعراض لا يتجدد الا فى زمان وفيهما تحير خلق عظيم فقالوا ان كان المكان جوهرا فله مكان آخر ويتسلسل الامر وان كان عرضا فالعرض لا بد له من جوهر والجوهر لا بد له من مكان فيدور الامر او يتسلسل وان لم يكن جوهرا ولا عرضا فالجوهر يكون حاصلا فيما لا وجود له او فيما لا اشارة اليه وليس كذلك وقالوا فى الزمان ان كان الزمان غير متجدد فيكون كالامور المستمرة فلا يثبت فيه المضى والاستقبال وان كان متجددا وكل متجدد فهو فى زمان فللزمان زمان آخر فيتسلسل الامر ثم ان الفلاسفة التزموا التسلسل فى الازمنة ووقعوا بسبب هذا فى القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل فى الامكنة وفرقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعا وقالوا بالقدم وازمان لا نهاية لها وبالامتداد وابعاد لا نهاية لها وهم وان خالفونا فى المسئلتين جميعا والفلاسفة وافقونا فى احداهما دون الاخرى لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على انفسهم سبيل الالتزام فى الازمان فان قيل فالمتجدد الاول قبله ماذا تقول ليس قبله شئ فان قيل فعدمه قبله او قبله عدمه نقول قولنا ليس قبله شئ أعم من قولك قبله عدمه لانا اذا قلنا ليس قبل

آدم حيوان بألف رأس صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس
او حيوان بألف رأس بعد آدم لانتفاء ذلك الحيوان اولا وآخرا وعدم دخوله في الوجود
أزلا وابدا فكذلك ماقلنا فان قيل هذا لايصح لان الله تعالى شيء موجود وهو قبل
العالم نقول قولنا ليس قبل المتجدد الاول شيء معناه ليس قبله شيء بالزمان واما الله تعالى
فليس قبله بالزمان اذ كان الله ولا زمان والزمان وجد مع المتجدد الاول فان قيل فامعنى
وجود الله قبل كل شيء غيره نقول معناه كان الله ولم يكن شيء غيره لا يقال ماذكرتم
اثبات شيء بشيء ولا يثبت ذلك الشيء الا بما ترومون اثباته فان بداية الزمان غرضكم وهو
مبنى على المتجدد الاول والنزاع في المتجدد فان عند الخصم ليس في الوجود متجدد اول
بل قبل كل متجدد متجدد لانا نقول نحن ماذكرنا ذلك دليلا وانما ذكرناه بيانا لعدم الالزام
وانه لا يرد علينا شيء اذا قلنا بالحدوث ونهاية الابعاد واللزوم والالزام فيسلم الكلام الاول
ثم يلزم ويقول ألست تقول ان لنا متجددا اولا فكذلك قل له عدم فنقول لا بل ليس قبله
امر بالزمان فيكون ذلك نفيا عاما وانما يكون ذلك لانتفاء الزمان كما ذكرنا في المثال اذا
علمت هذا فصار الزمان تارة موجودا مع عرض واخرى موجودا بعد عرض لان يومنا
هذا وغيره من الايام كلها صارت متميزة بالمتجدد الاول والمتجدد الاول له زمان هو معه
اذا عرفت ان الزمان والمكان امرهما مشكل بالنسبة الى بعض الافهام والامر الخفى
يعرف بالوصف والاضافة فانك اذا قلت غلام لم يعرف فاذا وصفته او اضفته وقلت
غلام صغير او كبير او ابيض او اسود قرب من الفهم وكذلك اذا قلت غلام زيد قرب ولم يكن
بد من معرفة الزمان ولا يعرف الشيء الا بما يختص به فانك اذا قلت في الانسان حيوان
موجود بعدته عن الفهم واذا قلت حيوان طويل القامة قربته منه ففي الزمان كان يجب
ان يعرف بما يختص به لان الفعل الماضي والمستقبل والحال يختص بأزمنة والمصدر له
زمان مطلق فلو قلت زمان الخروج تميز عن زمان الدخول وغيره فاذا قلت يوم خرج أفاد
ما أفاد قولك يوم الخروج مع زيادة هو انه تميز عن يوم يخرج والاضافة الى ماهو اشد تميزا
اولى كما انك اذا قلت غلام رجل ميزته عن غلام امرأة واذا قلت غلام زيد زدت عليه
في الافادة وكان احسن كذلك قولنا يوم خرج لتعريف ذلك اليوم خير من قولك يوم
الخروج فظهر من هذا البحث ان الزمان يضاف الى الفعل وغيره لا يضاف لاختصاص
الفعل بالزمان دون غيره الا المكان في قوله اجلس حيث يجلس فان حيث يضاف الى الجمل
لمشابهة ظرف المكان بالظرف الزمان واما الجمل فهي انما يصح بواسطة تضمنها الفعل فلا
يقال يوم زيد اخوك ويقال يوم زيد فيه خارج * ومن جملة الفوائد اللفظية ان لات يختص
استعمالها بالزمان قال الله تعالى ولات حين مناص ولا يقال لات رجل سوء وذلك لان
الزمان يحدد بعد تجدد ولا يبقى بعد الفناء حياة اخرى وبعد كل حركة حركة اخرى وبعد كل
زمان زمان واليه الاشارة بقوله تعالى كل يوم هو في شأن اى قبل الخلق لم يخلق شيئا

(لكنه)

اسكنه بعدماخلق فهو ابدا دائما يخلق شيئا بعد شئ فبعدحياتنا موت وبعدموتنا حياة وبعد حياتنا حساب وبعدالحساب ثواب دائم او عقاب لازم ولايترك الله الفعل فلما بعد الزمان عن النفي زيد في الحروف النافية زيادة فان قيل فالله تعالى ابعد عن الانتفاء فكان ينبغي ان لاتقرن التاء بكلمة لا هناك تقول في لات حين مناص تأويل وعليه لايرد ماذكرتم وهو ان لا هي المشبهة بليس تقديره ليس الحين حين مناص وهو المشهور ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لان الحين ادوم من الليل والنهار فالليل والنهار قدلايكون والحين يكون ❊ ثم قال تعالى (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون) اى اذا علم ان عذاب الله واقع وانه ليس له دافع فويل اذاً للمكذبين فالفاء لاتصال المعنى وهو الايذان بأمان اهل الايمان وذلك لانه لما قال ان عذاب ربك لواقع لم يبين بأن موقعه بمن فلما قال فويل يومئذ للمكذبين علم المخصوص به وهو المكذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذاقلت بان قوله ويل يومئذ للمكذبين بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه فمن لايكذب لايعذب فأهل الكبائر لايعذبون لانهم لايكذبون نقول ذلك العذاب لايقع على اهل الكبائر وهذا كما في قوله تعالى كلما الق فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قدجاءنا نذير فكذبنا فنقول المؤمن لايلقى فيها القاء بهوان وانما يدخل فيها ليطهر ادخالا مع نوع اكرام فكذلك الويل للمكذبين والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لاينفك عن نوع شدة منه لوى اذادفع ولوى يلوى اذاكان قويا والولى فيه القوة على المولى عليه ويدل عليه قوله تعالى يدعون فان المكذب يدع والمصدق لايدع وقدذكرنا جواز التنكير في قوله ويل مع كونه مبتدأ لانه في تقدير المنصوب لانه دعاء ومضى وجهه في قوله تعالى قال سلام والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الاباطيل ولهذا قال تعالى وخضتم كالذى خاضوا وقال تعالى وكنا نخوض مع الخائضين وتنكير الخوض يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون للتكثير اى في خوض كامل عظيم (ثانيهما) ان يكون التنوين تعويضا عن المضاف اليه كما في قوله تعالى الا وقوله وان كلا وبعضهم ببعض والاصل في خوضهم المعروف منهم وقوله الذين هم في خوض ليس وصفا للمكذبين بما يميزهم وانما هو للذم كما انك تقول الشيطان الرجيم ولاتريد فصله عن الشيطان الذى ليس برجيم بخلاف قولك اكرم الرجل العالم فالوصف بالرجيم للذم به لاللتعريف وتقول في المدح الله الذى خلق والله العظيم للمدح لاللتمييز ولاللتعريف عن اله لم يخلق او اله ليس بعظيم فان الله واحد لاغير ❊ ثم قال تعالى (يوم يدعون الى نار جهنم دعا) وفيه مباحث لفظية ومعنوية اما اللفظية ففيها مسائل (الاولى) يوم منصوب بماذا نقول الظاهر انه منصوب بما بعده وهو مادل عليه قوله تعالى هذه النار تقديره يوم يدعون يقال لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون ويحتمل غير هذا وهو ان يكون يوم بدلا عن يوم في يومئذ تقديره فويل يومئذ

(يوم يدعون الى نار جهنم دعا) اى يدفعون اليها دفعا عنيفا شديدا بان تغل ايديهم الى اعناقهم وتجمع نواصيهم الى اقدامهم فيدفعوا الى النار وقرئ يدعون من الدعاء فيكون دعا حالا بمعنى مدعوعين ويوم اما بدل من يوم تمور او ظرف لقول مقدر قبل قوله تعالى (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) اى يقال لهم ذلك ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى الناطق بها وقوله تعالى (افسحر هذا) توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا كأنه قيل كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا ايضا سحر وتقديم الخبر لانه محط الانكار ومدار التوبيخ (ام انتم لاتبصرون) اى ام انتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر او ام سدت ابصاركم كما سدت في الدنيا

للمكذبين يوم يدعون اى المكذبون وذلك ان قوله يومئذ معناه يوم يقع العذاب وذلك اليوم هو يوم يدعون فيه الى النار (المسئلة الثانية) قوله يدعون الى نار يدل على هول نار جهنم لان خزنتها لايقربون منها وانما يدفعون اهلها اليها من بعيد ويلقونهم فيها وهم لايقربونها (المسئلة الثالثة) دعا مصدر وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهى الايذان بأن الدع دع معتبر يقال له دع ولا يقال فيه ليس بدع كما يقول القائل فى الضرب الخفيف مستحقرا له هذا ليس بضرب والعدو المهين هذا ليس بعدو فى غير المصادر والرجل الحقير ليس برجل الاعلى قراءة من قرأ يدعون الى نار جهنم دعا فان دعا حينئذ يكون منصوبا على الحال تقديره يقال لهم هلموا الى النار مدعوعين اليها * اما المعنوية فنقول قوله تعالى يوم يدعون الى نار جهنم يدل على ان خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها وقال تعالى يوم يسحبون فى النار نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) ان الملائكة يسحبونهم فى النار ثم اذا قربوا من نار مخصوصة هى نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد فيكون السحب فى النار والدفع فى نار اشد واقوى ويدل عليه قوله تعالى يسحبون فى الجحيم ثم فى النار يسجرون اى يكون لهم سحب فى جوة النار ثم بعد ذلك يكون لهم ادخال (الثانى) جاز ان يكون فى كل زمان تولى امرهم ملائكة فالى النار يدفعهم ملك وفى النار يسحبهم آخر (الثالث) جاز ان يكون السحب بسلاسل يسحبون فى النار والساحب خارج النار (الرابع) يحتمل ان يكون الملائكة يدفعون اهل النار الى النار اهانة واستخفافا بهم ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها * ثم قال تعالى (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) على تقدير يقال * ثم قال تعالى (افسحر هذا ام انتم لاتبصرون) تحقيقا للامر وذلك لان من يرى شيئا ولا يكون الامر على ما يراه فذلك الخطأ يكون لاجل احد امرين اما لامر عائد الى المرئى واما لامر عائد الى الرائى فقوله افسحر هذا اى هل فى المرئى شك ام هل فى بصركم خلل استفهام انكار اى لا واحد منهما ثابت فالذى ترونه حق وقد كنتم تقولون انه ليس بحق وانما قال افسحر وذلك انهم كانوا ينسبون المرئيات الى السحر فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وامثاله سحر وفى ذلك اليوم لما تعلق بهم مع المبصر الالم المدرك بحس اللمس وبلغ الايلام الغاية لم يمكنهم ان يقولوا هذا سحر والا لما صح منهم طلب الخلاص من النار * ثم قال تعالى (اصلوها فاصبروا او لاتصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون) اى اذا لم يمكنكم انكارها وتحقق انه ليس بسحر ولا خلل فى ابصاركم فاصلوها وقوله تعالى فاصبروا او لاتصبروا فيه فائدتان (احداهما) بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص فان من لايصبر يدفع الشئ عن نفسه اما بأن يدفع المعذب فيمنعه واما بان يغضبه فيقتله ويريحه ولاشئ من ذلك يفيد فى عذاب الآخرة فان من لايغلب المعذب فيدفعه ولا يتخلص بالاعدام فانه لايقضى عليه فيموت فاذن

(الصبر)

قوله الاعلى قراءة من قرأ يدعون اى من الدعاء وهى قراءة زيد بن على ودعا على حالة كما فى الكشاف اه

على زعمكم حيث كنتم تقولون انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون (اصلوها فاصبروا اولا تصبروا) اى ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ماشئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) اى الامران فى عدم النفع لا بدفع العذاب ولا بتخفيفه وقوله تعالى (انما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء فان الجزاء حيث كان واجب الوقوع حتما كان الصبر وعدمه سواء فى عدم النفع (ان المتقين فى جنات ونعيم) اى فى اية جنات واى نعيم على ان التنوين للتفخيم او فى جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على انه للتنويع (فاكهين) ناعمين ملتذذين (بما آتاهم ربهم) وقرئ فكهين وفاكهون على انه الخبر والظرف

الصبر كعدمه لان من يصبر يدوم فيه ومن لا يصبر يدوم فيه (الثانية) بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا فان المعذب فى الدنيا ان صبر ربما انتفع بالصبر اما بالجزاء فى الآخرة واما بالحمد فى الدنيا فيقال له ما اشجعه وما اقوى قلبه وان جزع يذم فيقال يجزع كالصبيان والنسوان واما فى الآخرة لا مدح ولا ثواب على الصبر وقوله تعالى سواء عليكم سواء خبر ومبتدأه مدلول عليه بقوله فاصبروا او لا تصبروا اكأنه يقول الصبر وعدمه سواء فان قيل يلزم الزيادة فى التعذيب ويلزم التعذيب على المنوى الذى لم يفعله نقول فيه لطيفة وهى ان المؤمن بايمانه استفاد ان الخير الذى ينويه يثاب عليه والشر الذى ينويه ولا يحققه لا يعاقب عليه والكافر بكفره صار على الضد فالخير الذى ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه والشر الذى يقصده ولا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم فان الله تعالى اخبره به وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره كأن الله تعالى قال فان من كفر ومات كافرا اعذبه ابدا فاحذروا ومن آمن اثيبه دائما فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعد ما سمع ذلك فاذا عاقبه المعاقب دائما تحقيقا لما اوعده به لا يكون ظالما ※ ثم قال تعالى (ان المتقين فى جنات ونعيم) على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم امر الترهيب والترغيب وقد ذكرنا تفسير المتقين فى مواضع والجنة وان كانت موضع السرور لكن الناطور قد يكون فى البستان الذى هو فى غاية الطيبة وهو غير متنعم فقوله ونعيم يفيد انهم فيها يتنعمون كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور ※ وقوله تعالى (فاكهين) يزيد فى ذلك لان المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول فلما قال فاكهين دل على غاية الطيبة ※ وقوله تعالى (بما آتاهم ربهم) يفيد زيادة فى ذلك لان الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره ادنى شئ ويفرح بأقل سبب فقال فاكهين لا لدنو هممهم بل لعلو نعمهم حيث هى من عند ربهم ※ وقوله تعالى (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد انهم فاكهون بأمرين (احدهما) بما آتاهم والثانى بأنه وقاهم (وثانيهما) ان يكون ذلك جملة اخرى منسوقة على الجملة الاولى كأنه بين انه ادخلهم جنات ونعيما ووقاهم عذاب الجحيم ※ ثم

قال تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين) وفيه بيان اسباب التنعيم على الترتيب فاول ما يكون المسكن وهو الجنات ثم الاكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الازواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب وذكر فى كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله جنات اشارة الى المسكن والمسكن للجسم ضرورى وهو المكان فقال فاكهين لان مكان التنعيم قد يتنغص بأمور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة بكونه مما آتاهم الله وقد ذكرنا هذا واما فى الاكل والشرب والاذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما وقوله تعالى هنيئا

لغو متعلق بالخبر او خبر آخر (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) عطف على آتاهم على ان مصدرية او على خبر ان او حال باضمار قد اما من المستكن فى الخبر او فى الحال واما من فاعل آتى او من مفعوله او منهما واظهار الرب فى موقع الاضمار مضافا الى ضميرهم للتشريف والتعليل (كلوا واشربوا) اى يقال لهم كلوا واشربوا اكلا وشربا (هنيئا) او طعاما وشرابا هنيئا وهو الذى لا تنغيص فيه (بما كنتم تعملون) بسببه او بمقابلته وقيل الباء زائدة وما فاعل هنيئا اى هنأكم ما كنتم تعملون اى جزاؤه (متكئين على سرر مصفوفة) مصطفة (وزوجناهم بحور عين) وقرئ بحور عين على اضافة الموصوف الى صفته بالتأويل

اشارة الى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد فى الدنيا منها ان الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام ومنها انه يخاف النفاد فلا يسخو بالاكل والكل منتف فى الجنة فلا مرض ولا انقطاع فان كل احد عنده ما يفضل عنه ولا اثم ولا تعب فى تحصيله فان الانسان فى الدنيا ربما يترك لذة الاكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب او المنة او ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه فلا يتهنأ وكل ذلك فى الجنة منتف وقوله تعالى بما كنتم تعملون اشارة الى انه تعالى يقول اى مع انى ربكم وخالقكم وادخلتكم بفضلى الجنة وانما منتى عليكم فى الدنيا اذ هديتكم ووفقتكم للاعمال الصالحة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان واما اليوم فلا من عليكم لان هذا انجاز الوعد فان قيل قال فى حق الكفار انما تجزون ما كنتم تعملون وقال فى حق المؤمنين بما كنتم تعملون فهل بينهما فرق قلت بينهما بون عظيم من وجوه (الاول) كلمة انما للحصر اى لا تجزون الا ذلك ولم يذكر هذا فى حق المؤمن فانه يجزيه اضعاف ما عمل ويزيده من فضله وحينئذ ان كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالاكل والشرب (الثانى) قال هنا بما كنتم وقال هناك ما كنتم اى تجزون عين اعمالكم اشارة الى المبالغة فى المماثلة كما تقول هذا عين ما عملت وقد تقدم بيان هذا وقال فى حق المؤمن بما كنتم كأن ذلك امر ثابت مستمر بعملكم هذا (الثالث) ذكر الجزاء هناك وقال ههنا بما كنتم تعملون لان الجزاء ينبئ عن الانقطاع فان من احسن الى احد فاتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئا آخر * فان قيل فالله تعالى قال فى مواضع جزاء بما كنتم تعملون فى الثواب نقول فى تلك المواضع لما لم يخاطب المجزى لم يقل تجزى وانما أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانقطاع * واما فى السرر فذكر أمورا أيضا (احدها) الاتكاء فانه هيئة تختص بالمنعم والفارغ الذى لا كلفة عليه ولا تكلف لديه فان من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكئ عنده ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء فالهيئة دليل خير ثم الجمع يحتمل امرين (احدهما) ان يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لان قوله مصفوفة يدل على انها لواحد لان سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره وقوله مصفوفة دليل على انه لمجرد العظم فانها لو كانت متفرقة لقيل فى كل موضع واحد ليتكئ عليه صاحبه اذا حضر فى هذا الموضع وقوله تعالى وزوجناهم اشارة الى النعمة الرابعة وفيها أيضا ما يدل على كمال الحال من وجوه (أحدها) انه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين يزوج عباده بامائه ومن يكون كذلك لا يفعل الا ما فيه راحة العباد والاماء (ثانيها) قال وزوجناهم بحور ولم يقل وزوجناهم حورا مع ان لفظ التزويج يتعدى فعله الى مفعولين بغير حرف يقال زوجتكها قال تعالى فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها وذلك اشارة الى ان المنفعة فى التزويج لهم وانما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم وذلك لان المفعول

قوله وقرئ بعين عين فى الكشاف وقرئ بعيس عين اه

المشهور وقرئ بعين عين والباء مع ان التزويج مما يتعدى الى مفعولين لما فيه من معنى الوصل والالصاق او للسببية اذ المعنى صيرناهم ازواجا بسببهن فان الزوجية لا تتحقق بدون انضمامهن اليهم وقوله تعالى (والذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من اهل الجنة اثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم فى الايمان وهو مبتدأ خبره الحقنا بهم وقوله تعالى (واتبعتهم ذريتهم) عطف على آمنوا وقيل اعتراض وقوله تعالى (بايمان) متعلق بالاتباع اى اتبعتهم ذريتهم بايمان فى الجملة قاصر عن رتبة ايمان الآباء واعتبار هذا القيد للايذان بثبوت الحكم فى الايمان الكامل اصالة لا الحاقا وقرئ ذرياتهم للمبالغة فى الكثرة

بغير حرف يعلق الفعل به كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور لان ذلك بمعنى جعلنا
ازدواجهم بهذا الطريق و هو الحور (ثالثها) عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن
بالحسن واختار الاحسن من الاحسن فان أحسن ما في صورة الآدمي وجهه واحسن
ما في الوجه العين ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج في الاعضاء ووفرة المادة
في الارواح اما حسن المزاج فعلامته الحور واما وفرة الروح فان سعة العين بسبب كثرة
الروح المصوبة اليها فان قيل قوله زوجناهم ذكره بفعل ماض ومتكئين حال ولم يسبق
ذكر فعل ماض يعطف عليه ذلك وعطف الماضي على الماضي والمستقبل على المستقبل
احسن نقول الجواب من وجوه اثنان لفظيان ومعنوي (احدها) ان ذلك حسن
في كثير من المواضع تقول جاء زيد ويجيء عمرو وخرج زيد (ثانيها) ان قوله تعالى ان
المتقين في جنات ونعيم تقديره ادخلناهم في جنات وذلك لان الكلام على تقدير ان في
اليوم الذي يدع الكافر في النار في ذلك الوقت يكون المؤمن قد ادخل مكانه فكأنه تعالى
يقول في يوم يدعون الى نار جهنم ان المتقين كائنون في جنات (والثالث المعنوي) وهو
انه تعالى ذكر مجازاة الحكم فهو في هذا اليوم زوج عباده حورا عينا وهن منتظرات
الزفاف يوم الآزفة ❊ ثم قال تعالى (والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بايمان الحقنا بهم
ذرياتهم) وفيه لطائف (الاولى) ان شفقة الابوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة
ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بانه لا يولههم باولادهم بل يجمع بينهم فان قيل قد
ذكرت في تفسير بعض الآيات ان الله تعالى يسلي الآباء عن الابناء وبالعكس ولا يتذكر
الاب الذي هو من اهل الجنة الابن الذي هو من اهل النار نقول الولد الصغير وجد في
والده الابوة الحسنة ولم يوجد لها معارض ولهذا الحق الله الولد بالوالد في الاسلام في دار
الدنيا عند الصغر واذا كبر استقل فان كفر ينسب الى غير ابيه وذلك لان الاسلام
للمسلمين كالاب ولهذا قال تعالى انما المؤمنون اخوة جمع أخ بمعنى اخوة الولادة
والاخوان جمعه بمعنى اخوة الصداقة والمحبة فاذا الكفر من حيث الحس والعرف أب
فان خالف دينه دين ابيه صار له من حيث الشرع اب آخر وفيه ارشاد الآباء الى ان
لا يشغلهم شيء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش ان يشتغل الانسان
بالتفرج في البستان مع الاحبة والاخوان عن تحصيل قوت الولدان وكيف لا يشتغل
اهل الجنة بما في الجنة من الحور العين عن اولادهم حتى ذكروهم فاراح الله قلوبهم بقوله
الحقنا بهم ذرياتهم واذا كان كذلك فما ظنك بالفاسق الذي يبذر ماله في الحرام ويترك
اولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام نعوذ بالله منه وهذا يدل على ان من يورث اولاده
مالا حلالا يكتب له به صدقة ولهذا لم يجوز للمريض التصرف في اكثر من الثلث (اللطيفة
الثانية) قوله تعالى وأتبعناهم ذرياتهم فهذا ينبغي ان يكون دليلا على أنا في الآخرة
نلحق بهم لان في دار الدنيا مراعاة الاسباب اكثر ولهذا لم يجر الله عادته على ان يقدم بين

وذرياتهم بكسر الذال وقرئ
واتبعناهم ذرياتهم اي جعلناهم
تابعين لهم في الايمان وقرئ اتبعتهم
(الحقنا بهم ذريتهم) اي في
الدرجة كما روي انه عليه الصلاة
والسلام قال انه تعالى يرفع ذرية
المؤمن في درجة وان كانوا دونه
لتقربهم عينه ثم تلا هذه الآية
(وما ألتناهم) وما نقصنا الآباء
بهذا الالحاق (من عملهم) من
ثواب عملهم (من شيء) بان اعطينا
بعض مثوباتهم ابناءهم فتنقص
مثوبتهم وتحط درجتهم وانما
رفعناهم الى منزلتهم بمحض
التفضل والاحسان وقرئ
ألتناهم بكسر اللام من التيألت
كعلم يعلم والاول كضرب يضرب
ولتناهم من لات يليت وآلتناهم
من آلت يؤلت وولتناهم من
ولت يلت والكل بمعنى واحد
هذا وقد قيل

يدى الانسان طعاما من اشياء فالم يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله وفى الآخرة يؤتيه ذلك من غير سعى جزاء له على ما سعى له من قبل فينبغى ان يجعل ذلك دليلا ظاهرا على ان الله تعالى يلحق به ولده وان لم يعمل عملا صالحا كما اتبعه وان لم يشهد ولم يعتقد شيأ (اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى بايمان فان الله تعالى اتبع الولد الوالدين فى الايمان ولم يتبعه اباه فى الكفر بدليل ان من اسلم من الكفار حكم باسلام اولاده ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يحكم بكفر ولده (اللطيفة الرابعة) قال فى الدنيا اتبعناهم وقال فى الآخرة الحقنا بهم وذلك لان فى الدنيا لا يدرك الصغير التبع مساواة المتبوع وانما يكون هو تبعا والاب اصلا لفضل الساعى على غير الساعى واما فى الآخرة فاذا الحق الله بفضله ولده به جعل له من الدرجة مثل ما لابيه (اللطيفة الخامسة) فى قوله تعالى وما التناهم تطييب لقلبهم وازالة وهم المتوهم ان ثواب عمل الاب يوزع على الوالد والولد بل للوالد اجر عمله بفضل السعى ولاولاده مثل ذلك فضلا من الله ورحمة (اللطيفة السادسة) فى قوله تعالى من عملهم ولم يقل من اجرهم وذلك لان قوله تعالى وما التناهم من عملهم دليل على بقاء عملهم كما كان والاجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه الاشارة الى بقاء العمل الذى له الاجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد اليه ولو قال ما التناهم من اجرهم لكان ذلك حاصلا بأدنى شئ لان كل ما يعطى الله عبده على عمله فهو اجر كامل ولانه لو قال تعالى ما التناهم من اجرهم كان مع ذلك يحتمل ان يقال ان الله تعالى تفضل عليه بالاجر الكامل على العمل الناقص وأعطاه الاجر الجزيل مع ان عمله كان له ولولده جميعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى والذين آمنوا عطف على ماذا نقول على قوله ان المتقين (المسئلة الثانية) اذا كان كذلك فلم اعاد لفظ الذين آمنوا وكان المقصود يحصل بقوله تعالى وألحقنا بهم ذرياتهم بعد قوله وزوجناهم وكان يصير التقدير وزوجناهم وألحقنا بهم نقول فيه فائدة وهو ان المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقال ههنا الذين آمنوا أى بوجود الايمان يصير ولده من اهل الجنة ثم ان ارتكب الاب كبيرة او صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد وربما يدخل الجنة الابن قبل الاب وفيه لطيفة معنوية وهو انه ورد فى الاخبار ان الولد الصغير يشفع لابيه وذلك اشارة الى الجزاء (المسئلة الثالثة) هل يجوز غير ذلك نقول نعم يجوز ان يكون قوله تعالى والذين آمنوا عطفا على حور عين تقديره زوجناهم بحور عين أى قرناهم بهن وبالذين آمنوا اشارة الى قوله تعالى اخوانا على سرر متقابلين اى جمعنا شملهم بالازواج والاخوان والاولاد بقوله تعالى وأتبعناهم وهذا الوجه ذكره الزمخشرى والاول احسن واصح فان قيل كيف يصح على هذا الوجه الاخبار بلفظ الماضى مع انه سبحانه وتعالى بعد ما قرن بينهم قلنا صح فى زوجناهم على ما ذكر الله تعالى من تزويجهن منا من يوم خلقهن وان تأخر زمان الاقتران (المسئلة الرابعة) قرئ ذرياتهم فى الموضعين

(بالجمع)

الموصول معطوف على حور والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا اى بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور واخرى بموانسة الاخوان المؤمنين وقوله تعالى واتبعتهم عطف على زوجناهم وقوله تعالى بايمان متعلق بما بعده اى بسبب ايمان عظيم رفيع المحل وهو ايمان الآباء الحقنا بدرجاتهم ذريتهم وان كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم او بسبب ايمان دانى المنزلة وهو ايمان الذرية كأنه قيل بشئ من الايمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء الحقناهم بهم (كل امرئ بما كسب رهين) قيل هو فعيل بمعنى مفعول والمعنى كل امرئ مرهون عند الله تعالى بالعمل

بالجمع وذرياتهم فيهما بالفرد وقرئ في الاول ذرياتهم وفي الثاني ذريتهم فهل للثالث وجه نقول نعم معنوي لا لفظي وذلك لان المؤمن تتبعه ذريته في الايمان وان لم توجد على معنى انه لو وجد له الف ولد لكانوا اتباعه في الايمان حكما واما الالحاق فلا يكون حكما انما هو حقيقة وذلك في الموجود فالتابع اكثر من الملحوق فجمع في الاول وأفرد في الثاني (المسئلة الخامسة) ما الفائدة في تنكير الايمان في قوله واتبعناهم ذرياتهم بايمان نقول هو اما للتخصيص او التنكير كأنه يقول اتبعناهم ذرياتهم بايمان مخلص كامل او يقول اتبعناهم بايمان ما اى شئ منه فان الايمان كاملا لا يوجد في الولد بدليل ان من آمن وله ولد صغير حكم بايمانه فاذا بلغ وصرح بالكفر وانكر التبعية قيل بانه لا يكون مرتدا وتبين بقوله انه لم يتبع وقيل بانه يكون مرتدا لانه كفر بعد ما حكم بايمانه كالمسلم الاصلي فاذن بهذا الخلاف تبين ان ايمانه ليس بقوي وهذان الوجهان ذكرهما الزمخشري ويحتمل ان يكون المراد غير هذا وهو ان يكون التنوين للعوض عن المضاف اليه كما في قوله تعالى بعضهم بعض وقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى وبيانه هو ان التقدير اتبعناهم ذرياتهم بايمان اى بسبب ايمانهم لان الاتباع ليس بايمان كيف كان وممن كان وانما هو ايمان الآباء لكن الاضافة تنبئ عن تقييد وعدم كون الايمان ايمانا على الاطلاق فان قول القائل ماء الشجر وماء الرمان يصح واطلاق اسم الماء من غير اضافة لا يصح فقوله بايمان يوهم انه ايمان مضاف اليهم كما قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا حيث اثبت الايمان المضاف ولم يكن ايمانا فقطع الاضافة مع ارادتها ليعلم انه ايمان صحيح وعوض التنوين ليعلم انه لا يوجب الامان في الدنيا الا ايمان الآباء وهذا وجه حسن * ثم قال تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) قال الواحدي هذا عود الى ذكر اهل النار فانهم مرتهنون في النار واما المؤمن فلا يكون مرتهنا قال تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين وهو قول مجاهد وقال الزمخشري كل امرئ بما كسب رهين عام في كل احد مرهون عند الله بالكسب فان كسب خيرا فك رقبته والا اربق بالرهن والذي يظهر منه انه عام في حق كل احد وفي الآية وجه آخر وهو ان يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل فيكون المعنى والله اعلم كل امرئ بما كسب راهن اى دائم ان احسن ففي الجنة مؤبدا وان اساء ففي النار مخلدا وقد ذكرنا ان في الدنيا دوام الاعمال بدوام الاعيان فان العرض لا يبقى الا في جوهر ولا يوجد الا فيه وفي الآخرة دوام الاعيان بدوام الاعمال فان الله يبقي اعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقي يبقى مع عامله * ثم قال تعالى (وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) اى زدناهم مأكولا ومشروبا اما المأكول فالفاكهة واللحم واما المشروب فالكأس الذي يتنازعون فيها وفي تفسيرها لطائف (اللطيفة الاولى) لما قال الحقنا بهم ذرياتهم بين الزيادة ليكون ذلك جاريا على عادة الملوك في الدنيا اذا زادوا في حق عبد من

الصالح فان عمله فكه والا اهلكه وقيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرئ بما كسب راهن اى دائم ثابت وهذا انسب بالمقام فان الدوام يقتضى عدم المفارقة بين المرء وعمله ومن ضرورته ان لا ينقص من ثواب الآباء شئ فالجملة تعليل لما قبلها (وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) وزدناهم على ما كان لهم من مبادي التنعم وقتا فوقتا مما يشتهون من فنون النعماء والوان الآلاء (يتنازعون فيها) اى يتعاطون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق كما ينبئ عنه التعبير عن ذلك بالتنازع (كأسا) اى خمرا تسمية لها باسم محلها (لا لغو فيها) اى في شربها حيث لا يتكلمون في اثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام (ولا

عبيدهم يزيدون فى اقدار اخبازهم واقطاعهم واختار من المأكول ارفع الانواع وهو الفاكهة واللحم فانهما طعام المتنعمين وجمع اوصافا حسنة فى قوله مما يشتهون لانه لو ذكرنوعا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال كل احد يعطى مايشتهى فان قيل الاشتهاء كالجوع وفيه نوع المنقول ليس كذلك بل الاشتهاء به اللذة والله تعالى لايتركه فى الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم بل المشتهى حاصل مع الشهوة والانسان فى الدنيا لايتألم الا باحدامرين امابشتهاء صادق وعجزه عن الوصول الى المشتهى وامابحصول انواع الاطعمة والاشربة عنده وسقوط شهوته وكلاهما منتف فى الآخرة (اللطيفة الثانية) لماقال وما التناهم ونفى النقصان يصدق بحصول المساوى فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوى بل بطريق آخر وهو الزيادة والامداد فان قيل اكثر الله من ذكر الاكل والشرب وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الاكل والشرب وكل ماسوى الله نقول هذا على العمل ولهذا قال تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال بما كنتم تعملون واما على العلم بذلك فذلك ولهذا قال لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون سلام قولا من رب رحيم اى للنفوس ماتتفكه به وللارواح ماتتمناه من القربة والزلفى ❊ وقوله تعالى (يتنازعون فيها كأسا) فيكون ذلك على عادة الملوك اذا جلسوا فى مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب وقوله تعالى يتنازعون اى يتعاطون ويحتمل ان يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لاتجاذب منازعة وفيه نوع لذة وهو بيان ماهو عليه حال الشراب فى الدنيا فانهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولايتفاخرون بكثرة الاكل ولهذا اذا شرب احدهم يرى الآخر واجبا ان يشرب مثل ماشربه حريفه ولايرى واجبا ان يأكل مثل ماأكل نديمه وجليسه ❊ وقوله تعالى (لالغو فيها ولاتأثيم) وسواء قلنا فيها عائدة الى الجنة او الى الكأس فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على مافى الدنيا فقال تعالى ليس فى الشرب فى الآخرة كل مافيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل من التأثيم الذى بسبب نهوض الشهوة والغضب عند فور العقل والفهم وفيه وجه ثالث وهو ان يقال لايعتريه كمايعترى الشارب بالشرب فى الدنيا فلايؤثم اى لاينسب الى اثم وفيه وجه رابع وهو ان يكون المراد من التأثيم السكر وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لان من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولايؤذى ولايتأذى ولايهذى ولايسمع الى من هذى ومنهم من يعربد فقال لالغو فيها ❊ ثم قال تعالى (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) اى بالكؤس وقال تعالى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب واباريق وكأس من معين وقوله لهم اى ملكهم اعلامالهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالامر والنهى والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجوها اخر وهو

تأثيم) ولايفعلون مايؤثم به فاعله اى ينسب الى الاثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن المنادمين فى الدنيا وانما يتكلمون بالحكم واحاسن الكلام ويفعلون مايفعله الكرام وقرئ لالغو فيها ولا تأثيم بالفتح (ويطوف عليهم) اى بالكأس (غلمان لهم) اى مماليك مخصوصون بهم وقيل هم اولادهم الذين سبقوهم (كأنهم لؤلؤ مكنون) مصون فى الصدف من بياضهم وصفائهم او مخزون لانه لايخزن الا الثمين الغالى القيمة قيل لقتادة هذا الخادم فكيف المخدوم فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعنه عليه الصلاة والسلام ان ادنى اهل الجنة منزلة من ينادم الخادم من خدامه فيجيبه الف ببابه لبيك لبيك

انه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا فان الغلمان فى الدنيا اذا طافوا على السادة والملوك يطوفون عليهم لحظ انفسهم اما لتوقع النفع او لتوفر الصفح واما فى الآخرة فطوفهم عليهم متمحض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم اليهم والغلام الذى هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الاولاد وقوله تعالى كأنهم لؤلؤ اى فى الصفاء ومكنون ليفيد زيادة فى صفاء الوانهم او لبيان انهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم فى اكنافهم * ثم قال تعالى (واقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انا كنا قبل فى اهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم) اشارة الى انهم يعلمون ما جرى عليهم فى الدنيا ويذكرونه وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم فى الدنيا فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن الى الجنة ومن الضيق الى السعة ويزداد الكافر ألما حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف الى التلف ومن النعيم الى الجحيم ثم يتذكرون ما كانوا عليه فى الدنيا من الخشية والخوف فيقولون انا كنا قبل فى اهلنا مشفقين وهو انهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا اليه فيقولون خشية الله كنا نخاف الله فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وفيه لطيفة وهو ان يكون اشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الاخوان ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم ثم قال تعالى (فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) وتعلق الآية بما قبلها ظاهر لانه تعالى بين ان فى الوجود قوما يخافون الله ويشفقون فى اهليهم والنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فحقق من يذكره فوجب التذكير واما الرسول عليه السلام فليس له الا الاتيان بما امر به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الفاء فى قوله فذكر قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء (المسئلة الثانية) معنى الفاء فى قوله فما انت ايضا قد علم اى انك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم فان ذلك سيرة المزور فذكر فانك لست بمزور وذلك سبب التذكير (المسئلة الثالثة) ما وجه تعلق قوله نتربص به ريب المنون بقوله شاعر نقول فيه وجهان (الاول) ان العرب كانت تحترز عن ايذاء الشعراء وتتقى ألسنتهم فان الشعر كان عندهم يحفظ ويدون وقالوا لا نعارضه فى الحال مخافة ان يغلبنا بقوة شعره وانما سبيلنا الصبر وتربص موته (الثانى) انه صلى الله عليه وسلم كان يقول ان الحق دين الله وان الشرع الذى أتيت به يبقى ابد الدهر وكتابى يتلى الى قيام الساعة فقالوا ليس كذلك انما هو شاعر والذى يذكره فى حق آلهتنا شعر ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك (المسئلة الرابعة) ما معنى ريب المنون نقول قيل هو اسم للموت فعول من المن وهو القطع والموت قطوع ولهذا سمى بمنون وقيل المنون الدهر وريبه حوادثه وعلى هذا قولهم نتربص يحتمل وجها آخر وهو ان

(واقبل بعضهم على بعض يتساءلون) اى يسأل كل بعض منهم بعضا آخر عن احواله واعماله فيكون كل بعض سائلا ومسؤلا لأنه يسأل بعض معين منهم بعضا آخر معينا (قالوا) اى المسؤلون وهم كل واحد منهم فى الحقيقة (انا كنا قبل) اى فى الدنيا (فى اهلنا مشفقين) ارقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته او وجلين من العاقبة (فمن الله علينا) بالرحمة او التوفيق للحق (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم وقرئ ووقانا بالتشديد (انا كنا من قبل ندعوه) اى نعبده او نسأله الوقاية (انه هو البر) المحسن (الرحيم) الكثير الرحمة الذى اذا عبد أثاب واذا سئل اجاب وقرئ انه بالفتح بمعنى لانه (فذكر) فاثبت على ما انت عليه من التذكير بما انزل اليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الاباطيل (فما أنت بنعمة ربك) بحمده وانعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل (بكاهن ولا مجنون) كما يقولون قاتلهم الله انى يؤفكون (ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون)

يكون المراد انه اذا كان شاعرا فصروف الزمان ربما تضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكل فساد امره وكساد شعره (المسئلة الخامسة) كيف قال تربصوا بلفظ الامر وامر النبي صلى الله عليه وسلم يوجب المأمور او يفيد جوازه وتربصهم ذلك كان حراما نقول ذلك ليس بأمر وانما هو تهديد معناه تربصوا ذلك فانا نتربص الهلاك بكم على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده افعل ماشئت فانى لست عنك بغافل وهو امر لتهوين الامر على النفس كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول اشكوك الى زيد فيقول اشكنى اى لا يهمنى ذلك وفيه زيادة فائدة وذلك لانه لو قال لا تشكنى لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى فان قيل لو كان كذلك لقال تربصوا او لا تربصوا كما قال اصبروا او لا تصبروا نقول ليس كذلك لانه اذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكنى او لا تشكنى يكون ذلك مفيدا عدم خوفه منه فاذا قال اشكنى يكون ادل على عدم الخوف فكأنه يقول انا فارغ عنه وانما انت تتوهم انه يفيدك فافعل حتى يبطل اعتقادك (المسئلة السادسة) فى قوله تعالى فانى معكم من المتربصين وهو يحتمل وجوها (احدها) انى معكم من المتربصين اتربص هلاككم وقد اهلكوا يوم بدر وفى غيره من الايام هذا ما عليه الاكثرون والذى نقوله فى هذا المقام هو ان الكلام يحتمل وجوها وبيانها هو ان قوله تعالى نتربص به ريب المنون ان كان المراد من المنون الموت فقوله انى معكم من المتربصين معناه انى اخاف الموت ولا اتمناه لا لنفسى ولا لاحد لعدم علمى بما قدمت يداه وانما انا نذير وانا اقول ما قال ربى افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم فتربصوا موتى وانا متربصه ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدى ويحتمل ان يكون كما قيل تربصوا موتى فانى متربص موتكم بالعذاب وان قلنا المراد من ريب المنون صروف الدهر فمعناه انكار كون صروف الدهر مؤثرة فكأنه يقول انا من المتربصين حتى ابصر ماذا يأتى به دهركم الذى تجعلونه مهلكا وماذا يصيبنى منه وعلى التقديرين فنقول النبى صلى الله عليه وسلم يتربص ما يتربصون غير ان فى الاول تربصه مع اعتقاد الوقوع وفى الثانى تربصه مع اعتقاد عدم التأثير على طريقة من يقول انا ايضا انتظر ما تنتظره حتى ارى ماذا يكون منكرا عليه وقوع ما يتوقع وقوعه وانما قلنا هذا لان ترك المفعول فى قوله انى معكم من المتربصين لكونه مذكورا وهو ريب المنون اولى من تركه وارادة غير المذكور وهو العذاب (الثانى) اتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فهو لم يتربص بهم شيئا على الوجهين وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته فلم يتربص بهم شيئا على الوجوه التى اخترناها فقال انى معكم من المتربصين ❁ ثم قال تعالى (ام تأمرهم احلامهم بهذا ام هم قوم طاغون) وام هذه ايضا على ما ذكرنا متصلة تقديرها انزل عليهم ذكر ام تأمرهم احلامهم بهذا وذلك لان الاشياء اما ان تثبت بسمع واما ان تثبت بعقل فقال هل ورد امر سمعى ام عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون ام هم قوم طاغون يغترون

وهو ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر وقيل المنون الموت وهو فى الاصل فعول من منه اذا قطعه لان الموت قطوع اى بل ايقولون ننتظر به نوائب الدهر (قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) اتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى وفيه عدة كريمة باهلاكهم (ام تأمرهم احلامهم) اى عقولهم (بهذا) اى بهذا التناقض فى المقال فان الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى الامور والمجنون مغطى عقله مختل فكره والشاعر ذو كلام موزون متسق مخيل فكيف يجتمع اوصاف هؤلاء فى واحد وأمر الاحلام بذلك مجاز عن ادائها اليه (ام هم قوم طاغون) مجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الاكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون وقرئ بل هم

(ويقولون)

ويقولون مالادليل عليه سمعا ولامقتضي له عقلا والطغيان مجاوزة الحد في العصيان وكذلك كل شئ ظاهره مكروه قال الله تعالى لما طغى الماء وفيه مسائل (الاولى) اذا كان المرادماذكرت فلم اسقط مايصدر به نقول لان كون مايقولون به مسندا الى نقل معلوم عدمه لاينفي واما كونه معقولا فهم كانوا يدعون انه معقول واما كونهم طاغين فهو حق فخص الله تعالى بالذكر ماقالوا به وقال الله به فهم قالوا نحن نتبع العقل والله تعالى قال هم طاغون فذكر الامرين الذين وقع فيهما الخلاف (المسئلة الثانية) قوله تأمرهم احلامهم اشارة الى ان كل مالايكون على وفق العقل لاينبغي ان يقال وانما ينبغي ان يقال مايجب قوله عقلا فهل صار واجب عقلا مأمورا به (المسئلة الثالثة) ما الاحلام نقول جمع حلم وهو العقل وهما من باب واحد من حيث المعنى لان العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لايتحرك عن مكانه والحلم من الحلم وهو ايضا سبب وقار المرء وثباته وكذلك يقال للعقول النهى من النهي وهو المنع وفيه معنى لطيف وهو ان الحلم في اصل اللغة هو مايراه النائم فينزل ويلزمه الغسل وهو سبب البلوغ وعنده يصير الانسان مكلفا وكأن الله تعالى من لطف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة كمل العقل فاشار الى العقل بالاشارة الى مايقارنه وهو الحلم ليعلم انه نذير كمال العقل لا العقل الذي به يحترز الانسان تخطي الشوك ودخول النار وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا ان الانسان لاينبغي ان يقول كل معقول بل لايقول الامايأمره به العقل الرزين الذي عنده يصح التكليف (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجوه (الاول) ان يكون هذا اشارة مبهمة اي بهذا الذي يظهر منهم قولا وفعلا حيث يعبدون الاصنام والاوثان ويقولون الهذيان من الكلام (الثاني) هذا اشارة الى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون (الثالث) هذا اشارة الى التربص فانهم لما قالوا نتربص قال الله تعالى أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم فان احدا لم يتوقع هلاك نبيه الا وهلك (المسئلة الخامسة) هل يصح ان تكون ام في هذا الموضع بمعنى بل نقول نعم تقديره يقولون انه شاعر قولا بل يعتقدونه عقلا ويدخل في عقولهم ذلك اي ليس ذلك قولا منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهنا ومجنونا ويدل عليه قراءة من قرأ بل هم قوم طاغون لكن بل ههنا اوضح وفي قوله بل تأمرهم احلامهم خفي

✽ ثم قال تعالى (ام يقولون تقوله بل لايؤمنون) وهو متصل بقوله تعالى ام يقولون شاعر نتربص به وتقديره على ماذكرنا اتقولون كاهن ام تقولون شاعر ام تقوله ✽ ثم قال تعالى لبطلان جميع الاقسام (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) اي ان كان هو شاعرا ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الاذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائد ويقص القصص ولايختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ماأتى به والتقول يراد به الكذب وفيه اشارة الى معنى لطيف وهو ان التفعل للتكلف واراءة الشئ وهو ليس على مايرى يقال تمرض فلان اي لم يكن مريضا وأرى من نفسه المرض وحينئذ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس

(ام يقولون تقوله) اي اختلقه من تلقاء نفسه (بل لايؤمنون) فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الاباطيل التي لايخفى على احد بطلانها كيف لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم الا واحد من العرب فكيف اتى بما عجز عنه كافة الامم من العرب والعجم (فليأتوا بحديث مثله) مثل القرآن في النعوت التي استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى (ان كانوا صادقين) فيما زعموا فان صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية مع مابهم من طول الممارسة للخطب والاشعار وكثرة المزاولة لاساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والايام ولاريب في ان القدرة على الشئ من موجبات الاتيان به ودواعي الامر بذلك

بقول انما هو تقول صورته صورة القول وليس فى الحقيقة به ليعلم ان المكذب هو الصادق وقوله تعالى بل لا يؤمنون بيان هذا انهم كانوا فى زمان نزول الوحى وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها وكان ذلك يقتضى ان يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضى الله عنهم وهم لم يكونوا كذلك بل اقل من ذلك لم يكونوا ايضا وهو ان يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الامور ولم يظهر الامر عندهم ذلك الظهور وقوله تعالى فليأتوا الفاء للتعقيب اى اذا كان كذلك فيجب عليهم ان يأتوا بمثل ما أتى به ليصح كلامهم ويبطل كلامه وفيه مباحث (الاول) قال بعض العلماء فليأتوا امر تعجيز بقوله القائل لمن يدعى امرا وفعلا ويكون غرضه اظهار عجزه والظاهر ان الامر ههنا مبقى على حقيقته لانه لم يقل ائتوا مطلقا بل قال ائتوا ان كنتم صادقين وعلى هذا التقدير ووجود ذلك الشرط يجب الاتيان به وامر التعجيز فى كلام الله تعالى قوله تعالى ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وليس هذا بحثا يورث خللا فى كلامهم (الثانى) قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثا فيكون محدثا تقول الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والقديم ولهذا يصح ان يقال هذا حديث قديم بمعنى متقادم العهد لا بمعنى سلب الاولية وذلك لا نزاع فيه (الثالث) النحاة يقولون الصفة تتبع الموصوف فى التعريف والتنكير لكن الموصوف حديث وهو منكر ومثل مضاف الى القرآن والمضاف الى المعرف معرف فكيف هذا تقول مثل وغير لا تتعرفان بالاضافة وكذلك كل ما هو مثلهما والسبب ان غيرا ومثلا وامثالهما فى غاية التنكير فانك اذا قلت ما رأيت شيئا مثل زيد يتناول كل شئ فان كل شئ مثل زيد فى كونه شيئا فالجماد مثله فى الجسم والحجم والامكان والنبات مثله فى النشو والنماء والذبول والفناء والحيوان مثله فى الحركة والادراك وغيرهما من الاوصاف واما غير فهو عند الاضافة ينكر وعند قطع الاضافة ربما يتعرف فانك اذا قلت غير زيد صار فى غاية الابهام فانه يتناول امورا لا حصر لها واما اذا قطعته عن الاضافة ربما تقول الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الاجناس او تجعله مبتدأ وتريد به معنى معينا (البحث الرابع) ان كانوا صادقين اى فى قولهم تقوله وقد ذكرنا ان ذلك راجع الى ما سبق من انه كاهن وانه مجنون وانه شاعر وانه متقول ولو كانوا صادقين فى شئ من ذلك لهان عليهم الاتيان بمثل القرآن ولما امتنع كذبوا فى الكل (البحث الخامس) قد ذكرنا ان القرآن معجز ولا شك فيه فان الخلق عجزوا عن الاتيان بمثل ما يقرب منه مع التحدى فاما ان يكون كونه معجزا لفصاحته وهو مذهب اكثر اهل السنة واما ان يكون معجزا لصرف الله عقول العقلاء عن الاتيان بمثله وعقله ألسنتهم عن النطق بما يقرب منه ومنع القادر من الاتيان بالمقدور كاتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره فان من قال لغيره انا احرك هذا الجبل يستبعد منه وكذا اذا قال انى افعل فعلا لا يقدر الخلق على حمل تفاحة من

(موضعها)

موضعها يستبعد منه على ان كل واحد فعل معجز اذا اتصل بالدعوى وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى ان يقال هو معجز بهما جميعا ❁ ثم قال تعالى (ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون) ومن ههنا لاخلاف ان ام ليست بمعنى بل لكن اكثر المفسرين على ان المراد ما يقع فى صدر الكلام من الاستفهام اما بالهمزة فكأنه يقول أخلقوا من غير شئ او هل ويحتمل ان يقال هو على اصل الوضع للاستفهام الذى يقع فى اثناء الكلام وتقديره أما خلقوا ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله عن ذلك ذكر الدليل على صدقه ابطالا لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم كأنه يقول كيف يكذبونه وفى انفسهم دليل صدقه لان قوله فى ثلاثة اشياء فى التوحيد والحشر والرسالة ففى انفسهم ما يعلم به صدقه وبيانه هو انهم خلقوا وذلك دليل التوحيد لما بينا ان فى كل شئ له آية تدل على انه واحد • وقد بينا وجهه مرارا فلا نعيده واما الحشر فلأن الخلق الاول دليل على جواز الخلق الثانى وامكانه ويدل على ما ذكرنا ان الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله ام لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون (٢) (المسئلة الثانية) اذا كان الامر على ما ذكرت فلم حذف قوله أما خلقوا نقول لظهور انتفاء ذلك ظهورا لا يبقى معه للخلاف وجه فان قيل فلم يصدر بقوله أما خلقوا ويقول ام خلقوا من غير شئ نقول ليعلم ان قبل هذا امرا منفيا ظاهرا وهذا المذكور قريب منه فى ظهور البطلان فان قيل قوله ام خلقوا من غير شئ ايضا ظاهر البطلان لانهم علموا انهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة نقول الاول اظهر فى البطلان لان كونهم غير مخلوقين امر يكون مدعيه منكرا للضرورة فمنكره منكر لامر ضرورى (المسئلة الثالثة) ما المراد من قوله تعالى من غير شئ نقول فيه وجوه المنقول منها انهم خلقوا من غير خالق وقيل انهم خلقوا لا لشئ عبثا وقيل انهم خلقوا من غير أب وأم ويحتمل ان يقال ام خلقوا من غير شئ اى أم يخلقوا من تراب او من ماء دليله قوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين ويحتمل ان يقال الاستفهام الثانى ليس بمعنى النفى بل هو بمعنى الاثبات قال الله تعالى أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون أأنتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشؤن كل ذلك فى الاول منفى وفى الثانى مثبت كذلك ههنا قال الله تعالى ام خلقوا من غير شئ اى الصادق هو هذا الثانى حينئذ وهذا كما فى قوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا فان قيل كيف يكون ذلك الاثبات والآدمى خلق من تراب نقول والتراب خلق من غير شئ فالانسان اذا نظرت الى خلقه واسندت النظر الى ابتداء امره وجدته خلق من غير شئ او نقول المراد أم خلقوا من غير شئ مذكور او معتبر وهو الماء المهين (المسئلة الرابعة) ما الوجه فى ذكر الامور الثلاثة التى فى الآية نقول هى امور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها وقال أما خلقوا

(ام خلقوا من غير شئ) اى ام احدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث ومقدر وقيل ام خلقوا من اجل لا شئ من عبادة وجزاء (ام هم الخالقون) لانفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه

(٢) لعله ترك الثالث لظهوره وهو انه اذا ثبت حقية المبدأ والمعاد ثبت حقية امر الرسالة الخ ما ذكره زاده فراجعه

قوله فان قيل فلم يصدر الخ لا يخفى ان هذا عين ما قبله فتأمل

اصلا ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الايجاد وهو الخلق وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الاول ام خلقوا من غير شئ اى ام يقولون بأنهم خلقوا لا لشئ فلا اعادة كما قال أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وعلى قولنا ان المراد خلقوا لا من تراب ولا من ماء فله وجه ظاهر وهو ان الخلق اذا لم يكن من شئ بل يكون ابداعيا يخفى كونه مخلوقا على بعض الاغبياء ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقا ووجد من غير خالق واما الانسان الذى يكون اولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما لا يتمكن احد من انكاره بعد مشاهدة تغير احواله فقال تعالى ام خلقوا بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها ترابا ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيأ من تلك الاشياء خلقوا منه خلقا فما خلقوا من غير شئ حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق ولهذا اكثر الله من قوله خلقنا الانسان من نطفة وقوله ألم نخلقكم من ماء مهين يتناول الامرين المذكورين فى هذا الموضع لان قوله ألم نخلقكم من ماء يحتمل ان يكون نفى المجموع بنفى الخلق فيكون كأنه قال أخلقتم لا من ماء وعلى قول من قال المراد منه ام خلقوا من غير شئ اى من غير خالق ففيه ترتيب حسن ايضا وذلك لان نفى الصانع اما ان يكون بنفى كون العالم مخلوقا فلا يكون ممكنا واما ان يكون ممكنا لكن الممكن لا يكون محتاجا فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال واما قوله تعالى ام هم الخالقون فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل فان دأب الانسان انه يعيى بالخلق فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم اله البتة ام خلقوا وخفى عليهم وجه الخلق ام جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا اليه العجز ومثله قوله تعالى افعيينا بالخلق الاول هذا بالنسبة الى الحشر واما بالنسبة الى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الامور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا أجعل الآلهة الها واحدا فقال تعالى ام هم الخالقون حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشغله شأن عن شأن * ثم قال تعالى (ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون) وفيه وجوه (احدها) ما اختاره الزمخشرى وهو انهم لا يوقنون بانهم خلقوا وهو حينئذ فى معنى قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله اى هم معترفون بانه خلق الله وليس خلق انفسهم (وثانيها) المراد بل لا يوقنون بان الله واحد وتقديره ليس الامر كذلك اى ما خلقوا وانما لا يوقنون بوحدة الله (وثالثها) لا يوقنون اصلا من غير ذكر مفعول يقال فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر لبيان مذهبه وان لم ينو مفعولا وكذلك قول القائل فلان يؤذى ويؤدى لبيان ما فيه لا مع القصد الى ذكر مفعول وحينئذ يكون تقديره انهم ما خلقوا السموات والارض ولا يوقنون بهذه الدلائل بل لا يوقنون اصلا وان جئتهم بكل آية يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم وهذه الآية اشارة الى دليل الآفاق وقوله من قبل

(ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون) اى اذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والارض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا والا لما اعرضوا عن عبادته

أم خلقوا دليل الانفس * ثم قال تعالى (ام عندهم خزائن ربك ام هم المسيطرون) وفيه وجوه (احدها) المراد من الخزائن خزائن الرحمة (ثانيها) خزائن الغيب (ثالثها) انه اشارة الى الاسرار الالهية المخفية عن الاعيان (رابعها) خزائن المخلوقات التى لم يرها الانسان ولم يسمع بها وهذه الوجوه الاول والثانى منقول والثالث والرابع مستنبط وقوله تعالى أم هم المسيطرون تتمة للرد عليهم وذلك انه لما قال ام عندهم خزائن ربك اشار الى انهم ليسوا بخزنة الله فيعلموا خزائن الله وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفى العلم لجواز ان يكون مشرفا على الخزانة فان العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب فى الخزانة فقال لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة لان التركيب يدل على السطر وهو يستعمل فى الكتاب وقيل المسيطر المسلط وقرئ بالصاد وكذلك فى كثير من السينات التى مع الطاء كما فى قوله تعالى بمسيطر ومصيطر * ثم قال تعالى (ام لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) وهو ايضا تتميم للدليل فان من لا يكون خازنا ولا كاتبا قد يطلع على الامر بالسماع من الخازن او الكاتب فقال انتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتماع بهم لانهم ملائكة ولا صعود لكم اليهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود نفى الصعود ولا يلزم من نفى السلم لهم نفى الصعود فالجواب عنه نقول النفى ابلغ من نفى الصعود وهو نفى الاستماع وآخر الآية شامل للكل قال تعالى فليأت مستمعهم بسلطان مبين (المسئلة الثانية) السلم لا يستمع فيه وانما يستمع عليه فما الجواب نقول من وجهين (احدهما) ماذكره الزمخشرى ان المراد يستمعون صاعدين فيه (وثانيهما) ماذكره الواحدى ان فى بمعنى على كما فى قوله تعالى ولاصلبنكم فى جذوع النخل اى على جذوع النخل وكلاهما ضعيف لما فيه من الاضمار والتغيير (المسئلة الثالثة) لم ترك ذكر مفعول يستمعون وماذا هو نقول فيه وجوه (احدها) المستمع هو الوحى اى هل لهم سلم يستمعون فيه الوحى (ثانيها) يستمعون مايقولون من انه شاعر وان لله شريكا وان الحشر لا يكون (ثالثها) ترك المفعول رأسا كأنه يقول هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا انه ليس برسول وكلامه ليس بمرسل (المسئلة الرابعة) قال فليأت مستمعهم ولم يقل فليأتوا كما قال تعالى فليأتوا بحديث مثله نقول طلب منهم مايكون اهون على تقدير صدقهم ليكون اجتماعهم عليه ادل على بطلان قولهم فقال هناك فليأتوا اى اجتمعوا عليه وتعاونوا وأتوا بمثله فان ذلك عند الاجتماع اهون واما الارتقاء فى السلم بالاجتماع متعذر لانه لا يرتقى الا واحد بعد واحد ولا يحصل فى الدرجة العليا الا واحد فقال فليأت ذلك الواحد الذى كان اشد رقيا بما سمعه (المسئلة الخامسة) قوله بسلطان مبين ما المراد به نقول هو اشارة الى لطيفة وهى انه لو طلب منهم ماسمعوه وقيل لهم فليأت مستمعهم بما سمع لكان لواحد ان يقول انا سمعت كذا وكذا فيفترى كذبا فقال لا بل الواجب ان يأتى بدليل يدل عليه * ثم قال تعالى (أم له البنات ولكم البنون) اشارة الى نفى

(أم عندهم خزائن ربك) اى خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاؤا ويمسكوها عمن شاؤا اوأعندهم خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره (أم هم المسيطرون) اى الغالبون على الامور يدبرونها كيفما شاؤا حتى يدبروا امر الربوبية ويبنوا الامور على ارادتهم ومشيئتهم وقرئ المصيطرون بالصاد لمكان الطاء (أم لهم سلم) منصوب الى السماء (يستمعون فيه) صاعدين الى كلام الملائكة ومايوحى اليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن من الامور التى يتقولون فيها رجما بالغيب ويعلقون بها اطماعهم الفارغة (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدق استماعه (أم له البنات ولكم البنون) تسفيه لهم وتركيك لعقولهم وايذان بان من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقى الى عالم الملكوت والتطلع على الاسرار الغيبية والالتفات الى الخطاب لتشديد مافى أم المنقطعة من الانكار والتوبيخ

الشرك وفساد مايقولون بطريق آخر وهو ان المتصرف انما يحتاج الى الشريك لعجزه والله قادر فلا شريك له فانهم قالوا نحن لانجعل هذه الاصنام وغيرها شركاء وانما نعظمها لانها بنات الله فقال تعالى كيف تجعلون لله البنات وخلق البنات والبنين انما كان لجواز الفناء على الشخص ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الاصل من غير ان يقوم مقامه الفصل فقدر الله التوالد ولهذا لايكون في الجنة ولادة لان الدار دار البقاء لاموت فيها للآباء حتى تقام العمارة بحدوث الابناء اذا ثبت هذا فالولد انما يكون في صورة امكان فناء الاب ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران الحي القيوم اى حي لايموت فيحتاج الى ولد يرثه وهو قيوم لايتغير ولايضعف فيفتقر الى ولد ليقوم مقامه لانه ورد في نصارى نجران ثم ان الله تعالى بين هذا بأبلغ الوجوه وقال انهم يجعلون له بنات ويجعلون لانفسهم بنين مع ان جعل البنات لهم أولى وذلك لان كثرة البنات تعين على كثرة الاولاد لان الاناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد واما الذكور الكثيرة لايمكن منهم احبال انثى واحدة بأولاد الاترى ان الغنم لايذبح منها الاناث الانادرا وذلك لمائبت ان ابقاء النوع بالانثى انفع نظرا الى التكثير فقال تعالى انا القيوم الذى لافناء لى ولاحاجة لى فى بقاء النوع فى حدوث الشخص وانتم معرضون للموت العاجل وبقاء العالم بالاناث اكثر وتبرؤن منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات وعلى هذا فما تقدم كان اشارة الى نفى الشريك نظرا الى انه لا ابتداء لله وهذا اشارة الى نفى الشريك نظرا الى انه لافناء له فان قيل كيف وقع لهم نسبة البنات الى الله تعالى مع ان هذا امر فى غاية القبح لايخفى على عاقل والقوم كان لهم العقول التى هى مناط التكليف وذلك القدر كاف فى العلم بفساد هذا القول نقول ذلك القول دعاهم اليه اتباع العقل وعدم اعتبار النقل ومذهبهم فى ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون يجب اتباع العقل الصريح ويقولون النقل بمعزل لايتبع الا اذا وافق العقل واذا وافق فلا اعتبار للنقل لان العقل هناك كاف ثم قالوا الوالد يسمى والدا لانه سبب وجود الولد ولهذا يقال اذا ظهر شئ من شئ هذا تولد من ذلك فيقولون الحمى تولدت من عفونة الخلط فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سببا واجبا لااختيار له فسموه بالوالد ولم يلتفتوا الى وجوب تنزيه الله فى تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص ووجوب الاقتصار فى اسمائه على الاسماء الحسنى التى وردبها الشرع لعدم اعتبارهم النقل فقالوا يجوز اطلاق الاسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته فسموه عاشقا ومعشوقا وسموه ابا ووالدا ولم يسموه ابنا ولا مولودا باتفاقهم وذلك ضلالة ❊ ثم قال تعالى (ام تسألهم اجرا فهم من مغرم مثقلون) وجه التعلق هو ان المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ماظنوه عقلا وسموا الموجود بعد العدم مولودا ومتولدا والموجد والدا لزمهم الكفر بسببه والاشراك فقال لهم ماالذى يحملكم على اطراح الشرع وترك اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هل ذلك لطلبه منكم

(أم تسألهم اجرا) رجوع الى خطابه عليه الصلاة والسلام واعراض عنهم اى بل أتسألهم اجرا على تبليغ الرسالة (فهم) لذلك (من مغرم) من التزام غرامة فادحة (مثقلون) محملون الثقل فلذلك لايتبعونك

شيئا فما كان يسعهم ان يقولوا نعم فلم يبق لهم الا ان يقولوا لا فنقول لهم كيف اتبعتم قول الفلسفي الذي يسوغ لكم قول الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظا ان لم يكن معنى كما تقولون ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والاحسان في اللفظ ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ الحسن المؤدب وهذا في غاية الحسن من التقدير * واما التفسير ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال ام تسألهم ولم يقل ام يسألون اجرا كما قال تعالى ام يقولون وقال تعالى ام يريدون كيدا الى غير ذلك نقول فيه فائدتان (احداهما) تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ربه انت اتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم وانما كنت تلام لو كنت طلبت منهم اجرا فهل طلبت ذلك فأثقلهم لا فلا حرج عليك اذا (ثانيتهما) انه لو قال ام يسألون لزم نفي طلب اجر مطلقا وليس كذلك وذلك لانهم كانوا يشركون ويطالبون بالاجر من رؤسائهم واما النبي صلى الله عليه وسلم فقال له انت لا تسألهم اجرا فهم لا يتبعونك وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين وهذا غاية الضلال (المسئلة الثانية) ان قال قائل ألزمت ان تبين ام لا تقع الا متوسطة حقيقة او تقديرا فكيف ذلك ههنا نقول كأنه تعالى يقول أتهديهم لوجه الله ام تسألهم اجرا وترك الاول لعدم وقوع الانكار عليه كما قلنا في قوله ام له البنات ان المقدر أهو واحد ام له البنات وترك ذكر الاول لعدم وقوع الانكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بانه لا يريد وجه الله تعالى وانما يريد الرياسة والاجر في الدنيا (المسئلة الثالثة) هل في خصوص قوله تعالى اجرا فائدة لا توجد في غيره لو قال ام تسألهم شيئا او مالا او غير ذلك نقول نعم وقد تقدم القول مني ان كل لفظ في القرآن فيه فائدة وان كنا لا نعلمها والذي يظهر ههنا ان ذلك اشارة الى ان ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فيه مصلحتهم وذلك لان الاجر لا يطلب الا عند فعل شئ يفيد المطلوب منه الاجر فقال انت أتيتهم بما لو طلبت عليه اجرا وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم لأتوك بجميع اموالهم ولفدوك بأنفسهم ومع هذا لا تطلب منهم اجرا ولو قال شيئا او مالا لما حصلت هذه الفائدة والله اعلم (المسئلة الرابعة) هذا يدل على انه لم يطلب منهم اجرا ما وقوله تعالى قل لا اسئلكم عليه اجرا الا المودة في القربى يدل على انه طلب اجرا ما فكيف الجمع بينهما نقول لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد وبيانه هو ان المراد من قوله الا المودة في القربى هو اني لا اسئلكم عليه اجرا يعود الى الدنيا وانما اجري المحبة في الزلفى الى الله تعالى وان عباد الله الكاملين اقرب الى الله تعالى من عباده الناقصين وعباد الله الذين كلمهم الله وكملوه وارسلهم لتكميل عباده فكملوا أقرب الى الله من الذين لم يرسلهم الله ولم يكملوا او على هذا فهو في معنى قوله ان اجري الا على الله واليه

أمتى وقوله صلى الله عليه وسلم فانى اباهى بكم الامم يوم القيامة وقوله فهم من مغرم مثقلون بين ماذكرنا ان قوله ام تسألهم اجرا المراد اجر الدنيا وقوله قل لا اسئلكم عليه اجرا المراد العموم ثم استثنى ولا حاجة الى ماقاله الواحدى ان ذلك منقطع معناه لكن المودة فى القربى وقد ذكرناه هناك فليطلب منه (المسئلة الخامسة) قوله تعالى فهم من مغرم مثقلون اشارة الى انه صلى الله عليه وسلم ماطلب منهم شيئا ولو طالبهم باجر ما كان لهم ان يتركوا اتباعه بادنى شئ اللهم الا ان اثقلهم التكليف ويأخذ كل مالهم ويمنعهم التخليف فيثقلهم الدين بعد مالا يبقى لهم العين * ثم قال تعالى (ام عندهم الغيب فهم يكتبون) وهو على الترتيب الذى ذكرناه كأنه تعالى قال لهم بم اطرحتم الشرع ومحاسنه وقلتم ماقلتم بناء على اتباعكم الاوهام الفاسدة التى تسمونها المعقولات والنبى صلى الله عليه وسلم لا يطلب منكم اجرا وانتم لا تعلمون فلا عذر لكم لان العذر اما فى الغرامة واما فى عدم الحاجة الى ماجاء به ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف التقدير قلنا لا حاجة الى التقدير بل هو استفهام متوسط على ماذكرنا كأنه قال اتهديهم لوجه الله تعالى ام تسألهم اجرا فيمتنعون ام لا حاجة لهم الى ماتقول لكونهم عندهم الغيب فلا يتبعون (المسئلة الثانية) الالف واللام فى الغيب لتعريف ماذا الجنس اولعهد نقول الظاهر ان المراد نوع الغيب كما يقول القائل اشتر اللحم يريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحما معينا والمراد فى قوله تعالى عالم الغيب والشهادة الجنس واستغراقه لكل غيب (المسئلة الثالثة) على هذا كيف يصح عندهم الغيب وماعند الشخص لا يكون غيبا نقول معناه حضر عندهم ماغاب عن غيرهم وقيل هذا متعلق بقوله نتربص به ريب المنون اى أعندكم الغيب تعلمون انه يموت قبلكم وهو ضعيف لبعد ذلك ذكرا ولان قوله تعالى قل تربصوا متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك (المسئلة الرابعة) ماالفائدة فى قوله فهم يكتبون نقول وضوح الامر واشارة الى ان ماعند النبى صلى الله عليه وسلم من علم الغيب علم بالوحى امورا واسرارا واحكاما واخبارا كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس الامر كذا وكذا فان قيل اكتب به خطك انه يكون يمتنع ويقول انا لا ادعى فيه الجزم والقطع ولكن اذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط وان كان قاطعا يقول اكتبوا هذا عنى واثبتوا فى الدواوين ان فى اليوم الفلانى يقع كذا وكذا فقوله ام عندهم الغيب فهم يكتبون يعنى هل صاروا فى درجة محمد صلى الله عليه وسلم حتى استغنوا عنه واعرضوا ونقل عن ابن قتيبة ان المراد من الكتابة الحكم معناه يحكمون وتمسك بقوله صلى الله عليه وسلم اقض بيننا بكتاب الله اى حكم الله وليس المراد ذلك بل هو من باب الاضمار معناه بما فى كتاب الله تعالى يقال فلان يقضى بمذهب الشافعى اى بما فيه ويقول الرسول الذى معه كتاب الملك للرعية اعملوا بكتاب الملك * ثم قال تعالى (ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون)

(أم عندهم الغيب) اى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب (فهم يكتبون) مافيه حتى يتكلموا فى ذلك بنفى اواثبات (ام يريدون كيدا) هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة (فالذين كفروا) هم المذكورون ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر

وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماوجه التعلق والمناسبة بين الكلامين قلنا بين ذلك ببيان المراد من قوله ام يريدون كيدا فبعض المفسرين قال ام يريدون ان يكيدوك فهم المكيدون اى لايقدرون على الكيد فان الله يصونك بعينه وينصرك بصونه وعلى هذا اذا قلنا بقول من يقول ام عندهم الغيب متصل بقوله تعالى نتربص به ريب المنون فيه ترتيب فى غاية الحسن وهو انهم لما قالوا نتربص به ريب المنون قيل لهم أتعلمون الغيب فتعلمون انه يموت قبلكم ام تريدون كيدا فتقولون نقتله فيموت قبلنا فان كنتم تدعون الغيب فانتم كاذبون وان كنتم تظنون انكم تقدرون عليه فانتم غالطون فان الله يصونه عنكم وينصره عليكم واما على ماقلنا ان المراد منه انه صلى الله عليه وسلم لايسألكم على الهداية مالا وانتم لاتعلمون ماجاء به لولا هدايته لكونه من الغيوب فنقول فيه وجوه (الاول) ان المراد من قوله تعالى ام يريدون كيدا اى من الشيطان وازاغته فيحصل مرادهم كأنه تعالى قال انت لاتسألهم اجرا وهم لايعلمون الغيب فهم محتاجون اليك واعرضوا فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بازاغته والارادة بمعنى الاختيار والمحبة كما قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه وكما قال أئفكا آلهة دون الله تريدون واظهر من ذلك قوله تعالى انى اريد ان تبوء باثمى واثمك (الوجه الثانى) ان يقال ان المراد والله اعلم ام يريدون كيد الله فهو واصل اليهم وهم عن قريب مكيدون وترتيب الكلام هو انهم لما لم يبق لهم حجة فى الاعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم والله ارسل اليهم رسولا لايسألهم اجرا ويهديهم الى مالاعلم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون فهم يريدون اذا ان يهلكهم ويكيدهم لان الاستدراج كيد والاملاء لازدياد الاثم كذلك لايقال هو فاسد لان الكيد والاساءة لايطلق على فعل الله تعالى الا بطريق المقابلة وكذلك المكر فلايقال اساء الله الى الكفار ولا اعتدى الله الا اذا ذكر اولا فيهم شئ من ذلك ثم قال بعد ذلك بسببه لفظا فى حق الله تعالى كما فى قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقال فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ومكروا ومكر الله وقال يكيدون كيدا واكيد كيدا لانا نقول الكيد مايسوء من نزل به وان حسن ممن وجد منه ألا ترى ان ابراهيم عليه السلام قال لأكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين من غير مقابلة (المسئلة الثانية) ماالفائدة فى قوله تعالى فالذين كفروا هم المكيدون ومالفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل ام يريدون كيدا فهم المكيدون نقول الفائدة كون الكافر مكيدا فى مقابلة كفره لا فى مقابلة ارادته الكيد ولو قال ام يريدون كيدا فهم المكيدون كان يفهم منه انهم ان لم يريدوه لايكونوا مكيدين وهذا يؤيد ماذكرنا ان المراد من الكيد كيد الشيطان او كيد الله بمعنى عذابه اياهم لان قوله فالذين كفروا هم المكيدون عام فى كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله اى يعذبه وصار المعنى على ماذكرناه أتهديهم لوجه الله ام تسألهم اجرا فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع

وتعليل الحكم به اوجبع الكفرة وهم داخلون فيهم دخولا اوليا (هم المكيدون) اى هم الذين يحيق بهم كيدهم اويعود عليهم وباله لامن أرادوا ان يكيدوه وهو ماصابهم يوم بدر اوهم المغلوبون فى الكيد من كايدته فكدته

ام عندهم الغيب فلا يحتاجون اليك فيعرضون عنك ام ليس شئ من هذين الامرين الاخيرين فيريدون العذاب والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم فالذين كفروا معذبون (المسئلة الثالثة) ما الفائدة فى تنكير الكيد حيث لم يقل ام يريدون كيدك او الكيد اوغير ذلك ليزول الابهام نقول فيه فائدة وهى الاشارة الى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون فكأنه قال يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم او يكون ايرادا لعظمته كما ذكرنا مرارا ❊ ثم قال تعالى (ام لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون) اعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى ام له البنات ولكم البنون وفى سبحان الله بحث شريف وهو ان اهل اللغة قالوا سبحان اسم علم للتسبيح وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون واكثرنا من الفوائد فان قيل يجوز ان تقول سبحان اسم مصدر وتقول سبحان على وزن فعلان فتذكر سبحان فى غير مواضع الايقاع لله كما يقال فى التسبيح تقول ذلك مثل قول القائل من حرف جر وفى كلمة ظرف حيث يخبر عنه مع ان الحرف لا يخبر عنه فيجاب بأن من وفى حينئذ جعلا كالاسم ولم يتركا على اصلهما المستعمل فى مثل قولك اخذت من زيد والدرهم فى الكيس فكذلك سبحان فيما ذكر من المواضع لم يترك على مواضع استعماله فانه حينئذ لم يترك علما كما يقال زيد على وزن فعل بخلاف التسبيح فيما ذكرنا (المسئلة الرابعة) ما فى قوله تعالى عما يشركون يحتمل وجهين (احدهما) ان تكون مصدرية معناه سبحانه عن اشراكهم (ثانيهما) خبرية معناه عن الذين يشركون وعلى هذا فيحتمل ان يكون عن الولد لانهم كانوا يقولون البنات لله فقال سبحان الله عن البنات والبنين ويحتمل ان يكون عن مثل الآلهة لانهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال سبحان الله عن مثل ما يعبدونه ❊ ثم قال تعالى (وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) وجه الترتيب فيه هو انه تعالى لما بين فساد اقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار اشار الى انه لم يبق لهم شئ من وجه الاعتذار فان الآيات ظهرت والحجج تميزت ولم يؤمنوا وبعد ذلك ان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب اى ينكرون الآية لكن الآية اذا اظهرت فى اظهر الاشياء كانت اظهر وبيانه هو ان من يأتى بجسم من الاجسام من بيته وادعى فيه انه فعل به كذا فربما يخطر ببال السامع انه فى بيته ولما يبدعه فاذا قال للناس هاتوا جسما تريدون حتى اجعل لكم منه كذا يزول ذلك الوهم لكن اظهر الاشياء عند الانسان الارض التى هى مهده وفرشه والسماء التى هى سقفه وعرشه وكانت العرب على مذهب الفلاسفة فى اصل المذهب ولا يلتفت الى قول الفلسفى نحن ننزه غاية التنزيه حتى لا تجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحدا فى الحقيقة فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنما منحوتا نقول انتم لما نسبتم الحوادث الى الكواكب وشرعتم فى دعوة الكواكب اخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهبا

(ام لهم اله غير الله) يعينهم ويحرسهم من عذابه (سبحان الله عما يشركون) اى عن اشراكهم اوعن شركة ما يشركونه (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا) لتعذيبهم (يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم (سحاب مركوم) اى هم فى الطغيان بحيث لو اسقطناه عليهم حسبما قالوا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا لقالوا هذا سحاب تراكم بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا انه كسف ساقط للعذاب

واذا ثبت ان العرب فى الجاهلية كانت فى الاصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون الارض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفكاك فقال الله تعالى ردا عليهم فى مواضع ان نشا نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ابطالا للطبائع واثارا للاختيار فى الوقائع فقال ههنا ان أتينا بشئ غريب فى غاية الغرابة فى اظهر الاشياء وهو السماء التى يرونها ابدا ويعلمون ان احدا لايصل اليها بعمل بالادوية وغيرها مايوجب سقوطها لانكروا ذلك فكيف فيما دون ذلك من الامور والذى يؤيد ماذكرناه وانهم كانوا على مذهب الفلاسفة فى امر السماء انهم قالوا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا اى ذلك فى زعمك ممكن فاما عندنا فلا والكسفة القطعة يقال كسفة من ثوب اى قطعة وفيه مباحث (البحث الاول) استعمل فى السماء لفظة الكسف واللغويون ذكروا استعمالها فى الثوب لان الله تعالى شبه السماء بالثوب المنشور ولهذا ذكره فيما مضى فقال والسموات مطويات وقال تعالى يوم نطوى السماء (البحث الثانى) استعمل الكسف فى السماء والخسف فى الارض فقال تعالى نخسف بهم الارض وهو يدل على قول من قال يقال فى القمر خسوف وفى الشمس كسوف ووجهه ان مخرج الخاء دون مخرج الكاف ومخرج الكاف فوقه متصل به فاستعمل وصف الاسفل للاسفل والاعلى للاعلى فقالوا فى الشمس والسماء الكسوف والكسف وفى القمر والارض الخسوف والخسف وهذا من قبيل قولهم فى الماتح والمايح ان مانقطه فوق لمن فوق البئر ومانقطه من اسفل عند من يجوز نقطه من اسفل لمن تحت فى اسفل البئر (البحث الثالث) قال فى السحاب ونجعله كسفا مع انه تحت القمر وقال فى القمر وخسف القمر وذلك لان القمر عند الخسوف له نظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف والسحاب اعتبر فيه نسبته الى اهل الارض حيث ينظرون اليه فلم يقل فى القمر خسف بالنسبة الى السحاب وانما قيل ذلك بالنسبة الى الشمس وفى السحاب قيل بالنسبة الى الارض (المسئلة الثانية) ساقطا يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون مفعولا ثانيا يقال رأيت زيدا عالما (وثانيهما) ان يكون حالا كما يقال ضربته قائما والثانى أولى لان الرؤية عند التعدى الى مفعولين فى اكثر الامر تكون بمعنى العلم تقول أرى هذا المذهب صحيحا وهذا الوجه ظاهرا وعند التعدى الى واحد تكون بمعنى رأى العين فى الاكثر تقول رأيت زيدا وقال تعالى لما رأوا بأسنا وقال فاما ترين من البشر احدا والمراد فى الآية رؤية العين (المسئلة الثالثة) فى قوله ساقطا فائدة لاتحصل فى غير السقوط وذلك لان عندهم لايجوز الانفصال على السموات ولايمكن نزولها وهبوطها فقال ساقطا ليكون مخالفا لما يعتقدونه من وجهين (احدهما) الانفصال (والآخر) السقوط ولو قال وان يروا كسفا منفصلا او معلقا لما حصلت هذه الفائدة (المسئلة الرابعة) فى قوله يقولوا فائدة أخرى وذلك لانه يفيد بيان العناد الذى هو مقصود

سرد الآية وذلك لانهم فى ذلك الوقت يستخرجون وجوها حتى لايلزمهم التسليم فيقولون سحاب قولا من غير عقيدة وعلى هذا يحتمل ان يقال وان يروا المراد العلم ليكون ادخل فى العناد اى اذا علموا وتيقنوا ان السماء ساقطة غيروا وعاندوا وقالوا هذا سحاب مركوم (المسئلة الخامسة) قوله تعالى يقولوا سحاب مركوم اشارة الى انهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم ان يقولوا لم يقع شئ على الارض يرجعون الى التأويل والتخييل وقوله مركوم اى مركب بعضه على بعض كأنهم يدفعون عن انفسهم مايورد عليهم بأن السحاب كالهواء لايمنع نفوذ الجسم فيه وهذا اقوى مانع فيقولون انه ركام فصار صلبا قويا (المسئلة السادسة) فى اسقاط كلمة الاشارة حيث لم يقل يقولوا هذا اشارة الى وضوح الامر وظهور العناد فلا يستحسنون ان يأتوا بما لايبقى معه مراء فيقولون سحاب مركوم مع حذف المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقولون عند تكذيب الخلق اياهم قلنا سحاب مركوم شبهه ومثله وان تمشى الامر مع عوامهم استمروا وهذا مجال من يخاف من كلام ولايعلم انه يقبل منه اولا يقبل فيجعله ذا وجهين فان رأى النكر على احدهما فسره بالآخر وان رأى القبول خرج بمراده ❊ ثم قال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) اى اذا تبين انهم لايرجعون فدعهم حتى يلاقوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فذرهم امر وكان يجب ان يقال لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم جواز دعائهم الى الاسلام وليس كذلك والجواب عنه من وجوه (احدها) ان هذه الآيات مثل قوله تعالى فاعرض وتول عنهم الى غير ذلك كلها منسوخة بآية القتال وهو ضعيف (ثانيها) ليس المراد الامر وانما المراد التهديد كما يقول سيد العبد الجانى لمن ينصحه دعه فانه سينال وبال جنايته (ثالثها) ان المراد من يعاند وهو غير معين والنبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو الخلق على سبيل العموم ويجوز ان يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لامن ظهر عناده فلم يقل الله فى حقه فذرهم ويدل على هذا انه تعالى قال من قبل فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون وقال ههنا فذرهم فمن يذكرهم هم المشفقون الذين قالوا انا كنا قبل فى اهلنا مشفقين ومن يذرهم الذين قالوا شاعر نتربص به ريب المنون الى غير ذلك (المسئلة الثانية) حتى للغاية فيكون كأنه تعالى قال ذرهم الى ذلك اليوم ولاتكلمهم ثم ذلك اليوم تجدد الكلام وتقول الم اقل لكم ان الساعة آتية وان الحساب يقوم والعذاب يدوم فلا تكلمهم الى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم (ثانيها) ان المراد من حتى الغاية التى يستعمل فيها اللام كما يقول القائل لاتطعمه حتى يموت اى ليموت لان اللام التى للغرض عندها ينتهى الفعل الذى للغرض فيوجد فيها معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيهما ولعل المراد من قوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين هذا اى الى ان يأتيك اليقين فان قيل فمن لايذره ايضا يلاقى ذلك اليوم نقول المراد من قوله يصعقون يهلكون فالمذكر المشفق لايهلك ويكون مستثنى منهم كما قال

(فذرهم حتى يلاقوا) وقرئ حتى يلقوا (يومهم الذى فيه يصعقون) على البناء للمفعول من صعقته الصاعقة او من اصعقته وقرئ يصعقون بفتح الياء والعين وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر لا النفخة الاولى كما قيل اذ لايصعق بها الا من كان حيا حينئذ ولان قوله تعالى

تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وقد ذكرنا هناك ان من اعترف بالحق وعلم ان يوم الحساب كائن فاذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم ان الرعد يرعد ويستعد لسماعه ومن لايعلم يكون كالغافل فاذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم وحينئذ لايكون التوعد بملاقاة يومهم لان كل احد يلاقى يومه وانما يكون بملاقاة يومهم الذى فيه يصعقون اى اليوم الموصوف بهذه الصفة وهذا كما قال تعالى لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فان المنفى ليس النبذ بالعراء لانه تحقق بدليل قوله تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانما المنفى النبذ الذى يكون هو معه مذموما وهذا لم يوجد (المسئلة الثالثة) حتى ينصب مابعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع اخرى والفاصل بينهما ان الفعل اذا كان مستقبلا منتظرا لايقع فى الحال ينصب تقول تعلمت الفقه حتى ترفع درجتى فانك تنتظره وان كان حالا يرفع تقول اكررحتى تسقط قوتى ثم انام والسبب فيه هو ان حتى فى المستقبل للغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل تقول لم تبنى الدار يقول للسكنى فصار قوله حتى ترفع كقوله لارفع وفيهما اضمار ان فان قيل ماقلت شيئا وما ذكرت السبب فى النصب عند ارادة الاستقبال والرفع عند ارادة الحال نقول الفعل المستقبل اذا كان منتظرا وكان نصب العين ومنصوبا لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان فى معناه ولهذا قالوا فى الاضافة ان المضاف لما جر امرا الى امر فى المعنى جره فى اللفظ والذى يؤيد ماذكرنا ان الفعل انما ينصب بأن ولن وكى واذن وخلوص الفعل للاستقبال فى هذه المواضع لازم والحرف الذى يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لايجوز ان تقول ان فلانا ليضرب فان قيل السين وسوف مع انهما يخلصان الفعل للاستقبال لاينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما فى قوله تعالى علم ان سيكون منكم مرضى نقول سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وان لن بمعنى لايصح الا فى الاستقبال فلم يثبت بالسين الا الاستقبال ولم يثبت به معنى فى الاستقبال والمنتظر هو ما فى الاستقبال لانفس الاستقبال مثاله اذا قلت اعبدالله كى يغفرلى اوليغفرلى اثبتت كى غرضا وهو المغفرة وهى فى المستقبل من الزمان واذا قلت استغفرك ربى اثبتت السين استقبال المغفرة وفرق بين مايكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال لكن الاستقبال لايوجد الا فى معنى فاتى بالمعنى ليبين به الاستقبال وبين مايكون المقصود منه معنى فى المستقبل فتذكر الاستقبال ليبين محل مقصودك ❊ ثم قال تعالى (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا ولاهم ينصرون) لما قال يلاقوا يومهم وكل بر وفاجر يلاقى يومه اعاد صفة يومهم وذكر ماتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال يوم لايغنى وهو يخالف يوم المؤمنين فانه تعالى قال فيه هذا يوم ينفع الصادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى يوم لايغنى وجهان الاول بدل عن قوله يومهم ثانيهما ظرف يلاقوا اى يلاقوا يومهم يوم فان قيل هذا يلزم منه ان يكون اليوم فى يوم فيكون اليوم

(يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا) اى شيئا من الاغناء بدل من يومهم ولايخفى ان التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا فى الانتفاع به وليس ذلك الا ما دبروه فى امره صلى الله عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر واما النفخة الاولى فليست مما يجرى فى مدافعته الكيد والحيل وقيل هو يوم موتهم وفيه ما فيه مع ما تأباه الاضافة المنبئة عن اختصاصه بهم (ولاهم ينصرون) من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم

ظرف اليوم نقول هو على حدقول من يقول يأتى يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه ولامانع منه وقدذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفا فى قوله تعالى يومئذ وجواز اضافة اليوم الى الزمان مع انه زمان (المسئلة الثانية) قال تعالى يوم لايغنى عنهم كيدهم ولم يقل يوم لايغنيهم كيدهم مع ان الاغناء يتعدى بنفسه لفائدة جليلة وهى ان قول القائل اغنانى كذا يفهم منه انه نفعنى وقوله اغنى عنى يفهم منه انه دفع عنى الضرر وذلك لان قوله اغنانى معناه فى الحقيقة افادنى غير مستفيد وقول اغنى عنى اى لم يحوجنى الى الحضور فأغنى غيرى عن حضورى يقول من يطلب لامر خذوا عنى ولدى فانه يغنى عنى اى يغنيكم عنى فيدفع عنى ايضا مشقة الحضور فقوله لايغنى عنهم اى لايدفع عنهم الضرر ولاشك ان قوله لايدفع عنهم ضررا ابلغ من قوله لاينفعهم نفعا وانما فى المؤمن لو قال يوم يغنى عنهم صدقهم لما فهم منه نفعهم فقال يوم ينفع كأنه قال يوم يغنيهم صدقهم فكأنه استعمل فى المؤمن يغنيهم وفى الكافر لايغنى عنهم وهو مما لايطلع عليه الا من يكون عنده من علم البيان طرف ويتفكر بقريحة وقادة آيات الله ووفقه الله (المسئلة الثالثة) الاصل تقديم الفاعل على المفعول والاصل تقديم المضمر على المظهر (اما فى الاول) فلان الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا فعلت فاسكنوا اللام لئلا يلزم اربع متحركات فى كلمة واحدة وقالوا اضربك ولم يسكنوا لان الكاف ضمير المفعول وهو منفصل (واما تقديم المضمر) فلانه يكون اشد اختصارا فانك اذا قلت ضربنى زيد يكون اقرب الى الاختصار من قولك ضرب زيد اياى فان لم يكن هناك اختصار كقولك مربى زيد ومرزيد بى فالاولى تقديم الفاعل وههنا لو قال يوم لايغنيهم كيدهم كان الاحسن تقديم المفعول فاذا قال يوم لايغنى عنهم صار كما قلنا فى مرزيد بى فلم لم يقدم الفاعل نقول فنه فائدة مستفادة من علم البيان وهو ان تقديم الاهم اولى فلو قال يوم لايغنى كيدهم كان السامع لهذا الكلام ربما يقول لايغنى كيدهم غيرهم فيرجو الخير فى حقهم واذا سمع لايغنى عنهم انقطع رجاؤه وانتظر الامر الذى ليس بمغن (المسئلة الرابعة) قدذكرنا ان معنى الكيد هو فعل يسوء من نزول به وان حسن ممن صدر منه فما الفائدة فى تخصيص العمل الذى يسوء بالذكر ولم يقل يوم لايغنى عنهم افعالهم على الاطلاق نقول هو قياس بالطريق الاولى لانهم كانوا يأتون بفعل يسيء النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكانوا يعتقدون انه احسن اعمالهم فقال ماأغنى احسن اعمالهم الذى كانوا يعتقدون فيه ليقطع رجاءهم عما دونه (وفيه وجه آخر) وهو انه تعالى لما قال من قبل ام يريدون كيدا وقدقلنا ان اكثر المفسرين على ان المراد به تدبيرهم فى قتل النبى صلى الله عليه وسلم قال هم المكيدون اى لاينفعهم كيدهم فى الدنيا فماذا يفعلون يوم لاينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم وقوله ولاهم ينصرون فيه وجوه (احدها) انه متمم بيان وجهه هو ان الداهى اولا يرتب امورا لدفع المكروه بحيث لايحتاج الى الانتصار بالغير والمنة ثم اذا

لم ينفعه ذلك ينتصر بالاغيار فقال لاينفعهم افعال انفسهم ولا ينصرهم غيرهم عند البأس وحصول اليأس عن اقبالهم (ثانيها) ان المراد منه ماهو المراد من قوله تعالى لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون فقوله يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا اى عبادتهم الاصنام وقولهم هؤلاء شفعاؤنا وقولهم مانعبدهم الاليقربونا وقوله ولاهم ينصرون اى لانصير لهم كالاشفيع ودفع العذاب امابشفاعة شفيع او بنصر ناصر (ثالثها) ان نقول الاضافة فى كيدهم اضافة المصدر الى المفعول لااضافته الى الفاعل فكأنه قال لايغنى عنهم كيد الشيطان اياهم وبيانه هوانك تقول اعجبنى ضرب زيد عمرا واعجبنى ضرب عمرو فاذا اقتصرت على المصدر والمضاف اليه لايعلم الابالقرينة والنية فاذا سمعت قول القائل اعجبنى ضرب زيد يحتمل ان يكون زيد ضاربا و يحتمل ان يكون مضروبا فاذا سمعت قول القائل اعجبنى قطع اللص على سرقته دلت القرينة على انه مضاف الى المفعول فان قيل هذا فاسد من حيث انه ايضاح واضح لان كيد المكيد لاينفع قطعا ولايخفى ذلك على احد فلايحتاج الى بيان لكن كيد الكائد يظن انه ينفع فقال تعالى ذلك لاينفع نقول كيد الشيطان اياهم على عبادة الاصنام وهم كانوا يظنون انها تنفع واما كيدهم النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون انه لاينفع فى الآخرة وانما طلبوا ان ينفعهم فى الدنيا لافى الآخرة فالاشكال ينقلب على صاحب الوجه الاول ولا اشكال على الوجهين جميعا اذا تفكرت فيما قلناه ۞ ثم قال تعالى (وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن اكثرهم لايعلمون) فى اتصال الكلام وجهان (احدهما) متصل بقوله تعالى فذرهم وذلك لانه يدل على عدم جواز القتال وقد قيل انه نازل قبل شرع القتال وحينئذ كأنه قال فذرهم ولاتذرهم مطلقا من غير قتال بل لهم قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم فيكون بيانا ووعدا بنسخ فذرهم بالعذاب يوم بدر (ثانيهما) هو متصل بقوله تعالى لايغنى وذلك لانه لمابين ان كيدهم لايغنى عنهم قال ولايقتصر على عدم الاغناء بل لهم مع ان كيدهم لايغنى ويل آخر وهو العذاب المعدلهم ولو قال لايغنى عنهم كيدهم كان يوهم انه لاينفع ولكن لايضر ولما قال مع ذلك وان للذين ظلموا عذابا زال ذلك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الذين ظلموا هم اهل مكة ان قلنا العذاب هو عذاب يوم بدر وان قلنا العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام فى كل ظالم (المسئلة الثانية) ما المراد من الظلم ههنا نقول فيه وجوه (الاول) هو كيدهم نبيهم والثانى عبادتهم الاوثان والثالث كفرهم وهذا مناسب للوجه الثانى (المسئلة الثالثة) دون ذلك على قول اكثر المفسرين معناه قبل ذلك ويؤيده قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر ويحتمل وجهين آخرين (احدهما) دون ذلك اى اقل من ذلك فى الدوام والشدة يقال الضرب دون القتل فى الايلام ولاشك ان عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى وعلى هذا فيه فائدة التنبيه على عذاب الآخرة العظيم وذلك لانه اذا قال عذابا

وان للذين ظلموا) اى لهم ووضع الموصول موضع الضمير لماذكر من قبل اى وان لهؤلاء الظلمة (عذابا) آخر (دون ذلك) دون مالاقوه من القتل اى قبله وهو القحط الذى اصابهم سبع سنين اوورائه كما فى قوله تريك القذى من دونها وهو دونها وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة وقرئ دون ذلك قريبا (ولكن اكثرهم لايعلمون) ان الامر كماذكر وفيه اشارة الى ان فيهم من يعلم ذلك وانما يصر على الكفر عنادا اولا يعلمون شيئا اصلا

دون ذلك اى قتلا وعذابا فى القبر فيتفكر المتفكر ويقول مايكون القتل دونه لايكون الاعظيما فان قيل فهذا المعنى لايمكن ان يقال فى قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قلنا نسلم ذلك ولكن لامانع من ان يكون المراد ههنا هذا الثانى على طريقة قول القائل تحت لجاجك مفاسد ودون غرضك متاعب وبيانه هو انهم لما عبدوا غير الله ظلموا انفسهم حيث وضعوها فى غير موضعها الذى خلقت له فقيل لهم ان لكم دون ذلك الظلم عذابا (المسئلة الرابعة) ذلك اشارة الى ماذا نقول الظاهر انه اشارة الى اليوم وفيه وجهان آخران (احدهما) فى قوله يصعقون وقوله لايغنى عنهم اشارة الى عذاب واقع فقوله ذلك اشارة اليه ويمكن ان يقال قد تقدم قوله ان عذاب ربك لواقع وقوله دون ذلك اى دون ذلك العذاب (ثانيهما) دون ذلك اى كيدهم فذلك اشارة الى الكيد وقد بينا وجهه فى المثال الذى مثلنا وهو قول القائل تحت لجاجك حرمانك والله اعلم (المسئلة الخامسة) ولكن اكثرهم لايعلمون ذكرنا فيه وجوها (احدها) انه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالاكثر كما قال تعالى اكثرهم بهم مؤمنون ثم ان الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم ان الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيدا عن الخلف (ثانيها) منهم من آمن فلم يكن ممن لايعلم (ثالثها) هم فى اكثر الاحوال لم يعلموا وفى بعض الاحوال علموا واقله انهم علموا حال الكشف وان لم ينفعهم (المسئلة السادسة) مفعول لايعلمون جاز ان يكون هو ماتقدم من الامر وهو ان لهم عذابا دون ذلك وجاز ان لايكون له مفعول اصلا فيكون المراد اكثرهم غافلون جاهلون ❊ ثم قال تعالى (فاصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم) وقد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ونشير الى بعضه ههنا فان طول العهد ينسى فنقول لما قال تعالى فذرهم كان فيه الاشارة الى انه لم يبق فى نصحهم نفع ولاسيما وقد تقدم قوله تعالى وان يروا كسفا من السماء وكان ذلك مما يحمل النبى صلى الله عليه وسلم على الدعاء كما قال نوح عليه السلام رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا وكما دعا يونس عليه السلام فقال الله تعالى اصبر وبدل اللعن بالتسبيح وسبح بحمد ربك بدل قولك اللهم اهلكهم ألاترى الى قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت وقوله تعالى فانك باعيننا فيه وجوه (الاول) انه تعالى لما بين انهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضى فى العرف المبادرة الى اهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال اصبر ولاتخف فانك محفوظ باعيننا (ثانيها) انه تعالى قال فاصبر ولاتدع عليهم فانك بمرأى منا نراك وهذه الحالة تقتضى ان تكون على افضل مايكون من الاحوال لكن كونك مسبحا لنا افضل من كونك داعيا على عباد خلقناهم فاختر الافضل فانك بمرأى منا (ثالثها) ان من يشكو حاله عند غيره يكون فيه انباء عن عدم علم المشكو اليه بحال الشاكى فقال تعالى اصبر ولاتشك حالك فانك باعيننا نراك فلا فائدة فى شكواك وفيه مسائل مختصة

(فاصبر لحكم ربك) بامهالهم الى يومهم الموعود وابقائك فيما بينهم مع مقاساة الاحزان ومعاناة الهموم (فانك باعيننا) اى فى حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكلؤك وجمع العين لجمع الضمير والايذان بغاية الاعتناء بالحفظ (وسبح) اى نزهه تعالى عما لايليق به ملتبسا (بحمد ربك) على نعمائه الفائتة للحصر (حين تقوم) من اى مكان قمت قال سعيد ابن جبير وعطاء اى قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه صل لله حين تقوم من منامك وقال الضحاك والربيع اذا قمت الى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك وقوله تعالى

بهذا الموضع لاتوجد فى قوله فاصبر على مايقولون (المسئلة الاولى) اللام فى قوله فاصبر لحكم تحتمل وجوها (الاول) هى بمعنى الى اى اصبر الى ان يحكم الله (الثانى) الصبر فيه معنى الثبات فكأنه يقول فاثبت لحكم ربك يقال ثبت فلان لحمل قرنه (الثالث) هى اللام التى تستعمل بمعنى السبب يقال لم خرجت فيقال لحكم فلان على بالخروج فقال فاصبر واجعل سبب الصبر امتثال الامر حيث قال فاصبر اى فاصبر لهذا الحكم عليك لالشئ آخر (المسئلة الثانية) قال ههنا بأعيننا وقال فى موضع آخر ولتصنع على عينى نقول لماوحد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحد العين ولما ذكر ههنا ضمير الجمع فى قوله بأعيننا وهو النون جمع العين وقال بأعيننا هذا من حيث اللفظ واما من حيث المعنى فلان الحفظ ههنا اتم لان الصبر مطية الرحمة بالنبى صلى الله عليه وسلم حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا فى امره وكذلك امره بالفلك وامره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج الى حفظ عظيم فى نظر الخلق فقال بأعيننا (المسئلة الثالثة) ماوجه تعلق الباء ههنا قلنا قد ظهر من جميع الوجوه اما ان قلنا بأنه للحفظ فتقديره محفوظ بأعيننا وان قلنا للعلم فمعناه بمرأى منا اى بمكان نراك وتقديره فانك بأعيننا مرئى وحينئذ هو كقول القائل رأيته بعينى كما يقال كتب بالقلم الآلة وان كان رؤية الله ليست بآلة فان قيل فا الفرق فى الموضعين حيث قال فى طه على عينى وقال ههنا بأعيننا وما الفرق بين على وبين الباء نقول معنى على هناك هو انه يرى على مايرضاه الله تعالى كما يقول افعله على عينى اى على رضاى تقديره على وجه يدخل فى عينى والتفت اليه فان من يفعل شيئا لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه اليه والبا فى قوله وسبح بحمد ربك قد ذكرناها وقوله حين تقوم فيه وجوه (الاول) تقوم من موضعك والمراد قبل القيام حين ماتعزم على القيام وحين مجئ القيام وقد ورد فى الخبر ان من قال سبحان الله من قبل ان يقوم من مجلسه يكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللفظ واللغو فى ذلك المجلس (الثانى) حين تقوم من النوم وقد ورد ايضا فيه خبر يدل على انه صلى الله عليه وسلم كان يسبح بعد الانتباه (الثالث) حين تقوم الى الصلاة وقد ورد فى الخبر انه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى افتتاح الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك (الرابع) حين تقوم لامر ما ولاسيما اذا قمت منتصبا لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم فسبح بحمد ربك وبدل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه (الخامس) حين تقوم اى بالنهار فان الليل محل السكون والنهار محل الابتغاء وهو بالقيام اولى وعلى هذا يكون كقوله ومن الليل فسبحه اشارة الى مابقى من الزمان وكذلك ادبار النجوم وهو اول الصبح ❊ وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه وادبار النجوم) قد تقدم تفسيره وهو كقوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الاوقات

(ومن الليل فسبحه) افراد لبعض الليل بالتسبيح لما ان العبادة فيه اشق على النفس وابعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل وادبار النجوم) اى وقت ادبارها من آخر الليل اى غيبتها بضوء الصباح وقيل التسبيح من الليل صلاة العشاءين وادبار النجوم صلاة الفجر وقرئ ادبار النجوم بالفتح اى فى اعقابها اذا غربت او خفيت ❊ عن النبى عليه الصلاة الصلاة والسلام من قرأ سورة والطور كان حقا على الله تعالى ان يؤمنه من عذابه وان ينعمه فى جنته

ومعناه ونختم هذه السورة بفائدة وهى انه تعالى قال ههنا وادبار النجوم وقال فى ق وادبار السجود ويحتمل ان يقال المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد وللنجوم سجود قال تعالى والنجم والشجر يسجدان وقيل المراد من النجم نجوم السماء وقيل النجم مالا ساق له من النبات قال الله تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض او المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم فى اللغة اى اذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله وقد ورد فى الحديث من قال عقيب الصلاة سبحان الله عشر مرات والحمد لله عشر مرات والله اكبر عشر مرات كتب له الف حسنة فيكون المعنى فى الموضعين واحدا لان السجود من الوظائف والمشهور الظاهر ان المراد من ادبار النجوم وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤها بضوء الشمس وحينئذ تبين ما ذكرنا من الوجه الخامس فى قوله حين تقوم ان المراد منه النهار لانه محل القيام ومن الليل القدر الذى يكون الانسان يقظان فيه وادبار النجوم وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح الا وقت النوم وهذا آخر تفسير هذه السورة والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(سورة النجم ستون وآيتان مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والنجم اذا هوى) وقبل الشروع فى التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وان لم تكن منه (المسئلة الاولى) اول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظا ومعنى (اما اللفظ) فلان ختم والطور بالنجم وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم (واما المعنى) فنقول الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم بين له انه جزاه فى اجزاء مكايدة النبى صلى الله عليه وسلم بالنجم وبعده فقال ماضل صاحبكم وماغوى (المسئلة الثانية) السور التى تقدمت وافتتاحها بالقسم بالاسماء دون الحروف هى والصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها فالاولى فيها القسم لاثبات الوحدانية كما قال تعالى ان الهكم لواحد وفى الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى انما توعدون لصادق وان الدين لواقع وفى الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع وفى هذه السورة لنبوة النبى صلى الله عليه وسلم لتكمل الاصول الثلاثة الوحدانية والحشر والنبوة (المسئلة الثالثة) لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيرا اما على الوحدانية فلانه اقسم بأمر واحد فى سورة الصافات واما على النبوة فلانه اقسم بأمر واحد فى هذه السورة وبأمرين فى سورة الضحى واكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فان قوله تعالى والليل اذا يغشى وقوله تعالى والشمس وضحاها وقوله تعالى والسماء ذات البروج الى غير ذلك كلها فيها الحشر او ما يتعلق به وذلك لان دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل

(وفى)

* (سورة والنجم مكية وآيها احدى او اثنتان وستون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(والنجم اذا هوى) المراد بالنجم اما الثريا فانه اسم غالب له او جنس النجوم وبهويه غروبه وقيل طلوعه يقال هوى هويا بوزن قبول اذا غرب وهو يا بوزن دخول اذا علا وصعد واما النجم من نجوم القرآن فهويه نزوله والعامل فى اذا فعل القسم فانه بمعنى مطلق الوقت منسلخ من معنى الاستقبال كما فى قولك آتيك اذا احمر البسر وفى الاقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع مالا غاية وراءه اما على الاولين فلان النجم شأنه ان يهتدى به السارى الى مسالك الدنيا كأنه قيل والنجم الذى يهتدى به السابلة الى سواء السبيل

وفى كل شئ له آية • تدل على انه واحد

ودلائل النبوة ايضا كثيرة وهى المعجزات المشهورة والمتواترة واما الحشر فامكانه يثبت بالعقل واما وقوعه فلا يمكن اثباته الا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقادا جازما واما التفسير ففيه مسائل (الاولى) الواو للقسم بالنجم او برب النجم ففيه خلاف قدمناه والاظهر انه قسم بالنجم يقال ليس للقسم فى الاصل حرف اصلا لكن الباء والواو استعملتا فيه لمعنى عارض وذلك لان الباء فى اصل القسم هى الباء التى للالصاق والاستعانة فكما يقول القائل استعنت بالله يقول اقسمت بالله وكما يقول اقوم بعون الله على العدو يقول اقسم بحق الله فالباء فيهما بمعنى كما تقول كتب بالقلم فالباء فى الحقيقة ليست للقسم غير ان القسم كثر فى الكلام فاستغنى عن ذكره وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه فاذا قال القائل بحق زيد فهم منه القسم لان المراد لو كان هو مثل قوله ادخل بحق زيد او اذهب بحق زيد او لم يقسم بحق زيد لذكر كما ذكر فى هذه الاشياء لعدم الاستغناء فلما لم يذكر شئ علم ان الحذف للشهرة والاستغناء وذلك ليس فى غير القسم فعلم ان المحذوف فعل القسم فكأنه قال اقسم بحق زيد فالباء فى الاصل ليس للقسم لكن لما عرض ماذكرنا من الكثرة والاشتهار قيل الباء للقسم ثم ان المتكلم نظر فيه فقال هذا لا يخلو عن التباس فانى اذا قلت بالله توقف السامع فان سمع بعده فعلا غير القسم كقوله بالله استعنت وبالله قدرت وبالله مشيت واخذت لا يحمله على القسم وان لم يسمع حمله على القسم ان لم يتوهم وجود فعل ذكرته ولم يسمعه اما ان توهم انى ذكرت مع قولى بالله شيئا آخر وماسمعه هو ايضا يتوقف فيه ففى الفهم توقف فاذا اراد المتكلم الحكيم اذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه وهو فعل القسم ابدل الباء بالتاء وقال تالله فتكلم بها فى كلمة الله لاشتهار كلمة الله والأمن من الالتباس فان التاء فى اوائل الكلمات قد تكون اصلية وقد تكون للخطاب والتأنيث فلو اقسم بحرف التاء بمن اسمه داعى اوراعى او هادى او عادى يقول تداعى او تراعى او تهادى او تعادى فيلتبس وكذلك فيمن اسمه رومان او توران اذا قلت ترومان او تتوران على انك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث فى الاستقبال فأبدلوها واوا لايقال عليه اشكالان (الاول) مع الواو لم يؤمن الالتباس نقول ولى فتلتبس الواو الاصلية بالتى للقسم لانا نقول ذلك لم يلزم فيما ذهبنا اليه وانما كان ذلك فى الواو حيث يدل وينبئ عن العطف وان لم يستعمل الواو للقسم كيف وذلك فى الباء التى هى كالاصل متحقق تقول برام فى جمع برمة وبهام فى جمع بهمة وبغال الملبسية الباء الاصلية التى فى البغال والبرام بالباء التى تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال واما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفا من الادوات كالباء والواو (والاشكال الثانى) لم تركت الباء مع الالتباس فيه كقولك تالرحيم وتالعظيم نقول لما كان كلمة الله تعالى فى غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيها على خلاف

(ماضل صاحبكم) اى ماعدل عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة (وماغوى) اى وما اعتقد باطلا قط اى هو فى غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية فى شئ اصلا واما على الثالث فلانه تنويه بشأن القرآن كما اشير اليه فى مطلع سورة يس وسورة الزخرف وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار ارشاده كانه قيل والقرآن الذى هو علم فى الهداية الى مناهج

الاصل بمعنى لم يجز ان يقاس عليها الا ما يكون فى شهرتها واما غيرها فربما يخفى عند البعض فان من لم يسمع الرحيم وسمع فى الندرة تر بمعنى قطع ربما يقول ترحيم فعل وفاعل اوفعل ومفعول وان كان ذلك فى غاية البعد لكن الاستواء فى الشهرة فى المنقول منه والمنقول اليه لازم ولا مشهور مثل كلمة الله على انا نقول لم قلت ان عند الاء من لا تستعمل ألا ترى انه نقل عن العرب ترب الكعبة والذى يؤيد ما ذكرنا انك تقول اقسم بالله ولا تقول اقسم تالله لان التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم وعند الاتيان به لم يخف ذلك فلم يجز (المسئلة الثانية) اللام فى قوله تعالى والنجم لتعريف العهد فى قول ولتعريف الجنس فى قول والاول قول من قال والنجم المراد منه الثريا قال قائلهم

ان بدا النجم عشيا • ابتغى الراعى كسيا

والثانى فيه وجوه (احدها) النجم هو نجم السماء التى هى ثابتة فيها للاهتداء وقيل لا بل النجوم المنقضة فيها التى هى رجوم للشياطين (ثانيها) نجوم الارض وهى من النبات ما لا ساق له (ثالثها) نجوم القرآن ولنذكر مناسبة كل وجه ونبين فيه المختار منها اما على قولنا المراد الثريا فهو اظهر النجوم عند الرائى لان له علامة لا يلتبس بغيره فى السماء ويظهر لكل احد والنبى صلى الله عليه وسلم تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به ولان الثريا اذا ظهرت من المشرق بالبكر حان ادراك الثمار واذا ظهرت بالعشاء أواخر الخريف تقل الامراض والنبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر قل الشك والامراض القلبية وادركت الثمار الحكمية والحلمية وعلى قولنا المراد هى النجوم التى فى السماء للاهتداء نقول النجوم بها الاهتداء فى البرارى فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة وعلى قولنا المراد الرجوم من النجوم فالنجوم تبعد الشياطين عن اهل السماء والانبياء يبعدون الشياطين عن اهل الارض وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدلال بمعجزة النبى صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم ما ضللت ولا غويت وعلى قولنا النجم هو النبات فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية اولى بالاصلاح وذلك بالرسل وايضاح السبل ومن هذا يظهر ان المختار هو النجوم التى هى فى السماء لانها اظهر عند السامع وقوله اذا هوى ادل عليه ثم بعد ذلك القرآن ايضا فيه ظهور ثم الثريا (المسئلة الثالثة) القول فى والنجم كالقول فى والطور وحيث لم تقل والنجوم ولا والاطوار وقال والذاريات والمرسلات وقد تقدم ذكره (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى تقييد القسم به بوقت هويه نقول النجم اذا كان فى وسط السماء يكون بعيدا عن الارض لا يهتدى به السارى لانه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال فاذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبى صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم كما قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وكما قال تعالى فبما رحمة من الله

(لنت)

الدين ومسالك الحق ما ضل عنهم محمد عليه الصلاة والسلام وما غوى والخطاب لقريش وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحبيته لهم للايذان بوقوفهم على تفاصيل احواله الشريفة واحاطتهم خبرا ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فان طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤنه العظيمة مقتضية لذلك حتما

لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فان قيل الاهتداء بالنجم اذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به اذا كان على أفق المغرب فلم يبق ماذكرت جوابا عن السؤال نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل الى المغرب اكثر لانه يهدى فى الطريقين الدنيوى والدينى اما الدنيوى فلماذكرنا واما الدينى فكما قال الخليل لااحب الآفلين وفيه لطيفة وهى ان الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفا يدل على انه لم يبلغ درجة العبادة فانه هاو آفل * ثم قال تعالى (ماضل صاحبكم وماغوى) اكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغى والذى قاله بعضهم عند محاولة الفرق ان الضلال فى مقابلة الهدى والغى فى مقابلة الرشد قال تعالى وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا وقال تعالى قد تبين الرشد من الغى وتحقيق القول فيه الضلال اعم استعمالا فى الوضع تقول ضل بعيرى ورحلى ولاتقول غوى فالمراد من الضلال ان لايجد السالك الى مقصوده طريقا اصلا والغواية ان لايكون له طريق الى المقصد مستقيم يدلك على هذا انك تقول للمؤمن الذى ليس على طريق السداد انه سفيه غير رشيد ولاتقول انه ضال كالكافر والغاوى كالفاسق فكأنه تعالى قال ماضل اى ماكفر ولااقل من ذلك فافسق ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم او نقول الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد فى الدرجة والمرتبة وقوله صاحبكم فيه وجهان (الاول) سيدكم والآخر مصاحبكم يقال صاحب البيت ورب البيت ويحتمل ان يكون المراد من قوله ماضل اى ماجن فان المجنون ضال وعلى هذا فهو كقوله تعالى ن والقلم ومايسطرون ماانت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا غير ممنون فيكون اشارة الى انه ماغوى بل هو رشيد مرشد دال على الله بارشاد آخر كما قال تعالى قل مااسئلكم عليه من اجر وقال ان اجرى الاعلى الله وقوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم اشارة الى قوله ههنا (وماينطق عن الهوى) فان هذا خلق عظيم ولنبين الترتيب فنقول قال اولا ماضل اى هو على الطريق وماغوى اى طريقه الذى هو عليه مستقيم وما ينطق عن الهوى اى هو راكب متنه آخذ سمت المقصود وذلك لان من يسلك طريقا ليصل الى مقصده فربما يبقى بلا طريق وربما يجد اليه طريقا بعيدا فيه متاعب ومهالك وربما يجد طريقا واسعا آمنا ولكنه يميل يمنة ويسرة فيبعد عنه المقصود ويتأخر عليه الوصول فاذا سلك الجادة وركب متنها كان اسرع وصولا ويمكن ان يقال وماينطق عن الهوى دليل على انه ماضل وماغوى تقديره كيف يضل او يغوى وهو لاينطق عن الهوى وانما يضل من يتبع الهوى ويدل عليه قوله تعالى ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله فان قيل ماذكرت من الترتيب الاول على صيغة الماضى فى قوله ماضل وصيغة المستقبل فى قوله وماينطق فى غاية الحسن اى ماضل حين اعتزلكم وماتعبدون فى صغره وماغوى حين اختلى بنفسه ورأى فى منامه مارأى وماينطق عن الهوى الآن حيث ارسل اليكم

وتقييد القسم بوقت الهوى على الوجه الاخير ظاهر واما على الاولين فلان النجم لايهتدى به السارى عند كونه فى وسط السماء ولايعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وانما يهتدى به عند هبوطه اوصعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلى جبريل من الافق الاعلى ودنوه منه عليهما السلام هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل واما حمل هويه على انتثاره

وجعل رسولا شاهدا عليكم فلم يكن اولا ضالا ولا غاويا وصار الآن منقذا من الضلالة ومرشدا وهاديا واما على ماذكرت ان تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة نقول بلى وبيانه ان الله تعالى يصون من يريد ارساله فى صغره عن الكفر والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب فقال تعالى ماضل فى صغره لانه لا ينطق عن الهوى واحسن مايقال فى تفسير الهوى انها المحبة لكن من النفس يقال هويته بمعنى احببته لكن الحروف التى فى هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية فالنفس اذا كانت دنيئة وتركت المعالى وتعلقت بالسفاسف فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الامارة بالسوء ولو قلت أهواه بقلبى لزال مافيه من السفالة لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال القرآن حيث لم يستعمل الهوى الا فى الموضع الذى يخالف المحبة فانها مستعملة فى موضع المدح والذى يدل على ماذكرنا قوله تعالى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا الى قوله ونهى النفس عن الهوى اشارة الى علو مرتبة النفس ❊ ثم قال تعالى (ان هو الا وحى يوحى) بكلمة البيان وذلك لانه تعالى لما قال وماينطق عن الهوى كأن قائلا قال فبماذا ينطق أعن الدليل او الاجتهاد فقال لا وانما ينطق عن الله بالوحى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان استعملت مكان ما للنفى كما استعملت ما للشرط مكان ان قال تعالى ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها والمشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى اما اللفظ فلان ان من الهمزة والنون وما من الميم والالف والالف كالهمزة والنون كالميم اما الاول فبدليل جواز القلب واما الثانى فبدليل جواز الادغام ووجوبه واما المعنى فلان ان تدل على النفى من وجه وعلى الاثبات من وجه ولكن دلالتها على النفى اقوى وابلغ لان الشرط والجزاء فى صورة استعمال لفظة ان يجب ان يكون فى الحال معدوما اذا كان المقصود الحث او المنع تقول ان تحسن فلك الثواب وان تسيء فلك العذاب وان كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك ان كان هذا الفص زجاجا فقيمته نصف وان كان جوهرا فقيمته ألف فههنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم ههنا كعدم الحصول فى الحث والمنع فلابد فى صور استعمال ان من عدم اما فى الامر واما فى العلم واما الوجود فذلك عند وجود الشرط فى بيان الحال ولهذا قال النحاة لا يحسن ان يقال ان احمر البسر آتك لان ذلك امر سيوجد لا محالة وجوزوا استعمال ان فيما لا يوجد اصلا يقال فى قطع الرجاء ان ابيض القار تغلبنى قال الله تعالى فان استقر مكانه فسوف ترانى ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية فعلم ان دلالته على النفى اتم فان مدلوله الى مدلول ما اقرب فاستعمل احدهما مكان الآخر هذا هو الظاهر ومايقال ان وما حرفان نافيان فى الاصل فلا حاجة الى الترادف (المسئلة الثانية) هو ضمير معلوم او ضمير مذكور نقول فيه وجهان (اشهرهما) انه ضمير معلوم وهو القرآن كأنه يقول ما القرآن الا وحى وهذا على قول من قال النجم ليس المراد منه القرآن واما على قول من يقول هو القرآن فهو عائد الى مذكور (والوجه

يوم القيامة او على انقضاض النجم الذى يرجم به او حمل النجم على النبات وحمل هويه على سقوطه على الارض او على ظهوره منها فمما لا يناسب المقام (وما ينطق عن الهوى) اى ومايصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه اصلا فان المراد استمرار نفى النطق عن الهوى لا نفى استمرار النطق عنه كما مر مرارا (ان هو) اى ماالذى ينطق به من القرآن (الا وحى) من الله تعالى وقوله تعالى (يوحى) صفة مؤكدة لوحى رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددى

الثانى) انه عائد الى مذكور ضمنا وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم وكلامه وذلك لان قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فى ضمنه النطق وهو كلام وقول فكأنه تعالى يقول وما كلامه وهو نطقه الا وحى وفيه وجه آخر ابعد وادق وهو ان يقال قوله تعالى ماضل صاحبكم قد ذكر ان المراد منه فى وجه انه ماجن وما مسه الجن فليس بكاهن وقوله وماغوى اى ليس بينه وبين الغواية تعلق فليس بشاعر فان الشعراء يتبعهم الغاوون وحينئذ يكون قوله وما ينطق عن الهوى رداعليهم حيث قالوا قوله قول كاهن وقالوا قوله قول شاعر فقال ماقوله الا وحى وليس بقول كاهن ولا شاعر كما قال تعالى وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون (المسئلة الثالثه) الوحى اسم او مصدر نقول يحتمل الوجهين فان الوحى اسم معناه الكتاب ومصدر وله معان منها الارسال والالهام والكتابة والكلام والاشارة والافهام فان قلنا هو ضمير القرآن فالوحى اسم معناه الكتاب كأنه يقول ماالقرآن الا كتاب ويوحى بمعنى يرسل ويحتمل على هذا ايضا ان يقال هو مصدر اى ماالقرآن الا ارسال والهام بمعنى المفعول اى مرسل وان قلنا المراد من قوله ان هو قوله وكلامه فالوحى حينئذ هو الالهام بمعنى ملهم اى كلامه ملهم من الله او مرسل وفيه مباحث (البحث الاول) الظاهر خلاف ماهو المشهور عند بعض المفسرين وهو النبى صلى الله عليه وسلم ماكان ينطق الا عن وحى ولا حجة لمن توهم هذا فى الاية لان قوله تعالى ان هو الا وحى يوحى ان كان ضمير القرآن فظاهر وان كان ضميرا عائدا الى قوله فالمراد من قوله هو القول الذى كانوا يقولون فيه انه قول شاعر ورد الله عليهم فقال ولا بقول شاعر وذلك القول هو القرآن وان قلنا بما قالوا به فينبغى ان يفسر الوحى بالالهام (البحث الثانى) هذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم لم يجتهد وهو خلاف الظاهر فانه فى الحروب اجتهد وحرم ماقال الله لم تحرم واذن لمن قال تعالى عفا الله عنك لم اذنت لهم نقول على ما ثبت لاتدل الآية عليه (البحث الثالث) يوحى يحتمل ان يكون من وحى يوحى ويحتمل ان يكون من اوحى يوحى تقول عدم يعدم واعدم يعدم وكذلك علم يعلم واعلم يعلم فنقول يوحى من اوحى لا من وحى وان كان وحى واوحى كلاهما جاء بمعنى ولكن الله فى القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر الايحاء الذى هو مصدر اوحى وعند ذكر الفعل لم يذكر وحى الذى مصدره وحى بل قال عند ذكر المصدر الوحى وقال عند ذكر الفعل اوحى وكذلك القول فى احب وحب فان حب واحب بمعنى واحد والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر فى القرآن الاحباب وذكر الحب قال او اشد حبا وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال يحبهم ويحبونه وقال ايحب احدكم وقال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الى غير ذلك وفيه سر من علم الصرف وهو ان المصدر والفعل الماضى الثلاثى فيهما خلاف قال بعض علماء الصرف المصدر مشتق من الفعل الماضى والماضى هو الاصل والدليل عليه وجهان لفظى ومعنوى اما اللفظى فانهم يقولون مصدر فعل يفعل اذا كان متعديا فعل بسكون العين واذا كان لازما

(علمه شديد القوى) اى ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فانه الواسطة فى ابداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته انه قلع قرى قوم لوط من الماء الاسود الذى هو تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها الى السماء ثم قلبها وصاح بثمود صيحة فاصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الانبياء وصعوده فى اسرع من رجعة الطرف (ذو مرة) اى حصافة فى عقله ورأيه ومتانة فى دينه (فاستوى) عطف على علمه بطريق التفسير فانه الى

فعول فى الاكثر ولايقولون الفعل الماضى من فعول فعل وهذا دليل ماذكرنا واما المعنوى فلان مايوجد من الامور لايوجد الا وهو خاص وفى ضمنه العام مثاله الانسان الذى يوجد ويتحقق يكون زيدا او عمرا اوغيرهما ويكون فى ضمنه انه هندى او تركى وفى ضمن ذلك انه حيوان وناطق ولاتوجدا ولاانسان ثم يصير تركيا ثم يصير زيدا او عمرا اذا علمت هذا فالفعل الذى يتحقق لاينفك من ان يكون ماضيا او مستقبلا وفى ضمنه انه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله مثاله الضرب اذا وجد فاما ان يكون قد مضى او بعد لم يمض والاول ماض والثانى حاضر او مستقبل ولايوجد الضرب من حيث انه ضرب خاليا عن المضى والحضور والاستقبال غيران العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غدا امرا مشتركا فيسميه فعلا وكذلك يدرك فى ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غدا امرا مشتركا فيسميه ضربا فضرب يوجد اولا ويستخرج منه الضرب والالفاظ وضعت لامور تحقق فيها فيعبر بها عنها والامور المشتركة لاتحقق الا فى ضمن اشياء اخر فالوضع اولا لما يوجد منه لايدرك منه قبل الضرب وهذا ما يمكن ان يقال لمن يقول الماضى اصل والمصدر مأخوذ منه * واما الذى يقول المصدر اصل والماضى مأخوذ منه فله دلائل منها ان الاسم اصل والفعل متفرع والمصدر اسم ولان المصدر معرب والماضى مبنى والاعراب قبل البناء ولان قال وقال وراع وراع اذا اردنا الفرق بينهما نرد ابنيتهما الى المصدر فنقول قال الالف منقلبة من واو بدليل القول وقال الفه منقلبة من ياء بدليل القيل وكذلك الروع والريع واما المعقول فلأن الالفاظ وضعت للامور التى فى الاذهان والعام قبل الخاص فى الذهن فان الموجود اذا ادرك معناه يقول المدرك هذا الموجود جوهر او عرض فاذا ادرك انه جوهر يقول انه جسم او غير جسم عند من يجعل الجسم جوهرا وهو الاصح الاظهر ثم اذا ادرك كونه جسما يقول هو نام وكذلك الامر الى ان ينتهى الى اخص الاشياء ان امكن الانتهاء اليه بالتقسيم فالوضع الاول الفعل وهو المصدر من غير زيادة ثم اذا انضم اليه زمان تقول ضرب او سيضرب فالمصدر قبل الماضى وهذا هو الاصح اذا علمت هذا فنقول على مذهب من يقول المصدر فى الثلاثى من الماضى فالحب وأحب كلاهما فى درجة واحدة لان كليهما من حب يحب والمصدر من الثلاثى قبل مصدر المنشعبة بمرتبة وعلى مذهب من يقول الماضى فى الثلاثى مأخوذ من المصدر فالمصدر الثلاثى قبل المصدر فى المنشعبة بمرتبتين فاستعمل مصدر الثلاثى لانه قبل مصدر المنشعبة واما الفعل فى أحب واوحى فلان الالف فيهما تفيد فائدة لايفيدها الثلاثى المجرد لان احب ادخل فى التعدية وابعد عن توهم اللزوم فاستعمله (المسئلة الرابعة) ان هو الاوحى ابلغ من قول القائل هو وحى وفيه فائدة غير المبالغة وهى انهم كانوا يقولون هو قول كاهن هو قول شاعر فأراد نفى قولهم وذلك يحصل بصيغة النفى فقال ماهو كما يقولون وزاد فقال بل هو وحى وفيه زيادة فائدة

قوله تعالى مااوحى بيان لكيفية التعليم اى فاستقام على صورته التى خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم احب ان يراه فى صورته التى جبل عليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسد الارض من المغرب وملأ الافق فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين

أخرى وهوقوله يوحى وذلك كقوله تعالى ولاطائر يطير بجناحيه وفيه تحقيق الحقيقة فان الفرس الشديد العدو ربما يقال هو طائر فاذا قال يطير بجناحيه يزيل جواز المجاز كذلك يقول بعض من لا يحترز فى الكلام ويبالغ فى المبالغة كلام فلان وحى كما يقول شعره سحر وكما يقول قوله معجز فاذا قال يوحى يزول ذلك المجاز او يبعد ❊ ثم قال تعالى (علمه شديد القوى) وفيه وجهان اشهرهما عند المفسرين ان الضمير فى علمه عائد الى الوحى اى الوحى علمه شديد القوى والوحى ان كان هو الكتاب فظاهر وان كان الالهام فهو كقوله تعالى نزل به الروح الامين والاولى ان يقال الضمير عائد الى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمدا شديد القوى جبريل وحينئذ يكون عائدا الى صاحبكم تقديره علم صاحبكم وشديد القوى هو جبريل اى قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل وقوله شديد القوى فيه فوائد (الاولى) ان مدح المعلم مدح المتعلم فلو قال علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبى صلى الله عليه وسلم به فضيلة ظاهرة (الثانية) هى ان فيه رد اعليهم حيث قالوا اساطير الاولين سمعها وقت سفره الى الشام فقال لم يعلمه احد من الناس بل معلمه شديد القوى والانسان خلق ضعيفا وما أوتى من العلم الا قليلا (الثالثة) فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام فقوله تعالى شديد القوى جمع ما يوجب الوثوق لان قوة الادراك شرط الوثوق بقول القائل لانا ان ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل الينا عن بعض الاكابر مسئلة مشكلة لا نثق بقوله ونقول هو ما فهم ما قال وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول ادركها لكن نسيها وكذلك قوة الامانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال شديد القوى ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى ذى قوة عند ذى العرش مكين الى ان قال امين (الرابعة) فيه تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وهى من حيث ان الله تعالى لم يكن مختصا بمكان فنسبته الى جبريل كنسبته الى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا علم بواسطته يكون نقصا عن درجته فقال ليس كذلك لانه شديد القوى يثبت لمكالمتنا وانت بعد ما استويت فتكون كموسى حيث خر فكأنه تعالى قد علمه بواسطة ثم علمه من غير واسطة كما قال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم وقال صلى الله عليه وسلم ادبنى ربى فاحسن تأديبى ❊ ثم قال تعالى (ذومرة فاستوى) وفى قوله تعالى ذومرة وجوه (احدها) ذوقوة (ثانيها) ذو كمال فى العقل والدين جميعا (ثالثها) ذو منظر وهيبة عظيمة (رابعها) ذو خلق حسن فان قيل على قولنا المراد ذو قوة قد تقدم بيان كونه ذا قوى فى قوله شديد القوى فكيف نقول قواه شديدة وله قوة نقول ذلك لا يحسن ان جاء وصفا بعد وصف واما ان جاء بدلا يجوز كأنه قال علمه ذو قوة وترك شديد القوى فليس وصفا له وتقديره ذو قوة عظيمة او كاملة وهو حينئذ كقوله تعالى انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين فكأنه قال علمه ذو قوة فاستوى والوجه الآخر فى الجواب هو ان افراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان ان قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خصه الله بها يقال فلان

فضمه الى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه قيل ما رآه احد من الانبياء فى صورته غير النبى عليه الصلاة والسلام فانه رآه فيها مرتين مرة فى الارض ومرة فى السماء وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الامر وقوله تعالى (وهو بالافق الاعلى) اى افق الشمس حال من فاعل استوى (ثم دنا) اى اراد الدنو من النبى عليهما الصلاة والسلام (فتدلى) اى استرسل من الافق الاعلى مع تعلق به فدنا من النبى يقال تدلت

الثمرة ودلى رجليه من السرير وادلى دلوه والدوالى الثمر المعلق (فكان) اى مقدار امتداد ماينهما (قاب قوسين) اى مقدارهما فان القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقيل فكان جبريل عليه السلام كما فى قولك هو منى معقد الازار (اوادنا) اى على تقديركم كما فى قوله تعالى اويزيدون والمراد تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما اوحى اليه بنفى البعد الملبس (فأوحى) اى جبريل عليه السلام

كثير المال وله مال لايعرفه احد اى امواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن على انا نقول المراد ذو شدة وتقديره علمه من قواه شديدة وفى ذاته ايضا شدة فان الانسان ربما تكون قواه شديدة وفى جسمه صغر وحقارة ورخاوة وفيه لطيفة وهى انه تعالى اراد بقوله شديد القوى قوته فى العلم * ثم قال تعالى ذو مرة اى شدة فى جسمه فقدم العلية على الجسمية كما قال تعالى وزاده بسطة فى العلم والجسم وفى قوله فاستوى وجهان المشهور ان المراد جبريل اوفاستوى جبريل فى خلقه * ثم قال تعالى (وهو بالافق الاعلى) والمشهور ان هو ضمير جبريل وتقديره استوى كما خلقه الله تعالى بالافق الشرقى فسد المشرق لعظمته والظاهر ان المراد محمد صلى الله عليه وسلم معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر لاحقيقة فى الحصول فى المكان فان قيل كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ولقد رآه بالافق المبين اشارة الى انه رأى جبريل بالافق المبين نقول وفى ذلك الموضع ايضا نقول كما قلنا ههنا انه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل وهو بالافق المبين يقول القائل رأيت الهلال فيقال له اين رأيته فيقول فوق السطح اى ان الرائى فوق السطح لا المرئى والمبين هو الفارق من أبان اى فرق اى هو بالافق الفارق بين درجة الانسان ومنزلة الملك فانه صلى الله عليه وسلم انتهى وبلغ الغاية وصار نبيا كما صار بعض الانبياء نبيا يأتيه الوحى فى نومه وعلى هيئته وهو واصل الى الافق الاعلى والافق الفارق بين المنزلتين فان قيل مابعده يدل على خلاف ماتذهب اليه فان قوله ثم دنا فتدلى الى غير ذلك وقوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى كل ذلك يدل على خلاف ماذكرته نقول سنبين موافقته لما ذكرنا ان شاء الله تعالى فى مواضعه عند ذكر تفسيره فان قيل الاحاديث تدل على خلاف ماذكرته حيث ورد فى الاخبار ان جبريل صلى الله عليه وسلم أرى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على صورته فسد المشرق فنقول نحن ماقلنا انه لم يكن وليس فى الحديث ان الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث وانما نقول ان جبريل أرى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقى وسده لكن الآية لم ترد لبيان ذلك * ثم قال تعالى (ثم دنا فتدلى) وفيه وجوه مشهورة (احدها) ان جبريل دنا من النبى صلى الله عليه وسلم اى بعد مامد جناحه وهو بالافق عاد الى الصورة التى كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففى تدلى ثلاثة وجوه (احدها) فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى من الافق الاعلى فدنا من النبى صلى الله عليه وسلم (الثانى) الدنو والتدلى بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب (الثالث) دنا اى قصد القرب من محمد صلى الله عليه وسلم وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل الى النبى صلى الله عليه وسلم (الثانى) على ماذكرنا من الوجه الاخير فى قوله وهو بالافق الاعلى ان محمدا صلى الله عليه وسلم دنا من الخلق والامة ولان لهم وصار كواحد منهم فتدلى اى فتدلى اليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال انا

(بشر)

بشر مثلكم يوحى الى وعلى هذا في الكلام كمالان كأنه تعالى قال الاوحى يوحى جبريل على محمد فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى اليهم وبلغ الرسالة (الثالث) وهو ضعيف سخيف وهو ان المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان اللهم الا ان يريد القرب بالمنزلة وعلى هذا يكون فيه ما في قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن مشى الى أتيته هرولة اشارة الى المعنى المجازى وههنا مابين ان النبي صلى الله عليه وسلم استوى وعلا في المنزلة العقلية لا في المكان الحسى قال وقرب الله منه تحقيقا لما في قوله من تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا * ثم قال تعالى (فكان قاب قوسين اوادنى) اى بين جبريل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين او اقل ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم فان الاميرين منهم اوالكبيرين اذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما ولذلك تسمى مبايعة وعلى هذا ففيه لطيفة وهى ان قوله قاب قوسين على جعل كونهما كبيرين وقوله اوادنى لفضل احدهما على الآخر فان الامير اذا بايعه الرعية لايكون مع المبايع قوس فيصافحه الامير فكأنه تعالى اخبر انهما كأميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين اوكان جبرائيل عليه السلام سفيرا بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم فصار كالمبايع الذى يمد الباع لا القوس هذا على قول من يفضل النبي صلى الله عليه وسلم على جبرائيل عليه السلام وهو مذهب اهل السنة الا قليلا منهم اذ كان جبرائيل رسولا من الله واجب التعظيم والاتباع فصار النبي صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وجه آخر على ماذكرنا وهو ان يكون القوس عبارة عن بعد من قاس يقوس وعلى هذا فنقول ذلك البعد هو البعد النوعى الذى كان للنبي صلى الله عليه وسلم فانه على كل حال كان بشرا وجبريل على كل حال كان ملكا فالنبي صلى الله عليه وسلم وان زال عن الصفات التى تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى لكن بشريته كانت باقية وكذلك جبريل وان ترك الكمال واللطف الذى يمنع الرؤية والاحتجاب لكن لم يخرج عن كونه ملكا فلم يبق بينهما الا اختلاف حقيقتهما واما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما فارتفع النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الافق الاعلى من البشرية وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الافق الادنى من الملكية فتقاربا ولم يبق بينهما الا حقيقتهما وعلى هذا ففى فاعل اوحى الاول وجهان (احدهما) ان الله تعالى اوحى وعلى هذا ففى عبده وجهان (احدهما) انه جبريل عليه السلام ومعناه اوحى الله الى جبريل وعلى هذا ففى فاعل اوحى الاخير وجهان (احدهما) الله تعالى ايضا والمعنى حينئذ اوحى الله تعالى الى جبريل عليه السلام الذى

(الى عبده) عبدالله تعالى واضماره قبل الذكر لغاية ظهوره كما في قوله تعالى ماترك على ظهرها (ماأوحى) اى من الامور العظيمة التى لاتفى بها العبارة اوفاوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ماأوحى قبل اوحى اليه ان الجنة محرمة على الانبياء حتى تدخلها وعلى الامم حتى تدخلها امتك (ما كذب الفؤاد) اى فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام (مارأى) اى مارآه ببصره من صورة جبريل عليهما السلام اى ماقال فؤاده لما رآه لم اعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لانه عرفه بقلبه كما رآه ببصره

اوحاه اليه تفخيما وتعظيما للموحى (ثانيهما) فاعل اوحى ثانيا جبريل والمعنى اوحى الله الى جبريل مااوحى جبريل الى كل رسول وفيه بيان ان جبريل امين لم يخن فى شىء مما اوحى اليه وهذا كقوله تعالى نزل به الروح الامين وقوله مطاع ثم امين (الوجه الثانى) فى عبده على قولنا الموحى هو الله انه محمد صلى الله عليه وسلم معناه اوحى الله الى محمد مااوحى اليه للتفخيم والتعظيم وهذا على ماذكرنا من التفسير ورد على ترتيب فى غاية الحسن وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم فى الاول حصل فى الافق الاعلى من مراتب الانسان وهو النبوة ثم دنا من جبريل وهو فى مرتبة النبوة فصار رسولا فاستوى وتكامل ودنا من الامة باللطف وتدلى اليهم بالقول الرفيق وجعل يتردد مرارا بين امته وربه فأوحى الله اليه من غير واسطة جبريل مااوحى (والوجه الثانى) فى فاعل اوحى اولا هو انه جبريل اوحى الى عبده اى الى عبدالله والله معلوم وان لم يكن مذكورا وفى قوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن مايوجب القطع بعدم جواز اطلاق هذا اللفظ على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففاعل اوحى ثانيا يحتمل وجهين (احدهما) انه جبريل اى اوحى جبريل الى عبدالله مااوحاه جبريل للتفخيم (وثانيهما) ان يكون هو الله تعالى اى اوحى جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم ما اوحى الله اليه وفى الذى اوحى وجوه (اولها) الذى اوحى الصلاة (ثانيها) ان احدا من الانبياء لايدخل الجنة قبلك وامة من الامم لاتدخل الجنة قبل امتك (ثالثها) ان ما للعموم والمراد كل ماجاء به جبريل وهذا على قولنا بان المراد جبريل صحيح والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام اظهر وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الاصوليين ولنبين ذلك فى معرض الجواب عن سؤال وهو ان يقال بم عرف محمد صلى الله عليه وسلم ان جبريل ملك من عندالله وليس احدا من الجن والذى يقال ان خديجة كشفت رأسها امتحانا فى غاية الضعف ان ادعى ذلك القائل ان المعرفة حصلت بامثال ذلك وهذا ان اراد القصة والحكاية وان خديجة فعلت هذا لان فعل خديجة غير منكر وانما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وامثالها وذلك لان الشيطان ربما استتر عند كشف رأسها اصلا فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والابهام والجواب الصحيح من وجهين (احدهما) ان الله اظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبى صلى الله عليه وسلم بها كما اظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها (وثانيهما) ان الله تعالى فى خلق محمد صلى الله عليه وسلم علما ضروريا بان جبريل من عندالله ملك لاجنى ولاشيطان كما ان الله تعالى خلق فى جبريل علما ضروريا ان المتكلم معه هو الله تعالى وان المرسل له ربه لاغيره اذا علم الجوابان فنقول ❊ قوله تعالى (فأوحى الى عبده مااوحى) وفيه وجهان (احدهما) اوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم مااوحاه الى جبريل اى كلمه الله انه وحى

وقرئ ماكذب اى صدقه ولم يشك انه جبريل بصورته (افتمارونه على مايرى) اى اتكذبونه فتجادلونه على مايراه معاينة اوابعدماذكر من احواله المنافية للمماراة تمارونه من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمرى ماعند صاحبه وقرئ افتمرونه اى افتغلبونه فى المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدى بعلى كما يقال غلبته على كذا وقيل افتمرونه افتجحدونه من مراه حقه اذا جحده (ولقد رآه نزلة اخرى) اى

او خلق فيه علما ضروريا (ثانيهما) اوحى الى جبريل ما اوحى الى محمد دليله الذى به يعرف انه وحى فعلى هذا يمكن ان يقال ما مصدرية تقديره فاوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم الايحاء اى العلم بالايحاء ليفرق بين الملك والجن * ثم قال تعالى (ما كذب الفؤاد مارأى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفؤاد فؤاد من نقول المشهور انه فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم معناه انه ما كذب فؤاده واللام لتعريف ماعلم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله الى عبده وفى قوله وهو بالافق الاعلى وقوله تعالى ماضل صاحبكم ويحتمل ان يقال ما كذب الفؤاد اى جنس الفؤاد لان المكذب هو الوهم والخيال يقول كيف يرى الله اوكيف يرى جبريل مع انه الطف من الهواء والهواء لايرى وكذلك يقول الوهم والخيال ان رأى ربه رأى فى جهة ومكان وعلى هيئة والكل ينافى كون المرئى آلها ولو رأى جبريل عليه السلام مع انه صار على صورة دحية او غيره فقد انقلبت حقيقته ولو جاز ذلك لارتفع الامان عن المرئيات فنقول رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على مارآه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب فالفؤاد لاينكر ذلك وان كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره (المسئلة الثانية) مامعنى ما كذب نقول فيه وجوه (الوجه الاول) ماقاله الزمخشرى وهو ان قلبه لم يكذب وماقال ان مارآه بصرك ليس بصحيح ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبا فيما قاله وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال معناه صدق الفؤاد فيما رأى شيئا فصدق فيه (الثانى) قرئ ما كذب الفؤاد بالتشديد ومعناه ماقال ان المرئى خيال لاحقيقة له (الثالث) هو ان هذا مقرر لما ذكرنا من ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علما ضروريا علم انه ليس بخيال وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق وتقديره ماجوزان يكون كاذبا ونفى الوقوع وارادة نفى الجواز كثير قال الله تعالى لايخفى على الله منهم شئ وقال لاتدركه الابصار وقال وماربك بغافل والكل لنفى الجواز بخلاف قوله تعالى لانضيع اجر المحسنين ولانضيع اجر من احسن عملا ولايغفر ان يشرك به فانه لنفى الوقوع (المسئلة الثالثة) الرائى فى قوله مارأى هو الفؤاد او البصر او غيرهما نقول فيه وجوه (الاول) الفؤاد كأنه تعالى قال ما كذب الفؤاد مارآه الفؤاد اى لم يقل انه جنى او شيطان بل تيقن ان مارآه بفؤاده صدق صحيح (الثانى) البصر اى ما كذب الفؤاد مارآه البصر ولم يقل ان مارآه البصر خيال (الثالث) ما كذب الفؤاد مارأى محمد عليه الصلاة والسلام وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر اى القلوب تشهد بصحة مارآه محمد صلى الله عليه وسلم وان كانت الاوهام لاتعترف بها (المسئلة الرابعة) ما المرئى فى قوله مارأى نقول على الاختلاف السابق والذى يحتمل الكلام وجوه ثلاثة (الاول) الرب تعالى (الثانى) جبريل عليه السلام (الثالث) الآيات العجيبة الالهية فان قيل كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لايقدح فيه ولايلزم منه كونه جسما فى جهة نقول اعلم ان العاقل اذا تأمل

وبالله لقد رأى جبريل فى صورته مرة اخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة لان الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت فى حكمها وقيل تقديره ولقد رآه نازلا نزلة اخرى فنصبها على المصدر (عند سدرة المنتهى) هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيول تنبع من اصلها الانهار التى ذكرها الله تعالى فى كتابه يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لايقطعها والمنتهى موضع الانتهاء اوالانتهاء كأنها

وتفكر فى رجل موجود فى مكان وقال هذا مرئى الله تعالى يراه الله وتفكر فى امر لايوجد اصلا وقال هذا مرئى الله تعالى يراه الله تعالى يجد بينهما فرقا وعقله يصحح الكلام الاول ويكذب الكلام الثانى فذلك ليس بمعنى كونه معلوما لانه لوقال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد فى كلامه خللا واستبعادا فالله راء بمعنى كونه عالما ثم ان الله يكون رائيا ولايصير مقابلا للمرئى ولايحصل فى جهة ولايكون مقابلا له وانما يصعب على الوهم ذلك من حيث انه لم ير شيئا الافى جهة فيقول ان ذلك واجب ومما يصحح هذا انك ترى فى الماء قمرا وفى الحقيقة مارأيت القمر حالة نظرك الى الماء الافى مكانه فوق السماء فرأيت القمر فى الماء لان الشعاع الخارج من البصر اتصل به فرد الماء ذلك الشعاع الى السماء لكن وهمك لمارأى أكثر ماراه فى المقابلة لم يعهد رؤية شئ يكون خلفه الابالتوجه اليه قال انى أرى القمر ولارؤية الااذا كان المرئى فى مقابلة الحدقة ولامقابل للحدقة الا الماء فحكم اذن بناء على هذا انه يرى القمر فى الماء فالوهم يغلب العقل فى العالم لكون الامور العاجلة اكثرها وهمية حسية وفى الآخرة تزول الاوهام وتنجلى الافهام فترى الاشياء لوجودها لالتحيزها واعلم ان من ينكر جواز رؤية الله تعالى يلزمه ان ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام وفيه انكار الرسالة وهو كفر وفيه مايكاد ان يكون كفرا وذلك لان من شك فى رؤية الله تعالى يقول لوكان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لان حواسنا سليمة والله تعالى ليس من وراء حجاب ولاهو فى غاية البعد عنا لعدم كونه فى جهة ولامكان فلوجاز ان يرى ولانراه للزم القدح فى المحسوسات المشاهدات اذيجوز حينئذ ان يكون عندنا جبل ولانراه فيقال لذلك القائل قد صح ان جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعنده غيره وهو يراه ولو وجب مايجوز لرآه كل احد فان قيل ان هناك حجابا نقول وجب ان يرى هناك حجابا فان الحجاب لايحجب اذا كان مرئيا على مذهبهم ثم ان النصوص وردت ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده فجعل بصره فى فؤاده اوراه ببصره فجعل فؤاده فى بصره وكيف لاوعلى مذهب اهل السنة الرؤية بالارادة لابقدرة العبد فاذا حصل الله تعالى العلم بالشئ من طريق البصر كان رؤية وان حصله من طريق القلب كان معرفة والله قادر على ان يحصل العلم بخلق مدرك للمعلوم فى البصر كما قدر على ان يحصله بخلق مدرك فى القلب والمسئلة مختلف فيها بين الصحابة فى الوقوع واختلاف الوقوع ممايبنئ عن الاتفاق على الجواز والمسئلة مذكورة فى الاصول فلا نطولها ❊ ثم قال تعالى (أفتمارونه على مايرى) اى كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه مع انه رأى مارأى عين اليقين ولاشك بعد الرؤية فهو جازم متيقن وانتم تقولون اصابه الجن ويمكن ان يقال هو مؤكد للمعنى الذى تقدم وذلك لان من تيقن شيئا قد يكون بحيث لايزول عن نفسه تشكيك ❊ واكده بقوله تعالى (ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى)

(وذلك)

فى منتهى الجنة وقيل اليها ينتهى علم الخلائق واعمالهم ولايعلم احد ماوراءها وقيل ينتهى اليها ارواح الشهداء وقيل ينتهى اليها مايهبط من فوقها ويصعد من تحتها وقيل اضافة السدرة الى المنتهى اما اضافة الشئ الى مكانه كقولك اشجار البستان او اضافة المحل الى الحال كقولك كتاب الفقه والتقدير سدرة عندها منتهى علوم الخلائق او اضافة الملك الى المالك على حذف الجار والمجرور اى سدرة المنتهى اليه وهو الله عز وجل قال تعالى الى ربك المنتهى

وذلك لانه صلى الله عليه وسلم لما رآه وهو على بسيط الارض كان يحتمل ان يقال انه من الجن احتمالا فى غاية البعد لما بينا انه صلى الله عليه وسلم حصل له العلم الضرورى بانه ملك مرسل والاحتمال البعيد لايقدح فى الجزم واليقين ألا ترى انا اذا نمنا بالليل وانتبهنا بالنهار نجزم بان البحار وقت نومنا ما نشفت ولا غارت والجبال ما عدمت ولا سارت مع احتمال ذلك فان الله قادر على ذلك وقت نومنا ويعيدها الى ما كانت عليه فى يومنا فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السادسة لم يحتمل ان يكون هناك جن ولا انس فنفى ذلك الاحتمال ايضا فقال تعالى أفتمارونه على مايرى رأى العين وكيف وهو قد رآه فى السماء فما ذا تقدرون ان تقولوا فيه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو يحتمل ان تكون عاطفة ويحتمل ان تكون للحال على ما بينا اى كيف تجادلونه فيما رآه على وجه لايشك فيه ومع ذلك لايحتمل ايراد الشكوك عليه فان كثيرا ما يشك المعتقد لشئ فيه ولكن ترد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها ولا نتريب مع ذلك فى ان الامر كما ذكرنا من المثال لانا لانشك فى ان البحار ماصارت ذهبا والجبال ماصارت عهنا واذا اوردعلينا مورد شكا وقال وقت نومك يحتمل ان الله تعالى قلبها ثم اعادها لايمكننا الجواب عنه مع انا نشك فى استمرارها على ماهى عليه لايقال اللام تنافى كون الواو للحال فان المستعمل يقال أفتمارونه وقد رأى من غير لام لانا نقول الواو التى للحال تدخل على جملة والجملة تتركب من مبتدأ وخبر او من فعل وفاعل وكلاهما يجوز فيه اللام (المسئلة الثانية) قوله نزلة فعلة من النزول فهى كجلسة من الجلوس فلابد من نزول فذلك النزول لمن كان نقول فيه وجوه وهى مرتبة على ان الضمير فى رآه عائد الى من وفيه قولان (الاول) عائد الى الله تعالى اى رأى الله نزلة اخرى وهذا على قول من قال ما رأى فى قوله ما كذب الفؤاد ما رأى هو الله تعالى وقد قيل بان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين (احدهما) انها لله وعلى هذا فوجهان (احدهما) قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل (وثانيهما) النزول بالقرب المعنوى لا الحسى فان الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد ولهذا قال موسى عليه السلام رب أرنى اى ازل بعض حجب العظمة والجلال وادن من العبد بالرحمة والافضال لاراك (والوجه الثانى) ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى الله نزلة اخرى وحينئذ يحتمل ذلك وجهين (احدهما) ان النبى صلى الله عليه وسلم نزل على متن الهوى ومركب النفس ولهذا يقال لمن ركب متن هواه انه علا فى الارض واستكبر قال تعالى علا فى الارض (ثانيهما) ان المراد من النزلة ضدها وهى العرجة كأنه قال رآه عرجة اخرى وانما اختار النزلة لان العرجة التى فى الآخرة لانزلة لها فقال نزلة ليعلم انها من الذى كان فى الدنيا (والقول الثانى) انه عائد الى جبريل عليه السلام اى رأى جبريل نزلة اخرى والنزلة حينئذ يحتمل ان تكون لمحمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرناه لان النبى صلى الله

(عندها جنة المأوى) اى الجنة التى يأوى اليها المتقون او ارواح الشهداء والجملة حالية وقيل الاحسن ان يكون الحال هو الظرف وجنة المأوى مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى (اذ يغشى السدرة مايغشى) ظرف زمان لرآه لا لما بعده من الجملة المنفية كما قيل فان ما النافية لايعمل ما بعدها فيما قبلها والغشيان بمعنى التغطية والستر ومنه الغواشى او بمعنى الاتيان يقال فلان يغشانى كل حين اى يأتينى والاول هو الاليق بالمقام وفى ابهام مايغشى من التفخيم مالا يخفى وتأخيره عن المفعول للتشويق اليه اى ولقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها مما لايكتنهه الوصف ولا يفى به البيان كيفا ولا كما وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها البديعة وللايذان باستمرار الغشيان بطريق

عليه وسلم على ماورد فى بعض اخبار ليلة المعراج جاوز جبريل عليه السلام وقال له جبريل عليه السلام لو دنوت انملة لاحترقت ثم عاد اليه فذلك نزلة فان قيل فكيف قال اخرى نقول لان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى امر الصلاة تردد مرارا فربما كان يجاوز كل مرة وينزل الى جبريل ويحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام وكلاهما منقول وعلى هذا الوجه فنزلة اخرى ظاهر لان جبريل كان له نزلات وكان له نزلتان عليه وهو على صورته وقوله تعالى عند سدرة المنتهى المشهور ان السدرة شجرة فى السماء السابعة وعليها مثل النبق وقيل فى السماء السادسة وورد فى الخبر انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال نبقها كقلال هجر وورقها كآذان الفيلة وقيل سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى من السدرة والسدرة كالركبة من الراكب يعنى عند مايحار العقل حيرة لاحيرة فوقها ماحار النبى صلى الله عليه وسلم وماغاب ورأى مارأى وقوله عند ظرف مكان او ظرف زمان فى هذا الموضع نقول المشهور انه ظرف مكان تقديره رأى جبريل او غيره بقرب سدرة المنتهى وقيل ظرف زمان كما يقال صليت عند طلوع الفجر وتقديره رآه عند الحيرة القصوى اى فى الزمان الذى تحار فيه عقول العقلاء والرؤية من اتم العلوم وذلك الوقت من اشد اوقات الجهل والحيرة فهو عليه الصلاة والسلام ماحار وقتا من شانه ان يحار العاقل فيه والله اعلم (المسئلة الثانية) ان قلنا معناه رأى الله كيف يفهم عند سدرة المنتهى قلنا فيه اقوال (الاول) قول من يجعل الله فى مكان وهو باطل وقد بالغنا فى بيان بطلانه فى سورة السجدة (الثانى) رآه محمد صلى الله عليه وسلم وهو عند سدرة المنتهى لان الظرف قد يكون ظرفا للرائى كما ذكرنا من المثال يقال رأيت الهلال فيقال لقائله اين رأيته فيقول على السطح وربما يقول عند الشجرة الفلانية واما ان قلنا ان المراد جبريل عليه السلام فالوجهان ظاهران وكون النبى صلى الله عليه وسلم مع جبريل عند سدرة المنتهى اظهر (المسئلة الثالثة) اضافة السدرة الى المنتهى من اى الاضافة نقول يحتمل وجوها (احدها) اضافة الشئ الى مكانه يقال اشجار بلدة كذا لاتطول من البرد ويقال اشجار الجنة لاتيبس ولاتخلو من الثمار فالمنتهى حينئذ موضع لايتعداه ملك وقيل لايتعداه روح من الارواح (وثانيهما) اضافة المحل الى الحال فيه يقال كتاب الفقه ومحل السواد وعلى هذا فالمنتهى عند السدرة تقديره سدرة عندها منتهى العلوم (ثالثها) اضافة الملك الى مالكه يقال دار زيد واشجار زيد وحينئذ فالمنتهى اليه محذوف تقديره سدرة المنتهى اليه قال الله تعالى الى ربك المنتهى فالمنتهى اليه هو الله واضافة السدرة اليه حينئذ كاضافة البيت اليه للتشريف والتعظيم ويقال فى التسبيح ياغاية مناه ويامنتهى املاه ۞ ثم قال تعالى (عندها جنة المأوى) وفى هذه الجنة خلاف قال بعضهم جنة المأوى هى الجنة التى وعد بها المتقون وحينئذ الاضافة كما فى قوله تعالى دار المقامة وقيل هى جنة اخرى عندها يكون ارواح الشهداء وقيل هى جنة للملائكة وقرى جنه بالهاء من جن بمعنى اجن يقال جن

التجدد وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها وقيل يزورونها متبركين بها كما يزور الناس الكعبة وقيل يغشاها سبحات انوار الله عز وجل حين يتجلى لها كما تجلى للجبل لكنها كانت اقوى من الجبل واثبت حيث لم يصبها مااصابه من الدك وقيل يغشاها فراش او جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وعنه عليه الصلاة والسلام يغشاها رفرف من طير خضر (مازاغ البصر) اى مامال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه (وماطغى) وماتجاوزه مع ماشاهد هناك من الامور العجيبة المذهلة مالايحصى بل اثبته اثباتا صحيحا متيقنا اوما عدل عن رؤية العجائب التى ام

البل واجن وعلى هذه القراءة يحتمل ان يكون الضمير فى قوله عندها عائدا الى النزلة اى عندالنزلة جن محمدا المأوى والظاهر انه عائد الى السدرة وهى الاصح وقيل ان عائشة انكرت هذه القراءة وقيل انها اجازتها ❁ وقوله تعالى (اذ يغشى السدرة ما يغشى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) العامل فى اذ ما قبلها او ما بعدها فيه وجهان فان قلنا ما قبلها ففيه احتمالان اظهرهما رآه اى رآه وقت ما يغشى السدرة الذى يغشى والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذى فى النزلة تقديره رآه نزلة اخرى تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى اى نزوله لم يكن الا بعد ما ظهرت العجائب عند السدرة وغشيها ما غشى فحينئذ نزل محمد نزلة اشارة الى انه لم يرجع من غير فائدة وان قلنا ما بعده فالعامل فيه ما زاغ البصر اى ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها وسنذكره عند تفسير الآية (المسئلة الثانية) قد ذكرت ان فى بعض الوجوه سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى وقوله يغشى السدرة على ذلك الوجه ينادى بالبطلان فهل يمكن تصحيحه نقول يمكن ان يقال المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة اى ورد على حالة الحيرة حالة الرؤية واليقين ورأى محمد صلى الله عليه وسلم عند ما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته والاول هو الصحيح فان النقل الذى ذكرنا من ان السدرة نبقها كقلال هجر يدل على انها شجرة (المسئلة الثالثة) ما الذى غشى السدرة نقول فيه وجوه (الاول) فراش او جراد من ذهب وهو ضعيف لان ذلك لا يثبت الا بدليل سمعى فان صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل وان لم يصح فلا وجه له (الثانى) الذى يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور وهو قريب لان المكان مكان لا يتعداه الملك فهم يرتقون اليه متشرفين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها (الثالث) انوار الله تعالى وهو ظاهر لان النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل اليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل وظهرت الانوار لكن السدرة كانت اقوى من الجبل واثبت فجعل الجبل دكا ولم تتحرك الشجرة وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد (الرابع) هو مبهم للتعظيم يقول القائل رأيت ما رأيت عند الملك يشير الى الاظهار من وجه والى الاخفاء من وجه (المسئلة الرابعة) يغشى يستر ومنه الغواشى او من معنى الاتيان يقال فلان يغشانى كل وقت اى يأتينى والوجهان محتملان وعلى قول من يقول الله يأتى ويذهب فالاتيان اقرب ❁ ثم قال تعالى (ما زاغ البصر وما طغى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللام فى البصر يحتمل وجهين (احدهما) المعروف وهو بصر محمد صلى الله عليه وسلم اى ما زاغ بصر محمد وعلى هذا فعدم الزيغ على وجوه ان قلنا الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت اليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن المقصود وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء وامتحانا لمحمد صلى الله عليه وسلم وان قلنا انوار الله ففيه وجهان (احدهما) لم يلتفت عنة ويسرة واشتغل بمطالعتها (وثانيهما) ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه

برؤيتها وتمكن منها وما جاوزها (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) اى والله لقد رأى الآيات التى هى كبراها وعظماها حين عرج به الى السماء فأرى من عجائب الملك والملكوت ما لا يحيط به نطاق العبارة ويجوز ان تكون الكبرى صفة للآيات والمفعول محذوف اى شيأ عظيما من آيات ربه وان تكون من مزيدة (افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) هى اصنام كانت لهم فاللات كانت لثقيف بالطائف وقيل لقريش بنخلة وهى فعلة من لوى لانهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها وقرئ بتشديد التاء على انه اسم فاعل اشتهر به رجل كان يلت السمن بالزيت ويطعمه الحاج وقيل كان يلت السويق بالطائف ويطعمه الحاج فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه وقيل كان يجلس على حجر فلما مات سمى الحجر باسمه وعبد من دون الله وقيل كان الحجر على صورته والعزى تأنيث

السلام فانه قطع النظر وغشى عليه وفى الاول بيان ادب محمد صلى الله عليه وسلم وفى الثانى بيان قوته (الوجه الثانى) فى اللام انه لتعريف الجنس اى مازاغ بصر اصلا فى ذلك الموضع لعظمة الهيبة فان قيل لو كان كذلك لقال مازاغ بصر لانه ادل على العموم لان النكرة فى معرض النفى تعم نقول هو كقوله لاتدركه الابصار ولم يقل لايدركه بصر (المسئلة الثانية) ان كان المراد محمدا فلو قال مازاغ قلبه كان يحصل به فائدة قوله مازاغ البصر نقول لا وذلك لان من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه انه يهابه ويرتجف اظهارا لعظمته مع ان قلبه قوى فاذا قال مازاغ البصر يحصل منه فائدة ان الامر كان عظيما ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر (المسئلة الثالثة) وماطغى عطف جملة مستقلة على جملة اخرى او عطف جملة مقدرة على جملة مثال المستقلة خرج زيد ودخل عمرو ومثال المقدرة خرج زيد ودخل فنقول الوجهان جائزان (اما الاول) فكأنه تعالى قال عند ظهور النور مازاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وماطغى محمد بسبب الالتفات ولو التفت لكان طاغيا (واما الثانى) فظاهر على الاوجه اما على قولنا غشى السدرة جراد فلم يلتفت اليه وماطغى اى ماالتفت الى غير الله فلم يلتفت الى الجراد ولا الى غير الجراد سوى الله واما على قولنا غشيها نور فقوله مازاغ اى مامال عن الانوار وماطغى اى ماطلب شيئا وراءها (وفيه لطيفة) وهى ان الله تعالى قال مازاغ وماطغى ولم يقل مامال وماجاوز لان الميل فى ذلك الموضع والمجاوزة مذمومان فاستعمل الزيغ والطغيان فيه وفيه وجه آخر وهو ان يكون ذلك بيانا لوصول محمد صلى الله عليه وسلم الى سدرة اليقين الذى لايقين فوقه ووجه ذلك ان بصر محمد صلى الله عليه وسلم مازاغ اى مامال عن الطريق فلم ير الشئ على خلاف ماهو عليه بخلاف من ينظر الى عين الشمس مثلا ثم ينظر الى شئ ابيض فانه يراه اصفر او اخضر يزيغ بصره عن جادة الابصار وماطغى ماتخيل المعدوم موجودا فرأى المعدوم مجاوز الحد * ثم قال تعالى (لقد رأى من ايات ربه الكبرى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه دليل على ان النبى صلى الله عليه وسلم رأى ليلة المعراج آيات الله ولم ير الله وفيه خلاف ووجهه هو أن الله تعالى ختم قصة المعراج برؤية الآيات وقال سبحان الذى اسرى بعبده ليلا الى ان قال لنريه من آياتنا ولو كان رأى ربه لكان ذلك اعظم مايمكن فكانت الآية الرؤية وكان اكبر شئ هو الرؤية ألاترى ان من له مال يقال له سافر لتربح ولايقال سافر لتتفرج لما ان الربح اعظم من التفرج (المسئلة الثانية) قال بعض المفسرين لقد رأى من آيات ربه الكبرى هى انه رأى جبريل عليه السلام فى صورته فهل هو على ماقاله نقول الظاهر ان هذه الآيات غير تلك وذلك لان جبريل عليه السلام وان كان عظيما لكن ورد فى الاخبار ان لله ملائكة اعظم منه والكبرى تأنيث الاكبر فكأنه تعالى يقول رأى من آيات ربه آيات هى اكبر الآيات فان قيل قال الله تعالى انها لاحدى الكبر مع ان اكبر من سقر عجائب الله فكذلك الآيات

(الكبرى)

الاعز كانت لغطفان وهى سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعة يدها على رأسها وهى تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك العزى ولن تعبد ابدا ومناة صخرة لهذيل وخزاعة وقيل لثقيف وكأنها سميت مناة لان دماء النسائك تمنى عندها اى تراق وقرئ ومناءة وهى مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الانواء تبركا بها والاخرى صفة ذم لها وهى المتأخرة الوضيعة المقدار وقد جوز ان تكون الاولية والتقدم عندهم للات والعزى ثم انهم كانوا مع ماذكر من عبادتهم لها يقولون ان الملائكة وتلك الاصنام بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا افرأيتم الخ والهمزة للانكار والفاء

الكبرى تكون جبريل ومافيه وان كان لله آيات اكبر منه نقول سقر احدى الكبر اى احدى الدواهى الكبر ولاشك ان فى الدواهى سقر عظيمة كبيرة واما آيات الله فليس جبريل اكبرها ولان سقر فى نفسها اعظم واعجب من جبريل عليه السلام فلا يلزم من صفتها بالكبر صفتها بالكبرى (المسئلة الثالثة) الكبرى صفة ماذا نقول فيه وجهان (احدهما) صفة محذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى (ثانيهما) صفة آيات ربه وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفا تقديره رأى من الآيات الكبرى آية او شيئا * ثم قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) لما قرر الرسالة ذكر ماينبغى ان يبتدىء به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الاشراك فقوله تعالى افرأيتم اشارة الى ابطال قولهم بنفس القول كان ضعيفا اذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء فى غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا الى هذا الذى يدعى الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فلذلك قال افرأيتم اللات والعزى اى كما هما فكيف تشركونهما بالله والتاء فى اللات تاء تأنيث كما فى المناة لكنها تكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى فان الهاء فى الله اصلية ليس تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء وهى صنم كانت لثقيف بالطائف قال الزمخشرى هى فعلة من لوى يلوى وذلك لانهم كانوا يلوون عليها وعلى ماقال فاصله لوية اسكنت الياء وحذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوه قلبت الواو الفا لفتح ماقبلها فصارت لات وقرىء اللات بالتشديد من لت قيل انه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعبد واتخذ على صورته وثن وسموه باللات وعلى هذا فاللات ذكروا اما العزى فتأنيث الاعز وهى شجرة كانت تعبد فبعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فقتلها خالد وهو يقول

ياعز كفرانك لاسبحانك * انى رأيت الله قد اهانك * ورجع الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما رأى وفعل فقال تلك العزى ولن تعبد ابدا واما مناة فهى فعلة صنم الصفا وهى صخرة كانت لهذيل وخزاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الآخر لايصح ان يقال الا اذا كان الاول مشاركا للثانى فلا يقال رأيت امرأة ورجلا آخر ويقال رأيت رجلا ورجلا آخر لاشتراك الاول والثانى فى كونهما من الرجال وههنا قوله الثالثة الاخرى يقتضى على ماذكرنا ان تكون العزى ثالثة اولى ومناة ثالثة اخرى وليس كذلك والجواب عنه من وجوه (الاول) الاخرى كما هى تستعمل للذم قال الله تعالى وقالت اولاهم لاخراهم اى لمتأخرتهم وهم الاتباع ويقال لهم الاذناب لتأخرهم فى المراتب فهى صفة ذم كأنه تعالى يقول ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة ونقول على هذا للاصنام الثلاثة ترتيب وذلك لان الاول كان وثنا على صورة آدمى والعزى صورتها صورة نبات ومناة صورتها صورة صخرة هى جماد فالآدمى اشرف من النبات والنبات اشرف من الجماد فالجماد متأخر والمناة جماد

لتوجيهه الى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شؤن الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهى قلبية ومفعولها الثانى محذوف لدلالة الحال عليه فالمعنى اعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل فى ملكه وملكوته وجلاله وجبروته واحكام قدرته ونفاذ امره فى الملأ الاعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتم هذه الاصنام مع غاية حقارتها وقاتمها بنات له تعالى وقيل المعنى افرأيتم هذه الاصنام مع حقارتها وذلتها شركاء الله تعالى مع ماتقدم من عظمته وقيل اخبرونى عن آلهتكم هل لها شىء من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة فى الآى السابقة وقيل المعنى اظننتم ان هذه الاصنام التى تعبدونها تنفعكم وقيل اظننتم انها تشفع لكم فى الآخرة وقيل افرأيتم الى هذه الاصنام ان عبدتموها لاتنفعكم وان تركتموها لاتضركم والاول

فهي في الاخريات من المراتب (الجواب الثاني) فيه محذوف تقديره افرأيتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الاخرى (الجواب الثالث) هو ان الاصنام كان فيها كثرة واللات والعزى اذا اخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهي ثالثة فهناك ثوالث فكأنه يقول لهما ثوالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى وهذا كقول القائل يوما ويوما (الجواب الرابع) فيه تقديم وتأخير تقديره ومناة الاخرى الثالثة ويحتمل ان يقال الاخرى تستعمل لموهوم اومفهوم وان لم يكن مشهورا ولا مذكورا يقول من يكثر تأذيه من الناس اذا آذاه انسان الآخر جاء يؤذينا وربما يسكت على قوله انت الآخر فيفهم غرضه كذلك ههنا (المسئلة الثانية) وهي في الترتيب اولى مافائدة الفاء في قوله افرأيتم اللات والعزى وقد استعمل في مواضع بغير الفاء قال تعالى ارأيتم ماتدعون من دون الله ارأيتم شركاءكم نقول لما تقدم من عظمة آيات الله في ملكوته ان رسول الله الى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض اجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لايمكنه ان يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته قال افرأيتم هذه الاصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله مع ماتقدم فقال بالفاء اى عقيب ماسمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ونفاذ امره في الملأ الاعلى وماتحت الثرى فانظروا الى اللات والعزى تعلموا فساد ماذهبتم اليه وعولتم عليه (المسئلة الثالثة) اين تتمة الكلام الذي يفيد فائدة مانقول قد تقدم بيانه وهو انه يقول هل رأيتم هذه حق الرؤية فان رأيتموها علمتم انها لايصلح شركاء نظيره ماذكرنا فيمن ينكر كون ضعيف يدعي ملكا يقول لصاحبه ماتعرف فلانا مقتصرا عليه مشيرا الى بطلان مايذهب اليه * ثم قال تعالى (الكم الذكر وله الانثى) وقد ذكرنا مايجب ذكره في سورة الطور في قوله ام له البنات ولكم البنون ونعيد ههنا بعض ذلك اوما يقرب منه فنقول لما ذكر اللات والعزى ومناة ولم يذكر شيئا آخر قال ان هذه الاشياء التي رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء لله وقد سمعتم جلال الله وعظمته وان الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون الى السدرة ويقفون هناك لايبقى شك في كونهم بعيدين عن طريقة المعقول اكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول فكأنهم قالوا نحن لانشك ان شيئا منها ليس مثلا لله تعالى ولا قريبا من ان يماثله وانما صورنا هذه الاشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الانبياء وقالوا انهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الامر والنهي وينهون الى الله مايصدر من عباده في ارضه وهم بنات الله فاتخذنا صورا على صور الاناث وسميناها اسماء الاناث فاللات تأنيث الله وكان اصله ان يقال اللاهة لكن في التأنيث يوقف عليها فتصير اللاهة فاسقط احدى الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين اصليين وتاء التأنيث فجعلناها كالاصلية كما فعلنا بذات مال وذامال والعزى تأنيث الاعز فقال لهم كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم في انفسكم ان البنات ناقصات والبنين كاملون والله كامل العظمة فالمنسوب اليه كيف جعلتموه ناقصا وانتم في غاية الحقارة

(والذلة)

هو الحق كما يشهد به قوله تعالى (الكم الذكر وله الانثى) شهادة بينة فانه توبيخ مبني على التوبيخ الاول وحيث كان مداره تفضيل جانب انفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم اليه تعالى الاناث مع اختيارهم لانفسهم الذكور وجب ان يكون مناط الاول نفس تلك النسبة حتى يتسنى بناء التوبيخ الثاني عليه وظاهر ان ليس في شئ من التقديرات المذكورة من تلك النسبة عين ولا اثر واما ما قيل من ان هذه الجملة مفعول ثان للرؤية وخلوها عن العائد الى المفعول الاول لما ان الاصل اخبروني ان اللات والعزى ومناة ألكم الذكر وله هن اى تلك الاصنام فوضع موضعها الانثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ فمع ما فيه من التمحلات التي ينبغي تنزيه ساحة التنزيل عن امثالها يقتضي اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير على جناب الله العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد اليه سبحانه (تلك) اشارة الى القسمة المنفهمة من الجملة

والذلة حيث جعلتم انفسكم اذل من حمار وعبد ثم صخرة وشجرة ثم نسبتم الى انفسكم الكامل فهذه القسمة جائرة على طريقكم ايضا حيث اذللتم انفسكم ونسبتم اليها الاعظم من الثقلين وابغضتم البنات ونسبتموهن الى الاعظم وهو الله تعالى وكان على عادتكم ان تجعلوا الاعظم للعظيم والانقص للحقير فاذن انتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التى لكم * وقوله تعالى (تلك اذا قسمة ضيزى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) تلك اشارة الى ماذا نقول الى محذوف تقديره تلك القسمة قسمة ضيزى اى غير عادلة ويحتمل ان يقال معناه تلك النسبة قسمة وذلك لانهم ماقسموا وماقالوا لنا البنون وله البنات وانما نسبوا الى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى ويجعلون لله مايكرهون فلما نسبوا الى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة وهذا الخلاف لايرهق (المسئلة الثانية) اذا جواب ماذا نقول يحتمل وجوها (الاول) نسبتكم البنات الى الله تعالى اذا كان لكم البنون قسمة ضيزى (الثانى) نسبتكم البنات الى الله تعالى مع اعتقادكم انهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم انهم كاملون اذا كنتم فى غاية الحقارة والله تعالى فى نهاية العظمة قسمة ضيزى فان قيل ما اصل اذا قلنا هو اذا التى للظرف قطعت الاضافة عنها فحصل فيها تنوين وبيانه هو انك تقول آتيك اذا طلعت الشمس فكانك اضفت اذا الطلوع الشمس وقلت آتيك وقت طلوع الشمس فاذا قال قائل آتيك فتقول له اذا اكرمك اى اذا آتيتنى اكرمك فلما حذفت الاتيان لسبق ذكره فى قول القائل اتيت بدله بتنوين وقلت اذا كما تقول وكلا آتيناه (المسئلة الثالثة) ضيزى قرئ بالهمز وبغير همز وعلى الاولى هى فعلى بكسر الفاء كذكرى على انه مصدر وصف به كرجل عدل اى قسمة ضائزة وعلى القراءة الثانية هى فعلى وكان اصلها ضوزى لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب كذلك فعل ببيض فان جمع افعل فعل تقول اسود وسود واحمر وحمر وتقول أبيض وبيض وكان الوزن بيض وكان يلزم منه قلب العين فكسرت الباء وتركت الياء على حالها وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة تقول فاضل وافضل وفاضلة وفضلى وكبير واكبر وكبيرة وكبرى كذلك ضائز واضوز وضائزة وضوزى وعلى هذا تقول اضوز من ضائز وضيزى من ضائزة فان قيل قد قلت من قبل ان قوله ام له البنات ولكم البنون ليس بمعنى انكار الامرين بل بمعنى انكار الاول واظهار النكر بالامر الثانى كما تقول أتجعلون لله اندادا وتعلمون انه خلق كل ما سواه فانه لاينكر الثانى وههنا قوله تلك اذا قسمة ضيزى دل على انه انكر الامرين جميعا نقول قد ذكرنا هناك ان الامرين محتملان اما انكار الامرين فظاهر فى المشهور اما انكار الاول فثابت بوجوه واما الثانى فلما ذكرنا انه تعالى قال كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته كما قال تعالى يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور وخالق البنين لكم لايكون له بنات واما قوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى فنقول قد بينا ان تلك عائدة الى النسبة اى

الاستفهامية (اذا قسمة ضيزى) اى جائرة حيث جعلتم له تعالى ماتستنكفون منه وهى فعلى من الضيز وهو الجور لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل فى بيض فان فعلى بالكسر لم يأت فى الوصف وقرئ ضئزى بالهمزة من ضازه اذا ظلمه على انه مصدر نعت به وقرئ ضيزى اما على انه مصدر وصف به كدعوى او على انه صفة كسكرى وعطشى (ان هى) الضمير للاصنام اى ما الاصنام باعتبار الالوهية التى يدعونها (الا اسماء) محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الالوهية شئ ما اصلا وقوله تعالى (سميتموها) صفة لاسماء وضميرها لها لا للاصنام والمعنى جعلتموها اسماء لا جعلتم لها اسماء فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست الى الاسم فمعناها جعله اسما للمسمى وان قيست الى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وانما اختير ههنا المعنى الاول من غير تعرض للمسمى

نسبتكم البنات الى الله تعالى مع ان لكم البنين قسمة ضائزة فالمنكر تلك النسبة وان كان المنكر القسمة نقول يجوز ان يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى كما ان واحدا اذا كان بينه وبين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطى من النصف الباقي نصفه لظالمه ونصفه لصاحبه فقال هذه قسمة ضائزة لا لكونه اخذ النصف فذلك حقه بل لكونه لم يوصل اليه النصف الباقي * ثم قال تعالى (ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان) وفيه مباحث تدق عن ادراك اللغوى ان لم يكن عنده من العلوم حظ عظيم ولنذكر ماقيل فيه اولا فنقول قيل معناه ان هى الا اسماء اى كونها اناثا وكونها معبودات اسماء لا مسمى لها فانها ليست باناث حقيقة ولا معبودات وقيل اسماء اى قلتم بعضها عزى ولا عزة لها وقيل قلتم انها آلهة وليست بآلهة والذى نقوله هو ان هذا جواب عن كلامهم وذلك على ما بينا انهم قالوا نحن لا نشك فى ان الله تعالى لم يلد كما تلد النساء ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والاحبال غير انا رأينا لفظ الولد مستعملا عند العرب فى المسبب تقول بنت الجبل وبنت الشفة لما يظهر منهما ويوجد لكن الملائكة اولاد الله بمعنى انهم وجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا انهم اولاده ثم ان الملائكة فيها تاء التأنيث فقلناهم اولاد مؤنثة والولد المؤنث بنت فقلنا لهم بنات الله اى لا واسطة بينهم وبين الله تعالى فى الايجاد كما تقول الفلاسفة فقال تعالى هذه الاسماء استنبطتموها أنتم بهوى انفسكم واطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير جائز وقوله تعالى يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وقوله بيده الخير اسماء موهمة غير انه تعالى انزلها وله ان يسمى نفسه بما اختار وليس لاحد ان يسميه باسم يوهم النقص من غير ورود الشرع به ولنبين التفسير فى مسائل (المسئلة الاولى) هى ضمير عائد الى ماذا نقول الظاهر انها عائدة الى امر معلوم وهو الاسماء كأنه قال ماهذه التى وضعتموها انتم وهو المشهور ويحتمل ان يقال هى عائدة الى الاصنام بأنفسها اى ماهذه الاصنام الا أسماء وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز يقال لتحقير انسان مازيد الا اسم وما الملك الا اسم اذا لم يكن مشتملا على صفة تعتبر فى الكلام بين الناس ويؤيد هذا القول قوله تعالى ماتعبدون من دونه الا اسماء اى ماهذه الاصنام الا اسماء (المسئلة الثانية) ماالفائدة فى قوله سميتموها مع ان جميع الاسماء هم وضعوها او بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم نقول المسئلة مختلف فيها ولا يتم الذم الا بقوله تعالى ما انزل الله بها من سلطان وبيانه هو ان الاسماء ان انزلها الله تعالى فلا كلام فيها وان وضعها الناس للتفاهم فينبغى ان لا يكون فى ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها لكن ايهام النقص فى صفات الله تعالى اعظم فالله تعالى ماجوز وضع الاسماء للحقائق الا حيث تسلم عن المحرم فلم يوجد فى هذه الاسماء دليل نقلى ولا وجه عقلى لان ارتكاب المفسدة العظيمة لاجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل فاذا ما أنزل الله بها من سلطان ووضع الاسم لا يجوز الا بدليل نقلى او عقلى وهو انه يقع خاليا

لتحقيق ان تلك الاصنام التى يسمونها آلهة اسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما فى قوله تعالى ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها الآية لا ان هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية وقيل هى للاسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الاصنام لاعتقادهم انها تستحق العكوف على عبادتها والاعزاز والتقرب اليها بالقرابين وانت خبير بأنه لو سلم دلالة الاسماء المذكورة على ثبوت تلك المعانى الخاصة بالاصنام فليس فى سلبها عنها مزيد فائدة بل انما هى فى سلب الالوهية عنها كما هو زعمهم المشهور فى حق جميع الاصنام على وجه برهانى فان انتفاء الموصوف يقتضى انتفاء الوصف بطريق الاولوية اى ماهى الا اسماء خالية عن المسميات وضعتموها (انتم وآباؤكم) بمقتضى اهوائكم الباطلة (ما انزل الله بها من سلطان) برهان تتعلقون به

عن وجوه المضار الراجحة (المسئلة الثالثة) كيف قال سميتموها أنتم مع ان هذه الاسامى لاصنامهم كانت قبلهم نقول فيه لطيفة وهى انهم لو قالوا ماسميناها وانما هى موضوعة قبلنا قيل لهم كل من يطلق هذه الالفاظ فهو كالمبتدئ الواضع وذلك لان الواضع الاول لهذه الاسماء لما لم يكن واضعا بدليل نقلى ولا واضعا بدليل عقلى لم يجب اتباعه فمن يطلق اللفظ لان فلانا اطلقه لا يصح منه كما لا يصح ان يقول اضلنى الاعمى ولو قاله لقيل له بل أنت اضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت انه لا يصلح للاقتداء به (المسئلة الرابعة) الاسماء لا تسمى وانما يسمى بها فكيف قال سميتموها نقول عنه جوابان (احدهما) لغوى وهو ان التسمية وضع الاسم فكأنه قال اسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها ويقال سميته زيدا وسميته بزيد فسميتموها بمعنى سميتم بها (وثانيهما) معنوى انه لو قال اسماء سميتم بها لكان هناك غير الاسم شئ يتعلق به الباء فى قوله بها لان قول القائل سميت به يستدعى مفعولا آخر تقول سميت بزيد ابنى او عبدى او غير ذلك فيكون قد جعل للاصنام اعتبارا وراء اسمائها واذا قال ان هى الا اسماء سميتموها اى وضعتموها فى انفسها الا مسميات لها لم يكن ذلك فان قيل هذا باطل بقوله تعالى وانى سميتها مريم حيث لم يقل وانى سميتها بمريم ولم يكن ماذكرت مقصودا والا لكانت مريم غير ملتفت اليها كما قلت فى الاصنام نقول بينهما بون عظيم وذلك لان هناك قال سميتها مريم فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله سميتها واسمها بقوله مريم واما ههنا فقال ان هى الا اسماء سميتموها اى ماهناك الا الاسماء موضوعة فلم تعتبر الحقيقة ههنا واعتبرت فى مريم (المسئلة الخامسة) ما انزل الله بها من سلطان على اى وجه استعملت الباء فى قوله بها من سلطان نقول كما يستعمل القائل ارتحل فلان بأهله ومتاعه اى ارتحل ومعه الاهل والمتاع كذلك ههنا ❁ ثم قال تعالى (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ ان تتبعون بالتاء على الخطاب وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى أنتم وآباؤكم وعلى المغايبة وفيه وجهان (احدهما) أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون التفاتا كأنه قطع الكلام معهم وقال لنبيه انهم لا يتبعون الا الظن فلا تلتفت الى قولهم (ثانيهما) ان يكون المراد غيرهم وفيه احتمالان (احدهما) ان يكون المراد آباءهم وتقديره هو انه لما قال سميتموها أنتم كأنهم قالوا هذه ليست اسماء وضعناها نحن وانما هى كسائر الاسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون الا الظن فان قيل كان ينبغى ان يكون بصيغة الماضى نقول وبصيغة المستقبل ايضا كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما فى قوله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه (ثانيهما) ان يكون المراد عامة الكفار كانه قال ان يتبع الكافرون الا الظن (المسئلة الثانية) مامعنى الظن وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه فى الفقه وقال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى نقول اما الظن فهو خلاف العلم

(ان يتبعون) التفات الى الغيبة للايذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم اى ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها (الا الظن) الا توهم ان ماهم عليه حق توهما باطلا (وما تهوى الانفس) اى تشتهيه انفسهم الامارة بالسوء (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قيل هى حال من فاعل يتبعون او اعتراض وايا ما كان ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس وزيادة تقبيح لحالهم فان اتباعهما من اى شخص كان قبيح وممن هداه الله تعالى بارسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزل الكتاب اقبح

وقد استعمل مجازا مكان العلم والعلم مكانه واصل العلم الظهور ومنه العلم والعالم وقد بينا في تفسير العالمين ان حروف علم في تقاليبها فيها معنى الظهور ومنها لمع الآل اذا ظهر وميض السراب ولمع الغزال اذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور وكذلك علمت والظن اذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء ومنه بئر ظنون لايدرى افيها ماء أم لا ومنه الظنين المتهم لايدرى مايظن نقول يجوز بناء الامر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين والاعتقاد ليس كذلك لان اليقين لم يتعذر علينا والى هذا اشار بقوله ولقد جاءهم من ربهم الهدى اى اتبعوا الظن وقد امكنهم الاخذ باليقين وفي العمل يمتنع ذلك ايضا (المسئلة الثالثة) ما في قوله تعالى وماتهوى الانفس خبرية اومصدرية نقول فيه وجهان (احدهما) مصدرية كأنه قال ان يتبعون الا الظن وهوى الانفس فان قيل ماالفائدة في العدول عن صريح المصدر الى الفعل مع زيادة ما وفيه تطويل نقول فيه فائدة وانها في اصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول اذا قال القائل اعجبني صنعك يعلم من الصيغة ان الاعجاب من مصدر قد تحقق وكذلك اذا قال أعجبني ماتصنع يعلم ان الاعجاب من مصدر هو فيه فلو قال أعجبني صنعك وله صنع أمس وصنع اليوم لايعلم ان المعجب اى صنع هو اذا علمت هذا فنقول ههنا قوله وماتهوى الانفس يعلم منه ان المراد انهم يتبعون ماتهوى انفسهم في الحال والاستقبال اشارة الى انهم ليسوا ثابتين على ضلال واحد وماهوت انفسهم في الماضي شيئا من انواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه بل كل يوم هم يستخرجون عبادة واذا انكسرت اصنامهم اليوم أتوا بغيرها غدا ويغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم (ثانيهما) انها خبرية تقديره والذى تشتهيه انفسهم والفرق بين المصدرية والخبرية ان المتبع على الاول الهوى وعلى الثانى مقتضى الهوى كما اذا قلت اعجبنى مصنوعك (المسئلة الرابعة) كيف قال وماتهوى الانفس بلفظ الجمع مع انهم لايتبعون ماتهواه كل نفس فان من النفوس مالاتهوى ماتهواه غيرها نقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع معناه اتبع كل واحد منهم ماتهواه نفسه يقال خرج الناس بأهليهم اى كل واحد بأهله لا كل واحد بأهل الجمع (المسئلة الخامسة) بين لنا معنى الكلام جملة نقول قوله تعالى ان يتبعون الا الظن وماتهوى الانفس أمران مذكوران يحتمل ان يكون ذكرهما لامرين تقديرين يتبعون الظن في الاعتقاد ويتبعون ماتهوى الانفس في العمل والعبادة وكلاهما فاسد لان الاعتقاد ينبغى أن يكون مبناه على اليقين وكيف يجوز اتباع الظن في الامر العظيم وكما كان الامر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه اوجب واحذر واما العمل فالعبادة مخالفة للهوى فكيف تبنى على متابعته ويحتمل ان يكون في أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال ان يتبعون الا الظن وتهوى الانفس اى ومادون الظن لان القرونة تهوى مالايظن به خير وقوله تعالى ولقد جاءهم من ربهم الهدى اشارة الى انهم على حال لايعتد به لان

اليقين مقدور عليه وتحقق بمجيء الرسل * والهدى فيه وجوه ثلاثة (الاول) القرآن (الثانى) الرسل (الثالث) المعجزات * ثم قال تعالى (ام للانسان ماتمنى) المشهور ان ام منقطعة معناه اللانسان مااختاره واشتهاه وفى ماتمنى وجوه (الاول) الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة (الثانى) قولهم ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى (الثالث) قول الوليد بن المغيرة لأوتين مالا وولدا (الرابع) تمنى جماعة ان يكونوا انبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة فان قلت هل يمكن ان تكون أم ههنا متصلة نقول نعم والجملة الاولى حينئذ تحتمل وجهين (احدهما) انها مذكورة فى قوله تعالى الكم الذكر وله الانثى كأنه قال الكم الذكر وله الانثى على الحقيقة او تجعلون لانفسكم ماتشتهون وتمنون وعلى هذا فقوله تلك اذا قسمة ضيزى وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين (ثانيهما) انها محذوفة وتقرير ذلك هو انا بينا ان قوله افرأيتم لبيان فساد قولهم والاشارة الى ظهور ذلك من غير دليل كما اذا قال قائل فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث امارأيت هذا الذى يقوله فلان ولا يذكر انه لايصلح للملك ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبها على عدم صلاحه له فههنا قال تعالى افرأيتم اللات والعزى اى يستحقان العبادة ام للانسان ان يعبد مايشتهيه طبعه وان لم يكن يستحق العبادة وعلى هذا فقوله ام للانسان اى هل له ان يعبد بالتمنى والاشتهاء ويؤيد هذا قوله تعالى وماتهوى الانفس اى عبدتم بهوى انفسكم مالايستحق العبادة فهل لكم ذلك * ثم قال تعالى (فلله الآخرة والاولى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق الفاء بالكلام وفيه وجوه (الاول) ان تقديره الانسان اذا اختار معبودا فى دنياه على ماتمناه واشتهاه فلله الآخرة والاولى يعاقبه على فعله فى الدنيا وان لم يعاقبه فى الدنيا فيعاقبه فى الآخرة وقوله تعالى وكم من ملك الى قوله تعالى لاتغنى شفاعتهم يكون مؤكدا لهذا المعنى اى عقابهم يقع ولا يشفع فيهم احد ولا يغنيهم شفاعة شافع (الثانى) انه تعالى لما بين ان اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الانفس كأنه قرره وقال ان لم تعلموا هذا فلله الآخرة والاولى وهذه الاصنام ليس لها من الامر شئ فكيف يجوز الاشراك وقوله تعالى وكم من ملك على هذا الوجه جواب كلام كأنهم قالوا لانشرك بالله شيئا وانما هذه الاصنام شفعاؤنا فانها صور ملائكة مقربين فقال وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا (الثالث) هذا تسلية كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بين رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال لاتأس فلله الآخرة والاولى اى لايعجزون الله (الرابع) هو ترتيب حق على دليله بيانه هو انه تعالى لما بين رسالة النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ان هو الا وحى يوحى الى آخره وبين بعض ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوحيد قال اذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى فلله الآخرة والاولى لانه صلى الله عليه وسلم اخبركم عن الحشر فهو صادق (الخامس) هو ان الكفار كانوا يقولون للمؤمنين اهؤلاء اهدى منا وقالوا لو كان خيرا ماسبقونا

(أم للانسان ماتمنى) أم منقطعة ومافيها من بل للانتقال من بيان ان ماهم عليه غير مستند الا الى توهمهم وهوى انفسهم الى بيان ان ذلك مما لايجدى نفعا اصلا والهمزة للانكار والنفى اى ليس للانسان كل مايتمناه وتشتهيه نفسه من الامور التى من جملتها اطماعهم الفارغة فى شفاعة الآلهة ونظائرها التى لاتكاد تدخل تحت الوجود (فلله الآخرة والاولى) تعليل لانتفاء ان يكون للانسان مايتمناه حتما فان اختصاص امور الآخرة والاولى جميعا به تعالى مقتض لانتفائها ان يكون له امر من الامور

اليه فقال تعالى ان الله اختار لكم الدنيا واعطا كم الاموال ولم يعط المؤمنين بعض ذلك
الامر بل قلتم لوشاء الله لاغناهم وتحققتم هذه القضية فلله الآخرة والاولى فقولوا في
الآخرة ماقلتم في الدنيا يهدى الله من يشاء كما يغنى الله من يشاء (المسئلة الثانية)
الآخرة صفة ماذا نقول صفة الحياة او صفة الدار وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل
تقول أخرته فتأخر وكان من حقه ان تقول فأخر كما تقول غيرته فغير فمنعت منه سماعا
ولهذا البحث فائدة ستأتي ان شاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) الاولى فعلى للتأنيث فالاول
اذن افعل صفة وفيه مباحث (الاول) لابد من فاعل اخذ منه الافعل والفعلى فان كان
فعلى وافعل للتأنيث والتذكير له اصل فليؤخذ منه كالفضلى والافضل من الفاضلة
والفاضل فاذا نقول ههنا اخذ من اصل غير مستعمل كما قلنا ان الآخر فاعل من فعل
غير مستعمل وسبب ذلك هو ان كل فعل مستعمل فله آخر وذلك لان له ماضيا فاذا
استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل والالكان الفاعل بعد في الفعل فلا يكون ماضيا فانك
لاتقول لمن هو بعد في الاكل أكل الامتجوزا عند ما بقي له قليل فيقول اكل اشارة الى
ان ما بقي غير معتد به وتقول لمن قرب من الفراغ فرغت فيقول فرغت بمعنى ان ما بقي
قليل لايعتد به فكأني فرغت واما الماضي في الحقيقة لا يصح الا عند تمام الشيء والفراغ
عنه فاذا للفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر
كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجلس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال
فكان ينبغي ان القائل اذا قال فلان أخر كان معناه وجد منه تمام الآخرية وفرغ منها
فلا يكون بعده مايكون آخرا لكن تقدم ان كل فعل فله آخر بعده لا يقال يشكل بقولنا
تأخر فان معناه صار آخرا لانا نقول وزن الفعل ينادي على صحة ماذكرنا فانه من باب
التكلف والتكبر اذا استعمل في غير المتكبر اي يرى انه آخر وليس في الحقيقة كذلك اذا
علمت هذا فنقول الآخر فاعل ليس له فعل ومبالغته بأفعل وهو كقولنا أأخر فنقلت
الهمزة الى مكان الالف والالف الى مكان الهمزة فصارت الالف همزة والهمزة الفا
ويدل عليه التأويل في المعنى فان آخر الشيء جزء منه متصل به والآخر مباين عنه منفصل
والمنفصل بعد المتصل والآخر اشد تأخرا عن الشيء من آخره والاول افعل ليس له فاعل
وليس له فعل والاول أبعد عن الفعل من الاخر وذلك لان الفعل الماضي علم له آخر من
وصفه بالماضي ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر واما الفعل لتفسير كونه فعلا علم له اول لان
الفعل لابد له من فاعل يقوم به او يوجد منه فاذا الفاعل اولا ثم الفعل فاذا كان الفاعل
اول الفعل كيف يكون الاول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل فلا يقال آل الشيء
بمعنى سبق كما يقال قال من القول اونال من النيل لايقال ان قولنا سبق اخذ منه السابق
ومن السابق الاسبق مع ان الفاعل يسبق الفعل وكذلك يقال تقدم الشيء مع ان الفاعل
متقدم على الفعل الى غير ذلك نقول اما تقدم قد مضى الجواب عنه في تأخر واما سبق

(يقول)

يقول القائل سابقته فسبقته فنجيب عنه بان ذلك مفتقر الى امر يصدر من فاعل فالسابق ان استعمل فى الاول فهو بطريق المشابهة لابطريق الحقيقة والفاعل اول الفعل بمعنى قبل الفعل وليس سابق الفعل لان الفاعل والفعل لايتسابقان فالفاعل لايسبقه والذى يوضح ماذكرنا ان الآخر ابعد من الاول عن الفعل بخلاف الآخر ومايقال ان اول بمعنى جعل الآخر اولالاستخراج معنى من الكلام فبعيد والالم يكن أخردونه فى افادة ذلك بل التأويل من آل الشىء اذارجع اى رجعه الى المعنى المراد وابعد من اللفظين قبل وبعد فان الآخر فاعل من غير فعل والاول افعل من غير فاعل ولافعل وقبل وبعدلافاعل ولاافعل فلايفهم من فعل اصلا لان الاول اول لمافيه من معنى قبل وليس قبل قبلا لمافيه من معنى الاول والآخر آخر لمافيه من معنى بعد وليس بعد بعدالمافيه من معنى الآخر يدلك عليه انك تعلل احدهما بالآخر ولاتعكسه فتقول هذا آخر من جاء لانه جاء بعد الكل ولاتقول هو جاء بعد الكل لانه آخر من جاء ويؤيده ان الآخر لايتحقق الابعدية مخصوصة وهى التى لابعدية بعدها وبعدليس لايتحقق الا بالآخر فان المتوسط بعد الاول ليس بآخر وهذا البحث من ابحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا الدهر فان الدهر هو الله اى الذى يفهم منه القبلية والبعدية والله تعالى هو الذى يفهم منه ذلك والبعدية والقبلية حقيقة لاثبات الله ولامفهوم للزمان الامابه القبلية والبعدية فلاتسبوا الدهر فان ماتفهمونه منه لايتحقق الا فى الله وبالله ولولاه لماكان قبل ولابعد (البحث الثانى) ورد فى كلام العرب الاولة تأنيث الاول وهو ينافيه صحة استعمال الاولى لان الاولى تدل على ان الاول افعل للتفضيل وافعل التفضيل لايلحقه تاء التأنيث فلايقال زيداعلم وزينب اعلمة لسبب يطول ذكره وسنذكره فى موضع آخر ان شاء الله تعالى نقول الجواب عنه هوان اول لماكان افعل وليس له فاعل شابه الاربع والارنب فجاز الحاق التاء به ولماكان صفة شابه الاكبر والاصغر فقيل اولى (المسئلة الرابعة) اولى تدل على ان اول لاينصرف فكيف يقال افعله اولا ويقال جاء زيدا اولا وعمرو ثانيا فان قيل جاز فيه الامران بناء على اوله واولى فمن قال بأن تأنيث اول اولة فهو كالاربع والاربعة فجاز التنوين ومن قال اولى لايجوز نقول اذا كان كذلك كان الاشهر ترك التنوين لان الاشهر ان تأنيثه اولى وعليه استعمال القرآن فاذن الجواب ان عند التأنيث الاولى ان يقال اولى نظرا الى المعنى وعند العرب اولة لانه هو الاصل ودل عليه دليل وان كان اضعف من الغير وربما يقال بان منع الصرف من افعل لايكون الااذا لم يكن تأنيثه الافعلى واما اذا كان تأنيثه بالتاء اوجاز ذلك فيه لايكون غير منصرف ❁ ثم قال تعالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيأ الامن بعدان يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقدعلم وجه تعلقها بماقبلها فى الوجوه المتقدمة فى قوله تعالى فلله الآخرة ان قلنا ان معناه ان اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الامر

وقوله تعالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا) اقناط لهم عما علقوا به اطماعهم من شفاعة الملائكة لهم موجب لاقناطهم من شفاعة الاصنام بطريق الاولوية وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء والخبر هى الجملة المنفية وجمع الضمير فى شفاعتهم مع افراد الملك باعتبار المعنى اى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عندالله تعالى شيئا من الاغناء فى وقت من الاوقات (الا من بعد ان يأذن الله) لهم فى الشفاعة (لمن يشاء) ان يشفعوا له (ويرضى) ويراه اهلا للشفاعة من اهل التوحيد والايمان واما من عداهم من اهل الكفر والطغيان فهم من اذن الله تعالى بمعزل ومن الشفاعة بالف منزل فاذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر فاظنهم بحال الاصنام

شئ فلله الآخرة والاولى فلا يجوز اشراكهم فيقولون نحن لانشرك بالله شيئا وانما نقول هؤلاء شفعاؤنا فقال كيف تشفع هذه ومن فى السموات لايملك الشفاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كم كلمة تستعمل فى المقادير اما لاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعا طوله وكم رجلا جاءك اى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى حينئذ مثل كيف لاستبانة الاحوال واى لاستبانة الافراد وما لاستبانة الحقائق واما لبيانها على الاجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل اى كثير منهم اكرمونى غير ان عليه اسئلة (الاول) لم لم يجز ادخال من على الاستفهامية وجاز على الخبرية (الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية (الثالث) هى تستعمل فى الخبرية فى مقابلة رب فلم جعل اسما مع ان رب حرف * اما الجواب عن الاول فهو ان من يستعمل فى الموضع المتعين بالاضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ولما لم تضف فى الاستفهامية لم يجز استعمال مايضاهيه وسنبين هذا الجواب * والجواب عن السؤال الثانى هو ان نقول ان الاصل فى المميز الاضافة * وعن الثالث هو ان كم يدخل عليه حرف الجر فتقول الى كم تصير وفى كم يوم جئت وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى ان كم اذا قرن بها من وجعل مميزه جمعا كما فى قول القائل كم من رجال خدمتهم يكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وان كانت للتقليل لكن لاتقوم مقام القليل فلا يمكن ان يقال فى رب انها عبارة عن قليل كما قلنا فى كم انه عبارة عن كثير (المسئلة الثانية) قال شفاعتهم على عود الضمير الى المعنى ولو قال شفاعته لكان العود الى اللفظ فيجوز ان يقال كم من رجل رأيته وكم من رجل رأيتهم فان قلت هل بينهما فرق معنوى قلت نعم وهو انه تعالى لما قال لاتغنى شفاعتهم يعنى شفاعة الكل ولو قال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لاتغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال احد ان شفاعتهم تغنى اذا اجتمعت وعلى هذا فى الكلام امور كلها تشير الى عظم الامر (احدها) كم فانه للتكثير (ثانيها) لفظ الملك فانه اشرف اجناس المخلوقات (ثالثها) فى السموات فانها اشارة الى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة (رابعها) اجتماعهم على الامر فى قوله شفاعتهم وكل ذلك لبيان فساد قولهم ان الاصنام يشفعون اى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فان الجماد اخس الاجناس والملائكة اشرفها وهم فى اعلى السموات ولاتقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات (المسئلة الثالثة) ما الفائدة فى قوله تعالى كم من ملك بمعنى كثير من الملائكة مع ان كل من فى السموات منهم لايملك الشفاعة نقول المقصود الرد عليهم فى قولهم هذه الاصنام تشفع وذلك لايحصل ببيان ان ملكا من الملائكة لاتقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثير ولم يقل مامنهم احد يملك الشفاعة لانه اقرب الى المنازعة فيه من قوله كثير مع ان المقصود حاصل به * ثم ههنا بحث وهو ان فى بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير وفى البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على

طريقة واحدة وهو استقلال الباقى وعدم الاعتداد فى قوله تعالى تدمر كل شىء كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت اليه وفى قوله تعالى وكم من ملك وقوله بل اكثرهم لايعلمون وقوله اكثرهم بهم مؤمنون يجعل المخرج غير ملتفت اليه فيجعل كأنه ما اخرجه كالامر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام فان كان الكلام مذكورا لامر فيه يبالغ يستعمل الكل مثاله يقال للملك كل الناس يدعون لك اذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لاغير وان كان الكلام مذكورا لامر خارج عنه لايبالغ فيه لان المقصود غيره فلا يستعمل الكل مثاله اذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائى كثير من الناس يدعون لى اشارة الى عدم احتياجه الى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له فكذلك ههنا (المسئلة الرابعة) قال لاتغنى شفاعتهم ولم يقل لايشفعون مع ان دعواهم ان هؤلاء شفعاؤنا لا ان شفاعتهم تنفع او تغنى وقال تعالى فى مواضع آخر من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه فنفى الشفاعة بدون الاذن وقال مالهم من ولى ولا شفيع نفى الشفيع وههنا نفى الاغناء نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم كما قال تعالى ليقربونا الى الله زلفى ثم نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة امانفى دعواهم لانهم قالوا الاصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية فقال لاتغنى شفاعتهم بدليل ان شفاعة الملائكة لاتغنى واما الفائدة فلانه لما استثنى بقوله الا من بعد ان يأذن الله اى فيشفع ولكن لايكون فيه بيان انها تقبل وتغنى او لاتقبل فاذا قال لاتغنى شفاعتهم ثم قال الا من بعد ان يأذن الله فيكون معناه تغنى فيحصل البشارة لانه تعالى قال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا وقال تعالى ويستغفرون لمن فى الارض والاستغفار شفاعة واما قوله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه فليس المراد نفى الشفاعة وقبولها كما فى هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وانما المراد عظمة الله تعالى وانه لاينطق فى حضرته احد ولا يتكلم كما فى قوله تعالى لايتكلمون الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء (المسئلة الخامسة) اللام فى قوله لمن يشاء ويرضى تحتمل وجهين (احدهما) ان تتعلق بالاذن وهو على طريقين (احدهما) ان يقال الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء من الملائكة فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى (الطريق الثانى) ان يكون الاذن فى المشفوع له لان الاذن حاصل للكل فى الشفاعة للمؤمنين لانهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ويمكن ان ينازع فيه (وثانيهما) ان تتعلق بالاغناء يعنى الا من بعد ان يأذن الله لهم فى الشفاعة فتغنى شفاعتهم لمن يشاء ويمكن ان يقال بأن هذا بعيد لان ذلك يقتضى ان تشفع الملائكة والاغناء لايحصل الا لمن يشاء فيجاب عنه بأن فيه التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فان الملك اذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء (المسئلة السادسة) ما الفائدة فى قوله تعالى ويرضى نقول فيه فائدة الارشاد وذلك لانه لما قال لمن يشاء كان

المكلف متردد الايعلم مشيئته فقال ويرضى ليعلم انه العابد الشاكر لا المعاند الكافر فانه تعالى قال ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولايرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم فكأنه قال لمن يشاء ثم قال ويرضى بيانا لمن يشاء (وجواب) آخر على قولنا لاتغنى شفاعتهم شيئا ممن يشاء هو ان فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو اى تغنيه الشفاعة شيئا صالحا فيحصل به رضاه كما قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لانه لما قال لاتغنى شفاعتهم اشارة الى نفى كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء ان شفاعتهم تغنى شيئا ولو كان قليلا ويرضى المشفوع له ليعلم انها تغنى اكثر من اللازم بالاستثناء ويمكن ان يقال ويرضى لتبيين ان قوله يشاء ليس المراد المشيئة التى هى الرضا فان الله تعالى اذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به واذا شاء الهداية رضى فقال لمن يشاء ويرضى ليعلم ان تلك المشيئة ليست هى المشيئة العامة انما هى الخاصة ❊ ثم قال تعالى (ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى) وقد بينا ذلك فى سورة الطور واستدللنا بهذه الآية ونذكر مايقرب منه ههنا فنقول الذين لايؤمنون بالآخرة هم الذين لايؤمنون بالرسل ولايتبعون الشرع وانما يتبعون مايدعون انه عقل فيقولون اسماء الله تعالى ليست توقيفية ويقولون الولد هو الموجود من الغير ويستدلون عليه بقول اهل اللغة كذا يتولد منه كذا يقال الزاج يتولد من الآجر بمعنى يوجد منه وكذا القول فى بنت الكرم وبنت الجبل ثم قالوا الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم اولاده بمعنى الايجاد ثم انهم رأوا فى الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم ان يقال سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فقال ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى اى كما سمى الاناث بنات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يصح ان يقال انهم لايؤمنون بالآخرة مع انهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكان من عادتهم ان يربطوا مركوبا على قبر من يموت ويعتقدون انه يحشر عليه فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) انهم لما كانوا لايجزمون به كانوا يقولون لاحشر فان كان فلنا شفعاء يدل عليه قوله تعالى وماأظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى (ثانيهما) انهم كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه وهو ماورد به الرسل (المسئلة الثانية) قال بعض الناس انثى فعلى من افعل يقال فى فعلها آنث ويقال فى فاعلها انيث يقال حديد ذكر وحديد انيث والحق ان الانثى يستعمل فى الاكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على اناث (المسئلة الثالثة) كيف قال تسمية الانثى ولم يقل تسمية الاناث نقول عنه جوابان (احدهما) ظاهر والآخر دقيق (اما الظاهر) فهو ان المراد بيان الجنس وهذا اللفظ اليق بهذا الموضع لمجاء على وفقه آخر الآيات (والدقيق) هو انه لو قال يسمونهم تسمية الاناث كان يحتمل وجهين (احدهما) البنات (وثانيهما) الاعلام المعتادة للاناث كعائشة وحفصة فان تسمية الاناث كذلك تكون فاذا قال تسمية الانثى

(ان الذين لايؤمنون بالآخرة) وبعاقبها من العقاب على مايتعاطونه من الكفر والمعاصى (ليسمون الملائكة) المنزهين عن سمات النقصان على الاطلاق اى يسمون كل واحد منهم (تسمية الانثى) فان قولهم الملائكة بنات الله قول منهم بان كلا منهم بنته سبحانه وهى التسمية بالانثى وفى تعليقها بعدم الايمان بالآخرة اشعار بانها فى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة بحيث لايجترئ عليها الا من لايؤمن بها رأسا

(تعين)

تعين ان تكون للجنس وهى البنت والبنات ومناسبة هذه الآية لماقبلها هى انهم لما قيل لهم ان الصنم جماد لايشفع وبين لهم ان اعظم اجناس الخلق لاشفاعة لهم الابالاذن قالوانحن لانعبدالاصنام لانها جمادات وانمانعبد الملائكة بعبادتها فانها على صورها ونتصبها بين ايدينالبذكرنا الشاهد الغائب فنعظم الملك الذى ثبت انه مقرب عظيم الشان رفيع المكان فقال تعالى ردا عليهم كيف تعظمونهم وانتم تسمونهم تسمية الاناث ثم ذكر فيه مستندهم فى ذلك وهو لفظ الملائكة ولم يقل ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائك تسمية الانثى بل قال ليسمون الملائكة فانهم اغتروا بالتاء واغترارهم باطل لان التاء تجئ لمعان غير التأنيث الحقيقى والبنت لاتطلق الاعلى المؤنث الحقيقى بالاطلاق والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما فى صياقلة وهى تشبه تلك التاء وذلك لان الملائكة فى المشهور جمع ملك والملك اختصار من الملأك بحذف الهمزة والملأك قلب المألك من الالوكة وهى الرسالة فالملائكة على هذا القول مفاعلة والاصل مفاعل ورد الى ملائكة فى الجمع فهى تشبه فعائل وفعائلة والظاهر ان الملائكة فعائلة جمع مليكى منسوب الى المليك بدليل قوله تعالى عند مليك مقتدر فى وعد المؤمن وقال فى وصف الملائكة فالذين عند ربك وقال ايضا فى الوعد وان له عندنا لزلفى وقال فى وصف الملائكة ولا الملائكة المقربون فهم اذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه ويفعلون مايؤمرون كأمر الملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود امر عليهم فهم منتسبون الى المليك المقتدر فى الحال فهم مليكيون وملائكة فالتاء للنسبة فى الجمع كما فى الصيارفة والبياطرة فان قيل هذا باطل من وجوه (الاول) ان احدا لم يستعمل لواحد منهم مليكى كما استعمل صير فى (الثانى) ان الانسان عند مايصير عندالله تعالى يجب ان يكون من الملائكة وليس كذلك لان المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمى (الثالث) هو ان فعائلة فى جمع فعيلى لم يسمع وانما يقال فعيلة كما يقال جاء بالتميمة والحقيبة (الرابع) لوكان كذلك لما جمع ملك * نقول اماعدم استعمال واحده فسلم وهو لسبب وهو ان الملك كلما كان اعظم كان حكمه وخدمه وحشمه اكثر فاذا وصف بالعظمة وصف بالجمع فيقال صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بواحد وصف تعظيم واما ذلك الواحد فان نسب الى المليك عين للخبر بأن يقال هذا مليكى وذلك عندمانعرف عينه فنجعله مبتدأ ونخبر بالمليكى عنه والملائكة لم يعرفوا بأعيانهم الاقليلا منهم كجبريل وميكائيل وحينئذ لافائدة فى قولنا جبريل مليكى لان من عرف المبتدأ عرف الخبر ولايصاغ الحمل الاليبان ثبوت الخبر للمبتدأ فلايقال للانسان حيوان اوجسم لانه ايضاح واضح اللهم الاان يستعمل ذلك فى ضرب مثال أو فى صورة نادرة فرض واما ان ينسب الى المليك وهو مبتدأ فلا لان العظمة فى ان يقول واحد من الملائكة فنبه على كثرة المقربين اليه كما تقول واحد من اصحاب الملك ولاتقول صاحب

وقوله تعالى (ومالهم به من علم) حال من فاعل يسمون اى يسمونهم والحال انه لاعلم لهم بمايقولون اصلا وقرئ بها اى بالملائكة او بالتسمية (ان يتبعون) فى ذلك (الاالظن) الفاسد (وان الظن) اى جنس الظن كما يلوح به الاظهار فى موقع الاضمار (لايغنى من الحق شيئا) من الاغناء فان الحق الذى هو عبارة عن حقيقة الشئ لايدرك الا بالعلم والظن لااعتداد به فى شأن المعارف الحقيقية وانما يعتد به فى العمليات ومايؤدى اليها

الملك فاذا أردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غيرمنسوب بل هو موضع لشدته وقوته كما قال تعالى ذومرة وذوقوة فقال شديد القوى و م ل ك تدل على الشدة فى تقاليبها على ماعرف وعندالجمع استعمل الملائكة للتعظيم كما قال تعالى ومايعلم جنود ربك الاهو (واماالجواب عن الثانى) فنقول قديكون الاسم فى الاول لوصف يختص ببعض من يتصف به وغيره لو صار متصفا بذلك الوصف لايسمى بذلك كالدابة فاعلة من دب ولايقال للمرأة ذات الدب دابة اسماو ربما يقال لها صفة عندحالة ماتدب بدب مخصوص غيرالدب العام الذى فى الكل كما لو دبت بليل لاخذ شئ اوغيره او يقال انماسميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمى بسنين لايعلم عددها الاالله فمن لم يصل الى الله ويقوم ببابه لايحصل له العهد والانتساب فلايسمى بذلك الاسم (واماعن الثالث) فنقول الجموع القياسية لامانع لها كفعال فى جمع فعل كجمال وثمار وافعال كاثقال واشجار وفعلان وغيرها واماالسماع وان لم يرد الاقليلا فاكتفى بمافيه من التعظيم من نسبة الجمع الكثير الى باب الله ويكون من باب المرأة والنساء (اماالجواب عن الرابع) فالمنع ولعل هذا منه اونقول حمل فعيلى على فعيل فى الجمع كما حمل فيعل فى الجمع على فعيل فقيل فى جمع جيدجياد ولايقال فى فعيل أفاعل ويؤيد ماذكرنا ان ابليس عندما كان واقفا بالباب كان داخلا فى جملة الملائكة فنقول قوله تعالى واذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاابليس عندماصرف وابعد خرج عنهم وصار من الجن واماماقاله بعض اهل اللغة من الملائكة جمع ملأك واصل ملأك مألك من الألوكة وهى الرسالة ففيه تعسفات اكثر مماذكرنابكثيرمنها ان الملك لايكون فعل بل هو مفعل وهو خلاف الظاهرولم يستعمل مألك على اصله كمأرب ومأثم ومأكل وغيرها ممالايعد الاتعسف ومنها ان ملكا لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك باخواته التى ذكرناهاومنها ان التاء لم الحقت بجمعه ولم يقل ملائك كما فى جمع كل مفعل والذى يرد قولهم قوله تعالى جاعل الملائكة رسلافهى غير الرسل فلايصح ان يقال جعلت الملائكة رسلا كمالايصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قربا الاان الجعل لابدفيه من تغيير ومما يدل على خلاف ماذكروا ان الكل منسوبون اليه موقوفون بين يديه منتظرون امره لورود الاوامر عليهم ✻ ثم قال تعالى (ومالهم به من علم ان يتبعون الاالظن) وفيما يعود اليه الضمير فى به وجوه (احدها) مانقله الزمخشرى وهو انه عائد الى ماكانوا يقولون من غيرعلم (ثانيها) انه عائد الى ماتقدم فى الآية المتقدمة من علم اى مالهم بالله من علم فيشركون وقرئ مالهم بها وفيه وجوه ايضا (احدها) مالهم بالآخرة (ثانيها) مالهم بالتسمية (ثالثها) مالهم بالملائكة فان قلنا مالهم بالآخرة فهوجواب لماقلنا انهم وان كانوايقولون بأن الاصنام شفعاؤنا عندالله وكانوا يربطون الابل على قبورالموتى ليركبوها لكن ماكانوا يقولون به عن علم وان قلنا بالتسمية ففيه اشكال وهو ان العلم

(فاعرض عمن تولى عن ذكرنا) اى عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به الى وصفهم بما فى حيز صلته من الاوصاف القبيحة وتعليل الحكم بها اى فاعرض عمن اعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقينى وهو القرآن المنطوى على علوم الاولين والآخرين المذكر لامور الآخرة اوعن ذكرنا كماينبغى فان ذلك مستتبع لذكر الآخرة ومافيها من الامور المرغوب فيها والمرهوب عنها (ولم يرد الاالحياة الدنيا) راضيا بها قاصرا نظره عليها والمراد

بالتسمية حاصل لهم فانهم يعلمون انهم ليسوا فى شك اذ التسمية قد تكون وضعا اوليا وهو لايكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع وقد يكون استعمالا معنويا و يتطرق اليه الكذب والصدق والعلم مثال الاول من وضع اولا اسم السماء لموضوعها وقال هذا سماء مثال الثانى اذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر هذا سماء فانه كذب ومن يعتقده فهو جاهل وكذلك قولهم فى الملائكة انها بنات الله لم تكن تسمية وضعية وانما أرادوا به انهم موصوفون بامر يجب استعمال لفظ البنات فيهم وذلك كذب ومعتقده جاهل فهذا هو المراد بما ذكرنا ان الظن يتبع فى الامور المصلحية والافعال العرفية او الشرعية عند عدم الوصول الى اليقين واما فى الاعتقادات فلا يغنى الظن شيئا من الحق فان قيل أليس الظن قد يصيب فكيف يحكم عليه بانه لايغنى اصلا نقول المكلف يحتاج الى يقين يميز الحق من الباطل ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير لكن فى الحق ينبغى ان يكون جازما لاعتقاد مطابقه والظان لايكون جازما وفى الخير ربما يعتبر الظن فى مواضع ويحتمل ان يقال المراد من الحق هو الله تعالى ومعناه ان الظن لايفيد شيئا من الله تعالى اى الاوصاف الالهية لاتستخرج بالظنون يدل عليه قوله تعالى ذلك بان الله هو الحق وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى فى ثلاثة مواضع منع من الظن وفى جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية والدعاء باسم موضعان منها فى هذه السورة (احدهما) قوله تعالى ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن (والثانى) قوله تعالى ان يتبعون الا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا (والثالث) فى الحجرات قال الله تعالى ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن عقيب الدعاء بالقلب وكل ذلك دليل على ان حفظ اللسان اولى من حفظ غيره من الاركان وان الكذب اقبح من السيآت الظاهرة من الايدى والارجل وهذه المواضع الثلاثة (احدها) مدح من لايستحق المدح كاللات والعزى من العز (وثانيها) ذم من لايستحق الذم وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الانثى (وثالثها) ذم من لم يعلم حاله واما مدح من حاله لايعلم فلم يقل فيه لايتبعون الا الظن بل الظن فيه معتبر والاخذ بظاهر حال العاقل واجب ❁ ثم قال تعالى (فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا) اى اترك مجادلتهم فقد بلغت واتيت بما كان عليك واكثر المفسرين يقولون بان كل مافى القرآن من قوله تعالى فأعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل فان الامر بالاعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ به وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له وجادلهم بالتى هى احسن ثم لما لم ينفع قال له ربه فاعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان فانهم لايتبعون الا الظن ولا يتبعون الحق وقابلهم بالاعراض عن المناظرة بشرط جواز المقاتلة فكيف يكون منسوخا

النهى عن دعوته والاعتناء بشانه فان من اعرض عما ذكر وانهمك فى الدنيا بحيث كانت هى منتهى همته وقصارى سعيه لاتزيده الدعوة الى خلافها الا عنادا واصرارا على الباطل (ذلك) اى ماداهم الى ماهم فيه من التولى وقصر الارادة على الحياة الدنيا (مبلغهم من العلم) لايكادون يجاوزونه الى غيره حتى تجديهم الدعوة والارشاد وجمع الضمير فى مبلغهم باعتبار معنى من كما ان افراده فيما سبق باعتبار لفظها والمراد بالعلم مطلق الادراك

والاعراض من باب اشكاه والهمزة فيه للسلب كأنه قال ازل العرض ولا تعرض عليهم بعد هذا امرا وقوله تعالى عمن تولى عن ذكرنا لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة لان من لا يصغي الى القول كيف يفهم معناه وفي ذكرنا وجوه (الاول) القرآن (الثاني) الدليل والبرهان (الثالث) ذكر الله تعالى فان من لا ينظر في الشيء كيف يعرف صفاته وهم كانوا يقولون نحن لا نتفكر في آلاء الله لعدم تعلقنا بالله وانما امرنا مع من خلقنا وهم الملائكة او الدهر على اختلاف اقاويلهم وتباين اباطيلهم وقوله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا اشارة الى انكارهم الحشر كما قالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وقال تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا يعني لم يثبتوا وراءها شيئا آخر يعملون له فقوله عمن تولى عن ذكرنا اشارة الى انكارهم الحشر لانه اذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لا يعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه واذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه فلا يبقى اذن فائدة في الدعاء واعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان طبيب القلوب فأتى على ترتيب الاطباء وترتيبهم ان الحال اذا امكن اصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء وما امكن اصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي ثم اذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا الى الحديد والكي وقيل آخر الدواء الكي فالنبي صلى الله عليه وسلم اولا أمر القلوب بذكر الله فحسب فان بذكر تطمئن القلوب كما ان بالغذاء تطمئن النفوس فالذكر غذاء القلب ولهذا قال اولا قولوا لا اله الا الله امر بالذكر لمن انتفع مثل ابي بكر وغيره ممن انتفع ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل وقال أولم يتفكروا قل انظروا افلا ينظرون الى غير ذلك ثم اتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال اعرض عن المعاجلة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح ❊ ثم قال تعالى (ذلك مبلغهم من العلم) ذلك فيه وجوه (الاول) اظهرها انه عائد الى الظن اي غاية ما يبلغون به انهم يأخذون بالظن (وثانيها) ايثار الحياة الدنيا مبلغهم من العلم اي ذلك الايثار غاية ما بلغوه من العلم (ثالثها) فأعرض عمن تولى وذلك الاعراض غاية ما بلغوه من العلم والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم وتكون الالف واللام للتعريف والعلم بالمعلوم هو ما في القرآن وتقرير هذا ان القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى وبعضهم قبله من حيث انه معجزة واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى وبعضهم توقف فيه كابي طالب وذلك ادنى المراتب وبعضهم رده وعابه فالاولون لم يجز الاعراض عنهم والآخرون وجب الاعراض عنهم وكان موضع بلوغه من العلم انه قطع الكلام معه واعرض عنه وعليه سؤال وهو ان الله تعالى بين ان غايتهم ذلك ولا يكلف الله نفسا الا وسعها والمجنون الذي لا علم له والصبي لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله نقول ذكر قبل ذلك انهم تولوا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم وانما قدر الله توليهم ليضاف الجهل الى ذلك فيحقق العقاب قال الزمخشري ذلك مبلغهم من العلم كلام معترض بين كلامين والمتصل قوله

المنتظم للظن الفاسد والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها من قصر الارادة على الحياة الدنيا وقوله تعالى (ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى) تعليل للامر بالاعراض وتكرير قوله تعالى هو اعلم لزيادة التقرير والايذان بكمال تباين المعلومين والمراد بمن ضل من اصر عليه ولم يرجع الى الهدى اصلا وبمن اهتدى من من شانه الاهتداء في الجملة اي هو المبالغ في العلم بمن لا يرعوى عن الضلال ابدا وبمن يقبل الاهتداء في الجملة

(تعالى)

تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وعلى ماذكرنا المقصود لايتم الا به ويكون كأنه تعالى قال اعرض عنهم فان ذلك غايتهم ولا يوجد وراء ماظهر منهم شئ وكان قوله عمن تولى اشارة الى قطع عذرهم بسبب الجهل فان الجهل كان بالتولى وايثار العاجل * ثم ابتدأ وقال تعالى (ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى) وفى المناسبة وجوه (الاول) انه تعالى لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم اعرض وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الميل الى ايمان قومه كان ربما هجس فى خاطره ان فى الذكرى بعد منفعة وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له ربك اعلم بمن ضل عن سبيله علم انه لا يؤمن بمجرد الدعاء احد من المكلفين وانما ينفع فيهم ان يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال واقبل على القتال وعلى هذا فقوله بمن اهتدى اى علم فى الازل من ضل فى تقديره ومن اهتدى فلا يشتبه عليه الامران ولا بأس فى الاعراض ويعد فى العرف مصلحة (ثانيها) هو على معنى قوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين وقوله تعالى الله يحكم بيننا ووجهه انهم كانوا يقولون نحن على الهدى وانتم مبطلون وأقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة عليهم فلم ينفعهم فقال تعالى اعرض عنهم واجرك وقع على الله فانه يعلم انكم مهتدون ويعلم انهم ضالون والمتناظران اذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الامر عند الملك فان اعترف الخصم بالحق فذاك والا فغرض المصيب يظهر عند الملك فقال تعالى جادلت واحسنت والله اعلم بالمحق من المبطل (ثالثها) انه تعالى لما امر نبيه بالاعراض وكان قد صدر منهم ايذاء عظيم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحمله رجاء ان يؤمنوا فمسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال سعيى وتحملى لايذائهم وقع هباء فقال الله تعالى ان الله يعلم حال المضلين والمهتدين لله مافى السموات والارض ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا من المهتدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هو يسمى عمادا وفصلا ولو قال ان ربك اعلم لتم الكلام غير ان عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع ما بعده ليعلم ان اعلم خبر ربك او هو مع شئ آخر خبر مثاله لو قال ان زيدا اعلم منه عمرو ويكون خبر زيد الجملة التي بعده فان قال هو اعلم انتفى ذلك التوهم (المسئلة الثانية) اعلم يقتضى مفضلا عليه يقال زيد اعلم من عمرو والله اعلم ممن نقول افعل يجيء كثيرا بمعنى عالم لا عالم مثله وحينئذ ان كان هناك عالم فذاك مفضل عليه وان لم يكن ففى الحقيقة هو العالم لا غير وفى كثير من المواضع افعل فى صفات الله بذلك المعنى يقال الله اكبر وفى الحقيقة لا كبير مثله ولا اكبر الا هو والذى يناسب هذا انه ورد فى الدعوات يا اكرم الاكرمين كأنه قال لا اكرم مثلك وفى الحقيقة لا اكرم الا هو وهذا معنى قول من يقول اعلم بمعنى عالم بالمهتدى والضال ويمكن ان يقال اعلم من كل عالم بفرض عالم غيره (المسئلة الثالثة) علمه وعلمت به مستعملان قال الله تعالى فى الانعام هو اعلم من يضل عن سبيله ثم

لا غيره فلا تتعب نفسك فى دعوتهم فانهم من القبيل الاول وفى تعليل الامر باعراضه عليه السلام عن الاعتناء بامرهم باقتصار العلم باحوال الفريقين عليه تعالى رمز الى انه تعالى يعاملهم بموجب علمه بهم فيجزى كلا منهم بما يليق به من الجزاء ففيه وعيد ووعد ضمنا كما سيأتى صريحا (ولله مافى السموات ومافى الارض) اى خلقا وملكا لا لغيره اصلا لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (ليجزى) الخ متعلق بما دل عليه اعلم الخ

ينبغى ان يكون المراد من المعلوم ان العلم اذا كان تعلقه بالمعلوم اقوى اما لقوة العلم واما لظهور المعلوم واما لتأكيد وجوب العلم به واما لكون الفعل له قوة اما قوة العلم فكما فى قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وقال الم يعلم بأن الله يرى لما كان علم الله تعالى تاما شاملا علقه بالمفعول الذى هو حال من احوال عبده الذى هو بمرأى منه من غير حرف ولما كان علم العبد ضعيفا حادثا علقه بالمفعول الذى هو صفة من صفات الله تعالى الذى لا يحيط به علم البشر بالحرف او لما كان كون الله رائيا لم يكن محسوسا به مشاهدا علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف واما ظهور المعلوم فكما قال تعالى أولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء وهو معلوم ظاهر واما تأكيد وجوب العلم به كما فى قوله تعالى فاعلم انه لا اله الا الله ويمكن ان يقال هو من قبيل الظاهر وكذلك قوله تعالى واعلموا انكم غير معجزى الله واما قوة الفعل فقال تعالى علم ان لن تحصوه وقال تعالى ان ربك يعلم انك تقوم ادنى لما كان المستعمل صفة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى ان ربك اعلم بمن لما كان المستعمل اسما دالا على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول (المسئلة الرابعة) قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدى فى كثير من المواضع منها فى سورة الانعام ومنها فى سورة ن ومنها فى هذه السورة لان فى المواضع كلها المذكور نبيه صلى الله عليه وسلم والمعاندون فذكرهم اولا تهديدا لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام (المسئلة الخامسة) قال فى موضع واحد من المواضع هو اعلم من يضل عن سبيله وفى غيره قال بمن ضل فهل عندك فيه شئ قلت نعم ونبين ذلك ببحث عقلى وآخر نقلى (اما العقلى) فهو ان العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه ان وجد امس علم انه وجد امس فى نهار امس وليس مثل علمنا حيث يجوز ان يتحقق الشئ امس ونحن لا نعلمه الا فى يومنا هذا بل لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والارض ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين (واما النقلى) فهو ان اسم الفاعل يعمل عمل الفعل اذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله اذا كان ماضيا فلا تقول انا ضارب زيدا امس والواجب ان كنت تنصب ان تقول ضربت زيدا وان كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الاضافة تقول ضارب زيد امس انا ويجوز ان يقال انا غدا ضارب زيدا والسبب فيه ان الفعل اذا وجد فلا تجدد له فى الاستقبال ولا تحقق له فى الحال فهو عدم وضعف عن ان يعمل واما الحال وما يتوقع فله وجود فيمكن اعماله اذا ثبت هذا فنقول لما قال ضل كان الامر ماضيا وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم وقوله اعلم بمعنى عالم فيصير كأنه قال عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان اعمالا للفاعل بمعنى الماضى ولما قال يضل كان يعلم الضلال عند الوقوع وان كان قد علم فى الازل انه سيضل لكن للعلم بعد ذلك تعلق آخر سيوجد وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك فى الازل فانه لا يقال انه تعالى علم ان فلانا ضل فى الازل وانما الصحيح ان يقال علم فى الازل انه سيضل فيكون كأنه يعلم انه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى

(المستقبل)

وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله فان كون الكل مخلوقا له تعالى مما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ألا يعلم من خلق كأنه قيل فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى ويحفظهما ليجزى (الذين اساؤا بما عملوا) اى بعقاب ما عملوا من الضلال الذى عبر عنه بالاساءة بيانا لحاله او بسبب ما عملوا (ويجزى الذين احسنوا) اى اهتدوا (بالحسنى) اى بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة او بسبب اعمالهم الحسنى وقيل متعلق بما دل عليه قوله تعالى ولله

المستقبل وهو يعمل عمل الفعل فلا يقال زيد اعلم مسئلتنا من عمرو وانما الواجب ان يقال زيد اعلم بمسئلتنا من عمرو ولهذا قالت النحاة فى سورة الانعام ان ربك هو اعلم من يضل يعلم من يضل وقالوا اعلم للتفضيل لايبنى الا من فعل لازم غير متعد فان كان متعديا يرد الى لازم وقولنا اعلم كأنه من باب علم بالضم وكذا فى التعجب اذا قلنا ما اعلمه بكذا كأنه من فعل لازم واما انا فقد اجبت عن هذا بأن قوله اعلم من يضل معناه عالم وقد قدمنا ما يجب ان يعتقد فى اوصاف الله فى اكثر الامر ان معناه انه عالم ولا عالم مثله فيكون اعلم على حقيقته وهو احسن من ان يقال هو بمعنى عالم لاغير فان قيل فلم قال ههنا بمن ضل وقال هناك يضل قلنا لان ههنا حصل الضلال فى الماضى وتأكد حيث حصل يأس الرسول صلى الله عليه وسلم وامر بالاعراض واما هناك فقال تعالى من قبل وان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ثم قال تعالى ان ربك هو اعلم من يضل بمعنى ان ضللت يعلمك الله فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضى (المسئلة السادسة) قال فى الضلال عن سبيله ولم يقل فى الاهتداء الى سبيله لان الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كاف فى الضلال لان الضلال لايكون الا فى السبيل واما بعد الوصول فلا ضلال اولان من ضل عن سبيله لايصل الى المقصود سواء سلك سبيلا اولم يسلك واما من اهتدى الى سبيل فلا وصول له ان لم يسلكه ويصحح هذا ان من ضل فى غير سبيله فهو ضال ومن اهتدى اليها لايكون مهتديا الا اذا اهتدى الى كل مسئلة يضر الجهل بها بالايمان فكان الاهتداء اليقينى هو الاهتداء المطلق فقال بمن اهتدى وقال بالمهتدين ۞ ثم قال تعالى (ولله ما فى السموات ومافى الارض ليجزى الذين اساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى) اشارة الى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول ان ربك هو اعلم من الغنى القادر لان من علم ولم يقدر لايتحقق منه الجزاء فقال ولله ما فى السموات ومافى الارض وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الزمخشرى مايدل على انه يعتقد ان اللام فى قوله ليجزى كاللام فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وهو جرى فى ذلك على مذهبه فقال ولله مافى السموات ومافى الارض معناه خلق مافيهما لغرض الجزاء وهو لايتحاشى مما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال وقال الواحدى اللام للعاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا اى اخذوه وعاقبته انه يكون لهم عدوا والتحقيق فيه هو ان حتى ولام لغرض متقاربان فى المعنى لان الغرض نهاية الفعل وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل احدهما مكان الآخر يقال سرت حتى ادخلها ولكى ادخلها فلام العاقبة هى التى تستعمل فى موضع حتى للغاية ويمكن ان يقال هنا وجه اقرب من الوجهين وان كان اخفى منهما وهو ان يقال ان قوله ليجزى متعلق بقوله ضل واهتدى لابالعلم ولابخلق مافى السموات تقديره كأنه قال هو اعلم بمن ضل واهتدى ليجزى اى من ضل واهتدى يجزى الجزاء والله اعلم به فيصير قوله ولله مافى السموات ومافى الارض كلاما معترضا ويحتمل ان

ما فى السموات وما فى الارض كأنه قيل خلق مافيهما ليجزى الخ وقيل متعلق بضل واهتدى على ان اللام للعاقبة اى هو اعلم بمن ضل ليؤل امره الى ان يجزيه الله تعالى بعمله وبمن اهتدى ليؤل امره الى ان يجزيه بالحسنى وفيه من البعد مالايخفى وتكرير الفعل لابراز كمال الاعتناء بامر الجزاء والتنبيه على تباين الجزائين (الذين يجتنبون كبائر الاثم) بدل من الموصول الثانى وصيغة الاستقبال فى صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره او بيان

يقال هو متعلق بقوله تعالى فأعرض اى اعرض عنهم ليقع الجزاء كما يقال المريد فعلا لمن يمنعه منه ذرنى لافعله وذلك لان مادام النبى صلى الله عليه وسلم يأس ما كان العذاب ينزل والاعراض وقت اليأس وقوله تعالى ويجزى الذين احسنوا بالحسنى حينئذ يكون مذكورا ليعلم ان العذاب الذى عند اعراضه يتحقق ليس مثل الذى قال تعالى فيه واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل هو مختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى وقوله تعالى فى حق المسيء بما عملوا وفى حق المحسن بالحسنى فيه لطيفة لان جزاء المسيء عذاب فنبه على ما يدفع الظلم فقال لايعذب الاعن ذنب واما فى الحسنى فلم يقل بما عملوا لان الثواب ان كان لاعلى حسنة يكون فى غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هذا اذا قلنا الحسنى هى المثوبة بالحسنى واما اذا قلنا الاعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك وهى ان اعمالهم لم يذكر فيها التساوى وقال فى اعمال المحسنين الحسنى اشارة الى الكرم والصفح حيث ذكر احسن الاسمين والحسنى صفة اقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال بالاعمال الحسنى كقوله تعالى الاسماء الحسنى وحينئذ هو كقوله تعالى لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم احسن الذى كانوا يعملون اى يأخذ احسن اعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الاحسن او هى صفة المثوبة كأنه قال ويجزى الذين احسنوا بالمثوبة الحسنى او بالعاقبة الحسنى اى جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب واما الزيادة التى هى الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه ❊ ثم قال تعالى (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الااللمم) الذين يحتمل ان يكون بدلا عن الذين أحسنوا وهو الظاهر وكأنه تعالى قال ليجزى الذين اساؤا ويجزى الذين احسنوا ويتبين به ان المحسن ليس ينفع الله باحسانه شيئا وهو الذى لايسيء ولا يرتكب القبيح الذى هو فى نفسه عند ربه فالذين احسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى وبهذا يتبين المسيء والمحسن لان من لايجتنب كبائر الاثم يكون مسيئا والذى يجتنبها يكون محسنا وعلى هذا ففيه لطيفة وهو ان المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذى يأتى بالنوافل يكون فوق المحسن لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذى فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف ويحتمل ان يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الاثم يغفر الله لهم والذى يدل عليه قوله تعالى ان ربك واسع المغفرة وعلى هذا تكون هذه الآية مع ماقبلها مبينة لحال المسيء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وان لم تصدر منهم الحسنات وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى ويظهر هذا بقوله تعالى بعده هو اعلم بكم اذ انشأكم من الارض واذ انتم اجنة اى يعلم الحالة التى لا احسان فيها ولا اساءة كما علم من اساء وضل ومن احسن واهتدى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان بدلا عن الذين احسنوا فلم خالف مابعده بالمضى والاستقبال حيث قال تعالى الذين احسنوا وقال الذين يجتنبون ولم يقل اجتنبوا نقول هو كما يقول القائل الذين

اونعت او منصوب على المدح وكبائر الاثم مايكبر عقابه من الذنوب وهو مارتب عليه الوعيد بخصوصه وقرئ كبير الاثم على ارادة الجنس او الشرك (والفواحش) وما فحش من الكبائر خصوصا (الااللمم) اى الاماقل وصغر فانه مغفور ممن يجتنب الكبائر قيل هى النظرة والغمزة والقبلة وقيل هى الخطرة من الذنب وقيل كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا وقيل عادة النفس الحين بعد الحين والاستثناء منقطع

سألونى اعطيتهم الذين يترددون الى سائلين اى الذين عادتهم التردد والسؤال سألونى واعطيتهم فكذلك ههنا قال الذين يجتنبون اى الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها اخرى فان قيل فى كثير من المواضع قال فى الكبائر والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ماغضبوا هم يغفرون وقال فى عباد الطاغوت والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا الى الله فالفرق نقول عبادة الطاغوت راجعة الى الاعتقاد والاعتقاد اذا وجد دام ظاهرا فن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر واما مثل الشرب والزنا امر يختلف احوال الناس فيه فيتركه زمانا ويعود اليه ولهذا يستبرأ الفاسق اذا تاب ولا يستبرأ الكافر اذا اسلم فقال فى الآثام الذين يجتنبون دائما ويثابرون على الترك ابدا وقال فى عبادة الاصنام اجتنبوا بصيغة الماضى ليكون ادل على الحصول ولان كبائر الاثم لها عدد وانواع فينبغى ان يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال وعبادة الصنم امر واحد متحد فترك فيه ذلك الاستعمال واتى بصيغة الماضى الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة (المسئلة الثانية) الكبائر جمع كبيرة وهى صفة فالموصوف نقول هى صفة الفعلة كأنه يقول الفعلات الكبائر من الاثم فان قيل فابال اختصاص الكبيرة بالذنوب فى الاستعمال ولو قال قائل الفعلة الكبيرة الحسنة لا يمنعه مانع نقول الحسنة لا تكون كبيرة لانها اذا قوبلت بما يجب ان يوجد من العبد فى مقابلة نعم الله تعالى تكون فى غاية الصغر ولولا ان الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذى انعم الله عليه بانواع النعم كبيرة ولولا فضل الله لكان الاشتغال بالأكل والشرب والاعراض عن عبادته سيئة لكن الله غفر بعض السيآت وخفف بعضها (المسئلة الثالثة) اذا ذكر الكبائر فالفواحش بعدها نقول الكبائر اشارة الى ما فيها من مقدار السيئة والفواحش اشارة الى ما فيها من وصف القبح كأنه قال عظيمة المقادير قبيحة الصور والفاحش فى اللغة مختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف فى التقاليب يدل عليه فانك اذا قلبتها وقلت حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد ويقال فشحت الناقة اذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح ولهذا لم يقل الفواحش من الاثم وقال فى الكبائر كبائر الاثم لان الكبائر ان لم يميزها بالاضافة الى الاثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش (المسئلة الرابعة) كثرت الاقاويل فى الكبائر والفواحش فقيل الكبائر ما اوعد الله عليه بالنار صريحا وظاهرا والفواحش ما اوجب عليه حدا فى الدنيا وقيل الكبائر ما يكفر مستحله وقيل الكبائر ما لا يغفر الله لفاعله الا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة وكل هذه التعريفات تعريف الشئ بما هو مثله فى الخفاء او فوقه وقد ذكرنا ان الكبائر هى التى مقدارها عظيم والفواحش هى التى قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة الى المقدار والفاحشة صفة عائدة الى الكيفية كما يقال مثلا فى الابرص علته

(ان ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على ان اخراجه عن حكم المؤاخذة به ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية وقيل المعنى له ان يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه تعالى (هو اعلم بكم) اى بأحوالكم يعلمها (اذ انشأكم) فى ضمن انشاء ابيكم آدم عليه السلام (من الارض) انشاء اجماليا حسبما مر تقريره

باض لطخه كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية وعلى هذافنقول على ماقلنا ان الاصل فى كل معصية ان تكون كبيرة لان نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة غيران الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لانهما لايدلان على ترك التعظيم اماالعمومه فى العباد اولكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة اومرتين والنظرة والقبائح التى فيها شبهة فان المجتنب عنها قليل فى جميع الاعصار ولهذا قال اصحابنا ان استماع الغناء الذى مع الاوتار يفسق به وان استمعه من اهل بلده لايعتدون امرذلك لايفسق فعادت الصغيرة الى ما ذكرنا من ان العقلاء ان لم يعدوه تاركا للتعظيم لايكون مرتكبا للكبيرة وعلى هذا تختلف الامور باختلاف الاوقات والاشخاص فالعالم المتقى اذا كان يتبع النساء اويكثر من اللعب يكون مرتكبا للكبيرة والدلال والباعة والمتفرغ الذى لاشغل له لايكون كذلك وكذلك اللعب وقت الصلاة واللعب فى غير ذلك الوقت وعلى هذا كل ذنب كبيرة الاماعلم المكلف اوظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر (المسئلة الخامسة) فى اللمم وفيه اقوال (احدها) مايقصده المؤمن ولايحققه وهو على هذا القول من لم يلم اذاجمع فكأنه جمع عزمه واجمع عليه (وثانيها) مايأتى به المؤمن ويندم فى الحال وهو من اللمم الذى هو مس من الجنون كأنه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى والذين اذافعلوا فاحشة اوظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم (وثالثها) اللمم الصغير من الذنب من الم اذانزل نزولا من غير لبث طويل ويقال الم بالطعام اذاقلل من اكله وعلى هذا فقوله الا اللمم يحتمل وجوها (احدها) ان يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان (احدهما) استثناء منقطع لان اللمم ليس من الفواحش (وثانيهما) غير منقطع لمابينا ان كل معصية اذانظرت الى جانب الله تعالى ومايجب ان يكون عليه فهى كبيرة وفاحشة ولهذا قال الله تعالى واذافعلوا فاحشة غيران الله تعالى استثنى منها امورا يقال الفواحش كل معصية الاما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه (ثانيها) الابمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم وهذا الوصف ان كان للتميز كما يقال الرجال غيراولى الاربة فاللمم عين الفاحشة وان كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤنى لتأكيد وبيان فلا (ثالثها) هو استثناء من الفعل الذى يدل عليه قوله تعالى الذين يجتنبون لان ذلك يدل على انهم لايقربونه فكأنه قال لايقربونه الامقاربة من غير مواقعة وهو اللمم * ثم قال تعالى (ان ربك واسع المغفرة) وذلك على قولنا الذين يجتنبون ابتداء الكلام فى غاية الظهور لان المحسن مجزى وذنبه مغفور ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور والمقدم على الكبائر اذاتاب مغفور الذنب فلم يبق ممن لم تصل اليهم المغفرة الاالذين اساؤا واصروا عليها فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف وهو انه تعالى لماأخرج المسئ عن المغفرة بين ان ذلك ليس لضيق فيهابل ذلك بمشيئة الله تعالى ولوأراد الله مغفرة كل من احسن واساء لفعل وما كان يضيق عنهم مغفرته

مراد (واذانتم اجنة) اى ووقت كونكم اجنة (فى بطون امهاتكم) على اطوار مختلفة مترتبة لايخفى عليه حال من احوالكم وعمل من اعمالكم التى من جلتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لاصابكم وباله فالجملة استئناف مقرر لما قبلها والفاء فى قوله تعالى (فلاتزكوا انفسكم) لترتيب النهى عن تزكية النفس على ماسبق من ان عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم اى اذا كان الامر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصى بالكلية اوبما يستلزمها

(والمغفرة)

والمغفرة من الستر وهو لا يكون الا على قبيح وكل من خلقه الله اذا نظرت فى فعله ونسبته الى نعم الله تجده مقصرا مسيئا فان من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر وعظمته الواضحة بدرهم او اقل منه يحتاج الى ستر ما فعله ۞ ثم قال تعالى (هو اعلم بكم اذ انشأكم من الارض واذ انتم اجنة فى بطون امهاتكم فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى) وفى المناسبة وجوه (احدها) هو تقرير لما مر من قوله اعلم بمن ضل كان العامل من الكفار يقول نحن نعمل امورا فى جوف الليل المظلم وفى البيت الخالى فكيف يعلمه الله تعالى فقال ليس عملكم اخفى من احوالكم وانتم اجنة فى بطون امهاتكم والله عالم بتلك الاحوال (ثانيها) هو اشارة الى ان الضال والمهتدى حصلا على ما هما عليه بتقدير الله فان الحق علم احوالهم وهم فى بطون الامهات فكتب على البعض انه ضال والبعض انه مهتد (ثالثها) تأكيد وبيان للجزاء وذلك لانه لما قال ليجزى الذين أساؤا بما عملوا قال الكافرون هذا الجزاء لا يتحقق الا بالحشر وجمع الاجزاء بعد تفرقها واعادة ما كان لزيد من الاجزاء فى بدنه من غير اختلاط غير ممكن فقال تعالى هو اعلم اذ انشأكم فيجمعها بقدرته على وفق علمه كما انشأكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) العامل فى اذ يحتمل ان يكون ما يدل عليه اعلم اى علمكم وقت الانشاء ويحتمل ان يكون اذكروا فيكون تقريرا لكونه عالما ويكون تقديره هو اعلم بكم وقدتم الكلام ثم يقول ان كنتم فى شك من علمه بكم فاذكروا حال انشائكم من التراب (المسئلة الثانية) ذكرنا مرارا ان قوله من الارض من الناس من قال آدم فانه من تراب وقررنا ان كل احد اصله من التراب فانه يصير غذاء ثم يصير دما ثم يصير نطفة (المسئلة الثالثة) لو قال قائل لا بد من صرف اذ انشأكم من الارض الى آدم لان واذ انتم اجنة فى بطون امهاتكم عائد الى غيره فانه لم يكن جنينا ولو قلت بأن قوله تعالى اذ انشأكم عائد الى جميع الناس فينبغى ان يكون جميع الناس اجنة فى بطون الامهات وهو قول الفلاسفة نقول ليس كذلك لانا نقول الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب وقوله تعالى هو اعلم بكم خطاب مع كل من بعد الانزال على قول ومع من حضر وقت الانزال على قول ولا شك ان كل هؤلاء من الارض وهم كانوا اجنة (المسئلة الرابعة) الاجنة هم الذين فى بطون الامهات وبعد الخروج لا يسمى الا ولدا او سقطا فما فائدة قوله تعالى فى بطون امهاتكم نقول التنبيه على كمال العلم والقدرة فان بطن الام فى غاية الظلمة ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد (المسئلة الخامسة) لقائل ان يقول اذا قلنا ان قوله هو اعلم بكم تقرير لكونه عالما بمن ضل فقوله تعالى فلا تزكوا انفسكم تعلقه به ظاهر واما ان قلنا انه تأكيد وبيان للجزاء فانه يعلم الاجزاء فيعيدها الى ابدان اشخاصها فكيف يتعلق به فلا تزكوا انفسكم نقول معناه حينئذ فلا تبرئوا انفسكم من العذاب ولا تقولوا تفرقت الاجزاء فلا يقع العذاب لان العالم بكم عند الانشاء عالم بكم عند الاعادة وعلى هذا قوله اعلم بمن اتقى اى يعلم اجزاءه فيعيدها اليه ويثيبه بما اقدم عليه

من زكاء العمل ونماء الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته (هو اعلم بمن اتقى) المعاصى جميعا وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها وقيل كان ناس يعملون اعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا اذا كان بطريق الاعجاب اوللرياء فأما من اعتقد ان ما عمله من الاعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين انفسهم فان المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر (افرأيت الذى تولى) اى عن اتباع الحق والثبات عليه (واعطى قليلا) اى شيئا قليلا اواعطاء قليلا (واكدى) اى

(المسئلة السادسة) الخطاب مع من فيه ثلاث احتمالات (الاول) مع الكفار وهذا على قولنا انهم قالوا كيف يعلمه الله فرد عليهم قولهم (الثانى) كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار (الثالث) هو مع المؤمنين وتقريره هو ان الله تعالى لما قال فاعرض عمن تولى عن ذكرنا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قد علم كونك ومن معك على الحق وكون المشركين على الباطل فاعرض عنهم ولا تقولوا نحن على الحق وانتم على الضلال لانهم يقابلونكم بمثل ذلك وفوض الامر الى الله تعالى فهو اعلم بمن اتقى ومن طغى وعلى هذا فقول من قال فاعرض منسوخ اظهر وهو كقوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى او فى ضلال مبين والله اعلم بجملة الامور ويحتمل ان يقال على هذا الوجه الثالث انه ارشاد للمؤمنين فخاطبهم الله وقال هو اعلم بكم ايها المؤمنون علم مالكم من اول خلقكم الى آخر يومكم فلا تزكوا انفسكم رياء وخيلاء ولا تقولوا الآخر أنا خير منك وأنا ازكى منك واتقى فان الامر عند الله ووجه آخر وهو اشارة الى وجوب الخوف من العاقبة اى لا تقطعوا بخلاصكم ايها المؤمنون فان الله يعلم عاقبة من يكون على التقى وهذا يؤيد قول من يقول انا مؤمن ان شاء الله للصرف الى العاقبة ❊ ثم قال تعالى (افرأيت الذى تولى واعطى قليلا واكدى اعنده علم الغيب فهو يرى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعض المفسرين نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة جلس عند النبى صلى الله عليه وسلم وسمع وعظه واثرت الحكمة فيه تأثيرا قويا فقال له رجل لم تترك دين آبائك ثم قال له لا تخف واعطنى كذا وانا اتحمل عنك اوزارك فاعطاه بعض ما التزمه وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبى صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم نزلت فى عثمان رضى الله عنه كان يعطى ماله عطاء كثيرا فقال له اخوه من امه عبد الله بن سعد بن ابى سرح يوشك ان يفنى مالك فامسك فقال له عثمان ان لى ذنوبا ارجو ان يغفرلى بسبب العطاء فقال له اخوه انا اتحمل عنك ذنوبك ان تعطنى ناقتك مع كذا فاعطاه ما طلب وامسك يده عن العطاء فنزلت الآية وهذا قول باطل لا يجوز ذكره لانه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر وظاهر حال عثمان رضى الله عنه يأبى ذلك بل الحق ان يقال ان الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم من قبل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا وكان التولى من جملة أنواعه تولى المستغنى فان العالم بالشئ لا يحضر مجالس ذكر ذلك الشئ ويسعى فى تحصيل غيره فقال افرأيت الذى تولى عن استغناء اعلم بالغيب (المسئلة الثانية) الفاء تقتضى كلاما يترتب هذا عليه فاذا هو نقول هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته ووعده المسئ والمحسن بالجزاء وتقريره هو انه تعالى لما بين ان الجزاء لابد من وقوعه على الاساءة والاحسان وان المحسن هو الذى يجتنب كبائر الاثم فلم يكن الانسان مستغنيا عن سماع كلام النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه فبعد هذا من تولى لا يكون توليه الا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار (المسئلة الثالثة) الذى على ما قال بعض المفسرين عائد الى معلوم وهو ذلك الرجل وهو الوليد والظاهر انه عائد الى مذكور

قطع العطاء من قولهم اكدى الحافر اذا بلغ الكدية اى الصلابة كالصخرة فلا يمكنه ان يحفر قالوا نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الاشياخ وضللتهم فقال اخشى عذاب الله فضمن ان يتحمل عنه العذاب ان اعطاه بعض ماله فارتد واعطاه بعض المشروط وبخل بالباقى وقيل نزلت فى العاص بن وائل السهمى لما انه كان يوافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وقيل فى ابى جهل كان ربما يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وكان يقول والله ما يأمرنا محمد

فان الله تعالى قال من قبل فأعرض عمن تولى عن ذكرنا وهو المعلوم لان الامر بالاعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال افرأيت الذى تولى اى الذى سبق ذكره فان قيل كان ينبغى ان يقول الذين تولوا لان من فى قوله عمن تولى للعموم نقول العود الى اللفظ كثير شائع قال تعالى من جاء بالحسنة فله ولم يقل فلهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى واعطى قليلا ما المراد منه نقول على ماتقدم هو المقدار الذى اعطاه الوليد وقوله واكدى هو ما امسك عنه ولم يعط الكل وعلى هذا لو قال قائل ان الاكداء لايكون مذموما لان الاعطاء كان بغير حق فالامتناع لايذم عليه وايضا فلايبقى لقوله قليلا فائدة لان الاعطاء حينئذ نفسه يكون مذموما نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف اما العقل فلانه منع من الاعطاء لاجل حمل الوزر فانه لايحصل به واما العرف فلان عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد وهو لم يف به حيث التزم الاعطاء وامتنع والذى يليق بما ذكرناهو ان نقول تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا يعنى اعطاء ما وجب اعطاؤه فى مقابلة مايجب لاصلاح امور الآخرة ويقع قوله تعالى أعنده علم الغيب فى مقابلة قوله تعالى ذلك مبلغهم من العلم اى لم يعلم الغيب وما فى الآخرة وقوله تعالى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى ان لاتزر وازرة وزر اخرى فى مقابلة قوله هو اعلم بمن ضل الى قوله ليجزى الذين اساؤا لان الكلامين جميعا لبيان الجزاء ويمكن ان يقال ان الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين بان الملائكة بنات الله شرع فى بيان اهل الكتاب وقال بعد ما رأيت حال المشرك الذى تولى عن ذكرنا افرأيت حال من تولى وله كتاب واعطى قليلا من الزمان حقوق الله تعالى ولما بلغ زمان محمد اكدى فهل علم الغيب فقال شيئا لم يرد فى كتبهم ولم ينزل عليهم فى الصحف المتقدمة ووجد فيها بأن كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله وقوله تعالى ام لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى يخبران المتولى المذكور من اهل الكتاب (المسئلة الخامسة) اكدى قيل هو من بلغ الكدية وهى الارض الصلبة لاتحفر وحافر البئر اذا وصل اليها فامتنع عليه الحفر او تعسر يقال اكدى الحافر والاظهر انه الرد والمنع يقال اكديته اى رددته وقوله تعالى اعنده علم الغيب فهو يرى قد علم تفسيره جملة ان المراد جهل المتولى وحاجته وبيان قبح التولى مع الحاجة الى الاقبال وعلم الغيب اى العلم بالغيب اى علم ماهو غائب عن الخلق وقوله فهو يرى تتمة بيان وقت جوز التولى وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذى لاينفع الايمان فيه وهناك لايبقى وجوب متابعة احد فيما رآه لان الهادى يهدى الى الطريق فاذا رأى المهتدى مقصده بعينه لاينفعه السماع فقال تعالى هل علم الغيب بحيث رآه فلايكون علمه علما نظريا بل علما بصريا فسعى فتولى وقوله تعالى فهو يرى يحتمل ان يكون مفعول يرى هو احتمال الواحد وزر الآخر كأنه قال فهو يرى ان وزره محمول ألم يسمع ان وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذورا ويحتمل ان لايكون له مفعول تقديره

الاكارم الاخلاق وذلك قوله تعالى واعطى قليلا واكدى والاول هو الاشهر المناسب لما بعده من قوله تعالى (اعنده علم الغيب فهو يرى) الخ اى أعنده علم بالامور الغيبية التى من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة (ام لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى) اى وفر واتم ماابتلى به من الكلمات او امر به اوبالغ فى الوفاء بما عاهد الله وتخصيصه بذلك لاحتماله مالم يحتمله غيره كالصبر على نار نمروذ حتى انه اتاه جبريل عليه السلام حين يلقى فى النار فقال الك حاجة فقال اما اليك فلا وعلى ذبح الولد ويروى انه كان يمشى كل يوم

فهو يرى رأى نظر غير محتاج الى هاد ونذير * قوله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى) حال اخرى مضادة للاولى يعذر فيها المتولى وهو الجهل المطلق فان من علم الشىء علما تاما لا يؤمر بتعلمه والذى جهله جهلا مطلقا وهو الغافل على الاطلاق كالنائم ايضا لا يؤمر فقال هذا المتولى هل علم الكل فجاز له التولى او لم يسمع شيئا وما بلغه دعوة اصلا فيعذر ولا واحد من الامرين بكائن فهو فى التولى غير معذور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى بما فى يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها فكأنه تعالى يقول ام لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك وهذه امور مذكورة فى صحف موسى مثاله يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبى صلى الله عليه وسلم لا يريد به نفس الماء الذى توضأ به النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فالكلام مع الكل لان المشرك واهل الكتاب نبأهم النبى صلى الله عليه وسلم بما فى صحف موسى (ثانيهما) ان يكون المراد بما فى الصحف مع كونه فيها كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما فى القربة لا بما فى الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع اهل الكتاب لانهم الذين نبؤا به (المسئلة الثانية) صحف موسى وابراهيم هل جمعها لكونها صحفا كثيرة او لكونها مضافة الى اثنين كما قال تعالى فقد صغت قلوبكما الظاهر انها كثيرة قال الله تعالى واخذ الالواح وقال تعالى والقى الالواح وكل لوح صحيفة (المسئلة الثالثة) ما المراد بالذى فيها نقول قوله تعالى ان لا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وما بعده من الامور المذكورة على قراءة من قرأ ان بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول وان الى ربك المنتهى ففيه وجوه (احدها) هو ما ذكره بقوله ان لا تزر وازرة وزر أخرى وهو الظاهر وانما احتمل غيره لان صحف موسى وابراهيم ليس فيها هذا فقط وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح فان فيها تكون جميع الاصول على ما بين (ثانيها) هو ان الآخرة خير من الاولى يدل عليه قوله تعالى ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى (ثالثها) اصول الدين كلها مذكورة فى الكتب باسرها ولم يخل الله كتابا عنها ولهذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فبهداهم اقتده وليس المراد فى الفروع لان فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك (المسئلة الرابعة) قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال فى سبح اسم ربك الاعلى فهل فيه فائدة نقول مثل هذا فى كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة بل التقديم والتأخير سواء فى كلامهم فيصح ان يقتصر على هذا الجواب ويمكن ان يقال ان الذكر هناك لمجرد الاخبار والانذار وههنا المقصود بيان انتفاء الاعذار فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف ابراهيم قبل صحف موسى فى الانزال واما ههنا فقد قلنا ان الكلام مع اهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم وان قلنا الخطاب عام فصحف موسى عليه السلام كانت كثيرة الوجود فكأنه قيل لهم انظروا فيها تعلمون ان الرسالة حق وارسل من قبل موسى رسل والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها واما صحف ابراهيم

(فكانت)

فرضا يرتاد ضيفا فان وافقه اكرمه والانوى الصوم وتقديم موسى لما ان صحفه التى هى التوراة اشهر عندهم واكثر (ان لا تزر وازرة وزر اخرى) اى انه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس اخرى على ان ان هى المخففة من الثقيلة وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على انها بدل مما فى صحف موسى او الرفع على انها خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل ما فى صحفهما فقيل هو ان لا تزر الخ والمعنى انه لا يؤاخذ احد بذنب غيره ليتخلص الثانى عن عقابه ولا يقدح فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة

فكانت بعيدة وكانت المواعظ التى فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها (المسئلة الخامسة) كثيرا ما ذكر الله موسى فأخر ذكره عليه السلام لانه كان مبتلى فى اكثر الامر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون ابراهيم عليه السلام لكونه أباهم واما قوله تعالى وفى ففيه وجهان (احدهما) انه من الوفاء الذى يذكر فى العهود وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفى ووفى كقطع وقطع وقتل وقتل وهو ظاهر لانه وفى بالنذر واضجع ابنه للذبح وورد فى حقه قد صدقت الرؤيا وقال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين (وثانيهما) انه من التوفية التى من الوفاء وهو التمام والتوفية الاتمام يقال وفاه اى اعطاه تاما وعلى هذا فهو من قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن وقيل وفى اى أعطى حقوق الله فى بدنه وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه وأعطى قليلا وأكدى مدح ابراهيم ولم يصف موسى عليه السلام نقول اما بيان توفيته ففيه لطيفة وهى انه لم يعهد عهدا الا وفى به وقال لأبيه سأستغفر لك ربى فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له فعلم أن ليس للانسان الا ما سعى وان وزره لا تزره نفس اخرى واما مدح ابراهيم عليه السلام فلانه كان متفقا عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر احد كونه وفيا وموفيا وربما كان المشركون يتوقفون فى وصف موسى عليه السلام ❁ ثم قال تعالى (أن لا تزر وازرة وزر اخرى) وقد تقدم تفسيره فى سورة الملائكة والذى يحسن بهذا الموضع مسائل (الاولى) أنا بينا ان الظاهر أن المراد من قوله بما فى صحف موسى هو ما بينه بقوله ان لا تزر فيكون هذا بدلا عن ما وتقديره أم لم ينبأ بان لا تزر وذكرنا هناك وجهين احدهما المراد ان الآخرة خير وابقى وثانيهما الاصول (المسئلة الثانية) أن لا تزر أن خفيفة من الثقيلة كأنه قال انه لا تزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز فاللازم عندما يكون بعدها فعل او حرف داخل على فعل ولزم فيها التخفيف لانها مشبهة بالفعل فى اللفظ والمعنى والفعل لا يمكن ادخاله على فعل فاخرج عن شبه الفعل الى صورة تكون حرفا مختصا بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه (المسئلة الثالثة) ان قال قائل الآية مذكورة لبيان ان وزر المسىء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لان الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل احد انها لا تحمل شيئا ولو قال لا تحمل فارغة وزر اخرى كان أبلغ نقول ليس كما ظننت وذلك لان المراد من الوازرة هى التى يتوقع منها الوزر والحمل لا التى وزرت وحملت كما يقال شاة حلوب وان لم يكن عليه فى الحال حلب واذا لم تزر تلك النفس التى يتوقع منها ذلك فكيف تحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة ❁ وقوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) تتمة بيان احوال المكلف فانه لما بين له ان سيئته لا يتحملها عنه احد بين له ان حسنة الغير لا تجدى نفعا ومن لم يعمل صالحا لا ينال خيرا فيكمل بها ويظهر ان المسىء لا يجد بسبب حسنة الغير ثوابا ولا يتحمل عنه احد عقابا وفيه ايضا مسائل (المسئلة الاولى) ليس للانسان فيه وجهان (احدهما) انه عام وهو الحق وقيل

فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فان ذلك وزر الاضلال الذى هو وزره وقوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) بيان لعدم انتفاع الانسان بعمل غيره من حيث جلب النفع اليه اثر بيان عدم انتفاعه به من حيث دفع الضرر عنه واما شفاعة الانبياء عليهم السلام واستغفار الملائكة عليهم السلام ودعاء الاحياء للاموات وصدقتهم عنهم وغير ذلك مما لا يكاد يحصى من الامور النافعة للانسان مع انها ليست من عمله قطعا فحيث كان مناط منفعة كل منها عمله الذى هو الايمان والصلاح ولم يكن لشئ منها نفع ما بدونه جعل النافع

عليه بان فى الاخبار ان مايأتى به القريب من الصدقة والصوم يصل الى الميت والدعاء ايضا نافع فللانسان شئ لم يسع فيه وايضا قال الله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وهى فوق ماسعى والجواب عنه ان الانسان ان لم يسع فى ان يكون له صدقة القريب بالايمان لايكون له صدقته فليس له الاماسعى واما الزيادة فنقول الله تعالى لما وعد المحسن بالامثال والعشرة وبالاضعاف المضاعفة فاذا أتى بحسنة راجيا ان يؤتيه الله ماتفضل به فقد سعى فى الامثال فان قيل انتم اذن حملتم السعى على المبادرة الى الشئ يقال سعى فى كذا اذا اسرع اليه والسعى فى قوله تعالى الاماسعى معناه العمل يقال سعى فلان اى عمل ولو كان كما ذكرتم لقال الاماسعى فيه نقول على الوجهين جميعا لابد من زيادة فان قوله تعالى ليس للانسان الاماسعى ليس المراد منه ان له عين ماسعى بل المراد على ماذكرت ليس له الاثواب ماسعى او الأجر ماسعى او يقال بان المراد ان ماسعى محفوظ له مصون عن الاحباط فاذن له فعله يوم القيامة (الوجه الثانى) ان المراد من الانسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف وقيل بان قوله ليس للانسان الاماسعى كان فى شرع من تقدم ثم ان الله تعالى نسخه فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وجعل للانسان ماسعى ومالم يسع وهو باطل اذلا حاجة الى هذا التكلف بعد مابان الحق وعلى ماذكر فقوله ماسعى مبق على حقيقته معناه له عين ماسعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (المسئلة الثانية) ان ما خبرية او مصدرية نقول كونها مصدرية اظهر بدليل قوله تعالى وان سعيه سوف يرى اى سوف يرى المسعى والمصدر للمفعول يجئ كثيرا يقال هذا خلق الله اى مخلوقه (المسئلة الثالثة) المراد من الآية بيان ثواب الاعمال الصالحة او بيان كل عمل نقول المشهور انها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر انه لبيان الخيرات يدل عليه اللام فى قوله تعالى للانسان فان اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول هذا له وهذا عليه ويشهد له ويشهد عليه فى المنافع والمضار وللقائل الاول ان يقول بان الامرين اذا اجتمعا غلب الافضل كجموع السلامة تذكر اذا اجتمعت الاناث مع الذكور وايضا يدل عليه قوله تعالى ثم يجزاه الجزاء الأوفى والاوفى لايكون الا فى مقابلة الحسنة واما فى السيئة فالمثل او دونه او العفو بالكلية (المسئلة الرابعة) الا ماسعى بصيغة الماضى دون المستقبل لزيادة الحث على السعى فى العمل الصالح وتقريره هو انه تعالى لو قال ليس للانسان الامايسعى تقول النفس انى اصلى غدا كذا ركعة واتصدق بكذا درهما ثم يجعل مثبتا فى صحيفتى الآن لانه أمر يسعى فيه وله مايسعى فيه فقال ليس له الاماقد سعى وحصل وفرغ منه واما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها ❊ ثم قال تعالى (وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) اى يعرض عليه ويكشف له من أريته الشئ وفيه بشارة للمؤمنين على ماذكرنا وذلك ان الله يريه اعماله الصالحة ليفرح بها او يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ماهو

نفس عمله وان كان بانضمام عمل غيره اليه وان مخففة كاختها معطوفة عليها وكذا قوله تعالى (وان سعيه سوف يرى) اى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه من اريته الشئ (ثم يجزاه) اى يجزى الانسان سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وايصال الفعل ويجوز ان يجعل الضمير للجزاء ثم يفسر بقوله تعالى (الجزاء الاوفى) او يبدل هو عنه كما فى قوله تعالى واسروا النجوى الذين ظلموا

المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر فان سعيه يرى للخلق ويرى لنفسه ويحتمل ان يقال هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وفيها وفى الآية التى بعدها مسائل (المسئلة الاولى) العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه نقول فيه وجهان (احدهما) يراه على صورة جميلة ان كان العمل صالحا (ثانيهما) هو على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى والله قادر على اعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى وفيه وجه ثالث وهو ان ذلك مجاز عن الثواب يقال سترى احسانك عند الملك اى جزاءه عليه وهو بعيد لماقال بعده ثم يجزاه الجزاء الاوفى (المسئلة الثانية) الهاء ضمير السعى اى ثم يجزى الانسان سعيه بالجزاء والجزاء يتعدى الى مفعولين قال تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ويقال جزاك الله خيرا ويتعدى الى ثلاث مفاعيل بحرف يقال جزاه الله على عمله الخير الجنة ويحذف الجار ويوصل الفعل فيقال جزاه الله عمله الخير الجنة هذا وجه وفيه وجه آخر وهو ان الضمير للجزاء وتقديره ثم يجزى جزاء ويكون قوله الجزاء الاوفى تفسيرا او بدلا مثل قوله تعالى واسروا النجوى الذين ظلموا فان التقدير والذين ظلموا اسروا النجوى الذين ظلموا والجزاء الاوفى على ماذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لانه جزاء الصالح وان قال تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وعلى ماقيل يجاب ان الاوفى بالنظر اليه فان جهنم ضررها اكثر بكثير من نفع الآثام فهى فى نفسها اوفى (المسئلة الثالثة) ثم لتراخى الجزاء او لتراخى الكلام اى ثم نقول يجزاه فان كان لتراخى الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح وقد ثبت ان الظاهر ان المراد منه الصالح نقول الوجهان محتملان وجواب السؤال هو ان الوصف بالاوفى يدفع ماذكرت لان الله تعالى من اول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الاوفى وهى الجنة اونقول الاوفى اشارة الى الزيادة فصار كقوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وهى الجنة وزيادة وهى الرؤية فكأنه تعالى قال وان سعيه سوف يرى ثم يرزق الرؤية وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فان الاوفى مطلق غير مبين فلم يقل اوفى من كذا فينبغى ان يكون اوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى بيان لطائف فى الآيات (الاولى) قال فى حق المسئ لا تزر وازرة وزر اخرى وهو لايدل الا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لايلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ لجواز ان يسقط عنها ويمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال لا تزر وازرة الا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء انها تزر وقال فى حق المحسن ليس للانسان الا ماسعى ولم يقل ليس له مالم يسع لان العبارة الثانية ليس فيها ان له ماسعى وفى العبارة الاولى ان له ماسعى نظرا الى الاستثناء وقال فى حق المسئ بعبارة لا تقطع رجاءه وفى حق المحسن بعبارة تقطع خوفه كل ذلك اشارة الى سبق الرحمة الغضب ❁ ثم قال تعالى (وان الى ربك المنتهى) القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على مايعنى ان

(وان الى ربك المنتهى) اى انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالى لا الى غيره استقلالا ولا اشتراكا وقرئ بكسر ان على الابتداء

هذا أيضا فى الصحف وهو الحق وقرئ بالكسر على الاستئناف وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما المراد من الآية قلنا فيه وجهان (احدهما) وهو المشهور بيان المعاد اى للناس بين يدى الله وقوف وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لانه تعالى لما قال ثم يجزاه كأن قائلا قال لا نرى الجزاء ومتى يكون فقال ان المرجع الى الله وعند ذلك يجازى الشكور ويجزى الكفور (وثانيهما) المراد التوحيد وقد فسر الحكماء اكثر الآيات التى فيها الانتهاء والرجوع بما سنذكره غير ان فى بعضها تفسيرهم غير ظاهر وفى هذا الموضع ظاهر فنقول هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته وذلك لانك اذا نظرت الى الموجودات الممكنة لا تجد لها بدا من موجد ثم ان موجدها ربما يظن انه ممكن آخر كالحرارة التى تكون على وجه يظن انها من اشراق الشمس او من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمم وجودهما فان استندنا الى ممكن آخر لم يجد الفعل بدا من الانتهاء الى غير ممكن فهو واجب الوجود فاليه ينتهى الامر فالرب هو المنتهى وهذا فى هذا الموضع ظاهر معقول موافق للمنقول فان المروى عن ابى بن كعب انه قال عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال وان الى ربك المنتهى لا فكرة فى الرب اى انتهى الامر الى واجب الوجود وهو الذى لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود وقال أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا ذكر الرب فانتهوا وهو محتمل لما ذكرنا واما بعض الناس فيبالغ ويفسر كل آية فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل اليه يصعد الكلم الطيب بهذا المعنى * هذا دليل الوجود واما دليل الوحدانية فمن حيث ان العقل انتهى الى واجب الوجود من حيث انه واجب الوجود لانه لو لم يكن واجب الوجود لما كان منتهى بل يكون له موجد قبله فالمنتهى هو الواجب من حيث انه واجب وهذا المعنى واحد فى الحقيقة والعقل لانه لابد من الانتهاء الى هذا الواجب او الى ذلك الواجب فلا يثبت للواجب معنى غير انه واجب فبعد اذا وجوبه فلو كان واجبان فى الوجود لكان كل واحد قبل المنتهى لان المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما على وجه الاختصار (المسئلة الثانية) قوله تعالى الى ربك المنتهى فى المخاطب وجهان (احدهما) انه عام تقديره الى ربك ايها السامع او العاقل (ثانيهما) الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وفيه بيان صحة دينه فان كل احد كان يدعى ربا والها لكنه صلى الله عليه وسلم لما قال ربى الذى هو احد وصمد يحتاج اليه كل ممكن فاذا ربك هو المنتهى وهو رب الارباب ومسبب الاسباب وعلى هذا القول الكاف احسن موقعا اما على قولنا ان الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسئ وحث شديد للمحسن لان قوله ايها السامع كائنا من كان الى ربك المنتهى يفيد الامرين افادة بالغة حد الكمال واما على قولنا الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم فهو تسلية لقلبه كأنه يقول لا تحزن فان المنتهى الى الله فيكون كقوله تعالى فلا يحزنك قولهم انا نعلم ما يسرون وما يعلنون الى ان قال تعالى

(فى)

فى آخر السورة واليه ترجعون وامثاله كثيرة فى القرآن (المسئلة الثالثة) اللام على الوجه الاول للعهد لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول ابدا ان مرجعكم الى الله فقال وان الى ربك المنتهى الموعود المذكور فى القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الوجه الثانى للعموم اى الى الرب كل منتهى وهو مبدأ وعلى هذا الوجه نقول منتهى الادراكات المدركات فان الانسان اولا يدرك الاشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهى الى الله فيقف عنده ❊ ثم قال تعالى (وانه هو اضحك وابكى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) على قولنا اليه المنتهى المراد منه اثبات الوحدانية هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الاسلام من جملتها قدرة الله تعالى فان من الفلاسفة من يعترف بان الله المنتهى وانه واحد لكن يقول هو موجب لا قادر فقال تعالى هو اوجد ضدين الضحك والبكاء فى محل واحد والموت والحياة والذكورة والانوثة فى مادة واحدة وان ذلك لا يكون الا من قادر واعترف به كل عاقل وعلى قولنا ان قوله تعالى وان الى ربك المنتهى بيان المعاد فهو اشارة الى بيان امره فهو كما يكون فى بعضها ضاحكا فرحا وفى بعضها باكيا محزونا كذلك يفعل به فى الآخرة (المسئلة الثانية) اضحك وابكى لا مفعول لهما فى هذا الموضع لانهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور فلا حاجة الى المفعول يقول القائل فلان بيده الاخذ والعطاء يعطى ويمنع ولا يريد ممنوعا ومعطى (المسئلة الثالثة) اختار هذين الوصفين للذكر والانثى لانهما امران لا يعللان فلا يقدر احد من الطبيعيين ان يبدى فى اختصاص الانسان بالضحك والبكاء وجها وسببا واذا لم يعلل بامر ولا بد له من موجد فهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ويدلك على هذا انهم اذا ذكروا فى الضحك امر اله الضحك قالوا قوة التعجب وهو فى غاية البطلان لان الانسان ربما يبهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل قوة الفرح وليس كذلك لان الانسان يفرح كثيرا ولا يضحك والحزين الذى عند غاية الحزن يضحكه المضحك وكذلك الامر فى البكاء وان قيل لاكثرهم علما بالامور التى يدعيها الطبيعيون ان خروج الدمع من العين عند امور مخصوصة لماذا لا يقدر على تعليل صحيح وعند الخواص كالتى فى المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعى كما ان عند اوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذى لا يفوض امره الى قدرة الله تعالى وارادته ❊ ثم قال تعالى (وانه هو امات واحيى) والبحث فيه كما فى الضحك والبكاء غير ان الله تعالى فى الاول بين خاصة النوع الذى هو اخص من الجنس فانه اظهر وعن التعليل ابعد ثم عطف عليه ما هو اعم منه ودونه فى البعد عن التعليل وهى الاماتة والاحياء وهما صفتان متضادتان اى الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم والا لكان الممتنع ميتا وكيفما كان فالاماتة والاحياء امر وجودى وهما من خواص الحيوان ويقول الطبيعى فى الحياة لاعتدال المزاج والمزاج من اركان متضادة هى النار والهواء والماء

(وانه هو اضحك وابكى) اى هو خلق قوتى الضحك والبكاء (وانه هو امات واحيي) لا يقدر على الاماتة والاحياء غيره فان اثر القاتل نقض البينة وتفريق الاتصال وانما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة

والتراب وهي متداعية الى الانفكاك ومالا تركيب فيه من المتضادات لاموت له لان المتضادات كل احد يطلب مفارقة مجاوره فقال تعالى الذى خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على ان يحفظها اكثر من ذلك فاذامات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى فهو الذى أمات واحيا فان قيل متى امات واحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الاحياء والاماتة بناء على الحياة والموت نقول فيه وجوه (احدها) انه على التقديم والتأخير كأنه قال احيا وأمات (ثانيها) هو بمعنى المستقبل فان الامر قريب يقال فلان وصل والليل دخل اذاقرب مكانه وزمانه فكذلك الاحياء والاماتة (ثالثها) امات اى خلق الموت والجمود فى العناصر ثم ركبها واحيا اى خلق الحس والحركة فيها ۞ ثم قال تعالى (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى) وهو ايضا من جملة المتضادات التى تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرا وبعضها انثى ولا يصل اليه فهم الطبيعى الذى يقول انه من البرد والرطوبة فى الانثى فرب امرأة ايبس مزاجا من الرجل وكيف واذا نظرت فى المميزات بين الصغير والكبير تجدها امورا عجيبة منها نبات اللحية واقوى ماقالوا فى نبات اللحية انهم قالوا الشعور مكونة من بخار دخانى يتحدر الى المسام فاذا كانت المسام فى غاية الرطوبة والتحلل كما فى مزاج الصبى والمرأة لاينبت الشعر لخروج تلك الادخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل ان يتكون شعرا واذا كانت فى غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق ثم ان تلك المواد تنجذب الى مواضع مخصوصة فتندفع اما الى الرأس فتندفع اليه لانه مخلوق كقبة فوق الابخرة والادخنة فتتصاعد اليه تلك المواد فلهذا يكون شعر الرأس اكثر واطول ولهذا فى الرجل مواضع تنجذب اليها الابخرة والادخنة منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت ومنها بقرب آلة التناسل لان حرارة الشهوة تجذب ايضا ومنها اللحيان فانها كثيرة الحركة بسبب الاكل والكلام والحركة ايضا جاذبة فاذا قيل لهم فما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فانها اذا قطعت لم تنبت اللحية وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل ففى بعضها يبهت وفى بعضها يتكلم بامور واهية ولو فوضها الى حكمة الهية لكان اولى وفيه مسئلتان (الاولى) قال تعالى وانه خلق ولم يقل وانه هو خلق كما قال وانه هو اضحك وابكى وذلك لان الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم انه بفعل الانسان وفى الاماتة والاحياء وان كان ذلك التوهم بعيدا لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال انا احيى واميت فاكد ذلك بذكر الفصل واما خلق الذكر والانثى من النطفة فلا يتوهم احد انه بفعل احد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى الى قوله تعالى وانه هو اغنى واقنى حيث كان الاغناء عندهم غير مستند الى الله تعالى وكان فى معتقدهم ان ذلك بفعلهم كما قال قارون انما اوتيته على علم عندى ولذلك

(وانه خلق الزوجين الذكر والانثى)

قال وانه هو رب الشعرى لانهم كانوا يستبعدون ان يكون رب محمد هو رب الشعرى فأكد فى مواضع استبعادهم النسبة الى الله تعالى الاسناد ولم يؤكده فى غيره (المسئلة الثانية) الذكر والانثى اسمان هما صفة او اسمان ليسا بصفة المشهور عند اهل اللغة الثانى والظاهر انهما من الاسماء التى هى صفات فالذكر كالحسن والعزب والانثى كالحبلى والكبرى وانما قلنا انها كالحبلى فى رأى لانها حبا لهما انشئت لا كالكبرى وان قلنا انها كالكبرى فى رأى وانما قلنا ان الظاهر انهما صفتان لان الصفة مايطلق على شئ ثبت له امر كالعالم يطلق على شئ له علم والمتحرك يقال لشئ له حركة بخلاف الشجر والحجر فان الشجر لايقال لشئ بشرط ان يثبت له امر بل هو اسم موضوع لشئ معين والذكر اسم يقال لشئ له امر ولهذا يوصف به ولا يوصف بالشجر يقال جاءنى شخص ذكر او انسان ذكر ولا يقال جسم شجر والذى ذهب الى انه اسم غير صفة انما ذهب اليه لانه لم ير له فعلا والصفة فى الغالب له فعل كالعالم والجاهل والحسن والعزب والكبرى والحبلى وذلك لايدل على ماذهب اليه لان الذكورة والانوثة من الصفات التى لايتبدل بعضها ببعض فلا يصاغ لها افعال لان الفعل لما يتوقع له تجدد فى صورة الغالب ولهذا لم يوجد للاضافيات افعال كالابوة والبنوة والاخوة اذلم تكن من الذى يتبدل ووجد للاضافيات المتبدلة افعال يقال واخاه وتبناه لما لم يكن مثبتا بتكلف فقبل التبدل ❊ وقوله تعالى (من نطفة) اى قطعة من الماء ❊ وقوله تعالى (اذا تمنى) من امنى المنى اذا نزل او من منى يمنى اذا قدر وقوله تعالى من نطفة تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منه اعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها اعجب مايكون على مابينا ولهذا لم يقدر احد على ان يدعيه كما لم يقدر احد على ان يدعى خلق السموات ولهذا قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله كما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ❊ ثم قال تعالى (وان عليه النشأة الاخرى) وهى فى قول اكثر المفسرين اشارة الى الحشر والذى ظهر لى بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه الى الحق انه يحتمل ان يكون المراد نفخ الروح الانسانية فيه وذلك لان النفس الشريفة لا الامارة تخالط الاجسام الكثيفة المظلمة وبها كرم الله بنى آدم واليه الاشارة فى قوله تعالى فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر غير خلق النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما وبهذا الخلق الآخر تميز الانسان عن انواع الحيوانات وشارك الملك فى الادراكات فكما قال هنالك أنشأناه خلقا آخر بعد خلق النطفة قال ههنا وأن عليه النشاة الاخرى فجعل نفخ الروح نشأة اخرى كما جعله هنا لك انشاء آخر والذى أوجب القول بهذا هو ان قوله تعالى وان الى ربك المنتهى عند الاكثرين لبيان الاعادة وقوله تعالى ثم يجزاه الجزاء الاوفى كذلك فيكون ذكر النشأة الاخرى اعادة ولانه تعالى قال بعد هذا وانه هو اغنى

من نطفة اذا تمنى) تدفق فى الرحم او تخلق او يقدر منها الولد من منى بمعنى قدر (وان عليه النشأة الاخرى) اى الاحياء بعد الموت وفاء بوعده وقرئ النشاءة بالمد وهى ايضا مصدر نشاه

واقنى وهذا من احوال الدنيا وعلى ما ذكرنا يكون الترتيب فى غاية الحسن فانه يقول تعالى خلق الذكر والانثى ونفخ فيهما الروح الانسانية الشريفة ثم اغناه بلبن الام وبنفقة الاب فى صغره ثم اقناه بالكسب بعد كبره فان قيل فقد وردت النشأة الاخرى للحشر فى قوله تعالى فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشاة الآخرة نقول الآخرة من الآخر لا من الآخر لان الآخر افعل وقد تقدم على ان هناك لما ذكر البدء حمل على الاعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة كما فى قوله ثم خلقنا النطفة علقة ثم قال انشأناه خلقا آخر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) على للوجوب ولا يجب على الله الاعادة فما معنى قوله تعالى وان عليه قال الزمخشرى على ما هو مذهبه عليه عقلا فان من الحكمة الجزاء وذلك لا يتم الا بالحشر فيجب عليه عقلا الاعادة ونحن لا نقول بهذا القول ونقول فيه وجهان (الاول) عليه بحكم الوعد فانه تعالى قال انا نحن نحيى الموتى فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع (الثانى) عليه للتعين فان من حضر بين جمع وحاولوا امرا وعجزوا عنه يقال وجب عليك اذن ان تفعله اى تعينت له (المسئلة الثانية) قرئ النشأة على انه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهى للمرة تقول ضربته ضربتين اى مرة بعد مرة يعنى النشأة مرة اخرى عليه وقرئ النشاءة بالمد على انه مصدر على وزن فعالة كالكفالة وكيفما قرئ فهى من نشأ وهو لازم وكان الواجب ان يقال عليه الانشاء لا النشأة نقول فيه فائدة وهى ان الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة اخرى ولو قال عليه الانشاء ربما يقول قائل الانشاء من باب الاجلاس حيث يقال فى السعة اجلسته فما جلس واقمته فما قام فيقال انشأه وما نشأ اى قصده لينشأ ولم يوجد فاذا قال عليه النشأة اى يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزما (المسئلة الثالثة) هل بين قول القائل عليه النشأة مرة اخرى وبين قوله عليه النشأة الاخرى فرق نقول نعم اذا قال عليه النشأة مرة اخرى لا يكون النشء قد علم اولا واذا قال عليه النشأة الاخرى يكون قد علم حقيقة النشأة الاخرى فنقول ذلك المعلوم عليه ❁ ثم قال تعالى (وانه هو اغنى واقنى) وقد ذكرنا تفسيره فنقول اغنى يعنى دفع حاجته ولم يتركه محتاجا لان الفقير فى مقابلة الغنى فمن لم يبق فقيرا بوجه من الوجوه فهو غنى مطلقا ومن لم يبق فقيرا من وجه فهو غنى من ذلك الوجه قال صلى الله عليه وسلم اغنوهم عن المسئلة فى هذا اليوم وحمل ذلك على زكاة الفطر ومعناه اذا اتاه ما احتاج اليه وقوله تعالى اقنى معناه وزاد عليه الاقناء فوق الاغناء والذى عندى ان الحروف متناسبة فى المعنى فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الاقناء لحالة فوق الاغناء وعلى هذا فالاغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان وهداه الى الارتضاع فى صباه او هو ما اعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج اليهما وفى الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو اغناء وكل ما زاد عليه فهو اقناء ❁ ثم قال تعالى (وانه هو رب الشعرى) اشارة الى فساد قول قوم آخرين وذلك لان بعض

(وانه هو واغنى اقنى) واعطى القنية وهى ما يتأثل من الاموال وافردها بالذكر لانها اشرف الاموال او ارضى وتحقيقه جعل الرضا له قنية (وانه هو رب الشعرى) اى رب معبودهم وهى العبور وهى اشد ضياء من الغميصاء وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك ابو كبشة رجل من اشرافهم وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابو كبشة تشبيها له عليه الصلاة والسلام به لمخالفته اياهم فى دينهم

(الناس)

الناس يذهب الى ان الفقر والغنى بكسب الانسان واجتهاده فمن كسب استغنى ومن كسل افتقر وبعضهم يذهب الى ان ذلك بالبخت وذلك بالنجوم فقال هو اغنى واقنى وان قائل الغنى بالنجوم غالط فنقول هو رب النجوم وهو محركها كما قال تعالى هو رب الشعرى وقوله هو رب الشعرى لانكارهم ذلك اكد بالفصل والشعرى نجم مضئ وفى النجوم شعريان احداهما شامية والاخرى يمانية والظاهر ان المراد اليمانية لانهم كانو يعبدونها ❁ ثم قال تعالى (وانه اهلك عادا الاولى) لما ذكر انه اغنى واقنى وكان ذلك بفضل الله لابعطاء الشعرى وجب الشكر لمن قد اهلك وكفى لهم دليلا حال عاد وثمود وغيرهم وعادا الاولى قيل بالاولى تميزت من قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة وقيل الاولى لبيان تقدمهم لالتميزهم تقول زيد العالم جاء فى فتصفه لاتميزه ولكن لتبين علمه وفيه قراآت عادا الاولى بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين وعاد الاولى باسقاط نون التنوين ايضا لالتقاء الساكنين كقراءة عزير بن الله وقل هو الله احد الله الصمد وعاد الولى بادغام النون فى اللام ونقل ضمة الهمزة الى اللام وعاد الؤلى بهمز الواو وقرأ هذا القارئ على سؤقه ودليله ضعيف وهو يحتمل هذا فى موضع المؤقدة والمؤصدة للضمة والواو فهى فى هذا الموضع تجرى على الهمزة وكذا فى سؤقه لوجود الهمزة فى الاصل وفى موسى وقوله لايحسن ❁ ثم قال تعالى (وثمود فما ابقى) يعنى واهلك ثمود وقوله فما ابقى عائد الى عاد وثمود اى فما ابقى عليهم ومن المفسرين من قال فما ابقاهم اى فما ابقى منهم احدا ويؤيد هذا قوله تعالى فهل ترى لهم من باقية وتمسك الحجاج على من قال ان ثقيفا من ثمود بقوله تعالى فما ابقى ❁ (وقوم نوح) اى اهلكهم (من قبل) والمسئلة مشهورة فى قبل وبعد تقطع عن الاضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة اما البناء فلتضمنه الاضافة واما على الضمة فلانها لو بنيت على الفتحة لكان قد اثبت فيه ما يستحقه بالاعراب من حيث انها ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله ولو بنيت على الكسر لكان الامر على مايقتضيه الاعراب وهو الجر بالجار فبنى على مايخالف حالتى اعرابها ❁ وقوله تعالى (انهم كانوا هم اظلم واطغى) اما الظلم فلانهم هم البادئون به المتقدمون فيه ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها والبادى اظلم واما اطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الامد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ولايدعو نبى على قومه الا بعد الاصرار العظيم والظالم واضع الشئ فى غيره موضعه والطاغى المجاوز الحد فالطاغى ادخل فى الظلم فهو كالمغاير والمخالف فان المخالف مغاير مع وصف آخر زائد وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضدا وعليه سؤال وهو ان قوله وقوم نوح المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك فاذا قال هم كانوا فى غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا اظلم فأهلكوا لمبالغتهم فى الظلم ونحن ما بالغنا فلانهلك واما لو قال اهلكوا لانهم ظلمة لخاف

(وانه اهلك عادا الاولى) هى قوم هود عليه السلام وعاد الاخرى ارم وقيل الاولى القدماء لانهم اولى الامم هلاكا بعد قوم نوح وقرئ عاد الاولى بحذف الهمزة ونقل ضمتها الى اللام وعادلولى بادغام التنوين فى اللام وطرح همزة اولى ونقل حركتها الى لام التعريف (وثمود) عطف على عادا لان مابعده لايعمل فيه وقرئ وثمودا بالتنوين (فما ابقى) اى احدا من الفريقين (وقوم نوح) عطف عليه ايضا (من قبل) اى من قبل اهلاك عاد وثمود (انهم كانوا هم اظلم واطغى) من الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفرون الناس عنه وكان يحذرون صبيانهم ان يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه الصلاة والسلام حتى لايكون به حراك وما اثر فيهم دعاؤه قريبا من الف سنة

كل ظالم فما الفائدة فى قوله اظلم نقول المقصود بيان شدتهم وقوة اجسامهم فانهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد الا بتماديهم وطول اعمارهم ومع ذلك مانجا احد منهم فاحال من هو دونهم فى العمر والقوة فهو كقوله تعالى اشد منهم بطشا * وقوله تعالى (والمؤتفكة اهوى) المؤتفكة المنقلبة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ والمؤتفكات والمشهور فيه انها قرى قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهى مؤتفكات ويحتمل ان يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت اماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول مات فلان وفلان وكل من كان من امثالهم واشكالهم (المسئلة الثانية) اهوى اى اهواها بمعنى اسقطها فقيل اهواها من الهوى الى الارض من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه ثم قلبها وقيل كانت عماراتهم مرتفعة فاهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها (المسئلة الثالثة) قوله تعالى والمؤتفكة اهوى على ماقلت كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل نقول ليس معناه المنقلبة ماانقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى اختصاص المؤتفكة باسم الموضع فى الذكر وقال فى عاد وثمود وقوم نوح اسم القوم نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان ثمود اسم الموضع فذكر عادا باسم القوم وثمود باسم الموضع وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم ان القوم لا يمكنهم صون اماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فان فى العادة تارة يقوى الساكن فيذب عن مسكنه واخرى يقوى المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع وهذا المعنى حصل للمؤمنين فى آيتين (احداهما) قوله تعالى وكف ايدى الناس عنكم وقوله تعالى وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ففى الاول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفى الثانى لم يقو الحصن على حفظ الساكن (والوجه الثانى) هو ان عادا وثمود وقوم نوح كان أمرهم متقدما واماكنهم كانت قد دثرت ولكن امرهم كان مشهورا متواترا وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة فذكر الاظهر من الامرين فى كل قوم * ثم قال تعالى (فغشاها ماغشى) يحتمل ان يكون ما مفعولا وهو الظاهر ويحتمل ان يكون فاعلا يقال ضربه من ضربه وعلى هذا نقول يحتمل ان يكون الذى غشى هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى والسماء ومابناها ويحتمل ان يكون ذلك اشارة الى سبب غضب الله عليهم اى غشاها عليهم السبب بمعنى ان الله غضب عليهم بسببه يقال لمن اغضب ملكا بكلام فضربه الملك كلامك الذى ضربك * ثم قال تعالى (فبأى آلاء ربك تتمارى) قيل ايضا مما فى الصحف وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام كأنه يقول بأى النعم ايها السامع تشك او تجادل وقيل هو خطاب مع الكافر ويحتمل ان يقال مع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يقال كيف يجوز ان يقول للنبى صلى الله عليه وسلم تتمارى لانا نقول هو من باب لئن اشركت ليحبطن

(والمؤتفكة) هى قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها اى انقلبت بهم (اهوى) اى اسقطها الى الارض بعد ان رفعها على جناح جبريل عليه السلام الى السماء (فغشاها ماغشى) من فنون العذاب وفيه من التهويل والتفظيع مالاغاية وراءه (فبأى آلاء ربك تتمارى) تتشكك والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريقة قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك اولكل احد واسناد فعل التمارى الى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه فان صيغة التفاعل وان كانت موضوعة لافادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها المعنى الاول فقط كما فى يتداعونهم اى يدعونهم وقد تجرد عنهم ايضا فيكتفى بتعدد الفعل بتعدد متعلقه كما فيما نحن فيه فان المراد تعدد بتعدد الآلاء فتدبر وتسمية الامور المعدودة آلاء مع ان بعضها نقم لما انها ايضا نعم من حيث انها نصرة للانبياء والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظات وعبر للمعتبرين

(عملك)

عملك يعني لم يبق فيه امكان الشك حتى ان فارضا لو فرض النبي صلى الله عليه وسلم من يشك او يجادل في بعض الامور الخفية لما كان يمكنه المراء في نعم الله والعموم هو الصحيح كأنه يقول بأى آلاء ربك تتمارى ايها الانسان كما قال يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم وقال تعالى وكان الانسان اكثر شيء جدلا فان قيل المذكور من قبل نعم والآلاء نعم فكيف قال آلاء ربك نقول لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والاغناء والاقناء وذكر ان الكافر بنعمه اهلك قال فبأى آلاء ربك تتمارى فيصيبك مثل ما اصاب الذين تماروا من قبل او نقول لما ذكر الاهلاك قال للشاك انت ما اصابك الذى اصابهم وذلك بحفظ الله اياك فبأى آلاء ربك تتمارى وسنزيده بيانا في قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان في مواضع العذاب ❊ ثم قال تعالى (هذا نذير من النذر الاولى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشار اليه بهذا ماذا نقول فيه وجوه (احدها) محمد صلى الله عليه وسلم من جنس النذر الاولى (ثانيها) القرآن (ثالثها) ما ذكره من اخبار المهلكين ومعناه حينئذ هذا بعض الامور التى هى منذرة وعلى قولنا المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالنذير هو المنذر ومن لبيان الجنس وعلى قولنا المراد هو القرآن يحتمل ان يكون النذير بمعنى المصدر ويحتمل ان يكون بمعنى الفاعل وكون الاشارة الى القرآن بعيد لفظا ومعنى أما معنى فلأن القرآن ليس من جنس الصحف الاولى لانه معجز وتلك لم تكن معجزة وذلك لانه تعالى لما بين الوحدانية وقال فبأى آلاء ربك تتمارى قال هذا نذير اشارة الى محمد صلى الله عليه وسلم واثباتا للرسالة وقال بعد ذلك أزفت الآزفة اشارة الى القيامة ليكون في الآيات الثلاث المرتبة اثبات أصول ثلاث مرتبة فان الاصل الاول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة واما لفظا فلان النذير ان كان كاملا فما ذكره من حكاية المهلكين اولى لانه اقرب ويكون على هذا من يبقى على حقيقة التبعيض اى هذا الذى ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع او يكون لابتداء الغاية بمعنى هذا انذار من المنذرين المتقدمين يقال هذا الكتاب وهذا الكلام من فلان وعلى الاقوال كلها ليس ذكر الاولى لبيان الموصوف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال الفرقة الاولى احترازا عن الفرقة الاخيرة وانما هو لبيان الوصف للموصوف كما يقال زيد العالم جاءنى فيذكر العالم اما للبيان ان زيدا عالم غير انك لا تذكره بلفظ الخبر فتأتى به على طريقة الوصف واما للمدح زيد به واما لامر آخر والاولى على العود الى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال من النذر الاولين يقال من الاقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى ❊ ثم قال تعالى (أزفت الآزفة) وهو كقوله تعالى وقعت الواقعة ويقال كانت الكائنة وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما اذا كان الفاعل صار فاعلا لمثل ذلك الفعل من قبل ثم صدر منه مرة اخرى مثل الفعل فيقال فعل الفاعل اى الذى كان فاعلا صار فاعلا مرة اخرى يقال حاكه الحائك اى من شغله ذلك من قبل فعله ومنها ما يصير الفاعل فاعلا

(هذا نذير من النذر الاولى) هذا اما اشارة الى القرآن والنذير مصدر او الى الرسول عليه الصلاة والسلام والنذير بمعنى المنذر وايا ما كان فالتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف هو نعت لنذير مقرر له ومتضمن للوعيد اى هذا القرآن الذى تشاهدونه نذير من قبيل الانذارات المتقدمة التى سمعتم عاقبتها او هذا الرسول منذر من جنس المنذرين الاولين والاولى على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل وقد علمتم احوال قومهم المنذرين وفي تعقيبه بقوله تعالى (ازفت الآزفة) اشعار بان تعذيبهم مؤخر الى يوم القيامة اى دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى اقتربت الساعة (ليس لها من دون الله كاشفة) اى ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها الا الله تعالى لكنه لا يكشفها اوليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها الا الله تعالى فانه المؤخر لها اوليس لها كاشفة لوقتها الا الله تعالى كقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو اوليس لها من غير الله تعالى كشف على ان كاشفة مصدر كالعافية (افمن هذا الحديث) اى القرآن (تعجبون) انكارا (وتضحكون) استهزاء مع كونه

بذلك الفعل ومنه يقال اذا مات الميت انقطع عمله واذا غصب العين غاصب ضمنه فقوله أزفت الآزفة يحتمل ان يكون من القبيل الاول اى قربت الساعة التى كل يوم يزداد قربها فهى كائنة قريبة وازدادت فى القرب ويحتمل ان يكون كقوله تعالى وقعت الواقعة اى قرب وقوعها وازفت فاعلها فى الحقيقة القيامة او الساعة فكأنه قال ازفت القيامة الآزفة او الساعة او مثلها * وقوله تعالى (ليس لها من دون الله كاشفة) فيه وجوه (احدها) لا مظهر لها الا الله فمن يعلمها لا يعلم الا باعلام الله تعالى اياه واظهاره اياها له فهو كقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة وقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو (ثانيها) لا يأتى بها الا الله كقوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة وهى تدخل على النفى فتؤكد معناه تقول ماجاءنى احد وماجاءنى من احد وعلى هذا يحتمل ان يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ليس لها من كاشفة دون الله فيكون نفيا عاما بالنسبة الى الكواشف ويحتمل ان يقال ليست بزائدة بل معنى الكلام انه ليس فى الوجود نفس تكشفها اى تخبر عنها كما هى ومتى وقتها من غير الله تعالى يعنى من يكشفها فانما يكشفها من الله لا من غير الله يقال كشف الامر من زيد ودون يكون بمعنى غير كما فى قوله تعالى أئفكا آلهة دون الله تريدون اى غير الله (المسئلة الثانية) كاشفة صفة لمؤنث اى نفس كاشفة وقيل هى للمبالغة كما فى العلامة وعلى هذا لا يقال بانه نفى ان يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من نفى الكاشف الفائق نفى نفس الكاشف لانا نقول لو كشفها احد لكان كاشفا بالوجه الكامل فلا كاشف لها ولا يكشفها احد وهو كقوله تعالى وما انا بظلام للعبيد من حيث نفى كونه ظالما مبالغا ولا يلزم منه نفى كونه ظالما وقلنا هناك انه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان فى غاية الظلم وليس فى غاية الظلم فلا يظلمهم اصلا (المسئلة الثالثة) اذا قلت ان معناه ليس لها نفس كاشفة فقوله من دون الله استثناء على الاشهر من الاقوال فيكون الله تعالى نفسا لها كاشفة نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) لا فساد فى ذلك قال الله تعالى ولا اعلم مافى نفسك حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة (الثانى) ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه ان لا يكون نفسا (الثالث) الاستثناء الكاشف المبالغ * ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث تعجبون) قيل من القرآن ويحتمل ان يقال هذا اشارة الى حديث ازفت الآزفة فانهم كانوا يتعجبون من حشر الاجساد وجمع العظام بعد الفساد * وقوله تعالى (وتضحكون) يحتمل ان يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث كما قال تعالى فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون فى حق موسى عليه السلام وكانوا هم ايضا يضحكون من حديث النبى والقرآن ويحتمل ان يكون انكارا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة اى أتضحكون وقد سمعتم ان القيامة قربت فكان حقا ان لا تضحكوا حينئذ * وقوله تعالى (ولا تبكون) اى كان حقا لكم ان تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده

(* وقوله)

ابعد شئ من ذلك (ولا تبكون) حزنا على ما فرطتم فى شأنه وخوفا من ان يحيق بكم ما حاق بالامم المذكورة (وانتم سامدون) اى لاهون او مستكبرون من سمد البعير اذا رفع رأسه او مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير او خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما فى قول من قال

رمى الحدثان نسوة آل سعد
بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا

والجملة حال من فاعل لا تبكون خلا ان مضمونها على الوجه الاخير قيد للنفى والانكار وارد على نفى البكاء والسمود معا وعلى الوجوه الاول قيد للنفى والانكار متوجه الى نفى البكاء ووجود السمود والاول اوفى بحق المقام فتدبر والفاء فى قوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا) لترتيب الامر او موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالانكار والاستهزاء ووجوب تلقيه بالايمان مع كمال الخضوع والخشوع اى واذا كان الامر كذلك فاسجدوا لله الذى انزله واعبدوه عن النبى عليه الصلاة

※ وقوله تعالى (وانتم سامدون) اى غافلون وذكر باسم الفاعل لان الغفلة دائمة واما الضحك والعجب فهما امران يتجددان ويعدمان ※ وقوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا) يحتمل ان يكون الامر عاما ويحتمل ان يكون التفاتا فيكون كأنه قال ايها المؤمنون اسجدوا شكرا على الهداية واشتغلوا بالعبادة ولم يقل اعبدوا الله اما لكونه معلوما واما لان العبادة فى الحقيقة لاتكون الا لله فقال واعبدوا اى ائتوا بالمأمور ولا تعبدوا غير الله لانها ليست بعبادة وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة اشد واتم مما اذا حملناه على العموم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه اجمعين

(سورة القمر خمسون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقتربت الساعة وانشق القمر) اول السورة مناسب لآخر ما قبلها وهو قوله ازفت الآزفة فكأنه اعاد ذلك مع الدليل وقال قلت أزفت الآزفة وهو حق اذ القمر انشق والمفسرون بأسرهم على ان المراد ان القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الاخبار على حديث الانشقاق وفى الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة وقالوا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الانشقاق بعينها معجزة فسأل ربه فشقه ومضى وقال بعض المفسرين المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له لان من منع ذلك وهو الفلسفى يمنعه فى الماضى والمستقبل ومن يجوزه لا حاجة الى التأويل وانما ذهب اليه ذلك الذاهب لان الانشقاق امر هائل فلو وقع لعم وجه الارض فكان ينبغى ان يبلغ حد التواتر نقول النبى صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدى فى القرآن وكانوا يقولون انا نأتى بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه فكان القرآن معجزة باقية الى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة اخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر واما المؤرخون تركوه لان التواريخ فى اكثر الامر يستعملها المنجم وهو لما وقع الامر قالوا بأنه مثل خسوف القمر وظهور شئ فى الجو على شكل نصف القمر فى موضع آخر فتركوا حكايته فى تواريخهم والقرآن أدل دليل واقوى مثبت له وامكانه لا يشك فيه وقد اخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات وذكرناه مرارا فلا نعيده ※ وقوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) تقديره وبعد هذا ان يروا آية يقولوا سحر فانهم رأوا آيات ارضية وآيات سماوية ولم يؤمنوا ولم يتركوا عنادهم فان يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون وفيه وجه آخر وهو ان يقال المعنى ان عادتهم انهم ان يروا آية يعرضوا فلما رأوا انشقاق القمر اعرضوا لتلك العادة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله آية ماذا نقول آية اقتراب الساعة فان انشقاق القمر من آياته وقد ردوا

والسلام من قرأ سورة النجم اعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة شرفها الله تعالى

(سورة القمر مكية وهى)
(خمس وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقتربت الساعة وانشق القمر) روى ان الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس رضى الله عنهما انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتى القمر وعن عثمان بن عطاء عن ابيه ان معناه سينشق يوم القيامة ويرده قوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فانه ناطق بانه قد وقع وانهم قد شاهدوه وبعد مشاهدة نظائره وقرئ وقد انشق القمر اى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها ان القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد او الاستحكام اى وان يروا آية من آيات الله يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتى به محمد على مر الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر انواع السحر اوقوى مستحكم لا يمكن ازالته وقيل مستمر ذاهب يزول ولا يبقى

وكذبوا فان يروا غيرها ايضا يعرضوا او آية الانشقاق فانها معجزة اما كونها معجزة ففي غاية الظهور واما كونها آية الساعة فلأن منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله في كل جسم سماوي من الكواكب فاذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به وبأن جواز خراب العالم وقال اكثر المفسرين معناه ان من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان وخفاء الامر على الاذهان وبيان ضعفه هو ان الله تعالى لو اخبر في كتابه ان القمر ينشق وهو علامة قيام الساعة لكان ذلك امرا لا بد من وقوعه مثل خروج دابة الارض وطلوع الشمس من المغرب فلا يكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم كما ان هذه الاشياء عجائب وليست بمعجزة للنبي لا يقال الاخبار عنها قبل وقوعها معجزة لانا نقول فحينئذ يكون هذا من قبيل الاخبار عن الغيوب فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد ولا يقال بأن ذلك كان معجزة وعلامة فأخبر الله في الصحف والكتب السالفة ان يكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وتكون الساعة قريبة حينئذ وذلك لان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم علامة كائنة حيث قال بعثت انا والساعة كهاتين ولهذا يحكى عن سطيح انه لما اخبر بوجود النبي صلى الله عليه وسلم قال عن امور تكون فكان وجوده دليل امور وايضا القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين وهم كانوا غافلين عما في الكتب واما اصحاب الكتب فلم يفتقروا الى بيان علامة الساعة لانهم كانوا يقولون بها وبقربها فهي اذا آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى لان السموات اذا طويت وجوز ذلك فالارض ومن عليها لا يستبعد فناؤها اذا ثبت هذا فنقول معنى اقتربت الساعة يحتمل ان يكون في العقول والاذهان يقول من يسمع امرا لا يقع هذا بعيد مستبعد وهذا وجه حسن وان كان بعض ضعفاء الاذهان ينكره وذلك لان حمله على قرب الوقوع زمانا لا امكانا يمكن الكافر من مجادلة فاسدة فيقول قال الله تعالى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم اقتربت ويقولون بان من قبل ايضا في الكتب كان يقول اقترب الوعد ثم مضى مائة سنة ولم يقع ولا يبعد ان يمضى الف آخر ولا يقع ولو صح اطلاق لفظ القرب زمانا على مثل هذا لا يبقى وثوق بالاخبارات وايضا قوله اقتربت لانتهاز الفرصة والايمان قبل ان لا يصح الايمان فللكافر ان يقول اذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها لانها لا تدركني ولا تدرك اولادي ولا اولاد اولادي واذا كان امكانها قريبا في العقول يكون ذلك ردا بالغا على المشركين والفلاسفة والله سبحانه وتعالى اول ما كلف الاعتراف بالوحدانية واليوم الآخر وقال اعلموا ان الحشر كائن فخالف المشرك والفلسفي ولم يقنع بمجرد انكار ما ورد الشرع ببيانه ولم يقل لا يقع او ليس بكائن بل قال ذلك بعيد ولم يقنع بهذا ايضا بل قال ذلك غير ممكن ولم يقنع به ايضا بل قال فان امتناعه ضروري فان مذهبهم ان اعادة المعدوم واحياء الموتى محال

تمنية لانفسهم وتعليلا وهو الانسب بغلوهم في العناد والمكابرة ويؤيده ما سيأتي لرده وقرئ وان يروا على البناء للمفعول من الاراءة (وكذبوا) اى بالنبي صلى الله عليه وسلم وما عاينوه مما اظهره الله تعالى على يده من المعجزات (واتبعوا اهواءهم) التي زينها الشيطان لهم او كذبوا الآية التي هي انشقاق القمر واتبعوا اهواءهم وقالوا سحر القمر او سحر اعيننا والقمر بحاله وصيغة الماضي للدلالة على التحقق وقوله تعالى (وكل امر مستقر) استئناف مسوق لاقناطهم عما علقوا به امانيهم الفارغة من عدم استقرار امره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه اى وكل امر من الامور مستقر اى منته الى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها امر النبي صلى الله عليه وسلم فسيصير الى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه وابهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة الى التصريح به

(بالضرورة)

بالضرورة ولهذا قالوا أئذا متنا أئذا كنا عظاما أئذا ضللنا فى الارض بلفظ الاستفهام بمعنى الانكار مع ظهور الامر فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه بل قال ان الساعة آتية لاريب فيها ولم يقتصر عليه بل قال ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا ولم يتركها حتى قال اقتربت الساعة واقترب الوعد الحق اقترب للناس حسابهم اقترابا عقليا لايجوز ان ينكر مايقع فى زمان طرفة عين لانه على الله يسير كما ان تقليب الحدقة علينا يسير بل هو اقرب منه بكثير والذى يقويه قول العامة ان زمان وجود العالم زمان مديد والباقى بالنسبة الى الماضى شئ يسير فلهذا قال اقتربت الساعة واما قوله صلى الله عليه وسلم بعثت انا والساعة كهاتين فمعناه لانبى بعدى فان زمانى يمتد الى قيام الساعة فزمانى والساعة متلاصقان كهاتين ولاشك ان الزمان زمان النبى صلى الله عليه وسلم ومادامت اوامره نافذة فالزمان زمانه وان كان ليس هو فيه كما ان المكان الذى تنفذ فيه اوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان فان قيل كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع انه مقطوع به قلت كما صح قوله تعالى لعل الساعة تكون قريبا فان لعل للترجى والامر عند الله معلوم وفائدته ان قيام الساعة ممكن لاامكانا بعيدا عن العادات كحمل الآدمى فى زماننا حملا فى غاية الثقل اوقطعه مسافة بعيدة فى زمان يسير فان ذلك ممكن امكانا بعيدا واما تقليب الحدقة فممكن امكانا فى غاية القرب (المسئلة الثانية) الجمع الذين تكون الواو ضميرهم فى قوله يروا ويعرضوا غير مذكور فمن هم نقول هم معلومون وهم الكفار تقديره وهؤلاء الكفار ان يروا آية يعرضوا (المسئلة الثالثة) التنكير فى الآية للتعظيم اى ان يروا آية قوية او عظيمة يعرضوا (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ويقولوا سحر مستمر ماالفائدة فيه نقول فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه وان الاعتراف لزمهم لانهم لايقدروا ان يقولوا نحن نأتى بمثلها وبيان كونهم معرضين لااعراض معذور فان من يعرض اعراض مشغول بامر مهم فلم ينظر فى الآية لايستقبح منه الاعراض مثل مايستقبح لمن ينظر فيها الى آخرها ويعجز عن نسبتها الى احد ودعوى الاتيان بمثلها ثم يقول هذا ليس بشئ هذا سحر لان ما من آية الا ويمكن المعاند ان يقول فيها هذا القول (المسئلة الخامسة) ما المستمر نقول فيه وجوه (احدها) دائم فان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأتى كل زمان بمعجزة قولية اوفعلية ارضية اوسماوية فقالوا هذا سحر مستمر دائم لايختلف بالنسبة الى النبى عليه السلام بخلاف سحر السحرة فان بعضهم يقدر على امر وامرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل (ثانيها) مستمر اى قوى من حبل مرير الفتل من المرة وهى الشدة (ثالثها) من المرارة اى سحر مر مستبشع (رابعها) مستمر اى مار ذاهب فان السحر لابقاء له ❁ ثم قال تعالى (وكذبوا واتبعوا اهواءهم) وهو يحتمل امرين (احدهما) وكذبوا محمدا المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) كذبوا بالآية وهى انشقاق القمر فان قلنا كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقوله واتبعوا اهواءهم اى

وقيل المعنى كل امر من امرهم وأمره عليه الصلاة والسلام مستقر اى سيثبت ويستقر على حالة خذلان اونصرة فى الدنيا وشقاوة اوسعادة فى الآخرة وقرئ بالفتح على انه مصدر او اسم مكان اواسم زمان اى ذو استقرار اوذو موضع استقرار اوذو زمان استقرار وبالكسر والجر على انه صفة امر وكل عطف على الساعة اى اقتربت الساعة وكل امر مستقر (ولقد جاءهم) اى فى القرآن وقوله تعالى (من الانباء) اى انباء القرون الخالية اوانباء الآخرة متعلق بمحذوف هو حال عمابعده اى وبالله لقد جاءهم كائنا من الانباء (مافيه مزدجر) اى ازدجار من تعذيب اووعيد اوموضع ازدجار على ان فى تجريدية والمعنى انه فى نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والزاى للتناسب وقرئ مزجر بقلبها زايا وادغامها (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها وهى بدل من ما اوخبر لمحذوف وقرئ بالنصب حالا منها

تركوا الحجة واولوا الآيات وقالوا هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول عن النجوم ويختار الاوقات للافعال وساحر فهذه اهواؤهم وان قلنا كذبوا بانشقاق القمر فقوله واتبعوا اهواءهم فى انه سحر القمر وانه خسوف والقمر لم يصبه شئ فهذه اهواؤهم وكذلك قولهم فى كل آية ❊ وقوله تعالى (وكل امر مستقر) فيه وجوه (احدها) كل امر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق وحينئذ يكون تهديدا لهم وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وهو كقوله تعالى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم اى بانها حق (ثانيها) وكل امر مستقر فى علم الله تعالى لايخفى عليه شئ فهم كذبوا واتبعوا اهواءهم والانبياء صدقوا وبلغوا ماجاءهم كقوله تعالى لايخفى على الله منهم شئ وكما قال تعالى فى هذه السورة وكل شئ فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر (ثالثها) هو جواب قولهم سحر مستمر اى ليس امره بذاهب بل كل امر من اموره مستقر ❊ ثم قال تعالى (ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر) اشارة الى ان كل ما هو لطف بالعباد قد وجد فاخبرهم الرسول باقتراب الساعة واقام الدليل على صدقه وامكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذى هو آية لأن من يكذب بها لايصدق بشئ من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الاباطيل الذاهبة وذكروا الاقاويل الكاذبة فذكر لهم انباء المهلكين بالآيتين تخويفا لهم وهذا هو الترتيب الحكمى ولهذا قال بعد الآيات حكمة بالغة اى هذه حكمة بالغة والانباء هى الاخبار العظام ويدلك على صدقه ان فى القرآن لم يرد النبأ والانباء الا لماله وقع قال وجئتك من سبأ بنبأ يقين لانه كان خبرا عظيما وقال ان جاءكم فاسق بنبأ اى محاربة اومسالمة ومايشبهه من الامور العرفية وانما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه امر ذو بال وكذلك قال تعالى تلك من انباء الغيب نوحيها اليك فكذلك الانباء ههنا وقال تعالى عن موسى لعلى آتيكم منها بخبر اوجذوة حيث لم يكن يعلم انه يظهر له شئ عظيم يصلح ان يقال له نبأ ولم يقصده والظاهر ان المراد انباء المهلكين بسبب التكذيب وقال بعضهم المراد القرآن وتقديره جاءكم فيه الانباء وقيل قوله جاءكم من الانباء يتناول جميع ما ورد فى القرآن من الزواجر والمواعظ وما ذكرنا اظهر لقوله فيه مزدجر وفى ما وجهان (احدهما) انها موصولة اى جاءكم الذى فيه مزدجر (ثانيهما) موصوفة تقديره جاءكم من الانباء شئ موصوف بان فيه مزدجر وهذا اظهر والمزدجر فيه وجهان احدهما ازدجار وثانيهما موضع ازدجار كالمرتقى ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير لان المصدر هو المفعول الحقيق ❊ ثم قال تعالى (حكمة بالغة) وفيه وجوه (الاول) على قول من قال ولقد جاءهم من الانباء المراد منه القرآن قال حكمة بالغة بدل كأنه قال ولقد جاءهم حكمة بالغة (الثانى) ان يكون بدلا عن ما فى قوله ما فيه مزدجر (الثالث) حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه حكمة بالغة والاشارة حينئذ تحتمل وجوها (احدها) هذا الترتيب الذى فى ارسال الرسول وايضاح الدليل والانذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة

فانها موصولة اوموصوفة تخصصت بصفتها فساغ نصب الحال عنها (فما تغنى النذر) نفى للاغناء او انكار له والفاء لترتيب عدم الاغناء على مجئ الحكمة البالغة مع كونه مظنة للاغناء وصيغة المضارع للدلالة على تجدد عدم الاغناء واستمراره حسب تجدد مجئ الزواجر واستمراره وما على الوجه الثانى منصوبة اى فاى اغناء تغنى النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر اومصدر بمعنى الانذار (فتول عنهم) لعلمك بان الانذار لايؤثر فيهم البتة (يوم يدع الداع) منصوب بيخرجون اوباذكر والداعى اسرافيل عليه السلام ويجوز ان يكون الدعاء فيه كالامر فى قوله تعالى كن فيكون واسقاط الياء للاكتفاء بالكسر تخفيفا (الى شئ نكر) اى منكر فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة وقرئ نكر بالتخفيف ونكر بمعنى انكر (خشعا ابصارهم) حال من فاعل (يخرجون) والتقديم لان العامل متصرف اى يخرجون (من

(ثانيها) انزال مافيه الانباء حكمة بالغة (ثالثها) هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة (الرابع) قرئ بالنصب فيكون حالا وذو الحال مافي قوله مافيه مزدجر اى جاءكم ذلك حكمة فان قيل ان كان ماموصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فاما ان كانت بمعنى جاءهم من الانباء شئ فيه ازدجار يكون منكرا وتنكير ذى الحال قبيح نقول كونه موصوفا يحسن ذلك ❁ وقوله تعالى (فما تغنى النذر) فيه وجهان (احدهما) ان ما نافية ومعناه ان النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجؤا قومهم الى الحق وانما ارسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى فان أعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ويؤيد هذا قوله تعالى فتول عنهم اى ليس عليك ولا على الانبياء الاغناء والالجاء فاذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى امرت بها بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وتول اذا لم تقدر (ثانيهما) ما استفهامية ومعنى الآيات حينئذ انك أتيت بما عليك من الدعوى واظهار الآية عليها وكذبوا فأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذى تغنى النذر غير هذا فلم يبق عليك شئ آخر ❁ قوله تعالى (فتول عنهم) قد ذكرنا ان المفسرين يقولون ان قوله تول منسوخ وليس كذلك بل المراد منه لاتناظرهم بالكلام ❁ ثم قال تعالى (يوم يدع الداع الى شئ نكر) قد ذكرنا ايضا ان من ينصح شخصا ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره مافيه نصح المعرض عنه ويكون فيه قصد ارشاده ايضا فقال بعد ماقال فتول عنهم يوم يدع الداع يخرجون من الاجداث للتخويف والعامل فى يوم هو مابعده وهو قوله يخرجون من الاجداث والداعى معرف كالمنادى فى قوله يوم ينادى المناد لانه معلوم قد اخبر عنه فقيل ان مناديا ينادى وداعيا يدعو وفى الداعى وجوه احدها انه اسرافيل وثانيها انه جبريل وثالثها انه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لايقطع حد العلمية وانما يكون ذلك كقولنا جاء رجل فقال الرجل وقوله تعالى الى شئ نكر اى منكر وهو يحتمل وجوها (احدها) الى شئ نكر فى يومنا هذا لانهم انكروه اى يوم يدعو الداعى الى الشئ الذى انكروه يخرجون (ثانيها) نكر اى منكر يقول ذلك القائل كان ينبغى ان لايكون اى من شانه ان لايوجد يقال فلان ينهى عن المنكر وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغى ان لايقع لانه يردبهم فى الهاوية فان قيل ماذلك الشئ النكر نقول الحساب او الجمع له او النشر للجمع وهذا اقرب فان قيل النشر لايكون منكرا فانه احياء ولان الكافر من اين يعرف وقت النشر ومايجرى عليه لينكره نقول يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ❁ ثم قال تعالى (خاشعا ابصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر) وفيه قرآت خاشعا وخاشعة وخشعا فمن قرأ خاشعا على قول القائل يخشع ابصارهم على ترك التأنيث لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله تخشع ابصارهم ومن قرأ خشعا فله وجوه (احدها) على قول من يقول يخشعن ابصارهم على طريقة من يقول أكلونى البراغيث (ثانيها) فى خشعا ضمير ابصارهم بدل عنه

لاجداث) اذلة ابصارهم من شدة الهول وقرئ خاشعا والافراد والتذكير لان فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث وقرئ خاشعة على الاصل وقرئ خشع ابصارهم على الابتداء والخبر على ان الجملة حال (كأنهم جراد منتشر) فى الكثرة والتموج والتفرق فى الاقطار (مهطعين الى الداع) مسرعين مادى اعناقهم اليه اوناظرين اليه (يقول الكافرون) استئناف وقع جوابا عما نشأ من وصف اليوم بالاهوال واهله بسوء الحال كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون (هذا يوم عسر) اى صعب شديد وفى اسناد القول المذكور الى الكفار تلويح بان المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة (كذبت قبلهم قوم نوح) شروع فى تعداد بعض ماذكر من الانباء الموجبة للازدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريرا

تقديره يخشعون ابصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل اعجبونى حسنهم (ثالثها) فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعا ابصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعا روى ان مجاهدا رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال له يانبى الله خشعا ابصارهم او خاشعا ابصارهم فقال عليه السلام خاشعا ولهذه القراءة وجه آخر اظهر مما قالوه وهو ان يكون خشعا منصوبا على انه مفعول بقوله يوم يدع الداع خشعا اى يدعو هؤلاء فان قيل هذا فاسد من وجوه (احدها) ان التخصيص لافائدة فيه لان الداعى يدعو كل احد (ثانيها) قوله يخرجون من الاجداث بعد الدعاء فيكونون خشعا قبل الخروج وانه باطل (ثالثها) قراءة خاشعا تبطل هذا نقول (اما الجواب عن الاول) فهو ان يقال قوله الى شئ نكر يدفع ذلك لان كل احد لايدعى الى شئ نكر (وعن الثانى) المراد من شئ نكر الحساب العسر يعنى يوم يدعو الداعى الى الحساب العسر خشعا ولا يكون العامل فى يوم يدعو يخرجون بل اذكروا اوفما تغنى النذر كما قال تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين ويكون يخرجون ابتداء كلام (وعن الثالث) انه لامنافاة بين القراءتين وخاشعا نصب على الحال او على انه مفعول يدعو كأنه يقول يدعو الداعى قوما خاشعا ابصارهم والخشوع السكون قال تعالى وخشعت الاصوات وخشوع الابصار سكونها على حال لاتنقلب يمنة ولا يسرة كما فى قوله تعالى لايرتد اليهم طرفهم وقوله تعالى يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر مثلهم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج ويحتمل ان يقال المنتشر مطاوع نشره اذا احياه فكأنهم جراد يتحرك من الارض ويدب اشارة الى كيفية خروجهم من الاجداث وضعفهم ❊ ثم قال تعالى (مهطعين الى الداع) اى مسرعين اليه انقيادا (يقول الكافرون هذا يوم عسر) يحتمل ان يكون العامل الناصب ليوم فى قوله تعالى يوم الداع اى يوم يدعو الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر وفيه فائدتان (احداهما) تنبيه المؤمن ان ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير يعنى له عسر لايسر معه (ثانيتهما) هى ان الامرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر فان الخروج من الاجداث كأنهم جراد والاهطاع الى الداعى يكون للمؤمن فانه يخاف ولا يأمن العذاب الا بايمان الله تعالى اياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول هذا يوم عسر ❊ ثم انه تعالى أعاد بعض الانباء فقال (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) فيها تهوين وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم فان حاله كحال من تقدمه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن والحاق ضمير الجمع به قبيح عند الاكثرين فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ويجوزون كذبت فما الفرق نقول التأنيث قبل الجمع لان الانوثة والذكورة للفاعل امر لايتبدل ولم تحصل الانوثة للفاعل بسبب فعلها الذى هو فاعله فليس اذا قلنا ضربت هذه كانت هذه انثى لاجل

لفحوى قوله تعالى فما تغنى النذر اى فعل التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح وقوله تعالى (فكذبوا عبدنا) تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيبا اثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله وقيل كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا لانه من جملتهم وفى ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الاضافة الى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه (وقالوا مجنون) اى لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه الى الجنون (وازدجر) عطف على قالوا اى وزجر عن التبليغ بأنواع الاذية وقيل هو من جملة ماقالوه اى هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته

الضرب بخلاف الجمع لان الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذى هم فاعلوه فانا اذا قلنا جمع ضربوا وهم ضاربون ليس بمجرد اجتماعهم فى الوجود يصح قولنا ضربوا وهم ضاربون لانهم ان اجتمعوا فى مكان فهم جمع ولكن ان لم يضرب الكل لا يصح قولنا ضربوا فضمير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع فى الفعل والفاعلية وليس بسبب الفعل فلم يجز ان يقال ضربوا جمع لان الجمع لم يفهم الا بسبب انهم ضربوا جميعهم فينبغى ان يعلم او لا اجتماعهم فى الفعل فيقول الضاربون ضربوا واما ضربت هند فصحيح لانه لا يصح ان يقال التأنيث لم يفهم الا بسبب انها ضربت بل هى كانت انثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة وليس الجمع كانوا جمعا فضربوا فصاروا اضاربين بل صاروا اضاربين لاجتماعهم فى الفعل ولهذا ورد الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ او لا الانثى ولا الذكر ولهذا لم يحسن ان يقال ضرب هند وحسن بالاجماع ضرب قوم والمسلمون (المسئلة الثانية) لما قال تعالى كذبت ما الفائدة فى قوله تعالى فكذبوا عبدنا نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان قوله كذبت قبلهم قوم نوح اى بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا (الثانى) كذبت قوم نوح الرسل وقالوا لم يبعث الله رسولا وكذبوهم فى التوحيد فكذبوا عبدنا كما كذبوا غيره وذلك لان قوم نوح كانوا مشركين يعبدون الاصنام ومن يعبد الاصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لانه يقول لا تعلق لله بالعالم السفلى وانما امره الى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا (الثالث) قوله تعالى فكذبوا عبدنا للتصديق والرد عليهم تقديره كذبت قوم نوح وكان تكذيبهم عبدنا اى لم يكن تكذيبا بحق كما يقول القائل كذبنى فكذب صادقا (المسئلة الثالثة) كثيرا ما يخص الله الصالحين بالاضافة الى نفسه كما فى قوله تعالى ان عبادى يا عبادى واذكر عبدنا انه من عبادنا وكل واحد عبده فما السر فيه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ما قيل فى المشهور ان الاضافة اليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى ان طهرا بيتى وقوله تعالى ناقة الله (الثانى) المراد من عبدنا اى الذى عبدنا فالكل عباد لانهم مخلوقون للعبادة لقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده ويؤيد هذا قوله تعالى كونوا عبادا لى اى حققوا المقصود (الثالث) الاضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذى لم يقل بمعبود سوانا ومن اتبع هواه فقد اتخذ الها فالعبد المضاف هو الذى بكليته فى كل وقت لله فاكله وشربه وجميع اموره لوجه الله تعالى وقليل ما هم (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى اختيار لفظ العبد مع انه لو قال رسولنا لكان ادل على قبح فعلهم نقول قوله عبدنا ادل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لان العبد اقل تحريفا لكلام السيد من الرسول فيكون كقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (المسئلة الخامسة) قوله تعالى وقالوا مجنون اشارة الى انه

أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأ واما عجزواعنه وقالوا هو مصاب الجن او هو زيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم انه كاذب بل قالوا مجنون اى يقول مالا يقبله عاقل والكاذب العاقل يقول مايظن به انه صادق فقالوا مجنون اى يقول مالم يقل به عاقل فبين مبالغتهم فى التكذيب (المسئلة السادسة) وازدجر اخبار من الله تعالى اوحكاية قولهم نقول فيه خلاف منهم من قال اخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا وقالوا اى هم كذبوا وهو ازدجر اى اوذى وزجر وهو كقوله تعالى كذبوا واوذوا وعلى هذا ان قيل لو قال كذبوا عبدنا وزجروه كان الكلام اكثر مناسبة نقول لا بل هذا ابلغ لان المقصود تقوية قلب النبى صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه فقال وازدجر اى فعلوا مايوجب الانزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء الى الايمان الى الدعاء عليهم ولو قال زجروه ماكان يفيد انه تأذى منهم لان فى السعة يقال آذونى ولكن ماتأذيت واما اوذيت فهو كاللازم لايقال الاعند حصول الفعل لاقبله ومنهم من قال وازدجر حكاية قولهم اى هم قالوا ازدجر تقديره قالوا مجنون مزدجر ومعناه ازدجره الجن او كأنهم قالوا جن وازدجر والاول اصح ويترتب عليه ❊ قوله تعالى (فدعا ربه انى مغلوب فانتصر) ترتبا فى غاية الحسن لانهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه انى مغلوب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ انى بكسر الهمزة على انه دعاء فكأنه قال انى مغلوب وبالفتح على معنى بأنى (المسئلة الثانية) مامعنى مغلوب نقول فيه وجوه (الاول) غلبنى الكفار فانتصر لى منهم (الثانى) غلبتنى نفسى وحملتنى على الدعاء عليهم فانتصر لى من نفسى وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف (الثالث) وجه مركب من الوجهين وهو احسن منهما وهو ان يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم لايدعو على قومه مادام فى نفسه احتمال وحلم واحتمال نفسه يمتد مادام الايمان منهم محتملا ثم ان يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة بدليل قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك فلاتذهب نفسك عليهم حسرات وقال الله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فقال نوح الهى ان نفسى غلبتنى وقد امرتنى بالدعاء عليهم فأهلكهم فيكون معناه مغلوب بحكم البشرية اى غلبت وعيل صبرى فانتصر لى منهم لامن نفسى (المسئلة الثالثة) فانتصر لى اولنفسك فانهم كفروا بك وفيه وجوه (احدها) فانتصر لى مناسب لقوله مغلوب (ثانيها) فانتصر لك ولدينك فانى غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك (ثالثها) فانتصر للحق ولايكون فيه ذكره ولاذكر ربه وهذا يقوله قوى النفس بكون الحق معه يقول القائل اللهم اهلك الكاذب منا وانصر المحق منا ❊ ثم قال تعالى (ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر) عقيب دعائه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الفتح والابواب والسماء حقائقها او هو مجاز نقول فيه قولان (احدهما) حقائقها وللسماء ابواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه (وثانيهما) هو على طريق

(الاستعارة)

(فدعا ربه انى) اى بانى وقرئ بالكسر على ارادة القول (مغلوب) اى من جهة قومى مالى قدرة على الانتقام منهم (فانتصر) اى فانتقم لى منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم بعد اللتيا والتى فقد روى ان الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه ويقول اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون (ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر) منصب وهو تمثيل لكثرة الامطار وشدة انصبابها وقرئ ففتّحنا بالتشديد لكثرة الابواب

الاستعارة فان الظاهر ان الماء كان من السحاب وعلى هذا فهو كما يقول القائل فى المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح افواه القرب اى كأنه ذلك فالمطر فى الطوفان كان بحيث يقول القائل فتحت أبواب السماء ولاشك ان المطر من فوق كان فى غاية الهطلان (المسئلة الثانية) قوله تعالى ففتحنا يان ان الله انتصر منهم وانتقم بماء لابجند انزله كما قال تعالى وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ان كانت الاصيحة واحدة بيانا لكمال القدرة ومن العجيب انهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم (المسئلة الثالثة) الباء فى قوله بماء منهمر ماوجهه وكيف موقعه نقول فيه وجهان (احدهما) كما هى فى قول القائل فتحت الباب بالمفتاح وتقديره هو ان يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب وعلى هذا تفسير قول من يقول يفتح الله لك بخير اى يقدر خيرا يأتى ويفتح الباب وعلى هذا ففيه لطيفة وهى من بدائع المعانى وهى ان يجعل المقصود مقدما فى الوجود ويقول كأن مقصودك جاء الى باب مغلق ففتحه وجاءك وكذلك قول القائل لعل الله يفتح برزق اى يقدر رزقا يأتى الى الباب الذى كالمغلق فيدفعه ويفتحه فيكون الله قد فتحه بالرزق (ثانيهما) فتحنا أبواب السماء مقرونة بماء منهمر والانهمار الانسكاب والانصباب صبا شديدا والتحقيق فيه ان المطر يخرج من السماء التى هى السحاب خروج مترشح من ظرفه وفى ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب ❊ ثم قال تعالى (وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر) وفيه من البلاغة ماليس فى قول القائل وفجرنا عيون الارض وهذا بيان التميز فى كثير من المواضع اذا قلت ضاق زيد ذرعا اثبت مالايثبته قولك ضاق ذرع زيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وفجرنا الارض عيونا ولم يقل ففتحنا السماء أبوابا لان السماء أعظم من الارض وهى للمبالغة ولهذا قال أبواب السماء ولم يقل انابيب ولامنافذ ولا مجارى او غيرها واما قوله تعالى وفجرنا الارض عيونا فهو ابلغ من قوله وفجرنا عيون الارض لأنه يكون حقيقة لامبالغة فيه ويكفى فى صحة ذلك القول ان يجعل فى الارض عيونا ثلاثة ولايصلح مع هذا فى السماء الاقول القائل فانزلنا من السماء ماء اومياها ومثل هذا الذى ذكرناه فى المعنى لافى المجز والحكمة قوله تعالى ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض حيث لامبالغة فيه وكلامه لايماثل كلام الله ولايقرب منه غيرانى ذكرته مثلا ولله المثل الأعلى (المسئلة الثانية) العيون فى عيون الماء حقيقة اومجاز نقول المشهور ان لفظ العين مشترك والظاهر انها حقيقة فى العين التى هى آلة الابصار ومجاز فى غيرها اما فى عيون الماء فلانها تشبه العين الباصرة التى يخرج منها الدمع اولأن الماء الذى فى العين كالنور الذى فى العين غير انها مجاز مشهور صار غالبا حتى لايفتقر الى القرينة عند الاستعمال الالتميز بين العينين فكما لايحمل اللفظ على العين الباصرة الابقرينة كذلك لايحمل على الفوارة الابقرينة مثل شربت من العين واغتسلت منها وغير ذلك من الامور

(وفجرنا الارض عيونا) اى جعلنا الارض كلها كأنها عيون متفجرة واصله وفجرنا عيون الارض فغير قضاء لحق المقام (فالتقى الماء) اى ماء السماء وماء الارض والافراد لتحقيق ان التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد وقرئ الماآن لاختلاف النوعين والما وان بقلب الهمزة واوا (على امر قد قدر) اى كائنا على حال قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت او على حال قدرت وسويت وهوان قدر ما انزل على قدر ما اخرج اوعلى امر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان

التى توجد فى الينبوع ويقال عانه يعينه اذا اصابه بالعين وعينه تعيينا حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين وعاينه معاينة وعيانا وعين اى صار بحيث تقع عليه العين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى فالتقى الماء قرئ فالتقى الماآن اى النوعان منه ماء السماء وماء الارض فتثنى اسماء الاجناس على تأويل صنف وتجمع ايضا يقال عندى تمران وتمور واثمار على تأويل نوعين وانواع منه والصحيح المشهور فالتقى الماء وله معنى لطيف وذلك انه تعالى لما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة فلما قال وفجرنا الارض عيونا كان من الحسن البديع ان يقول ما يفيد ان الماء نبع منها بقوة فقال فالتقى الماء اى من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ولو جرى جريا ضعيفا لما كان هو يلتقى مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به ولعل المراد من قوله وفار التنور مثل هذا وقوله تعالى على امر قد قدر فيه وجوه (الاول) على حال قد قدر ها الله تعالى كما شاء (الثانى) على حال قدر احد الماءين بقدر الآخر (الثالث) على سائر المقادير وذلك لان الناس اختلفوا فمنهم من قال ماء السماء كان اكثر ومنهم من قال ماء الارض ومنهم من قال كانا متساويين فقال على اى مقدار كان والاول اشارة الى عظمة امر الطوفان فان تنكير الامر يفيد ذلك يقول القائل جرى على فلان شئ لا يمكن ان يقال اشارة الى عظمته وفيه احتمال آخر وهو ان يقال التقى الماء اى اجتمع على امر هلاكهم وهو كان مقدورا مقدرا وفيه رد على المنجمين الذين يقولون ان الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائى والغرق لم يكن مقصودا بالذات وانما ذلك امر لزم من الطوفان الواجب وقوعه فقال لم يكن ذلك الا لامر قد قدر ويدل عليه ان الله تعالى اوحى الى نوح بأنهم من المغرقين ❊ وقوله تعالى (وحملناه على ذات الواح ودسر تجرى باعيننا) اى سفينة حذف الموصوف واقام الصفة مقامه اشارة الى انها كانت من الواح مركبة موثقة بدسر وكان انفكاكها فى غاية السهولة ولم يقع فهو بفضل الله والدسر المسامير وقوله تعالى تجرى اى سفينة ذات الواح جارية وقوله تعالى بأعيننا اى بمرأى منا او بحفظنا لان العين آلة ذلك فتستعمل فيه ❊ وقوله تعالى (جزاء لمن كان كفر) يحتمل وجوها (احدها) ان يكون نصبه بقوله حملناه اى حملناه جزاء اى ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم (ثانيها) ان يكون بقوله تجرى باعيننا لان فيه معنى حفظنا اى ما تركناه عن اعيننا وعوننا جزاء له (ثالثها) ان يكون بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال فتحنا ابواب السماء وفجرنا الارض عيونا وحملناه وكل ذلك فعلناه جزاء له وانما ذكرنا هذا لان الجزاء ما كان يحصل الا بحفظه وانجائه لهم فوجب ان يكون جزاء منصوبا بكونه مفعولا له بهذه الافعال ولنذكر ما فيه من اللطائف فى مسائل (المسئلة الاولى) قال فى السماء ففتحنا ابواب السماء لان السماء ذات الرجع ومالها فطور ولم يقل وشققنا السماء وقال فى الارض وفجرنا الارض لانها ذات الصدع (الثانية) لما جعل المطر كالماء الخارج

(وحملناه) اى نوحا عليه السلام (على ذات الواح) اى اخشاب عريضة (ودسر) ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهى صفة للسفينة اقيمت مقامها من حيث انها كالشرح لها تؤدى مؤداها (تجرى بأعيننا) بمرأى منا اى محفوظة بحفظنا (جزاء لمن كان كفر) اى فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام لانه كان نعمة كفروها فان كل نبى نعمة من الله تعالى على امته ورحمة واى نعمة واى رحمة وقد جوز ان يكون على حذف الجار وايصال الفعل الى الضمير واستتاره فى الفعل بعد انقلابه مرفوعا وقرئ لمن كفر اى للكافرين

من ابواب مفتوحة واسعة ولم يقل فى الارض واجرينا من الارض بحارا وانهارا بل قال
عيونا والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر فى الارض انه تعالى فجرها كلها
فقال وفجرنا الارض لتقابل كثرة عيون الارض سعة ابواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا
ماحصل بالسعة (الثالثة) ذكر عند الغضب سبب الاهلاك وهو فتح ابواب السماء وفجر
الارض بالعيون واشار الى الاهلاك بقوله تعالى على امر قد قدر اى امر الاهلاك ولم
يصرح وعند الرحمة ذكر الانجاء صريحا بقوله تعالى وحملناه واشار الى طريق النجاة بقوله
ذات الواح وكذلك قال فى موضع آخر فأخذهم الطوفان ولم يقل فاهلكوا وقال فأنجيناه
واصحاب السفينة فصرح بالانجاء ولم يصرح بالاهلاك اشارة الى سعة الرحمة وغاية الكرم
اى خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا لما ضرهم ذلك السبب كما قال صلى الله عليه وسلم يا بنى
اركب معنا وعند الانجاء انجاه وجعل للنجاة طريقا وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت
لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الانجاء هو النجاة فذكر المحل والمقصود عند الاهلاك
اظهار البأس فذكر السبب صريحا (الرابعة) قوله تعالى تجرى بأعيننا ابلغ من
حفظنا يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول احفظه طلبا للمبالغة (الخامسة)
بأعيننا يحتمل ان يكون المراد بحفظنا ولهذا يقال الرؤية لسان العين (السادسة) قال
كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على ايمانه وشكره فاجوزى به كان جزاء صبره على
كفرهم واما جزاء شكره لنا فباق وقرئ جزاء بكسر الجيم اى مجازاة كقتال ومقاتلة
وقرئ لمن كان كفر بفتح الكاف واما كفر ففيه وجهان (احدهما) ان يكون كفر
مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له قال تعالى واشكروا لى
ولا تكفرون وقال تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (ثانيهما) ان يكون من الكفر
لا من الكفران اى جزاء لمن ستر امره وانكر شانه ويحتمل ان يقال كفر به وترك لظهور
المراد ※ ثم قال تعالى (ولقد تركناها آية) وفى العائد اليه الضمير وجهان (احدهما)
عائد الى مذكور وهو السفينة التى فيها الواح وعلى هذا ففيه وجهان (احدهما) ترك
الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودى بالجزيرة وقيل بارض الهند
(وثانيهما) ترك مثلها فى الناس يذكر (وثانى الوجهين الاولين) انه عائد الى معلوم اى
تركنا السفينة آية والاول اظهر وعلى هذا الوجه يحتمل ان يقال تركناها اى جعلناها
آية لانها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل تركت فلانا مثلة اى جعلته
لما بينا انه من فرغ من امر تركه وجعله فذكر احد الفعلين بدلا عن الآخر ※ وقوله
تعالى (فهل من مدكر) اشارة الى ان الامر من جانب الرسل قد تم ولم يبق الا جانب
المرسل اليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله فهل من مدكر مهتد
وهذا الكلام يصلح حثا ويصلح تخويفا وزجرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا ولقد
تركناها وقال فى العنكبوت وجعلناها آية قلنا هما وان كانا فى المعنى واحدا على ما تقدم

(ولقد تركناها) اى السفينة او الفعلة (آية) يعتبر بها من يقف على خبرها وقال قتادة ابقاها الله تعالى بأرض الجزيرة وقيل على الجودى دهرى طويلا حتى نظر اليها اوائل هذه الامة (فهل من مدكر) اى معتبر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار وقرئ مذتكر على الاصل ومذكر بقلب التاء ذالا والادغام فيها

بيانه لكن لفظ الترك يدل على الجعل والفراغ بالايام فكأنهاهنامذكورة بالتفصيل حيث بين الامطار من السماء وتفجير الارض وذكر السفينة بقوله ذات الواح ودسر وذكر جريها فقال تركناها اشارة الى تمام الفعل المقدور وقال هناك وجعلناها اشارة الى بعض ذلك فان قيل ان كان الامر كذلك فكيف قال ههنا وحملناه ولم يقل واصحابه وقال هناك وأنجيناه واصحاب السفينة نقول النجاة ههنا مذكورة على وجه ابلغ مما ذكره هناك لانه قال تجري بأعيننا اى حفظنا وحفظ السفينة حفظ لاصحابه وحفظ لاموالهم ودوابهم والحيوانات التي معهم فقوله وأنجيناه واصحاب السفينة لايلزم منه انجاء الاموال الا ببيان آخر والحكاية فى سورة هود اشد تفصيلا وأتم فلهذا قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين يعني المحمول ثم قال تعالى واستوت على الجودي تصريحا بخلاص السفينة واشارة الى خلاص كل من فيها وقوله آية منصوبة على انها مفعول ثان للترك لانه بمعنى الجعل على ماتقدم بيانه وهو الظاهر ويحتمل ان يقال حال فانك تقول تركتها وهى آية وهى ان لم تكن على وزن الفاعل والمفعول فهى فى معناه كأنه قال تركناها دالا ويحتمل ان يقال نصبها على التميز لانها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطا (المسئلة الثانية) مدكر مفتعل من ذكر يذكر واصله مذتكر وكان مخرج الذال قريبا من مخرج التاء والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالى ولهذا اذا نظرت الى الذال مع التاء عند النطق تقرب الدال من ان تصير تاء والتاء تقرب من ان تصير دالا فجعل التاء دالا ثم ادغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الاصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالا وقرأ مذدكر ومن اللغويين من يقول فى مدكر مذدكر فيقلب التاء ولايدغم ونكل وجهة والمذكر المعتبر المتفكر وفى قوله مدكر اما اشارة الى مافى قوله ألست بربكم قالوا بلى اى هل من يتذكر تلك الحالة واما الى وضوح الامر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها فهل من مدكر يتذكر شيئا منها ❊ ثم قال تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) وفيه وجهان (احدهما) ان يكون ذلك استفهاما من النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له ووعدا بالعاقبة (وثانيهما) ان يكون عاما تنبيها للخلق ونذر اسقط منه ياء الاضافة كما حذف ياء يسرى فى قوله تعالى والليل اذا يسر وذلك عند الوقف ومثله كثير كما فى قوله تعالى فاياى فاعبدون ولاينقذون وقوله تعالى ياعباد فاتقون وقوله تعالى ولاتكفرون وقرئ باثبات الياء عذابي ونذرى ❊ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماالذى اقتضى الفاء فى قوله تعالى فكيف كان نقول اما ان قلنا ان الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى قال له قد علمت اخبار من كان قبلك فكيف كان اى بعدما احاط بهم علمك بنقلها اليك واما ان قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال هل من مدكر فرض وجودهم وقال يامن يتذكر وعلم الحال بالتذكير فكيف كان عذابي ويحتمل ان يقال هو متصل بقوله فهل من مدكر تقديره مدكر كيف كان عذابي (المسئلة الثانية) مارأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم نقول

قوله والحروف المتقاربة الخ ليس هنا توالى وعبارة المحلى اصله مذتكرا بدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وادغمت فيها اه

(فكيف كان عذابي ونذر) استفهام تعظيم وتعجيب اى كانا على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف والنذر جمع نذير بمعنى الانذار

(ولقد يسرنا القرآن) الخ جملة قسمية وردت فى اواخر القصص الاربع تقريرا لمضمون ماسبق من قوله تعالى ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر حكمة بالغة فاتغنى النذر وتنبيها على ان كل قصة منها مستقلة بايجاب الادكار كافية فى الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار اى والله لقد سهلنا القرآن لقومك بان انزلناه على لغتهم وشحنا بانواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد (للذكر) ى للتذكر والاتعاظ (فهل من مدكر) انكار ونفى للمتعظ على ابلغ وجه وآكده حيث يدل على انه لايقدر احد ان يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه بجزالة نظمه وعذوبة الفاظه وعباراته ممالايساعده المقام

اما على قولنا الاستفهام من النبى صلى الله عليه وسلم فقد علم ماعلم واما على قولنا عام فهو على تقدير الادكار وعلى تقدير الادكار يعلم الحال ويحتمل ان يقال انه ليس باستفهام وانما هو اخبار عن عظمة الامر كما فى قوله تعالى الحاقة ماالحاقة والقارعة ماالقارعة وهذا لان الاستفهام يذكر للاخبار كما ان صيغة الاخبار تذكر للاستفهام فيقال زيد فى الدار بمعنى هل زيد فى الدار ويقول المنجز وعده هل صدقت فكأنه تعالى قال عذابى وقع وكيف كان اى كان عظيما وحينئذ لايحتاج الى علم من يستفهم منه (المسئلة الثالثة) قال تعالى من قبل ففتحنا وفجرنا وبأعيننا ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين (احدهما) لفظى وهو ان ياء المتكلم يمكن حذفها لانها فى اللفظ تسقط كثيرا فيما اذا التقى ساكنان تقول غلامى الذى ودارى التى وهنا حذفت لتواخى آخر الآيات واما النون والالف فى ضمير الجمع فلا تحذف (واما الثانى) وهو المعنوى فنقول ان كان الاستفهام من النبى صلى الله عليه وسلم فتوحيد الضمير للانباء وفى فتحنا وفجرنا لترهيب العصاة ونقول قد ذكرنا ان قوله مدكر فيه اشارة الى قوله ألست بربكم فلما وحد الضمير بقوله ألست بربكم قال فكيف كان (المسئلة الرابعة) النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنسيب والنحيب او فاعل كالكبير والصغير نقول اكثر المفسرين على انه مصدر ههنا اى كيف كان عاقبة عذابى وعاقبة انذارى والظاهر ان المراد الانباء اى كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله هل اصاب العذاب من كذب الرسل ام لا فاذا علمت الحال يامحمد فاصبر فان عاقبة امرك كعاقبة اولئك النذر ولم يجمع العذاب لانه مصدر ولو جمع لكان فى جمعه تقدير وفرض ولاحاجة اليه فان قيل قوله تعالى كذبت ثمود بالنذر اى بالانذارات لان الانذارات جاءتهم واما الرسل فقد جاءهم واحد نقول كل من تقدم من الامم الذين اشركوا بالله كذبوا بالرسل وقالوا ماأنزل الله من شئ وكان المشركون مكذبين بالكل ماخلا ابراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال كذبت ثمود بالنذر اى بالانبياء بأسرهم كما انكم ايها المشركون تكذبون بهم ❊ ثم قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر) وفيه وجوه (الاول) للحفظ فيمكن حفظه ويسهل ولم يكن شئ من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن ❊ وقوله تعالى (فهل من مدكر) اى هل من يحفظه ويتلوه (الثانى) سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة (الثالث) جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه ومن لايفهم يتفهمه ولايسأم من سمعه وفهمه ولايقول قد علمت فلااسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلما (الرابع) وهو الاظهر ان النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له ان معجزتك القرآن ولقد يسرنا القرآن للذكر تذكره لكل احد وتحدى به فى العالم ويبقى على مرور الدهور ولايحتاج كل من يحضرك الى دعاء ومسئلة فى اظهار معجزة وبعدك لاينكر احد وقوع ماوقع كما ينكر البعض انشقاق القمر وقوله تعالى فهل من مدكر

اى متذكر لان الافتعال والتفعل كثيرا مايجئ بمعنى وعلى هذا فلوقال قائل هذا يقتضى وجودامرسابق فنسى نقول مافى الفطرة من الانقياد للحق هوكالمنسى فهل من مدكر يرجع الى مافطر عليه وقيل فهل من مدكراى حافظ اومتعظ على مافسرنابه قوله تعالى يسرنا القرآن للذكر وقوله فهل من مدكر وعلى قولنا المراد متذكر اشارة الى ظهور الامر فكأنه لايحتاج الى فكر بل هوامر حاصل عنده لايحتاج الى معاودة ماعندغيره ❁ قال تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال فى قوم نوح كذبت قوم نوح ولم يقل فى عاد كذبت قوم هود وذلك لان التعريف كما امكن ان يؤتى به على وجه ابلغ فالاولى ان يؤتى به والتعريف بالاسم العلم اولى من التعريف بالاضافة اليه فانك اذاقلت بيت الله لايفيد مايفيد قولك الكعبة فكذلك اذا قلت رسول الله لايفيد مايفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لايقال قوم هود اعرف لوجهين (احدهما) ان الله تعالى وصف عادا بقوم هود حيث قال ألا بعدا لعاد قوم هود ولا يوصف الاظهر بالاخفى والاخص بالاعم (ثانيهما) ان قوم هود واحد وعاد قيل انه لفظ يقع على اقوام ولهذا قال تعالى عادا الاولى لانا نقول اماقوله تعالى لعاد قوم هود فليس ذلك صفة وانماهو بدل ويجوز فى البدل ان يكون دون المبدل فى المعرفة ويجوز ان يبدل عن المعرفة بالنكرة واماعادا الاولى فقد قدمنا ان ذلك لبيان تقدمهم اى عادا الذين تقدموا وليس ذلك للتميز والتعريف كما تقول محمد النبى شفيعى والله الكريم ربى ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف (المسئلة الثانية) لم يقل كذبوا هودا كما قال فكذبوا عبدنا وذلك لوجهين (احدهما) ان تكذيب نوح كان ابلغ واشد حيث دعاهم قريبا من الف سنة واصروا على التكذيب ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح فى مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحا وان نبه عليه واحدمنها فى الاعراف قال فنجيناه والذين معه فى الفلك وقال حكاية عن نوح قال رب ان قومى كذبون وقال انهم عصونى وفى هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم الاقليلا ولذلك قال تعالى فى مواضع ذكر شعيب فكذبوه وقال الذين كذبوا شعيبا وقال تعالى عن قومه وان نظنك من الكاذبين لانه دعا قومه زمانا مديدا (وثانيهما) ان حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر الا تكذيبهم وتعذيبهم فقال كذبت عاد كما قال كذبت قوم نوح ولم يذكر دعاءه عليهم واجابته كما قال فى نوح (المسئلة الثالثة) قال تعالى فكيف كان عذابى قبل ان بين العذاب وفى حكاية نوح بين العذاب ثم قال فكيف كان فما الحكمة فيه نقول الاستفهام الذى ذكره فى حكاية نوح مذكور ههنا وهو قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر كما قال من قبل ومن بعد فى حكاية ثمود غير انه تعالى حكى فى حكاية عاد فكيف كان مرتين المرة الاولى استفهم ليبين كما يقول المعلم لمن

(كذبت عاد) اى هودا عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارعة الى بيان مافيه الازدجار من العذاب وقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) لتوجيه قلوب السامعين نحو الاصغاء الى مايلقى اليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله ومابعده كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم اوفاسمعوا كيف كان عذابى وانذارى لهم

لايعرف كيف المسئلة الفلانية ليصير المسؤل سائلا فيقول كيف هى فيقول انها كذا وكذافكذلك ههنا قال كذبت عاد فكيف كان عذابى فقال السامع بين انت فانى لااعلم فقال انا ارسلنا واما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول نعم ما فعلت ويقول اتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام وانما ذكرههنا المرة الاولى ولم يذكر فى موضع آخر لان الحكاية ذكرها مختصرة فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال كيف كان عذابى حثا على التدبر والتفكر واما الاختصار فى حكايتهم فلأن اكثر امرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات الى قول النبى صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله تعالى فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة وذكر استكبارهم كثيرا وما كان قوم محمد صلى الله عليه وسلم مبالغين فى الاستكبار وانما كانت مبالغتهم فى التكذيب ونسبته الى الجنون وذكر حالة نوح على التفصيل فان قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد صلى الله عليه وسلم ❊ ثم قال تعالى (انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فكيف كان عذابى بتوحيد الضمير هناك ولم يقل عذابنا وقال ههنا انا ولم يقل انى والجواب ماذكرناه فى قوله تعالى ففتحنا ابواب السماء (المسئلة الثانية) الصرصر فيها وجوه (احدها) الريح الشديدة الصوت من الصرير والصرة شدة الصياح (ثانيها) دائمة الهبوب من اصر على الشئ اذا دام وثبت وفيه بحث وهو ان الاسماء المشتقة هى التى تصلح لان يوصف بها واما اسماء الاجناس فلايوصف بها سواء كانت اجراما اومعانى فلا يقال انسان رجل جاء ولا يقال لون ابيض وانما يقال انسان عالم وجسم ابيض وقولنا ابيض معناه شئ له بياض ولا يكون الجسم مأخوذا فيه ويظهر ذلك فى قولنا رجل عالم فان العالم شئ له علم حتى الحداد والخباز ولو امكن قيام العلم بهما لكان عالما ولا يدخل الحى فى المعنى من حيث المفهوم فانا اذا قلنا عالم يفهم ان ذلك حى لان اللفظ ما وضع لحى يعلم بل اللفظ وضع لشئ يعلم ويزيده ظهورا قولنا معلوم فانه شئ يعلم او امر يعلم وان لم يكن شيئا ولو دخل الجسم فى الابيض لكان قولنا جسم ابيض كقولنا جسم له بياض فيقع الوصف بالجثة اذا علمت هذا فالمستفاد بالجنس شئ دون شئ فان قولنا الهندى يقع على كل منسوب الى الهند واما المهند فهو سيف منسوب الى الهند فيصح ان يقال عبد هندى وتمر هندى ولا يصح ان يقال مهند وكذا الابلق ولون آخر فى فرس ولا يقال للثوب ابلق كذلك الافطس انف فيه تقعير اذا قال القائل انف افطس فيكون كأنه قال انف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغى ان لا يقال فرس ابلق ولا انف افطس ولا سيف مهند وهم يقولون فالجواب وهذا السؤال يرد على الصرصر لانها الريح الباردة فاذا قال ريح صرصر فليس ذلك كقولنا ريح باردة فان الصرصر هى

وقوله تعالى (انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا) استئناف ببيان ماأجمل اولا اى ارسلنا عليهم ريحا باردة اوشديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستمر) اى شؤمه اومستمر عليهم الى ان اهلكهم اوشامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم اومشتد مرارته وكان يوم الاربعاء آخر الشهر

الريح البـاردة فحسب فكأنه قال ريح ريح باردة فنقول الالفـاظ التي في معانيهـا امران فصاعدا كقولنا عالم فانه يدل على شئ له علم ففيه شئ وعلم هي على ثلاثة اقسام (احدها) ان يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما في العالم والضارب والابيض فان المقاصد في هذه الالفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها واما المحل فمقصود من حيث انه على عمومه حتى ان البياض لو كان يدل بلون غيره اختل مقصوده كالاسود واما الجسم الذي هو محل البياض ان امكن ان يبدل وامكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض (ثانيها) ان يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لانه اسم جنس ماله الحياة لا كالحي الذي هو اسم لشئ له الحياة فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حي ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحي الذي لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم او انسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فان القائل اذا قال لانسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول اما قلت انه حي بل قلت انه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة (ثالثها) ما يكون الامران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فان الرجل اسم موضوع لانسان ذكر والمرأة لانسان انثى والناقة لبعير انثى والجمل لبعير ذكر فالناقة ان اطلقت على حيوان فظهر فرسا او ثورا اختل الغرض وان بان جملا كذلك اذا علمت هذا ففي كل صورة كان المحل مقصودا اما وحده واما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وانما يجعل ذلك جملة فيوصف بالجملة فيقال جسم هو حيوان وبعير هو ناقة ثم ان الابلق والافطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجيح الحال فيه ظاهر لان المهند لا يذكر الا لمدح السيف والافطس لا يقال الا لوصف الانف لا لحقيقته وكذلك الابلق بخلاف الحيوان فانه لا يقال لوصفه وكذلك الناقة اذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح او لبردها فوجب ان يعمل به ما يعمل بالبارد والشديد فجاز الوصف وهذا بحث عزيز (المسئلة الثالثة) قال تعالى ههنا انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا وقال في الطور وفي عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم فعرف الريح هناك ونكرها هنا لان العقم في الريح اظهر من البرد الذي يضر النبات او الشدة التي تعصف الاشجار لان الريح العقيم هي التي لا تنشئ سحابا ولا تلقح شجرا وهي كثيرة الوقوع واما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد فقال الريح العقيم اي هذا الجنس المعروف ثم زاده بيانا بقوله ماتذر من شئ اتت عليه الا جعلته كالرميم فتميزت عن الرياح العقم واما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها (المسئلة الرابعة) قال هنا في يوم نحس مستمر وقال في السجدة في ايام نحسـات وقال في الحاقة سبع ليـال وثمانية ايام حسوما والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما في قوله تعالى يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا وقوله مستمر يفيد ما يفيده

الايام لان الاستمرار ينبئ عن امرار الزمان كما ينبئ عنه الايام وانما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى لان الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره ولذلك لم يصفها ثم ان فيه قراءتين (احداهما) يوم نحس باضافة يوم وتسكين نحس على وزن نفس (وثانيتهما) يوم نحس بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس كما فى قوله تعالى فى ايام نحسات فان قيل ايتهما اقرب قلنا الاضافة اصح وذلك لان من يقرأ يوم نحس مستمر يجعل المستمر صفة ليوم ومن يقرأ يوم نحس مستمر يكون المستمر وصفا لنحس فيحصل منه استمرار النحوسة فالاول اظهر واليق فان قيل من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء فماذا يقول فى النحس نقول يحتمل ان يقول هو تخفيف نحس كفخذ وفخذ فى غير الصفات ونصر ونصر ورعد ورعد وعلى هذا يلزمه ان يقول تقديره يوم كائن نحس كما تقول فى قوله تعالى بجانب الغربى ويحتمل ان يقول نحس ليس بنعت بل هو اسم معنى او مصدر فيكون كقولهم يوم برد وحر وهو اقرب واصح (المسئلة الخامسة) ما معنى مستمر نقول فيه وجوه (الاول) ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الامر اذا دام وهذا كقوله تعالى فى ايام نحسات لان الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد وكذلك قوله حسوما (الثانى) شديد من المرة كما قلنا من قبل فى قوله سحر مستمر وهذا كقولهم ايام الشدائد واليه الاشارة بقوله تعالى فى ايام نحسات لنذيقهم بعض الذى فانه يذيقهم المر المضر من العذاب ۞ ثم قال تعالى (تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) تنزع الناس وصف او حال نقول يحتمل الامرين جميعا اذ يصح ان يقال ارسل ريحا صرصرا نازعة للناس ويصح ان يقال ارسل الريح نازعة فان قيل كيف يمكن جعلها حالا وذو الحال نكرة نقول الامر هنا اهون منه فى قوله تعالى ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر فانه نكرة واجابوا عنه بان ما موصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر والتنكير فيه للتعظيم والا فهى ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال وفيه وجه آخر وهو انه كلام مستأنف على فعل وفاعل كما تقول جاء زيد جذبنى وتقديره جاء فجذبنى كذلك ههنا قال انا ارسلنا عليهم ريحا فاصبحت تنزع الناس ويدل عليه قوله تعالى فترى القوم فيها صرعى فالتاء فى قوله تنزع الناس اشارة الى ما اشار اليه بقوله صرعى وقوله تعالى كأنهم اعجاز نخل منقعر فيه وجوه (احدها) نزعتهم فصرعتهم كأنهم اعجاز نخل كما قال صرعى كأنهم اعجاز نخل (ثانيها) نزعتهم فهم بعد النزع كأنهم اعجاز نخل وهذا اقرب لان الانقعار قبل الوقوع فكان الريح تنزع وتقعر فينقعر فيقع فيكون صريعا فيخلو الموضع عنه فيخوى وقوله فى الحاقة فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية اشارة الى حاله بعد الانقعار الذى هو بعد النزع وهذا يفيد ان الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر الى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية فان حال الانقعار لا يحصل الخلو التام اذ هو مثل الشروع فى الخروج والاخذ فيه (ثالثها) تنزعهم نزعا

(تنزع الناس) تقلعهم روى انهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى (كأنهم اعجاز نخل منقعر) اى منقلع عن مغارسه قيل شبهوا باعجاز النخل وهى اصولها بلا فروع لان الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى اجسادا وجثثا بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر الى اللفظ كما ان تأنيثها فى قوله تعالى اعجاز نخل خاوية للنظر الى المعنى

بعنف كأنهم اعجاز نخل تقعرهم فينقعروا اشارة الى قوتهم وثباتهم على الارض وفى المعنى وجوه (احدها) انه ذكر ذلك اشارة الى عظمة اجسادهم وطول اقدادهم (ثانيها) ذكره اشارة الى ثباتهم فى الارض فكأنهم كانوا يعملون ارجلهم فى الارض ويقصدون المنع به على الريح (ثالثها) ذكره اشارة الى يبسهم وجفافهم بالريح فكانت تقتلهم وتحرقهم بردها المفرط فيقعون كأنهم اخشاب يابسة (المسئلة الثانية) قال ههنا منقعر فذكر النخل وقال فى الحاقة كأنهم اعجاز نخل خاوية فأنثها قال المفسرون فى تلك السورة كانت اواخر الآيات تقتضى ذلك لقوله مستمر ومنهمر ومنتشر وهو جواب حسن فان الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ ويمكن ان يقال النخل لفظه لفظ الواحد كالبقل والنعل ومعناه معنى الجمع فيجوز ان يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات فاذا قال قائل منقعر او خاو أو باسق جرد النظر الى اللفظ ولم يراع جانب المعنى واذا قال منقعرات او خاويات او باسقات جرد النظر الى المعنى ولم يراع جانب اللفظ واذا قال منقعرة او خاوية او باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ وربما قال منقعرة على الافراد من حيث اللفظ والحق به تاء التأنيث التى فى الجماعة اذا عرفت هذا فنقول ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ووصفها على الوجوه الثلاثة فقال والنخل باسقات فانها حال منها وهى كالوصف وقال نخل خاوية وقال نخل منقعر فحيث قال منقعر كان المختار ذلك لان المنقعر فى حقيقة الامر كالمفعول لانه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور والخاوى والباسق فاعل ومعناه اخلاء ما هو مفعول عن علامة التأنيث اولا كما تقول امرأة كفيل وامرأة كفيلة وامرأة كبير وامرأة كبيرة واما الباسقات فهى فاعلات حقيقة لان البسوق امر قام بها واما الخاوية فهى من باب حسن الوجه لان الخاوى موضعها فكأنه قال نخل خاوية المواضع وهذا غاية الاعجاز حيث اتى بلفظ مناسب للالفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ فكان الدليل يقتضى ذلك بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لاجل الوزن والقافية

* ثم قال تعالى (فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير وفى قوله عذابى ونذر لطيفة ماذكرناها وهى تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل اكثر المفسرين على ان النذر فى هذا الموضع جمع نذير الذى هو مصدر معناه انذار فما الحكمة فى توحيد العذاب حيث لم يقل فكيف كان انواع عذابى ووبال انذارى نقول فيه اشارة الى غلبة الرحمة الغضب وذلك لان الانذار اشفاق ورحمة فقال الانذارات التى هى نعم ورحمة تواترت فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة ثم بين الله تعالى حال

وقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر)تهويل لهما وتعجيب من امرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار وما قيل من ان الاول لما حاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة يرده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) الكلام فيه كالذى مر فيما سبق

(قوم)

قوم آخرين * فقال (كذبت ثمود بالنذر) وقد تقدم تفسيره غير انه فى قصة عاد قال كذبت ولم يقل بالنذر وفى قصة نوح قال كذبت قوم نوح بالنذر فنقول هذا يؤيد ما ذكرنا من ان المراد بقوله كذبت قبلهم قوم نوح ان عادتهم و مذهبهم انكار الرسل و تكذيبهم فكذبوا نوحا بناء على مذهبهم وانما صرح ههنا لان كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعا حقيقة والا ولون يكذبون رسولا واحدا حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لانهم لما كذبوا من تقدم فى قوله الله تعالى واحد والحشر كائن ومن ارسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزمه ان يكذبوه ويدل على هذا ان الله تعالى قال فى قوم نوح فكذبوه فانجيناه وقال فى عاد وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واما قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين فاشارة الى انهم كذبوا وقالوا ما يفضى الى تكذيب جميع المرسلين ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق ثم انه تعالى قال هناك عن نوح رب ان قومى كذبون ولم يقل كذبوا رسلك اشارة الى ما صدر منهم حقيقة لا ان ما لزمهم لزمه اذا عرفت هذا فما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال كذبت ثمود بالنذر هذا كله اذا قلنا ان النذر جمع نذير بمعنى منذر اما اذا قلنا انها الانذارات فنقول قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التى ظهرت فى زمانهم واما ثمود فانذروا واخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بانذارات وآيات ظاهرة فصرح بها وقوله فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه يؤيد الوجه الاول لان من يقول لا أتبع بشرا مثلى وجميع المرسلين من البشر يكون مكذبا للرسل والباء فى قوله بالنذر يؤيد الوجه الثانى لانا بينا ان الله تعالى فى تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال كذبوه وكذبوا رسلنا وكذبوا عبدنا وكذبونى وقال كذبوا بآيات ربهم وبآياتنا فعدى بحرف لان التكذيب هو النسبة الى الكذب والقائل هو الذى يكون كاذبا حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازا وتعلق التكذيب بالقائل اظهر فيستغنى عن الحرف بخلاف القول وقد ذكرنا ذلك وبيناه بيانا شافيا * وفى قوله تعالى (فقالوا ابشرا منا واحدا نتبعه) مسائل (المسئلة الاولى) زيدا ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار فى مواضع منها هذا الموضع وهو الذى يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام والسبب فى اختيار النصب امر معقول وهو ان المستفهم يطلب من المسؤل ان يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه فاذا قال أزيد عندك معناه اخبرنى عن زيد واذكر لى حاله فاذا انضم الى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز ان يقال ازيدا ضربته وان لم يجب فالاحسن ذلك فان قيل من قرأ ابشر منا واحد نتبعه كيف ترك الاجود نقول نظرا الى قوله تعالى فقالوا اذ ما بعد القول لا يكون الا جملة والاسمية أولى والاولى أقوى واظهر (المسئلة الثانية) اذا كان بشرا منصوبا بفعل فالحكمة فى تأخر الفعل فى الظاهر نقول قد تقدم مرارا

(كذبت ثمود بالنذر) اى الانذارات والمواعظ التى سمعوها من صالح او بالرسل عليهم السلام فان تكذيب احدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على اصول الشرائع (فقالوا ابشرا منا) اى كائنا من جنسنا وانتصابه بفعل يفسره ما بعده (واحدا) اى منفردا لا تبع له او واحدا من آحادهم لا من اشرافهم وهو صفة اخرى لبشرا وتأخيره عن الصفة المؤولة للتنبيه على ان كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرئ ابشر منا واحد على الابتداء وقوله تعالى (نتبعه) خبر والاول اوجه للاستفهام .

ان البليغ يقدم فى الكلام مايكون تعلق غرضه به اكثر وهم كانوا يريدون تبين كونهم محقين فى ترك الاتباع فلو قالوا انتبع بشرا يمكن ان يقال نم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه فاذا قدموا حاله وقالوا هو من نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه انه يعلم مالا نعلم او يقدر على مالا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه فيكونون قدقدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع واعلم ان فى الآية اشارات الى ذلك (احدها) نكروه حيث قالوا ابشرا ولم يقولوا انتبع صالحا او الرجل المدعى النبوة اوغير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير (ثانيها) قالوا ابشرا ولم يقولوا أرجلا (ثالثها) قالوا منا وهو يحتمل امرين احدهما من صنفنا ليس غريبا وثانيهما منا اى تبعنا يقول القائل لغيره انت منا فيتأذى السامع ويقول لا بل انت منا ولست انا منكم وتحقيقه ان من للتبعيض والبعض يتبع الكل لا الكل يتبع البعض (رابعها) واحدا يحتمل امرين ايضا احدهما وحيدا اشارة الى ضعفه * وثانيهما واحدا اى هو من الآحاد لامن الاكابر المشهورين وتحقيق القول فى استعمال الآحاد فى الاصاغر حيث يقال هو من آحاد الناس هو ان من لا يكون مشهورا بحسب ولا نسب اذا حدث عنه من لا يعرفه فلا يمكن ان يقول عنه قال فلان اوابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول لان الارذل لاينضم اليه احد فيبقى فى اكثر اوقاته واحدا فيقال للارذال آحاد ۞ وقوله تعالى عنهم (انا اذا لفى ضلال وسعر) يحتمل وجهين (احدهما) ان يكونوا قدقالوا فى جواب من يقول لهم ان لم تتبعوه تكونوا فى ضلال فيقولون له لا بل ان تبعناه نكون فى ضلال (ثانيهما) ان يكون ذلك ترتيبا على مامضى اى حاله ماذكرنا من الضعف والوحدة فان اتبعناه نكون فى ضلال وسعر اى جنون على هذا الوجه فان قلنا ان ذلك قالوه على سبيل الجواب فيكون القائل قال لهم ان لم تتبعوه فانا اذا فى الحال فى ضلال وفى سعر فى العقبى فقالوا لا بل لو اتبعناه فانا اذا فى الحال فى ضلال وفى سعر من الذل والعبودية مجازا فانهم ما كانوا يعترفون بالسعير (المسئلة الثالثة) السعير فى الآخرة واحد فكيف جمع نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) فى جهنم دركات يحتمل ان تكون كل واحد سعيرا او فيها سعير (ثانيها) لدوام العذاب عليهم فانه كما نضجت جلودهم بدلهم جلودا كأنهم فى كل زمان فى سعير آخر وعذاب آخر (ثالثها) لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد فلان ليس برجل واحد بل هو رجال ۞ ثم قال تعالى عنهم (أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب اشر) وقدتقدم ان النفى بطريق الاستفهام ابلغ لان من قال ما نزل عليه الذكر ربما يعلم او يظن او يتوهم ان السامع يكذبه فيه فاذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه ان السامع يجيبنى بقوله ما نزل فيجعل الامر حينئذ منفيا ظاهرا لايخفى على احد بل كل احد يقول ما نزل والذكر الرسالة او الكتاب ان كان ويحتمل ان يراد به مايذكره من الله تعالى كما يقال الحق

(انا اذا) اى على تقدير اتباعنا له وهو منفرد ونحن امة جمة (لفى ضلال) عن الصواب (وسعر) اى جنون فان ذلك بمعزل من مقتضى العقل وقيل كان يقول لهم ان لم تتبعونى كنتم فى ضلال من الحق وسعر اى نيران جمع سعير فعكسوا عليه عليه السلام لغاية عتوهم فقالوا ان اتبعناك كنا اذن كما تقول (أألقى الذكر) اى الكتاب والوحى (عليه من بيننا) وفينا من هو احق منه بذلك (بل هو كذاب اشر) اى ليس الامر كذلك بل هو كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه

(ويراد)

ويراد به ما يحل من الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قولهم أ ألقى بدل أأنزل وفيه اشارة الى ما كانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لان الالقاء انزال بسرعة والنبى كان يقول جاء نى الوحى مع الملك فى لحظة يسيرة فكأنهم قالوا الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل فى لحظة فقالوا أألقى وما قالوا أأنزل وقولهم عليه انكار آخر كأنهم قالوا اما القى ذكر اصلا ثم قالوا ان القى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه فى الشرف والذكاء وقولهم أألقى بدلا عن قولهم أ ألقى الله للاشارة الى ان الالقاء من السماء غير ممكن فضلا عن ان يكون من الله تعالى (المسئلة الثانية) عرفوا الذكر ولم يقولوا أألقى عليه ذكر وذلك لان الله تعالى حكى انكارهم لما لا ينبغى ان ينكر فقال انكروا الذكر الظاهر المبين الذى لا ينبغى ان ينكر فهو كقول القائل انكروا المعلوم (المسئلة الثالثة) بل يستدعى امرا مضروبا عنه سابقا فاذاك نقول قولهم أألقى للانكار فهم قالوا ما القى ثم ان قولهم أألقى عليه الذكر لا يقتضى الا انه ليس بنبى ثم قالوا بل هو ليس بصادق (المسئلة الرابعة) الكذاب فعال من فاعل للمبالغة او يقال بل من فاعل للنسب كخياط وتمار نقول الاول هو الصحيح الاظهر على ان الثانى من باب الاولى لان المنسوب الى الشئ لابد له من ان يكثر من مزاولة الشئ فان من خاط يوما ثوبه مرة لا يقال له خياط اذا عرفت هذا فنقول المبالغة اما فى الكثرة واما فى الشدة فالكذاب اما شديد الكذب يقول ما لا يقبله العقل او كثير الكذب ويحتمل ان يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الامرين فيه وقولهم اشر اشارة الى انه كذب لا لضرورة وحاجة الى خلاص كما يكذب الضعيف وانما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعا من الاتباع لان الكذاب لا يلتفت اليه ولاسيما اذا كان كذبه لا لضرورة وقرئ اشر فقال المفسرون هذا على الاصل المرفوض فى الاشر والاخير على وزن افعل التفضيل وانما رفض الاصل فيه لان افعل اذا فسر قد يفسر بأفعل ايضا والثانى بأفعل ثالث مثاله اذا قال ما معنى الاعلم يقال هو الاكثر علما فاذا قيل الاكثر ماذا فيقال الازيد عددا او شئ مثله فلابد من امر يفسر به الافعل لا من بابه فقالوا افعل التفضيل والفضيلة اصلها الخير والخير اصل فى باب افعل فلا يقال فيه اخير ثم ان الشر فى مقابلة الخير يفعل به ما يفعل بالخير فيقال هو شر من كذا وخير من كذا والاشر فى مقابلة الاخير ثم ان خيرا يستعمل فى موضعين (احدهما) مبالغة الخير بفعل او افعل على اختلاف يقال هذا خير وهذا اخير ويستعمل فى مبالغة خير على المشابهة لا على الاصل فمن يقول اشر يكون قد ترك الاصل المستعمل لانه اخذ فى الاصل المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الاعلم ان علمه خير من علم غيره او هو خير من غيره الجهل كذلك القول فى الاضعف وغيره ❊ ثم قال تعالى (سيعلمون غدا من الكذاب الاشر) فان قال قائل سيعلم للاستقبال ووقت انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قد علموا لان بعد الموت تتبين الامور وقد عاينوا ما عاينوا فكيف القول فيه نقول

وقوله تعالى (سيعلمون غدا من الكذب الاشر) حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعدا له ووعيدا لقومه والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده والمراد بالغد وقت نزول العذاب اى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الاشر الذى حمله اشره وبطره على الترفع اوصالح هو أم من كذبه وقرئ ستعلمون على الالتفات لتشديد التوبيخ او على حكاية ما اجابهم به صالح وقرئ الاشر كقولهم حذر فى حذر وقرئ الاشر اى الابلغ فى الشرارة وهو اصل مرفوض كالاخير وقيل المراد بالغد يوم القيامة ويأباه

فيه وجهان (احدهما) ان يكون هذا القول مفروض الوقوع فى وقت قولهم بل هو كذاب اشر فكأنه تعالى قال يوم قالوا بل هو كذاب اشر سيعلمون غدا (وثانيهما) ان هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الاليم وهو عذاب جهنم لا عذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى غدا لقرب الزمان فى الامكان والاذهان ثم ان قلنا ان ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة الى تفسيره بل يكون ذلك اعادة لقولهم من غير قصد الى معناه وان قلنا هو للرد والوعد ببيان انكشاف الامر فقوله تعالى سيعلمون غدا معناه سيعلمون غدا انهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة بل بطروا واشروا لما استغنوا وقوله تعالى غدا يحتمل ان يكون المراد يوم القيامة ويحتمل ان يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الاول ثم قال تعالى (انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله انا مرسلوا الناقة بمعنى الماضى او بمعنى المستقبل ان كان بمعنى الماضى فكيف يقول فارتقبهم واصطبر وان كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هناك انا ارسلنا وقال ههنا انا مرسلوا الناقة بمعنى نرسل نقول هو بمعنى المستقبل وما قبله وهو قوله سيعلمون غدا يدل عليه فان قوله انا مرسلوا الناقة كالبيان له كأنه قال سيعلمون حيث نرسل الناقة وما بعده من قوله فارتقبهم ونبئهم ايضا يقتضى ذلك فان قيل قوله تعالى فنادوا دليل على ان المراد الماضى قلنا سنجيب عنه فى موضعه واما الفارق فنقول حكاية ثمود مستقصاة فى هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله سيعلمون وذكر المعجزة وهى الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك بذكر حكاية على وجه الماضى والمستقبل ليكون وصفه للنبى صلى الله عليه وسلم كأنه حاضرها فيقتدى بصالح فى الصبر والدعاء الى الحق ويثق بربه فى النصر على الاعداء بالحق فقال انى مؤيدك بالمعجزة القاطعة واعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه السورة خمس قصص وجعل القصة المتوسطة مذكورة على اتم وجه لان حال صالح كان اكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم لانه اتى بأمر عجيب ارضى كان اعجب مما جاء به الانبياء لان عيسى عليه السلام احيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فاثبت بأذن الله الحياة فى محل كان قابلا لها وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فاثبت الله فى الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة فى النماء يشبه الحيوان فى النمو فهو اعجب وصالح عليه السلام كان الظاهر فى يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو والنبى صلى الله عليه وسلم اتى بأعجب من الكل وهو التصرف فى جرم السماء الذى يقول المشرك لا وصول لأحد الى السماء ولا امكان لشقه وخرقه واما الارضيات فقالوا انها اجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الاخرى والسموات لا تقبل ذلك فلما اتى بما عرفوا فيه انه لا يقدر على مثله آدمى كان اتم وابلغ من معجزة صالح عليه السلام التى هى اتم معجزة من

(معجزات)

معجزات من كان من الانبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم (وفيه لطيفة) وهو ان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى وذكر معه مفعوله فالواجب الاضافة تقول وحشى قاتل عم النبى صلى الله عليه وسلم فان قلنا قاتل عم النبى بالاعمال فلابد من تقدير الحكاية فى الحال كما فى قوله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه على انه يحكى القصة فى حال وقوعها تقول خرجت أمس فاذا زيد ضارب عمرا كما تقول يضرب عمرا وان كان الضرب قد مضى واذا كان بمعنى المستقبل فالاحسن الاعمال تقول انى ضارب عمرا غدا فان قلت انى ضارب عمرو غدا حيث كان الامر وقع وكان جاز لكنه غير الاحسن والتحقيق فيه ان قولنا ضارب وسارق وقاتل اسماء فى الحقيقة غير ان لها دلالة على الفعل فاذا كان الفعل تحقق فى الماضى فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل فى الحقيقة ولا فى التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الاضافة وترك ما للفعل من الاعمال لغلبة الاسمية وفقدان الفعل بالماضى واذا كان الفعل حاضرا أو متوقعا فى الاستقبال فله وجود حقيقة او فى التوقع فيجوز الاضافة لصورة الاسم والاعمال لتوقع الفعل او لوجوده ولكن الاعمال اولى لان فى الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضاربا فلا ينبغى ان يضاف اما الاعمال فهو ينبئ عن توقع الفعل او وجوده لانه اذا قال زيد ضارب عمرا فالسامع اذا سمع بضرب عمرو علم انه يفعل فاذا لم يره فى الحال يتوقعه فى الاستقبال غير ان الاضافة تفيد تخفيفا حيث سقط بها التنوين والنون فتختار لفظا لا معنى اذا عرفت هذا فنقول مرسلو الناقة مع ما فيه من التخفيف فيه تحقيق الامر وتقديره كأنه وقع وكان بخلاف ما لو قيل انا نرسل الناقة (المسئلة الثانية) فتنة مفعول له فتكون الفتنة هى المقصودة من الارسال لكن المقصود منه تصديق النبى صلى الله عليه وسلم وهو صالح عليه السلام لانه معجزة فالتحقيق فى تفسيره نقول فيه وجهان (احدهما) ان المعجزة فتنة لان بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب لان الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار الا اذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لانها تصديق وبعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب (وثانيهما) وهو ادق أن اخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وارسالها اليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال انا مرسلو الناقة فتنة ولم يقل انا مخرجو الناقة فتنة والتحقيق فى الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مرارا واليه اشارة خفية وهى ان الله تعالى يهدى من يشاء وللهداية طرق منها ما يكون على وجه يكون للانسان مدخل فيه بالكسب مثاله يخلق شيئا دالا ويقع تفكر الانسان فيه ونظره اليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يجذبه اليه ابتداء ويصونه عن الخطأ من صغره فاظهار المعجز على يد الرسول امر يهدى به من يشاء اهتداءه مع الكسب وهداية الانبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علوما غير كسبية فقوله انا مرسلو الناقة فتنة اشارة اليهم ولهذا قال لهم ومعناه على وجه يصلح لان يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته اظهر يكون ثواب قومه أقل

وقوله تعالى فارتقبهم اى فارتقبهم بالعذاب ولم يقل فارتقب العذاب اشارة الى حسن الادب والاجتناب عن طلب الشر وقوله تعالى واصطبر يؤيد ذلك بمعنى ان كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب ويحتمل ان يكون ذلك اشارة الى قرب الوقت الى امرهما والامر بحيث يعجز عن الصبر ❁ ثم قال تعالى (ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) اى مقسوم وصف بالمصدر مراد به المشتق منه كقوله ماء ملح وقول زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم كرم كأنه هو عين الكرم ويقال فلان لطف محض ويحتمل ان تكون القسمة وقعت بينهما لان الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهى على الماء فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يوما للناقة ويوما للقوم ويحتمل ان تكون لقلة الماء فشربه يوما للناقة ويوما للحيوانات ويحتمل ان يكون الماء كان بينهم قسمة يوم لقوم ويوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يوما فكان الذين لهم الماء فى غير يوم ورودها يقولون الماء كله لنا فى هذا اليوم ويومكم كان امس والناقة ما اخرت شيئا فلا نمكنكم من الورود ايضا فى هذا اليوم فيكون النقصان واردا على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأسره وهذا ايضا ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الاوسط ونقول ان قوما كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد فى شئ خبر متواتر والثالث قطع وهو من القسمة لانها مثبتة بكتاب الله تعالى اما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى كل شرب محتضر مما يؤيد الوجه الثالث اى كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لانه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضرا للقوم او الناقة فهو معلوم لان الماء ما كان يترك من غير حضور وان كان لبيان انه تحضره الناقة يوما والقوم يوما فلا دلالة فى اللفظ عليه واما اذا كانت العادة قبل الناقة على ان يرد الماء قوم فى يوم وآخرون فى يوم آخر ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان فقال كل شرب محتضركم ايها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه ❁ ثم قال تعالى (فنادوا صاحبهم) نداء المستغيث كأنهم قالوا يا لقدار للقوم كما يقول القائل يالله للمسلمين وصاحبهم قدار وكان اشجع واهجم على الامور ويحتمل ان يكون رئيسهم ❁ وقوله تعالى (فتعاطى فعقر) يحتمل وجوها (الاول) تعاطى آلة العقر فعقر (الثانى) تعاطى الناقة فعقرها وهو اضعف (الثالث) التعاطى يطلق ويراد به الاقدام على العظيم والتحقيق هو ان الفعل العظيم يقدم كل احد فيه صاحبه ويبرئ نفسه منه فمن يقبله ويقدم عليه يقال تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع (الرابع) ان القوم جعلوا له على عمله جعلا فتعاطاه وعقر الناقة ❁ ثم قال تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) وقد تقدم بيانه وتفسيره غير ان هذه الآية ذكرها فى ثلاثة مواضع ذكرها فى حكاية نوح بعد بيان العذاب وذكرها ههنا قبل بيان العذاب وذكرها فى حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان العذاب

(ذكرها)

قوله تعالى (انا مرسلو الناقة) الخ فانه استئناف مسوق لبيان مبادى الموعود حتما اى مخرجوها من الهضبة حسبما سألوا (فتنة لهم) اى امتحانا (فارتقبهم) اى فانتظرهم وتبصر مايصنعون (واصطبر) على اذيتهم (ونبئهم ان الماء قسمة بينهم) مقسوم لها يوم ولهم يوم وبينهم لتغليب العقلاء (كل شرب محتضر) يحضره صاحبه فى نوبته (فنادوا صاحبهم) هو قدار بن سالف احيمر ثمود (فتعاطى فعقر) فاجترأ على تعاطى الامر العظيم غير مكترث له فاحدث العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها او فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تناول الشئ بتكلف (فكيف كان عذابى ونذر) الكلام فيه كالذى مر فى صدر قصة عاد

ذكرها للبيان كما تقول ضربت فلانا اى ضرب وايما ضرب وتقول ضربته وكيف ضربته اى قويا وفى حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه ففى حكاية نوح ذكر الذى للتعظيم وفى حكاية ثمود ذكر الذى للبيان لان عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذى عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فانه كان مختصا بهم ❊ ثم قال تعالى (انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) سمعوا صيحة فماتوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان فى قوله فكانوا من اى الاقسام نقول قال النحاة تجئ تارة بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل

بتيماء قفر والمطى كأنها ❊ قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين فى هذا الموضع انها بمعنى صار والتحقيق ان كان لا تخالف غيرها من الافعال الماضية اللازمة التى لا تتعدى والذى يقال ان كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف احوالها اختلافا يفارق غيرها من الافعال وذلك لان كان بمعنى وجد او حصل او تحقق غير ان الذى وجد تارة يكون حقيقة الشئ واخرى صفة من صفاته فاذا قلت كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشئ فى نفسه فكأنك قلت وجدت الحقيقة الكائنة وكن اى احصل فيوجد فى نفسه واذا قلت كان زيد عالما اى وجد علم زيد غير انا نقول فى وجد زيد عالما ان عالما حال وفى كان زيد عالما نقول انه خبر كقولنا حصل زيد عالما غير ان قولنا وجد زيد عالما ربما يفهم منه ان الوجود والحصول لزيد فى تلك الحال كما تقول قام زيد منتحبا حيث يكون القيام لزيد فى تلك الحال وقولنا كان زيد عالما ليس معناه كان زيد وفى تلك الحال هو عالم لكن هذا لا يوجب ان كان على خلاف غيره من الافعال اللازمة التى لها بالحال تعلق شديد لان من يفهم من قولنا حصل زيد اليوم على احسن حال ما يفهمه من قولنا خرج زيد اليوم فى احسن زى لا يمنعه مانع من ان يفهم من قولنا كان زيد على احسن حال مثل ما فهم هناك ❊ اذا عرفت هذا فنقول الفعل الماضى يطلق تارة على ما يوجد فى الزمان المتصل بالحاضر كقولنا قام زيد فى صباء ويطلق تارة على ما يوجد فى الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فان زيدا قام وكذلك القول فى كان ربما يقال كان زيد قائما عام كذا وربما يقال كان زيد قائما الآن كما فى قام زيد فقوله تعالى فكانوا فيه استعمال الماضى فيما اتصل بالحال فهو كقولك ارسل عليهم صيحة فماتوا اى متصلا بتلك الحال نعم لو استعمل فى هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى فى نفسه وانما يلزم حمل كان على صار اذا لم يمكن ان يقال هو كذا كما فى البيت حيث لا يمكن ان يقال البيوض فراخ واما هنا يمكن ان يقال هم كهشيم ولولا الكاف لامكن ان يقال يجب حمل كان على صار اذا كان المراد انهم انقلبوا هشيما كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك (المسئلة الثانية) ما الهشيم نقول هو المهشوم اى المكسور وسمى هاشم

(انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة) هى صيحة جبريل عليه السلام (فكانوا) اى فصاروا (كهشيم المحتظر) اى كالشجر اليابس الذى يتخذه من يعمل الحظيرة او كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء وقرئ بفتح الظاء اى كهشيم الحظيرة او الشجر المتخذ لها

هاشما لهشمه الثريد فى الجفان غير ان الهشيم استعمل كثيرا فى الحطب المتكسر اليابس فقال المفسرون كانوا كالحشيش الذى يخرج من الحظائر بعد البلا يتفتت واستدلوا عليه بقوله تعالى هشيما تذروه الرياح وهو من باب اقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال رأيت جريحا ومثله السعير (المسئلة الثالثة) لماذا شبههم به قلنا يحتمل ان يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكأنه يقول سمعوا الصيحة فكانوا كأنهم ماتوا من ايام ويحتمل ان يكون لانهم انضموا بعضهم الى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم فى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذى يصفه شيئا فوق شئ منتظرا حضور من يشترى منه شيئا فان الحطاب الذى عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة ويحتمل ان يكون ذلك لبيان كونهم فى الجحيم اى كانوا كالحطب اليابس الذى للوقيد فهو محقق لقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى فكانوا لجهنم حطبا وقوله اغرقوا فادخلوا نارا كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذى لا يكون الا للاحراق لان الهشيم لا يصلح للبناء ❊ ثم قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) والتكرار للتذكار ثم بين حال قوم آخرين وهم قوم لوط ❊ فقال تعالى (كذبت قوم لوط بالنذر) ثم بين عذابهم واهلاكهم ❊ فقال تعالى (انا ارسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الحاصب فاعل من حصب اذا رمى الحصباء وهى اسم الحجارة والمرسل عليهم هو نفس الحجارة قال الله تعالى وامطرنا عليهم حجارة من سجيل وقال تعالى عن الملائكة لنرسل عليهم حجارة من طين فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه نقول الجواب من وجوه (الاول) ارسلنا عليهم ريحا حاصبا بالحجارة التى هى الحصباء وكثر استعمال الحاصب فى الريح الشديدة فاقام الصفة مقام الموصوف (فان قيل) هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى اما اللفظ فلأن الريح مؤنثة قال تعالى ريح صرصر عاتية بريح طيبة وقال تعالى انا سخرنا له الريح تجرى بأمره وقال تعالى غدوها شهر وقال تعالى فى الرياح لواقح وما قال لقاحا ولا لقحة واما المعنى فلأن الله تعالى بين انه ارسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهى لا تسمى حصباء وكان ذلك بايدى الملائكة لا بالريح (نقول) تأنيث الريح ليس حقيقة ولها اصناف الغالب فيها التذكير كالاعصار قال تعالى اعصار فيه نار فلما كان حاصب حجارة كان كالذى فيه نار واما قوله كان الرمى بالسجيل لا بالحصباء وبايدى الملائكة لا بالريح فنقول كل ريح يرمى بحجارة يسمى حاصبا وكيف لا والسحاب الذى يأتى بالبرد يسمى حاصبا تشبيها للبرد بالحصباء فكيف لا يقال فى السجيل واما الملائكة فانهم حركوا الريح وهى حصبت الحجارة عليهم (الجواب الثانى) المراد عذاب حاصب وهذا اقرب لتناوله الملك والسحاب والريح وكل ما يفرض (الجواب الثالث) قوله حاصبا هو اقرب من الكل لان قوله انا ارسلنا يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها فان

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت قوم لوط بالنذر انا ارسلنا عليهم حاصبا) اى ريحا تحصبهم اى ترميهم بالحصباء (الا آل لوط نجيناهم بسحر) فى سحر وهو آخر الليل وقيل هو السدس الاخير منه اى ملتبسين بسحر

قيل كان ينبغي ان يقول حاصبين نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئا حاصبا اذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب وهذا وارد على من قال الريح مؤنث لان ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا (المسئلة الثانية) ما رتب الارسال على التكذيب بالفاء فلم يقل كذبت قوم لوط بالنذر فارسلنا كما قال ففتحنا ابواب السماء لان الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات فكأنه قال فكيف كان عذابي ونذر كما قال من قبل ثم قيل لا علم لنا به وانما انت العليم فاخبرنا فقال انا ارسلنا (المسئلة الثالثة) ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل فكيف كان عذابي كما قال في الحكايات الثلاث نقول لان التكرار ثلاث مرات بالغ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم الاهل بلغت ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم فنكاحها باطل باطل باطل والادكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا انه تعالى ذكر فكيف كان عذابي في حكاية نوح للتعظيم وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعا واعلم انه تعالى ذكر فكيف كان عذابي في ثلاث حكايات اربع مرات فالمرة الواحدة للانذار والمرات الثلاثة للادكار لان المقصود حصل بالمرة الواحدة وقوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الاولى كما أعاد فكيف كان عذابي ونذر ثلاث مرات غير المرة الاولى فكان ذكر الآلاء عشرة امثال ذكر العذاب اشارة الى الرحمة التي قال في بيانها من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وسنبين ذلك في سورة الرحمن (المسئلة الرابعة) الا آل لوط استثناء مماذا ان كان من الذين قال فيهم انا ارسلنا عليهم حاصبا فالضمير في عليهم عائد الى قوم لوط وهم الذين قال فيهم كذبت قوم لوط ثم قال انا ارسلنا عليهم لكن لم يستثن عند قوله كذبت قوم لوط وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك الجواب عنه من وجهين (احدهما) ان الاستثناء ممن عاد اليهم الضمير في عليهم وهم القوم باسرهم غير ان قوله كذبت قوم لوط لا يوجب كون آله مكذبين لان قول القائل عصى اهل بلدة كذا يصح وان كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف اذا كان فيهم واحدا واثنان من المطيعين لا غير فان قيل ما له حاجة الى الاستثناء لان قوله انا ارسلنا عليهم يصح وانجا منهم طائفة يسيرة نقول الفائدة لما كانت لا تحصل الا ببيان اهلاك من كذب وانجاء من آمن فكان ذكر الانجاء مقصودا وحيث يكون القليل من الجمع الكثير مقصودا لا يجوز التعميم والاطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء او بكلام منفصل مثاله فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا ابليس استثنى الواحد لانه كان مقصودا وقال تعالى وأوتيت من كل شئ ولم يستثن اذ المقصود بيان انها اوتيت لا بيان انها ما اوتيت وفي حكاية ابليس كلاهما مراد ليعلم ان من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع اثيب كذلك القول ههنا واما عند التكذيب فكان المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن (الجواب الثاني) ان

الاستثناء من كلام مدلول عليه كأنه قال انا ارسلنا عليهم حاصبا فما انجينا من الحاصب الا آل لوط وجاز ان يكون الارسال عليهم والاهلاك يكون عاما كما في قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فكان الحاصب اهلاك من كان الارسال عليه مقصودا ومن لم يكن كذلك كالطفل لهم ودوابهم ومساكنهم فانجا منهم احدا الا آل لوط فان قيل اذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من امر عام فيجب ان يكون لوط ايضا مستثنى نقول هو مستثنى عقلا لان من المعلوم انه لا يجوز تركه وانجاء اتباعه والذى يدل عليه انه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته فى جوابهم لابراهيم عليه السلام حيث قال ان فيها لوطا فان قيل قوله فى سورة الحجر الا آل لوط انا لمنجوهم استثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم والجواب مثل ماذكرنا (فاحد الجوابين) انا ارسلنا الى قوم يصدق عليهم انهم مجرمون وان كان فيهم من لم يجرم (ثانيهما) الى قوم مجرمين باهلاك يعم الكل الا آل لوط وقوله تعالى نجيناهم بسحر كلام مستأنف لبيان وقت الانجاء او لبيان كيفية الاستثناء لان آل لوط كان يمكن ان يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما فى عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه او يجعل لهم مدفعا كما فى قوم نوح فقال نجيناهم بسحر أى امرناهم بالخروج من القرية فى آخر الليل والسحر قبل الصبح وقيل هو السدس الاخير من الليل ثم قال تعالى (نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) اى ذلك الانجاء كان فضلا منا كما ان ذلك الاهلاك كان عدلا ولو اهلكوا لكان ذلك عدلا قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولا بدان يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد غير ان الله تعالى قادر على التميز التام فهو مختار ان شاء اهلك من آمن وكذب ثم يثبت الذين اهلكهم من المصدقين فى دار الجزاء وان شاء اهلك من كذب فقال نعمة من عندنا اشارة الى ذلك وفى نصبها وجهان (احدهما) انه مفعول له كأنه قال نجيناهم نعمة منا (ثانيهما) على انه مصدر لان الانجاء منه انعام فكأنه تعالى قال انعمنا عليهم بالانجاء انعاما وقوله تعالى كذلك نجزى من شكر فيه وجهان (احدهما) ظاهر وعليه اكثر المفسرين وهو انه من آمن كذلك ننجيه من عذاب الدنيا ولا نهلكه وعد الامة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنه يصونهم عن الاهلاكات العامة والسيآت المطبقة الشاملة (وثانيهما) وهو الاصح ان ذلك وعد لهم وجزاؤهم بالثواب فى دار الآخرة كأنه قال كما نجيناهم فى الدنيا اى كما انعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذى يؤيد هذا ان النجاة من الاهلاكات فى الدنيا ليس بلازم ومن عذاب الله فى الآخرة لازم بحكم الوعيد وكذلك ينجى الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه ويدل عليه قوله تعالى من يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين وقوله تعالى فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى

(نعمة من عندنا) اى انعاما منا وهو علة لنجينا (كذلك) اى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى من شكر)نعمتنا بالايمان والطاعة

من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين والشاكر محسن فعلم ان المراد جزاؤهم فى الآخرة ❊ ثم قال تعالى (ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان انه اتى بما عليه فانه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة ان يؤخره ويقدم عليه الانذارات البالغة بين ذلك فقال اهلكناهم وكان قد انذرهم من قبل وفى قوله بطشتنا وجهان (احدهما) المراد البطشة التى وقعت وكان يخوفهم بها ويدل عليه قوله تعالى انا ارسلنا عليهم حاصبا فكأنه قال انا ارسلنا عليهم ما سبق ذكرها للانذار بها والتخويف (وثانيهما) المراد بها ما فى الآخرة كما فى قوله تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى وذلك لان الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الآخرة كما قال قال تعالى فانذرتكم نارا تلظى وقال وانذرهم يوم الآزفة وقال تعالى انا انذرناكم عذابا قريبا الى غير ذلك وعلى هذا ففيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال ان بطش ربك لشديد وقال ههنا بطشتنا ولم يقل بطشنا وذلك لان قوله تعالى ان بطش ربك لشديد بيان لجنس بطشه فاذا كان جنسه شديدا فكيف الكبرى منه واما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة الكبرى لئلا يكون مقصرا فى التبليغ وقوله تعالى فتماروا بالنذر يدل على ان النذر هى الانذارات ❊ ثم قال تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا اعينهم فذوقوا عذابى ونذر) والمراودة من الرود ومنه الارادة وهى قريبة من المطالبة غير ان المطالبة تستعمل فى العين يقال طالب زيد عمرا بالدراهم والمراودة لا تستعمل الا فى العمل يقال راوده عن المساعدة ولهذا تعدى المراودة الى مفعول ثان بعن والمطالبة بالباء وذلك لان الشغل منوط باختيار الفاعل والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال فاذا قلت اخبرنى بأمره تعين عليه الخبر بالعين بخلاف ما اذا قيل عن كذا ويزيد هذا ظهورا قول القائل اخبرنى زيد عن مجئ فلان وقوله اخبرنى بمجيئه فان من قال عن مجيئه ربما يكون الاخبار عن كيفية المجئ لا عن نفسه واخبرنى بمجيئه لا يكون الا عن نفس المجئ والضيف يقع على الواحد والجماعة وقد ذكرناه فى سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم وهى انهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم وقوله فطمسنا اعينهم تقول ان جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فاعماهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى راودوه ان كان عائدا الى قوم لوط فافى قوله اعينهم ايضا عائد اليهم فيكون قد طمس اعين قوم لوط ولم يطمس الا اعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط وان كان عائدا الى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه نقول المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الامر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه اسندها الى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير فى اعينهم اليهم مثاله قول القائل الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم فى صلاتهم عائدا الى الذين صلوا بعدما آمنوا ولا يعود الى مجرد الذين آمنوا لانك

(ولقد انذرهم) لوط عليه السلام (بطشتنا) اى اخذتنا الشديدة بالعذاب (فتماروا) فكذبوا (بالنذر) متشاكين (ولقد راودوه عن ضيفه) قصدوا الفجور بهم (فطمسنا أعينهم) فسخناها وسويناها كسائر الوجه روى انهم دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون الى الباب حتى اخرجهم لوط عليه السلام (فذوقوا عذابى ونذر) اى فقلنا لهم ذوقوا على السنة الملائكة اوظاهر الحال والمراد به الطمس فانه من جملة ما أنذروه من العذاب

لو اقتصرت على الذين امنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلاما منظوما ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام فعلم ان الضمير عائد الى ما حصل بعد قوله راودوه والضمير فى راودوه عائد الى المنذرين المتمارين بالنذر (المسئلة الثانية) قال ههنا فطمسنا اعينهم وقال فى يس ولو نشاء لطمسنا على اعينهم فما الفرق نقول هذا مما يؤيد قول ابن عباس فانه نقل عنه انه قال المراد من الطمس الحجب عن الادراك فما جعل على بصرهم شئ غير انهم دخلوا ولم يروا هناك شيئا فكانوا كالمطموسين وفى يس أراد انه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة اى الزق احد الجفنين بالآخر فيكون على العين جلدة فيكون قد طمس عليها وقال غيره انهم عموا وصارت عينهم مع وجههم كالصفحة الواحدة ويؤيد قوله تعالى فذوقوا عذابى لانهم ان بقوا مبصرين ولم يروا شيئا هناك لا يكون ذلك عذابا والطمس بالمعنى الذى قاله غير ابن عباس عذاب فنقول الاولى ان يقال انه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين واذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الانكار لانه امر وقع واما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل احد ويعرف به وهو الطمس على العين لان اطباق الجفن على العين امر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وارادته فقال ولو نشاء لطمسنا على اعينهم وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو امر ظاهر الامكان كثير الوقوع والطمس على ما وقع لقوم لوط نادر فقال هناك على اعينهم ليكون اقرب الى القبول (المسئلة الثالثة) قوله تعالى فذوقوا عذابى ونذر خطاب ممن وقع ومع من وقع قلنا فيه وجوه (احدها) فيه اضمار تقديره فقلت على لسان الملائكة ذوقوا عذابى (ثانيها) هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابى فانهم لما كذبوا ذاقوه (ثالثها) ان هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فان الواحد من الملوك اذا امر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فاذا ضرب ضربا مبرحا وهو يصرخ والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق انك مجرم مستأهل ويعلم الملك ان المعذب لا يسمع كلامه ويخاطب بكلامه المستغيث الصارخ وهذا كثير فكذلك لما كان كل احد بمرأى من الله تعالى يسمع اذا عذب معاندا كان قد سخط الله عليه يقول ذق انك انت العزيز الكريم ذوقوا لقاء يومكم هذا فذوقوا عذابى ولا يكون به مخاطبا لمن يسمع ويجيب وذلك اظهار العدل اى لست بغافل عن تعذيبك فتتخلص بالصراخ والضراعة وانما انا بك عالم وانت له اهل لما قد صدر منك فان قيل هذا وقع بغير الفاء واما بالفاء فلا نقول وبالفاء فانه ربما يقول كنتم تكذبون فذوقوا (المسئلة الرابعة) النذر كيف يذاق نقول معناه ذق فعلك اى مجازاة فعلك وموجبه ويقال ذق الالم على فعلك وقوله فذوقوا عذابى كقولهم ذق الالم وقوله ونذر كقولهم ذق فعلك اى ذق ما لزم من انذارى فان قيل فعلى هذا لا يصح العطف لان قوله فذوقوا عذابى وما لزم من انذارى وهو العذاب يكون كقول القائل ذوقوا عذابى

(وعذابى)

وعذابي نقول قوله تعالى فذقوا عذابي اى العاجل منه وما لزم من انذارى وهو العذاب الآجل لان الانذار كان به على ماتقدم بيانه فكأنه قال ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل فان قيل هما لم يكونا فى زمان واحد فكيف يقال ذوقوا نقول العذاب الآجل اوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع فى زمان واحد وهو كقوله تعالى اغرقوا فادخلوا نارا ❊ ثم قال تعالى (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) اى العذاب الذى عم القوم بعد الخاص الذى طمس اعين البعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) صبحهم فيه دلالة على الصبح فما معنى بكرة نقول فائدته تبيين انظرافه فيه فقوله بكرة يحتمل وجهين (احدهما) انها منصوبة على انها ظرف ومثله نقول فى قوله تعالى اسرى بعبده ليلا وفيه بحث وهو ان الزمخشرى قال ما الفائدة فى قوله ليلا وقال جوابا فى التنكير دلالة على انه كان فى بعض الليل وتمسك بقراءة من قرأ من الليل وهو غير ظاهر والاظهر فيه ان يقال بأن الوقت المبهم يذكر لبيان ان تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وانه لا يريد بيانه كما يقول خرجنا فى بعض الاوقات مع ان الخروج لابد من ان يكون فى بعض الاوقات فانه لا يريد بيان الوقت المعين ولو قال خرجنا فربما يقول السامع متى خرجتم فاذا قال فى بعض الاوقات اشار الى ان غرضه بيان الخروج لا تعين وقته فكذلك قوله تعالى صبحهم بكرة اى بكرة من البكر واسرى بعبده ليلا اى ليلا من الليالى فلا ابينه فان المقصود نفس الاسراء ولو قال اسرى بعبده من المسجد الحرام لكان للسامع ان يقول ايما ليلة فاذا قال ليلة من الليالى قطع سؤاله وصار كأنه قال لا ابينه وان كان القائل ممن يجوز عليه الجهل فانه يقول لا اعلم الوقت فهذا اقرب فاذا علمت هذا فى اسرى ليلا فاعلم مثله فى صبحهم بكرة ويحتمل ان يقال على هذا الوجه صبحهم بمعنى قال لهم عموا صباحا استهزاء بهم كما قال فبشرهم بعذاب اليم فكأنه قال جاءهم العذاب بكرة كالمصبح والاول اصح ويحتمل قوله تعالى صبحهم بكرة على قولنا انها منصوبة على الظرف ما لا يحتمله قوله تعالى اسرى بعبده ليلا وهو ان صبحهم معناه اتاهم وقت الصبح لكن التصبيح يطلق على الاتيان فى ازمنة كثيرة من اول الصبح الى ما بعد الاسفار فاذا قال بكرة افاد انه كان اول جزء منه وما اخر الى الاسفار وهذا اوجه واليق لان الله تعالى اوعدهم به وقت الصبح بقوله ان موعدهم الصبح وكان من الواجب بحكم الاخبار تحققه بمجيء العذاب فى اول الصبح ومجرد قوله صبحهم ماكان يفيد ذلك وهذا اقوى لانك تقول صبحته امس بكرة واليوم بكرة فيأتى فيه ماذكرنا من ان المراد بكرة من البكر (الوجه الثانى) انها منصوبة على المصدر من باب ضربته سوطا ضربا فان المنصوب فى ضربته ضربا على المصدر وقد يكون غير المصدر كما فى ضربته سوطا لا يقال ضربته سوطا بين احد انواع الضرب لان الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره واما بكرة فلا يبين ذلك لانا نقول قد بينا ان بكرة يبين ذلك لان الصبح قد يكون بالاتيان وقت الاسفار وقد يكون بالاتيان

(ولقد صبحهم بكرة) وقرئ بكرة غير مصروفة على ان المراد بها اول نهار مخصوص (عذاب مستقر) لايفارقهم حتى يسلمهم الى النار وفى وصفه بالاستقرار ايماء الى ان ما قبله من عذاب الطمس ينتهى اليه

بالابكار فان قيل مثله يمكن ان يقال فى اسرى بعبده ليلا قلنا نعم فان قيل ليس هناك بيان
نوع من انواع الاسراء نقول هو كقول القائل ضربته شيأ فان شيئا لابد منه فى كل ضرب
ويصح ذلك على انه نصب على المصدر وفائدته ماذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض
بانواعه وكأن القائل يقول انى لاابين ماضربته به ولا احتاج الى بيانه لعدم تعلق المقصود
به ليقطع سؤال السائل بماذا ضربه بسوط او بعصا فكذلك القول فى اسرى بعبده ليلا
يقطع سؤال السائل عن الاسراء لان الاسراء هو السير اول الليل والسرى هو السير آخر
الليل او غير ذلك (المسئلة الثانية) مستقر يحتمل وجوها (احدها) عذاب لامدفع له اى
يستقر عليهم ويثبت ولا يقدر احد على ازالته ورفعه او احالته ودفعه (ثانيها) دائم فانهم
لما اهلكوا نقلوا الى الجحيم فكان ما اتاهم عذاب لايندفع بموتهم فان الموت يخلص من
الالم الذى يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس وموتهم ماخلصهم (ثالثها)
عذاب مستقر عليهم لايتعدى غيرهم اى هو امر قدقدره الله عليهم وقرره فاستقر وليس كما
يقال انه امر اصابهم اتفاقا كالبرد الذى يضر زرع قوم دون قوم ويظن به انه امر
اتفاقى وليس لو خرجوا من اماكنهم لنجوا كما نجا آل لوط بل كان ذلك يتبعهم لانه كان
امرا قداستقر (المسئلة الثالثة) الضمير فى صبحهم عائد الى الذين عاد اليهم الضمير فى اعينهم
فيعود لفظا اليهم للقرب ومعنى الى الذين تماروا بالنذر والذين عاد اليهم الضمير فى قوله
ولقد انذرهم بطشتنا * ثم قال تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) مرة اخرى لان العذاب كان
مرتين (احدهما) خاص بالمراودين والآخر عام * ثم قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل
من مدكر) قدفسرنا مرارا وبينا مالاجله كرر تكرارا * ثم قال تعالى (ولقد جاء آل
فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم اخذ عزيز مقتدر) وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) ماالفائدة فى لفظ آل فرعون بدل قوم فرعون نقول القوم اعم من الآل فالقوم
كل من يقوم الرئيس بأمرهم اويقومون بامره والآل كل من يؤل الى الرئيس خيرهم
وشرهم او يؤل اليهم خيره وشره فالبعيد الذى لايعرف الرئيس ولا يعرف هو عين الرئيس
وانما يسمع اسمه فليس هو بآله اذا عرفت الفرق نقول قوم الانبياء الذين هم غير موسى
عليهم السلام لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة وانما كانواهم
رؤساء واتباعا والرؤساء اذا كثروا لايبقى لاحد منهم حكم نافذ على احد اما على من هو مثله
فظاهر واما على الاراذل فلأنهم يلجؤن الى واحد منهم ويدفعون به الآخر فيصير كل
واحد برأسه فكان الارسال اليهم جميعا واما فرعون فكان قاهرا يقهر الكل وجعلهم بحيث
لايخالفونه فى قليل ولا كثير فارسل الله اليه الرسول وحده غير انه كان عنده جماعة
من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم وهامان لدهائه فاعتبرهم الله فى
الارسال حيث قال فى مواضع ولقد ارسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه وقال تعالى
بآياتنا الى فرعون وهامان وقارون وقال فى العنكبوت وقارون وفرعون وهامان ولقد

(فذوقوا عذابى ونذر) حكاية لما
قيل لهم حينئذ من جهته تعالى
تشديدا للعذاب (ولقد يسرنا
القرآن للذكر فهل من مدكر)
مر مافيه من الكلام (ولقد جاء آل
فرعون النذر) صدرت قصتهم
بالتوكيد القسمى لابراز كمال
الاعتناء بشأنها لغاية عظم
مافيها من الآيات وكثرتها
وهول مالاقوه من العذاب
وقوة ايجابها للاتعاظ والاكتفاء
بذكر آل فرعون للعلم بان نفسه
اولى بذلك اى وبالله لقد جاءهم
الانذارات وقوله تعالى (كذبوا
بآياتنا كلها) استئناف مبنى على
سؤال نشأ من حكاية مجئ النذر
كأنه قيل فاذا فعلوا حينئذ فقيل
كذبوا بجميع آياتنا وهى الآيات
التسع (فأخذناهم اخذ عزيز)
لايغالب (مقتدر) لايعجزه شئ

(جاءهم)

جاءهم موسى لانهم ان آمنوا آمن الكل بخلاف الاقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم فقال ولقد جاء آل فرعون النذر وقال كثيرا مثل هذا كما فى قوله ادخلوا آل فرعون اشد العذاب وقال تعالى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه وقال بلفظ الملأ ايضا كثيرا (المسئلة الثانية) قال ولقد جاء ولم يقل فى غيرهم جاء لان موسى عليه السلام ماجاءهم كما جاء المرسلون اقوامهم بل جاءهم حقيقة حيث كان غائبا عن القوم فقدم عليهم ولهذا قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من انفسكم حقيقة ايضا لانه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة (المسئلة الثالثة) النذار ان كان المراد منها الانذارات وهو الظاهر فالكلام الذى جاءهم على لسان موسى ويده تلك وان كان المراد الرسل فهو لان موسى وهرون عليهما السلام جاءه وكل مرسل تقدمهما جاءه لانهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك كذبوا بآياتنا من غير فاء تقتضى ترتب التكذيب على المجئ فيه وجهان (احدهما) ان الكلام تم عند قوله ولقد جاء آل فرعون النذر وقوله كذبوا كلام مستأنف والضمير عائد الى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح الى آل فرعون (ثانيهما) ان الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم فكأنه قال فكيف كان عذابى ونذر وقد كذبوا بآياتنا كلها فاخذناهم وعلى الوجه الاول آياتنا كلها ظاهرة وعلى الوجه الثانى المراد آياته التى كانت مع موسى عليه السلام وهى التسع فى قول اكثر المفسرين ويحتمل ان يقال المراد انهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فان فى كل شئ له آية * تدل على انه واحد * وقوله تعالى فاخذناهم اشارة الى انهم كانوا كالآبقين او الى انهم عاصون يقال اخذ الامير فلانا اذا حبسه وفى قوله عزيز مقتدر لطيفة وهى ان العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون يغلب على العدو ويظفر به وفى الاول يكون غير متمكن من اخذه لبعده ان كان هاربا ولمنعته ان كان محاربا فقال اخذ غالب لم يكن عاجزا وانما كان ممهلا * ثم قال تعالى (اكفاركم خير من اولئكم ام لكم براءة فى الزبر) تنبيها لهم لئلا يأمنوا العذاب فانهم ليسوا بخير من اولئك الذين اهلكوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع اهل مكة فينبغى ان يكون كفارهم بعضهم والا لقال انتم خير من اولئكم واذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال ام لكم براءة ولم يقل ام لهم كما يقول القائل جاءنا الكرماء فاكرمناهم ولا يقول فاكرمناكم نقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) المراد منه اكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لان جمعا عظيما ممن كان كافرا من اهل مكة يوم الخطاب ايقنوا بوقوع ذلك والعذاب لا يقع الا بعد العلم بانه لم يبق من القوم من يؤمن فقال الذين يصرون منكم على الكفر يا اهل مكة خير ام الذين اصروا من قبل فيصح كون التهديد مع بعضهم واما قوله تعالى ام لكم براءة ففيه وجهان (احدهما) ام لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم

(اكفاركم) يامعشر العرب (خير) قوة وشدة وعدة وعددا او مكانة (من اولئكم) الكفار المعدودين والمعنى انه اصابهم ما اصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر من الامور فهل تطمعون ان لا يصيبكم مثل ذلك وانتم شر منهم مكانا واسوأ حالا وقوله تعالى (ام لكم براءة فى الزبر) اضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر الى التبكيت بوجه آخر اى بل الكم براءة وامن من تبعات ما تعملون من الكفر والمعاصى وغوائلهما فى الكتب السماوية فلذلك تصرون على ما انتم عليه وقوله تعالى

لكونه فى قوم لهم براءة (وثانيهما) ام لكم براءة ان اصررتم فيكون الخطاب عاما والتهديد كذلك فالشرط غير مذكور وهو الاصرار (المسئلة الثانية) ما المراد بقوله خير وقول القائل خير يقتضى اشتراك امرين فى صفة محمودة مع رجحان احدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمودة نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) منع اقتضاء الاشتراك يدل عليه قول حسان * فشركما لخيركما الفداء * مع اختصاص الخير بالنبى عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما فى شىء منهما (ثانيها) ان ذلك عائد الى ما فى زعمهم اى ازعم كفاركم انهم خير من الكفار المتقدمين الذين اهلكوا وهم كانوا يزعمون فى انفسهم الخير وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الاوثان ومكذبى الرسل وكانوا يقولون ان الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة (ثالثها) المراد اكفاركم اشد قوة فكأنه قال اكفاركم خير فى القوة والقوة محمودة فى العرف (رابعها) ان كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة واخرى غير محمودة فاذا نظرت الى المحمودة فى الموضعين وقابلت احداهما بالاخرى تستعمل فيها لفظ الخير وكذلك فى الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر فاذا نظرت الى كافرين وقلت احدهما خير من الآخر فلك حينئذ ان تريد احدهما خير من الآخر فى الحسن والجمال واذا نظرت الى مؤمنين يؤذيانك قلت احدهما شر من الآخر اى فى الاذية لا الايمان فكذلك ههنا اكفاركم خير لان النظر وقع على ما يصلح مخلصا لهم من العذاب فهو كما يقال اكفاركم فيهم شىء مما يخلصهم لم يكن فى غيرهم فهم خير ام لاشىء فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لا لخصال فيهم (المسئلة الثالثة) ام لكم براءة اشارة الى سبب آخر من اسباب الخلاص وذلك لان الخلاص اما ان يكون بسبب امر فيهم اولا يكون كذلك فان كان بسبب امر فيهم وذلك السبب لم يكن فى غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيرا منهم وان كان لا بسبب امر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته اياهم وإمهاله اياهم من العذاب فقال لهم انتم خير منهم فلا تهلكون ام لستم بخير منهم لكن الله آمنكم واهلكهم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا وقوله تعالى ام لكم براءة فى الزبر اشارة الى لطيفة وهى ان العاقل لا يأمن الا اذا حصل له الجزم بالامن او صار له آيات تقرب الامر من القطع فقال لكم براءة يوثق بها وتكون متكررة فى الكتب فان الحاصل فى بعض الكتب ربما يحتمل التأويل او يكون قد تطرق اليه التحريف والتبديل كما فى التوراة والانجيل فقال هل حصل لكم براءة متكررة فى كتب تأمنون بسببها العذاب فان لم يكن كذلك لا يجوز الامن لكن البراءة لم تحصل فى كتب ولا فى كتاب واحد ولا فى شبه كتاب فيكون أمنهم من غاية الغفلة وعند هذا تبين فضل المؤمن فانه مع ما فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من الوعد لا يأمن وان بلغ درجة الاولياء والانبياء لما فى آيات الوعيد من احتمال التخصيص وكون كل واحد ممن يستثنى من الامة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر

آمن فى الدنيا وفى الآخرة الامر على العكس * ثم قال تعالى (ام يقولون نحن جميع منتصر) تتميما لبيان اقسام الخلاص وحصره فيها وذلك لان الخلاص اما ان يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كما ان الملك اذا عذب جماعة ورأى فيهم من احسن اليه فلا يعذبه واما ان يكون لامر فى المخلص كما اذا رأى فيهم من له ولد صغير او ام ضعيفة فيرحمه وان لم يستحق ويكتب له الخلاص واما ان لا يكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا فى نفس المعذب مما يوجب الرحمة لكنه لا يقدر عليه بسبب كثرة اعوانه وتعصب اخوانه كما اذهرب واحد من الملك والتجأ الى عسكر يمنعون الملك عنه فكما نفى القسمين الاولين كذلك نفى القسم الثالث وهو التمنع بالاعوان وتحزب الاخوان • وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى حسن الترتيب وذلك لان المستحق لذاته اقرب الى الخلاص من المرحوم فان المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك ووجد المانع من العذاب وما لا سبب له لا يتحقق اصلا وماله مانع ربما لا يقوى المانع على دفع السبب وما فى نفس المعذب من المانع اقوى من الذى بسبب الغير لان الذى من عنده يمنع الداعية ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعية والذى من الغير بسبب التمنع لا يقطع قصده بل يجتهد فيه وربما يغلب فيكون تعذيبه اضعاف ما كان من قبل بخلاف من يرق له قلبه وتمنعه الرحمة فانها وان لم تمنعه لكن لا يزيد فى حمله وحبسه وزيادته فى التعذيب عند القدرة فهذا ترتيب فى غاية الحسن (المسئلة الثانية) جميع فيه فائدتان (احداهما) الكثرة (والاخرى) الاتفاق كأنه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الالفاظ المفردة انما قلنا ان فيه فائدتين لان الجميع يدل على الجماعة بحروفه الاصلية من (ج م ع) وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على انهم جمعوا جمعيتهم العصبية ويحتمل ان يقال معناه نحن الكل لا خارج عنا اشارة الى ان من اتبع النبى صلى الله عليه وسلم لا اعتداد به قال تعالى فى نوح انؤمن لك واتبعك الارذلون الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى وعلى هذا جميع يكون التنوين فيه لقطع الاضافة كأنهم قالوا نحن جميع الناس (المسئلة الثالثة) ما وجه افراد المنتصر مع ان نحن ضمير الجمع نقول على الوجه الاول ظاهر لانه وصف الجزء الآخر الواقع خبرا فهو كقول القائل انتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجميع كالجنس لفظه لفظ واحد ومعناه جمع فيه الكثرة واما على الوجه الثانى فالجواب عنه من وجهين (احدهما) ان المعنى وان كان جميع الناس لا خارج عنهم الامن لا يعتد به لكن لما قطع ونون صار كالمنكر فى الاصل فجاز وصفه بالمنكر نظرا الى اللفظ فعاد الى الوجه الاول (وثانيهما) انه خبر بعد خبر ويجوز ان يكون احد الخبرين معرفة والآخر نكرة قال تعالى وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد وعلى هذا فقوله نحن جميع منتصر افرده لمجاورة جميع ويحتمل ان يقال معنى نحن جميع منتصر ان جميعا بمعنى كل واحد كأنه قال نحن كل واحد منا منتصر كما تقول هم جميعهم اقوياء بمعنى ان كل واحد منهم قوى وهم

(ام يقولون نحن جميع منتصر) اضراب من التبكيت المذكور الى وجه آخر من التبكيت والالتفات للايذان باقتضاء حالهم للاعراض عنهم واسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم اى بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن اولو حزم ورأى امرنا مجتمع لانرام ولانضام او منتصر من الاعداء لانغلب او متناصر ينصر بعضنا بعضا والافراد باعتبار لفظ الجميع

كلهم علماء اى كل واحد عالم فترك الجمع واختار الافراد لعود الخبر الى كل واحد فانهم كانوا يقولون كل واحد منا يغلب محمدا صلى الله عليه وسلم كما قال ابى بن خلف الجمحى وهذا فيه معنى لطيف وهو انهم ادعوا ان كل واحد غالب والله رد عليهم باجمعهم بقوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وهو انهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمدا صلى الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذى يعمهم جميعهم بقوله ويولون الدبر وحينئذ يظهر سؤال وهو انه قال يولون الدبر ولم يقل يولون الادبار وقال فى موضع آخر يولوكم الادبار ثم لاينصرون وقال ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار وقال فى موضع آخر فلاتولوهم الادبار فكيف تصحيح الافراد وما الفرق بين المواضع نقول اما التصحيح فظاهر لان قول القائل فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر قال واو فى الجمع تنوب مناب الواوات التى فى العطف وقوله يولون بمثابة يولى هذا الدبر ويولى ذاك ويولى الآخر اى كل واحد يولى دبره واما الفرق فنقول اقتضاء اواخر الآيات حسن الافراد فقوله يولون الدبر افراده اشارة الى انهم فى التولية كنفس واحدة فلايتخلف احد عن الجمع ولايثبت احد للزحف فهم كانوا فى التولية كدبر واحد واما فى قوله فلاتولوهم الادبار أى كل واحد يوجد به ينبغى ان يثبت ولايولى دبره فليس المنهى هناك توليتهم باجمعهم بل المنهى ان يولى واحد منهم دبره فكل احد منهى عن توليه دبره فجعل كل واحد برأسه فى الخطاب ثم جمع الفعل بقوله فلاتولوهم ولايتم الابقوله الادبار وكذلك فى قوله ولقد كانوا عاهدوا الله اى كل واحد قال انا اثبت ولا اولى دبرى واما فى قوله ليولن الادبار فان المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى واما فى هذا الموضع فهم كانوا يدا واحدة على من سواهم * ثم قال تعالى (بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر) اشارة الى ان الامر غير مقتصر على انهزامهم وادبارهم بل الامر اعظم منه فان الساعة موعدهم فانه ذكر مايصيبهم فى الدنيا من الدبر ثم بين ماهو منه على طريقة الاصرار هذا قول اكثر المفسرين والظاهر ان الانذار بالساعة عام لكل من تقدم كأنه قال اهلكنا الذين كفروا من قبلك واصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما اصابهم ان اصروا ثم ان عذاب الدنيا ليس لاتمام المجازاة فاتمام المجازاة بالاليم الدائم * وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اختصاص كون الساعة موعدهم مع انها موعد كل احد نقول الموعد الزمان الذى فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلايقول هو متى يكون بل يفوض الامر الى الله واما الكافر فغير مصدق فيقول متى يكون العذاب فيقال له اصبر فانه آت يوم القيامة ولهذا كانوا يقولون عجل لنا قطنا وقال ويستعجلونك بالعذاب (المسئلة الثانية) ادهى من اى شئ نقول يحتمل وجهين (احدهما) مما مضى من انواع عذاب الدنيا (ثانيهما) ادهى الدواهى فلاداهية مثلها (المسئلة الثالثة) ما المراد من قوله وامر قلنا فيه وجهان (احدهما) هو

وقوله تعالى (سيهزم الجمع) رد وابطال لذلك والسين للتأكيد اى يهزم جمعهم البتة (ويولون الدبر) اى الادبار وقد قرئ كذلك والتوحيد لارادة الجنس اوارادة ان كل واحد منهم يولى دبره وقد كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لاادرى اى جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها وقرئ سيهزم الجمع اى الله عز وعلا (بل الساعة موعدهم) اى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد اصل عذابهم وهذا من طلائعه (والساعة ادهى وامر) اى فى اقصى غاية من الفظاعة والمرارة والداهية الامر الفظيع الذى لايهتدى الى الخلاص عنه واظهار الساعة فى موقع اضمارها لتربية تهويلها

مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى فذوقوا عذابي وقوله ذوقوا مس سقر وعلى هذا فأدهى اى اشد وامر اى آلم والفرق بين الشديد والاليم ان الشديد يكون اشارة الى انه لايطيقه احد لقوته ولايدفعه احد بقوته مثاله ضعيف الق فى ماء يغلبه اونار لايقدر على الخلاص منها وقوى الق فى بحر اونار عظيمة يستويان فى الالم والعذاب ويتساويان فى الايلام لكن يفترقان فى الشدة فان نجاة الضعيف من الماء الضعيف باعانة معين ممكن ونجاة القوى من البحر العظيم غير ممكن (ثانيهما) امر مبالغة فى المار اذهى اكثر مرورا بهم اشارة الى الدوام فكأنه يقول أشد وأدوم وهذا مختص بعذاب الآخرة فان عذاب الدنيا ان اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وان دام بحيث لايقتل فلا يكون شديدا (ثالثها) انه المرير وهو من المرة التى هى الشدة وعلى هذا فاما ان يكون الكلام كما يقول القائل فلان نحيف نحيل وقوى شديد فيأتى بلفظين مترادفين اشارة الى التأكيد وهو ضعيف واما ان يكون أدهى مبالغة من الداهية التى هى اسم الفاعل من دهاه امر كذا اذا أصابه وهو أمر صعب لان الداهية صارت كالاسم الموضوع للشديد على وزن الباطنة والسائبة التى لاتكون من اسماء الفاعلين وان كانت الداهية اصلها ذلك غير انها استعملت استعمال الاسماء وكتبت فى ابوابها وعلى هذا يكون معناه الزم واضيق اى هى بحيث لاتدفع * ثم قال تعالى (ان المجرمين فى ضلال وسعر) وفى الآية مسائل (الاولى) فيمن نزلت الآية فى حقهم اكثر المفسرين اتفقوا على انها نازلة فى القدرية روى الواحدى فى تفسيره قال سمعت الشيخ رضى الدين المؤيد الطوسى بنيسابور قال سمعت عبد الجبار قال اخبرنا الواحدى قال اخبرنا ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج قال اخبرنا ابو محمد عبد الله الكعبى قال حدثنا حمدان بن صالح الاشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن ابى داود حدثنا سفيان الثورى عن زياد بن اسمعيل المخزومى عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابى هريرة قال جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر فانزل الله تعالى ان المجرمين فى ضلال وسعر الى قوله انا كل شئ خلقناه بقدر وكذلك نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ان هذه الآية نزلت فى القدرية وروى عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مجوس هذه الامة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى فى قوله ان المجرمين فى ضلال وسعر وكثرت الاحاديث فى القدرية • وفيها مباحث (الاول) فى معنى القدرية الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم نزلت الآية فيهم فنقول كل فريق فى خلق الاعمال يذهب الى ان القدرى خصمه فالجبرى يقول القدرى من يقول الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره فهم قدرية لانهم ينكرون القدر والمعتزلى يقول القدرى هو الجبرى الذى يقول حين يزنى ويسرق الله قدرنى فهو قدرى لاثباته القدر وهما جميعا يقولان لاهل السنة الذى يعترف بخلق الله وليس من العبد انه قدرى والحق ان القدرى الذى نزل فيه الآية هو الذى ينكر القدر ويقول بأن

(ان المجرمين) من الاولين والاخرين (فى ضلال وسعر) اى فى هلاك ونيران مسعرة وقيل فى ضلال عن الحق فى الدنيا ونيران فى الآخرة وقوله تعالى (يوم يسحبون) الخ منصوب اما بما يفهم من قوله تعالى فى ضلال اى كائنون فى ضلال وسعر يوم يجرون (فى النار على وجوههم) واما بقول مقدر بعده اى يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مس سقر) اى قاسوا حرها والمها وسقر علم جهنم ولذلك لم يصرف من سقرته النار وصقرته اذا لوحته والقول المقدر على الوجه الاول حال من ضمير يسحبون

الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتهـا و يدل عليه قوله جاء مشركو قريش يحاجون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر فان مذهبهم ذلك وما كانوا يقولون مثل مايقول المعتزلة ان الله خلق لى سلامة الاعضاء وقوة الادراك ومكننى من الطاعة والمعصية والله قادر على ان يخلق فى الطاعة الجاء والمعصية الجاء وقادر على ان يطعم الفقير الذى اطعمه انا بفضل الله والمشركون كانوا يقولون انطعم من لو يشاء الله اطعمه منكرين لقدرة الله تعالى على الاطعام واما قوله صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الامة هم القدرية فنقول المراد من هذه الامة اما الامة التى كان محمد صلى الله عليه وسلم مرسلا اليهم سواء آمنوا به اولم يؤمنوا كلفظ القوم واما امته الذين آمنوا به فان كان المراد الاول فالقدرية فى زمانه هم المشركون الذين انكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة وان كان المراد هو الثانى فقوله مجوس هذه الامة يكون معناه الذين نسبتهم الى هذه الامة كنسبة المجوس الى الامة المتقدمة لكن الامة المتقدمة اكثرهم كفرة والمجوس نوع منهم اضعف شبهة واشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية فى هذه الامة تكون نوعا منهم أضعف دليلا ولا يقتضى ذلك الجزم بكونهم فى النار فالحق ان القدرى هو الذى ينكر قدرة الله تعالى ان قلنا ان النسبة للنفى او الذى يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث ان قلنا ان النسبة للاثبات وحينئذ يقطع بكونه فى ضلال وسعر وانه ذائق مس سقر (البحث الثانى) فى بيان من يدخل فى القدرية التى فى النص ممن هو منتسب الى انه من امة محمد صلى الله عليه وسلم ان قلنا القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذى يقول لاقدرة لله على تحريك العبد بحركة هى الصلاة وحركة هى الزنا مع ان ذلك امر ممكن لايبعد دخوله فيهم واما الذى يقول بأن الله قادر غير انه لم يجبره وتركه مع داعية العبد كالوالد الذى يجرب الصبى فى حمل شئ تركه معه لا للعجز الوالد بل للابتلاء والامتحان لا كالمفلوج الذى لاقوة له اذا قال لغيره احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهرا وان كان مخطئا وان قلنا ان القدرية سموا بهذا الاسم لاثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب والجبرى الذى قال هو الحائط الساقط الذى لايجوز تكليفه بشئ لصدور الفعل من غيره وهم اهل الاباحة فلاشك فى دخوله فى القدرية فانه يكفر بنفيه التكليف واما الذى يقول خلق الله تعالى فينا الافعال وقدرها وكلفنا ولا يسئل عما يفعل فما هو منهم (البحث الثالث) اختلف القائلون فى التعصب ان الاسم بالمعتزلة احق ام بالاشاعرة فقالت المعتزلة الاسم بكم احق لان النسبة تكون للاثبات لا للنفى يقال للدهرى دهرى لقوله بالدهر واثباته وللمباحى اباحى لاثباته الا باحة وللثنوية ثنوية لاثباتهم الاثنين وهما النور والظلمة وكذلك امثاله وانتم تثبتون القدر وقالت الاشاعرة النصوص تدل على ان القدرى من ينفى قدرة الله تعالى ومشركو قريش ما كانوا قدرية الا لاثباتهم قدرة لغير الله فالت المعتزلة انما سمى المشركون قدرية لانهم قالوا ان كان

(قادرا)

قادرا على الحوادث كما تقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء لاطعم الفقير فاعتقدوا ان من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم ان شاء وهذا مذهبكم ايها الاشاعرة والحق الصراح ان كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا الى المذهبين خارج عن القدرية ولا يصير واحد منهم قدريا الا اذا صار النافى نافيا للقدرة والمثبت منكرا للتكليف (المسئلة الثانية) المجرمون هم المشركون ههنا كما فى قوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم وقوله يود المجرم لو يفتدى وفى قوله يعرف المجرمون بسيماهم فالآية عامة وان نزلت فى قوم خاص وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالاشراك وانكار الحشر وانكار قدرة الله تعالى على الاحياء بعد الاماتة وعلى غيره من الحوادث (المسئلة الثالثة) فى ضلال وسعر يحتمل وجوها ثلاثة (احدها) الجمع بين الامرين فى الدنيا اى هم فى الدنيا فى ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون وعلى هذا قوله يسحبون بيان حالهم فى تلك الصورة وهو اقرب (ثانيها) الجمع فى الآخرة اى هم فى ضلال الآخرة وسعر أيضا اما السعر فكونهم فيها ظاهر واما الضلال فلا يجدون الى مقصدهم او الى ما يصلح مقصدا وهم متحيرون سبيلا فان قيل الصحيح هو الوجه الاخير لا غير لان قوله تعالى يوم يسحبون ظرف القول اى يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا وسنبين ذلك فنقول يوم يسحبون يحتمل ان يكون منصوبا بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور والاحتمال الاول له وجهان (احدهما) العامل سابق وهو معنى كائن ومستقر غير ان ذلك صار نسيا منسيا (ثانيهما) العامل متأخر وهو قوله ذوقوا تقديره ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله أكفاركم خير من اولئكم ام لكم براءة (والاحتمال الثانى) ان المفهوم هو أن يقال لهم يوم يسحبون ذوقوا وهذا هو المشهور وقوله تعالى ذوقوا استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الادراكات فان المذوق اذا لاقى اللسان يدرك ايضا حرارته وبرودته وخشونته وملاسته كما يدرك سائر اعضائه الحسية ويدرك ايضا طعمه ولا يدركه غير اللسان فادراك اللسان أتم فاذا تأذى من نار تأذى بحرارته ومرارته ان كان الحار او غيره لا يتأذى الا بحرارته فاذن الذوق ادراك لمسى أتم من غيره فى الملموسات فقال ذوقوا اشارة الى ان ادراكهم بالذوق أتم الادراكات فيجتمع فى العذاب شدته وايلامه بطول مدته ودوامه ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وانما هو على أتم ما يكون من الادراك فيحصل الالم العظيم وقد ذكرنا ان على قول الاكثرين يقال لهم او تقول مضمر وقد ذكرنا انه لا حاجة الى الاضمار اذا كان الخطاب مع غير من قيل فى حقهم ان المجرمين فى ضلال فانه يصير كأنه قال ذوقوا ايها المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم مس سقر يوم يسحب المجرمون المتقدمون فى النار ❊ ثم قال تعالى (انا كل شئ خلقناه بقدر) وفيه مسائل (الاولى) المشهور ان قوله انا كل شئ متعلق بما قبله كأنه قال ذوقوا فانا كل شئ خلقناه بقدر اى هو جزاء لمن انكر ذلك وهو كقوله تعالى ذق انك انت العزيز

(انا كل شئ) من الاشياء (خلقناه بقدر) اى ملتبسا بقدر معين اقتضته الحكمة التى عليها يدور امر التكوين او مقدرا مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه وكل شئ منصوب بفعل يفسره ما بعده وقرئ بالرفع على انه مبتدأ وخلقناه خبره

قوله وجوها ثلاثة سقط الثالث وهو التفريق فقوله فى ضلال اى فى الدنيا وسعر اى نيران فى الآخرة وقوله هو الوجه الاخير فيه انه يناسب الثانى ايضا وبالجملة فالعبارة تحتاج لتحرير

الكريم والظاهر انه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله ذو قوا مس سقر ثم ذكر بيان العذاب لان عطف وما امرنا الا واحدة يدل على ان قوله انا كل شئ خلقناه بقدر ليس آخر الكلام ويدل عليه قوله تعالى ألا له الخلق والامر وقد ذكر فى الآية الاولى الخلق بقوله انا كل شئ خلقناه فيكون من اللائق ان يذكر الامر فقال وما امرنا الا واحدة واما ماذكر من الجدل فنقول النبى صلى الله عليه وسلم تمسك عليهم بقوله ان المجرمين فى ضلال الى قوله ذوقوا مس سقر وتلا آية أخرى على قصد التلاوة ولم يقرأ الآية الاخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية كما تقول فى الاستدلالات لاتأكلوا اموالكم الآية ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه الآية واذا ابتدأ بتمام الآية الى غير ذلك (المسئلة الثانية) كل قرئ بالنصب وهو الاصح المشهور وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه وقوله والظالمين اعدلهم وذلك الفعل هو خلقناه وقد فسره قوله خلقناه كأنه قال انا خلقنا كل شئ بقدر وخلقناه على هذا لايكون صفة لشئ كما فى قوله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين غير ان هناك يمنع من ان يكون صفة كونه خاليا عن ضمير عائد الى الموصوف وههنا لم يوجد ذلك المانع وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لان افعالنا شئ فتكون داخلة فى كل شئ فتكون مخلوقة لله تعالى ومن قرأ بالرفع لم يمكنه ان يقول كما يقول فى قوله واما ثمود فهديناهم حيث قرئ بالرفع لان كل شئ نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه ان يقول كل شئ خلقناه فهو بقدر كقوله تعالى وكل شئ عنده بمقدار فى المعنى وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية فى تفسيره وذكر أن المعتزلى يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال القراءة الاولى وهو النصب له وجه آخر وهو أن يقال نصبه بفعل معلوم لابمضمر مفسر وهو قدرنا او خلقنا كأنه قال انا خلقنا كل شئ خلقناه بقدر اوقدرنا كل شئ خلقناه بقدر وانما قلنا انه معلوم لان قوله ذلكم الله ربكم خالق شئ دل عليه وقوله وكل شئ عنده بمقدار دل على انه قدر وحينئذ لايكون فى الآية دلالة على بطلان قول المعتزلى وانما يدل على بطلان قوله الله خالق كل شئ واما على القراءة الثانية وهى الرفع فنقول جاز أن يكون كل شئ مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بأبلغ وجه وقوله كل شئ نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لان قوله كل شئ عم الاشياء كلها باسرها فليس فيه المحذور الذى فى قولنا رجل قائم لانه لايفيد فائدة ظاهرة وقوله كل شئ يفيد مايفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة ولهذا جوزوا ما احد خير منك لانه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل احد خير منك حيث لم يفد العموم (المسئلة الثالثة) مامعنى القدر قلنا فيه وجوه (احدها) المقدار كما قال تعالى وكل شئ عنده بمقدار وعلى هذا فكل شئ مقدر فى ذاته وفى صفاته اما المقدر فى الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد واما الجوهر الفرد مالامقدار له والقائم بالجوهر مالامقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل وغيرهما فنقول ههنا

(مقادير)

مقادير لابمعنى الامتداد اما الجوهر الفرد فان الاثنين منه اصغر من الثلاثة ولولا انه جما يزداد به الامتداد والا لما حصل دون الامتداد فيه واما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية فقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية واما الصفة فلان لكل شئ ابتدئ زمانا فله مقدار فى البقاء لكون كل شئ حادثا فان قيل الله تعالى وصف به ولا مقدار له ولا ابتداء او جوده نقول المتكلم اذا كان موصوفا بصفة او مسمى باسم ثم ذكر الاشياء المسماة بذلك الاسم او الاشياء الموصوفة بتلك الصفة واسند فعلا من افعاله اليه يخرج هو عنه كما يقول القائل رأيت جيع من فى هذا البيت فرأيتهم كلهم اكرمنى ويقول ما فى هذا البيت احد الا وضربنى وضربته يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم بل بما فى التركيب من الدليل على خروجه عن الارادة فكذلك قوله خلقناه وخالق كل شئ يخرج عنه لا بطريق التخصيص بل بطريق الحقيقة اذا قلنا ان التركيب وضعى فان هذا التركيب لم يوضع حينئذ الا لغير المتكلم (ثانيها) القدر التقدير قال الله تعالى فقدرنا فنعم القادرون وقال الشاعر * وقد قدر الرحمن ما هو قادر * اى قدر ما هو مقدر وعلى هذا فالمعنى ان الله تعالى لم يخلق شيئا من غير تقدير كما يرمى الرامى السهم فيقع فى موضع لم يكن قد قدره بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة انه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل فالذى جاء قصيرا او صغيرا فلاستعداد مادته والذى جاء طويلا او كبيرا فلاستعداد آخر فقال تعالى كل شئ خلقناه بقدر منا فالصغير جاز ان يكون كبيرا والكبير جاز خلقه صغيرا (ثالثها) بقدر هو ما يقال مع القضاء يقال بقضاء الله وقدره وقالت الفلاسفة فى القدر الذى مع القضاء ان ما يقصد اليه فقضاء وما يلزمه فقدر فيقولون خلق النار حارة بقضاء وهو مقضى به لانها ينبغى ان تكون كذلك لكن من لوازمها انها اذا تعلقت بقطن عجوز او وقعت فى قصب صعلوك تحرقه فهو بقدر لا بقضاء وهو كلام فاسد بل القضاء ما فى العلم والقدر ما فى الارادة فقوله كل شئ خلقناه بقدر أى بقدره مع ارادته لا على ما يقولون انه موجب ردا على المشركين ❊ ثم قال تعالى (وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر) اى الا كلمة واحدة وهو قوله له كن هذا هو المشهور الظاهر وعلى هذا فالله اذا اراد شيئا قال له كن فهناك شيآن الارادة والقول فالارادة قدر والقول قضاء وقوله واحدة يحتمل امرين (احدهما) بيان انه لا حاجة الى تكرير القول اشارة الى نفاذ الامر (ثانيهما) بيان عدم اختلاف الحال فامره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النمل الصغير فامره عند الكل واحد وقوله كلمح بالبصر تشبيه الكون لا تشبيه الامر فكأنه قال امرنا واحدة فاذن المامور كائن كلمح بالبصر لانه لو كان راجعا الى الامر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به فان كلمة كن شئ ايضا يوجد كلمح بالبصر هذا هو التفسير الظاهر المشهور وفيه وجه ظاهر ذهب اليه الحكماء وهى ان مقدورات الله تعالى هى الممكنات يوجدها بقدرته وفى عدمها خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره ثم ان الممكنات التى

(وما امرنا الا واحدة) اى كلمة واحدة سريعة التكوين وهو قوله تعالى كن او الا فعلة واحدة هو الايجاد بلا معالجة (كلمح بالبصر) فى اليسر والسرعة وقيل معناه قوله تعالى وما امر الساعة الا كلمح البصر

يوجدها الله تعالى قسمان (احدهما) امورلها اجزاء ملتئمة عندالتئامها يتم وجودها كالانسان والحيوان والاجسام النباتية والمعدنية وكذلك الاركان الاربعة والسموات وسائر الاجسام وسائر مايقوم بالاجسام من الاعراض فهى كلها مقدرة له وحوادث فان اجزاءها توجداولا ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها ففيها تقديرات نظرا الى الاجزاء والتركيب والاعراض (وثانيهما) امورليس لها اجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية وهى الارواح الشريفة المنورة للاجسام وقدائبتها جميع الفلاسفة الاقليلا منهم ووافقهم جمع من المتكلمين وقطع بها كثير ممن له قلب من اصحاب الرياضات وارباب المجاهدات فتلك الامور وجودها واحد ليس يوجد اولا اجزاء وثانيا تتحقق تلك الاجزاء بخلاف الاجسام والاعراض القائمة بها اذاعرفت هذا قالوا الاجسام خلقية قدرية والارواح ابداعية امرية وقالوا اليه الاشارة بقوله تعالى الاله الخلق والامر فالخلق فى الاجسام والامر فى الارواح ثم قالوا لاينبغى ان يظن بهذا الكلام انه على خلاف الاخبار فانه صلى الله عليه وسلم قال اول ماخلق الله العقل وروى عنه عليه السلام انه قال خلق الله الارواح قبل الاجسام بالفى عام وقال تعالى الله خالق كل شئ فالخلق اطلق على ايجاد الارواح والعقل لان اطلاق الخلق على مايطلق عليه الامر جائز وان العالم بالكلية حادث واطلاق الخلق بمعنى الاحداث جائز وان كان فى حقيقة الخلق تقدير فى اصل اللغة ولا كذلك فى الاحداث ولولا الفرق بين العبارتين والالاستقبح الفلسفى من ان يقول المخلوق قديم كما يستقبح من ان يقول المحدث قديم فاذن قوله صلى الله عليه وسلم خلق الله الارواح بمعنى احدثها بامره وفى هذا الاطلاق فائدة عظيمة وهى انه صلى الله عليه وسلم لوغير العبارة وقال فى الارواح انها موجودة بالامر والاجسام بالخلق لظن الذى لم يرزقه الله العلم الكثير ان الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بمحدثة فكان يضل والنبى صلى الله عليه وسلم بعث رحمة وقالوا اذانظرت الى قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى والى قوله تعالى خلق السموات والارض فى ستة ايام والى قوله تعالى خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما تجد التفاوت بين الامر والخلق والارواح والاشباح حيث جعل الخلق بعض الاجسام زمانا ممتدا هوستة ايام وجعل لبعضها تراخيا وترتيبا بقوله ثم خلقنا وبقوله فخلقنا ولم يجعل للروح ذلك ثم قالوا ينبغى ان لايظن بقولنا هذا ان الاجسام لابدلها من زمان ممتد وايام حتى يوجدها الله تعالى فيه بل الله مختار ان اراد خلق السموات والارض والانسان والدواب والشجر والنبات فى اسرع من لمح البصر لخلقها كذلك ولكن مع هذا لاتخرج عن كونها موجودات حصلت لها اجزاء ووجود اجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الاجزاء والتركيب فيها فهى ستة ثلاثة فى ثلثة كما يخلق الله الكسر والانكسار فى زمان واحد ولهما ترتيب عقلى فالجسم اذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير ووجودات

(كلها)

كلها بايجاد الله على الترتيب والروح لها وجود واحد بايجاد الله تعالى هذا قولهم ولنذكر ما في الخلق والامر من الوجوه المنقولة والمعقولة (احدها) ماذكرنا ان الامر هو كلمة كن والخلق هو ما بالقدرة والارادة (ثانيها) ماذكروا في الاجسام ان منها الارواح (ثالثها) هو ان الله له قدرة بها الايجاد وارادة بها التخصيص وذلك لان المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالارادة فالذي بقدرته خلق والذي بالارادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول اما المنقول فقوله تعالى اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون جعل كن لتعلق الارادة واعلم ان المراد من كن ليس هو الحرف والكلمة التي من الكاف والنون لان الحصول أسرع من كلمة كن اذا حملتها على حقيقة اللفظ فان الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد الاعلى الترتيب ففي كن لفظ زمان والكون بعده بدليل قوله تعالى فيكون بالفاء فاذن لو كان المراد بكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول بعده بزمان وليس كذلك فان قال قائل يمكن أن يوجد الحرفان معا وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج الى الزمان قلنا قد جعل له معنى غير ما نفهمه من اللفظ واما المعقول فلان الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وان كان بعض الناس ذهب الى أن الخلق والايجاد لحكمة وقال بان الله خلق الارض لتكون مقر الناس او مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول خلق الارض في الزمان المخصوص لتكون مقرا لهم لانه لو خلقها في غير ذلك لكانت ايضا مقرا لهم فاذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه امر الملك الجبار الذي يأمر ولا يقال له لم امرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر الا منه (رابعها) هو ان الاشياء المخلوقة لا تنفك عن اوصاف ثلاثة او عن وصفين متقابلين مثاله الجسم لا بد له بعد خلقه ان يكون متحيزا ولا بد له من ان يكون ساكنا او متحركا فايجاده او لا بخلقه وما هو عليه بأمره يدل عليه قوله تعالى ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة ايام الى ان قال مسخرات بأمره فجعل مالها بعد خلقها من الحركة والسكون وغيرهما بأمره ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم اول ما خلق الله تعالى العقل فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر جعل الخلق في الحقيقة والامر في الوصف وكذلك قوله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم قال يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره وقد ذكرنا تفسيره (خامسها) مخلوقات الله تعالى على قسمين (احدهما) خلقه الله تعالى في اسرع ما يكون كالعقل وغيره (وثانيهما) خلقه بمهلة كالسموات والانسان والحيوان والنبات فالمخلوق سريعا اطلق عليه الامر والمخلوق بمهلة اطلق عليه الخلق وهذا مثل الوجه الثاني (سادسها) ماقاله فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها هو ان الخلق هو التقدير والايجاد بعده بعدية ترتيبية لا زمانية ففي علم الله تعالى ان السموات تكون سبع سموات في يومين

تقديرية فهو قدر خلقه كما علم وهو ايجاد فالاول خلق والثانى وهو الايجاد أمر وأخذ هذا من المفهوم اللغوى قال الشاعر * وبعض الناس يخلق ثم لايفرى * اى يقدر ولايقطع ولايفصل كالخياط الذى يقدر اولا ويقطع ثانيا وهو قريب الى اللغة لكنه بعيد الاستعمال فى القرآن لان الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الايجاد منه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق ومنه قوله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة وليس المراد انا قدرنا انه سيوجد منها الى غير ذلك (سابعها) الخلق هو الايجاد ابتداء والامر هو ما به الاعادة فان الله خلق الخلق اولا بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم فى أسرع من لحظة فيكون قوله وما أمرنا الا واحدة كقوله تعالى فانما هى زجرة واحدة وقوله صيحة واحدة ونفخة واحدة وعلى هذا فقوله انا كل شئ خلقناه بقدر اشارة الى الوحدانية وقوله تعالى وما امرنا الا واحدة اشارة الى الحشر فكأنه بين الاصل الاول والاصل الآخر بالآيات (ثامنها) الايجاد خلق والاعدام أمر يعنى يقول للملائكة الغلاظ الشداد اهلكوا وافعلوا فلا يعصون الله ما امرهم ولا يوقفون الامتثال على اعادة الامر مرة اخرى فامره مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك (وفيه لطيفة) وهى ان الله تعالى جعل الايجاد الذى هو من الرحمة بيده والاهلاك يسلط عليه رسله وملائكته وجعل الموت بيد ملك الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك وهذا مناسب لهذا الموضع لانه بين النعمة بقوله انا كل شئ خلقناه بقدر وبين قدرته على النقمة فقال وما امرنا الا واحدة وانا على ذهاب به لقادرون وهو كقوله اذا جاء امرنا وفار التنور عند العذاب وقوله تعالى فلما جاء امرنا نجينا صالحا وقوله تعالى فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وكما ذكر فى هذه الحكايات العذاب بلفظ الامر وبين الاهلاك به كذلك ههنا ولاسيما اذا نظرت الى ما تقدم من الحكايات وجدتها عين تلك الحكايات يقوى هذا القول وكذلك قوله تعالى ولقد اهلكنا اشياعكم فهل من مدكر يدل على صحة هذا القول (تاسعها) فى معنى اللمح بالبصر وجهان (احدهما) النظر بالعين يقال لمحته ببصرى كما يقال نظرت اليه بعينى والباء حينئذ كما يذكر فى الآلات فيقال كتبت بالقلم واختار هذا المثال لان النظر بالعين اسرع حركة توجد فى الانسان لان العين وجدفيها امور تعين على سرعة الحركة (احدها) قرب المحرك منها فان المحرك العصبية ومنبتها الدماغ والعين فى غاية القرب منه (ثانيها) صغر حجمها فانها لاتعصى على المحرك ولاتثقل عليه بخلاف العظام (ثالثها) استدارة شكلها فان دحرجة الكرة اسهل من دحرجة المربع والمثلث (رابعها) كونها فى رطوبة مخلوقة فى العضو الذى هو موضعها وهذه الحكمة فى ان المرئيات فى غاية الكثرة بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التى تقصد بالارجل والمذوقات فلولا سرعة حركة الآلة التى بها ادراك المبصرات لما وصل الى الكل الا بعد طول زمان (وثانيهما) اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعا والباء حينئذ للالصاق لا للاستعانة كقوله

(مررت)

مررت به وذلك فى غاية السرعة وقوله بالبصر فيه فائدة وهى غاية السرعة فانه او قال كلمح البرق حين برق ويبتدئ حركته من مكان وينتهى الى مكان آخر فى اقل زمان يفرض لصح لكن مع هذا فالقدر الذى مروره يكون بالبصر اقل من الذى يكون من مبتداه الى منتهاه فقال كلمح لا كما قيل من المبدأ الى المنتهى بل القدر الذى يمر بالبصر وهو فى غاية القلة ونهاية السرعة ✻ ثم قال تعالى (ولقد اهلكنا اشياعكم فهل من مدكر) والاشياع الاشكال وقد ذكرنا ان هذا يدل على ان قوله وما امرنا الا واحدة تهديد بالاهلاك والثانى ظاهر ✻ وقوله تعالى (وكل شئ فعلوه فى الزبر) اشارة الى ان الامر غير مقتصر على اهلاكهم بل الاهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذى هو معد لهم على مافعلوه مكتوب عليهم والزبر هى كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم كلا بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وفعلوه صفة شئ والنكرة توصف بالجمل ✻ وقوله تعالى (وكل صغير وكبير مستطر) تعميم للحكم اى ليست الكتابة مقتصرة على مافعلوه بل مافعله غيرهم ايضا مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة وقد ذكرنا فى قوله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب ان فى قوله اكبر فائدة عظيمة وهى ان من يكتب حساب انسان فانما يكتبه فى غالب الامر لئلا ينسى فاذا جاءه الجملة العظيمة التى يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتبة ما يخاف نسيانه فلما قال ولا اكبر من ذلك اشار الى الامور العظام التى يؤمن من نسيانها انها مكتوبة اى ليست كتابتنا مثل كتابتكم التى يكون المقصود منها الامن من النسيان فكذلك نقول ههنا وفى قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها وفى جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لانها اليق بالثبت عند الكتابة فيبتدئ بها حفظا عن النسيان فى عادة الخلق فاجرى الله الذكر على عادتهم وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل ان كلا وان كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الابهام ✻ ثم قال تعالى (ان المتقين فى جنات ونهر) قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات فى سور منها الطور واما النهر ففيه قراآت فتح النون والهاء كحجر وهو اسم جنس ويقوم مقام الانهار وهذا هو الظاهر الاصح ✻ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لاشك ان كمال اللذة بالبستان ان يكون الانسان فيه وليس من اللذة بالنهر ان يكون الانسان فيه بل لذته بأن يكون فى الجنة عند النهر فما معنى قوله تعالى ونهر نقول قد اجبنا عن هذا فى تفسير قوله تعالى ان المتقين فى جنات وعيون فى سورة الذاريات وقلنا المراد فى خلال العيون وفيما بينها من المكان وكذلك فى جنات لان الجنة هى الاشجار التى تستر شعاع الشمس ولهذا قال تعالى فى ظلال وعيون واذا كانت الجنة هى الاشجار الساترة فالانسان لا يكون فى الاشجار وانما يكون بينها او فى خلالها فكذلك النهر (ونزيدهم ههنا وجها آخر) وهو ان المراد فى جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن اطلاق اللفظ الذى لا يحسن اطلاقه عند عدم المجاورة كما قال

(ولقد اهلكنا اشياعكم) اى اشباهكم فى الكفر من الامم وقبل اتباعكم (فهل من مدكر) يتعظ بذلك (وكل شئ فعلوه) من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل (فى الزبر) اى فى ديوان الحفظة (وكل صغير وكبير) من الاعمال (مستطر) مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ولما كان سوء حال الكفرة بقوله تعالى ان المجرمين الخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين مالهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقيل (ان المتقين) اى من الكفر والمعاصى (جنات) عظيمة الشان (ونهر) اى انهار كذلك والافراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل وقرئ نهر جمع نهر كاسد واسد

علفتها تبنا وماء باردا وقالوا تقلدت سيفا ورمحا والماء لايعلف والرمح لايتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الاطلاق فكذلك هنا لم يأت في الثاني بما اتى به في الاول من كلمة في (المسئلة الثانية) وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الانهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى تجري من تحتها الانهار الى غيره من المواضع فما الحكمة فيه نقول اما على الجواب الاول فنقول لما بين ان معنى في نهر في خلال فلم يكن للسامع حاجة الى سماع الانهار لعلمه بان النهر الواحد لايكون له خلال واما في قوله تعالى تجري من تحتها الانهار فلو لم يجمع الانهار لجاز ان يفهم ان في الجنات كلها نهرا واحدا كما في الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار في جنات كثيرة واما على الثاني فنقول الانسان يكون في جنات لانا بينا ان الجمع في جنات اشارة الى سعتها وكثرة اشجارها وتنوعها والتوحيد عند ما قال مثل الجنة وقال ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة لاتصال اشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها واذا علمت هذا فالانسان في الدنيا اذا كان في بيت في دار وتلك الدار في محلة وتلك المحلة في مدينة يقال انه في بلدة كذا واما القرب فاذا كان الانسان في الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال انه جالس عند نهرين فاذا قرب من احدهما يقال هو عند احد النهرين دون الآخر لكن في دار الدنيا لايمكن ان يكون عند ثلاثة انهار وانما يمكن ان يكون عند نهرين والثالث منه ابعد من النهرين فهو في الحقيقة ليس يكون في زمان واحد عند انهار والله تعالى يذكر امر الآخرة على مانفهمه في الدنيا فقال عند نهر لما بينا ان قوله ونهر وان كان يقتضي في نهر لكن ذلك للمجاورة كما في تقلدت سيفا ورمحا واما قوله تجري من تحتها الانهار فحقيقته مفهومة عندنا لان الجنة الواحدة قد يجري فيها انهار كثيرة اكثر من ثلاثة واربعة فهذا مافيه مع ان أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ويحتمل ان يقال ونهر التنكير للتعظيم وفي الجنة نهر وهو اعظم الانهر واحسنها وهو الذي من الكوثر ومن عين الرضوان وكان الحصول عنده شرفا وغبطة وكل احد يكون له مقعد عنده وسائر الانهار تجري في الجنة ويراها اهلها ولا يرون القاعد عندها فقال في جنات ونهر اى ذلك النهر الذي عنده مقاعد المؤمنين وفي قوله تعالى ان الله مبتليكم بنهر لكونه غير معلوم لهم وفي هذا وجه حسن ايضا ولا يحتاج على الوجهين ان نقول نهر في معنى الجمع لكونه اسم جنس (المسئلة الثالثة) قال ههنا في نهر وقال في الذاريات وعيون فما الفرق بينهما نقول انا ان قلنا في نهر معناه في خلال فالانسان يمكن ان يكون في الدنيا في خلال عيون كثيرة تحيط به اذا كان على موضع مرتفع من الارض والعيون تنفجر منه وتجري فتصير انهارا عند الامتداد ولا يمكن ان يكون في خلال انهار وانما هي نهران فحسب واما ان قلنا ان المراد عند نهر فكذلك وان قلنا نهر اى عظيم عليه مقاعد فنقول يكون ذلك النهر ممتدا واصلا الى كل واحد وله عند مقعده عيون كثيرة تابعة فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه

مع ان النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها وهذا كله مع النظر الى اواخر الآيات ههنا وهناك يحسن ذكر لفظ الواحد ههنا والجمع هناك (المسئلة الرابعة) قرئ في جنات ونهر على انها جمع نهار اذ لا ليل هناك وعلى هذا فكلمة في حقيقة فيه فقوله في جنات ظرف مكان وقوله ونهر اي وفي نهر اشارة الى ظرف زمان وقرئ ونهر بسكون الهاء وضم النون على انه جمع نهر كاسد في جمع اسد نقله الزمخشري ويحتمل ان يقال نهر بضم الهاء جمع نهر كثمر في جمع ثمر ❋ ثم قال تعالى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في مقعد صدق كيف مخرجه نقول يحتمل وجهين (احدهما) ان يكون على صورة بدل كما يقول القائل فلان في بلدة كذا في دار كذا وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعا مختارا له مزية على ما في الجنات من المواضع وعلى هذا قوله عند مليك لانا بينا في احد الوجوه ان المراد من قوله في جنات ونهر في جنات عند نهر فقال في مقعد صدق عند مليك مقتدر ويحتمل ان يقال عند مليك صفة مقعد صدق تقول درهم في ذمة ملىء خير من دينار في ذمة معسر وقليل عند امين افضل من كثير عند خائن فيكون صفة والا لما حسن جعله مبتدأ (ثانيهما) ان يكون في مقعد صدق كالصفة لجنات ونهر اي في جنات ونهر موصوفين بانهما في مقعد صدق تقول وقفة في سبيل الله افضل من كذا وعند مليك صفة بعد صفة (المسئلة الثانية) قوله في مقعد صدق يدل على لبث لا يدل عليه المجلس وذلك لان قعد وجلس ليسا على ما يظن انهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر الا للبارع والفرق هو ان القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء ويدل عليه وجوه (الاول) هو ان الزمن يسمى مقعدا ولا يسمى مجلسا لطول المكث حقيقة ومنه سمي قواعد البيت والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل فذكر القواعد في الموضعين لكونه مستقرا بين الدوام والثبات على حالة واحدة ويقال للمركوب من الابل قعود لدوام اقتعاده اقتضاء وان لم يكن حقيقة فهو لصونه عن الحمل واتخاذه للركوب كأنه وجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد للاجلاس (الثاني) النظر الى تقاليب الحروف فانك اذا نظرت الى ق ع د وقلبتها تجد معنى المكث في الكل فاذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت واذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث في غاية الظهور وفي عدق خفاء يقال اعدق بيدك الدلو في البئر اذا امره بطلبه بعد وقوعه فيها والعودقة خشبة عليها كلاب يخرج معه الدلو الواقع في البئر واذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق والمكث في الدقع ظاهر والدقعاء هي التراب الملتصق بالارض والفقر المدقع هو الذي يلصق صاحبه بالتراب وفي دعق ايضا اذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صلبا اجزاؤه متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شيء منها عن موضعه (الوجه الثالث) الاستعمالات في القعود اذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا قال

(في مقعد صدق) في مكان مرضى وقرئ في مقاعد صدق (عند مليك مقتدر) اي مقربين عند مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شيء الا وهو تحت ملكوته سبحانه ما اعظم شانه ❋ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر في كل غب بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر

تعالى لايستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر والمراد الذى لايكون بعده اتباع
وقال تعالى مقاعد للقتال مع انه تعالى قال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم
بنيان مرصوص فاشار الى الثبات العظيم وقال تعالى اذا لقيتم فئة فاثبتوا فالمقاعد اذن
هى المواضع التى يكون فيها المقاتل بثبات ومكث واطلاق مقعدة على العضو الذى عليه
القعود ايضا يدل عليه اذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس والقعود حصل لك فوائد منها ههنا
فانه يدل على دوام المكث وطول اللبث ومنها فى قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد فان
القعيد بمعنى الجليس والنديم ثم اذا عرف هذا وقيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة فى
اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع ان الجليس اشهر يكون جوابهم ان آخر الآيات
من قوله حبل الوريد ولدى عتيد وقوله بجبار عتيد يناسب القعيد ولا يناسب الجليس
واعجاز القرآن ليس فى السجع واذا نظرت الى ماذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية فى
وضع اللفظ المناسب لان القعيد دل على انهما لايفارقانه ويداومان الجلوس معه وهذا
هو المعجز وذلك لان الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى
تبعا للفظ والله تعالى بين الحكمة على ماينبغى وجاء باللفظ على احسن ماينبغى وفائدة اخرى
فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس فافسحوا يفسح الله لكم
واذا قيل انشزوا فانشزوا فان قوله فافسحوا اشارة الى الحركة وقوله فانشزوا اشارة الى
ترك الجلوس فذكر المجلس اشارة الى ان ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس
بمقعد حتى لايفارقونه (المسئلة الثالثة) فى مقعد صدق وجهان (احدهما) مقعد صدق
اى صالح يقال رجل صدق للصالح ورجل سوء للفاسد وقد ذكرناه فى سورة انا فتحنا فى
قوله تعالى وظننتم ظن السوء (وثانيهما) الصدق المراد منه ضد الكذب وعلى هذا
ففيه وجهان (الاول) مقعد صدق من اخبر عنه وهو الله ورسوله (الثانى) مقعد ناله من
صدق فقال بان الله واحد وان محمدا رسوله ويحتمل ان يقال المراد انه مقعد لايوجد فيه
كذب لان الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب ومن وصل اليه امتنع عليه الكذب
لان مظنة الكذب الجهل والواصل اليه يعلم الاشياء كما هى ويستغنى بفضل الله عن ان
يكذب ليستفيد بكذبه شيئا فهو مقعد صدق وكلمة عند قد عرفت معناها والمراد منه قرب
المنزلة والشان لاقرب المعنى والمكان وقوله تعالى مليك مقتدر لان القربة من الملوك لذيذة
كلما كان الملك اشد اقتدارا كان المتقرب منه اشد التذاذا وفيه اشارة الى مخالفة معنى
القرب منه من معنى القرب من الملوك فان الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن
يرهبونه مخافة ان يعصوا عليه ويتحازوا الى عدوه فيغلبونه والله تعالى قال مقتدر لايقرب
احدا الا بفضله والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه

(تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن اوله سورة الرحمن)

Library of

Dei Sub Numine Viget

Princeton University.

Princeton University Library
32101 047149693